جامعة القيروان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالقيروان
قسم علم الآثار

القيروان و جهتها

إكتشافات جديدة ،مقاربات جديدة

نصوص جمعها
أحمد الباهي



القيروان وجهتها

اكتشافات جديدة، مقاربات جديدة

جامعة القيروان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان

قسم علم الآثار

الندوة العلمية الدولية الثانية

القيروان وجهتها

اكتشافات جديدة، مقاربات جديدة

القيروان: 6- 8 مارس 2006

نصوص جمعها

أحمد الباهي

مسكيلياني للنشر

المؤلّف: جماعيّ

الكتاب: القيروان وجهتها

الناشر: كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان

مسكيلياني للنشر والتوزيع

شارع 9 أفريل بئر المشارقة 1141 زغوان - تونس

الهاتف: 79328731 (216+) أو 546 560 20(216+)

البريد الإلكتروني: anizos55555@yahoo.fr

تصميم الغلاف: عادل التليلي

الإخراج الفني والتصميم الداخلي: شوقي العنيزي

الطبعة الأولى: 2009

فهرس المحتويات

القسم العربي

القسم الفرنسي

تصدير

محمد الصحبي العلاني
عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان

للقيروان في قديم المصادرِ وعريقِها، وفي مُحْدَثِ الدراسات ومُعاصِرِها حضورٌ لافتٌ لا يحتاجُ إلى برهان ولا إلى إفاضةٍ أو بيان. فقد حظيت حاضرةُ الإسلام الأولى في المغرب وشمال إفريقيا بكمٍّ هائلٍ من البحوث يُعطي الانطباعَ بأنّ كلَّ ما يُمكن أن يُقالَ بشأنها قد قِيلَ فعْلاً حتّى لا مجالَ للمزيد، ولا أَمَلَ في جديد.

ولكنّنا بمجرّد فراغنا من قراءة هذا الكتاب بقِسْمَيْه العربيِّ والفرنسيِّ وجَدنا أنفسَنا مُجبرينَ على مُراجعة عديد الأحكام. فالقيروانُ - مدينةً و جهَةً - تمثِّلُ حقًّا مجالَ درسٍ لا ينضَب، ومعينًا لا يُجْدِب. وإنَّ ما يمكن أن يُكتَبَ فيها وفي حضارتِها ومعمارِها وآثارِها وعادات أهلِها وموروثهم الماديِّ واللاّماديِّ لَيَتَخَطَّى حدودَ الحصر. وذلك ما أمكن لزملائنا الآثاريّين أن يُقيموا البرهانَ عليه من خلال أبحاثهم الميدانيّة ونظراتهم المُتجدِّدَة في قديم المسائل التي ظنَنَّا إلى حينٍ أنّها واضحةٌ محسومَة إلى أن أوقفَنا فَحْصُهُم لها على طريف الآراء مُحْدَثِ النتائج.

ولا نظنُّ أنفسَنا مُغالينَ في شيءٍ حين نُعْلِنُ - بعد الاطلاع على الأعمال التي يضمّها هذا الكتاب- بأنَّ تحت كُلِّ حَجَرٍ من أحجار القيروان ما يدعو إلى التنقيب والتحقيق، وأنّ خلف كلّ لَوْحٍ من ألواح مساجدها ودُورِها أثرًا حريًّا بالمُساءَلة والتدقيق، وأنّ في كلِّ شاهد من شواهد قبورها ما يدعو إلى القول الرفيق. فالقيروان بمعالمها وأعلامها تظلُّ حريّةً بالمزيد، جديرةً بكُلِّ قولٍ جديد.

فإلى جميع من جَدَّدوا بأعمالهم في القيروان المقالة، وإلى كُلّ من أسهمَ في إخراج هذا الكتاب وأتاح ذيوعَه بين الناس وانتشاره، يتّجهُ شُكرُنا الخالص وامتنانُنا العميق ونخصّ بالذكر زملاءنا وزميلاتنا من قسم علم الآثار في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، هذا القسم الذي بدأ كبيرًا ولا شكَّ أنّهُ سيَكْبُرُ قُدُمًا مستمدًّا قيمة ما أنجزَهُ وما سيُنجزُه من إيمان أساتذَته به ومن حرصهم على أن يكون منارَةً شأنُهُ في ذلك شأنُ القيروان التي أرادَ لها مؤسّسوها أن تكونَ حاضرةً فكانت، خالدَةً فخَلَدت. وعلى مثل هذا فلْيَتنافس المتنافسون ولْيَعْمَل العاملون.

تقديم الندوة

أحمد الباهي
مدير قسم علم الآثار

ننشر في هذا الكتاب أعمال الندوة العلمية الدولية الثانية التي نظّمها قسم علم الآثار بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان أيام 6-7-8 مارس 2006 والتي انعقدت بمناسبة احتفال الكلية بعشرينيّة تأسيسها (1986-2006).

حرص قسم علم الآثار منذ تأسيسه سنة 2000 على تكريس انفتاح الجامعة على محيطها، وذلك بمحاولة إبراز المخزون التاريخي والأثري لمنطقة القيروان ونشر الوعي بضرورة حمايته وحسن توظيفه، معتمدا في ذلك على كفاءة أساتذته وتجاربهم ومتسلّحا بالفكر النقدي الحر والنزيه؛ فكان اختيار موضوع هذه الندوة : القيروان وجهتها: إكتشافات جديدة، مقاربات جديدة.

قُدّمت في الندوة حوالي 40 مداخلة، ننشر منها أكثر من الثلثين أي 30 مداخلة، إضافة إلى مقال للأستاذ عبد الحميد فنينة حول مدينة العباسيّة. وقد أمّن المداخلات أساتذة وباحثون ينتمون إلى ثلاثة أو أربعة أجيال مختلفة، قدموا من جلّ الجامعات ومراكز البحث بتونس، كما سجّلنا مشاركات من مصر وليبيا والمغرب وإسبانيا وفرنسا.

بذل المشاركون في هذه الندوة جهدا محمودا ومشكورا لتقديم مادة علمية طريفة وموثقة، تم من خلالها عرض أحدث الإكتشافات الأثرية التي أفرزتها عمليات الإستكشاف والإحصاء والحفريات ودراسة اللقى بجهة القيروان، وذلك على امتداد حقب زمنية متباعدة تراوحت بين فترة ما قبل التاريخ وبداية التاريخ المعاصر مرورا بالحضور القديم والوسيط والحديث.

كما اجتهدوا أيضا في تنويع المقاربات التاريخية والأثرية حسب إختصاصهم : من علم الإحاثة والإثنوغرافيا وعلوم النقائش والمسكوكات والخزف والطوبونوميا والجغرافيا التاريخية والإثنو-أركيولوجيا وتاريخ الفن والعمارة والأنتروبولوجيا التاريخية، فلكل المشاركين أصدق عبارات الشكر والتقدير.

ولم يكن لهذه الندوة أن تتم وتنشر أعمالها في أحسن الظروف لولا تضافر جهود أطراف عديدة تحمست لموضوعها وأولها إدارة الكلية التي يرأسها الأستاذ محمد الصحبي العلاني عميد الكلية والأستاذ المختار بوخريص نائب العميد فلهما جزيل الشكر والثناء.

كما نتوجّه بخالص عبارات الامتنان والتقدير إلى اللجنة العلميّة المشرفة على الندوة المتكونة من أساتذة أجلاّء عملوا على ضمان جودة المداخلات، وهم: د. أحمد مشارك، د. عبد اللطيف مرابط، د. فوزي محفوظ ود. مراد الرماح.

ونتوجه بأخلص عبارات الود والاحترام إلى الأستاذة د. منيرة شابوطو الرمادي التي شرّفتنا بمتابعتها الدؤوبة لأشغال الندوة وصياغة تقريرها التأليفي.

ولا يسعنا كذلك إلا أن نتوجه بالشكر لرؤساء الجلسات العلمية التي شملتها الندوة لحنكتهم في إدارة النقاش وهم فضلا عن السادة أعضاء اللجنة العلمية : د. راضي دغفوس، ود. عبد الواحد المكني د. الصادق بن بعزيز، ود. رياض المرابط.

تحية خاصة أخرى نفردها للجنة تنظيم الندوة التي تألّفت من أساتذة في قسم علم الآثار، كرّسوا جهدهم لإنجاح هذا العرس العلمي منذ أن كان مجرّد فكرة وحتى تبلور في شكله الحالي وعلى رأسها الصديق محمد رياض الحمروني وإلى جانبه الزملاء: عادل نجيم، ومحمد على الحبيّب، والصادق بن محمد ومنى طعم الله.

كلمة شكر أخيرة نوجّهها إلى أعزّائنا طلبة قسم علم الآثار الذين تابعوا أشغال الندوة وأثروها بنقاشاتهم وهم يثبتون يوما بعد يوم أنهم جديرون بأن يستأمنوا مستقبلا على كافة مكوّنات التراث المادي واللامادّي لبلادنا الحبيبة.

القيروان في 12 ديسمبر 2007

نص تخليدي جديد من الفترة الصنهاجية بالجامع الأعظم بالقيروان

[7 ربيع الثاني 413 / 10 جوان 1022-25 جمادى الأولى 414 / 15 أوت 1023]

لطفي عبد الجواد
المعهد الوطني للتراث - القيروان

إن الجامع الأعظم بالقيروان بحاجة ماسة إلى إعادة نظر، فأسراره لم يتم استنفاذها بعد بدليل ما تخفيه أسقفه الخشبية، وخاصة في بعض الأماكن المعتمة منها، من كتابات وزخارف مجهولة إلى الآن. ونصنا هذا واحد من عشرات النصوص الأخرى المتفاوتة الثراء التي ستتم دراستها لاحقا.

هذا النص هو عبارة عن شريط كتابي مطلي على ألواح من الخشب مثبتة بواسطة مسامير يمتد تحت الأغربة على كامل الجهتين الشرقية والغربية للبلاطة الطولية السابعة شرق المجاز الأعظم لبيت الصلاة والتي تتعامد مع صفة الأعمدة الأولى لبلاطة القبلة (اللوحة رقم 1). وهذه اللوحات متفاوتة الأطوال ويبلغ عددها 11 لوحة وطولها الجملي 20،26 م وهو طول الجهتين الشرقية والغربية مجمعتين، بينما لا يتجاوز ارتفاعه 23 صم وسمكه 2 صم. وهي تشكو التشقق والتآكل والتسوس في مستويات عدة. ويبدو أن جزءا منها قد اندثر في مستوى أول الشريط ووسطه وآخره. ويمكن التأكد من ذلك من خلال النقص الحاصل في النص في هذه المستويات الثلاثة.

وقد كتب النص في سطر واحد بخط كوفي مزهر ومورق بأحرف صفراء اللون رسم محيطها بخطوط حمراء فوق قاع أخضر داكن اللون يبلغ ارتفاع أعلاها (الألف) 21 صم بينما يصل سمكها إلى 2.8 صم. وتحد هذه الكتابة من الأعلى والأسفل حاشية على شكل مسطرة خطية بيضاء اللون يبلغ سمكها 1 صم. وأما الأطراف الشمالية والجنوبية لكل شريط فهي مزخرفة بواسطة شكل مربع يحتوي زخارف نباتية متشابكة (اريسك)، وتجدر الإشارة إلى الحالة الرديئة التي عليها الكتابة والزخارف إذ أنها مهترئة أحيانا وممحوة أحيانا أخرى (اللوحة رقم 2).

النص : (اللوحتين رقم 3 و4)

الجهة الجنوبية (مفترضة)

1- [بسم الله الرحمن الرحيم]

الجهة الشرقية

1 – مما امر بعمله امير الأمراء شرف الدولة المعز اطال الله بقاه وادام عزه ونعماه على يدي قائد القواد تاج [االدولة القاسم بن محمد بن ابي العرب الكاتب قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذ

الجهة الشمالية (مفترضة)

1 – [ين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم]

الجهة الغربية

1- فانهم غير ملومين فمن ابتغا (هكذا) ورا (هكذا) ذلك فاولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذيلن هم على صلاوتهم (هكذا) يحافظون الئك (هكذا) هم الوارثون الذ(ين) (ير)ثون الفردوس هم فيها خالدون ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه [نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين...؟] (سورة المؤمنون رقم 23، الايات 1-14)

ملاحظات حول لغة النص

- بقاه: كتابة عتيقة (بقاءه)
- ابتغا : كتابة عتيقة (ابتغاء)
- ورا : كتابة عتيقة (وراء)
- صلاوتهم: رسم صلاواتهم / صلواتهم
- ألئك: كتابة عتيقة (أولئك)
- الذ(ين) (ير)ثون : نسيان للياء والنون أو للياء والراء أو تصرف في المجال وذلك بالاختصار في الكتابة واستعمال حرفي النون والراء المسبوقين بالياء والمتشابهين في الرسم لإتمام كلمة "الذين" أو لبداية كلمة "يرثون". هذا الأسلوب لجأ إليه كاتب احد النصوص الرسمية في نقائش بني خراسان بجامع الزيتونة بتونس "بن خراسا(ن) (ر)حمه الله"

التعليق

إن تطابق الأختام المربعة التي تحد طرفي كلا من الشريطين الشرقي والغربي لنصنا مع المساحة التي تم تثبيتهما عليها يجعلاننا نذهب مباشرة إلى القول بأن النقيشة لا تزال في موضعها الأصلي ويحملاننا على الاعتقاد بان ترميم أسقف بيت الصلاة في القرن الماضي قد احترمت إعادة الألواح إلى أماكنها[1]. ولكن البتر المتكرر الحاصل في النص يثير إشكالا في هذا المستوى. فهو أكبر من المساحة غير المكتوبة الموجودة في الجهتين الجنوبية والشمالية. فالنقص الحاصل في وسط النص (فيما بين نهاية الجهة الشرقية للشريط وبداية الجهة الغربية منه) لا يمكن أن تستوعبه الجهة الشمالية وحدها، والملاحظة نفسها صالحة بالنسبة إلى الجهة الجنوبية في علاقتها بتتمة الآية التي تشفع النص، إلا إذا سلمنا بتوقف اختياري - على حساب تمام المعنى - عند "نطفة في قرار مكين". وهذا يعني بالنتيجة غياب البسملة والتصلية من النص ، وهو أمر وارد ولكنه نادر في نقائش التخليد وخاصة الرسمية منها. وتجدر الإشارة إلى وجود نص ثان معاصر لنصنا مثبت في أعلى جدار القبلة في بيت الصلاة يحمل هو الآخر اسمي المعز بن باديس والمشرف على الأشغال يحتوي في صدارته على هاتين الصيغتين (اللوحة رقم 1) ("بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبيين الأخيار وسلم تسليما")[2]. هذا البتر في أول النص وفي وسطه وفي آخره يجعلنا متأكدين من امتداد الشريط على مساحة أكبر من طول مساحته الحالية ويدعونا بالتالي إلى مراجعة مسألة علاقة النص بموضعه.

إضافة إلى ذلك فان الطبيعة الرسمية لهذا النص تستدعي موضعا أقرب إلى المركزية منه إلى التطرف وإلى الإضاءة منه إلى الظلمة. والموضع الحالي عكس ذلك كله ، فقد اجتمعت فيه عوامل العتمة والارتفاع الشديدين مما يجعل قراءته أمرا عسيرا وهو ما يتعارض مع قاعدة الإشهار في مثل هذه النقائش. هذه المعضلة تم تجاوزها بالنسبة إلى الأشرطة الموجودة في أعلى جدار القبلة بوجود نافذتين من الجهتين الغربية والشرقية ربما فتحتا لهذا الغرض وبالتالي يمكن تأريخهما بتاريخ الشريط المذكور أعلاه. والمكان الوحيد من بيت الصلاة الذي تتوفر فيه الإضاءة الكافية والمساحة اللازمة لتمام الشريط الحامل لنصنا يوجد في

---

[1] لا تزال آثار هذه الاشغال ظاهرة وتلاحظ من خلال كثرة اللوحات المبتورة سواء المزخرفة منها أو المكتوبة ومن خلال عدم تجانس العناصر الزخرفية فيما بينها وخاصة في الفواصل الواقعة بين الأغربة. حول امتداد هذه الترميمات أنظر :

MARÇAIS (G.), *Coupoles et plafonds de la Grande Mosquée de Kairouan*, Notes et Document, 8, Vubert, Tunis, Tournier - Paris, 1925, p. 32-35.

[2] تم تأريخ هذا الشريط فيما بين ربيع الثاني 413 / 10 جوان 1022 و25 جمادى الأولى 414 / 15 أوت 1023، أنظر عبد الجواد (لطفي)، "نقيشتين جديدتين بالجامع الكبير بالقيروان"، مجلة افريقية، عدد 20، المعهد الوطني للتراث، 2004، ص 41-49.

مستوى الجدارين الداخليين للبلاطة الرئيسة التي يبلغ طول الجهة الواحدة منها انطلاقا من الباب إلى حدود مربع قبة المحراب 30، 26 م.

وتكمن أهمية هذه النقيشة في اندراجها من ناحية ضمن مدونة تتألف من 4 نقائش رسمية أخرى تحمل اسم المعز بن باديس : شريط كتابي في أعلى الواجهة الداخلية لجدار القبلة المذكورة أعلاه وآخر يتوج المقصورة الخشبية قرب المحراب والمنبر ونقيشة أسوار مدينة صبرة المنصورية 437 هـ المحفوظة حاليا بمتحف فنون الحضارة الإسلامية بمدينة القيروان. فهي تشكل حلقة من حلقات تاريخ الجامع الأعظم وعلى التحديد فيما يخص الجزء المتعلق بالأسقف[3] وهي بتلك الألقاب الواردة فيها وثيقة أخرى عن التاريخ السياسي لافريقية في العهد الزيري. وأما على صعيد تاريخ الفن الإسلامي فالنقيشة فريدة في مستوى زخارف حروفها وتحديدا في نهاياتها التي لم نر لها مثيلا – إلى حد الآن - لا غربا ولا شرقا من بلاد الإسلام.

إنّ أول الملاحظات التي يثيرها النص هو السكوت عن بيان طبيعة الأشغال ("مما أمر بعمله") وهو أمر شائع بين النقائش العربية. ويمكن تجاوز هذا الإبهام بوضع الشريط في سياقه المعماري فالموضع عادة ما يكون محل الإشارة ، والأشغال تشمل على الأرجح الأسقف الخشبية للجامع الأعظم، ويبدو أن الأمر متعلق بتجديدها أكثر مما هو متعلق بترميمها وهو أمر معقول بالنظر إلى طول المدة الفاصلة عن تاريخ بناء الجامع على يدي زيادة الله الأول (221 هـ/836 م).

وأما الملاحظة الثانية فهي تتعلق بتاريخ هذه الأشغال إذ لا وجود له في النص، ويبدو أن الأمر مقصود (ولكن لا نعرف سبب هذا الإخفاء، على أنه أمر شائع أيضا في النقائش العربية ولكن بدرجة اقل في النصوص الرسمية) فمن بين نصوص المعز الأربعة ثلاثة لا تحتوي تاريخيا: نصنا هذا ونص بلاطة القبلة ونص المقصورة. هذا الإشكال سيتم تجاوزه إلى حد بعيد، ليس بالاعتماد على فترة حكم المعز، وإنما على مدة وزارة المشرف على الأشغال القاسم بن محمد بن أبي العرب (انظر لاحقا).

أما بالنسبة للآمر بالأشغال، فقد ورد ذكره مقتصرا على الاسم دون الكنية والنسب على عكس نقيشتي المقصورة وأسوار مدينة صبرة المنصورية حيث ذكر "بأبي تميم المعز بن باديس بن المنصور". ولكن هناك إشكال آخر في هذا المقام ذلك أن في هاتين النقيشتين الأخيرتين يوجد اسم المعز مجردا من جميع الألقاب السياسية علما وأنهما جاءتا بعد نصنا هذا وفي ظروف توحي بتقدم ملحوظ في الموقف تجاه الفاطميين في مصر. ويطالعنا في قائمة ألقاب المعز في هذه النقيشة لقب لا تشير إليه المصادر هو "أمير الأمراء" ، فهذا الأخير لا يُذكر من بين الألقاب التي منحها إياه الخليفة الفاطمي سوى لقب "شرف الدولة" الوارد ذكره في نص

---

[3] ظل السؤال قائما منذ بدايات البحث في تاريخ الجامع الأعظم وخاصة مع "جورج مارسي" حول تحديد أي من الأمراء الصنهاجيين قام بإعادة تسقيف بيت الصلاة. وقد افترض "جورج مارسي" نسبتها إما إلى المعز بن باديس او إلى احد الأمراء السابقين له، أنظر :

MARÇAIS (G.), *Coupoles et plafonds*, Paris, 1925, p. 35.

النقيشة والذي أسند إليه سنة 407 / 1016[4] أو لقبي "شرف الدولة وعضدها" ثم "الأمير" اللّذين نودي بهما سنة 414هـ/ 1023[5]. فهل يعني ذلك أن لقبا مركبا أسند إليه ولم تذكره المصادر؟ أم أن المعز تجاوز التسميات والتشريفات الفاطمية ؟ يبدو أن حرص ابن عذاري على ذكر ما جاء في سجلين وردا في نفس السنة يجيب عن ذلك، فلو أسند له هذا اللقب لذكر ذلك. وتجدر الإشارة إلى أن السكة في هذه الفترة تفتقد إلى ذكر ألقاب المعز بل وحتى اسمه وتفسر المصادر ذلك بالحرص على سلامة الحجاج من ردة الفعل الفاطميين جراء تداولهم عملة المعز[6].

أما عن اسم المشرف على الأشغال، القاسم بن محمد بن أبى العرب، فقد ذكرنا أنه هو نفسه الذي ورد في نقيشة جدار القبلة والتي بينا في مقال سابق أنها تؤرخ لأسقف بيت الصلاة. وقد اشرنا كذلك إلى انه مذكور لدى ابن عذاري في سرده لأحداث سنتي 397 / 1007 و399 / 1009 [7] ولدى النويري الذي يشير إلى تاريخ توليه "أمور المعز وجيوشه" في 7 ربيع الثاني لسنة 413 / 10 جوان 1022 بدلا عن القائد محمد بن حسن الذي قتله المعز بعد شغله هذا المنصب منذ سنة 407 / 1016[8]. ويبدو أن ولاية القاسم لم تطل كثيرا إذ لم يلبث ان حل محله - بعد سنة وشهرين - أبو البهار خلوف وذلك يوم الثلاثاء 25 جمادى الأولى لسنة 414 / 15 أوت 1023 [9]. هذه المعطيات تمكننا أمام غياب أي مؤشر زمني واضح في النص من تأريخ النقيشة بين هذين التارخين.

وقد اقترن اسم القاسم بن محمد بن أبي العرب بثلاثة ألقاب هي على التوالي "قائد القواد" و"تاج الدولة" و"الكاتب". أما بالنسبة إلى لقب "قائد القواد" فهو موجود أيضا في نقيشة الأسقف السالفة الذكر. وهو غائب بمثل هذه الصيغة المركبة في المصادر ولكنه يبدو تطويرا للقب "القائد" الذي كان يحمله محمد بن حسن الذي يذكره النويري. ويبدو هذا اللقب ذا صبغة عسكرية تماشيا مع ما يذكره النويري حول المسؤوليات الهامة التي أوكلت إلى القاسم بن محمد بن أبى العرب ("وفوض الأمير شرف الدولة جباية الأموال، وولاية العمال، والنظر في العساكر وسائر الأشغال لأبي البهار بن خلوف ... فحسنت الأمور وضبطت

---

[4] المراكشي (ابن عذاري)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تونس 1983، ج 1، ص 259.

[5] المصدر نفسه، ص 273.

[6] الدباغ (ابو زيد عبد الرحمن)، ت 595 هـ، ابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم)، ت 839 هـ، معالم الإيمان في معرفة اهل القيروان، تونس 1993، ج 3، ص 157، "فقال السلطان ما أبقيت السكة والبنود إلا مدارة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين".

[7] المراكشي (ابن عذاري)، المصدر نفسه، ص. 258. "وفيها (397 / 1007) ولي عمالة إفريقية القاسم بن محمد بن أبي العرب بعد موت أبيه، فاقر رجاله على مراتبهم، واستعان بهم ... وفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، هرب أولاد محمد بن أبي العرب من المنصورية يريدون فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي باطرابلس فأرسل نصير الدولة إلى صاحب قابس.... فلحق بهم واخذ منهم عليا ويوسف فقطع رؤوسهما ووجه بهما إلى المنصورية منسلخ المحرم. ووصل القاسم بعد ذلك فعفا عنه".

[8] النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب)، نهاية الارب في فنون الادب، القاهرة 1983، ج 24، ص207.

[9] المراكشي (ابن عذاري)، المصدر نفسه، ص 273.

الأطراف والثغور. واستقام التدبير ورأى الأمير شرف الدولة من حزمه وعزمه وشهامته، ما لا لم يقم به غيره ولا وجد عند سواه بوجه[10]").

أما عن لقب "تاج الدولة" فهو كذلك غير مذكور في المصادر. إلا أن القاسم يحمل لقبا آخر تتصل به عبارة "الدولة" في النقيشة المشار إليها أعلاه ("ناصح الدولة ومأمونها") . وهذه التركيبة ثابتة أيضا في ألقاب أخرى أسندت إلى كبار الموظفين مثل لقب "زمام الدولة" المسند إلى القاسم ابن أبي عبود الكاتب الذي أشرف على إنجاز مقصورة المعز أو "أمين الدولة" الذي يحمله أحمد بن زاهر الكاتب المشرف على بناء أسوار صبرة المنصورية [11].

وأما لقب "الكاتب" فهو أيضا من الألقاب المذكورة في مصادرنا وكذلك في نقائش الفترة الزيرية التخليدية منها أو الجنائزية[12]. ويبدو بالنظر إلى أهمية الدور المناط بعهدة الشخصيات الحاملة لهذا اللقب أن المقصود منه هو منصب "الوزارة" أو منصب "العمالة" على الدولة كما يستنبط من قول ابن عذاري في سرده لأحداث سنة 397 ("وفيها ولي عمالة إفريقية القاسم بن محمد بن أبي العرب بعد موت أبيه، فاقر رجاله على مراتبهم، واستعان بهم ...") وسنة 414 / 1016 ("وقلد القاسم بن محمد بن أبي العرب سيفه. وأخرج بين يديه الطبول والبنود. وصرف إليه النظر في سائر إفريقية"). ولعل لقب "الوزير" الذي يحمله القاسم نفسه في نص جدار القبلة دليل على هذه المراوحة في المعنى. وفي هذا المقام يصعب تحديد ما إذا كان في هذا الاختلاف مؤشر على تطور في الألقاب وبالتالي في الزمن وخصوصا في غياب التفاصيل لدى المصادر الأخرى.

التعليق على الجانب الفني[13]

1. نوعية الكتابة : كتابة كوفية زيرية ذات نهايات عريضة مقعرة أو نباتية
2. قاعدة الكتابة[14] : افقية دقيقة
3. الربط بين الحروف :

- ربط أفقي : بين اللام والعين والراء ("العرب")

---

[10] المراكشي (ابن عذاري)، المصدر نفسه، 1983، ص 273.

[11] أنظر :

ROY (B.) et POINSSOT (P.), *op. cit.*, n° 6, p. 18-22 et n° 42, p. 89-91.

ABDELJAOUAD (L.), *op. cit.*, n° 35, p. 100-104 et n° 50, p. 138-140.

[12] النويري، المصدر نفسه، ج 24، ص 207.

ROY (B.) et POINSSOT (P.), *op. cit.*, n° 6, 42, 242, 243, 354, 432, 445, 474, 476.

EL-HABIB (Mostapha), *Stèles funéraires kairouanaises d'époque fatimide et ziride*, thèse de doctorat, sous la direction de J. Sourdel-thoumine, Paris-Sorbone, 1972, n° 78 et 130.

[13] لدراسة الجوانب الفنية وقع اعتماد المنهجية التحليلية الموجودة ببرنامج معالجة النقائش العربية عبر النظام الاعلامي EPIMAC الذي استنبطته الاستاذة S. ORY من جامعة Aix-en-Provence بفرنسا.

[14] قاعدة الكتابة خط وهمي ترسم عليه قواعد الحروف يحقق الدقة في الأفقية أو في الانحناء أو في الميلان.

• ربط شديد التقارب : بين الميم والراء ("أمر" ، "الامراء")

• ربط منعدم : بين الخاء واللام ("خلقنا")

• ربط ½ دائري مقعر : بين حرفي الميم ("مما")

• ربط ½ دائري مقعر مزدوج : بين الباء والعين والميم ("بعمله")

• ربط محدب على شكل معين مقعر الأضلاع موضوع فوق ساقين : بين اللامين ("الله")

ملاحظة : إن غالبية هذه الأدوات الرابطة بين الحروف هي ذاتها التي استعملت في الشريط الكتابي لبلاطة القبلة لكنها أكثر كثافة وتواترا وخاصة الدائرية منها. وهي دليل على ثراء أكبر وربما مؤشر على تأخر زمني يجعل من نصنا أحدث من شريط البلاطة القبلية.

وصف الحروف[15]

• **أ. العصي[16]**

-زاوية قائمة ذات نهايتين علوية وسفلية مدببتين ومقعرتين + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ا — ل

-زاوية قائمة ذات نهايتين علوية وسفلية مدببتين ومقعرتين + زخرفة على شكل ذيل الطائر + غصن صغير ناشئ عن النهاية السفلية : ا

-زاوية قائمة ذات نهايتين علوية وسفلية مدببتين ومقعرتين + زخرفة على شكل ذيل الطائر + ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ناشئة عن النهاية السفلية : ا

-منحنى ذو نهاية مقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ط

-منحنى صغير + مستقيم عمودي + نهاية علوية منحنية نسبيا ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ط

-منحنى صغير + مستقيم عمودي + نهاية علوية قائمة الزاوية ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ك

---

[15] لتحقيق النجاعة في الوصف تجزأ هذه الحروف إجرائيا إلى ثلاثة مكونات : العصي والأجسام والذيول. هذه المعطيات تمكننا من تصنيف أولي لأشكال الحروف وطرق رسمها في فترة معينة، الأمر الذي يساعد على تتبع مختلف أطوار الكتابة. ويقع الانطلاق في هذه العملية من جدول توزيع الحروف (اللوحة رقم 5) حيث تجمع الأشكال المشتركة دون اعتبار التسلسل الأبجدي ثم يتم إجمال أهم المميزات الفنية في آخر كل عنصر يتم وصفه في شكل ملاحظات.

[16] تشمل العصي نظريا الحروف التالية : ا / ط / ظ / ك / ل / لا / الـ

-مستقيم عمودي + نهاية علوية مقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر :
ا - ك - ل

-مستقيم عمودي + نهاية علوية قائمة الزاوية + ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتناظرتين في اتجاه اليمين او اليسار : ـل

-مستقيم عمودي + ورقة ثلاثية الفصوص مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتناظرتين : ـل

-مستقيم عمودي + نهاية علوية قائمة الزاوية مقعرة ومدببة + ورقة ثلاثية الفصوص مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتناظرتين : ـل

-منحنى صغير (على شكل "حيد"[17]) + مستقيم عمودي + ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتناظرتين ممددتان بغصن صغير ينتهي بورقتين مفصصتين ومتنافرتين : ـك

-منحنى + ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتناظرتين : ـك

-مستقيمان عموديان متقاطعان + حيدين متناظرين يؤلفان شكل القلب + نهايتين مقعرتين ومدببتين + زخرفة على شكل ذيل الطائر : لا

-مستقيمان عموديان متقاطعان + حيدان متناظران محدبان ومدببان + نهايتان على شكل زاويتين قائمتين مقعرتين ومدببتين + زخرفة على شكل ذيل الطائر : لا

-منحنيان متقاطعان + حيدان متناظران محدبان ومدببان + نهايتان مقعرتان ومدببتان ومتناظران + زخرفة على شكل ذيل الطائر : لا

-منحنيان متقاطعان + حيدان متناظران محدبان ومدببان + نهايتان مقعرتان ومدببتان ومتناظران + ورقة ثلاثية الفصوص : ـلا

-منحنيان متقاطعان + حيدان متناظران محدبان ومدببان + نهايتان متنافرتان + ورقتان مؤلفتان من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتناظرين : ـلا

-منحنيان متقاطعان + نهايتان متنافرتان مقعرتان ومدببتان ومتناظرتان : ـلا

ملاحظة

تتخذ العصي في هذه النقيشة أشكالا متنوعة منها الهندسية المستقيمة الصلبة ومنها المنحنية اللينة. أما النهايات فهي تتراوح بين العريضة والمقعرة والمدببة، غالبا ما تؤثثها زخرفة من الخطوط على شكل ذيل الطائر أو النباتية البسيطة كالغصن والورقة الثنائية الفصوص

---

[17] الحيدْ : عنصر زخرفي صغير، ½ دائري او ½ بيضي الشكل، عادة ما يتوسط العصي أو الذيول ويحد من استقامتها أو يوجد في مستوى نقطة الانتقال بين المنحنى والمستقيم الصاعدين.

أو المركبة كالورقة المؤلفة من مروحتين نخيليتين متناظرتين ومتقابلتين أو النهاية العريضة والمقعرة المدببة من جهة والمورقة من جهة أخرى.

وأما في مستوى عصي اللام-ألف (لا) فقد عمد الفنان إلى استعمال عنصر "الحيد" وهو أداة زخرفية تحد من استقامة وصلابة العصي. وقد يتخذ الحيد أشكالا مختلفة مثل نصف القلب أو نصف الدائرة.

وأما عند التقاء الألف مع اللام (الـ) أو تقاربهما فيعمد الفنان إلى إحداث التناظر بينهما في الاتجاه أو في النهاية الزخرفية سواء بالتقابل أو بالتنافر.

- **ب. الأجسام**[18]

-زاوية قائمة + نهاية علوية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين + نهاية سفلية عريضة ومقعرة : ب

-نبرة عمودية + نهايتان علوية وسفلية عريضتان: ـب

-نبرة عمودية + نهاية علوية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين: بـ / تـ / ثـ / يـ

-نبرة عمودية + نهاية علوية عريضة ومقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر: نـ / ـنـ / ـي

-نبرة عمودية + نهاية علوية عريضة ومقعرة + زخرفة نباتية على شكل غصن ينتهي بورقة غير متناظرة : ـنـ

-نبرة + زخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين غير متناظرتين : ي

-نبرة + نهاية عريضة ومقعرة مدببة من جهة وينشا عنها غصن مورق من الجهة الاخرى : ـي

-حنية + نهايتان علوية وسفلية عريضتان ومقعرتان ومدببتان + زخرفة على شكل ذيل الطائر : جـ / حـ

-حنية + حنية معاكسة + نهايتان علوية وسفلية عريضتان ومقعرتان ومدببتان + زخرفة على شكل ذيل الطائر : حـ

-حنية + حنية معاكسة + نهاية علوية عريضة مدببة ومورقة ونهاية سفلية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : جـ / حـ

---

[18] تشمل الأجسام نظريا الحروف التالية : ب ت ث / ج ح خ / د ذ / ر ز / س ش / ص ض / ع غ / ف / ق / م / ن / هـ / و / ي

-حنية + حنية معاكسة + نهاية علوية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ونهاية سفلية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : جـ / حـ

-حنية + نهاية علوية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ج / ح

-مستطيل مفتوح تعلوه سن عمودية + نهايتان علوية وسفلية عريضتان ومقعرتان ومدببتان: د

-مستطيل مفتوح تعلوه سن منحنية + نهاية علوية عريضة مدببة ومورقة ونهاية سفلية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : د

-مستطيل مفتوح تعلوه سن منحنية + نهاية علوية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ونهاية سفلية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : د / ـد

-مستطيل مفتوح تعلوه سن عمودية + نهايتين علوية وسفلية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين: ـد

-مستطيل مفتوح + تدبيب + حيد + نهاية علوية على شكل غصن مورق ونهاية سفلية عريضة مقعرة + مدببة : ـد

-مستطيل مفتوح تعلوه سن عمودية + نهاية علوية عريضة مدببة ومورقة ونهاية سفلية عريضة ومقعرة ومدببة تنتهي بورقة ثلاثية صغيرة : ـد

- مستطيل مفتوح + سن مائلة + نهاية علوية عريضة مدببة ومقعرة وتنتهي على شكل غصن مورق متناظر +: ـد

-اسنان عمودية مدببة ومتساوية : س

-اسنان عمودية متدرجة + نهايات عريضة ومقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : سـ / شـ / ـسـ

-مستطيل + سن عمودية + نهاية علوية عريضة ومقعرة ومدببة : صـ

-مستطيل + سن منحنية + نهاية علوية عريضة ومقعرة ومدببة : صـ

-مستطيل + سن مائلة + نهاية علوية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر: صـ

-مستطيل : ـطـ

-شبه منحرف : ط / ظ

-½ دائرة+مستقيم افقي + نهايتان علوية وسفلية عريضتان ومقعرتان ومدببتان + زخرفة على شكل ذيل الطائر : عـ

-½ دائرة+مستقيم افقي + نهايتان علوية وسفلية عريضتان ومقعرتان ومدببتان: عـ

-½ دائرة+مستقيم افقي + نهايتان علوية وسفلية عريضتان ومقعرتان ومدببتان إحداهما ممددة بغصن مورق التفافي: عـ

-مثلث مقلوب : عـ

-نبرتان متقاطعتان + نهايتان عريضتان ومقعرتان ومدببتان تنطلق منهما ورقتان ثلاثيتا الفصوص تؤلفان مع الجسم شكل المعين : عـ

-نبرتان متقاطعتان + نهايتان عريضتان ومقعرتان ومدببتان تنطلق منهما ورقتان ثلاثيتا الفصوص منحنيتان تؤلفان مع الجسم شكلا دائريا : عـ

-½ دائرة مدبب من الأعلى + زاوية قائمة + مستقيم أفقي نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : ف

-½ دائرة مدبب من الأعلى + ساق عمودية : ف

-½ دائرة مدبب من الأعلى + ساق عمودية ممددة : ف

-معين مقعر الاضلاع : فـ / قـ

-معين : فـ / قـ

-قطرة + ساق : فـ / قـ

-مستطيل مفتوح + منحنى + مستقيم عمودي نهاية علوية قائمة الزاوية عريضة مقعرة ومدببة : ك

-مستطيل مفتوح + مستقيم عمودي نهايتين علوية وسفلية عريضتين مقعرتين + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ـك

-مستطيل مفتوح + حيد + مستقيم عمودي + نهاية علوية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين ومتقاطعتين تنتهيان بورقتين ثنائيتي الفصوص +نهاية سفلية عريضة مقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ـك

-مستطيل مفتوح + مستقيم مئل + منحنى + نهاية علوية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين + نهاية سفلية عريضة مقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ـك

-½ دائرة فوق قاعدة الكتابة : م /مـ / ـم

-½ دائرة فوق قاعدة الكتابة + زخرفة نباتية مركبة على شكل القلب تؤثث وسطه وردة ثلاثية : مـ /مـ / م

-½ دائرة فوق قاعدة الكتابة مدبب من الأعلى + زخرفة نباتية على شكل غصن مورق : مـ

-مربع قاعدته العلوية مدببة (سداسي الاضلاع) : مـ /مـ / م

-مربع قاعدته العلوية مدببة (سداسي الاضلاع) + زخرفة نباتية على شكل ورقة ثلاثية : ـمـ

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ذات نهاية عريضة ومقعرة : ة

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ذات نهاية عريضة ومقعرة + زخرفة نباتية على شكل غصن مورق التفاف : ة / ه

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ذات نهاية عريضة ومقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : ـة / ـه

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ذات نهاية عريضة ومقعرة + نهاية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين : ـة / ـه

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ذات نهاية عريضة ومقعرة + نهاية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين وتنشأ عنهما وريدة ثلاثية : ـة / ـه

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ممددة أعلاها منحنٍ وذات نهاية عريضة ومقعرة مدببة من جهة ومورقة من الجهة الاخرى + زخرفة على شكل ذيل الطائر: ـهـ

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ممددة وذات نهاية عريضة ومقعرة مدببة : هـ / ـه

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ممددة قائمة الزاوية في أعلاها وذات نهاية عريضة ومقعرة مدببة من جهة ومورقة من الجهة الاخرى : ـهـ

-¼ دائرة + زاوية قائمة + سن ممددة قائمة الزاوية في أعلاها وذات نهاية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين وتنشأ عنهما وريدة ثلاثية + زخرفة على شكل ذيل الطائر : هـ / ـهـ

-½ دائرة +منحنى صاعد ذو نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : هـ / ـهـ

-½ دائرة مدببة من الاعلى + نهاية على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين: هـ

-½ دائرة + منحنى صاعد ذو نهاية عريضة ومقعرة ومدببة من جهة وتنتهي بمروحة نخيلية مركبة غير متناظرة من الجهة الا خرى : ـهـ

-مثلث : و/ ـو

-½ دائرة مدببة + سن ذات نهاية عريضة ومقعرة : و

-مثلث + غصن مورق التفافي بوريدة خماسية متناظرة : ـو

-مثلث + زخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين تتقاطعان وينشا عنهما غصنان مورقان : ـو

-مثلث + زخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين: ـو

-مثلث تتخلل قاعدته زخرفة على شكل حيد ½ دائري : لا / ـلا

-مثلث ضلعاه محدبان تتخلل قاعدته زخرفة على شكل حيد ½ دائري : لا/ ـلا

ملاحظة

على غرار العصي تتخذ أجسام الحروف في هذه النقيشة أشكالا متنوعة منها الهندسية المستقيمة الصلبة (المثلث ، الدائرة ، المعين ، المستطيل ..) ومنها المنحنية اللينة (الحنية والحنية المعاكسة) ومنها كذلك ما هو مزيج بين الاثنين مثل المعين المقعر الأضلاع أو المثلث المحدب الضلعين.

وتتميز هذه الأجسام كذلك بالتنوع الشديد أي أن للحرف الواحد أكثر من شكل بحسب ما يقتضيه ملء الفراغات في المجال الأعلى لحقل الكتابة من ناحية وما يقتضيه التناظر أو التنافر الجماليين فيما بين الحروف.

وأما نهايات بعض هذه الأجسام فهي شبيهة بنهايات العصي ولكنها أكثر تنوعا وحركية بالنظر إلى الانخفاض النسبي لبعضها مما يستدعي بالضرورة كثافة أكبر لملء الفراغات في المنطقة العلوية لحقل الكتابة. إضافة لهذه الزخارف فقد إختار الفنان التصرف بأكثر حرية في أشكال بعض الحروف بإدخال عناصر إضافية مثل "الحيد" أو النبرات أو الأسنان فوق الدال أو الصاد أو الهاء أو الواو.

- **ج. الذيول**[19]

-منحنى تحت قاعدة الكتابة إلى اليمين + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : ج

-منحنى تحت قاعدة الكتابة إلى اليمين + نهاية عريضة ومقعرة مدببة من جهة وينشا عنها غصن مورق من الجهة الأخرى: ـج

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : ر ـر / م / ن/ ـو

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة + زخرفة على شكل ذيل الطائر : م / و ـو

[19] تشمل الذيول نظريا الحروف التالية : ج ح خ / ر ز / س ش / ص ض / ع غ / ق / ل / م / ن / و / ي

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + مستقيم عمودي صاعد + زاوية قائمة + زخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين : ـر / ـم

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + حيد ½ دائري + مستقيم عمودي صاعد + زاوية قائمة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : ـر / س 2

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + مستقيم عمودي صاعد + زاوية قائمة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : ـر / ـم / ن ـن

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + حيد ½ دائري + مستقيم عمودي صاعد + زاوية قائمة + زخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين : ـر / ـن

-زاوية قائمة تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة : ـر

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + مستقيم عمودي صاعد + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة + زخرفة على شكل ذيل الطائر: ـر/ ـم / ن ـن

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + مستقيم عمودي صاعد + زاوية قائمة + نهاية عريضة ومقعرة وثنائية الفصوص في كل تدبيب : ن / و

-منحنى تحت قاعدة الكتابة +حيد + مستقيم عمودي صاعد + زاوية قائمة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : ن ـن

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة تنشا عنها حنية وحنية معاكسة نحيفة صاعدة تنتهي بزخرفة على شكل ذيل الطائر : و

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة تنشا عنها حنية وحنية معاكسة صاعدة نحيفة ذات نهاية مدببة من جهة وينشا عنها غصن مورق من الجهة الاخرى: ـو

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة تنشا عنها حنية وحنية معاكسة نحيفة صاعدة تنتهي بورقة ثلاثية : ـو

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة تنشا عنها حنية وحنية معاكسة نحيفة صاعدة تنتهي بورقة بتدبيب ثلاثي : ـو

-مستقيم مائل قصير فوق قاعدة الكتابة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : س 1

-منحنى تحت قاعدة الكتابة + حيد ½ دائري + زخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين : ـم

-حنية وحنية معاكسة صاعدة + نهاية مزخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين ينشا عن تقاطعهما ورقة خماسية : ن /

-حنية وحنية معاكسة صاعدة + حيد ½ دائري + نهاية مزخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين : ن

-حنية وحنية معاكسة نحيفة وصاعدة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة : و

-حنية وحنية معاكسة نحيفة وصاعدة + نهاية عريضة ومقعرة مدببة من جهة وينشا عنها غصن مورق التفافي من الجهة الأخرى: و

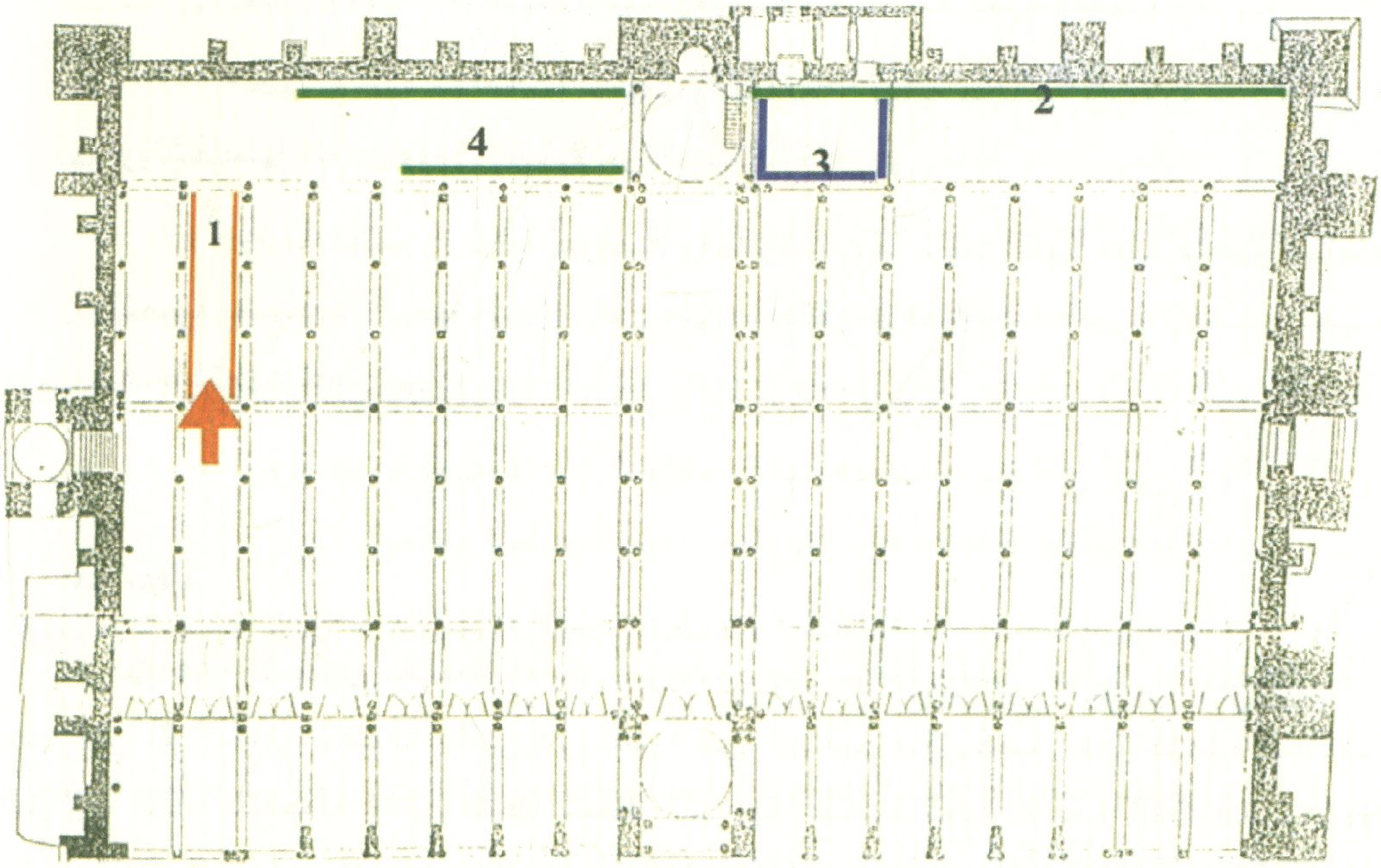
-زاوية قائمة + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة تنشأ عنها حنية وحنية معاكسة نحيفة صاعدة + نهاية مزخرفة على شكل ورقة مؤلفة من مروحتين نخيليتين متقابلتين متناظرتين : و

-زاوية قائمة تحت قاعدة الكتابة + نهاية مائلة مدببة : ي / ي

ملاحظة

في هذا المستوى نلاحظ تعايش مرحلتين من مراحل تطور الذيول : أشكال قديمة مثل التي في السين المنفصلة والتي هي عبارة عن مستقيم مائل قصير فوق قاعدة الكتابة أو التي في الياء المنفصلة والتي تتخذ شكل الزاوية القائمة تحت قاعدة الكتابة. وأشكال متطورة مثل الحنيات والحنيات المعاكسة الصاعدة أو المنحنيات المنطلقة تحت قاعدة الكتابة والصاعدة إلى أعلى حقل الكتابة ممددة بواسطة مستقيم عمودي. واما النهايات فهي متنوعة أيضا وشبيهة بالتي ذكرت في العصي والأجسام.

اللوحة رقم 1



موضع الأشرطة الكتابية التي تحمل اسم المعز بن باديس داخل بيت الصلاة :

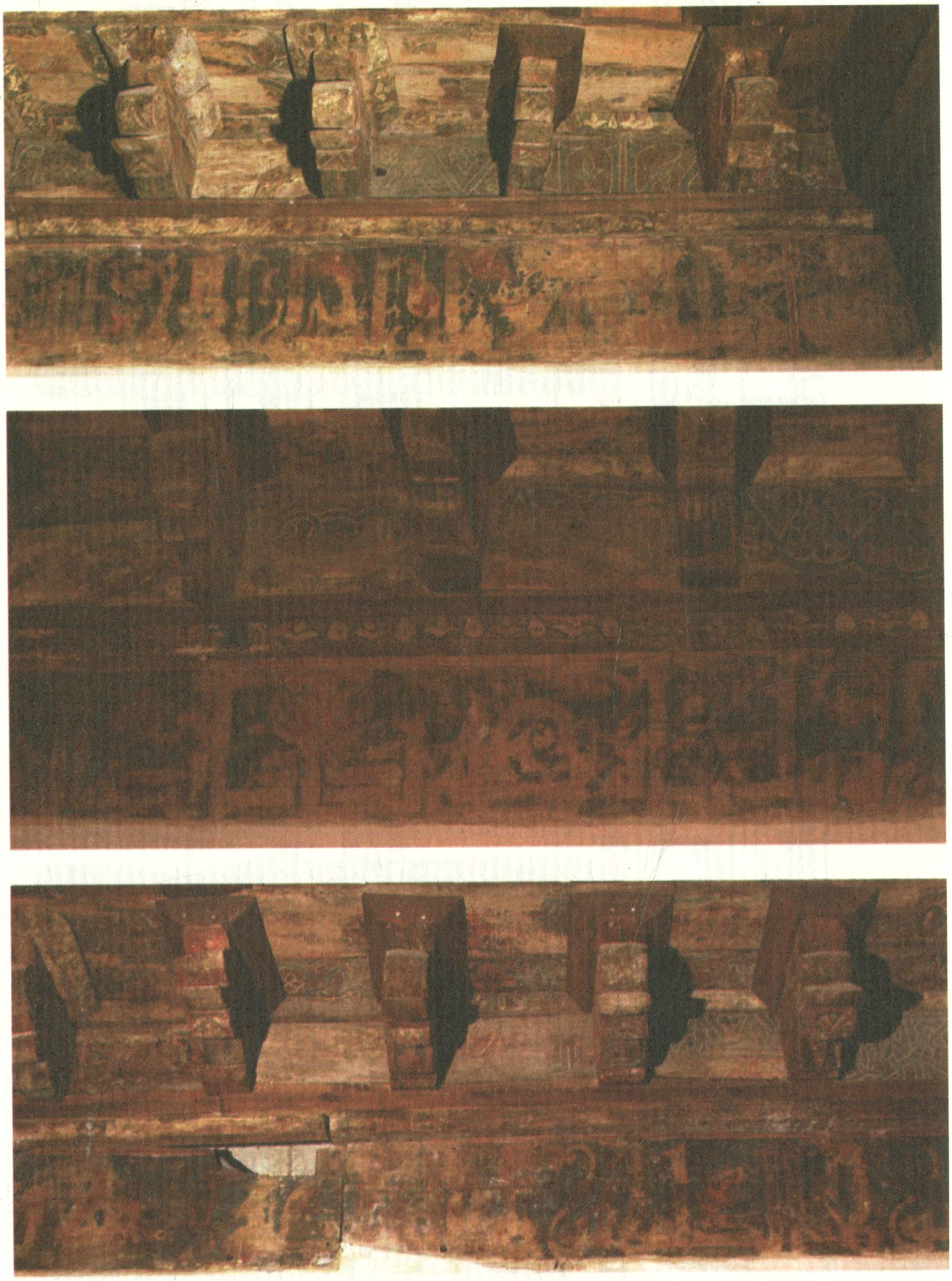
رقم 1 : الشريط موضوع الدراسة (413-414 / 1022-1023)

رقم 2 : شريط جدار القبلة 1 (413-414 / 1022-1023)

رقم 3 : شريط المقصورة (414-437 / 1016-1045)

رقم 4 : شريط جدار القبلة 2 (لم تكتمل دراسته بعد وهو معاصر للشريط رقم 2 ومكتوب بالأسلوب نفسه)

اللوحة رقم 2

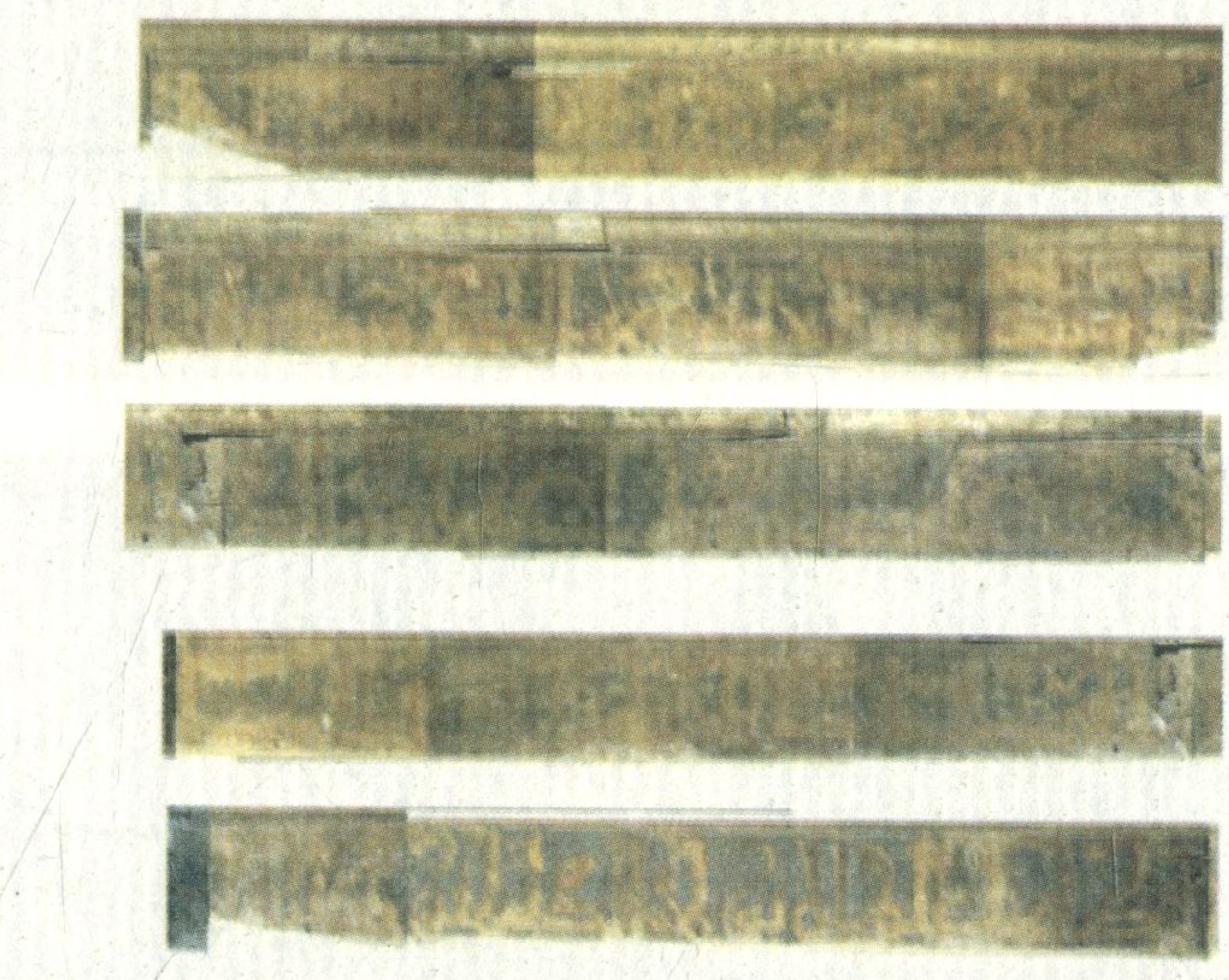


صور لأجزاء من الشريط وموضعها من الأسقف

صور لألواح الشريط مجمعة

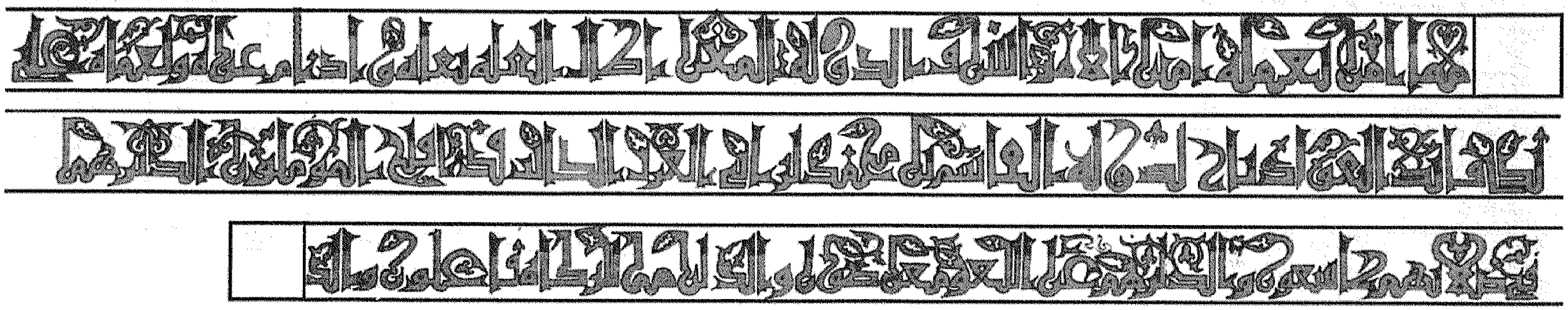


الجانب الشرقى من الشريط

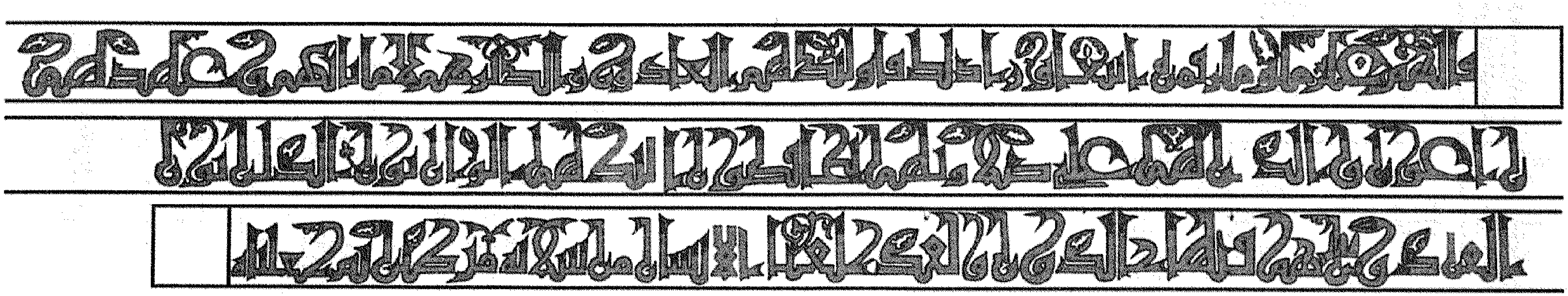


الجانب الغربى من الشريط

اللوحة رقم 4



الجانب الشرقي من الشريط



الجانب الغربى من الشريط

تفريغ كتابة الشريط

اللوحة رقم 5

	الحروف المنفصلة	الحروف المبتدئة	الحروف المتوسطة	الحروف المتأخرة
ا				
ب ت ث				
ج ح خ				
د ذ				
ر ز				
س ش				
ص ض				
ط ظ				
ع غ				
ف				
ق				
ك				
ل				
م				
ن				
ه				
و				
ي ى				
لا				
الله				

جدول توزيع الحروف

حول تأسيس مدينة العبّاسيّة بإفريقية

عبد الحميد فنينة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

من المعلوم أن المدينة الأميرية الأغلبية العبّاسيّة زالت تماما ولم يبقى من الآثار الدالة عليها شيء يذكر. فالحفرية الوحيدة التي أجريت على موضع يرجح أنه مدينة العباسية المندثرة[1]، والتي تعود إلى بداية القرن العشرين، لم تسفر عن نتائج تسمح بالتعرف على ملامحها المعمارية وتطورها التاريخي، خاصة وأنها لم تشمل سوى خمس الموضع حسب تقدير "جورج مارسي" وأنها أجريت على المناطق الهامشية شمالي وغربيّها "المدينة"[2].

لم تحظ هذه المدينة المغمورة لحد الآن بالعناية الكافية من حيث الدراسة على غرار مدن أخرى أحدثت بالمغرب الإسلامي على أهميتها[3]. فهي مدينة أميرية لعبت دورا بارزا في

* يطيب لي أن أتوجه بجزيل شكرنا إلى الأستاذ راضي دغفوس، مدير "مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط"، على مساعدته لإنجاز هذا العمل. أصل هذا البحث مداخلة قدّمت في أشغال الملتقى الدولي الثاني حول "القبيلة-المدينة-المجال في العالم العربي الإسلامي" الذي إلتأم بتونس أيام 10-12 أفريل 2003.

[1] أنظر دراسة:

G. Marçais, « Fouilles à Abbâssîya, près de Kairouan », *Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques* (*BACTHS*), 1925, p. 293-305

التي جاء فيها بالصفحة 293 :

« Une tradition encore vivante dans la région de Kairouan permet de désigner un tell situé à 4 kilomètres de la ville, vers le sud, comme l'emplacement probable de Qaçr-el-Qadîm ou Abbâssîya ».

[2] أنظر نفس الدراسة، ص 294 :

« Les recherches en avaient affecté tout au plus la cinquième partie. Elles avaient entamé les rebords nord et ouest de ce plateau rectangulaire de 53 mètres sur 38…que cette partie du moins du tell d'Abbâssîya comportait des communs, des bâtiments de service, magasins, celliers ou cuisines. Des salles d'habitation ou d'apparat plus vastes peuvent se trouver dans une autre partie du tell ».

[3] تجدر الإشارة إلى انه لم تفرد لهذه المدينة دراسة خاصة الا مؤخرا. أنظر: فوزي محفوظ، "قصر الماء، العباسية، القصر القديم، تعددت الأسماء والموضع واحد"، إفريقية، 19، 2002، ص 119-144، خاصة ص 119-120. نفس الدراسة نشرت باللغة الفرنسية تحت عنوان:

F. Mahfoudh, « Qasr al-Mâ, al-Abbâsiya et al-Qasr al-Qadîm : à propos de quelques agglomérations près de Kairouan », dans *CRAI*, 1er fasc., Paris, 2003-2, p. 49-54.

لا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر إلى صديقي الأستاذ فوزي محفوظ الذي أفادني كثيرا في إنجاز هذا البحث.

تاريخ إفريقية في العهد الأغلبي، إلى جانب حاضرة الإمارة القيروان. مجمل القول أننا نجهل الكثير عن تاريخ مدينة العبّاسيّة وحتى النزر القليل الذي نعلمه حولها والذي يتعلق أساسا بتاريخ تأسيسها ، وإن بدا للبعض مؤكدا ، فهو لا يزال قيد البحث والتدقيق ولم يحسم أمره بصفة نهائية. فكل ما نعرفه حول هذه المدينة مستمد من المصادر العربية[4] دون سواها من المصادر في نتف قليلة مبهمة لا تتعدى ذكر حدث تأسيسها. حيث تجمع هذه المصادر، و في سياقها نحت الدراسات التاريخية، على أن إحداث مدينة العبّاسيّة يعود إلى إبراهيم بن الأغلب (184-196/800-812)، مؤسس الإمارة الأغلبية، الذي أنشأ مدينته قرب القيروان فور توليته شؤون ولاية إفريقية سنة 184 هـ/800 م، من قبل هارون الرشيد[5]. غير أن شواهد نميّة (numismatiques)ورد عليها إسم العبّاسيّة، سكّها ولاة إفريقية العباسيون[6] تحمل على الظن بأن هذه المدينة وقع تشييدها قبل قيام الإمارة الأغلبية (184-296/800-909). أم هل أنها تشير إلى أن إفريقية والمغرب الإسلامي عامة لم تشهد فقط تأسيس مدينة العبّاسيّة الأغلبية المعروفة، كما يعتقد غالبا، وإنما مدنا أخرى حملت هذا الاسم وهي تعود إلى فترة الولاة العباسيين (134-184/752-800). ولكن ما هو الاحتمال الأكثر وجاهة حينئذ لتفسير معطيات السكّة والتي تبدو متضاربة مع تلك التي تقدمها المصادر المكتوبة ؟ أم هل أنه بالإمكان التوفيق بين المصدرين.

سوف نحاول من خلال هذا البحث تناول هذه المسالة بالدرس لاعتقادنا انه بالإمكان إعادة النظر في هذه المسألة واستقراء جديد لهذه المصادر المنسية في أبحاث المؤرخين[7] دون أن يكون ذلك ضربا من ضروب المجازفة أو الاجترار العلمي. غايتنا الوحيدة هي تحديد موضع مدينة العبّاسيّة الوارد اسمها على السكّة وضبط تاريخ إنشائها، دون غيرها من المساءل المعمارية والتاريخية.

---

[4] نفس المرجع ص 119-144، أنظر خاصة ص 128-142.

[5] أنظر مقال ح.ح. عبد الوهاب al-ᶜAbbâsiyya في *EI²* ج 1، ص 24-25 ؛ نفس المؤلف، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ج 1، تونس، 1955، ص 353-359؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي، بيروت، 1985، ص 153-154. أنظر أيضا :

H. Fournel, *Les Berbères. Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, vol. I, Paris, 1875, p. 450-2 ; G. Marçais, *Op. cit.*, p. 293-305 ; *Idem.*, *L'architecture musulmane d'Occident*, Paris, 1954, p. 25-27 ; M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Bénou-l'Arlab*, Paris, 1927, p. 191-192.

[6] أنظر الجدول المصاحب. وأنظر كذلك:

N. Lowick, *Early ᶜAbbâsid coinage. A type corpus (132-218 H/ AD 750-833). A posthume work by Nicholas Lowick*, éd. E. Savage, Londres, 1999, p. 44-59, n° 1-255.

[7] أنظر:

D. J. G. Stickel, *Handbuch zur morgenländischen münzkunde*, I, Leipzig, 1845, p. 51-53 ; E. Von Zambaur, « Contributions à la numismatique orientale. Monnaies inédites ou rares des dynasties musulmanes de la collection de l'auteur », dans *Numismatische Zeitschrift*, XXXVI, Vienne, 1905 (1904), p. 47 : « La question de la fondation d'el-ᶜAbbâsiyya près de Qairewân, souvent débattue, mériterait d'être posée encore une fois ».

I- إشكالية ضبط تاريخ تأسيس مدينة العباسية الأغلبية

عند تعرضه، في أطروحته حول الإمارة الأغلبية، لمسألة تأسيس مدينة العبّاسيّة من قبل إبراهيم بن الأغلب استغرب الأستاذ محمد الطالبي تزامن أولى إصدارات دار ضرب العبّاسيّة في العهد الأغلبي مع تاريخ تأسيس هذه المدينة كما أجمعت عليه أو تكاد المصادر العربية، لأن ذلك يوحي، من منظوره، بأن إبراهيم بن الأغلب "عجّل منذ سنة 184 هـ. بضرب السكّة" بالعبّاسيّة وكأنه أراد "تخليد ذكراه بتسجيل تاريخ الحدث" و"إحتفاءا به". وهو ما يحمله على عدم قبول شهادة المصادر النميّة معتبرا أن لا مجازفة في القول بأن "العبّاسيّة لم توجد في ذلك التاريخ بصورة عملية إلا على قطع النقود التي كانت مخصّصة لإذاعة الخبر السعيد، والتعريف في الشرق بالاعتراف وبمبايعة أمير إفريقية أسياده الذين سمّيت باسمهم المدينة، وقد وضع حجرها الأساسي، إن صحّ القول، وهو حدث احتفي به في ضرب خاص للسكّة. وحتى في أيامنا هذه ننتظر بالفعل المدن الجديدة أكثر من بضعة شهور للظهور". وهكذا فإنه يجزم بشكل قطعي أن مدينة العبّاسيّة لم تكن سنة تولي إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية "سوى مشروع بكل تأكيد، ومقصد وبرنامج للسياسة الخارجية بالخصوص، وبمرور الوقت، وتطوّر الوضع وظهور المصاعب، لا بد أن الأمير اكتشف بالتدريج أن المدينة المزمع بناؤها، والتي كانت بصدد الإنجاز، في الإمكان أن تكتسي منفعة أقل رمزية وأكثر حسّا" مضيفا أنه "لا يوجد في هذا التاريخ أي علامة تسمح بالتأكيد أن العبّاسيّة وقصرها الأبيض أصبحت ذلك الحصن المنيع القريب من الحاضرة والذي يمكن استخدامه عند الحاجة كملجأ أمين، ينفذ إليه بسرعة وسهولة، ثم أنها كانت تستعد لتعويض القيروان، كما تطلب ذلك تطور الأحداث، بصفتها إقامة رسمية للامراء" وأن إبراهيم بن الأغلب لا يزال "يقيم لا محالة بالقيروان في سنة 802/186"[8].

بعد هذا الإقرار بأن مدينة العبّاسيّة لم تؤسس سنة 800/184 باعتبار أن هذا التاريخ يمثل لحظة الشروع في تشييد هذه المدينة والتي سوف تتطلب حتما فترة زمنية ما لتصبح مكتملة المعالم، وإنما بعد ذلك، ربما سنة 185 هـ[9] أو بعد سنة 186 هـ يستطرد الأستاذ الطالبي معلقا على رواية البلاذري (ت. 892/279 أو قبل 915/302) حول تأسيس العبّاسيّة أن لفظة "ابتني" التي يستعملها هذا المؤرخ، عند حديثه عن القصر الأبيض الذي شيده إبراهيم بن

---

[8] الطالبي، ن. م.، ص 154. لا بد من الإشارة هنا أن الأستاذ محمد الطالبي، نظرا لهذه الاعتبارات المنطقية، يُفضّل رواية ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 92، والتي جاء فيها أنه "في سنة 185 شرع إبراهيم في بناء مدينة القصر القديم (ضمنيا العبّاسيّة) وصار بعد ذلك دار لأمراء بني الأغلب".

[9] أنظر مثلا مراد الرماح "ملاحظات حول ضرب السكة بالقيروان"، إفريقية، 19، 2002، ص 5-15، وبالخصوص ص 8-9، حيث يعتبر أنه "منذ أن أسس إبراهيم بن الأغلب سنة 185 هـ عاصمته الجديدة "العبّاسيّة" أصبح أمر تحديد دار الضرب أكثر تعقيدا ولم يعد مصطلح إفريقية ينطبق على القيروان، خاصة وأنا نملك درهما يعود إلى عهد إبراهيم الثاني يشير صراحة إلى أنه ضرب سنة 275 هـ بالعبّاسيّة وهو ما يدعو إلى الاحتراز والتوقف. ثم إن إحداث دار ضرب العبّاسيّة لا يعني تعطيل مثيلتها بالقيروان خاصة وأن المدينة قد ظلت تمثل قلب إفريقية وشريانها الاقتصادي ولم تكن العبّاسيّة التي اتخذها الأغالبة قلعة اعتصموا بها لتخل بنشاط دار الضرب بالقيروان لقربها من العامة حيث ييسر وجودها هنالك معاملاتهم وحاجاتهم لسكّ النقود وإعادة ضرب ما فسد منها".

الأغلب، ربما تعني "الترميم والتطوير"، مضيفا "وإلا فكيف يفسر أن إبراهيم الأول تمكن من ضرب النقود بها منذ سنة 184؟ لا يشيّد القصر، مهما كان متواضعا، في بضعة شهور، ولا يقبل في مثل هذا الوقت القصير، مصنعا لضرب السكّة".

نلاحظ، دون شك، حيرة الأستاذ محمد الطالبي في تحديد لحظة تأسيس مدينة العبّاسيّة نظرا لصعوبة التوثيق بين المعلومات الواردة في المصادر المعتمدة والتي بدا له بعضها يتعارض مع منطق التطور التاريخي للأحداث. فشاب عرضه بعض الإضطرب والتناقض. ما يهمنا بالأساس من هذا العرض هو التأكيد على نقطتين. الأولى أن الرأي المسلم به في الدراسات التاريخية، بالاعتماد على المصادر المكتوبة، والذي لا جدال فيه، هو أن تأسيس مدينة العبّاسيّة يعود إلى مؤسس الإمارة الأغلبية فور توليه إمارة إفريقية سنة 184 هـ أما النقطة الثانية فتتعلق بوجود مصادر نميّة تؤرخ لحدث تأسيس مدينة العبّاسيّة. كان الأستاذ محمد الطالبي، أحد المؤرخين القلائل الذين تفطنوا لوجودها ولو أن تحليله قاده في النهاية إلى رفض شهادتها مفضلا شهادة المصادر المكتوبة على تأخّرها زمنيا عن سير الأحداث، إذ تعود أقدم الروايات إلى أواخر القرن الثالث هجري (التاسع ميلادي)[10]. واللافت للانتباه أنه اقتصر في تناوله للمسالة على الشواهد النميّة التي تعود إلى الفترة الأغلبية مهملا تلك التي تعود للفترة السابقة بالرغم من علمه بوجودها، بدليل اعتماده في أطروحته حول الإمارة الأغلبية على دراسة "فورنال" التي تشير إلى هذه الإصدارات[11].

II- إشكالية تحقيق دار / دور ضرب العباسية بإفريقية

نلاحظ نفس الحيرة لدى أبي الفرج العش في مصنفه الجامع حول السكّة الأغلبية[12] في سياق تحقيقه لأسماء دور السكّة في العهد الأغلبي. فعند تعرضه لدار ضرب العبّاسيّة، حاول بدوره التوفيق بين مختلف المعلومات الواردة في المصادر العربية وتلك التي استقاها من الشواهد النميّة. ليخلص إلى القول بأن إفريقية والمغرب الإسلامي عامة عرفتا تشييد عدة مدن حملت اسم العبّاسيّة "تكريما للخلافة العبّاسيّة وتثبيتا لنفوذها"، وهي ثلاث:

---

[10] البلاذري، فتوح البلدان، بيروت 1983، ص. 235 ؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص. 348.

[11] أنظر:

H. Fournel, *Les Berbères*, I, p. 451, note 4.

[12] أنظر دراسة أبي الفرج العش، "تحقيق بعض مدن ضرب النقود"، المسكوكات، العدد 8-9، 1978 ص 40-52، خاصة ص 43-46. نفس العمل نشر باللغة الفرنسية في مدونته حول السكة الأغلبية:

M. A. Al-ᶜUsh, *Monnaies aglabides, étudiées en relation avec l'histoire des Aglabides*, Damas, 1982.

أنظر أيضا لنفس المؤلف : كنز أم حجرة الفضي، دمشق، 1972، ص. 54-56، وهي دراسة سابقة للعملين المذكورين أعلاه والتي قدم فيها بصورة مقتضبة ما ذكره لاحقا.

- المدينة الأولى التي سميت بهذا الاسم شيّدها عمر بن حفص بالزّاب سنة 151 هـ/768 كما جاء في رواية البلاذري[13]. وهي التي أصبحت فيما بعد، من منظوره، تسمي طبنة. مضيفا بأن عبّاسيّة عمر بن حفص (151-154/768-771) ربما أنشأت على أنقاض مدينة سابقة مهجورة.

- المدينة الثانية وهي المدينة الأميرية الأغلبية التي شيّدها إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ أو ربما سنة 185 هـ والتي تقع على بعد ميلين أو أربعة جنوبي القيروان.

- المدينة الثالثة، وهي أحدث المدن عهدا شيّدها محمد الأول بن الأغلب (226-242/841-856) قرب مدينة تاهرت، حسب رواية البلاذري وابن الأثير، سنة 239 هـ/853 م أو ربما قبل هذا التاريخ، كما جاء في رواية أخرى لابن خلدون الذي يؤرّخ الحدث بسنة 227 هـ/842 م.

ثم يستطرد القول بأن هناك احتمالا لوجود عبّاسيّة رابعة بالمغرب الإسلامي، مستدلا على ذلك أيضا بالمصادر النميّة. ذلك أن بعض المسكوكات التي تحمل اسم دار ضرب العبّاسيّة والتي نشرها بعض النميّين منذ القرن التاسع عشر، وأرخت بسنوات 140 هـ/757 و141 هـ/758[14] يجعلها أقدم مدن المغرب الإسلامي عامة سمّيت باسم العبّاسيّة. وهو ما يجره إلى طرح السؤال الذي يفرض نفسه أين توجد هذه المدينة الأولى المحتملة ؟ للإجابة عن هذا السؤال يقدم أبو الفرج العش أربعة احتمالات:

- "يجوز أن يكون القصر القديم، جنوبي القيروان" موضعا قديما سمّي في عهد الولاة العبّاسيين بالعبّاسيّة ولكن خرّب فيما بعد بفعل "الثورات وروح الكراهية لمركز الخلافة... وما كان عمل إبراهيم بن الأغلب إلا أنه أعاد البناء تجديدا وترميما، أحيا اسم العبّاسيّة إرضاء للخليفة". وأن هذه المدينة الأغلبية التي أطلقت عليها المصادر عدة تسميات تدل جميعها "على النواة التي تشكلت حولها مدينة العبّاسيّة" التي شيدها إبراهيم الأول، دون أن يتعرض بالتحليل للتطور التاريخي لأسماء المدينة القديمة التي قامت على أنقاضها عبّاسيّة مؤسس الإمارة الأغلبية ويوضح الأبعاد المختلفة لهذه التسميات.

- "يجوز أيضا أن طبنة التي أطلق عليها العبّاسيّة لم تكن مستحدثة من قبل عمر بن حفص، بل كانت أقدم من عهده، وكان عمل عمر هو التجديد وإعادة البناء".

---

[13] أنظر: عبد الحميد فنينة، " مدينة المهدية بافريقية في عصر الولاة العباسيين"، دراسة قيد النشر.

[14] أنظر:

C. J. Tornberg, *Numi Cufici Regii Numophylacii Holmiensis*, Upsala, 1848, n° 19 ; C. M. Fräehn, « Die inedita einer neuen, der numismatischen abtheilung des Asiatischen museums aus Persian gewordenen accession », *Bull. hist. phil.*, 1847, vol. IV, p. 245-255, voir p. 245, n° 3 ; I. A. Arri, *Novas observations in quosdam numos abbasidarum aliosque cuficos sive editos sive anecdotos*, Taurinorum, 1835, p. 28, n° 4 ; W. Tiesenhausen, *Monnaies des Khalifes Orientaux* (*Moneti vostochnavo khalifata*), Saint Pétersbourg, 1873, n° 709 et 711. Voir N. Lowick, *Op. cit.*, p. 44-45, n° 1-2.

- "يجوز أن يكون في الموضع" الذي يوجد قرب تاهرت والذي بنيت فيه مدينة العبّاسيّة التي شيدها محمد بن الأغلب "مدينة قديمة اسمها العبّاسيّة، لكن الاضطرابات والقلاقل خربتها وقضت على اسمها تشفّيا من نفوذ الخلافة في تلك المنطقة البعيدة".

- "يجوز" أن تكون مدينة العبّاسيّة هذه التي سكّت فيها دراهم سنتي 140 هـ و141 هـ هي مدينة رابعة غير المدن المذكورة وهي مدينة مجهولة لم تذكرها المصادر العربية.

بعد تقديم هذه الاحتمالات الأربعة يستطرد العش بالقول بأن هذه المدينة المغمورة واصلت ضرب السكّة في عهد الولاة العبّاسيين اللاحقين لولاية عمر بن حفص مما يحمله على الاعتقاد بأن العبّاسيّة هذه هي التي يذكرها في احتماله الرابع لأنه "لا سبيل إلى تعليل ذلك إلا بأنه توجد مدينة بإفريقية بعيدة حصينة اسمها العبّاسيّة، غير المدن التي ذكرناها، ظلت محكومة من أحد أفراد بني يزيد بن حاتم المهلبي وهو يعتز بجده في أثناء حياته وبعد مماته، وظل هو ومن تلاه من أسرته يصدرون الدراهم على النسق القديم دون أي تحوير. حصل هذا بالرغم من أن الأغالبة استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم بقوة على رقعة كبيرة جدا من إفريقية"، ويعني ذلك أن العش يعتبر ضمنيا أن العبّاسيّة هذه، أقدم مدن المغرب الإسلامي التي سمّيت بهذا الاسم وهي مدينة مجهولة توجد خارج حدود الإمارة الأغلبية، دون أن يحدّد موضعها بالضبط ربما بالمغرب الأوسط أو المغرب الأقصى.

تبدو لنا محاولة العش لتفسير مختلف المصادر التي تعرضت لمدينة العبّاسيّة، وخاصة منها النميّة، مضطربة جدا وتكتفي بإحصاء مدن العبّاسيّة بإفريقية والمغرب الإسلامي عامة بعدد الروايات. لكن الأمر المؤكد في هذا العرض أن اسم مدينة العبّاسيّة ظهر على سكة الولاة العباسيين قبل "تشييد" العبّاسيّة الأغلبية في عهد إبراهيم بن الأغلب، كما تجمع عليه المصادر المكتوبة والدراسات التاريخية. فهل يعني ذلك أن إفريقية في العهدين العبّاسي والأغلبي شيدت بها عل الأقل مدينتان سميتا باسم العبّاسيّة، إذا استثنينا مدينة محمد بن الأغلب التي لا تدخل في إشكالية هذه الدراسة. وإلى إي مدى يصح الرأي القائل بأن مدينة العبّاسيّة التي شرع في تشييدها إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ، لم يفرغ من بنائها إلا سنة 185 هـ أو ربما سنة 186 هـ أو بعد ذلك؟ وكيف نفسر حينئذ مختلف الإصدارات النقدية التي سكت في هذه الأثناء بهذه المدينة، أي خلال سنوات 184-186 هـ ؟ ثم إلى أي حد يمكن قبول الرأي القائل بأن ولاية إفريقية أو ربما المغرب الإسلامي بصفة أشمل عرفتا إنشاء مدن أخرى حملت اسم العبّاسيّة وهي مدن سابقة للعبّاسيّة الأغلبية والتي يستدل على وجودها من خلال الشواهد النميّة؟ وفي حالة إقرارنا لا محالة بوجود عبّاسيّة سابقة للعبّاسيّة الأغلبية تعود لفترة الولاة العبّاسيين فهل بالإمكان تحديد موضعها؟

تجدر الإشارة هنا إلى أن أبحاث نميّة سابقة لدراسة العش، يعود بعضها إلى القرن التاسع عشر وبعضها الآخر إلى بداية القرن العشرين، تعرضت باقتضاب إلى هذه المسألة؛ نخص بالذكر منها أعمال "فون زامباور". ففي سياق دراسته لبعض نماذج السكّة الإسلامية الفريدة، نشر قطعتين سكتا بدار ضرب العبّاسيّة تحملان تاريخ 150 هـ اعتبرهما أقدم

مسكوكات دار الضرب هذه، مفترضا أن العبّاسيّة التي كانت بمثابة مقر إقامة الوالي العبّاسي منذ ولاية الأغلب بن سالم (148-150/765-767) والتي توجد حذو حاضرة الولاية، لا تعدو أن تكون سوى مدينة القيروان نفسها بعد تطورها العمراني، والتي لم يظهر اسمها على السكّة إلى حدود العصر الفاطمي[15]. هذا الراي من السهل دحضه، إذ سبق وأن افترضه "ستيكل" في أواخر القرن التاسع عشر[16]. ذلك أنه من المعلوم ومنذ فترة طويلة أن اسم إفريقية الذي ظهر على السكّة يدل على حاضرة الولاية أي القيروان، وربما كان الاسم الرسمي لهذه الحاضرة إلى حدود العصر الفاطمي، والتي ضربت السكّة بالتوازي مع دار ضرب العبّاسيّة، فلا يعقل بتاتا أن تضرب السكّة في دار ضرب واحدة باسمين مختلفين في نفس الفترة. كذلك، وكما هو معروف أيضا منذ فترة طويلة، فإن موضع مدينة العبّاسيّة يوجد جنوبي مدينة القيروان على بعد ميلين أو بنحو 4 كيلومترات وأن المدينتين منفصلتين عن بعضهما البعض، لكل منها أسوارها وأبوابها الخ[17].

أما ح.ح. عبد الوهاب فإنه يعتبر أن دار ضرب العباسية هذه "ليست بالعبّاسيّة المعروفة جنوب القيروان التي أسسها فيما بعد إبراهيم الأول من بني الأغلب، وإنما هي مدينة صغيرة كان أسسها عمر بن حفص المهلبي في حدود سنة 152 هـ. لما كان واليا على إفريقية، والعبّاسيّة هذه تقع في ارض الزّاب حيث بسكرة الآن في ناحية المعاقل الحربية العربية للتخوم الإفريقية"[18]. والواضح أنه يعتمد في هذا التحديد على رواية البلاذري.

---

[15] أُنظر:

E. von Zambaur, *Op. cit.*, p. 47, n° 9-10. Voir p. 47-50 « Je crois qu'en considérant sans partie pris les traditions que je viens de citer, on ne pourra formuler d'autre opinion que ᶜAbbâsiya n'était rien que la résidence du gouverneur dans la capitale de la province, pareillement que le « qasr el-Mansour », plus tard, « Qasr el-Khold » et enfin le Harîm était la résidence des Khalifes à Baghdâd. Du récit de Balâdhori on peut conclure que l'armée et les fonctionnaires se sont établis autour du qasr-Qairawan, formant ainsi une nouvelle agglomération urbaine, et finalement ces deux centres de population, l'ancienne ville et la résidence, se sont confondues à ne plus former qu'une seule grande ville. Je suis convaincu que 'Abbâsiya est tout bonnement à identifier avec Qairewân et que le 1er nom n'est autre que la qualification officielle (surtout administrative) de la capitale, ainsi qu'on appelait Baghdâd : « Medinat es-Selâm », et Reyy « el-Mohammediya ». Puis ajoute, un peu plus loin : « Les monnaies nous apportent au moins une preuve négative. Qairewân ne se trouva jamais sur les monnaies, ainsi que Baghdâd, à l'exception du temps des premiers Fatimides ».

[16] بعد ان أشار الى الجدل القائم حول تحديد موضع العبّاسيّة بين كل من آدلر وفراين وكستغليلني، بين من يعتبرها حيا من احياء بغداد (Adler) وبين من يضعها برقادة (Frähn و Castiglioni) يذهب Stickel إلى الاعتقاد أنها لا تعدو أن تكون سوى مدينة القيروان. أنظر: P. J. G. Stickel, *Handbuk*, I, 52-53.

[17] أُنظر دراسة :

G. Marçais, « Fouilles à Abbâsiyya », *Op. cit.*, pp. 293-305.

[18] ح.ح. عبد الوهاب، ورقات، ج 1، ص 425-427: أُنظر أيضا لنفس المؤلف، النقود العربية في تونس، تونس، 1958، ص 23. هذا الرأي اخذ به بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح العربي الى سقوط دولة بني حماد، الجزائر، 1985، ص 133.

ثم إنّ أبحاثا، لاحقة لدراسة العش، تعرضت أيضا بصورة عرضية للمسألة، مثل دراسة س. شما الذي يعتبر "العبّاسيّة محلة كانت ببغداد منسوبة إلى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس. ولا يمكن أن تكون العبّاسيّة التي بناها إبراهيم بن الأغلب في سنة 184 هـ. أو بعدها، لأن الفلوس المضروبة بدأت من سنة 148 هـ."[19] وهو بذلك يذهب مذهب "لو ستراج"[20] في تفسير هذه الإصدارات. والواضح ان هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار أن الدراهم وليس الفلوس فقط التي سكت بدار ضرب العبّاسيّة والمؤرّخة قبل ظهور الإمارة الأغلبية تحمل أسماء ولاة إفريقية العبّاسيين. كما أن هذا الرأي يستند فيه صاحبه، على ما يبدو، إلى فلس يحمل تاريخ السك (148 هـ.) دون أن ينقش اسم الوالي عليه.

بعد استعراض أبرز الآراء حول تأسيس مدينة العبّاسيّة ونقدها، نعتقد انه بالإمكان تقديم تصور جديد حول هذه المسألة. لكن من المفيد في البداية الإشارة هنا إلى أن اختلاف الآراء بين المؤرخين والنمّيين يعود بالأساس إلى عدم إطلاع هؤلاء على أعمال الآخرين وإهمالهم لهذه المصادر الأثرية البالغة الأهمية، لا سيما فيما يتعلق بالمسائل التأريخيّة خاصة وأنها مصادر رسميّة معاصرة للأحداث التي ترويها. لكن هذه المصادر تتطلب دون شك استقراء للمعلومات الواردة فيها ومقابلتها بمصادر أخرى حتى يكون بإمكاننا الوصول إلى الحقيقة المرجوة. كما انه من المفيد الإشارة أيضا إلى أن النمّيين الذين تعرضوا لهذه المسألة بصورة عرضية في سياق حديثهم عن مواضيع أشمل، لم يفردوا لدار ضرب العبّاسيّة دراسة معمقة تعتمد فيها مختلف المصادر التي تعرضت لتاريخ المدينة كما لم يعتمدوا مقاربة منهجية سليمة تأخذ بعين الاعتبار إصدارات العبّاسيّة بدون معزل عن إصدارات دار ضرب إفريقية وهي مسألة وقع إهمالها تماما من منظورنا، إذ اقتصر الأمر على الإنكباب على تحقيق اسم مدينة الضرب وتأويل المعلومات الواردة بشأنها لتحديد مجالها فجاءت هذه الآراء مضطربة إلى حد ما بالرغم من أنها تستند إلى مصادر أثرية على غاية الأهمية لحسم هذه القضية.

III- مدينة العبّاسيّة : الموضع وتاريخ التأسيس

إن رصدنا لمختلف الإصدارات النقديّة التي سكّت بدار ضرب العبّاسيّة بإفريقية[21]، بالاعتماد على المصنّفات النميّة، يبين أن دار الضرب هذه اقتصرت على سك الدراهم والفلوس دون الدنانير[22] كما هو الشان بالنسبة إلى مختلف دور ضرب افريقية عهد الولاة العباسيين. فالدراهم سكت بدون انقطاع فيما بين 148 هـ و180 هـ[23] وبعد سنوات 183-184 هـ[24] كما

[19] أُنظر: س. شما، ثبت الفلوس العباسية، لندن، 1988، ص 77.

[20] أُنظر:

G. Le Strange, *Bagdad during the abbasid caliphate*, Londres, éd. 1924, p. 142 ; 148.

[21] أُنظر الجدول المصاحب أسفله.

[22] عكس ما يذهب إليه ح.ح. عبد الوهاب، النقود العربية، ص 52-53، عدد 55.

[23] N. Lowick, *Op. cit.*, p. 44-59, n° 1-255.

[24] أُنظر دراسة:

نشر بعض النمّيين، وكنا قد ألمحنا إلى ذلك من قبل، والدراهم أرخت بسنة 140 هـ أو ربما سنتي 140–141 هـ[25]. أما الفلوس فقد سكت بصورة متقطعة إبتداء من سنة 148 هـ إلى حدود سنة 183 هـ[26]. وفيما عدا بعض الإصدارات القليلة، والتي تعود إلى الفترة الأولى من نشاط دار الضرب، فإن سكة العبّاسيّة حملت أسماء مختلف الولاة العبّاسيين الذين تعاقبوا على حكم إفريقية. كما أنه عند مقابلة المعلومات الواردة على سكة العبّاسيّة مع ما تقدّمه المصادر العربية فيما يتعلّق بأسماء الولاة وفترة ولاية كل منهم نجد غالبا اتّفاقا بينهما. أما في الحالات النادرة التي لا تتّفق فيها تواريخ السكّ مع فترة حكم بعض الولاة، فإنها لم تقرأ بصورة مؤكدة، وبالتالي فلا مجال للشك في أن دار ضرب العبّاسيّة هذه توجد بإفريقية وأنها سابقة للمدينة الأميرية الأغلبية.

من ضمن القطع التي أرّخت بصورة غير مؤكّدة، نظرا لصعوبة قراءة تاريخ السكّ والتي تحتاج إلى التثبّت من جديد نخصّ بالذّكر الدراهم التي أرّخها بعض النمّيين، مع إبدائهم لاحتراز كبير في صحّة القراءة، بسنوات 140 هـ و141 هـ[27] في أعمال تعود إلى المنتصف الأول من القرن التاسع عشر. والتي وقع التشكيك في صحة قراءة تاريخ سكها، من قبل مختصين لاحقين منذ بداية القرن العشرين[28]. فالمعلوم أن افريقية خلال هذه السنة أصبحت خاضعة للخوارج الاباضية ولا يعقل أن يشيدوا مدينة يسمونها باسم العبّاسيين. مما يجعلنا نعتبر أن الاحتمال الذي يقدمه العش، بالاعتماد على هذين الإصدارين، حول إمكانية وجود عبّاسيّة رابعة غير المدن التي ذكرها وأقدمها هو افتراض يرتكز على أسس هشة، إن لم نقل واهية.

ما يبدو مؤكدا هو أن أولى الدراهم وكذلك الفلوس التي سكت بدار ضرب العباسية تعود إلى سنة 148 هـ[29] وهي قطعة خالية من اسم الوالي العباسي. ثم أصبحت دراهم سنوات

M. A. Al-ᶜUsh, *Monnaies aglabides*, p. 95, n° 155, 159-170.

[25] أنظر:

I. A. Arri, *Novas observations*, (140 ?) ; C. J. Tornberg, *Numi cufici*, II, n° 19 (140 H.) ; C. M. Fraëhn, *Op. cit.*, p. 245, n° 3 ; repris dans W. Tiesenhausen, *Monnaies des Khalifes Orientaux*, p. 59-70, n° 709, 711 et 714 ; N. Lowick, *Op. cit.*, n°1-2, p. 44-45 .

[26] سكت بدار ضرب العباسية الفلوس في السنوات التالية : 148، 152؟ 153؟ 155، 157؟ 159؟ 171 ؟ 172، 173، 175، 177، 179، 180–183 هـ أنظر :

S. Shamma, *A Catalogue of ᶜAbbasid copper coins*, p. 77-79, n° 12 ; N. Lowick, *Op. cit.*, p. 300-301, n° 1-22.

[27] أنظر :

C. J. Tornberg, *Numi cufici*, II, n° 19 (140 H.?) ; I. A. Arri, *Novas observations*, p. 28.

[28] أنظر خاصة:

E. Von Zambaur, *Op. cit.*, p. 50.

[29] أنظر :

Collection Limbada, cité par N.Lowick, *Op. cit.*, p. 44-45, n° 3-4. et p. 300, n° 1 (BMC, 172-174) ; voir également S. Shamma, *A catalogue of ᶜAbbâsid copper coins*, p.77, n° 1.

149 هـ و150 هـ تحمل في أسفل مركز الظهر كلمة "غلب"[30] وهو ما يتفق مع ما تذكره المصادر العربية حول ولاية الأغلب بن سالم التميمي الذي تولّى إمرة إفريقية فيما بين 148 هـ و150 هـ وهو ما يجعلنا ندعم الافتراض الذي أبداه من قبل "زامباور"[31]، والذي ارتكز على قطعة من مجموعته الخاصة تحمل تاريخ 150 هـ وهي قطعة خالية من اسم الوالي العباسي، بأن تشييد العباسية يعود إلى ولاية الأغلب بن سالم التميمي، وأن هذه المدينة، إن صح التعبير، أو دار الضرب والتي لم تذكرها المصادر العربية، واصلت، منذ تأسيسها، سك دراهم وفلوس تحمل ابتداءً من ولاية عمر بن حفص (151-154) أسماء الولاة العباسيين بدون انقطاع. فهل يعني ذلك أنها أصبحت المقر الرسمي للولاة العباسيين بإفريقية قبل ظهور الإمارة الأغلبية؟

نفترض أن محمد بن الأشعث سبق وأن ابتنى في موضع العباسية التي أسسها الأغلب بن سالم التميمي قصرا، عندما هجر دار الإمارة بالقيروان[32]. وأصبحت منذ ذلك الحين مركز السلطة حيث استقر الولاة العباسيون الذين تعاقبوا على حكم إفريقية أو على الأقل اتخذوها كمقر إقامة ثانوي. المهم أنها تعود في نشأتها إلى الأغلب بن سالم التميمي المعروف بولائه للعباسيين والذي اتخذ هذه التسمية ليطلقها على مدينته المحدثة تكريما دون شك، للخليفة العباسي الذي ولاه إمرة إفريقية. لكن هذه المدينة، فترة ولاية الأغلب على الأقل، لم يكن لها شأن يذكر نظرا لأنها كانت في مرحلة التشييد وبحكم قصر فترة ولايته لأن الثورات والإظطرابات التي شهدتها إفريقية أودت بحياته ولم يكن بإمكانه الفراغ من مشروعه التعميري لمدينته المحدثة. وهو ما يفسر ربما إلى حد ما إغفال المصادر العربية ذكر هذا الحدث.

المؤكد بالنسبة إلينا أن هذه المدينة المحدثة والتي كانت، دون شك في طور البناء، أو على الأقل دار إمارة ومستقر الولاة العباسيين بإفريقية تحتوي إلى جانب قصر أو قصور مختلف الولاة العباسيين الذين تعاقبوا على حكم إفريقية وبعض الدواليب الإدارية منها دار ضرب السكّة والتي كما سلف وأن ذكرنا سكت الدراهم والفلوس بدون انقطاع طوال فترة الولاة العباسيين، كانت تضرب سكة بالتوازي مع دار ضرب إفريقية/القيروان. مما يعني أنها

---

[30] أُنظر :

N. Lowick, *Op. cit.*, p. 44, n° 3-4.

[31] أُنظر :

E. von Zambaur, *Op. cit.*, p. 49. « Quant à l'époque précise de la fondation, il s'ensuit de la date de notre dirham que ni Omar ni Ibrâhîm n'en pouvait être l'auteur… nous arrivons à cette supposition que la ville fut fondée par le premier Aghlabide que nous connaissions, el-Aghlab ibn Sâlim, gouverneur d'Ifrîqiya de 148 à 150 ». Note 2, De même C. M. Fraehn, « Numi kifici anecdoti ex variis museis selecti », *Mémoires de l'Académie Imp. Des Sciences de St. Pétersbourg*, 1823, p. 35, a émis cette opinion qu'Ibrahim, au lieu d'être le fondateur d'une ville nouvelle, s'était borné à rebâtir et à fortifier el-'Abbâsiya. Voir aussi *Lettre de M. Bartholomai à M. Soret* (7ème lettre), Bruxelles, 1852, p. 17.

[32] أُنظر فوزي محفوظ، ن. م.، ص 135.

مدينة قائمة الذات، لا يمكن قط الخلط بينها وبين مدينة القيروان. والأهم من هذا أنها لفترة وجيزة (149-159 هـ) أوكلت لها مهمة ضرب السكّة بإفريقية دون سواها بعد أن توقفت دار ضرب إفريقية/القيروان عن السك. وهو ما يعني إن دار ضرب العباسية لم تكن كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن دار ضرب ثانوية مقارنة بدار ضرب إفريقية، بل دار الضرب الرئيسية على الأقل طيلة عقد من الزمن، يوافق فترة ولاية كل من الأغلب بن سالم التميمي ومن جاء بعده من الولاة إلى حدود ولاية يزيد بن حاتم (155-170/772-787)، والذي أعاد نشاط السك إلى دار ضرب إفريقية بعد بضعة سنوات من حكمه بعد أن تمكن من المسك بناصية ولاية إفريقية وفرض سلطته. لكنه في الآن نفسه أبقى على نشاط السك بدار ضرب العباسية، والذي يبدو أنه كان مكثفا من حيث حجم الإصدارات ولا يقل شأنا، أو ربما يفوق، ما كانت تصدره دار ضرب إفريقية فيما عدا سنوات 181 و184 هـ، أي الفترة التي سبقت بقليل لحظة ارتقاء إبراهيم بن الأغلب إلى الإمارة؛ مما يجرنا إلى القول بأن إصدار 184 هـ وما جاء بعده من الإصدارات لا يثير استغرابنا وأنه يتماشى بالعكس تماما مع منطق سير الأحداث، عكس ما يذهب إليه الأستاذ محمد الطالبي. وهو أيضا مؤشر على أن مركز السلطة يوجد آنذاك بالعباسية وليس بإفريقية (القيروان) على الأقل في بعض الفترات، ناهيك أن داري ضرب ولاية إفريقية (القيروان والعباسية) كانتا تزود الإمبراطورية العباسية في الفترة التي تتراوح بين 150 هـ و170 هـ بحوالي ربع حجم الإصدارات الجملية للدراهم[33]. وهو ما جعل من ولاية إفريقية في العهد العباسي الأول تحتل موضعا مركزيا في اقتصاد الإمبراطورية العباسية، عكس النظرة السائدة في اعتبار هذه الولاية هامشية.

هذه المدينة أو دار الإمارة أي مستقر الولاة العباسيين بإفريقية لا بد وأنها توجد قرب حاضرة الولاية القيروان حيث يتولى الوالي إمرة البلاد والخطبة في الجامع الكبير، خاصة أنها سكت إلى جانب الفلوس الدراهم بالأساس وهي من مشمولات الوالي دون سواه وتخضع لمراقبته المباشرة. كما انها لفترة عقد من الزمن اتخذت دار ضرب وحيدة لتزويد افريقية بالسكّة. وهكذا فإننا نعتبر أن دار ضرب العباسية التي أنشأها الأغلب بن سالم التميمي وواصل الولاة العباسين الذين جاؤا من بعده ضرب السكّة بها هي مدينة العباسية التي تجمع الدراسات التاريخية على اعتبار أن إبراهيم بن الأغلب مؤسسها.

مثّل نصّ البلاذري عمدة الدراسات التي نحت في تناولها اشكالية تأسيس العباسية لتؤرخ حدث تاسيس المدينة بسنة 184 هـ، غير أن قراءة متمعّنة في النصّ المذكور تسمح بتقديم نظرة مغايرة تدفع في اتجاه تحملنا على القول به المصادر النمية. لكن قبل الخوض في محتوي النصّ وجب تقديم مجموعة ملاحظات تمهيدية.

---

[33] أنظر دراسة:

E. Savage et A.-A Gordus, « Dirhams for the Empire », *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, éd. P. Cressier et M. Garcia-Arenal, Madrid, 1998, pp. 377-402 ; T. Noonan, « Early ʿAbbâsid mint output », *JESHO*, 29, 1985, pp. 113-175.

فالبلاذري (ت 892/279 أو قبل 915/302)، الذي بالرغم من معاصرته للإمارة الأغلبية، لم يزر إفريقية. ولكن يبدو وصفه لمدينة العباسية ومختلف مراحل تشييدها دقيقا ولو أنه مقتضب جدا ذلك لأنه استقى معلوماته من" أحد الموالى الأغالبة المشهورين وهو أحمد بن نافذ"[34]. يذكر في كتابه فتوح البلدان " فإبتنى إبراهيم القصر الأبيض الذي في قبلة القيروان على ميلين منها وخطّ للناس حوله فابتنوا ومصّر ما هناك وبنى مسجدا جامعا بالجص والآجر وعمد الرخام وسقفه بالأرز وجعله مائتي ذراع في نحو مائتي ذراع وابتاع عبيد أعتقهم، فبلغوا خمسة آلاف وأسكنهم حوله وسمي تلك المدينة العبّاسيّة وهي اليوم آهلة عامرة"[35]. يوحي لنا هذا المؤرخ إذا بأن العبّاسيّة التي أصبحت في عصره مدينة "آهلة عامرة"، لم يحدثها إبراهيم بن الأغلب من عدم وإنما على أنقاض مباني تعود لفترة سابقة، لا شك أنها تعود على الأقل إلى فترة الولاة العباسيين. فالكاتب يشير في مطلع روايته إلى أن مؤسس الأسرة الأغلبية قام في البداية بتشييد قصره الأبيض في موضع المدينة المزمع إحداثها. وهو ما يعني في واقع الأمر أنه لم يقم بقصور الولاة العباسيين السابقين، مثل قصر الماء او قصر الرصافة الذي يذكر البكري انه كان حذو العباسية[36]. ثم أنه، عكس من سبقه من الولاة، لم يتفرد بسكنى هذا الموضع وإنما وزع حوله الخطط على "النّاس" من أفراد أسرته وحاشيته وأفراد جنده الخاص من العبيد الذين عتقهم،"فابتنوا"، بعدها "مصّر ما هناك" وهي عبارة هامة توحي بأن الموضع معمور من قبل. فلفظة مصّر تعنى حسب المعاجم التمدين؛ مثل قولهم مصّر الامير المكان جعله مصرا، ويقال مصّر الامصار مثل مدّن المدائن. نستشف اذا من هذه العبارة أن عمل إبراهيم بن الاغلب تمثل، بعد تشييده لقصره، في تعمير المكان ببناء المنشئات المعمارية الأساسية مثل الجامع، حتى يصبح المكان مدينة مكتملة الملامح. ويختم البلاذري قوله بأن الأمير الأغلبي "سمي تلك المدينة العبّاسيّة " وهي عبارة محيرة توحي، كما جاء في كل الدراسات التاريخية، بأن إبراهيم بن الأغلب أسس مدينة جديدة أطلق عليها تسمية العبّاسيّة. تجدر الاشارة هنا إلى أن نفس المؤرخ تحدث في موضع آخر عن أن والي افريقية عمر ابن حفص (151-154 هـ) شيّد ببلاد الزاب مدينة سمّاها العباسية[37].

لكن على ضوء ما ذكرناه بالاعتماد خاصة على السكّة نتبين أن هذه المدينة قديمة أحدثت قبل تولي إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية وسميت العبّاسيّة وهو ما تدعمه المصادر النمية، مما يجعلنا نعتبر أن هذه العبارة تشير في واقع الأمر إلى أن عمل إبراهيم بن الأغلب اقتصر على الاحتفاظ بالتسمية القديمة التي أطلقها والده وتواصل اعتمادها من قبل من جاء بعده من الولاة على الموضع الذي اتخذه مقرا لسلطته. احتفاظه بالتسمية القديمة لا شك أنه يعود لرغبته في تخليد ذكرى والده، وهو ما حمل المؤرخين القدامى على التميز بين حدثي التأسيس والتمصير بإطلاق تسمية القصر القديم على "المدينة" المحدثة من طرف الأغلب بن

[34] أنظر فوزي محفوظ، ن.م.، ص 130.

[35] البلاذري، فتوح البلدان، ص 235. ورد هذا النص أيضا في محمد الطالبي، ن.م.، ص 153.

[36] البكري، المسالك والممالك، تونس، 1992، ج 2، ص 580.

[37] أنظر حول هذه المدينة ع. فتينة "مدينة المهدية بافريقية في عهد الولاة العباسيين" دراسة قيد النشر.

سالم أي قصر العبّاسيّة الذي اصبح بعد تشييد مدينة العبّاسيّة على نفس الموضع من قبل إبراهيم بن الأغلب قصرا قديما. وهكذا يبدو لنا واضحا السبب الذي جعل المصادر تطلق تسمية القصر القديم على مدينة العباسية، باعتبار أن العباسية الأولى لم تكن في واقع الأمر سوى قصرا عكس المدينة المشيدة من إبراهيم بن الأغلب. هذا الموضع لم يكن بحق مدينة مكتملة المعالم وإنما مجرد مقر للوالي وإدارته المركزية. فهو لا يحتوي على مسجد جامع ولا حمامات ولا أسواق ولا سكن، كما هو الحال في الأمصار، وإنما يقتصر على دار الإمارة ودواليبها الإدارية وبالتأكيد دار السكّة. كان بإمكان إبراهيم بن الأغلب طبعا تغيير التسمية السابقة واتخاذ تسمية جديدة لمدينته خاصة وأنها أصبحت تحتوي على كل مكونات المدينة ولو أنها قامت على أنقاض أو إلى جوار مدينة سابقة، لكنه خير الإبقاء على التسمية القديمة خاصة وأنها تعود إلى والده، وأنه لم يشأ أن يغير تسمية لها رمزيتها في الاعتراف بالخلافة العباسية كما فعل من قبل والده.

الخاتمة

خلاصة القول إن العباسية، القصر القديم تعددت الأسماء والموضع واحد كما جاء في دراسة الصديق الأستاذ فوزي محفوظ، وهي أيضا مدينة واحدة فترتي الولاة العباسيين والأغالبة. أسسها الأغلب بن سالم التميمي أو على الأقل شيد النواة الأولى والتي اقتصرت على ما يبدو على دار الإمارة ودون شك دار الضرب، وربما كان ذلك على أنقاض قصر الماء ثم اتخذها من جاء بعده من الولاة العباسيين مستقرا لهم دون أن ترتقي بعد إلى درجة المدينة. هذه اللحظة حصلت عندما تولي إمارة إفريقية إبراهيم بن الأغلب سنة 800/184. شرع إثرها في تشييد قصره الأبيض واختط للناس حوله من أهله وحاشيته وحرسه من العبيد وبنى بها مسجده الجامع وحصنها حتى أصبحت بمرور الوقت مدينة بأتمّ معنى الكلمة قامت على أنقاض القصر القديم[38] او قصر العبّاسيّة القديم والتي أطلق عليها البعض من المؤرخين العرب

38

Selon F. Mahfoudh, *Op. cit.*, p. 52, « A partir du X^{e} siècle le toponyme al-Abbâsiya disparaît, pour laisser la place à d'autres appellations apparemment plus neutres, en particulier celles d'al-Qasr ou d'al-Qasr al-Qadîm (« le vieux palais »). Ce dernier nom a suscité des interrogations sur son sens. Quelques hypothèses ont été formulées pour l'expliquer :

-Solignac pensait que le toponyme évoque le Vieux Palais, al-Qasr al-Abiad (le Palais Blanc ») signalé par al-Balâdhuri, et qui fut selon ses dires la première construction érigée par Ibrâhîm ibn al-Aghlab, supposition qui ne tient pas compte du passé romain de l'endroit ;

-La lecture d'Ibn Idhâri, auteur tardif du XIII^{e} siècle, qui décrit dans un passage al-Abbâssiya et Raqqâda, laisse penser que le terme al-Qasr al-Qadîm avait été adopté après la construction de Raqqâda, cette dernière serait le Nouveau Palais, al-Abbâssiya étant l'ancien ;

-A ces deux hypothèses l'on pourrait ajouter une troisième : al-Qasr al-Qadîm avait été choisi pour sauvegarder le souvenir d'un ancien château, ou tout simplement du château d'eau qui se trouvait *in situ* ; ce fut sans doute l'édifice le plus important qui a été remarqué depuis le premier contact des

قصر إبراهيم. كما أطلقت عليها تسميات عدة: قصر/قصور الأغالبة أو دار/منازل الأغالبة لنزول الأمراء الأغالبة الذين أتوا بعده بها وسميت أيضا بقصر القيروان/قيروان، ربما منذ فترة الولاة العباسيين، باعتبارها مدينة أميرية لا تبعد إلا بضعة كيلومترات من حاضرة الإمارة وتحتوي على مركز السلطة السياسية ومؤسسات الدولة والتي تدعمت في فترة الأغالبة فعرفت بهم وأسند تأسيسها لمؤسس الأمارة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب. وهكذا يبدو بديهيا أنه وقع التمييز بين المدينة الأولى التي أصبحت تحمل تسمية القصر القديم عوض العباسية، التسمية[1] التي أصبحت خاصة بالمدينة الأميرية التي شيدها إبراهيم ابن الأغلب.

Arabes avec la région. Le Qasr al-Qadîm pourrait être tout simplement une construction de Qasr al-Mâ' al-Qadîm. L'adjectif « ancien » (al-qadîm) se rapporterait ainsi à la période romaine et non au règne d'Ibrâhîm Ibn al'Aghlab ».

1-أنظر فوزي محفوظ، ن. م.، ص 135. وأنظر البكري، ن. م.، ج 2، ص 579؛ ابن عذاري، ن. م.، ج 1، ص 208.

بيبلوغرافيا

-ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج. 4، بيروت، 1968.

-ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1، تح. ج.س. كولان وإ. ل. بروفنسال، بيروت، 1983.

-البكري، المسالك والممالك، تونس، 1992.

-البلاذري، فتوح البلدان، تح. رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.

-الرماح (مراد) "ملاحظات حول ضرب السكة بالقيروان"، إفريقية، 19، 2002، ص 5-16.

-شما (س.)، ثبت الفلوس العباسية، لندن، 1998.

-الطالبي (محمد)، الدولة الأغلبية، تعريب م. الصيادي، بيروت، 1985.

-بن قربة (صالح)، المسكوكات المغربية من الفتح العربي إلى سقوط دولة بني حماد، الجزائر، 1986.

-عبد الوهاب (حسن حسني)، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، ج. 1، تونس، 1972.

-عبد الوهاب (حسن حسني)، النقود العربية في تونس، البنك المركزي، تونس، 1968.

-العش (محمد أبو الفرج)، "تحقيق بعض مدن ضرب النقود" المسكوكات، العدد 8-9، 1978 ص 40-52

-العش (محمد أبو الفرج)، كنز أم حجرة الفضي، دمشق، 1972.

-فنينة (عبد الحميد)، "مدينة المهدية بافريقية في عصر الولاة العباسيين"، قيد النشر.

-محفوظ (فوزي)، "قصر الماء، العباسية، القصر القديم : تعددت الأسماء والموضع واحد"، إفريقية، 19، تونس، 2002، ص 119-144.

-ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، بيروت، 1979.

-Abdul-Wahab H. H., « al-ᶜAbbâsiyya », *EI²*, I, p. 24-24.

-Arri I. A., *Novas observations in quosdam numos abbasidarum aliosque cuficos sive editos sive anecdotos*, Taurinorum, 1835.

-Fenina A., et alii, *Numimatique et histoire de la monnaie en Tunisie*, t. II, *Monnaies islamiques*, Tunis, 2007.

-Fournel H., *Les Berbères. Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, vol. I, Paris, 1875.

-Frähn C. M., « Die inedita einer neuen, der numismatischen abtheilung des Asiatischen museums aus Persian gewordenen accession », *Bull. hist. phil.*, 1847, vol. IV, p. 245-256.

-Lavoix H., *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*, t. I, Paris, 1887.

-Lowick N., *Early ʿAbbâsid coinage. A type corpus (132-218 H/ AD 750-833)*, éd. E. Savage, Londres, 1999.

-Mahfoudh F., Qasr al-Mâ, al-Abbâsiya et al-Qasr al-Qadîm : à propos de quelques agglomérations près de Kairouan », *CRAI*, 1er fasc., Paris, 2003-2, p. 49-64, voir particulièrement p. 56-64.

-Marçais G., « Fouilles à Abbâssîya, près de Kairouan », *Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques* (*BACTHS*), 1925, p. 293-306.

-Marçais G., *Architecture musulmane d'Occident*, Paris, 1954.

-Noonan T., « Early ᶜAbbâsid mint output », *JESHO*, 29, 1986, p. 113-175.

-Savage E. et Gordus A.-A., « Dirhams for the Empire », *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental*, éd. P. Cressier et M. Garcia-Arenal, Madrid, 1998, p. 377-402.

-Shamma S., *A catalogue of ʿAbbasid copper coins*, Londres, 1998.

-Stickel D. J.G., *Handbuch zur morgenländischen münzkunde*, I, Leipzig, 1845

-Talbi M., *L'Émirat aghlabide (184-296/800-909). Histoire politique*, Paris, 1966.

-Tiesenhausen W., *Monnaies des Khalifes Orientaux* (*Moneti vostochnavo khalifata*), Saint Pétersbourg, 1873.

-Tornberg C. J., *Numi Cufici Regii numophylacii Holmiensis quos omnes in terra Sueciae repertos digessit et interpretatus est*, Upsula, 1848.

-Al-ᶜUsh M. A., *Monnaies aglabides, étudiées en relation avec l'histoire des Aglabides*, Damas, 1982.

-Vonderheyden M., *La Berbérie orientale sous la dynastie des Bénou-l'Arlab*, Paris, 1927.

-Zambaur E. von, « Contributions à la numismatique orientale. Monnaies inédites ou rares des dynasties musulmanes de la collection de l'auteur », dans *Numismatische Zeitschrift*, T. XXXVI, Vienne, 1905 (1904), p. 43-122.

-Zambaur E.von, *Die münzprägungen des Islams*, Wiesbaden, 1968.

جدول إصدارات الدراهم بداري ضرب السكّة بإفريقية فترة الولاة العباسيين: العباسية وإفريقية من خلال مدونة:

N. Lowick, *Early ᶜAbbâsid coinage. A type corpus (132-218 H/ AD 750-833)*,

p. 44-85

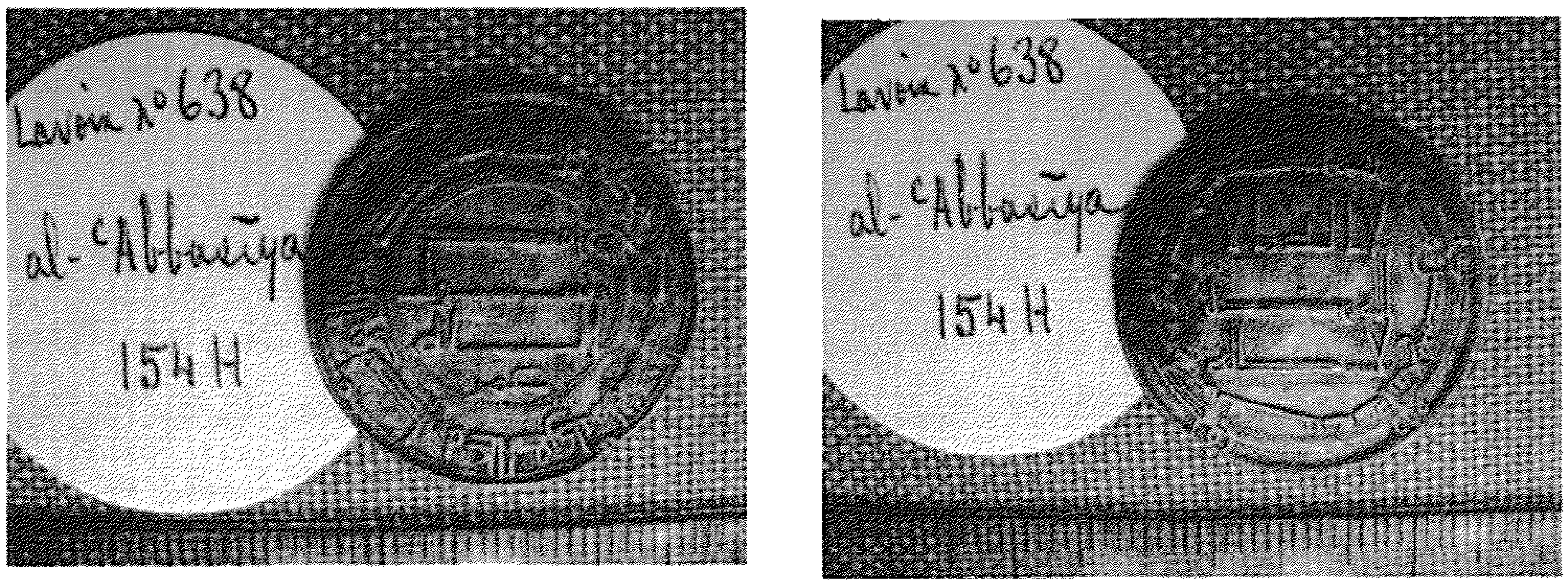
الولاة	تواريخ الحكم	العباسية	إفريقية
عبد الرحمان بن حبيب	754-744/137-127		[133]
حبيب بن عبد الرحمان	757-755/140-138	[؟140]	140
		[؟140/1]	141
	765-761/148-144		142
			143
محمد بن الأشعث			144
			145
			146
الاغلب بن سالم التميمي	768-765/150-148	148	148
		149	
		150	
عمر بن حفص	771-768/154-151	151	
		152	
		153	
		154	

	155	787–772/170–155	يزيد بن حاتم
	156		
	157		
	158		
	159		
160	160		
[161 ؟]	161		
[162 ؟]	162		
163	163		
164	164		
165	165		
166	166		
167	167		
168	168		
169	169		
170	170		
171	171	791–788/174–171	روح بن حاتم
172	172		
173	173		
174	174	793–791/177–174	نصر بن حبيب
175	175		

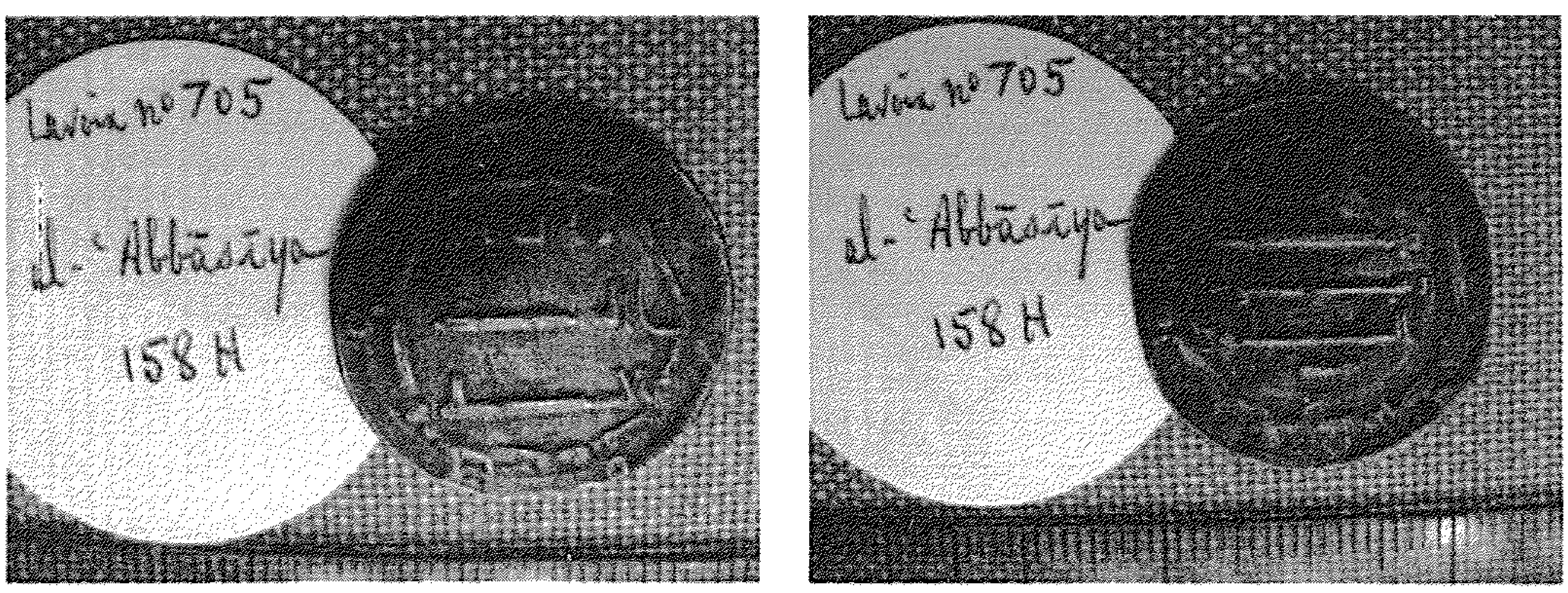
176	176		
177	177	794-793/178-177	الفضل بن روح
178	[178]		
179	[179]	797-795/181-179	هرثمة بن اعين
180	[180]		
181		799-797/183-181	محمد بن مقاتل العكي
182			
183			
184		812-800/196-184	ابراهيم بن الاغلب

اللوحات

أخذت الصور من مجموعة البنك المركزي التونسي و Cabinet des Médailles de Paris. يطيب لي أن أتوجه بجزيل الشكر إلى كل من السيد على الخيري و François Thierry على مساعدتهم لي على آخذ الصور.



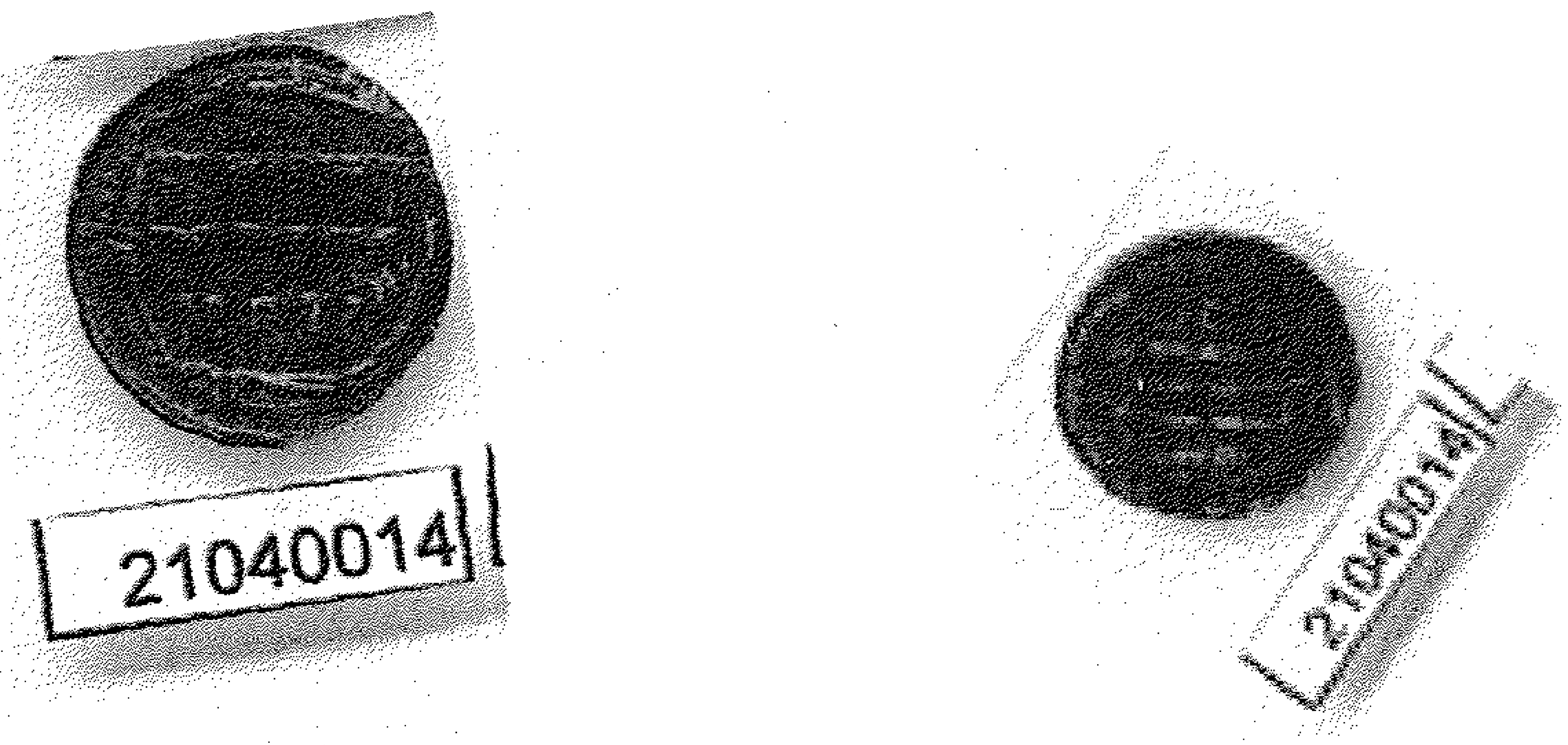
1-درهم ضرب بالعباسية سنة 154 هـ في ولاية عمرو بن حفص (BNF, Lavoix, 638)



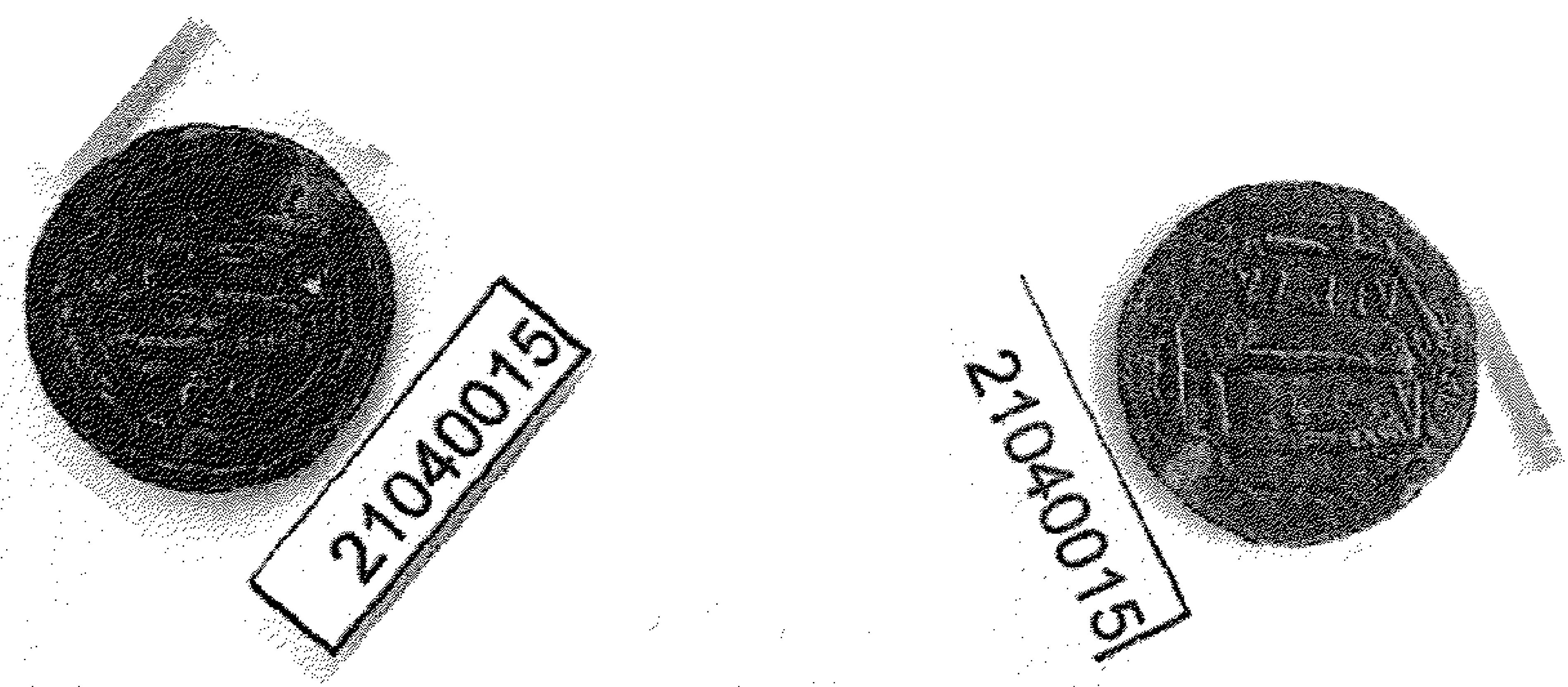
2-درهم ضرب بالعباسية سنة 158 هـ في ولاية يزيد بن حاتم (BNF, Lavoix, 705)



3-درهم ضرب بالعباسية سنة 16[6]هـ في ولاية عمرو بن حفص (BCT, Fenina, 128)



4-درهم ضرب بالعباسية سنة 17[1]هـ في ولاية عمرو بن حفص (BCT, Fenina, 133)



5-درهم ضرب بالعباسية سنة 117هـ في ولاية عمرو بن حفص (BCT, Fenina, 134)



6-درهم ضرب بالعباسية سنة 184هـ في إمارة إبراهيم بن الأغلب (BNF, Lavoix, 828)

من الأربس إلى رقادة: مسلك الداعي الشيعي

مراد عرعار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان

تكتسي كتب المسالك والرحلة، سواء كانت المشرقية منها أم المغربية، أهمية بالغة في مدنا بعديد أسماء الأماكن الواقعة على شبكة الطرقات الرئيسية أو المسالك الفرعية، وبمعلومات عن التنظيمات الإدارية بإفريقية في العصر الوسيط. لكن لا تنفي هذه الأهمية بعض النقائص من بينها أن هؤلاء الجغرافيين غالبا ما يقتصرون على ذكر المواقع التي مرّوا بها، ولا ترد المعلومات عن التنظيمات الإدارية إلا بصفة عرضية ومقتضبة لا تمكن من معرفة شاملة للمجالات الإدارية وخاصة للحدود الفاصلة بينها. وحيال هذه النقائص، وجب على دارس الجغرافية التاريخية لإفريقية في العصر الوسيط العودة إلى مصادر أخرى مكملة مثل المصنفات التاريخية التي يجد فيها معلومات مفيدة رغم اقتضابها وتضاربها في غالب الأحيان. وفي محاولة لتأكيد هذه الأهمية، نأخذ كنموذج مسلك الدّاعي الشيعي من الأربس إلى رقادة اعتمادا على ثلاث روايات مختلفة لكنها متكاملة للقاضي النعمان وابن الأثير وابن عذاري.

وسنحاول من خلال هذه الورقة المقارعة بين هذه النصوص قصد تحديد مسار هذا المسلك العسكري وضبط مواقع بعض الأماكن المذكورة فيه، كما أننا سنعمل على توضيح بعض المجالات الإدارية التي كانت تحيط بجهة القيروان في نهاية العصر الأغلبي وتقديم مقاربة عن الحدود الفاصلة بينها.

I – المسلك والموقعية

نهضت الأربس بحكم موقعها الإستراتيجي بدور هامّ في الدفاع عن عاصمة الأغالبة ضدّ الدعوة الفاطمية الشيعية، فهي "باب إفريقية" على حدّ قول ابن الأثير[1]، وهي المكان الذي جمّع فيه زيادة الله الثالث كل ما قدر عليه من القوة والمال والرأي والحيلة والبذل والإنفاق. لكن سقوط هذه القلعة المتقدمة في الدفاع عن العاصمة على إثر معركة يوم السبت 24 جمادى الآخرة 296 هـ / 909 م[2] مثل إيذانا بنهاية الحكم الأغلبي بإفريقية وفتح الباب على

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1997، ج 7، ص 135.

[2] القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1985، ص 209.

مصراعيه لمواصلة التقدم الشيعي نحو القيروان. فبعد أن تواصل مقام الشيعة بمناخهم ليلة السبت، دخلوا إلى المدينة صبيحة يوم الأحد وأقاموا ليلتهم هناك، وفي صبيحة يوم الإثنين قرّر الداعي مواصلة تقدمه بإفريقية دون أن تكون وجهته المباشرة نحو رقادة، فقد كان يريد التوجه نحو قمودة أو قسطيلية لكنه غيرّ في طريقه وجهته نحو العاصمة. وقد وصفت لنا بعض المصادر المسلك الذي اتبعه من الأربس نحو رقادة تقدمها في ما يلي حسب تسلسلها الزمني:

- رواية القاضي النعمان، ت 363 هـ / 973 م : "وانصرف أبو عبد الله بجميع العساكر يوم الاثنين فأخذ على دقة يريد قمّودة والناس يقولون يريد قسطيلية... ووافى أبا عبد الله الخبر بهرب زيادة الله، وقد خرج من دقّة من قبل أن يصل إلى سبيبة، فأخذ على سليانة ونزل وادي الرمل فبات به. فلمّا أصبح قدّم غزوية وحسن بن أبي خنزير في ألف فارس إلى رقّادة وأمرهم أن لا يتعرضوا أحدا بمكروه. فوصلوا إلى رقادة وأصابوا الناس بها ينتهبون الطعام وما بقي من خسيس الخرثي... وخرج شيوخ القيروان وفقهاؤهم لتلقي أبي عبد الله، فلقوه، وسلموا عليه، وهنؤوه بالفتح. فأقبل عليهم بوجهه ورد عليهم أحسن ردّ، وأمرهم فركبوا دوابهم، ودعا بهم فاستصحبهم... إلى أن وصل إلى رقادة، وكذلك هم يمشون حوله، فنزل بها... وكان دخول أبي عبد الله يوم السبت غرة رجب سنة ست وتسعين ومائتين"[3].

- رواية ابن الأثير، ت 630 هـ / 1232 م. تضمنت بعض الاختلاف مع رواية القاضي النعمان حيث قال: "وانصرف أبو عبد الله إلى قمّودة ... ولمّا بلغ أبا عبد الله هرب زيادة الله كان بناحية سبيبة، ورحل فنزل بوادي النمل، وقدم عروبة بن يوسف، وحسن بن أبي خنزير، في ألف فارس إلى رقادة... وخرج الفقهاء ووجوه البلد إلى لقاء أبي عبد الله، فلقوه، وسلموا عليه، ... ورجعوا إلى القيروان... ودخل رقادة يوم السبت، مستهل رجب من سنة ست وتسعين ومائتين"[4].

- رواية ابن عذاري، ت 712 هـ / 1312 م. قال بعد انتصار الشيعي بالأربس: "وانصرف إلى مدينة باغاية، إذ خشي أن يحاشد عليه أهل إفريقية". لكننا نجده يتناقض مع نفسه في ما بعد ليقول: "وبلغ أبا عبد الله الشيعي هروب زيادة الله. فتحرك من الأربس يريد القيروان. فهال الناس أمره، وخافوا على أنفسهم. وخرج إليه الفقهاء ووجوه الناس، فقطع بهم محبوب بن عبد ربه الهوّاري بموضع يعرف بفحص باروقس بين مدينة جلولاء وحمّام السرداق؛ وذلك يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، فانصرفوا أقبح انصراف، وكتبوا إلى أبي عبد الله يذكرون ما دار عليهم، ويعتذرون بذلك إليه، ويسألونه أن يجد لهم موضعا يلقونه، فأجابهم: موعدكم ساقية ممّس يوم السبت. وبعث أبو عبد الله غروية بن يوسف الملوسي بقطيع من الخيل لضبط مدينة رقادة، وتحصين ما أدرك بها من الأموال؛ فنزل عليها يوم الجمعة لانسلاخ جمادى الأخيرة. فألفى الناس بين داخل وخارج؛ فأمر الخارج ألا يعود، والداخل بالخروج

[3] المصدر نفسه، ص 211، 219–221. ونكاد نجد نفس هذه الرواية لدى الداعي إدريس الذي ينقل عن القاضي النعمان دون تقديم إضافات. أنظر: عيون الأخبار وفنون الآثار، حقق محمد اليعلاوي السبع الخامس والسادس منه ونشرهما تحت عنوان تاريخ الخلافة الفاطمية بالمغرب، بيروت، 8519، ص 133، 137–138.

[4] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 595 – 595.

فارغا. ولم يكن منه إلى الناس إلا خير. وفيها أقبل إلى مدينة رقادة في سبعة عساكر، وعدد من فيها، على ما ذكر ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل، فوصل إليها يوم السبت غرة رجب، فخرج إليه أهل القيروان من الفقهاء والوجوه وجلة التجار؛ فإلتقوا على ساقية ممّس"[5].

تمكّن المقارعة بين النصوص إلى حدّ ما من تحديد مسار هذا المسلك وضبط المحطات التالية:

1 - من الأربس إلى دقة

لئن ذكرت هذه المحطة لدى القاضي النعمان، فإن ابن الأثير وابن عذاري قد سكتا عنها. ونرجح أن الداعي الشيعي مرّ على مدينة أبة التي كانت تمثل المحطة السادسة عشر على الطريق قرطاج – تبسّة، وتوجد آثارها على مسافة سبعة أميال رومانية جنوب غرب الأربس[6]. ورغم التحول الذي طرأ على شبكة المسالك القديمة في العصر الوسيط، حافظت أبة على موقعها كمحطة على بعض الطرقات والمسالك الوسيطة.

وقد وصف البكري الطريق الثاني من القيروان إلى قلعة أبي طويل بقوله إنّه يخرج: "من القيروان في قرى وعمارات إلى مدينة أبة ثلاثة أيام. ومن مدينة أبة إلى نهر ملاق وهو نهر عظيم يسقي نواحي فحص بل. ومن نهر ملاّق إلى مدينة تامديت ..."[7]. وعلاوة على وقوعها مسافة ثلاث مراحل عن القيروان على هذا الطريق الذي يصفه البكري، كانت أبة الواقعة غرب الأربس تتصل بها عبر مسلك فرعي أشار إليه ابن حوقل عند وصفه للطريق من القيروان إلى المسيلة وحدّده بمسافة اثني عشرة ميلا[8]، في حين أشار البكري إلى نفس هذا المسلك على

---

[5] ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت، 1983، ج 1، ص 147، 149–150.

[6] *Table de Peutinger*

تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن طريق أنطونيوس (Itinéraire d'Antonin) التي تمثل مجموعة من المحطات لتجميع الضرائب الموظفة على المحاصيل الفلاحية قد ذكرت عديد المحطات بناحية أبة مثل ألتيبيروس وعدة محطات أخرى على الطريق بين زنفور وهنشير قصر دقة، الأمر الذي يسمح بتعرف شبكة الطرقات القديمة بالجهة. كما وردت بجدول بوتنجر الذي كانت له أغراضا عسكرية أكثر منها اقتصادية وإدارية، أغلبية المراكز العمرانية بجهة أبة على طريقين رئيسيين هما الطريق قرطاج – تبسة حيث نجد محطة أبة وألتيبيروس، والطريق الذي يتفرع عنه انطلاقا من ألتيبيروس ليتجه نحو تيسيدروس (الجم) حيث تقع مستوطنة زنفور وألتيسيرا (Altssera) التي لا تزال مجهولة الموضع. أنظر:

NADDARI (L.), *Enquête sur les sites archéologiques de d'Ebba région Ksour*, D.E.A, Faculté des sciences humaines et sociales, Tunis, 1998, p. 4-5.

[7] البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس، 1992، ج 2، ص 715.

[8] ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، 1927، ص 87. وأنظر أيضا: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق تحت عنوان المغرب العربي في كتاب نزهة المشتاق، باريس، 1983، ص 155.

الطريق الثاني من القيروان إلى قلعة أبي طويل، وحدّده بستة أميال[9]. ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف بين الميل المشرقي والأندلسي[10] فإن المسافة الحالية بين المدينتين تناهز 15 كلم.

ويتواصل مسار هذا المسلك من أبة إلى دقة التي توجد آثارها فوق هضبة يبلغ ارتفاعها 799 مترا جنوب شرق القصور باتجاه الروحيه أو مكثر[11]، وتمسح آثار هذه القرية قرابة 50 هك، وهي عبارة عن قلعة بيزنطية كانت تسمّى تقّة تيريبنتينا *Tucca Terebintina*. وقد ذكر شارل تيسو أنها تقع على بعد 25 ميلا شمال/ شمال غرب سبيبة وعلى بعد 12 ميلا من زنفور[12]، وهذا ما ينفي الاحتمال الذي ذهب إليه كامبوزا من أن جزيرة ابن حمامة يمكن أن تكون تقّة تيريبنتيا[13]. لقد أقيمت هذه القلعة الواقعة جنوب شرق الأربس ضمن سلسلة القلاع المنتشرة بين حصن يونقة وسوسة شرقا، وبين الأربس وميدرة (حيدرة) غربا لحماية خط الظهرية التونسية، وهي عبارة عن حصن مستطيل الشكل يضم ثلاثة أبراج، الأول في الركن الجنوبي الغربي، والثاني في الركن الشمالي الشرقي، ويتوسط الثالث الواجهة الشرقية ولعله باب الحصن[14]. وغير بعيد عن هذا الحصن، توجد آثار حصن آخر مستطيل الشكل قياساته 21 x 13 م، وتوجد بداخله خمسة تيجان أعمدة منها اثنان من الرخام الأبيض وثلاثة من الحجارة. ويطلق العرب على هذا المعلم اسم جامع سيدي عقبة، لكن الحجارة الضخمة التي شيد بها تنمّ عن كونه متقدم عن الفترة الإسلامية، ومن المرجح أن يكون معبدا وثنيا طوّع إلى كنيسة مسيحية ثم إلى مسجد للصلاة[15].

2 - من دقة إلى سكتانة أو سكيانة

خرج أبو عبد الله الشيعي، حسب مؤلف إفتتاح الدعوة، من دقة وقبل الوصول إلى سبيبة أخذ على موضع يسمّى سكتانة أو سكيانة. وقد اعتبره فرحات الدشراوي محقق الكتاب، وعنه أخذ محمد اليعلاوي في تحقيق كتاب عيون الأخبار، يوافق مدينة سليانة اليوم[16]. ولكن يصعب في نظرنا الأخذ بهذا الرأي لاعتبارين أساسين:

■ أولا: تقع سليانة على مسافة حوالي 40 كلم شمال شرق دقة[17] الواقعة جنوب شرق القصور باتجاه الروحية، ونفهم من سياق الرواية أن الشيعي يواصل طريقه في اتجاه جنوب

---

[9] البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 715.

[10] يبدو أن الميل المشرقي يساوي ضعف الميل الأندلسي.

[11] *Carte topographique au1/50.000*, Ebba Ksour, 282 N, 418 E.

[12] TISSOT (Ch.), *Géographie comparée de la province romaine d'Afrique*, Paris, Hachette et Cie libraire éditeur, 1888, T. II, p. 619.

[13] CAMBUZAT (P. L.), *L'évolution des cités du Tell en Ifriqiya du VII^e au XI^e siècle*, Alger, Office des Publications Universitaires, 1986, p. 89 – 90.

[14] BEN BAAZIZ (S.), *Rohia et Sraa Ouertane dans l'Antiquité*, Tunis, 2000, p. 87 - 88.

[15] GUERIN (V.), *Voyages archéologiques dans la régence de Tunis*, Paris, 1862, T. I, p. 395.

[16] القاضي النعمان، المصدر السابق، 219، هامش 2؛ الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 137 والهامش 108.

[17] يجعلها فرحات الدشراوي محقق الافتتاح جنوب دقة. أنظر فهرس أسماء البلدان والمعالم ص 385.

شرق دقة، ذلك أنه قبل الوصول إلى سبيبة أخذ على سكتانة أو سكيانة. كما تحول التضاريس الجبلية الواقعة شرق الطريق بين دقة وسبيبة، خاصة بعد الخروج من دقة بمسافة تصل إلى ناحية سبيبة، دون التحوّل شرقا باتجاه سليانة[18].

◘ ثانيا: قرّر الداعي الشيعي بعد انتصاره بالأربس التوجه صبيحة يوم الاثنين عبر دقة *Tucca Térebintina* إلى قمّودة، ويقول الناس إلى قسطيلية[19]. والمهم أنه قد علم بعد خروجه من دقة وقبل وصوله إلى سبيبة، بهروب زيادة الله عن رقادة[20]. ويبدو أن هذا الخبر قد جعله يغيّر وجهته التي كانت في الأصل قمّودة عبر مدينة سبيبة، لا سيما أن ابن الأثير يقول إنه كان بناحيتها لمّا بلغه خبر هروب زيادة الله، ليأخذ على سكتانة أو سكيانة ويبيت في وادي الرمل ومنه يتوجه إلى رقادة، إذ لا شك أن هرب زيادة الله يستدعي في نظرنا الإسراع بالوصول إليها وضبطها، وبالتالي اختيار أيسر الطرق وأقربها[21].

وعلى هذا الأساس، نرجح أن الداعي الشيعي الذي لا تعوزه المعرفة بجغرافية البلاد بفضل نشره للدعوة الفاطمية وقيادة الجيش، قد اتبع أول الأمر أسهل الممرّات الطبيعية وأقربها إلى قمّودة قبل أن يغيّر وجهته نحو رقادة وهو ممرّ طريق السلطاني. فانطلاقا من القصور، يتسع تدريجيا أخدود نحو الروحية ليشكل سهلا فيضيا يسمّى جوف لواتة أو جوف دقة، وينزل مع وادي السقيفة وصولا إلى سهل الروحية الذي ينتهي عند سبيبة. وتتفرع من هذه المدينة عديد الطرقات منها الطريق المحاذي لوادي الحطب باتجاه القيروان[22]. وبما أن الداعي الشيعي لم يصل إلى سبيبة[23] وإنما أخذ بعد خروجه من دقة على سكتانة أو سكيانة ومنها

---

[18] أخص بالذكر الحاجز الطبيعي الذي يمثله جبل السكارنة وجبل بربرو في اتجاه التحول من الطريق بين دقة وسبيبة، وتحديدا من ناحية هذه الأخيرة نحو سليانة. أُنظر الخرائط الطبوغرافية لكل من أبة قصور والروحية – بربرو وسبيبة ومكثر وسليانة.

[19] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 211.

[20] المصدر نفسه، ص 219.

[21] ذكر مؤلف الافتتاح (الفقرة 219) أن خبر هروب زيادة الله عن القيروان وصل إلى الداعي الشيعي يوم الاثنين 25 جمادى الأخيرة 295 هـ / 909 م وكان قد خرج من دقة قبل أن يصل إلى سبيبة، فأخذ على سليانة (سكتانة أو سكيانة)، ونزل بوادي الرمل فبات به، وأرسل منه صبيحة يوم الثلاثاء 27 جمادى الأخيرة 295 هـ / 909 م ألف فارس إلى رقادة لكنه لا يذكر لنا متى وصلوا إليها. وقد أفادنا ابن عذاري (المصدر السابق، ج 1، ص 149) أن وصولهم كان يوم الجمعة لانسلاخ جمادى الأخيرة دون أن يحدّد إن كان ذلك صباحا أو مع منتصف النهار أو في المساء. وعليه تكون المدة التي استغرقها فرسان الشيعة من وادي الرمل إلى رقادة في حدود ثلاثة أيام أو أربعة.

[22] MONCHICOURT (Ch.), *La région du Haut-Tell en Tunisie (Le Kef, Téboursouk, Maktar, Thala), essai de monographique géographique*, Armand Colin, Paris, 1913, , p. 121 - 122; PICARD (G. Ch.), «Civitas Mactarina», *Karthago* VIII, 1957, p. 13.

[23] في محاولة للبحث عن فترة تأسيس مسجد سيدي عقبة بسبيبة، اقترح الباحث فتحي البحري أن التشابه بين طريق عقبة من القيروان إلى باغاية أثناء حملته الثانية سنة 52 هـ / 582 م وطريق الداعي الشيعي للاستيلاء على القيروان سنة 295 هـ / 909 م ليس من قبيل الصدفة. فقد افترض أن عقبة قد مرّ بسبيبة ودقة ثم تالة وحيدرة. واعتمادا على رواية القاضي النعمان، سلك الداعي الشيعي في نظره هذا الطريق عكسيا، ويعود هذا التشابه في نظره إلى كون الدعاية الفاطمية التي يمثلها القاضي النعمان قد عمدت إلى المطابقة بين الطريقين. وكان الهدف منها تشبيه حملة الداعي بحملة عقبة، وبالتالي تشبيه إسلام التابعين بإسلام الصحابة. وتؤكد هذه الملاحظة فكرة نشأة أسطورة عقبة بإفريقية في القرن الرابع هجري. أُنظر:

إلى وادي الرمل ثم إلى رقادة، فمن المرجح أنه لم يواصل طريقه عبر ممرّ طريق السلطاني وإنما اتجه شرقا مرورا بسكتانة أو سكيانة. وإذا صحّ هذا الاتجاه الذي أملاه هروب زيادة الله، فإن سكتانة أو سكيانة التي مرّ بها الداعي الشيعي لا يمكن أن تكون مدينة سليانة اليوم رغم أن إمكانية وجود هذا الموقع في القرون الأولى من العصر الوسيط تبقى محتملة جدّا. فقد حمل أحد المتوفين وهو محمد بن خلف بن عباد لقب السلياني حسب ما كتب على قبرية مؤرخة بسنة 325 هـ / 937 م[24]. وقد اعتبره الهادي روجي نسبة إلى مدينة سليانة[25]. لكن لا يذكر مؤلف الافتتاح إن كان هذا الموقع مدينة أو قرية أو عين ماء أو وادي أو شكلا تضاريسيّا (سهل، هضبة، كدية، جبل...) أو موطن قبيلة. وممّا تجدر الإشارة إليه، أن بني سكتان قبيلة بربرية توجد منازلها بإيكجان، وكان ينتمي إليها بيان بن صقلان السكتاني وأبو جعفر بن سليم السكتاني اللذان كانت لهما حظوة خاصة لدى الداعي الشيعي جعلتهما ينضمّان إليه مع بعض إفراد قبيلتهم[26]. وقد كلف الداعي أبا جعفر أحمد بن سليمان السكتاني بقيادة إحدى الفرق العسكرية ضدّ أهل قصر الإفريقي[27]، وصولات بن القاسم السكتاني، وكان من الدعاة، بقيادة أخرى ضدّ تيفاش.[28]

إن وجود قبيلة بني سكتان، يجعلنا نميل إلى كون التسمية الصحيحة للموضع الذي مرّ به الداعي الشيعي ليست سكيانة التي ربما كانت تصحيفا أو خطأ في الرسم، بل هي "سكتانة" نسبة إليها. وممّا يدعم هذا الاعتقاد أن القبيلة الواحدة قد تستقر في عدّة

BAHRI (F.), « Sbiba entre deux conquêtes à travers trois sites islamiques : De la conquête musulmane au I^er^ – VII^e^ siècle à l'invasion hilalienne au milieu du V^e^ – XI^e^ siècle », dans *Histoire des Hautes Steppes, Antiquité - Moyen-Âge,* Actes du colloque de Sbeïtla, sessions 2001, pp. 153 - 201 et particulièrement p. 155–157 et planche IV, p. 183.

وتبدو هذه الفرضية مقبولة إذا كان الداعي قد سلك فعلا نفس طريق عقبة. لكن قراءة متأنية للقاضي النعمان تبرز بوضوح أن الطريق الذي قدمه الباحث فتحي البحري لا تعدو محطاته أن تكون في جوهرها خلطا واضحا بين محطات طريقين مختلفين سلكهما الداعي للاستيلاء على القيروان، وبالتالي فهو لم يسلك نفس الطريق التي اقترحها لعقبة، ذلك أنه قد حاول في مناسبتين الاستيلاء على القيروان: كانت المحاولة الأولى فاشلة بسبب تدخل إبراهيم ابن أبي الأغلب الذي قدم من الأربس إلى دار مدين لمنع الشيعة من الوصول إلى القيروان. وقد مرّ الطريق الذي سلكه الدّاعي الشيعي بالمحطات التالية: خرج من ايكجان، فوصل إلى باغاية، ثمّ سار إلى مسكيانة، ومنها مال نحو تبسة، ثمّ اتجه إلى ميدرة، ومنها نزل على القصرين من كورة قمودة، ثم خرج إلى دار مدين، ورجع منها إلى القصرين ثم إلى إيكجان. (القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 195–199). أثناء المحاولة الثانية خرج من ايكجان إلى باغاية، وسار منها إلى مسكيانة، ثم أخذ مع وادي مسكيانة حتى خرج على وادي مجّانة، ومنه خرج على مرماجنة إلى وادي الرّمل ونزل عليه، وأخرج منه خيلا إلى منيولة وشقبنارية قبل أن يتجه نحو الأربس. (المصدر نفسه، ص 207). وسنبرز من خلال هذه القطعة من الأربس إلى رقادة، محور هذا العمل، أنه لم يمر بسبيبة.

[24] ROY (B.) et POINSSOT (P.), *Nouvelles inscriptions de Kairouan,* 3ème partie, publié avec le concours de S. M. Zbiss, Notes et documents, 3ème série, , Tunis, 1983, vol. I, n° 128, p . 237-238.

[25] إدريس (هادي روجي)، الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري، بيروت، 1992، ج 2، ص 78.

[26] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 142.

[27] المصدر نفسه، ص 191.

[28] المصدر نفسه، ص 192 – 194.

مواضع[29]، وأن اسم سكتانة قد ورد في النسخة (أ) التي اعتمدها فرحات الدشراوي وفي جميع النسخ التي اعتمدها محمد اليعلاوي في التحقيق[30]. وممّا له مغزاه، وجود موقع أثري قديم يقع شمال شرق جبل السكارنة يسمى عين السّلطانة (A. es Souttana)[31]، قد يكون تصحيفا لسكتانة. وتوجد حول هذه العين آثار بناءات قديمة تهدمت ولم نتمكن من التعرف إليها وشظايا خزف من العهدين الأغلبي والفاطمي، ممّا ينمّ عن تواصل تعمير هذا الموقع الأثري في الفترة العربية.

ولا غرابة في أن يختار الداعي الشيعي المرور بهذه العين للتزود بالماء وسقي الخيول التي يركبها الجيش، وهي أيضا تقع في موضع يسمح باختصار المسافة إلى رقادة عبر ممرّ طريق السلطاني دون المرور بسبيبة، فهي في أقصى شمال شرق جبل السكارنة بحيث يمكن منها مواصلة الطريق مع الناحية الغربية لهذا الجبل نحو رقادة.

3 – من سكتانة إلى وادي الرمل

خرج الداعي الشيعي من سكتانة إلى وادي الرمل[32]، ولعله من الخطأ أن نعتبر وادي الرمل هذا نفس وادي الرمل إحد روافد وادي ملاق[33]، وإنما يجب التمييز بينهما.

– وادي الرمل من روافد وادي ملاق : تحدثت عنه بعض المصادر التاريخية في العصر الوسيط حيث عسكر به أبو عبد الله الشيعي بعد خروجه من مرماجنة، وأرسل انطلاقا منه خيلا للهجوم على منيولة ثم على شقبنارية قبل أن يبدأ في خوض معركة الأربس سنة 296 هـ / 909 م[34]. وتقع منيولة على بضعة أميال في الجنوب الغربي من شقبنارية (الكاف اليوم) حيث

---

[29] نذكر على سبيل المثال قبيلة هوّارة. أُنظر الدريدي (الأمجد)، قبيلة هوّارة ودورها في تاريخ المغرب الوسيط من القرن الأول إلى القرن الخامس هجري / السابع- الحادي عشر ميلادي، شهادة دراسات معمقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2000، ص 5 – 58.

[30] اعتمد فرحات الدشراوي في تحقيقه لكتاب افتتاح الدعوة (أُنظر توطئة الكتاب ص. ج) على مخطوطين: النسخة الهمدانية التي رمز إليه بحرف (أ) والنسخة التي أعاره إياه لويس ماسنيون ورمز إليها بحرف (ب). وقد رسم في النسخة الأولى اسم سكتانة وفي النسخة الثانية اسم سكيانة، واعتبر المحقق أن الاسم الصواب هو سليانة الذي دونه في أصل النص. (المصدر السابق، ص 219، هامش 2). أما في جميع النسخ التي اعتمدها محمد اليعلاوي في تحقيق عيون الأخبار (ص 137، هامش 108)، فقد رسم الاسم سكتانة، لكنه أخذ بقراءة فرحات الدشرواي سليانة، وأشار أن الطريق منها إلى سبيبة أو القيروان لا تمر بوادي الرمل القريب من مدينة الكاف (شقبنارية). ولئن كان محقا في هذا الاحتراز، فإنه لم يتفطن إلى أن وادي الرمل المقصود هنا ليس نفسه الوادي المار قريبا من مدينة الكاف. كما أنه يقول إن قراءة سليانة تخمين، ولعل سكتانة موضع بين دقة والأربس. لكننا نشير أن الحديث عنها جاء بعد الخروج من دقة في اتجاه سبيبة، وبالتالي فهي لا يمكن أن تكون بين دقة والأربس وإنما بين دقة وسبيبة.

[31] *Carte topographique au 1/50.000*, Rohia - Dj. Barbrou, 39.74N, 5.49E.

[32] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 219.

[33] JAIDI (H.), *Les sites antiques de l'Ifrikiya et les géographes arabes*, C.A.R, Tunis, 1977, p. 124.

[34] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 207؛ الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 131.

توجد عين ماء جارية باسم عين مليونة داخل وادي الغبال المتفرع عن وادي الرمل[35]. صفوة القول، تبرز هذه الأحداث ومواقع الأماكن المذكورة في إطارها، أن وادي الرمل يقع مسافة حوالي 10 كلم جنوب مدينة الكاف ويمثل رافدا من روافد نهر ملاق الذي يصب فيه في سفح جبل ورغة[36].

– وادي الرمل الذي نزل به الشيعي بعد سكتانة في طريقه نحو رقادة : انصرف أبو عبد الله الشيعي من سكتانة ونزل بوادي الرمل فبات به حسب رواية القاضي النعمان والداعي إدريس[37]. ويذكر ابن الأثير في نفس السياق أنه كان بناحية سبيبة لمّا بلغه خبر هروب زيادة الله، فرحل عنها ونزل بوادي النمل[38]. أمّا ابن عذاري فلا يأتي على ذكر هذه المحطة. وفي رواية لابن حماد، مرّ الخليفة الفاطمي المنصور أثناء مطاردته لأبي يزيد الخارجي في ربيع الأول 335 هـ / أكتوبر 945 م، بوادي الرمل الذي يقع بين ساقية ممّس وسبيبة[39].

وتؤكد هذه الأحداث أن وادي الرمل الذي نزل به الداعي الشيعي بعد سكتانة ليس نفسه وادي الرمل الذي عسكر به قبل الهجوم على الأربس، فهذا الأخير يمثل رافدا من روافد وادي ملاق ويوجد شمال غرب الأربس، في حين أن الأول يقع حسب نصوص المؤرخين جنوب شرق هذه المدينة وتحديدا بعد سكتانة نحو رقادة.

وإذا أخذنا بهذه المؤشرات، وإذا صحّ الإفتراض أن سكتانة تطابق عين السّطانة، وأن الداعي الشيعي لم يواصل طريقه عبر ممرّ طريق السلطاني نحو سبيبة وإنما مال نحو الشرق، فإنه يكون في طريقه إلى رقادة قد شقّ وادي الرّمل الذي ينبع بين جبل المقسم وجبل بوعجيلة ويصب في وادي الحطب[40]. ومن المرجح أيضا أن هذا الوادي هو الذي أعطى اسمه لقرية وادي الرّمال التي تبعد مسافة أربعين ميلا عن القيروان على الطريق التي يذكرها البكري نحو قلعة أبي طويل مرورا بسبيبة وعدة محطات أخرى[41]. ولمّا كانت هذه القرية تقع قرب وادي يجري وسط تربة رملية حمراء تتميز بأهمية إنتاج الزيتون، فإن المنطقة التي تتماشى أكثر مع هذه الخصائص من المرجح أن تكون بلاد الحبابسة. وممّا يحملنا على هذا الاعتقاد، أنه

---

[35] عرعار (مراد)، الأربس وناحيتها إلى حدود القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي، شهادة دراسات معمقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1999، ص 34.

[36] الطالبي (محمد)، الدولة الأغلبية: 418 -296 هـ/ 800 - 909 م: التاريخ السياسي، تعريب المنجي الصيادي، بيروت، 8519، ص 739، هامش 369.

[37] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 219؛ الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 137.

[38] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 595 — 595.

[39] ابن حمّاد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، تونس، 8719، ص. 67.

[40] *Carte topographique au 1/50.000*, Rohia -Dj. Barbrou, 5.41N, 7.58E.

يوجد على الخريطة الطبوغرافية لسبيبة (247N, 454E.) واد ثان يسمّى وادي الرملة (O. er Remla) نستبعد أن يكون نفسه وادي الرمل الذي نزل به الداعي الشيعي، ذلك أنه بعد الخروج من الأربس صبيحة يوم الاثنين والمرور بدقة ثم بسكتانة يصعب الوصول في نفس هذا اليوم إلى هذا الوادي لطول المسافة التي تفوق معدل المرحلة بكثير خاصة أن الداعي كان مصحوبا بجيشه المؤلف من الخيالة والمشاة.

[41] البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 710.

بالمرور بعين السّطانة (سكتانة) ومواصلة المسلك غرب جبل السكارنة باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي ندخل بلاد الحبابسة[42]. ويتماشى هذا المسلك الذي لا يزال موجودا ومستعملا مع كون الداعي الشيعي لم يواصل مسيره نحو سبيبة عبر ممرّ طريق السلطاني، وإنما أخذ على سكتانة (عين السّطانة)، ونزل بوادي الرّمل، بمعنى أنه لمّا بلغه خبر هروب زيادة اللّه، وذلك عوضا من أن يواصل سيره عبر ممرّ طريق السلطاني نحو سبيبة في الجنوب ومنه إلى قمّودة، اتجه شرقا نحو رقادة ليحاذي غرب جبل السكارنة ثم يدخل بلاد الحبابسة.



موقع سكتانة ووادي الرمل اللّذين مرّ بهما الدّاعي الشيعي في طريقه إلى رقادة

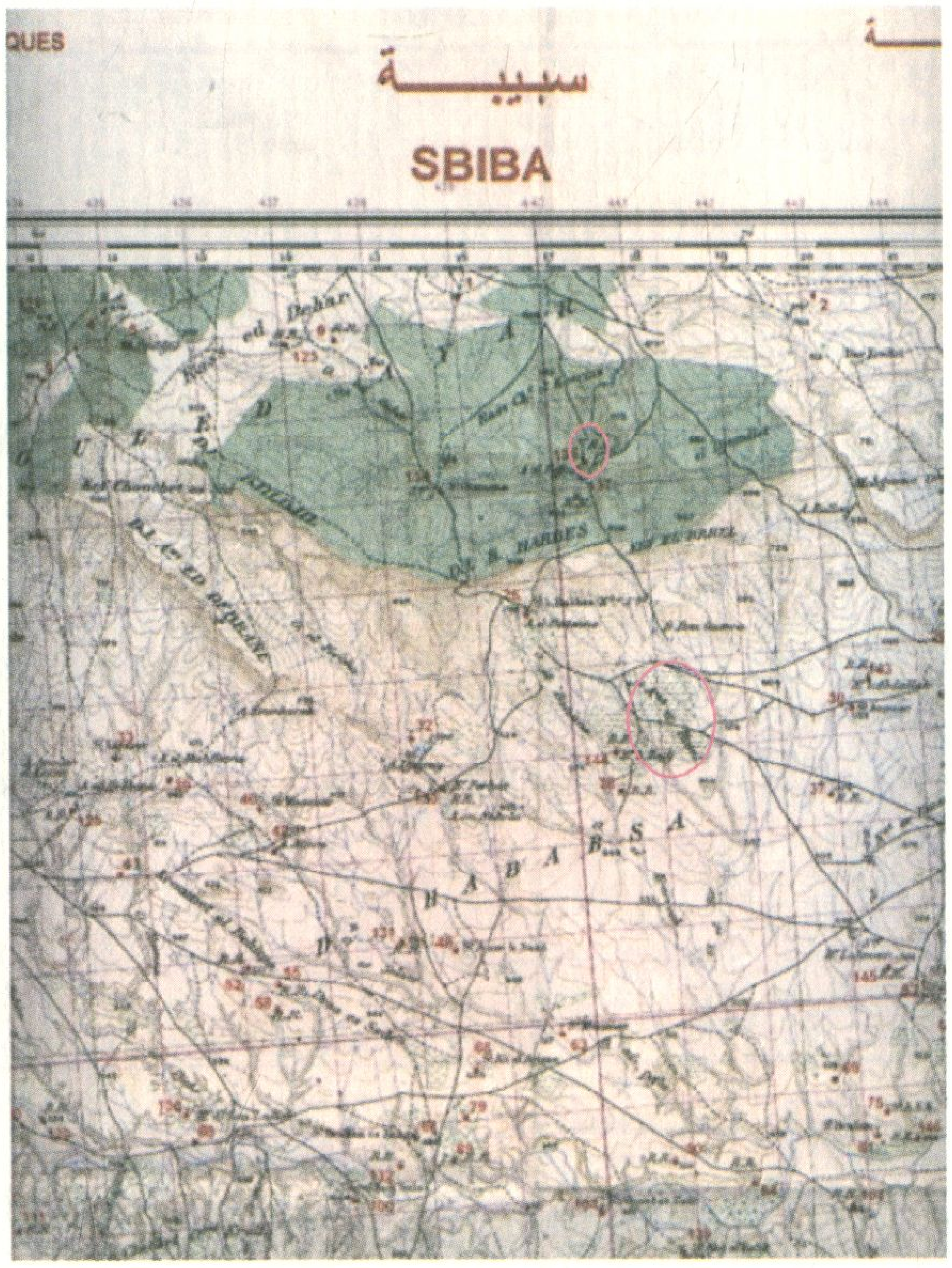
كما أن هذه المنطقة تتميز بخصائص طبيعية ومناخية شبيهة بنظيرتها التي أفادنا بها البكري، وهي كون قرية وادي الرمال تقع وسط منطقة شبه صحراوية تغطيها تربة رملية منتجة للزياتين بكميات كبيرة[43]. فبلاد الحبابسة الواقعة في أقصى جنوب معتمدية الروحية داخل ممر طبيعي، تعد منطقة محصنة طبيعيا بفضل سلسلة الجبال التي تحيط بها، ذلك أنه يحدّها من الشمال العرف الغربي العريض من جبل بن حبّاس إلى جبل الربيبة مرورا بطرفف، أما من الشرق فيحدّها وادي الكوكي، ومن الغرب وادي الحطب. ويقع الشمال الجبلي أين يوجد وادي الرّمل في منطقة شبه قاحلة تتراوح بها كميات الأمطار بين 400 و500 مم

---

[42] MONCHICOURT (Ch.), *Op. cit*, p. 127 - 128.

[43] المصدر السابق، ج 2، ص 710.

سنويا، وبقية البلاد (الوسط والجنوب) في نطاق قاحل تتراوح به كميات الأمطار بين 300 و400 مم / سنويا. أما التربة فتختلف بدورها من شمال البلاد إلى وسطها وجنوبها، ويهمّنا أن التربة في الوسط تعدّ أساسا رملية ومختلفة السمك مع بعض الأماكن الطينية وأحيانا كلسية، وفي الجنوب تهيمن التربة الرملية قليلة السمك[44]. ورغم تعصير أساليب الزراعة وإدخال تقنيات ري وغراسات جديدة، تبقى غراسة الزياتين ببلاد الحبابسة تحتل مكانة هامّة من حيث المساحة المغروسة ووفرة الإنتاج ضمن نوعية المنتجات الزراعية والغراسات[45].



مآثر عربية داخل بلاد الحبابسة يرجح أن تكون قرية وادي الرمال لدى البكري

ويشدّ انتباهنا داخل بلاد الحبابسة، وجود موقع أثري قديم وقع الرمز إليه على الخريطة الطبوغرافية لسبيبة بعلامة آثار عربية (R.A)، ويقع في مرتفع شمال موضع يسمّى

[44] GALLALI (T.), CHABBI (A.), EL AMAMI (S.), « Mode d'irrigation dans le fossé d'effondrement de Oued el Hattab en Tunisie centrale ou l'exemple d'adaptation des techniques aux conditions du milieu », dans *Actes du IV colloque de géographie maghrébine,* Cahiers de CERES, série géographique n° 4, 1979, Tome I : L'homme et la montagne, p. 147 -149 et carte de localisation de la zone étudiée, carte bioclimatique, carte pluviométrique et esquisse tectonique du secteur de Habebsa.

[45] *Ibid,* p. 149 - 151, et schémas n° 1à 4.

كدية الرّمل[46]، وقد مكنت عملية المسح الأثري التي قمنا بها من التعرف إلى آثار بناءات عربية والعثور على شظايا خزف إسلامي ذي لون أخضر. ونرجح أن يكون هذا الموضع الذي لا يحمل اسما على الخريطة، يطابق قرية وادي الرّمال لا سيما أن المسافة التي تفصل بينه وبين القيروان، تتقارب مع المسافة التي يعطيها البكري والمقدرة بأربعين ميلا[47]. وعلى هذا الأساس، يصعب الأخذ بالفرضية القائلة أن قرية الجهنيين وقرية وادي الرّمل ربّما كانتا نفس الموضع[48]، حيث كانت الأولى تمثل أول محطة من القيروان باتجاه سبيبة في القرن الرابع للهجرة[49]، ثم لعبت الثانية هذا الدور في القرن الخامس للهجرة[50]، لا سيما أن البكري تحدث عنهما في مواضع مختلفة[51] من جهة، ولا تزال الجهنيين محطة بين سبيبة والقيروان في القرن السادس للهجرة من جهة أخرى[52].

4 – من وادي الرمل إلى ساقية ممّس

لم يذكر القاضي النعمان وابن الأثير هذه القطعة من مسلك الداعي الشيعي، واكتفيا بالقول إن شيوخ القيروان وفقهاءهم خرجوا لملاقاته، فلقوه في موضع لم تقع الإشارة إليه[53]، لكن تأتي رواية ابن عذاري لتسدّ هذا الفراغ. فبعد هروب زيادة الله عن رقادة ووصول فرسان الداعي الشيعي إليها وضبطها وإعطاء الأمان لمن بقي بها، بلغ هذا الخبر أهل القيروان فسرّوا به، وأخرجوا، خشية على أنفسهم، يوم الأربعاء 28 جمادى الأخيرة 296 هـ / 909 م، الفقهاء وأعيان الناس يتقدمهم محبوب بن عبد ربه الهوّاري[54] لملاقاة أبي عبد الله الشيعي بموضع

---

[46] *Carte topographique au 1/50.000*, Sbiba, 255,300 N, 440, 350 E.

[47] المصدر السابق، ج 2، ص 710. إذا اعتبرنا الميل يساوي 1.920 م، تكون المسافة بين القيروان وقرية وادي الرمال في حدود 75.800 كلم.

[48] JAIDI (H.), *Op. cit*, p. 123 - 124.

[49] ابن حوقل، المصدر السابق، ص 84.

[50] البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 710.

[51] المصدر نفسه، ج 2، ص 710، 833.

[52] الإدريسي، المصدر السابق، ص. 157–158.

[53] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 220؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 595.

[54] ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 149. يبدو من خلال نسبه أنه زعيم قبيلة هوّارة البربرية، ويبدو أيضا أنه نفس الشخص الذي يسميه القاضي النعمان (المصدر السابق، ص 208، 211) محبوب بن عبدون. وقد كان هذا الرئيس الهوّاري من المقربين إلى إبراهيم ابن أبي الأغلب قائد الجيش الأغلبي بالأريس (القاضي النعمان، المصدر نفسه، ص 208)، وخاض معه معركة الأريس سنة 295 هـ / 909 م ضد جيوش الدعوة الشيعية بقيادة أبي عبد الله الشيعي. وعلى إثر هزيمة الأغالبة في هذه المعركة، هرب مع هوّارة ونفزة في اتجاه موقع مجهول يسميه القاضي النعمان بني بشير أين تبعهم الأولياء يقتلونهم ويأسرونهم ويغنمون ما مهعم. (المصدر نفسه، 211) ويرجح أنه على إثر هذه الهزيمة التي مني بها الجيش الأغلبي في معركة الأريس، اتجه محبوب ابن عبدون أو ابن عبد ربه الهوّاري إلى القيروان في محاولة للدفاع عنها، لكن أمام هروب زيادة الله الثالث إلى المشرق، وفشل إبراهيم ابن أبي الأغلب في تحريض أهالي القيروان على مواصلة المقاومة، قاد بحكم زعامته لقبيلته ومكانته في البلاط الأغلبي، فقهاء القيروان لملاقاة الداعي أبي عبد الله الشيعي الذي لم يتوجه إليهم بفحص باروقس حسب نص ابن عذاري الصريح والذي لا يحتاج إلى تأويل أو سوء الفهم. وعلى هذا الأساس، يجب تعديل رأي عديد الدارسين بأن محبوب ابن عبد ربه الهوّاري اعترض سبيلهم وقطع عليهم ومنعهم من ملاقاة الشيعي. أنظر:

يعرف بفحص باروقس بين مدينة جلولاء وحمّام السرداق، لكن لم يذهب الشيعي لملاقاتهم وفشلت محاولتهم الأولى فشلا ذريعا[55].

وقد أشار هوبكينز في محاولة لتحديد موقع فحص باروقس، إلى وجود موضع في سهل الوسلاتية بين جلولاء وأجّر يدعى بلاد باروقش على الخريطة الطبوغرافية لمكثر سلم 1 / 200.000 [56]، لكن بالرجوع إلى هذه الخريطة، لم نعثر على هذا الموضع. وعموما فإذا سلّمنا بوجود فحص باروقس بسهل الوسلاتية، أو بين جلولاء وحمّام السرداق الذي يبقى بدوره مجهول الموقع والموضع[57]، فبديهي أن لا يخرج الشيعي لملاقاة أعيان القيروان للأسباب التالية:

- وصل خبر هروب زيادة الله عن رقادة حسب مؤلف الافتتاح إلى الداعي الشيعي يوم الاثنين 26 جمادى الأخيرة 296 هـ / 909 م، وقد خرج من دقة قبل أن يصل إلى سبيبة، فأخذ على سكتانة ونزل بوادي الرّمل فبات به، وأرسل منه صبيحة يوم الثلاثاء 27 جمادى الأخيرة 296 هـ / 909 م ألف فارس إلى رقادة لضبطها[58]. ويبدو أنه واصل مقامه به على الأقل يوم الثلاثاء حيث لا نجد في المصادر ما يشير إلى خروجه عنه.

- إذا سلمنا بتواصل مقام الشيعي بوادي الرّمل أو حتى خروجه عنه نحو رقادة، فبديهي أن لا يتجه للقاء أعيان القيروان بفحص باروقس بين جلولاء وحمّام السرداق أي شمال شرق وادي الرّمل، سيما أن وجهته الأصلية من وادي الرّمل إلى رقادة أي شمال غرب جنوب شرق، ويصعب تغييرها للاتجاه نحو الشمال الشرقي لوجود حاجز جبلي يتمثل في جبل بريرو من جهة، ولضرورة اقتصار المسافة للوصول إلى رقادة من جهة أخرى.

- يبدو أن الداعي الشيعي الذي خرج منتصرا من معركة الأربس قد تصرف مع أعيان القيروان بعقلية المنتصر، حيث رفض الذهاب إلى الموضع الذي خرجوا إليه وهو فحص باروقس، وضرب لهم موعدا في مكان يناسبه على طريقه نحو رقادة وهو ساقية ممّس الذي

HOPKINS (J.F.P.), «The medieval toponymy of Tunisia: some identifications», dans *Cahiers de Tunisie*, n°31, 3ème Trim, 1960, p. 32- 33. الطالبي (محمد)، المرجع السابق، ص 747–748؛ الدشراوي (فرحات)، الخلافة الفاطمية بالمغرب: التاريخ السياسي والمؤسسات، تعريب حمادي الساحلي، بيروت، 4199، ص 016؛ الدريدي (الأمجد)، المرجع السابق، ص 42، 96، 103–104.

[55] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 1، ص 149. ربما يمكن تفسير خروج أهل القيروان إلى هذا الموضع بالذات لاعتقادهم أن الداعي الشيعي قادم من الأربس إلى القيروان أو إلى رقادة عبر طريق الجبال الذي يمر بعد الخروج من القيروان بجلولاء وأجّر وطافجنة والأربس وعدة محطات أخرى وصولا إلى المسيلة. أنظر: ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 86–88.

[56] *Art. cit*, p. 33.

[57] الباهي (أحمد)، فهرست أسماء الأماكن بمقاطعة البيزاسين (= المزاق) في العهد الوسيط: ق**I-X /- VII XVI** م من خلال المصادر المطبوعة، شهادة دراسات معمقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1995، ص 117. أشار إلى عدم وجود هذا الاسم قرب جلولاء في يومنا هذا وإلى وجود اسم يقاربه وهو "دويرة السردوك" على وادي معروف مسافة 15 كلم شمال عين جلولاء.

[58] المصدر السابق، ص 219.

تمّ فيه اللقاء فعلا يوم السبت غرة رجب 296 هـ / 909 م[59]، وكأنه بذلك أراد ضمنيا إذلالهم وإملاء شروطه عليهم حتى قبل دخوله إلى رقادة.

وربما لكل هذه الاعتبارات أو غيرها، تمّ اللقاء بين الدّاعي الشيعي وأعيان القيروان وفقهائها فعلا بساقية ممّس حسب إرادة أبي عبد الله كما أفادنا بذلك ابن عذاري. لكن ما هو مسار هذه الساقية، وهل يمكن تحديد النقطة التي تمّ فيها هذا اللقاء؟

يقع وادي الرّمل حسب ابن حمّاد بين ساقية ممّس وسبيبة[60]. وقد ذكرت ممّس كموضع بإفريقية لأول مرة في المصادر العربية أثناء حملة القائد زهير بن قيس البلوي على إفريقية سنة 69 هـ / 688 م[61]. وقد مرّ منها سنة 296 هـ / 909 م القائد إبراهيم بن أبي الأغلب متجها إلى القيروان بعد هزيمته أمام الجيوش الشيعية بالأربس حسب رواية القاضي النعمان[62].

أمّا ساقية ممّس فقد ذكرها ابن عذاري لأول مرّة سنة 296 هـ / 909 م، حيث التقى بها أبو عبد الله الشيعي بأعيان القيروان الذين خرجوا إليه فأعطاهم الأمان[63]. وذكرها ثانية ابن حمّاد عندما مرّ بها الخليفة الفاطمي المنصور أثناء مطاردته لأبي يزيد الخارجي في ربيع الأول 335 هـ / أكتوبر 945 م[64]. تقع ممّس على الطريق الرابط بين مدينة فاس والقيروان، وتحديدا على القطعة بين سبيبة والقيروان[65]. ويوجد على هذا القطعة في المنطقة التي يجري فيها وادي زرود بين جبل مغيلة وجبل طرزة، حصنا بيزطيا يسمّى (Mamma)[66]. ويبدو أن ممّس توافق (Mamma) أو(Mammes)، وتقع في هنشير الدويميس الواقع على مسافة حوالي 36 كلم غرب القيروان بين جبل وسلات وجبل شريشيرة[67]. ولأن اسم ساقية ممّس لم يرد في أخبار الفتوح وورد لأول مرة سنة 296 هـ / 909 م، فمن المرجح أنها لا تعدو أن تكون سوى القناة التي شيدها الأغالبة لجلب الماء من ممّس إلى القيروان والتي تعرف اليوم بساقية بني الأغلب، وتخرج من هنشير الدويميس وتحاذي وادي شريشيرة وتنتهي في سهل القيروان عند النقطة الكلومترية رقم 83 من الطريق الرابطة بين سوسة وحفوز عبر القيروان، وهي

---

[59] ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 149–150.

[60] المصدر السابق، ص 57.

[61] الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، حقق القطعة الباقية منه عبد الله العلي الزيدان وعزالدين عمر موسى، بيروت، 0199، ص 18؛ المالكي، رياض النفوس، تحقيق البشير البكوش، بيروت، 198119-83، ج 1، ص 45، 47؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 3، ص 207؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 22؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة، 8319، ج 24، ص 33.

[62] المصدر السابق، ص 211. يذكر حشير ممّس.

[63] المصدر السابق، ج 1، ص 150.

[64] المصدر السابق، ص 57.

[65] البكري، المصدر السابق، ج 2، ص 833–834.

[66] DIEHL (Ch.), *L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique 583-703*, Brut Franklin, Paris, 1896, p. 281; CAMBUZAT (P. L.), *L'évolution des cités du Tell en Ifriqiya du VII^e au XI^e siècle*, Office des Publications Universitaires, Alger, 1986, t. II, p. 147.

[67] *Carte topographique au 1/ 50.000è*, f. Pichon, 35°. 42' N, 9°. 40' E.

بذلك تزوّد الفسقيات الأغلبية بالماء[68]. لكن بين الأستاذ فوزي محفوظ أن الفسقيات الأغلبية كان يقع تزويدها بمياه الأودية القريبة وليس من قناة الشريشيرة[69]. وقد أشار القاضي النعمان أن المعز لدين الله أمر ببناء هذه القناة سنة 348 هـ / 959 م لتزويد مدينة المنصورية بالماء[70]، لكن يقول مارسال سولينياك إنّها تعود إلى الفترة الرومانية، وأكد الأستاذ فوزي محفوظ من خلال عمليات المسح الأثري للآثار المتبقية منها وجود قطعة واحدة يمكن إرجاعها إلى القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي[71]. ويرجح بالتالي أن الأمر بترميم هذه القناة القديمة وإعادة بنائها، قد اعتبره القاضي النعمان، نظرا لميولاته الشيعية، بمثابة البناء.

وعموما لا تزال بعض آثار ساقية ممّس قائمة بوادي الشريشيرة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن موعد اللقاء بين الدّاعي الشيعي وأعيان القيروان وفقهائها قد تمّ يوم السبت غرة رجب 296 هـ / 909[72]، وأن دخوله إلى رقادة بصحبتهم ركوبا على الدواب أو مشيا على الأقدام كان في نفس اليوم[73]، فإننا نرجح أن النقطة التي تم فيها هذا اللقاء بينهم غير بعيدة عن هذه المدينة، وربما كانت عند نقطة التقاء هذه القناة بالطريق الحالية الرابطة بين القيروان والكاف.

---

[68] SOLIGNAC (M), « Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et les Steppes Tunisiennes du VII au XIème siècle », dans *Annales de l'Institut des Études Orientales,* t. X, 1952, p. 53, 154 – 151, 187 – 189 et fig. 42.

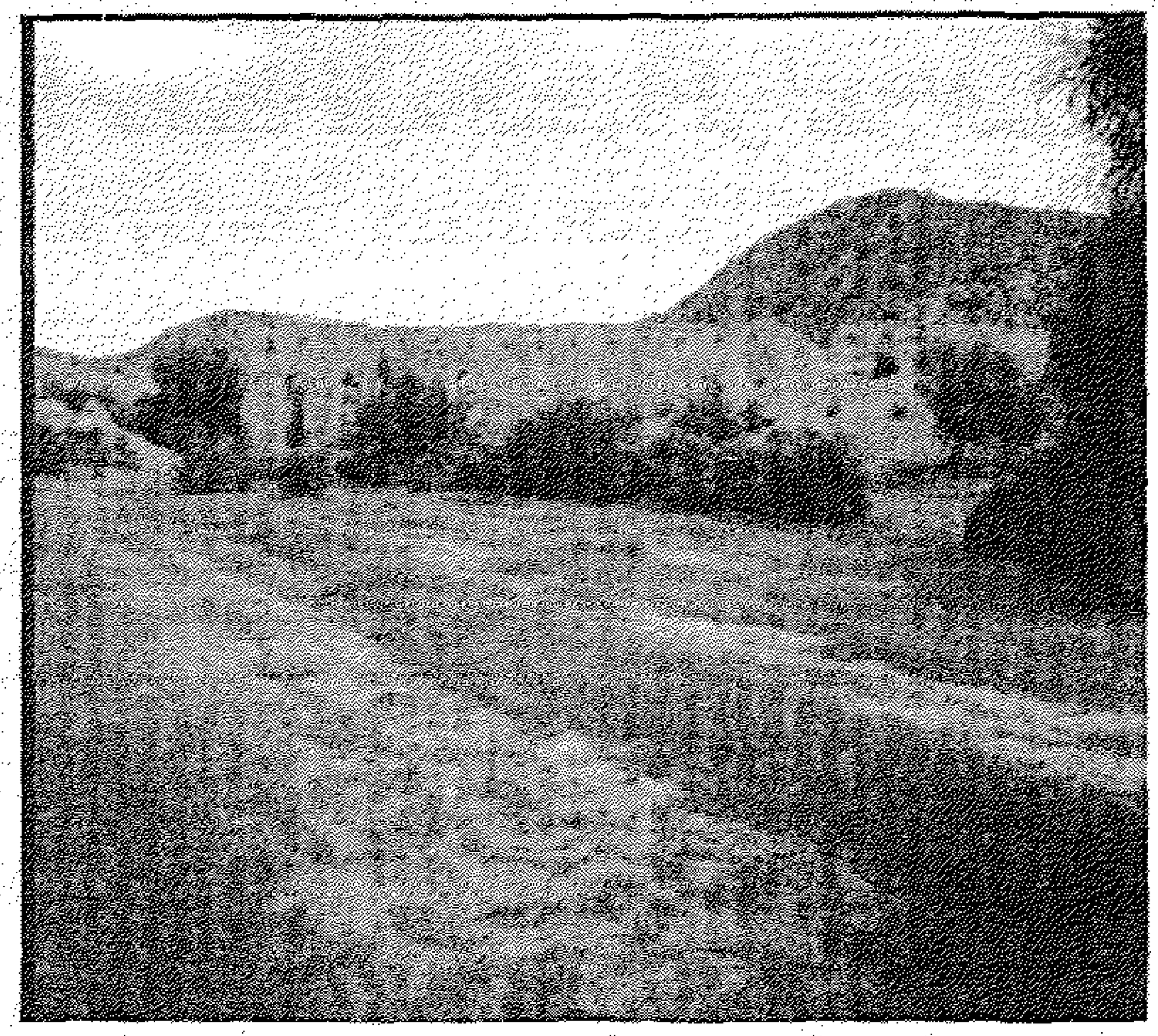
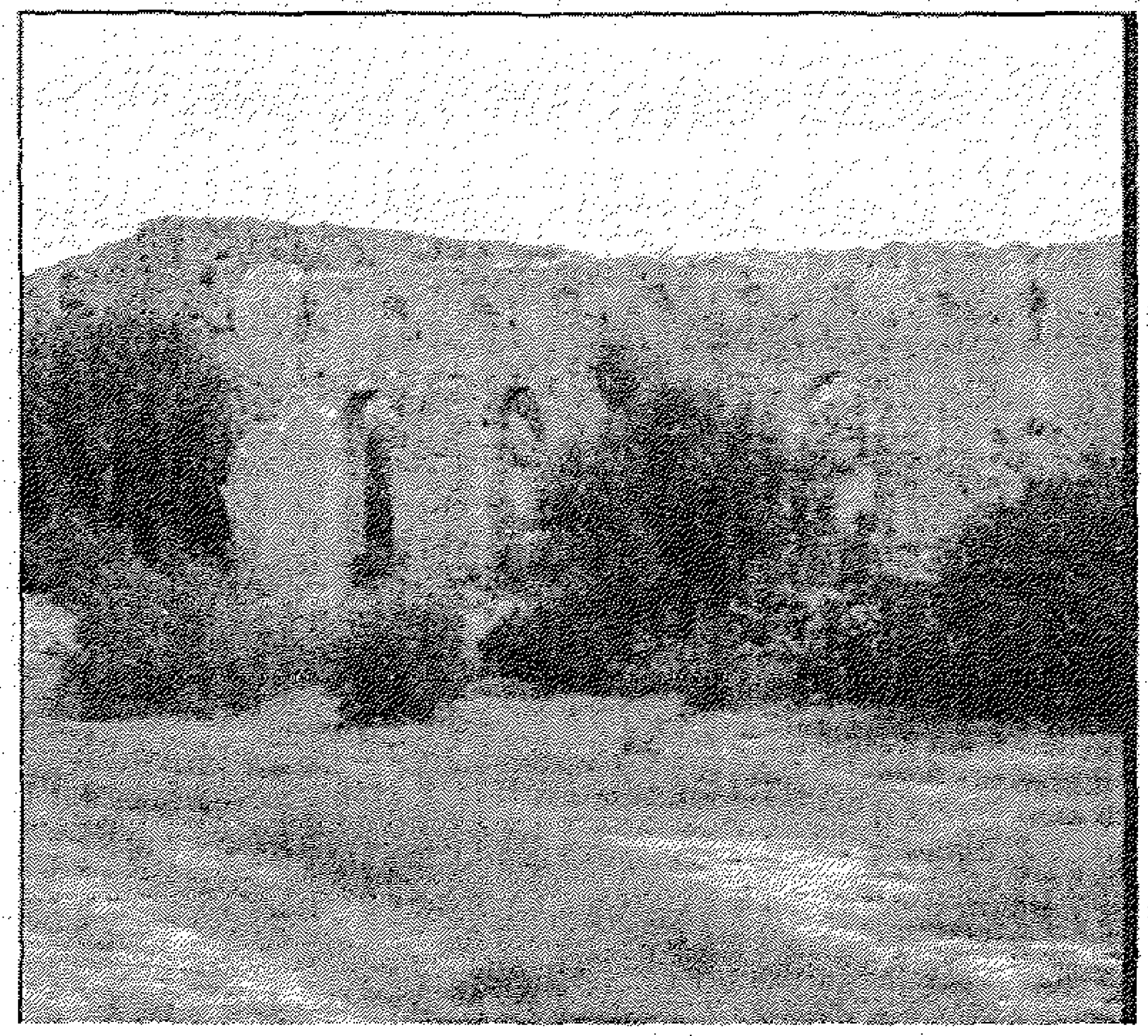
[69] MAHFOUDH (F.), *Architecture et urbanisme en Ifriqiya médiévale (proposition pour une nouvelle approche)*, Centre de publication universitaire, Faculté des Lettres La Manouba, Tunis, 2003, p. 85 – 91.

[70] المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي، تونس، 1978، ص 331.

[71] *Op. cit,* p. 115 – 117.

[72] ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 149.

[73] القاضي النعمان، المصدر السابق، 220–221.

بعض بقايا قناة الشريشيرة

صفوة القول، تسمح دراسة المسلك الذي اتبعه الداعي الشيعي من الأربس إلى رقادة لا فقط بتعرف بعض المواقع التي لم تذكرها المصنفات الجغرافية، بل أيضا التعرف إلى بعض المجالات الإدارية التي كانت تحيط بجهة القيروان.

II – المسلك والمجالات الإدارية

تساعد دراسة الإستراتيجية العسكرية التي اتبعها الداعي الشيعي للاستيلاء على الأربس ثم على رقادة والقيروان إلى حدّ ما على تعرف بعض المجالات الإدارية أو الكور التي كانت تحيط بالقيروان في نهاية العهد الأغلبي.

1 – دواعي الهجوم على الأربس

لقد استفحل الخطر الشيعي بعد تولي زيادة الله الثالث مقاليد الحكم " ليلة الأربعاء ليوم بقي من شعبان سنة تسعين ومائتين[74]"، حيث استولى أبو عبد الله على سطيف حوالي نهاية سنة 291 هـ / 904 م، وكان لهذه الهزيمة أثرها على الأمير الذي بادر برد الفعل بأن جهز جيشا بقيادة إبراهيم بن حبشي بلغ عدده أربعين ألفا بين فارس وراجل لكنه هزم بقسنطينة وخسر كل عتاده وأمتعته[75]، وافتكت بذلك الدعوة الشيعية بادرة الهجوم من زيادة الله الثالث الذي اكتفى بدور الدفاع وتحصين حدوده وحراسة ما بقي له من مدن في غير أرض كتامة وبلاد الزاب وخاصة مدينة الأربس التي غدت قاعدة للدفاع عن نظام الأسرة الأغلبية، ومحرسا لمدينة رقادة التي تحصن بها الأمير.

---

[74] المصدر نفسه، ص 145.

[75] المصدر نفسه، ص 158.

وقام زيادة الله بعملية إستنفار بين الناس، فأقبلت عليه الحشود من كل الجهات ووجههم إلى الأربس التي تمّ اختيارها كمقر عام ومركز لإعداد الجيش الجديد ونقطة ارتكاز رئيسية للتصدي لهجومات أبي عبد الله الشيعي، لكن هذا الجيش الذي كان يقوده مدلج بن زكرياء وأحمد بن مسرور الخال سرعان ما تمرّد وأظهر راية العصيان، وعاد إلى رقادة حيث تمّ القضاء على هذه الفتنة[76]. فقرّر زيادة الله إثر ذلك التحول إلى الأربس لاسترضاء الرأي العام والإشراف بنفسه على تسيير العمليات العسكرية، وقد واصل هناك حملة التجنيد التي كان قد بدأها في رقادة حيث ذكر ابن عذاري: "وفيها (293 هـ) خرج زيادة الله إلى مدينة الأربس، فنزل بغربيها، واجتمعت إليه عساكر كثيرة، وأعطى بها الأموال جزافا بالصحاف، كيلا بلا وزن، لكل رجل صحفة توضع له في كسائه دنانير ويحمل على فرس، ثم يخرج الرجل فلا يرى بعدها. فأنفق فيها أموالا جسيمة وبذل مجهوده في الإحسان إلى الرجال"[77]. وقد عهد بقيادة هذا الجيش إلى قريبه إبراهيم بن أبي الأغلب وعاد إلى رقادة في محرّم 294 هـ / 906 م، وأمر بتحصينها بسور من طوب، وانصرف إلى حياة اللهو والمجون[78].

وحتى بعد استسلام باغاية دون مقاومة[79]، عدل الأمير عن فكرة الفرار إلى مصر، واكتفى بتعزيز الجيش المرابط بالأربس بالرجال والأموال[80]، إذ لا نستبعد أنه أصبح راسخ الاعتقاد أنه يمكنه العيش في أمان ومواصلة مجونه في حماية جيش الأربس التي صارت آخر حصن للدفاع عن رقادة وأقصى ثغورها.

يتراءى ممّا تقدم أن الأربس صارت مركزا دفاعيا لتجميع الجيوش وقاعدة لانطلاق العمليات العسكرية الموجهة ضدّ زعيم الدعوة الشيعية. ولا غرابة أن تتبوأ هذه المكانة نظرا لما تتميز به من حصن منيع وموقع إستراتيجي يمكنها من مراقبة جميع الطرقات والممرّات الطبيعية المؤدية إلى العاصمة وصدّ كل محاولات السيطرة عليها. كما لا يفوتنا أن نشير إلى أنها كانت تمثل كورة مستقلة شمال غرب القيروان وكانت بها حامية عسكرية منذ عصر الولاة. وقد حافظت على هذه المكانة إلى أواخر العهد الأغلبي، إذ تداول عليها على الأقل في فترة إبراهيم بن أحمد (261–289 هـ) عاملان اثنان[81].

---

[76] المصدر نفسه، ص 182؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 139–140.

[77] المصدر نفسه، ج 1، ص 140.

[78] المصدر نفسه، ج 1، ص 143–144.

[79] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 185؛ الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 123.

[80] ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 144؛ الداعي إدريس، المصدر نفسه، ص 125.

[81] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج 1، ص 123؛ النويري، المصدر السابق، ج 24، ص 132؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963، ج 1، ص 185. نشير في البداية إلى أن الأربس حافظت على وضعيتها الإدارية ككورة مستقلة بإفريقية. فحسب ابن عذاري، ثارت عديد المدن بإفريقية على إبراهيم بن أحمد (261–289 هـ) بسبب سياسة الجور والنهب التي مارسها ضدّ الأهالي وذلك على حدّ قوله: " وفيها، (سنة 280 هـ) كان تمنع البلاد ومخالفتها على السلطان إبراهيم بن أحمد، وإنتزاء من إنتزى عليه. وذلك أن أهل تونس والجزيرة والأربس وباجة وقمودة خالفوا عليه وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم، فصارت إفريقية عليه نارا موقدة، ولم يبق بيده من أعمالها إلا الساحل والشرق إلى طرابلس." ولئن كان هذا النص يفيد ضمنيا بأن المدن الثائرة كانت تمثل كورا

وعموما، قرّر الداعي الشيعي بعد انتصاره بالأربس والسيطرة عليها، مواصلة تقدمه بإفريقية والهجوم على قمودة التي فشلت محاولته الأولى في السيطرة عليها وبالتالي على العاصمة عبر ميدرة والقصرين بسبب هزيمته في دار مدين أمام ابراهيم بن أبي الأغلب القادم من الأربس[82]. فهل من تفسير لهذا الخيار العسكري؟

2 – دواعي الهجوم على قمودة

نشير أولا إلى أنّ ابن عذاري قد أفادنا بأن الدّاعي الشيعي قد انصرف بعد انتصاره بالأربس إلى باغاية خوفا من أن يحاشد عليه أهل إفريقية، لكن هذه الرواية لا تصمد ولا تحتاج إلى جدال لأنه سرعان ما يتناقض مع نفسه ليقول إنّه لمّا علم بهروب زيادة الله، خرج من الأربس يريد القيروان[83]. على أنه تجدر الإشارة أيضا إلى أن هذا الخبر قد وصله بعد خروجه من دقة في طريقه إلى قمّودة حسب رواية القاضي النعمان، رغم أن الناس يعتقدون أنه يريد قسطيلية[84]. ونستبعد بادئ الأمر أن تكون وجهته قسطيلية، فقد سبق له أن سيطر عليها وأعطى الأمان لأهلها[85]، كما لا تفيدنا المصادر بخروجها عن الطاعة وبالتالي ضرورة العودة إليها وإخضاعها. وعليه، فإن وجهة الداعي بعد السيطرة على الأربس كانت نحو قمّودة كما أفادنا القاضي النعمان.

ويبدو أن قرار الذهاب من الأربس إلى قمّودة يفسّر بدور الأخيرة في حماية العاصمة شأنها شأن الأربس، فهي كورة مستقلة غرب القيروان ومركزا لحامية عسكرية أغلبية. وقد كان الجغرافي اليعقوبي الذي زار إفريقية بعد 263 هـ / 876 م وقبل 275 هـ / 888 م، أولّ من تحدث عنها كمنطقة جغرافية ووحدة إدارية في نفس الوقت على حدّ قوله: "... ومن القيروان ممّا يلي القبلة إلى بلاد قمودة وهو بلد واسع فيه مدن وحصون والمدينة التي ينزلها العامل في هذا الوقت مذكورة، والمدينة القديمة العظمى هي التى يقال لها سبيطلة وهي التي افتتحت في أيام عثمان بن عفّان وحصرها عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير

بإفريقية، فإن النويري يصرّح بذلك بقوله: " وفي سنة ثمان وسبعين أيضا اضطربت إفريقية على إبراهيم. فخالفه أهل تونس والجزيرة وصطفورة وباجة وقمّودة والأربس، وذلك في شهر رجب ولم يجتمع أهل هذه الكور بمكان واحد بل أقام كل رئيس بمكانه. ولم يبق بيد إبراهيم من افريقية وكورها إلا الساحل الشرقي." أما ابن الأبار، فقد أورد أن إبراهيم بن أحمد عيّن مجبر بن إبراهيم بن سفيان، وهو من أهل الشرف والثروة، واليا على الأربس، قبل أن يخرجه عنها إلى صقلية، ولا شك أن ذلك حدث قبل سنة 280 هـ / 893 م، تاريخ الثورة بإفريقية، إذ نستبعد أن تكون حدثت في ولايته وهو نديم الأمير لحذقه الغناء، والمحافظ على ولائه له، ضدّ أعدائه الثائرين بإفريقية، حتى بعد أن أسره الروم بصقلية وسجنوه، حيث جاء في قصيدة بعث بها من محبسه:

لعل الذي نجّى من الجبّ يوسفـا	وفرج عن أيوب إذا مسه الضــــــر.
وخلص إبراهيم من نار قومـــــه	وأعلى عصى موسى فذل له السحـر.
يصبر أهل الأسر في طول أسرهم	على معضلات الأسر، لا سلم الأسـر.

[82] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 195–199.

[83] المصدر السابق، ج 1، ص 147، 149.

[84] المصدر السابق، ص 211.

[85] المصدر نفسه، ص 202 – 203.

وأمير الجيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة سبع وثلاثين، ومن بلد قمودة إلى مدينة قفصة..."[86].

وقد أفادنا بعض المؤرخين حول تحركات الداعي الشيعي في نهاية القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي أنه: " ارتحل من ميدرة فنزل على القصرين من قمّودة"[87]. ويستفاد من ذلك أنها قد توسعت بضم القصرين التي كانت تمثل كورة مستقلة في عهد الولاة وبداية العهد الأغلبي[88]. ولكن لا نعلم تحديدا متى حدث هذا التوسّع، ويمكن أن نفترض مبدئيا أنه على إثر حركة عمرو بن معاوية القيسي التي لم تشكل في حقيقة الأمر تهديدا كبيرا للإمارة، قرّر زيادة الله الأول إلحاق كورة القصرين بمجال كورة قمودة والحدّ من نفوذ القبائل القيسية. وإن لم يكن هذا الأمير هو صاحب هذا القرار، فإن ذلك قد يكون على أقصى تقدير مع زيادة الله الثالث (290 – 296 هـ) خوفا من بداية تسرّب الدعوة الشيعية من بلاد كتامة إلى إفريقية حيث قرّر توسيع مجال بعض الكور وإحداث عدد آخر غرب إفريقية لحماية القيروان عاصمة الأغالبة عساه ينجح في التصدّي والمقاومة والحدّ من تقدم المدّ الشيعي الفاطمي[89].

ومهما يكن من أمر صاحب قرار إلحاق القصرين بكورة قمّودة، يهمنا أنه لأجل هذه المكانة الإستراتيجية-العسكرية والإدارية، أراد الداعي الشيعي الاستيلاء عليها قبل الدخول إلى القيروان لمنع أي هجوم من الخلف أو أي محاولة لاستعادة العاصمة[90]. لكن لم يعد هناك من مبرّر لمواصلة الطريق نحوها، فالعاصمة قد سقطت بسقوط الأربس التي عدّت حصنا متقدما للدفاع عنها جمع به زيادة الله الثالث كل ما قدر عليه من الحيلة واستفراغ المجهود وتجميع الجيوش من العرب والبربر أولا، ثمّ بفرار الأمير زيادة الله الثالث رمز السلطة الأغلبية والمقاومة والدفاع عنها ثانيا. وبديهي القول إنه بسقوطها تسقط كل المعاقل الأخرى المتقدمة للصمود والتصدّي للشيعة ناهيك أنه لمّا استولى عليها أبو يزيد مخلد بن كيداد، أثار سقوطها

---

[86] المصدر السابق، ص 349.

[87] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 197؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج 6، ص 593؛ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاذة وسهيل زكار، بيروت، 8819، ج 3، ص 453.

[88] الرقيق، المصدر السابق، ص 169– 175 وخاصة ص 173؛ ابن الآبار، المصدر السابق، ج 1، ص 110، الترجمة رقم 39. يصعب التسليم بأن القصرين كانت عاصمة قمّودة في آخر عصر الولاة. أنظر: BAHRI (F.), « Art. cit », dans *Histoire des Hautes Steppes, Antiquité- Moyen-Âge,* Actes du colloque de Sbeïtla, session 1998 et 1999, p. 175, 177 et carte p. 186.

[89] عرعار (مراد)، المرجع السابق، ج 1، ص 150–159.

[90] كان الداعي الشيعي في تحركاته العسكرية بإفريقية حريصا على حماية ظهر جيوشه، وحسبنا أن نذكر أنه قبل الهجوم من وادي الرمل على الأربس، كان قد أمن مؤخرة الجيش بالاستيلاء على منيولة وشقبنارية. أنظر: القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 207.

الفزع والهلع في قلوب أهالي المهدية الذين قالوا للقائم: " هذه مدينة عظيمة، وهي باب إفريقية، ولمّا أخذت أيام بني الأغلب وهنت دولتهم"[91].

صفوة القول، لم تكن تحركات الداعي الشيعي اعتباطية بل كانت مدروسة وعقلانية تهدف إلى تطويق العاصمة والقضاء على كل مراكز الدفاع المتقدمة عنها وهي الأربس وقمودة، حتى ما إذا تقرّر الهجوم عليها، لم تعد لها مراكز خلفية لحمايتها أو لمباغتة جيوش الدّاعي من الخلف. وعلى هذا الأساس، تكمن أهمية مسلك الداعي الشيعي لا فقط في معرفة أسماء مواضع جديدة لم تذكرها المصنفات الجغرافية، بل أيضا في مساعدتنا على معرفة المجالات الإدارية التي كانت تحيط بجهة القيروان ممّا يجعلنا نتساءل عن الحدود الفاصلة بينها.

III – مقاربة حول الحدود الإدارية

يجد الباحث في حدود التقسيم الإداري لإفريقية في العصر الوسيط صعوبات كبيرة، ذلك أنه علاوة على أننا نكاد لا نجد في المصادر معلومات كافية حول حدود التقسيمات الإدارية، فإن الأبحاث التي كتبت حول هذه المسألة، لا تقدم تصوّرا واضحا عن حدود الكور ومجال نفوذها[92]. ويدفعنا هذا الأمر إلى القيام بفرضيات سنوظف فيها المعطيات التاريخية والطبوغرافية علنا نتوصل من خلال دراستنا لمسلك الداعي الشيعي إلى تقديم تصوّر للحدود بين الأربس وقمّودة من جهة، وبين قمّودة والقيروان من جهة أخرى.

1 – الحدود بين الأربس وقمودة

أفادنا القاضي النعمان[93] وعنه ينقل الدّاعي إدريس[94]، أن الدّاعي الشيعي بعد انتصاره على الجيش الأغلبي بمعركة الأربس يوم السبت 24 جمادى الثانية 296 هـ / 20 مارس 909 م، غادر الأربس يوم الاثنين مرورا بدقة باتجاه قمودة. ورغم ما يستفاد من هذه الرواية من

---

[91] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 274.

[92] مؤنس (حسين)، تاريخ المغرب وحضارته بيروت، ، 1992، ص 205-205؛

DJAIT (H.), « La Wilaya d'Ifriqiya au IIè / VIIIè siècle, étude institutionnelle », dans *Studia Islamica*, XXVII, 4 ème trim, 1957, p. 93 et suiv; MAHJOUBI (A.), « De la fin de l'Antiquité au Haut Moyen–Âge : héritage et changement dans l'urbanisme africain », dans *Acte du 11ᵉ congrès national des sociétés savants*, IIIᵉ colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, Montpellier, 1985, p. 394 et suiv.

[93] المصدر السابق، ص 211.

[94] المصدر السابق، ص 133.

إشارة ضمنية إلى وجود حدود إدارية بين كورتي الأربس وقمّودة، فإنهما لا يسمحان بالجزم بانتماء دقة إداريا إلى الأربس[95]، إذ يجوز تأويل نفس النص بالقول إنها تابعة إلى كورة قمّودة.

لكن أفادنا الدّاعي إدريس أنه بعد انتصار صاحب الحمار على أهالي تبسّة ووصوله إلى مرماجنة، تملك الكتاميين بالأربس خوف كبير وأقاموا معسكرهم بدقة[96]. وتبدو هذه المعلومة ذات أهمية بالغة، إذ تؤكد في نظرنا انتماء دقة إلى كورة الأربس، حيث تمّ اتخاذها كقلعة متقدمة للدفاع عن المدينة من هجوم مرتقب من أبي يزيد عليها. وعليه نرجح أنها[97] كانت تمثل آخر كورة الأربس أو بعدها بقليل، لندخل بعدها مباشرة إلى كورة قمودة التي تحدّ كورة القيروان من الجهة الغربية.

2 – الحدود بين قمودة والقيروان

خرج الداعي الشيعي من الأربس صبيحة يوم الإثنين، وكان بعد خروجه من دقة بناحية سبيبة في طريقه إلى قمّودة لمّا بلغه خبر هروب زيادة الله عن رقادة، فغير وجهته شرقا قبل الوصول إلى مدينة سبيبة ليمرّ عبر سكتانة وينزل بوادي الرمل حيث قضى ليلته قبل أن يواصل مسيره نحو ساقية ممس ورقادة. ويستفاد من هذا المسلك أنه بعد الخروج من دقة التابعة إداريا إلى كورة الأربس ندخل إلى ناحية سبيبة، وأن المسافة التي استغرقها الجيش بين الأربس ووادي الرمل تقدر بيوم واحد، لكن هل أن هاذين الموضعين (ناحية سبيبة ووادي الرمل) ينتميان إلى كورة قمّودة أم إلى كورة القيروان؟

استعمل العرب مصطلح الناحية للدلالة عن التنظيم الإداري[98]. لكن لا تذكر المصادر على حدّ إطلاعنا عاملا على مدينة سبيبة إلا في العهد الفاطمي. فبعد أن تغلب أبو يزيد على الكتاميين بدقة في 14 ذي الحجة 332 هـ / أوت 944 م، أرسل كتيبة من أتباعه إلى مدينة سبيبة، فتغلبوا عليها وقتلوا عاملها عبد الله التيفاشي[99]. ويبدو من خلال هذه الرواية أنه عندما بات وجود الدولة مهددا بسبب قيام حركة أبي يزيد، أحدث الفاطميون كورة سبيبة بهدف التصدى لخطر هذه الحركة الخارجية. وعلى هذا الأساس، فإن مصطلح الناحية الذي استعمله ابن الأثير يكتسي مدلولا جغرافيا وليس إداريا. أمّا وادي الرّمل فيوجد في الشمال الجبلي لبلاد الحبابسة الممتدة في أقصى جنوب معتمدية الروحية، وهي تمثل قسما من مقعر

---

[95] BAHRI (F.), « Art. cit », dans *Histoire des Hautes Steppes, Antiquité - Moyen-Âge, Actes du colloque de Sbeïtla, sessions 1998 et 1999*, p. 181 -182 et carte p. 185.

[96] المصدرالسابق، ص 272.

[97] يرى شارل ديال (*Op. cit*, p. 279 – 280.) أن هنشير قصر دقة يراقب سهل القصور الواقعة شمالها، لكن بالرجوع إلى الخريطة الطبوغرافية سلم 1 / 50.000 لأبة قصور، نتبين أن مستوى الارتفاع لا يسمح بهذا الدور، ذلك أن هنشير قصر دقة يقع على خط ارتفاع 0.798 م، ثم يزيد مستوى الارتفاع باتجاه القصور ليصل إلى 0.855 م في موضع عفسات الحصان، ويأخذ بعدها في النزول إلى حدود 0.700 م أو أقل في سهل القصور.

[98] ابن الآبار، المصدر السابق، ج 1، ص 110، الترجمة رقم 139.

[99] ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 135؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 52: الداعي إدريس، المصدر نفسه، ص 273.

سبيبة الممتد بين محدب جبل بربرو شرقا ونهايات جبل تيّوشة ومغيلة ولعبيد غربا[100]. وتبعا لهذا المعطى الطبيعي والطبوغرافي، فإن ناحية سبيبة ووادي الرمل يقعان داخل كورة قمّودة. ومن المرجح أن جبل بربرو يمثل حدّا طبيعيا وإداريا بين كورتي قمّودة والقيروان ناهيك أنه لا يمكن مواصلة الطريق من وادي الرمل نحو رقادة إلا بعد المرور جنوبه.

وممّا يدعم هذا الرأي، أن الأستاذ أحمد مشارك قد عثر سنة 1994 على نقيشة لاتينية بمرتفعات جبل بربرو، وتحديدا بالموقع الأثري القديم المسمّى اليوم دوّار بيّوض الواقع في معتمدية العلا من ولاية القيروان[101]. وتؤرخ هذه النقيشة بين 209 و211 ب م، وتذكر اسما مختصرا لمجموعة من المزارعين الذين لا شك في أنهم من أصل نوميدي، وهم (Coloni Gam.). ويكفي إضافة لاحقة النسبة للحصول على الاسم الكامل (Gam(onienses أي القمـ(ونيين)، وهم مجموعة من المزارعين الأفارقة كانوا يقيمون ويعملون بموجب عقد محاصصة في ضيعة إمبراطورية، وتحديدا في القرية الريفية التي كانت موجودة في دوّار بيوض[102]. ونظرا للتقارب الصوتي والألسني بين "قمونية" التي تذكرها المصادر العربية كموضع وكإقليم جغرافي قبل تأسيس القيروان وبعده من جهة، وبين اسم القمونيين الوارد في نقيشة دوّار بيّوض من جهة أخرى، يرى أن لفظ " قمونية " من الممكن أن يكون تهجئة عربية لمفهوم (Gamonia) الذي كان متداولا في العهد الروماني، علما بأن الصيغة اللاتينية هي اشتقاق من التسمية اللوبية التي كانت تحملها قبيلة القمونيين النوميدية[103].

وفي ما يخص حدود هذا الإقليم في العهد الروماني، فيطابق السهول والحمادات الخصبة نسبيا والغنية بالماء الصّالح للشراب حول ممّس في أسفل جبل وسلات وجنوب جلولاء في منطقة القرن، أي أنها -إجمالا وعلى ضوء المصادر العربية- المنطقة الواقعة غرب القيروان بين جبل القرن شرقا وجبل بربرو غربا[104].

أمّا من جهة الشمال، فقد توصل إلى ضبط حدودها بواسطة العلامات الميلية لهنشير عبد السلام والوسلاتية التي كانت تفصل بين مجال التوشكاة في الشمال والأراضي الإمبراطورية في الجنوب، علما بأن هذا الحدّ الإداري يمثل أيضا حدّا طبيعيا يفصل بين المجال التلي والمجال السباسبي، وهو أيضا خط تقسيم للمياه بين مياه أودية أوزافة والجلف التي

---

100 GALLALI (T.), CHABBI (A.), EL AMAMI (S.), « Art. cit », dans *Actes du IV colloque de géographie maghrébine,* Cahiers de CERES, série géographique n° 4, 1979, Tome I : L'homme et la montagne, p. 147 - 148.

101 M'CHAREK (A.), « De Zama à Kairouan : La Thusca et la Gamonia », dans *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du Nord antique (Hommage à Pierre Salama),* Paris, 1999, p. 139-183.

102 *Ibid,* p. 158-159.

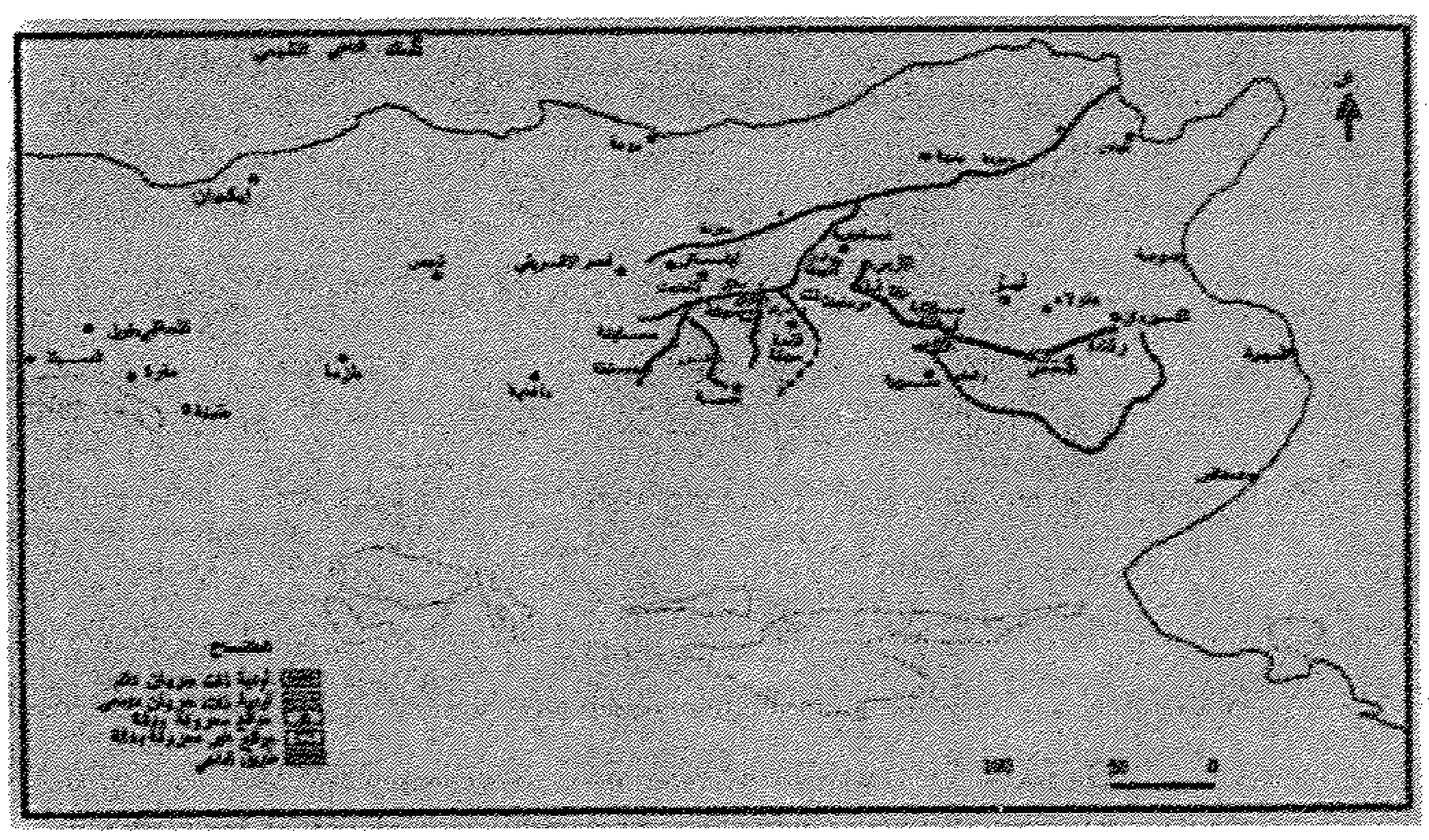
103 مشارك (أحمد)، "بلاد القمونيين، قمونية وقمودة". في تاريخ السباسب العليا من العصر القديم إلى العصر الوسيط، فعاليات ملتقى سبيطلة، دورتا 1998-1999، ص 55.

104 M'CHAREK (A.), « Art. cit. », dans *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du Nord antique (Hommage à Pierre Salama),* Paris, 1999, p. 152 – 154.

تجري باتجاه الشمال ومياه وادي مرق الليل وروافده في الجنوب[105]. ومن جهة الجنوب، تمتدّ بلاد القمونيين في السباسب لتشمل كامل حوض وادي زرود[106]. وجعلت هذه النقيشة التي كشفت عن مجموعات بشرية نوميدية تسمّى القمونيين، والذين أعطوا اسمهم لوحدة ترابية تسمّى قمونية، الباحث أحمد الباهي يقوم بجرد شامل للمصادر العربية للتحقق من مدى الترابط بين هؤلاء القمونيين وقمونية الوسيطة التي ذكرت قبل تأسيس القيروان وبعده. ومن النتائج التي توصل إليها، أن قمونية لم تكن تمثل بالضرورة اسما لمدينة أو لموضع معين، بل إن عديد النصوص تطلق هذا الاسم على مجال جغرافي يقع غرب القيروان ربّما انتمى إليه موضع هذه المدينة ومواقع جبل القرن وممّس، وقد تواصل وجودها على الأقل إلى القرن الرّابع هجري[107].

خاتمة

صفوة القول، رغم أهمية كتب المسالك والرحلة سواء كانت مشرقية أم مغربية في دراسة شبكة المسالك والطرقات وتحديد المواقع والمجالات الإدارية بإفريقية في العصر الوسيط، فإن العودة إلى المصادر التاريخية تقدم لنا عديد المعطيات المكملة. فقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة لمسلك الداعي الشيعي من الأربس إلى رقادة إعتمادا على ثلاثة مصادر مختلفة للقاضي النعمان وابن الأثير وابن عذاري، أهمية هذا الصنف من المصادر في تحديد الطرقات العسكرية ومدنا بأسماء مواضع جديدة ومساعدتنا على تصور الحدود الفاصلة بين الكور. على أنه يجب التأكيد أن الإستفادة من المصادر الجغرافية أو التاريخية في ظل اندثار عديد المواقع الوسيطة أو تغير تسمياتها والتحوّل الذي طرأ على شبكة المسالك والطرقات، لن تكتمل إلا عن طريق الاستكشاف الأثري ومقارعة المعطيات النصية بالمعطيات الميدانية.



مسلك الداعي الشيعي

[105] *Ibid*, p. 154, n°112. نرجح أن هذه الحدود التاريخية والطبيعية قد مثلت أيضا حدّا فاصلا بين كورتي الأربس والقيروان في العصر الوسيط.

[106] مشارك (أحمد)، المقال السابق، ص 57.

[107] الباهي (أحمد)، "مفهوم قمونية في المصادر العربية"، في الكراسات التونسية، عدد 178، الثلاثية الثالثة، 1997، ص 13-44.

القيروان أحد معابر التأثيرات الفنية المشرقية في الأندلس: عنصر المحارة المفصصة نموذجاً

أسامة طلعت عبد النعيم
كلية الآثار - جامعة القاهرة

تعد مدرسة القيروان المدرسة الأولى للعمارة والفنون الإسلامية في البلاد التونسية، وقد نشأت هذه المدرسة ونضجت خصائصها في أيام الأغالبة الذين كانوا تابعين للدولة العباسية[1]، وحكموا البلاد في الفترة ما بين عامي 184 و296هـ (800-909 م)[2]، وأسسوا فيها المباني الفاخرة والزاخرة وجدّدوها بأنواع الفنون كالمسجد الجامع بالقيروان، وجامع الزيتونة بتونس[3]. ويعد فن الأغالبة أحد فروع الفن العباسي خارج العراق[4]، وذلك نظراً للعناصر المعمارية والزخرفية العباسية العديدة التي ظهرت في منشآتهم[5]، فمن جهة كانت القيروان في ذلك العهد تمثل همزة الوصل بين المشرق والمغرب[6]، ومن جهة أخرى تمثل مدرسة قرطبة المدرسة الأولى للعمارة والفنون الإسلامية في الأندلس، وهي المدرسة التي نشأت وتطورت في قرطبة في عهد الدولة الأموية الأندلسية أو الغربية (138-422 هـ/755-1031 م)، ويعد المسجد الجامع في قرطبة متحفاً تجلت فيه خصائص هذه المدرسة معمارياً وزخرفياً.

---

[1] مراد الرماح "مدرسة القيروان المعمارية"، في الفن العربي الإسلامي، تونس، 1995، ، ج 2، ص 108-109.

[2] يرى الدكتور مراد الرماح أن مدرسة القيروان الفنية استمرت بعد سقوط دولة الأغالبة وتواصلت إلى ما بعد الزحفة الهلالية وخراب القيروان سنة 447 هـ(1055 م). الرماح، ن. م.، ص 109.

[3] تضم مدرسة القيروان المعمارية وفق تصنيف "جولفان" كل من جامع القيروان وجامع الزيتونة وجامع صفاقس.
Golvin (L.), *Essai sur l'Architecture Religieuse Musulmane*, T. 3, Paris, 1979, p. 325-325.

[4] سليمان مصطفى زبيس، "آثار تونس"، في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية (تونس 18-29 مايو 1953)، القاهرة، 1955، ص 248، 249.

[5] أنظر:
Marçais., Georges, *Coupole et Plafonds de la Grande Mosquée de kairouan*, Paris, 1925, p. 21 ; Lézine, Alexandre, *Architecture de l'Afriqiye, Recherche sur les monuments aghlabids*, Archéologie Mediterranéenne, II, Paris, 1955, p. 51.

[6] الرماح، ن. م.، ص 108.

ويلاحظ أن غالبية من تناول جامع قرطبة بالدراسة والتحليل ينسب أصول العديد من وحداته وعناصره المعمارية إلى العمارة المشرقية في الشام والعراق[7]؛ وهذا أمر واضح لا جدال فيه حيث يتجلى في العديد من المظاهر؛ منها: التخطيط المتعامد للبائكات على جدار القبلة، وموقع وشكل المئذنة، واستخدام العقود نصف الدائرية والحدوية والمفصصة الثلاثية ثم متعددة الفصوص، وغير ذلك. إلا أنني أود في هذا البحث إلقاء الضوء على أحد المعابر الرئيسية التي ساهمت بشكل فعال في انتقال تلك التأثيرات المشرقية إلى مدرسة قرطبة ألا وهي مدرسة القيروان، وذلك تطبيقاً على عنصر معماري وهو القبة التي تغطي حجرة المحراب بجامع قرطبة؛ والتي بنيت على هيئة محارة مفصصة بتأثير فني مشرقي عبر إلى الأندلس عن طريق القيروان.

والجدير بالذكر أن عوامل انتقال التأثيرات الفنية من القيروان إلى قرطبة كانت متوفرة لاسيما في الفترة المبكرة[8]؛ فقد كانت القيروان هي القاعدة العسكرية الأساسية التي خطط فيها وانطلق منها فتح الأندلس على يدي موسى بن نصير وقائديه طارق بن زياد وطريف بن مالك (91-94هـ/710-713م)، وكانت الأندلس خلال عصرها الإسلامي الأول وهو عصر الولاة (94-138هـ/713-755م) تتبع سياسياً وإدارياً ولاية إفريقية ومقرها القيروان، وكان يحكمها ولاة يعينهم الخليفة أو واليه على القيروان، ومن المعروف أيضاً أن تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي قد ارتبط في جميع مراحله بالشمال الإفريقي، هذا بالإضافة إلى الرحلات المشرقية أو الحجازية التي كان يقوم بها الأندلسيون للحج والعمرة وطلب العلم، والهجرات العديدة التي تلقتها الأراضي الأندلسية من قبل الشمال الأفريقي، فضلاً عن تواصل حركة التبادل التجاري بين الأندلس والشمال الإفريقي بشكل عام، والبلاد التونسية بشكل خاص؛ فكان لكل ذلك مردوده على العمارة والفنون الأندلسية.

وتغطي حجرة محراب[9] الحكم المستنصر في جامع قرطبة قبة صغيرة على هيئة صدفة أو محارة كاملة مفصصة، (شكل 1، 2، لوحة 1)، وعلى الرغم من أن القبة بهذه الهيئة تعد عنصراً مبتكراً يظهر هنا للمرة الأولى في العمارة الإسلامية، ولا أعرف -على حد علمي- نموذجاً أخراً لها في العمارة الأندلسية رغم تفوقها في بناء القباب، إلا أن هذه القبة لم تحظ بقدر كاف من الدراسة لتأصيلها، وأرجح أن هذه القبة تعد المرحلة الأخيرة لتطور عنصر

---

[7] من هؤلاء العلماء على سبيل المثال: مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم، القاهرة، 1958، ص 35، 38؛ السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، الإسكندرية، 1997، ج 1، ص 320، 321، 359، 359؛ ليوبولدو توريس بلباس، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (711-1031 م)، الفن والعمارة، ترجمة على إبراهيم المنوفي والسيد عبد الظاهر عبد الله، مراجعة صلاح فضل، القاهرة، 2002، ص 34، 39.

[8] عن عوامل وقنوات انتقال التأثيرات الفنية أنظر: محمد محمد مرسي الكحلاوي، "التأثيرات الفنية المتبادلة بين شرق العالم الإسلامي وغربه في مجال الفنون الزخرفية"، في بحوث في الآثار الإسلامية في المغرب والأندلس، القاهرة، 1999، ج 1، ص 387-391.

[9] يعد بناء المحراب على هيئة حجرة صغيرة شكلاً جديداً يظهر هنا للمرة الأولى، ثم تعددت أمثلته بعد ذلك في العمارة الأندلسية، مثل محراب جامع المرية ومحراب مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة. سالم، ن. م.، ج 1، ص 400-401.

معماري ذي أصل زخرفي مشرقي وهو عنصر الصدفة أو القوقعة الإشعاعية أو المحارة المفصصة[10]، الذي انتقل من المشرق إلى القيروان واستخدم في منطقة محراب جامع سيدي عقبة، وشهدت هذه المنطقة من الجامع تطوره من عنصر زخرفي إلى عنصر معماري؛ إذ ظهر على شكل محارات غير كاملة في منطقة انتقال قبة المحراب، ثم تطور وصار أكثر وضوحاً في منطقة انتقال قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس، ثم انتقل إلى الأندلس حيث وصل إلى شكل المحارة الكاملة في قبة حجرة محراب الحكم المستنصر بجامع قرطبة.

وبداية فإن عنصر المحارة أو الصَدَفَة المفصصة أو المشعة من العناصر الزخرفية التي كانت شائعة في فنون الحضارات القديمة، ولعل أصوله ترجع إلى رسوم أشعة قرص الشمس "أتون" بمصر القديمة[11]، وهو من العناصر التي استخدمت للتعبير عن الأساطير الإغريقية والرومانية، وكان يستخدم في الفنون الإغريقية والرومانية ثم البيزنطية؛ وذلك في زخرفة طواقي الحنايا أو التجاويف الرأسية التي تحلي الجدران من الداخل والخارج[12]؛ وارتبط عنصر المحارة أو القوقعة بقصة أفروديت إلهة الجمال عند الإغريق (فينوس عند الرومان)[13] التي كانت تمثل على شكل امرأة عارية جالسة أو قائمة أمام قوقعة وتحلي خصرها الزهور والرياحين، وأصبحت المحارة أو الصدفة في حد ذاتها رمزاً لفينوس في الأساطير القديمة، وهو من الموضوعات التي انتقلت إلى الفن القبطي في مصر، ومن أمثلة ذلك حفر بارز لفينوس أو أفروديت خارجة من الصدفة، وقد عثر عليه في مدينة أهناسيا قرب بني سويف ويرجع إلى القرن الخامس الميلادي ومحفوظ بالمتحف القبطي بالقاهرة (لوحة 2)، وآخر محفور على طبقة من الجص من نفس المدينة ويؤرخ بالقرنين الخامس والسادس الميلاديين[14].

وقد انتقل عنصر المحارة أو القوقعة أو الصدفة المشعة بطبيعة الحال إلى العمارة والفنون الإسلامية بتأثير الفنون السابقة عليها. وكان يوجد في متحف الآثار ببغداد محراب يزيد ارتفاعه عن مترين ويبلغ عمقه 27سم (لوحة 3)، وهو عبارة عن تجويف شُكلت طاقيته على هيئة محارة تنتهي أطرافها العلوية على هيئة عقد متعدد الفصوص؛ ويعتقد الأستاذ (كريزويل) أن هذا المحراب يخص مسجد الخليفة المنصور الجامع بمدينة بغداد الذي شُيد

---

[10] ذكر الأستاذ (بافون) أن هذا العنصر "انتقل من العمارة إلى الزخرفة"، وذكر أمثلة عديدة منه وأورد لها رسوم: وبالرجوع إلى الأمثلة التي أوردها يلاحظ أنها جميعها أمثلة لاستخدام هذا العنصر زخرفياً وليس معمارياً، والمثال الوحيد لتوظيفه معمارياً جاء في قبة محراب جامع قرطبة. أنظر: باسيليو بافون مالدونادو، الفن الإسلامي في الأندلس، الزخرفة النباتية، ترجمة على إبراهيم على منوفي، مراجعة محمد حمزة الحداد، القاهرة، 2002، ص 93 واللوحة 12.

[11] عبد الناصر ياسين، الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي دراسة آثارية حضارية للتأثيرات الفنية الواردة، الإسكندرية، 2003، ج 1، ص 785.

[12] أنظر:

Balbás, Leopoldo Torres, « Nichos y Arcos Lobulados », *Al-Andalus*, Vol. XXI, Fasc. 1, 1955, pp. 150-151, Figs. 1,2, pls. 1-3.

[13] ثروت عكاشة، الإغريق بين الأسطورة والإبداع، القاهرة، 1994، ص 157-158.

[14] سعاد ماهر، الفن القبطي، القاهرة، 1977، ص 30 (لوحة 14 ، أ-ب)؛ دليل المتحف القبطي، القاهرة، المجلس الأعلى للآثار، 1995، ص 30، 35.

سنة 149هـ (766م)[15]، وإن صح هذا الاعتقاد يصبح هذا المحراب أقدم النماذج الباقية المؤرخة للمحاريب المجوفة ذات الطواقي المحارية.

وعلى أية حال فهناك نماذج باقية ومؤرخة لهذا الشكل من المحاريب وإن كانت زخرفية وليست معمارية، ولا تبتعد كثيراً من الناحية التاريخية عن المحراب السابق؛ وتلك المحاريب أو أشكال التجاويف ذات الطواقي المحارية والمحمولة على أعمدة توجد في زخارف كسوات أطراف العوارض الخشبية الحاملة لسقف البلاطة الوسطى بالمسجد الأقصى، وتتكون هذه الكسوات من ألواح ثبتت ببواطن أطراف العوارض عند تقابلها بحائطي الجانبين، وتتراوح أطوال الكسوات بين 0.90 و1.10م، وعرضها بين 0.35 و0.60م[16]، أما تاريخ هذه الكسوات فيرجع إلى أعمال الخليفة المهدي في المسجد الأقصى التي تمت في سنة 163هـ (780م)[17]، ويشغل عدداً من هذه الكسوات موضوع زخرفي في كل منها أساسه فكرة معمارية تتلخص في ملء السطح بما يشبه حنية مسطحة يتوجها عقد من نوع حدوة الفرس يحمله عمودان. وتملأ قوس العقد في أربع حالات ضلوع إشعاعية على هيئة ضلوع الأصداف، ومن الملاحظ أن تيجان الأعمدة كلها تتكون من ورقتين كل منهما نصف أكانتس في وضع متقابل وتعطيان للتاج شكلاً بصلياً ينتفخ في أسفله ويضيق قرب أعلاه. أما أبدان الأعمدة فهي من النوع الحلزوني وهو نوع معروف في الفن البيزنطي[18] (لوحة 4). وزخارف هذه الكسوات الخشبية ذات صلة وثيقة بأساليب الفن الهلينستي[19] التي استمرت في الفن البيزنطي الذي كان سائداً في بلاد الشام عند الفتح الإسلامي واستمر تأثيره في الفنون الإسلامية المبكرة خلال العصر الأموي وامتد حتى بداية العصر العباسي إلى أن ظهرت شخصية الفن الإسلامي جلية في طرز سامراء الفنية المعروفة.

والجدير بالذكر أن هذا العنصر انتقل إلى مصر خلال العصر العباسي واستخدم كزخرفة معمارية؛ ومن أمثلة ذلك الزخرفة المحارية المفصصة في طواقي الحنايا الغائرة في الجزء العلوي بالواجهتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية بجامع عمرو بن العاص والتي ترجع إلى أعمال عبد الله بن طاهر في الجامع (212هـ/827م)، حيث كانت تتوج تلك الحنايا طواقي زخرفية على هيئة محارة مفصصة مشعة يتخذ محيطها الخارجي شكل فصوص

---

[15] أنظر:

Cerswell, K.A.C., *Early Muslim Architecture*, 2 Vols., Oxford, 1932, 1940, II, pp. 35-37; Balbas., p. 157.

[16] فريد شافعي، "الأخشاب المزخرفة في الطراز الأموي"، في مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، مجلد 14، الجزء الثاني، ديسمبر 1952، ص 79.

[17] زكي محمد حسن، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، القاهرة، 1955، شكل 307؛

Creswell., *Early Muslim.*, II, p. 122.

[18] شافعي، الأخشاب المزخرفة، ص 80: حسن. أطلس الفنون الزخرفية، شكل 307؛

Creswell., *Early Muslim.*, II, pp. 127.

[19] شافعي، ن. م.: مس. ديماند، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكري، القاهرة، 1982، ص 115.

متتابعة[20] (لوحة 5)، وإن كانت هذه الحنايا لا تظهر الآن إذ اختفت معالمها بسبب التجديدات المتعددة والمتكررة لواجهات الجامع في السنوات الأخيرة. كما استخدم هذا العنصر كذلك في طواقي الحنايا المحصورة بين شبابيك واجهات جامع أحمد بن طولون (265هـ/878م) بتأثير من العمارة العباسية[21] (لوحة 6).

وواصل عنصر المحارة المفصصة انتقاله -بتأثير من العمارة والفنون العباسية- غرباً حيث ظهر في أبرز المنشآت التونسية التي تمثل مدرسة القيروان المعمارية ونقصد بها المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس، فضلاً عن منشآت أخرى تؤرخ بالقرن الثالث الهجري (9م) مثل محراب دار شعبان قرب نابل ومحراب مسجد الدّز بالمنستير.

ويلاحظ أن هذا العنصر قد استخدم في منطقة المحراب بالمسجد الجامع بالقيروان في ثلاث مناطق وبأشكال ثلاثة، تبدو في اثنين منهم التأثيرات العباسية واضحة جلية؛ أما الثالث فيعد -في ضوء العمائر الباقية- نموذجاً جديداً يظهر هنا للمرة الأولى حيث استخدم كعنصر معماري.

ويظهر الشكل الأول في زخرفة ست من الحشوات الرخامية المستطيلة التي تزخرف تجويف المحراب[22] (لوحة 7)، وهناك من الآراء ما نسب هذا المحراب بكسوته إلى أعمال زيادة الله بن الأغلب في الجامع سنة 221هـ (836م)[23]، وذلك اعتماداً على رواية البكري عن أعمال زيادة الله بن الأغلب، والتي جاء فيها أنه أراد أن يهدم الجامع والمحراب "لئلا يكون في الجامع أثر لغيره حتى قال له بعض البناة أنا أدخله بين حايطين ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك فاستصوب ذلك وجعله فهو على بنائه إلى اليوم والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله مخرم منقوش كله منه كتابة تقرأ ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام غاية في الحسن"[24]. وثمّة آراء أخرى تنسبه إلى أعمال أبي إبراهيم أحمد بن الأغلب في الجامع سنة 248هـ (862م)[25]؛ وذلك اعتماداً على رواية التجيبي التي نقلها الدباغ

---

[20] فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، القاهرة، 1970، ص 382.

[21] ياسين، ن. م.، ج 1، ص 785

[22] يبلغ عدد هذه الحشوات (28) حشوة: متوسط ارتفاعها 0.54م وعرضها 0.45م: وليست كلها رخامية إذ فيها عدد قليل من الجص في الصف السفلي على مستوى الأرض. عبد العزيز الدولاتلي، الزيتونة عشرة قرون من الفن المعماري التونسي، تونس، 2000، ص 85:

Golvin, *Essai sur l'Architecture*, p. 228, figs. 90, 91.

[23] أحمد فكري، مسجد القيروان، القاهرة، 1935، ص 128-129: سليمان مصطفى زبيس، "المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب الإسلامي"، في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس **18-29 مايو 1953**، القاهرة، 1955، ص 554؛

Marçais, Georges, *Manuel D'Art Musulman*, T. I, Du IX Au XII Siècle, Paris, 1925, p. 15 ; Marçais, Georges, *l'Architecture Musulmane D'Occedent*, Paris, 1954, p. 9

[24] البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. القاهرة، د.ت.، ص 23.

[25] نجوى عثمان، مساجد القيروان، دمشق، 2000، ص 75؛

وابن ناجي، والتي وردت بها أعمال أبو إبراهيم أحمد في جامع القيروان ومنها أنه: "جاء بالمحراب مفصلاً رخاماً من العراق عمله في جامع القيروان ... وزينه تلك الزينة العجيبة بالرخام والذهب والآلة الحسنة"[26]، ولو صحت هذه الرواية فإننا أمام سبب مباشر لانتقال التأثيرات الفنية؛ وهو انتقال التحف الفنية من مكان لآخر، كما تكون التأثيرات العباسية على مدرسة القيروان المعمارية والفنية قد ثبتت بدليل أثري مادي.

وعلى أية حال فهناك أربع من الحشوات الرخامية المذكورة تشكل صفاً رأسياً بوسط المحراب، والخامسة في بداية الصف الأفقي الأول من أعلى في تلك الحشوات، والسادسة والأخيرة في نهاية هذا الصف. وتشغل هذه الحشوات زخرفة منفذة بالحفر غير العميق تكاد تكون مكررة؛ قوامها في كل منها محراب صغير مسطح ذو عقد على شكل حدوة الفرس يرتكز على عمودين صغيرين؛ لكل منهما بدن حلزوني، ويشغل بحر العقد شكل محارة مفصصة مشعة من أسفل لأعلى، أما المساحة المحصورة بين العمودين فتشغلها زخارف نباتية قوامها رسوم وريدات ذات بتلات في المنتصف تحيط بها أوراق نباتية وأنصاف مراوح نخيلية. ويلاحظ أن شكل المحارة المفصصة استخدم هنا كأحد العناصر لزخرفة الحشوات الرخامية. وتشبه زخارف هذه الحشوات إلى حد كبير - لاسيما الشكل المحاري بها- تلك المنفذة على الكسوات الخشبية بالمسجد الأقصى والتي سبقت الإشارة إليها (شكل 3، لوحة 8) .

في حين يظهر الشكل الثاني من أشكال المحارة المفصصة في منطقة المحراب بجامع القيروان في بعض التجاويف بكوشات العقود بالمربع الذي يحمل منطقة انتقال القبة أمام المحراب؛ ومرة أخرى نجد أن آراء العلماء والباحثين قد اختلفت حول تأريخ هذه القبة بمكوناتها؛ فنسبها فريق منهم إلى أعمال زيادة الله بن الأغلب بالجامع سنة 221هـ (836م)[27]، بينما نسبها الكثيرون إلى أعمال أبي إبراهيم أحمد بن الأغلب في الجامع سنة 248هـ (862م)[28]. وتشتمل كوشات العقود على مجموعة من الزخارف المعمارية منها تجاويف رأسية على هيئة محاريب قليلة العمق منفذة بالحفر على الأحجار؛ وقد شُكلت طواقي بعضها على هيئة محارة مفصصة مشعة من أسفل إلى أعلى (شكل 4، لوحة 9)، وذلك داخل عقد حدوي

Golvin, *Essai sur l'Architecture,* p. 135-137, 223; Hill, Derek, *Islamic Architecture in North Africa,* Oxford, 1975, p. 92; Sebag, Paul, *La Grande mosquée de kairouan,* Zurich, 1953, p. 39.

[26] الدباغ وابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، القاهرة، 1958، ج 2، ص 147.

[27] فكري، ن. م.، ص 96، 130؛ أحمد فكري، "أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية"، في العمارة والتحف الفنية، القاهرة، 1987، ص 385؛ سليمان مصطفى زبيس، القباب التونسية في تطورها، تونس، 1959، ص 13؛ الرماح، ن.م.، ص 118؛

Marçais, *Coupoles et Plafonds.*, p. 7; Lézine, *Architecture de l'Ifriqiya,* p. 64, 79; Maldonado, Basilio Pavón, *España y Túnez, Arte y Arqueología Islámica,* Madrid, 1996, p. 16.

[28] كمال الدين سامح، "تطور القبة في العمارة الإسلامية"، في مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، مجلد 12، جزء 1، مايو 1950، ص 8؛ شافعي، ن. م.، ص 413؛ عثمان، ن. م.، ص 71-72؛

Creswell, *Early Muslim.*, II, p. 315; Sebag, *La Grande Mosquée,* pp. 39-40.

يرتكز على عمودين مُخلقين صغيرين، وتشغل واجهة العقد وكذلك المساحة المحصورة بين العمودين زخارف نباتية تغلب عليها رسوم الأوراق خماسية وعناقيد عنب. ويلاحظ أن شكل المحارة المفصصة استخدم هنا كأحد عناصر الزخرفة المعمارية؛ كما يلاحظ أن الأشكال المحارية هنا تشبه تلك المنفذة على الحشوات الرخامية بالمحراب حيث تكتسب نفس الروح الزخرفية، مع الفارق في المادة الخام المنفذة عليها، كما تشبه إلى حد كبير الأشكال المحارية التي كانت موجودة بواجهات جامع عمرو بن العاص والتي السابق ذكرها، ويكفى للدلالة على ذلك المقارنة بين اللوحتين رقم (5) و(9).

أما الشكل الثالث من أشكال المحارة المفصصة في جامع القيروان فيظهر كعنصر معماري في منطقة انتقال قبة المحراب، حيث تتألف منطقة الانتقال من مثمن يشغل كل ضلع منه عقد نصف دائري يرتكز على عمودين صغيرين مدمجين بالجدران، وتقطع أربعة من هذه العقود زوايا المربع السفلي، مما نشأ عنه فراغ تشغله في كل زاوية حنية على شكل قوقعة أو محارة من تسعة فصوص مسلوبة للخارج، وتبدأ فصوصها من مقرنص صغير (شكل 5، لوحة 10)، والعقود الأربعة الأخرى ينتصف كل منها ضلعاً من الأضلاع الممتدة من المربع السفلي؛ ويشتمل كل منها على نافذة على هيئة وريدة ذات ستة بتلات، وتشغل كوشات العقود الثمانية مقرنصات صغيرة ذات واجهات متدرجة لأسفل[29]. وقد نجح المعمار في منطقة الانتقال هنا في تطوير المحارة المفصصة من عنصر زخرفي تابعنا أصوله وانتقاله من الشرق إلى مصر ثم تونس؛ إلى عنصر معماري جمع فيه ما بين المحارة المفصصة كشكل وبين الحنية الركنية كوظيفة؛ فانتج بذلك شكلاً معمارياً جديداً يظهر هنا –على حد علمي– للمرة الأولى، فضلاً عن ذلك فإن المحارات المفصصة في منطقة الانتقال تتماشى والخطة الزخرفية التي تم وضعها –فيما أرجح– قبل بناء وزخرفة منطقة المحراب وزخرفتها؛ والتي اعتمدت بشكل كبير على الأشكال المحارية والمفصصة التي وزعت بحيث تتوافق مع مجال الرؤيا الرأسية من أسفل إلى أعلى؛ فتظهر في زخارف المحراب ثم تجاويف مربع القبة ومنها إلى منطقة الانتقال وحتى خوذة القبة ذاتها التي تتألف من أربعة وعشرين فصاً أو ضلعاً. وهذا أمر يظهر بوضوح لكل من زار هذا المعلم الجليل ووقف أمام محرابه ثم تطلع بعينيه ببطء إلى أعلى.

وكان استخدام المحارة المفصصة على ما يبدو سمة غالبة في تلك الفترة، حيث تشتمل الأجزاء التي ترجع لأعمال الأغالبة في جامع الزيتونة بتونس سنة 250هـ (864م)[30] على مجموعة من الألواح الجصية تشكل من حيث أسلوب زخرفتها مجموعة متجانسة؛ منها لوحان مثبتان بالجدران التي تعلو الرواق المحاذي للبلاطة الوسطى المحورية على يسار الجالس أمام قبة المحراب، وهما لوحان صغيران نسبياً، تبلغ أبعاد أحدهما 0.50م × 0.60م والآخر 0.60م × 1.00م، ويحمل كلا اللوحين زخارف جصية قوامها شكل محراب تعلو تجويفه محارة مشعة على النحو الذي شاهدناه في ألواح محراب القيروان

[29] فكري، مسجد القيروان، ن. م.، ص 90.

[30] زبيس، ن. م.، ص 17.

الرخامية، ويحمل اللوح الكبير في أعلاه شريطاً من الكتابة الكوفية الأغلبية نصها: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ويتوج بشريط آخر من الشرافات المسننة[31] (شكل 6، لوحة 11). كما أن المعالجة المعمارية لمنطقة انتقال قبة محراب جامع الزيتونة (شكل 7، لوحة 12) والتي تؤرخ بنفس الفترة تشبه إلى حد كبير مثيلتها في جامع القيروان[32]؛ وإن كانت محارات قبة محراب الزيتونة تتألف من سبعة فصوص فقط.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل استخدمت الأشكال المحارية المفصصة فعلياً في زخرفة طواقي بعض المحاريب التونسية في تلك الفترة؛ إذ يوجد في دار شعبان -وهي مرقب صغير قرب مدينة نابل- محراب صنع على شاكلة محراب رباط المنستير ومحراب رباط سوسة ولكن طاقية هذا المحراب شكلت على هيئة محارة مشعة تشبه تلك الموجودة في القباب التونسية في القرن الثالث الهجري (9م)، ويرجع تأريخ هذا المحراب إلى القرن الثالث الهجري (9م) وذلك بناءً على طريقة صنعه وزخرفته؛ وكذلك لوجوده في رباط صغير تبدو عليه خصائص الرباطات الأولى مثل المنستير وسوسة. ولهذا المحراب شبيه ذو طاقية محارية أيضاً وينسب لنفس الفترة وهو محراب مسجد الدّز بالمنستير[33].

وإذا ما انتقلنا إلى الأندلس فإنه يلاحظ من خلال الآثار الباقية أن عنصر المحارة المفصصة لم يستخدم في العمارة والفنون الأندلسية إلا بحلول القرن الرابع الهجري (10م)؛ إذ توجد أقدم نماذجه في بقايا مدينة الزهراء التي كان الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر قد شرع في بنائها غربي قرطبة سنة 325هـ (936م)، وجلب لها الناصر مواد البناء من مواقع وبلدان مختلفة ومنها تونس؛ فيذكر كل من ابن غالب والمقري (نقلاً عن ابن حيان) أن الناصر: "جلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وحسن وعلي بن جعفر الإسكندراني، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير"[34]، وبالرجوع إلى بقايا مدينة الزهراء نجد أن أشكال المحارات المفصصة منفذة بشكل رئيسي على المنتجات الرخامية؛ وتوجد نماذج رائعة لها في زخارف النوافذ والأبواب الرخامية ببقايا القصور (شكل 8، لوحة 13)، وتتألف الأشكال المحارية من فصوص متلاحمة ينتج من تلاحمها شكل ورقة مزودة بشبكة من الخطوط المتماسة تتلاقى خطوطها عند رأس المحارة التي ترتبط من أعلى ومن أسفل بإطار نصف دائري أحياناً أو كامل الاستدارة أحياناً أخرى[35]. وهناك نوع أخر من المحارات المفصصة توجد بكثرة في

---

[31] الدولاتلي، ن. م.، ص 80-82.

[32] الدولاتلي، ن. م.، ص 73، 75.

[33] زبيس، ن. م.، ن. م.، ص 557، شكل (5، 5م).

[34] ابن غالب الغرناطي، فرحة الأنفس في أخبار الأندلس، قطعة من الكتاب، تحقيق د. لطفي عبد البديع، في مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 1، الجزء 2، 1955، ص 32؛ المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1997، ج 1، ص 568: السيد عبد العزيز سالم، "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها"، في ضمن بحوث بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، بيروت، 1992، ج 2، ص 45.

[35] كمال عناني إسماعيل العناني، عمارة القصور الإسلامية في الأندلس وتطورها، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية، 1995، ص 440؛

زخارف بعض التيجان الباقية من قصور الزهراء تظهر فيها في شكل دائرة أشبه بأشعة الشمس التي تشع من البؤرة المركزية حيث تتقابل خطوطها عند رأس المحارة التي تضم بداخلها ورقة نباتية[36]، وهي تشبه إلى حد بعيد الزخارف المحارية المنفذة على الحشوات الرخامية بمحراب جامع القيروان والحشوات الجصية بجامع الزيتونة.

فإذا جمعنا النصوص التاريخية المذكورة إلى جانب الشواهد الأثرية وزخارفها في الزهراء؛ ثم أضفنا العرض السابق لهذا العنصر وشيوع استخدامه في مدرسة القيروان المعمارية والفنية في القرن الثالث الهجري (9م)، فضلاً عن عدم ظهوره في العمارة والفنون الأندلسية قبل بناء الزهراء وذلك في ضوء الآثار المعروفة حتى الآن؛ أمكن لنا ترجيح أن يكون عنصر المحارة المفصصة قد انتقل من العمارة والفنون التونسية -أو مدرسة القيروان تحديداً- إلى العمارة والفنون الأندلسية.

وقد صار عنصر المحارة المفصصة من العناصر التي راج استخدامها في العمارة الأموية القرطبية خلال القرن الرابع الهجري (10م)[37]، فعلاوة على استخدامه في الزهراء، أستخدم أيضاً في زخرفة بعض المواضع بزيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة والتي تمت فيما بين عامي 350 و355هـ (961-966م)[38]؛ حيث تظهر أشكال مفصصة أقرب إلى المحارية في زخارف منطقة انتقال قبة بداية البلاطة الوسطى في زيادة الحكم المستنصر (المعروفة بقبة الضوء)، كما يظهر شكل المحارة كعنصر زخرفي محفور أعلى واجهات الدعائم الحجرية الوسطى الصغيرة المقامة على الأعمدة الحاملة للقبة الواقعة إلى يمين الواقف أمام المحراب (قبة المقصورة) (شكل 9)[39].

ولم يكتف معمار زيادة الحكم المستنصر في جامع قرطبة بالمحارة المفصصة كعنصر زخرفي؛ بل طوره ووصل به إلى شكل المحارة الكاملة واستخدمها كقبة تغطي حجرة المحراب (شكل 1، 2، لوحة 1)، مما يعد إبداعاً يضاف إلى إبداعات ذلك المعمار في هذه الزيادة. وقد وصف الإدريسي هذه القبة بقوله: " وعلى رأس المحراب خصة رخام قطعة واحدة مشوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان"[40]، كما وصفها ابن غالب بقوله أن: "سقف القبو من رخامة بيضاء منقورة بالحديد على صفة المحارة قد أحكمت

---

[36] أُنظر: Maldonado., *España y Túnez*, p. 131.

Balbás, *Nichos y Arcos*., p. 171.

[37] الدولاتلي، ن.م.، ص 75.

[38] عن تفاصيل أعمال الحكم المستنصر وزيادته بجامع قرطبة أُنظر على سبيل المثال: سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج 1، ص 338-345؛

Martín A. J., « La Mezquita de Córdoba », *Cuadernos de Arte Español* ,97, Madrid, 1997, p. 7-11.

[39] مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ن.م.، شكل 158؛ بلباس، تاريخ إسبانيا، ن.م.، ص 195، لوحة 293.

[40] الإدريسي، ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، د.ت.، ج 2، ص 577.

وأنزلت في موضعها بأتقن صنعة"[41]. وإن كانت هذه القبة في حقيقة الأمر مصنوعة من الجص[42]، وترتكز القبة مباشرة وبدون منطقة انتقال على ثمانية جدران تشغل الجزء العلوي من حجرة المحراب المكونة في الأصل من شكل هندسي ذي سبعة أضلاع (شكل)، حيث قام المعمار بتقسيم الجدار الذي يعلو الضلع السابع -وهو الذي يفتح فيه باب حجرة المحراب- إلى ضلعين؛ ليصل عدد الجدران من أعلى إلى ثمانية فتتوافق مع بناء القبة عليها. وتغشي جدران المحراب من أسفل وزرة رخامية يعلوها شريط بارز من الرخام نقشت فيه كتابة كوفية ورد بها اسم الحكم المستنصر والمشرفين على البناء وتاريخ الانتهاء من بناء وزخرفة المحراب في ذي الحجة سنة 354هـ (28 نوفمبر إلى 27 ديسمبر 965م)، ويعلو هذا النقش إفريز عريض من الرخام يلتف مع جدران حجرة المحراب ويرتكز على كوابيل، ويزدان كل وجه من الأوجه الستة لحجرة المحراب من الداخل -أعلى الإفريز البارز- بعقد مصمت من ثلاثة فصوص يقوم على عمودين صغيرين من الرخام[43]، ثم تأتي بعد ذلك القبة المحارية المشعة المفصصة، والتي يبدأ مركزها فوق عقد باب حجرة المحراب، وتتشعب فصوصها وتتسع كلما بعدت عن مركزها.

خاتمة

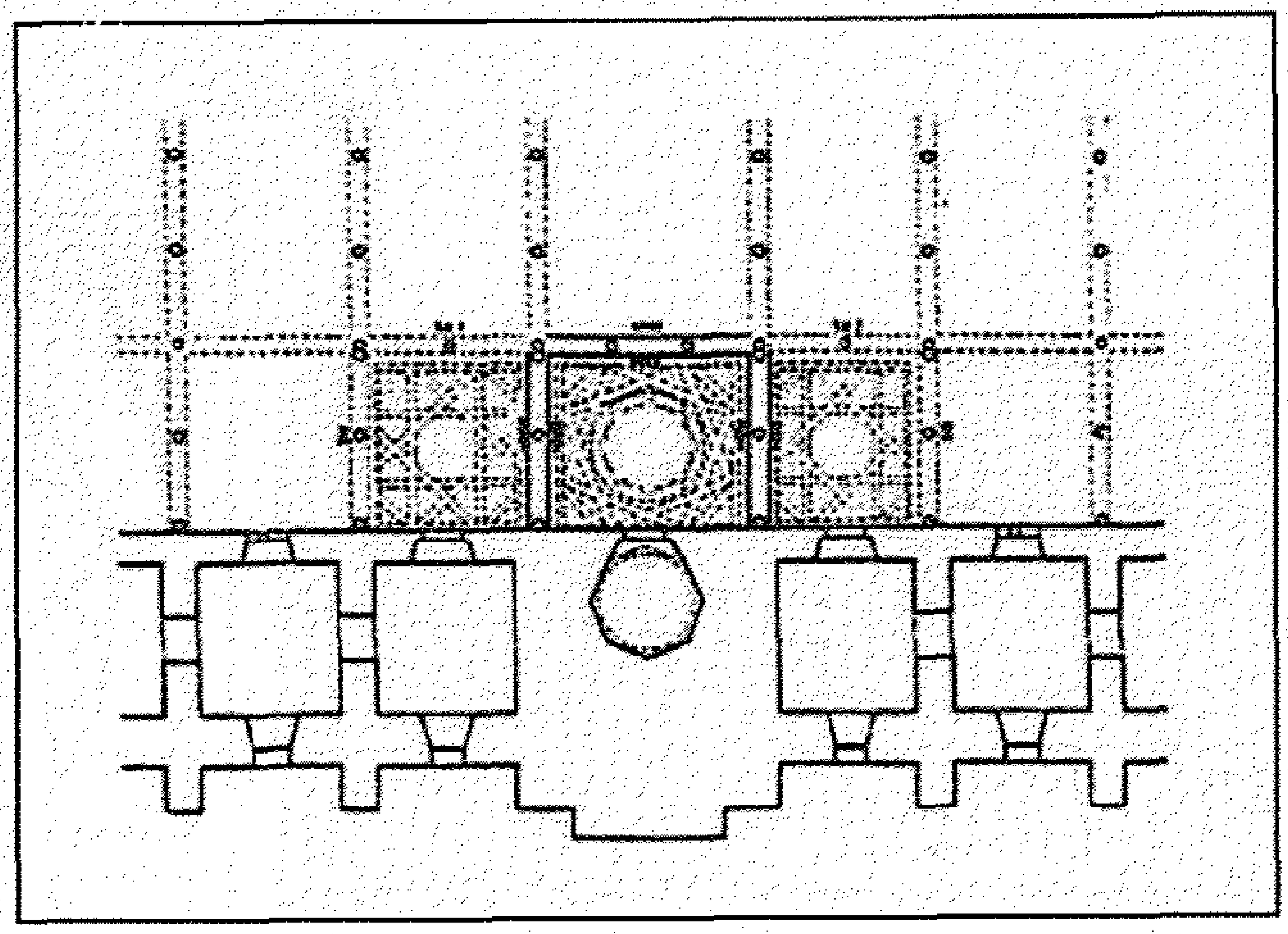
وبعد، فهذا طرح لوجهة نظر في تحاول تأصيل فكرة القبة المحارية الشكل بحجرة محراب جامع قرطبة، مع تتبع تطورها من عنصر زخرفي مشرقي إلى عنصر معماري أندلسي، وهو تطور كان لمدرسة القيروان الفنية والمعمارية دور كبير فيه؛ كما كانت القيروان أحد المعابر الرئيسية التي انتقل من خلالها من المشرق إلى الأندلس، مثله في ذلك مثل العديد من التأثيرات المشرقية التي انتقلت إلى العمارة والفنون الأندلسية في طورها الأول، والتي يحتاج كل منها إلى بحث قائم بذاته.

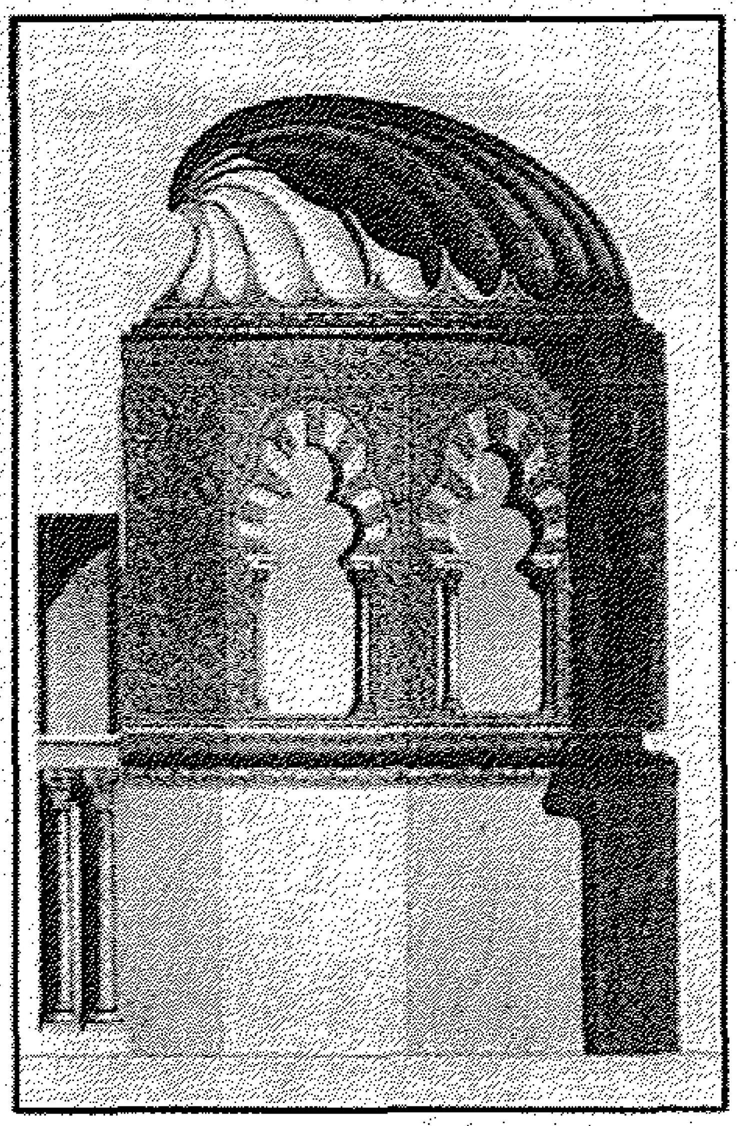
---

[41] ابن غالب، ن. م.، ص 28.

[42] بلباس، ن. م.، ص 207.

[43] سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ن. م.، ج 1، ص 400-402؛ بلباس ن. م.، ص 205-207.





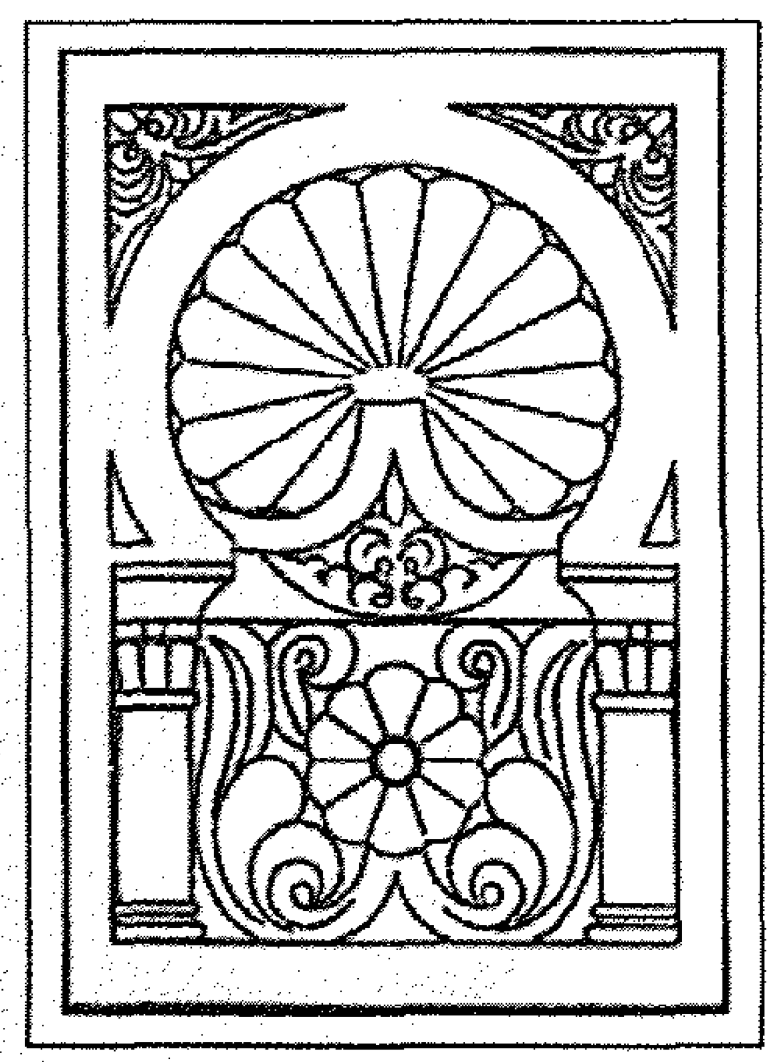
الأشكال

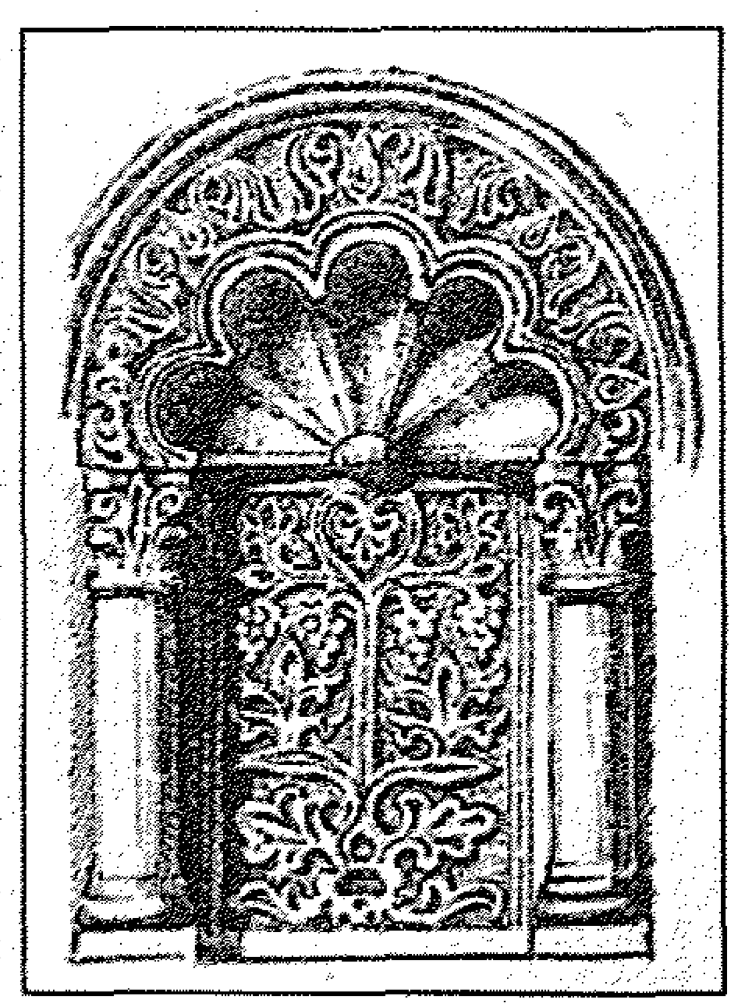
شكل (1) جامع قرطبة، مسقط أفقي لمنطقة المحراب. عن:

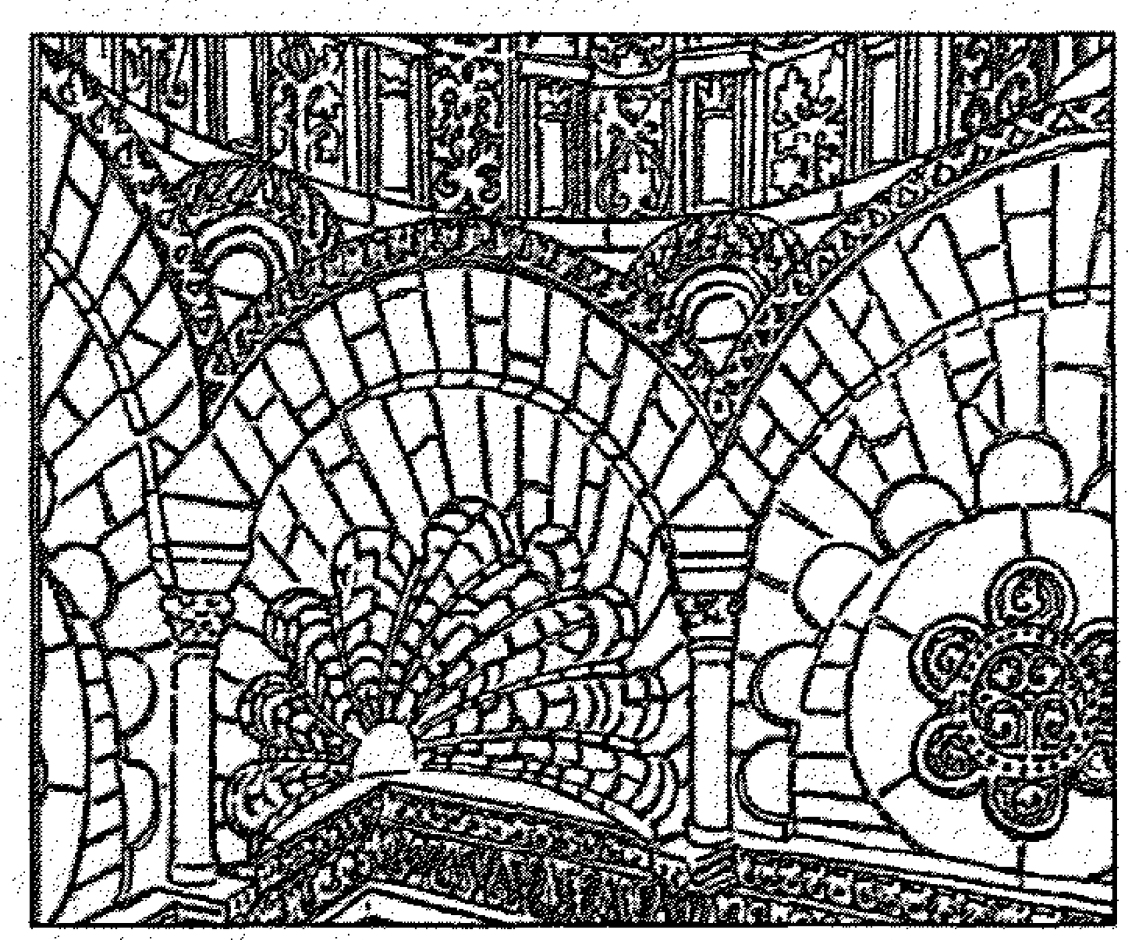
Martín, *La Mezquita de Córdoba*, fig. 10

شكل (2) جامع قرطبة، قطاع رأسي لحجرة المحراب. عن:

Martín, *La Mezquita de Córdoba*, fig. 11







شكل (3) جامع القيروان، إحدى الحشوات الرخامية بالمحراب. عن:

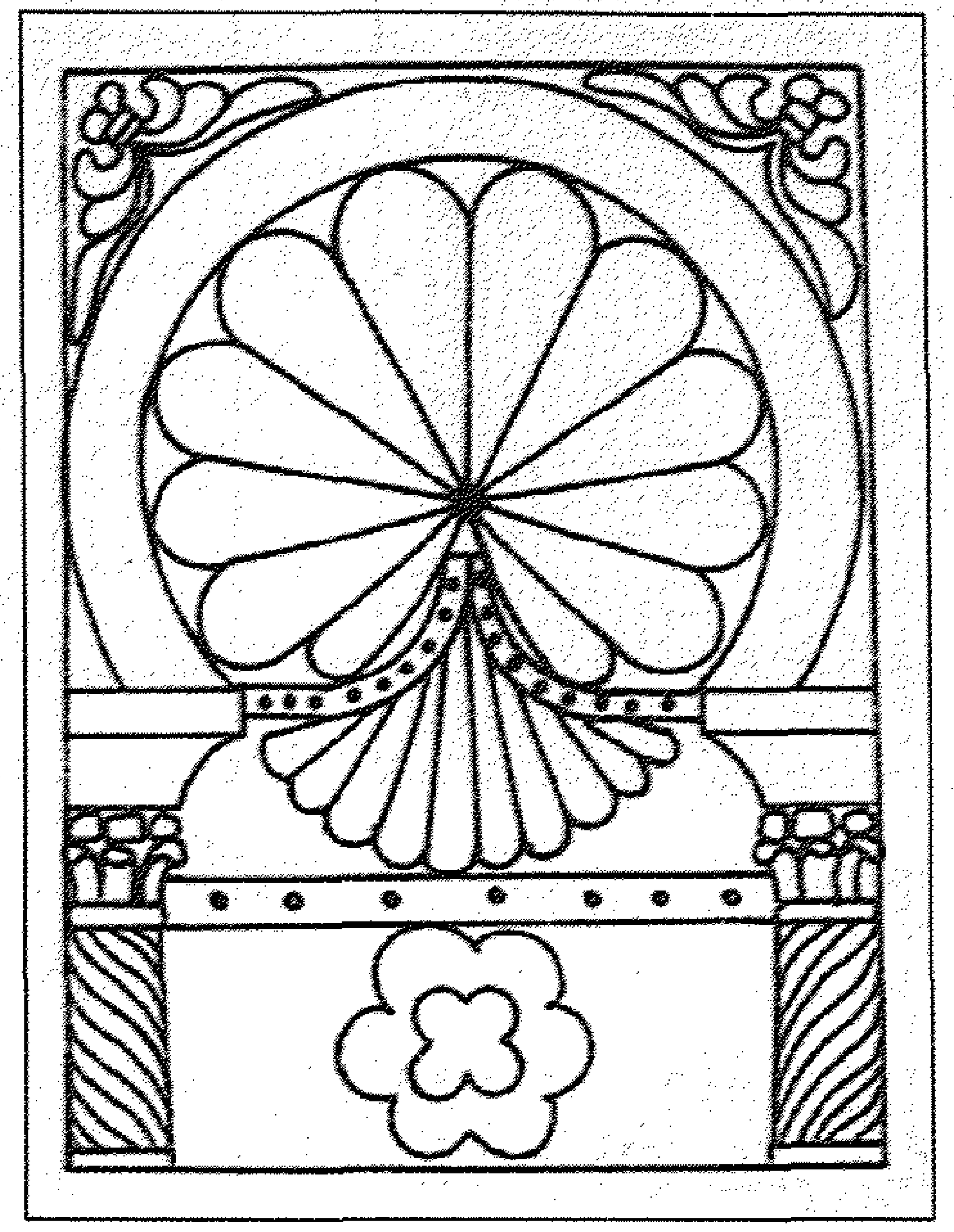
Maldonado, *España y Túnez.*, p. 132

شكل (4) جامع القيروان، أحد تجاويف كوشات عقود قبة المحراب. عن:

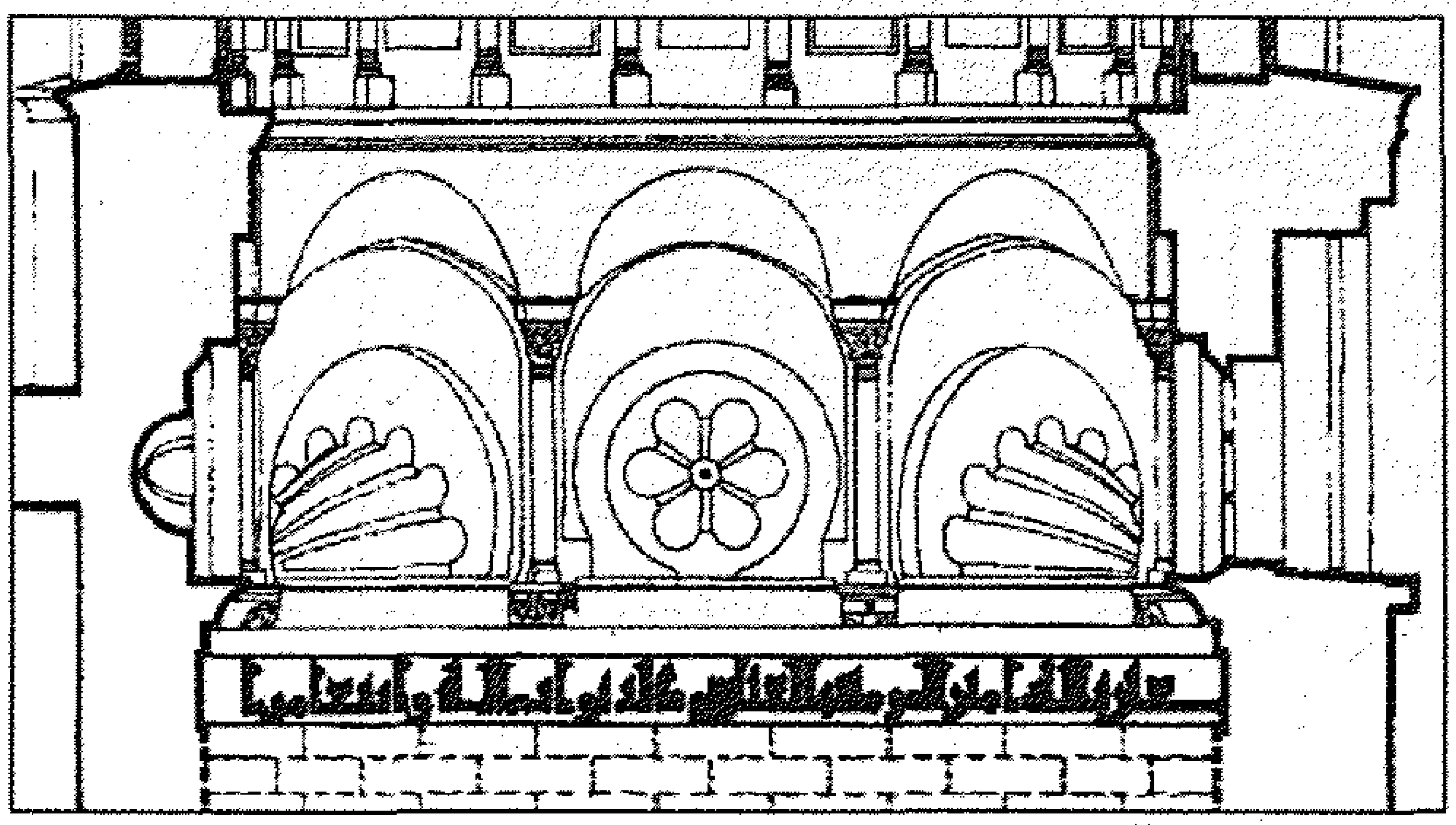
Marçais., *Coupole.*, fig. 9

شكل (5) جامع القيروان، منطقة انتقال قبة المحراب. عن:

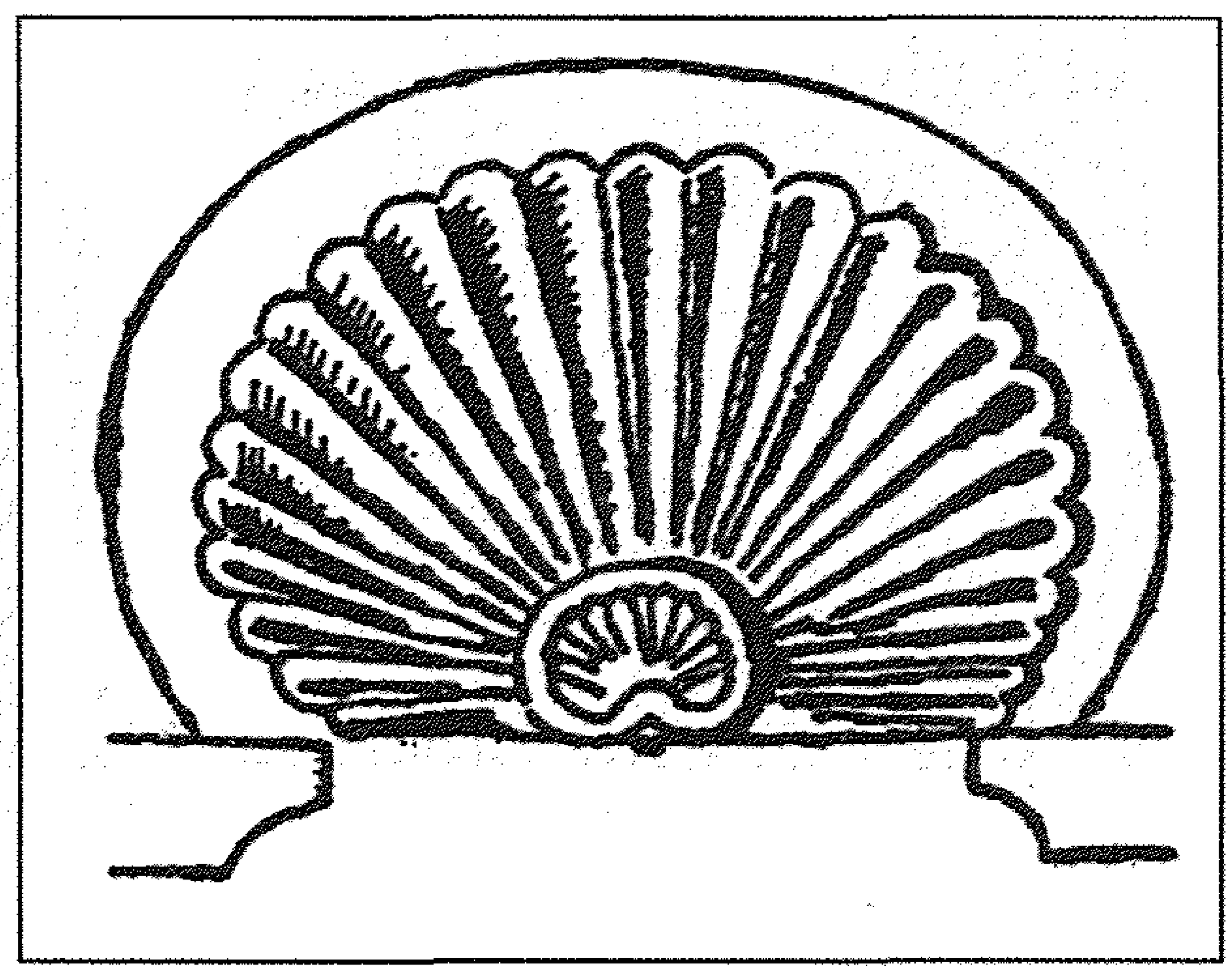
Marçais., *l'Architecture Musulmane.*, fig. 8



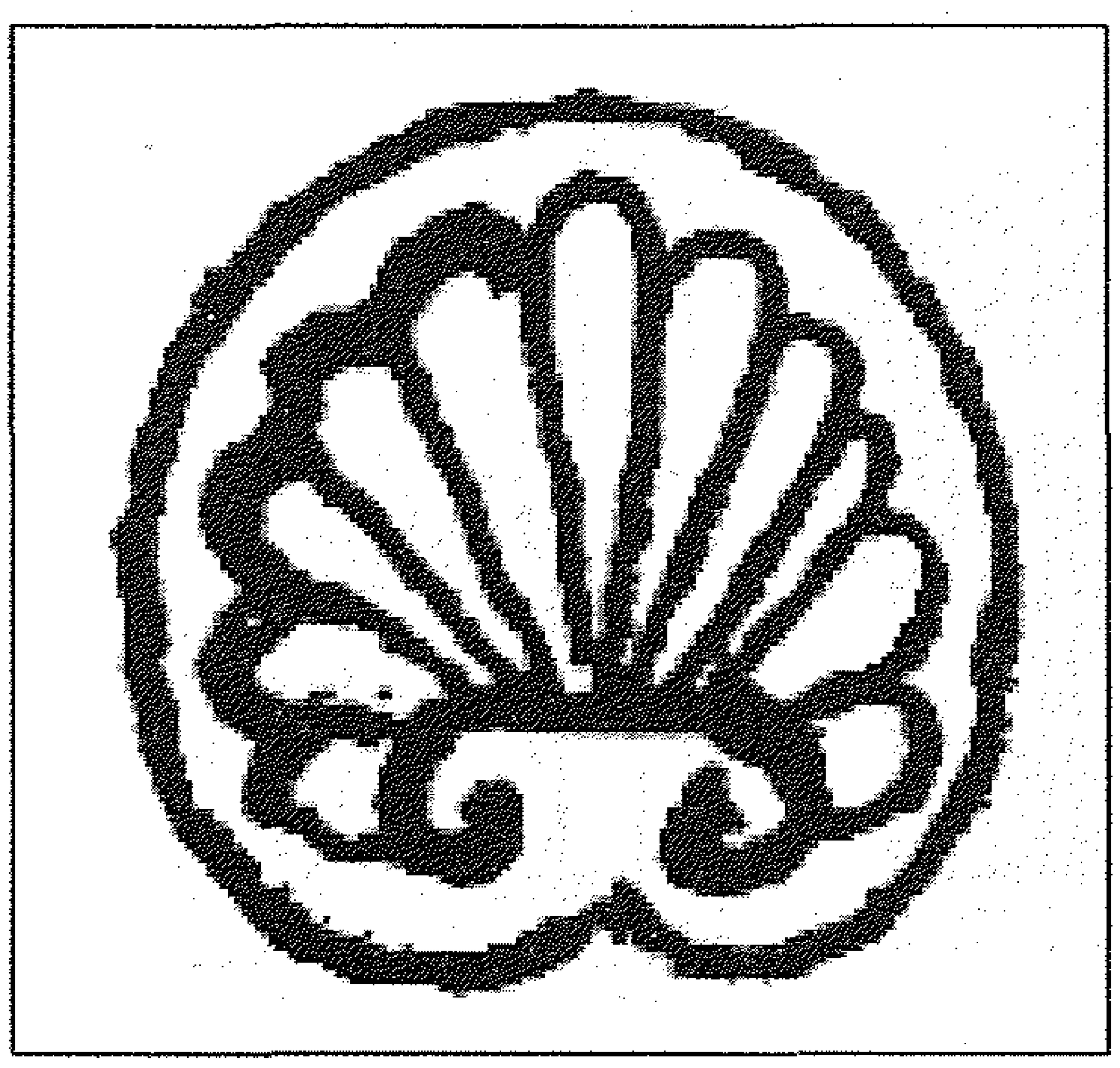
شكل (6) جامع الزيتونة، اللوح الجصي، عن: الدولاتلي، الزيتونة، شكل 70



شكل (7) جامع الزيتونة، منطقة انتقال قبة المحراب، عن: الدولاتلي، الزيتونة، شكل 54

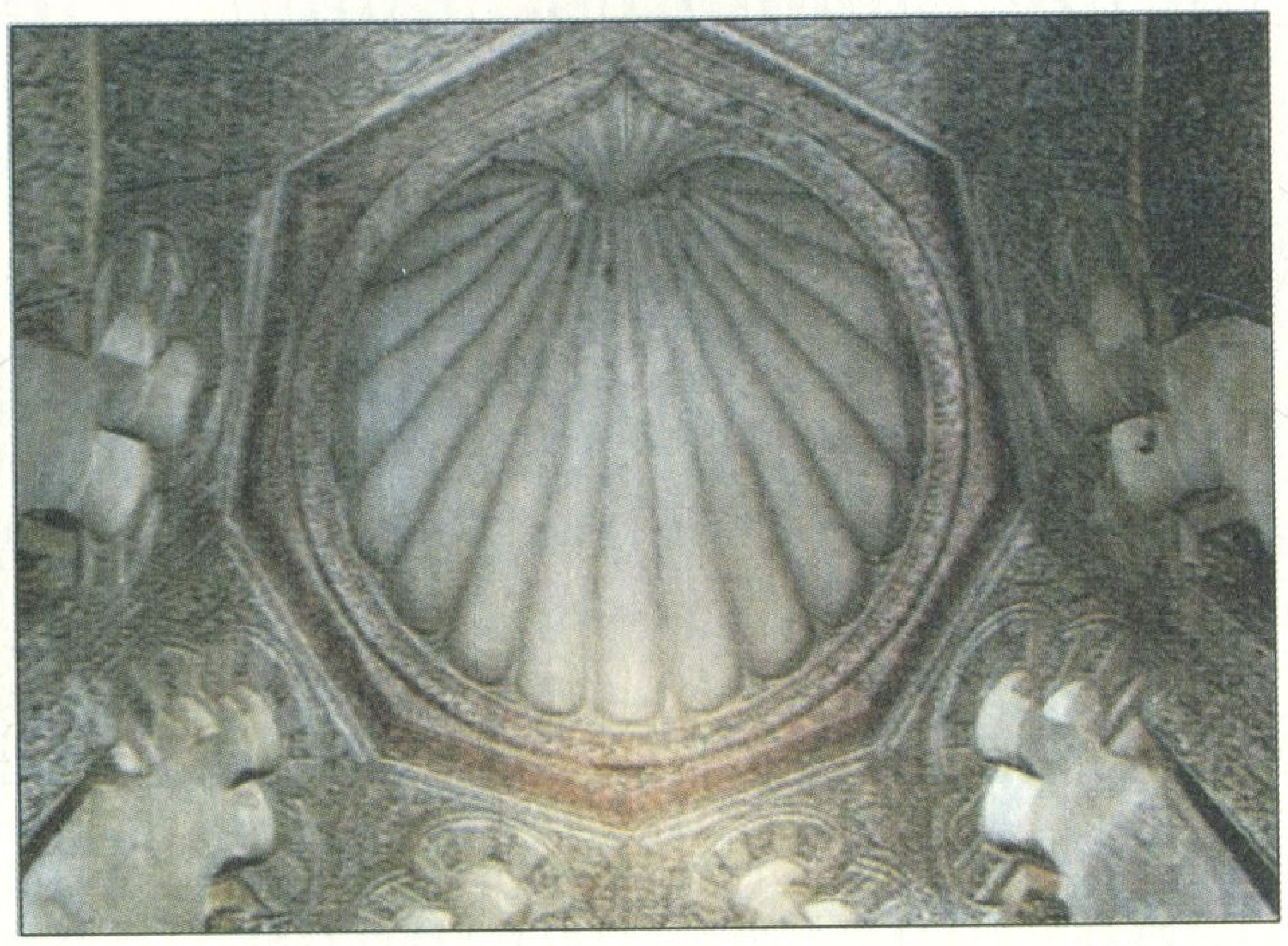


شكل (8) الزهراء، زخرفة النوافذ الرخامية، عن: مالدونادو، الفن الإسلامي، اللوحة 12 (6-20)

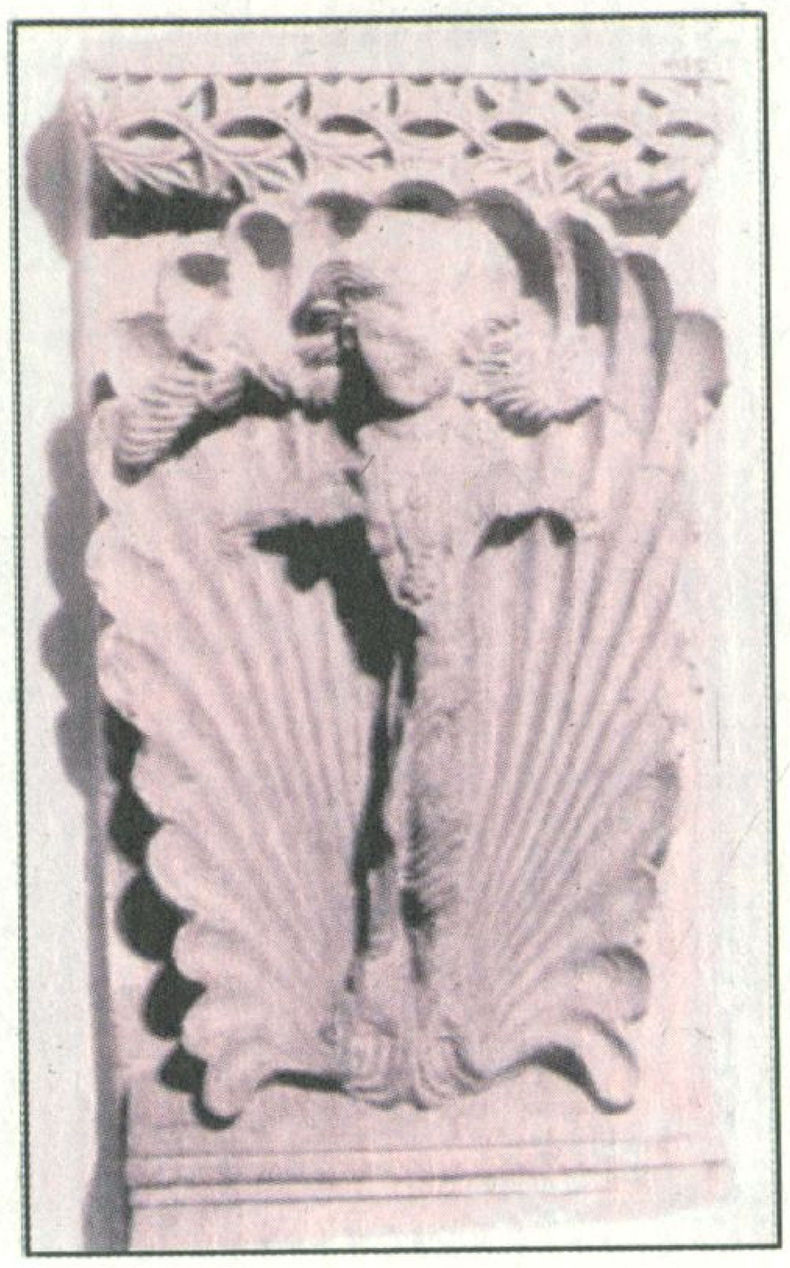


شكل (9) جامع قرطبة، زخرفة الدعامات قبة المقصورة. عن: مالدونادو، الفن الإسلامي، اللوحة (12)

اللوحات



لوحة (1) جامع قرطبة، قبة المحراب. عن:
Martin, *La Mezquita de Cordoba*, pl. 5.



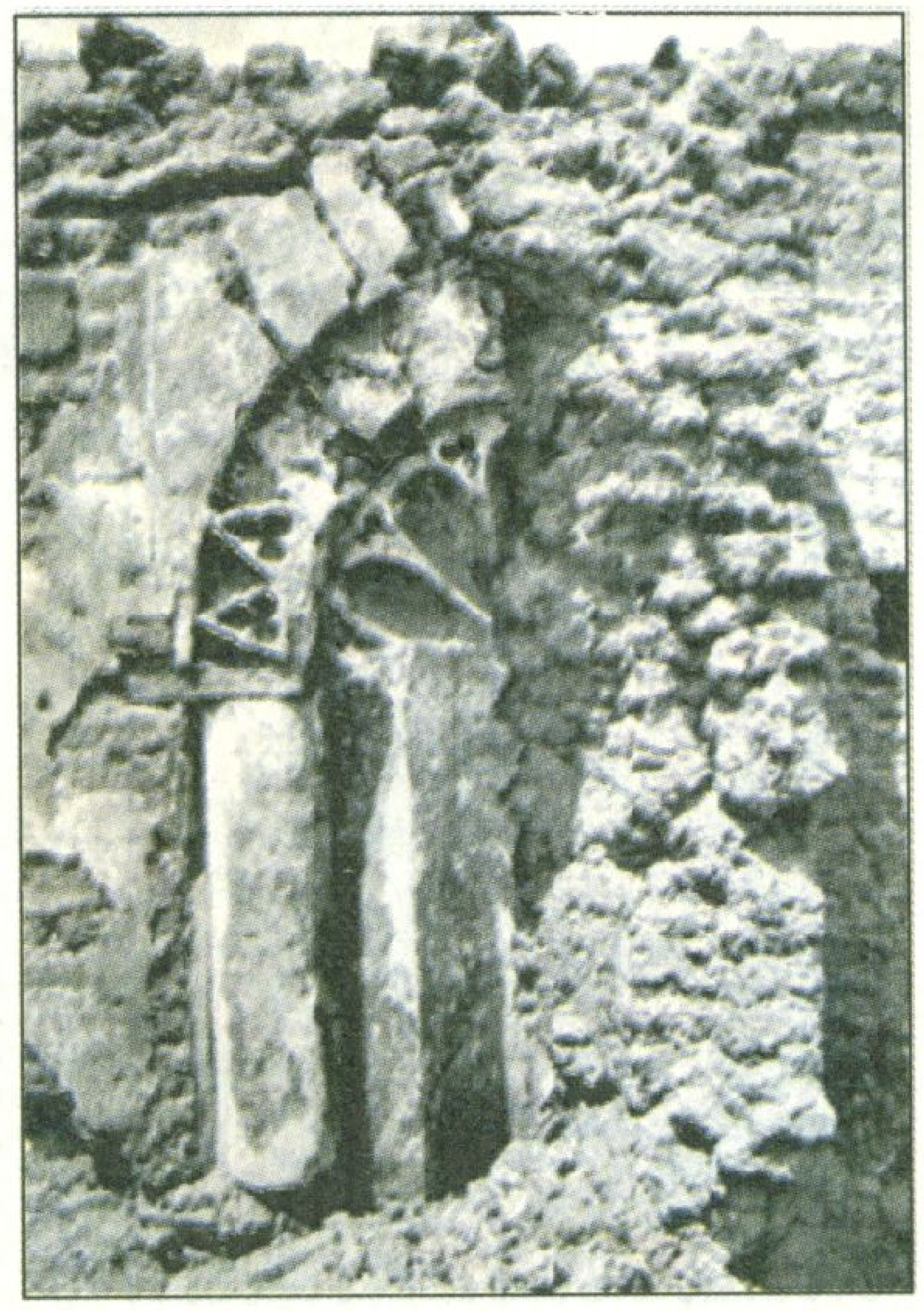
لوحة (2) حفر بارز لأفروديت أو فينوس خارجة من الصدفة : دليل المتحف القبطي (رقم 7012)

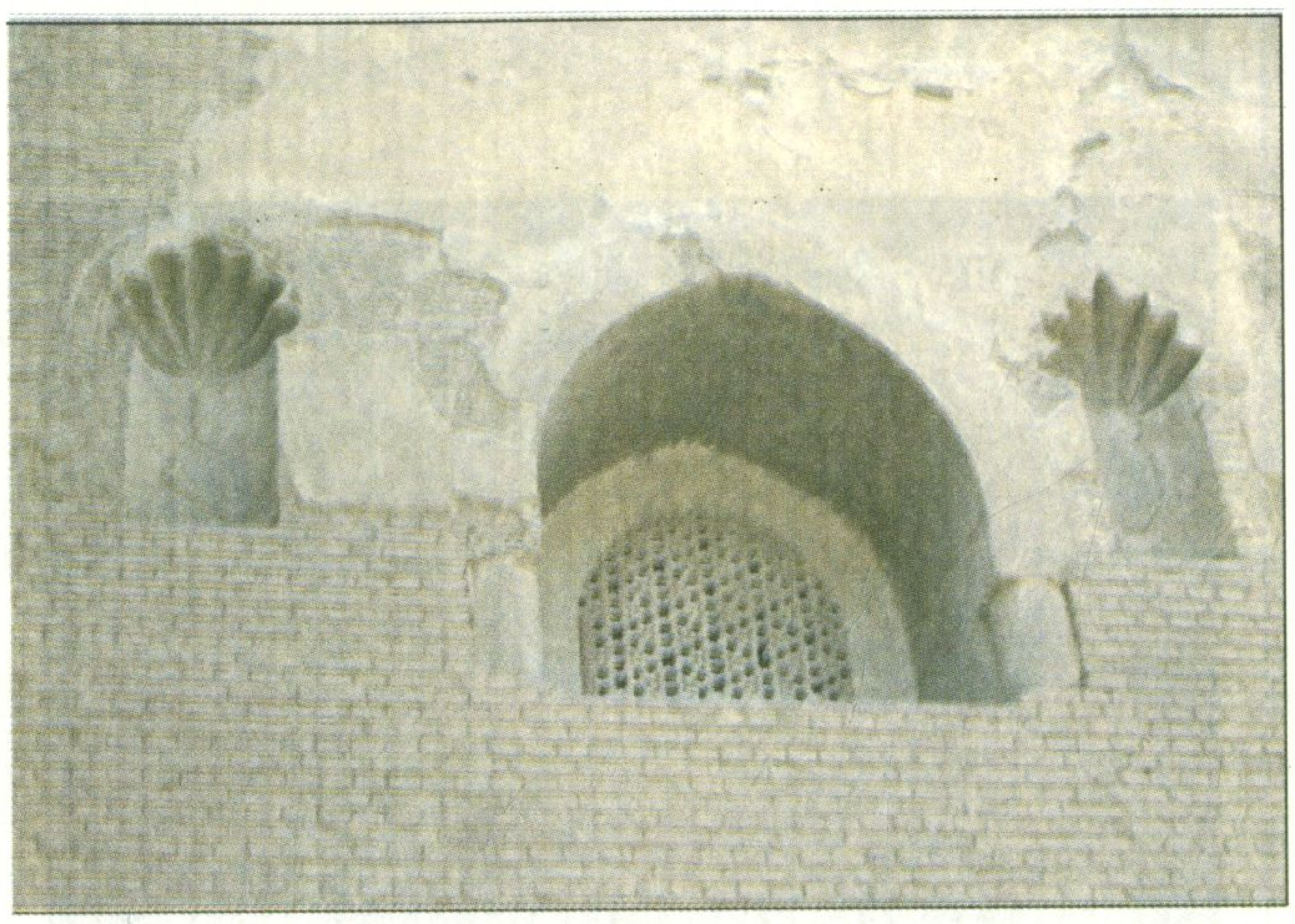


لوحة (3) المحراب المرجح نسبته لجامع الخليفة المنصور ببغداد، عن:
Creswell., *Early.*, II, pl. 120.



لوحة (4) المسجد الأقصى، نماذج من زخارف كسوات أطراف العوارض الخشبية، عن:
Creswell., *Early Muslim.*, II, pls. 25 f, 26 f.

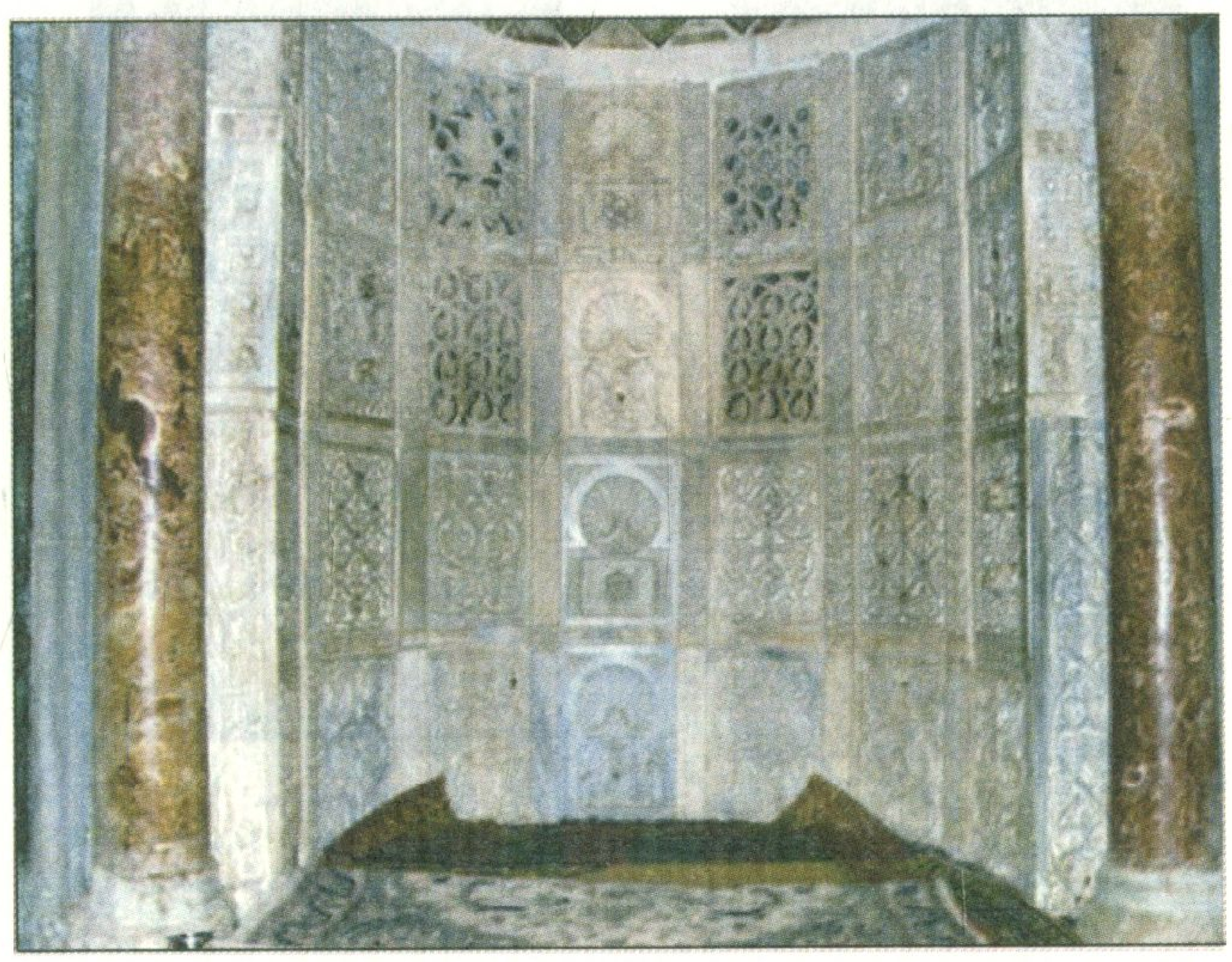


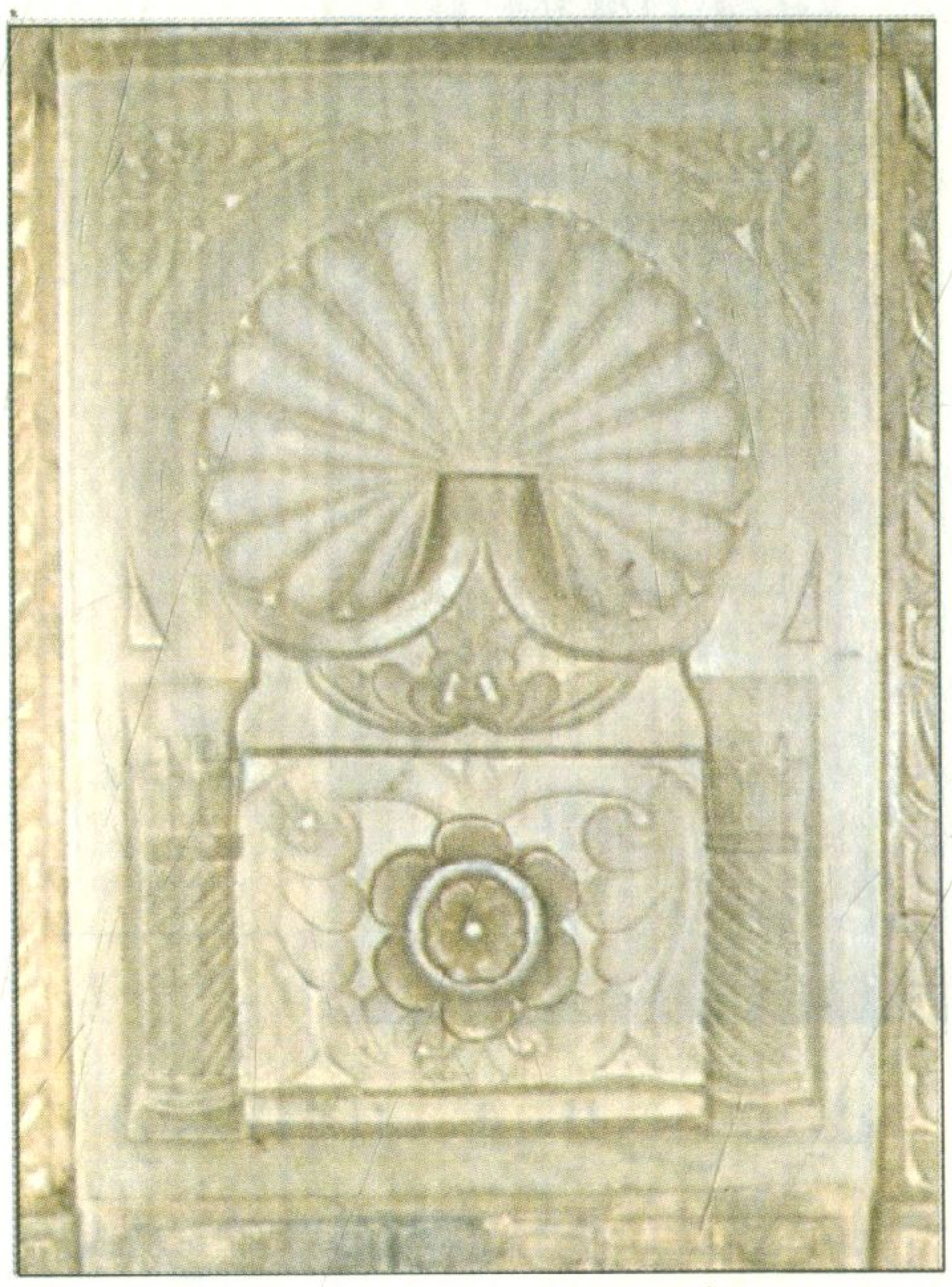


لوحة (5) جامع عمرو بن العاص، زخرفة حنايا الواجهة، عن:

Creswell., *Early.*, II, pl. 38.

لوحة (6) جامع ابن طولون، الحنايا بأعلى الواجهات (تصوير الباحث)



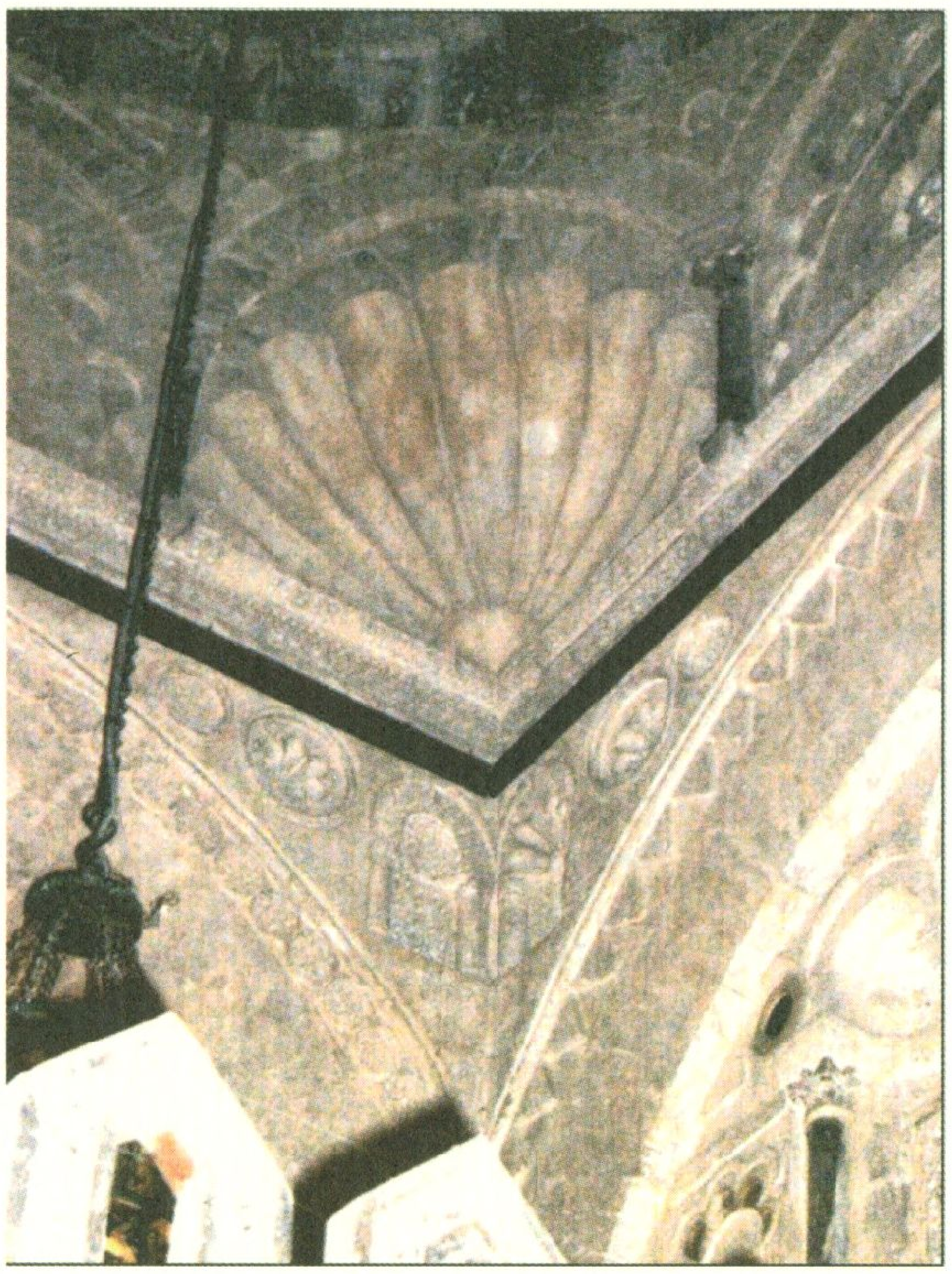


لوحة (7) جامع القيروان، الحشوات الرخامية بتجويف المحراب. (تصوير الباحث)

لوحة (8) جامع القيروان، إحدى الحشوات الرخامية بالمحراب (تصوير الباحث)



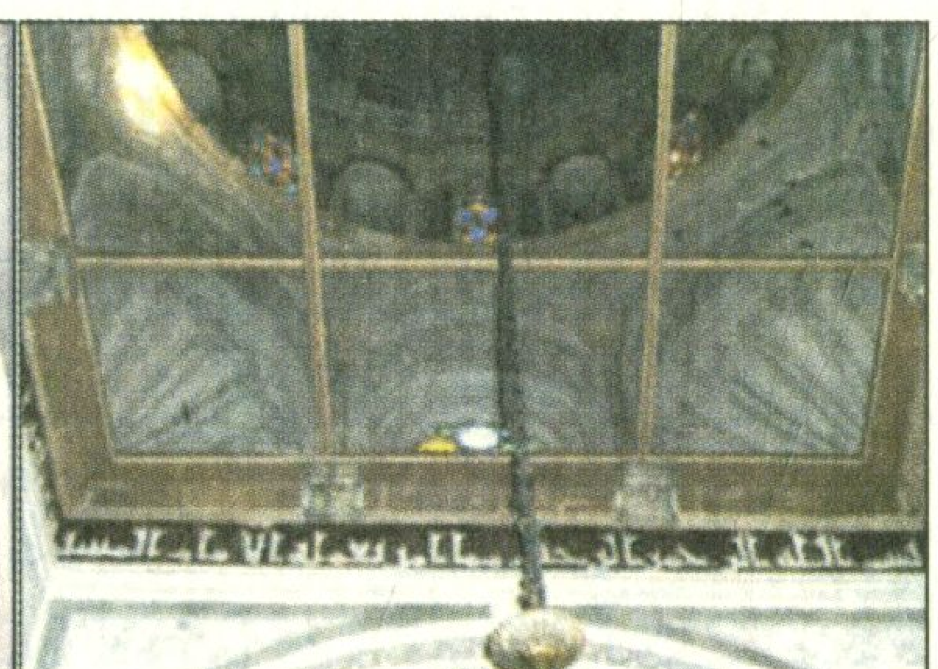
لوحة (9) جامع القيروان، التجاويف بكوشات عقود قبة المحراب. (تصوير الباحث)



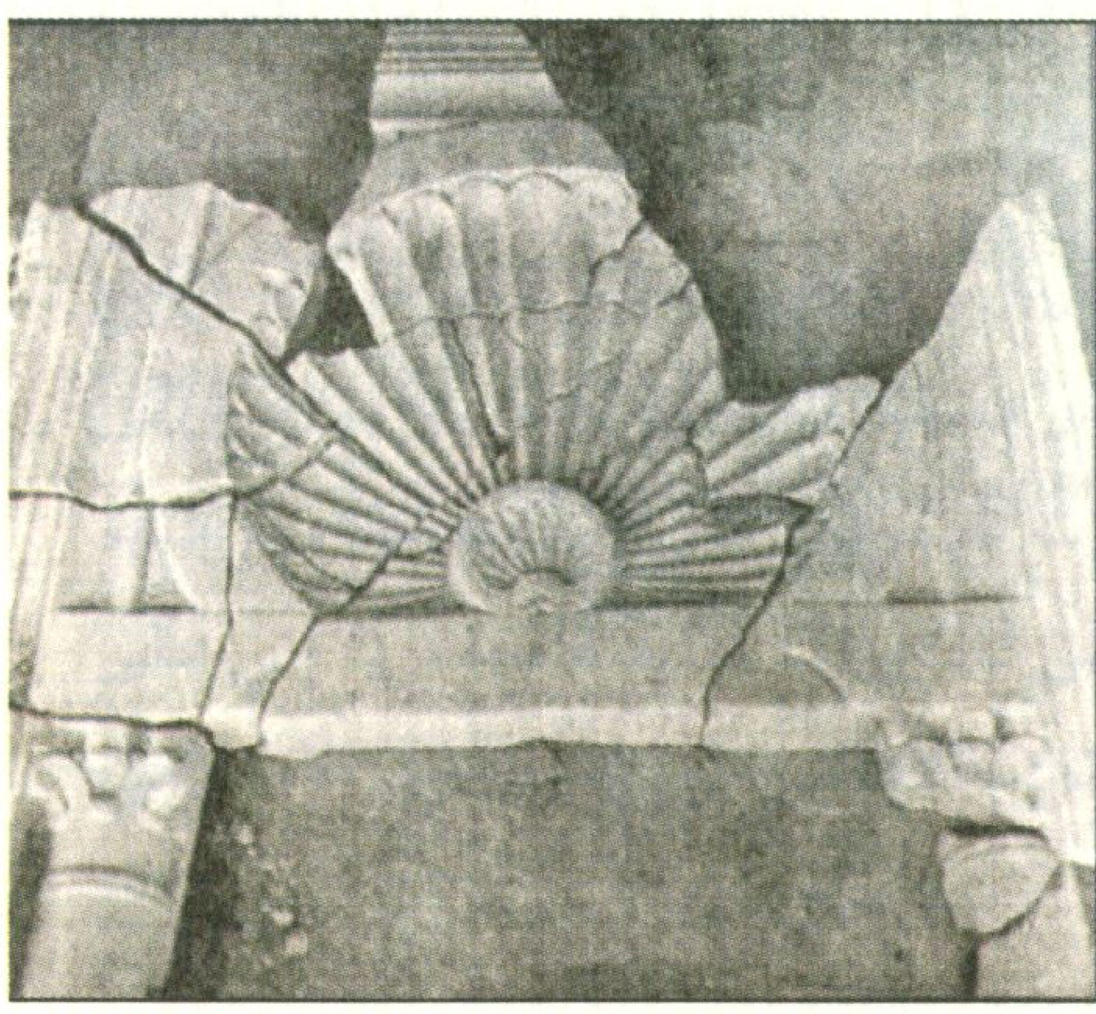
لوحة (10) جامع القيروان، منطقة انتقال قبة المحراب. (تصوير الباحث)



لوحة (11) جامع الزيتونة، اللوح الجصي. (تصوير الباحث)



لوحة (12) جامع الزيتونة، منقطة انتقال قبة المحراب. (تصوير الباحث)



لوحة (13) الزهراء، بقايا زخارف منفذة على الرخام. عن:

Maldonado., *España y Túnez*, p. 132

مدرسة القيروان المعمارية وأثرها في عمائر القاهرة الدينية حتى نهاية العصر المملوكي البحري

ياسر إسماعيل عبد السلام صالح
كلية الآثار - جامعة القاهرة

أقصد بمدرسة القيروان المعمارية تخطيط جامع القيروان وما يضمه من وحدات وعناصر معمارية وزخرفية تميزت بطابع فريد ومتميز كان له الأثر الواضح على الكثير من العمائر في أقاليم العالم الإسلامي المختلفة في الشرق والغرب، إذ تسجل النقوش الكتابية والمصادر التاريخية وتدلل الشواهد الأثرية على أصالة وحداته المعمارية والتي ما زالت تحتفظ بأقدم النقوش التأسيسية المؤرخة وهذا ما جعل الكثير من الباحثين يتخذ من مدرسة القيروان المعمارية مصدرا لتوثيق بعض العناصر المعمارية والزخرفية.

وإذا كان هناك بعض الوحدات أو العناصر المعمارية والزخرفية قد ظهرت في جامع القيروان ذات أصول مشرقية فإن ظهور مثيلاتها في عمائر مدينة القاهرة جاء بتأثير قيرواني مباشر بمعنى أن القيروان كانت في البداية متلقية للتأثيرات المشرقية التي إستوعبتها ومزجتها بالبيئة المحلية وصارت لها شخصيتها المميزة[1] مما ساعد على تكوينها لمدرسة معمارية بُني على غرارها وتأثر بها العديد من العمائر سواء في افريقيه والمغرب الأقصى أو في المشرق الإسلامي ولا سيما مصر التي تعتبر حلقة الوصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

وقبل أن نتناول أهم ملامح تأثير مدرسة القيروان المعمارية على عمائر مدينة القاهرة الدينية يجب أن نستعرض، ولو في عجالة، أهم المعابر التي إنتقلت من خلالها هذه التأثيرات. فمن الثابت تاريخيا وأثريا أن تأثيرات شرق العالم الإسلامي سبقت في الوصول الي مناطق الغرب الإسلامي وذلك نتيجة للارتباط السياسي الذي كان يربط ويخضع كل بلدان الغرب الإسلامي تحت سلطة مراكز الخلافة الإسلامية في الحجاز والشام وبغداد ، ثم ما لبثت

---

[1] وهو الذي أكده ليزين الذي اعتبر أن جامع القيروان بعيد كل البعد عن أن يكون تقليد مباشراً لنموذج ما ويعتبر إبداعا حقيقيا رغم كل التأثيرات التي ساهمت في انشائه :Lezine(A.), *Architecture de l'ifriqiya*, Paris, 1955, p . 52.

وعادت تأثيرات الغرب تتدفق على الشرق مع الفتح الفاطمي لمصر والشام والسيادة السياسية لهم على الحجاز واليمن، وعلي هذا نجد أن مسار التأثيرات قد تظهر في أقطار بدرجات متباينة وقد تنعدم في أقطار أخري وقد كان لموقع مصر الجغرافي الذي يتوسط بلدان المشرق والمغرب الإسلامي أثر في أن تكون أول محطات بلدان المشرق الإسلامي بالنسبة لبلدان المغرب الإسلامي[2]. خلاصة القول إن مصر كانت بمثابة حلقة الاتصال المباشر بين جناحي الشرق والغرب الإسلامي ولهذا أفاضت كثير من المصادر والمراجع والبحوث في ذكر العلاقات التاريخية والحضارية التي كانت تربط مصر كنموذج لدول المشرق الإسلامي بجناح الغرب الإسلامي[3].

ويخطئ من يتصور أن تأثيرات مدرسة القيروان المعمارية جاءت إلى مصر مع الفاطميين فقط فقد كانت هناك العديد من المعابر الأخرى والتي يأتي في مقدمتها تطلع أهل المغرب الإسلامي إلى المشرق وخاصة الي مصر بوصفها مركز الثقل الديني والسياسي والحضاري والثقافي فضلا عن تشوق أهل المغرب إلى مصر باعتبار انها المحطة الرئيسية التي يخرج منه المحمل وركب الحج إلى الأراضي الحجازية، ويرجع لأهل المغرب الإسلامي ابتكار ما يعرف باسم "الرحلات الحجازية" حيث دونت على أيديهم أقدم رحلات الحج وجاءت مدوناتهم سجلا وثائقيا لحضارة مصر الإسلامية. وكانت فترة إقامة أهل الغرب الإسلامي بمصر[4] فرصة للاختلاط والانخراط مع المصريين حيث كانوا يشاركونهم في جميع الأعمال حيث كان يزاول أصحاب الحرف منهم حرفهم ليتكسبوا أرزاقهم إلى أن يأتي وقت خروجهم مع المحمل والركب ، وكان هذا التقارب والامتزاج كافيين لانتقال التأثيرات المحلية للغرب الإسلامي وقد كان عدد من هؤلاء الوافدين لهم خبرة في فنون البناء والزخرفة[5]. والى جانب الرحلات الحجازية استقبلت مصر نوعا آخر من الرحلات تعرف بالرحلات الزيارية ويقصد بها زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء من أهل البيت وكذلك الرحلات العلمية باعتبار مصر أحد أهم مراكز العلم في الشرق الإسلامي، أضف إلى ذلك قوافل التجار سواء تلك التي تقصد مصر أم التي تحط رحالها بها كمحطة رئيسية بين الشرق والغرب؛ والى جانب ذلك لا ننسى العلاقات التاريخية بين بلاد المغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي والتي بدأت مع الخلافة الأموية وتواصلت مع الخلافة العباسية[6].

---

[2] محمد محمد الكحلاوي، "التأثيرات الفنية المتبادله بين شرق العالم الاسلامي وغربه في مجال الفنون الزخرفية"، في بحوث في الآثار الاسلامية في المغرب والأندلس، ج 1، القاهرة ، 1999، ص 385، 385.

[3] راجع: أعمال ندوة العلاقات التاريخية المصرية المغربية، القاهرة، 1999؛ أعمال ندوة بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق حتي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد التاسع الهجري، القاهرة، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، 1997.

[4] كانت الإسكندرية هي المحطة الأولى لتجميع قوافل الحجاج القادمين من المغرب الإسلامي تمهيدا للانتقال الي مدينة القاهرة انتظارا للانضمام الي ركب الحج المصري. أنظر: أحمد مختار العبادي، "التأثيرات المتبادلة بين الإسكندرية والمغرب"، في مجلة الفيصل، العدد 288، سبتمبر 2000، ص 83-88.

[5] السيد عبد العزيز سالم، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، بيروت ، 1992، ص 431-433.

[6] أحمد قاسم الجمعة، "أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب"، في مجلة آداب الرافدين، عدد 9، أيلول 1978، ص 189-232.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ومع إنتقال الخلافة الفاطمية من المغرب الي مصر كان هذا الإنتقال إيذاناً ببدء حقبة تاريخية وحضارية وسياسية جديدة عاشتها مصر كمركز لخلافة فاطمية تتطلع للتوسع السياسي على حساب ممتلكات الخلافة العباسية في المشرق وقد كان هذا التوسع فرصة مهدت لانتقال التأثيرات الفنية المغربية وخاصة القيروانية منها الى مصر والشام والحجاز واليمن[7]. ولم تتوقف هذه التأثيرات على الرغم من ظهور بعض دول في المغرب الإسلامي التي أعلنت استقلالها من تبعيتها للخلافة الإسلامية في المشرق وقد ساعد استقرار العلاقات بين مصر ومدن المغرب الإسلامي على حرية انتقال الصناع والفنانين وعرفاء المعماريين والحرفيين إما سعيا وراء الرزق أو عن طريق استقدامهم من أقطارهم من أجل المشاركة في أبنية رسمية[8].

وإذا كنا نتحدث عن مدرسة القيروان المعمارية[9] والتي تمثل إحدى أهم مدارس الغرب الإسلامي وأثرها في المدرسة المعمارية في القاهرة فإننا يجب ألا ننسى التقارب الواضح في التاريخ السياسي بين القيروان ومصر منذ تأسيس الفسطاط والقيروان والتي أسست لتكون قاعدة ارتكاز للجيوش العربية في أرض المغرب وقد كان غالبية ولاتهم ممن تولوا حكم مصر من قبل كعبيد الله بن الحبحاب وحنظلة بن صفوان وغيرهما بل أن منهم من جمع بين مصر وافريقيه مثل مسلمة بن مخلد الانصاري[10]، واستمرت هذه العلاقة حتى قيام دولة الأغالبة والتي كان لنشأة مؤسسها ابراهيم بن الاغلب وتلقيه علومه في مصر[11] اثر في استمرار هذه العلاقات الطيبة ولا ننسي التوأمة السياسية بين مصر والقيروان خلال العهد الفاطمي وهي الفترة التي تم فيها دمج سياسي بعد أن كانت مصر الطولونية ندّا لإفريقية الأغلبية وقد انعكس ذلك على مواقف كل منهما السياسة وأعمالهما العمرانية والمعمارية. كما كانت القيروان ترتبط بالفسطاط بطريق تجاري يبدأ من الفسطاط إلى ذات السلاسل وكوم شريك

---

[7] عبد القادر الريحاوي، "مظاهر التجديد المعماري في مصر الفاطمية"، في دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية. الكتاب التقديري للاثاري عبد الرحمن عبد التواب، القاهرة، 2001، ج 1، ص 335؛ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا، القاهرة، 1954؛ عبد الله كامل موسي، الفاطميون وآثارهم المعمارية في افريقية ومصر واليمن، القاهرة، 2000.

[8] كما قد يتم إنتقال الصناع عن طريق الانتقال الاجباري الذي قد يفرضه الغالب على المغلوب على غرار ما قام به السلطان سليم العثماني من نقل الحرفيين والصناع من مصر الى الاستانة. ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق احمد مصطفي، القاهرة، 1951، ص 222.

[9] ميز كل من مارسيه وليزين وجولفان بين ثلاث مدارس معمارية بتونس الأولى وهي مدرسة القيروان وهي المدرسة الأم، والمدرسة الساحلية التي كان مركزها مدينة سوسة والمدرسة التونسية التي تمتاز بطغيان العناصر الافريقية المحلية :

Marcais (G.), « Sousse et l'architecture musulmane », in *Annales de l'institut des études orientales*, t. 17, Alger, 1948 ; Lezine (A.) , *Op. cit.*, p. 87 ;Golvin (L.), *Essai sur L' Architecture religieuse musulmane*, Paris, 1974, pp. 125-129.

[10] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1929، ج 1، ص 134؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، القاهرة، 1995، ص 305؛ المالكي، رياض النفوس، ج 1، ص 28-32.

[11] حسن عبد الوهاب، "الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة"، في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس 18-29 مايو 1953، القاهرة، 1955، ص 350.

ويستمر حتى برقة ومنها إلى القيروان[12] ويري جوتيان أن حركة القوافل البرية بين القيروان ومصر كانت تنشط في فصل الشتاء وذلك لصعوبة السير في الطريق البحري[13]. كما ارتبطت مدرسة القيروان الفقهية منذ بدايتها بمدرسة الفسطاط الفقهية والتي كانت أكثر ازدهارا من الاولى بفضل تنافس الفقهاء واجتهادهم مما ساعد على اجتذاب فقهاء القيروان وعلمائها طلبا للعلم والدراسة مثل أسد بن الفرات وسحنون وغيرهما من مشاهير فقهاء القيروان وعلماؤها ونتج عن ذلك ازدهار مدرسة المالكية بالقيروان واصبحت من أشهر مدارس الفقه الملكي في العالم الإسلامي بعد الفسطاط[14].

وإذا كانت غالبية عمارة الفسطاط والقيروان الأولى قد اندثرت فان عمارة الفاطميين في مصر بصفة عامة ومدينة القاهرة بصفة خاصة لا يزال قسم كبير منها باق ويشهد على مدى ما لمدرسة القيروان المعمارية من تأثير على عمارة القاهرة الفاطمية واستمرارها حتى العصر المملوكي البحري حيث أنه من الواضح أن مدرسة القيروان المعمارية بدأت منذ القرن 2 هـ/ 8 م بتصدير وارسال تأثيراتها الي مختلف أنحاء العالم الاسلامي بعد أن كانت متلقية لها في البداية. ويكاد يجمع المتخصصون على أن العهد الاغلبي هو فترة نضج مدرسة القيروان المعمارية واكتمالها ويتجسد ذلك في إعادة بناء جامع القيروان وادخال العديد من الوحدات والعناصر المعمارية التي صارت أهم خصائص المدرسة القيروانية المعمارية وتكشف عن مدى ما وصل اليه المعماري القيرواني من عبقرية[15].

وتتمثل ملامح تأثير مدرسة القيروان المعمارية في عمائر مدينة القاهرة الدينية حتي العصر المملوكي البحري في مجموعة من العناصر الرئيسية سواء من حيث التخطيط أو من حيث الوحدات والعناصر المعمارية والزخرفية والتي يمكن أن أجملها في النقاط التالية : أولا من حيث تخطيط ظلة القبلة؛ ثانيا، من حيث موقع وتصميم قبة المحراب؛ ثالثا، من حيث موقع وتصميم المئذنة (الصومعة)؛ رابعا، من حيث معالجة أسلوب توزيع وتخفيف الأحمال؛ خامسا، من حيث العناصر الزخرفية.

---

[12] جمال الشيال، "الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية"، في مجلة كلية الأداب جامعة الاسكندرية، 1951، مجلد 15، ص 148- 149؛ عبد الحميد حسين حموده، "أسواق القيروان في عصر الأغالبه"، في مجلة الدراسات الافريقية، معهد البحوث والدراسات الافريقية [55]، 2001، ص 55، 55.

[13] أنظر:

Goitein (S.D.), « Mediterranean trad in the eleventh century , some facts and proplems », in *Studies in the economic History of the middle east*, edited by M. A Cook, London ,1957, pp.58-59.

[14] سيده إسماعيل الكاشف، مصر في عصر الولاة، القاهرة، 1950، ص 181؛ إبراهيم القادري بوتشيش، "دور علماء المغرب والاندلس في تدعيم المذهب المالكي بالغرب الاسلامي"، في مجلة الأحمدية، العدد 20 دبي، يونيو 2005، ص 213–254.

[15] التهامي نقرة، القيروان عبر العصور، تونس، 1981، ص 39؛ مراد الرماح، "مدرسة القيروان المعمارية"، في القيروان. دراسات حضارية، القيروان، تونس، 1990، ص 108؛ عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة، المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، القاهرة ، 1997، ص 45.

أولا: من حيث تخطيط ظلة القبلة

تكمن اشكالية هذا العنصر في ان تخطيط ظلة قبلة جامع القيروان تتعامد فيها البلاطة الوسطى على اسكوب المحراب العرضي والذي يتميز كلاهما بالاتساع وما تبع هذا التخطيط من توزيع لبعض العناصر والوحدات المعمارية التي امتاز بها هذا الجامع وهو ما تأثرت به عمائر مدينة القاهرة الدينية منذ العصر الفاطمي ولم يظهر من قبل فظلة قبلة جامع القيروان تشتمل على مجموعة من البلاطات يكون عددها فرديا وذلك لتمييز البلاطة الوسطى، والتي هي أوسع البلاطات[16]. وتتعامد هذه البلاطة على اسكوب المحراب الذي يتميز أيضا بالاتساع[17] شكل [1 ، 5] ونتج عن تعامد البلاطة المحورية واسكوب المحراب المتسعين تخطيط متعامد في شكل الحرف اللاتيني T مما أوجد منطقة مربعة في نقطة التقائهما والتي جاءت تتقدم المحراب مباشرة مما ساعد على تغطيتها بقبة. وإذا كانت هذه الظاهرة قد وجدت في الجامع الأقصى إلا انه يلاحظ أن القبة جاءت لتتقدم المحراب مباشرة حيث أقيمت حنايا منطقة انتقالها على أربعة عقود وهو نفس موضع القبة بالجامع الأموي بدمشق المعروفة بقبة النسر من أعمال السلطان ملكشاه (ق 5 هـ)[18] والتي جاء موضعها يتوسط البلاطة الوسطى دون تمييز للاسكوب العرضي أسفلها من حيث الاتساع حيث تمكن المعماري من تكوين مربع سفلي للقبة من خلال استخدام أربعة دعامات ضخمة.

وعلي هذا يتضح أن معمار القيروان كانت له معالجته المختلفة وفكره الخاص فإذا كان قد حافظ على فكرة اتساع البلاطة الوسطي كما هو الحال في كلا من المسجد الأقصى والجامع الاموي، وفكرة الاسكوب المتسع كما في المسجد الاقصي الا انه ربط بينهما ربطا معماريا جديدا لم يسبقه أي معماري آخر حيث جعل نقطة التقائهما المربعة امام المحراب مباشرة وذلك لغرض معماري يتمثل في ان يكون جدار القبلة يمثل الضلع الرابع لمربع القبة مما يزيدها متانة وتوازنا. كما ساعد هذا التخطيط ان يكون التخطيط المتعامد تم بشكل صريح وقاعدته جدار القبلة والتي زادت تمييزه تلك القبة التي تعلو أهم جزء فيه وهو المحراب وهي التي تعرف بقبة المحراب أو قبة المقصورة[19].

---

[16] حيث يبلغ اتساع البلاطة الوسطى بجامع القيروان 5.75 م في حين يبلغ اتساع بقية البلاطات 4.00 م ومما هو جدير بالذكر ان اتساع بلاطة القيروان هي أقدم الأمثلة المعروفة الثابتة التاريخ (221 هـ / 835 م) لاتساع بلاطة المحراب. فكري، مساجد القاهرة، ج 1، ص 135. واذا وجدت هذه الظاهرة في كل من مسجد سامراء (235 هـ / 850 م) ومسجد ابي دلف (245هـ / 850 م) الا انه اتساع طفيف وهو ما لم يلاحظه اي من المؤرخين او الرحالة العرب: فكري ، ن.م.، ج 1، ص 137.

[17] حيث يبلغ اتساع اسكوب المحراب بجامع القيروان 5.04 م في حين يبلغ اتساع بقية الأساكيب 4.50 م وهو التخطيط الذي سارت عليه مساجد افريقيه التي شيدت وفقا لمسجد القيروان، واذا كان هذا التخطيط وجد في الجامع الأقصى قبل القيروان الا انه يلاحظ أن الاتساع جاء في الاسكوب الثاني أمام المحراب، كما يبلغ اتساع اسكوب محرب جامع ابي دلف ستة أمتار في حين يبلغ اتساع بقية الاساكيب الاخري أربعة أمتار.

[18] كريزول، الاثار الاسلامية الاولي، نقله الي العربية عبد الهادي عبله، دمشق، 1984، ص 77، 277.

[19] محمد الكحلاوي، "مقاصير الصلاة في العصر الاسلامي"، في مجلة كلية الاثار جامعة القاهرة، 3، 1989، ص 217.

وهذا التطور الذي تم على أيدي معماريي القيروان من ان اتساع البلاطة الوسطي واسكوب المحراب المتعامدين ارتبط بالتطور الذي تم على عمارة المسجد وتغطيته بقباب مما تطلب نظاما معماريا يسمح بإيجاد قاعدة مربعة تقوم في زواياه منطقة الانتقال لتحويل المربع إلى مثمن تمهيدا لوضع القبة الأسطوانية[20]، بالإضافة إلى هذه الأهمية المعمارية لاتساع اسكوب المحراب عن بقية اساكيب ظله القبلة فان هناك أهمية دينية لها[21] وذلك لرغبة المعماري المخطط توفير المساحة التي تستوعب كلا من الإمام الواقف أمام المحراب مع صف المصلين الواقفين خلف الأمام مباشرة إلى جانب ان اسكوب المحراب يضم اهم العناصر الأساسية بالمساجد الجامعة منها المنبر والمحراب والمقصورة، ولأن موضع المنبر يتطلب ان يكون ملاصقا لجدار القبلة فقد ارتبط حجمه بمساحة ظله القبلة، وقد ينتج عن امتداده العمودي على جدار القبلة قطع مساحة الاسكوب بالكامل إذا كانت مساحته متساوية مع باقي أساكيب ظلة القبلة ولكن تفادى المعمار المخطط ذلك بأن زاد في مساحة اسكوب المحراب حتى يستوعب امتداد المنبر من جهة الى جانب ضم صف من المصلين خلف الامام من جهة ثانية وبذلك لا يجعل الامام يشغل مساحة الاسكوب وحدة[22] كما يساعد اتساع بلاطة المحراب وارتفاع سقفها على زيادة تهوية وإضاءة ظله القبلة التي تكون اكثر عمقا من بقية الظلات.

هذا التخطيط المبتكر لظلة قبلة جامع القيروان وما ترتب عليه من نتائج معمارية ودينية وبيئية اتخذ نموذجا للكثير من بيوت الصلاة في مساجد افريقة والمغرب[23] كما هو الحال في جوامع صفاقس وسوسة والزيتونة والمهدية وجامع بلاد الحضر بتوزر. واستمر هذا الأسلوب المعماري في مساجد إفريقية حتى ظهور طراز الجوامع العثمانية[24]، كما امتد هذا التخطيط لظلة القبلة ليشمل اغلب الجوامع المغربية[25]. ومع الفتح الفاطمي لمصر انتقل هذا التخطيط لظلة القبلة الى مساجدهم التي شيدوها في مدينة القاهرة كتأثير مباشر من مساجدهم في افريقيه

---

[20] أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة، 1951، ص 307؛

Pauty (E.), « L'évolution du dispositif en (t) dans les mosquées à portiques », in *Bulletin d'études orientales*, tome II , Damas, 1932, pp. 91-142.

[21] ناقش هذه الظاهرة العديد من العلماء منهم على سبيل المثال جورج مارسي في دراساته عن جامع القيروان، وأيضا ايلي لومبير، تطور العمارة الاسلامية في اسبانيا والبرتغال وشمال افريقيا، ترجمة جليان عطا الله، بيروت، 1958، ص 33-35 وقد أرجع هذان المستشرقان اصل ظاهرة اتساع بلاطة المحراب الي التخطيط البازيلكي للكنائس وهو ما دحضه د. احمد فكري في كتابة مساجد القاهرة، المدخل، ن. م.، ص 304-307؛ نفسه، مسجد القيروان، القاهرة، ص 25.

[22] محمد الكحلاوي، "القيم الدينية وأثرها في تخطيط عمارة المساجد"، في كتاب بحوث في الاثار الاسلامية في المغرب والاندلس، ج 1، القاهرة، 1999، ص 81-82.

[23] سليمان مصطفي زبيس، القباب التونسية في تطورها، تونس، 1959، ص 24.

[24] الرماح، "مدرسة القيروان"، ن.م.، ص 111.

[25] كما هو الحال على سبيل المثال في جامع القرويين بفاس، جامع الأندلسيين، جامع الكتبية بمراكش (557 هـ) وجامع القصبة بمراكش (595 هـ) وجامع تلمسان (537هـ) وغيرها. وعن الدراسة التفصيلية لهذه المساجد أنظر: محمد الكحلاوي، مساجد المغرب والأندلس في عصر الموحدين، القاهرة، د.ت.

والتي بنيت وفقا لتخطيط المدرسة الأم، ومما يؤكد على أن مخططات بيوت الصلاة أي ظلة القبلة في مساجد الفاطميين بالقاهرة تأثرت بمدرسة القيروان أن هذا التخطيط لم يظهر في ظلات قبلة المساجد الجامعة التي شيدت في مصر قبل الفاطميين مثل جامع عمرو بن العاص سواء عند إنشائه أو حتى بعد الإضافات الأموية التي تمت عليه على يد مسلمة بن مخلد الأنصاري أيام معاوية بن ابي سيفيان وسنة 79 هـ على يد عبد العزيز ابن مروان أو حتى في أعمال قرة بن شريك الذي هدم المسجد سنة 92 هـ واعاد بنائه مرة ثانية[26] مما يؤكد أن هذا التأثير لم يأت إلى مصر كتأثير وافد من الجامع الأموي مسجد الخلافة الأموية بل جاء بتأثير من جامع القيروان وبنفس معالجة معماري القيروان له، كما أن هذا التخطيط لظلة القبلة لم يظهر في جامع احمد بن طولون (263 هـ)[27].

وكان بداية ظهور هذا التخطيط لظلة القبلة في مساجد الفاطميين الذين حملوه معهم الي مصر ونفذوه في مساجدهم كما هو الحال في ظلة قبلة جامع الأزهر (359-361 هـ) شكل (2، 3) وظله قبلة جامع الحاكم بأمر الله (403،380 هـ) شكل (4 ، 6)، أما في جامع الأقمر (519 هـ) فقد ميز المعماري اسكوب المحراب وجعله اكثر الاساكيب اتساعا كما استعاض عن بلاطة المحراب بزيادة ارتفاع القبة التي تغطي المربع الأوسط في الاسكوب الذي يلي اسكوب المحراب وفي جامع الصالح طلائع (555 هـ) اخر مساجد الفاطميين زاد المعماري من اتساع اسكوب المحراب عن بقية الاساكيب بشكل ملحوظ.

واستمر هذا التخطيط في ظلات قبلة مساجد العصر المملوكي البحري[28] وخاصة تلك التي شيدت وفقا لطراز المساجد ذات الصحن والظلات سواء من حيث ظاهرتي التخطيط المتعامد لاسكوب وبلاطة المحراب كما هو الحال في جامع الظاهر بيبرس البندقداري (660 هـ) شكل (7، 8) أو من حيث تمييز اسكوب المحراب باتساعه عن بقية اساكيب ظله القبلة كما في ظلة قبلة جامع ألماس الحاجب بالحلمية (729-730 هـ) وظلة قبله جامع قوصون بشارع محمد على (730 هـ) شكل (9) وظلة قبلة جامع الناصر محمد بالقلعة (735 هـ) شكل (10) وجامع الطنبغا المارداني بالتبانة (739- 740 هـ) وجامع الست مسكه (740 هـ) وجامع آق سنقر الناصري والجامع الأزرق وبباب الوزير (747-748 هـ) وجامع الأمير شيخو بالصليبة (750 هـ).

---

[26] محمود احمد، جامع عمرو بن العاص، القاهرة، 1938.

[27] محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولوني، القاهرة، 1927.

[28] يقسم العصر المملوكي الى دولتين دولة المماليك البحرية (548-783 هـ) ودولة المماليك الجراكسية (784-923 هـ): حسني محمد نويصر، العمارة الإسلامية في مصر في عصر الايوبيين والمماليك، القاهرة، د.ت.، ص 115-117، 230.

كما ينسب لجامع القيروان الفضل في تغطية المربع الذي يتقدم المحراب مباشرة بقبة (221 هـ)[29] واذا كانت هذه الظاهرة وجدت بظلة قبلة الجامع الاموي بدمشق الا أن القبة لم تكن تغطي المربع الذي يتقدم المحراب مباشرة كما أنها ليست من عصر الانشاء وانما ترجع الى سنة 475 هـ[30]. ولم يكتف معماري القيروان بذلك بل أضاف قبه أخرى في بداية البلاطة الوسطى العمودية من جهة الصحن سنة 248 هـ عرفت بقبة البهو أو قبة باب البهو[31]؛ ومن ثم صارت البلاطة الوسطى لظلة قبلة جامع القيروان ولأول مرة في تاريخ العمارة الإسلامية يغطي بدايتها ونهايتها بقبة (أشكال 1، 5) وقد صار هذا التوزيع لقباب بلاطة المحراب نموذجا لمساجد إفريقية التي شيدت وفقا لمدرسة القيروان، ومثل جامع القيروان فقد ارتبطت القبة الثانية [قبة البهو] في هذه المساجد بعمليات إضافة وتوسيع تشمل ظله القبلة كما هو الحال في جامع سوسة وجامع الزيتونة. كما يرجع الفضل لمدرسة القيروان بنشر هذا التصميم في مساجد المغرب الأقصى[32].

وقد حمل الفاطميون هذا التصميم معهم إلى مصر ونفذوه في مساجدهم بالقاهرة كما هو الحال في بلاطة محراب جامع الأزهر(359-361 هـ) شكل [3] لوحة [2] والتي جاءت نسخة مكررة لبلاطة جامع القيروان الوسطى شكل [5] لوحة [1] ليس فقط في التصميم المعماري من حيث ارتفاع سقفها عن سقف الظلة نفسها وتغطية بدايتها ونهايتها بقبة وانما ايضا في ان قبة البهو جاءت نتيجة اضافة تمت على ظلة القبلة ايام الخليفة الحافظ لدين الله (526-544 هـ)[33]، أما في جامع الحاكم بأمر الله (380-403 هـ) شكل [4، 6] فقد اقتصر فيه المعماري في تصميمه للبلاطة الوسطى بقبه واحدة تتقدم المحراب. ولم يظهر هذا التأثير في العمارة الأيوبية وذلك نظرا لاختلاف المذهب الرسمي للدولتين ورغبة الايوبيين ذوي المذهب السني في تقويض المذهب الشيعي وهو ما دفع صلاح الدين سنة 565 هـ بإبطال صلاة الجمعة في الجامع الأزهر وتوجيه الاهتمام الي جامع عمرو بن العاص وهذا ما يفسر اختفاء بعض الظواهر المعمارية والفنية الفاطمية في العمارة الايوبية في مصر[34].

---

[29] تعددت الآراء حول تاريخ بناء قبة المحراب وعن ذلك أُنظر : زبيس، القباب التونسية، ن. م.، ص 13، كريزول، الآثار الإسلامية، ن. م.، ص 392: ويري أحمد فكري ان هذه القبة مشتقة من نموذج كان موجودا في المسجد قبل زيادة الله. فكري ، مسجد القيروان، ن. م. ص 95، 97.

[30] كريزول، الآثار الإسلامية، ن. م.، ص 77، 78.

[31] البكري، ن. م.، ص 24. وعن الآراء حول تاريخ بناء قبه البهو بجامع القيروان أُنظر : نجوي عثمان، مساجد القيروان، دمشق، 2000، ص 72-74. وعن الأهمية الدينية لقبة البهو أُنظر : فكري ، مساجد القاهرة، ن. م.، ص 142.

[32] الرماح، "مدرسة القيروان"، ن. م.، ص 113.

[33] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة، د. ت.، ج 4، ص 275؛

Shafii (F.), « West Islamic influences on Architecture in Egypt (before the Turkish period) », in Faculty of Arts, Cairo university , vol .XVI, part II, 1954-1955, p. 17.

[34] ومما يؤكد انتشار مدرسة القيروان المعمارية شرقا على ايدي الفاطميين انتقال هذا التصميم إلى مسجد السيدة بنت احمد في مدينة ذي جبلة (450- 451 هـ/ 1057- 1058 م) وان اقتصر الأمر على وجود قبه البهو فقط والتي وجدت أيضا نتيجة إضافة تمت على الجامع. كامل، الفاطميون، ن. م.، ص 181-183، شكل 8.

وقد استمر هذا التصميم المتأثر بمدرسة القيروان حتى العصر المملوكي البحري كما هو الحال في جامع الظاهر بيبرس البندقداري (660 هـ) شكل [7، 8]؛ واذا كانت طريقة توزيع القباب على البلاطة الوسطى بظلة القبلة هو تأثير قيرواني فإن المعمار المصري في العصر الفاطمي كانت له شخصيته المستقلة وبصمته الواضحة حيث أوجد بالاضافة الى القبة التي تتوسط اسكوب المحراب قبتين أخريين بزاويتي الاسكوب وبالتالي صار اسكوب المحراب في المساجد الفاطمية يضم ثلاث قباب[35] كما هو الحال في ظلة قبلة كل من الجامع الأزهر شكل [2] وجامع الحاكم بأمر الله شكل [4، 6] وقد يفسر ذلك بالفكر العقائدي للفاطميين الإسماعيلية التي ارتبطت مدلولات عقيدتهم بالأعداد حيث أشير الى أن العدد ثلاثة يعبر عن محمد صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة وأن فكرة الثلاثية التي عبر بها المعمار الفاطمي والفنان قصد بها التعبير عن العقل الأول [الله ومحمد] والعقل الثاني [علي] وهو ما يتضح في الكثير من مفردات العمائر الفاطمية[36].

ولكي يؤكد المعمار الفاطمي على اقتباس فكرة ثنائية القبة على بلاطة المحراب من مدرسة القيروان أضاف في عصر الخليفة الحافظ لدين الله سنة 526 هـ قبة تتقدم البهو بالجامع الأزهر شكل [3] لوحة [2] كما هو الحال في جامع القيروان شكل [1، 5] لوحة [1] وهذا ما يجعلني أوكد أن مدرسة القيروان قد انفردت بفكرة تعدد القباب وهي الفكرة التي اقتبسها المعمار الفاطمي في مصر ثم زاد عليها وفقا للتوظيف الأيدلوجي ليتوافق مع العقيدة الفاطمية. ويعد نضوج التأثير القيرواني على أيدي المعمار المصري صدرت العمارة المصرية الإسلامية هذا التاثير مرة ثانية الى المغرب الإسلامي خاصة في طريقة توزيع القباب باسكوب المحراب وذلك منذ منتصف القرن السادس الهجري[37].

ثانيا : من حيث موقع وتصميم قبة المحراب

تكمن اشكالية هذا العنصر في بيان أثر قباب جامع القيروان في عمائر القاهرة الدينية حتي العصر المملوكي البحري من حيث موقع القبة ووظيفتها وتصميمها ومدى الترابط بينها، فضلا عن معالجات معمار جامع القيروان لإيجاد المربع السفلى ومنطقة الإنتقال والخوذة. وسنناقش ذلك في ضوء النقاط التالية.

---

[35] يري السيد عبد العزيز سالم أن تعدد قباب اسكوب المحراب بجامع قرطبة هي صاحبة التأثير على المعمار الفاطمي: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي، بيروت ، 1971، ج 1، ص 385. وفي الحقيقة لقد ارتبط توزيع قباب جامع قرطبه بإنارة المقصورة التي كانت تمتد ثلاثة أساطين من بلاطة المحراب وثلاثة من كل من البلاطتين المتجاورتين له. الكحلاوي، مساجد المغرب، ن. م.، ص 355، ووجودها في الجامع الأزهر والحاكم يعد عملا أصيلا غير مسبوق في العمارة الإسلامية في مصر. كريزول، الأخشيديون والفاطميون، القاهرة، 2004، ج 1، ص 354، 355.

[36] أنظر : محمود مرسي مرسي يوسف، العمائر الاسلامية الدينية والمدنية الباقية في مدينة دمشق خلال العهدين الزنكي والايوبي، القاهرة، 2002، ج 1، ص 220-231.

[37] كريزول، العمارة الاسلامية، ن. م.، ج 1، ص 355.

Marcais (G.), *Manuel Art muslaman*, Paris, 1925, p. 20.

أ- من حيث موقع قبة المحراب

يضم جامع القيروان ست قباب[38] يهمنا منها التي تعلو مربع المحراب (221 هـ) شكل (1، 5، 11، 12) لوحة (1، 4) والتي كان لها تأثير واضح على عمائر مدينة القاهرة الدينية حيث الموقع أعلى مربع المحراب للتأكيد على أهمية هذا الموضع بالنسبة للمسجد حيث المحراب مكان وقوف الإمام فضلا عن المنبر بجواره[39]، وجاءت معالجة المعماري لإيجاد مربع القبة من خلال تقاطع بلاطة عمودية مع أخرى موازية شكل (1) مما ساعد على تكوين مربع علوى بواسطة ثلاثة عقود محمولة على أعمدة بالإضافة إلى جدار القبلة الذي يمثل الضلع الرابع وشغل الزوايا الأربعة لهذا المربع بحنية ركنية محارية في حين شغل ما بينها (أواسط منطقة الانتقال) بدخلات معقودة تقوم أرجلها على الأعمدة المدمجة الخاصة بعقود حنايا الأركان مما ساعد على تكوين مثمن تحول إلى رقبة إسطوانية قامت عليها الخوذة المضلعة شكل (11، 12) لوحة (4، 5) ومن ثمّة يلاحظ أن قبة محراب جامع القيروان ولدت متطورة.

وفكرة تغطية مربع المحراب بجامع القيروان تأثرت بها معظم المساجد الأفريقية التي شيدت على غراره مثل جامع صفاقس في الفترة الأغلبية وجامع سوسة[40] وجامع المهدية وجامع بلاد الحضر بتوزر وإستمرت هذه الظاهرة في مساجد أفريقية حتى ظهور طراز المساجد العثمانية[41]. مثلما إنتقلت هذه الظاهرة وأثرت على مساجد المغرب الأقصى فقد إنتقلت مع الفاطميين شرقا إلى مصر وأصبحت سمة رئيسية في عمائر مدينة القاهرة الدينية والتي يمكن مشاهدتها في الكثير من العمائر والتي منها قبة محراب كلا من الجامع الأزهر (شكل 2) سواء التي تتقدم محرابه القديم الفاطمي أو التي تتقدم محراب الظلة التي أضافها عبد الرحمن كتخدا خلف الظلة القديمة سنة 1167 هـ [42] لوحة (3)، وكذلك جامع الحاكم بأمر الله (شكل 3، 6). وإمتد هذا التأثير ليشمل المشاهد الفاطمية حيث تتقدم محاريبها قباب كما هو موجود في مشهد الجيوشى (470 هـ) شكل (13 – أ، ب) ومشهد السيدة رقية (527هـ) شكل (14) ومشهد يحيى الشبيه (545هـ) شكل (15) وإن كان في كلا من مشهد أبي القاسم الطيب (منتصف ق 6هـ) وأم كلثوم (516هـ) غطى الفراغ الذي يتقدم المحراب

---

[38] هي قبة المحراب وتنسب إلى زيادة الله الأغلبي (221 هـ) وقبة البهو (باب البهو) وتنسب إلى إبراهيم الثاني (251 هـ) وقبتين تعلوان المدخلين الشرقي والغربي لبيت الصلاة أقامهما الخليفة أبو حفص سنة (593 هـ) وقبة المئذنة، وقبة تعلو المدخل الأوسط بالمجنبة الغربية.

[39] الكحلاوي، "مقاصير الصلاة"، ن. م.، ص 218–219. وقد رجح بأن المقصورة في جامع القيروان قد نقلت من مكانها الأصلى، ومما هو جدير بالذكر أن مقصورة جامع القيروان تقع على يمين المحراب والمنبر وأمر بإنشائها كما هو مثبت عليها المعز بن باديس (375 هـ) وهو أحد أمراء بنى زيرى في المغرب الموالين للفاطميين في مصر.

[40] كما أنه يتضح أن المسجد الملحق برباط سوسة (205هـ/ 821–822 م) كان يعلو محرابه قبة مرتفعة. كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، القاهرة، 1999، ص 142، شكل 58.

[41] كما هو الحال في جامع الباى (الجامع الحنفي) بالقيروان والذي ينسب بناءه إلى أبى عبد الله محمد الباى سنة 1094 هـ وإن كانت القبة شيدت من الخشب بهيئة هرمية من الخارج. عثمان، ن. م.، ص 155–155.

[42] آمال العمرى وعلى الطايش، العمارة في مصر الإسلامية (العصرين الفاطمى والأيوبى)، القاهرة، 1995، ص 70.

مباشرة بقبو متقابل وذلك نتيجة لسقط ذلك الفراغ المستطيل في حين غُطّي الفراغ التالي له بقبة وذلك ربما لرغبته في الحفاظ على هذا العنصر المعماري[43].

واستمر هذا التأثير خلال العصر المملوكي البحري الذي إستقبلت فيه العمارة الإسلامية في مصر العديد من الأساليب المعمارية من الشرق والغرب حتى أن هذا العصر يمكن إعتباره مقدمة لتكوين طراز معماري وفنى مصري جديد تبلور في نهاية العصر البحري وإكتمل في العصر الجركسى الذي يعتبر العصر الذهبى للعمارة الإسلامية المصرية، وإن لم يمنع هذا من إستمرار الأساليب المحلية التي كانت سائدة من قبل، ولعل عنصر القبة التي تغطى الفراغ الذي يتقدم المحراب كان من أبرزها فإستخدمت على نطاق واسع مع إحداث تطورات عليها خاصة من حيث زيادة حجمها وفقا لمساحة الفراغ المراد تغطيته، وكذلك من حيث شكلها نتيجة لتأثره ببعض التأثيرات المشرقية الوافدة في هذا العصر[44]، ومن أمثلة العمائر الدينية المملوكية التي يغطى الفراغ الذي يتقدم محرابها قبة جامع الظاهر بيبرس البندقدارى بالظاهر (665-667 هـ) شكل (7، 8) وكانت من الخشب بقدر حجم قبة الإمام الشافعى (وهي مندثرة) وتشغل مساحة ثلاثة أروقة وتقوم على دعامات بنائية مربعة[45]. وأقام السلطان لاجين السيفي سنة 696 هـ قبة تعلو مربع محراب جامع ابن طولون[46]، كما يعلو محراب جامع قوصون بشارع محمد على المؤسس سنة 730 هـ (شكل 9) قبة بعمق وإتساع ثلاث أروقة وهو نفس موقع ومساحة قبة جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة المؤسس سنة 718هـ (شكل 10)، أما قبة محراب جامع الطنبغا الماردانى بالتبانة (739-740هـ) فقد جاءت بعمق رواقين وبإتساع ثلاثة أروقة، أما قبة جامع أق سنقر الناصرى (الجامع الازرق) بشارع باب الوزير (747-748 هـ) فجاءت بعمق رواق واحد، وقد سجلت قبة محراب مدرسة صرغتمش بالخضيرى (757هـ) (شكل 16) نموذجا فريدا في العمارة الإسلامية في مصر حيث تغطى القبة هنا أيوان وليس أروقة وقد إستمرت فكرة تغطية المربع الذي يتقدم المحراب بقبة في العمائر الدينية بمدينة القاهرة في العصر المملوكى الجركسى أيضا[47].

---

[43] كما ينسب للفاطميين أيضا بناء قبة تعلو المحراب بالمسجد الأقصى بالقدس سنة 527 هـ. الكحلاوى، مقاصير الصلاة، ن.م.، ص 223.

[44] عن جانب من معابر وإنتقال هذه التأثيرات، أُنظر: محمد حمزة إسماعيل، القباب في العمارة المصرية الإسلامية، القاهرة، 1993، ص 145-147؛ منى محمد بدر، أثر الفن السلجوقى على الحضارة والفن في العصرين الأيوبى والمملوكى في مصر، جامعة القاهرة، 1991.

[45] سامح عبد الرحمن فهمى، "جامع الظاهر بيبرس البندقدارى"، في دراسات أثرية إسلامية، هيئة الآثار المصرية، مجلد 3، القاهرة، 1988، ص 110؛ نويصر، ن.م.، ص 141.

[46] حسن الباشا، الآثار الإسلامية، القاهرة، 1990، ص 119.

[47] ومما هو جدير بالملاحظة أن موقع القبة التي تتقدم المحراب يعتبر سمة من سمات مساجد السلاجقة في الأناضول، كما هو الحال في الجامع الكبير في سيرت (523 هـ) والجامع الكبير في بتليس (قبل سنة 545 هـ) والجامع الكبير في سلوان (ميافارقين) (547-551 هـ) والجامع الكبير في خربوط (551 هـ)، الجامع الكبير في دنيصر، مسجد قولوق في قيصرية (منتصف ق 5 هـ/ 12 م) مسجد القلعة باضروم (أواخر ق 5 هـ بداية ق 7 هـ)، الجامع الكبير في أرضوم (575 هـ) والجامع الكبير في ديوركى (ديفرجى) (525 هـ)، مسجد علاء الدين في قونيه (550 هـ) وجامعة في نيكدة (520 هـ) والجامع الكبير في ملطية (522 هـ) المسجد الملحق بمجمع خواند خاتون بقيصرية (547 هـ) ومسجد

ب- من حيث تصميم السطح الداخلي والخارجي للقبة

تميز خوذات قباب جامع القيروان وخاصة القبة التي تغطى المربع الذي يتقدم المحراب (قبة المحراب) بتشكيل المعماري لها على هيئة تضليعات مجوفة من الخارج يقابلها تقعير من الداخل. وإلى جانب الأهمية الفنية أو الزخرفية لهذا التصميم فإنه يزيد القبة قوة ومتانة معمارية، ويبلغ عدد ضلوع القبة أربع وعشرين ضلعا (شكل 11، لوحات 4، 5). وإذا كانت كلا من قبة الحجرة الساخنة بحمام الصرح والقبة جنوب البهو الكبير بقصر الاخيضر قد صممتا بهيئة مضلعة[48] فإن قبة محراب جامع القيروان (التالية لهما تاريخيا) تميزت بتصميم هندسى لم يسبق أن ظهر في أى مثال آخر[49]، وقد أثر تصميم هذه القبة في قباب المساجد التي بنيت وفقا لمدرسة القيروان المعمارية، مثل تلك القبة التي شيدت سنة 250هـ أعلى محراب مسجد الزيتونة والتي تضم كل العناصر المعمارية والفنية بقبة محراب جامع القيروان، وكذلك قبة البهو بنفس الجامع (لوحة 1، 2) وإن كان يفصل بينهما مائة وستون عاماً 381هـ[50]، وهكذا الحال بعد ذلك بأكثر من أربعمائة وخمسين سنة حيث شيدت قبة تعلو مدخل للاريحانا بمسجد القيروان نفسه وفقا لقبة محرابه وإن كانت ضلوعها قد تعددت وبلغت الستين وفقدت الوظيفة المعمارية التي كانت لها في القبة الأولى وأصبحت غطاءً زخرفيا في باطن القبة وخارجها[51] لوحة (1).

وقد إنتقل هذا النمط من القباب المضلعة لجامع القيروان إلى مصر بداية من العصر الفاطمي[52] وظل الأسلوب السائد بل والوحيد في القباب منذ ظهوره في العمائر الفاطمية حتى نهاية عصر المماليك البحرية بل وإستمر في أمثلة قليلة في عصر المماليك الجراكسة. وكان أول إستخدام لهذا النوع من القباب في القباب الفاطمية التي شيدت من الأجر[53] مثل قبة السيدة عاتكة (514 هـ) لوحة (6) التي تبلغ عدد ضلوعها ستة عشر ضلعا ذات طابع غليظ زادت إلى أربع وعشرين ضلعا في قبة السيدة رقية (527 هـ) لوحات (7، 8) والتي تميزت ضلوعها بالدقة والرشاقة. أما المثل الثالث فيظهر في قبة مشهد يحيى الشبيه (545 هـ) لوحة (9) وهي ذات أربع وعشرين ضلعا ويشبهها قبة مشهد سيدى معاذ بالدراسة. واستمر استخدام القباب ذات الضلوع في القباب الأجرية خلال العصر المملوكى البحرى، كما هو الحال في قبتى أيديكين البندقدارى (683 هـ) لوحة (10) وقبة الصوابى (684 هـ) وقبة زين الدين يوسف

أشرف أوغلو في بيشهر (595 هـ) وغير ذلك من الأمثة. أوقطاى أصلان أبا، فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، استانبول، 1987.

[48] شافعى، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض، 1982، ص 178. وأطلق عليها كمال الدين سامح "قبة ذات قنوات"، سامح، العمارة في صدرالإسلام، ن. م.، ص 40، 72.

[49] فكرى، مسجد القيروان، ن. م.، ص 102-103.

[50] عن معالجة المعماري لتضليعات قبة بهو جامع الزيتونة وتوزيعه الأحمال أنظر: أحمد فكرى، "مسجد الزيتونة الجامع في تونس"، في المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع، العدد الثانى، 1935.

[51] فكري، مسجد القيروان، ن. م.، ص 94-95 ، ص 120.

[52] فكرى، مساجد القاهرة، ن. م.، ج 1 ، ص 154: Shafii , *Op. cit.*, p. 15

[53] كريستل كسلر، "زخارف قباب القاهرة"، ترجمة شهيره محرز، في مجلة فكر وفن، القاهرة، 1959، ص 25.

(697 هـ) لوحة (11) وقبة قراسنقر (700 هـ) وقبة على بدر القرافي (700-710هـ) لوحة (12) وقبتي سلاروسنجر الجاولى (703هـ) لوحة (17) وقبة أبو اليوسفين (730هـ) وقبة طشتمر (735 هـ) وقبة القاصد (735 هـ) وقبة قوصون بقرافة السيوطى (736 هـ) ، قبة خوند طغاي (749 هـ) وقبة خوند طولبيه (765 هـ).

وقد إمتد استخدام هذا النوع من القباب في القباب التي شيدت من الحجر وخاصة في المرحلة المبكرة لإستخدام الحجر في القباب بالقاهرة، وإن كان التضليع إقتصر فقط على السطح الخارجى للقبة عكس القباب الأجرية التي يظهر فيها التضليع من الداخل والخارج وذلك ربما نتيجة لطبيعة مادة الحجر وصلابته كما أن التضليع قام في القباب الأجرية بوظيفتين زخرفية ومعمارية ولذا ظهرت من الداخل والخارج أما القباب الحجرية فأصبحت ملساء من الداخل ومضلعة من الخارج ويتمثل هذا الأسلوب في قبة سنجر المظفر (722 هـ) وتنوعت الأشكال التي نفذت بها التضليعات بحيث يتعاقب فيها الأشكال المقعرة والبارزة كما هو الحال في قبتي تنكزبغا بمنشية ناصر لوحات (14 ، 15)، وفي كل من قبة تاتار الحجازية (761 هـ)، وفي قبتي مدرسة خوند بركة جاءت التضليعات كأنها معلقة ثم حدث تطور في شكل هذه التضليعات فجاء ذات ميل لتأخذ هيئة زخرفية وتؤكد على تفوق المعمارى ومهارته في تطويع مادة الحجر كما هو الحال في قبة أولجاى اليوسفي (774 هـ) وقبة أيتمش البجاسي (785 هـ) وفي قبتي التربة السلطانية (حوالى 757-762 هـ) لوحة (16) تستند التضليعات البارزة على مقرنصات وهي نفس المعالجة بقبة يونس الدوادار بشارع باب الوداع قبل سنة (783هـ)[54] لوحة (17). كما تأثرت منطقة إنتقال القباب الفاطمية من الداخل بمنطقة إنتقال قبة محراب جامع القيروان وإن كانت بشكل أبسط حيث إقتصرت على أربع حنايا ركنية في زوايا مربع القبة تشبه أشكال المحاريب، كما هو الحال بقباب رواق القبلة بمسجد الحاكم بأمر الله (381 هـ) وبالقباب السبع (400 هـ) وبقبة محراب مشهد الجيوش (478 هـ) وبقبة الحافظ بالأزهر (526 هـ) وبمشهد إخوة يوسف (أوائل ق 6 هـ) وبقبة الحصواتى (منتصف ق 6 هـ)[55].

وإذا كانت منطقة إنتقال قباب القيروان (مصدر التأثير) والتي ولدت متطورة، كما سبق، لم يدخل عليها تطور وظلت على شكل الحنية الركنية الواحدة في جميع مراحلها[56] فمنذ الثلث الأخير من القرن 5 هـ تطورت منطقة الإنتقال بمدينة القاهرة من حيث صغر حجم حنايا الأركان وزيادة عددها في الصف الواحد بل وتعدد صفوفها (حطاتها)[57].

---

[54] الحداد ، القباب، ن. م.، ص 152-153. وقد استمر استخدام القباب المضلعة خلال العصر المملوكى الجركسى بمدينة القاهرة حتى أواخر القرن 8 هـ حيث قلت حدتها وأصبحت دالية أو زجزاجية وتطورت وصارت تجمع بين العناصر الهندسية والبناتية حتى بلغت قمتها في عمائر عهد السلطان قايتباى.

[55] حسن عبد الوهاب، "مميزات العمارة الإسلامية في القاهرة"، في مؤتمر الآثار في البلاد العربية، دمشق، 1947، ص 178.

[56] عبد الوهاب، ن. م.، ص 134-135.

[57] عن العمائر التي تجسد هذا التطور أنظر : الحداد ، ن. م.، ص 94-95.

ولا يقتصر تأثير قباب القيروان التي بلغت أوج تطورها في العصر الأغلبى على قباب عمائر القاهرة الدينية على ما سبق بل إمتد ليشمل نواحي أخرى لعل أهمها طريقة تصميم الرقبة الإسطوانية التي تعلو منطقة الإنتقال وتقوم عليها الخوذة من الداخل من حيث وجود نوافذ معقودة للإضاءة والتخفيف تتعاقب مع مضاهيات بنفس الهيئة وذلك رغم اختلاف أشكال العقود التي تتوج النوافذ في بعض قباب القاهرة، كذلك في الشريط الكتابى الذي يتخلل التكوين المعمارى للقبة من الداخل حيث يحيط ببداية مربع قبة محراب جامع القيروان وأسفل منطقة الإنتقال مباشرة شريط كتابى قرآنى نفذ بالدهان وهي نفسها الطريقة التي نفذت في قبة محراب جامع سوسة وإن كانت بالحفر البارز على الحجر كذلك بقبة محراب الزيتونه والذي يتضمن ولأول مرة إسم من قام ببناء القبة (فتح الله) وتاريخ بنائها[58]. وظاهرة الشريط الكتابى الذي يحيط بمربع القبة من الداخل هي من تأثيرات مدرسة القيروان التي إنتقلت إلى عمائر مدينة القاهرة الدينية، وبدأ ظهورها في عمائر الفاطميين حيث أنه من النادر أن نجد قبة في منشأه دينية فاطمية يخلو مربعها من الداخل أو رقبتها من ذلك الشريط الكتابى والذي غالبا ماينفذ بالحفر على الجص والتي منها على سبيل المثال القبة التي كانت تعلو محراب الجامع الأزهر وبالثلاثة قباب ببلاطه محراب جامع الحاكم بأمر الله وبمربع القبة التي تعلو محراب مشهد الجيوشي (478 هـ) وبمربع قبتى الجعفري وعاتكة (514-519 هـ) وأيضا بقبة مشهد السيدة رقية (527 هـ) وبمربع قبة يحيى الشبيه (حوالى 545 هـ).

وقد استمر ظهور هذا الشريط الكتابى بقباب عمائر القاهرة الدينية خلال العصر الأيوبى مع إحداث تطور عليه خاصة في نوع الخط المستخدم والذي أصبح نسخيًا بدلا من الخط الكوفي وزيادة عدد هذه الأشرطة سواء في نهاية مربع القبة أسفل منطقة إنتقالها كما هو شائع في قباب الفاطميين أو على الرقبة القصيرة التي تلى منطقة الإنتقال أسفل الخوذة وأحيانا يؤزر جدران المربع السفلى للقبة شريط كتابى غالبا ما ينفذ على افريز خشبى وهذه الظاهرة تشاهد بشكل واضح في أضرحة الأيوبيين بالقاهرة كما هو الحال على سبيل المثال في قبة الإمام الشافعى (608 هـ) وقبة الخلفاء العباسيين بالسيدة نفيسه (حوالى 640 هـ) وقبة شجر الدر بالخليفة (648 هـ)، ويؤزر جدران مربعها من الداخل افريزين من الخشب يتضمن السفلى آيات قرآنية والذي يعلوه (الثانى) يتضمن نص تأسيس القبة وهو نفس الأسلوب الذي تكرر بالقبة التي شيدتها شجر الدر لزوجها الصالح نجم الدين ايوب بمدرسته بالنحاسين (648 هـ).

وسار المعمار المصري في العصر المملوكى وفقا لهذا الأسلوب حيث صار الشريط الكتابى في نهاية مربع القبة وأسفل منطقة الانتقال سمة من سمات قباب القاهرة في ذلك العصر مع وجود شريط أخر يحيط برقبة القبة من الداخل ، وأحيانا يقتصر ذلك الشريط الكتابى على الرقبة فقط وذلك بالخط النسخى المملوكى البارز، وقد يحدد النوافذ التي تتخلل الرقبة من أعلى ومن أسفل شريطين كتابيين ، ومن ذلك على سبيل المثال القبة الأولى

---

[58] وإن كان مارسيه إقتصر في ذكره على المقطع الأول من الأسم (فتح) Marcais, *L'Architecture*, p. 7

بخانقاه أيدكين البند قدارى (683 هـ) وقبة صفي الدين جوهر بشارع الركيبة بالصليبه (714 هـ) وقبة أحمد المهمندار بالدرب الأحمر (725 هـ) وقبة سلار بشارع مراسينا بالسيدة زينب (703 هـ) وبالقبة الثانية بخانقاه ايدكين البند قدارى وقبة الاشرف خليل بالسيدة نفيسه (687 هـ) وبقبة حسام الدين طرنطاى (689 هـ) وقبة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (703 هـ) وبقبة سنجر الجاولى بشارع مراسينا، وبقبة سنقر السعدى (حسن صدقة) و قبة قوصون بقرافة السيوطى (736 هـ) وبقبة بيبرس الجاشنكير بالجمالية وبقبة تنكز بغا بقرافة السيوطي (حوالى 760 هـ) وغير ذلك من الأمثلة وقد استمر هذا الأسلوب في قباب القاهرة خلال العصر الجركسي أيضا.

كما تأثر المعمار المصري، في العصر الفاطمي أيضا بعقد قبة محراب جامع القيروان وهو العقد ذى الأربعة مراكز في تصميمه للقباب وهو نفسه العقد الذي بنيت على أساسه قباب العصر الأيوبي أيضا[59].

ثالثا: من حيث موقع وتصميم المئذنة (الصومعة)

تعد صومعة جامع القيروان (105 هـ) أقدم صومعة باقية معلومة التاريخ في العمارة الإسلامية[60] وهي من الحجر وتتوسط الجدار الشمالى للجامع على محور المحراب (شكل 17، لوحات (1، 18)، وتتكون من ثلاث طوابق مربعة تتقبض كلما اتجهنا إلى أعلى تعلوها قبة مفصصة ويتخلل الطوابق الثلاثة نوافذ معقودة ومضاهيات ويزينها صفوف من بائكات مصمتة وللمئذنة سلم له سقف مقبى من الحجر يضيء من خلال ثلاث نوافذ تفتح على الصحن وخمسة أخرى تفتح على الخارج. وقد اتخذت صومعة جامع القيروان النموذج التي شيدت وفقاً له مآذن مساجد إفريقية مثل مآذنة خلف بقصبة سوسه (230 هـ) ومئذنة جامع صفاقس (345 هـ) (شكل 18) ومئذنه جامع الحضر بتوزر (412- 418 هـ).

ونموذج الصومعة المربعة هو نفسه الذي شيدت على منواله مآذن مساجد المغرب والأندلس سواء من حيث الموقع او من حيث التخطيط والهيئة المربعة[61]. ولم يقتصر تأثير صومعة جامع القيروان على مساجد المغرب والأندلس فقد بل امتداد هذه التأثير إلى مآذن مصر وظهر بداية مع عمائر الفاطميين الدينية بمدينة القاهرة سواء من حيث التخطيط أو الهيئة المربعة والتكوين المعماري وعناصر أو من حيث الموقع الذي ينتصف الضلع الشمالي

---

[59] Shafii , *Op. cit.*, p. 11-15, 30

[60] عن تاريخ مئذنة القيروان والآراء حولها أُنظر: البكرى، ن. م.، ص23- 24؛ المالكي، ن. م.، ج 1. ص 24؛ سليمان مصطفي زبيس، الفنون الإسلامية في البلاد التونسية، تونس، 1978: كريزول، ن. م.، ص 152؛ طاهر مظفر العميد، آثار المغرب والأندلس، بغداد، 1989، ص 73؛ الرماح، مدرسة القيروان، ن. م.، ص 105؛ السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب، بحوث في التاريخ والحضارة والآثار الإسلامية، بيروت، 1992، ص 435.

[61] فقد أقيمت مآذن تلمسان وأجادير ورباط وقرويين وقرطبة واشبيلية المربعة على محور مساجدها بمنتصف جدارها الشرقي في مواجهة محاريبها كما هو الحال في جامع القيروان. فكري، مسجد القيروان، ن. م.، ص112.

الغربي محور المحراب، علماً بأن هناك بعض الدارسين[62]، اللّذين أكدوا أن المئذنة المصرية ذات الشكل المربع ما هي إلا تقليد لمنار الإسكندرية إلا أنني أوكد أن المئذنة المصرية المربعة ليست متأثرة بمنارة الإسكندرية بقدر ما هي تقليد لمئذنة جامع القيروان وذلك لعدة اعتبارات منها أنّ الباحثين قد اعتادوا دراسة المآذن استناداً على الشكل الخارجى لها دون أن يراعوا عوامل أخرى أثرت بشكل مباشر في تكوينها موقعها وهذا ما أصبوا إلى توضيحه من خلال بيان تأثيره مدرسة القيروان المعمارية في عمائر القاهرة الدينية حتى نهاية العصر المملوكى البحرى، ولذلك من الضرورى أن نلقى بعض الضوء على العوامل المؤثرة في صومعة جامع القيروان من حيث الموقع والشكل وهي العوامل التي لم يتطرق إليها باحث من قبل حيث يتبين، للباحث عند فحصه لموقع صومعة القيروان أنها تشغل منتصف جدار المؤخر الواقع في الجهة الشمالية (لوحة 1)، وهي الجهة التي يشرف منها المسجد من خلال صومعته على بطائح القيروان التي تتصل بالساحل بينما لم تنصب الصومة في أى ضلع من الأضلاع الثلاثة الآخرى والتي تتميز بأنها تشرف على أحياء مدينة القيروان الآهلة بالسكان مما يؤكد أن اختيار المعمار لموضع الصومعة كان له بعد أخر بجانب البعد الديني وهو العامل الأمني حيث تعتبر بطائح القيروان كما سبق وأوضحت هي المنطقة التي تمتد لتصل إلى الخط الساحلي وهو المعبر الوحيد الذي تأتى من خلاله أي حملة قد تهدد القيروان لذا كانت صومعة الجامع بمثابة مرقب حربي، يستكشف من خلاله أى هجوم محتمل على مدينة القيروان[63].

وبمقارنة هذا الموقع بموقع مشهد الجيوشي (478 هـ) نجد ان ملامح التشابه تكاد تكون متطابقة فالصومعة تشغل منتصف الضلع الشمالى (شكل 13- أ، ب) على محور المحراب وتشرف ايضاً على الفسطاط وقطائع بن طولون[64] وهي المنطقة التي كانت في العصر الفاطمى سكناً للعامة من المصريين ذوي المذهب السني، مما تطلب ضرورة مراقبة أى تحركات داخلية من شأنها تهديد مدينة القاهرة الملكية، مما فرض على المعمارى نظاماً معمارياً في المئذنة يتسم بالصلابة، لذلك لم يكن يستطيع بنائها على النمط الإسطوانى حتى يستطيع ايجاد طرف رباط بين مداميك الأسوار وقاعدة المئذنة مما يضفي عليها قوة وصلابة ويدعم من تخطيطها وقد مهد هذا الشكل المربع لإيجاد الممشى الحربى (شكل 13، 19،

---

[62] السيد عبد العزيز سالم، "تأثير منار الأسكندرية على عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس"، في بحوث إسلامية، ج 2، ص 421- 429. والحقيقة أن منار الإسكندرية كان موجودا حتى القرن 8 م وكان يتكون من ثلاثة طوابق بها بعض الشبه مع مآذن القرن 11 م ولكن طول الفترة بين الإثنين يؤكد أنه من غير المنطقي أن يكون هناك تأثير لمنار الإسكندرية بعد ستة قرون من الزمن. صالح لمعي مصطفي، **التراث المعماري الإسلامي في مصر**، بيروت، 1975، ص37.

[63] وهو ما أشار اليه ليزين من أن مئذنة القيروان تصطبغ بصبغة عسكرية من خلال عمارتها والتي أبرزها تلك النوافذ التي تضيء السلم الداخلى والتي تأخذ هيئة مزغلية وأشكال الشرفات النصف دائرية بطابقها الأول والثاني. أنظر:

Lezine ,*Op. cit.*, p. 51-52.

[64] عن التطور العمرانى لهذه المنطقة أنظر: محمود حامد الحسينى، **التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية (الفسطاط – العسكر – القطائع) حتى نهاية العصر الفاطمي**، مخطوط دكتوراه، كلية الاثار جامعة القاهرة، 1987.

لوحة 19). والفرق بين صومعة القيروان والجيوشي يكمن في الارتفاع حيث تطلب امتداد بطائح القيروان الأفقي امتداد رأسي للصومعة بينما سهل وجود صومعة الجيوشي على احد تلال جبل المقطم الارتفاع المطلوب، وفكرة أن تحتل المئذنة منتصف الضلع المقابل للقبلة لم يقتصر أثر جامع القيروان في عمائر القاهرة الدينية الفاطمية على مشهد الجيوشي فقط، فقد كانت مئذنة كل من الجامع الأزهر (359-361 هـ)[65]، وجامع الصالح طلائع (555 هـ)[66]. وإذا كانت المآذن الأيوبية قد حافظت على موقعها أعلى المداخل الرئيسية[67] مثل المآذنة الفاطمية إلا أنها لم تكن على محور المحراب[68]. وقد سار معمار العصر المملوكي البحري في بناء مآذنة وفقاً للأساليب الفاطمية والايوبية وترجم ذلك في أول مساجد هذا العصر وهو جامع الظاهر بيبرس البند قدارى (665- 567 هـ) (شكل 7) والتي جاءت مئذنته المربعة تعلو كتله المدخل الرئيسى الشمالى الغربى وعلى محور المحراب[69].

ورغم التطورات العمرانية التي شدتها طوبغرافية مدينة القاهرة في العصر المملوكى وندرة المساحات المتاحة للبناء وما ترتب عليها من نتائج[70]، إلا أن هذا لم يمنع من وجود بعض النماذج التي إلتزم فيها المعماري بهذا الموقع كلما أتيحت له الفرصة كما هو الحال على سبيل المثال في مئذنة مدرسة الناصر محمد بالنحاسين (695 هـ) ومئذنة خانقاه بيبرس الجاشكير (706 هـ) ومئذنة مدرسة أيدمر البهوان (747 هـ).

أما من حيث تأثر مآذن مدينة القاهرة بتخطيط وهيئة صومعة جامع القيروان المربعة، فأنه يتضح في العديد من النماذج الباقية إذ أن أقدم مآذن القاهرة والتي لا تزال تحتفظ بعناصرها الأصلية بنيت وفقاً لمئذنة القيروان وهي مئذنة مشهد الجيوشي (487 هـ)[71] (شكل 19، لوحة 19) وهي مشيدة من الآجر وذات تخطيط مربع وتتكون من قاعدة وطابقين بارتفاع 20 م وتتوج بقبة نصف كروية ونقبض طوابقها كلما اتجهنا إلى أعلى ويتخللها نوافذ لإضاءة السلم الداخلي، كما بنيت مئذنة أبى الغضنفر (552 هـ) على غرار مئذنة الجيوشي فيما عدا أن الطابق المربع أسفل القمة أصبح مثمناً.

---

[65] عبد الوهاب، الاثار الفاطمية، ن. م.، ص 352.

[66] وقد هدمت في وقت ما وحلت محلها ثانية حديثة أزيلت سنة 1925لحدوث خلل بها. العمرى والطايش، ن. م.، ص 98.

[67] أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة، 1959، ج 2، ص 81.

[68] مثل مئذنة المشهد الحسينى (533-534 هـ) ومئذنه المدارس الصالحية (539-541 هـ) وإن صحت نظرية د. أحمد فكرى حول التخطيط الأصلى للمدرسة والذي يعتمد فيه على أن كتله المدخل الرئيسى تودى إلى ممر يقع عليه ثلاث مداخل يؤدى الجانبيان إلى مدرسة ويؤدى الثالث بصدر المدخل إلى مسجد : فكرى، ن. م.، ج 2، ص 72، 74، فأن المئذنة عندئذ تكون على محور المحراب مثل المآذن الفاطمية.

[69] نويصر، ن. م.، ص 143.

[70] أنظر: محمد الكحلاوى، "أثر مراعاة اتجاه القبلة وخط تنظيم الطريق على مخططات العمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة"، في مجلة كلية الاثار جامعة القاهرة، العدد السابع، 1995، ص88-92.

[71] ويرى فريد شافعى أن الغلاف الخارجى المربع الذي يحيط بمئذنتى جامع الحاكم بامر الله قد استوحى من قواعد المآذن المربعة والتي كانت بدايتها في مئذنة جامع القيروان (105 هـ/ 742 م). أنظر:

Shafii, West Islamic influences, p.5-7.

واحتفظت مآذن العصر الأيوبي بالتصميم المربع خاصة في قواعدها التي زاد المعمار من ارتفاعها مع استمرار المثمن في الطوابق العليا كما هو الحال في مئذنة المشهد الحسيني (633- 634 هـ) (شكل 20) ومئذنة المدرسة الصالحية (641 هـ) (شكل 21، لوحة (20) والتي تعتبر أقدم مآذن العصر الأيوبي التي وصلت إلينا بشكل متكامل، وهو نفسه النمط الذي استمر في مآذن العصر المملوكة البحرى والتي تعد المئذنة المربعة التي كانت تعلو المدخل الرئيسي جامع الظاهر بيبرس البندقدارى (665-567 هـ) (شكل 7) اقدم نماذجها، وإذا كانت بعض مآذن القاهرة في العصر المملوكي البحري قد التزم المعمارى فيها بالتصميم المربع في قواعدها كتأثير فاطمي وأيوبي مثل مئذنة مدرسة وتربة فاطمة خاتون (683 هـ) ومئذنة مجموعة قلاوون بالنحاسين (684 هـ) (شكل 22، لوحة 21) والتي ترتفع قاعدتها المربعة 13.90 م وغيرها من الأمثلة[72]، فأنه تقليد من حيث الشكل فقط بالاضافة إلى الضرورة المعمارية التي تتطلب وجود كرسى للمئذنة يستطيع تحمل ثقل ارتفاعها.

ومما هو جدير بالذكر أنه في نهاية العصر المملوكى الجركسى كانت هناك عودة مرة أخرى للتصميم المربع للمئذنة كما هو الحال في كل من مئذنة قانى باى الرماح بميدان القلعة (908 هـ) (شكل 23) ومئذنة الغورى بشارع المعز (909–910 هـ) (شكل 24) والتي تتكون من ثلاثة طوابق مربعة تتخللها شرفتان بنفس الهيئة ايضا، والشيء نفسه تم في العصر العثمانى حيث صممت مئذنة جامع محمد بك أبو الدهب (1188 هـ) بهيئة مربعة تذكرنا بصومعة القيروان.

رابعاً: من حيث معالجة أسلوب توزيع وتخفيف الأحمال

ينسب لمعماري جامع القيروان ابتكار مجموعة من المعالجات المعمارية واستخدامها بغرض تخفيف الأحمال وتوزيعها بطريقة هندسية جديدة ولعل من أهم هذه المعالجات:

(أ) حزمة الأعمدة

وهو استخدام حزمة من الأعمدة عند النقطة التي تلتقي عندها البوائك العمودية مع البوائك الموازية التي زاد المعمار من استخدامها في ظلة القبلة نتيجة لاختلاف اتجاهات بوائكها وكثف من استخدامها في مربع قبة المحراب وقبة البهو، وذلك لرغبته في تكوين مربع يقيم عليه القبة مع التوزيع المتساوى للثقل الواقع عليه، وقد تراوح عدد الأعمدة المستخدمة في هذين الموضعين بظلة قبلة جامع القيروان بين العمودين والستة أعمدة بشكل متجاور على هيئة حزمة (لوحة 22) ولان قبة المحراب عنصر ذو أهمية معمارية وزخرفية ويمثل بنائها ثقل على حزمة الأعمدة التي تقوم عليها فقد أوجد المعماري فاصل من الرصاص بين قاعدة كل عمود وبدنه لإيجاد مرونة تسمح بامتصاص الحركة الأفقية، مما يساعد على

---

[72] أنظر: عبد الله كامل موسى، تطور المئذنة بمدينة القاهرة من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي : دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الإسلامي، دكتوراه، كلية الآثارجامعة القاهرة، 1994

الحد من تشقق العقود ومن ثم القبة نفسها، والحقيقة كان من الواجب أن يكون جامع عمرو بن العاص هو الأسبق في استخدام هذا الأسلوب المعماري إلا أنه من الثابت أن الذي دفع المعمارى إلى هذه المعالجة هو دفع الرفس الناتج من التقاء مسارات البوائك العمودية للبلاطة الوسطى مع الاساكيب الموازية وهذا ما لم نجده في مخطط ظلة القبلة به.

واستكمالاً لهذه المعالجة حرص المعماري في المناطق التي يوجد بها دفع أفقي على أن يستند كل عقد بشكل مستقل على عمودين وإن اختلفت ارتفاعاتهما وعندما يتساوى ارتفاع الأعمدة وتيجانها تتلاطق العقود وعندئذ يتلاشى الدفع الأفقى لها. ولعل مما يثبت تفوق معمار جامع القيروان معالجته لبلاطه المحراب (المجاز القاطع) والتي تتميز بارتفاع سقفها عن بقية سقف ظلة القبلة حيث يستند سقفه إلى صفين من البائكات مستقلين عن تلك التي تحمل سقف الظلة وذلك لتأمين الفصل المعماري بين العناصر الحاملة لكل منها بحيث لا يؤثر أي منها في الآخر[73]. وهي نفس معالجة جامع الزيتونة بالقيروان[74]. واستكمالاً لفكرة الفصل المعماري بين الوحدات مراعاة لانتظام توزيع الاحمال في جامع القيروان فقد جعل المعماري صفوف العقود العمودية بظلة القبلة لا تصل إلى جدار القبلة وتقف عند اسكوب المحراب مما ساعد على أن يكون جدار القبلة مستقل عنها لا يؤثر على تماسكه أى دفع خارجي.

والحقيقة أن استخدام حزمة الأعمدة المتجاورة وجدت في ظلة قبلة الجامع الأزهر (359-361 هـ) بنفس استخدماتها ومواضعها بجامع القيروان (لوحة 23) كما وجدت بواجهة ظلة القبلة بمشهد الجيوشي (477 هـ) والأوسط التي تشرف به على الفناء على زوجين من الأعمدة الأسطوانية وهي نفس المعالجة بالرواق الذي يتقدم مشهد السيدة رقية (527 هـ) حيث تقوم عقود البائكة الثلاثية في الوسط على زوجين من الأعمدة كذلك الحال بالنسبة إلى القبة من الداخل حيث يستند العقدين الجانبين التي تفتح بها القاعة الوسطى على القاعتين الجانبين بزوجين من الأعمدة (شكل 14) وهي نفس المعالجة التي يمكن مشاهدتها في مشهد يحيى الشبيه (حوالي 545 هـ) (شكل15).

(ب) مجموعة الروافع والأوتار الخشبية

نتيجة لقصر الأعمدة المستخدمة في مسجد القيروان وعدم انتظام ارتفاعها، لجأ المعمارى إلى ابتكار مجموعة من العناصر المعمارية تمكن من خلالها من ضمان انتظام ارتفاعها حيث تبدأ هذه العناصر أعلى التاج بقرم خشبية (طبلية) في البداية ثم أصبحت حجرية في أعمال الأغالبة[75] بالمسجد وتساعد هذه الطبالى على توزيع الاحمال الواقعة على

---

[73] عثمان، ن. م.، ص 103.

[74] عثمان، ن. م.، شكل 15، لوحة 53.

[75] تساعد هذه القرم على تمييز عصرين للبناء. فقد كانت اعمدة المسجد تخلو في البداية من رؤوس استعاض عنها المعماري بطبالي أو قرم خشبية ثم أقاموا الحدارات عليها وفي أيام زيادة الله بن الأغلب اتبع المعماريين نفس الطريقة البنائية بعناصرها الثلاثة (قرمة والحدارة والطنف) إلا أنهم استبدلوا لوحات الخشب قرم حجرية وبالتالى يسهل تمييز فترتي البناء وهو نفسه الذي تبعه معمار ابراهيم بن الأغلب مع تسكية الطنوف بزخارف حجرية منحوته وهذه الحلية التي تميز عصر البناء الثالث في مسجد القيروان. فكرى، مسجد القيروان، ن. م.، ص 59-70.

العقود إلى الأعمدة بشكل متساو ومنتظم مع السماح بالحركة الأفقية الطفيفة للمنشأة وامتصاص الانتقالات التفاضلية البسيطة مما يساعد على جعل المنشاة مرنة ويحد من انهيار العقود، وذلك بالاضافة إلى حمل البناء الزائد الذي يكون بارزاً[76] (لوحة 22) ، ويعلو القرم حدارات (اكتاف) وهي عبارة عن مكعبات من الحجارة مستطيلة أو مربعة أحيانا أخرى يتراوح ارتفاعها ما بين ثلاثين وخمسين سنتميتر ويعلو الحدارات طنوف من الخشب او الحجر (لوحة 22) وقد نفذت حدارات جامع الأزهر من الحجارة وفي جامع الأقمر من ألواح خشبية واقتصر الأمر في مسجد الصالح طلائع على الطنف الخشبى أو الوسائد لأن أعمدته كانت مرتفعة اصلا كما وضعت لها قواعد من مكعبات حجرية مرتفعة ولهذا لم تكن هناك حاجة معمارية لتزويد الأعمدة بحدارات[77]. أما الحركة الأفقية للعقود الموادية والعمودية فقد استوعبها المعماري من خلال ربط أرجل العقود بأربطة (أوتار) خشبية لتساعد على امتصاص قوة رفس العقود (الحركة الأفقية)[78].

وهذه المعالجات التي اتبعها معمار جامع القيروان هي نفسها التي نفذت في مساجد القاهرة منذ العصر الفاطمي وخاصة تلك التي اتبعت في تخطيطها النمط العربي للمسجد (ذي الصحن والظلات) وارتكزت عقودها على أعمدة أو دعامات وإن اختلفت أحجام ومواد بناء مجموعة الروافع التي تعلو تيجان الأعمدة.

(ج) العقد المتجاوز (النصف دائرى والمدبب)

واستكمالاً لسلسة المعالجات التي إتبعها المعمار بجامع القيروان لتخفيف وتوزيع الاحمال إبتكار نوع من العقود يعرف بالعقد المتجاوز[79]، وذلك لغرض معماري حيث أن مقاومة العقد المتجاوز لإندفاع القوة الناشئة من انحنائها تفوق مقاومة العقد النصف دائرى وأن هذه القوة لا تندفع إلى خارج حدود العقد بل تساعد على تماسك أجزائه، مما يستغنى معه عن بناء دعامات ساندة من الخارج مع الاكتفاء بوصل رجلي العقد بوتر خشبي. كما أن ارتفاع العقد المتجاور يساعد على قلة ارتفاع الجدار الذي يعلوه وبالتالي تزداد قوة تحمّله، فضلاً عن الاقتصاد في مواد البناء هذا بالإضافة إلى أن الارتفاع الملحوظ للعقد المتجاوز يساعد على نفاذ أكبر كمية ممكنة من الإضاءة والتهوية إلى ظلة القبلة العميقة وساعد على ذلك أن جعل المعمار اتجاه العقود عمودي على جدار القبلة حتى لا يجد الضوء عائقاً في سبيله على هيئة ممرات للضوء تجاه جدار القبلة[80].

---

[76] ولفرد جوزف دللى، العمارة العربية بمصر في شرح المميزات البنائية الرئيسية للطراز العربى، ترجمة محمود احمد، القاهرة، 2000، ص 52.

[77] وقد استبدلت حالياً بقضبان حديدية. كريزول، الأثار الاسلاميه، ن. م.، ص 338.

[78] فكرى، مساجد القاهرة، ن. م.، ج 1، ص 152-153.

[79] وجد هذا النوع من العقود في البداية في عمائر بلاد الشام واسيا الصغرى وشبه القارة الهندية إلا أنها كانت بشكل منفرد ولا تتم إلا عند وظيفة زخرفية ولا تعبر عن فهم صحيح للمميزات البنائية والخصائص التي تتجمع في عقود مسجد القيروان. شافعي، ن. م.، ص 173، 203؛ الرماح، ن. م.، ص 115.

[80] فكرى، مسجد القيروان، ن. م.، ص 75-77.

وإلى جانب العقد المتجاوز المدبب وهو أحد نوعى العقد الحدوي[81] المستخدمين في جامع القيروان استخدم العقد الحدوي النصف دائري كما هو الحال في عقود ظلة القبلة ومدخل المئذنة ونوافذها الثلاثة بالواجهة الجنوبية والدخلات المصمتة بواجهات طابقها الثانى وكذلك عقود الظلة الغربية والشرقية والشمالية، ونظراً للأهمية المعمارية لهذا النوع من العقود فقد شاع استخدامه في المساجد الافريقية التي شيدت وفقاً لمدرسة القيروان المعمارية، حيث يشاهد في مساجد مدينة القيروان ومدينة تونس ومساجد مدينة سوسة، كما يحتل هذا العقد الصدارة في مساجد المغرب الأقصى[82].

وإلى جانب نوعى العقد الحدوي بجامع القيروان استخدم العقد المنكسر وإن كان ليس بنفس إنتشار استخدام العقد الأول، حيث إستخدمه المعمار في قبة البهو وإن تميز ضلعاه بعدم وضوح نقطة الإنكسار، وتميز العقد المستخدم بقبة المحراب بشدة إنكساره وباشتماله على أربعة محاور او مراكز، ويرجع الفضل لمدرسة القيروان المعمارية في الحفاظ على هذا النوع من العقود والذي يطلق عليه البعض "العقد المنكسر المتجاوز"[83] في الوقت الذي قل فيه استخدامه في المشرق الإسلامي.

وهكذا يلاحظ أن معماري جامع القيروان قد قام بتطوير استخدام العقد حدوة الفرس الذي جاء إليه من المشرق الاسلامى واستخدم بما يتوافق مع رغبته في توزيع الاحمال الواقعة عليه من السقف العلوي وكذلك تحقيق الارتفاع المطلوب لذلك السقف بما يسمح بنفاذ اكبر قدر ممكن من الإضاءة والتهوية للظلات العميقة، وبعد نجاح استخدام هذا العقد معمارياً بجامع القيروان انتقل استخدامه خارج مدينة القيروان ليستخدم في معظم عمائر افريقية والمغرب الأقصى، كما امتد تأثيره شرقاً ليصل إلى مصر، ويظهر في عمائر مدينة القاهرة منذ العصر الفاطمي وإن أقيم العقد على أرجل طويلة وذلك بسبب الرغبة في زيادة ارتفاعه سواء أكان قائماً على أعمدة أم دعامات وهي نفس الطريقة التي اتبعها معمار جامع القيروان الذي أضاف حدارات (عضائد) أعلى الأعمدة لزيادة ارتفاعها وبالتالى السقف العلوي. ويكاد لا تخلو منشأة دينية فاطمية باقية بمدينة القاهرة من استخدام هذا النوع من العقود المنكسرة المتطاوله وهو الذي أطلق عليه البعض العقد الفاطمى المتطاول[84] والذي استمر استخدامه في عمائر الايوبيين الدينية والجنائزية الباقية بمدينة القاهرة في أكثر من موضع وذلك بغرض معمارى أو زخرفي، كما شاع استخدام العقد الحدوى النصف دائرى في عمائر القاهرة الدينية المملوكية فيشاهد على سبيل المثال يتوج مدخل مجموعة قلاوون بالنحاسين (683-684 هـ) ويتوج النافذة التوأمية بمئذنتها، كما استخدمه معمار السلطان لاجين السيفي في أعماله المعمارية بجامع أحمد بن طولون سنة 696 هـ حيث يشاهد يحمل المعبرة التي تصل المئذنة

---

[81] ظهر هذا العقد في بلاطه المحراب وقبة البهو بالإضافة إلى استخدامه في أكثر من موضع في المسجد. وانظر: دوللى، ن. م.، ص 17-20؛ الألفي، الفن الإسلامي، ن. م.، ص 135.

[82] الكحلاوى، مساجد المغرب، ن. م.، ص 395.

[83] الرماح، ن. م.، ص 115.

[84] الريحاوى، مظاهر التجديد، ن. م.، ج1، ص 332- 333.

بسقف الجامع وكذلك يتوج النافذة التوأمية بقاعدة المئذنة، كما يشاهد هذا العقد بقبة قراسنقر المنصورى بالجمالية (700 هـ) وبقبة على بدر القرافي (700-710 هـ) وبمئذنة خانقاه سلار وسنجر الجاولى (703 هـ) وبرقبة قبة مسجد حسن صدقة (715 هـ) وبالقبة الملحقة بمئذنة سنقر السعدي بالسيوفية (715-721 هـ) ويتوج نافذة توأمية بقبة أبو اليوسفين بالتبانة (730 هـ) وبالقبة الملحقة بجامع ألماس الحاجب بالحلمية (729-730هـ).

خامساً العناصر الزخرفية

أ- الحنايا المحارية أو المشعة

تميز جامع القيروان باستخدام عنصر زخرفي كان له تأثيره الواضح على زخارف عمائر القاهرة الدينية، وهو عنصر الحنايا المحارية أو المشعة والتي تأخذ هيئة ضلوع بارزة تنطلق من شكل جامة زخرفية في منتصف الوحدة التي تضم هذه الزخرفة، وقد استخدم هذا العنصر في تشكيل بواطن الحنايا الأربعة بمنطقة انتقال قبة محراب جامع القيروان (شكل 11، 12، لوحة 24) حيث تتكون كلّ حنية من تسعة فصوص أو أضلاع تنطلق من حنية أخرى صغيرة تعلو مربع القبة كما تشكلت بعض طواقي الدخلات النافذة والمصمتة التي تتخلل رقبة القبة على هيئة محارية وكذلك ببعض الحشوات الرخامية للمحراب (لوحة 25)، وشاع استخدام هذا العنصر في زخرفة مناطق انتقال القباب التي شيدت بأفريقية وفقا لنموذج جامع القيروان مثل قبة محراب جامع الزيتونة (250هـ) وقبة البهو (381هـ)[85]، وفي أعلى كوشات عقود بلاطة المحراب، ثم انتقل استخدام هذا العنصر من مناطق الانتقال لتزين به طواقي المحاريب وأصبحت سمة مميزة لمحاريب المغرب الإسلامى بشكل عام[86].

وإذا كان هذا العنصر قد توّج الحنايا المحصورة بين نوافذ واجهات جامع أحمد بن طولون (463 هـ)[87] والتي تأخذ هيئة أربعة فصوص يفصل بينهما أربعة تجاويف مثلثة الشكل على هيئة الوريدة متعددة البتلات والذي يعتبر استخدامه من التأثيرات المشرقية العباسية والتي لها أصول ساسانية وبيزنطية[88]، فإنّ استخدامه في عمائر مدينة القاهرة جاء بتأثير وافد مع الفاطميين سواء من حيث الشكل المفصص الذي يتوافق مع الأشكال المحارية في القيروان

---

[85] عبد العزيز الدولاتلى، الزيتونه عشرة قرون من الفن المعمارى التونسي، تونس، 2002، لوحات 57، 85، 85، 87.

[86] مثل محراب دار شعبان قرب نابل، محراب مسجد الدار بالمنستير، محراب جامع المهدية، محراب جامع القصر بتونس، محراب جامع بلده تستور، محراب جامع سيد عقبة بالجزائر، محراب مسجد السيدة بالمنستير، محراب الجامع الكبير بالمنستير. عن الدراسة التفصيلية هذه المحاريب أنظر سليمان مصطفي رئيس، "المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب الإسلامى"، في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس مايو 1953، القاهرة، 1955، ص553-572.

[87] شافعي، ن. م.، ص 457، شكل 297.

[88] شافعي. ن. م.، ص 421- 413 والتي ربما تكون تطور لشكل الوريد الثلاثية أو الخماسية التي كانت تتشكل منها بعض طواقي جامع عمر بن العاص من اعمال عبد الله بن طاهر (212 هـ): شافعي ، ن. م.، شكل 212، 214، كما يضم المتحف القبطي عدد من الحنايا الحجرية التي تتوج بحنايا محارية غير عميقة ترجع إلى القرنين 5 و5 من أديره وكنائس قبطية.

وفي عمائر المغرب الإسلامي أو من حيث المواضع التي استخدمت فيها مع إدخال بعض التطورات عليها من حيث الشكل والمواضع التي تستخدم فيها.

وكان أول استخدام في عمائر القاهرة لهذا العنصر في أعمال بدر الجمالي بالسور الجنوبى لمدينة القاهرة سنة 485 هـ (شكل 25) حيث تشكلت به باطن حنيتين بصدر الدخلة على يمين الداخل بدركاه باب زويله حيث تتكون العليا منها من إحدى عشر ضلعاً والسفلية من عشرة أضلاع بنفس هيئة حنايا جامع القيروان (لوحة24) كما استخدم هذا العنصر في زخرفة واجهة جامع الأقمر سنة 519 هـ (شكل 26، لوحة 26-أ، ب) والذي تناوله الفنان بشكل متطور ودقيق حتى أنه أصبح أكبر حجماً وتنوع في أشكاله[89] وأصبح قريب الشبه بقرص الشمس حيث جعل الفنان الاضلاع المشعة تخرج من دائرة وسطى تمثل الشمس شغلت هي نفسها ببعض الكلمات والزخارف النباتية كما ينتهي كل زراع من الأشعة التسعة بمقرنص وهو يعتبر اضافة مصرية لهذا العنصر الزخرفي، كما استخدام هذا العنصر الزخرفي في تزيين دخلات واجهة جامع الصالح طلائع (555 هـ) بالدخلات التي تزين واجهات الظلات الأربعة المحيطة بالصحن.

على أن أبرز الوحدات التي شاع استخدام هذا العنصر الزخرفي في تزيينها هي المحاريب الفاطمية حيث زينت طواقى المحاريب بأشكال محارية والتي كانت الأصل الذي تطورت عنه اشكال المحارات الشمسية[90]، وتعتبر المحاريب الثلاثة بمسجد دير سانت كاترين بسيناء (419-433 هـ) أقدم نماذج المحاريب التي زينت طواقيها بهيئة محارية[91]، وانتشرت بعد ذلك في بقية المحاريب الفاطمية كما هو الحال في المحراب الأوسط لمشهد السيدة أم كلثوم (516 هـ) (شكل 27) والتي تضم طاقيته تسعة أضلاع تنطلق من صرة زخرفية بارزة تشكل نهاياتها هيئة عقد مفصص، وهي تضم ضلوع مثلثة تذكرنا بحنايا جامع بن طولون بمعالجة تتوافق مع كبر المساحة والتطور الفني الذي تم على هذا العنصر في العصر الفاطمي. كذلك بالمحاريب الخمسة لمشهد السيدة رقية (527 هـ) حيث يتخلل المحراب الداخلى الشرقى والجنوبى تسعة أضلاع يزينها زخارف نباتية وهندسية محفورة في حين يتخلل المحراب الأصلى الداخلى ستة عشر ضلع تنطلق من جامة مستديرة في الوسط ويزين الأضلاع زخارف نباتية وهندسية أيضا أما المحريان الجانبيان بالواجهة الشمالية الغربية فيضم كل منهما ثلاثة عشر ضلعاً. وضم محراب مشهد الحصواتى (520- 545 هـ) والمحاريب الستة بمشهد يحيى الشبيه (545 هـ) تضليعات متباينة العدد تتراوح من 13 إلى 15ضلع.

وهكذا رأينا شيوع استخدام هذا العنصر الزخرفي في العمائر الدينية الفاطمية في أكثر من موضع ولم يقتصر استخدامه على تزيين حنايا منطقة انتقال القباب، كما كان

---

[89] أنظر:

Riviora (G.), *Moslim Architectres its origins and development*, Oxford, 1918, p. 178.

[90] فكرى، مساجد القاهرة، ن.م.، ج1 ، ص 150.

[91] عاصم محمد رزق، "المحاريب الفاطمية في جوامع القاهرة ومساجدها"، في مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود، المجلد 11، العدد الأول، الرياض 1984، ص 14- 15.

عليه الحال في جامع القيروان، واقبال الفاطميين على استخدام العناصر المشعة في عمائرهم بالقاهرة بهذه الكثرة قد يرجع إلى ارتباطه بالعقيدة الاسماعيلية للفاطميين من خلال فكرة الإشراق التي كان يتصف بها الأئمة منهم وأنهم بدور الظلام وأنوار الدين وينابيع النور وسراج الظلمة وضياء المصابيح وذوى الأنوار الزاهرة فالدائرة الداخلية المركزية هي الأمام وتمثل الأضلاع التي تخرج منها أشعة الشمس التي يزداد حجمها كلما اتجهنا إلى الخارج[92].

واستمر استخدام الأشكال المحارية بما أدخله المعمارى المصرى في العصر الفاطمى من إضافات في عمائر القاهرة الأيوبية التي منها على سبيل المثال واجهات منطقة انتقال قبة الامام الشافعى (608 هـ) وواجهة مدخلى ومئذنة المدارس الصالحية (639-641 هـ) (شكل 28) وبواجهات ضريح الخلفاء العباسيين وطاقية محرابه الداخلى (640 هـ) وكذلك بواجهات وطاقية محراب ضريح شجر الدر (648 هـ). كما أصبحت الحنايا المحارية أو المشعة سمة رئيسية في زخارف عمائر القاهرة الدينية في العصر المملوكى حيث تعددت المواضع التي استخدمت فيها هذا العنصر فيشاهد على الواجهات الخارجية والتي منها على سبيل المثال واجهة منشأة زين الدين يوسف بشارع القادرية (697 هـ) وبالواجهة الرئيسية لمسجد أحمد المهمندار بالتبانة (725 هـ)، كذلك شاع استخدام الاشكال المحارية في تزيين طوابق المآذن والتي منها على سبيل المثال في قاعدة مآذنة سلاروسنجر الجاولي (703 هـ) وبقاعدة مئذنة خانقاه بيبرس الجاشنكير (706-709 هـ) وبقاعدة مئذنة سنقر السعدي (715-721 هـ) وبالطابق الأول المثمن بمئذنة أيدمر البهلوان (747 هـ).

(ب) العقد المفصص أو المقصوص

إلى جانب العقد الحدوى بنوعيه تأثرت العمارة الدينية بمدينة القاهرة بنوع أخر من العقود التي تميز بها جامع القيروان ومدرسته وهو العقد المفصص، والذي يتكون من سلسلة من عقود صغيرة أو أقواس متتالية[93]، وهو من التأثيرات المشرقية على جامع القيروان[94] وقد تطورت وتعددت أشكالها وأصبحت من العناصر المميزة الحنيات المعمارية لمدرسة القيروان المعمارية فقد استخدم في أواسط منطقة انتقال قبة المحراب بجامع القيروان (شكل 11، 12، لوحة 5) كما أن واجهة الحنايا الأربعة لمنطقة الانتقال المحارية تأخذ هيئة عقود مفصصة (لوحة 5، 24).

ومن القيروان التي نبتت فيها الدولة الفاطمية جاء تأثير العقد المفصص إلى مصر وتطور على أيدى صناعها[95] فظهر منه أشكال مختلفة منها العقد المفصص الوسائدي وعقد مفصص على هيئة نتوءات متدرجة تنتهي برأس دائري وعقد مفصص يأخذ التفصيص هيئة أقواس

---

[92] مرسى، ن. م.، ص 233.

[93] الألفي، ن. م.، ص 135.

[94] شافعي، ن. م.، ص 180-181.

[95] ويرى البعض نسبة هذا العقد إلى تأثير أندلسي. السيد عبد العزيز سالم، "من جديد حول التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية"، في مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد 21، 1981-1982، ص 34.

صغيرة، وعقد مفصص محاري أو إشعاعي حيث يمتد التفصيص إلى حشوة العقد أو طبلته وتنطلق الأشعة من حشوة مركزية وكأنها عين الشمس[96].

والواقع أن هذا العقد شاع استخدامه في عمائر مدينة القاهرة لأغراض زخرفية لا سيما في المحاريب والنوافذ والمحاريب المسطحة حيث يشاهد هذا العقد على سبيل المثال في عقد طاقية المحراب الأوسط لمشهد السيدة أم كلثوم (516هـ) (شكل 27) والذي يتألف من انصاف دوائر تتعاقب مع مثلثات تعتبر ترديد للأخاديد المضلعة لباطن تجويف طاقية المحراب كذلك عقود طواقي المحاريب الخمسة بمشهد السيدة رقية (527 هـ)، كذلك عقد طاقية محراب مشهد الحصواتى (520-545 هـ) وعقود طواقي المحاريب الستة بمشهد يحيى الشبيه (545 هـ)، واستمر استخدام هذا العقد لأغراض زخرفية خلال العصرين الأيوبي والمملوكي حيث وجد في إحدى النوافذ الباقية بالمدرسة الكاملية (622 هـ)[97]، كما تشاهد العناصر المفصصة في مئذنة المشهد الحسينى (634 هـ)، كذلك تحيط بعقد المدخل الجنوبى الشرقي بجامع الظاهر بيبرس البندقدارى (665-667 هـ) وكذلك بإحدى نوافذ الواجهة الشمالية الغربية[98]، وبجوسق كل من مئذنة جامع الأمير شيخو (750 هـ) وخانقاه الأمير شيخو (756 هـ) كذلك يحدد العقد النصف دائرى الدخلات المحيطة بصحن مسجد سلاروسنجر (703 هـ) وبالواجهة الجنوبية الغربية لقاعدة مئذنته، وكذلك بالقسم العلوي لمحراب مسجد الأمير حسين (719 هـ) وفي نفس الموضع بمسجد الجمالى يوسف (758 هـ) وغير ذلك من المنشآت التي تتعدد فيها المواضع التي استخدم فيها هذا العقد الزخرفي.

(ج)البائكة الزخرفية

تميز جامع القيروان باشتماله على نموذج مبكر لأحد العناصر الزخرفية ذات الأصول المشرقية والتي كان لها تأثيرها على عمائر مدينة القاهرة الدينية وهو عنصر البائكة الزخرفية حيث يزين الفراغ الذي يعلو عقد مدخل المقصورة القديمة إفريز حجري بارز يأخذ هيئة بائكة نفذت بالحفر البارز (شكل 29) ، كما يزين القسم الذي يعلو عقد المحراب ايضاً بائكة تستند عقودها المختلفة الارتفاع على اعمدة رخامية مدمجة (لوحة 27) ، كما يزين ضلعي البلاطة الوسطى للجامع ايضا ببائكة زخرفية، كما تشاهد هذه الزخرفة ايضاً في القسم العلوي للمئذنة (لوحة 18)، واذا كانت هذه الزخرفة لها اصول شرقية حيث وجدت بالقسم العلوي بباب بغداد بالرقة[99] وفي الجدران بالفناء الاوسط بقصر الاخيضر. ويبدو ان هذه الزخرفة قد اقتبست من العمارة الساسانية اذ توجد أمثلة لها في واجهة طاق كسرى وفي قصري فيروز ابادي وسرفستان وغير ذلك، واختفت هذه الزخرفة فترة من الوقت ثم عادت الى

---

[96] الريحاوي، "مظاهر التجديد"، ن.م.، ص 333.

[97] Shafii, *Op. cit.*, p.15.

[98] Shafii, *Op. cit.*, p. 29.

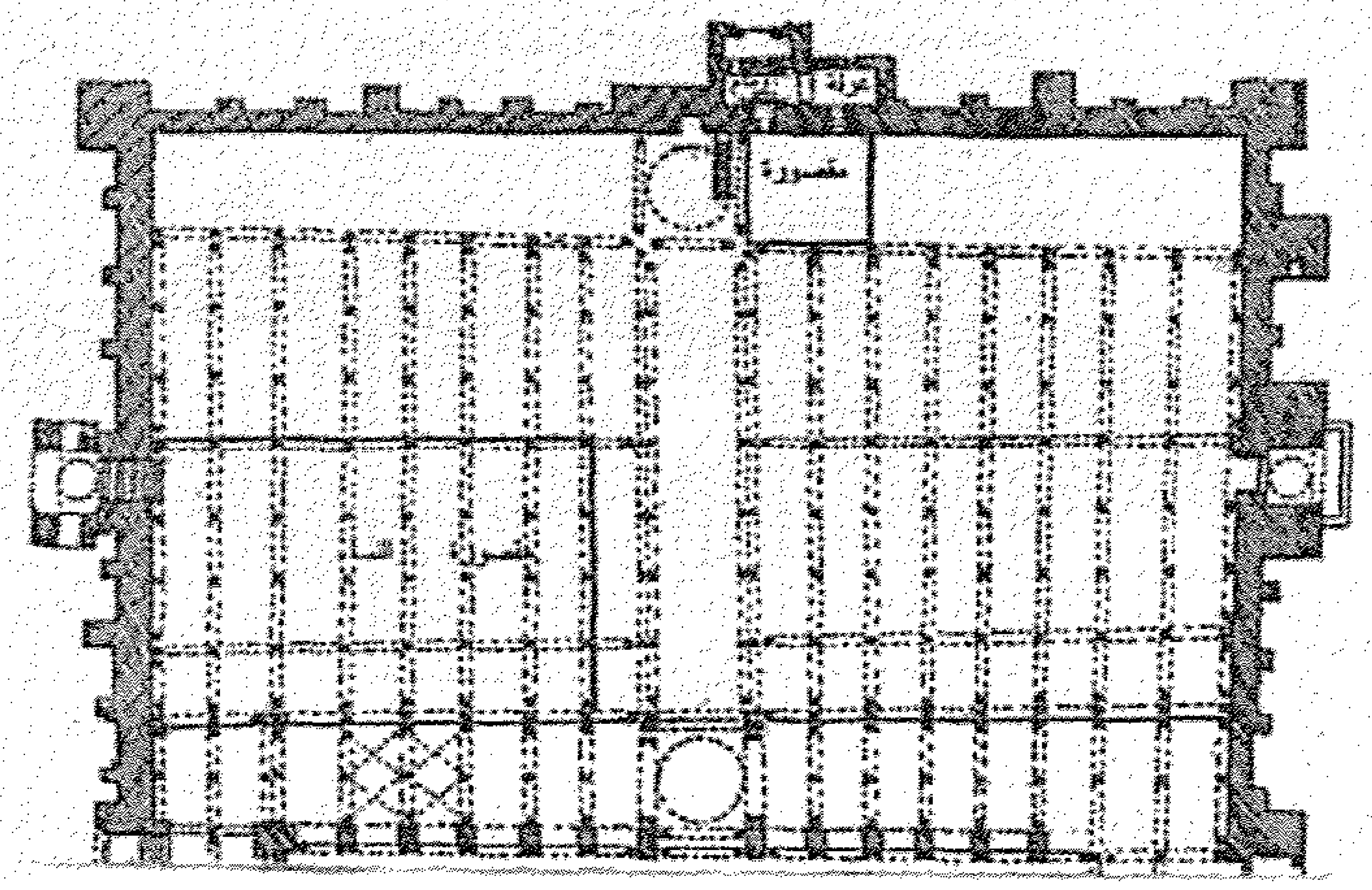
[99] كامل حيدر، العمارة العربية الاسلامية (الخصائص التخطيطية للمقرنصات)، بيروت، 1994، ص 20، مخطط 4.

الظهور بعد ان اكتسبت طابعاً عربياً وإسلامياً ناضجاً في بعض العمائر الفاطمية وذلك بتأثير قيرواني حيث انه ليس من الضروري ان يكون ظهورها في مصر استمراراً لوجودها في العصر العباسي بالعراق[100].

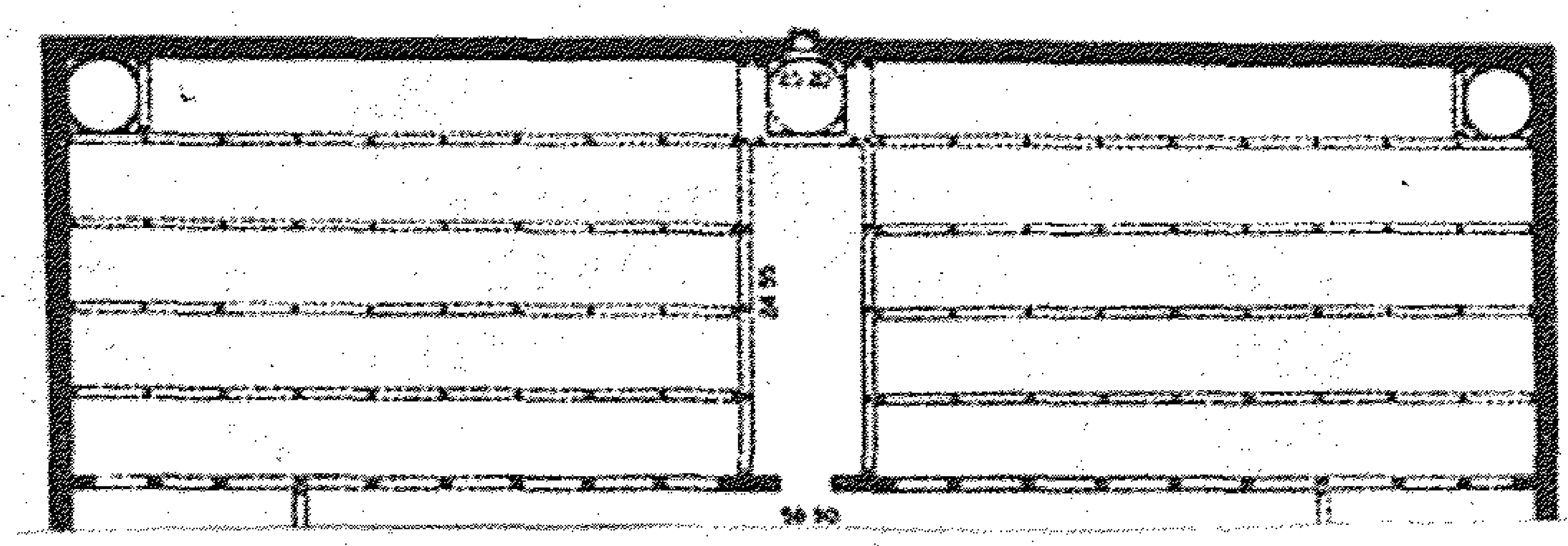
وهذه الزخرفة نفذت في اكثر من موضع بعمائر مدينة القاهرة الدينية بنفس هيئتها القيروانية كما هو الحال في تلك البائكة الزخرفية المنحوتة في الحجر تتوج الطابق الاول المربع لمئذنة المنصور قلاوون (684 هـ) (لوحة 21) وبنفس الموضع بمئذنة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (703 هـ) (لوحة 28) وغير ذلك من الامثلة، كما نفذت هذه الزخرفة بهيئة صف من حنايا المحاريب على هيئة بائكة كما هو الحال في القسم العلوي لواجهة المحراب الاوسط لمشهد السيدة ام كلثوم (516 هـ)، حيث يزين باطار زخرفي نفذ على هيئة بائكة مسطحة تشبه حنايا المحاريب وهذه الزخرفة التي شاعت في العمارة الفاطمية هو تقليد سار على نهجه بعد ذلك المعمار المصري في العصر المملوكي وصار صف المحاريب الزخرفية المسطحة سمة مهمة في زخارف العمارة المملوكية حيث تشاهد في اكثر من موضع مثل زخرفة المحاريب والتي منها على سبيل المثال محراب قبة سنجر الجاولي (703 هـ) ومحراب المدرسة الطيبرسيه (709 هـ) ومحراب المدرسة الاقبغاويه الملحقة بالأزهر (704 هـ) ومحراب مدرسة السلطان حسن (764 هـ) (لوحة 29) وغير ذلك من الأمثلة التي استخدام فيها هذا العنصر الزخرفي. اما فيما يتعلق بالعناصر الزخرفية النباتية والهندسية والكتابية لمدرسة القيروان فقد تناولتها العديد من الدراسات المتخصصة بشكل مفصل.

---

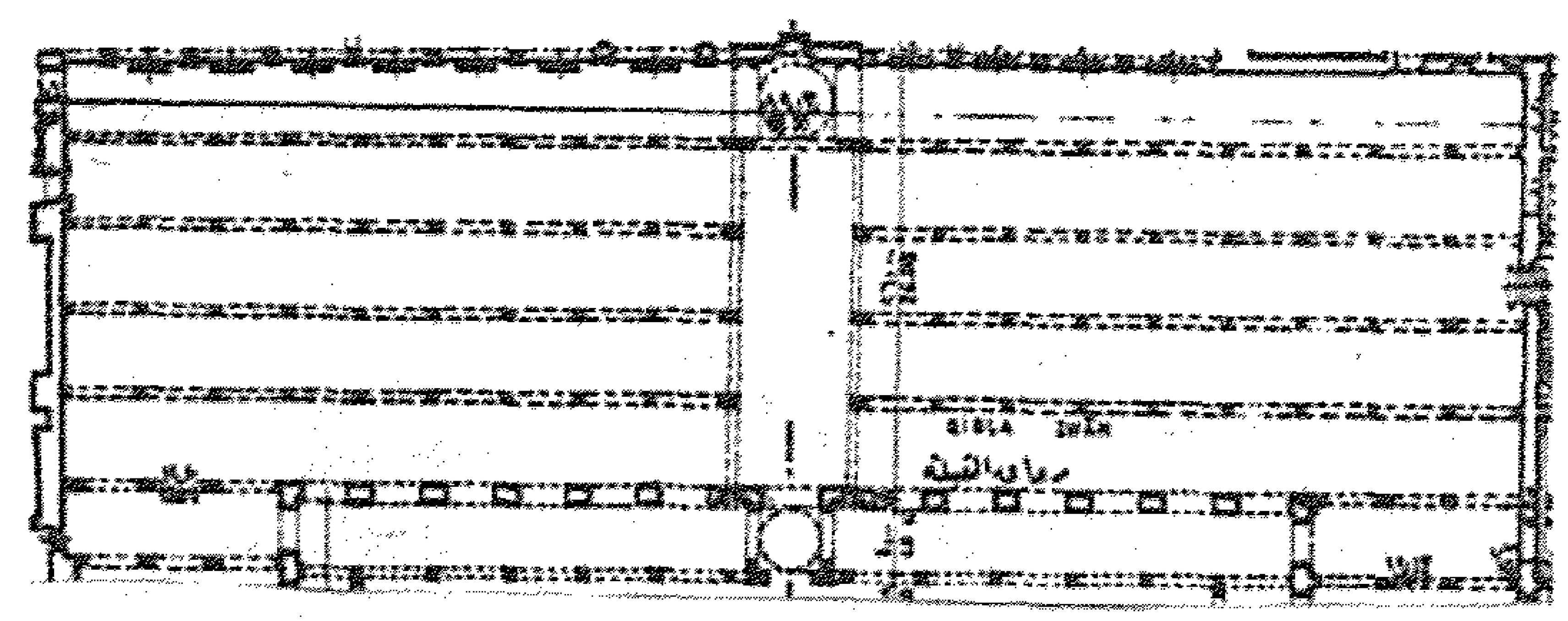
[100] شافعي، ن. م.، ص 213-214.



شكل (١) مسقط افقي لظله قبلة جامع القيروان (عن نجوى عثمان)

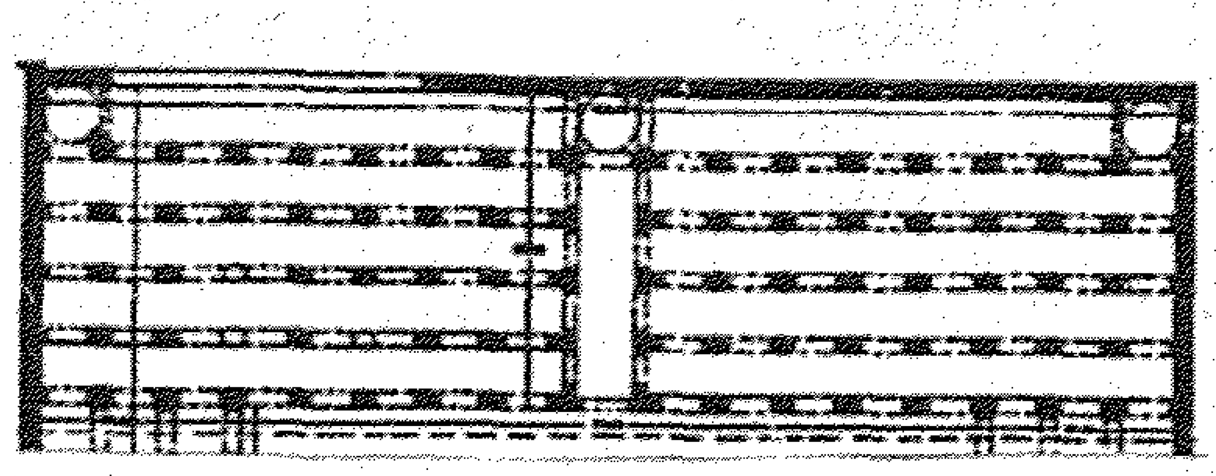


شكل (٢) مسقط افقي لظله قبلة جامع الأزهر عند التأسيس (عن كريزول)

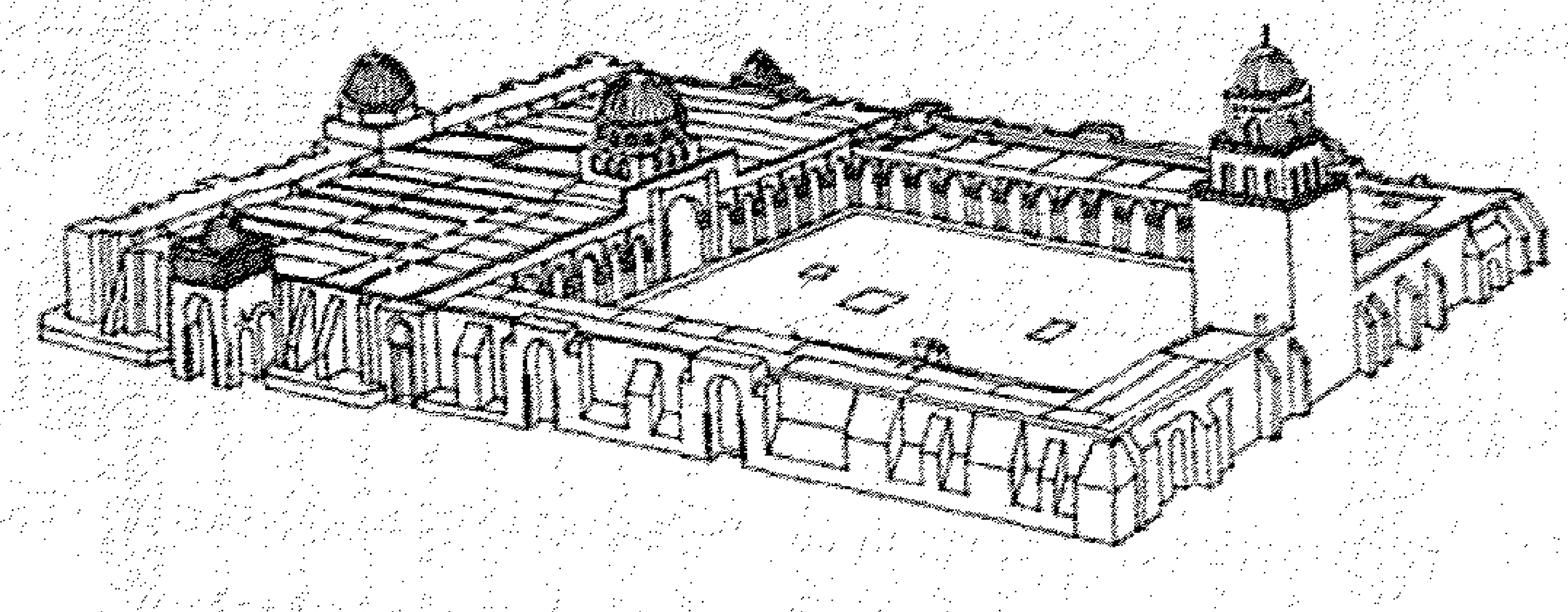


شكل (٣) مسقط افقي لظله قبلة الجامع الأزهر بعد إضافة الخليفة الحافظ

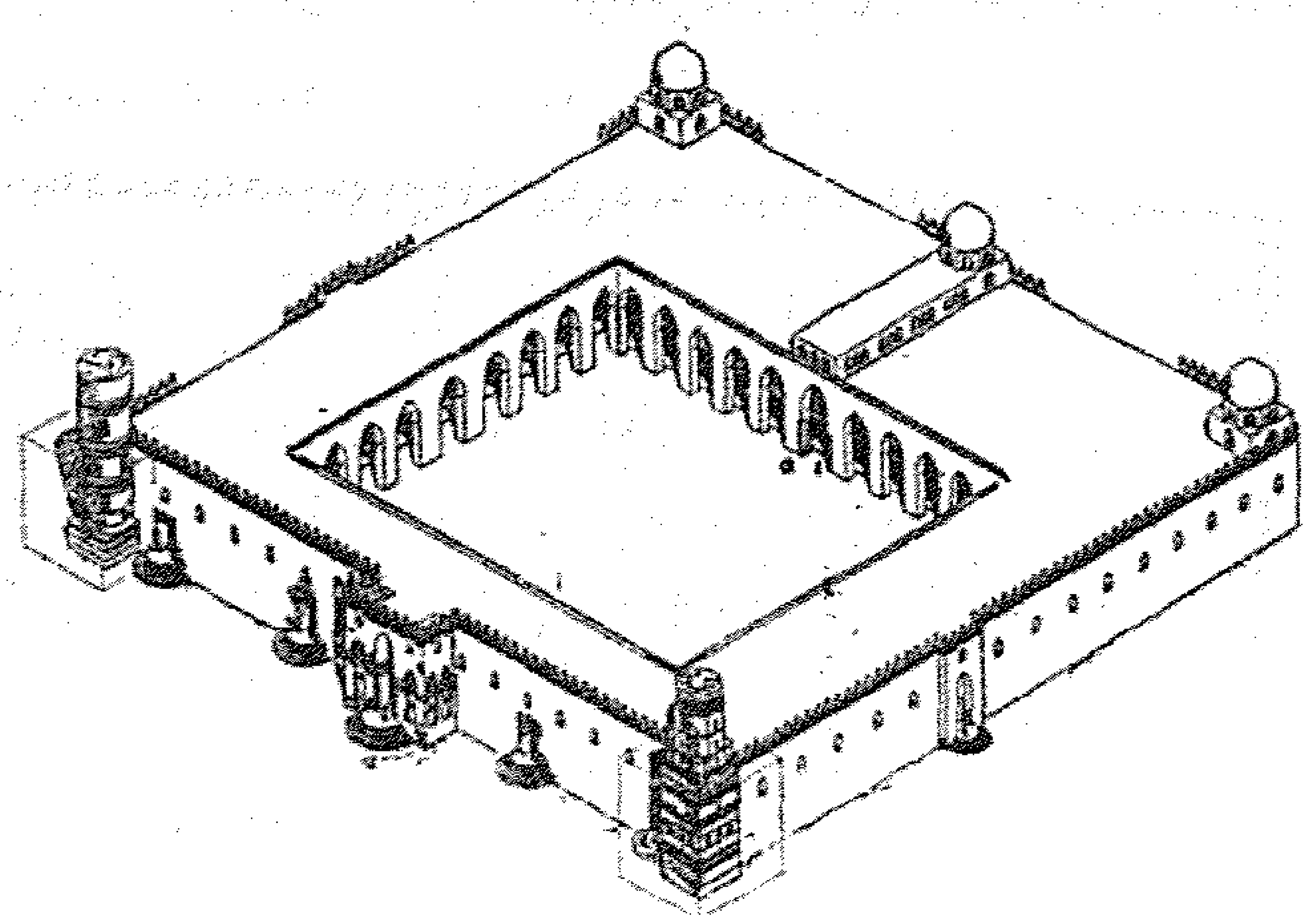
(عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



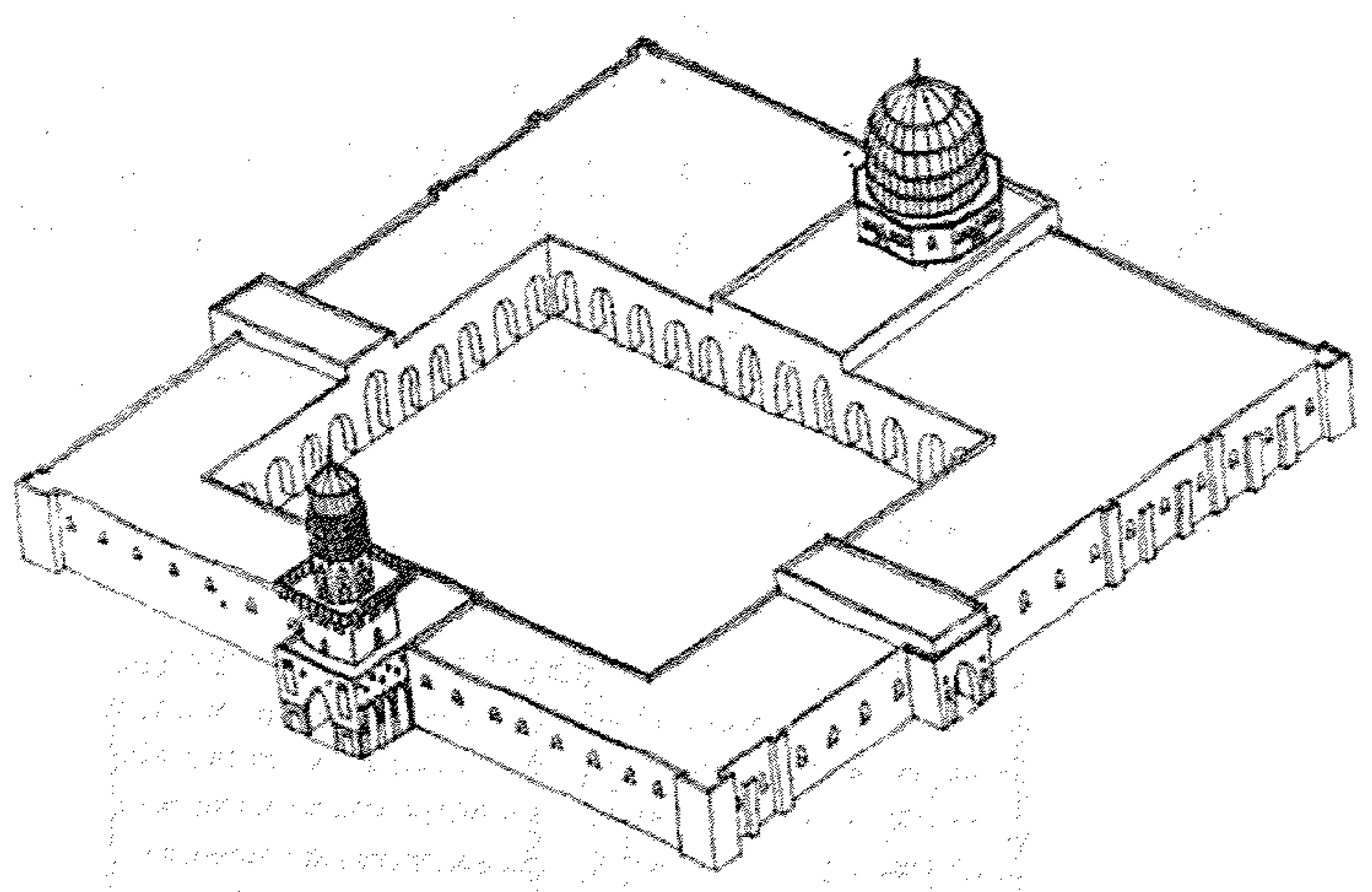
شكل (٤) مسقط افقي لظله قبلة جامع الحاكم بأمر الله (عن كريزول)



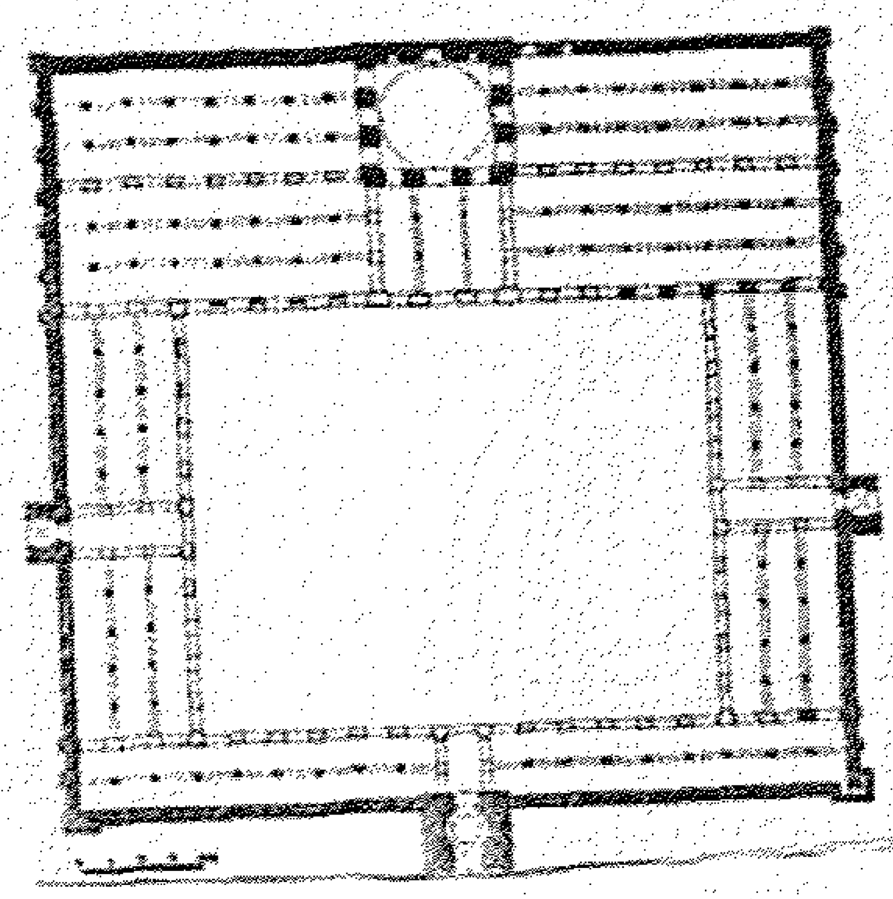
شكل (٥) منظور لجامع القيروان (عن هلينبراند)



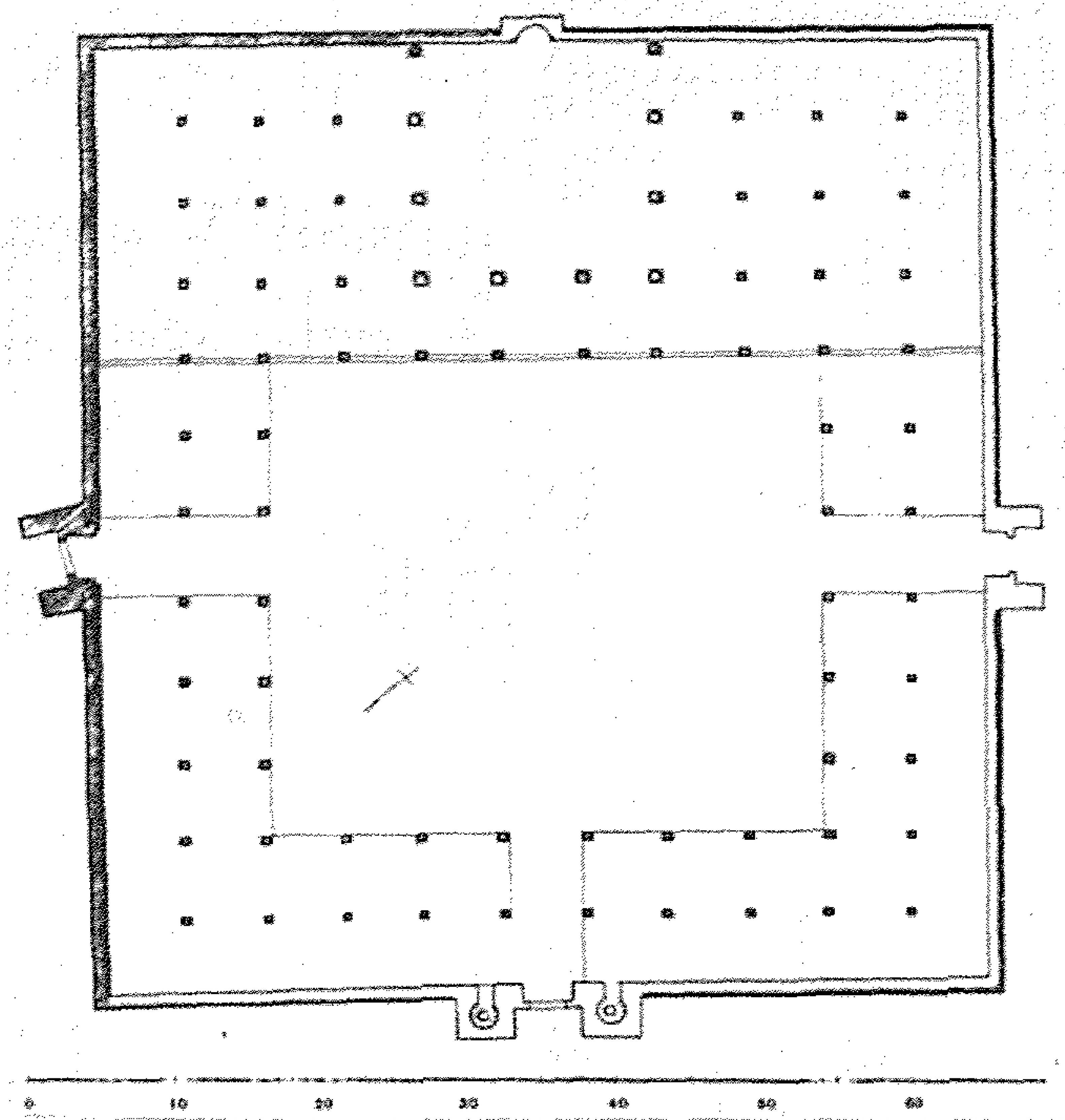
شكل (٦) منظور لجامع الحاكم بأمر الله (عن كريزول)



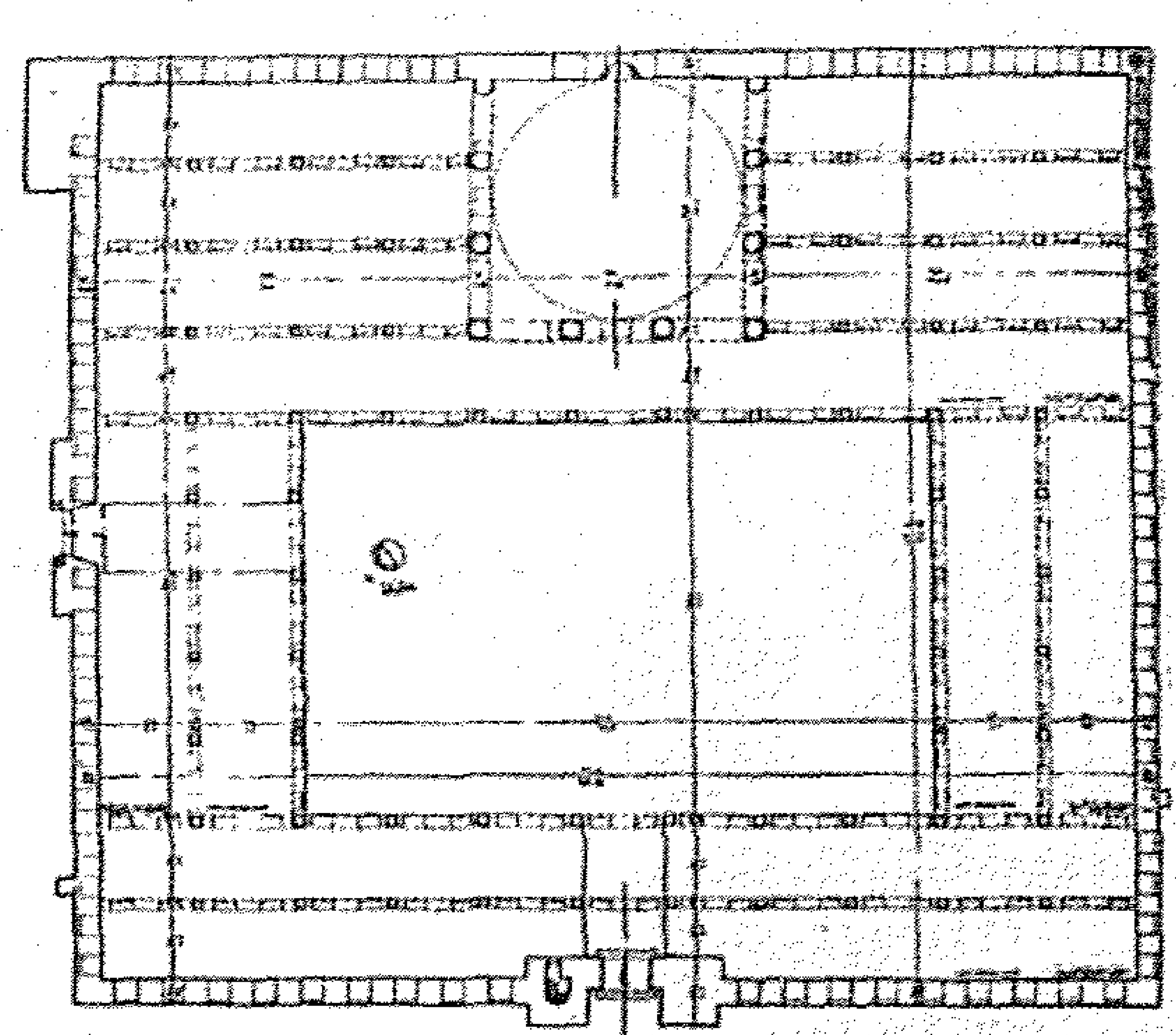
شكل (٧) منظور لجامع الظاهر بيبرس البندقداري (عن هلينبراند)



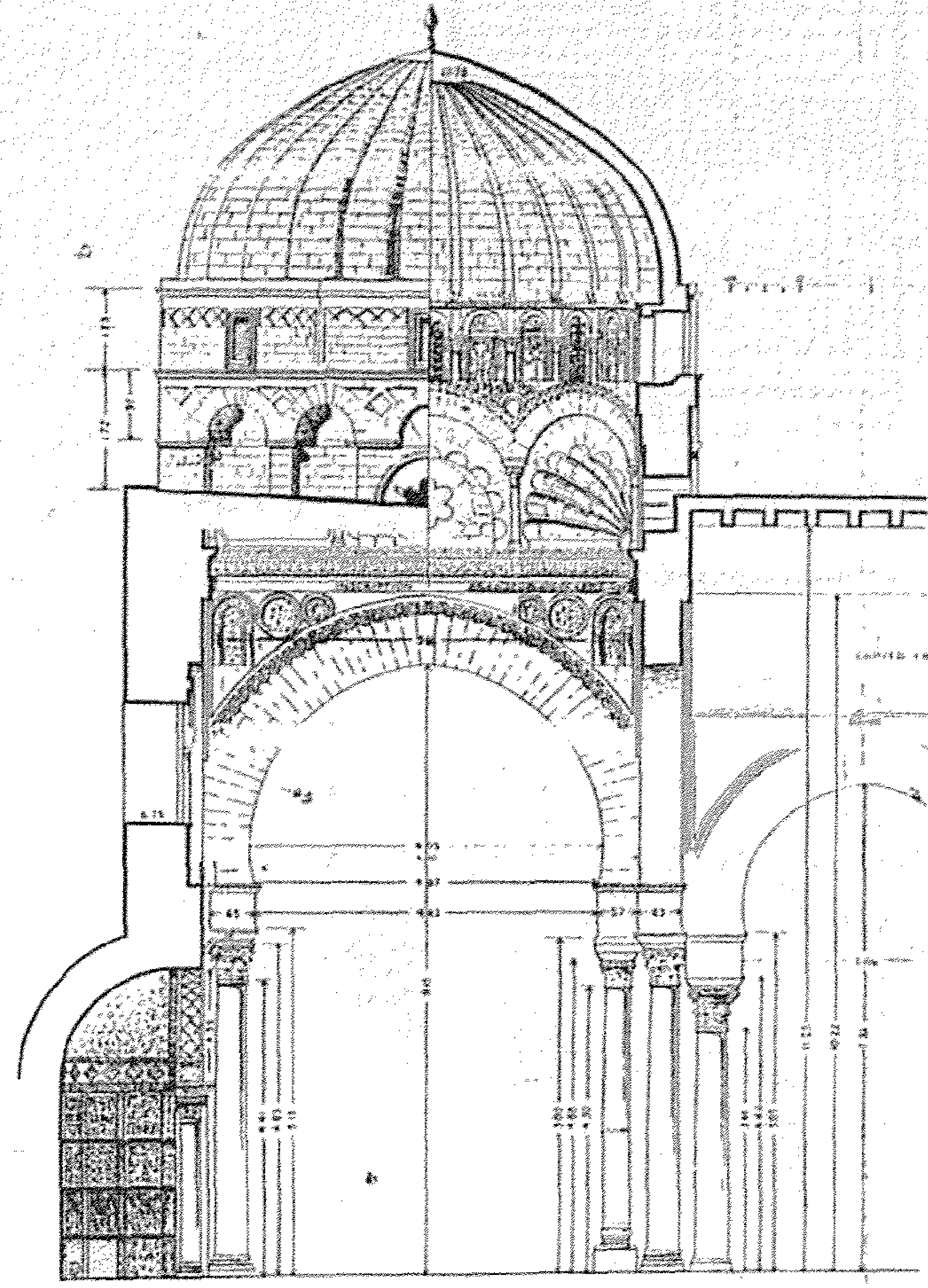
شكل (٨) مسقط أفقي لجامع الظاهر بيبرس البندقداري(عن هلينبراند)



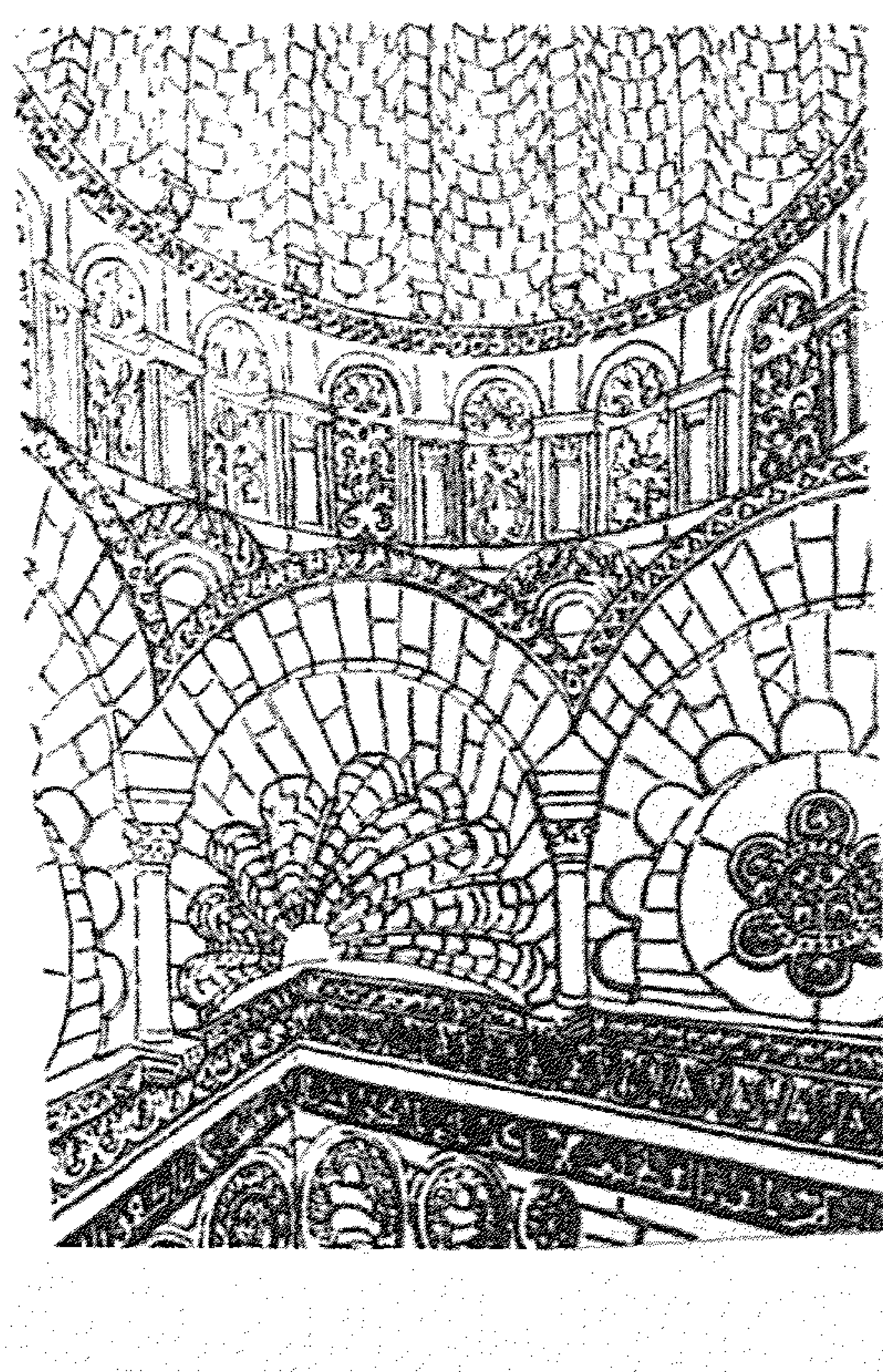
شكل (٩) مسقط أفقي لجامع قوصون بالناصرية (عن ماينكه)



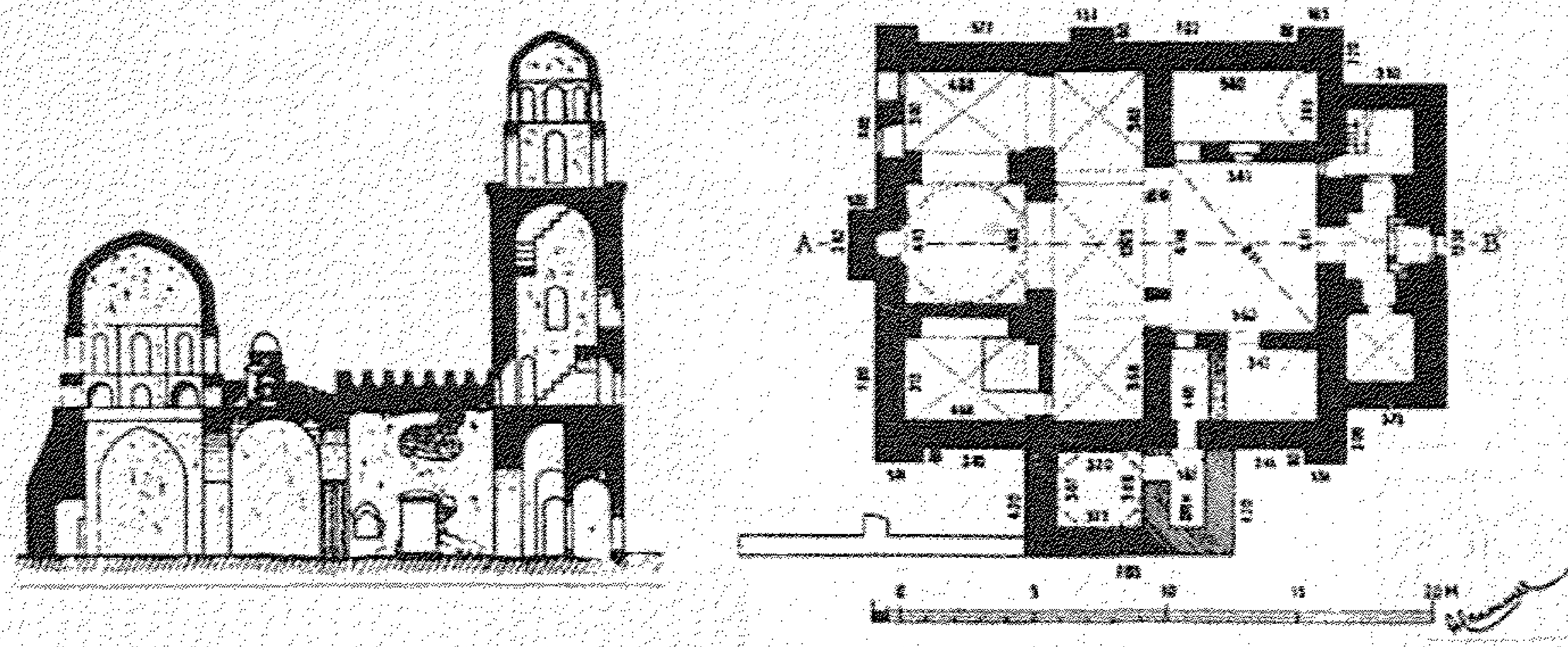
شكل (١٠) مسقط أفقي لجامع الناصر محمد بالقلعة (عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



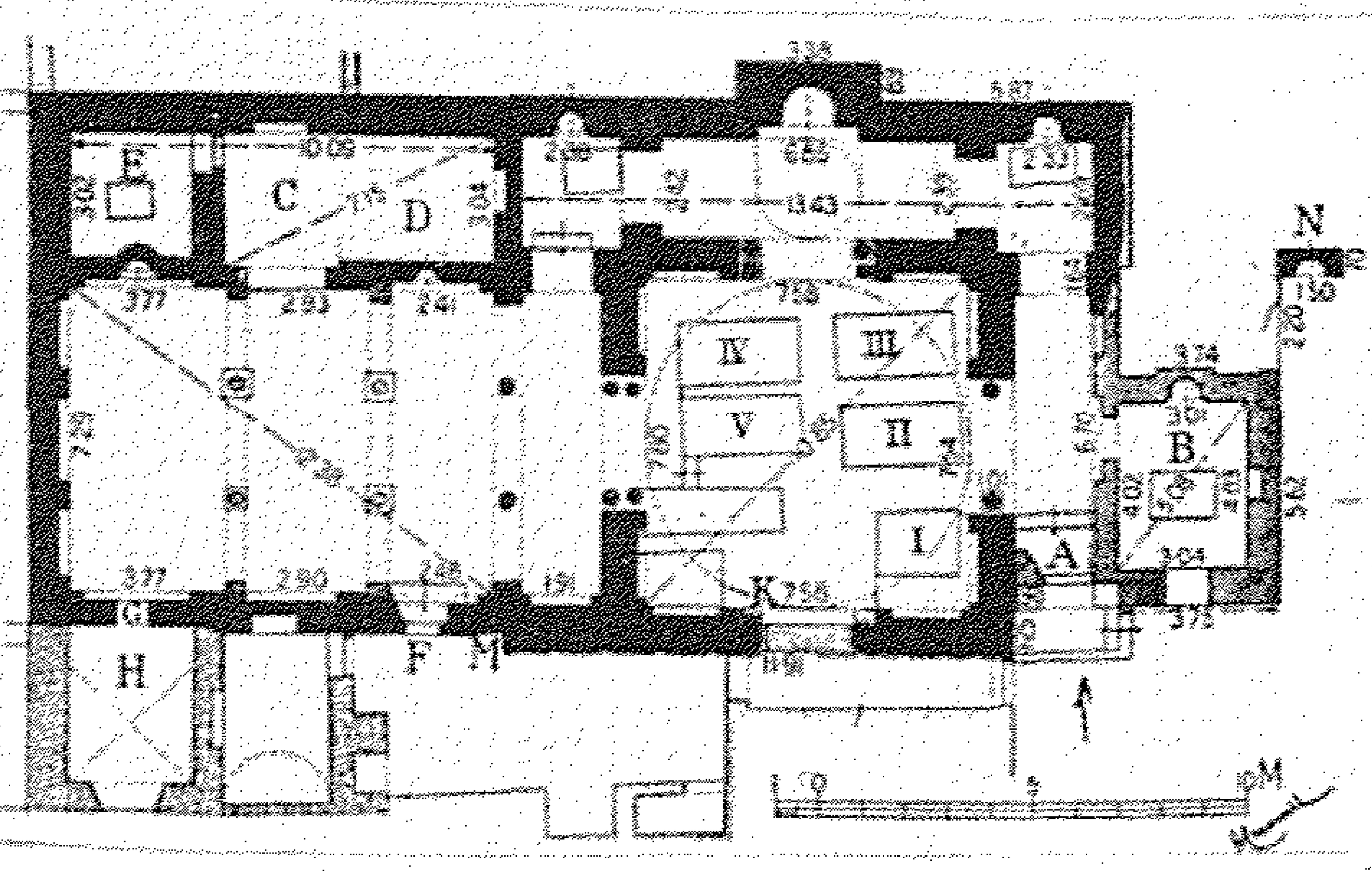
شكل (١١) قطاع منظوري لقبة محراب جامع القيروان (عن Christian ewert)



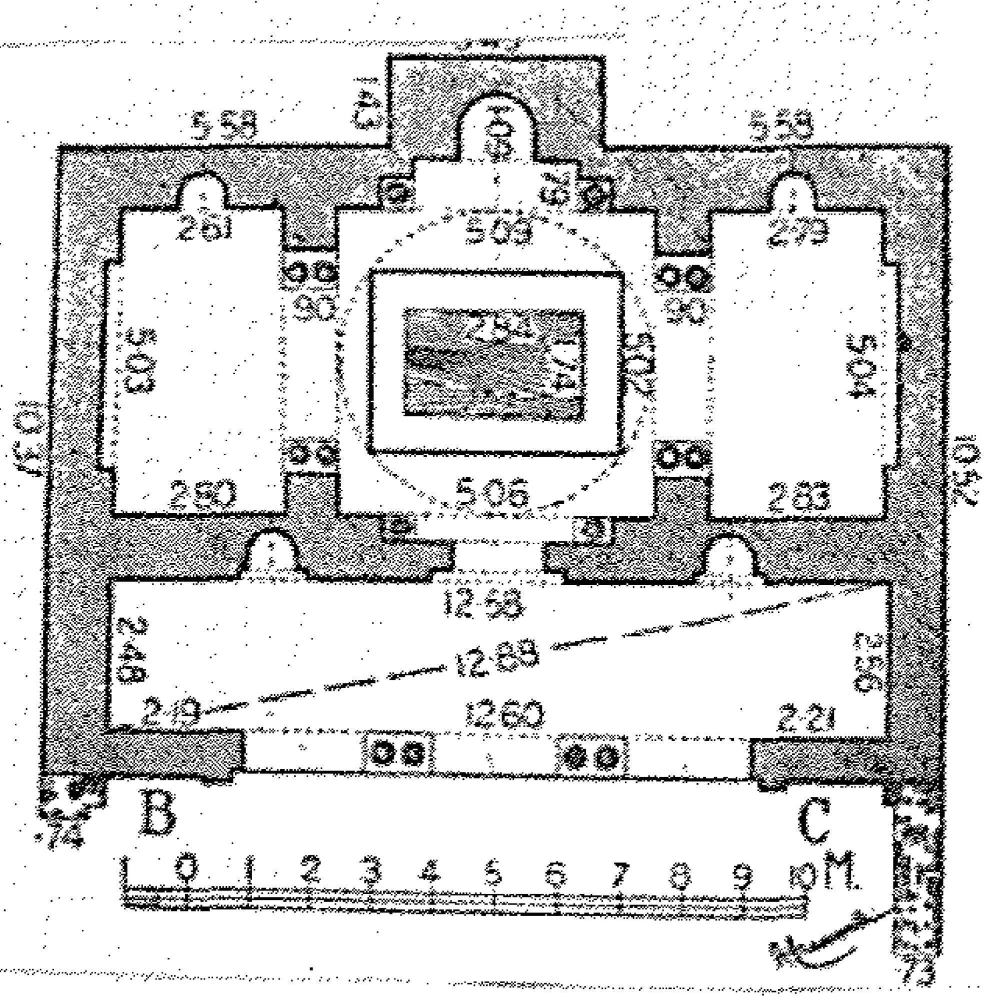
شكل (١٢) قطاع لحنايا منطقة انتقال قبة محراب جامع القيروان (عن فكري)



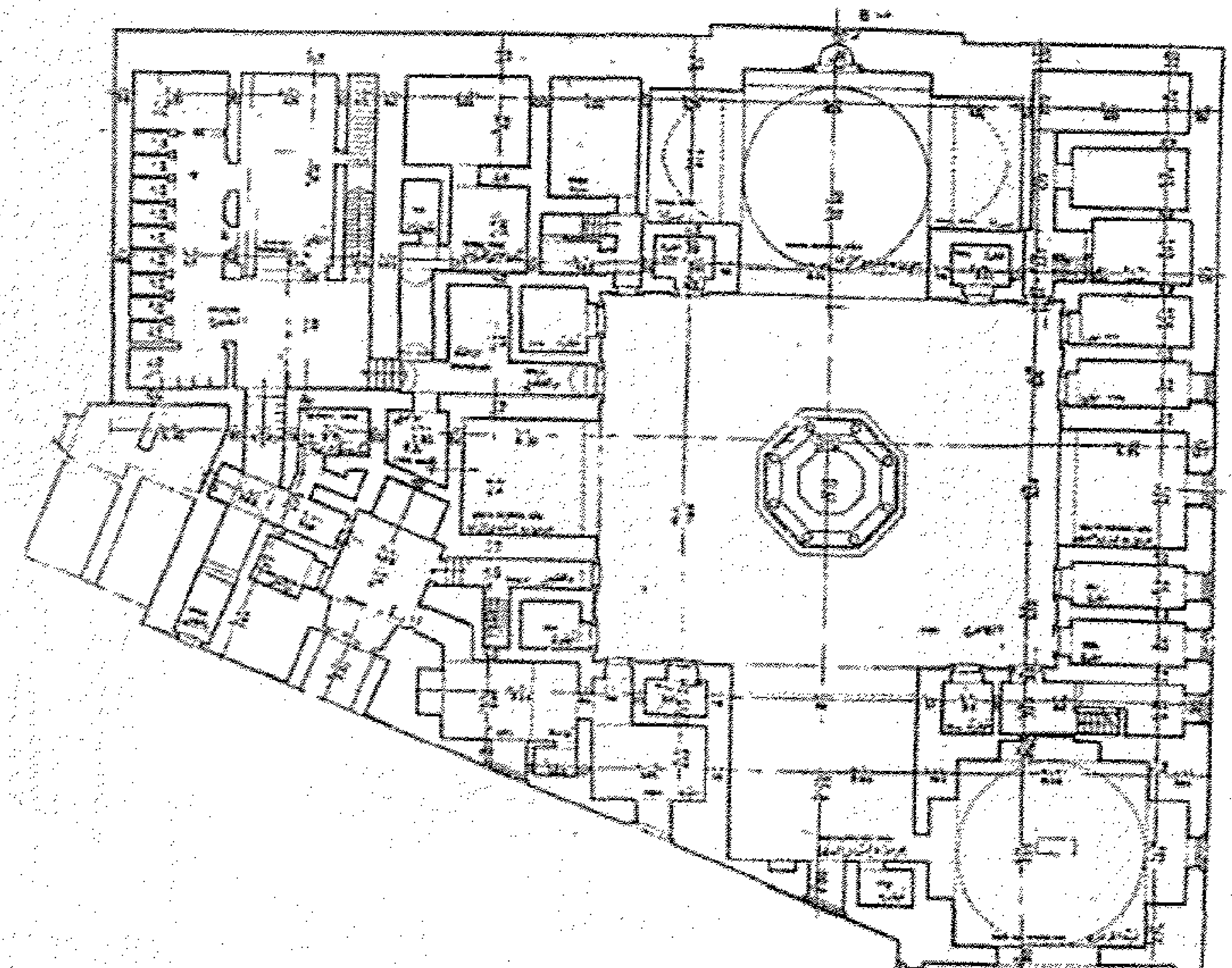
شكل (١٣- أ ، ب) مسقط وقطاع لمشهد الجيوشي بالقاهرة (عن كريزول)



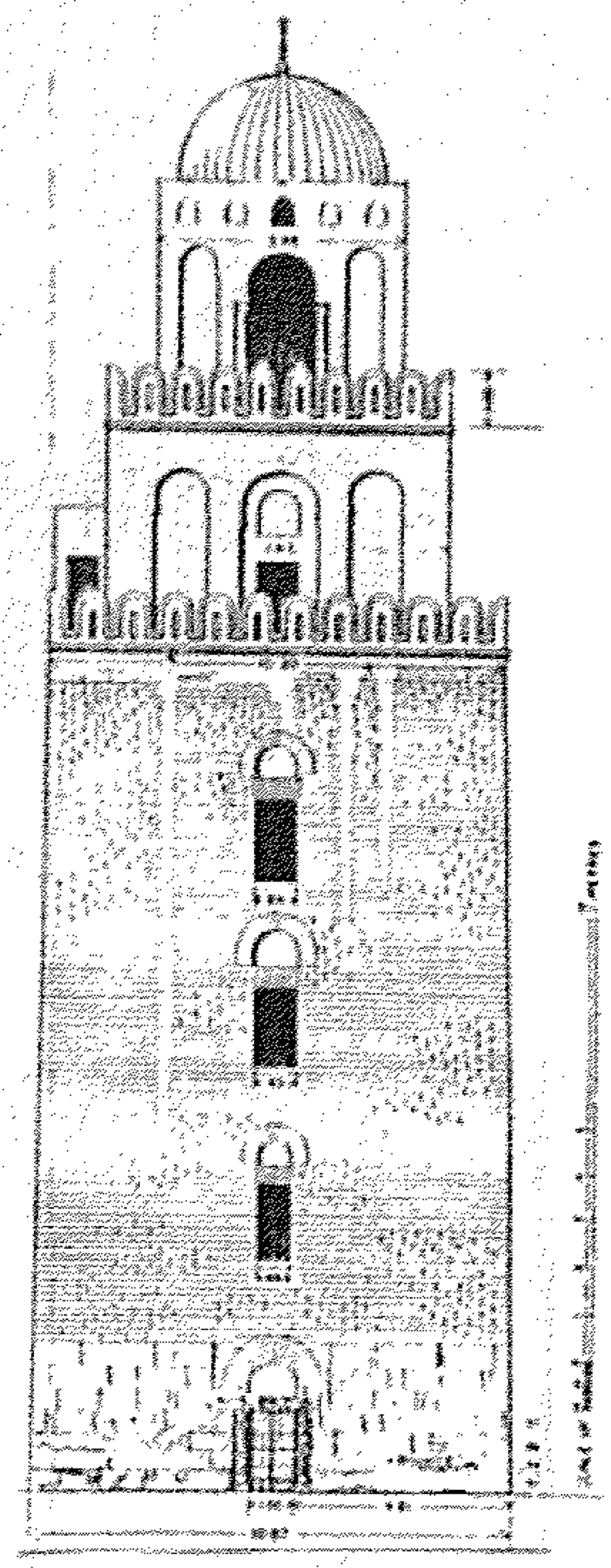
شكل (١٥) مسقط افقي لمشهد يحيى الشبيه (عن كريزول)



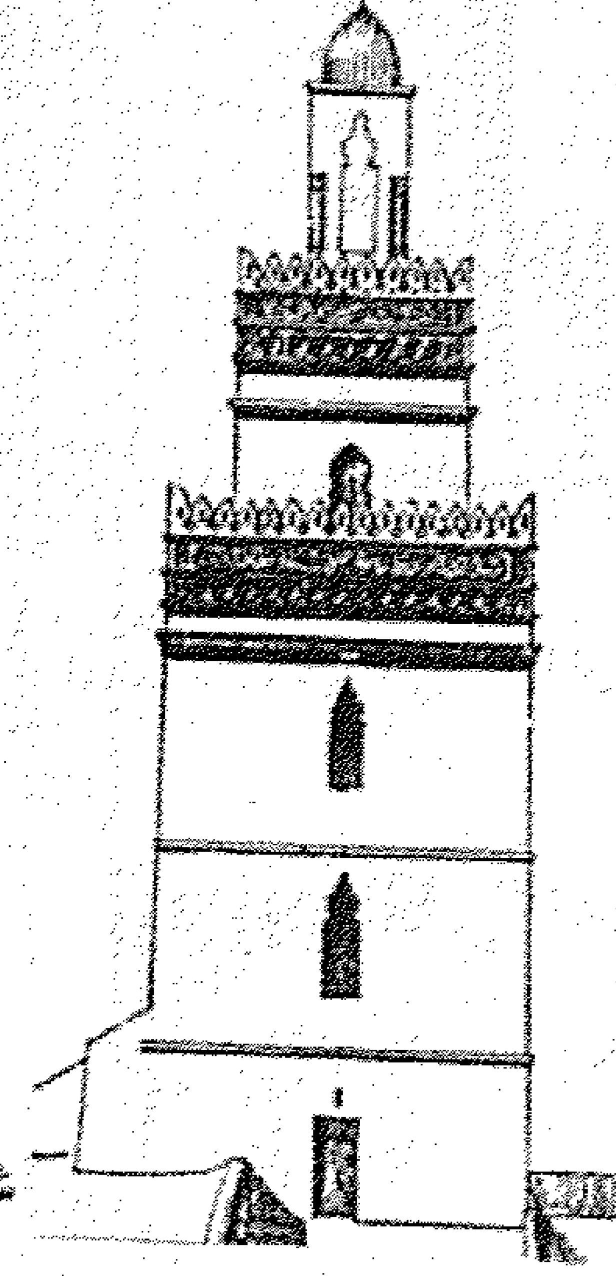
شكل (١٤) مسقط افقي لمشهد السيدة رقية (عن كريزول)



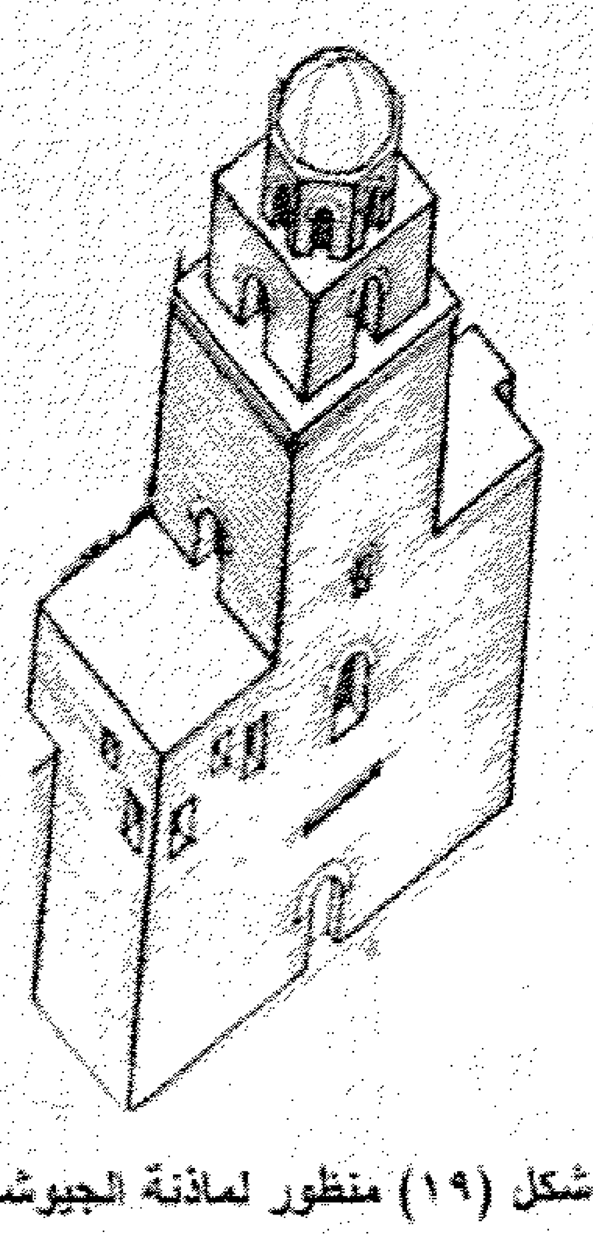
شكل (١٦) مسقط افقي لمدرسة صرغتمش (عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



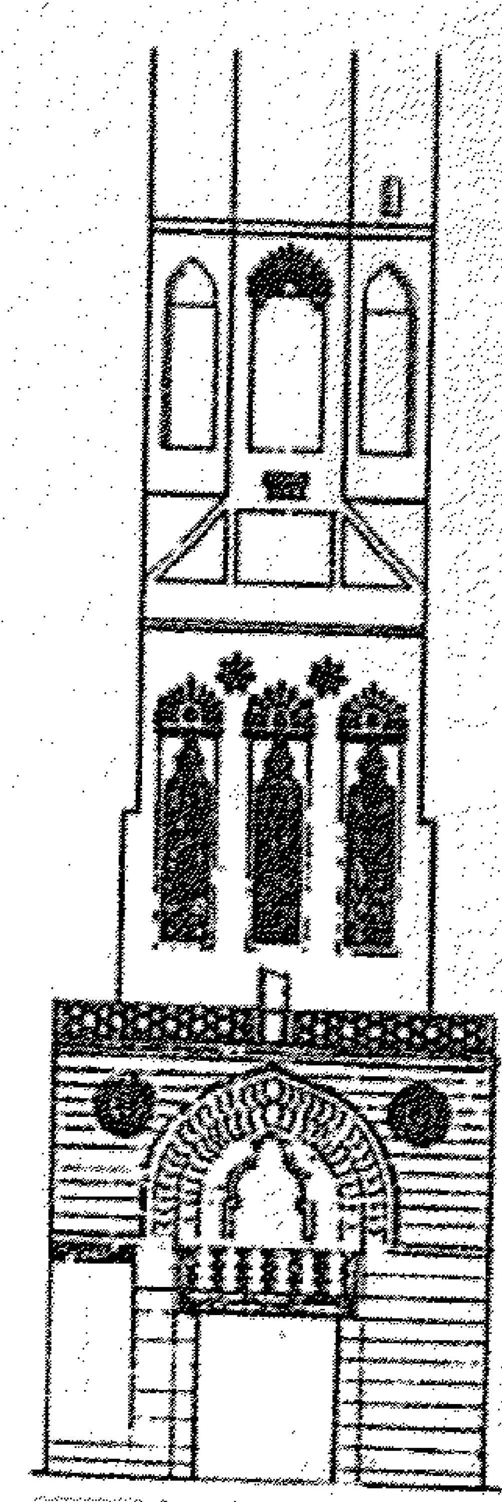
شكل (١٧) منظور لمأذنة
جامع القيروان (عن Jonathan Bloom)



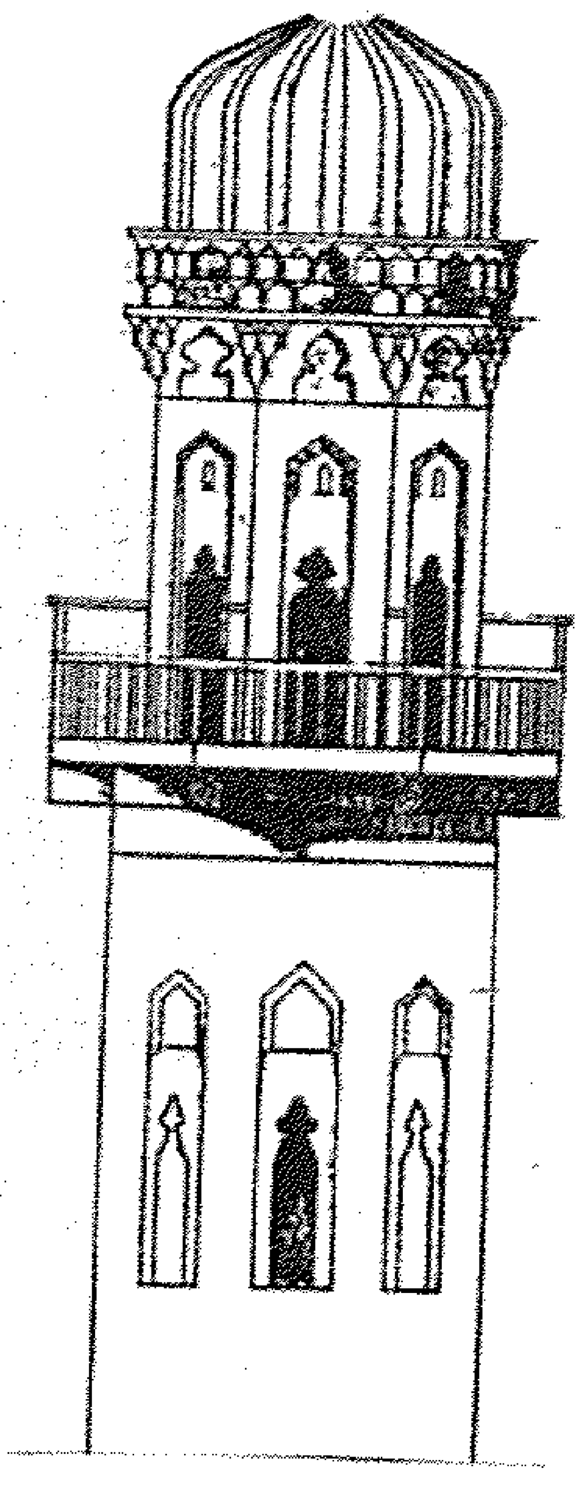
شكل (١٨) منظور لمأذنة جامع صفاقس
(عن مارسيه)



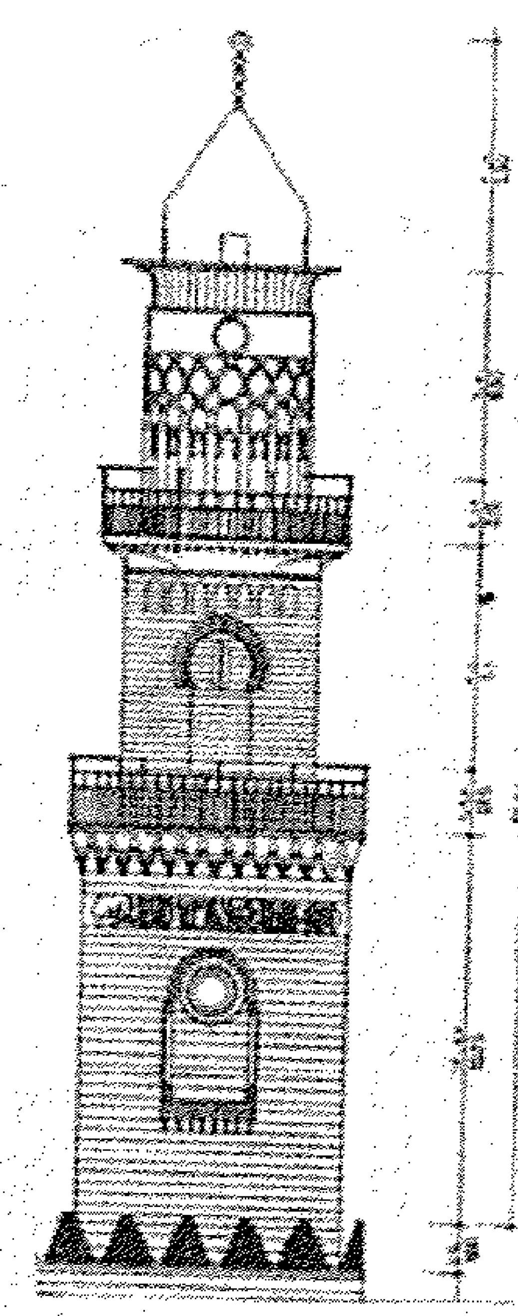
شكل (١٩) منظور لمأذنة الجيوشي
(عن هلينبراند)



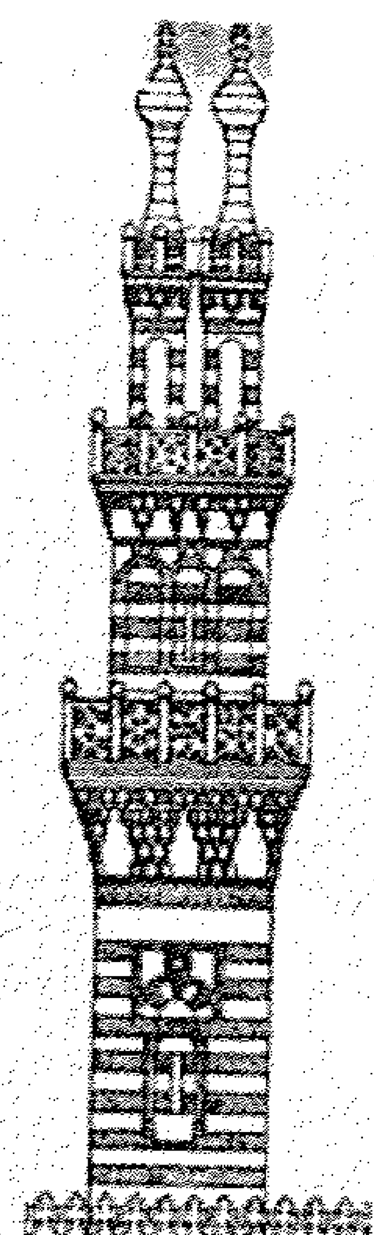
شكل (٢٠)
منظور لمأذنة المشهد الحسيني
(عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



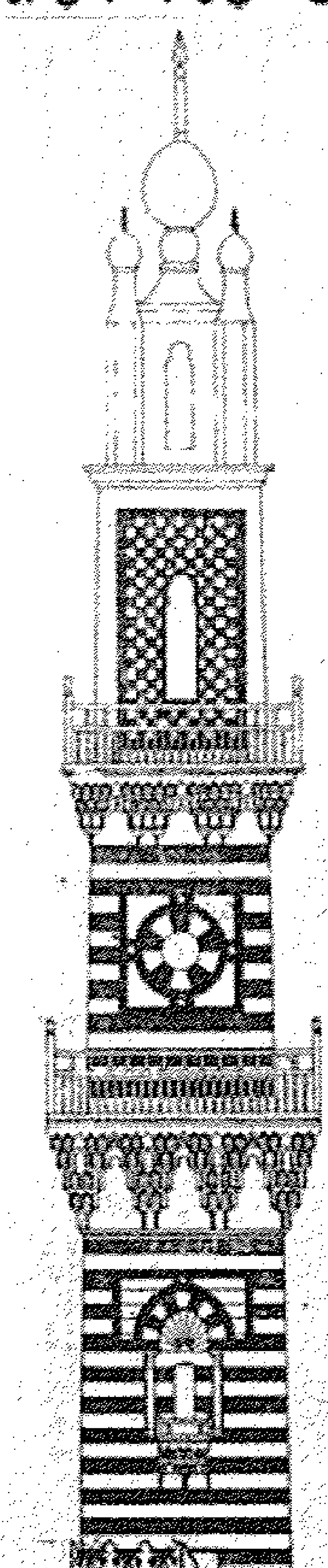
شكل (٢١) منظور لمأذنة المدارس الصالحية
(عن دوريس ابو سيف)



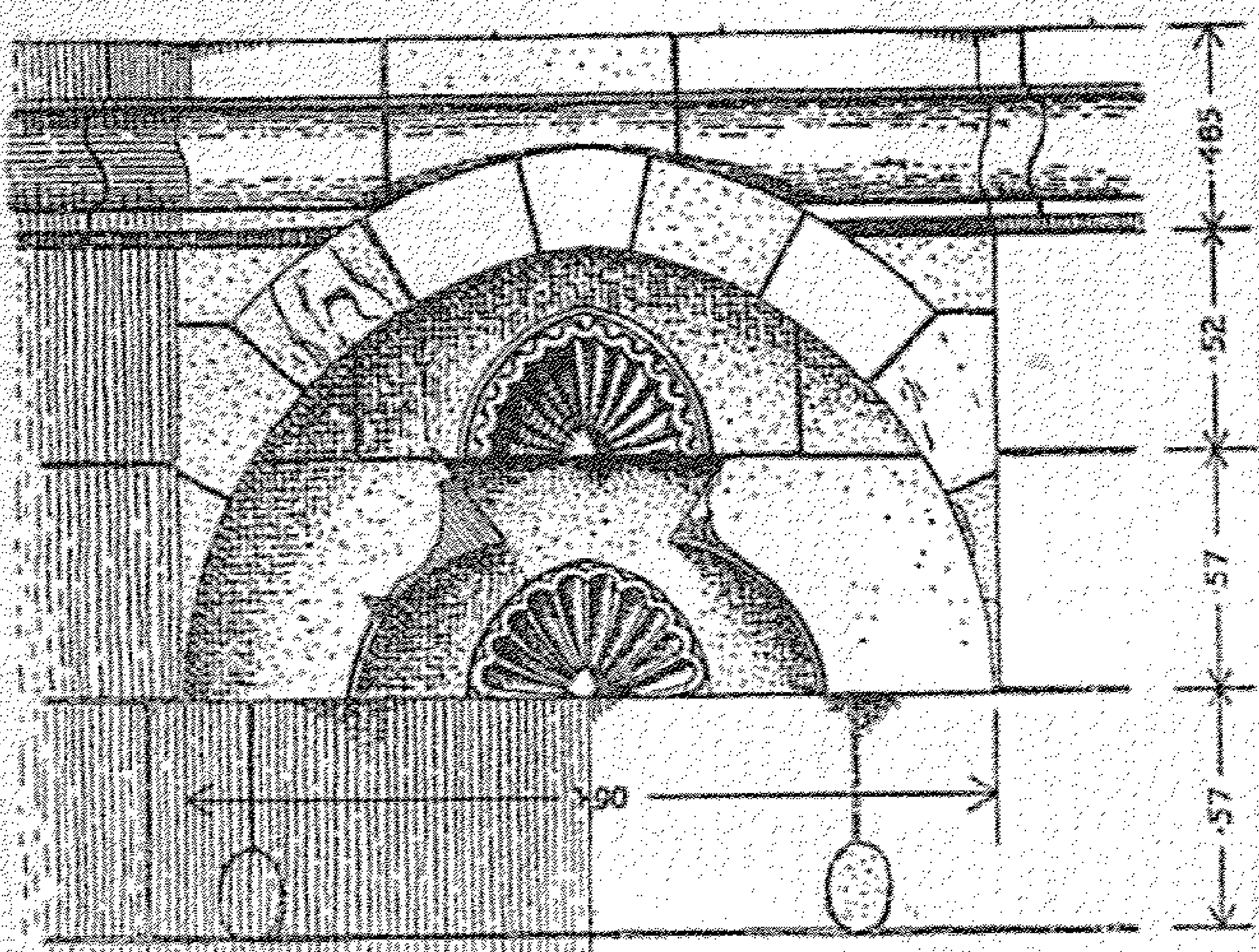
شكل (٢٢)
مأذنة مجموعة المنصور قلاوون
(عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



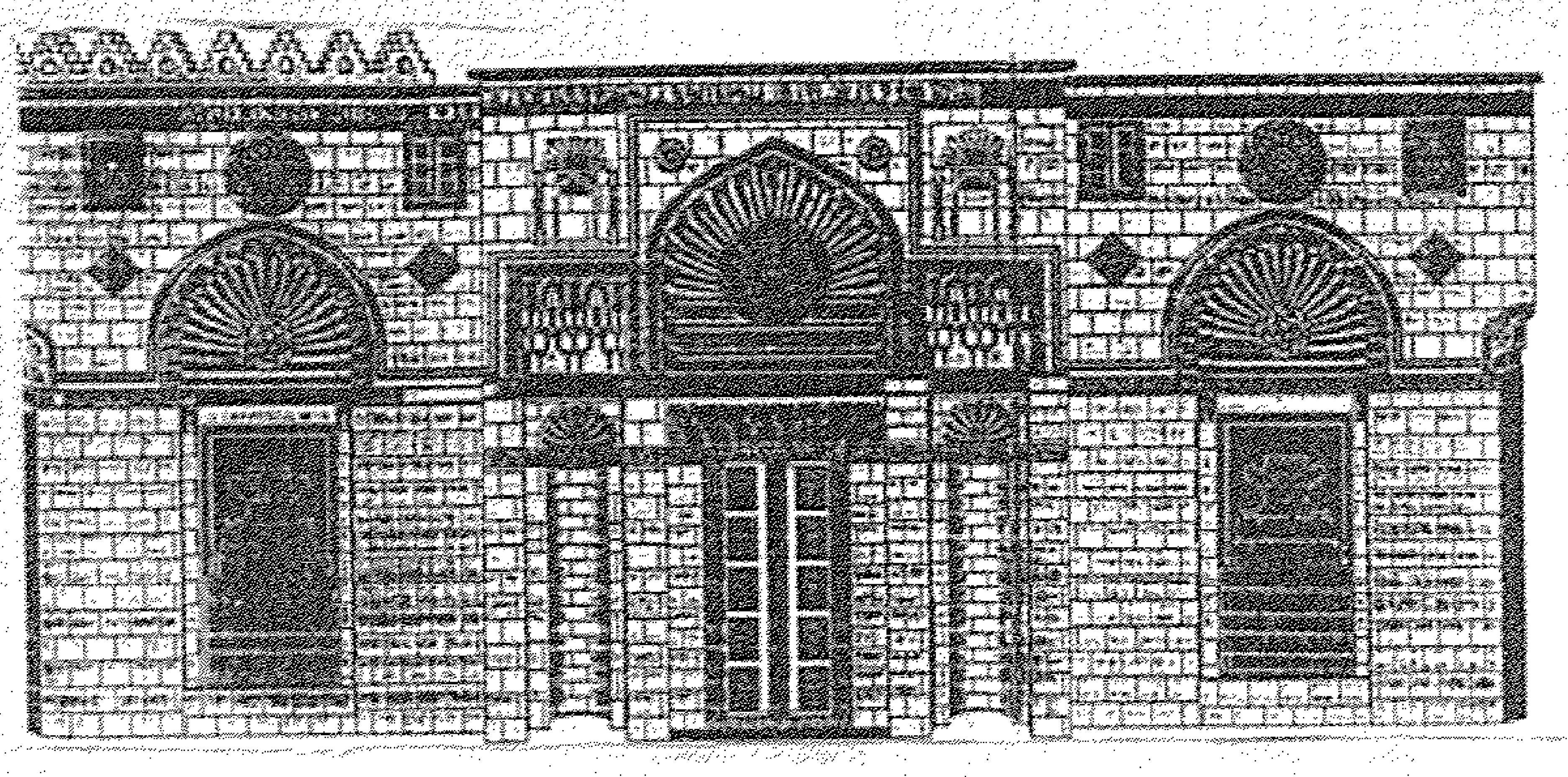
شكل (٢٣)
مأذنة قانباي الرماح بالقلعة
(عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



شكل (٢٤) مأذنة مجموعة الغوري
(عن لمعي وعبد الباقي ابراهيم)



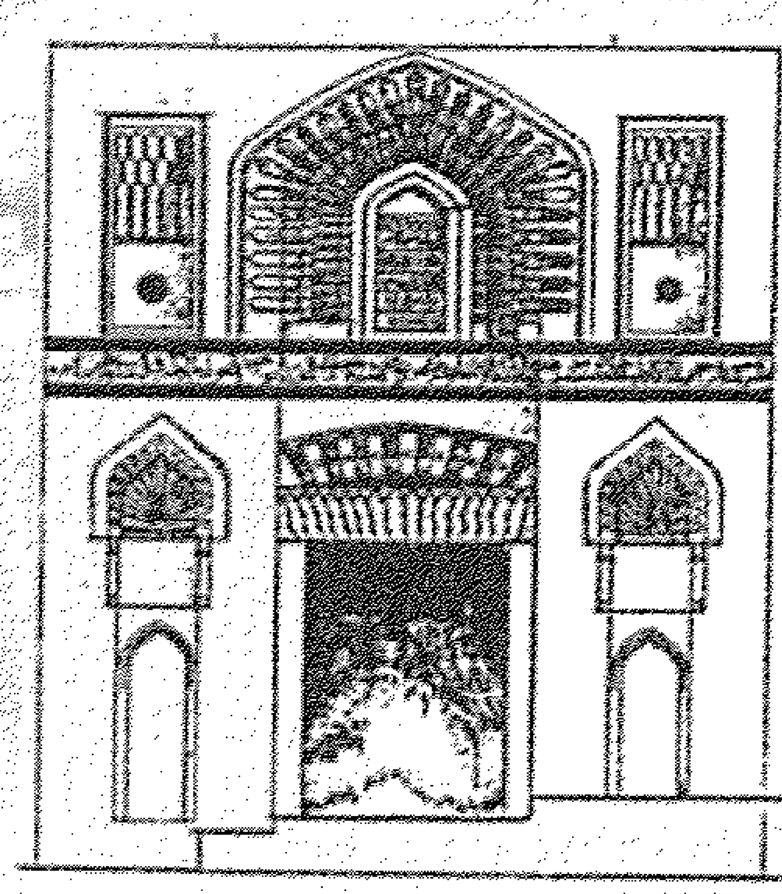
شكل(٢٥) الحنية المحارية بدركاة مدخل باب زويله بالقاهرة (عن كريزول)



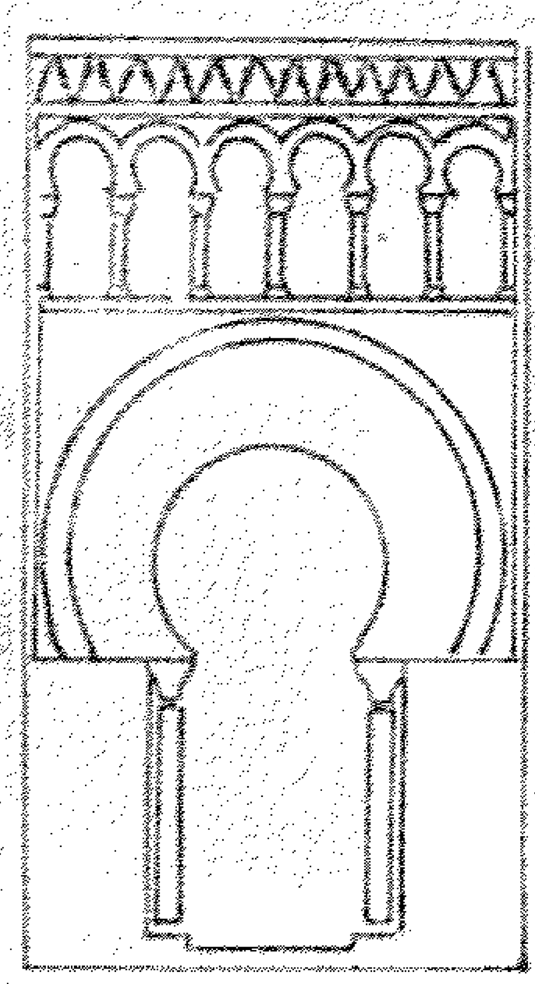
شكل (٢٦) الواجهة الشمالية الغربية لجامع الاقمر (عن Saifuddin)



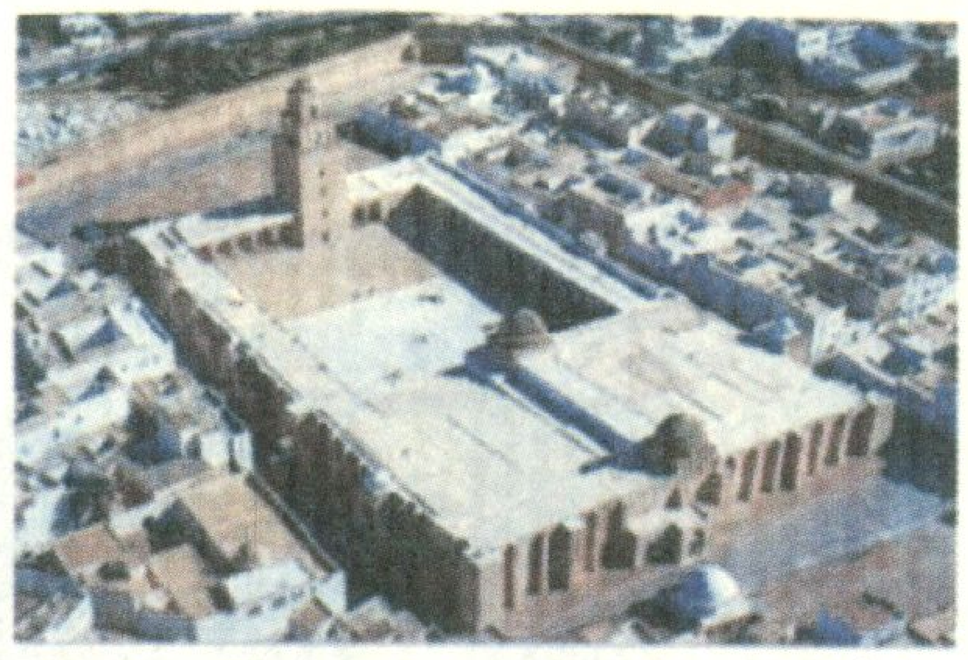
شكل(٢٧)
محراب مشهد السيدة ام كلثوم
(عن كريزول)



شكل (٢٨)
واجهة مدخل المدارس الصالحية
(عن دوريس ابو سيف)



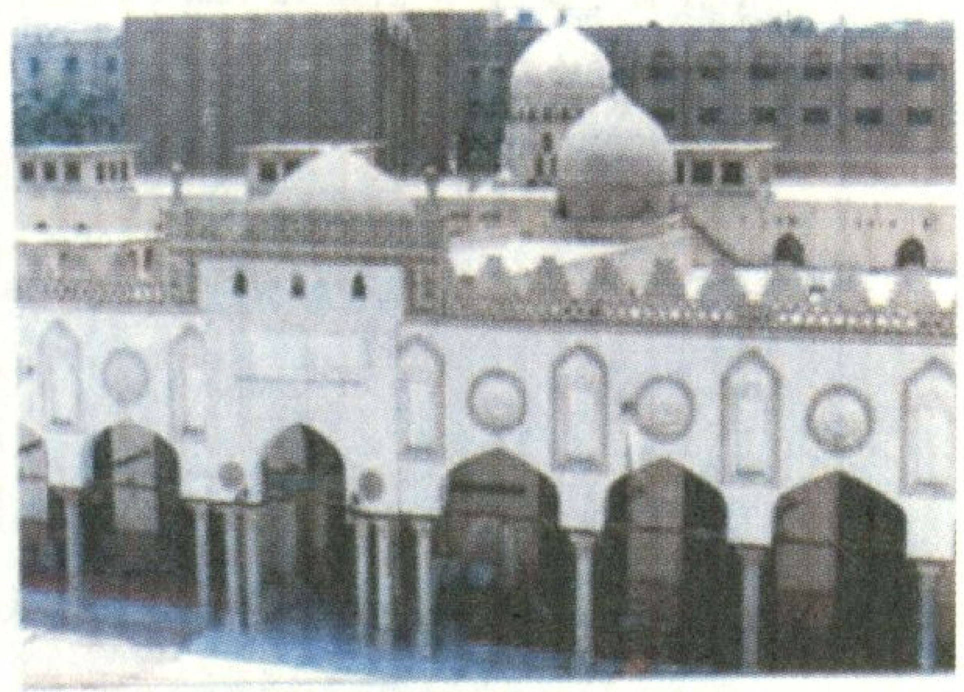
شكل (٢٩)
باب المقصورة القديمة بجامع القيروان
(عن فكري)



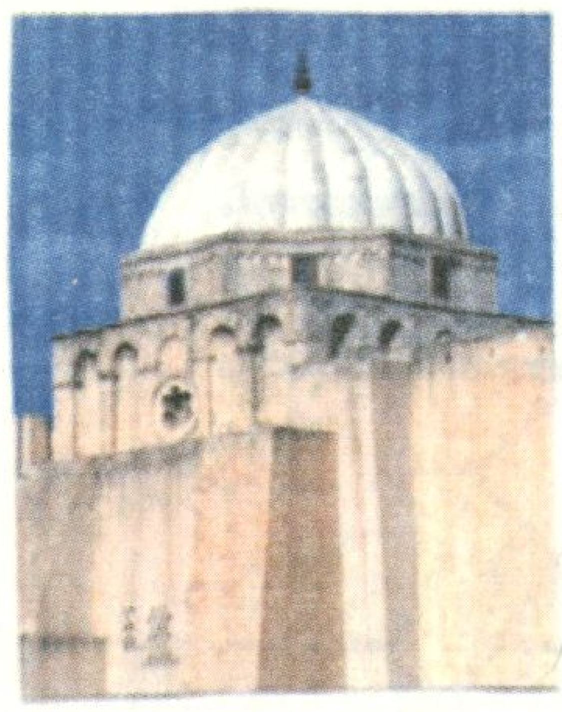
لوحة (١) منظر عام لجامع القيروان من الجو (عن وكالة احياء التراث)



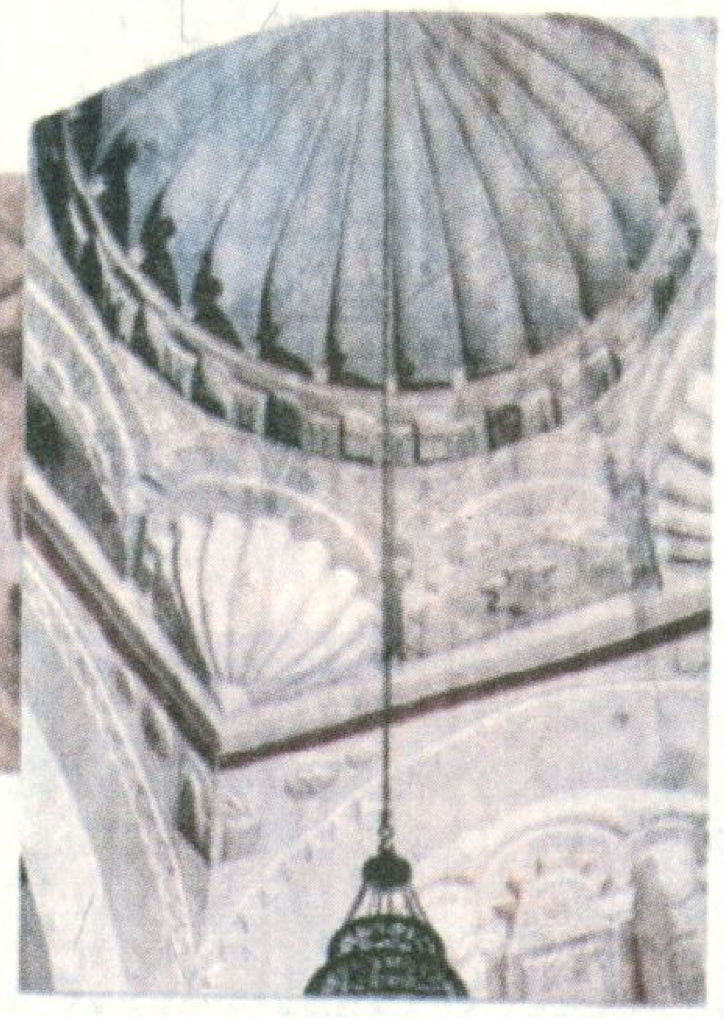
لوحة (٢) واجهة ظلة قبلة جامع القيروان (الباحث)



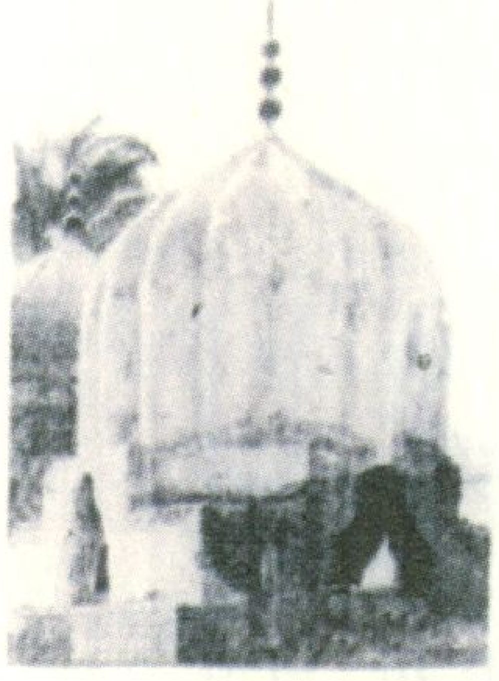
لوحة (٣) واجهة ظلة قبلة الجامع الازهر (الباحث)



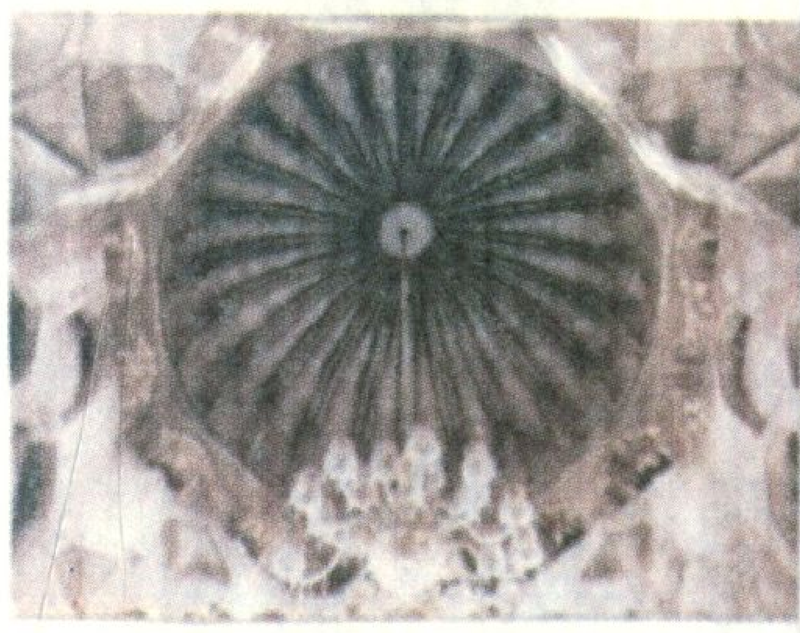
لوحة(٤)
قبة محراب جامع القيروان من الخارج (الباحث)



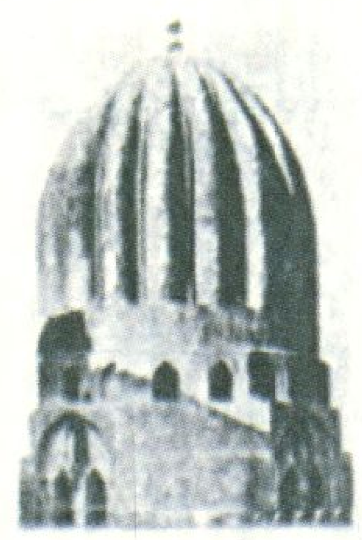
لوحة (٥)
قبة محراب جامع القيروان من الداخل (الباحث)



لوحة (٦)
قبة السيدة عاتكة من الخارج (عن كريزول)



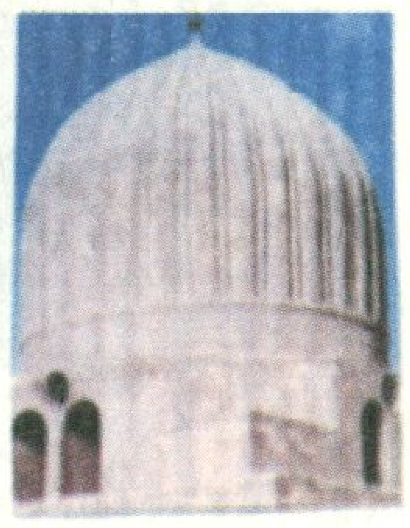
لوحة (٧)
قبة السيدة رقية من الداخل
(The Gallery of Cairo عن)



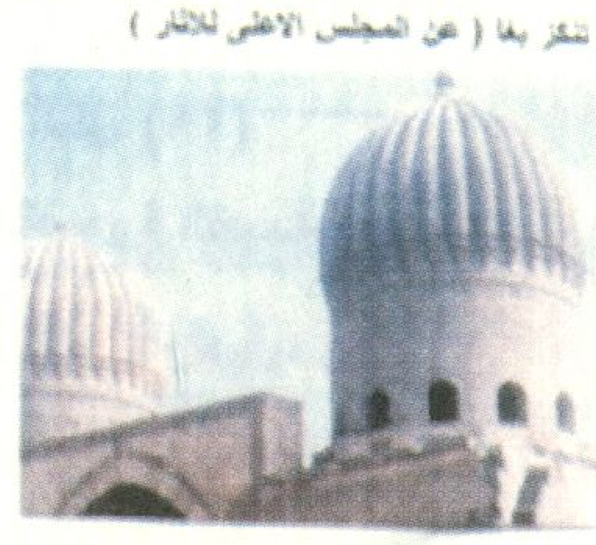
لوحة (١٣) قبة القمارى (عن المجلس الاعلى الاثار)



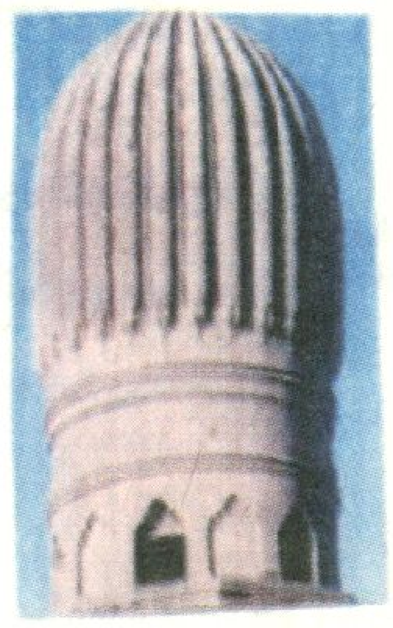
لوحة (١٤)
قبة تنكز بغا (عن المجلس الاعلى للاثار)



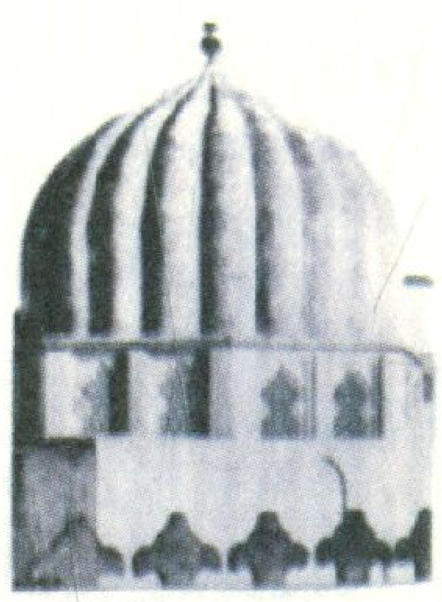
لوحة (١٥) قبة تنكز بغا بحري (الباحث)



لوحة (١٦) قبتا التربة السلطانية (الباحث)



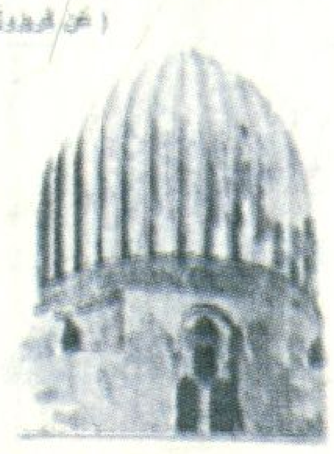
لوحة (١٧) قبة يونس الدوادار (الباحث)



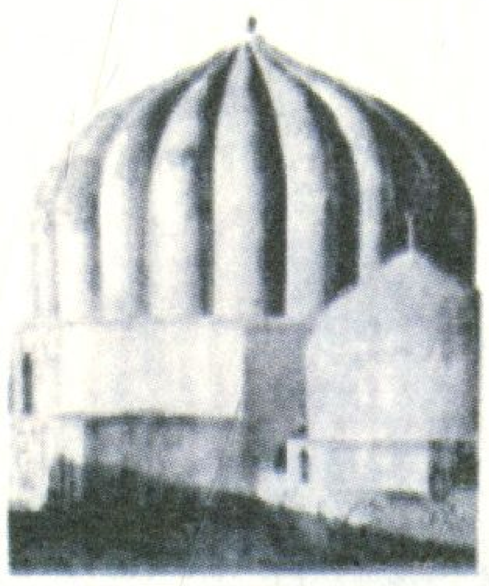
لوحة (٨)
قبة مشهد السيدة رقية من الخارج (عن كريزول)



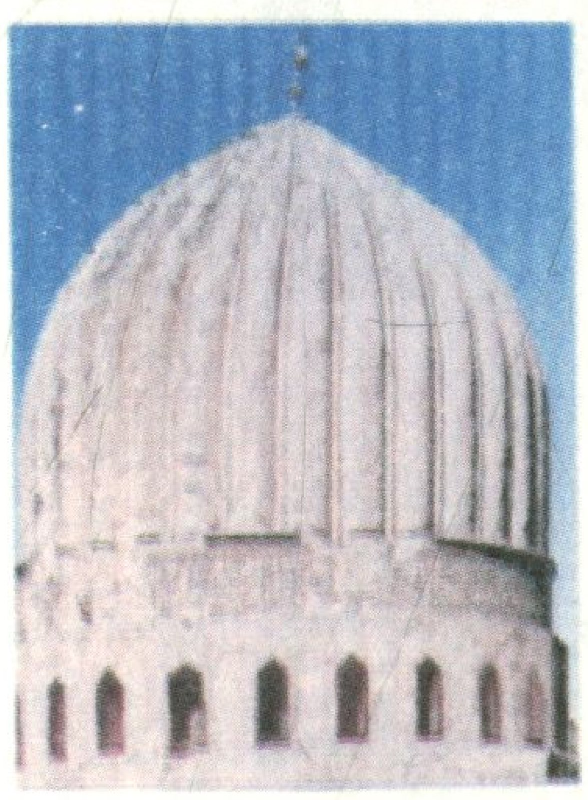
لوحة (١٠) القبة الاولى بخانقات بيبرس البندقداري
(عن كريزول)



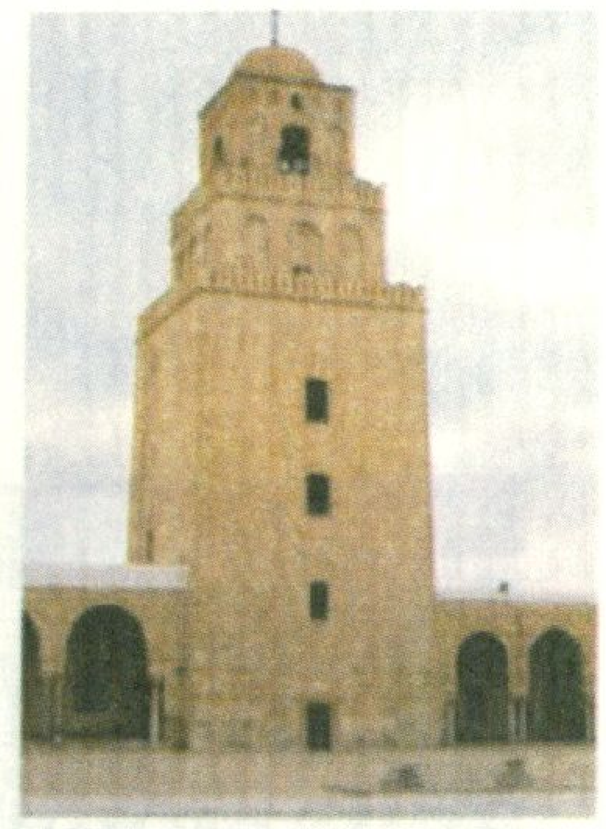
لوحة (١٢) قبة على بدر القرافى (الباحث)



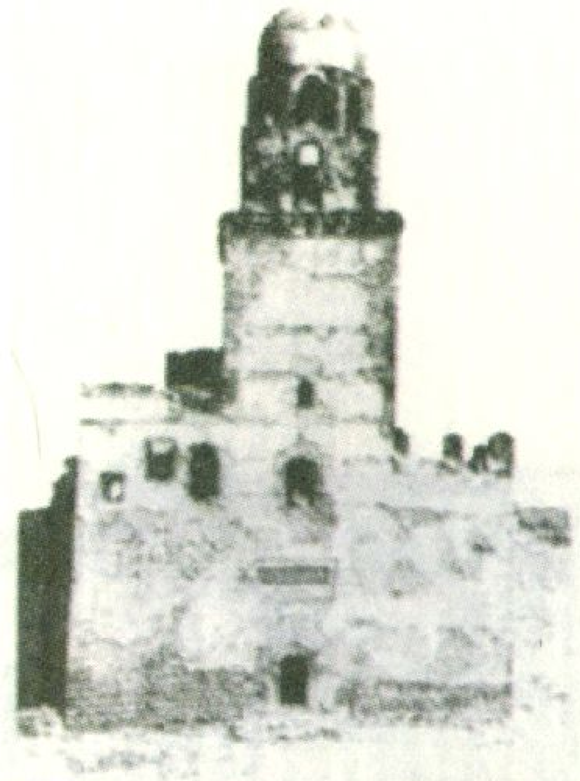
لوحة (٩)
قبة مشهد يحيى الشبيه من الخارج (عن كريزول)



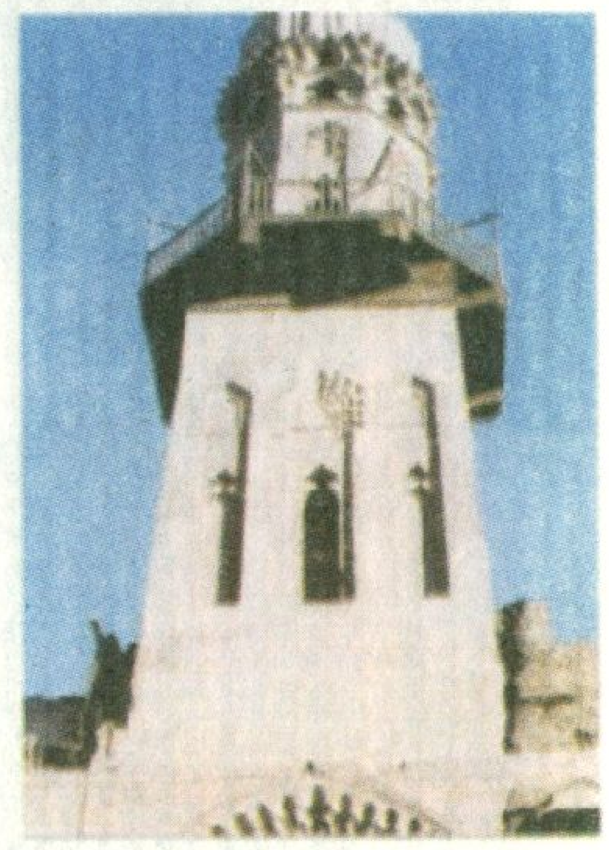
لوحة (١١) قبة زين الدين يوسف (الباحث)



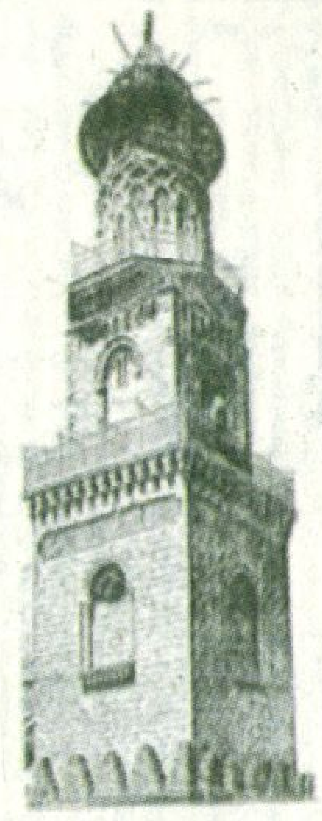
لوحة (١٨) مئذنة جامع القيروان (الباحث)



لوحة(١٩) مئذنة مشهد الجيوشي (عن كريزول)



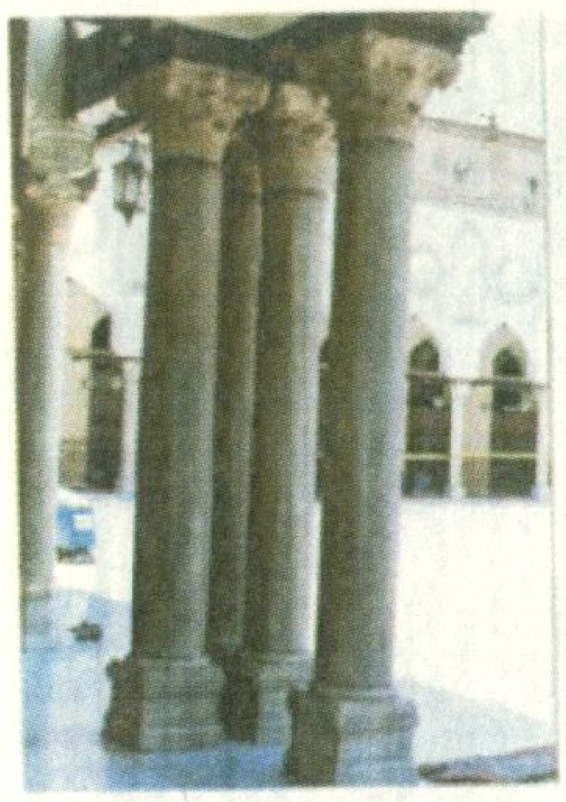
لوحة (٢٠) مئذنة المدارس الصالحية (عن The Gallery of Cairo)



لوحة (٢١) مئذنة المنصور قلاوون (عن صالح لمعي)



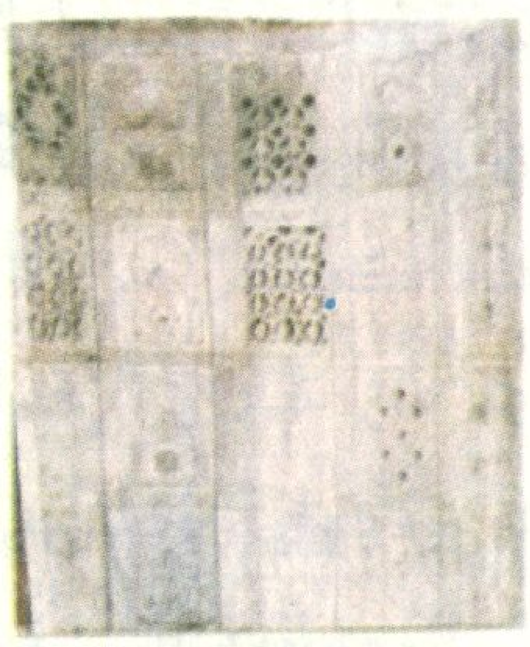
لوحة (٢٢)
حزمة الاعمدة بظلة قبلة جامع القيروان (الباحث)



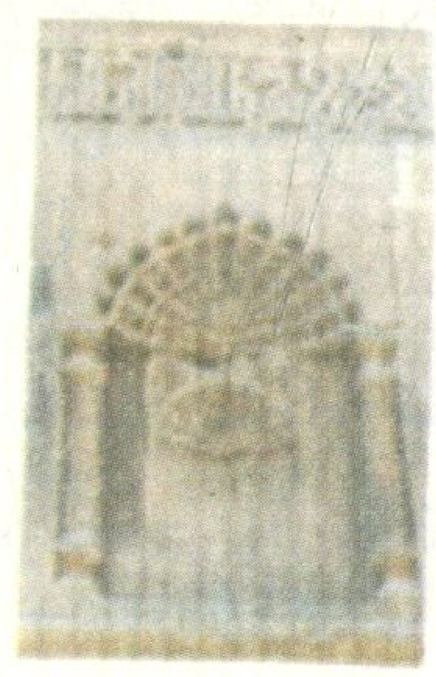
لوحة (٢٣)
حزمة الاعمدة بظلة قبلة جامع الازهر (الباحث)



لوحة (٢٤) الحنية المحارية بمنطقة انتقال قبة محراب القيروان (الباحث)

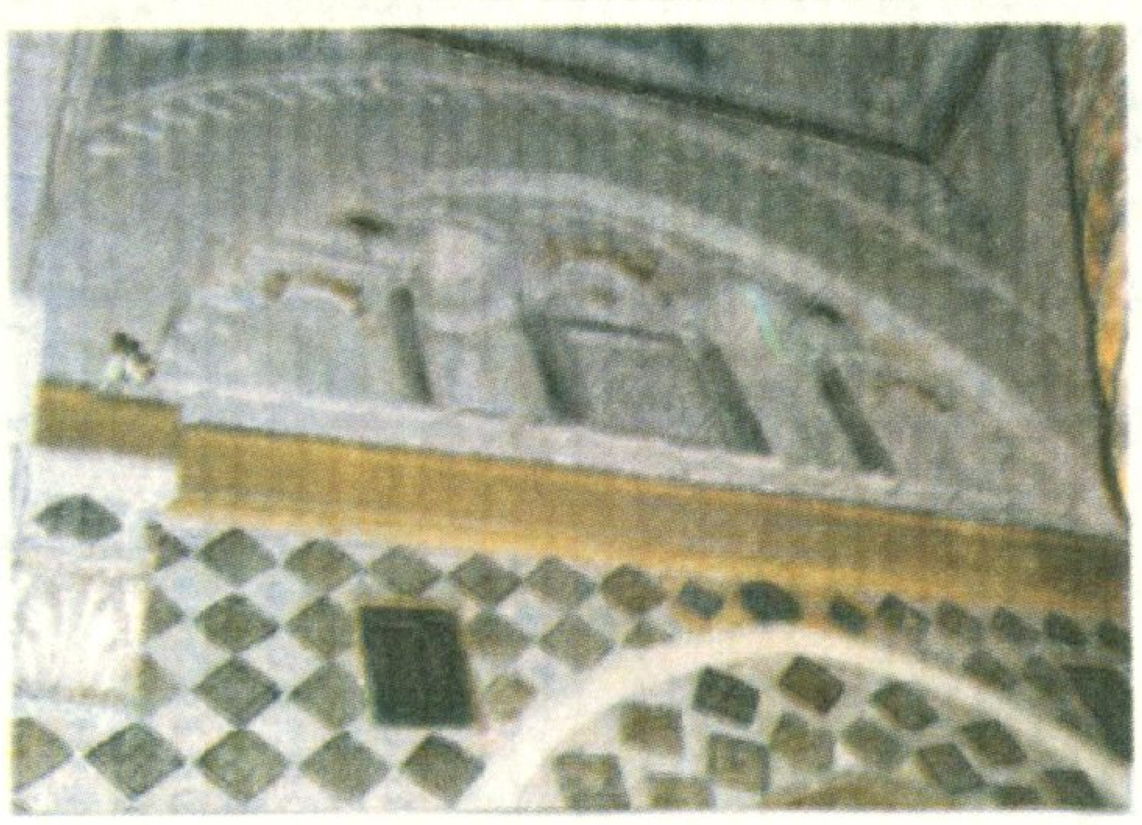


لوحة(٢٥) تفاصيل بمحراب جامع القيروان (الباحث)

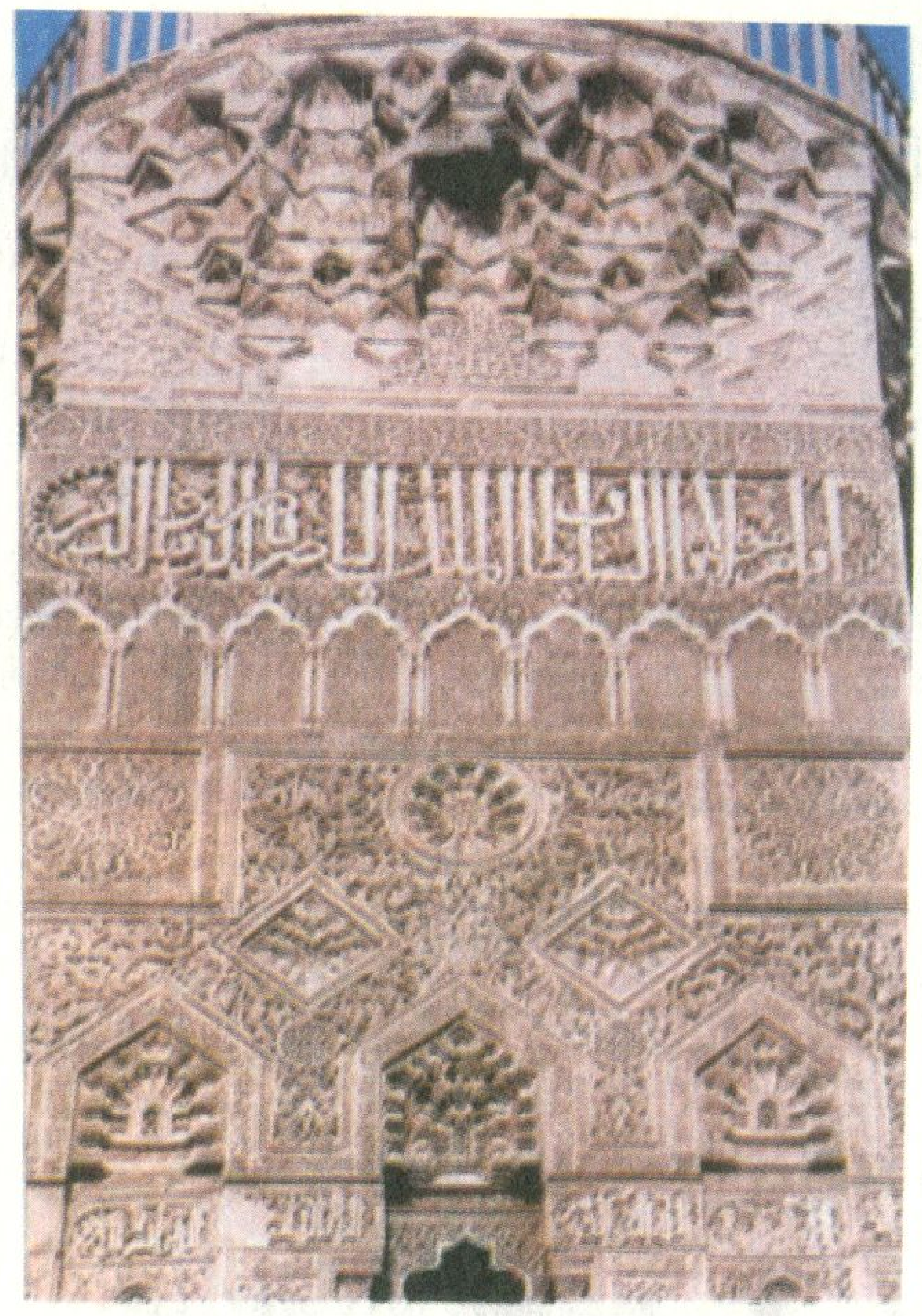




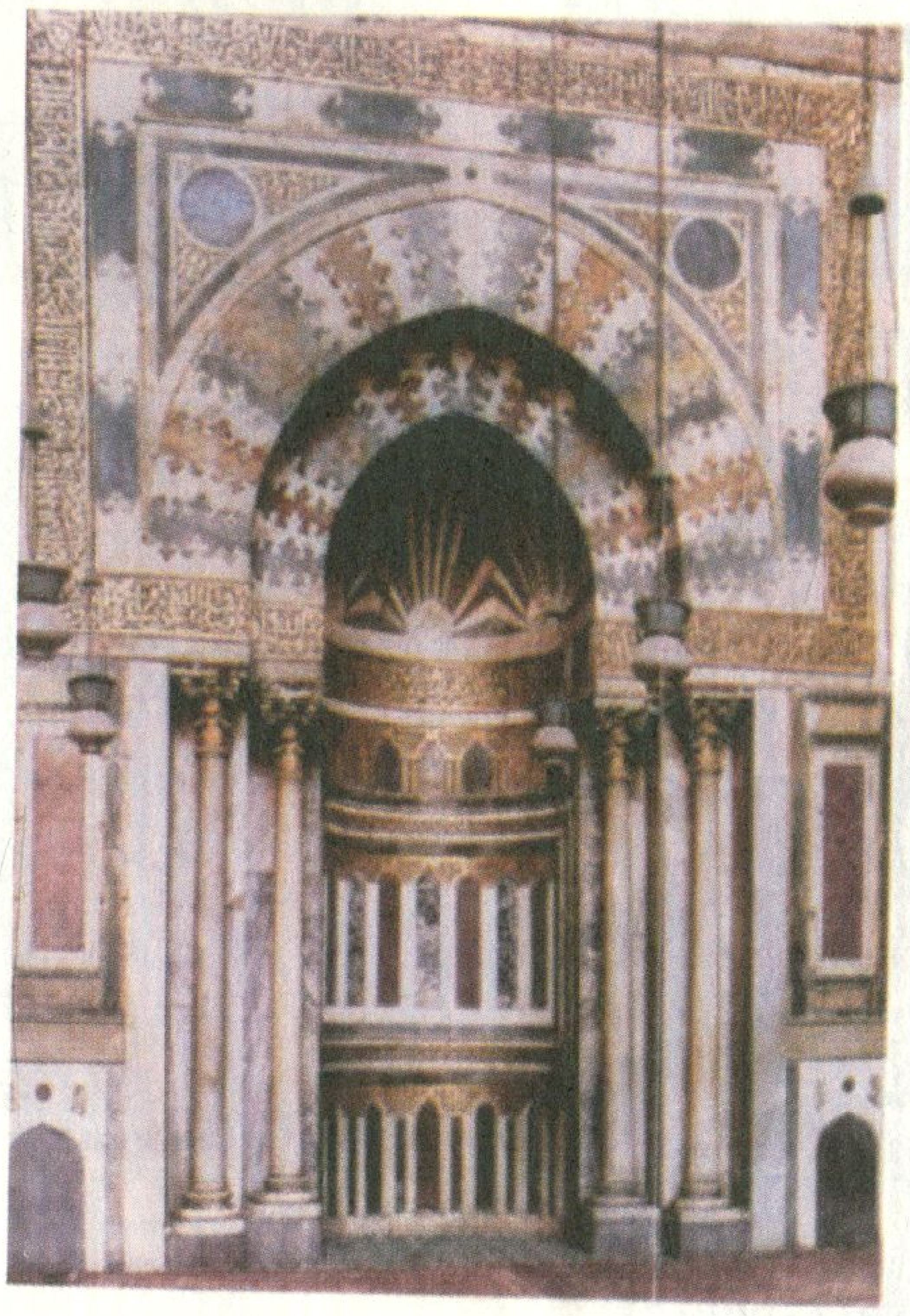
لوحة(٢٦-أ، ب) تفاصيل للدخلات ذات الطواقى المحارية بواجهة جامع الاقمر (الباحث)



لوحة (٢٧) تفاصيل للبائكة التى تعلو محراب جامع القيروان (الباحث)



لوحة(٢٨)
فاصيل لقاعدة مأذنة مدرسة الناصر محمد (الباحث)



لوحة (٢٩)
محراب مدرسة السلطان حسن

ثقافة المنع والهدم في المعمار الإسلامي
مدينة القيروان في العصر الوسيط نموذجا

إبراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب بمكناس – المغرب

لا مراء في أن العمران في أي حضارة من الحضارات الإنسانية خضع لنواميس التأسيس والاستبحار، والخراب والهدم والإصلاح والترميم، وهي قواعد لعبت فيها الظروف الطبيعية والبشرية دورا موجها وحاسما. إلا أن ما يندر الإلتفات إليه من قبل الباحثين عموما، يتجلى في إغفال دراسة المحاذير أو الخطوط الحمراء التي كانت تضعها السلطة المسؤولة عبر قواعد زجرية، غالبا ما كانت تعكسها مؤسسة الحسبة أو تعبّر عنها فتاوى الفقهاء، وذلك بهدف تنظيم المجال العمراني ودفع الضرر عن الساكنة. كما قلّ من الأبحاث ما اهتم بدور الدوافع الشخصية وحب التفوق والرغبة في إبراز الذات من خلال الإقدام على عملية هدم وطمس المعالم العمرانية لحاكم سابق أو لدولة انتهت بالأفول، وتشييد معالم عمرانية بديلة تروم إبراز تفوق الذات المشيدة على حساب المنجزات العمرانية السابقة، وهو ما سنسعى في هذه الورقة إلى النبش فيه من خلال نموذج مدينة القيروان خلال العصر الوسيط، متبنين المنهج الاستقرائي للمادة النصية ومساءلتها، بغية فهم حضور ثقافة المنع والهدم وأثرها في مسيرة تطورها العمراني.

والجدير بالملاحظة أننا لن نستعمل المنع والهدم في هذا المجال بالمفهوم القدحي السلبي، بل سيتم تداولهما كثقافة أو عقلية سائدة وجهت التطور المعماري لمدينة القيروان بوجهيه الإيجابي والسلبي معا.

أولا : ثقافة المنع في المعمار القيرواني

المنع لغة مصدر لفعل منع ومعناه حرم الشيء على شخص أو مجموعة، ويستعمل أيضا بمعنى الكف أو الصد عن الشيء[1]، وهي ذات المفاهيم التي سنوظفها في المقاربة التاريخية التي تهمنا مع إعطائها بعدها الثقافي، ونقصد بذلك كيفية تشكل ظاهرة المنع كعنصر من

[1] المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار المشرق، دون تاريخ، ص 775.

عناصر عقلية مجتمعية سائدة، يتم تداولها داخل منظومة اجتماعية تعاقد الحاكم والمحكوم على القبول بها داخل إطار الشرعية.

ففي الجانب المعماري موضوع دراستنا يتبين من خلال استقراء النصوص أن ثقافة المنع كانت تستهدف وضع استراتيجية عمرانية تروم تنظيم المجال ومنع الضرر وفق شروط وقواعد محددة، وهو ما أثارته بتفصيل كتب أحكام البنيان. بيد أن ما يهمنا بالتحديد في هذا البحث يتمثل في تسليط الضوء على بعض الموانع التي تبناها الفقهاء بغية عدم إحداث بعض الأشكال من البناء العمراني الذي يشوه الشكل المعماري لمدينة القيروان أو يحدث الضرر لساكنتها أو يسعى لإنقاذ بعض المعالم العمرانية فيها. وفي هذا الصدد جاءت فتاوى بعض فقهاء إفريقية خلال العصر الوسيط لتصب في هذا الاتجاه.

وقبل تناول هذه الفتاوى ، يجدر القول إنّ ضوابط المنع جاءت انعكاسا للتخطيط الذي بدأت من خلاله نشأة النواة الأولى للقيروان، وهي النواة التي كانت تقوم على أساس التخطيط المحكم[2]، وهو ما أكدته الدراسات الحديثة ، بناء على مجموعة من الأدلة النصية والمستندات الأثرية [3]. وتبعا لهذا السياق الذي كان يهدف إلى الحفاظ على التخطيط المحكم لمدينة القيروان، انبثقت مجموعة من الإجراءات المنعية التي عكستها الفتاوى.

الفتوى الأولى : منع النصارى واليهود من رفع مباني معابدهم بالقيروان

وردت هذه الفتوى عند الونشريسي [4] الذي لخصها بقوله : "وأفتى أبو حفص بمنع النصارى أن يرفعوا في بناء الكنائس ويبدلوا بناءها، إن كانت بالطوب فلا يبدلوها بالحجر، ويمنعون من كمال ظاهرها على كل حال، وذكر أن الشيخ أبا الحسن القابسي كان تكلم على هذه المسألة حين أراد بعض اليهود أن يفعل ذلك بالقيروان لمكانته من السلطان ، فلما تكلم الشيخ امتنع اليهود".

من فحوى هذه الفتوى يتضح أنها تصبّ في منع النصارى من رفع بناء كنائسهم أو تغيير بنائها قياسا على ما أفتى به الفقيه أبو الحسن القابسي حول بعض يهود القيروان الذين استغلوا مكانتهم وتقربهم من سلطان تونس، فبادروا إلى رفع بنيان بيعهم التي كانت لديهم بالقيروان، لولا أن فتوى الفقيه المذكور كبحت مشروعهم فمنعوا منعا باتا من إحداث هذا التغير المعماري.

ما الدافع وراء المنع ؟ من المستبعد أن يكون التعصب الديني وراء هذا القرار، ولو كان الأمر في هذا الاتجاه لبلغت الفتوى أعلى مستويات التشدد وهي الأمر بالهدم، وهو أمر لم

---

[2] تؤكد المصادر على أن عقبة بن نافع شيد القيروان بناء على تخطيط ، وليس بكيفية عشوائية ، أنظر : ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1954، ص 54-57؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1953، ج 2، ص 323.

[3] محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لافريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع، بنغازي – بيروت 2003 ، ص 51.

[4] الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة ، الدار البيضاء – بيروت، 1980، ج 2، ص 259.

يكن يلقى معارضة في وسط المجتمع آنذاك. لكن يبدو أن خلفية هذا المنع تكمن فيما كان يسعى إليه المجتمع القيرواني ممثلا بمؤسسته الفقهية في الحفاظ على معيار تناسقية البناء بالمدينة ينهض دليلا على ذلك أن نص الفتوى منع أن يزيد ارتفاع البيع على الارتفاع السائد في مباني القيروان حرصا على تناسق مقياس الارتفاع العام في الأبنية. كما نص على منع تغيير الطوب بالحجر لأن ذلك يؤثر سلبا على الرؤية الجمالية لمعمار القيروان، وبالتالي نعتقد أن قرار المنع لا يعدو أن يكون مجرد سعي لدفع الضرر كما هو متعارف عليه في قاموس الثقافة الفقهية، وإن كان ذلك لا يخفي تخوف المؤسسة الدينية من التميز الذي يمكن أن تحظى به معابد أهل الذمة في حالة ارتفاعها فوق المباني الإسلامية، وهو أمر كانت تستهجنه العقلية الإسلامية عموما ولا تقبل به.

الفتوى الثانية : منع إقامة دور الدباغة داخل مدينة القيروان

ومما يؤكد توجه الفتاوى عموما نحو قرارات المنع درءا للضرر، ما تطرحه فتوى أخرى ذهبت إلى النص على منع المسلمين أنفسهم من إقامة دور للدباغة. وهذا نص الفتوى : "مثل هذا وقع بدار الدبغ بداخل سور القيروان أنه مهما وقعت المادة من السور التي تخرج فيها الساقية أن أرباب الدور يبنونها .... وعكسه ما سئل عنه الزواوي في قوم لهم دور الدبغ داخل مدينة القيروان قديمة، فعمد بعض العمال وبنى لهم خارج البلد دور الدبغ وأخرجهم من موضعهم إليها كرها، فبعد ثلاثين رجع بعضهم إلى موضعه فأراد أن يرده للدبغ كما كان، ومنعه بعض الجيران واحتج ببقائه نحو ثلاثين عاما"[5].

تشير هذه الفتوى بأن السلطات المحلية بالقيروان كانت تسعى إلى تنظيم المجال العمراني بالمدينة حتى أنها وظفت قرار المنع باستغلال دور الدباغة داخل سور المدينة، واضطرت إلى إجبار أرباب هذه الدور على نقلها خارج المدينة بالقوة، وذلك بهدف الحد من الأضرار الناجمة عن بناء هذه الدور كإحداث الروائح الكريهة، وهو ما يعكسه احتجاج أهل المنازل المجاوة لدور الدباغة على مالكيها ومطالبتهم بالابتعاد عن منازلهم كما هو واضح من نص الفتوى.

الفتوى الثالثة : منع دور البغاء بالقيروان

نص الفتوى : "وحكى يحيى بن عمر عن سحنون أنه أوتي بامرأة يقال لها حكمة وكانت تجمع بين الرجال والنساء فأمر بضربها وسجنها . وعنه أيضا أنه أتى بالمرأة التي يقال لها تركو وكانت تجمع بين الرجال والنساء ، واستفاض خبرها ، فأمرها وتحولت من دارها (بالقيروان) وطيّن باب الدار بالطوب والطين".

يستشف من هذه الفتوى أن المعيار الأخلاقي كان أيضا من عوامل قرارات المنع في المجال المعماري، ويتعلق الأمر هنا بمنع انتشار دور البغاء في القيروان، وهو ما يعكسه رد فعل

---

[5] المعيار، ج 8، ص 412 .

القاضي سحنون الذي زجر المرأة المتهمة المذكورة في النص: "وطيّن باب دارها الطوب والطين"[6]، علما بأن الشريعة الإسلامية تحرم البغاء وبالتالي فإن أي بناء معماري يخالف هذا التحريم كان يندرج في خانة المنع والردع.

الفتوى الرابعة : منع إصلاح سور القيروان بنفس مواد البناء التي تم استعمالها في البناء الأول

نظرا لأهمية النازلة وما تتطلبه من فحص وتحليل فإننا نوردها بحرفيتها : "وسئل المازري عن محضر مضمنه أن جماعة كثيرة وذكرهم عاينوا سور القيروان من أبراجه مادت وبدله وجميعه قد انتهى إلى آخر الباب أنه صائر إلى الهلاك والذهاب وأرجل سقوف أبراجه ذهبت وسائر أعواده ظاهر كذلك وأن من حسن النظر لأهل البلد المذكور وسائر من يرد عليه أن يبادروا سورها ببيع ما بقي من الأنقاص المذكورة وينفق على أبراجها ويرد جميعها بالآجر والجص، فهو أبقى له وأسلم من الذهاب وأنه لا يقدر على ردّ أبراجه بالسقوف على ما كانت عليه وأن الوقوف حتى يفتح الله ما يتم به من الأبراج يؤدي إلى ذهاب بقيته ويخاف الدخيلة على أهل البلد ووصول الأذى إليهم، وتكون اليد الغالبة، وشهدوا بذلك أواخر شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، فهل يعمل على ما تضمنه هذا المحضر أم لا ؟"[7].

وردت هذه النازلة على الفقيه المازري بمحضر مؤرخ بآخر شهر ربيع الأول من سنة 523 هـ، وكما هو واضح فإن مضمونها يدور حول سور القيروان الذي صار مهددا بالانهيار نتيجة التصدعات التي أصابته ، وتآكل أعمدة أبراجه التي أصبحت أخشابها الداخلية ظاهرة للعيان دليلا على التآكل. ويدعو صاحب النازلة المسؤولين في القيروان إلى المبادرة ببيع ما بقي من أنقاض السور، وإعادة ترميمه مع الأبراج بمادة الآجر والجص لقدرتهما على مقاومة تقلبات الزمن.

ومن ثنايا هذه النازلة يمكن استخراج الملاحظات التالية :

1- إن سور القيروان رغم تجديده من طرف المعز بن باديس سنة 444 هـ/ 1052 م، فقد كان قد وصل في العقد الثالث من القرن 6 هـ/ 12 م إلى مرحلة من الوهن حتى أوشك على السقوط والاندثار، مما كان يتطلب قرارا حاسما بإعادة ترميمه وإصلاحه دفعا للضرر من جهة، وحفاظا على التراث المعماري للمدينة من جهة أخرى.

2- لم تكن مواد البناء التي بني بها سور القيروان من القوة والمتانة ما تقاوم به عادية الزمن، وهي ظاهرة عمّت معظم المرافق العمرانية بالقيروان، خاصة في المراحل الأولى من تمصيرها. ولاغرو فإن اللبن والطين كانا من المواد المعوّل عليهما في البناء، وهو ما يؤكده ابن رسته[8] وغيره [9] بصريح النص بقوله : "والقيروان مدينة كان عليها سور من لبن وطين". وفي

---

[6] المعيار ، ج 2، ص 409.

[7] أُنظر نص النازلة عند الونشريسي، ن. م.، ج 7، ص 230.

[8] ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن ، 1892، ص 347.

نفس المنحى يشير المالكي[10] إلى أن مسجد السبت – أحد مساجد القيروان - كان مبنيا بالطوب، وأن منزل عبد الله بن عمر بن غانم قاضي القيروان بني أيضا بالطوب[11]. ويضيف المقدسي[12] أن أهل القيروان كانوا يعتمدون في بنيانهم على المدر، وكلها نصوص تؤكد عدم صلابة مادة الطوب لمقاومة الظواهر الطبيعية والمناخية وأنها ربما كانت شائعة الاستعمال لكونها غير مكلفة ماديا في البناء، وهذا ما يفسر اقتصار قاضي القيروان الفقيه سحنون على إغلاق دار البغاء السالفة الذكر "بالطوب والطين"[13]. لذلك منع صاحب النازلة موضوع التحليل أن تستعمل مادة الطوب لإصلاح أبراج سور القيروان وطالب مقابل ذلك باستبدالها بالآجر والجص لأنه في نظره "أبقى له وأسلم من الذهاب"، وهو ما يفهم منه أن وعيا في مجال البناء المعماري قد بدأ ينمو، بل ذهب صاحب النازلة للتنبيه إلى استحالة إعادة بناء سقوف الأبراج "على ما كانت عليه"، بمعنى أن مواد البناء التي كان قد بني بها السور والأبراج أثبتت عدم فاعليتها ومن ثم وجب تغييرها.

3- يشي هذا النص أيضا بحرص المجتمع القيرواني على مبدأ المحافظة على تراثه المعماري، وهو ما يتجلى في عدة مؤشرات يحتويها النص منها :

أ- إعداد محضر مكتوب ينبه إلى خطورة تعرض سور القيروان للإنهيار ، إذ جاء في نص النازلة أن الفقيه المازري سئل "عن محضر"، أي شهادة مكتوبة ومذيلة بأسماء الشهود للدلالة على صحة التخوفات، علما بان المحضر له دلالات عميقة في التنبيه لخطر الكارثة وضرورة تحمل الجهات المعنية بالبناء والتعمير كامل مسؤوليتها عما يمكن أن يقع.

ب- التأكيد على الطابع الجماعي للمحضر من خلال إقرار الشهود بقرب سقوط سور القيروان وذكر أسمائهم حرصا على ضرورة تحمل المسؤولية وحساسية الموضوع، وذلك بناء على المشاهدة والمعاينة وليس السماع فقط،ولاغرو فقد جاء في النص أن "**جماعة كثيرة** وذكرهم عاينوا سور القيروان من أبراجه مادت"، علما بأن الشهادة الجماعية والمعاينة الميدانية تكون أكثر وزنا من الفرضية.

ج- التنبيه إلى خطورة الموقف، وهو ما يتجلى في قول صاحب النازلة أن السور "صائر إلى الهلاك والذهاب"، معطيا الدليل على هذه الحتمية المتوقعة من أن سقوف أبراج السور قد "ذهبت وسائر أعواده ظاهر".

د- ويبدو أن تأثير صاحب النازلة كان قويا إلى درجة أن جواب الإمام المازري سار في نفس الاتجاه، وأكد على ضرورة إصلاح وترميم سور القيروان.

---

[9] اليعقوبي، كتاب البلدان، نشر مع كتاب الأعلاق النفيسة السالف الذكر، ، ليدن ، 1892، ص 347.

[10] المالكي، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، 1983، ج 1، ص 495.

[11] ن. م.، ص 175-175.

[12] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، 1991، ص 225.

[13] المعيار، ج 2، ص 409.

والحصيلة أن نصوص الفتاوى السالفة الذكر تضمنت خطابين يجمعهما قاسم مشترك وهو دفع الضرر، فبينما أكدت النوازل الأولى على ظاهرة المنع تحت مبرر الحرص على تناسق المعمار القيرواني والحفاظ على جمالية منظره، ذهبت الفتوى الأخيرة إلى الحرص على تثبيت مبدأ الحفاظ على التراث المعماري لمدينة القيروان من خلال الدعوة إلى ترميم وإصلاح سور القيروان بمواد صلبة قادرة على مقاومة عوادي الدهر.

ثانيا : ثقافة الهدم في المعمار القيرواني

إن مفهوم الهدم الذي تتوخاه هذه الدراسة لا يعني الخراب الذي تعرضت له القيروان نتيجة الحروب المدمرة التي عصفت بها أو اجتياحات القبائل العربية لها أو كل ما يمت بصلة للخراب الجماعي الذي اكتوت بناره في لحظات قاتمة من تاريخها، بل إن المفهوم المتبنى في هذا الصدد يتعلق ببعض السلوكات الفردية التي حركتها بواعث شخصية جعلت بعض القادة يوجهون معاول هدم بعض المعالم العمرانية لمدينة القيروان بقرار فردي نكاية فيمن سبقوهم إلى بنائها وطمسا لكل أثر يخلد ذكرهم.

فمنذ بداية تأسيس القيروان بدأ منحى الهدم في اتجاه تصاعدي، إذ بعد فتح القائد العربي معاوية بن حديج السكوني لمجموعة من الحصون في افريقية وحصوله على غنائم مهمة، بدأ يفكر في بناء معسكر يكون بمثابة قاعدة عسكرية لجيشه، فتوج مشروعه ببناء قيروان ظل مقيما بها وهو يتابع غزواته المظفرة إلى حين رجوعه لمصر[14].

بيد أن هذه "القيروان الأولى" لم تحظ برضى القائد العربي عقبة بن نافع الذي خلف معاوية بن حديج في قيادة جيوش الفاتحين للشمال الإفريقي ، وهو ما عبّر عنه ابن الأبار[15] ، بقوله أن عقبة "لم يعجبه القيروان الذي بناه معاوية بن حديج قبله"، فعطّل عمارتها وانتقل إلى موضع آخر تجمع المصادر أنه راعى فيها الأبعاد الحربية والظروف المناخية[16]. وبعد محاولات أفلحت في إقناع أتباعه "نقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم وركّز رمحه وقال هذا قيروانكم"[17]. ولعلّ رمز الرمح وتثبيته في الأرض يحمل دلالة عميقة على الاستئثار بالقرار وعزم صاحب الرمح على تحقيق رغبة شخصية تسعى إلى طمس قيروان معاوية بن حديج.

ومن خلال هذه الرواية المتواترة في المصادر العربية ، يمكن الخروج باستنتاجين.

أولهما أننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن مدينة القيروان الأولى التي أسسها معاوية بن حديج وأن أخبارها قد طمست نتيجة الإهمال والتهميش الذي طالها بسبب موقف عقبة بن نافع، وهو صاحب القرار الذي أصرّ على أن تكون قيروانه المدينة التي ينبغي أن تدخل في

---

[14] ابن الأبار، ن. م.، ج 2، ص323.

[15] ن. م.، ص 325.

[16] المالكي، ن. م.، ج 1، ص 11 .

[17] ابن عبد الحكم، ن. م.، ص 54؛ ابن الأبار، ن. م.، ص 227.

دائرة التاريخ. ويبدو أن قيروان معاوية بن حديج لم تتجاوز آنذاك مستوى قاعدة عسكرية فرضتها ظرفية المرحلة، وهذا ما ينسجم مع تعريف ياقوت[18] لمصطلح " قيروان" بأنه تعريب لمصطلح كروان الفارسي الذي يشير إلى مكان تجمع الجيوش للقيام بغارات عسكرية، بيد أنها كانت في طريق التمصير والتعمير لولا أن يد المنع والتهميش طالتها على يد القائد عقبة بن نافع، ومن ثم نعتقد أن عملية إيقاف مسلسل تعمير القيروان الأولى تدخل في إطار البواعث الشخصية التي كان كل قائد عربي يحاول فرضها، وهو ما سيتأكد بعد ذلك مع القائد أبي المهاجر دينار ثم عقبة بن نافع مرة ثانية.

وللدلالة على صحة ما نذهب إليه ، نورد بهذا الصدد رواية ابن عذاري[19] التي يقول فيها : **"فقدم أبو المهاجر إفريقية فأساء عزل عقبة ونزل خارجا عن المدينة وكره أن ينزل الموضع الذي اختطه عقبة، ومضى حتى خلفه بميلين مما يلي طريق تونس فاختط بها مدينة وأراد أن يكون لها ذكرها ويفسد عمل عقبة، فبنى مدينته وأخذ في عمرانها وأمر الناس أن تحرق القيروان ويعمروا مدينته".**

إن هذه الرواية تعكس مجموعة من المعطيات حول ثقافة الهدم التي مست عمران القيروان يمكن أن نقوّل في شأنها :

1- إن ثقافة الهدم تبرز واضحة في هذه الرواية، فقد وجّه القائد أبو المهاجر دينار أمره إلى جيش الفاتحين بهدم وتدمير وإحراق قيروان عقبة بن نافع دون رحمة والانتقال إلى قيروانه.

2- إن القيروان التي شيدها أبو المهاجر هي "القيروان الثالثة" في سلسلة حلقات بناء هذه المدينة. وقد أطلق عليها أبو العرب[20] اسم "تيكروان" وهو مصطلح يعني القيروان.

3- تعكس هذه الرواية أيضا مدى تأثر تطور عمران القيروان بالحزازات الشخصية والصراعات والأنانية وحب الذات، فأبو المهاجر لم يقدم على بناء مدينته الجديدة إلا "ليفسد عمل عقبة"، بل بلغ به الأمر إلى حد هدمها وتخريبها نكاية فيه[21].

ومن أول وهلة أعرب الخليفة الأموي يزيد بن معاوية عن تخوفاته بشأن هدم قيروان عقبة بن نافع عندما عاد هذا الأخير إلى دمشق معزولا ، فبمجرد ما أطلعه على خبر المسجد الذي بناه بالقيروان واحتج على عزله، بادر الخليفة إلى التحذير من مغبة تعرض القيروان

---

[18] ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دون تاريخ ج 4، ص 420 ويذكر بيتا شعريا لامرئ القيس يقول فيه :

وغارة ذات قيروان   كان أسرابها الرعال

[19] ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق ل. برفنسال وس. كولان، بيروت، 1980، ج 1، ص 22.

[20] أبو العرب، طبقات علماء افريقية وتونس، تحقيق على الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس – الجزائر، 1985، ص 57؛ الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس، 1322 هـ، ج 1، ص 43.

[21] ابن الأبار، ن. م.، ص 325.

للهدم والتخريب من قبل أبي المهاجر دينار بقوله : "أدركوه قبل أن يخربها"[22]، مما يدل على أن الرجل قد فهم ما سيؤول إليه مصير القيروان بعد عزل عقبة.

ويشكل تعيين عقبة بن نافع على ولاية إفريقية للمرة الثانية محطة أخرى دفعت بظاهرة الهدم نحو التصعيد. ففي نص على جانب من الأهمية يذكر أبو العرب[23] أن عقبة "خرّب تيكروان التي كان اتخذها أبو المهاجر دينار قيروانا". ويضيف الرقيق القيرواني[24] أن القائد العربي المذكور "أوثق أبا المهاجر في الحديد وأمر بخراب مدينته وردّ الناس إلى القيروان". ولعلّ هذه النصوص تعكس بالملموس ثقافة الهدم التي تجذرت في بنية عقل قادة الفتح العربي نتيجة الصراعات الشخصية وتسببت في تعثر عمران القيروان.

من ناحية أخرى تطالعنا المصادر بذكر خبر هدم الوالي حسان بن النعمان المسجد الجامع بالقيروان وإعادة بنائه من جديد باستثناء المحراب الذي تركه بالشكل الذي بناه عقبة[25]. وإذا كانت بعض المرويات قد جعلت هذا الحدث يندرج في خانة تجديد وإصلاح المسجد[26] واصلاحه، فإن نصوصا أخرى تنزّل هذا الحدث في خانة التنافس وحب الذات وسعي كل وال جديد إلى إنكار جهود من سبقه من الولاة، وهو ما يؤكده صاحب الاستبصار[27] والحميري[28] بقولهما في رواية متشابهة أن حسان بن النعمان هدم جامع القيروان "ويقال إنه هدم وبنى ثلاث مرات كل وال يلي القيروان يريد أن يكون الجامع من بنيانه".

وفي رواية طريفة يشير البكري[29] أن والي افريقية يزيد بن حاتم هدم الجامع بأكمله سنة 255 هـ / 868 م، وأن الأمير الأغلبي زيادة الله بن الأغلب هدم أيضا الجامع برمته، بل أراد هدم المحراب نفسه ولكن مستشاريه أبدوا معارضتهم لهذا الهدم بسبب ما كان للمحراب من قدسية في عقلية أهل القيروان باعتبار أنه من بناء عقبة بن نافع الذي جبل الناس على اتخاذ محرابه مكانا للتبرك. ومع ذلك حاول زيادة الله بن الأغلب اختراق هذا الحاجز القدسي وألح على هدم المحراب "لئلا يكون في الجامع أثر لغيره"، وهو تعبير دقيق على الأنانية وحب الذات والتنكر لإنجازات من سبقوه. وبعد أن تأكد عزمه على هدمه، سعى البعض إلى إيجاد صيغة توفيقية تحافظ على المقدس دون أن تلجم رغبة زيادة الله بن الأغلب، فاقترح عليه أحد البناة أن يدخل المحراب بين حائطين فينجو من كارثة الهدم ويكون غير مرئي فلا يظهر أثر لغير الأمير الأغلبي، فاستصوب هذا الأخير الاقتراح.

---

[22] المالكي، ن. م.، ج 1 ، ص 33 -34.

[23] أبو العرب، ن. م.، ص 57.

[24] الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، 1958، ص 40؛ المالكي، ن. م.، ج 1، ص 34.

[25] البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فون ليوفن وأندري فيري، تونس، 1992، ج 1، ص 573.

[26] ابن عبد الحكم، ن. م.، ص 54؛ المالكي، ن. م.، ج 1، ص 15.

[27] الاستبصار، تحقيق سعد زغلول، الدار البيضاء، 1985، ص 114.

[28] الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 487.

[29] البكري، ن. م.، ج 2، ص 574.

وبلغت الرغبة في إفساد الإنجازات العمرانية السابقة ذروتها مع دخول الفاطميين الشيعة إلى القيروان، ولا غرو فقد أراد الخليفة الفاطمي معد بن إسماعيل بن عبد الله تحريف قبلة مسجد القيروان سنة 345 هـ/956 م وكان من جملة المعتقدات الشعبية السائدة في القيروان آنذاك أن القدرة الإلهية تمنع كل من حاول المسّ بمحرابه أو محاولة تحريف قبلته بفضل دعاء سابق دعاه عقبه بن نافع إبان تأسيسه المسجد المذكور، فلما بلغ معد بن إسماعيل ذلك انتابه الغضب وأمر بنبش قبر عقبة بن نافع وإحراق رمته بالنار، ولكنه لم يفز بطائل[30].

ومهما كانت صحة هذه الرواية أو ما شابها من مبالغة فإنها تحمل رمزا من رموز ثقافة الرغبة في هدم الإنجازات المعمارية التي أنجزها الآخر / السابق. ولعلّ ما ورد في الرواية الأخيرة حول بلوغ الخليفة الفاطمي حد محاولة نبش قبر عقبة وإحراق جثته لدليل على هذا التنكر الصريح للمشروع العمراني الذي تبناه السابقون، ناهيك عن التعصب المذهبي الذي كان حاضرا أيضا في ردة فعل الخليفة الفاطمي.

ولم تقتصر ثقافة الهدم على المعمار الديني للقيروان، بل طالت أيضا تحصيناتها بما في ذلك السور الذي كان قد بناه محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي سنة 144 هـ / 761 م، وكان سمكه 10 أذرع، ويشتمل على الأبواب الرئيسية المعروفة كباب أبي الربيع وباب نافع وباب أصرم وباب سلم وباب تونس وغيرها من الأبواب الأربعة عشرة[31]، فقد ذكر اليعقوبي وغيره[32] أن زيادة الله بن إبراهيم أمر بهدمه سنة 209 هـ عند قيام أهل القيروان بالثورة عليه تحت قيادة الطنبذي. وذلك لتأييدهم له، وبعد أن منيت بالفشل خرجوا إلى زيادة الله يلتمسون منه العفو والصفح، إلا أنه "هدم سور القيروان عقوبة لهم"[33].

والحاصل من هذه النصوص أن ثقافة الهدم في المجال العمراني كانت دائمة الحضور في عقلية النخبة الحاكمة، إما نكاية في الإنجازات العمرانية لمن تولوا شؤون القيروان قبلهم أو لتثبيت دعائم حكمهم.

بيد أن ظاهرة الهدم في مسيرة المجال العمراني لم تكن تحمل دائما مفهوما سلبيا، بل تمخضت عنها أحيانا آثار إيجابية تجلت في المزيد من تطوير عمران القيروان والمساهمة في جماليته. فبعد أن هدم حسان بن النعمان المسجد الجامع سنة 84 هـ "بناه بناء حسنا"[34] وحمل ساريتين حمراوتين موشاتين بلون اصفر، وكانتا آية في الجمال، يقال أنهما جلبتا من كنيسة نصرانية كانت بالقيروان قبل الفتح الإسلامي في موضع أصبح يعرف فيما بعد بسوق الصرف. ولا يمكن إدراك قيمة هاتين الساريتين وعمقهما الجمالي إلا من خلال ما نص عليه الجغرافيون أنه "يذكر كل من رآهما أنه لم ير في البلاد ما يقترن بهما"، وأن ملك

---

[30] البكري، ن. م.، ج 2 ، ص 743؛ الاستبصار، ن. م.، ص 114.

[31] البكري، ن. م.، ج 2، ص 575.

[32] اليعقوبي، ن. م.، ص 347؛ ابن رسته، ن. م.، ص 47؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، باريس، 1840، ص 145.

[33] البكري، ن. م.، ج 2، ص 575.

[34] المالكي، ن. م.، ج 1، ص 55.

القسطنطينية بذل للمسلمين فيهما قبل نقلهما للمسجد الجامع قدرا كبيرا من الذهب دون جذوى[35] وأنهما تترشحان ماء كل يوم جمعة قبل طلوع الشمس[36].

نفس الحكم ينطبق على عملية هدم المسجد الجامع من قبل الوالي يزيد بن حاتم سنة 155 هـ ، فبعد إعادة بنائه اشترى عمودا أخضرا "**بمال عريض جزل ووضعه فيه**"[37] ، مما يعكس تطور المشهد الجمالي الذي عرفه المسجد الجامع بالقيروان مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

وبالمثل فإن عملية هدم المسجد الجامع بالقيروان من قبل زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب كان لها أثر إيجابي. فبعد إتمام عملية الهدم أعاد بناء الجامع بالصخر والآجر والرخام، كما بنى المحراب بالرخام من أسفله إلى أعلاه. وقد وصفه ابن الأبار[38] أنه منقوش بالكتابة وبغير الكتابة وتحيط به سوار حسان بعضها مجزعة بأسود ناصعة البياض، شديد في السواد، ويقابل المحراب العمودان السالفي الذكر. وقد وصف البكري قبة المسجد المعروفة بباب البهو على أن في دورها 32 سارية من بديع الرخام "**وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة ، يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه**"[39]. ولعلّ هذا المشهد الجمالي الذي بلغه المسجد الجامع بالقيروان في زمن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ما جعل هذا الأخير يعتبر هذا العمل إحدى حسناته الأربعة التي كان يفتخر بها[40].

ولا يخرج هدم سور القيروان من قبل زيادة الله بن ابراهيم عن هذه القاعدة ، فقد جدده المعز بن باديس سنة 444هـ / 1052 م ، وأضاف إليه إضافات هامة حيث "**جعل السور مما يلي صبرة كالفصيل حائطان متصلان إلى مدينة صبرة ، بينهما نحو نصف ميل**"[41].

يتضح مما سبق أن عملية هدم المعالم العمرانية لمدينة القيروان خلال العصر الوسيط لم تكن تشير دائما إلى المفهوم السلبي، بل إن الظاهرة رغم دوافعها غير الأخلاقية أحيانا، شكلت رافدا آخر من الروافد التي كان ينتعش فيها المجال العمراني بالقيروان.

خلاصة القول إنّ المنع والهدم شكلا عنصرين أساسيين في مسار التطور العمراني لمدينة القيروان، فبينما كان المنع يهدف إلى تحسين تنظيم المجال العمراني بالمدينة وتحصينها من كل ما يسيء إلى الرؤية الجمالية، كانت ثقافة الهدم تتحرك وراء خلفية إلغاء الإنجازات العمرانية للدول أو الأشخاص الذين تولوا شؤون القيروان وتحقيق تفوق الذات من جانب الفئة الحاكمة التي جاءت بعدها، مما خلف روحا تنافسية استفادت منها مدينة القيروان في مسيرتها المعمارية.

---

[35] البكري، ن. م.، ج 2، ص 573؛ الحميري، ن. م.، ص 485؛ المالكي، ن. م.، ج 1، ص 32؛ الاستبصار، ن. م.، ص 114.

[36] القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دون تاريخ، ص 242.

[37] البكري، ن. م.، ج 2، ص 574؛ الرقيق، ن. م.، ص 152؛ ابن الأبار، ن. م.، ج 1، ص 72-73.

[38] ابن الأبار، ن. م.، ج 1، ص 153-154؛ البكري، ن. م.، ج 2، ص 574؛ المقدسي، ن. م.، ص225.

[39] البكري، ن. م.، ج 1، ص 575.

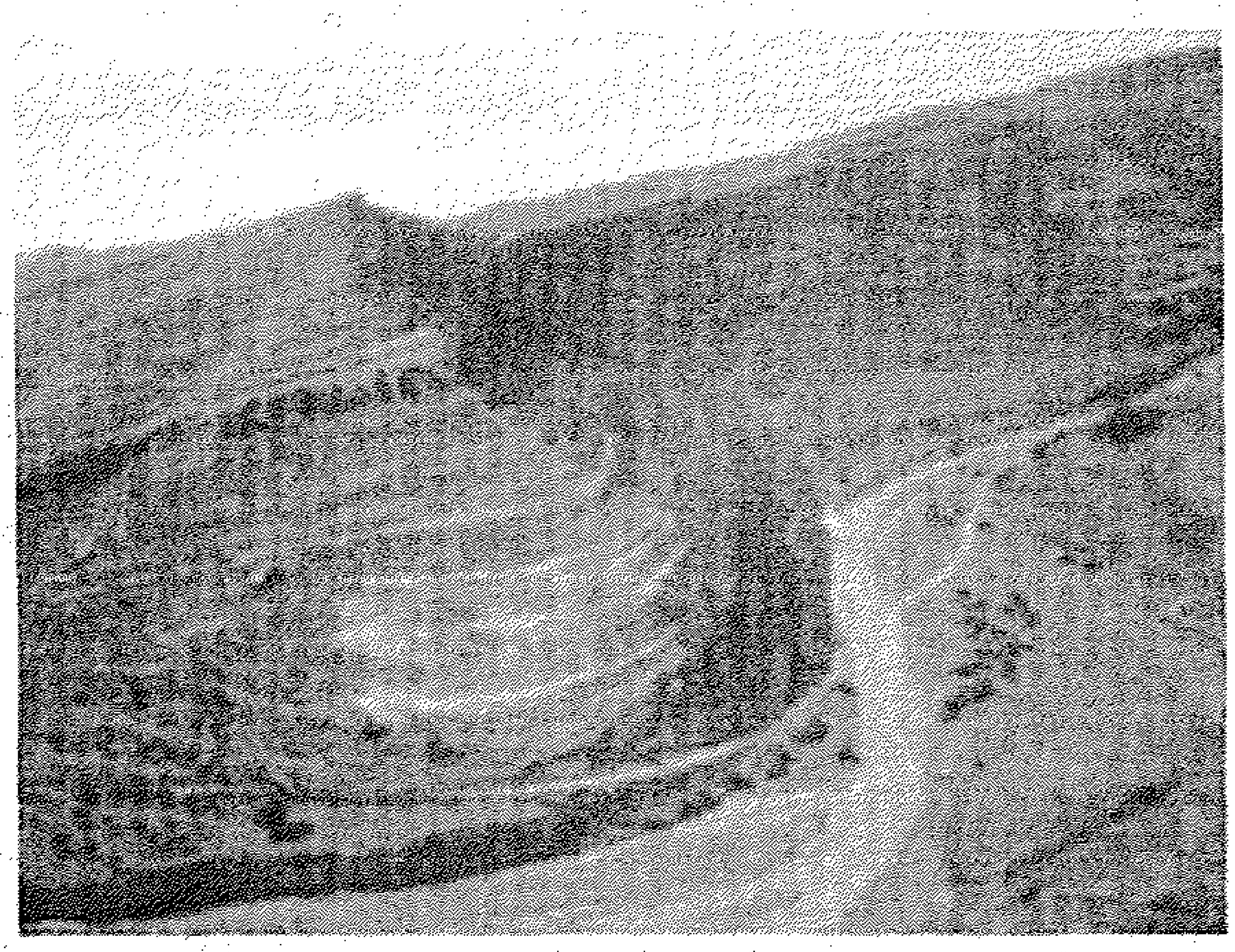
[40] أثر عن زيادة الله بن الأغلب قوله : "ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان وبنياني قنطرة الربيع وبنياني حصن مدينة سوسة..."، أنظر البكري ن. م.، ج 2، ص 590-591.

[41] البكري ن. م.، ج 2، ص 575.

الانتماء المذهبي لجبل وسلات
بين معطيات النصوص والمعطيات الأثرية

رياض المرابط
كلّية العلوم الإنسانيّة والإجتماعية بتونس

لئن كانت معرفتنا الجغرافية بجبل وسلات الواقع شمال غرب القيروان في قلب السهوب القيروانية والذي يمثل من جهة اخرى رأسا متقدما لمرتفعات التل التونسي[1] على قدر من الوضوح[2] فإن المعطيات التي نملكها حول تاريخه من خلال المصادر المكتوبة المتوفرة تتسم بالندرة والغموض، عدا ما يتصل بحضوره في أزمات تونس في الفترة المرادية والحسينية سيما ما يتعلق بدوره في الفتنة الباشية الحسينية، هذاالدّور اللّذي كلف سكانه غاليا باخلائهم وتشتيتهم سنة 1762[3].



شكل 1: منظر عام للجبل من جهة مدخله الشّرقي

---

[1] أنظر:
Despois (Jean), « le Djebel Ousselet, les Ousseltiya et les Kooub », dans *Les cahiers de la Tunisie*, n° 28, 1959, pp. 407-427.

[2] إضافة الى كلّ المراجع الجغرافية التّونسية العّامة الصّادرة منذ بداية تسعينات القرن العشرين. نشير الى الاهتمام الخاص للأستاذ رؤوف الكرّاي بهذا الجبل الذّي يعكف على دراسته وتوجيه طلبته لدراسته ودراسة محيطه.

[3] عبد الواحد المكني، شتات أهل وسلات من 1752 إلى بداية القرن العشرين، تونس، د.ت.
Valensi (Lucette), « Le Djebel Ousselat au XVIIIème siècle », dans *Les cahiers de la Tunisie*, n° 47-48, 1954, pp. 89-100.

لا يعطي دور جبل وسلات في أزمات القرنين 17 و18 في حد ذاته أي مشروعية جديّة لطرح المسالة المذهبية سيما وان مصادر الفترة وطبيعة الصراع الدائر لا علاقة مباشرة لها بهذا المنحى. وقد يستغرب أصلا طرح هذا الموضوع بالنسبة إلى مجال هو بمثابة ظهر القيروان عاصمة الوجود الاسلامي السّني المالكي في بلاد المغرب قاطبة. ولكن معطيات المصادر على شحّتها تسمح بالانتباه الى ان جبل وسلات لم يتناغم قط مع أي من السّلط الرسمية القائمة منذ الفتوحات الاولى. يكفي فقط ان نذكر نعته من قبل الرّقيق القيرواني بباب لجهنّم في مقابل المنستير باب الجنّة والتي هي المركز الروحي المهم للسنّة المالكية في العصر الوسيط.[4] فأقلّ ما توحي به المصادر اذن اننا ازاء مجموعة بشرية ضعيفة الانسجام مع السلطة المركزية لفترات طويلة من العصرين الوسيط والحديث ويستند تواصل قلّة الإنسجام مع الحكم المركزي أيّا كان شكله وأينما كانت عاصمته إلى التّناقضات البديهيّة بين عالم الجبال بما يفرضه من شظف العيش وإحساس بالمنعة وعالم البطاح حيث المدينة و"رغد " عيشها وحيث الرّيف الخاضع أو المخضع لها.

ولمّا كانت ثقافة العصر الوسيط دينية مذهبية في جوهرها ، فليس لنا أن نبحث عن "اسمنت" هذا التواصل للممانعة في غير التميز المذهبي في بيئة تجمع الدراسات على خصوصياتها البربرية وصلتها الوثيقة بقبيلة مزاتة الاباضية[5]. في مقابل شح المصادر يندهش زائر الجبل لثرائه بشواهد الثقافة المادية المتنوعة والتي تعطي للدعوة التي اطلقها جون ديبوا منذ حوالي نصف قرن للاهتمام بها وبآثار الأرياف والبربر بشكل عام كل مشروعيتها [6] وسنحاول في هذا العمل توظيف ما وصلنا اليه من معطيات ميدانية يمكن ان تساهم في إثراء هذا الملف وتتعلق هذه المعطيات أساسا بالمعالم الدينية التي وقفنا عليها خلال أعمال المسح التي نقوم بها أو نشرف عليها [7] و رغم الطابع الوقتي ومصاعب التأريخ المرتبطة بطبيعة وثائقنا الصامتة فاننا نراها قادرة على تسليط أضواء إضافية على هذه الاشكالية.

---

[4] التجاني (أبو محمّد عبد الله بن أحمد)، رحلة التجاني، الدّار العربية للكتاب، تونس1981، ص 32.

[5] اُنظر على سبيل الذكر بالإضافة إلى أعمال المستشرق لويسكي ذائعة الصّيت الواردة ضمن قائمة مفصّلة في المراجع وثيقة الصّلة بموضوعنا:

Savage (E.), *A Gateway to Hell, a Gateway to Paradise*, Princeton-New Jersey, 1997, pp. 184-189 ; Bouzid (A.), *catalogue des tribus berbères « butr » au Maghreb d'après les sources des arabes Médiévales*, thèse de D.E.A (dactyl.), F.S.H.S. Tunis, 1992.

عبد الواحد المكني، ن. م.، ص 24-25؛ محمّد حسن، المدينة والبادية بإفريقيّة في العهد الحفصي، تونس، 1999، ج 1، ص 222-224.

[6] راجع:

Despois (J), *Op. cit.*, p. 407, note 1.

[7] نقوم منذ صائفة 2001 بمسح أثري للجبل مكّننا من الوقوف على زهاء 45 محور إهتمام أثري ما بين موقع بلدة ومعلم منعزل وشاركنا بعض طلبتنا الاهتمام بهذا الجبل اُنظر: العامري (نور الدّين)، المعمار والتّعمير ببلد النّحالة: دراسة أثرية لنموذج من قرى جبل وسلات، رسالة ماجستير، تحت إشراف رياض المرابط، مرقونة بكلّية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس، 2005.

1- وضع المسألة

• 1.1 جبل وسلات موطن عصيان في العصر الوسيط المتقدّم ومجال منفتح على التّأثير الإباضي

قد يكون من المفيد أن نشير أوّلا أنّ الرّواية الّتي قدّمها التجاني بخصوص أصل تسمية جبل ممطور من قبل معاوية بن حديج والّتي مفادها أنّه نزل "جبلا غربي قمّونيّة فأصابه مطر شديد فقال إنّ جبلنا هذا المطور فسمّي الجبل ممطورا الى اليوم" وقد استقاها دون ريب من المصادر السّابقة له[8] لكنّه دقّق في تحديد ممطور بوسلات[9] توحي من جهة بمحاولة مبكّرة لاحتواء الجبل من خلال تعريب اسمه هذا إن لم يكن ممطور هو مجرّد صيغة معرّبة لماتوراس كما تذهب الى ذلك دراسات حديثة [10]. ونستشفّ من تواصل استعمال تسمية وسلات ذات الأصول البربرية الأصيلة الواضحة والتّي من معانيها الصّلابة والبأس[11] أنّ الهويّة المحليّة للجبل وسكّانه المنعوتين من قبل التجاني بأخلاط البربر[12] ظلّت أقوى من سلطان المركز أوممتنعة عن سلطة المدينة كما يسمّيها الأستاذ محمّد حسن[13].

انطلاقا من هذه الخدمة التي اسداها التجاني للمعرفة التاريخية يمكننا ان نتسقط معطيات تخص جبل وسلات كلّما يتعلق الامر بأحداث تجري في محيطه المباشر أي مرتفعات جلولاء والقرن. ووفق هذا المنظور نرى جبلنا قريبا من الأحداث الدامية التي ميزت ثورة ميسرة المطغري على الامويين سنة 125 هجري والتي تبدو فيها المرتفعات القريبة للقيروان نقاط ارتكاز الثوّار[14]، سيما جيش عكاشة الفزاري الذي اتخذ من القرن قاعدة له في حصاره للقيروان، وكانت العربيات اثناء هذه المعركة التي بادر فيها حنظلة بن صفوان بفك الحصار قد "ركبن ظهور البيوت بالقيروان فان راين الغبار سائرا الى الجبل كبرن وسجدن وان رأينه مقبلا صرخن واستغثن"[15] .

---

[8] المالكي (أبو بكر عبد الله)، رياض النّفوس، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، بيروت، ج 1، ص 29. راجع الصّيغ المختلفة لنفس الخبر في المصادر الأخرى بالهامش 15 من نفس الصفحة.

[9] التجاني، ن. م.، ص 32.

[10] أنظر:

Ben Abbes (M.), *L'Afrique byzantine face à la conquête Arabe. Recherche sur le VII*^ème^ *siècle en Afrique du Nord*, thèse de doctorat (dactyl.), Paris I, 2004 p. 245.

[11] أنظر:

Pellegrin (A.), *Essai sur les noms de lieux en Algérie et en Tunisie*, Tunis, 1949, p. 59.

[12] التجاني، ن. م.، ص 32.

[13] محمد حسن، ن. م.، ج 1، ص 224.

[14] الرقيق القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم)، تاريخ إفريقيّة والمغرب (منسوب إليه)، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، بيروت 1970، ص 80-82. راجع: محمود اسماعيل عبد الرازق، الخوارج ببلاد المغرب في منتصف القرن الرّابع هجري، الرباط، 1975، ص 72.

[15] الرقيق القيرواني، ن. م.، ص 81.

ومن المهم ان نلاحظ ان تتبع حنظلة بن صفوان لفلول الصفرية عند هذه المعركة توقف عند جلولاء[16]، مما يعني ان جبل وسلات القريب منها بقي خارج طائلة المد الأموي. وتبرز جلولاء هنا كانها حد فاصل بين مجال السلطة ومجال الخارجين عنها في عالم الجبال. عالم يبدو كأنه على قدر من الأمان للثوار فقد سلك حليف عكاشة الفزاري في هذه المواجهات عبد الواحد الهواري "طريق الجبال" [17]. ولئن تواصل صدى جلولاء واتصالها بالقيروان خلال الفترة اللاحقة اذ اشتهرت فيما يبدو بعسلها الابيض الذي كان رائجا في اسواق القيروان في القرن الرابع للهجرة قبل 366 هجري/ 976م[18]، فإنه لا خبر يقين عن جبل وسلات إلى حدود أواسط القرن الثّالث للهجرة/ التّاسع ميلادي

بالنسبة لجبل وسلات يمكن أن نستفيد من الإشارات الثّمينة الّتي يقدّمها ابن سلام الإباضي (النّصف الثّاني من القرن الثّالث للهجرة/ النّصف الثّاني من القرن التّاسع ميلادي) بخصوص فقهاء الإباضية و"علمائهم ومشايخهم وذراريهم بمدينة القيروان وحواليها" وبرز من خلال هذه الإشارات انتشار دعوة الإباضية داخل القيروان نفسها وحولها وتحديدا غربيها حيث ينشط مثلا رجل يسمّى فضلا أبا عبد الله في وسط سوق الأحد[19] ولا يبدو أنّ الإباضيّة في هذه الفترة كانوا محلّ تتبع خاص، ونميل أكثر إلى اعتبار الفترة الأغلبية" فترة سلم" بالنسبة إلى الجبل إذا جارينا سولينياك في تأريخه لفسقيتي وادي السّوق ودار الباي بالفترة الأغلبية[20]، وصدّقنا إقرار لويسكي انّ الجبل كان محلّ اهتمام الأغالبة الّذين وجّهوا في عهد الأمير محمّد الأوّل حملة ضدّ بقايا الوثنيّة به، وهو ما يدعونا إلى الحدّ من الإندفاع في تعميم المسألة المذهبيّة في بيئة لم تتخلّص بعد من رواسب الثقافة القديمة[21] وإن كنا لا نستغرب رغم الغموض تغلغلا ما للسلطة الأغلبية في الجبل في عهد اتّسم باتّجاه سنّي للإمارة توّج بتولّي الإمام سحنون للقضاء[22] وفإننا المقابل نستغرب غياب صدى جبل وسلات إبّان ثورة أبي يزيد في مصادرنا، والحال ان مزاتة التي تجمع الدراسات على صلتها بالجبل كانت ممثلة في قيادة

---

[16] ن. م.، ص 85.

[17] ن. م.، ص 80.

[18] ابن ناجي (أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضور، ابراهيم شبّوح، محمد الأحمدي أبو النّور، محمد المجدوب وعبد العزيز المجدوب، تونس، 1993، ج 1، ص 84.

[19] ابن سلام الإباضي (لوّاب)، الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضيّة، تحقيق شفارتز وبن يعقوب، بيروت، 1985، ص 157 -159.

[20] أنظر:

Solignac (M.), « Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et les steppes tunisiennes du VII au XIème s. » dans *Annales IEO*, t. X, Alger, 1952, pp. 83-85 et 92-95.

[21] أنظر:

Lewicki (T.), « Le culte du Bélier dans la Tunisie musulmane » dans *Revue des études Islamiques*, cahier II, 1935, pp. 195-200.

[22] الطالبي (محمد)، الدّولة الأغلبية: التّاريخ السّياسي (184- 295 ه/800-909 م) تعريب د. منجي الصيادي، بيروت، 1985، ص 254 وما بعدها.

حركة ابي يزيد من خلال يدراس زعيم مزاتة[23]، سيّما وأن حصار صاحب الحمار للقيروان كان لابد له من قواعد خلفية حصينة أقربها مرتفعات جلولاء والقرن ووسلات وأنسبها وسلات من حيث المنعة ، تلك فرضية تستهوي، لكن التاريخ لا يكتب باعتماد غير الوثائق الصريحة وهو أمر لا نملكه ونملك في المقابل نصوصا متواترة من العصر الوسيط المتأخّر[24] يؤكّد تعرّض جبل وسلات إلى حملة تأديبية ناجحة من قبل الأمير الزّيري على بن يحيى يعمّق شبهة صلة الجبل بالاوساط الاباضية. واعتمد الزيريون في ما يبدو على الأعراب لانجاز هذه المهمة التي قد تكون جاءت في اطار التضييق على الخوارج اذ وجهت في نفس الظروف حملة ضدهم في جربة سنة 509 هجري/ 1116 ميلادي بعد أن عجزت حملة 431 هجري / 1020 ميلادي عن تحقيق كل غاياتها[25].

وعندما نلتفت الى الوثائق الاباضية مجدّدا بعد ما سبق ثبوته من عدم غربة القيروان ومحيطها عن التيارات الإباضية نكتشف من خلال المعجم الموسوعي الموضوع حديثا لأعلام الاباضية[26] أربعة علماء على الاقل لهم صلة بجبل وسلات وهم جعفرأو أبو جعفربن يحيى المزاتي الوسلاتي المتوفّى بعد 440 هجري/ 1089 ميلادي وكان من روّاد نشر نظام العزّابة[27]، أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي النفطي القابسي المزاتي الوسلاتي المتوفّى سنو 471 هجري/ 1079 ميلادي[28] ، المنصور بن عبد الغني المزاتي الوسلاتي[29]، أبو زكرياء يحيى بن جعفرالمزاتي الوسلاتي وقد أدرك بداية القرن السّادس هجري/ الثّاني عشر ميلادي[30] ويمثلون زهاء عشر العلماء المنسوبين لمزاتة في مجمل المصادر الاباضية[31]. ولسنا ندري إن كانت نسبة هولاء لجبل وسلات بالمولد ام بالنشاط ام كليها فالاكيد مثلا ان ابا الربيع سليمان بن يخلف المزاتي نعت بالنفطي والقابسي نسبة الى مواطن الاباضية التي نشط فيها فهل هو وسلاتي بالنشاط ام بالمنشأ سيما وأنّ اليه تعزو المصادر الاباضية الوهبية تحويل المزاتة النكار الى المذهب الوهبي اما المنصور بن عبد الغني فيعتبر من مشاهير الاباضية بجبل وسلات في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ويبدو ايضا أن يحيى بن جعفر الوسلاتي لم يكن أصيل وسلات فقد ولد بأريغ وتنقل بين مختلف مواطن الاباضية ومنها دون ريب وسلات التي انتسب

---

[23] أُنظر:

Dachraoui (F.), *Le califat Fatimide au Maghreb : histoire politique et institutions*, Tunis, 1981, p. 205.

[24] ابن الأثير(عز الدّين)، الكامل في التّاريخ، تحقيق على شيري، بيروت، 1988، ج 5، ص : ابن خلدون (عبد الرّحمن)، تاريخ ابن خلدون، بيروت، 1995، ج 5، ص 213.

[25] التجاني، ن. م.، ص 125.

[26] معجم أعلام الإباضيّة (جزآن)، تأليف مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث القرارة غرداية الجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999.

[27] ن. م.، ج 1، ص 113، ترجمة عدد 237.

[28] ن. م.، ج 2، ص 215-217، ترجمة عدد 472.

[29] ن. م.، ج2 ، ص 425، ترجمة عدد 472.

[30] ن. م.، ج 5، ص 457، ترجمة عدد 995.

[31] ن. م.، ج 1، ص 90-91.

إليها في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد على عادة الاباضية في نسبة علمائهم الى مواطن نشاطهم.

و لا نملك هنا إلا أن نبدي دهشتنا لهذه الطّفرة المفاجأة لأعلام الوسلاتية الإباضيّة في حيّز زمني محدود (ق 5 هجري- 6 هجري/ 11-12 ميلادي) في وثائق ذات طابع إباضي وهبي مؤكّد. أفلا يعبّر ذلك عن تجاهل شخصيّات أ خرى قد تكون من المذهب النكّاري الذّي لم يترك أدبيات تذكر ولا عرف في مواطن الإباضيّة الأخرى نشاطا علميا متميّزا بحيث اضطرّ أتباعه في جربة مثلا إلى الإنحياز للسلطة في آخر العهد الوسيط والإنخراط في المالكيّة.[32]

يبرز من خلال هذه المعطيات أمران أولهما عمق الصلة بين قبيلة مزاتة وجبل وسلات، فهو بإجماع الدراسات واحد من مواطن مزاتة ذات الميول الاباضية والمشاركة الجلية في ثورة صاحب الحمار. أمّا الأمر الثاني وهو يتمم ويؤكد الأمر الأول أن الجبل كان على علاقة ما بمذهب الخوارج الاباضية نكارا كانوا كما نتوقع أم وهبيّة كما توحي به بعض المعطيات أو كلاهما. ولكن ما عمق هذه الصلة وما مدى امتدادها الزمني؟

تتوقف المصادر الاباضية عن الاجابة منذ القرن السادس للهجرة لتفسح المجال للمصادر السنية والوثائق الرسمية التي تبدو وكانها على الاقل من حيث كرونولوجيّة المعطيات تأخذ عنها المشعل وهنا لا نملك الا الالتقاء مع ما ذهب إليه الأستاذ محمد حسن في ان " أهم مجموعة سكنت الجبل هي قبيلة مزاتة التي حافظت على مذهبها الاباضي الى حد القرن السادس هجري"[33].

- **2.1 انزياح تدريجي لجبل وسلات لأهل السنّة والسّلطة منذ العصر الوسيط المتأخّر**

تواصل المصادر السنية في مرحلة أولى إخراج الجبل عن دائرة الشرعية فها هو التجاني في مطلع القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر ميلادي لا يذكر جبل وسلات بخير[34]. ويتواصل الموقف السلبي من الجبل في القرن الموالي إذ تنعته فتوى للبرزلي[35] بأنه" **جبل لا تطاله الأحكام الشرعية**" ولسنا ندري إن كان المقصود استحالة تنفيذ أحكام قضاة القيروان بوسلات أم خروجه عن دائرة الفقه المالكي أم الأمرين معا. وفي كل الحالات فان فتوى البرزلي تؤكد معطى جديدا سيبرز على الأقل منذ القرن الثامن/ الرابع عشر وهو تقاضي قسم من الوسلاتية على الأقل أمام أهل السنة ويورد ابن ناجي اسم قاضيين من السنة توليا القضاء بجبل وسلات

---

[32] المرابط (رياض)، جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصرين الحفصي والمرادي: دراية أثرية وتاريخية ، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذة منيرة الرمادي شابوطو، جامعة تونسالأولى، 1995، 4 أجزاء، نشر الجزء الأوّل تحت عنوان: مدوّنة مساجد جربة، تونس، المعهد الوطني للتراث، 2002، أنظر ج 3 من المخطوطة، ص 157-158، 225.

[33] محمد حسن، ن. م.، ج 1، ص 224.

[34] التجاني ن. م.، ص 32.

[35] البرزلي (أبو القاسم بن أحمد)، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفنين والحكّام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 2003، ج 4، ص 128.

هما أبو الحسن العبيدلي المتوفى سنة 748 هجري/1317-1318 ميلادي[36] وأبو العباس أحمد بن سلامة الموساوي أو المرساوي النحالي المتلمذ خلال نفس الفترة على الشيخ أبي عبد الله محمد بن فندار بالقيروان وعلى ابن عرفة بتونس العاصمة والذي "قدّمه قاضيا لجبل وسلات فحكم به حتى مات"[37]. ويبدو أن الجبل انفتح حتى على الثقافة الزهدية والولائية الغريبة عن أوساط الاباضية خلال هذه الفترة أيضا فقد ذكر ابن ناجي في ترجمته للشيخ صالح الصدفي المنوي سنة 772هجري/1370-1371ميلادي أبا الحسن المريحزي" وكان من السياح واستوطن بعد ذلك جبل وسلات وتزوج به"[38].

الأكيد إذن أنّ جبلنا طالته رياح الثقافة السنية منذ العهد الحفصي سيما وأن الحفصيين سعوا جاهدين في ما يبدو إلى نشر العقيدة والفقه السنّيين في الأوساط الاباضية فقد عين ابن ناجي نفسه قاضيا على المالكية بمعقل إباضي آخر هو جزيرة جربة[39]. وإذا كان تدخل الحفصيين المباشر في الجبل يسير وفق ما انتهجوه في جربة من إستمالة للنكار على حساب الاباضية الوهبية وهو ما سيتأكد بوضوح في السياسة العثمانية لاحقا بالجزيرة، فهل يعني ذلك أن مهمتهم في جبل وسلات كانت أسهل بسبب ماضيه النكاري المفترض؟ وهل يكون التغلغل المالكي في جبل وسلات قدّم في نطاق تحول عام تميز بانحسار نفوذ الاباضية الثقافي والسياسي في العصر الوسيط المتأخر. أم أنّ النصوص كعادتها لم تقدم لنا ما نريد أن نعرفه بقدر ما قدمت ما يهمها أن نعرفه؟ هنا على النصوص أن تترك الكلمة للوثائق الصامتة.

ولكن قبل فتح الملف الأثري بخصوص المسألة المذهبيّة تجدر الإشارة إلى أنّه منذ الفترة الحفصية ستتواتر أكثر أصداء جبل وسلات في المصادر والوثائق الرّسميّة سيما وثائق الأرشيف[40] والأحباس[41] التّي تنبئ بصلة أوثق للجبل بمحيطه، صلة نلمسها لدى ابن أبي دينار في تعليق سريع ولا يخلو من الأهميّة على الحملة السّالفة الذّكر لعلي بن يحيى الزّيري سنة 509 هجري إذ يقول " وبعث جيشا إلى جبل وسلات فضايق به وفتحه عنوة وكان أهله إذ ذاك أهل فساد ونفاق" [42] بحيث يوحي النصّ من خلال عبارة –إذ ذاك– كان الأمر من منظور ابن أبي دينار في القرن السّابع عشر للميلاد لم يعد على حاله. عندما نتحدّث عن توطّد صلة الجبل بمحيطه في العصر الحديث فإنّ ذلك لا يعني بطبيعة الحال البتّة أن تكون هذه الصّلة بنفس العمق في جميع أرجاء الجبل ولدى كلّ مكوناته الاجتماعية. إنما تهم هذه الصلة أكثر النخب المؤثرة في المجتمع الجبلي. كما لا يعني ذلك مطلقا أن تكون العلاقة ودّية

---

[36] ابن ناجي ن. م.، ج 4، ص 128.

[37] ن. م.، ج 4، ص 245.

[38] ن. م.، ج 4، ص 177.

[39] ن. م.، ج 4، ص 195.

[40] الفخفاخ (المنصف)، موجز الدّفاتر الإداريّة والجبائيّة بالأرشيف الوطني التّونسي، تونس، 1990.

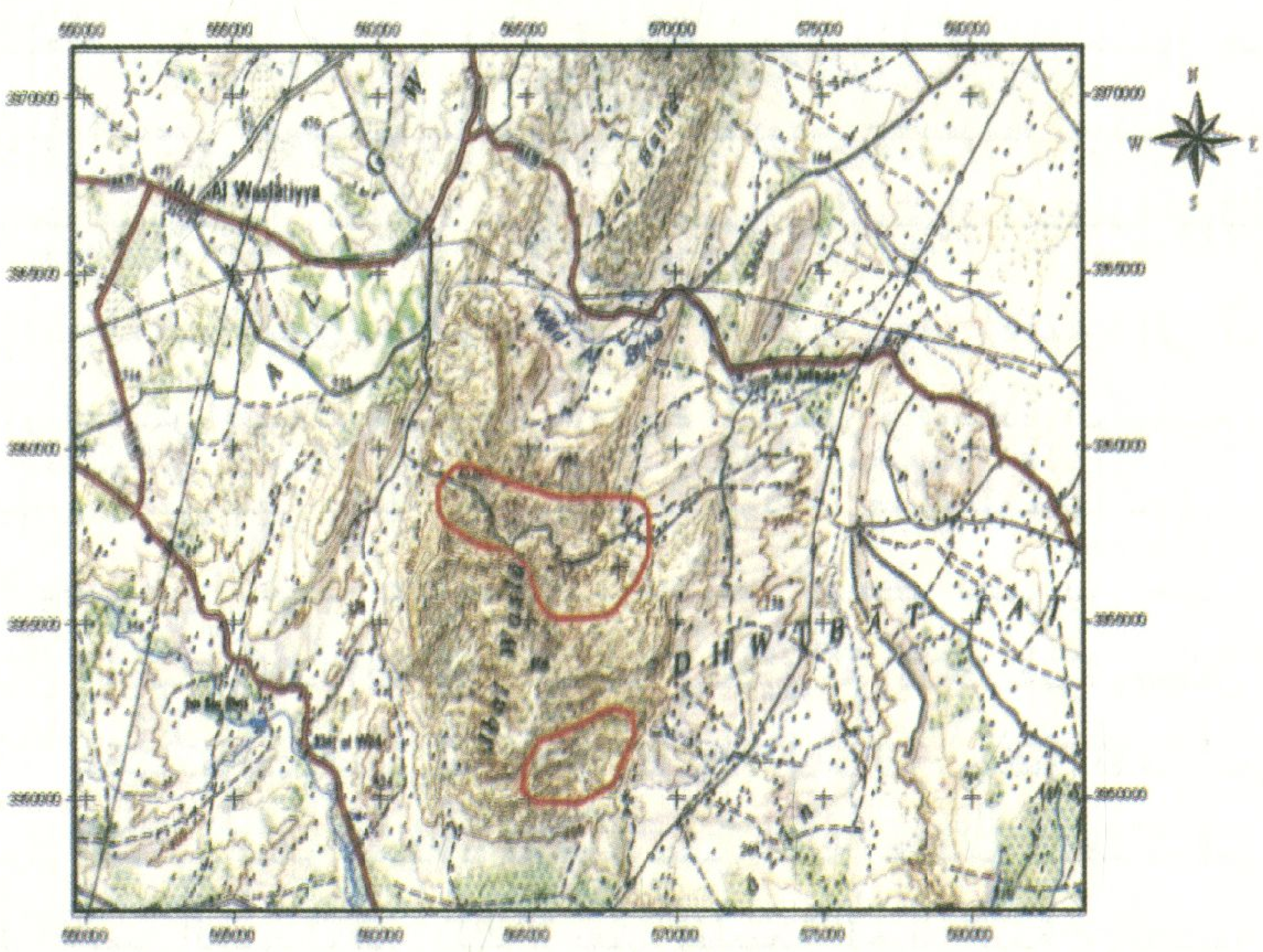
[41] يعكف زميلنا الأستاذ مراد الرمّاح على دراسة مجموعة من وثائق الأحباس المتعلّقة بالجبل في أواخر العهد الحفصي والعهد الحديث.

[42] ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، 1957، ص 91.

فانطلاقا من القرن السّابع عشر ستتعدّد المواجهات بين الجبل والسّلطة، مواجهات نجد فيها الجبل شريكا لهذا الطّرف أو ذاك من أطراف النخب المتناحرة ولا تقوم هذه الشّراكة فيما يبدو على أي خلفيّة مذهبيّة بقدر ما نستشفّ منها حيويّة لنخب الجبل وحرصها على استثمار تناقضات السلطة المراديّة [43] ثمّ الحسينيّة[44] مغامرة انتهت بالإجلاء القسري عن الجبل وتحوّل الوسالتية من أغلبية مشاغبة إلى أقليّة صامتة[45].

2- الملف الأثري

مكننا المسح الأثري المنجز إلى حد صائفة 2005 من الوقوف على آثار 5 مساجد بالجنوب الشرقي للجبل في منطقة بلاد الجاهلية وفي قطاعه الأوسط على ضفّتي واد اللوز ووادي السوق وهو عدد محدود سيما إن أخذنا بعين الاعتبار أنّ الاحصاء شمل حوالي 40 موقعا (ونظن أن هذا العدد مرشّح للارتفاع إذا ما تجاوز البحث المسح الإحصائي إلى رفع الركام الّذي يميز حالة معظم المواقع بحيث لا تسمح دائما بتبين طبيعة المعالم).



شكل 2: المناطق المستكشفة في جبل وسلات

43 ن.م.، ص 220-221 و ما بعدها.

44 الباجي (الصغير بن يوسف)، المشرع الملكي في سلطة أولاد على تركي، مخطوط دار الكتب الوطنيّة التّونسيّة عدد 18588؛ ابن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماظور، تونس 1970؛

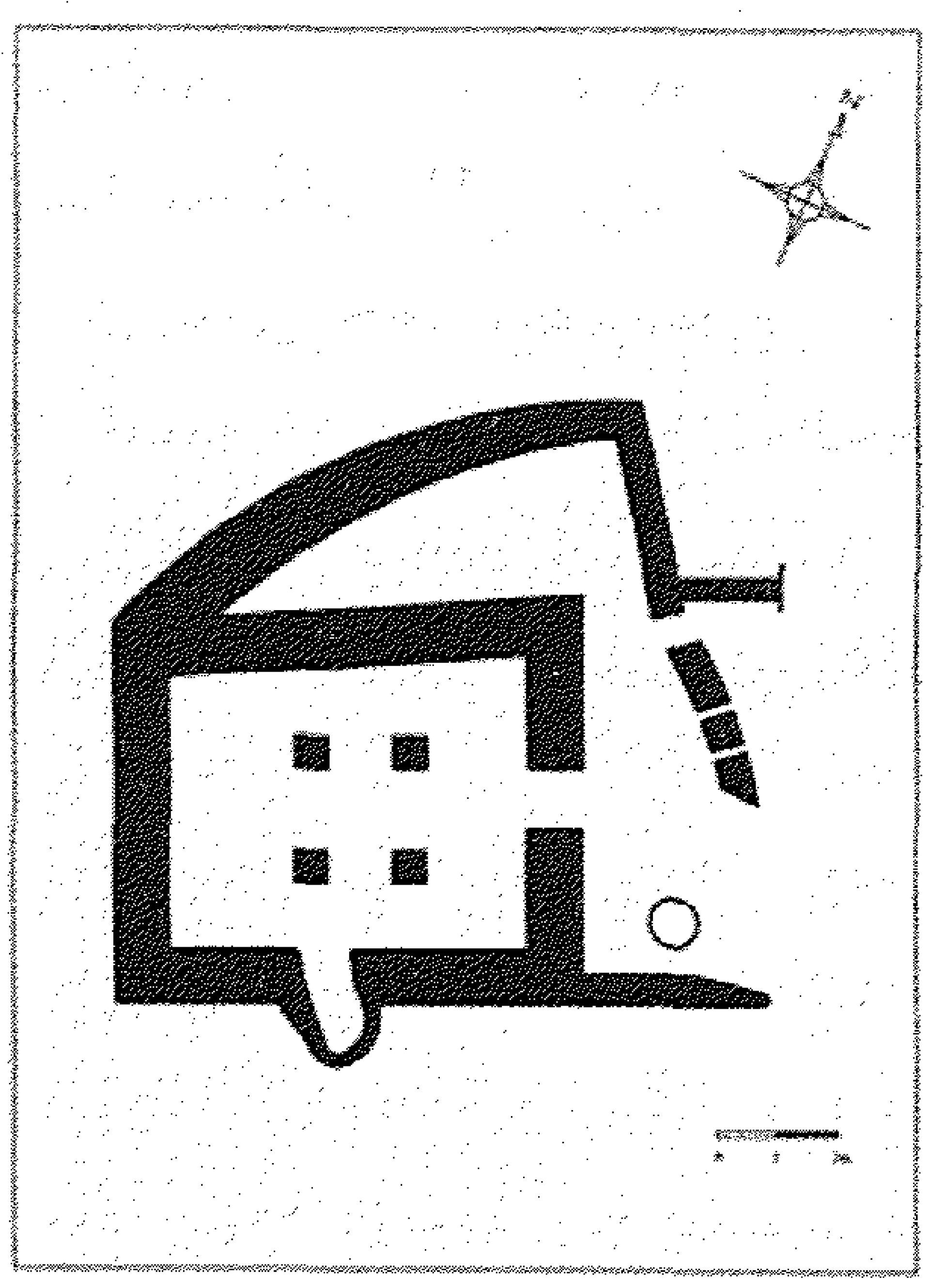
Cherif (M. H.), *Pouvoir société dans la Tunisie de Husayn b. Ali (1705-1740)*, Tunis, 1985

45 المكني (عبد الواحد)، ن.م.، ص 11.

1.2 المساجد

• 1.1.2 **جامع البلدة الجاهلية (بلدة الجاهلية)**

تقع بلدة الجاهلية ضمن مجموعة من المواقع بالجنوب الشرقي للجبل تبدو وكأنّها تشكّل وحدة جغرابشرية تسمّى بلاد الجاهلية وتنتظم على شكل هلال يتبع خطوط الذروة وهي كرومة البل والبلدة الجاهلية وجبّانة الجاهلية والمنشية والبلد[46]. يقع هذا المسجد/ المرقب في الركن الجنوب الغربي من البلدة مشرفا على وادي الجبانة ومراقب لمدخل الجبل من جهة الجنوب الشرقي. يحتل المعلم مساحة غير منتظمة على هيئة شبه منحرف معقود أبعاده من الشرق إلى الغرب 12.5 م، أمّا من جهة الغرب فيمتد ضلع المعلم مستقيما بين القبلة والجوف على 8 أمتار، ثم ينحرف متبعا خط الذروة باتّجاه الشمال والشمال الشرقي. ويبلغ أقصى امتداد المعلم بين القبلة والجوف 14 متر في مستوى امتداد الواجهة الشرقية للمسجد ومن ثم يمتد ضلع المعلم الشرقي منحرفا باتّجاه الجنوب الشرقي ليتصل بالضلع القبلي للمعلم مكوّنا بهذه الكيفية صحنا جانبا يحيط ببيت الصلاة من جهة الشرق والجوف، أمّا بيت الصلاة فذات مدخل محوري شرقي يتميز بعضّادتين وساكف منجزين من حجارة ضخمة أحادية النحت ويفضي إلى قاعة مربعة الشكل تقريبا أبعادها من الخارج (8.2 م من الشرق والغرب و8 متر بين القبلة والجوف) . تنقسم القاعة الى ثلاثة بلاطات عرضية تقريبا وثلاثة بلاطات طولية أوسطها اكثر إتساعا (1.85متر مقابل 1.65متر بالنسبة للبلاطتين الجانبيتين). وكان سقفه المسطّح على الارجح محمولا على أربع دعائم من حجارة مبنية مربعة المقطع (70 سم×70سم) ما زالت قائمة.



شكل 3: مخطط جامع البلدة الجاهلية

---

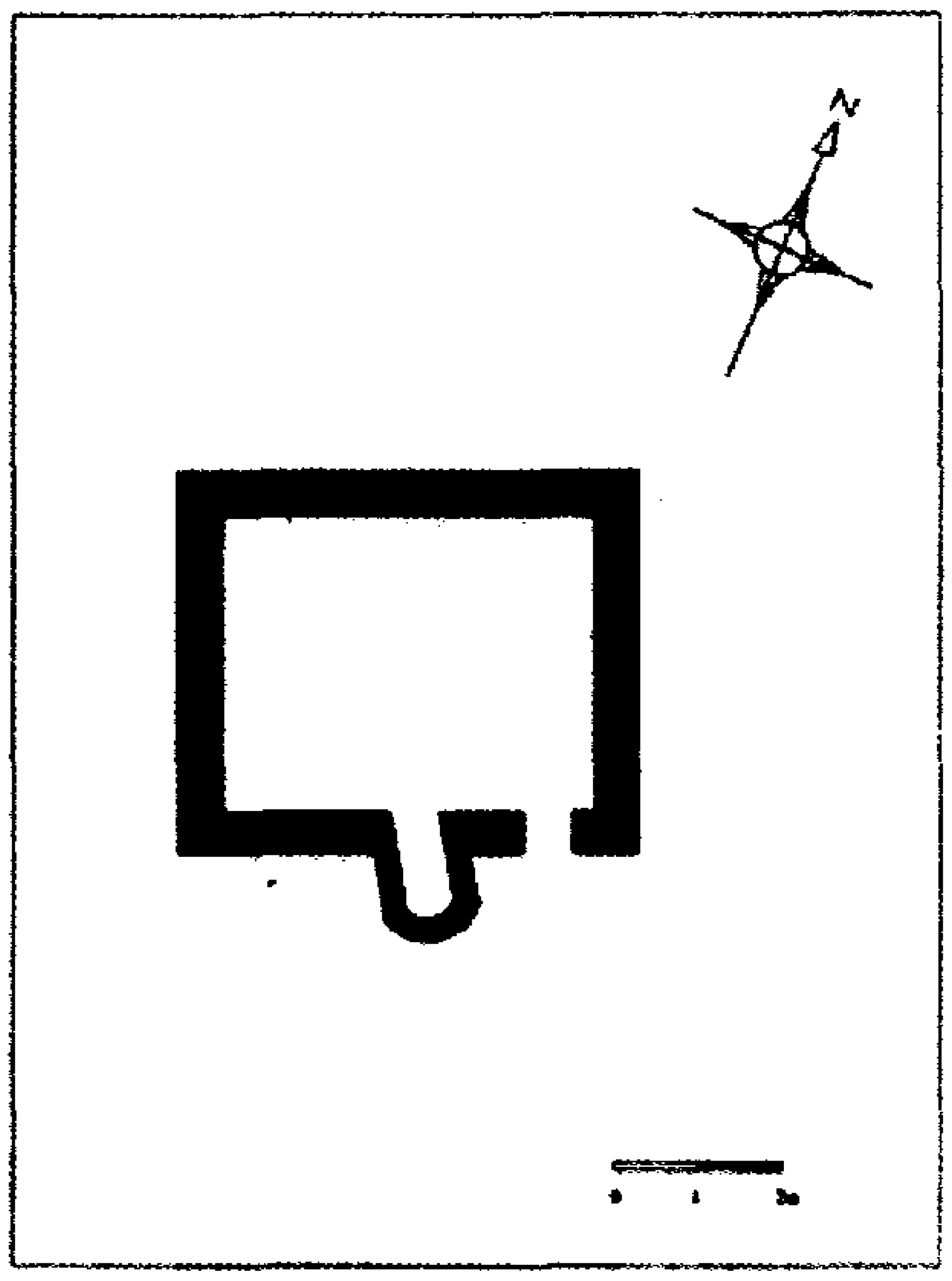
[46] الخريطة الطّوبوغرافية، ورقة حفّوز، سلم 1/50000 ، إحداثيات لومبار: 255-258 شمال، 485-487 شرق.

المحراب حنيته موجهة بعناية نحو الجنوب الشرقي عرضها 1 متر وعمقها البارز عن جدار القبلة 1.5 متر. أنجزت جدران المعلم بتقنية "الصيّاح" حيث لا أثر لمونة غير التربة ولا أثر لملاط خارجي ويبلغ متوسط سمك الجدران 90-100 سم تتميز بغياب الأسس واعتماد قواعد حجرية جلمودية ضخمة هي التي اعطت في ما يبدو للبلدة صفة الجاهلية[47] يبرز المعلم كما هو واضح من خلال الرحبة الّتي تتقدّمه والتّي يتّصل بها المسلك المحوري للبلدة ويفتح عليها أكبر حوش بها مساحته نحو 324 م^2 مقابل 100 م^2 كمتوسّط مساحة بقيّة الأحواش (فهل يتعلّق الأمر بمقرّ وجاهة محلية مرتبطة بالدور الديني؟) كأهمّ معلم بُنيَ في بلاد الجاهلية. من حيث التأريخ فإنّ ما يبوح به الميدان غير دقيق بالمرة، ولكن من المهم ان نلاحظ أنّنا إزاء موقع مأهول منذ ما قبل التاريخ بدليل وجود كهف إحتماء يراقب وادي الجبانه على المنحدر الشرقي للبلدة ووجود رماديات في محيطه كما تبرز مزابل الأحواش المتنافرة في محيط القرية كمّيات من الخزف ذات طابع قديم وفخّار يدوي من الصنف البدائي تشهد على قدم التوطّن بالبلدة، من جهة أخرى فإنّ تقنيات البناء الّتي ما زالت تستحضر الذكريات الجلمودية من البلدة ومحيطها وهي تقنيات وقع تجاوزها في مناطق أخرى بالجبل شهدت حضورا مكثّفا في الفترة الحديثة للسلطة (دار الباي مثلا). جميع هذه العناصر تدفع الى الإعتقاد أنّنا إزاء معلم يعود الى بداية أسلمة الجبل بدليل تواصل الاستيطان بالموقع منذ ما قبل التاريخ وهو لا يمكن أن يتجاوز العهد الحفصي الّذي شهد ظهور الأصحن الجانبية في المعالم الرسمية ولو أنّنا نعتقد أنّ ذلك كان في المعمار الحفصي تحت تأثير للتقاليد "البربرية" الحاضرة.

- **2.1.2 مسجد المنشيّة**

يؤكّد مسجد بلدة المنشية أسبقية جامع الجاهلية. فالبلدة تبدو وكأنّها إحداث على بعد 500 متر تقريبا شمالي البلدة الجاهلية التي أدرك نسيجها المعماري درجة التشبّع وتبدو المنشية وكأنّها في توسّع متواصل على خطّ الذروة نحو الشرق وتحتوي في أقصى طرفها الجنوبي الغربي على مسجد أقل أهمية من سابقه من حيث الحجم، فهو مستطيل من الشرق والغرب أبعاده 6.7 متر× 4 متر، ركام السقف الذّي بداخل المعلم لا يسمح بتبيّن تخطيط المسجد سوى أنّ مدخله عبارة عن فتحة إتّساعها 80 سم تقع بالطرف الشرقي لجدار القبلة.

[47] نشك في أن يكون الجبل قد حافظ على ثرائه الطوبونيمي بفعل سيطرة الكعوب عليه بعد إجلائه.



شكل 4: مخطط مسجد المنشية

أهمّ ما يلاحظ في هذا المسجد أنّ جدار القبلة به مزورّ قليلا نحو الجنوب بحيث يمتدّ بالضبط بين شمال الجنوب الشرقي وغرب الجنوب الغربي بازورار قريب من ازورار جدار قبلة جامع عقبة ولتجنب توجيه المحراب منحرفا نحو الجنوب عمد بناة هذا المسجد إلى توجيهه إلى الجنوب الشرقي بحيث يحدث تقاطع الجدار الخارجي لحنية المحراب مع جدار القبلة زاوية منفرجة تعكس نية واضحة في توجيه المحراب نحو جنوب الجنوب الشرقي. ومن حيث تأريخ المعلم لا نملك مؤشّرات واضحة سوى أنّه أحدث من جامع الجاهلية ولكنّه يبقى الأقدم في النسيج المعماري لبلدة المنشبة الّتي يبرز معمارها تقدّما متواصلا وتدريجيا بين الغرب والشرق وعليه فإنّنا نقترح تأريخ المعلم بنهاية العصر الوسيط أو بداية العهد الحديث (بداية القرن 17 على أقصى تقدير).

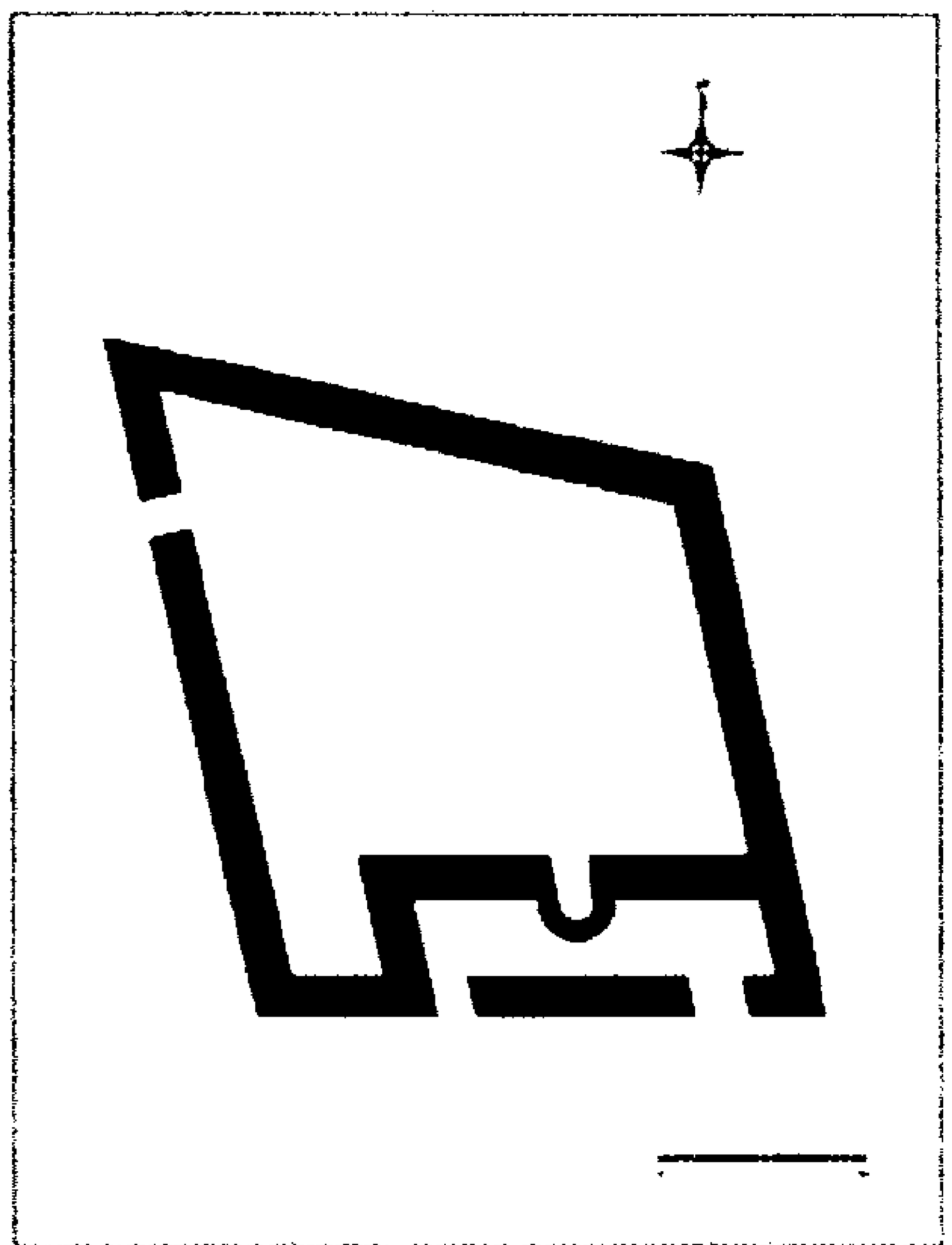
- **3.1.2 مسجد بلد النحّالة**

تقع بلد النحّالة في مدخل الجبل الشرقي من جهة الطريق الرّابطة بين وسلات وجلولاء وتشرف على واديين: السوق والمدمّس، وهي من حيث الحجم أكبر القرى الّتي وقفنا على آثارها من حيث الإمتداد وعدد الأحواش[48] إذ لا نستبعد ما خمّنه الأستاذ محمد حسن من أنّها قد تكون مثلّت قاعدة للجبل قبل دار الباي أو بورحّال. وتحتوي القرية حاليا في وسط ركام أحواشها على بقايا مسجد؟ غريب الشكل مستطيل بين القبلة والجوف تقريبا أقصى امتداده بين القبلة والجوف 16م وبين الشرق والغرب12.5متر، ولا يسمح ركامه بتبيّن تخطيطه الدّاخلي والملامح الظّاهرة منه تختلف عن المسجد الّذي أشار الى وجوده محمد حسن وقدّم وصفا له والّذي لم نتمكّن من الوقوف عليه[49].

---

[48] العامري (نورالدين)، ن. م.، ص 185-187.

[49] حسن (محمد)، ن. م.، ج 1، ص 223.



شكل 5: مخطط مسجد بلد النحالة

المهم أنّ هذا المسجد الّذي بالكاد نلمح أثر محرابه موجّه أيضا بعناية نحو الجنوب الشرقي بل هو أكثر إنحرافا نحو الشرق من بقية المساجد المشار إليها ويتميّز بخلوة أو بكتّاب متصل به من جهة القبلة.كما نجد بالجدار الغربي الخارجي للمسجد أثرا لمدرج مكوّن من درجات ناتئة عن الجدار بمقدار 20سم مكوّنة من حجارة أحادية النحت متوسّط أبعادها 80×20×20سم بقي منها على الأقل ثلاثة مستويات، وكانت هذه الدرجات تلعب ولا ريب دور مدرج آذان وهو ما تأكّد لاحقا بشهادات شفوية[50].

من حيث التّأريخ،نلاحظ وجود شظايا خزف عتيق من الصنف السجيلي على منحدرات القرية وخزف إسلامي متأخر مما يوحي بتواصل الاستيطان منذ الفترة العتيقة. لكن تقنيات البناء المعتمدة لا تسمح بتبيّن أي خصوصية قابلة للتأريخ، وإنّما موقعه وسط النسيج القروي يجلب الانتباه ويحتاج إلى بعض التوقّف فالمسجد وإن كان وسطيا في القرية فهو بين مجموعتين من الجزر القروية المتباينة، مجموعة غربية تقع على خط الذروة الأكثر إرتفاعا ونسيجها المعماري أكثر كثافة ومجموعة شرقية تتجه بالتدريج نحو المنحدر ونسيجها المعماري أقلّ تشبّعا وبالتّالي تبدو الأحدث. فمعلمنا إذن كان يقع في طرف النسيج المعماري للقرية بحيث يشرف على مدخل الجبل من جهة الشرق(طريق عين جلّولاء) وهو ما يجعلنا إذا نصعد بتاريخه الى العصر الوسيط دون أن يكون بمقدورنا التدقيق أكثر في غياب مؤشرات أوضح.

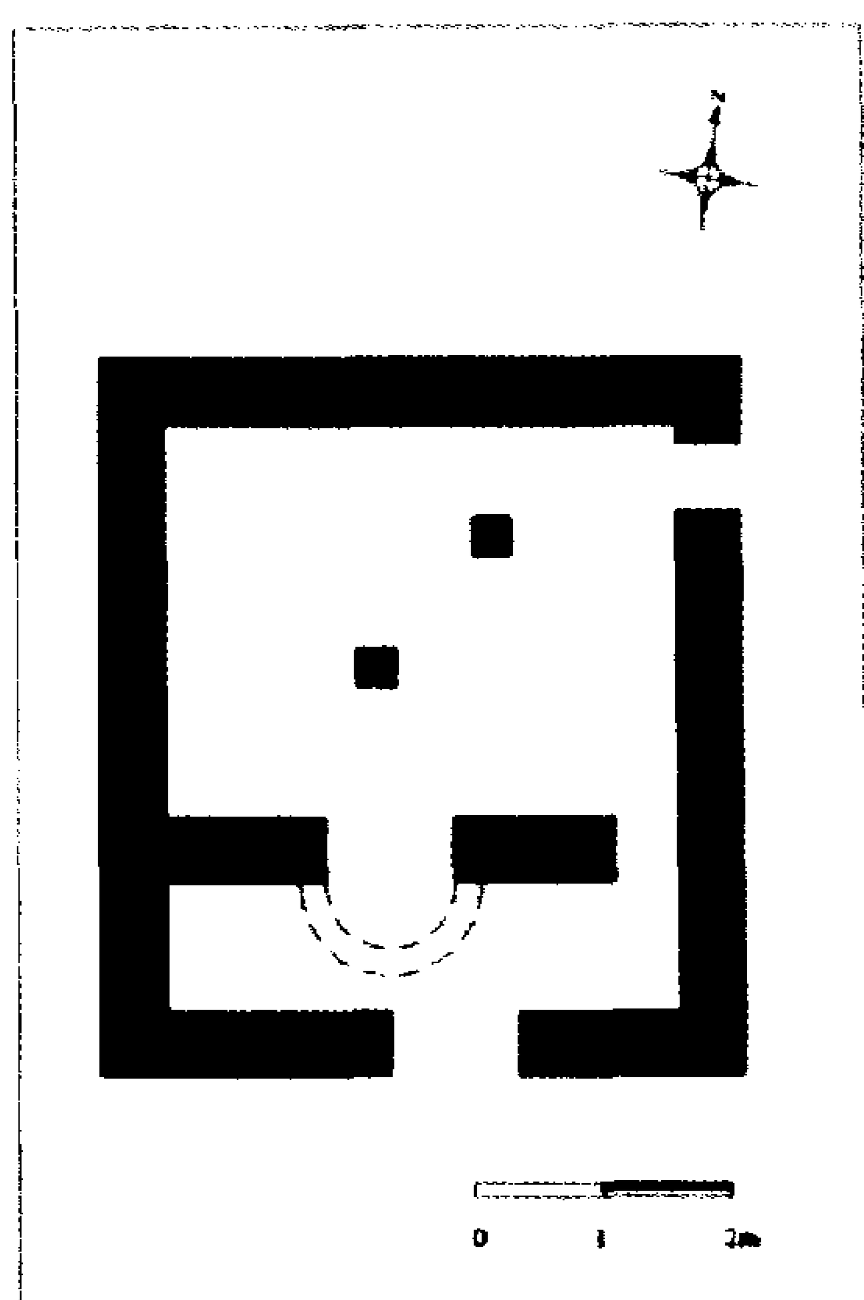
---

[50] العامري (نورالدين)، ن. م.، ص 153.

- 4.1.2 **مسجد بلد يدمان**

تقع بلد يدمان على خطّ ذروة يرتفع على 36 متر ويشرف من ناحية الجوف على وادي السوق ومن ناحية القبلة على وادي يدمان ويحدّ الموقع من جهة الغرب وادي عميق هو وادي عين الخنفوس. تتكوّن البلدة من ثلاثة قطاعات: قطاع غربي وهو الأكثر ارتفاعا والأصعب منالا به مستويات تشييد عديدة ومتداخلة يحتوي على مجموعة من مخازن الحبوب. وقطاع شرقي هو بمثابة "الحيّ الحرفي" نجد به معصرتين على الأقل، ثم قطاع أوسط به مجموعة محدودة من الأحواش ركامها لا يسمح بتبيّن ملامحها بدقّة لكنّها بشكل عام في حدود العشرة أحواش ومتقاربة الأبعاد (حوالي 12 م× 12 م) وفي طرف هذا القطاع وضمن موقع ركني يشرف على وادي يدمان نجد مسجد البلدة الّذي هو أيضا في حالة ركام ولكن يمكن تبيّن شكله العام.

فهو مسجد رباعي الأضلاع غير منتظمة التقايس واقصى امتداده الطّولي بين القبلة والجوف 9.5 متر، وأقصى امتداده العرضي من جهة القبلة 9 متر ومن جهة الجوف 6 متر وعلى شاكلة مسجد بلد النحالة يحتوي المعلم على قسمين: القسم الجوفي هو بيت الصلاة مربّعة الشّكل تقريبا 5.5م × 6م بمحورها أثر محراب موجّه نحو الجنوب الشرقي بانحراف تجاه الشرق(شرق الجنوب الشرقي) ونلمح وسط الركام أثرا لدعامتين من حجارة أحادية النحت بحيث يبدو وكأنّ المسجد كان مقسّما على الأقل الى ثلاث بلاطات طولية وبلاطتين عرضيتين. أمّا القسم القبلي فعبارة عن قاعة ملحقة بالمسجد تمسح أبعادها من الدّاخل 4متر × 1.9 متر ومدخلها قبلي ينحاز إلى الجانب الغربي من الضلع بحيث يتجنّب الافضاء مباشرة إلى نتوء المحراب. وبالطرف الجوفي للجدار الغربي نجد مدخل المسجد وبحذوه حجارة ناتئة عن الجدار على مستويين تمثّل أثرا لمدرج آذان أيضا على شاكلة الّذي نجده في مسجد النّحالة.



شكل 6: مخطط مسجد بلد يدمان

بالنسبة للتأريخ من الواضح هنا أنّ مسجد بلد يدمان يتطابق من حيث الشكل العام والتخطيط وبعض التّفاصيل الإنشائية (المدرج مثلا) مع مسجد بلد النحالة بحيث لا نملك إلاّ أن نؤرخه بنفس الفترة أي ما قبل القرن السادس عشر.

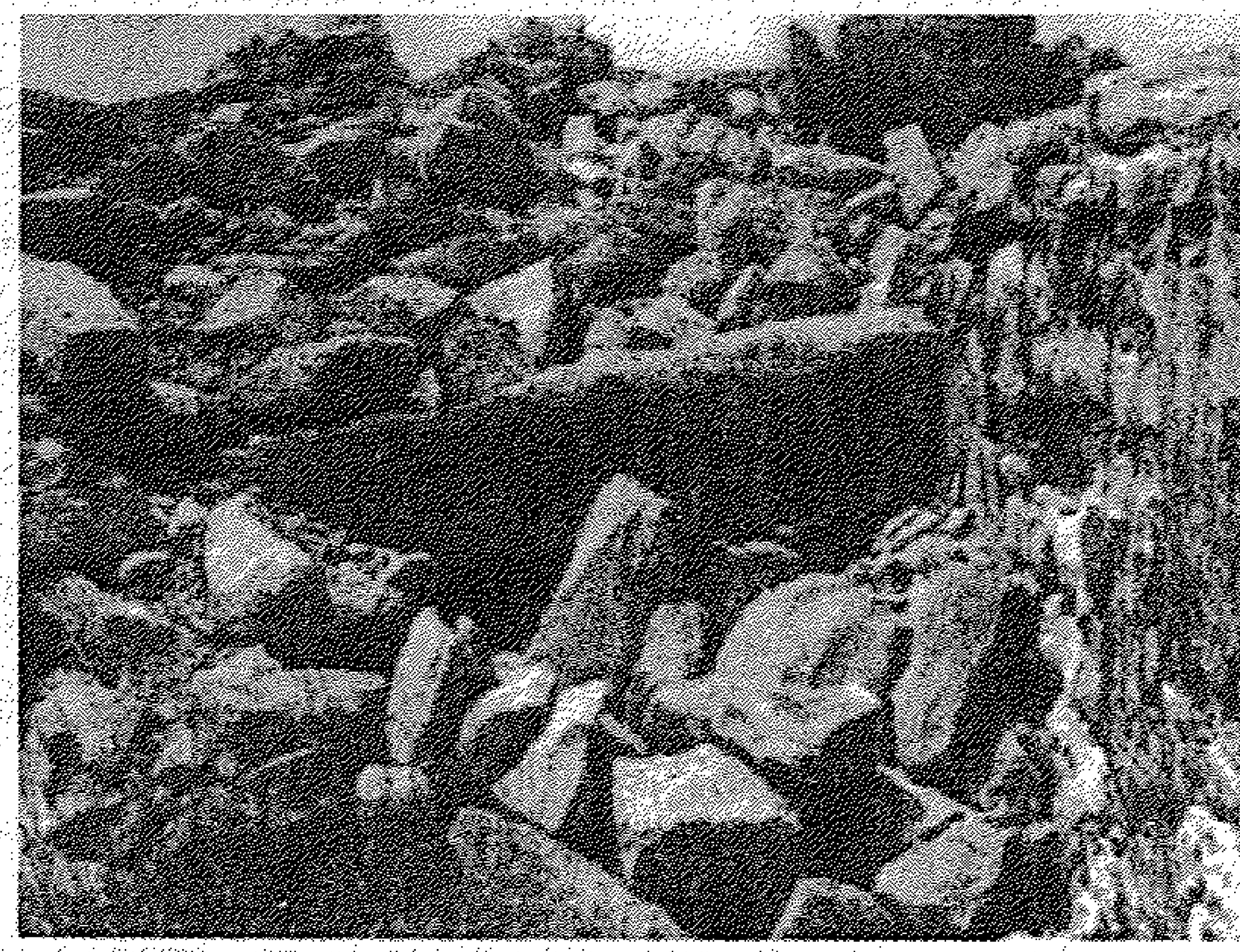
- 5.1.2 **مسجد بلاد بن ساسي**

تحتل بلاد بن ساسي خطّ ذروة يصل إرتفاعه الى 722 متر ويمتد زهاء 300 متر بعرض 100 متر، ويتميّز نسيج البلدة بحالة الركام الشديدة لأطلاله المتكوّن من أحواش متقاربة الأحجام والّتي نتبيّن منها على الأقل 10 إضافة إلى بقايا عناصر معاصر زيتون ولا تسمح وضعية الموقع بتبيّن ملامحه التخطيطية سوى أنّ المسالك تبدو حول القرية من جهة الشرق والجنوب الشرقي. ويتموقع المسجد بالركن الجنوبي الشرقي للبلدة مشرفا على وادي اللّوز شكله مربّع تقريبا 7 متر بين القبلة والجوف و7.5 متر بين الشرق والغرب وتنتصب بوسطه أربع جلاميد صخرية أحادية النحت مربّعة المقطع 30 سم×30سم ارتفاعها الناتئ عن الرّكام 1.20 متر وتبدو في مواقعها الأصلية بحيث كانت تقسّم فضاء المسجد في غالب الظن إلى ثلاث بلاطات وثلاثة أروقة وتتميّز البلاطة الوسطى الطّولية باتّساعها النسبي 2.2 متر مقابل 1.80 متر للبلاطتين الجانيبتين، وكذلك الشّأن بالنسبة إلى البلاطة العرضية القبلية التّي تتّسع بمقدار 1.90متر مقابل 1.70 متر للبلاطة العرضية الوسطى. ويُلْمَحُ بمحور جدار القبلة أثر لمحراب منهار تماما موجّه بعناية إلى الجنوب الشرقي. لتأريخ المعلم ولا نملك معطيات دقيقة ولا أثر بين الركام الشديد لخزف، وكلّ ما يمكن ملاحظته هو تميّز الإنشاء في هذا الموقع باستعمال الحجارة الجلمودية المستخدمة في الغالب لتسقيف المواجل، وهي غير قابلة التأريخ في حدّ ذاتها لكن التقنية تبدو أقرب إلى التقاليد القديمة وعليه نفترض أنّ الموقع يعود الى العهد الوسيط وأنّ المسجد بحكم موضعه الّذي يعطيه دورالمرقب هو من عناصر النسيج القروي في وضعه الأوّلي. هذا النسيج الذّي بامتداده إلى المنحدر يؤكّد أنّه كان قد أدرك قبل مرحلة الإخلاء في 1762 درجة من التشبّع تعكس قدم التوطّن به.

- 6.1.2 **مسجد بورحال أو دار الباي**

يجب أن نضيف إلى ملف المساجد مسجد بورحال أو دار الباي الّذي لم يبق له أثر جليّ بحيث لم نعد نجد على الميدان ما كان قد أشار إليه ديبوا من " بقايا مسجد ذي أعمدة صغيرة من الرخام والغرانيت وتاج من طراز عربي يعود للقرن التّاسع فيما يبدو وتاج آخر له نقيشة من طراز كوفي"[51].

[51] أُنظر: DESPOIS (J.), « Le Djebel Ousselet… », *Op. cit.*



شكل 7: ركام مسجد؟ دار الباي

2.2 المقابر

مكننا الاستكشاف إلى الآن من الوقوف على أربع مقابر وهي مقبرة الجاهلية ومقبرة النحّالة بالموقعين المشار إليهما آنفا[52] ومقبرة الأربعين ومقبرة رجال الفجّة المشرفتين على وادي اللّوز وواضح أنّ هذه المقابر لم تكن تختص ببلدة أو بدشرة واحدة بحيث نجد قرب كلّ منها مداشر عديدة تفتقر إلى مقابر خاصة بها. ما يهمّ هذا الملف من أمر المقابر – العيّنة– أنّها تمثّل مجموعتين:

–مجموعة أولى تتكوّن من مقبرة الجاهلية ومقبرة النحّالة وتتميّز بغياب أثر أيّ بناء على القبر الذّي هو كومة تراب لا غير، ولا أثر لشاهد بها عدا بعض الشواهد على هيئة قطعة حجريّة مثلّثة بمقبرة الجاهليّة. لكن القبور موجّهة بعناية شديدة بين الشمال الشرقي والجنوب الغربي ممّا يعني أنّ وجه الدّفين موجّه إلى القبلة المنحازة ناحية الجنوب الشرقي.

–المجموعة الثّانية تتكوّن من مقبرة الأربعين ومقبرة رجال والفجّة تتميّز قبورها ببعض الاضطراب من حيث اتجاهها فمنها ما يستقبل فيها وجه الميّت ناحية الجنوب ومنها ما هو موّجه نحو الجنوب الشرقي كما نجد بعض القبور المبنيّة لو بشكل مقتضب على هيئة صندوق ونجد خاصة بمقبرة رجال الفج حوطة تنسب إلى سيدي بالجلاجل. بالنسبة إلى المجموعتين لا نملك مؤشّرات تأريخ واضحة.

3– الأثر الإباضي في العمارة الدّينية بجبل وسلات

كنّا قد تساءلنا في عمل سابق عن مشروعية الحديث عن طراز معماري إباضي واستبعدنا ذلك باعتبار أنّه لا وجود لنظريّة مذهبية في العمارة الإسلاميّة بشكل عام بقدر ما توجد بعض الضوابط العامّة هي تقريبا على المستوى النظري محلّ اتفاق[53]. وإذا ما أخضعنا

[52] الخريطة الطبوغرافية، ورقة حفوز سلّم 500001/، إحداثيّات 274–275 شمالا، و480–481 شرقا.

[53] الزركشي (محمد بن عبد الله)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، القاهرة، 1989، ص 304–383.

مـثلا هـذه الـضوابط لمقارنـة بينيّـة تـضع مؤلّـف الزّركـشي الـسنّي [54] إزاء مؤلّـف الجيطـالي الإباضـي لوجـدناها متقاربـة الى حدّالتطابق. وعليـه فـإن الـدور الأوضـح للمـذهب الإباضـي ﮯ مجال العمارة الإفريقية يتمثل ﮯ توفيره للأرضية الفكرية للمحافظة على خصائصها الأصليّة إلى حدّ التكلّس. وذلك باعتبار أن العمارة البيئية المتقشفة ومحدودة التعرض لتحولات الطرز الفنية الرسميّة تتلاءم مع الأبعاد المساواتية للفكر الإباضي، من هذا الجانب فقط يمكن أن تقارن العمارة المدنيّة بجبل وسلات بمثيلاتها. وعندما نتحدّث عن العمارة الدّينيّة الإباضية فإنّ مساجد جربة تفرض نفسها سواء على مستوى الأهمّية العدديّة أو على مستوى الثّراء المعماري، ولكن ورغم ما يمكن أن ينجرّ عن التّضارب المذهبي علينا أن لا نجازف بالمقارنة على كلّ الأصعدة سيما تلك الّتي ترتبط فيها العمارة بالإطار الطّبيعي، وهنا تكون المقارنات بجبل نفوسة أجدر وأجدى، لكن ما نملكه من معطيات معمارية حول هذا المجال الإباضي لا يفي بـالغرض [55] كـذلك الـشّأن بالنّـسبة إلى مرتفعـات الجنـوب التّونـسي المنفتحـة بـدورها علـى التّـأثيرات الإباضـيّة والّـتي لم تـبح بعـد الدّراسـات الميدانيّـة حولهـا بكـلّ أسـرارها[56]. قـدرنا ﮯ محاولة رصد الأثر الإباضي أن نكتفي أساسا ببعض المؤشرات وثيقة بالممارسة والايديولوجيا المذهبيـة الاباضيّة وأهـم هـذه المؤشـرات هـي اتجـاه القبلـة الـذي بـرز فيـه جـامع عقبـة كمرجـع للمساجد السنيّة. وشكل المحراب المرتبط بدوره بالنقطة السالفة. ثم وجود المنبر من عدمه لارتباط المنبر بخطبة الجمعة وخاصة بالدعاء أثناء هذه الخطبة للإمام، إضافة إلى عنصر المزار المرتبط بتصورات الثقافة السنيّة التي لم تشهدها البيئة الاباضية إلاّ بصفة متأخرة.

ليس ثمّة ﮯ التّراث العربي الإسلامي ما يفيد بأيّ اختلاف مذهبي ﮯ تحديد اتّجاه القبلة وكلّ ما تشير إليه مختلف المصادر هو حرص المسلمين على التحرّي فيها[57] فكيف نحوّلها إلى معيار تمايز مذهبي بإفريقيّة؟

إنّ الإتّجاه العام للقبلة بربوع إفريقيّة هـو الجنـوب الشّرقي ولم يكـن الإختلاف حولها نتيجة أي موقف فقهي وإنّما هـو نتيجة للممارسة ولظروف تاريخيّة محدّدة محكومة بصراع مـذهبي مـستعر حـول مـسألة الإمامـة فعنـصر التمـايز المـذهبي يمـارس ولا ينطـق بـه نظـرا " لحساسيّة" مرجعيّات الطرف السني المالكي، فمعلوم أنّ محراب القيروان منحرف عن القبلة الدّقيقة مقدار 30-31 درجة[58] ومعلوم أيضا أنّ الفاطميين ﮯ عهد المعزّ لدين الله قد حاولوا

[54] الجيطالي (إسماعيل)، قناطر الخيرات. عمان، وزارة التراث القومي، 1983، ص 345-349.

[55] أُنظر:

DESPOIS (J.), *Le Djebel Neffoussa*, Paris, 1935.

[56] يعد الباحث النوري بوخشيم تحت إشراف الأستاذة منيرة شابوطو أطروحة دكتوراه حول القرى الجبلية بجبل مطماطة لم تبح بعد بكل نتائجها. أما عمل الأب أندريه لويه فأنه مركز على الجانب الاثنوغرافي:

LOUIS (A.), *Tunisie du Sud Ksars et villages de crêtes*, Tunis, 1975.

[57] أبو طه الولي (الشيخ)، المساجد ﮯ الإسلام، بيروت، 1980، ص 221 وما بعدها. ريوس (مونيكا)، القبلة ﮯ الأندلس والمغرب الأقصى، برشلونة، كلية الآداب-جامعة برشلونة ومعهد مياس فالكروزة للتراث العربي، 2000.

[58] أُنظر:

Golvin (L.), *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*,

تغييره فقد جاء في الاستبصار" ويقال أنّه لمّا اراد معد إبن إسماعيل بن عبد الله الشّيعي تحريف قبلة مسجد القيروان وذلك سنة 345هـ /956 ميلادي بلغه أن أهل القيروان يقولون أنّ الله عزّ وجلّ يمنعه عنه لدعاء عقبة بن نافع الفاضل في وقت تأسيسه الجامع"[59]. إنّ تارخ هذه الحادثة يوافق تاريخا كان فيه محمد بن يوسف الورّاق حيّا وقد نقل عنه البكري أسطورة محراب عقبة في رؤية صالحة حسمت إختلاف أصحاب عقبة في موضع المحراب ومن قصّة السّاريتين الحمراوتين اللّتين بإزاء المحراب ومن إحجام كل من تدخّل من الولاّة في الجامع عن تغييره إلى حد إضطرار زيادة الله أن يدخله بين حائطين[60] وقد حوّلت هذه الأساطير فيما يبدو قبلة جامع عقبة لدى السنّة المالكيّة الى اتّجاه مرجعي على انحرافه نجده شائعا في كلّ مساجد العصر الوسيط تقريبا. والواضح أنّ هذه الرّوايات الموضوعة دون ريب في القرن الرابع للهجرة قد وضّفت لحماية محراب عقبة من الشّيعة المنعوتين بالتشريق ولا نفهم نعتهم بهذه الصّفة سوى لأنّ القبلة في مساجدهم تنحرف عن قبلة القيروان باتّجاه الشّرق وهو ما نلاحظه في جامع المهديّة.

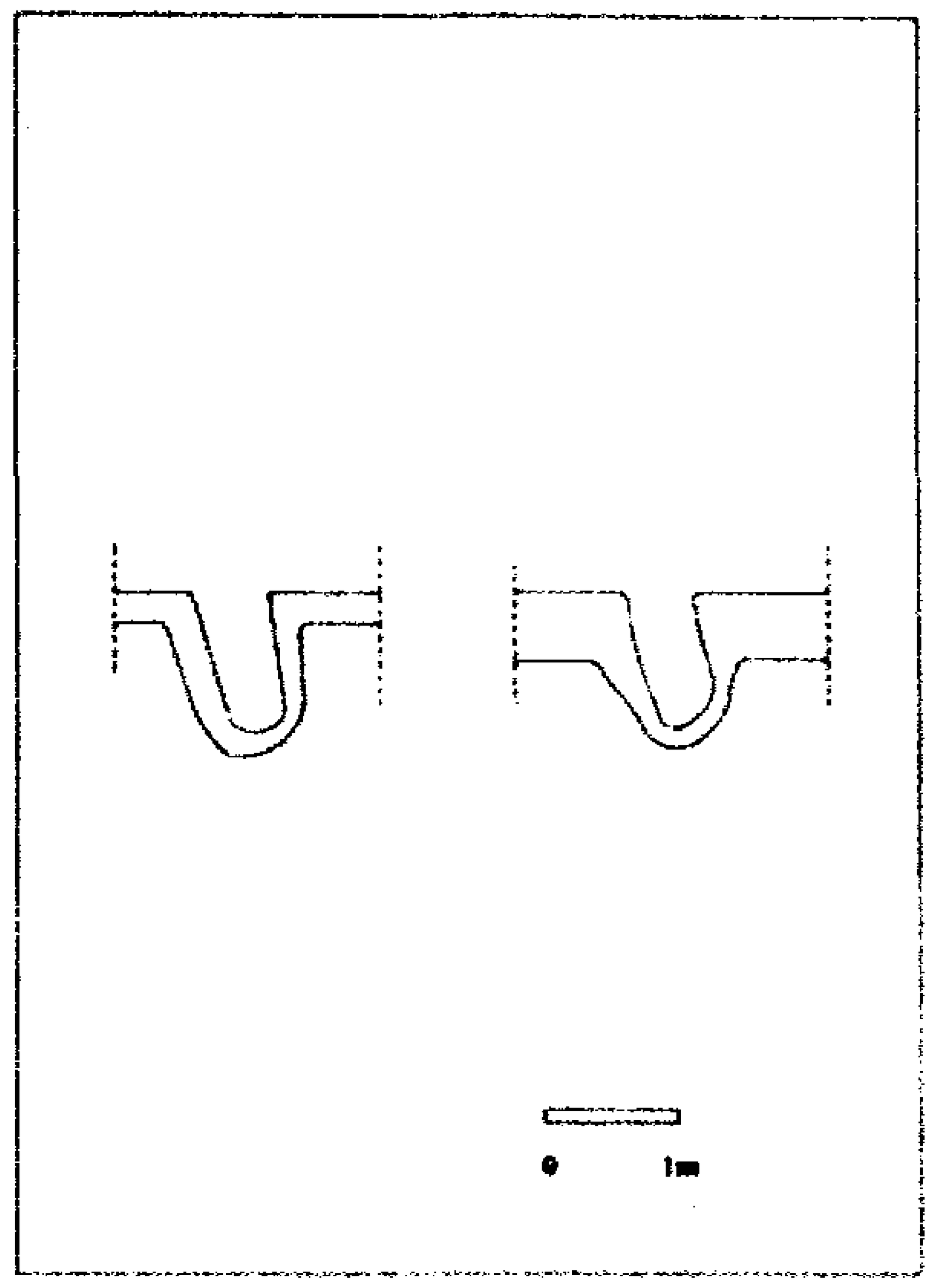
المهم أنّ هذه الأساطير حوّلت قبلة جامع عقبة المنحرفة الى الجنوب الى اتّجاه مرجعي لدى السنّة المالكيّة في المساجد الإفريقيّة في العصر الوسيط. عندما نلتفت إلى المساجد الإباضية بجربة فإنّنا رغم بعض الإضطراب في توجيه محاريبها إلى عين القبلة نجدها موجّهة أيضا الى الجنوب الشّرقي. وهكذا فإنّ ما أبرزه البحث الميداني من توجّه جدران القبلة في المساجد المرصودة بجبل وسلات نحو الجنوب الشّرقي وهي في مجملها تعود إلى الفترة الوسيطة المبكّرة يقدّم دليلا مادّيا على خروج الجبل عن فلك المذاهب السنّية، وحتّى عندما لم تسعف الطّوبوغرافيا بناة المسجد بتوجيه كامل جداره القبلي نحو الجنوب الشّرقي فإنّ كتلة المحراب تزوّر ناحيته لتؤكّد على إرادة واعية في اختيار هذا الإتّجاه كما نرى ذلك في مسجد المنشيّة.

و بالعودة إلى النصوص، لا شيء يشير إلى نفوذ شيعي بهذا االجبل ، وبالمقابل فإنّ الصّلة بأوساط الإباضيّة أكيدة وعليه فإنّ إتّجاه القبلة في المعالم الدّينيّة الموجودة بجبل وسلات دليل على إباضيّته، ولكن بالرّجوع الى معطيات المقابر يتّضح وفاء بعضها إلى قبلة الجنوب الشّرقي كجبّانة الجاهلية وجبّانة النحّالة، بينما نجد في مقبرة الأربعين ومقبرة رجال الفجّ إضطرابا جليا في اتّجاه القبور يعبّر في تقديرنا عن تحوّل ما في اتّجاه القبلة الشّرعية. هذا التّحوّل يتأكّد عندما نلاحظ أنّ جدار القبلة في الموقع المفترض أنه جامع دار الباي تتجه نحو الجنوب.

---

[59] مجهول، الإستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985، ص 115.

[60] البكري، ن.م.، ج 2، ص 575.



شكل 8: نموذجان من محاريب جبل وسلات

بالنسبة إلى شكل المحراب فقد حاول المستشرق يوسف شاخت أن ينسب بعض الخصوصيّات المعماريّة في المساجد إلى المذهب الإباضي انطلاقا من الأمثلة المزّابية[61]، ومن هذه العناصر بروز المحراب عن الجدار الخارجي على هيئة كتلة مستطيلة الشّكل، وقد ناقشنا هذه الفكرة وغيرها في إتّجاه التّشكيك بمصداقيتها معتبرين أنّ التشابه بين أشكال المحاريب في مواطن الإباضيّة مردّه إلى تشابه البيئات وعمق الصّلات بين المجموعات[62]. ولا تسمح حالة الرّكام الشّديدة للمعالم التّي وقفنا عليها بالتّدقيق كثيرا في أشكال المحاريب ولكنّها عميقة بما لا يدع مجالا للشكّ ومحراب مسجد المنشيّة يقدّم نموذجا صادقا للأشكال الّتي تحدّث عنها شاخت بحيث نعتبر ذلك مؤشّرا إضافيا على عمق الصّلة بين جبل وسلات ومواطن الإباضيّة الأخرى ويجب أن نضيف إلى هذا الاعتبار مدارج الآذان الجانبية والّتي اعتبرها شاخت من مميّزات العمارة المسجديّة الإباضيّة، وقد لاحظنا وجود أثر لها في جامع بلاد النحّالة و لو أنّنا هنا أيضا نؤكّد على ما تفرضه حقائق الجغرافيا من عبثيّة إقامة المآذن في وسط جبلي. بالنسبة إلى المنبر كان التجاني قد قدّم ملاحظات قاسية لا تخلو من تحامل على إباضيّة جربة بخصوص إقامة صلاة الجمعة معتبرا أنّ غيابها لديهم مرتبط بما يعتقدونه من غياب الإمام العادل [63] والتجسيم المادي لذلك هو عنصر المنبر سواء كان مبنيّا أو خشبيّا.

---

[61] أنظر:

Shacht (J.), « Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara », dans *Travaux de l'institut des recherches saharienne*, T XI, 1e semestre, Alger, 1954.

[62] المرابط (رياض)، "طراز العمارة الدّينيّة بجربة"، ص 35-35.

[63] التجاني، ن. م.، ص 127.

إنّ المعالم الموجودة لحدّ الآن بجبل وسلات وركامها لا يسمح بتبيّن أيّ شيء يشير إلى وجود هذا العنصر وإنّ حجم المساجد وخاصة رواق القبلة الذي نجده أحيانا أقلّ اتساعا من بقيّة الأروقة التّي وقفنا عليها لا يسمح أصلا بتخصيص فضاء للمنبر، فهل يرتبط غياب المنبر بما ذهب إليه التجاني وهو بذلك يتأول دون ريب ولكن على معطى واقعي أم أنّ الأمر مرتبط بمحدوديّة حجم المساجد؟

إنّ مركزيّة معلم مثل جامع النّحالة وحجم القرية ذاتها يفرضان أن يكون جامع خطبة، ولكن أين منبره سيما وأنّ ظروف زيارتنا له سمحت بتبيّن قواعد جدار القبلة فيه من الدّاخل حيث لا أثر لمنبر مبني من ثلاث درجات مثلا، كما نجد ذلك في بعض مساجد جربة [64] ولا نملك في هذا الخصوص أن نقدّم رأيا باتا لكنّ الشبهة التّي يحيكها التجاني لها في ميدان جبل وسلات بعض ما يبرّرها في المعالم التي يتأكّد لدينا تأريخها بالعصر الوسيط والمتقدّم منه على وجه الإحتمال.

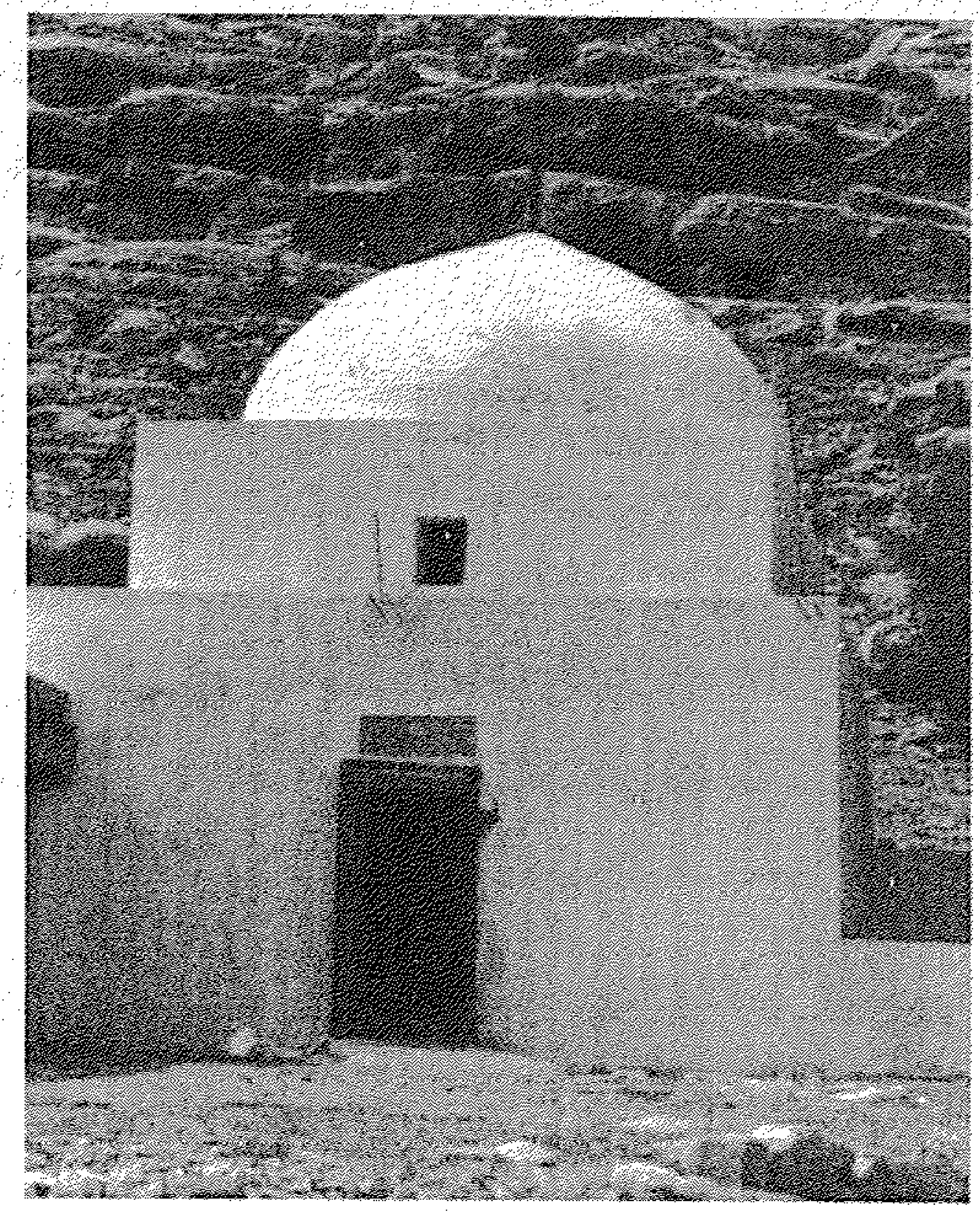
النّقطة الأخيرة الجديرة بالتّعليق هي الظّاهرة الولائية. فمعروف أنّ هذه الظّاهرة في بلاد المغرب على الأقلّ ابداع مميّز للفكر السنّي المالكي. ولكن الحوطة وهي -مزار مقدس- التّي نجدها بوسط مقبرة رجال الفجّة والتّي تدعى " سيدي بابا لجلاجل" (أبو الجلاجل) تذكّرنا بإلحاح بالأولياء الشعبيين الذّين انتشروا في البلاد منذ نهاية العصر الحفصي، كما أنّ اضطراب اتجاه هذه القبور تؤكّد أنّ هذه الحوطة هي جزء من انزياح في الممارسات الطقوسية عن الحقل الإباضي الذي لا يعترف أصلا بالولائية، وحتّى تسرّب تقاليد زيارة قبور مشايخ العلم والتبرّك بهم فإنّنا لا نرصده في الأوساط الإباضية بجربة إلاّ انطلاقا من القرن السّابع عشر للميلاد كنوع من المماهات أو الوقوف في وجه التوسّع المالكي الذّي قام بجربة على مؤسسة الزّاوية[65]. وقد يكون من المفيد أن نشير إلى قرية تقع شمال بلاد الجاهلية تشرف على وادي بقور تدعى على الخريطة بلدة واد بقور ويسمّيها بعض من الأهالي في محيط الجبل بلدة سيدي سعد[66] ، يوجد بهذه البلدة مزار لسيدي امْحَمِدْ لا نملك أن نؤرّخه لكن القرية بحكم موقعها أسفل خطّ الذروة على المنحدر تبدو أحدث من بلاد الجاهلية هذا ان لم يكن إطلاق تسمية سيدي امْحَمِدْ أمرا مستحدثا أصلا. أخيرا نشير الى وجود قاعة ضريحية في مدخل الجبل من جهة أخرى هي زاوية سيدي حامد أسفل بلاد النحالة وهي محل تبرك الكعوب المجاورين ويثبت موقعها وخصائصها الإنشائية وبقائها قائمة الذّات من دون معالم الجبل حداثتها بحيث نتصوّرها لاحقة لإخلاء الجبل سنة 1762 وتجسيما لانتصار الأعراب على الجبليين.

---

[64] المرابط (رياض)، ن. م.، ص 38.

[65] المرابط (رياض) ، مساجد جربة في العصرين الحفصي والمرادي، ن. م.، ج 3، ص 190-194.

[66] الخريطة الطوبوغرافية، ورقة حفوز، سلم 1/50000 احداثيات لوميار: 258-257 شمال، 485-487 شرق.



شكل 9: زاوية سيدي حامد (ق 19 م)

خاتمة

رغم الطّبيعة الوقتية لنتائج الاستكشاف الأثري لجبل وسلات ومحدوديّة تقدّمنا على مستوى تأريخ أطلاله الّذي يتطلّب المسح الشّامل ورفع الأنقاض في المواقع الهامّة على الأقلّ، فإنّ الميدان يبشّر بالبوح ببعض أسرار هذا الجبل ففي مسألة الإنتماء المذهبي تدعّم المعطيات الأثرية معطيات النّصوص رغم ضبابيّتها عمق الماضي الاباضي لجبل وسلات في العصر الوسيط، كما تشهد الآثار على تسرّب تأثيرات المحيط السنّي منذ مراحل مبكّرة نسبيا، لكنّها لم تتأكّد إلاّ في أواخر العصر الوسيط والعصر الحديث. وهنا يلتقي جبل وسلات مع جيوب الإباضية الأخرى التي تداعت رويدا رويدا لتنصهر في المحيط الثقافي والمذهبي العام ولم تنجح في المحافظة على خصوصياتها سوى التّي قادتها المجموعات الإباضية الوهبية وأحكمت تأطيرها بنظام العزّابة ومؤسّسة المدرسة. فهل كان هذان العنصران غائبين عن جبل وسلات؟ مما يدعو الى الاعتقاد الى غلبة التيّار الإباضي النكّاري به؟ تيّار نفهم أنه كان الاكثر هشاشة في تجمّعات الإباضية، تيّار نعلم أنّ هشاشته قادته في جربة في أواخر العهد الحفصي الى الإستعاضة عن قوّة الحجة التّي احتمى بها الإباضية الوهبية بكل حجج القوّة الأخرى. في هذا المستوى من التساؤل لا تسعفنا النّصوص التي بين أيدينا بشيء ويبقى الميدان ومواصلة استكشافه أملنا الوحيد في إنارة السّبيل.

قرى جبل برقو بين السلطة الشرعية لمدينة القيروان وشرعية سلطة جبل وسلات

جهاد الصويد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان

لقد اختُزل التراث المادي للبلاد التونسية ولفترات عدّة في دراسة آثار المدن الكبرى والمعالم الشاخصة بالأساس، وذلك في تناغم مع وفرة المادة المصدرية التي أطنبت في الحديث عن مجالات ومدن دون سواها، لتبقى بذلك فضاءات أخرى من البلاد مجالات هامشية في الدراسات والبحوث رغم امتدادها الجغرافي الذي يشمل كامل المناطق الداخلية بمجالاتها الصحراوية والتلية والجبلية[1]. وتهتم هذه الدراسة بجزء من التراث المادي لإحدى هذه المناطق الجبلية ممثلة في جبل برقو كوحدة جغرافية وقراه المتناثرة في سفوحه وقممه، وهي تطرح بحكم موقعها الجبلي وتبعيتها الإدارية لمجال القيروان العديد من التساؤلات لعلّ من أبرزها طبيعة العلاقة بين قرى جبل برقو ومجال مدينة القيروان منذ أواخر الفترة الوسيطة وإلى حدود الفترة الحديثة، ولتناول هذه الإشكالية سنحاول مقارعة المصادر التاريخية بوثائق الأرشيف وبالمعطيات الميدانية.

1- الإطار العام للمنطقة وأصل تسمية

أ- الإطار الجغرافي والتاريخي

ينتمي جبل برقو إلى سلسلة جبلية اعتاد الجغرافيون على تسميتها "بجهة جبل السرج" مستعيرين في ذلك اسم أعلى قمّة في الجهة (أي جبل السرج)[2]، وتمثّل هذه السلسلة الداخلية الجزء الأوسط من الظهرية التونسية، وبالتالي فهي تأخذ اتجاها يمتدّ من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتشمل كلّ من حمادة كسرى وجبل بلوطه وجبل السرج وجبل برقو موضوع هذه الدراسة. وتفصل هذه السلسلة بين سهل سليانة المنتمي إلى منطقة التلّ الأعلى وبين سهل الوسلاتية المنتمي إلى منطقة السباسب.

---

[1] نستثني هنا بالأساس دراسات الأستاذ محمد حسن والأستاذ رياض المرابط.

[2] أُنظر:

Frémont (F.), *La région de Djebel Serj (Dorsale tunisienne) : étude géomorphologique*, Thèse dacty., Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Caen, 1958, p. 5.

ويفرّق السكان المحليون بين قسمين لجبل برقو : قسم يعرف "بالجبل الظهراوي" وهو المذكور في الخرائط الطوبوغرافية باسم جبل برقو وبين "الجبل القبلاوي" المنعوت في نفس الخرائط الطوبوغرافية "بالكاف الشرقي" وتتوزّع القرى أساسا في مستوى السفحين الجنوبيين لقسمي الجبل.

الخريطة الطبيعية "لجهة جبل السرج"



أكثر من 1000 م	
بين 600 و 1000 م	
أقل من 600 م	

بالنسبة إلى المعطيات التاريخية، وعلى غرار أغلب المجالات الريفية بالبلاد التونسية، فإنّ معرفتنا لتاريخ الجهة تبقى محدودة خلال الفترة الوسيطة، فأقدم إشارة صريحة للمنطقة تعود إلى النصف الأوّل من القرن الخامس عشر أوردها البرزلي وتفيد انتماء كلّ من جبل برقو

والسرج إلى "بلاد هوّارة" ويضيف الكاتب ما يفيد أنّ المنطقة تنتمي إلى عمل القيروان وأنّها على غرار المناطق الجبلية المحيطة بقرى مدينة القيروان مثل وسلات "لا تنالها الأحكام الشرعية"[3]، نفس الإشارة نقلها الونشريسي بحذافرها. إنّ قرى جبل برقو إذن في أواخر الفترة الوسيطة هي جزء من بلاد هوّارة والتي يمتد مجالها على ما يبدو إلى حدود الوطن القبلي[4] وهي أيضا جزء من مجال جبلي كان في نظر فقهاء مدينة القيروان خارجا عن سلطتهم الشرعية [5]، وفي المقابل فإنّ الصورة التي قدّمها لنا ابن خلدون تقدّم بلاد هوّارة كمجال خاضع للسلطة الحفصية[6] وللقبائل البدوية الغارمة من العرب حيث يذكر صاحب العبر "وهوّارة مغلوبون تحت أيديهم"[7].

خلال الفترة الحديثة تصبح الصورة أكثر وضوحا خاصة من خلال المعطيات التاريخية التي تقدّمها وثائق الأحباس، على أنّ العبارة التي أصبحت تُعرّف بها قرى الجبل، على الأقل منذ أواخر القرن 17 م، كانت"بلاد برقو" لتضيع تسمية هوّارة ولتتحصر في أسماء بعض المواقع مثل "كاف الهواري" و"هنشير بالهوّاري". وتقدّم لنا نفس هذه الوثائق صورة واضحة للتركيبة السكانية لقرى "بلاد برقو" مفرّقة بين مجموعات محلية يُعرفون "بالبراقة" (هم على الأرجح ما بقي من هوارة) وبين مجموعات وافدة من وسلات يُعرفون "بالوسالتية"، بعضهم شيّدوا قراهم منذ موجة التهجير زمن حسين بن علي[8] وأغلبهم بعد إخلاء جبل وسلات في عهد على باي سنة 1762 م. إنّ كل ما ذكر يمثل صورة مقتضبة لجبل برقو على مستوى التاريخ العام فهل يمكن أن نتتبّع علاقة قرى هذا الجبل بسلطة المدينة "الشرعية" منذ أواخر الفترة الوسيطة ؟

ب- جبل برقو : محاولة في تتبع أصل التسمية

قبل الخوض في مسألة أصل التسمية على المستوى اللغوي يجدر بنا التذكير في البداية بمختلف الصيّغ التي كتب بها هذا الموقع انطلاقا من الفترة الوسيطة وإلى حدود الفترة المعاصرة غايتنا في ذلك محاولة رصد التطوّر الطوبونومي للكلمة إن وُجد طبعا. فكما أشرنا

---

[3] البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 2002، الجزء 2، ص 425.

[4] حسن (محمد)، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس، 1999، ج 1، ص 224.

[5] يفرّق البرزلي بين مركز مدينة القيروان "مجلس الشرع" و" محل الأحكام الشرعية" وبين القرى والجبال التي حولها والتي "لا تنالها الأحكام الشرعية"، البرزلي، نفس المصدر، ج 2، ص 424-425.

[6] يذكر ابن خلدون في حديثه عن هوارة "وللسلطان بإفريقية عليهم وظائف من الجباية... وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بعسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك..."؛ ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات 1971، ج 5، ص 142.

[7] نفس المصدر، ج 5، ص 103.

[8] هناك معطيات في وثائق الأرشيف هي التي جعلتنا نميل إلى هذا الافتراض، فأولاد مانس (أو المانسيه) مثلا كانوا يحرسون السفح الجنوبي لجبل برقو في مستوى "خنقة الشرفا" أي في مستوى دشرة بوجه المشرفة على قصر لمسه وذلك زمن ثورة إسماعيل بن يونس بوسلات، أي قبل إخلاء الجبل نهائيا؛ الأرشيف الوطني التونسي، دفتر رقم 2144.

في السابق فإنّ أوّل ذكر صريح لهذا الجبل موضوع الدراسة يعود إلى القرن الخامس عشر للميلاد وقد كتب بصيغة "برقو" أي جذر ثلاثي هو ب - ر- ق ينضاف إليه حرف الواو كامتداد صوتي لحركة الضمّ الموجودة بحرف القاف، وبنفس الطريقة كتبت عند الونشريسي خلال القرن السادس عشر، ولا غرابة في ذلك لأنّ هذا الأخير أخذ عن السابق. خلال الفترة الحديثة نجد أنّ مصادر هذه الفترة[9] تذكر الكلمة بنفس الصيغة أي بنفس الجذر الثلاثي ينضاف إليه واو المدّ ولا تزال تكتب بنفس الكيفية في الفترة المعاصرة. لكن في المقابل فإنّ وثائق الأرشيف تقدّم الكلمة بصياغتين تختلف الواحدة عن الأخرى، الأولى تكون في تواصل مع ما تذكره المصادر وسيطة كانت أم حديثة في حين أنّ الصياغة الثانية تكتفي بذكر الكلمة بجذرها الثلاثي فقط أي "برق" من دون "واو"، فهل يعني ذلك وجود اختلاف في طريقة كتابة الكلمة بين وثائق الأرشيف والمصادر؟

يبدو أنّ هذا الاختلاف في الشكل يفسّر بحركة الضمّ الموجودة في آخر حرف للكلمة بمعنى أنّ الكلمة تنطق بنفس الطريقة سواء وُجدت الواو أم لم توجد، وقد يفسر ذلك بطبيعة النسّاخ والذين عادة ما يكتبون الكلمة كما يسمعونها ليكون الاختلاف بذلك نتيجة اجتهادات من بعض العدول. لكن إذا علمنا أنّ العدول الذين يكتبون الكلمة فقط بجذرها الثلاثي أي "برق" هم عدول بعضهم أصله من قرى وسلات (وثيقة تعود إلى القرن 17 م) والبعض الآخر من قرى بالجبل موضوع الدراسة[10]، بمعنى أنّها صادرة عن أناس من أصيلي المجال وعارفين بالصياغة الصوتية للكلمة، فإنّ المسألة لن تصبح مجرّد مصادفة بل هي كتابة واعية، وإنّ مثل هذه الوضعية تجعلنا نميل إلى ترجيح أنّ صيغة وثائق الأرشيف وطريقة الكتابة التي دوّن بها هؤلاء العدول عبارة "برق" هي الأصل وأنّ ما تذكره المصادر هو اجتهاد لغوي لا أكثر، ولكن هل يمكن لهذا الاختلاف الشكلي أن يخفي اختلافا في المعنى؟

إنّ البحث عن معنى كلمة "برق" (أو برقو) يحتّم علينا في مرحلة أولى العودة إلى التفاسير المقدمة من أهالي جبل برقو لمعنى هذه الكلمة، فهم يعتبرون أنّ "البَرْ" - بمعنى كامل المجال الجبلي- كان مِلكا لشخص رومي كان يُدعى "قُو" فسُمّي المجال باسمه أي "بر قو" لتتطوّر الكلمة بكثرة الاستعمال ويقع دمج المصطلحين فأصبحت برقو. إنّ هذا المعطى الشفوي رغم بساطته يعدّ محاولة من الأهالي لتقديم تفسير لمجال يقطنون فيه رغم التناقض الذي يشوبه لأنّه يستعمل في نفس الوقت كلمتين للتدليل على المكان وهما كلمة "جبل" و"بَرْ" قبل ذكر نسبة المكان وهي هنا اسم لشخصية أسطورية هو "قُو"، لكن رغم هذا التناقض فإنّ هذه الرواية تورد معطى لا يمكن التغافل عنه وذلك عندما اعتبرت أنّ هذه الشخصية الأسطورية (قو) أصلها "رومي" وهو ما قد يحيل إلى أصل روماني أو ربّما بيزنطي، أو على الأقل - وهو ما يمكن الأخذ به من هذه الرواية- أنّ هذا الاسم قديم إلى درجة أنّ

---

[9] ابن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد على التركي، تقديم وتحقيق أحمد الطويلي، تونس، 1998، ج 1، ص 332؛ ابن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1970، ج 1، ص 73.

[10] هناك وثيقة خاصة بقرية مديولة ومؤرخة بسنة 1125 هـ / 1714 م وأخرى خاصة بقرية تاقمة ومؤرخة في سنة 1154 هـ/ 1751 م؛ أرشيف وزارة أملاك الدولة، صندوق برقو.

الأهالي عجزوا عن تفسيره بشكل مقنع، ولكن يبقى الإشكال في مستوى تأريخ هذا القِدم فهل في المعاجم اللغوية ما قد يفسّر كلمة برقو؟

لا نجد في المعاجم الخاصة باللغة البربرية أي تفسير لجذر الكلمة الثلاثي "برق"، وفي المقابل فإنّ هذا المصطلح يجد ما يُقاربه في اللغة العربية فهو يذكرنا بكلمة "البرق" فهل يعني ذلك أنّ الجبل لكثرة برقه سمي بجبل برقو بمعنى أنّه حمل صفة مثلما حمل جبل آخر هو جبل وسلات صفة كثرة الأمطار فسمي "جبل ممطور". إنّ هذه الفرضية كانت يمكن أن تكون مقبولة وحاسمة إلى حدّ كبير لو أنّ المصطلح المستعمل لوصف الجبل بكثرة البرق هو "بارق" لأنّ البارق في اللغة العربية هو كثير البرق[11] ولا توجد في العربية صفة "برقو" فتكون فرضية الأصل العربي للكلمة غير واردة على الأرجح.

إنّ انعدام أي تفسير لغوي للكلمة إلى حدّ هذا المستوى من البحث يجعلنا نسعى إلى المجازفة بالبحث في المصادر التاريخية عامة عمّا يمكن أن يتشابه أو يتقارب من حيث النطق أو الكتابة مع تسمية جبل برقو سواء في مصادر الفترة القديمة أو الوسيطة، منبّهين في نفس الوقت بأنّ ذلك لا يعدو أن يكون سوى محاولة لرصد الأصل لتبقى بذلك مجرّد فرضيات لا غير.

إنّ أهم ما أمكن استخراجه بالعودة إلى المصادر القديمة هو وجود موقع جبل يحمل تسمية *Bourgaon* أورده بروكوب خلال حديثه عن حرب القائد البيزنطي Solomon ضد القبائل البربرية سنة 534 م، حيث يذكر هذا الكاتب بأنّ البربر خيّموا بمعسكرهم في هذا الجبل مضيفا "بأنه يتكوّن من قمتين يفصل بينهما واد عميق"[12]. تبدو هذه الإشارة مهمة لسببين، الأوّل أنّها تتحدّث عن جبل يتكوّن من جذر ثلاثي هي ب – ر- ق (إذا ما استثنينا حروف الحركة اللاتينية) أي أنّها تقدّم صيغة قريبة جدّا للجذر الثلاثي لكلمة برقو بل إنّها تكاد تصل إلى حدّ التطابق، السبب الثاني هو المعطى الجغرافي والوصف الطوبوغرافي المقدّم لهذا الجبل، فهل يستجيب جبل برقو للوصف المقدّم لجبل Bourgaon ؟

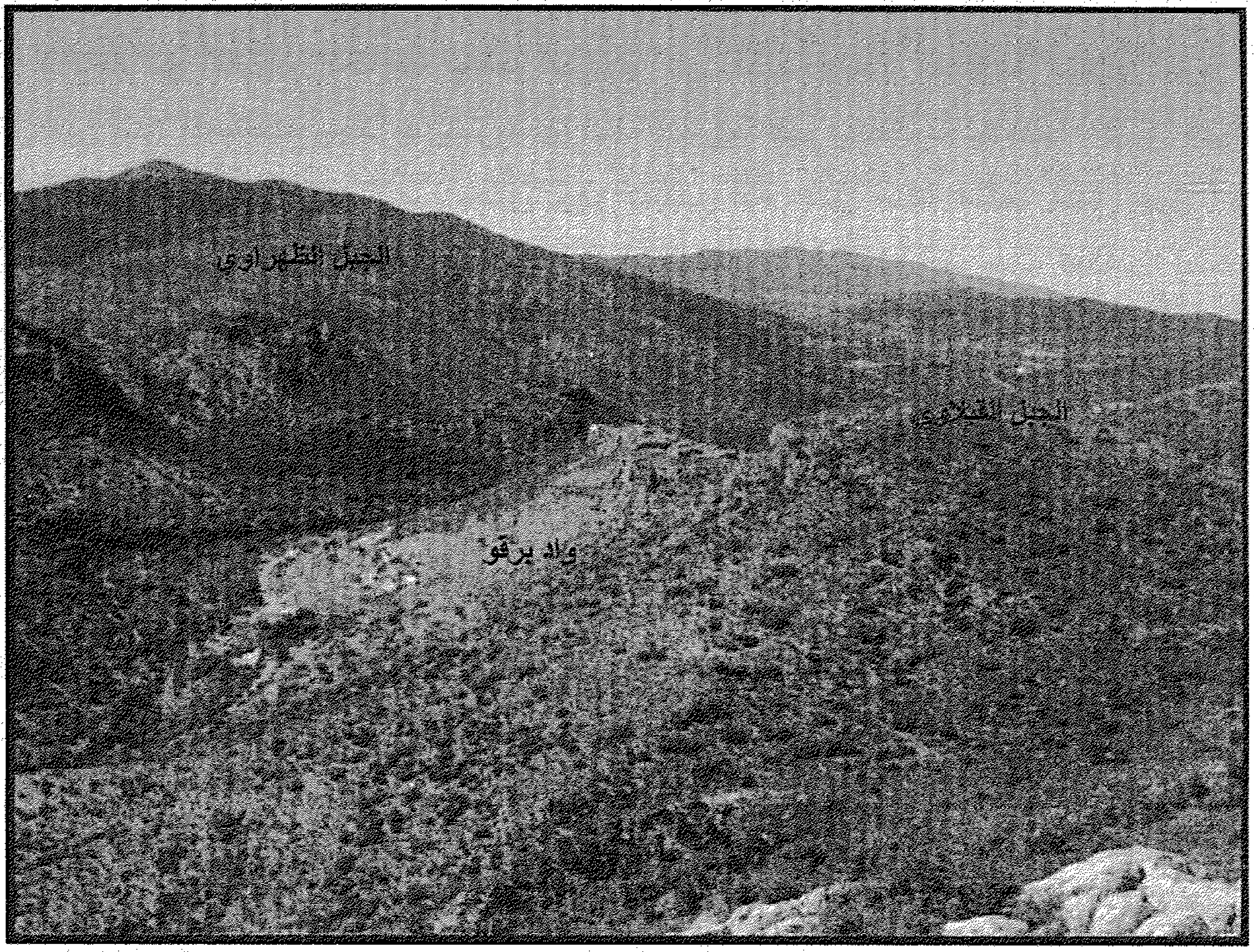
لا يبرز جبل برقو كما أشرنا في السابق على المستوى الطوبوغرافي ككتلة جبلية واحدة بل هو تواتر لكتلتين جبليتين يفصل بينهما واد برقو يعرف القسم الشمالي منه بالجبل الظهراوي والجنوبي بالقبلاوي، وهو يشمل أساسا كلّ من الكاف الشرقي يليه من القبلة جبل القيتون، وهذا الأخير يمثل بدوره امتدادا طبيعيا لجبل السرج (أُنظر الخريطة)، بهذا المعنى فإنّ جبل برقو يتشابه طوبغرافيا مع الوصف المقدّم لموقع *Bourgaon* عند بروكوب وهو ما يسمح بالافتراض بأنّنا إزاء نفس الموقع الجبلي فيكون بذلك *Bourgaon* هو على الأرجح

[11] ابن منظور، لسان العرب، بيروت، 1955، ج 10، ص 14، "سحابة بارقة أي ذات برق".

[12] أُنظر:

Procope de Césarée, *La guerre contre les vandales*, Livres III et IV, traduit et commenté par Denis Roques, Paris, Les Belles Lettres, 1990, p. 152.

الاسم القديم للجبل وأنّ تسمية برقو هي تعريب لتسمية قديمة نجهل معناها على الأقل إلى حدّ الآن.



ورغم أنّ المسألة غير محسومة بحكم أنّنا لم نجد نقائش تؤكّد مثل هذا الافتراض وتحسم المسألة بشكل نهائي فإنّ تواتر أسماء شخصيات تعود للفترة القديمة في نقائش جنائزية وغيرها تحمل نفس جذر "برقو" في مواقع أثرية ومعالم تحيط بالجبل يمكن أن تدعم مثل هذه الفرضية، حيث أمكن رصد جذر هذا الاسم بصيغ مختلفة، فهو يأخذ تارة اسم شهرة مثل *Bereggal* في موقع هنشير بوزيتينة (يبعد 11 كلم جنوب سليانة في الطرف الغربي لسهل برقو) [13] أو أيضا نجده في صيغة اسم مثل *[BA]RIGBAL* [14] في نقيشة "قصيّر غفّار" وهو ضريح يوجد داخل الجبل في مستوى الطريق المؤدية إلى قصر لمسة جنوبا، وكذلك في نقيشة جنائزية بنفس الصياغة أي *BARIGBAL* في هنشير الخاشون المعروفة خلال الفترة القديمة باسم *Muzuc* و"مجقّة" خلال الفترة الوسيطة[15] كما نجده في صيغ أخرى مقاربة للأولى مثل اسم *Baeregbal* في نقيشة جنائزية بقصر لمسة [16] وأيضا اسم *Beregis* في نقيشة جنائزية ثانية بنفس الموقع[17].

[13] أُنظر:

M'charek-Bourghida (F.), « Stèles et reliefs inédits de Bargou », *Africa*, XV, 1997, p. 30.

[14] أُنظر:

Cagnat (R.), « Rapport sur une mission en Tunisie », *N.A.M.S.*, T. XIV, 1888, p. 8.

[15] أُنظر:

Ibid., p. 14.

[16] أُنظر:

إنّ مجمل هذه الأسماء يرجّح أنّها ذات أصول لوبية أو إفريقية [18] وهو ما قد يفسّر الصيغ المختلفة التي وردت بها مختلف هذه الأسماء، ورغم هذا الاختلاف فإنّها تشترك على ما يبدو في نفس الجذر الثلاثي المكون لتسمية برقو وهو ما يمثّل مؤشّرا هاما قد يساعد في تدعيم الفرضية المقترحة حول أصل تسمية الجبل خاصة وأنّ مختلف صيغ الأسماء المقترحة توجد في مواقع ومعالم داخل الجبل أو حوله أو ملاصقة له. وتشير بعض الدراسات إلى أن الجذر brk بمعنى ب - ر- ق - بالعربية على الأرجح يعني من حيث المصطلح "أنعم"[19] فهل يحيل ذلك على أنّ الجبل، إذا سايرنا افتراض التسمية، كان بمثابة النعمة على سكانه أو به نِعَم مختلفة؟ نكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ جبل برقو يحوي العديد من عيون الماء فهل المقصود نعمة الماء؟ كما نشير إلى أنّ المسح الأثري مكّننا من رصد العشرات من معاصر الزيت المؤرخة مبدئيا بالفترة القديمة فهل تكون المسألة مرتبطة بنعمة شجرة ظلّت في المخيال الجماعي شجرة مباركة؟[20].

بالنسبة لمصادر الفترة الوسيطة (وهنا نستثني إشارة البرزلي والونشريسي) فإنّنا لم نعثر بها على أسماء قبائل أو مواقع تحمل اسم "برقو"، ولكن في المقابل نجد إشارة تعود إلى القرن الرابع للهجرة أوردها المقدسي في حديثه عن مدينة الأربس يذكر فيها جبل "بورغ" ويذكر في هذا الشأن بأنّ "لربس تحت جبل بورغ..."[21]، يصعب التكهّن بموقع هذا الجبل من مدينة الأربس[22] لكن ما يعنينا على الأقل هنا هو وجود جبل كان يحمل تسمية قريبة نسبيا من حيث النطق مع برقو. وبالعودة إلى مصدر آخر دوّن في القرن الخامس للهجرة هو البكري وأخذ عن ابن الوراق الذي كتب في نفس فترة المقدسي نتبيّن أنّ اسم بورغ هو اسم لقبيلة من برغواطة كانت تسكن المغرب الأقصى، ويبدو أنّ هذا الجبل القريب من الأربس كان

Année Epigraphique, 1958, p. 552 ; Belkhodja (K.), « Ksar Lemsa (fouilles archéologiques de 1955-1955) », *Africa*, II, 1958, p. 327.

[17] أُنظر:

Année Epigraphique, 1958, p. 559 ; Belkhodja (K.), *Op. cit.*, p. 328.

[18] أُنظر:

Jongeling (K.), *North African names from latin sources*, Leiden, 1994, p. 15 ; Camps (G.), « Liste onomastique libyque d'après le sources latines », *REPPAL*, VII- VIII, 1992- 1993, p. 49.

[19] أُنظر:

Ibid., p. IX (**brk** : To Bless).

[20] نشير هنا إلى كلمة مستعملة في لهجة "تاشلحيت" (الشلحة) قريبة من هذا الجذر ومستعملة إلى حدّ الآن وهي "أبرقال" ومعناها بالعربية "الأصدف" أي الشخص الذي تكون ركبتاه ملتفتتان نحو الداخل، فهل يمكن أن تكون هناك علاقة مع جبل برقو المتكون من قمتين تلتفتان نحو الداخل؟، ورد هذا التعريف باللغة الفرنسية في مواقع إلكترونية خاصة باللهجات البربرية وهي كالتالي « **abergal** : cagneux » (cagneux : qui a les genoux tournés vers l'intérieur)

[21] المقدسي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، 1905، ص 225- 227

[22] ربما هو جبل الأربس نفسه.

موطنا لفرقة منها، على الأقل قبل القرن الرابع للهجرة، فسمي الجبل باسمها. يصعب التكهّن والمجازفة بالقول بوجود علاقة بين تسمية برقو وقبيلة "بورغ" ولكن وجود هذه القبيلة في مجال غير بعيد عن المجال المدروس مثيرا للانتباه. ويمكن أن نكتفي في ختام هذا العرض بالتذكير بأن بالبلاد التونسية وخارجها توجد بعض التسميات التي تحمل نفس جذر كلمة برقو مثل مدينة طبرقة، قرى البريقية بأقصى الجنوب الشرقي، حومة بورقو بجزيرة جربة إضافة إلى مدينة برقة و طبرق في ليبيا حاليا، هذا التواتر يبدو أنّه يخفي وحدة لغوية لسنا قادرين في هذا المستوى من البحث على الإجابة عنها.

ومهما يكن من أصل التسمية فإنّ جبل برقو كان يحوي قرى كانت موجودة منذ أواخر الفترة الوسيطة على الأقل تتبع على المستوى الإداري عمل القيروان ومصنّفة حسب الفقهاء ضمن مجالات "لا تنالها الأحام الشرعية" على غرار جبل وسلات وهو ما يجعلنا نسعى إلى تتبع حقيقة هذا التصنيف ومختلف تجلياته وأبعاده.

2 – قرى جبل برقو بين السلطة الشرعية لجبل وسلات وسلطة مدينة القيروان

أ- أواخر الفترة الوسيطة

يمكن الانطلاق مجدّدا من إشارة البرزلي حول قرى جبل برقو، فهذا الفقيه عاين وضع هذه القرى في الفترة التي مارس فيه القضاء بمدينة القيروان، حيث يفيد سياق النص الذي يورده أنّ قرى جبل برقو تكوّن جزءا من فضاء أو مجال جبلي هو "الجبال المحيطة بقرى القيروان"[23] تابع إداريا لعمالة القيروان. ويشير نفس الفقيه أيضا إلى وجود إشكال في تبادل المراسلات بين فقهاء القيروان كسلطة مدينية شرعية وبين ما يُعتقد أنّهم فقهاء جبل وسلات[24]، فبعض المراسلات لا تصل وإن وصلت إمّا لا يقع الردّ عليها أو تكون الردود "بخط غير معروف ولفظ غير محصل"[25].

تحدّث البرزلي فقط عن مراسلات مع جبل وسلات ولا يذكر مراسلات مع جبل برقو، هذه الإشارة وما سبقها من شأنها أن تجعلنا نفترض أنّ جبل وسلات كان مركزا (شرعيّا) له نفس قيمة مدينة القيروان تنضوي تحته قرى جبل برقو، بمعنى أن العقود الشرعية (كوثائق الملكية أو الزواج أو غيرها) لأهل قرى جبل برقو كانت على الأرجح تُنجز من قبل فقهاء من

---

[23] البرزلي، نفس المصدر، ج 5، ص 425.

[24] يذكر البرزلي "فيكتب (الحاكم بمدينة القيروان) لمن يزعج الغريم المذكور ..."؛ البرزلي، نفس المصدر، ج 5، ص 424.

[25] نفس المصدر، ج 5، ص 424.

جبل وسلات خاصّة وأنّ هذا الجبل تميّز بمراكزه الحضرية وحصونه[26] مقابل اقتصار جبل برقو على مراكز صغيرة تأخذ شكل قرى ومداشر[27] .

استنادا إلى هذه التمشّي يبدو أنّ قرى جبل برقو كانت تابعة لجبل وسلات كمركز تشريعي مستقل عن مدينة القيروان وانحصرت علاقتها بمدينة القيروان على النواحي الإدارية فقط، أي مجرّد الانتماء إلى تقسيم إداري ترابي لعمالة القيروان على الأرجح أنّه وريث لكورة القيروان منذ القرن 3 هـ / 9 م.

ونكتفي بالإشارة والتذكير في ختام هذا العنصر بأنّ قرى جبل برقو لم تكن مجالات رافضة وخارجة عن السلطة المركزية فهي (كما أشرنا في السابق) "بلاد" كانت ملتزمة بدفع الضرائب وذلك أمام سطوة القبائل الغارمة المحيطة بمجالها ولكن مثل هذه الوضعية لا تنفي إمكانية انتمائها إلى مجالات الرفض خلال الأزمات والاضطرابات التي شهدتها إفرقية كلما ضعفت السلطة المركزية مستفيدة في ذلك من تحصيناتها الطبيعية.

ب- الفترة الحديثة

بالنسبة للفترة الحديثة فإنّه سيقع الانطلاق من أواخر القرن 17 م باعتبار أنّ أقدم وثيقة أحباس متوفّرة إلى حدّ الآن سيقع الانطلاق منها، نصّها الأصلي مؤرّخ بسنة 1110 هـ / 1699 م يليها نصّ ثان مؤرّخ بسنة 1189 / 1775 م ثمّ نصّ ثالث مؤرّخ بسنة 1277 هـ / 1864 م[28]. تذكر هذه الوثيقة في آخر نصّها الأصلي أنّ العقد "منعقد بعقدي عدلين أقدمين ..والخطّ ... هو خط الفقيه أبي عبد الله محمد غلاب التيفالي من بلد المنحروص ماة (كذا) قاضيا بجبل وسلات والمعطف عليه محمد... السليماني من بلد قلعة جماعه... وهما عدلان بالجبل المذكور إلى أن ماتا..."

النص الثاني يذكر فقط اسم العدلين وبالتالي يصعب تحديد نسبتهما، أمّا النص الأخير فإنّه كتب من قبل ثلاثة عدول كلّهم يحملون لقب عضوم ويحدّدون مكان الكتابة بالقيروان ومن بين ما يذكرون في تعقيبهم على النص الذي سبقهم " ... ومنعقد بعقد لم يفهم..." وكذلك "...وبعد ذلك جمل لم تفهم ...". من خلال هذه الوثيقة يمكن أن نستخلص النقاط التالية.

أوّلا : كان بجبل وسلات (قيادة وسلات) قُضاته وفقهاؤه وعُدوله بالتالي فهو على المستوى التشريعي والفقهي قادر على أن يكون مجالا مستقلا عن مدينة القيروان وقادر على أن يستقطب الجبال المحيطة به والقريبة منه.

---

[26] الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، 1989، ج 1، ص 294؛ حسن (محمد)، نفس المرجع، ج 1، ص 222-223.

[27] وقع العثور على بعض اللقى الخزفية المؤرخة بأواخر الفترة الحفصية في موقعين إلى حدّ الآن وهو ما يفيد أنّ التوطين بها يعود إلى الفترة الحفصية على الأقل.

[28] أرشيف وزارة أملاك الدولة، صندوق برقو.

ثانيا : إنّ قرى جبل برقو واصلت تبعيّتها لقيادة وسلات كمركز تشريعي ربّما كان إشعاعه يشمل كلّ المناطق الجبلية الواقعة شمال القيروان، وهو ما قد يجعلنا نرجّح أنّ الوضعية موروثة عن الحقبة الوسيطة.

ثالثا : يبدو أنّه بعد إخلاء جبل وسلات أصبح أهل قرى جبل برقو مرتبطين بمركز مدينة القيروان على مستوى وثائقهم الشرعية من خلال اعتمادهم على عدول من مدينة القيروان.

رابعا : إنّ العبارات التي تشير إلى عدم فهم بعض الجمل من قبل عدول مدينة القيروان تذكّرنا بالصياغة التي ذكرها البرزلي عند حديثه عن رسائل من جبل وسلات ("خط غير معروف ولفظ غير محصل").

إنّ المعطيات التي تقدّمها هذه الوثيقة تختزل مراحل تطوّر العلاقة بين قرى جبل برقو ومجال القيروان، حيث كانت هذه القرى تتبع قيادة وسلات على المستوى الشرعي وتواصلت الوضعية إلى حدود تاريخ إخلاء الجبل على ما يبدو لتتغيّر الوضعية فيما بعد هذا الإخلاء ويعود ارتباطها بمركز المدينة.

بقي أن نذكر في ختام هذا العنصر أنّ أهل قرى جبل برقو ورغم علاقتهم بوسلات فإنّهم وعلى غرار ما كان في أواخر الفترة الوسيطة واصلوا موقفهم المهادن مع السلطة ولم يشاركوا في انتفاضات القرن 18م على غرار أحد الأخماس المكوّنة للوسالتية وهم أولاد مانس (المانسية).

ولكن هل يمكن أن نجد صدى لمختلف هذه الاستنتاجات المتعلّقة بتبعية قرى برقو لجبل وسلات؟

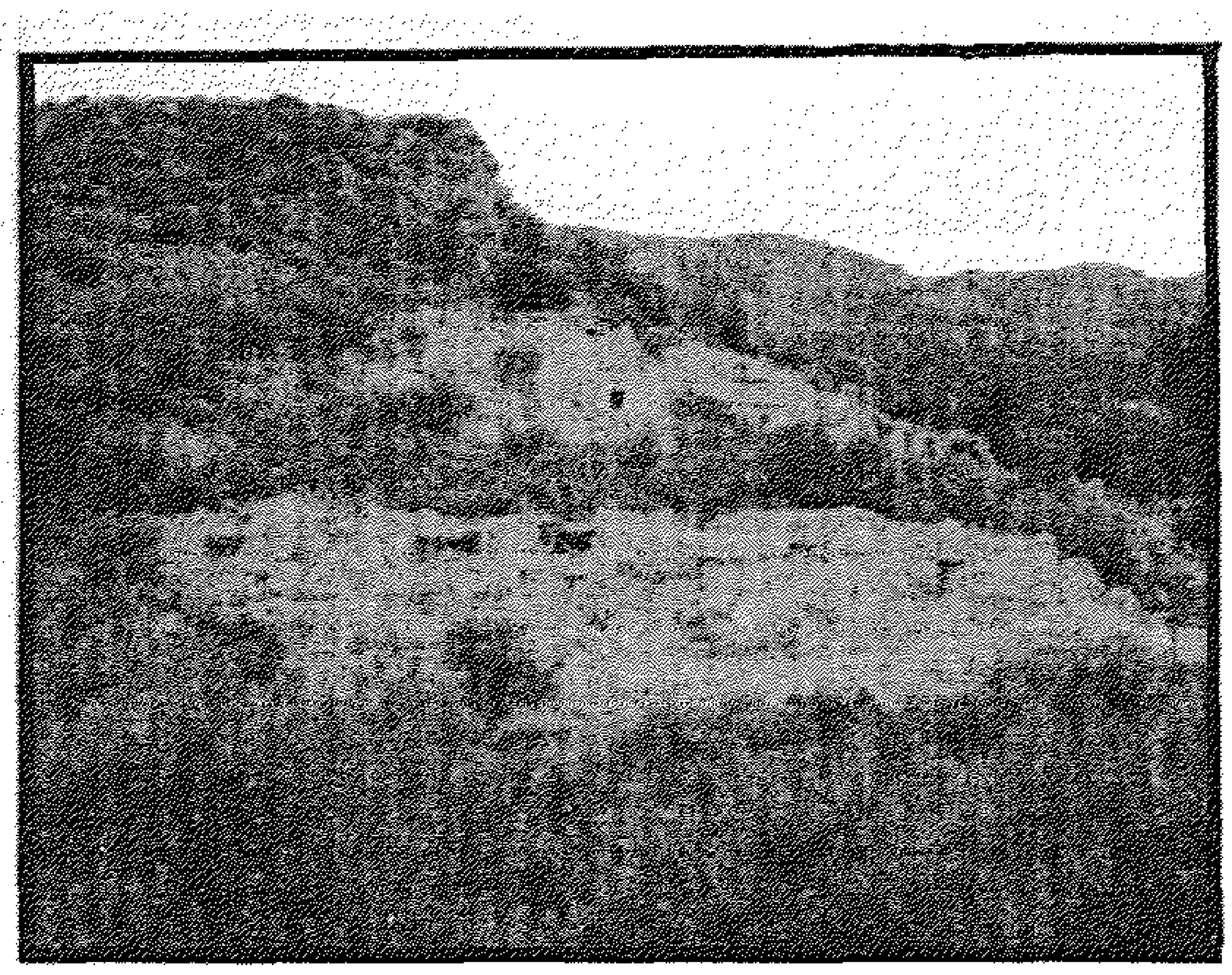
3 – المعطيات الميدانية : قرى جبلية ذات خصائص متشابهة

إنّ أوّل فكرة يمكن أن نحاول التثبّت منه ميدانيّا هو مرّة أخرى فكرة البرزلي ووصفه لقرى جبل برقو "بأنّها لا تنالها الأحكام الشرعية" وكما أشرنا فإنّ المسألة لم تتعدّ الجانب الشرعي وليس المقصود بها على ما يبدو الخروج عن السلطة المركزية والمعطيات الميدانية تجعلنا نميل أكثر إلى هذا الرّأي. فالجبل يحيط به أكثر من طريق، الأوّل يمرّ في طرفه الغربي وهو المعروف بطريق الجبال (من القيروان في اتجاه الأربس عبر جلولا وأجّر) وطريق آخر يخترقه من الجهة الشرقية نجد له صدى في بحوث ودراسات التاريخ القديم[29] (من قصر لمسه

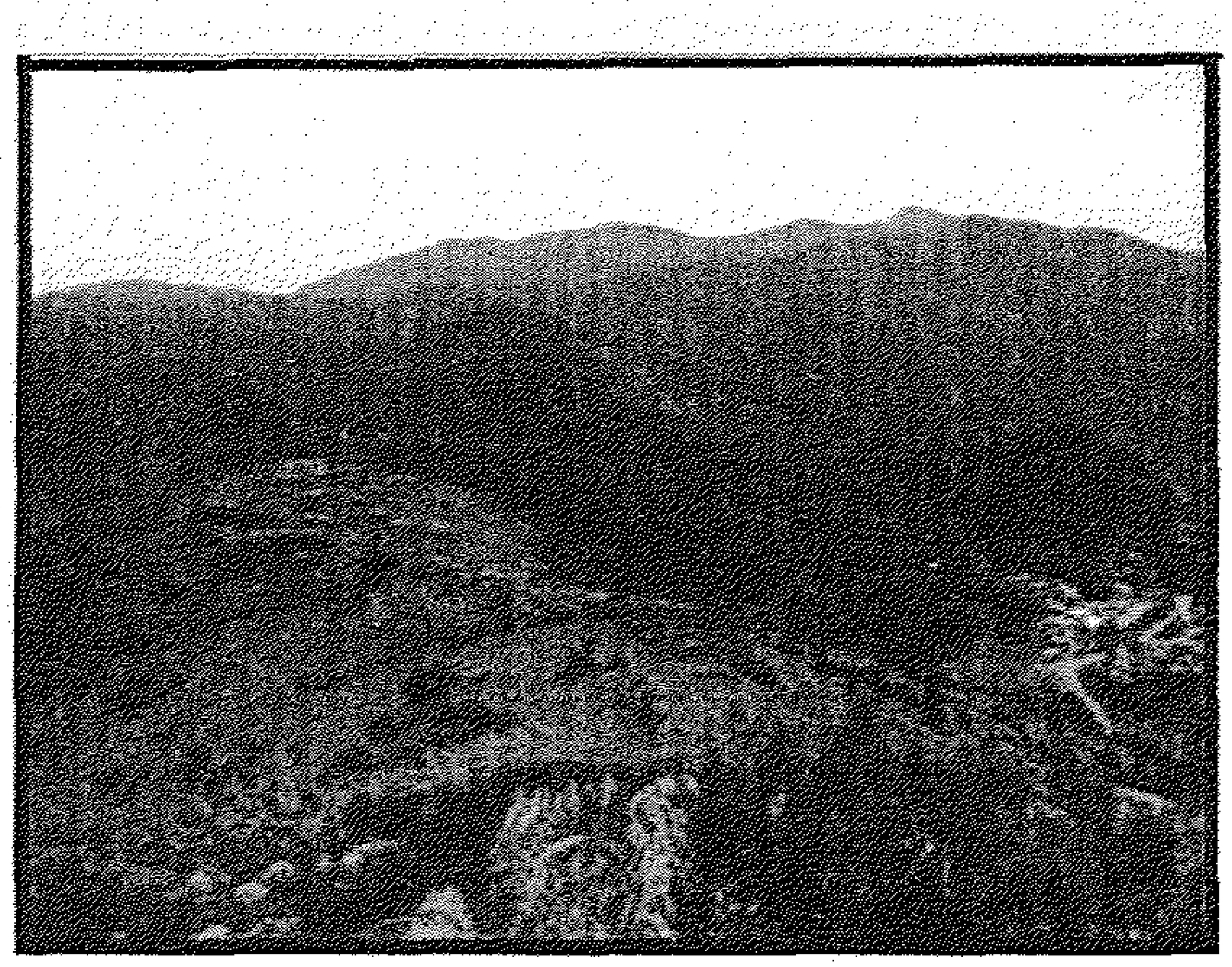
[29] راجع:

Salama (P.), *Bornes milliaires d'Afrique proconsulaire, un panorama historique du Bas Empire romain*, Ecole française de Rome, 1987.

إلى عين فرنه) واستعمل في الفترة الحديثة من قبل الباي حسين بن علي على ما يبدو، هذا إضافة إلى أنّ الولوج إلى عمق الجبل يبقى واردا لوجود حوض زراعي يتخلّل قسمي جبل برقو[30].



دشرة بلوطة (سكانها من وسلات)



دشرة مديولة (سكنها من البراقة)



سور يحيط بدشرة أمّ العزّ (سكانها من وسلات)

المسألة الثانية : هي أنّ قرى جبل برقو متشابهة مع قرى جبل وسلات من حيث اختيار الموقع والتقنيات الإنشائية ومن حيث مواد البناء ومن حيث أشكال المعالم وجوانبها الوظائفية. وحتّى قرى الوسالتية ممّن استوطن سكّانها في برقو بعد تهجيرهم لا تختلف عن قرى البراقه في شيء باستثناء احتواء بعضها على أسوار الأرجح أنّه يفسّر بالهاجس الأمني المفخّم لدى الوسالتيه، أو كذلك إتقان بعضهم لتقنية نقر الحجارة بشكل ملفت للانتباه (جامع بلوطه).

إنّ هذا التقارب يفسّر بالتشابه في المجالات المسكونة، ففي كلا المنطقتين نكون في مجال جبلي له خصائص متقاربة وله عالمه الخاص والمختلف عن ساكني السهول، فلا نستغرب إذن أن يكون جبل برقو، سواء في أواخر الفترة الوسيطة أو خلال الفترة الحديثة، يمثّل جزءا من عالم الجبال المستقلّ أحيانا عن سلطة مركز العمالة التي ينتمي لها ترابيا والمختلفة عنه في أكثر من جانب.

---

[30] إنّ هذا الرّأي لا ينفي إمكانية انتفاضات الجبل في ظروف أمنية معينة في الفترة الوسيطة ومطلع الفترة الحديثة ولكن على الأرجح بأقلّ تواتر من جبل وسلات.

مدرسة الساحل المعمارية
محدودية هذا المفهوم في دراسة المعالم الدينية بجهة الساحل

عفاف الهلالي
المعهد العالي لمهن التراث بتونس

إن الدارس للمعالم الدينية بالساحل[1] تستوقفه إشكالية مدى مشروعية اعتماد مفهوم "مدرسة الساحل" المعمارية في تصنيف هذه المعالم وذلك كمقابل لمدرسة القيروان. وقد درس الباحث الفرنسي لوسيان قولفان هذه المفاهيم منذ السبعينات من القرن العشرين[2] ويتواصل استعماله إلى الآن. فهل يمكن سحب مفهوم مدرسة الساحل على كامل هذه المنطقة التي تمثل الوسط الشرقي للبلاد التونسية وهل يمكن اعتماده في دراسة معالم دينية خاصة بفترات تاريخية لاحقة للفترة الأغلبية ؟ ثم في مقابل ذلك هل يمكن اعتماد تصنيف آخر في دراسة المعالم الدينية بالساحل ؟

لا نهدف في هذا العمل إلى الخوض في نقاش نظري بل سنحاول التثبّت من هذه الاستعمالات من خلال معطيات الإحصاء الأثري للمعالم الدينية في المنطقة وبالتحديد في مدينتي سوسة والمنستير والقرى المحيطة بهما.

مفهوم مدرسة الساحل كمقابل لمدرسة القيروان وحدود هذا المفهوم ؟

درس قولفان العمارة الدينية الأغلبية باعتماد مفهوم المدرستين القيروانية والساحلية، ودرس المدرسة القيروانية من خلال جامع القيروان وجامع الزيتونة وجامع صفاقس وكذلك مسجد ابن خيرون بالقيروان، أما بالنسبة للمدرسة الساحلية فيعتمد مساجد رباطات سوسة والمنستير، وبسوسة أيضا مسجد بوفتاتة والجامع الكبير في وضعه الذي يعود لسنة 237 هـ أي

---

[1] بصدد إعداد أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية حول المعالم الدينية بالساحل تحت إشراف الأستاذة منيرة الرمادي شابوطو وذلك بعد أن ناقشت تحت إشرافها رسالة دراسات معمقة حول : المعالم الدينية بالمنستير دراسة أثرية وتاريخية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2000.

[2] أنظر:

GOLVIN (L.), *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*, Paris, 1974, livre III, p. 123.

عندما كانت بيت الصلاة تحتوي على البلاطات العرضية الثلاث الموازية لجدار القبلة فقط. وحسب الباحث يرتكز الاختلاف بين المدرستين على مستويين وهما الخصائص التخطيطية والإنشائية، وأهم هذه الخصائص تلك التي توجد في بيوت الصلاة.

من الناحية التخطيطية يرى قولفان أن جوامع المدرسة القيروانية تتميز بوجود بيت صلاة مقامة على أعمدة (salle hypostyle) تعتمد مخطط التاء اللاتينية الذي يتجسم بوجود مجاز أوسط أكثر ارتفاعا واتساعا تحف به بائكتان مزدوجتان على جانبيه وذلك في جامع القيروان وهو متعامد مع بلاطة عرضية ملاصقة لجدار القبلة تكون هي أيضا أكثر ارتفاعا واتساعا من بقية البلاطات، في حين تتميز المدرسة الساحلية انطلاقا من مساجد الرباطات بقلة عمق بيت الصلاة أي أنها ممتدة عرضيا هذا إضافة إلى تساوي ارتفاعاتها. على مستوى الخصائص الإنشائية يلاحظ قولفان الاستعمال الكلي للحجارة في كل مكونات مساجد المدرسة الساحلية من خلال التسقيف بأقبية وارتكاز العقود على دعامات حجرية مبنية واعتماد الحجارة المهندمة في الجدران، في المقابل يرى اعتماد المدرسة القيروانية على التسقيف الخشبي وارتكاز العقود على أعمدة عادة ما تكون من الرخام. أما الجدران فهي عموما من الحجارة ولكن في جامع القيروان بنيت أقسام من الجدران الخارجية بالآجر. أما بالنسبة إلى الخصائص الزخرفية هي متشابهة ويسميها الزخرفة الأغلبية عموما وهي كسائية ولكنها مستعملة أكثر في معالم المدرسة القيروانية من معالم المدرسة الساحلية.

هل يمكن اعتماد هذا التصنيف أو الاستفادة منه على الأقل في دراسة المعالم الدينية بالساحل خاصة وأنه يرتكز على منطلقين مختلفين في تحديد المعالم المنتمية إلى نفس المدرسة وكذلك تسمية المدرسة ؟ تعتمد المدرسة القيروانية كنموذج جامع القيروان الذي أثّرت خصائصه في معالم عدة مدن أخرى حتى ولو كانت بعيدة عن القيروان لتصبح منتمية لهذه المدرسة ومن بينها تونس وصفاقس فمقياس تحديد الانتماء هو الخصائص المعمارية والتسمية مستمدة من المدينة التي تحتوي أهم نموذج لهذه المدرسة.

وبالنسبة إلى المدرسة الساحلية التي تهمنا فكان المنطلق هو جهة معينة ذات حدود جغرافية وهي جهة الساحل، فهل مفهوم المدرسة الساحلية في العمارة الدينية يعني أن كل الجوامع والمساجد التي توجد في هذه الجهة لها نفس الخصائص للنماذج التي اعتمدت في مدينتين فقط سوسة والمنستير، فتسمية المدرسة هنا عكس المدرسة القيروانية لم تعتمد اسم المدينة الهم سوسة بل اسم جهة ستنحصر فيها هذه الخصائص ولا تتجاوزها. ولكن يطرح التحديد الجغرافي في حد ذاته لجهة الساحل مشكلا، هذا الساحل يبدو متغيرا ومتنقلا فهناك مساحات كثيرة يبدو أنها لم تعد تعتبر في جهة الساحل[3]، لكن اسم الجهة مرتبط حاليا بمدن سوسة والمنستير والمهدية والقرى التي توجد في ظهيرها ولكنه كان ينطبق في بداية العصر الوسيط على منطقة توجد أكثر نحو الجنوب أي إلى حدود مدينة صفاقس، وإذا

---

[3] الباهي (أحمد)، سوسة والساحل في العصر الوسيط. محاولة في الجغرافيا التاريخية، تونس، 2004، ص 125.

كانت مدينة صفاقس تنتمي إلى هذه المنطقة، فهل يعني أن معالمها الدينية يجب أن تنتمي إلى المدرسة الساحلية هذا مع التذكير بأنها مصنفة ضمن المدرسة القيروانية.

يمكن أن ينسحب هذا التساؤل على كامل مجال جهة الساحل الممتد والمتغيرة حدوده، فهل يمكن أن نصنف كل المعالم الدينية بهذه الجهة التي تعود إلى الفترة الأغلبية أو إلى فترات لاحقة ضمن المدرسة الساحلية ؟ كذلك فإن تأثير معالم القيروان الدينية لم يقتصر على المدينة أو حتى المنطقة الجغرافية محيطة بها بل وصل إلى مدن بعيدة نسبيا أفلا يمكن أن يصل إلى منطقة الساحل القريبة خاصة وأن هناك امتداد طبيعي بين مدينة القيروان وشرقييها الذي يصل إلى سيدي الهاني ويمكن أن يتجاوزه حتى إلى مساكن ؟ بالتالي هل يمكن أن نجد معالم دينية توجد حاليا بجهة الساحل ولكن لها خصائص مختلفة بل ومشابهة أكثر لخصائص جامع القيروان ؟

انتشار خصائص مغايرة للمدرسة الساحلية بمدن وقرى الساحل ؟

ربما لم تصلنا معالم دينية أخرى كثيرة تعود على الفترة الأغلبية بجهة الساحل غير تلك المعروفة ولكننا سنحاول أن نتتبع بعض المعالم التي ترجع إلى كامل العصر الوسيط والتي تحمل خصائص مغايرة للمدرسة الساحلية، فيمكن أن ننطلق من الجامع الفاطمي بالمهدية[4] الذي قامت السلطة بإنشائه لنلاحظ اختلاف خصائصه المعمارية عن معالم الساحل وتشابهها أكثر مع جامع القيروان وربما هو يكوّن أيضا نموذجا مختلفا خاصّا به لذلك لا يمكن إدراجه ضمن الطراز الساحلي.

المثال الثاني هو جامع المنستير إذ إضافة إلى النواة الأصلية التي نرجح تأريخها بالفترة الأغلبية[5]، تمت في الفترة الزيرية وبأمر من السلطة الحاكمة زيادة قسم قبلي يتمثل في ثلاث بلاطات عرضية (صورة عدد 1) وهو ما أعطى للمعالم شكلا مختلفا، حيث أصبحت بيت الصلاة تتميز بعمقها

[4] درس هذا المعلم الباحث الفرنسي الكسندر ليزين وكذلك الأستاذ فوزي محفوظ. أنظر :

LEZINE (A.), *Mahdiya*, Paris, 1955 ; MAHFOUDH (F.), *architecture et Urbanisme en Ifriqiya Médiévale*, Tunis, 2003, p. 249 sq.

[5] الهلالي (عفاف)، المعالم الدينية بمدينة المنستير دراسة أثرية وتاريخية، اشراف الأستاذة منيرة الرمادي شابوطو، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس 2000، ص 97.







صورة عدد 1	صورة عدد 2	صورة عدد3
جامع المنستير القسم القبلي لبيت الصلاة يتوسطه المحراب	جامع المنستير أعمدة القسم القبلي لبيت الصلاة	عمود بالقسم القبلي من الجامع يحمل شكل صليب

عوض امتدادها العرضي كما يتميز القسم المضاف بارتفاعه وإقامته على أعمدة (صورة عدد 2) وباعتماد تقنيات بناء مشابهة لجامع القيروان خاصة على مستوى عناصر الارتكاز التي تتمثل في أعمدة رخامية معادة الاستعمال (مثلا يوجد عمود يحمل شكل صليب وهو ممطرق) (صورة عدد 3) أما التيجان فأغلبها من الصنف الكورنثي تعلوها عناصر بنفس التنضيد الموجود بجامع القيروان (المسندة، رجل القوس، الإفريز). تتميز الواجهة الشرقية لهذا الجامع في مستوى الإضافة الزيرية بوجود حلية معمارية تتمثل في ثلاثة عقود جدارية صمّاء تذكر بعقود واجهة مسجد ابن خيرون كذلك يحتوي المحراب على زخرفة كسائية تذكرنا بالزخرفة الأغلبية عموما وهي المربعات الموضوعة على الطرف. يحتوي محراب جامع المنستير على زخرف مشابه لما يوجد في مسجد مجاور هو مسجد رباط السيدة[6] الذي يعود إلى الفترة الزيرية، ونلاحظ في مسجد الرباط هذا عدم وجود خاصية الامتداد العرضي لمساجد الرباطات الأغلبية، إذ يوجد المسجد في وسط الجناح القبلي للرباط ولا يغطيه بالكامل وربما يرتبط ذلك بوجوده في رباط مخصص للنساء، وفي المقابل نجد به خصائص مساجد الأحياء من خلال تشابهه مثلا مع مسجد بوفتاتة بسوسة باعتماد تخطيط يتمثل في ثلاث بلاطات طويلة وثلاث بلاطات عرضية والبناء الكلي بالحجارة.

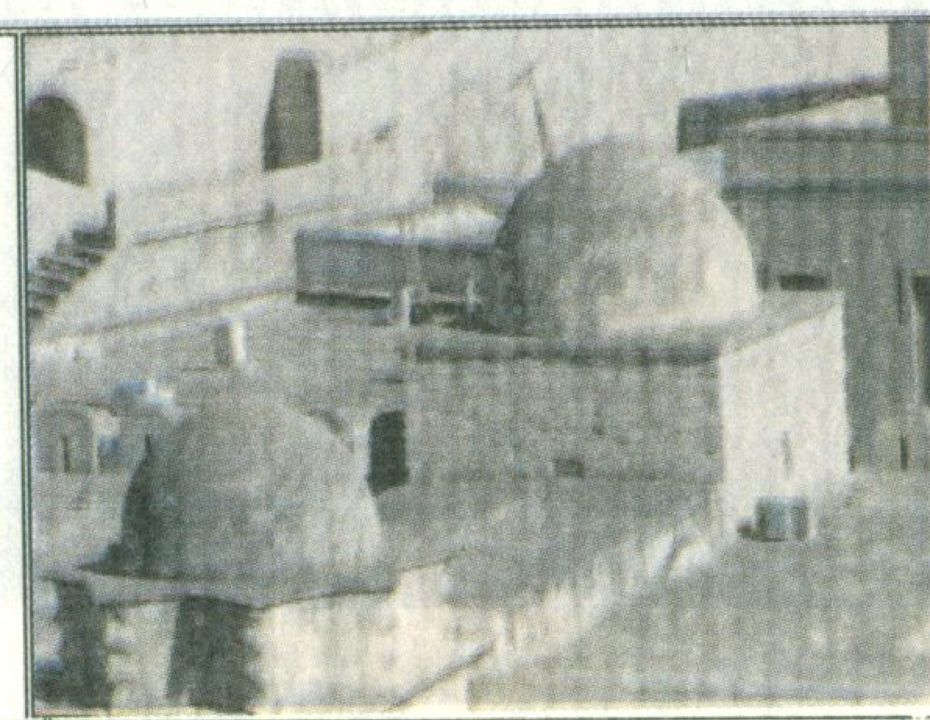
هذا التشابه مع جامع القيروان سيجعل من الطراز الرسمي القيرواني حاضرا في إحدى كبرى مدن الساحل وهي المنستير كما سنلاحظ انتشار هذا الطراز في عديد المناطق في الساحل وحتى داخل مدينة سوسة التي تعتبر مركز الطراز الساحلي فتأثير الطراز القيرواني

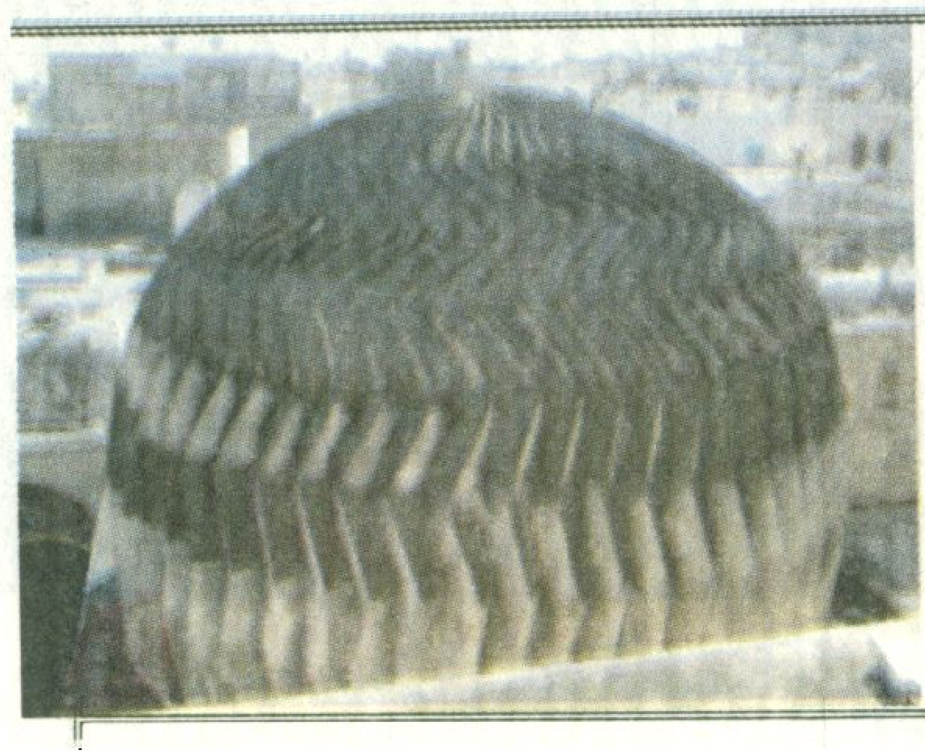
---

[6] الهلالي (عفاف)، ن.م.، ص 131. يمكن اعتبار رباط السيدة هو نفسه رباط النساء بالمنستير من خلال تضافر عدة مؤشرات، كما رجحنا وجود تربة الزيريين مباشرة قرب القصر من الجهة الجنوبية الشرقية وذلك في مقال حول الموضوع : الهلالي (عفاف)، "نقيشة زوجة المنصور بن بلكين : مؤشر جديد لوجود مقبرة الزيريين بالمنستير"، في حركية الإنسان والأفكار عبر المتوسط، أعمال ندوة قسم التاريخ بكلية الآداب بسوسة، سوسة، 2001.

نجده حتى في جامع سوسة (صورة عدد 4) من خلال اعتماد القبة التي تتقدم المحراب مثلا وكذلك وجود قبتين في نفس المحور لبيت الصلاة (صورة عدد 5)، حتى وإن لم يكن ذلك عمدا بل بسبب الإضافة. ونلاحظ في معلم آخر في وسط مدينة سوسة يسمى قبة بين القهاوي، حيث يختلف الشكل الخارجي للقبة المحزز (صورة عدد 6) عن القباب الملساء من الخارج بسوسة والمشابه للشكل الخارجي لقباب القيروان.







صورة عدد 4 جامع سوسة، منظر عام	صورة عدد 5 جامع سوسة، قبتي المجاز المحوري	صورة عدد 6 قبة بين القهاوي منظر خارجي للقبة

نلاحظ هذا التأثير أيضا في عديد المساجد خاصة الموجودة في الجهة الشمالية الغربية لمدينة سوسة منها مسجد الأخوات الذي يطل بواجهته القبلية على نهج باب الغربي. يتكون هذا المعلم من بيت صلاة في الجهة الغربية وصحن في الجهة الشرقية أين يفتح المدخل وكذلك مئذنة في الركن الجنوبي الشرقي، تمتد بيت الصلاة على مساحة مستطيلة بين القبلة والجوف أبعادها 10.50 م × 7.50 م وتتكون من ثلاث بلاطات عرضية موازية لجدار القبلة وثلاث طولية في الجهة القبلية واثنين في الجهة الجوفية التي تبدو مضافة فهي ممتدة طوليا وليس عرضيا، سقف بيت الصلاة من الأقبية المتقاطعة ترتكز في الأركان على دعامات ركنية ولكن في الوسط على صفين من الأعمدة الرخامية (صورة عدد 7)، تتمثل في سبع أعمدة لها تيجان منها من الصنف الكورنثي (صورة عدد 8)، كامل المعلم مبني بحجارة الدبش وبيت الصلاة هي قاعة ذات أعمدة تختلف عن مسجد بوفتاتة المقام على دعامات.

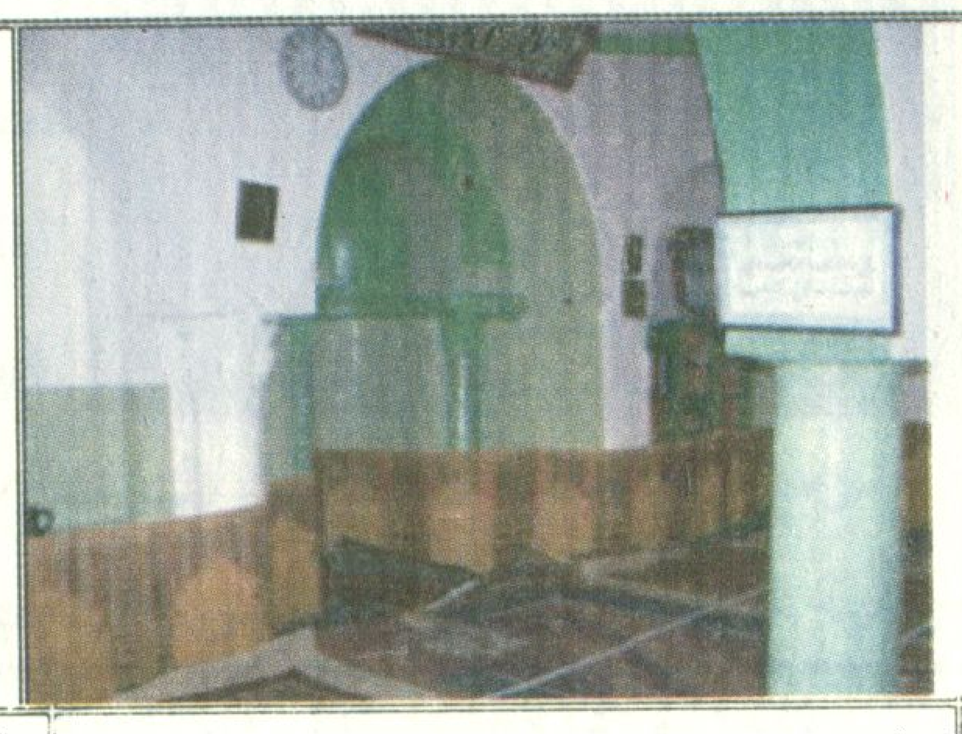




صورة عدد 7 مسجد الاخوات بيت صلاة ذات أعمدة، العمود على يسار القارىء يحمل فوق التاج قاعدة مقلوبة	صورة عدد8 مسجد الاخوات عمود ذو تاج من الصنف الكورنثي

من المساجد الأخرى التي تحوي على خصائص مغايرة للمساجد الأغلبية بسوسة نجد مسجد جراد في نفس الجهة الشمالية الغربية وهو يفتح بواجهته القبلية على نهج يسمى الآن نهج الأغالبة، ولكن نرجح تاريخ المعلم بالفترة الزيرية وكذلك مسجد الأخوات المذكور سابقا. يتكون المعلم من بيت صلاة بالجهة الغربية وصحن بالجهة الشرقية ومئذنة بالركن الجنوبي الشرقي للمعلم، وتمتد بيت الصلاة على مساحة مستطيلة عرضيا وهي قاعة مقامة على أعمدة تتكون من ثلاث بلاطات طويلة وبلاطتين عرضيتين، أما السقف فهو من الأقبية الطويلة التي ترتكز على بائكة وسطى ذات أعمدة رخامية (صورة عدد 9) ولكن مكسوة حاليا بطبقة كثيفة من الطلاء وعلى امتداد الضلع القبلي توجد بائكة جدارية ذات عقد أوسط أكثر ارتفاعا يحيط بالمحراب ويرتكز في مسقطه الشرقي على عمود ذو تاج من الصنف الكورنثي (صورة عدد 10). على نفس نهج الأغالبة يفتح مسجد سيدي حمد عمار الذي يعتمد نفس المخطط أي بيت صلاة بالجهة الغربية للمعلم وصحن بالجهة الشرقية. وتقوم بيت الصلاة على أعمدة أيضا (صورة عدد 11).

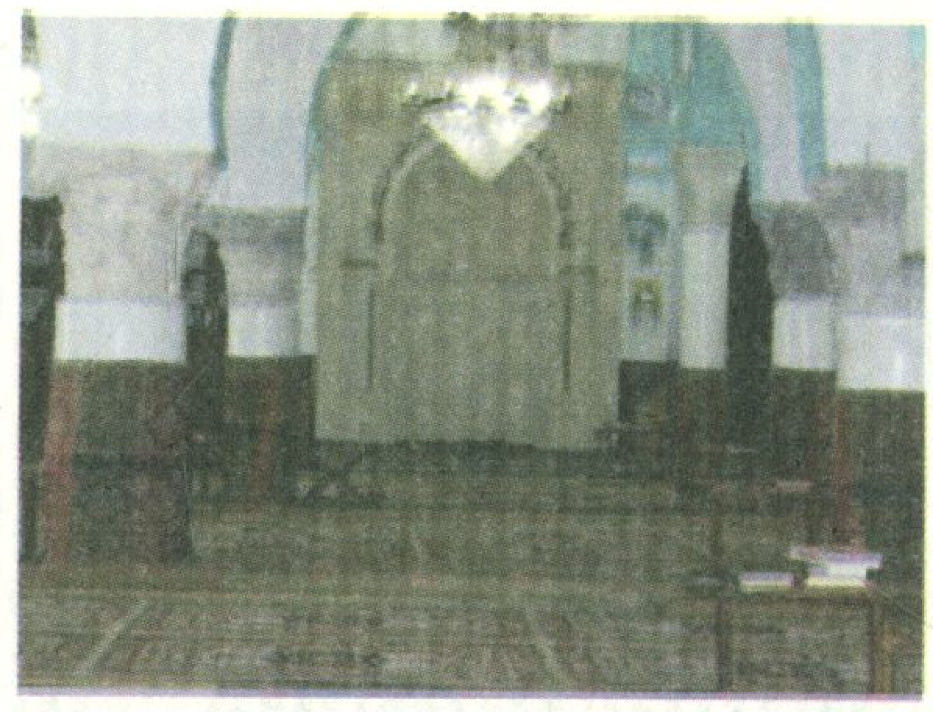






صورة عدد 9	صورة عدد 10	صورة عدد 11
مسجد جراد البائكة الوسطى	مسجد جراد العقد الأوسط المحيط بالمحراب يرتكز في مسقطه الشرقي على عمود	مسجد حمد عمار بيت صلاة المقامة على أعمدة

تعبّر هذه المساجد بمدينة سوسة عن نمط مختلف عن مساجد الأحياء الأولى بهذه المدينة، كما سنلاحظ هذا التشابه مع النماذج القيروانية أيضا خارج مدينة سوسة في ظهيرها خاصة في القرى الداخلية مثل الوردانين ومساكن. ويوجد الجامع الكبير بالوردانين في رحبة البلدة في مركزها، وتقع بيت الصلاة في القسم الغربي للمعلم والصحن في شرقه وقد حافظت بيت الصلاة على معظم خصائصها الأصلية ما عدا المحراب بسبب التوسعة الحديثة نحو القبلة، فهي قاعة مقامة على أعمدة (صورة عدد 12) حيث يرتكز السقف ذو الأقبية المتقاطعة على عقود تحملها أعمدة من الرخام ذات تيجان قديمة معادة الإستعمال البعض منها من النوع الكورنثي (صورة عدد 13) وفيها عناصر معمارية قديمة مستعملة مكان التيجان تحمل شكل صليب (صورة عدد 14) مع اعتماد مجاز أوسط متسع نسبيا.

صورة عدد 12 جامع الوردانين منظر عام لبيت الصلاة المقامة على أعمدة	صورة عدد 13 جامع الوردانين عمود ذو تاج من الصنف الكورنثي	صورة عدد 14 جامع الوردانين عمود تعلوه وسادة تحمل شكل صليب

كذلك الخصائص المشابهة لما يوجد في جامع القيروان نجدها موزعة في عديد القرى المحيطة بسوسة خاصة التي يبدو مجالها ممتدا ومتصلا بمجال مدينة القيروان مثل قرية مساكن، رغم أن جوامعها متأخرة نسبيا مثل كامل القرية التي تعود على الأرجح للعهد الحفصي، حيث نلاحظ استعمال مادة التراب في البناء لا فقط لتوفر هذه المادة أكثر من الحجارة ولكن ربما بشكل متأثر بالقيروان. ويحتوي بلد مساكن على جامعين أساسيين الجامع الوسطائي الذي نشأت حوله القرية في شكل أحياء تسمى قصور ثم أضيف الجامع الكبير فيما بعد، جدد هذان الجامعان بشكل طمس جل ملامحهما الأصلية ولكن أمكننا تبين نمط لتسقيفهما الأصلي من العوارض الخشبية التي ترتكز على عقود تحملها أعمدة ذات تيجان، وقد أنشأت العقود والتيجان والجدران التي تعلوها من الحجارة في حين بنيت الجدران الخارجية بالتراب باعتماد تقنية الطابية، وفي هذا شبه بمواد البناء المعتمدة بمساجد القيروان التي أساسها الآجر والخشب[7].

[7] أنظر:

KHECHINE (T.), *les oratoires de quartiers de la médina de Kairouan (du IXème au XIIème siècle), étude archéologique et historique*, D.E.A. sous la direction de Faouzi Mahfoudh, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 2002.

إمكانية اعتماد تصنيف مغاير في دراسة المعالم الدينية بالساحل ؟

تحيلنا كل هذه الأمثلة إلى خصائص مغايرة لما يوجد في الطراز المسمى الساحلي بجهة الساحل، بل مشابهة أكثر لما نجده في جامع القيروان وذلك خاصة بالنسبة إلى المعالم الرسمية الكبرى التي أنشأتها السلطة عموما كجامع المهدية وجامع المنستير وكذلك جوامع عديد القرى وعديد مساجد الأحياء المتأخرة عن الفترة الأغلبية، فهل يمكن مواصلة استعمال تصنيف قولفان وإطلاق صفة مدرسة ساحلية كمقابل لمدرسة قيروانية في الفترات اللاحقة للعهد الأغلبي على منطقة جغرافية متسعة لكن تنحصر نماذجها الرئيسية في مدينتين فقط في حين تتناثر في نفس هاتين المدينتين وفي عديد القرى المجاورة معالم دينية ذات خصائص مشابهة أكثر لمعالم القيروان؟ إذا يبدو من الضروري تنسيب مقولة قولفان حول تصنيف العمارة الدينية في الساحل، هذا التصنيف له مشروعيته في حيز زمني واضح هو العهد الأغلبي وحيز مكاني يعتبر محدودا وهو مراكز المدن بالساحل ؟

يبدو من الأجدى إعادة النظر في هذا التنميط الأفقي حسب الجهات ؟ أو جهة مقابل مدن إلى تنميط عمودي حسب القرابة من السلطة وذلك بوجود عمارة دينية رسمية أو طراز رسمي سلطاني[8] أنشأ بأمر من السلطة وبإشراف منها أو من قبل أحد الأثرياء المتنفذين وهي تأخذ شكلين شكل أول فخم مشابه لجامع القيروان وذلك في كبرى مدن افريقية ومنها جامع المهدية وجامع المنستير وشكل مواز متين البناء ذو طابع دفاعي وهو رسمي أو سلطاني أيضا تعتمده الدولة في المواضع التي تحتاجها فيه والتي تتطلب حماية خاصة حيث عمد الأغالبة إلى إضفاء طابع المتانة على معالمهم الدينية الأولى في سوسة وذلك على ما يبدو قبل إنشاء سور يحيط بها، كذلك فإن إنشاء الرباطات تواصل بنفس الطريقة عموما في الفترات اللاحقة للعهد الأغلبي منها رباط السيدة بالمنستير، هذه المعالم ذات الصبغة الدفاعية نجدها في المدن والقرى المطلة مباشرة على البحر مثل هرقلة حيث يوجد جامع القصر المشابه في تخطيطه وامتداده لمساجد الرباطات.

مقابل العمارة الدينية الرسمية السلطانية نجد عمارة دينية عامية محلية قام بإنشائها السكان غالبا استيفاء لحاجاتهم استعملوا فيها مواد البناء المتوفرة على عين المكان سواء الحجارة أو التراب وحاولوا في بعض الأحيان التشبه بالعمارة الرسمية الفخمة خاصة في مراكز القرى مثل الوردانين ومساكن حيث تم إنشاء جوامع متسعة ذات خصائص مشابهة لجامع القيروان.

---

8 تحدث الأستاذ مراد الرماح في مقال له حول مدرسة القيروان المعمارية عن انتماء الجوامع والرباطات والمساجد التي أنشأت في العهد الأغلبي إلى مدرسة القيروان المعمارية دون اعتماد التقسيم بين مدرسة قيروانية ومدرسة ساحلية. الرماح (مراد)، "مدرسة القيروان المعمارية"، في الفن العربي الإسلامي، الجزء الثاني : العمارة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ، ص 104-125.

الخاتمة

لم يكن الهدف في هذا المستوى من البحث نقد نظرية المدرسة القيروانية والمدرسة الساحلية في العمارة الدينية، بل تبين إمكانيات استعمالها بالتحديد في جهة الساحل في ظل تنوع المعالم الدينية به واختلاف خصائصها في الفترات اللاحقة للعهد الأغلبي وبالتالي البحث عن طريقة أخرى في تصنيف هذه المعالم ودراستها وهنا يتنزل هذا التقسيم العمودي[9] بين عمارة دينية رسمية وعمارة عامية محلية.

[9] الواقع أن هذا التصنيف هو مسار بحث اعتمد في دراسة المعالم الدينية في جهات أخرى منها جوامع جربة للأستاذ رياض المرابط، أنظر: المرابط (رياض)، مدونة مساجد جربة، تونس، المعهد الوطني للتراث، 2003.

وثيقة جديدة عن المساجد بالقيروان

أحمد الطويلي
معهد الصحافة وعلوم الإخبار بمنوبة

هذه قائمة لعدد من المساجد أعدها الشيخ الوالد الفقيه محمد الطيب الطويلي رحمه الله (توفي يوم 22 جوان 1956) في أوائل القرن العشرين وعددها 97 مسجدا سجّل بأغلبها عام التأسيس واسم المؤسس واسم المرمّم. ونجد أن أقدم المساجد قد بنيت في النصف الأول من المائة الأولى الهجرية منها مسجد بئر أوطة والسبيل الّذي أسسه عبد الله بن أبي سرح في غزوة العبادلة سنة 27 هـ ثمّ مسجد الأنصار بحي الأنصار (حومة الأشراف) سنة 47 هـ بناه رويفع بن ثابت الأنصاري قبل أن تختطّ القيروان ويبنى جامعها (م8).

وهذه الوثيقة مهمّة جدّا لأنها تعرّف بعدد من المساجد كانت منسوبة لعدد من العلماء والأدباء مثل مسجد أسد بن الفرات (م16) ومسجد سعيد بن الحداد (م23) ومسجد عبد السلام بن غالب المسراتي صاحب كتاب "الوجيز" (م 29) ومسجد أبي الحسن على الحصري (م51) ومسجد الشبيبي (م53) ومسجد عبد الله بن أبي زيد صاحب "الرسالة" (م57) ومسجد المتصوّف على شقران الهمذاني أستاذ ذي النون المصري (م72) ومسجد ابن الدبّاغ صاحب "معالم الإيمان" (م73) إلخ ...

كما أن هذه الوثيقة تذكر أسماء عشرة أرباض كانت بالقيروان ومازال بعضها إلى الآن محافظا على التسمية نفسها مثل ربض رياح حيث كانت تقيم قبيلة رياح (م31) وربض قصراوة (م35) وربض الرنان. وأحيانا ترد كلمة ربط مثل ربط الحديد (م32) والربط الأحمر (م56) وربط الكنابصة (م 86 و96) وربط بكارة وربط البراشنة (م 93) وربط الزواغة (م 91).

ومن التسميات المهمة ما ورد من ذكر أبواب القيروان منها باب الركاب حيث كان يقع مسجد ابن ناجي وباب الخوخة وباب القدّة وهو يرجع إلى سنة 1100 هـ إذ ينسب إلى أبي على حسن بن الحاج عيسى القدّة.

ومن الأحياء المذكورة: حي اللبيبدية والكشالفة والجرابة والأنصار والأشراف. وأحيانا ينسب إلى أصحاب الصنائع مثل حي النقاطين ونهج الدباغين. ومن أسماء المساجد الطريفة: مسجد الوردة، مسجد مكلّم الجمل، مسجد الفال المنسوب إلى أسد بن الفرات، مسجد الناقة المنسوب إلى عبد الله بن أبي زيد، مسجد التوفيق وهو يقع في مقبرة الجناح ومسجد الحبلي.

ومن أسماء المساجد ذات الدلالة التاريخية والاجتماعية والتي صارت أثرا بعد عين نذكر مسجد الأندلس ويبدو من التسمية أنه قد بناه الأندلسيون وكان منهم من هاجر إلى القيروان ولكن لا نعلم هل كان ذلك في الهجرة الأولى زمن بني حفص أو الثانية زمن الدايات، إذ ليس هناك ذكر لتاريخ المسجد.

ومن التسميات: مسجد اللقطة في حي بولقاطة وهو يرجع إلى العهد الحفصي إذ بناه ابن تافراجين سنة 766 هـ وقد استعمل لحفظ اللقطة حتى يتم التعريف بها. وهناك مسجد باب القدّة لأن اسم مؤسسه هو حسن القدّة سنة 1100 هـ وكذلك مسجد حمام الزغبار ويعود إلى العهد الحفصي أيضا وبناه القائد عبد الله زغبار سنة 780 هـ.

ومن الإفادات التاريخية أن هناك من المساجد ما يرجع إلى العهد الأغلبي مثل مسجد الفال لأسد بن الفرات ومسجد سيدي شقران المتصوف. وعدد منها يرجع على العهد الزيري من ذلك المسجد المعلق الذي بناه ابن أخت المعز بن باديس، وبيت "العدّة" الذي بناه المعز بن باديس داخل الجامع الأعظم سنة 444 هـ ومسجد الحصري ومسجد الناقة المنسوب إلى عبد الله بن ابي زيد القيرواني.

إلا أن الكثير من هذه المساجد يعود إلى العهد الحفصي من ذلك مسجد ابن الدباغ ومسجد ابن ناجي ومسجد اللقطة ومسجد الشبيبي ومسجد العبدلّي مما يدل على الحياة العلمية في تلك المساجد في هذه العهود.

نص الوثيقة
الجوامع والمساجد بالقيروان

1- المقام الصحابي: حمودة باشا بن مراد عام **1085**. قبة الهواء والمدرسة والصومعة والعلوي محمد بن مراد عام **1094**.

2- الجامع الأعظم: عقبة بن نافع الفهري عام **50** للهجرة، بناء بسيط ثمّ جدده حسان بن النعمان الغساني في عهد عبد الملك بن مروان سنة **84**، وجدد ذلك على الصفة المذكورة الآن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة **203**. أما بيت الغدة فأسسها المعز بن باديس سنة **449**.

3- جامع الزيتونة: لإسماعيل الأنصاري التابعي سنة **74**.

4- الجامع الحنفي: محمد أبو الخيرات المرادي سنة **1094**.

5- المسجد المعلّق: ابن أخت المعز بن باديس سنة...[1]

---

[1] فراغ في الأصل.

6- مسجد الأبواب الثلاثة: عمرو بن خيرون سنة 347 هـ.

7- مسجد ابن ناجي بباب الركاب: قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي سنة 800.

8- مسجد الأنصار بمحرس الأنصار: رويفع بن ثابت الأنصاري سنة 47 قبل أن تختط القيروان وجامعها.

9- مسجد أبي ميسرة: التابعي أحمد بن نزار سنة 300.

10- مسجد أبي على مختار: قرب خربة عامر باي.

11- مسجد سيدي على الأنصاري: بالخضراوين به ضريح مؤسسه.

12- مسجد باب القدة: أبو على حسن بن الحاج عيسى القدة سنة 1100.

13- مسجد الحمامي بالرحبة : محمد بن عمر الحمامي الهواري سنة 1204.

14- مسجد الخولاني: أمام القصبة الحربية، أبو بكر أحمد بن عبد الرحمان الخولاني سنة 400.

15- مسجد الداروني: بحومة الباي، به ضريح مؤسسه.

16- مسجد الفال: بالغرابلية، أسد بن الفرات القاضي سنة 270.

17- مسجد اللقطة: جوار دار كميشة، أسس في عهد القاضي ابن تافراجين سنة 766، واستعمل لحفظ اللقطة حتى يتم التعريف الشرعي عنها.

18- مسجد الساقية: بنهج الوردة.

19- مسجد عظوم: جوار ابن فندار، عبد الله بن على بن عبد الجليل الأزدي صاحب الزاوية المواجهة له سنة 500.

20- مسجد الكتاني: قرب الزاوية الخودية.

21- مسجد الأندلس: جوار دار كميشة.

22- (غير واضح).

23- مسجد أبي سعد الحداد: بالصدادمة.

24- مسجد اللوزي: بالخضراوين.

25- مسجد القلال: قرب سباط الباجي، محمد بن عبد الرحمان القرشي عرف القلال دفين الحطبيّة سنة 750.

26- مسجد الدهماني: الشيخ أبو يوسف يعقوب الدهماني سنة 600.

27- مسجد دريبة أبي رقعة: أبو سليمان ربيع القطان سنة 290.

28- الجامع الجديد: بنهج سوسة، الحاج الصغير نقرة البوسالمي سنة 1268.

29- مسجد ابن غالب: باللبيبدية، عبد السلام بن غالب المسراتي صاحب "الوجيز" سنة 600.

30- مسجد ابن دهان.

31- مسجد...[2] داخل ربض رياح.

32- مسجد ربط الحديد.

33- مسجد التوفيق: بالجناح (الأخضر).

34- مسجد ابن عبد الستار: بنهج قفصة.

35- مسجد بن رزين الأكبر: داخل ربض نصراوة. محمد بن رزين سنة 265.

36- مسجد سيدي خميس: بربض رياح.

37- مسجد الحبل: بالنقاطين.

38- مسجد بير أوطة والسبيل: أسسها سنة 27 عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثمّ حسّنها محمد باشا بن مراد صاحب الخيرات.

39- المدرسة الزعبية: بحومة الأشراف، يعقوب بن أبي القاسم الزعبي سنة 760.

40- المدرسة الحسينية: على بن حسين باي سنة 1180.

41- مسجد (...)[3] النجارين: بنهج مسجد الأبواب الثلاثة، أبو حنش بن عبد الله الصنعاني سنة 98.

42- مسجد الوردة: بحومة الأشراف.

43- مسجد المناري: قرب زاوية سيدي عبد السلام، موسى بن عيسى المناري سنة 740.

44- مسجد مكلّم الجمل: بنهج الدباغين قرب بودخان، هبة الله بن محمد بن أبي عقبة التميمي سنة 350.

45- خلوية ابن خلدون أو مسجده: بنهج سيدي نصر بن العابد، أبو الحسن على بن خلدون البلوي سنة 400.

46- خلوية جبلة بن حمود: بزنقة الأندارية.

47- مسجد شرارة: قرب دار كميشة.

48- مسجد السوسي: بنهج الخضراوين، أبو بكر عتيق السوسي المغربي سنة 430.

---

[2] كلمة غير مقروؤة.

[3] كلمة غير مفهومة.

49- مسجد التلالسي: نهج سيدي نصر بن العابد، عبد الواحد بن مفرج التلالسي سنة 420.

50- مسجد يحي بن عمر.

51- مسجد الحصري: بالنقاطين، أبو الحسن على الحصري الشاعر سنة 400.

52- مسجد ابن عمرو: بالمكان.

53- مسجد الشبيبي: عبد الله بن محمد بن يوسف الشبيبي المدفون بزاوية ابن أبي زيد سنة 720.

54- مسجد سيدي عاشور: بالكشالفة، الشيخ عاشورالبالوري سنة 980.

55- مسجد الفرج: بالسبع لفتات، عمر بن إبراهيم بن عبد العالي الريعي اللخمي عام 680. وجدده على بن عامر اليحصيبي عند بنائه لكتّاب عامر بالمكان عام 1150.

56- مسجد سيدي غريب: بالربط الأحمر.

57- مسجد الناقة: منسوب لسيدي عبد الله بن أبي زيد سنة 350.

58- مسجد عمامو: بالرحبة قبالة الفندق.

59- مسجد الرياوي: بباب الجلادين.

60- مسجد الرياوي: بالبرادعية.

61- مسجد الرياوي: بنهج الأغالبة.

62- ثلاثتها محمد بن يخلف بن أبي بكر بن ظريف الرياوي سنة 640.

63- مسجد ريض... (كلمة غير مقروءة).

64- مسجد الزعفراني بالقرانطة: أبو بكر بن على بن نصر الزعفراني سنة 360.

65- مسجد سلام: بحومة الأشراف.

66- مسجد سلام: بريض الرنان.

67- مسجد الهلالي: قرب نهج سيدي عبيد.

68- مسجد كريوب: بالدباغين.

69- مسجد القصري: بنهج الصيادين بالمر، أبو حفص أحمد بن محمد بن عبد الرحمان القصري سنة 300.

70- مسجد أبي إسحاق التونسي: نهج ... ، إبراهيم بن حسن بن يحي المعافري التونسي سنة 400.

71- مسجد بن ترخانة: قرب سباط اللّطيف، على بن أحمد بن ترخانة حفيد أبي يوسف الدهماني سنة 760.

72- مسجد أبي قباء: نهج الخضراوين.

73- مسجد سيدي شقران: بحومة الأشراف. على شقران بن على الهمذاني أستاذ ذي النون المصري سنة 160.

74- مسجد ابن الدباغ: بنهج عبد المومن، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن على الأنصاري الدباغ، سنة 700.

75- مسجد سيدي عزاز: جوار الصاغة بالنهج الكبير.

76- مسجد حمام الزغبار: القايد عبد الله محمد بن زغبار سنة 780.

77- مسجد ابن قيراط: بحومة الباي، أبو الحسن على بن الحسن الريابي دُعي ابن قيراط.

78- مسجد ابن مسكين: قرب باب الخوخة.

79- مسجد المريضة: قرب دار العواني.

80- مسجد العبيدلي: بسباط سيدي جميل، على بن عبد الله بن عياش العبيدلي دفين الحطيبة سنة 700.

81- مسجد ابن الصباغ: قرب زاوية الحطاب.

82- مسجد اللباد: أسفل سباط سيدي جميل، أبو بكر بن اللباد سنة 280.

83- مسجد الحبلي: بربض الزاوية (الصحابيّة)، أسسه أبو عبد الرحمان الحبلي التابعي سنة 98، وجدّده غيث بن قاسم الحكيمي.

84- مسجد المداسين: أبورقيبة الصيّد سنة 1000.

85- مسجد السبائي: قرب سيدي قعيب، أبو إسحاق إبراهيم السبائي سنة 330.

86- مسجد بن نصيب الذهبي: بالقصبة القديمة.

87- مسجد ربط الكنايصة.

88- مسجد ابن عبد الجبار: بالجرابة، عبد الجبار بن خالد السرتي سنة 326.

89- مسجد سيدي على بن نصيرة: بالرحيبة الفوقانية.

90- مسجد بن خيرون: ببطحاء فينو، أبو حفص عمرو بن خيرون سنة 340، (رمّمه) بوديدح.

91- مسجد الأبواب الثلاثة: له أيضا.

92- مسجد ربط زواغة: ببرج البقري.

93- مسجد الغزالة: قرب (سيدي عمر) عبادة.

94- مسجد ربط البراشنة.

95- مسجد ربط بكارة.

96- مسجد السبت: حوطة قرب الزاوية الصحابيّة، أبو محمد صالح الأنصاري الدمني ثمّ محمد العربي، سنة 100.

97- مسجد الخميس: ربض الكنابصة.

98- مسجد أبي على اللخمي: بطريق سيدي سحنون.

التعريف ببعض المساجد الواردة في الوثيقة

1- مسجد الأنصاري: أسسه رويفع بن ثابت الأنصاري الصحابي سنة 47 هـ، وهو من أقدم مساجد القيروان وهو مازال قائما إلى اليوم في حومة الشرفاء وكانت تسمى محرس الأنصار.

2- مسجد الزيتونة: يقع خارج السور، أسسه إسماعيل بن عبيد الأنصاري الصحابي المعروف بتاجر الله سنة 93هـ، سميّ تاجر الله لأنّه جعل ثلث كسبه لله، خرج إلى صقلية في غزوة عبد الله بن رافع فغرق المركب ومات وهو معانق للمصحف سنة 107هـ.

3- مسجد أبي ميسرة: أمام باب تونس على يسار الداخل منه، بناه أحد التابعين في أواخر القرن الأول للهجرة ونسب إلى أبي ميسرة الفقيه الزاهد، كان أحمد بن بزار يختم فيه القرآن كلّ ليلة، وعرف بالكرم. جعل مائدة طعامه خلف باب داره ليكون قريبا من السائل، توفي سنة 337 هـ، من أسماء هذا المسجد: مسجد بن غلاّب.

4- مسجد الحبلي: بدرب أزهر قرب باب تونس، بني سنة 98 هـ بحيّ أولا غيث، أسّسه أبو عبد الرحمان الحبلي التابعي، وجدّده غيث بن قاسم الحكيمي. وهو يقع بربض الزاوية الصحابيّة.

5- مسجد حنش الصنعاني: بباب الريح أنشأه حنش بن عبد الله الصنعاني المتوفى سنة 100هـ.

6- مسجد على بن رباح اللخمي: جوار باب نافع الفاتح على مقبرة سحنون في الطريق إليه.

7- مسجد عبد الله: نسبة لعبد الله بن الزبير أو عبد الله بن سعد بن أبي سرح، يقع عند باب عبد الله، وكان عبد الله بن سعد أميرا للجيش الذي جاء إلى إفريقية سنة 27 هـ في غزوة العبادلة.

8- مسجد الخميس: ويسمّى سيّدتي تيّاهة، كانت تقرأ فيه الرقائق كل خميس ويقع بالدمنة، وهو مستشفى الجذامى يقع قرب ربض الكنابصة.

9- مسجد السبت: كانت تقرأ فيه الرقائق يوم السبت من كل أسبوع ويحضره الزّهاد والعبّاد والعلماء كأبي بكر اللّباد، يجتمعون فيه من أول النهار إلى الزوال.

المشغولات الخشبية و المعدنية بمتحف سيدي عمر عبادة

رحاب المقدم
كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان

يحتوي متحف سيدي عمر عبادة بالقيروان مجموعة من المشغولات الخشبية والمعدنية، ذات أهمية كبرى إذ من شأنها المساهمة في التعريف ببعض الاختصاصات الحرفية السائدة بالقيروان خلال القرن 13 هـ / 19 م، (عمر عبادة هذا الولي الذي حفت به الاسطورة، حيث مازال العديد من سكان المدينة يرددون كما من الروايات حوله وخاصة مشغولاته التي هي موضوع دراستنا).

وتتميز هذه المشغولات إذا ما قارناها بغيرها بقياساتها الضخمة حيث أنها تبدو غير واضحة الاستعمال، وتسند الذاكرة الشعبية صناعة هذه المشغولات على اختلاف مواد انجازها إلى سيدي عمر عبادة، و نلمس مدى عمق و شدة ترسخ هذه الروايات في الكتابات التي تناولت مدينة القيروان وخاصة منها كتب الرحالة الاروبيين الذين زاروا المدينة خلال القرن التاسع عشر[1]، من ذلك يذكر "شارل لالمان" Charles Lallemand أن الولي صنع غليونا وسيوفا وأغمادا ملونة ضخمة ومراسي من شدة ضخامتها لا يمكن استعمالها في البحر[2]، كما أن الكثير من الباحثين اليوم مازالوا يتبنون هذا الرأي، حيث يذهب الدكتور " المنجي الكعبي " إلى أن هذه التحف على اختلاف مواد انجازها من انجاز الولي نفسه عندما تجذب ومقاساتها الضخمة هي من أسرار عظمته وقوة بركته[3] .

والإشكالية الأساسية التي سنتناولها في هذا المقال استنادا إلى ذلك، تتمحور حول التالي: هل أن عمر عبادة صنع جميع المشغولات على اعتبار أنها من بين الأمور الخارقة التي

---

[1] من بين الرحالة الأوروبيون الذين تعرضوا لسيرة عمر عبادة نذكر :

Dunant (H.), *La Régence de Tunis*, Genève, 1858, pp. 119 -120; Guérin (V.), *La Régence de Tunis*, t. 2, Paris, 1852, pp. 330 -333; Baraudon (A.), *Algérie et Tunisie, récits de voyage et études*, Paris, 1893, pp. 299 -300.

[2] أنظر:

Lallemand (Ch.), *La Tunisie. Pays de protectorat Français*, Paris, 1892, p. 214.

[3] الكعبي (المنجي)، القيروان، بيروت، 1990، ص 85-87.

كان يأتيها؟ ولكن قبل ذلك سوف نقوم بتعريف شخصية سيدي عمر عبادة و تقديم المشغولات المعروضة بالمتحف.

عمر عبادة هو عمر بن سالم بن عمر بن سعد بن مفتاح العياري من قبيلة أولاد عيار التابعة لمنطقة الحمادة بمكثر قرب سليانة كان معلم حدادة، و يتمتع هذا الولي بمكانة هامة لدى أهالي القيروان كانوا يلتجئون إليه قصد التداوي من عللهم وأوجاعهم كما كانوا يخشونه ويتجنبون عقابه نظرا لبركته وقوة شخصيته وربما كذلك لعلاقاته الوطيدة مع مصطفى وأحمد باي الذي أنفق لبناء زاويته لاعتقاد كان له فيه، ويقال أنه أكبر مستهلك للدخان والقهوة في عصره وربما لغيرهما من المخدرات آنذاك[4]، وقد نسجت حول شخصيته الكثير من الخرافات والأساطير التي لا تزال عالقة في أذهان الذاكرة الشعبية إلى اليوم، وتذكر المصادر أن له كرامات تجل عن العدد من ذلك تصرفه الواسع في ملك الله وأن مفاتيح افريقية بيده وأنه كان ينطق بأمور هائلة، وقد توفي الشيخ سنة 1276 هـ - 1859 م ودفن" بالقبة الصغرى الشرقية المفتح داخل القبة الكبرى الشرقية أيضا بمقربة من دار سكناه بربض عمشون "[5]، وهو الجزء الذي وظف كمتحف لعرض المشغولات وسمي " جامع السيوف " لكثرة السيوف التي كان يحتوي عليها مع أنه اليوم يحتوي على سيف واحد.

تتمثل مجموعة المشغولات المعروضة بالمتحف في مشغولات خشبية (يبلغ عددها 32) ومشغولات معدنية (يبلغ عددها 5)، تتمثل الخشبية في تابوت لسيدي عمر عبادة يأخذ شكلا مستطيلا (قياساته : طوله : 3.48 م - عرضه 1.79 م - ارتفاعه : 1.44 م) يتكون من شاهد يبلغ ارتفاعه 3.00 م يحتوي نقيشتين كانتا في الأصل مكتوبتان بلون أحمر على أرضية خضراء [6]، يعتلي الشاهد سطح التابوت الذي ترتفع في أركانه أربع رمانات هرمية الشكل، وأربع واجهات تزخرفها حشوات ذات مواضيع زخرفية نباتية وهندسية وكتابية [7]، بقية المشغولات تتمثل في واجهتين لتابوت ثاني لم يستكمل صنعه، ومرافع لحفظ السلاح تتكون من قسم علوي تعلوه رمانات ومسند لحمل السلاح، وطاولات مربعة الشكل، وألواح أو شواهد توابيت مستطيلة الشكل لها أحجام مختلفة (قياسات أصغر لوح 61 صم × 40 صم و تتجاوز قياسات أكبر لوح الثلاثة أمتار)، ومهاريس، وأغماد سيوف، وصناديق متقاربة القياسات ما عدى صندوق صغير قياساته 68 صم × 35 صم، وسداية (المنسج أو النول

---

[4] الكعبي (المنجي) ، ن.م ، ص 85 – 87؛

Collectif, *Ifriqiya: treize siècles d'art et d'architecture en Tunisie*, Tunis, 2000, pp. 155 -157.

[5] الكناني (أبو عبد الله محمد بن صالح عيسى القيرواني) ، **تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان**، تحقيق محمد العنابي، تونس، 1970، ص 243.

[6] أنظر:

Baraudon (A.), *Op. cit.*, pp. 299-300.

[7] المقدم (رحاب)، مدونة التوابيت الخشبية بالقيروان و المنستير: دراسة فنية وتاريخية، ، **شهادة ماجستير مرقونة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2006.**

المستخدم في عمل الزربية) وقالبين لصنع المقروض وغليون، وباب المتحف و باب قاعة الضريح، وتتكون المشغولات المعدنية من سيف، ومزلاج، ومرفعين، ومهراس نحاسي، وكسوة فرس مكونة من قربوس مصفح بالنحاس وركاب وشكيمة.

وتحتوي جميع المشغولات نقائش تحتل حيزا هاما من مساحتها بلغت درجة الازدحام في القطعة الواحدة وقد كتبت بخط نسخي مغربي خالي من الإعراب وأغلبها يحتوي الإعجام داخل أشرطة مستطيلة أطرافها محدبة، ونفذت بأسلوب الحفر الغائر ونفسر اعتماد الحرفي لهذا الأسلوب من الناحية التقنية بسهولة إزالة شظايا الخشب بخلاف الحفر البارز حيث سيضطر إلى التركيز على إظهار مستوى الأحرف مساويا لسطح المرتكز وأن تحفر انحناءات الحروف جيدا مما يتطلب أكثر دقة وتركيزا في العمل وأطول مدة زمنية ونحن أمام عمل حرفي ضخم.

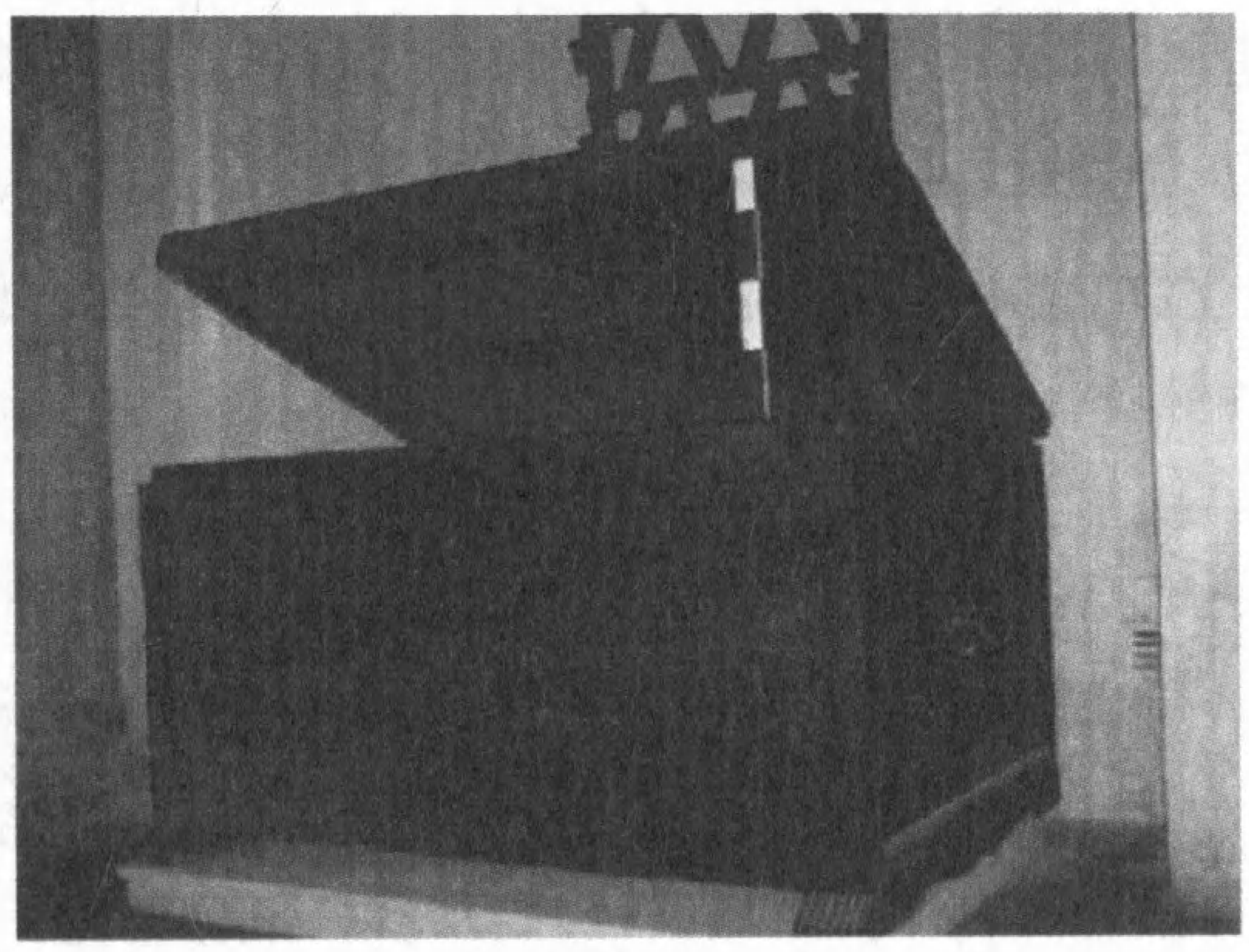
بالنسبة الى لغة النص نلاحظ كثرة الأخطاء ، حيث أن بعض الكلمات كتبت في بداية النص صوابا ثم كتبت خطأ في نفس النص فنرى أن الكلمة الواحدة تكتب بأشكال مختلفة في كامل النقائش، وعلى اختلاف الأخطاء الواردة والكثيرة فإننا نرجح أن تكون فرضتها اللغة العامية البدوية و المستوى التعليمي لسيدي عمر عبادة أو الشخص الذي كان يقوم بنسخ كلامه.

أما توزيع النص على مساحة المرتكز فيجعلنا نلاحظ علامات التحكم في الكتابة وتوظيفها لملء فراغ الأشرطة المحددة للكتابة وإن كنا أحيانا نجد الحرفي يستكمل الكلمات الأخيرة من نص النقيشة خارج الأشرطة و يمكن تفسير ذلك بتمطيط حروف بعض الكلمات فيضطر حينها إلى استكمال النص خارج الأشرطة المحددة له، وذلك يجعلنا نستنتج أن هناك تفكيرا مسبقا في مدى تناسب حجم النص والمساحة المقسمة إلى أشرطة فنص النقيشة يكون طويلا عندما تكون مساحة المرتكز كبيرة ويكون قصيرا عندما تكون مساحة المرتكز صغيرة و لتكون النصوص طويلة عمد إلى أسلوب التكرار من خلال تكرار بعض الصيغ و السور القرآنية التي يمكن اعتبارها عناصر تأسيسية لنقائش المشغولات .

تستهل نصوص النقائش دائما بعبارة " يا فضايل " وهي متشابهة من حيث محتواها حيث نجد بسملة، وسرد لأخبار الحدثان و التطلع إلى مفاتيح الغيب، وسور قرآنية والبت في قضايا عصر عمر عبادة، معلومات عن جوانب شخصيته الولائية وأصوله وأوجه عن حياته و حرفته والماعون الذي يستخدمه في حرفة الحدادة وكرامته وكرامات بعض الأولياء الذين يبدو انه كان له فيهم اعتقاد كبير مثل سيدي سحنون وسيدي على بن سالم وسيدي الكناني وسيدي عبد القادر الجيلاني وأحمد الخضر وسيدي أحمد البلوي وسيدي إبراهيم الدسوقي وسيدي بو سعيد الباجي.

عموما كل النقائش مقروءة و سنكتفي بتقديم نماذج:

1. صندوق مستطيل الشكل (1.35 م × 60 صم – ارتفاعه : 70 صم) يتكون من غطاء وقاع وأربع واجهات بها حلقات حديدية عدى الملاصقة للجدار، يرتكز على ساقين وربطت أجزاءه بأشرطة معدنية ثبتت بواسطة مسامير. يحتوي غطائه و واجهاته الأمامية على نقائش كتبت داخل أشرطة اسطوانية الشكل أطرافها محدبة بخط نسخي مغربي منقط.



– نقيشة الغطاء (12 سطرا):

س1: يا فضايل بسم الله الرحمان الرحيم مفتاح القلم في زمام الف سنا عقد

س2: الملكية صايم دين في شهر سيدي رمضان علام الحج على بيت

س3: الله مفتاح الصندوق قافل على المكتوب دورت صعيب من قوت

س4: الحديد يتكلم منقالت حزام على الكيل والميزان عمر بن سالم

س5: العيار المعلم الحداد سكت ماعون عشر مهارز ...؟ المهلزاز

س6: وزن عشر قناطر من النحاس السن من دار الحفصيه معالم

س7: اليمان دار السكه يا باجي يا سيدي بو سعيد صلطان الصالحين

س8: علم القلم عليهم يا سيدي عبد القادر يا شيخ على بيت الله علام

س9 : شاهد القلم على من ضلم و عفس المكتوب و تعد حدود الله

س10: زمام الصنعه سكت الحديد في مجر الطوفان عقد السفين على

س11: المخطاف يا بركت سيدنا نوح في هاذا الشهر الفضيل مضمون

س12: القلم على حروف يمان في علم الصنع في علم الغيب من رب

- نقيشة الغطاء(7 اسطر):

س1 : مكتوب القلم عليهم الاربع سيدنا جبراءيل و سيدنا

س2 : مكاءيل سيدنا صرافيل و سيدنا عزراءيل عليهم سلام

س3 : الله حملين العرش و الكرس اهل الاسم العضيم سيدي احمد الخذر

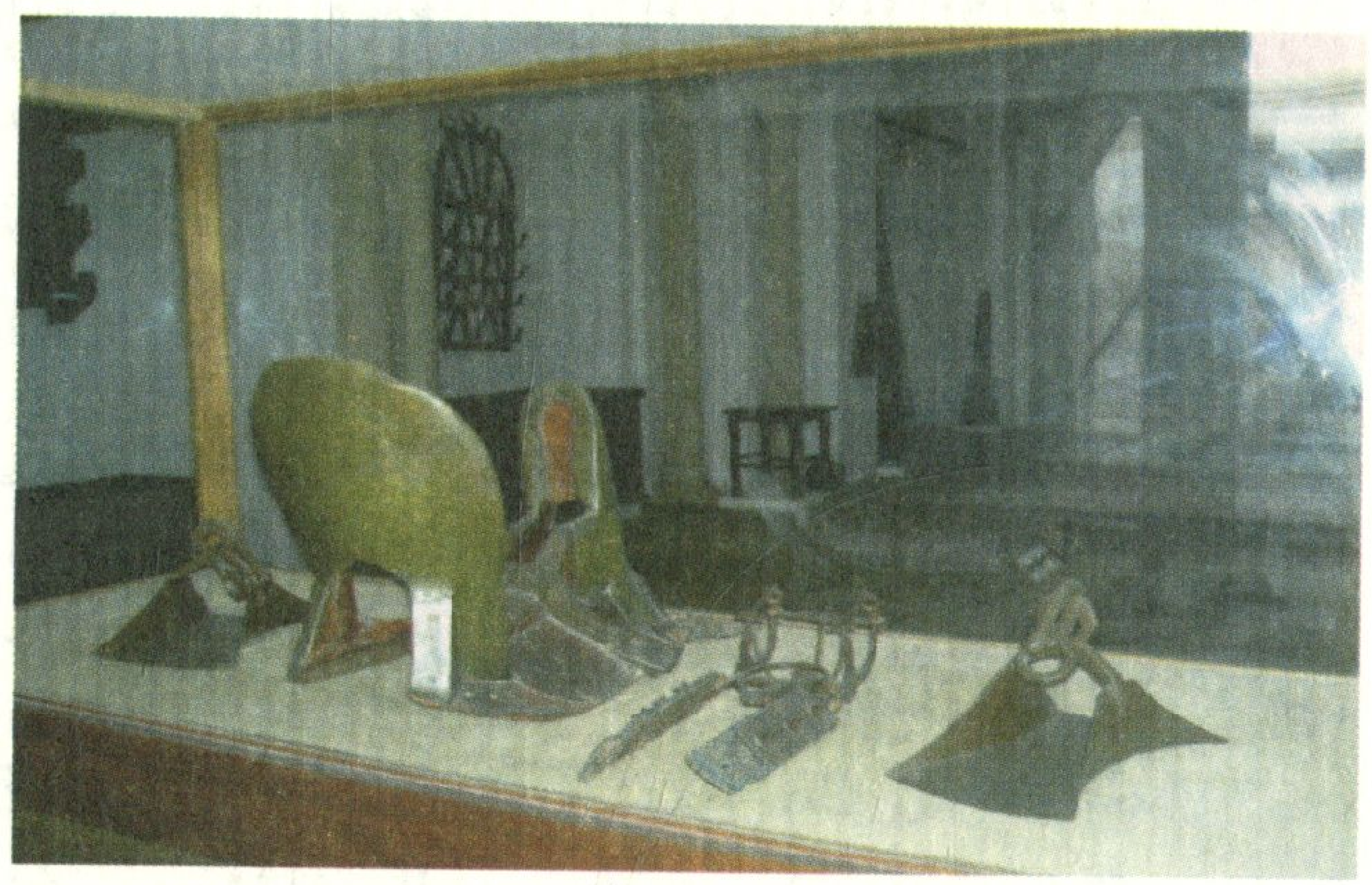
س4 : و سيدي عبد القادر الجيلان و سيدي احمد البلوي

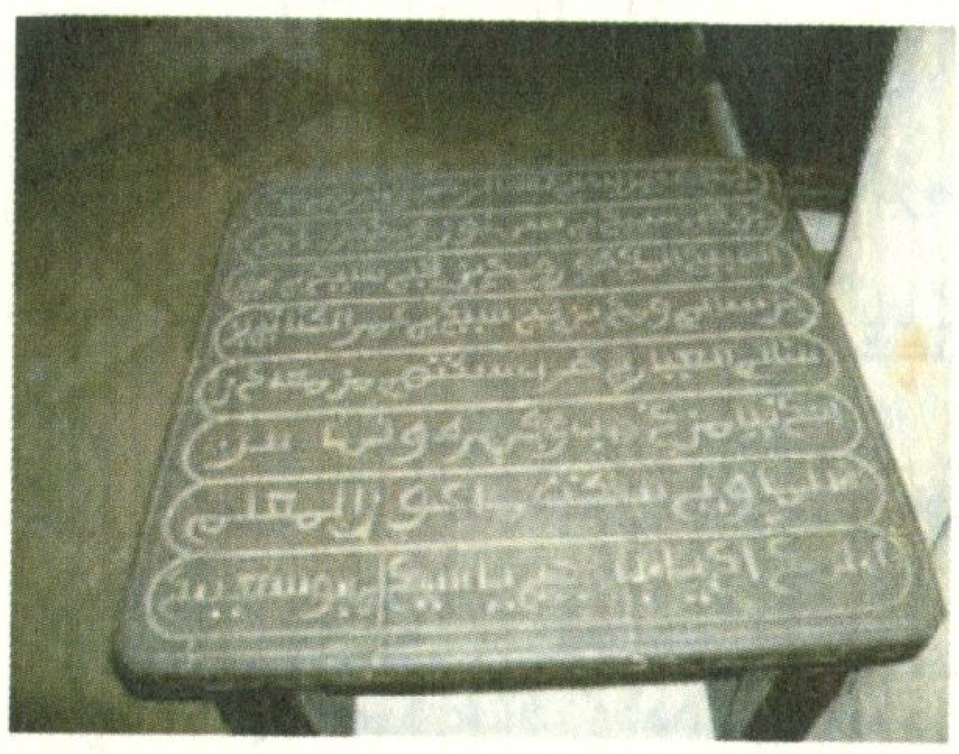
س5 : و سيدي ابراهيم ...؟ هوم اصحاب الاركان الاربع شرق

س6 : و غرب و قبله و جوف هوم اركايزالارض عليهم سلام الله

س7 : هوم و المعلم صاحب الوقت عمر بن سالم العياري الحداد

2. طاولة مربعة الشكل 57 صم × 57 صم، ترتكز على أرجل ارتفاعها 64 صم، تحتوي على نقيشة من ثمانية اسطر كتبت بخط نسخي مغربي غائر داخل أشرطة اسطوانية أطرافها محدبة.





- نص النقيشة :

س1 : يا فضايل بسم الله الرحمان الرحيم مد

س2 : ين في سيدي سحنون و مدين في

س3 : السيد المذكور و مدين في سيدي على

س4 : بن سالم و مدينفي سيدي عمر الكناني بن

س5 : سالم العياري ضرب سكتهم من معادن

س6 : الدنيا من ذهب و فجره و نحاس

س7 : سماوي سكت ماعون المعلم

س8 : الحداد يا باجي يا سيدي بو سعيد

3. كرس السرج :

- القربوس الأمامي :

س1: بسم الله الرحمن الرحيم

س2: عالم كل خفي مكتوب السرج على لجامه و ركابه

س3: من حديد و حزامه من نحاس خمسمائة الف

س4: سنا بصيام الدين في شهر سيدي رمضان سكة ماعون المعلم

س5: الحداد زبره و منفاخ و البحر يوجب عليهم بريح ستة مدافع

س6: يحضر على المكتوب المعلم عمر بن سالم العياري مفتاح ارض اليمن و بر السدان و بر

س7 : العراق في ارض افريقيه السيد المذكور رب يقضي الحوايج سلام الله على

س8 : دواناالصالحين في ٢١ ربيع الانور..... سنة ١٢٦٩

- القربوس الخلفي :

س1: بسم الله الرحمن الرحيم

س2: عالم كل خفي مكتوب السرج على لجام

س3: و ركابمن حديد و حزامه من نحاس مسير

س4: خمسمائة الف سنا بصيام الدين في شهر سيدي رمضان

س5 : سكه ماعون المعلم الحداد زبره و منفاخ و البحر يواجب عليهم بريح ستة

س6 : مدافع يحضر على المكتوب المعلم عمر بن سالم العيري مفتاح ارض اليمن و بر

س7 : السدان و بر العراق في ارض افريقيه السيد المذكور رب يقضي الحوايج سلا (م)الله على دون

س8: الصالحين في ٢١ ربيع الانور سنة ١٢٦٩

4. نقيشة الباب الخارجي للمتحف :

س1 : يا فضايل بسم الله الرحمان الرحيم مفتاح القلم ❖ الاسم العضيم خمسةماية الف سنا بصيام

س2 : شهر سيدي رمضان مكتوب القلم عمر بن سالم العيار ❖ ري يوم العيد المبارك سكت ماعون في دار

س3 : الدنيا عمر بن سالم العياري سيف الازل رحمت ❖ الله عليه و يحسن اليه بالمكتوب مفتاح

س4 : بر السودان مفتاح برالنصار مفتاح بر الترك ❖ مفتاح بر العرب عقد مكه و بيت الله علامه

س5 : على الاشهاد مكتوب المهراز و الكر ❖ س قاعد عليه زاويه بكريه علام الحفصيه

س6 : عكاز شاهد القلم على ❖ سكت محراث علم الحديد على من ضلم و تعد حدود الله و عفس المكتوب

يتبين لنا من خلال دراستنا لهذه المشغولات وعلى عكس الرأي السائد أن عمر عبادة لم يقم بصنع هذه المشغولات بل قام بصنعها أكثر من حرفي، وكل حرفي يمثل اختصاصا حرفيا مختلفا عن الآخر باختلاف المواد الأولية والأساليب التقنية والماعون الذي يستعمله رب كل حرفة في معالجة وتحويل المواد إلى أشياء أخرى يريدها على أن الاختلاف والتنوع الحرفي لا ينفي أن تتكامل الحرف. تمثل مجموعتنا الاختصاصات الحرفية التالية: النجارة والخراطة والدهانة والحدادة والقرابسة، حيث يقوم النجار بصناعة الأبواب والأسقف والأثاث، ويقوم الخراط بتشكيل العصافر والرمانات ويزخرف الدهان المشغولات الخشبية برسوم لها ألوان مختلفة ويصنع الحداد السيوف والمحاريث وبعض آلات الفلاحة كالمنجل والمسحاة وبعض الحلق والمسامير ويقوم القرابصي بصناعة كرسي السرج (من الخشب) الذي يغلف فيما بعد بالجلد و هي حرفة تابعة لحرفة السراجين [8].

انطلاقا من ذلك يبدو أن إسناد انجاز المشغولات إلى سيدي عمر عبادة كان على أساسين: على أساس حرفي من جهة، وعلى أساس أنه ولي صالح من جهة أخرى، وما يميز الأولياء الصالحين عن غيرهم هي تلك الأعمال الخارقة التي يأتونها، ولكن يبدو أن كل من اعتمد هذا الرأي تناسى أن حرفة عمر عبادة هي الحدادة، ولا يمكن لحرفي مختص في الحدادة أن يقوم بصنع مشغولات خشبية أو غيرها والعكس صحيح لأن الحرفي إذا أجاد ملكة حرفته وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة حرفة أخرى وقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ويحكم من بعدها أخرى ويكون فيها معا على رتيبة واحدة من الإجادة [9]، كما لا نجد في المصادر الأثرية والمصادر المكتوبة معلومات تفيد انه امتهن حرفة أخرى غير الحدادة، حيث تكررت صيغة " المعلم الحداد عمر بن سالم العياري " ثمان وثلاثون مرة في كامل نقائش المشغولات وتذكر لنا نقيشة كرسي السرج بعض الماعون الذي كان

---

[8] الحشايشي (محمد بن عثمان)، العادات و التقاليد التونسية : الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، تونس ، 1994، ص 112-113، 124، 156.

[9] ابن خلدون (أبو عبد الرحمان بن محمد)، المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافي، القاهرة، 1979، ص 487-488.

يستخدمه المعلم " سكة ماعون المعلم الحداد زبره و منفاخ "[10]، وهو ما يؤكده لنا الكناني من خلال المساجلة التي أوردها أثناء عرضه لترجمة أبي عبد الشيخ محمد بن عائشة الغرابلي دارت بين هذا الشيخ وسيدي عمر عبادة، فقال الشيخ عبادة : ما ولدت إلا أم بو غربال يعني به نفس الشيخ ابن عائشة فقال الشيخ ابن عائشة : ما ولدت إلا أم عميرة الحداد و بقيا يتساجلان بهذه المرابعة..." [11].

هذه المشغولات وغيرها التي لم تصلنا صنعتها عدة أطراف حرفية بالحفصية في تونس باقتراح من سيدي عمر عبادة [12] وهو ما تؤكده وثائق أرشيف [13] حيث ورد بنص إحدى الوثائق أن " عمر عبادة طلب بانجاز اربعة الواح نحاس و طلب ان ياتيه مع ذلك مرفع و طلب كذلك 3 سباسي مثل الذي اتته و طلب ايضا سيدي توجيه المرفع المذكور مع الكراسي والمهارس الذين يصنعونها الان له بالحفصية "، كما أنجزت حسب القياسات والأوزان التي يريدها وموضع نص النقيشة منها حيث نجد في وثيقة أرشيف أخرى " انه طلب 3 سباسي كل سبسي ثلاثة قناطر صافي ... وكل سبسي مكتوب عليه سورة الرحمان بالتمام ... ".

بالنسبة إلى النقائش المنفذة على المشغولات هي كلام كان ينطق به سيدي عمر عبادة حرص أن يكتب على ما طلب انجازه حيث تتوفر لنا وثائق أرشيف محتواها مماثل لمحتوى نقائش المشغولات وتذكر أن ماهو مكتوب بها من كلام عمر عبادة.

إن المكانة الهامة والمتميزة التي كان يتمتع بها سيدي عمر عبادة لدى أعيان وحكام الدولة لاعتقاد لهم فيه مكنته من بناء زاويته التي أنفق عليها الكثير من المال إلى درجة أنه لم يكن بالإمكان حصر التكاليف اللازمة لإتمام البناء لأنه كانت تظهر للشيخ في كل مرة زيادة في البناء، ومكنته أيضا من طلب انجاز العديد من المشغولات لها أحجام ضخمة و أوزان كبيرة ربما الغاية من ذلك إضفاء المزيد من القدسية والهيبة على من يعتقد فيه من أهالي مدينة القيروان وعلى مريديه وزوار زاويته. ونستشف ذلك من محتوى النقائش وإن كانت تجعلنا نعتقد أننا إزاء شخصية مضطربة وخارجة عن حدود المعقول والمألوف فإنها في الحقيقة تعكس لنا النسق الفكري وثقافة عمر عبادة وتقييمه لنفسه تقييما فيه غلو وتعظيم فقد كان يعتبر نفسه قائدا روحيا للناس وصاحب الوقت في كل زمان، فمن الأوصاف التي كان ينعت بها نفسه: " القطب الرباني والمشهور في كل الأوطان، شيخ ارض اليمن ومصر والشام واسطنبول، سيف الأزل، مفتاح بر النصار وبر الترك وبر العرب، صاحب الأركان الأربعة وركيزة الأرض ".

---

[10] "الزبرة" هي السندان التي يضرب عليها الحديد وهو ساخن لتشكيله ويستعمل المنفاخ أو الكير لزيادة درجة حرارة النار التي يحمى عليها الحديد.

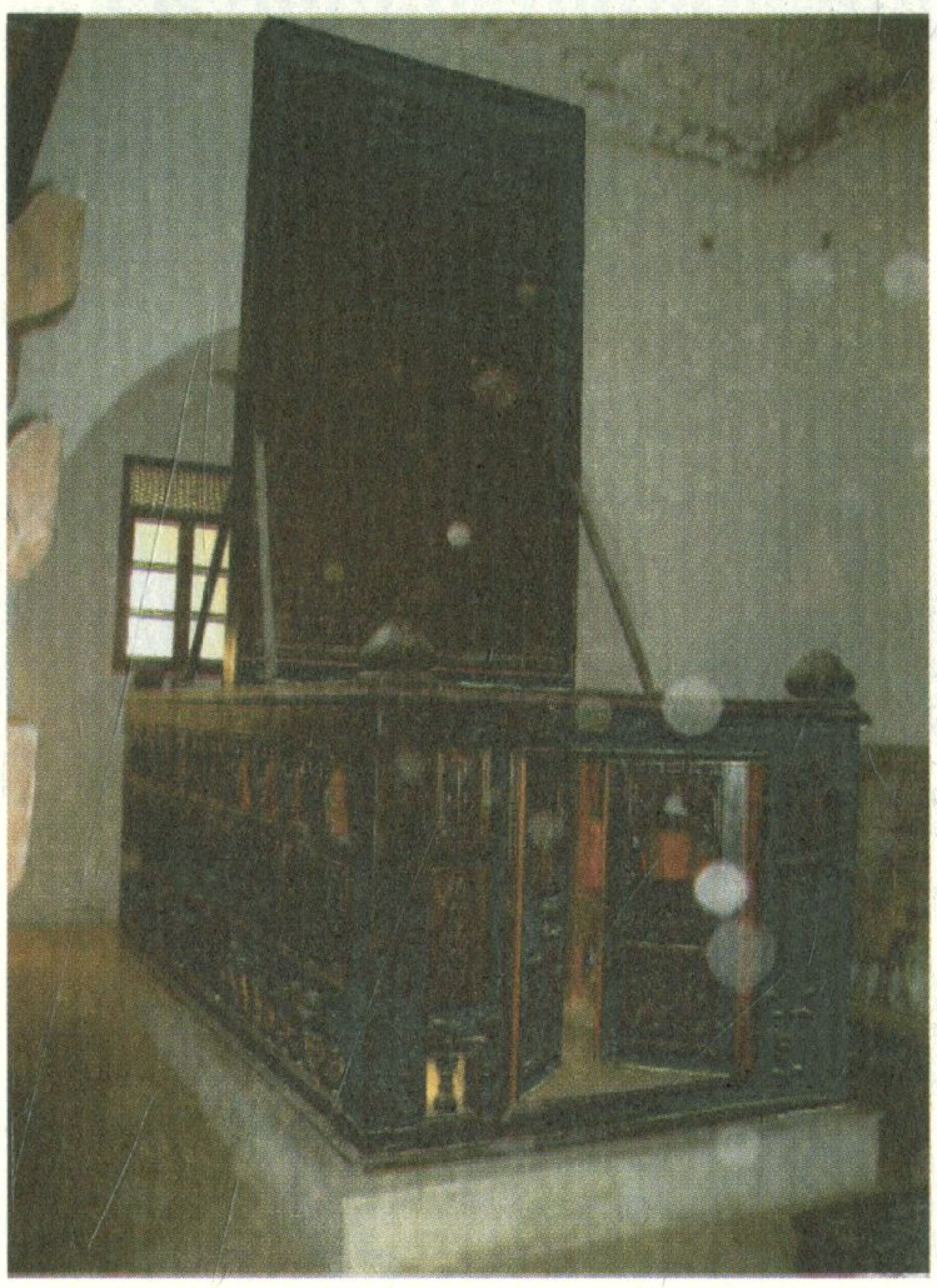
[11] الكناني، ن.م.، ص 253.

[12] ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، 1990، ج 4، ص 224-225.

[13] أشكر الزميل غازي المثلوثي الذي أمدني بالوثائق.

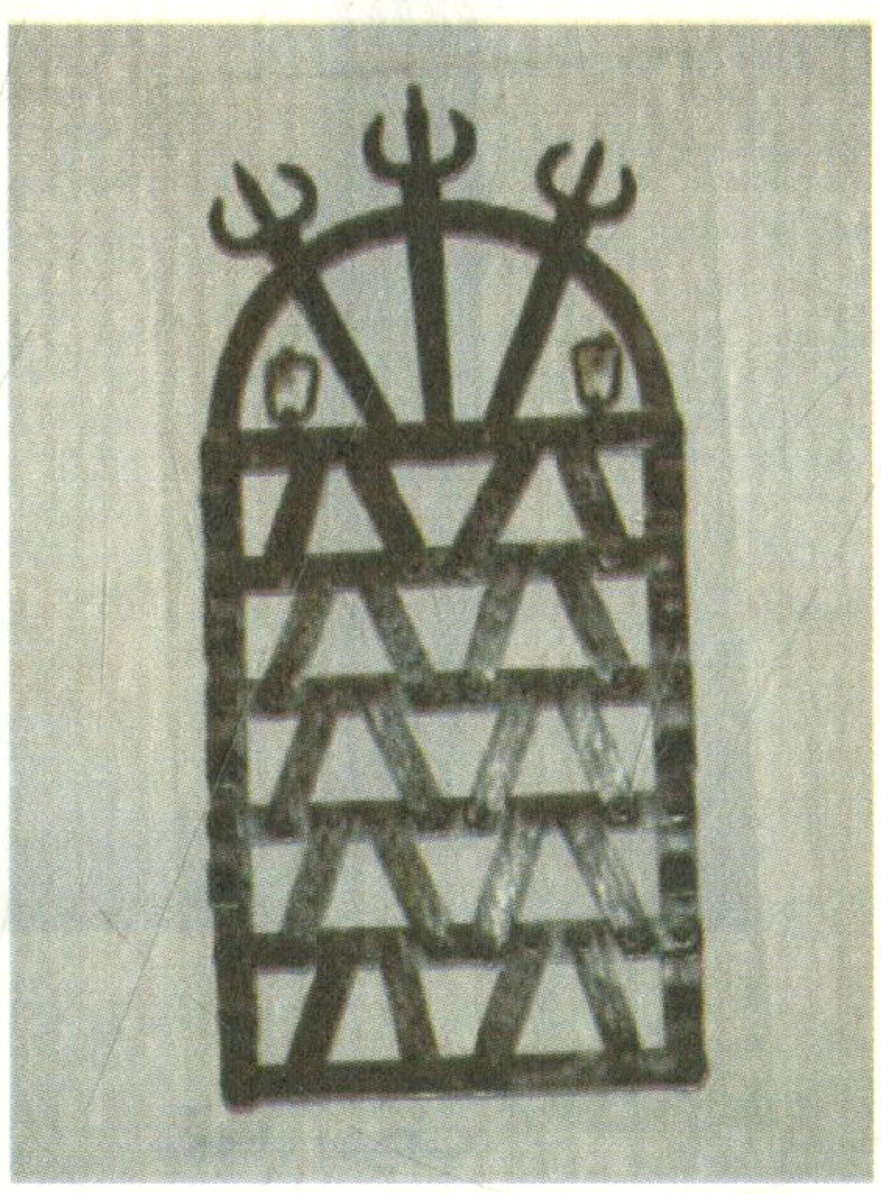
خلاصة القول إن سيدي عمر عبادة الحداد الحرفي والولي الصالح لم يقم بصنع جميع المشغولات على اختلاف مواد انجازها وإنما أنجزتها أطراف حرفية أخرى كل حسب اختصاصه بطلب منه قصد تدوين كراماته وسيرته التي تحولت إلى ثقافة شفوية تناقلتها الأجيال حيث تم التركيز فيها على جانب الخوارق والكرامات التي كان لها تأثير في الناس.

- ملحق الصور و الوثائق



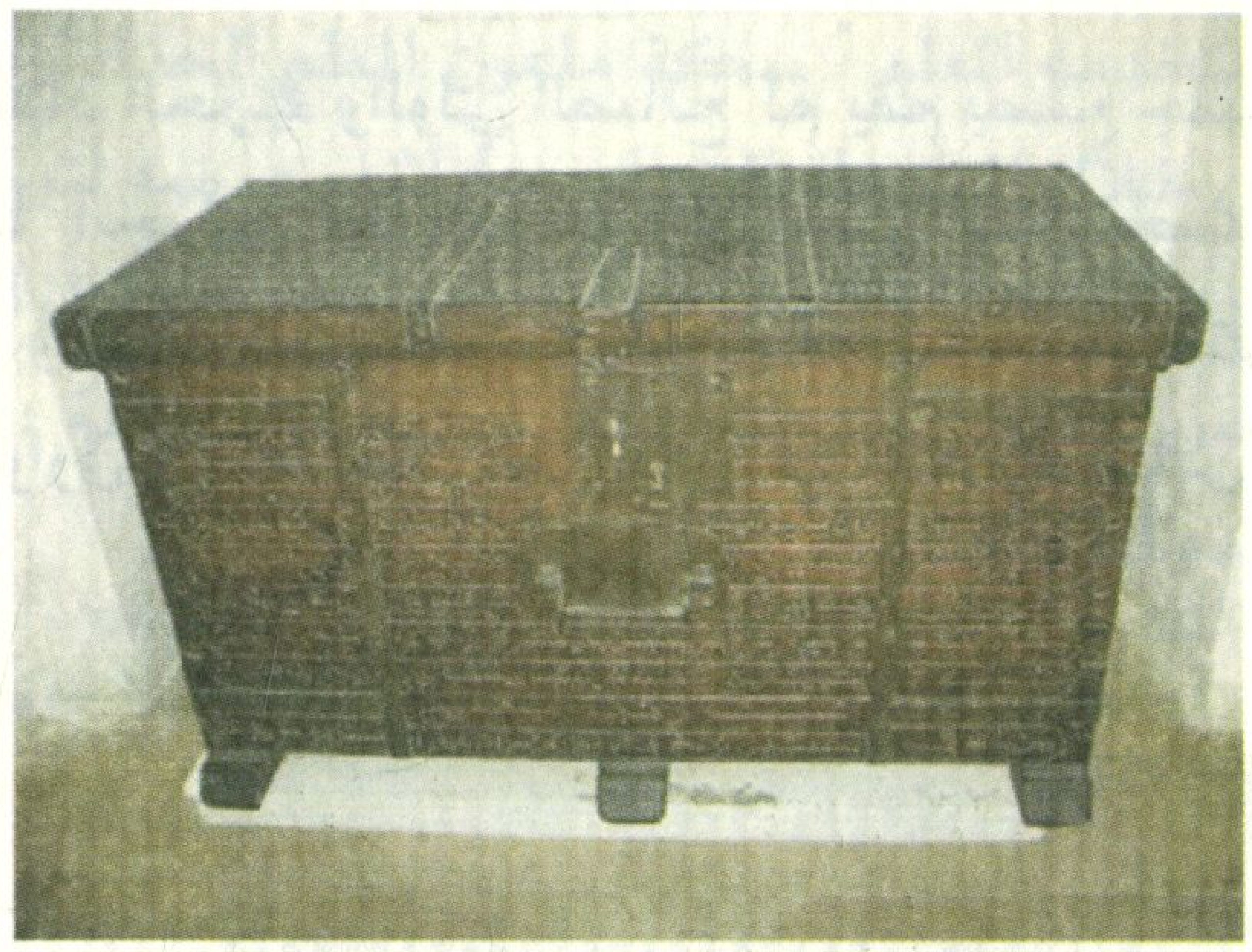


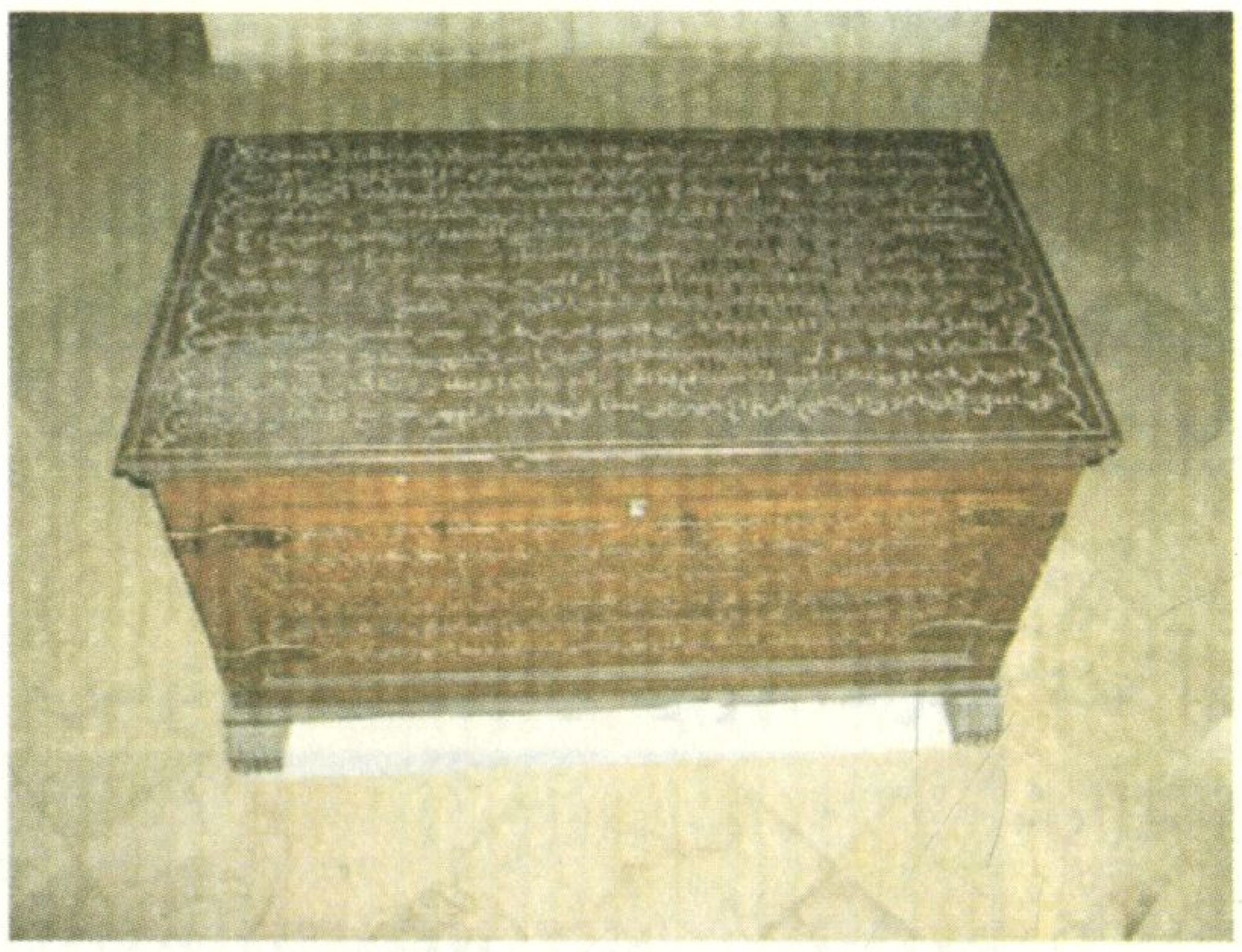
تابوت سيدي عمر عبادة





مرافع لحمل السلاح

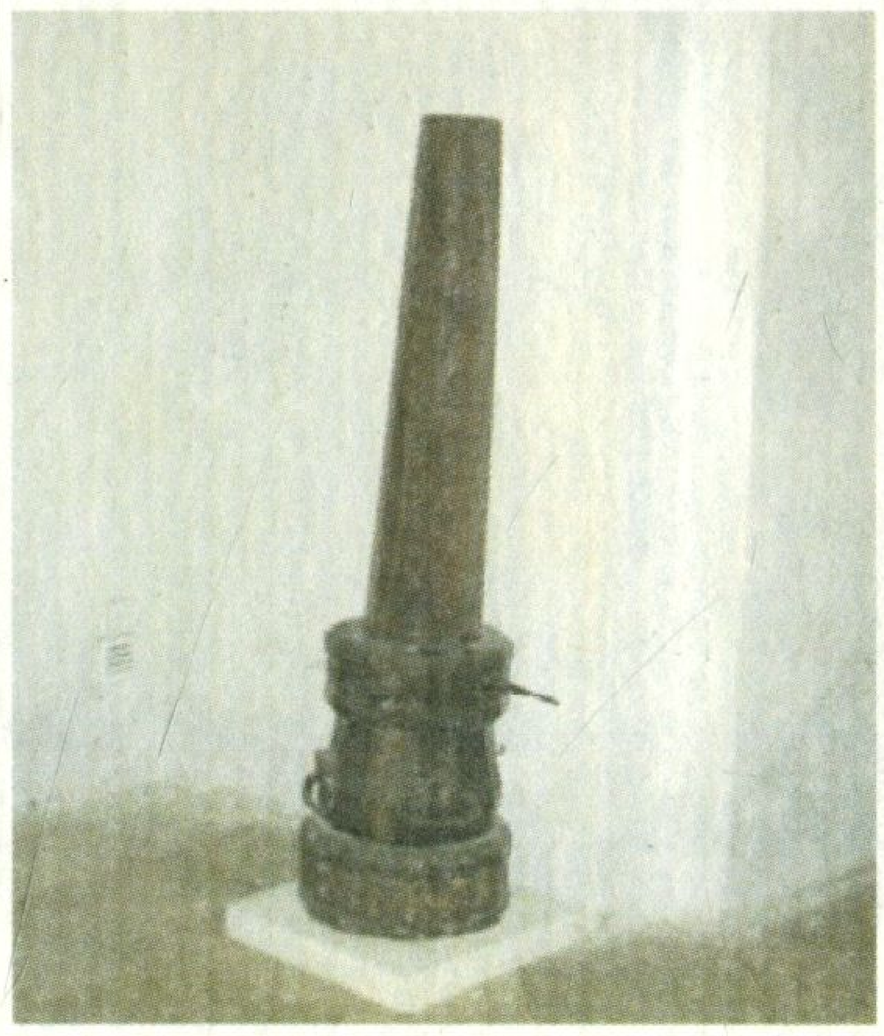




صناديق لحفظ الثياب



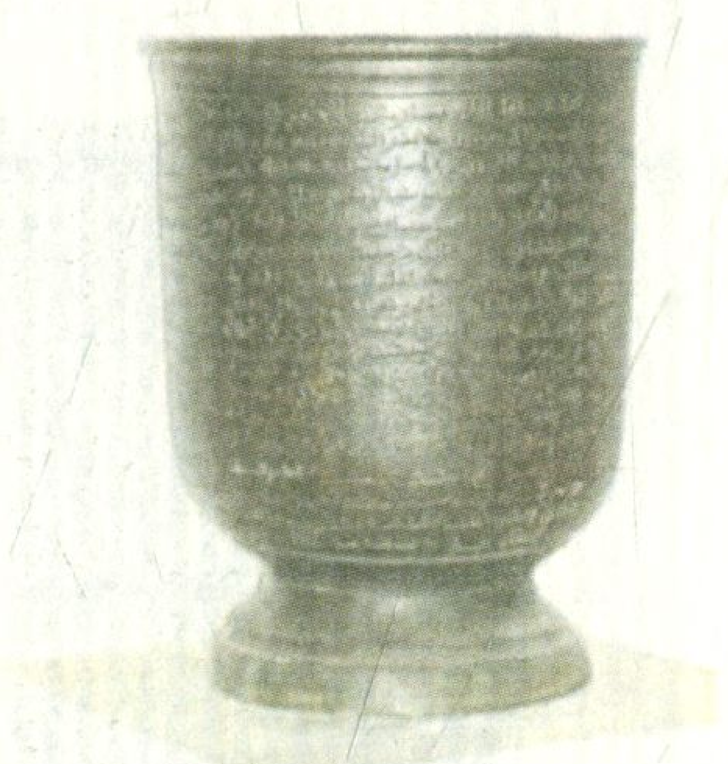
طاولة



مهراس خشبي



غمد سيف



مهراس من النحاس





وثائق أرشيف خاصّة بزاوية سيدي عمر عبادة

ظاهرة القهوة بأطراف إيالة تونس من خلال مقاهي القيروان في أواسط القرن التاسع عشر

إبراهيم السعداوي

المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجندوبة

شهدت القيروان في نهاية العهد الوسيط تدهورا واضحا، نظرا لمضاعفات أزمة الحكم الحفصي وتمرد أهل البادية خاصة زمن الحركة الشابية. ولم يشاهد بها الحسن الوزان سنة 922 هـ/1516 "غير صناع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز"، وكان "ملك تونس يثقل كاهلهم بالضرائب" حتى "غدت معيشتهم ضنكا" حسب قوله[1]. وعرفت هذه المدينة أثناء العصر الحديث أطوارا متناقضة خاصة قبل سنوات 1705، نظرا للصراعات الحادة بين أقطاب السلطة العثمانية (أي الباشا، الداي، الباي) بالعاصمة. وراعى سادة البلاد الجدد إثر عام 1574 الماضي الإسلامي لقاعدة إفريقية، إذ صارت مركزا لإقليم إداري وإحدى المحطات القارة على طريق محلة الشتاء وقوافل التجارة البينية والصحراوية. وأطلق كتاب القصر على مجالها اسم "قيادة القيروان" أو "سنجق القيروان" أو "وطن القيروان"، وهي منطقة شبه جافة ضمت آنذاك فضاء المدينة و"البليدات" أي القرى والمداشر القريبة منها[2].

---

[1] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تحقيق محمد الأخضر ومحمد حجي، الرباط، 1982، ج 2 ص 91. وأنظر أيضا: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس 1957، ص178-115؛ حمودة بن عبد العزيز، التاريخ الباشي، مخطوط بالمكتبة الوطنية عدد 18555، ص219-152؛ روبار برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م**، ترجمة حمادي الساحلي، بيروت، 1988، ج 1، ص 409-390؛ محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس، 1999، ج 1، ص 112-123؛ لطفي عيسى، مغرب المتصوفة، تونس، 2005، ص113-375؛

Monchicourt Ch., *Etudes kairouanaises, Kairouan et les chabbia (1450-1592)*, Tunis, 1939, p. 10-15, 47-155 ; Marçais G., *La berbérie musulmane et l'orient au Moyen Age*, Paris, 1945, p. 205-213.

[2] أ. و. ت.، دفتر 3 ص119، دفتر 12 ص146، دفتر 63 ص27؛ إبراهيم السعداوي، "الإدارة والسلطة والجباية بقيادة القيروان في العهد العثماني الأول"، سيصدر قريبا؛ ابن أبي دينار، ن. م.، ص160، 216، 165، 178-177، 241، 251، 253...الخ؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص262، 276-275، 309-307، 317، 361-350؛ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954، ج 1، ص77-79، 116-124...إلخ؛ أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس 2004، ج 1 ص119، ن. م. ج 2 ص28، 47-52، 59، 68-78...إلخ؛ الوزان، ن. م.، ج 2 ص87-91؛ الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة "عالم المعرفة"، رقم 319، سبتمبر 2005، ص91-116؛

وتمتع وجهاء الدين والمال القيروانيون بعدة امتيازات مادية (احسانات، عوايد، رواتب...الخ) منذ الفترة العثمانية الأولى، لا سيما أنهم عبروا بصفة مبكرة عن مساندتهم للمشروع العثماني. ولكن هذا لم يجنب مدينتهم ظلم بعض الحكام وانتقامهم، خاصة منهم مراد الثالث (1699-1702) وعلي باشا (1735-1756). وذكر ابن عبد العزيز أن مراد باي "أرسل خليل باي إلى القيروان وأمره بأخذها وأطلق يده فيها وفي أهلها فدخلها وعاث فيها وقتل مقاتليها وسبى نساءها وذراريها" ، ثم "أمر... بهدمها فهدمت دورها وأسواقها وسورها ولم يترك بها بناء قايما إلا المساجد والزوايا...". ويؤكد مؤلف كتاب "الإتحاف" أنها "...ذاقت لباس الجوع والخوف، وتهدم سورها، وطمست معالم أبنيتها، واستولى السيف والشنق على أعيانها..."[3]. وأولى البايات الحسينيون بعد سنوات 1705 عناية خاصة لهذه الحاضرة، واستعرضت المصادر أخبار حضائر البناء التي تمت بها لتدارك الخراب الذي لحقها سابقا. ومكنت تلك العناية مؤسساتها الدينية من استعادة إشعاعها المحلي المعهود، لا سيما الجامع الأعظم والزوايا (زاوية الغرياني، زاوية الوحيشي وغيرهما) والمدارس القرآنية. ولهذا اعتبرت بمثابة المدينة الثانية بعد حاضرة تونس، لا سيما من ناحية إشعاعها وعدد سكانها حسب الرحالة الأجانب[4].

لكن الشهرة الدينية لهذه المدينة في العصر الحديث لا تعني غياب أماكن الترفيه بها، خاصة أن الحدود بين أوقات العمل وأوقات التسلية في ذلك العهد ليست واضحة. فهي لم تكن بمعزل عن التحولات الاجتماعية والثقافية التي عرفتها العاصمة وبقية المدن الهامة، رغم أنها

Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 159-219 ; Marçais G., *Op. cit.*, p. 84-85 ; Kassab A., Sethom H., *Les régions géographiques de la Tunisie*, Tunis, 1981, p. 251-261 ; Chater K., *Dépendance et mutations pré coloniales : la Régence de Tunis de 1815 à 1857*, Tunis, 1984, p. 51-53, 79-83, 140, 153-154 ; Raymond A., *Tunis sous les Mouradites. La ville et ses habitants au XVIIe siècle*, Tunis, 2005, p. 13-29.

[3] ابن عبد العزيز، ن. م.، ص307-309؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص185.

[4] حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، ليبيا-تونس، 1984، ص115-119؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص317، 580-582؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص99، 158؛ عمار العشي، الهياكل الإدارية والعسكرية والحياة الاجتماعية والدينية بالقيروان في عهد محمد الصادق باي 1859-1881 ، ش. ك. ب.، (مرقونة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1985، ص11-20؛ جمال بن طاهر، الفساد وردعه بالبلاد التونسية (الردع المالي وأشكال المقاومة والصراع **1705-1840**)، تونس، 1995، ص50-59؛

Peysonnel, et Desfontaines, *Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger*, Paris, 1838, T. 1, p. 113-114, T. 2, p. 59-60 ; Frank L., et Marcel J. J., *Histoire de Tunis*, Tunis, 1979, p. 40-41 ; Pellissier E., *Description de la Régence de Tunis*, Tunis 1980, p. 117-118 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 222 ; Chater K., *Op. cit.*, p. 125, 601 ; Kerrou M., « Mutation de l'espace et de la société dans la ville contemporaine de Kairouan », in *Cahiers de la Méditerranée*, n° 51, dec. 1995, p. 71-72 ; Van Bruinessen M., « Les Soufis et le pouvoir temporel », in Popovic A. et Veinstein G. (dir.), *Les voies d'Allah. Les ordres mystiques dans le monde musulman des origines à aujourd'hui*, Paris, 1996, p. 244-253.

كانت قبل سنوات 1860 مغلقة بصفة عامة أمام أهل الذمة[5]. وسنحاول دراسة بعض مظاهر الترفيه لدى القيروانيين من خلال إلقاء الضوء على القهوة وبيوتها.

وعرفت المقاهي عند الرحالة الأوروبيين أول الأمر بعدة أسماء أهمها Taverne (طبرنة) أو Cabaret (كاباري) أو Auberge (فندق). وكان البحث عن التسلية ولا يزال هاجسا ثابتا لدى الإنسان منذ أقدم العصور، لأنها مصدر للأمل ولمغالبة مشاكل الحياة. فقد عبر الفرد دوما حتى داخل مجموعته الضيقة عن مشاعره الدفينة وآماله بطرق شتى، قصد الخروج من دائرة الرتابة والكبت ومحاولة بناء حياة أفضل[6].

وتتنزل القهوة والمقاهي داخل الإطار العام المخصص للترفيه والمتعة، وكان تناولها في غالب الأحيان مناسبة للراحة والاجتماع حتى داخل البيوت أو الحمامات. واهتم التونسيون في العصر الحديث كغيرهم بالجوانب الترفيهية، وحاولوا قدر الإمكان المواءمة بين محتوى احتفالاتهم وأحكام الشريعة ومقاصدها. فقد خصصوا حتى بالبادية أوقاتا للتسلية والالتقاء قصد الفرح والرقص والغناء، وذلك للتعبير عن أحاسيسهم وتصوراتهم ومواجهة مصاعب الحياة. وتتماشى مواعيدها عادة مع الرّوزنامة الفلاحية إذ تنتظم خارج فصول الإنتاج، أي إثر الانتهاء من موسم الحصاد أو الجني[7]. واكتست تلك الأفراح طابعا متميزا حسب المناطق البيئية والانتماء الاجتماعي لأصحابها، رغم أنها في جملتها مناسبات لتآلف الأفراد ونسيان المشاكل والتحرر من عدة قيود أخلاقية وسلوكية. وكانت الأعراس والزيارة والحضرة و"الزردة" وأفراح الختان أو الخطوبة وغيرها امتدادا للزمن الجماعي، أي زمن العائلة أو زمن

---

[5] تتحدث المصادر عن وجود أهل الذمة وملامح دورهم الاقتصادي بالقيروان خلال العصر الوسيط، لكن إقامتهم بها صارت ممنوعة أثناء العهد العثماني. واكتفت أميرة بلاد الغال سنة 1815 بمشاهدة تلك المدينة عن بعد أثناء زيارتها الرسمية للإيالة. وكان دخول النصارى إليها يقتضي الحصول على ترخيص مسبق من البايليك، وهو ما مكن بعض المبعوثين الأوروبيين والقناصل من دخولها بعد سنوات 1820. راجع : ابن عبد العزيز، ن. م.، ص493-494؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص172؛

Shaw M. D., *Voyage de Shaw M. D. dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant,* trad. de l'anglais, La Haye, T. 1, p. 257-258 ; Frank L., *Op. cit.*, p. 95-95 ; Pellissier E., *Op. cit.*, p. 117-120 ; Dunant H., *La Régence de Tunis,* 1975, p. 119 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 219-221 ; Ganiage J., *Les origines du protectorat français en Tunisie(1851-1881),* Tunis, 1958, p. 129 ; Sakly M., « Kairouan », in Garcin J.Cl., (dir.), *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval,* Paris, 2000, p. 55-65.

[6] محمد بيرم الخامس، كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، بيروت، د.ت.، ج 2، ص 115-119؛ محمد عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسية : الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، تونس، 1994، ص 57-71، 151-152.

Daumard A. (dir.), *Oisiveté et loisirs dans les sociétés occidentales au XIXe siècle,* Paillart, 1983 ; Barbara Karsky, Elise Marienstras, (dir.), *Travail et loisir dans les sociétés préindustrielles*, Nancy, 1991.

[7] ابن أبي دينار، ن. م.، ص307-309، 318-319؛ محمد المرزوقي، مع البدو في حلهم وترحالهم، ، ليبيا-تونس، 4198، ص 38-39، 45-57، 131-132...إلخ؛ عبد العزيز العظمة، مرآة الشام. تاريخ دمشق وأهلها، دمشق، 2002، ص 138-140، 142-151؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 2، ص 139-144.

الحومة أو زمن العشيرة. وهي فرصة ملائمة للمتعة وتجاوز "المحرمات" وتفجير الطاقات المكبوتة للأفراد حتى بالنسبة إلى فئة الأعيان، رغم أنها تجسيد معلن لهوية المجموعة وذاكرتها المنشودة. فمثلا يجعل أهل البادية والجبال أثناء "وليمة الختان، الكسكسي واللحم، عوض الحلويات ... والطبال والزكار وصراخ البارود ولعب الخيل عوض الموسيقى" حسب مؤلف كتاب "العادات التونسية"[8].

وظهرت المقاهي بالقيروان مع أواخر القرن السادس عشر، لأنها كانت مقرا لإحدى الحاميات العسكرية كبقية مدن الإيالة. وضمت خاصة منذ عهد حمودة باشا المرادي (1631-1666) فرقتين مختلفتين، وهما نوبة الترك (أي الجنود الانكشاريين) ونوبة زواوة. وتشير الوثائق إلى كاهية الوجق الذي يأتي مباشرة بعد القايد، وكان يحتكر غالب النفوذ العسكري والأمني. واشتهر أفراد المؤسسة العسكرية آنذاك بكثرة استهلاك القهوة، حتى أن صورة "التركي" التصقت عادة بالمقهى مثلما هو الحال ببقية الولايات العثمانية[9]. واستجابت تلك المحلات منذ ظهورها لاحتياجات عدة شرائح اجتماعية تعاني من الفراغ والبطالة، نظرا لتوافقها مع رغبات العسكريين وغير المتزوجين والمهمشين والنازحين. ولعل هذا ما يفسر مقاطعة أعيان الناس خاصة الفقهاء لها أول الأمر، رغم أنهم رتبوا فضاء داخل منازلهم وحوانيتهم لشرب القهوة واستقبال ضيوفهم. فقد اعتبروا الذهاب إليها أمرا مخلا بالسلوك السوي ومنزلة الفرد، لأنها مخصصة في نظرهم للعامة فقط ولا يؤمها "أعيان البلد"[10]. فما هي

---

[8] ابن أبي دينار، ن. م.، ص 305، 308-309؛ المرزوقي، ن. م.، ص 154-155 : الحشايشي، ن. م.، ص71؛
Frank L., *Op. cit.*, p. 111-114 ; Pellissier E., *Op. cit.*, p. 51 ; Dumazedier J.et Ripet A., *Op. cit.*, p. 128-130 ; Larguèche A., *Marginales en Terre d'Islam*, Tunis, 1993, p. 73 ; Larguèche D., « Loisirs, sociabilité et mutations culturelles dans la régence de Tunis à l'époque ottomane », in Temimi A. (dir.), *Mélanges méditerranéens d'amitié et de reconnaissance à André Raymond*, Tunis, 2004, p. 159-151.

[9] أدى استقرار "الأتراك" والكرغليين بالمدن الداخلية إلى انتشار ظاهرة القهوة، مثلا بمدينة باجة التي ضمت عدة "قهاوي" في سنوات 1740. ابن أبي دينار، ن. م.، ص 235؛ ابن يوسف، ن. م.، ص410؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص35: العشي، ن. م.، ص54-47، 125-310؛ الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، 1984، ج 2 ص 477-478. راجع أيضا : الدمرداشي، الدرة المصانة...، ص 4-5، 38-39، 99-100..إلخ.

[10] الحشايشي، ن. م.، ص152؛ ابن أبي دينار، ن. م.، ص302-303، 308؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 2 ص 115. وعكست مشاهدات الرحالة ذلك الواقع الاجتماعي داخل المقاهي، فمثلا ذكر لاكوندامين ما نصه :

« J'y ai vu beaucoup de Turcs assis et fumant, quelques-uns jouant aux dames. Ils ne peuvent sortir du café sans payer un aspre, pour lequel on leur fournit trois tasses…», « Tunis, le Bardo, Carthage », *cf.* La Condamine, in *Revue Tunisienne*, 1898, p. 85-85. voir aussi : Dan P., *Histoire de Barbarie et de ses corsaires*, Paris, 1537, p. 145-145, 232, 235 ; Shaw M. D., *Op. cit.*, T. 1, p. 387 ; Gall J., *Hier, la Tunisie d'après Charles Lallemand*, Singapour, 2004, p. 30, 42, 44, 45, 48 ; Revault J., *Palais et demeures de Tunis (XVIIIe et XIXe siècles)*, Paris, 1971, p. 47-59, 135-139 et sq. ; Kerrou M., « Sainteté, Savoir et autorité dans la cité islamique de Kairouan », in *L'autorité des Saints. Perspectives historiques et socio-anthropologiques en Méditerranée occidentale*, Paris, 1998, p. 225-229 ; Tuchscherer M., « Café et Cafés dans l'Egypte ottomane (XVIe-XVIIIe siècle », in Grègoire H. (dir.), *Contributions au thème du et des cafés*, Desmet- *Cahiers de l'IREMAM*, n° 1, Aix-en-Provence, 1992, p. 28-29 ; Larguèche D.,

ملامح تلك المقاهي أثناء العهد العثماني ؟ وكيف أثرت على المجتمع القيرواني في أواسط القرن التاسع عشر ؟

أولا : كثافة مقاهي القيروان وتوزيعها المجالي

أضحت "القهاوي" في العصر الحديث من مقومات النسيج الحضري لمدن الإيالة، رغم أنها أقل أهمية من الفضاء المنزلي ومقرات السلطة وأماكن التعامل الاقتصادي. لكن المصادر المعتمدة أغفلت تقديم معطيات كمية حولها، ولا نعثر على أية تقديرات لعددها قبل سنوات 1850 حتى بالنسبة إلى العاصمة ذاتها. ولا ندري إن كان سبب ذلك عدم خضوعها للضريبة قبل ثلاثينات القرن التاسع عشر، أو تواضع عددها مقارنة مع ولايات عثمانية أخرى مثلا مصر التي اشتهرت بكثرتها خاصة بالقاهرة والإسكندرية[11]. ولا نعثر في كتب الرحلات على أخبار حول مقاهي القيروان، لأن هذه الحاضرة كانت في غالب العهد العثماني أرضا "محرمة" على النصارى واليهود. لكن ما يوجد هنا لا يختلف عما ذكرته المصادر الأجنبية حول "القهاوي"، سواء ببقية الإيالة أو بغيرها من الولايات العربية. فما هي كثافة المقاهي بعاصمة الأغالبة في أواسط القرن التاسع عشر ؟ وكيف توزعت تلك المحلات داخل نسيجها الحضري؟

1 . كثرة المقاهي بالقيروان

شيدت غالب مقاهي القيروان في مطلع القرن الثامن عشر وسنوات 1760، نظرا للخراب الذي أصابها خلال نهاية القرن السابع عشر وبداية عهد على باشا. واهتم الباي حسين بن على وأولاده فيما بعد كثيرا بتعميرها، إذ رمموا أسوارها وأقاموا بها عدة منشآت جديدة. وكانت المقاهي حاضرة داخل الأسواق التي شيدوها، خاصة أن السلطة سخرت "القهاوي" و"القهواجية" لتقصي الأخبار والمراقبة[12]. ويبدو أن هذه الفضاءات الترفيهية ظهرت في أول الأمر

« Le Café à Tunis du XVIIIe au XIXe siècle : Produit de commerce et espace de sociabilité », in Tuchscherer M. (dir.), *Le commerce du café avant l'ère des plantations coloniales. Espaces, réseaux, sociétés (XVe-XIXe siècle)*, Le Caire, 2001, p. 201 ; Raymond A., *Op. cit.*, p. 53-71.

[11] تعجب الرحالة هنري دي كاستيلا أثناء 1500-1501 من كثرة عدد المقاهي بمصر، بينما أحصى الرحالة التركي شلبي بالقاهرة في أواسط القرن السابع عشر تقريبا 543 محلا. وقدر علماء الحملة الفرنسية سنة 1798 عددها بحوالي 1200 مقهى، منها قرابة 50 بالمدينة العتيقة. راجع :

Gall J., *Op. cit.*, p. 18, 30, 42-50 ; Gonzalès A., *Voyage en Egypte*, Le Caire, 1977, T.2, p. 455-455 ; Chabrol, *Op. cit.*, vol. 18, p. 158 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 25-25, 53.

[12] خوجة، ن. م.، ص 115-119؛ السراج، ن. م.، ج 2، ص 545-547، ج 3، ص 108-114؛ ابن يوسف، ن. م.، ص 2، 11-12؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص317، 580-582؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص 75، 99، 114، 158؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، ج 2، ص 153-154، 157؛

بوسط المدينة، أين تتجمع الأسواق وغالب الأنشطة الحرفية. فمثلا ضم سوق الجرابة سنة 1263 هـ/1845-1846 ثلاث مقاه، وهي قهوة الرماح وقهوة خليل والثالثة تسوغها المدعو مصطفى الجزيري. والراجح أنها انتشرت فيما بعد في الأحياء القريبة من الأسوار مثلا حومة المر، نظرا للانتعاش الاقتصادي النسبي الذي ميز عهد علي باي وابنه الباي حمودة باشا (1782-1814) من بعده. ويظهر أن بعض المقاهي تمركزت بالأرباض (أي حومة الظهرة، حومة القبلية، حومة الجبلية) بعد أواسط القرن التاسع عشر، حينما ازدادت واردات قهوة المستعمرات واتسع نطاق استهلاكها لانخفاض أسعارها[13].

وضمت القيروان 25 مقهى سنة 1263 هـ أي ما يقارب نسبة 10% من جملة "قهاوي" حاضرة تونس، علما أن هذه الأخيرة احتوت آنذاك على 249 مقهى. وفاق عددها الحمامات والمدارس وحتى الجوامع مثلما هو الحال بتونس وبعض المدن العربية كدمشق وغيرها، لكنها تبقى آنذاك دون عدد زوايا المدينة وأضرحتها. ويبدو أن دور "القهواجية" بقي متواضعا داخل النسيج الاجتماعي، ولا يرقى إلى وزن نظرائهم بالقاهرة الذين كان يمثلهم شيخ الطائفة وثلاثة نقباء[14]. وكانت كثافة هذه المحلات عالية بالمقارنة مع مجموع رجال المدينة، حتى إن لم نعتبر التي أحدثت خلال فترة 1863-1874. فقد كان بها سنة 1280 هـ/1863-1864 على الأقل مقهى واحد بالنسبة لحوالي 68 ذكر بالغ، حيث ناهز عدد أهلها في ذلك العام 8480 نسمة منهم 1696 مكلفا دون اعتبار الوسالتية والمخازنية والجرابة.

وتفوق هذه الكثافة ما يقابلها سنة 1860 بالعاصمة، رغم أنه لا "تخلو سكة بدون قهوة" حسب بعض المعاصرين. فقد ضمت الحاضرة آنذاك مقهى لكل 78 ذكر بالغ، لأن

Cherif M.H., *Pouvoir et Société dans la Tunisie de H'usayn Bin Ali (1705-1740)*, Tunis,1984, T. I, p. 95-95, 300-301, T. 2, p. 159-170, 181 et sq. ; *Id.*, «Expansion européenne…», in *A.E.S.C.*, n° 3, mai-juin 1970, p. 714-719.

[13] الأرشيف الوطني التونسي (مستقبلا: أ. و. ت.)، دفتر 1883، ص 48؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص 237-241، 258؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص 150-151 ، ج 3، ص 88؛ رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس (**1814-1782**)، تونس 1980، ص 251-284، 304-305؛ مخلوف، ن. م.، ج 2، ص 155-158؛

Valensi L., *Le Maghreb avant la prise d'Alger*, Paris, 1959, p. 52-53 ; Cherif M.H., «Expansion européenne…», *Op. cit.*, p. 715-719.

[14] تمتع "القهواجية" بوزن كبير داخل المجتمع المصري في العهد العثماني خاصة بالقاهرة والإسكندرية، بينما لم تتدعم تلك الطائفة خارج حاضرة تونس إلا منذ أوسط القرن التاسع عشر. راجع : أ. و. ت.، دفتر 1883 ص 48؛ نعمان القساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، 1987، ص 105-111، 117-121؛ محمد الأرناؤوط، "بداية انتشار القهوة..."، مجلة اليرموك، عدد 35، مارس 1992، ص13-35؛

Pellissier, *Op. cit.*, p. 118 ; Lallemand Ch., *Tunis et ses environs*, Paris, 1890,, p. 143 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 221 ; Georgeon F., « Les cafés à Istanbul à la fin de l'Empire ottoman », in Desmet-Grègoire H. et Georgeon F. (dir.), *Cafés d'Orient revisités*, Paris, 1997, p. 54-57.

سكانها قاربوا مائة ألف نسمة منهم 20 ألف مكلفا يستخدمون 256 مقهى[15]. وشدت تلك الظاهرة انتباه بعض المعاصرين نظرا لتفشي التدخين والتفسخ الأخلاقي وكثرة الانحرافات، إضافة إلى تزايد إقبال عامة الناس على المقاهي. وحاول عدد من الفقهاء مجددا طرح موضوع القهوة من الوجهة الصحية، لا سيما أن تلك السنوات العجاف امتازت بظهور الأوبئة وارتفاع نسبة الوفيات. وتركز النقاش حول المضاعفات السلبية لذلك الشراب إذ اعتبر مضرا بالصحة وسببا لعديد الأمراض، وهو ما يتعارض مع نظرة المدافعين عن القهوة[16].

ويبدو أن المقاهي تكاثرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع، مثلما هو الحال ببقية مدن الإيالة. ولئن كان عددها في علاقة مباشرة مع حجم المدن وكثافتها السكانية ونوعية أنشطتها، فإن كثرتها لا تعني بالضرورة انتعاش الاقتصاد أو رفاهية المجتمع. ونتبين من بعض الوثائق أن فتح المقاهي صار بعد سنوات 1860 هاجسا للفئات الوسطى، مثلا النساجين و"التوارزية" والدباغين وغيرهم من الحرفيين الذين عصفت بهم الأزمة الخانقة[17]. وتعكس كثافة المقاهي المرتفعة حدة التدهور الاجتماعي والاقتصادي الذي واجهته تلك المنطقة، لأنها تستجيب لطموحات جميع ضحايا الأزمة. فهي مخرج ظرفي بالنسبة إلى المستثمرين باختلاف أصنافهم، كما أنها ملاذ للفئات الفقيرة والمهمشة التي تضخم عددها آنذاك بالقيروان.

ولا ننسى أن عدد الرجال الفقراء والعاجزين و"البرانية" بلغ 147 مكلفا سنة 1280هـ، أي ما يعادل نسبة 42%، 90 من جملة الذكور البالغين دون اعتبار الجربيين وأهل وسلات

---

[15] الحشايشي، ن. م.، ص153؛ أ. و. ت.، دفتر 923، ص 1-44. اعتبرت القيروان بمثابة المدينة الثانية بعد الحاضرة حسب كتب الرحلات. وهنالك عدة تقديرات لعدد سكانها : 20 ألف نسمة عام 1829 حسب فيليبي، 12000 نسمة في 1842 حسب بيليسيي، 15000 نسمة حسب جان قانياج. راجع : بيرم الخامس، ن. م.، ج 1 ص124؛ العشي، ن. م.، ص13؛ محمد الطاهر الشامخي، مدخل إلى دراسة المجتمع القيرواني من خلال دفاتر العدول 1875-1905، ش. ك. ب.، (مرقونة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1992، ص 51-50؛

Shaw M. D., *Op. cit.*, T. 1, p. 257 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 82, 88, 221 ; Pellissier E., *Op. cit.*, p. 48-51, 117-118 ; Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 79-80, *Id.*, *Tunis aux XIXe siècle*, éditions Apollonia, Tunis 2001, p. 27-42, 51-54 ; Ganiage J., *Op. cit.*, p. 129; Sebag P., *Tunis : Histoire d'une ville*, Paris, 1998, p. 279-280 ; Larguèche D., *Op. cit.*, p. 202.

[16] سليمان الحرايري، القول المحقق في تحريم البن المحروق، 1850، ص 4-5، 9-15؛ بيرم الخامس، ن.م.، ج 2 ص 9-10، 15-16، 19-20، 34-39، 115. راجع : النابلسي، الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان، دمشق، 1343هـ، ص 510-؛

Frank L., *Op. cit.*, p. 131-141 ; Pellissier E., *Op. cit.*, p. 120 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 115-115 ; Deguilhem R., « Le café à Damas et le traité du Šaykh Gamal al-Din al-Qasimi al-Dimašqi », in *B.E.O.*, XIV, 1993, p. 21-32 ; Matthee R., « Coffee in Safavid Iran : commerce and consumption », in *J.E.S.H.O.*, vol. 37, p. 17-18 ; Gonzalès A., *Op. cit.*, T. 2, p. 455.

[17] أ. و. ت.، السلسلة التاريخية، حافظة 55، ملف 507، ملف 510، ملف 511؛ أرشيف أملاك الدولة، دفتر 345؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 5، ص 111-115، ج 8، ص 127، 140-141 ؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 2 ص 19-22، 127-130؛ كريم بن يدر، الحرف والحرفيون بمدينة تونس خلال القرنين 18 و19، ش. د.، (مرقونة)، الجامعة التونسية، 2004-2005، ص 334-449.

وأعوان الدولة. وصور كاهية الوجق خلال 1283 هـ/1866-1867 ذلك الوضع بقوله : "لما قدمنا لمدينة القيروان وجدنا سكانها في المعيشة الضنكة والعياذ بالله من قلة وجود الطعام بها"[18]. والراجح أن هذه الظرفية الصعبة أثرت على نوعية المقاهي الجديدة ومواصفاتها.

وكان "القهواجية" يعدون الشراب الأسود حسبما توارثوه عن فترة العثمانيين الأوائل، ويبدو أن طهي القهوة لم يتطور كثيرا رغم بعض الخصوصيات. والراجح أنهم حافظوا مثل غيرهم على نفس الخطوات المعهودة حتى إن تنوعت الأواني المتاحة لديهم، لأننا لا نجد في هذا الباب تباينا بين الأخبار التي تناقلها الرحالة وغيرهم منذ أواسط القرن السادس عشر حتى بالنسبة للمجال الإيراني. وكانت "الجزوة" أو "البقراج" تترك أولا فوق النار حتى غليان مائها، وتؤخذ لإضافة ملاعق من البن وخلطها أو تحريكها جيدا. ثم تعاد تلك الآنية إلى النار مرة أو مرتين حتى تبدأ القهوة في الارتفاع، وعندها يقع إفراغها بسرعة مع قشدتها في الفناجيل الصغيرة. ويذكر محمد الحشايشي أن "القهواجي يدير القهوة في فنجان ظريف الشكل، مذهب، ذي طرف أصغر منه أو بدون طرف. ويصنعها في جزوات صغار لها أيد طوال بعد أن يطيب ماء القهوة في الغلاي وهو بقراج كبير."[19]. وعرفت هذه الطريقة الأصيلة لاحقا باسم "القهوة العربي"، وهي شائعة لحد الآن داخل غالب بيوت الحضر وحتى لدى أهل الأرياف والبوادي. لكن التونسيين لا يضيفون في الغالب أية مواد أخرى للقهوة، وهذا مغاير نسبيا لعادات أهل المشرق الذين يعطرونها ببعض البهارات خاصة الزنجبيل والقرفة والهيل[20].

وكانت "قهاوي" القيروان في ذلك الوقت غير متجانسة من ناحية إشعاعها وعمارتها واتساعها ونوعية روادها، ويعد ذلك ظاهرة عامة داخل المجال الإسلامي حسب مشاهدات الرحالة. لكنها ليست خاضعة لنوع من التقسيم الفئوي على أساس مهني أو عرقي، إذ لا

---

[18] أ. و. ت.، ملف 188، حافظة 17، وثيقة 57 : 24 شعبان 1283هـ؛ العشي، ن. م.، ص 13؛ مراد رقية، "الوضعية البشرية والجبائية لسكان مدينة القيروان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 34-35، 1989، ص 53-58. أضحت "القهاوي" موضة بالنسبة للمستثمرين بالمدن التونسية، فمثلا تحول عددها بالعاصمة تونس من 255 سنة 1850 إلى 298 سنة 1872. راجع : أ. و. ت.، دفتر 923، ص 44؛ ملفات المجلس البلدي رقم 507، 509، 511 وغيرها؛ إبراهيم بن بلقاسم، **الاقتصاد والمجتمع في الايالة التونسية من 1850 إلى 1854**، منشورات كلية الآداب، تونس، 2002، 429 ص؛

Ganiage J., *Op. cit.*, p. 150-151, 157-172 ; Pennec P., *Les transformations des corps de métiers de Tunis sous l'influence d'une économie externe de type capitalist.*, Tunis 1954, p. 210-224, 230-235 ; Larguèche D., ., *Op. cit.*, p. 200, 204 ; Georgeon F., *Op. cit.*, p. 54-57.

[19] الحشايشي، ن. م.، ص153؛ الخليفي، "أدوات القهوة..."، مجلة المأثورات الشعبية، عدد 7، يوليو 1987، ص 95-98؛ محمود مفلح البكر، **القهوة العربية في الموروث والأدب الشعبي**، بيروت، 1995، ص 128-141؛

Lallemand, *Op. cit.*, p. 74 ; Sonnini, , *Voyage dans la Haute et la Basse Egypte*, Paris, 1799, T. 1, p. 277 .

[20] البكر، ن. م.، ص 128-141، 152-157؛

Castela H., *Voyage en Egypte*, Le Caire, 1974, p. 205 ; Landberg, *Op. cit.*, p. 57 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 34-35.

تحمل أسماؤها أية إشارة معلنة إلى وظيفة أو حرفة أو فئة محددة. ويتناقض هذا مع ما كان سائدا بحاضرة تونس والقاهرة واصفهان وغيرها، ولعله يعكس تردي أوضاع الفئات الوسطى وشتى الحرف آنذاك بالمدينة[21]. وهنالك بعض المقاهي الكبيرة بالأسواق الرئيسية، إذ امتازت بطابعها المعماري الإسلامي واتساع فضائها. وهي تحتوي على قاعة واسعة بها عدة مقاعد مبنية بالحجارة، وكانت حصر الحلفاء تغطي في الغالب أرضيتها ومقاعدها. ولا نستبعد استعمال الزرابي لفرش أرضيتها وتزيين حيطانها ذات الرفوف الملونة، مثلما هو الحال بالمقاهي الفخمة بالعاصمة مثل قهوة المرابط أو ضاحية المرسى مثل قهوة سيدي بوسعيد. ويقع بآخرها مكان لإعداد القهوة أين توجد المدفئة أو الكانون والفحم، وبه عدة رفوف خشبية لوضع الفناجيل والأباريق وغيرها من الأواني الضرورية[22]. ويمثل هذا الصنف الأول في الواقع نسبة ضئيلة من المقاهي، لأنه مخصص لفئة قليلة جدا أي الأتراك وأعيان المدينة. والراجح أنها كانت على ذمة البايليك أو أعيان المخزن، مثلا قهوة المدعو عصمان بالسوق.

ويبدو أن جل تلك المقاهي لا تتطابق مع الصورة النمطية الشائعة لدى الرحالة، ولعلها كانت متوسطة أو صغيرة الحجم مثل غالب محلات حاضرة تونس وباقي المدن الإسلامية. فهي متواضعة في مساحتها ومظهرها المعماري وتجهيزاتها، لأن أكثر روادها من عامة الناس والريفيين وبعضهم من المهمشين. والراجح أنها شبيهة بما وجد آنذاك بالحاضرة حسبما رواه الحشايشي، إذ كان "فراش هاته القهاوي من الحصر وبعض الكراسي، ونجد فيها بعض المعلقات من تماثيل السلاطين أو النساء الجميلات ... وفي الصيف يجعل فيها شيء من محابس النوار، والحبق، والقرنفل"[23]. كما نعثر على عدة "قهاوي" ضيقة تنفتح على الشارع بأبواب

---

[21] يظهر من سجلات ضريبة الخروبة أن أسماء مقاهي وسط مدينة تونس وأرباضها تدل على تصنيفات مهنية أو عرقية، مثلا قهوة الدزيرية أو قهوة الرايس أو قهو القمرق أو قهوة الكتبية أو قهوة الوراقلية وغيرها. ونعثر على نفس التقسيم تقريبا بمقاهي حواضر الشرق الإسلامي، مثلا قهوة الخراطين وقهوة الشوام بالقاهرة. راجع : أ. و. ت.، دفتر 2287، دفتر 2288؛ العظمة، ن. م.، ص 131-132؛

Gall J., *Op. cit.*, p. 42-50 ; Ganiage J., *Op. cit.*, p. 129-133, 188-190 ; Pennec P., *Op. cit.*, p. 291-317 ; Larguèche A., ., *Op. cit.*, p. 34-39, 52-50 ; Chater K., *Op. cit.*, p. 558-581 ; Georgeon F., *Op. cit.*, p. 42-54 ; Chardin J., *Voyages en Perse*, Paris, 1811, vol. 4, p. 57-58 ; Wilson S. G., Persian Life and Customs, New-York, 1973, p. 2552-253 ; Matthee R., *Op. cit.*, p. 21-22 .

[22] ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص 147؛ الخليفي، "أدوات القهوة..."، مجلة المأثورات الشعبية، عدد 7، يوليو 1987، ص 95-98؛

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 77, 80, 82; Gall J., *Op. cit.*, p. 30, 42, 47, 50 ; Larguèche D., *Op. cit.* p. 202 ; Revault J., *Tapis tunisiens : Tapis de Kairouan*, Paris, 1937, p. 12-25, planche I-LXXXIX ; in *Cafés d'Orient…*, 1997 ; Georgeon F., *Op. cit.*, p. 57-54 ; Cobbi J. et Desmet-Grègoire H., « Objets du café…», in *Cahiers de l'IREMAM*, n° 1, 1992, p. 7-9.

[23] الحشايشي، ن. م.، ص153؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 2، ص 115. وصف لاكوندامين أحد مقاهي حاضرة تونس في بداية القرن الثامن عشر بقوله :

واسعة، مثلا الحانوت الذي كان بذمة المدعو أحمد عياد. وهي بعيدة في العادة عن مركز المدينة أي البازار وشبيهة كثيرا بالأروقة، ولعلها كانت في الأصل دكانا أو مخزنا. ويبدو أنها موجهة أساسا لأبناء الأحياء القريبة من الأسوار أو سكان الأرباض، والراجح أنها ظهرت خاصة في القرن التاسع إثر تعميم استهلاك القهوة. وعاين شارل لاليمان هذا الصنف الأخير عند زيارته للعاصمة، وقدم له وصفا لا يختلف كثيرا عما ذكره الانقليزي ويلسون Wilson سنة 1895 بالنسبة لمقاهي مدينة تبريز[24].

وأعتقد أن المقاهي أثرت على التشغيل بالقيروان، لأنها أوجدت في الواقع أعمالا جديدة وساهمت جزئيا في تنشيط بعض الحرف. فقد كانت "القهاوي" سببا رئيسيا في ظهور محلات مخصصة لتنقية حبات البن وتحميصها ثم دقها، مثلما هو الحال بجميع المدن العثمانية الأخرى كالإسكندرية وقسنطينة وحلب وإزمير وغيرها. وقام بعض الرحالة والقناصل الأجانب بوصف دقيق لهذه الأعمال المستحدثة والقائمين بها، رغم أن المصادر المحلية أغفلت تلك الجوانب الحيوية ومميزاتها. وتبرز مشاهدات الأوروبيين مدى التشابه الكبير داخل المجال العربي والإسلامي، سواء بالنسبة إلى الحوانيت الصغيرة والأدوات المستعملة أو مراحل العمل والإعداد وحفظ القهوة. لكن هذا لا ينفي اختلاف المصطلحات ونوعية الوقود وخصوصيات أهازيج أصحاب المهنة وحركاتهم[25]. وكانت عملية تحميص البن ودقه مهمة جدا بالنسبة لنوعية القهوة، لأنها تحدد جودة الشراب الأسود وطعمه لدى متذوقيه. وتتم المرحلة الأولى باستخدام طاجين يوضع فوق الكانون أو الفرن بآخر المحل، ويعتمد الصناع على مهارتهم وملاعقهم الطويلة تفاديا لاحتراق الحبات. بينما تنجز المرحلة الثانية داخل "مدقات البن" إثر التبريد، حيث يستعمل الدقاقون مهاريس ثقيلة (من الخشب أو الحديد) و"غرابيل الشعر" للحصول على طحين جيد[26].

«...Nous sommes entrées dans un café (...) celui ci est une salle longue et basse, au milieu de laquelle est une estrade d'un pied et demi de haut et d'environ quatre pieds de large. Le long des murs, il y en a deux plus étroites : elles sont garnies de nattes de jonc, et, d'espace en espace, on y place des espèces de fourneaux, pour allumer la pipe...», *cf.* La Condamine, *Op. cit.*, p. 85-85.

[24] يبدو أن هذا الصنف من المقاهي كان أكثر انتشارا بالمدن الداخلية. راجع :

Gall J., *Op. cit.*, p. 47 ; Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 81-82 ; Larguèche D., *Op. cit.*, p. 202 ; Goushegir A., *Op. cit.*, p. 55-57.

[25] يبدو أن صمت المصادر العربية يرجع إلى كون بعض الفقهاء صنفوا القهاوي ضمن الحرف الدنيئة. راجع مثلا : الجبرتي، ن. م.، ج 2، ص 249؛

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 73-74 ; Desmet-Grégoire H., *Les Objets du Café*, Paris, 1989, p. 28-33.

[26] يكون الطاجين عادة إما من الطين أو الحديد. وتتشابه مراحل إعداد البن داخل المجال العثماني.

2 . التوزيع المجالي لتلك المقاهي

اعتبرت القيروان في أواسط القرن التاسع عشر مدينة كبيرة، إذ تبوأت المرتبة الثانية بعد العاصمة تونس من ناحية السكان والتجارة. وكانت لها أربعة أبواب تعود للعصر الوسيط، وهي باب تونس وباب الجديد وباب الجلادين وباب الخوخة أو باب الجامع. واحتوت على ستة أحياء يعرف الواحد منها باسم حومة، وهي متفاوتة من ناحية وزنها الديمغرافي وأنشطتها الاقتصادية وخصائصها البشرية. وكانت تنقسم بالتساوي بين المدينة العتيقة والأرباض. ويقع الجزء الأول داخل الأسوار ويضم حومة الجامع الأعظم وحومة الممر وحومة السادات الأشراف، بينما تكون الجزء الثاني من حومة الظهرة وحومة الجبلية وحومة القبلية[27]. فكيف توزعت المقاهي على تلك الأحياء ؟

---

[27] نعثر على باب الخوخة بعدة مدن تونسية، مثلا المنستير ونابل وغيرهما. وارتفع عدد الذكور البالغين بالقيروان سنة 1280هـ/1853185-4 إلى 1595 نفرا دون اعتبار الجرابة والوسالتية. راجع : أ. و. ت.، دفتر 923؛ مراد رقية، ن. م.، ص 44؛

Shaw M. D., *Op. cit.*, T. 1, p. 257-258 ; Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 17 ; Hubac P. et Mirande Ch., *Kairouan ville sainte*, Tunis, p. 15.

المقهى	موقعه بالقيروان	المقهى	موقعه بالقيروان
قهوة عثمان المرابط	الرحبة الكبيرة	قهوة عصمان	السوق
حانوت أحمد عياد	-----	قهوة السهيلي	حومة الممر
قهوة أحمد بن حميدة	-----	قهوة التحتار	حومة الممر
قهوة قصاره	-----	قهوة براس البلاغجية	"البوالة"
قهوة عمامو العسكري	-----	قهوة أحمد قنفود	العادولية
قهوة إسماعيل البنباشي	-----	قهوة طراد	-----
قهوة الحشاني	حومة القبلية	قهوة مصطفى الجزيري	سوق الجرابة
قهوة عبد اللطيف	باب الجلادين	قهوة الرماح	سوق الجرابة
قهوة صالح	الحلفاوين	قهوة خليل	سوق الجرابة
قهوة محرز الفنادقي	فندق النعمة	قهوة التركي	جامع بوبابين
وكالة السيد	-----	قهوة بوراس	-----
قهوة محمد القهواجي	قرب حانوت الرمانة	قهوة صالح العسكري	"الدامين"
قهوة الأمين الصبايحي	السكاجين	-----	-----

جدول 1 : مواقع مقاهي القيروان سنة 1263هـ/1845-1846.

(المصدر: دفتر 1883، ص 48.)

تجدر الإشارة أولا أن هذه "القهاوي" لم تعد حاضرة اليوم في أذهان جميع "القراوة"، لأن سيل الزمن جرف ذكراها وغير الأسماء وملامح مدينتهم. ويروي المسنون من "البلدية" أخبار مقاهي ما بعد 1881 فقط، مثلا قهوة الخضراوي وقهوة الباجي وغيرهما. ونتبين من هذا الجدول أن هنالك 17 مقهى وردت مصحوبة بمواقعها أي ما يقابل نسبة 68% من المجموع، مثلا قهوة صالح الكائنة بالحلفاوين. بينما أغفلت الوثيقة ذكر أماكن ثمانية مقاه، وهو ما يساوي نسبة 32% من المجموع. فقد وقع الاكتفاء باسم صاحب المقهى الأصلي أو بهوية الذي يديره، مثلا قهوة أحمد بن حميدة أو قهوة بوراس أو قهوة طراد أو قهوة قصاره وغيرها. ويرجع ذلك إلى كون المهم في نظر البايليك هو معرفة أسماء المنتفعين بها حتى يؤدوا ضريبة "الربع" للمكلف بجباية "المحصولات"، دون اعتبار صفتهم القانونية إن كانوا ملاكين أم لا.

ويتشابه توزيع المقاهي بالقيروان مع ما كان سائدا ببقية المدن العثمانية كالقاهرة ودمشق وحلب وغيرها، إذ خضع في غالب الأحيان لقاعدة شائعة في العمارة الإسلامية تقتضي الفصل بين الفضاء الخصوصي والمجال العمومي. ولهذا انتصبت جل المقاهي داخل الأسواق المختلفة وحول الساحات العامة كالفنادق والرحاب، أو بجوار المداخل الرئيسية للمدينة مثلا "قهوة عبد اللطيف" بباب الجلادين. وتمثل هذه الأماكن في الواقع فضاءات عمومية متميزة، نظرا لارتفاع كثافتها السكانية خلال النهار وحيويتها الاقتصادية[28]. فهي تضم غالب حوانيت التجار والحرفيين التي يقصدها يوميا أبناء المدينة، ويؤمها أهالي البلدات والعروش المجاورة أثناء انتصاب السوق الأسبوعية أو في المناسبات المختلفة. فمثلا امتلك عثمان المرابط مقهى بالرحبة الكبيرة، وكان المدعو محرز يدير "قهوة" بفندق النعمة. وهنالك مقهى قرب حانوت الرمانة وبكل من سوق الحلفاوين والسكاجين والبلاغجية، كما احتوى سوق الجرابة على ثلاثة "قهاوي". وبالتالي تجمعت جل "القهاوي" في سنوات 1805 داخل الأسوار، خاصة بحومة الجامع الكبير وحومة الممر أين كان يقيم حوالي 48% من الذكور البالغين. بينما احتوت الأرباض الثلاثة على "قهوة" واحدة بذمة الحشاني في حومة القبلية، رغم أنها ضمت 548 نفرا مكلفا سنة 1280 هـ أي تقريبا ثلث 32% الذين شملهم أول تعداد. ولعل ذلك يرجع إلى هيمنة الفضاء الخاص والوظيفة السكنية بالأرباض، بالإضافة إلى ندرة الفضاء العمومي بها[29].

وأدت المقاهي إلى تغيير المشهد المعماري والوظيفي للقيروان، بعد أن اقتصرت في السابق أساسا على الوظائف السكنية والاقتصادية والروحية. وخلقت بوسطها فضاء جديدا مفتوحا في أغلب الأوقات أمام جميع الفئات الاجتماعية، وهي أماكن مخصصة للترفيه

---

[28] الوزان، ن. م.، ج 2، ص 91-92؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 5، ص 43-44؛ محمد م. الأرناؤوط، "معطيات جديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر - وقفية أحمد باشا"، دراسات تاريخية، عدد 51، 1995، ص 193-223؛

Valensi L., *Op. cit.*, p. 50-54 ; Sebag P., *Op. cit.*, p. 152-162, 213-223; Kerrou M., « Mutation de l'espace et de la société dans la ville contemporaine de Kairouan », in *Cahiers de la Méditerranée*, n° 51, dec. 1995, p. 72-73 ; Pennec P., *Op. cit.*, p. 64-71 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 38, 51 ; Matthee R., *Op. cit.*, p. 22.

[29] أ. و. ت.، دفتر 923، ص 44-1؛ رقية، ن. م.، ص 45-55؛

Frank L., *Op. cit.*, p. 40-41, 105 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 221.

والتسلية وغيرها من الأمور الأخرى. ولم تكن الحدود آنذاك واضحة وصارمة بين هذه المحلات الجديدة ومجال المؤسسات الدينية، رغم أنها اعتبرت في نظر غالب الفقهاء أماكن محرمة على المؤمنين أو على الأقل مكروهة. فقد تركزت المقاهي إما بنفس الأنهج مع الزوايا والأضرحة والجوامع، أو كانت قريبة منها وجاورتها أحيانا مثلما هو الحال بحاضرة تونس والقاهرة[30]. ويبدو أن القرن التاسع عشر تميز بالمصالحة والتكامل بين مجالي الترفيه والمقدس، رغم التنافر الذي ساد بينهما في أول العهد العثماني. وفي هذا الإطار كان أحد الأتراك يدير "قهوة بجامع بوبابين"، كما حول نصر الشوشان "وكالة السيد" إلى مقهى بعد أن كانت من أحباس سيدي الصحبي. وكان العديد من التونسيين ومازالوا لحد اليوم يوزعون أوقاتهم بين المقهى والمسجد، لا سيما بالنسبة لمن يعيشون البطالة ويعانون الفراغ، فهم لا يرون أي تعارض بين المقهى والواجب الديني، لكنهم يضعون دائما في اعتبارهم قرب المسافة من الجامع حتى لا تفوتهم مواعيد الصلاة.

وساهمت المقاهي إلى جانب الأرباض في نقل ملامح حياة الريف والبادية إلى الوسط الحضري، لأن أهل المداشر وحتى أبناء العروش كانوا يدخلون مقاهي القيروان خاصة أيام الأسواق والأعياد. ولعلها صارت تدريجيا مقرا لاجتماعهم وموعدا لمقابلاتهم، ومن المحتمل أنهم تابعوا بعض شؤونهم واهتماماتهم أثناء تلك المناسبات. ويجب الانتباه إلى بعض الانطباعات التي وردت بكتب الرحلات، لأنها لا تخلو في الحقيقة من المبالغة والتسرع والأحكام الجاهزة[31]. ويبدو أن استهلاك القهوة شمل أيضا أعيان القرى المجاورة، نظرا لتأثير ظاهرة الحج ومواكب الأمحال والعلاقة القوية بين المدينة وباديتها. فقد كانت المحلة تتزود أثناء أسفارها بالقهوة إلى جانب المواد الضرورية الأخرى، إذ لا يمكن التخلي عن تناولها خاصة بالنسبة لولي العهد والضباط والانكشاريين. ويرافق "القهواجي" وأعوانه دائما المحلة في تنقلاتها المعهودة، وكانوا من عناصرها القارة مثل الطبيب و"الطباخة" و"الفراقة" و"الغناية" والكتاب و"الطبالة" وغيرهم[32].

---

[30] بيرم الخامس، ن. م.، ج 1 ص124؛ أ. و. ت.، دفتر 1883؛ ص 48، دفتر 2287؛

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 33, 75-77; Kerrou M., *Op. cit.*, p. 74-75 ; Largueche D., *Op. cit.*, p. 201-202 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 38, 51 ; Voir : Dumazedier J. et Suffert A., « Fonctions sociales et culturelles des cafés », in *L'année sociologique*, 1953.

[31] لا يمكن الفصل بين تطور القيروان وباديتها منذ العصر الوسيط رغم المواقف المتحفظة لفئة "البلدية"، كما ساهمت عروش جلاص في تعمير أرباضها خاصة بعد 1830. راجع : ابن يوسف، ن. م.، ص59–70، 75، 79–80؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص 114–115، ج 5، ص121، 123، 141–142؛ برنشفيك، ن. م.، ج 1 ص395؛ حسن، ن. م.، ج 1 ص215–221.

[32] أ. و. ت.، دفتر 40، ص 46، 76؛ دفتر 50، ص 54؛ دفتر 54، ص19، 50–51، 60؛ دفتر 111، ص 135، 211، 226–227، 267، 269؛ غوستاف نختنقال، طبيب المحلة : البلاد التونسية فيما بين 1863–1868من خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف نختغال، تعريب منير الفندري، تونس، 2003؛

Peysonnel, *Op. cit.*, T. 1, p. 53-54 ; Frank L., *Op. cit.*, p. 5, 20, 23-45 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 211-215, 224, 230.

وتشير الوثائق إلى كميات القهوة ولوازمها المختلفة التي يتم صرفها عادة عند تجهيز المحلة، وتتفاوت تلك المقادير حسب مدة السفر ورتبة المكلف بقيادتها. فقد كان "قهواجي" ولي العهد حمودة باشا يأخذ عند خروج سيده بالمحلة 25 "رطل قهوة سوري" وخمسة أرطال قهوة يمني و25 رطل سكر دقيق و200 فنجان وثمانية "أباريق عمل جنوة وأربعة حكك تاي وأربعة أواق كبريت وعشرة حمول بياض"، بالإضافة إلى "نصف رطل سباول وأربعة مخايط ونصف رطل طعمة وأربعة أزندة"[33]. بينما يتزود "قهواجي" المحلة بأقل من ذلك في حالة إسناد مهمة السفر إلى أحد العسكريين أو أحد وجهاء المخزن. فعلى سبيل المثال لا الحصر أخذ المملوك حسين كاهية دار الباشا 10 أرطال قهوة نصفها بن يمني و10 أرطال "سكر دقيق" عند قيادته لمحلة شتاء 1176 هـ/1762-1763، وخرجت نفس الكمية للمدعو سليمان آغة مع "حكتين تاي" و"أربعة أبارق" لما سافر بمحلة إلى بنزرت في شهر رجب 1187 هـ/أكتوبر 1773. ويحمل التجار القهوة وغيرها من السلع أثناء مرافقتهم للأمحال، وهو ما ساعد على انتشار استهلاكها بالأماكن الواقعة على طريق محلتي الصيف والشتاء[34].

ويبدو أن شيوخ "البليدات" وأعيان العروش كانوا يستهلكون أحيانا القهوة، مثل نظرائهم بأرياف مصر وغيرها من الولايات العثمانية. ولعلهم تعرفوا إلى ذلك "الشراب الأسود" وتذوقوه أثناء قدوم المحلة "المنصورة"، لأنهم يأتون لتقديم "مجابي" أهلهم ومقابلة سيدهم الباي أو من ينوبه. والراجح أنهم كانوا يتناولون القهوة أثناء تلك اللقاءات الرسمية التي تعد مناسبة لإكرامهم وتجديد ولائهم، إضافة إلى استلام الرواتب و"العوايد" والهدايا المخصصة لهم. ويأخذ المكلفون بإعداد القهوة أثناء مدة السفر راتبا وإحسانات، كغيرهم من الأتباع المشاركين في المحلة. وفي هذا السياق أخذ قهواجي المحلة المنصورة نصف ريال يوم 7 شعبان 1158 هـ/1745 على وجه الإحسان[35]. وكان ظهور "القهاوي" بأرياف القيروان متأخرا مقارنة مع ضواحي تونس وبلدات الوطن القبلي، التي شملتها الظاهرة بصفة مبكرة مثلا رادس والمرسى أو سليمان وغيرها. ويبدو أن حوانيت المداشر أمنت تلك الوظيفة منذ أواخر القرن التاسع عشر، لا سيما في شهر رمضان الذي يحييه الريفيون بطريقتهم الخاصة. وبالتالي فإن

---

[33] أ. و. ت.، دفتر 111 ص 53. وتزداد كمية القهوة والسكر في حالة قيادة المحلة من قبل الباي نفسه، فمثلا كان قهواجي علي باي يأخذ شهريا عند سفر مخدومه 30 رطل قهوة سوري و10 أرطال قهوة يمني و30 رطل سكر نصفهم قوالب والنصف الآخر دقيق، راجع نفس الدفتر، ص 135.

[34] تخص كمية القهوة المذكورة مدة شهرين فقط. وصرفت نفس المقادير لأمحال أخرى في مناسبات مختلفة، مثلا محلة رجب خزندار في ربيع الأول 1175هـ ومحلة عروش الكاف التي قادها محمد بن عمار باش حانبة في ربيع الأول 1187هـ. كما أعطيت «...أربعة وقات قهوة...» لكل من باش حانبة الترك وآغة صبايحية الترك عند سفر محلة الصيف سنة 1120هـ. راجع : أ. و. ت.، دفتر 111، ص 231-232، 449.

[35] أ. و. ت.، دفتر 40، ص 25. يبدو من الصفحة 24 بالدفتر المذكور أن خزندار صرف في إطار الإحسان يوم الأحد 11 جمادى الأولى 1158هـ بدار تبرسق 180 ريالا لشيوخ أولاد عبية الستة و80 ريالا لمشائخ أولاد خيار الثمانية. راجع أيضا : أ. و. ت.، دفتر 54، ص 22-23، 50-59...إلخ؛

Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 215-217 ; Larguèche D., ., *Op. cit.*, p. 185, 224 ; Chater K., *Insurrection et répression dans la Tunisie du XIXe siècle : La Mehalla de Zarrouk au Sahel (1854)*, Tunis, 1978, p. 53-58 ; Sonnini, *Op. cit.*, T. 1, p. 275, T. 3, p. 322 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 25-27.

هذا المنتوج الحضري انتقل تدريجيا إلى القرى، وأدخل إليها بعض مظاهر حياة المدينة خاصة أيام الأسواق الأسبوعية. لكن الأخبار غير واضحة حول تلك الظاهرة التي ستتدعم بعد عام 1881، رغم أنها ساهمت مع عوامل أخرى في تغيير نمط عيش أهل الأرياف وتصوراتهم[36]. ومهما يكن من أمر فإن دخول "الشراب الأسود" إلى أرياف الإيالة تعثر كثيرا بالمقارنة مع سرعة انتشاره بالقرى المصرية، حيث ظهرت بها منذ سنوات 1660 بيوت القهوة حتى بالأماكن النائية بمصر الوسطى ومنطقة الصعيد. وكان شيوخ القرى وأعيان البادية يتناولون القهوة بكثرة، ويقدمونها إكراما لضيوفهم منذ ذلك الوقت. كما أشار رحالة النصف الثاني للقرن السابع عشر مثلا "فانسالب" وغيره إلى مقاهي الريف مثلا بنواحي طهطا، وألمحوا إلى اقتناء الناس لأواني القهوة[37].

ثانيا : المقاهي، ملكيتها وأثرها على المدينة

جلبت القهوة وبيوتها اهتمام عدة فئات اجتماعية بالقيروان، ورغم أنها شكلت نشاطا اقتصاديا ثانويا بأطراف الإيالة. فهي موطن استثمار ومضاربة بالنسبة لأصحاب المال منذ بداية العهد العثماني، ويبدو أن تركيبة المستثمرين تغيرت كثيرا مقارنة مع القرن السابع عشر. فمن هم الذين راقبوا تلك المقاهي في منتصف القرن التاسع عشر ؟ وما هو أثرها على حياة السكان وتصوراتهم ومواقفهم ؟

1. أصحاب المقاهي وكيفية تثمينها

- **أ . ملكية المقاهي بالقيروان**

أوردت الوثيقة أسماء الملاكين بالنسبة لتسعة مقاه فقط، أي حوالي 36% من المجموع. بينما اكتفت في أغلب الأحيان (أي 16 حالة) بذكر اسم المنتفع بالمقهى، ما دام هو المطلوب مباشرة بدفع ضريبة "المحصولات". وأعتقد أن هذه المحلات كانت ضمن أملاك

---

[36] ظهرت المقاهي بالقرى المجاورة للعاصمة منذ القرن الثامن عشر، مثلا بناحية سيدي فتح الله وضاحية المرسى. ويبدو من الدفتر رقم 2287 أن قرية رادس احتوت على ثلاث قهاوي، وهي "قهوة قبلية" على ذمة إبراهيم بن يوسف التارزي وقهوة محمد الهياصي وأخيرا "قهوة فليس الشرقية" وصاحبتها مبروكة بنت محمد بن عياد. راجع : أ. و. ت. دفتر 2287 ص148؛

Shaw M. D., *Op. cit.*, T. 1, p. ; 195-198 ; Frank L., *Op. cit.*, p. 13-14, 28 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 215-217 ; Larguèche D., ., *Op. cit.*, p. 185, 224 ; Sonnini, *Op. cit.*, T. 1, p. 275, T. 3, p. 322 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 25-27 ; Kerrou M., *Op. cit.*, p. 75-83 ; Belaïd H., « Le café maure en Tunisie à l'époque coloniale : un cadre de loisirs et de mobilisation politique », in Temimi A. (dir.), *Mélanges méditerranéens d'amitié et de reconnaissance à André Raymond*, Tunis, 2004, T.1, p. 48.

[37] تعد القهوة إلى حد الآن إحدى مقومات حياة الأهالي وذاكرتهم بالمشرق العربي، خاصة أهل البادية الذين لهم تقاليد في إعدادها وكيفية تناولها بمجالسهم. راجع مثلا : العياشي، الرحلة، مخ A-MSS 18529، ورقة 93-94؛ الجبرتي، ن. م.، ج 1، ص 287-288، 294؛ البكري، ن. م.، ص 92، 128، 163؛

Vansleb, *The present state of Egypt*, Londres, 1578, réed. Greeg 1972, p. 192, 223 ; Sonnini, *Op. cit.*,, T. 1, p. 275-277, T. 3, 307, 322 ; Frank L., 1979, p. 101 ; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 25-27.

البايليك، وهي تستغل في العادة عن طريق الكراء أو الالتزام. وبالتالي فإن 64% من "قهاوي" القيروان كانت على ذمة الدولة، لأن البايات الحسينيين أنجزوا بها في القرن الثامن عشر كثيرا من المشاريع المعمارية. فقد بنوا عدة أسواق تتوفر بها مرافق التجارة كالمخازن والفنادق والوكالات، إضافة إلى تشييد الأسوار والمؤسسات الدينية المتنوعة. وأشرف الوكلاء أو الأمناء على إدارة تلك العقارات وتعهدوها بالصيانة والترميم، وتحمل القايد قسما من تلك المصاريف حسبما تبينه دفاتر "المقبوض والمصروف"[38]. ويتمثل المالكون الخواص فيما يلي :

المقهى ومكانها	صاحبها	المقهى ومكانها	صاحبها
قهوة الرحبة الكبيرة	عثمان المرابط	قهوة بالسوق	عصمان
قهوة	إسماعيل البنباشي	قهوة بالممر	السهيلي
قهوة	طراد	قهوة بسوق الجرابة	الرماح
قهوة	بوراس	قهوة بسوق الجرابة	خليل
قهوة بالممر	التحتار	-----	-----

جدول 2 : مالكو مقاهي القيروان سنة 1263 هـ/1845-1846 (المصدر : دفتر 1883، ص 48)

ويظهر من الجدول الثاني أن أعيان "القراوة" كانوا على صلة وثيقة بالاستثمار في المجال الترفيهي : فقد كانت قهوة الرحبة الكبيرة على ذمة القايد محمد المرابط الذي سوغها للمدعو عزوز، بينما امتلك أحد أولاد الرماح مقهى بسوق الجرابة. كما تحول بعض الوافدين على المدينة إلى ملاكين للمقاهي، فعلى سبيل المثال كانت "القهوة" التي يديرها سليمان الصنهاجي بحومة الممر تابعة لأحد أبناء عائلة السهيلي، وهي أسرة مخزنية من الوسالتية كان لوجهائها دور كبير في علاقات جبلهم بالسلطة[39]. وهنالك بعض "القهاوي" التي على ذمة "الأتراك"، مثلا المقهى التابعة للمدعو عصمان بالسوق أو قهوة خليل بسوق الجرابة. لكن

[38] أ. و. ت.، دفتر 1883، ص 48، دفتر 3، ص 193، 195، دفتر 42، ص 35، دفتر 2249، دفتر 2287، دفتر 2288...الخ؛ خوجة، ن. م.، ص117-118؛ ابن يوسف، ن. م.، ص 2؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص 327، 580؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص 99، 110، 158؛

Cherif M..H., 1984,T. I, p. 266-267 ; Hénia A., *Propriétés et stratégies sociales à Tunis (XVIe-XIXe siècles),* Tunis 1999, p. 254-259.

[39] أ. و. ت.، دفتر 1883، ص 48، دفتر 34، ص138، دفتر 42، ص 40-41، دفتر 50، ص 98-100، دفتر 59، ص50...الخ: ابن يوسف، ن. م.، ص17-18، 30، 39، 50، 119؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص341-350؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص 107-108، 110-111، 152؛

Cherif M..H., 1985,T. 2, p. 18-20, 25-25, 43 ; Mantran R., *Histoire d'Istanbul,* Paris, 1995, p. 255.

هؤلاء الحنفيين لم يسيطروا تماما في منتصف القرن التاسع عشر على قطاع القهوة بالقيروان، وهي وضعية مغايرة لما كان سائدا بحاضرة تونس أو قسنطينة والجزائر العاصمة[40]. وليس بالإمكان تحديد انتماء الملاكين الثلاثة الآخرين أي إسماعيل البنباشي، وبوراس، والتحتار، ولعلهم كانوا من "الصفاقسية" أو الجربيين الذين استقروا بالمدينة منذ فترة بعيدة واندمجوا مع أهلها.

- ب . كيفية تثمين الملاكين للمقاهي

تبين الإحصائية الثالثة طريقة استغلال "قهاوي" القيروان في منتصف القرن التاسع عشر، والأطراف التي انتفعت آنذاك من هذا القطاع الخدماتي. فقد شمل الاستغلال المباشر خمسة مقاه فقط أي 20% من المجموع، وكان من بينها اثنتان على ذمة "الأتراك" وتقعان بالسوق. بينما كانت أغلبية تلك المحلات (أي 80%) تعمل بواسطة الكراء، سواء منها التي تتبع الخواص (مثال قهوة السهيلي وقهوة المرابط) أو التي يملكها البايليك. ويقيم غالب المستأجرين بالمدينة باستثناء حالة واحدة فقط، وهي تخص مكتري قهوة بوراس الذي كان يقطن بحاضرة تونس. ويرجع ذلك أساسا إلى طبيعة هذا النشاط الذي يقتضي الحضور والمتابعة اليومية، لأن جودة القهوة وعلاقات صاحب المحل هي التي تحدد سمعة المقهى وإشعاعه.

المقهى	المتسوغ	المقهى	المتسوغ
قهوة عثمان المرابط	عزوز	قهوة بالسوق *	عصمان ••
حانوت	أحمد عياد	قهوة السهيلي بالمر	سليمان الصنهاجي
قهوة	أحمد بن حميدة	قهوة بحومة المر *	التحتار
قهوة	قصاره	قهوة براس البلاغجية	الأمين بوراوي

[40] كانت غالب مقاهي حاضرة تونس ومدينة الجزائر وقسنطينة تابعة لفئة "الأتراك". راجع : أ. و. ت.، دفتر 1883، دفتر 2287، دفتر 2288؛

Carlier O., « Le café maure. Sociabilité masculine et effervescence citoyenne (Algérie XVII^e^- XVII^e^-siècles », in *A.E.S.C.*, juillet-août 1990, n° 4, p. 982-983.

قهوة	عمامو العسكري •	قهوة "العادولية"	أحمد قنفود
قهوة *	إسماعيل البنباشي •	قهوة طراد	شقرون العسكري •
قهوة حومة القبلية	الحشاني	قهوة بسوق الجرابة	مصطفى الجزيري • •
قهوة باب الجلادين	عبد اللطيف	قهوة بسوق الجرابة *	الرماح
قهوة الحلفاوين	صالح	قهوة بسوق الجرابة *	خليل • •
قهوة فندق النعمة	محرز الفنادقي * *	قهوة جامع بوبابين	التركي • •
وكالة السيد	نصر الشوشان * *	قهوة بوراس	في كرا تونس
قهوة قرب حانوت الرمانة	محمد القهواجي	قهوة "الدامين- باللامين"	صالح العسكري •
قهوة السكاجين	الأمين الصبايحي •	- - - - -	- - - - -

جدول 3 : استغلال مقاهي القيروان سنة 1263هـ/1845-1846.
(المصدر : دفتر 1883 ص48.)

• : من أعوان الجيش والشرطة، * * من الأفارقة السود، • • : أتراك، * : استغلال مباشر، بقية المقاهي : كراء.

وينتمي المتسوغون إلى عدة فئات اجتماعية، لكن الوثيقة لا تسعفنا سوى بهوية ثمانية "قهواجية" أي ما يقابل نسبة 40% منهم. واكترى العاملون في أجهزة الأمن والجيش أربعة مقاه، مثلا قهوة السكاجين التي كان يديرها الأمين الصبايحي أو قهوة طراد التي بعهدة شقرون العسكري. وهنالك تركيان ضمن المتسوغين : الأول، أي مصطفى الجزيري، بذمته قهوة بسوق الجرابة، والثاني اكترى قهوة جامع بوبابين خاصة أن القرب من أماكن العبادة كان محبذا لدى رواد المقاهي. ويظهر أن بعض العبيد المعتوقين اندمجوا في الحياة

الاقتصادية، رغم صعوبة الظرفية الاقتصادية آنذاك. فمثلا تسوغ المدعو محرز قهوة بفندق النعمة وحول نصر الشوشان وكالة السيد إلى مقهى، ولعلهما كانا يعملان بهما لفائدة أسيادهما قبل عتقهما سنة 1846. ويبدو أن بقية المتسوغين، أي 12 قهواجيا كانوا ينتمون إلى أصحاب الحرف الذين تضرروا من الأزمة الاقتصادية، سواء منهم القراوة أو البرانية الذين استوطنوا منذ مدة بالمدينة.

وتتكتم الوثائق المعتمدة عن أخبار العاملين بهذا القطاع نظرا لطبيعتها الجبائية، وهي لا تلمح إلى أوضاعهم الاقتصادية وعددهم وانتمائهم الاجتماعي. ويبدو أن أصحاب المحلات الصغرى كانوا يقومون بمفردهم بشتى الأعمال والخدمات، نظرا لضيق المحل وقلة عدد المترددين عليه. بينما اعتمدت بعض المقاهي على عدد من الأجراء المتخصصين نسبيا، مثلا النادلين والقائمين على إعداد القهوة. ولعل أولئك العمال كانوا في جملتهم قبل سنة 1846 من خدم صاحب المقهى وأتباعه، ولكنهم صاروا فيما بعد من الأجراء إثر إلغاء العبودية[41]. لكن هذه الشريحة الاجتماعية بقيت في الواقع ثانوية جدا، مثلما هو الحال ببقية المدن الداخلية. ويبدو أن النزوح والهجرة وفرا بعد سنوات 1850 أيادي عاملة لمقاهي القيروان، كما هو الشأن بقهاوي حاضرة تونس التي جلبت اهتمام الجزائريين في أواخر القرن التاسع عشر[42].

2 . أثر المقاهي على مدينة القيروان وأهلها

أثرت القهوة بصفة مباشرة في تصورات أهل القيروان وسلوكياتهم كغيرهم من سكان الإيالة، إذ وضعت حدا للرتابة المعهودة وخلقت تقسيما جديدا للزمن الفردي. وأحدثت لديهم تغييرا واضحا في مواعيد الالتقاء ودلالتها ومحتواها، لأن مؤسساتهم الدينية شكلت في السابق إلى جانب الأسواق الأماكن الرئيسية التي يتقابلون بها. فقد كانوا يجتمعون في الغالب بمساجد مدينتهم وزواياها ومقابرها المتعددة، إما لأداء واجبهم الديني أو للمشاركة في مواكب الزاوية وأنشطتها (حلقات الذكر، زيارة الشيخ، الحضرة) أو لدفن موتاهم وتقبل التعازي[43]. فما هي انعكاسات المقاهي على القيروانيين خلال العهد العثماني ؟

---

[41] جمال بن طاهر، "وثيقة حول الأقلية السوداء بجزيرة جربة في أواسط القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 99-100، ماي 2000، ص 669-683؛ إبراهيم السعداوي، " التحولات العمرانية والبشرية بمدينة باجة في العهد العثماني"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 33، سبتمبر 2006، ص 141-143؛

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 73-74 ; Valensi L., « Esclaves chrétiens et esclaves noirs à Tunis au XVIIIe siècle », in *Annales économie société et civilisation*, nov.-déc. 1957, p. 1279-1280 ; Sebag P., *Op. cit*, p. 215-217 ; Carlier O., *Op. cit.*, p. 982-983.

[42] احتوت القيروان على فئة من الغرباء الذين قدم بعضهم من واحات شط الجريد وجنوب شرق الجزائر وولاية طرابلس. راجع : أ. و. ت.، دفتر 923، دفتر 929؛ ملف 718 حافظة 17، وثيقة 55 : 17 شعبان 1128هـ، وثيقة 88 : 16 رجب 1282هـ، وثيقة 121 : 19 ذي الحجة 1282هـ...الخ؛ رقية، ن. م.، ص 44-92؛

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 98, 143 ; Larguèche A., *Op. cit.*, p. 79-80, 91, 292, 332-335.

[43] الوزان، ن. م.، ج 2، ص 87-88، 91؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 1، ص 124، ج 2، ص115؛ الحشايشي، ن. م.، ص 195، 351-352؛

• أ . المقاهي ومتابعة الحياة العامة

امتازت بيوت القهوة منذ ظهورها بتعدد وظائفها، لأنها استجابت لاهتمامات متباينة حسب نوعية روادها وانتماءاتهم الاجتماعية. فقد اعتبرت فضاء موازيا للمجالات الدينية المعهودة، ولعلها صارت تنافسها خاصة منذ مطلع القرن التاسع عشر. وكونت مجالا عموميا مهيئا لكافة الأمور غير المقدسة، إذ أوجدت لدى الأفراد من جميع الفئات نقلة نوعية في مفهوم الراحة والتسلية وتقسيم الوقت. وأشار بعض الرحالة إلى تلك الظاهرة حتى في مستوى القرى الأندلسية، مثلا بلدة سليمان التي كانت بها مقهى مقابلة لسوقها الصغير منذ سنوات 1720[44]. ويبدو أن "القهاوي" قوبلت في أول الأمر بنوع من الحذر والرفض مثلما هو الحال ببقية العالم الإسلامي، نظرا إلى الماضي المدينة وأهمية وزن النخبة الدينية بها. لكنها صارت شيئا فشيئا وجهة ثابتة بالنسبة لعديد القيروانيين، إذ خصصوا لها حيزا من أوقاتهم الفارغة ونسقوا على أساسها قسما من مواعيدهم وألعابهم. وهذا لا يعني في الواقع تراجعا للشعور الديني أو ابتعادا عن أماكن العبادة، لأن عامة الناس ظلوا في ذلك الوقت متشبثين حسب طريقتهم بالمساجد والزوايا[45].

وكانت المقاهي إطارا للتواصل والانفتاح على الوسط الخارجي، خاصة أنها أفرزت روابط جديدة بين مختلف روادها وخلقت بينهم مصالح متبادلة. ولهذا لم تكن وظيفتها لعب الورق و"إضاعة الوقت" أو ملء الفراغ فحسب، بل تحولت في الواقع إلى منبر مفتوح ومتجدد لمتابعة الشؤون العامة مثلما هو الحال في بقية أنحاء العالم. ولعل هذا ما يفسر حرص السلطة على مراقبتها وتتبع أخبارها، لأن "القهاوي" لا تضع حدودا صارمة بين نوادر التسلية ومواضيع السياسة[46]. وكان تناول القهوة مناسبة لاستعراض شتى الأخبار وحتى الشائعات، لا سيما ما يهم أحياء المدينة والعروش المجاورة كأخبار السرقة والإغارة وغيرها. وشارك الوافدون على القيروان من تجار ونازحين ولاجئين في هذه العملية : فقد كانوا ينقلون معهم أنباء متنوعة

Peysonnel, *Op. cit.*, T. 1, p. 113-114, T. 2, p. 45-47, 59-60 ; Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 17-18 ; Gall J., *Op. cit.*, p. 44, 46, 48.

[44] وصف الرحالة الفرنسي بيسونال عند زيارته للبلاد سنة 1724 مقهى قرية سليمان، اُنظر :

. Peysonnel, *Op. cit.*, T. 1, p. 170.

[45] خوجة، ن. م.، ص 115، 118-125؛ ابن يوسف، ن. م.، ص43، 71؛ ابن عبد العزيز، ن. م.، ص327، 494-495؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص185-187؛ الأرناؤوط، "من التاريخ الثقافي للقهوة..."، دراسات تاريخية، عدد 71-72، كانون الأول 2000، ص131. ويذكر الرحالة الانقليزي شاو الذي زار الإيالة سنة 1727 ما نصه :

«...Plusieurs gens graves lorsqu'ils n'ont point d'occupation, passent la journée à discourir ensemble dans des (a) *Haffefs*, au *Bazar* ou dans des *caffés* ...», Shaw M. D., *Op. cit.*, T. 1, p. 387.

[46] العظمة، ن. م.، 2002، ص131-132؛

Georgeon F., *Op. cit.*, p. 66-73 ; Ellis A., *The Penny Universities. A History of the Coffee Houses*, Londres, Secker et Warburg, 1956 ; Matthee R., *Op. cit.*, p. 28-29 ; Dumazedier J.et Ripet A., *Op. cit.*, p. 259, 275-277 ; Carlier O., *Op. cit.*, p. 978-979 ; Belaïd H., *Op. cit.*, T.1, p. 53-58. voir aussi : Delvau A., *Histoire anecdotique des cafés et cabarets de Paris*, 1862 ; Tosca F., *Histoire des cafés de Paris*, Paris, Firmin Didot, 1934.

تتعلق بمناطقهم، كما يتحدثون عما شاهدوه أو بلغهم بالجهات التي مروا بها. ولعل ذلك ما جعل "أحاديث المقاهي" وسيلة هامة للاتصال، رغم اختلاف الروايات وما يصاحبها من تحريف ومبالغة وإضافات. وأشار الحشايشي إلى "التحدث بالأخبار المضرة بالأعراض وأخلاق الناس والحكايات الموضوعة التي لا يقبل العقل تصورها"، لا سيما بالنسبة إلى فئة "الحشاشة". ولهذا أصبح المقهى وسيلة إعلامية مهمة، إذ كان ميدانا لتجميع المعلومات وصنع البعض منها وإعادة ترويجها. وأدت هذه المؤسسة إلى توسيع دائرة انتشار الخبر بأحياء القيروان، ومكنت الأهالي من مواكبة الأمور الطارئة سواء بقيادتهم أو بالمناطق الأخرى[47].

ومثلت بيوت القهوة وكرا لما تسميه الوثائق آنذاك "الفساد" أو "أخبار الزور" أو "الكلام الخبيث"، خاصة أثناء الأزمات وسنوات الاضطراب والمجاعة التي يبرز خلالها دور "غوغاء الرعاع" حسب المصادر. فقد كانت ولا تزال فضاء عموميا للمعارضة السياسية لأنها ملائمة لإعداد تمرد الجنود منذ العهد العثماني الأول، واعتبرت مجالسها مناسبة لانتقاد السلطة وأعوانها وصنع الإشاعة والأقاويل ونشرها. وتفطن الرحالة الأجانب إلى تلك الوظيفة السياسية، بينما حبذ مؤرخو البلاط الصمت عنها حتى أثناء الظروف الحرجة. ولعل هذا ما يفسر شدة بغض علي باشا لعادة "جلوس المقاهي"، رغم قوة جهاز الجوسسة في عصره[48]. ولهذا كانت "القهاوي" ميدانا لمتابعة الأوضاع الأمنية والحياة السياسية والاجتماعية، فالحرفاء يتحدثون عن أوضاع السوق وسياسة البايليك والإجراءات المعتمدة، ويتناولون أخبار الأمحال وتنقلاتها. ويتتبعون سيرة أعوان المخزن وبطانتهم خاصة القاضي والقايد والخليفة والمشائخ والملتزمين، ويبسطون الوقائع والحكايات حول تجاوزاتهم ومؤامراتهم وحتى حياتهم الخاصة. ويتناقلون الروايات والأراجيف حول قطاع الطرق ومعارضي السلطة وكيفية تصديهم لممثليها، ولعلهم كانوا يبالغون في وصف جرأتهم وأعمالهم. ولا ننسى أن عديد الأهالي ألصقت بهم تهمة "الفساد على الشيخ" أو "الفساد على القايد" أو "نشر أخبار السوء"، وعوقبوا لأجل ذلك بغرامات مالية متفاوتة[49].

وأعتقد أن المقاهي دعمت دور عامة الناس في صنع الأحداث بالمدن، ما دامت توفر مجالا قارا للاجتماع والتباحث في شتى المواضيع حتى المحرمة منها. ولعلها تتحول أثناء الفترات المتأزمة إلى غرفة عمليات ناجعة، إذ يتولى الحركيون بحث الوضع العام وإعداد ردود الفعل

---

[47] الحشايشي، ن. م.، ص153؛ أ. و. ت.، ملف 187، حافظة 17، وثيقة 71، 73، 77، 83، 85، 97، 210...الخ، ملف 188، حافظة 17، وثيقة 50، 55، 58، 73...الخ؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص 187؛

Gall J., *Op. cit.*, p. 44 ; Chardin J., *Op. cit.*, vol. 4, p. 57-58 ; Agéron Ch. R., *Les algériens musulmans et la France (1871-1919)*, Paris, 1958, T. 2, p. 1182-1189 ; Matthee R., *Op. cit.*, p. 23-25.

[48] ابن يوسف، ن. م.، ص95. واقترنت صورة القهاوي في العصر الحديث أيضا بمعارضة السلطة حتى داخل المجتمعات الأوروبية، وكان لها دور كبير في تطوير وعي العامة وبناء مواقف مناهضة للوضع السائد. راجع :

Lemaire G.-G., *Cafés d'autrefois*, Paris, 2000, p. 97-155 ; Tućhscherer M., *Op. cit.*, p. 40 ; Goushegir A., *Op. cit.*, p. 58-70.

[49] أ. و. ت.، ملف 187، حافظة 17، وثيقة 75-77، 83، 85، 98-100، 110...إلخ، ملف 188، حافظة 17، وثيقة 55، 57، 59، 75، 87، 100، 118...إلخ.

المناسبة. وشكلت حلقات القهوة عاملا إيجابيا لمواكبة آخر التطورات وتنسيق التحركات، رغم الرقابة المشددة التي تفرض عادة على الأماكن العامة في مثل تلك الظروف[50].

وكون رواد المقاهي قاعدة اجتماعية فاعلة بالقيروان أثناء القرن التاسع عشر، إذ تعاطفوا مع ضحايا القمع وذادوا عن حرمة جوامعهم وأضرحتهم. فعلى سبيل المثال قام العامة بالدور الرئيسي سنة 1249 هـ/1833-1834 في قضية بعض أهل مساكن الذين لجأوا إلى مقام أبي زمعة البلوي : فقد "افتكوا الهاربين قهرا" واطردوا المخازنية، وأجبروا الأعيان تحت تهديد السلاح على مساندتهم. وساهم ذلك التحرك في وقوع "محنة أهل القيروان" إذ أرهقهم الوزير شاكير صاحب الطابع بالخطايا، إضافة إلى سجن كافة الضالعين في الأحداث والتنكيل بهم[51].

وكان "للقهاوي" وروادها خلال فترة 1863-1864 دور بارز إثر مضاعفة المجبى، والراجح أنها أضحت رافدا وسندا للأصوات المعارضة داخل الجوامع لسياسة النهب الجبائي والاستبداد. ويبدو أنها شهدت نقاشات مطولة، وتحولت إلى ميادين للتحريض وإعداد التمرد. وأعتقد أن تلك الحوارات ساعدت على متابعة الوقائع والشائعات، كما بلورت موقف الرفض والإجراءات العملية لتكريسه. ولهذا تأكد التحالف بين المحرم والمقدس في تلك الظروف الصعبة، لا سيما أن "ثورة العروش" شجعت عامة أهل القيروان على المجاهرة بالعصيان واستهداف رموز المخزن خاصة القايد[52]. وتجمع المصادر حول التحالف التلقائي الذي تم بين عروش جلاص الثائرة و"سفهاء" القيروان أي عامة أهلها، إذ شاركوهم في حصار دار كاهية الوجق التي لجأ إليها القايد (المملوك رشيد). ورفعوا شعارات التحدي وتهجموا على أعوان السلطة وكافة الداعين إلى التهدئة، ولم يسلم الفقهاء بما فيهم الشيخ محمد بن بكار الصدام إمام الجامع الكبير من الاتهامات والإهانة. والراجح أن المقاهي تحولت آنذاك إلى مراكز للاجتماع ومتابعة المستجدات والدعوة إلى الثورة، لأن الفئات الفقيرة والمهمشة هي التي تحملت العبء الأكبر في تلك الأحداث الهامة[53].

---

[50] أ. و. ت.، دفتر 120، ص 80-81؛ ملف 187، حافظة 17، وثيقة 35 : 7 ذي القعدة 1280هـ، وثيقة 37 : 20 ذي القعدة 1280هـ، وثيقة 43 : 19 جمادى الأولى 1281هـ؛ ابن يوسف، ن. م.، ص59-70؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص 187-188، ج 5، ص 121، 140-142.

[51] أ. و. ت.، دفتر 2347، دفتر 2348، ملف 42 وثيقة 187؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص185-188؛ مبروك جباهي، سيرة الوزير المملوك شاكير صاحب الطابع : الاستراتيجية الاجتماعية والدور السياسي، ش. د. م.، (مرقونة)، الجامعة التونسية، 2002، ص 53-50.

[52] أ. و. ت.، ملف 187، حافظة 17، وثيقة 37 : 20 ذي القعدة 1280هـ، وثيقة 39 : 15 ذي الحجة 1280هـ، وثيقة 41 : 3 ذي الحجة 1281هـ، وثيقة 43 : 19 ذي الحجة 1281هـ؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 5، ص 120، 140-142؛ توفيق البشروش، ربيع العربان، أضواء عن أسباب ثورة علي بن غذاهم سنة 1854، ، تونس، 1991، ص11-18 :

Ganiage J., *Op. cit.*, p. 149-151, 187-202 ; Slama B., *L'insurrection de 1864 en Tunisie*, Tunis, 1967, p. 3-18, 25-28.

[53] أ. و. ت.، ملف 718، حافظة 17، وثيقة 37، 39، 43؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 5 ص 140-142. يعتبر التآزر بين القيروانيين وأهل البادية من الثوابت منذ العصر الوسيط، رغم بعض الانتكاسات الظرفية التي لها مبرراتها. راجع : برنشفيك، ن. م.، ج 2 ص 395-396؛ ابن يوسف، ن. م.، ص 29-31، 64-65، 70-71؛ لطفي عيسى، عروش

• **ب . انتشار ظاهرة التدخين**

إن النص المقدس لا يتناول بصفة معلنة التدخين لأن التبغ لم يكن شائعا بشبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام، ولهذا لم يرد تحريمه أو منعه بصفة صريحة سواء في القرآن أو السنة. وأدى ذلك إلى اختلاف واضح بين فقهاء العصر الحديث، لا سيما أن الدولة العثمانية واجهت أحداثا وتحديات جسيمة منذ أواخر القرن السابع عشر. ويبدو أن العلماء تأثروا بالموروث الفقهي الذي تناول المسألة منذ العهد المملوكي، مثلا فتاوى ابن تيمية والزركشي وغيرهما. واعتبر غالبهم أن "الدخان" بدعة ورائحته كريهة واستهلاكه كفرا. وصدرت الأوامر منذ عام 1627 بمنع زراعته وتجارته واستهلاكه. وبلغ التشدد أقصاه إثر أحداث سنة 1633 إذ أغلقت عديد المقاهي وأقرت عقوبة الإعدام ضد المخالفين، ونفذت تلك الإجراءات أحيانا بحزم وقسوة مثلا في أدرنة[54]. لكن بعض الفقهاء حللوا التدخين ونوهوا بمزاياه، مثلا المفتي محمد بهائي أفندي الذي تم عزله سنة 1634. واشتهرت الطرق الصوفية المحبذة للقهوة داخل الأناضول باستهلاك الحشيش، لأنه يتماشى في الغالب مع أجواء الزاوية ونفسية المريدين و"الفقراء". وكانت بيوت القهوة منذ ظهورها ميدانا رحبا للتدخين، حيث كان الجمع بين فنجان القهوة ونكهة التبغ من الأمور المفضلة لدى العديد من الناس. وتجمع المصادر حول هذه الظاهرة داخل المجال الإسلامي، لأنها تعد من مقومات "القهاوي" ومميزاتها. وتغنى بعض فقهاء المشرق بمجالس القهوة و"غليون التبغ"، مثلا الشيخ عبد الغني النابلسي أو شهاب الدين الخفاجي وغيرهما. ولعل ذلك الواقع هو الذي جعل قسما من العلماء يبيحون التدخين، خاصة أن القرآن أكد بصفة عامة على منافع نباتات الأرض[55].

جلاص عبر مراسلات العمال والدفاتر الجبائية والمصنفات التاريخية في عهد محمد الصادق باي، ش. ك. ب. (مرقونة)، الجامعة التونسية، 1987؛

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 17 ; Ganiage J., *Op. cit.*, p. 193-220 ; Slama B., *Op. cit.*, p. 25-28 ; Kerrou M., *Op. cit.*, p. 72-73 ; Miège J. L., « Documents inédits sur l'insurrection de 1854 », in *Etudes d'histoire contemporaine tunisienne (1845-1871), Revue Etudes et documents*, n° 5, Université de Provence, p. 101-117.

[54] تصدى عديد الفقهاء لاستهلاك الحشيش منذ العصر الوسيط وبينوا مضاره بالنسبة إلى الفرد والأمة، وأطلقوا عليه اسم "اللقمة الملعونة" أو "لقمة الفسق". كما تعرضت أحياء الآستانة المبنية بالأخشاب في عام 1533 إلى حريق هائل، وأدى ذلك إلى تنظيم حملة ضد المدخنين والمقاهي. راجع حول هذا الموضوع : تقي الدين أحمد بن تيمية، الفتاوى الكبرى، القاهرة، 1329هـ، ج 4 ص253-254؛ الإمام بدر الدين الزركشي، زهرة العريش في تحريم الحشيش، تحقيق السيد أحمد فرج، المنصورة، 1987، ص52-59، 93-121؛ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، المطبعة المصرية، ج 4 ص 240؛ النابلسي، ن.م.، ص 10 وما يليها، نفسه، الحقيقة والمجاز، مخ AMSS 219 بتونس، ج 1 ورقة 50-51؛ عادل رسلان، حكم تناول المخدرات والمفترات وتداولها في التشريع الإسلامي والقانون، القاهرة، 1405هـ؛

Mantran R., *Op. cit.*, p. 261-262 ; Georgeon F., *Op. cit.*, p. 43 ; Inalcik H., « Istanbul », in *E.I.*, 1978, T. 4, p. 242-259.

[55] اشتهر أتباع فرقة الإسماعيلية الباطنية النزارية وكذلك الطريقة الحيدرية باستهلاك الحشيش والدعاية له، وألفت القصائد والرسائل في التنويه بفضائله النفسية ومدح الشيخ الحيدري مثلا أشعار محمد بن علي الدمشقي. كما دافع الشيخ عبد الغني النابلسي عن التدخين، حيث يقول في هذا المعنى ما نصه :

ويعتبر استهلاك التبغ من الأمور الموروثة والشائعة بمنطقة المغرب العربي، لا سيما أنه يمتاز بجاذبيته وسهولة ترويجه. وعرفت زراعته بالبلاد التونسية خاصة بجبال خمير وسهل مقعد ومجردة الأوسط، إذ تعودت عروش تلك المنطقة الممطرة على ظروف إنتاجه وكيفية تجفيفه. وهو نشاط ثانوي إلى جانب تربية الأبقار واستغلال موارد الغابة، وكان إنتاج هذه المادة متجها أساسا نحو الاستهلاك المحلي. وقامت السلطة أحيانا بمنع زراعة "التكروري" ومعاقبة القائمين عليه، حيث فرضت عليهم الخطايا المتنوعة وصادرت بساتينهم مثلا في سنوات 1770[56]. وتميز رأي علماء الإيالة خاصة منذ بداية القرن الثامن عشر بالتساهل والتسامح في هذا المضمار، لأنهم لم يتخذوا موقفا حازما ومتشددا فيما يخص إنتاج التبغ أو بيعه للناس. ولعلهم تأثروا بفتاوى بعض شيوخ المشرق الذين أباحوا الحشيش و"الدخان" والقهوة، كما اطلعوا على مواقف علماء المغرب الأقصى من "التبغة" التي جلبت من بلاد السودان. وحاول فقهاء المخزن الحسيني أحيانا إقناع أسيادهم البايات بإمكانية التدخين بحضورهم، وكانوا يزعمون أن أهل "المشرق يستعملون ذلك حتى في المساجد". وعارض بعض العلماء في أكتوبر 1814 عملية حرق "الدخان الأخضر" بالعاصمة، لأنها مرتجلة وسببت ضياع "أموال على أربابها" حسب مؤلف الإتحاف. بينما ذهب الشيخ بيرم الخامس إلى أبعد من ذلك، إذ قال صراحة أن التبغ "عرف بعد الاكتشاف على أمريكا... فيكون حكمه هو الإباحة الأصلية"[57].

قيـــل لي قبل هـذا الأوان	قهوة البن تحتسي في الأوانــي
مـالك الآن قد أضفت إليــها	وهي بنت الجلال شرب الدخان
قلت كانت لدي قهوة بــن	بكر أصل عريقة الإحسان (...)
ثم زوجتها بغليون تبــغ	وزففناهـما على الندمـــان
وإذا الكفؤ جاء يخطب منا	كان حتما تزويجه في العيـان
بنت ماهيتك وهو ابن نـار	ضم غليونه إلى الفنجـان...الخ.

راجع : النابلسي، الحقيقة والمجاز، ن. م.، ج 1 ورقة 50؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 2 ص115؛ الزركشي، ن. م.، ص 45-50، 89-90؛

Gall J., *Op. cit.*, p. 44, 48 ; Sonnini, *Op. cit.*,, T. 1, p. 273-274 ; Goushegir A., *Op. cit.*, p. 59 ; Khiari F., *Licite, illicite ? Qui dit le droit en Islam ? L'arrivée du café dans le monde arabe : une affaire d'Etat en 1511*, Aix-en-Provence, 2005, p. 143, 147-149.

[56] يقول محمد بيرم ما نصه : «...يستنبت في هذا الإقليم التبغ أي ورق التدخين والنشوق فأما ورق التدخين ففيه الجيد ولكنه لا يبلغ إلى أعلى نوع منه وأما النشوق فإنه أعلى من جميع أنواع ما يزرع منه في غير هذا القطر سيما ما يزرع منه في جهة باجة وتبرسق وقربة...». وكانت الإيالة خلال القرن الثامن عشر تصدر أحيانا التبغ إلى جنوة والقرنة ومالطة، وهي وضعية مغايرة تماما لما سيحدث في القرن التاسع عشر. راجع : بيرم الخامس، ن. م.، ج 2 ص117؛ أ. و. ت.، دفتر 142 ص12؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص 93؛ ابن طاهر، ن. م.، ص 144-145؛

Peysonnel, 1838, T. 1, p. 246 ; Valensi L., *Op. cit.*, p. 156.

[57] نوه الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي بالتبغ ومزاياه، وأورد في مؤلفاته عدة قصائد عن التدخين مثلا أشعار صلاح الدين الكوراني الحلبي الذي يقول :

يلومون في شرب الدخان أجبتهم	أخي لا تلمني فيه فالأمر أحوجا
ألا إن أصل الغم في غار صدرنا	عصانا فدخنا عليه ليخرجا...الخ.

وانتشر التدخين شيئا فشيئا داخل المجتمع التونسي أثناء العصر الحديث، ولذلك حرص البايليك على مراقبة بيع تلك المادة المحبذة منذ القرن السابع عشر. ويبدو أن هذه الظاهرة كانت رائجة أكثر بالجهات الساحلية مثلا جزيرة جربة ومنطقة الوسط الشرقي وقرى الوطن القبلي، وستتفاقم أكثر في القرن التاسع عشر نظرا لأعمال التهريب التي تشير إليها رسائل العمال. لكن هذه التجارة المربحة دخلت بسرعة تحت طائلة نظام الالتزام، نظرا لصعوبة تحكم الدولة في عملية ترويجها أو استيرادها. وعرف هذا الاحتكار أثناء العهد المرادي باسم "لزمة الدخان" أو "لزمة ورق الدخان"، ثم أطلق عليه في القرن الثامن عشر اسم "لزمة حانوت الدخان"[58]. وبالتالي حددت السلطة منذ البداية أماكن معينة لبيع الدخان سواء بالمدن أو الأرياف، وساعدت الملتزمين على تثمين ذلك الاحتكار والإشراف على عملية الترويج بوسائلهم الخاصة. والراجح أنها قاومت مسالك التوزيع الموازية التي يمثلها الباعة المتجولون. وكانت قيمة هذه اللزمة خلال 1677-1678 كالآتي : "وطن سوسة" 464 دينار، قيادة المنستير 168¾ دينار، صفاقس 86 دينار، جزيرة جربة 113 دينار. وشملت تلك اللزمة عدة أماكن جديدة بالتوازي مع انتشار التدخين، خاصة بعد سنوات 1815 حينما صارت مصدر ربح كبير للدولة واللزامة[59].

وضمت القيروان منذ العهد العثماني الأول حانوتا لبيع الدخان، وهو المكان الوحيد الذي انفرد صاحبه بحق ترويج ذلك المنتوج. وأوردت الوثائق مقدار التزامه مع ثلاثة احتكارات أخرى، وهي لزمة الباب ولزمة الرمانة ولزمة رحبة الطعام. وارتفعت القيمة الجملية لهذه اللزمات إلى 4500 دينار، أي ما يقابل 35%، 46 من مجموع "مجابي" المدينة في أواخر القرن

راجع : النابلسي، الحقيقة والمجاز، ن. م.، ورقة 50؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 2، ص157، ج 3، ص 93، 147؛ بيرم الخامس، ن. م.، ج 2 ص 115؛ السبتي، ن. م.، ص 59-70.

[58] أ. و. ت.، دفتر 3، ص 191، 218، 224، 227؛ دفتر 15، ص 238، 241؛ دفتر 42، ص 113، 122؛ دفتر 521، ملف 424، حافظة 35، وثيقة 43 : 24 شعبان 1255هـ، وثيقة 55 : 28 جمادى الثاني 1258هـ؛ إبراهيم السعداوي، "نظام الالتزام بإيالة تونس أثناء فترة 1570-1574م"، المجلة التاريخية المغاربية.، عدد 117 جانفي 2004، ص94-39؛ نفسه، **تطور عائلة مخزنية**، 1999، (مرقونة)، ص 791-918، 920-921؛

Peysonnel, *Op. cit.*, T. 1, p. 170 ; Bouzgarrou Larguéche D., *Territoire sans frontières : La contrebande et ses réseaux dans la Régence de Tunis au XIXe siècle*, Tunis, 2001, p. 31-32, 44, 48…etc.

[59] كانت لزمة الدخان بقيادة سوسة موزعة على خمسة مراكز : مدينة سوسة 258 دينارا، القلعة الكبيرة 100 دينارا، الكنايس 52 دينارا، مساكن 35 دينارا، ومنزل كامل 9 دينار. بينما توزعت بقيادة المنستير على أربعة مراكز : مدينة المنستير 89¾ دينارا، طبلبة-البقالطة 29¾ دينارا، المهدية 29¾ دينارا، وقصور الساف 19½ دينارا. راجع : أ. و. ت.، دفتر 1، ص 114؛ دفتر 3، ص 218، 224، 227؛ دفتر 42، ص 113، 122-123...الخ؛ ابن أبي الضياف، ، ن. م.، ج 4 ص 31؛ السعداوي، "نظام الالتزام..."، ن. م.، ص94؛ نفسه، **تطور عائلة مخزنية**، ن. م.، ص 12-17؛

Bouzgarrou Larguéche D., *Wtan Al Monastir, Fiscalité et société (16761856),* Tunis, 1993, p. 169, 178.

السابع عشر[60]. وساعد تعدد المقاهي كثيرا على انتشار ظاهرة التدخين مثلما هو الحال ببقية أنحاء العالم العثماني، نظرا لطبيعة أجوائها المرحة واختلاطها البشري.

وشكلت سوقا قارا بالنسبة إلى ملتزم الدخان الذي يؤمن احتياجاتها من التبغ، لا سيما أنه كان حريصا على توسيع دائرة استهلاك مادته بالمدينة ونواحيها لتنمية أرباحه. والراجح أن هذا اللزام كان على صلة وثيقة بأصحاب تلك المحلات، لأنها تمثل في الواقع رافدا أساسيا وامتدادا لحانوته. ولا ننسى الطرق التي اعتمدها الأمير لواء محمود بن عياد ونوابه لتثمين تلك اللزمة، حتى أنهم ضبطوا قائمات اسمية لمستهلكي التبغ في أربعينات القرن التاسع عشر. وكان التدخين أمرا عاديا لدى بعض أولياء الله بالقيروان، مثلا الولي سعد الهمامي الذي كان مبجلا لدى الباي حسين بن علي[61].

وتلمح المصادر إلى ارتفاع نسبة المدمنين على التدخين بالإيالة في أواسط القرن التاسع عشر، خاصة أن الوعي بالأخطار الصحية لتلك الظاهرة لم يكن آنذاك مطروحا. ولعل نشاط الباعة المتجولين شمل تلك المادة منذ ذلك الوقت. وتحدث الرحالة والشعراء الأجانب عن أصناف التدخين الشائعة، لا سيما ظاهرة "السبسي" (أي "الشيشة") ومميزاتها. واعتبر "سبسي الدخان" من علامات الوجاهة والثراء المادي منذ القرن الثامن عشر، إذ يتباهى الأعيان وأولادهم بذلك حتى أمام بيوتهم. وامتازت "شيشة" ذلك العصر بمواصفات خاصة، وهي لا تختلف في شيء عما كان متداولا بالمشرق. وشكلت مجالس القهوة المتنوعة أيضا مناسبة لاستهلاك التبغ وبعض الحشائش المخدرة، وهو ما يعرف باسم "الكيف" و"النارجيلة" و"التكروري"[62].

وكانت هذه النباتات محبذة لما تحدثه مؤقتا من نشوة نفسية ونسيان لهموم الحياة اليومية، وهي شائعة الاستخدام حتى لدى بعض الطرق الصوفية مثلا كالتي باليمن والمجال الهندي. ويبدو أن أصحاب المقاهي كانوا في الغالب على دراية بمسالك توزيع تلك المواد، ولعلهم حرصوا على توفيرها وحتى إخفائها لجلب الحرفاء. وتكاثر عدد "الحشاشة" بالإيالة في

---

[60] أ. و. ت.، دفتر 1، ص 810، دفتر 3، ص 191، دفتر 12، ص 145...الخ: السعداوي، "نظام الالتزام..."، ن. م.، ص93-94.

[61] كان موضع الصفصافة بالمرسى مكانا للنزهة وتعود الناس به على «...اللعب بالنرد ونحوه وسماع آلات الطرب واستعمال الدخان...»، حتى أن محمود باي كان يطالبهم بعدم تغيير تلك العادة عند حلوله صيفا بقصر العبدلية. راجع : ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص148، ج 4، ص31، 95، 144-145؛ ابن يوسف، ن. م.، ص75؛

Gall J., *Op. cit.*, p. 48 ; Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 34 ; Mantran R., *Op. cit.*, p. 255-255 ; Khiari F., *Op. cit.*, p. 137-138 ...etc.

[62] ابن يوسف، ن. م.، ص97؛ الزركشي، ن. م.، ص45-51. جرجي زيدان مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، القاهرة، 2002، ص181182-. ألمح الفرنسي شارل لاليمان إلى اهتمام الباعة المتجولين بتجارة السجائر، وذكر أن "الكيف" مستخرج من القنب ويتم تدخينه بكافة مقاهي تونس إذ يعطيه التونسيون نفس الأهمية التي يحظى بها الأفيون لدى الصينيين. كما ترك بعض الرحالة أوصافا حول الشيشة، لا سيما نيبور أنظر :

Niebuhr, *Description de l'Arabie*, Paris, 1779, T.1, p. 78-79 ; Gonzalès A., *Op. cit.*, T. 1, p. 140-141 ; Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 34, 83, 157-172 .

أواخر العهد العثماني وتعددت أماكنهم، علما أن الرحالة أشاروا إلى انتشار نفس الظاهرة بمقاهي المشرق العربي مثلا في مدن مصر والشام[63].

وكان "أدب المقاهي" يضيف نكهة خاصة إلى تلك الأجواء، لا سيما بالقهاوي الشعبية التي يتناغم روادها مع رمزية الأهازيج وأحداث الحكايات. ويتجلى ذلك "الأدب العامي" في حكايات "الفداوي" أو "المداح" وأغانيه المتنوعة، وهي مادة يغلب عليها الخيال وتستند في الغالب إلى الموروث الثقافي العربي الإسلامي[64]. ويبدو أن هذه الظاهرة عرفت نوعا من التطور في أواخر القرن التاسع، إذ صار "المداحة" بالعاصمة يمارسون نشاطهم "الفلكلوري" بالشوارع فقط[65]. بينما بقي "الفداوي" ملتصقا بالقهاوي حيث يروي التاريخ بطريقته الخاصة، وكان "موضوع تلك القصص هو التكلم عن الحروب السالفة والملوك الغابرة بأساليب كلها افتراء"، فهو "يجلس بالقهاوي العامة، ويجلس على كرسي، وبيده عصا، فيذكر القصة من أولها إلى أن يختمها، والناس حوله صاغية واعية كأنما على رؤوسهم الطير". ويضيف الحشايشي في نفس السياق أن "غالب هاته القصص التي يذكرونها هي سيرة سيف اليزل، وسيرة عنترة بن شداد العبسي، وسيرة محمود بن أبي برص، وهي سير لا يوجد لها صحة في التاريخ، وتعتني الناس من العوام بهم غاية الاعتناء"[66]. وأعتقد أن مدينة القيروان وأهلها لم يكونوا بمعزل عن تلك التحولات البطيئة.

- ج . المقاهي وظاهرة الانحراف الاجتماعي

يظهر من المصادر أن بيوت القهوة شكلت منذ بداية القرن السادس مطية لعدم احترام الأخلاق السائدة، حيث كانت وكرا للانحراف حتى داخل مدينة مكة. فقد جمعت أحيانا بين الرجال والنساء وكانت مجالا لألعاب الرهن، ولم تسلم مجالسها من بعض السلوكيات المعهودة داخل الحانات. واختلف نظام عملها عما كان مألوفا بالأسواق وباقي المحلات، إذ تستقبل روادها غالبا منذ الصباح الباكر وتغلق أبوابها بصفة متأخرة خاصة في شهر رمضان وفصل الصيف. ولهذا فهي مهيأة لانتشار الانحراف الاجتماعي، نظرا لتنوع روادها وأجوائها

---

[63] الزركشي، ن. م.، ص 47–48، 89–90؛ الحشايشي، ن. م.، ص153. اندهش شابرول الذي رافق الحملة الفرنسية سنة 1798 على مصر من انتشار استهلاك المخدرات بقهاوي القاهرة :

Chabrol, 1826, vol. 18, p. 160, voir p. 159, 161-162.

[64] كان المداح عنصرا أساسيا بجميع مقاهي المشرق العربي، ويطلق عليه أيضا اسم الحكواتي.

Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 79 ; Gall J., *Op. cit.*, p. 147 ; Goushegir A., *Op. cit.*, p. 59-70, 72, 75, Deguilhem R., *Op. cit.*, p. 133-137.

[65] يعرف محمد بن عثمان الحشايشي "المداحة" بقوله : «...وهم طائفة من أهل الغرب أيضا بيدهم آلة تشبه العود يسمونه القنبري، يقفون في الشوارع وتطوف بهم السفلة من رعاع الناس، فيذكرون غزوات عن الصحابة، كلها افتراء، لجهلهم بعلم السير، ويعطونهم جانبا من الدراهم...» . الحشايشي، ن. م.، ص 253.

[66] الحشايشي، ن. م.، ص 253.

المرحة والصاخبة[67]. وكانت تلك الظواهر متفشية بمقاهي المدن العربية وحتى الإيرانية، حسبما يظهر من مشاهدات الرحالة منذ القرن السابع عشر.

وشاهد العياشي بأسواق القاهرة أناسا "يشربونها في أماكن معدة لذلك مع فرقة قل ما تخلو من لهو وحضور مثل من لا يحل حضوره من الجواري والمرد فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة"[68]. وتحدث "سونيني" والألماني ويلد عن العالمات والغلمان بالمقاهي المصرية، وذكر الأسير الإيطالي "بانتي" في وصفه لمدينة الجزائر أن المرأة اقتحمت المقهى. وكان الرقص والغناء إعلانا عن تغير طبيعة تلك الأماكن، إذ صارت رمزا للشهوة والأحلام وتجاوز الكبت. وشكل ظهور الراقصات والمغنيات تجاوزا للأخلاق الاجتماعية السائدة، لأنهن تحاولن الترفيه عن الرجال أحيانا بمشاهد فاحشة وشهوانية[69]. وعاين لويس فرانك في أواخر القرن الثامن عشر تلك الظاهرة بحاضرة تونس خاصة أثناء شهر رمضان، ولعلها كانت شائعة ببقية المدن الكبرى مثل القيروان[70].

وساهمت بعض المقاهي أثناء النصف الثاني للقرن التاسع عشر في انتشار عدم الأمن والانحراف بالقيروان، إذ وسعت دائرة الدعارة وشرب الخمر خاصة بالأرباض والأماكن البعيدة عن الأسواق. ولم تعمل السلطة الحسينية بجدية على اجتثاث تلك الظواهر، رغم إجراءات الردع الصارمة نسبيا التي طبقت حتى بداية القرن التاسع عشر. وأجمعت المصادر على تجاوزات "السكارى من الجند وغيرهم في الطرقات" خاصة أيام الأعياد، "لأن أحسنهم حالا من يقصر على مجرد العربدة ورفع الصوت بالغناء" حسب رواية مؤلف الكتاب الباشي[71].

---

[67] الجزيري، مخ 12153، ورقة 27-31؛ الحشايشي، ن. م.، ص153؛ الأرناؤوط، "من التاريخ الثقافي للقهوة..."، دراسات تاريخية، عدد 71-72، كانون الأول 2000، ص123-133؛

Gall J., *Op. cit.*, p. 44 ; Monchicourt Ch., *Op. cit.*, p. 115 ; Boyer P., 1953, p. 214 ; Carlier O., *Op. cit.*, p. 990 ; Chardin J., *Op. cit.*, vol. 4, p. 57, 55; Matthee R., *Op. cit.*, p. 21, 25-27, 32.

[68] العياشي، ن. م.، ورقة 93.

[69] كانت صور الراقصات وحركاتهن المثيرة مصحوبة بتغير أجواء المقهى، لا سيما أن تصرفات فئة الأتراك لا يمكن ردعها. ولهذا تتحول الأحاديث والفوضى إلى سكينة عميقة تشبه الخشوع الديني، بينما تحصر المتعة واللذة في النظر والامتناع عن الكلام. ويبدو أن إعجاب الحرفاء بالراقصة وشهرتها اقترن في الغالب بمدى إتقانها لفنها وحركاتها، إضافة إلى جمال جسدها وقدرتها على توظيف مفاتنها. راجع :

Sonnini, *Op. cit.*,, T. 3, p. 322 ; Goushegir A., *Op. cit.*; Tuchscherer M., *Op. cit.*, p. 30-31 ; Georgeon F., *Op. cit.*, p. 59-50; Maffesolli M., *Violence et transgressions*, Paris, 1979.

[70] راجع :

Frank L., *Op. cit.*, p. 112-113.

[71] ابن عبد العزيز، ن. م.، ص 522-524؛ أ. و. ت.، دفتر 21، ص 28؛ دفتر 45، ص 195، دفتر 120، ص 152، دفتر 205، ص 80...الخ؛ ابن يوسف، ن. م.، ص 4؛ ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص 144-145، 207؛ ابن طاهر، ن. م.، ص 140-141، 143-144؛ الإمام، ن. م.، ص308. ألمح الرحالة الأجانب إلى مظاهر الانحراف منذ بداية القرن الثامن عشر، واستغربوا من سكوت الفقهاء عنها رغم تعارضها مع الدين الإسلامي. أنظر مثلا:

Shaw M. D., *Op. cit.*, T. 1, p. 387. Voir aussi : Peysonnel, *Op. cit.*, T. 1, p. 84 ; Frank L., *Op. cit.*, p. 60-63, 112-114 ; Mac Gill Th., *Op. cit.*, p. 97.

لكن الوضعية تغيرت كثيرا بعد سنوات 1840 لعدة اعتبارات، علما أن التجار النصارى واليهود صاروا يترددون على أسواق تلك المدينة. ويبدو أن المكلفين بالأمن (المشائخ، المزوار سابقا، مجلس الضبطية) أو من يمثلهم على صلة بهذه المسألة، لأنهم مؤهلون لمعرفة مسالك الممنوعات والقائمين عليها. وأضحت بعض المقاهي إطارا سهلا لترتيب تجارة الخمر والجنس خاصة عن طريق الوسطاء، حيث يقع ضبط المواعيد مع مروجي الخمر والعاهرات. ويعد هذا التحول آنذاك ظاهرة عامة في أرجاء العالم الإسلامي، إذ تدعم الانحراف داخل جل المدن بالتوازي مع حدة الأزمة الداخلية وتفاقم التدخل الرأسمالي[72].

وأكد بيليسيي على أهمية التفسخ الأخلاقي وتردي القيم بالقيروان، علما أنه تردد عليها في عدة مناسبات خلال 1843-1848 لما كان قنصلا بسوسة. واعتبرها هذا الضابط الفرنسي أكبر مصدر "للعوالم" (ج. عالمة) رغم إعجابه بأسواقها وعمارتها الدينية ونظافة شوارعها، وكانت تلك العبارة تعني آنذاك النسوة اللاتي يتعاطين الدعارة والغناء والرقص بالأماكن العامة كالمقاهي والحفلات وغيرها[73]. وأضحى السكارى مشهدا مألوفا بالمقاهي خاصة أثناء الليل والمناسبات، وكانت تصرفاتهم تتحول أحيانا إلى تعديات وأعمال مخلة بالأمن العام. لكن السلطات المحلية لا تعيرها أهمية إلا حينما تخشى مضاعفاتها السلبية، سواء على مصالحها الفئوية أم على الوضع العام. فمثلا جاء المدعو صالح الجربي ليلة 10 ربيع الأول 1283هـ "سكرانا لقهوة بالقيروان وبيده قاربيلة معمرة بالرصاص ... وصار يتهدد على الخلق الذي بالقهوة المذكوره ويتوعدهم بالضرب والقتل ويشتم فيهم وقد تكاثر منه ذالك" حسب قول الكاهية[74]. ويبدو أن هذه الظاهرة تبقى دون ما كان عليه الوضع آنذاك بالعاصمة، نظرا لعراقة حاناتها أين كانت "تسفك الدماء... وتقتل السكارى بعضهم بعضا". وكانت مشاكل الخمارات تتواصل أحيانا بالمقاهي، خاصة أن غالب "القهواجية" يقدمون خدماتهم لهؤلاء الزبائن دون تحفظ. وأشارت بعض الفتاوى إلى نماذج من تلك الحوادث منذ أواخر القرن السادس عشر، لا سيما الشتائم وتكسير الفناجين والخصومات[75].

---

[72] أ. و. ت.، ملف 187، حافظة 17، وثيقة 79، 88، 108. لقد تظاهرت نساء إيران سنة 1880 ضد المقاهي في طهران، لأنها حسب رأيهن أفسدت الرجال ودعمت ترويج المخدرات واستهلاكها. ولعل ذلك ما دفع السلطة إلى غلق تلك الأماكن، لا سيما أنها صارت ميدانا للنقاشات والمعارضة السياسية. راجع : صلاح أحمد هريدي، الجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2004، ص 179-180؛

Pellissier, *Op. cit.*, p. 120 ; Goushegir A., *Op. cit.*, p. 57, note n° 102, p. 115 ; Pananti, 1820, p. 159, 233-235 et sq. ; Carlier O., *Op. cit.*, p. 985, 990 ; Larguèche A., *Op. cit.*, p. 289-293.

[73] أنظر :

Pellissier E., *Op. cit.*, p. 120.

[74] أ. و. ت.، ملف 188، حافظة 17، وثيقة 19.

[75] ابن عبد العزيز، ن. م.، ص 524؛ عظوم، ن. م.، ج 1 ص127. كانت هذه الظاهرة بالمدن العربية الأخرى التي بها خمارات، مثلا الإسكندرية والقاهرة وغيرهما. راجع مثلا : هريدي، ن. م.، ص77، 109-110، 113، 179-180، 198؛ العياشي، ن. م.، ورقة 94.

واستقطبت المدينة قسما كبيرا من الذين غادروا أرياف الوسط الغربي وحتى الواحات، نظرا لمخلفات اضطرابات سنوات 1860 ومضاعفات الجفاف والوباء. وكانت أحيانا مجرد نقطة عبور بالنسبة للعديد من المهمشين الذين جذبتهم مدن الشمال خاصة تونس، رغم أن هذه الأخيرة لم تعد قادرة على استيعاب الوافدين عليها[76]. وأدى هذا التحضر المأزوم إلى تضخم أرباض القيروان وبروز أحياء جديدة مثل الريض الأحمر وريض جلاص كانت بدورها وكرا لشتى الانحرافات، لا سيما أن البطالة والمجاعة والفاقة ساعدت على تفاقمها. ولم تقدر قوات الأمن على مواجهة تلك المظاهر، رغم تعدد مؤسسات الردع كالقاضي وكاهية الوجق ومجلس الضبطية ومجلس الجنايات. وكان تعدد الخلفاء وتنافسهم بالمدينة من بين أسباب ذلك التسيب والانحراف، إذ هنالك خليفة الوسالتية وخليفة الموانسية وخليفة زواوة وخليفة دريد وخليفة الجرابة...الخ[77].

ويبدو أن القائمين على الزوايا لم يتصدوا بقوة لهذه المستجدات، لأن العاهرات وجدن في تلك الأماكن ملاذا آمنا وفضاء رحبا لارتكاب المحظور. ولا ننسى أن لذة الجنس اعتبرت مكملة للتجربة الروحية وضرورية لزعماء التصوف و"الفقراء"، وهو ما يفسر شيوع "الفاحشة" والمعاملة المريبة للنساء داخل الزوايا منذ العهد الحفصي. لكن الذاكرة الشعبية حرصت على إخفاء تلك السلوكيات، وأدرجتها ضمن "فضل" أولياء الله و"كراماتهم". واشتهر بعض صلحاء القيروان بالتخريب وإسقاط التكليف، لا سيما سيدي على العيوني (ت. 1626) وخليفته سعيد الوحيشي (ت. 1689). كما تحولت زيارة بعض الزوايا إلى مناسبة لاختلاط الجنسين ومطية للفسق حتى بالنسبة للمحصنات، ولعل الاعتقاد في "بركة" الولي هو الذي جعل العامة يتقبلون هذه الممارسات ويبررونها في غالب الأحيان[78]. وشاعت هذه المواسم و"الزيارات" ببقية المجال العثماني، وكانت تجلب إليها جموعا غفيرة من الناس مثلا بولايتي

[76] تعتبر زيادة نسبة التحضر منذ سنوات 1830 ظاهرة عامة بالمغرب العربي، واستعرض مؤلف الإتحاف بأسلوب حزين أحوال أهل البوادي الذين ضاقت بهم السبل بحاضرة تونس في بداية عهد محمد الصادق باي. راجع : ملف 187، حافظة 17، وثيقة 63 : 23 محرم 1282هـ، ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 6، ص 104-106؛

Ganiage J., *Op. cit.*, p. 187-193 ; Slama B., *Op. cit.*, p. 145, 171 ; Larguèche A., *Op. cit.*, p. 290-293.

[77] أ. و. ت.، ملف 188، حافظة 17، وثيقة 19 : 11 ربيع الأنور 1283هـ، وثيقة 57 : 24 شعبان 1283هـ؛ العشي، ن. م.، 5198، ص 88-37؛ البشروش، ن. م.، ص 18-28.

[78] ذكر الكناني في ترجمته للشيخ سعيد الوحيشي ما نصه : «...أتاه رجل من أحفاد الشيخ الهاني بزوجته في هودج طالبا للذرية فلقيها الشيخ خارج القيروان فأنزل المرأة من الهودج وصرعها وصار يمعكها بيده ورجليه فأخذ زوجها ثوبا وألقاه عليهما (...) ثم قام الشيخ وكشف عورته للحاضرين فاذا هو ليس له ذكر وانه مجبوب...»، الكناني، 7019، ص 70. راجع أيضا : عمر بن على الراشدي الجزائري، مناقب سيدي أحمد بن عروس، مخطوط رقم 6170، المكتبة الوطنية تونس، ورقة 39، 76-77، 99، 115؛ مناقب الوحيشي، مخطوط رقم 16793، المكتبة الوطنية تونس، ورقة 26-27؛ المنتصر بن المرابط بن أبي لحية القفصي، نور الأرماش في مناقب القشاش، تحقيق لطفي عيسى وحسين بوجرة، تونس 1998، ص304؛ عيسى، ن. م.، ص 448-470؛

Bachrouch T., *Op. cit.*, p. 102, 132 ; Kerrou M., « Sainteté, Savoir…», *Op. cit.*, p. 224-232.

مصر والشام. ولم يتورع العلماء والأعيان عن حضورها والاستمتاع بأجوائها، ولعل ذلك ما دعم استباحة "المحرمات" حتى في المقابر وحرم الزاوية[79].

وعبر كاهية المدينة مرارا عن تذمره ورغبته في اجتثاثها، لأن تلك الظاهرة شملت حتى المتزوجات. وفي هذا السياق ذكر الكاهية محمد بن ونيس في غرة جمادى الأولى 1283 هـ مخاطبا الوزير المملوك رستم ما نصه: "إن بعض النسوة من ذوات الأزواج لما يردن الفساد يتحصنون بزوايا القيروان ويفعلن فعل السوء ولم يقدر أحد على خروجهن من الزوايا وقد اشتكوا بعض الناس من هاته النازلة مما لحقهم من الضرر لأجل افساد النسوة وطالبين الفضل من السيادة أن تتفضل عليهم بالأمر العلي المطاع أن النسوة ذوات الأزواج والايماء منهن من ذوات الاقرار اذا تحصنوا بالزوايا يخرجهن أزواجهن أو يثقهن بالحديد"[80].

ويبدو أن هذه الظاهرة كانت عامة خاصة بالمدن الهامة ما دام "الفسق يوجد في أشرار كل بلاد" حسبما عاينه محمد الحشايشي، لكنها تفاقمت بالتوازي مع الأزمة الاقتصادية الحادة التي ألمت بالبلاد إثر سنوات 1850. واعتبرت زيارة الأضرحة إحدى الحيل الشائعة التي تلجأ إليها المرأة آنذاك للخروج من بيتها وتنفيذ مغامراتها العاطفية، ويصح ذلك حتى بالنسبة لنساء علية القوم حسب مشاهدات بعض الرحالة الأجانب ورواياتهم[81].

- **د. المقاهي مطية للارتزاق**

إن الجوانب الآنفة الذكر لا تمثل الصورة الكاملة للمقاهي في العهد العثماني، سواء بالقيروان أو غيرها من المدن التونسية. فقد امتازت بيوت القهوة منذ ظهورها بتعدد وظائفها، رغم أنها اقترنت لدى غالب الناس بفكرة ملء الفراغ. وهي لا تعني دائما الترفيه و"قتل الوقت" حسب المثل الشائع، بل تستجيب لاهتمامات متباينة ومتشعبة أحيانا نظرا لاختلاف أوضاع روادها وطموحاتهم. والراجح أنها شكلت في سنوات 1860 نقطة التقاء للمهمشين الذين قاموا بأعمال السرقة ونهب الديار، ولم يخف أعوان البايليك حالة انهيار الأمن بأحياء المدينة. وذكر كاهية الوجق في 11 رمضان 1282 هـ/جانفي 1866 أنه وجد "أحوال المدينة... غير منضبطة وتكاثرت بأسواقها وبديارها السرقات"[82]. وبالتالي يمكن القول إن بيوت القهوة ساهمت بصفة غير مباشرة في انعدام الأمن، خاصة زمن المجاعات والاضطرابات.

ويبدو أن المقاهي شكلت منذ ذلك الحين فضاء اقتصاديا، ولا تزال هذه الظاهرة العريقة إحدى مقوماتها لحد اليوم. فهي بوابة للبحث عن الشغل بالنسبة للعديد من الرجال لا سيما العاطلون والنازحون الجدد، إذ كانوا يقصدونها طلبا للعمل والتعريف بأنفسهم

---

[79] أشار الجبرتي في يومياته بدقة إلى تلك المناسبات، مثل حديثه عن موسم الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام العفيفي، أنظر: الجبرتي، ن.م.، ج 1، ص 304.

[80] أ. و. ت.، ملف 188، حافظة 17، وثيقة 53.

[81] الحشايشي، ن.م.، 1994، ص 178؛

Frank L., *Op. cit.*, p. 112 ; Pellissier E., *Op. cit.*, p. 51.

[82] أ. و. ت.، ملف 187، حافظة 17، وثيقة 100.

ومهاراتهم. وتتناول جلسات القهوة في هذه الحالة أخبار التشغيل وفرص الرزق المتوفرة بالمدينة، وتنشأ عنها في الغالب علاقات ذاتية ومهنية. والراجح أن لصاحب المقهى وأعوانه دورا كبيرا في هذا المجال، نظرا لموقعهم الاجتماعي ومعرفتهم بأصحاب الأعمال وتشعب علاقاتهم. وتتحول "القهاوي" أحيانا خاصة يوم السوق الأسبوعية إلى منتدى لوجهاء المال، إذ يتقابل بها التجار والملتزمون والوكلاء لمتابعة أشغالهم وإتمام معاملاتهم[83]. كما تمثل هذه الفضاءات مجالا لبيع العقارات والتركات وممارسة بعض الأعمال خاصة المهن الصغرى وبعض "الخدمات" اليومية، لأنها ميدان رحب أمام السماسرة والبائعين المتجولين والمهتمين بالربا وغيرهم. فهم يعرضون بضاعتهم وخدماتهم على الناس، ويعقدون صفقاتهم داخل المقهى أو خارجه. وتضفي تلك المشاهد المختلفة والمميزة على المقاهي رونقا خاصا، نظرا لما يصاحبها من حوار مرح وفوضى مع الحرفاء[84].

خاتمة

شكلت القهوة والمقاهي جزءا من الحياة اليومية بالقيروان وغيرها من مدن الإيالة خلال العصر الحديث، وكان للعثمانيين فضل كبير في نشر تلك الظاهرة على نطاق واسع منذ بداية القرن السابع عشر. ولا تزال بعض "القهاوي" تحظى بمكانة مميزة لدى قسم من الحضريين لأنها تجسد في نظرهم الطابع "التركي"، إضافة إلى كونها شاهدا حيا على عز ضائع وهوية مفقودة مثلما هو الحال بمدينة المهدية. وبالإضافة إلى تعدد وظائف "القهاوي" وأبعادها، فإن الشراب الأسود تم توظيفه أيضا لأجل غايات تبدو بعيدة عن المجالات التي تطرقنا إليها. فقد أشار الرحالة إلى "القهوة السيئة" le mauvais café التي استخدمت عادة للتخلص من الأعداء والخصوم، وهي وسيلة شائعة تتوخاها السلطة آنذاك للقضاء على معارضيها البارزين. ولعل الأهالي كانوا يلجئون أيضا إلى نفس الطريقة في بعض الأحيان لفض خلافاتهم، خاصة أن سجلات الدوايا تلمح إلى الأشخاص الذين ماتوا "مطعومين" أو مسمومين[85]. ولئن تفاوتت أهمية بيوت القهوة من حاضرة إلى أخرى، فإن أصحابها وروادها لم يكونوا على هامش الأحداث والتحولات التي شهدتها البلاد التونسية خاصة في الأعوام الصعبة. لكن تطور طائفة "القهواجية" أثناء العهد العثماني بقي غامضا لحد الآن، نظرا لصمت المصادر وندرة الوثائق التي لا تمكن من تتبع مسيرتهم ومواقفهم كغيرهم من المغيبين.

---

[83] مازالت المقاهي لحد اليوم بوابة للبحث عن العمل، إضافة إلى كونها منتدى مفتوحا لوجهاء المال. راجع :
Wilson S. G., *Persian Life and Customs*, New-York, 1973, p. 253 ; Dumazedier J.et Ripet A., *Op. cit.*, p. 254-255 ; Goushegir A., *Op. cit.*, p. 70-71.

[84] تعد المقاهي حتى الآن فضاء لعمل الوسطاء، إضافة إلى تردد أصحاب المهن الصغرى عليها. ويبدو أن تلك الظاهرة تدعمت شيئا فشيئا خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر، مثلما هو الحال ببقية المدن العربية والإسلامية. راجع :
Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 157-172 ; Carlier O., *Op. cit.*, p. 989.

[85] أ. و. ت.، دفتر 13، ص 30، دفتر 45، دفتر 120، دفتر 155 ص 155...الخ: ابن أبي الضياف، ن. م.، ج 3، ص 33-34؛ ابن طاهر، ن. م.، ص 177، 179:
Lallemand Ch., *Op. cit.*, p. 83-84 ; Larguèche D., *Op. cit.*, p. 184.

فما هي التحولات التي ستطرأ على المقاهي و"القهواجية" منذ أواخر القرن التاسع عشر حينما أضحت الإيالة محمية فرنسية ؟

حول مورد الظمآن للجودي القيرواني

محمد علي الحبيّب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان

مازالت المكتبة العربية تعاني، على الرغم من ثراء مصنفاتها، من كثرة المصادر المخطوطة والمفقودة التي تنتظرا جهدا كبيرا لتحقيقها وتوفيرها لجموع الباحثين. والورقة التي نقدمها تهتم بمصدر من نوع التراجم مازالت مادته ومعلوماته التاريخية، على حسب معلوماتنا الأولية، غير مستغلة في الدراسات المشتغلة على مدينة القيروان ومجالها، سواء كانت هذه البحوث تاريخية أو أثرية أو أنتروبولوجية... بما أن المعلومات التي يحتوي عليها هذا المصدر، على نحو مثيله من كتب الطبقات والتراجم ثريّ بالمعطيات التي تتقاطع مع اهتمامات ومجالات العلوم الآنفة الذكر.

يحمل المخطوط موضوع هذه الورقة، عنوان "مورد الظمآن في ذكر المتأخرين من فضلاء القيروان"[1]، وهو لصاحبه محمد الجودي القيرواني. وحينما نتوقف عند عنوان الكتاب وترجمة صاحبه، دون الغوص في مادته، يذهب بنا الاعتقاد أن المصدر يتعلق بترجمة لفضلاء وعلماء القيروان المتأخرين، في حين أن الأمر، على ما سنتبين لاحقا، يتجاوز هذا الانطباع الأولي الذي يحيل عليه عنوان المخطوط و الزمن الذي عاش فيه المؤلف.

ماذا عن نسخة المخطوط؟

مثلما درجت عليه العادة في مثل هذه المساهمات التي تتعلق بتقديم مخطوط غير معروف في صفوف الباحثين، سيكون العنصر الأول تعريفا للنسخة التي اشتغلنا عليها. وأولى الملاحظات في هذا السياق هو أن النسخة المعروضة في مكتبة مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان هي نسخة مصورة عن أصل أهداه أحد سكان مدينة القيروان لهذا المركز منذ بضع سنوات، لم نستطع التعرف لا عن صاحبها ولا إلى تاريخ إهدائه[2]. أما الملاحظة الثانية فهي في علاقة بعدد أجزاء المخطوط وهو معطى يتقاطع مع محور الندوة الذي يرنو إلى البحث عن المكتشفات والمقاربات الجديدة التي تهم القيروان ومجالها من الفترات القديمة إلى حدود

---

[1] ورد لفظ "الظمآن" في النسخة التي اشتغلنا عليها بالضاد "ض" و ليس بالظاء "ظ".

[2] هذه النسخة غير مرقمة وهي معروضة في إطار زجاجي بقاعة مكتبة مركز الدراسات الإسلامية بجانب مخطوطات أخرى أغلبها كتب من القرآن الكريم.

الفترة الاستعمارية. فالمعروف إلى حدود هذا الملتقى العلمي أن لـ "مورد" الجودي القيرواني جزء موجود وآخر مفقود. يذكر محمد محفوظ في ترجمته للكاتب وتقديمه لمؤلفاته أن "مورد الظمآن" في جزئين : "الجزء الأول منه بمكتبة الأستاذ إبراهيم شبوح وربما كان بخط المؤلف، والجزء الثاني في حكم المفقود"[3]. لهذا فإن من مزايا النسخة التي وجدناها هو احتواؤها على الجزأين، ونتبين ذلك من خلال الديباجة التي تتصدر الجزء الثاني والتي يقول ناسخها : "الجزء الثاني من كتاب مورد الضمان (هكذا) في ذكر المتأخرين من فضلاء القيروان تأليف العلامة الهمام الشيخ سيدي محمد الجودي الباش فقيه بمدينة القيروان فتح الله الأنام بوجوده و أفاض علينا من ينابيع جوده". و قد بحثنا في مخزون المكتبة الوطنية التونسية عن تآليف محمد الجودي القيرواني فلم نعثر له إلا على تأليف وحيد هو "تاريخ قضاة القيروان"[4]، في حين أن "المورد" و"مجموع الفتاوى" غير موجودة.

يبلغ عدد أوراق الجزء الأول من النسخة الموجودة بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان مائة وسبع من الحجم الكبير إضافة إلى صفحة أخرى وجدناها في ثنايا الكتاب يبدو من خلال مادتها أنها الأخيرة منه وهي بالتالي في غير موضعها. أما الجزء الثاني فعدد أوراقه تسع وعشرون، وكل ورقة تتألف من صفحتين[5]. يتجاوز عدد الأسطر في كل صفحة الثلاثين وهو أمر يعسّر القراءة بالنظر إلى رداءة نسخ العديد من الأوراق.

بالنسبة للخط فهو من النوع المغربي بعضه يقرأ بسهولة واليعض الآخر عسير القراءة، ويبدو أن النسخة المتوفرة مكتوبة على فترات متباعدة نسبيا ونستنتج ذلك من خلال سمك الأحرف الذي يؤكد أن الناسخ، الذي لا نعرف عنه شيئا بالنظر إلى الحالة التي عليها المخطوط، استعمل عدة أقلام أثناء الكتابة[6]. كما أن اختلاف الخط بين الجزأين قد يكون دليلا على ما ذهب إليه محمد محفوظ من أن الجزء الأول هو بخط الجودي نفسه، في حين أن الجزء الثاني هو بغير خط ناسخ الجزء الأول بما أن ديباجته، المشار إليها آنفا، ذُيّلت بتعريف موجز للكاتب ذكر فيه الناسخ تاريخ وفاة محمد الجودي.

---

[3] محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، 1988، ج 2، ص 70-71. وجبت الإشارة إلى أن محمد محفوظ لا يذكر هل اطلع على الجزء الأول الموجود بمكتبة إبراهيم شبوح أم لم يطّلع.

[4] مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 18397 ويحتوي على 53 ورقة وناسخه الطاهر بن محمد العروسي الغرياني. هذا الكتاب تم تحقيقه مؤخرا من طرف الأستاذ أنس العلاني : الجودي القيرواني، تاريخ قضاة القيروان، تونس، بيت الحكمة، 2005.

[5] تقتضي المنهجية العلمية عند التقديم المادي للمخطوط ذكر أبعاد أوراق النسخة : الطول والعرض وإطار النص ...، غير أن الأمر ليس له أهمية بالنسبة للمصدر موضوع هذه الدراسة بما أن النسخة المعروضة بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان هي أوراق منسوخة من الحجم المعروف بـ"A3"، و نعلم أن آلات النسخ العصرية يمكن لها أن تضخم أحيانا وتقلص في أحيان أخرى من الحجم الحقيقي للأصل.

[6] أُنظر أسفله الملاحق 1 و 2.

من هو الجودي القيرواني؟

رغم عصره القريب منا، فنحن لا نملك إلى اليوم ترجمة كاملة للجودي القيرواني، إذ أفرد له محمد محفوظ تعريفا مقتضبا في "تراجم المؤلفين التونسيين"[7]. كما وردت بشأنه إشارات في بعض الكتب و الدراسات الأخرى[8]. والمؤلف، على ما نقرأ في الصفحة "1 أ" من نسخة المخطوط، هو "محمد بن محمد صالح بن قاسم بن الحاج على بن محمد ابن الطيب ابن محمد بن سليمان ابن أحمد الجودي التميمي القيرواني". كما نقرأ في الصفحة الأولى من الجزء الثاني[9] : "وهو المولود بالقيروان في موفى شوال سنة 1278 والمتولّى فتواها سنة 1911/1329 و باش مفتي[10] سنة 1938/1357 إثر وفاة الباش مفتي الشيخ صدام يوم الجمعة في 30 ذي القعدة وفي 30 ديسمبر سنة 1938/1357 والمتوفى برحمة الله بعد منتصف ليلة الثلاثاء في 9 ذي الحجة وفي ديسمبر سنة 1943/1362". نتبين مما سبق أن الكاتب قيرواني الأصل والمنشأ والنشاط المهني، وهي خصائص تجعل من معلوماته حول القيروان أكثر أمانة إن تمت مقارنتها بتلك التي نجدها عند غيره من المؤلفين الذين لا تنتمي أصولهم إلى هذه المدينة. فقد عُرف عن الجودي، وهو الذي مارس مهنة الإفتاء، اعتناءه البالغ "بالرواية والإسناد والبحث عن الكتب النادرة، وقد جمع مكتبة نفيسة أوقفها على الجامع الكبير جامع عقبة بن نافع بالقيروان"[11].

والمطلع على مادة مورد الظمآن يستنتج بيسر سعة مصادر الجودي ونفاستها. حتى أن البعض ممن كتبوا عن حياته يؤكد أن المراقب المدني الفرنسي شارل منشيكور ما كان له أن ينجز بحثه عن الطريقة الشابية بالقيروان لولا استفادته من المعلومات التي استقاها من عند محمد الجودي[12]. لأجل كل هذا نعتبر، ومن دون أي مبالغة، أن الانتباه إلى مادة الكتاب يُعدّ ضروريا للبحوث التي ستشتغل من هنا فصاعدا على مجال مدينة القيروان، والمعطيات التي سنأتي على ذكرها ربما تكون حافزا يشجع الباحثين على قراءة هذا المصدر واستخراج مادته العلمية لاستغلالها في الدراسات المقبلة[13].

---

[7] محمد محفوظ، ن. م.، ج 2، ص 70.

[8] أُنظر مقدمة محمد العنابي محقق تكميل الصلحاء : الكناني القيرواني، **تكميل الصلحاء و الأعيان لمعالم الإيمان**، تونس، المكتبة العتيقة، 1970؛ أنس العلاني، "من تاريخ القضاء والقضاة بمدينة القيروان"، في **التنوير**، 1995-1997، ع 3، ص 51-73 ;

A. Abdessalem, *Les historiens tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe siècles : essai d'histoire culturelle*, Paris, 1973, p.334 (note 3).

[9] هي صفحة غير مرقمة في نسخة المخطوط.

[10] هي خطة رئاسة الإفتاء.

[11] محمد محفوظ، ن. م.، ج 2، ص 70.

[12] ن. م.، ج 2، ص 70.

[13] تناهى إلى مسامعي عند إعداد هذه المداخلة أن هناك باحثا من القيروان بصدد تحقيق هذا الكتاب وهو لعمري أمر يسر جميع الباحثين نظرا لما يمكن أن يوفره هذا الانجاز من عناء لجملة الباحثين. كما أتمنى أن يتمكن من

بعض الملاحظات عن محتوى "مورد الظمآن" و مصادره

يجب الإشارة منذ البداية أن أولى غايات هذه الورقة بالتناسق مع أهداف هذه الندوة التي تنشد البحث عن مكتشفات جديدة، هي إماطة اللثام عن مصدر عُدّ إلى يومنا في حكم المفقود، أو على الأقل الجزء الثاني منه. لكن هذا الأمر لن يثنينا عن التوقف عند بعض محتويات هذا الكتاب، وهو توقف لن يدعي الإلمام بكل محتوياته بل سيكون على شاكلة ملاحظات أولية علّها تغري البحوث الجديدة بالالتجاء إلى معلومات "مورد الظمآن".

سبق وأشرنا إلى أن عنوان الكتاب يعطي انطباعا أوّليا أن الأمر يتعلق بتراجم المتأخرين من فضلاء القيروان. وإن ربطنا لفظ "المتأخرين" بعصر الكاتب فإن الأمر يتعلق على الأقل بمشاهير أعلام القيروان الذين عاشوا بداية من القرن الثامن عشر ميلادي بما أن محمد الجودي عاش بين أواسط القرن التاسع عشر والقرن العشرين. غير أن تتبع قائمة المُترجم لهم والفصل الأول للكتاب الذي يمتد بين الصفحتين "1 ب" و"16 ب" يؤكّد عكس ما يحيلنا عليه العنوان. فقراءة معطيات الفصل المعنون بـ"ذكر القيروان وما ورد فيها" يؤكد على أن فضلاء القيروان الذي أُلّف من أجلهم "المورد" هم أعلامها من زمن الفتح إلى عهد الكاتب. فما هو تعريف الجودي للفضلاء؟

الفضلاء على رأي الجودي هم "علماء و أولياء القيروان"[14] وهم أيضا "الصحابة الأعيان الذين نزلوا بأرضها"[15]، وكأننا به يريد أن يفرق بين كتابيه "المورد" و"تاريخ قضاة القيروان"، هذا الأخير الذي اهتم فيه بمؤسسة القضاء من تاريخ الفتح إلى عهده. ونعتقد أن السبب المباشر لتخصيص كتاب للقضاة هو انتماء والده لهذه المؤسسة العريقة والمؤثرة في حياة القيروان وأهلها[16]. و اعتمادا على ترتيب ورقات المخطوط كما هي عليه اليوم[17]، يبدأ قسم التراجم من الورقة 17 من الجزء الأول. وهذا الأخير احتوى على 169 ترجمة، في حين ضم الجزء الثاني 52 ترجمة موزعة على 29 ورقة، ليكون المجموع بين الجزأين 221 ترجمة. غير أن أنس العلاني محقق كتاب "قضاة القيروان" يذكر أن بـ"مورد الظمآن" 371 ترجمة[18]، و لهذا السبب اعتبر أن الجزء الثاني الموجود بمكتبة مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان منقوص[19].

الحصول على النسخة الأصلية من المخطوط وبعض النسخ الأخرى التي قد تكون مازالت محفوظة في الخزائن الخاصة لبعض العائلات القيروانية.

[14] المخطوط، ص 1 أ، السطر 11.

[15] المخطوط، ص 1 ب، السطر 23.

[16] أُنظر ترجمته : الجودي، تاريخ قضاة القيروان، ن. م.، ص 185-187.

[17] يبدو أن ترتيب صفحات نسخة مركز الدراسات الإسلامية غير سليم وهو يحتاج إلى مجهود كبير لكل من يروم تحقيق هذا المخطوط ودراسة مادته دراسة دقيقة.

[18] الجودي، تاريخ قضاة القيروان، ن. م.، ص 11.

[19] ن. م.، ص 12.

على أن السؤال الذي يفرض نفسه هو ماذا يمكن أن يوفره مصدر الجودي من معلومات جديدة خصوصا وأن كتب التراجم الكلاسيكية والمتداولة في صفوف الباحثين اهتمت بتراجم المشهورين من أهل القيروان؟

والإجابة عن هذا السؤال نجده على لسان مؤلف الكتاب نفسه. يشير الجودي في العديد من المواضع من المقدمة والفصل الأول أن مبعث تأليفه لهذا الكتاب هو محاولة تجاوز ما أغفله من سبقه ممن ألفوا في مثل هذا الصنف. فهو يقول في الصفحة 1 ب : "وقد عثرت على كثير مما أغفله الإمام ابن ناجي ومن بعده من العلماء"[20]، أي أن الجودي، وهو القيرواني الأصل، رأى ضرورة التنبيه إلى أن معالم الدباغ وابن ناجي على سبيل المثال وعلى أهميتهما[21] قد سقطت من قائمتيهما أسماء العديد من الصّلحاء والعلماء القيروانيين الذين يستحقون الإشادة بمناقبهم. كما تتمثل إضافات الكاتب في جملة التراجم التي عاصرته. ولكي يستدل على ذلك حرص منذ الصفحات الأولى على ذكر أهم مصادره التي أكّد أنه اطلع عليها مباشرة وهو ما يعطي لمُؤلّفه مصداقية إضافية، خاصة وأن البعض منها هو اليوم في حكم المفقود أو مازال مخطوطا ينتظر التحقيق والنشر. فبالإضافة إلى "معالم" ابن ناجي و"رياض" المالكي و"طبقات" أبي العرب التي اشتغل و يشتغل عليها إلى اليوم جموع الباحثين بحكم نشرها، فقد استقى محمد الجودي معلوماته من "أنس الناسك المعرب عن فضائل قيروان المغرب" لصاحبه ابراهيم بن يوسف بن عبد الملك العواني الشريف الحسيني القيرواني الذي عاش بين أواخر القرن 7 هـ/13 م وبداية القرن 8 هـ/14 م، والذي أخذ عن الدباغ ثم اعتمد عليه بدوره ابن ناجي في "الذيل والزيادات"[22]. ويبدو أن "أنس الناسك" كان متداولاً إلى حدود عصر الجودي لكننا نفتقد اليوم لمادته. كما ذكر الكاتب أنه اعتمد على تآليف ابن الكاتب، وهو محمد بن صالح عيسى الكناني القيرواني الذي عاش بين سنتي 1222 هـ/1807 م و1292 هـ/1875 م. ومن جملة كتبه لم يُنشر إلا "تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان"[23] في حين أن البقية مازالت إلى اليوم إما غير محققة أو مفقودة[24].

من مصادر الجودي أيضا "شفاء الأبدان" لأبي العباس أحمد بن الحاج محمد الحربي المذحجي القيرواني المتوفى سنة 1284 هـ/1868 م، وهو كتاب تراجم لصلحاء القيروان في

---

[20] المخطوط، ص 1 ب، السطر 1 و2.

[21] تتجلى هذه الأهمية حتى يومنا هذا، بما أن أغلب الدراسات الحديثة يقتصر اعتمادها على مصادر التراجم الكلاسيكية مثل : طبقات أبي العرب و رياض المالكي و شجرة ابن مخلوف ...

[22] أُنظر محمد محفوظ، ن. م.، ج 3، ص 438. عن اعتماده على العواني أُنظر: المخطوط، ص 4 أ.

[23] الكناني القيرواني، ن. م.

[24] نعني هنا تحديدا "ديوان ابن الكاتب" و"ديباجة الأعيان" الذي ترجم فيه لشيوخه و"مناقب المشايخ الوحيشيين". راجع في هذا الإطار: محمد محفوظ، ن. م.، ج 4، ص 175-178.

الفترة العثمانية، وهو: "في ست كراريس في تراجم رجال من القرن الحادي عشر والربع الأول من القرن الثالث عشر"[25].

تشترك التآليف الآنفة الذكر في إنتمائها إلى نفس النوعية من المصادر، إذ هي من فئة كتب التراجم والطبقات والمناقب ولا يعد اعتماد الجودي عليها غريبا بما أن "مورد الظمآن" هو تكملة للعديد منها وفي نفس الوقت استدراك لما غفلت عن ذكره.

مادة مصدرية أخرى نلاحظ تواتر الإشارة إليها في عديد التراجم وهي المصنفات الإخبارية مثل كتب "الحلل السندسية" للوزير السراج[26] و"التاريخ الباشي" لحمودة بن عبد العزيز[27] و"اتحاف" أحمد بن أبي الضياف وهي قريبة من زمن الجودي، غير أن البعض الآخر يعود إلى الفترة الوسيطة مثل اعتماده على "عبر" ابن خلدون[28] و"صلة" ابن الشباط[29] وغيرهما كثير. في "مورد الظمآن" أيضا عرض للعديد من الأشعار التي تعرضت لأحداث ومعالم لمدينة القيروان نظمها شعراء عديدون منهم من هو مشهور والآخر غير معروف[30].

من مزايا كتاب الجودي أيضا هو اعتماده على المعلومات المُضمنة في رسوم الأحباس ووثائق الإشهاد التي يذكر الكاتب في العديد من المواضع أنه اطلع عليها بنفسه، ونلمس ذلك خاصة في تلك التراجم المقتضبة للأولياء وأصحاب الكرامات. هذه الوثائق التي نفتقد اليوم إلى العديد منها، إما نتيجة التلف الذي أصابها أو بقائها إلى زمننا في الرفوف و الخزائن الخاصة، مثلت مصدرا هاما من مصادر الجودي. من ذلك قوله : "وهذا مما وقفت عليه مضمنا ببعض الرسوم" أو قوله: "وجدت تقييدا بخط فلان" إلى آخر ذلك من الشواهد التي تؤكد اعتماد الجودي على هذه النوعية من المصادر.

وثائق أخرى "نفيسة" اعتمد عليها الجودي، وهي المعروفة على عهده بـ"الأوامر العلية"، كأن يقول : "وقد وقفت على أمر على من سيدي فلان". وهذه الأوامر هي على شاكلة مراسلات رسمية، والعديد منها متقدمة على زمن الكاتب. وهذه الوثائق ما فتئت تحتل في بحوث ودراسات السنوات الأخيرة موقعا جد هام نظرا لثراء وتنوع مادتها. فماذا عن محتوى كتاب "مورد الظمآن"؟

كما هو شأن مثل هذه النوعية من المصادر، احتوى "مورد" الجودي على معطيات متنوعة. فلئن احتلت تراجم الأعلام موقعا رئيسا ضمن معلومات الكتاب، فقد تناثرت على

---

[25] A. Abdessalem, *Op. Cit.*, p. 385 و م. محفوظ، ن. م.، ج 2، ص 122-123. أُنظر كمثال على ذلك ترجمة الحاج عطاءالله بن محمد السلمي، **المخطوط**، ص 34 أ.

[26] **المخطوط**، ص 5 ب.

[27] **المخطوط**، ص 2 ب.

[28] **المخطوط**، ص 28 أ.

[29] **المخطوط**، ص 2 أ.

[30] أُنظر على سبيل المثال أبيات أبو على الحسن ابن رشيق الأزدي القيرواني : **المخطوط**، ص 5 أ – 5 أ. وكذلك قصيد طويل للشيخ عبد اللطيف الطوير عن أحداث اخلاء جبل وسلات في منتصف القرن 18 م : **المخطوط**، ص 7 ب – 8 أ.

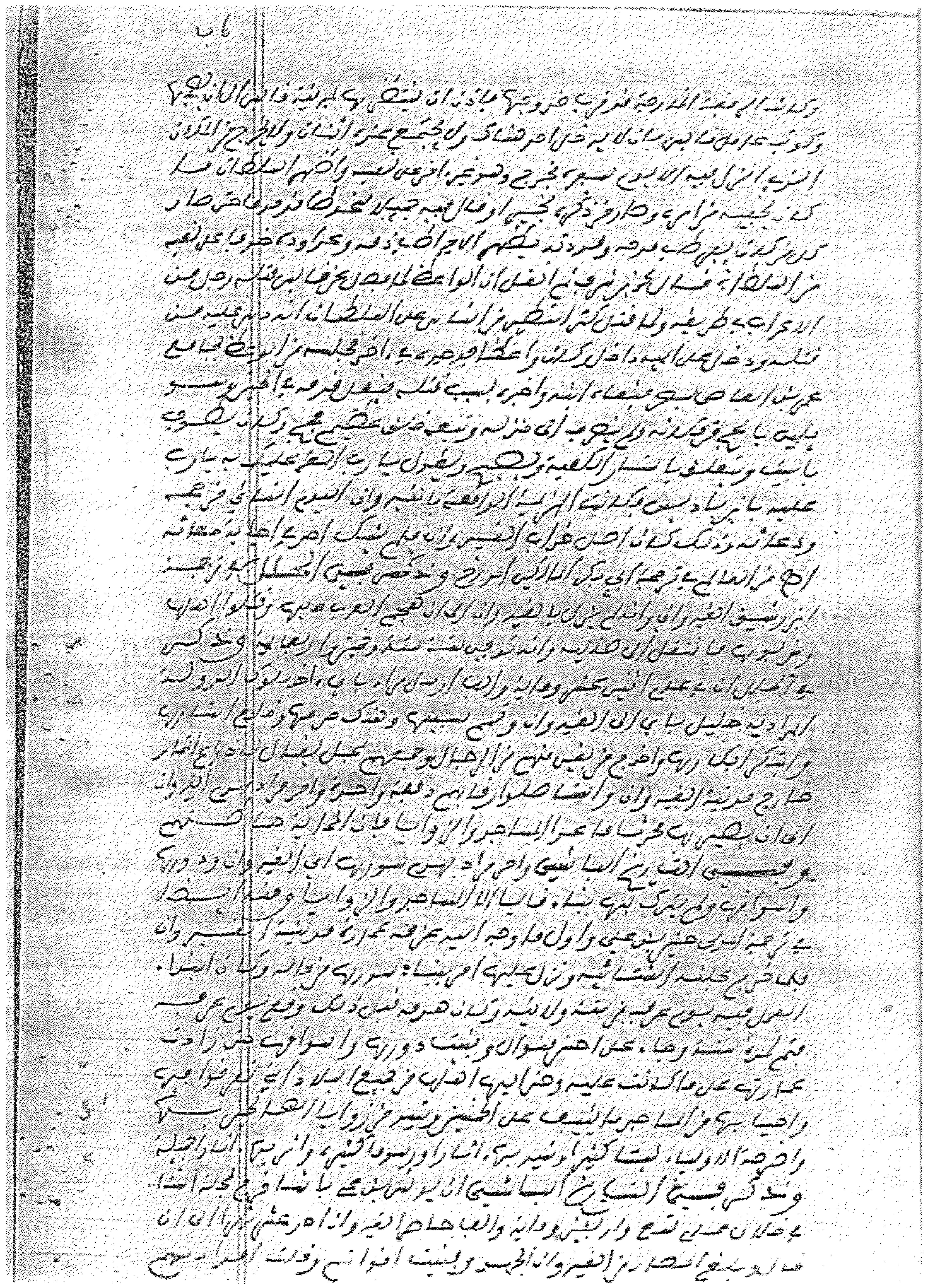
امتدادها مادة غزيرة قد تكون منطلقا لبحوث عديدة. من ذلك مثلا تلك الفقرات التي تعرض فيها الكاتب إلى أسوار القيروان[31] وأحداث إخلاء جبل وسلات[32] والمعطيات الهامة التي أفردها لمكتبة الجامع الأعظم[33] وغير ذلك كثير. ونعتقد جزما أن معلومات الكتاب، في حال تحقيقها تحقيقا علميا صارما، ستكون مادة خام لدراسة التاريخ القبلي للقيروان وجهتها، ومنطلقا لأبحاث جديدة في علم أسماء الأشخاص وأسماء المواقع والانتروبولوجيا التاريخية ...

كخاتمة لهذه المساهمة، نجدد الإشارة أن منتهى هذه الورقة هو دعوة الباحثين المشتغلين على القيروان وجهتها خصوصا، والمهتمين بتاريخ الغرب الإسلامي عموما، إلى الاشتغال على هذا المصدر نظرا لما يمكن أن يوفره كتاب "مورد الظمآن" من معطيات ومكتشفات جديدة قد تشكل أرضية ملائمة لمقاربات جديدة.

[31] **المخطوط**، ص 2 ب.

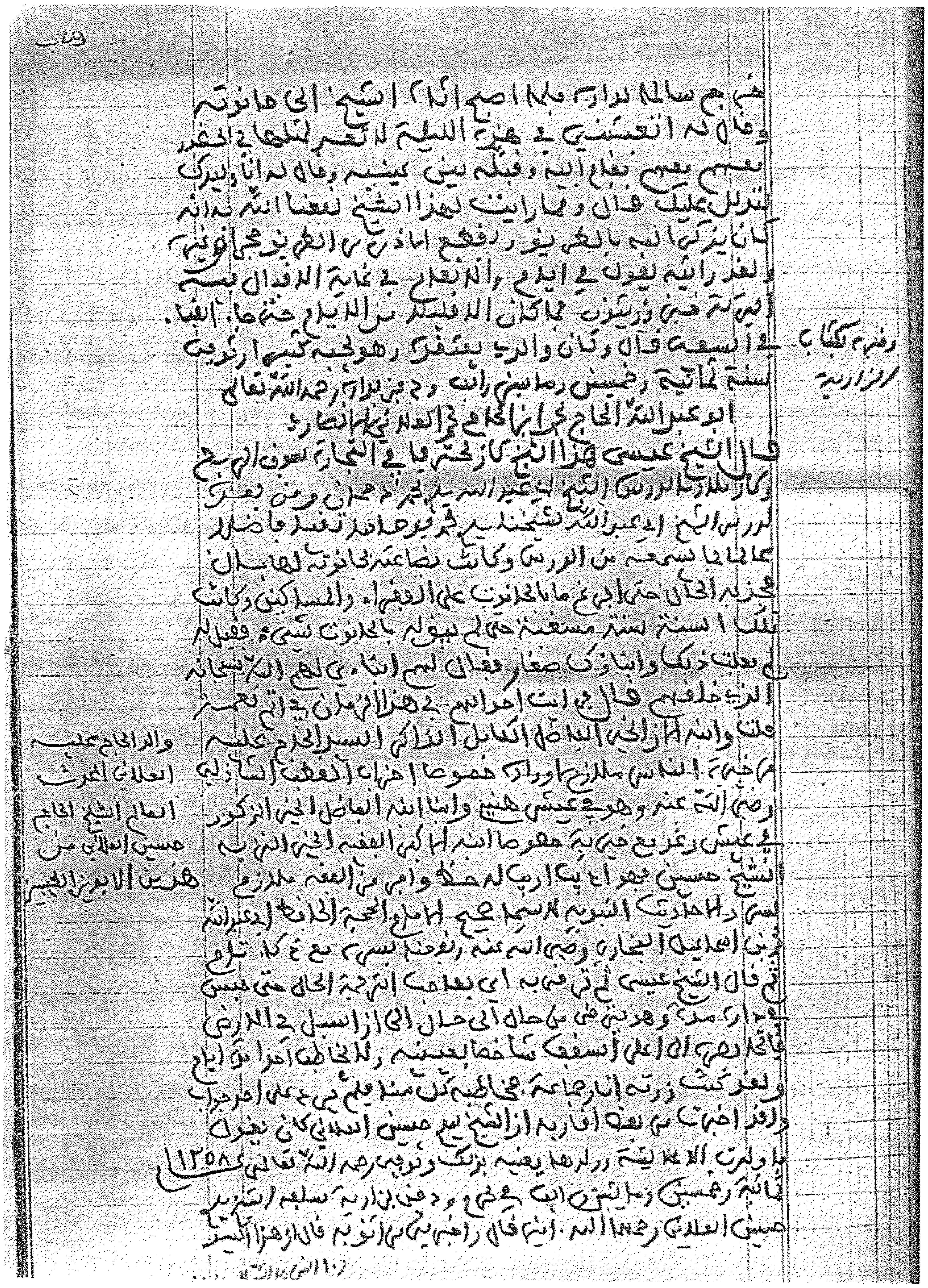
[32] **المخطوط**، ص 7 ب – 8 أ.

[33] **المخطوط**، ص 15 أ – 15 ب.



ملحق عدد 1

صفحة "6 ب" من الجزء الأول



ثم جاء سالما لداره فلما أصبح أتى الشيخ إلى حانوته
وقال له أتعشيتني في هذه الليلة لا تعد لمثلها [illegible]
نفسه فنهض بقوام أبيه وقبله بين عينيه وقال له أنا [illegible]
لتدلل عليك قال وفيما رأيت لهذا الشيخ نفعنا الله به أنه
كان يذكر الله بالعشي [illegible] الظهر [illegible]
ولقد رأيته يقول في [illegible] في غاية الاقبال [illegible]
[illegible] فما كان الا قليلا من الايام حتى جاء النعي
في أسبعه قال وكان والدي [illegible] وتوفي [illegible]
سنة ثمانية وخمسين [illegible] رحمه الله تعالى
أبو عبد الله الحاج محمد [illegible] العلاني [illegible]
قال الشيخ عيسى هذا الشيخ كان حرفته في التجارة [illegible]
وكان ملازما للدرس الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد [illegible] ومن بعده
لدرس الشيخ أبي عبد الله [illegible] تعفف فاضل
عاملا بما يسمعه من الدرس وكانت بضاعته بحانوته [illegible]
مجزية الحال حتى أجمع ما بالحانوت على الفقهاء والمساكين وكانت
تلك السنة سنة مسغبة حتى لم يبق له بالحانوت شيء فقيل له
لم فعلت ذلك وأبناؤك صغار فقال لهم أبنائي لهم الله سبحانه
الذي خلقهم قال [illegible] في هذا الزمان في أتم نعمة
[illegible] الفاضل الكامل الذاكر [illegible] عليه
من جهة الناس ملازم أوراد خصوصا أحزاب القطب الشاذلي
رضي الله عنه وهو في عيش هنيء وابنا ابنه الفاضل الخير المذكور
في عيش رغد [illegible] الفقيه الخير الذي له
الشيخ حسين [illegible] الفقيه ملازم
[illegible] الأحاديث النبوية [illegible] الحافظ أبي عبد الله
بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه ونفعنا [illegible]
ثم قال الشيخ عيسى [illegible] الحال حتى [illegible]
[illegible] في الأرض
[illegible]
ولقد كنت زرته [illegible]
ولقد أخبرت من بعض أقاربه أن الشيخ سيدي حسين العلاني كان يقول
[illegible] رحمه الله تعالى ١٢٥٨
[illegible]
حسين العلاني رحمه الله أنه قال [illegible]

وفيه كتاب [illegible]

والد الحاج محمد العلاني المذكور
العالم الشيخ الحاج حسين العلاني من [illegible]

ملحق عدد 2

صفحة"29 ب" من الجزء الثاني

شبكة قرى بلاد القيروان
في الفترة الاستعمارية
"الملامح والخصائص"

عبد الواحد المكني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

اهتم القلم التاريخي الراهن بثنائية المدينة والبادية، وانصبّ التركيز على ظاهرة التضاد والاستقطاب الثنائي الذي أجاد ابن خلدون تحليله فترسّخ أثره المنهجي إلى اليوم فعّالا في الدراسات التاريخية والمقاربات الاجتماعية. وظل المجتمع القروي في موقع وسطي تجتمع وتتداخل فيه خاصيات التحضّر والتمدّن من ناحية، وملامح التبدّي والضّعن من ناحية أخرى ولم ينل هذا المجتمع ما نالته الحواضر والبوادي من فضول معرفي واهتمام بحثي على الرغم من أن النسيج الاجتماعي التونسي الحديث يرتكز في الغالب على النواتات القروية.

يُستعمل عادة لفظ "البلد" للتدليل على القرية في الخطاب المتداول كما في الوثائق المكتوبة والقرية في المجال التونسي هي حاجز أومجال انتقالي بين المدينة والبادية تجتمع فيها جملة من الوظائف العامة الضرورية بصنفيها المادي والمعنوي وتتوفر على مشترك من الذكريات ومحددات انتماء جماعوية.

ولا زالت الدراسات حول نمط القرية التونسية وشخصيتها في مرحلة الندرة ونحتاج إلى "مونوغرافيات" معمّقة ومبحثات اتنوغرافية وانتروبولوجية مستندة إلى الوثائق التاريخية والآثار والمأثور للخروج بأحكام تصنيفية عامة . ويمكن القول وبعد مسح عام لأوضاع القرى التونسية قمنا به من خلال تقارير الاستعلامات الفرنسية في بدايات الاحتلال ومن خلال أرشيف الدولة التونسية (خاصة السلسلة E وA) إن للقرية التونسية جملة من الخصائص البشرية والاقتصادية والمعمارية التي كادت تعطيها شخصيتها المستقلة ونمطها المميز فيرتكز الانتماء بهذا المجال على ما يصطلح عليه بالمُشترك القروي Le villageois commun وهو يشمل كل الاستعمالات المشاعة بين أهل القرية والتي لا يتطلّب الانتفاع بها الاّ المساكنة والتقادم في الانتماء.

ويتراوح عدد سكان القرية بين 300 و3000 نسمة تقريبا وتتوفر على عدد من المنازل الحجرية (بين 50 و300) وعدد من الدكاكين وسوق أسبوعية ومشترك إداري (المشيخة والخلافة) وعقاري (مراعي جماعية وبيادر ورتب وغابات ومياه ...) علاوة على المشترك

العقائدي والثقافي الرمزي فلكل قرية وليها الحامي[1] وعدد من الزوايا والكتاتيب ومقبرة. وتعيش القرى التونسية على واقع الملكية الخاصة والمدوّنة ممّا أولى مؤسسة الإشهاد العدلي وأمانة الفلاحة بهذا المجال أهمية قصوى، وهو ما يدل أيضا على انتشارنسبي للثقافة المكتوبة في الفضاء الريفي عكس ما صورته لنابعض الدراسات الأنتروبولوجية المتعالية لبعض المستشرقين أو الذين يسيرون في ركابهم من باب المحاكاة والتقليد فحسب.

وتنتظم أغلب القرى التونسية في العهد الحديث في إطار شبكات جهوية وميزة كل شبكة هي ارتباطها بقطب مديني ترتكز به الوظيفة السياسية والإدارية والاقتصادية. فقد ارتبط مفهوم القرية والشبكة القروية دوما بالمركز الحضري المهيمن والمشع القادر على بسط نفوذه وإشعاعه على كامل الجهة. والمتمعّن في خريطة البلاد العمرانية والبشرية في الفترة الاستعمارية يمكن أن يتبين وجود شبكات قروية مترابطة مثل شبكة حوض مجردة ، ساحل بنزرت، الوطن القبلي (الدّخلة) ، الساحل ،صفاقس ، الجريد ، نفزاوة ... وهي شبكات عريقة وقديمة ومعروفة من العصر الوسيط فقد عرفت نوعا من التواصل التاريخي رغم بعض الهزات والانعطافات وبالمقابل هناك شبكات أخرى عرفت نوعا من التراجع بل التقهقر والأفول أحيانا مثل شبكة بلاد قمودة وبلاد الكاف وجهة قفصة التي عرفت ازدهارا في السالف .

ويهتم بحثنا بشبكة قرى بلاد القيروان التي عرفت فترة من الرخاء والنمو وفاضت بشهرتها فدوّنت لها أقلام المؤرخين وتحدثت عن أيامها "السعيدة". ففي العصر الوسيط وخاصة بين القرن العاشر والرابع عشر ضمّت شبكة بلاد القيروان عدة قرى ومداشر مثل قلشانة وممّس وزرود والقرن وطنفاس والأصنام والهوارب والمنية وقصر الماء والبطنة وبلد الشقاف وبلد المهران وبلد العلويين[2].

لقد استمدت هده الشبكة تطورها ارتباطا بازدهار مدينة القيروان في تلك الأزمان، فقد برزت حاضرة الإسلام الأولى بافريقية بإشعاعها العلمي والديني والمعماري كما اشتهرت بمدارسها وعلمائها وسُراتها وكان بعض أعيان القيروان يمتلك قرى بأكملها وهي حالة محمد بن مسروق في القرن الثالث هجري / التاسع للميلاد الذي كان يملك عدد من القرى بناحية القيروان[3]. لقد كانت هده القرى تزود مدينة القيروان بالمواد الفلاحية من بقول وثمار وحبوب كما كانت تزودها بالمياه واليد العاملة فساهمت في انعاش المدينة اقتصاديا واجتماعيا وبالمقابل فقد غنمت قرى الظهير من تلك المبادلات.

وعرفت هذه الشبكة تراجعا تدريجيا في نهاية العصر الوسيط وأصابها ما أصاب مدينة القيروان من ضمور وخفوت نسبي فقد أثّر مسار التبدّي والتقهقر في قرى هذه الشبكة مند

---

[1] (سيدي فلان) وهناك قرى تحمل اسم وليها الحامي مثل سيدي على بن نصر الله وسيدي عمر بوحجلة في شبكة القيروان وسيدي وسيدي بنور وسيدي عامر بالساحل وغيرها من الأمثلة كثير.

[2] حسن (محمد)، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جامعة تونس الأولى، 1999،ج 1، ص 59 وما بعدها.

[3] حسن (محمد)، ن. م.،ج 1، ص 59.

القرن 14م وتواصل هذا التراجع خلال العصر الحديث فقد تحولت عدة قرى و"بلدات" إلى خرائب ومجرد ركام من الأطلال المهجورة وجلى عنها سكانها بلا رجعة أحيانا. ولا بد من التأكيد على ضرورة التعمق في موضوع القرى المندثرة ببلاد القيروان وهو من المواضيع التي حان وقت البحث فيها لما يمكن أن يضيفه للمكتبة التاريخية والأثرية التونسية.

لقد تعمّق مسار التراجع بل التدهور لهذه الشبكة خصوصا بين القرن15و18ميلادي وانضافت بعد سنة 1762 لقائمة القرى المندثرة بالجهة شبكة جبل وسلات التي كانت تضم حوالي 100 قرية ودشرة وأصبح ظهير القيروان في هذه الفترة تحت سيطرة نجع جلاص وعروشه البدوية وقد أطلق الرحّالة الأجانب على تلك الربوع نعت "بلاد البارود" كناية عن انعدام الأمن وصعوبة مرور القوافل وتكاثر المقاتل والإغارات. وجب انتظار الحدث الاستعماري وخصوصا إطلالة القرن العشرين عندما أخذت هذه الشبكة في "الإنبعاث" من جديد فقد استُحدثت قرى وبلدات جديدة كما انبعثت أخرى من رسمها المندرس ومن أنقاض أطلالها.

تستحق هذه الشبكة مزيد العناية بالتأمل والبحث والتصنيف والتعريف وهو مسعانا الأساسي في هذا العمل.

1. أسباب انبعاث شبكة قرى جهة القيروان في الفترة المعاصرة

ليس من اليسير معرفة سبب انبعاث هذه الشبكة خلال العصر الحديث فالديناميكية الداخلية للجهة وحدها لا يمكن أن تفسّر الظاهرة والمؤكد بأن للحدث الاستعماري تأثيره الحاسم، ويفضي بنا هذا إلى دائرة جدل كبير وحسّاس لا زال قائما ومفاده : هل للاستعمار ايجابيات؟ والحقيقة أنّ مثل هذا الجدل عاد اليوم في خضم عودة الاستعمار الجديد وهو أمر يستدعى الاستقصاء والتعمّق ويكون من باب العقم العلمي حصْر الأمر في الثنائية الامبيرية (سلبي أم ايجابي).

وجب -حسب المظنون- أن ندرس الاستعمار كظاهرة تاريخية بشيء من برودة الدم ونتعامل معها بوصفها حدثا تاريخيا أُزفَت ساعته وبقيت فقط تبعاته.

يفضي بنا التأمّل في التّراث المعماري والاجتماعي لبلاد القيروان قبيل العهد الاستعماري إلى شبه جزم بأن مدينة القيروان كانت المركز الحضري الوحيد في محيطها التقليدي المعروف بجهة القيروان، ويتأكد الأمر باستقصاء دفاتر المجبى وباقي وثائق ادارة الانشاء الحسيني فتكاد تكون المدينة هي المجمّعة السكّانية الوحيدة في جهة السباسب الداخلية والسهوب الممتدة من سبخة سيدي الهاني حتى ملامح جبال الظهرية. ولم تكن الهوارب وجلولاء والمحرس (سيدي عمر بوحجلة) سوى مجرد مداشر صغيرة ذات مواقع سهلية وبها عيون وآبار صالحة للشراب تستعملها قوافل المسافرين والتجار والمنتجعين كمحطات استراحة وهو ما يدل عليه انتشار ظاهرة "الفنادق" في محيط القيروان مثل فنادق الوصفان والعقبي وسيدي ابراهيم والعلا وحفوز ونصر الله وهذه الفنادق تحولت فيما بعد إلى مداشر وقرى.

والحاصل ان مدينة القيروان ظلت خلال القرن 18 و19 م هي المركز الحضري الكبير والمدينة الوحيدة في الجهة ومن تحت أسوارها مباشرة تبدأ ناجعة جلاص فكان "إقليم" بلاد القيروان مفتقدا لذاك المجال القروي الانتقالي الذي ميّز علاقة مدن الساحل بقبائل أولاد سعيد والسواسي أو صفاقس بعروش المثاليث ونفات. انبعثت وتأسست قرى جهة القيروان بعد منعرج الحدث الاستعماري الحاسم لسنة 1881 فمع نهايات القرن 19 وبدايات القرن العشرين تكوّنت بعض القرى من عدم وانبعثت أخرى من أطلال ماضيها وفي عرضنا لبعض تلك الحالات استبطان لأسباب الظاهرة وتجلّياتها:

- العلا[4]: وهي مدشر قديم انتابه الخراب تدريجيا وبرزت كقرية في أواخر القرن 19 م مع استحداث سوق الكعوب والقوازين بعد 1881 على أنقاض سوق تقليدية لتلك العروش وجدت قبل الحماية.

- حاجب العيون[5]: تطورت بداية من سنة 1885 في أراضي أولاد سباع وكانت ثكنة الجيش الفرنسي ثم السوق الأسبوعية من مُحتّات البروز وقد تدعّمت القرية بإنشاء مجلس بلدي من 1922 الى 1941 وتم التراجع عنه باستحداث مجلس قروي من 1941 الى 1953.

- حفوز[6]: كانت خلال الفترة الحديثة مدشرا صغيرا به فندق ومعصرة يستعملها لزّامة غابة جبل وسلات لعصر الزيتون وخلال الفترة الاستعمارية تطورت لتصبح قرية حول عين الكعبي وتأسست بها سوقا أسبوعية سنة 1901 وقد أصبحت قرية هامة خصوصا بعد استقرار المعمّرين الفرنسيين بنواحيها في إطار مشروع الاستعمار الزراعي وتغيّر اسم القرية فأصبحت تسمّى "بيشون فيل" نسبة إلى المقيم العام[7] وهو الاستعمال الرسمي، ويسمّى عند العامة سوق "بيشون" Bichoun وتحولت فيما بعد إلى مقر لقيادة جلاص الظهراوية .

تكشف هذه الحالة أثر الاستعمار الزراعي الفرنسي في دعم شبكة القرى ويتجلى ذلك حتى من خلال التسميةالأصلية التي ظلت مرتبطة بالواقع الاستعماري إلى حد سنة 1956 تاريخ عودة تسمية "حفوز".

- جلولة[8] : وتعرف بعين جلولة وهي مدشر قديم "جلولاء" بسفح جبل وسلات قام على أنقاض بلدة رومانية *Cululis*. وانتابها التقهقر خلال العصر الحديث وقد انبعثت من جديد كتجمّع قروي مع ثلاثينات القرن العشرين خاصة بعد تأسيس السوق الأسبوعية واستقرار لفيف من المعرين الفرنسيين بنواحيها.

---

[4] الأرشيف الوطني التونسي (مستقبلا أ.و.ت.): صندوق 55 ، ملف8 السوق الأسبوعية بالعلا. أنظر أيضا الخارطة الطوبوغرافية 1/ 50000 ورقة حفوز.

[5] أ.و.ت.، س E ، ص 5، م 9 المجلس القروي، ص55 ، م 3 السوق الأسبوعية، م 10 سوق الحلفاء بحاجب العيون.

[6] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1 أسواق مراقبة القيروان المدنية مسائل مختلفة، م 5 السوق الأسبوعية، م 14 سوق الحلفاء بحفوز؛ س ب، ص 204، م 5 أمناء الفلاحة ببيشون، ص 175، م 19 أمناء المعاش ببيشون، م 59 أمناء الوزن العمومي ببيشون.

[7] هو ستيفان بيشون الذي تولى منصب الإقامة العامة بتونس بين مارس 1901 وديسمبر 1905.

[8] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، و7، م 17 سوق الحلفاء.

- السبيخة[9]: وكانت تسمّى عين زرلّي في منتصف القرن 19 ولم تكن الاّ محطة استراحة للقوافل والناجعة ونقطة تزود مائي وبداية من أواخر القرن 19 تطورت لتصبح قرية السبيخة خصوصا بعد تأسيس السوق الأسبوعية سنة 1892.

- سيدي عمر بوحجلة[10]: استفادت هذه الدشرة الصغيرة من موقعها الهام على طريق القوافل بين القيروان باتجاه صفاقس والأعراض وقد أصبحت قرية مكتملة الملامح في عشرينات القرن العشرين وتدعّمت وظيفتها الإدارية والاقتصادية.

- الوسلاتية[11]: عرفت بهنشير الوسالتية في البداية عندما احتضنت جاليات جبل وسلات المهجرة قسرا وقد برزت كمدشر ثم قرية بعد الحرب الأولى مع استقرار المعمرين ثم انشئت بها سوقا أسبوعية سنة 1935.

- الهوارب[12]: قديمة التأسيس لكنها تراجعت وكادت تندثر فلم يبق في موضعها في القرن 19 الا فندق استراحة وقد تشكّلت نواتها القروية في عشرينات القرن العشرين حول السوق الأسبوعية والدكاكين وفندق العقبي.

- سيدي على بن نصرالله[13]: تكونت نواة القرية في أواخر القرن 19 حول عين الماء والولي الحامي الذي حملت اسمه وقد تأسست بها سوقا أسبوعية بداية من سنة 1891.

وتكونت مجموعة أخرى من القرى مثل بافيليي PAVILIER وهي أيضا تحمل اسم أحد أعلام رموز الاستعمارالمنجمي وأصبحت تسمّى منزل المهيري بعد الاستقلال وكذلك قرية سيدي سعد وقرية بين لجبل وهي مجموعة من القرى الصغرى استحدثت على طول خط السكة الرابط بين القيروان وسبيطلة وقد حاول المعمرون والمستوطنون الأوروبيون تطويرها لكن ما لبثت أن تراجعت بعد الاستقلال وخاصة اثر تقهقر ثم انقطاع نشاط سكة الحديد.

ولا بد من التأكيد على وجود خصائص مشتركة بل وأسباب متجانسة أدّت إلى انبعاث أغلب قرى شبكة بلاد القيروان من ذلك ظاهرة الأسواق الأسبوعية[14]التي ركّزنا عليها بسبب أهميتها في تدعيم النواة القروية خاصة من الناحية الاقتصادية وقد ساعدت شبكة الآبار والعيون والفنادق الموجودة قبلا على تأسيس هذه الأسواق التي لم تكن موجودة قبل 1881 (باستثناء سوق العلا) لكنها ما لبثت أن أصبحت شبكة كاملة ومترابطة في دورة أسبوعية:

---

[9] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، م 7، م 4، س أ، السبيخة وعين زلي ، م 15سوق الحلفاء بالسبيخة.

[10] أ.و.ت.، س E، ص 5، م 11 المجلس القروي، ص 55، م 1، و7 م 18 السوق؛ السلسلة ب ص 179، م 30، أمناء الفلاحة بسيدي عمر.

[11] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1 أسواق مراقبة القيروان المدنية مسائل مختلفة، م 7 اعادة تنظيم أسواق مراقبة القيروان، م 13 السوق الأسبوعية للوسلاتية، م 21 سوق الحلفاء، م 54 أمناء تجارة الدواب، م 71 أمناء الحبوب.

[12] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، م 7، م 18 السوق الأسبوعية بالهوارب.

[13] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، م 7، م 2 السوق الأسبوعي بسيدي على بن نصرالله.

[14] بن طاهر (جمال)، "أضواء على السواق الريفية بالبلاد التونسية خلال القرن 19"، مجلة الكراسات التونسة، عدد 145-145، ص 55-100.

الجمعة	عين جلولة
السبت	حفوز والوسلاتية
الأحد	نصر الله والسبيخة
الاثنين	الهوارب
الثلاثاء	حاجب العيون
الأربعاء	سيدي عمر بوحجلة
الخميس	العلا

وقد تغيرت مواقيت هذه الأسواق مرارا بسبب حداثة الشبكة القروية ببلاد القيروان في حين ان الشبكات التقليدية بالساحل وصفاقس والوطن القبلي ظلّت مواقيت أسواقها ثابتة تقريبا منذ القرن 19. وقد تخللت عمليات إنشاء هذه المتاجر الأسبوعية ما أسميناه ب"حرب العرائض والاحتجاجات" سواء حول اختيار مواقع الأسواق ومواضعها أو عند اختيار يوم الأسبوع.

فقد احتج بشدة أهالي نصر الله سنة 1929 على محاولة تحويل السوق إلى محطة بافيليي"إن الحكومة أرادت أن تجعل سوقا عموميا بمحطة بافيليي عوض سوق بلدة سيدي على بن نصرالله الذي ألفناه من قديم...ان تحويل السوق مضاره أكثر من نفعه ...اذ لا يعقل انتقال سوقنا الى محطة رتل حديدي لا يوجد بها غير المكلف (الشاف)..."[15] وتضيف عريضة مماثلة "ان السوق...بعيد عن الأهالي وموقعه غير مناسب حيث انه بداخل هنشير كبّانية سيدي منصور والأهالي لا يناسبها سوق وسط المعمرين"[16] غير ان هؤلاء المعمرين مارسوا ضغطا لإحداث سوق بحفوز وأخرى بالوسلاتية ووصل الأمر الى الضغط لإبطال سوق العلا سنة 1913 للمساعدة على تطوير سوق "بيشون" (حفوز) القريب من مستوطنات المعمرين الفرنسيين كما وقعت عدة تجاذبات حول اختيار أيام الأسواق الأسبوعية وقد تغيرت المواعيد عدة مرات[17] في 1893 و1901 و1903و1913 و1916 ...من ذلك ان سوق حاجب العيون تم تحويله سنة 1905 من الاثنين إلى الثلاثاء لإعطاء الفرصة لتجار سوق قمودة (سيدي بوزيد) المنعقد يوم الأحد للوصول ببضائعهم الى الحاجب.

---

[15] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 2، و22 بتاريخ جويلية 1929.

[16] نفس المصدر، و21.

[17] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، مسائل مختلفة حول أسواق المراقبة المدنية بالقيروان ،م 7اعادة تنظيم أسواق مراقبة القيروان.

وقد تدّعمت شبكة الأسواق في ثلاثينات القرن العشرين مع انتشار وسائل النقل العصري (الحافلات والشاحنات) وازدادت المبادلات السلعية والإنتاجية كما الإستثمارت فساهم ذلك في انفتاح الأرياف نسبيا على الاقتصاد الرأسمالي، ولعبت الأسواق دورا هاما في التأطير الإداري والسياسي لسكان ربوع ظلت لعهد طويل مستعصية على الرقابة الجبائية والأمنية الكافية فكانت السوق مسرحا للإعلام "البرّاح" والاستخلاص والتجنيد وقامت تلك الأسواق بدور "تسيير الخدمة لجناب المراقب والعامل باتصال أياما الأسواق بعضها ببعض مع ما في ذلك من المصالح التي يطول شرحها"[18] وساهمت إلى حد كبير في تدعيم نواتات القرى الناشئة.

ومن ناحية أخرى فقد ساهم مشروع توطين البدو وإقرارهم في تدعيم نواتات القرى المذكورة سابقا La fixation des bédouins وهو مشروع عام سلكته السلطات الاستعمارية بداية من سنة 1902 وتمتن بصفة أوسع مع نهاية الحرب الكبرى وخاصة مع اصلاحات سنة 1922 وكانت أبعاده استراتيجية شبيهة بما حدث بمستعمرة الجزائر فكانت المرامي هي تفكيك وحدات النواجع الكبرى والقبائل العاتية وإقرارها في مجالات ترابية محددة للتقليص من تحركاتها وانتجاعاتها ولتسْهل على الإدارة الاستعمارية مراقبتها أمنيّا عن كثب وقد تجسّم هذا المشروع في تشجيع العروش والعائلات على الإستقرار وبناء المنازل والأكواخ وتوفير أيام العمل بحضائر الطرقات والسكك ومقاومة الجراد وتقديم بعض الإعانات الغذائية (سميد وبذور) والملابس ثم باستحداث بعض المرافق الضرورية كالمستوصفات والمدارس وقد آل الأمر الى تشظي العروش وانفصالها عن بعضها تدريجيا فتراجعت اللحمة والفزعة وحركة الانتجاع الطويلة وعوضتها عقلية التوطن والتحييز الترابي وظاهرة الإكداح والعمل اليومي. وقد لجأت إدارة الحماية إلى سياسة المقاسم بتمكين العروش أو بعضها من قطع أرض بنواحي الوسلاتية وحفوز والعلا وشراحل وقد عرفت سنة 1923-1924 بعام "النوامر" كناية عن توزيع قطع الأرض على العائلات[19] وهي سياسة ذات غاية مزدوجة فبقدر ما كانت تهدف إلى التشجيع على الاستقرار والتجاوز عن حياة البداوة فقد كانت ترمي قبلا الى امتصاص غضب السكان تجاه ظاهرة استيلاء المعمرين على آلاف الهكتارات من أراضي العروش والأجداد.

لقد استفادت مداشر وفنادق و"مشتات"[20] العصر القديم بصورة مباشرة وغير مباشرة من مد شبكة الأسواق وإقرار السكان أي من "الديناميكية" الاستعمارية وآل الأمر تدريجيا إلى خلق قرى وبلدات تدعمت بها جملة من الوظائف المختلفة مثل معاصر الزيتون ومطاحن الحبوب ومخازنها (سيلون) SILOS ومكاتب البريد والمدارس وشبكة الطرقات المعبدة والجسور دون نسيان مخافر الجندرمة والحرس المتنقل .ولا بد من الإشارة إلى الإسهام الكبير لخط السكة الحديدية الرابط بين سوسة والقيروان (1898) ثم القيروان سبيطلة (1906) فقد أدّى إلى نشأة

---

[18] أ.و.ت.، س E، ص 55 ، م 7 و8 رسالة من على المرابط عامل القيروان الى الوزير الأكبر بوعتور بتاريخ أوت 1901.

[19] كريم (عبد المجيد)، "تفكك المجموعات الريفية تحت تأثير الاستعمار الزراعي الرأسمالي :الأراضي الدولية المقسمة في منطقة القيروان 1923 1924"، في مصادر تاريخ الحركة الوطنية التونسية ومناهجه، تونس، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 1991، ص 359-404.

[20] جمع مشتة وتعني شتات وأيضا مقر التشتية عكسها مصيف.

قرى بأكملها مثل بافيليي وسيدي سعد أو الارتقاء ببعض المداشر إلى قرى كبرى وهي حالة حاجب العيون. وكانت مشاريع البنى التحتية محل ريبة واحتياط من قبل السكان خاصة في البداية لكنها كانت أيضا محل إعجاب بقدرة فرنسا تلك القوة الناهضة "العكري"على تعمير ربوع ظلت خاوية على سكانها في عصر البايات والأمرُ يحيلنا على دراسة نمط الذهنيات في ذلك العصر وهو مبحث لا يتسع إليه موضوع هذا العمل.

ولا بد من التشديد على ان المعطى الإداري ساهم في تدعيم النواتات القروية وتدعيم شبكة بلاد القيروان في الفترة المعاصرة فقد تحولت أغلب تلك القرى إلى مقرات للخلافات وهي حالة العلا (خلافة جلاص الظهراوية) وحالة نصر الله (خلافة جلاص القبالة) كما تأسست المجالس القروية مثل حالة سيدي عمر بوحجلة أو مجالس بلدية مثل الحاجب والوسلاتية.

2- خصائص شبكة قرى بلاد القيروان في الفترة الاستعمارية

هي شبكة مستحدثة ومنبعثة رغم ماضيها العريق المرتبط بإشعاع القيروان في العصر الوسيط، وقد ارتبطت الشبكة بالديناميكية التي أنشاها الرأسمال الاستعماري في علاقته بالأرياف المحلية، والدليل على ذلك تراجع بعض القرى بعد 1956 وخاصة بعد تقهقرنشاط سكة الحديد وهو ما أحدث صعوبات ومعيقات للتمية المحلية بظهير القيروان خلال ستينات القرن 20

ولا بد من الإشارة إلى تمتن الشبكة خلال الفترة المعاصرة التي ارتكزت على وحدة "البلد" أي التجمع السكاني الملتحم عبر ترسخ ظاهرة المُشترك القروي والتآلف المصلحي الجماعوي، فقد انبثقت بقرى القيروان عدة وحدات اقتصادية واجتماعية مشتركة مثل الرتب (مخاون الحبوب الجماعية) والبيادر وآبار الشرب و"النفايض" و"البحاير" التي تؤشر على تكوّن رستاق قروي ومجال عقاري مخصوص كما تكونت تدريجيا المقابر القروية بعد أن كان أغلب سكان ظهير القيروان يدفنون موتاهم تيمّنا وتبرّكا بمقابر المدينة خاصة بمقبرة الصحابي أبي زمعة البلوي، وقد أكّد الرحالة والدارسون على استرسال ظاهرة نقل الموتى على ظهور النوق من الظهير باتجاه مدينة القيروان ولا زال أثر هذه الظاهرة مسترسلا إلى وقت متأخر.

وانضافت لهذه الوحدات الجماعية التقليدية جملة من المرافق العصرية مثل المدرسة وإدارة البريد والجمعية الاحتياطة والمخبزة والمقهى ومحطة القطار ومكتب الشيخ ومخفرالصبايحية . فقد كانت قرية سيدي على بن نصر الله في مطلع القرن العشرين **"بلدة تقطنها الآلاف من الأنفس بها 450 دار و100 حانوت وفنادق وكوشة ومقاهي"**[21]. أما العلا فقد كانت في مطلع الثلاثينات تتوفر على المرافق الآتية: **"40 حانوت وزوج قهاوي وفندق وكوشة ومكينة (كذا) لعصرالزيتون ومحلات سكنى ..وبئر معدني ماءه كالزلال يعسر ايجاد مثله ...**"[22].

---

[21] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، و 22 بتاريخ 1905.

[22] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 8، و35 بتاريخ 1934.

واستفادت قرى أخرى من حركة التعمير والفلاحة السقوية وهي حالة عين جلولة مثلا، فقد "عرّف عامل جلاص بما عليه مركز عين جلولة من عمران وازدهار بسبب انتشار الغراسة بهذه الجهة وتعدد بساتينها"[23] ويذكر عامل القيروان محمد العزيز السقا في مراسلة أخرى حول تطور عين جلولة "وجود منابع المياه العذبة وقد أقبل الناس على احداث البساتين الجميلة بمساحة تقدر الآن بنحو المائة هكتار من أنواع الغلال والفواكه والخضر والرياحين والزهور وتكونت فيها جمعية تعاضدية ناشطة وحركة اقتصادية..."[24].

ويقارب الحجم البشري لتلك القرى 1500 ساكن في المعدل فتتراوح الأرقام من 500 نسمة الى 3000 مع تزايد ملحوظ لعدد السكان في فترة مابين الحربين وحتى الاستقلال. فيفيدنا إحصاء 1931بالمعطيات الآتية[25]:

السبيخة	2792
حاجب العيون	956
الوسلاتية	503
سيدي على بن نصرالله	937

أما سنة 1956 فقد تطور حجم السكان على النحو التالي[26] :

السبيخة	3447
بوحجلة	5074
حاجب العيون	1611
حفوز	3276

ولا بد من التشديد على بطء انساق التطور بأغلب قرى الشبكة فقد كان التجاذب بين الاستقرار والتبدّي فعّالا فكانت ملامح أغلب القرى قريبة الى المدشر الريفي أكثر من المدينة الحاضرة. ولا يجب أن يغيب عنّا بأن أكبر مستفيد من هذه الديناميكية كانت زمر المعمرين

---

[23] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، و 14 بتاريخ ماي 1954.

[24] أ.و.ت.، س E، ص 55، م 1، و 15.

[25] *Recensement officiel du 22-3-1931*, pp. 24-27, 38-39.

[26] أنظر:

Recensement officiel de 1955, p. 41.

الذين استأثروا بآلاف الهكتارات من أخصب أراضي ظهير القيروان الغربي وكان وكلاء الشركات والبنوك الفرنسية أيضا من المستفيدين من انفتاح أرياف القيروان على الدورة الاقتصادية الرأسمالية وخاصة عبر ترويج السلع المعملية البسيطة والمستهلكات في الأسواق والدكاكين المتناثرة مقابل وضع اليد على منتوج الجهة من الزيوت واللوز والصوف والأغنام والخضر.

ولم تستفد مدينة القيروان كثيرا من شبكة القرى المحيطة في الظهير، فقد تراجع نسبيا الإشعاع الديني والقداسي بعد تأسيس عدد من المساجد الجامعة والمقابر في القرى المختلفة، أما الإشعاع الحرفي والتجاري فقد تراجع وهو ما تترجمه صيحة الفزع التي أطلقها تجار القيروان تكرارا ففي ديسمبر1936 تقدّم 400 شخص من أعيان وتجار القيروان بعريضة احتجاجية للمقيم العام أرمون قيون "ان بلادنا القيروان كانت المركز الوحيد المنفرد بوسط العروش ..ولم يكن لهم سوق آخر واحد يشترون منه لأن القيروان احتوت على أسواق شتى مختلفة الصنايع والبضايع ومن يوم أحدثت الحكومة الأسواق ببعض مراكز خارج القيروان قل الوافد وانعدم هاته المدة تمام الانعدام ..وماتت القيروان وأرباب حرفها وتجارها..ولذا فان أهالي القيروان يلتمسون ..أن تنظروا في ابطال تلك السواق السبوعية التي أضر احداثها بامة كاملة..."[27].

وقد صادق الجغرافي جون ديبوا على نفس الكلام في مؤلفه المشهور وهو الذي عايش الأوضاع وعاينها عن كثب فقد ذكر بان القيروان "*كانت تعيش على ماضيها أكثر من حاضرها خلال فترة مابين الحربين بل الحياة فيها بحياة قرية*"[28]

ويضيف ديبوا بان المدينة كانت في تراجع في الفترة المعاصرة وازداد الأمر تفاقما بعد تكاثر عدد الأسواق بالأرياف المحيطة:

« *Kairouan n'est q'un bourg en décadence …le nombre des boutiques closes traduit le marasme de l'ancienne artisanat …la multiplication des marchés hebdomadaires dans les campagnes nuisit à Kairouan* »[29]

وقد ظلت القيروان مرتبطة بمحيطها الزراعي المباشر دون أن تتمكن من تحقيق تراكم تجاري أو حرفي كالذي قامت به حواضر تونس وصفاقس وسوسة مثلا وتكفينا إطلالة على واقع المؤسسات الصناعية الحرفية[30] للمدينة عشية الاستقلال لنتأكد من ذلك

---

[27] أ.و.ت.، س E، ص 55 ، م 7، و 133.

[28] أنظر:

DESPOIS (J.), *La Tunisie orientale, Sahel et basse steppe*, Paris,1955 , p.474 ; DESPOIS (J.) : « Kairouan », *Annales de géographie*, 1930, pp. 171-177.

[29] أنظر:

DESPOIS (J.), *La Tunisie orientale …*, *Op. cit.* p. 478.

[30] أنظر:

Institut des hautes études de Tunis : *Les niveux de vie en Tunisie*, Paris, PUF,1958, p 74.

الاختصاص الحرفي	الورشات	أعراف	قلفوات وصنايعية	معدل أيام العمل في السنة
النسيج	126	126	150	200
الحديد	40	40	26	180
النحاس	22	25	23	200
خشب مصنع	18	18	8	200
بلغاجية	30	30	15	220
غزل				200
زربية				220

فقد ظلت الصناعات في مرحلتها الحرفية البسيطة التي لا تتجاوز الورشة العائلية أو شبه العائلية ويمكن التأكيد على أن مدينة القيروان لم تستفد كثيرا من شبكة قراها رغم انها كانت مؤهلة تاريخيا وعمرانيا وبشريا لذلك .

اننا أمام حالة خاصة ليس من اليسير تفسيرها فقد "غنم" الظهير من شبكة القرى في الوقت الذي بقيت فيه المدينة بدون استفادة وقد ظلت النواة العمرانية للقيروان جامدة خلال العهد الاستعماري والأمر ينسحب على حجمها السكاني ومنشآتها التجارية .

ولا بد من التشديد على ان شبكة القرى والديناميكية التي أحدثتها بقدر ما غيرت من نمط الحياة بدو الجهة ودفعتهم نحو الاستقرار والتوطن فهي لم ترسّخ تقاليد التحضّر الواضحة كما لم تقض على مظاهر الاحتياج والفقر[31] فقد تتالت أوبئة التيفوس وحمّى المستنقعات والجدري والرمد بقرى الجهة كما استفحلت المجاعات ويكفي أن نشير الى إحداث 4 مآوي عجز "تكايا" في الثلاثينات وبالتحديد سنة 1936 المشهور عند العامة ب "عام الروز" حيث عمدت السلط الاستعمارية إلى توزيع الأرز أو "الروز" على السكان لتفادي المجاعات ونقص الحبوب وتأسست هذه المآوي التي وفّرت بعض الأغذية والملابس بالعلا والهوارب وعين جلولة وسيدي عمر بوحجلة وقد دون الشعر الشعبي والذاكرة الجماعية أثر هذه المآسي :

[31] كريم (عبد المجيد)، "تفكك المجموعات الريفية ..."، ن. م.، ص 375-379.

"تكية تذكار في	جلولة تكية تذكار
خلاعة وخنار	مالروز يعطوهم كار
والعيشة مرار	سبب الفقر الاستعمار
تكية الأوطان	اليوم رينا تكية الأوطان
في كل مكان	والعربي عاري زقطان
رجال الديوان	معروفين فلان فلان
جعلوا نيشان	جمعية في القيروان
بكلهم شجعان	تغيث وتكسي في الأبدان
تكية وعباد	في جلولة تكية وعباد
من كل بلاد	لَمُّوها حشوها في واد
نسوة وأولاد	تسخف وتذوب الأكباد
تكية في البر	بدعة وتكية في البر
وكثر الشّر	المخلوق يقاسي في المر
شور سيدي عمر	لاقاتش همّه وقدر
جاء الحزب الحر	والحكيم سليمان حضر
صوّر منظر	هزّه للقايد خبر
جعلونا تكية	في الوطن جعلونا تكية
بعثولنا هدية	جرود وزيت الكاكاوية"[32]

تتعرّض هذه القصيدة الشعبية إلى استفحال المجاعات والأوبئة في ظهير القيروان وتحمّل نظام الاستعمار كامل المسؤولية وقد ازدرى الرأي العام بالحلول المقدمة والمتمثلة في فتح "التكايا" المختلطة في الهواء الطلق دون أدنى مرافق لائقة كما تبرّمت العامّة من نوعية

[32] بلحولة (محمد علي)، الجهاد التونسي في الشعر الشعبي 1855-1955، تونس، 1978، ص 252-259، قصيدة منسوبة للشاعر صوة العيوني.

المستهلكات الوافدة والمفروضة في سنوات المسغبة مثل الأرز والزيت النباتي "زيت الكاكاوية" والأدباش القديمة المستعملة.

بالمقابل أشادت الذاكرة الجماعية بوقفة رجال الحزب الجديد "رجال الديوان" في مدينة القيروان مع المعوزين ونوهت بالإعانات المقدمة من قبلهم للمحتاجين وخاصة جمعية الإغاثة والمساعفة كما نوّهت بقيادات الحزب الدستوري وخاصة الحكيم سليمان بن سليمان الذي لعب دورا هاما في فضح واقع البؤس بهذه "الملاجئ" بعد زيارته لتكية سيدي عمر بوحجلة حيث قام بالتشهير بالأمر لدى القايد وعلى أعمدة الصحف.

وبقدر ما تؤرخ هذه القصيدة لواقع البؤس والاحتياج الذي عمّ سكان قرى جهة القيروان ونواحيها فهي تؤرخ أيضا للدور الذي لعبته النخب الثقافية والسياسية في المدينة لتأطير أهالي القرى المحيطة والدفاع عن مصالحهم ومشاغلهم وهي ظاهرة فريدة واسترسلت فيما بعد وتجد تفسيرها ربما في ضعف الهيمنة الاقتصادية للقيروان على ظهيرها عكس بعض المدن الأخرى التي أدّى "تغوّلها" الاقتصادي وهيمنتها المتواصلة إلى خلق شرخ وتضاد ثقافي مع محيطها الريفي المباشر.

الخاتمة

يحيلنا حاصل ما سبق إلى القول إن شبكة قرى القيروان هي شبكة قديمة عرفت عهدها السعيد مع أيام القيروان الخوالي ثم تراجعت بين القرن 15 و19 م لكنها عرفت انبعاثا واستحداثا مع الحقبة الفرنسية في إطار الديناميكية الاستعمارية والاستثمارية ويمكن التأكيد على ان شبكة بلاد القيروان استفادت منها الجهة أكثر من المدينة التي هي مركز و"متربول" الشبكة.

ولا شك ان هذه الاستنتاجات الأولية تحتاج إلى مقارنتها بدراسات مشابهة لشبكة الوسط الغربي وقرى جهة قفصة وبلاد الكاف حتى نتمكن من الخروج باستنتاجات أعم لكتابة تاريخ القرية التونسية، وهو مسعى منقوص الى حد الآن جرّاء الاستقطاب الثنائي للدراسات بين المدينة والبادية.

Trois communications ont porté sur l'épigraphie et une sur la numismatique, Lotfi Abdeljaouad a présenté des inscriptions kairouanaises inédites confirmant son talent de véritable chercheur et d'excellent épigraphiste quant à Rajah El-Oudi-Adouni elle nous a proposé une lecture onomastique des Kairouanais recensés dans les inscriptions funéraires de Tunis. La jeune Rihab Muqaddam a mis fin au mythe du grand saint fou de Dieu Sidi Amor Abada, le forgeron fantasque, car en déchiffrant les inscriptions sur bois du mobilier de la zaouia, elle nous a appris qu'il n'avait pas fabriqué lui-même ses objets aux dimensions extravagantes. Il s'était contenté de les commander. C'était bien débuter dans la recherche et dans ce travail, elle a montré les qualités d'un futur bon chercheur. Abdelhamid Fénina nous a entretenu d'une révolte de l'époque aghlabide suscitée par une réforme monétaire d'Ibrâhîm II avec un titre comme le sien « la révolte des dirhâm » nous ne pouvions qu'être alléchés !

Nous avons eu également un éclairage original touchant à des aspects moins bien connus comme le problème des dimna-s présenté par Néji Djelloul, le culte des ancêtres de Mohamed Saïd et un culte de la fécondité très original, découvert par Adel Njim rendu dans une niche dans le rempart de la ville qui ressemble beaucoup à d'autres cultes rendus d'autres régions de la Tunisie, la piste est à suivre.

Les périodes moderne et contemporaine ne sont pas en reste avec six communications : L'histoire des remparts de Kairouan est racontée entre leur destruction par le fameux Mourad III et leur reconstruction par Husayn Ben Ali, le fondateur de la dynastie husseynite . Les cafés à Kairouan comme espaces de sociabilité au XIXe siècle sont dénombrés situés et décrits par Ibrahim Saadaoui. Alors qu'Ahmed al-Tawili, vieux kairouanais apporte un document du XIXe siècle sur les monuments de la ville, Abd el-Wahid Mokni présente le réseau des villages du Kairouanais au XIXe siècle et pour finir Habib Jammoussi nous fait part de l'image de la ville et de sa région d'après les voyageurs européens de l'époque moderne.

Bref, une riche moisson ! Qui l'eut cru Kairouan et sa région nous ont révélé leur richesse. Il nous fait nous souvenir d'Ibn Khaldûn qui avait pourtant considéré que le site de Kairouan n'était pas propice à la fondation d'une ville « Prenez les exemples de Koufa, de Basra et de Kairouan : au moment de leur fondation, les Arabes ne prirent en considération que les questions de pâturages pour leurs chameaux et de la proximité des déserts et des routes caravanières...Leur site ne répondaient pas aux exigences de la vie sédentaire...Elles tombèrent en ruine et se désintégrèrent comme si elles n'avaient jamais existé »[1].

Il est certain que « les critères qui doivent être respectés lorsqu'on fonde une ville (sont) : site, qualité de l'air et de l'eau, champs et pâturages »[2]. Mais qui pouvait deviner la richesse de la région en eaux souterraines ? Il suffit de se rappeler les résultats de la prospection de Abdellatif Mrabet pour savoir que l'eau n'était pas aussi rare qu'il le paraissait. Les bassins des Aghlabides témoignent du souci que les habitants avaient de l'approvisionnement en eau.

Cependant, une ville considérée comme la quatrième ville sainte de l'Islam ne pouvait pas disparaître ainsi, car tel le phénix qui renaît de ces cendres, Kairouan a peut-être beaucoup souffert de déprédations des nomades, mais elle a pu revivre et prospérer, rester un lieu de mémoire si important pour l'histoire de la Tunisie.

---

[1] *La Muqaddima*, traduction A. Cheddadi, Paris, 2002, p.728

[2] *Ibid*, p.727

confirment combien nos aînés s'étaient trompés quand ils parlaient de rupture entre la période antique et la période médiévale. Dans la pratique l'occupation continue est plus vraie et plus pertinente, seul un travail de terrain pouvait l'attester.

Ahmed M'charek, Michel Christol, Mohamed Grira, Mohamed Riadh Hamrouni avec deux autres collègues qui sont Hédi Fareh et Faouzi Abdellaoui et Hanène Ben Slimane-Ben Abbès nous ont entretenus de géographie historique, de la réalité changeante du territoire de la Byzacène, mais de la région à l'époque tardo-antique. Tout cela à l'aide de toutes sortes de témoignages, les textes, bien sûr, des évêchés, les inscriptions et les monnaies. Les nouvelles découvertes sur les structures domaniales sur la *via Hadrumetina* apportent un éclairage précieux sur le passé préislamique de la région.

La période reine pour Kairouan et le Kairouanais reste cependant l'époque arabe, l'époque classique de son histoire, d'ailleurs nous avons eu dix-neuf communications ! Je les répartirai quant à moi en trois groupes : les uns ont interrogé les textes et les autres les monuments et il a été question de géographie historique et de continuité. Quatre interventions portaient sur une lecture des sources scripturaires. Ibrahim Qadri Boutchich a relu des *nawâzil*, Abdelwahed Abdeslem Shu'ayb les rapports entre l'école de Kairouan et les savants andalous, Mohamed Ali Hbaieb a édité un petit texte kairouanais tardif fort intéressant pour l'historien tandis qu'Ahmed El Bahi s'est interrogé sur l'origine du nom de la ville.

La géographie historique et l'ethnoarchéologie ont eu leurs adeptes avec quatre communications portant sur le fameux Djebel Oueslat avec Riadh Mrabet qui explore courageusement cet espace pour en connaître ici l'appartenance religieuse, Jihed Souid pour sa part scrute le Djebel Bargou et le Djebel Sarj, Mourad Arar revient sur l'itinéraire d'Abû Yazid d'El-Orbus à Kairouan et Mohamed Ben Abbès s'intéresse au site de Mammes.

Dans le domaine de l'archéologie, huit travaux nous ont été exposés : il s'agit d'abord du site de Sabra al-Mansûriyya par Patrice Cressier directeur d'une fouille tuniso-française en cours et par le responsable du site Kairouan, Mourad Rammah. Un état d'avancement de la fouille et les premières conclusions nous sont ainsi présentées. Nos deux jeunes collègues égyptiens de l'Université du Caire Yasir Ismaïl Abdeslem Salih et Usama Talaat Abd Al-Naïm ont établi des rapprochements très intéressants entre le style architectural kairouanais et égyptien d'une part et l'influence de l'école architecturale kairouanaise sur l'architecture andalouse. Les parallèles établis ouvrent des perspectives qui rappellent d'ailleurs que l'Ifrîqiyya a été occupée par les Arabes à partir de l'Egypte d'une part et que les Fatimides après avoir gouverné notre pays ont régné sur l'Egypte. Quant à l'Andalousie, ses liens avec le Maghreb en général et l'Ifrîqiya en particulier ne sont plus à démontrer et par conséquent les inter-influences furent nombreuses en plusieurs domaines. Il nous suffit de nous remémorer la remarque de Patrice Cressier sur les formes et les dimensions identiques de Sabra al-Mansûriyya et de Madînat al-Zahrâ' pourtant si rivales ! Afef El-Helali a présenté un travail important sur l'architecture sahélienne et ses relations avec celle de Kairouan, à travers l'exemple de Msaken. Le style kairounais s'exporte d'autant plus dans le Sahel proche que la Ville en est la métropole, qâ'idat al-Bilâd !

Les conclusions d'un colloque : Kairouan et le Kairouanais dans la longue durée

Mounira Chapoutot-Remadi
Université de Tunis

Un beau colloque a été organisé par le département d'archéologie de la faculté des lettres et sciences humaines de Kairouan les 6-8 mars 2006, à l'occasion du 20e anniversaire de cette honorable institution. Il avait pour thème « Kairouan et sa région nouvelles découvertes, nouvelles approches ». Les journées furent denses et riches. Elles associaient une recherche junior dynamique et pleine d'entrain et une recherche sénior confirmée et tous communiquaient avec d'autant plus de plaisir que les étudiants remplissaient la salle et même quand les travaux se prolongeaient jusque vers sept heures et plus, ils étaient là, bref une belle et bonne ambiance entre enseignants et apprenants. Il faut dire que le programme était dense et ambitieux, trente-huit communications furent présentées. Kairouan et sa région ont été étudiées dans la longue durée. Je vais les présenter pour plus de clarté par grande période historique.

Nous avons écouté quatre communications passionnantes portant sur la préhistoire et la protohistoire : Notre collègue géomorphologue, Mohamed Raouf Karray a ouvert la séance en nous parlant des « trouvailles paléolithiques dans le Kairouanais ». Nous apprenons ainsi que la Tunisie centrale est très riche en vestiges préhistoriques. Il nous a montré de jeu les avantages de l'interdisciplinarité en s'associant avec Abderrazak Gragueb ou comment la géomorphologie se met au service de la protohistoire et de la préhistoire. Rappelons à ce propos le travail du regretté Roland Paskoff qui le premier en Tunisie a mis ensemble géomorphologues et archéologues pour l'étude des évolutions du littoral tunisien et rendons lui hommage.

Trois jeunes chercheurs nous ont fait ensuite découvrir les richesses de la région : Sophie Achache en nous montrant de merveilleuses peintures rupestres. Pourrons-nous oublier son magnifique guerrier à javelot ? Et les 22 pierres dressées, les dolmens d'Emna Ben Ghith ? Et la vertèbre caudale du dinosaure de 17 cm de Nabiha Abdeljaouad ? On se prend à souhaiter qu'elle retrouve le reste du dinosaure et qu'on puisse organiser un circuit de visite pour voir toutes ces découvertes passionnantes dans un beau parc préhistorique. Ces travaux ont ceci de commun non seulement la nouveauté mais aussi une jeune recherche tunisienne enthousiaste et pleine d'avenir.

La deuxième période explorée est bien sûr la période antique : neuf communications présentées respectivement par cinq professeurs bien connus *urbi et orbi* qui sont respectivement : Noël Duval, Michel Christol, Ahmed Mcharek, Abdellatif Mrabet et Sadok Ben Baaziz. Leurs jeunes disciples ont apporté eux aussi leurs contributions ; il s'agit en l'occurrence de Mohamed Grira, Lotfi Naddari, Mohamed Riadh Hamrouni, Hédi Fareh, Faouzi Abdellaoui et Hanène Ben Slimane-Ben Abbès. Noël Duval, Abdellatif Mrabet, Sadok Ben Baaziz et Lotfi Naddari nous ont parlé du Kairouanais à l'époque antique en retraçant les routes, les cartes d'occupation du sol, de prospection et d'inscription latines. Toutes choses qui

Annexe

Les plus célèbres voyageurs européens qui ont visité Kairouan à l'époque moderne*

Nom	Qualité	Origine	Séjour	Titre de l'œuvre de voyage ou des articles qui la citent
L'Africain (L.)	Aven*	Maroc	1516	*De l'Afrique, contenant la description de ce pays.* Paru pour la première fois en Italie en 1516
Marmol	Aven	Espagne	1550	*L'Afrique de Marmol*, 2 tomes, Paris 1667.
Peyssonnel (J.)	Scien*	France	mai 1724 avril 1725	Lettres rassemblées par Dureau de La Malle sous le titre de: *Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie fait par ordre du Roy en1724-1725*, t1. Lucette Valensi en a fait une annotation, *J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger*, Paris, 1987.
Shaw (T.)	Scien	Anglete rre	oct-nov 1724	*Travels observations relating to several parts of Barbary and Levant*, Oxford, 1738. Traduit en français par Jean Neaulm, *Voyage de Mr Shaw, MD...*, La Haye 1742.
De Paradis (V.)	Con*	France	1780/1786	Cuoq (J.), *Venture De Paradis, Tunis et Alger au XVIIIè S*, Paris, 1983.
Desfontaines (L.)	Scien	France	1784/1786	Dureau de La Malle, *Fragment d'un voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786*, t 2, Paris, 1838.
Einsidel (A.V.)	Aven	Prusse	1785/1786	Fendri (M.), "Trois voyageurs allemands dans la Régence de Tunis" in *R.H.M*, N° 42.
Frank (L.)	Scien	France	1804/1808	Marcel (J.J.), *Tunis, description de cette Régence par Louis Frank*, Paris, 1850.
Filippi	Con	Sarde	1829	Monchicourt (C.), *Documents historiques sur la Tunisie. Relations inédites de Nyssen, Filippi et Calligaris (1788, 1829, 1834)*, Paris, 1929.
Pellissier (E.)	Con	France	1843 /1848	*Description de la Régence de Tunis*, Paris, 1853.
Dumas (Ph.)	Aven	France	1857	*Quatre ans à Tunis*, Alger, 1857.
Dunant (H.)	Aven	Suisse	1858	*La Régence de Tunis*, Genève, 1858.
Guérin (V.)	Scien	France	1860	*La Régence de Tunis*, t 2, Paris, 1862.
Flaux (L.)	Aven	France	1865	*La Régence de Tunis au XIX s.*, Paris, 1865 .
Juillet (M.)	Aven	France	1870	*La Régence de Tunis: Géographie physique et politique, description générale, gouvernement, administration, finances*, Alger, 1874.
M^me De Voise	Aven	France	1884	*Excursions d'une française dans la Régence de Tunis*, Paris, 1884.
Maupassant (G.)	Aven	France	nov 1887 janv 1888	*La vie errante, complétée par souvenirs sur Guy De Maupassant (1883-1893)* Paris, 1907.
Baraudon (A.)	Aven	France	1890	*Algérie et Tunisie, récits de voyage et études*, Paris, 1893.

*Aven: Aventurier ; Con: consul; Scien: Scientifique.
Les voyageurs dont les noms sont soulignés ont pu accéder à l'intérieur de la ville.

prostitution qui y trouve un recrutement considérable. C'est Kairouan qui fournit les *Almées*[93] les plus renommées et les plus nombreuses à la Tunisie et à la tripolitaine. "[94].

Conclusion

Notre souci majeur a été focalisé sur l'image de Kairouan véhiculée dans les œuvres de voyage à l'époque moderne. Cette image repose en premier lieu sur un important charisme religieux que cette ville s'est procuré au fil des années. Exceptionnellement, Kairouan la sainte, reçut un intérêt particulier chez tous les Européens qui n'ont pu y accéder et même ceux qui étaient plus chanceux d'avoir franchi ses portes. Les deux catégories l'ont considérée, tout au long de l'époque moderne, dans une double dimension :

Culturellement, la quasi-totalité de nos voyageurs rejettent sur la première capitale de Islam nord-africain l'anathème d'un passé marqué par la défaite de la croix face au croissant. Allait-on, en concomitance, l'accuser d'être fondée sur les ruines d'une ancienne cité byzantine et d'avoir érigé son plus beau lieu de culte par un matériaux récolté sur les anciennes cités ravagées. Son maître fondateur, n'a-t-il pas construit cette ville pour dissimuler ce qu'il a saccagé ailleurs ?

Par ailleurs, tous les voyageurs européens qui l'on visité ou bien ceux qui se sont contentés de la contourner relèvent l'aspect culturel énigmatique de la ville la plus sainte de l'Afrique du nord. Enigmatique par son aspect vénérable, aussi bien par son image charismatique que par le grand nombre de saints qu'elle héberge. Enigmatique, également, par l'aspect légendaire qui étoffe son passé et son présent.

Socialement, ces Européens, aussi curieux qu'ils fussent, nous peignèrent l'image d'un aspect contradictoire de la ville la plus sainte et la plus vénérée de l'Afrique du nord. En effet, autant Kairouan brillait par sa vénération que par la déformation des mœurs de ses habitants dont une catégorie sombre dans la débauche. Mme De voisins ne trouve-t-elle pas "bizarre que la sainteté de Kairouan, le fanatisme de ses habitants ne sont point un frein au relâchement de leurs mœurs... "[95].

---

[93] Terme égyptien qui indique les mères maquerelles.
[94] Mme De voisins, *Excursions d'une française...op.cit*, p. 196.
[95] *Ibidem*.

Image du Kairouanais dans les récits de voyage

Jusqu'à la fin du XVIIIè siècle, la ville de Kairouan et les Kairouanais ont souffert des multiples crises politiques que l'Ifriqiya ; la Régence de Tunis, depuis l'installation des Turcs à la tête du pays, a subies. Au début du XVIè siècle, Léon l'Africain peint une image terne de la ville et de ses habitants. Il aurait, probablement exagéré, certes, mais sa description de la capitale aghlabite retrace une certaine réalité. Il note que la ville "commence à être repeuplée ; mais les habitants sont aujourd'hui tous pauvres artisans...De tous les métiers de la ville, il ne s'en trouve pas un qui ait le moyen de s'entretenir honnêtement, ainsi vivent exerçant iceux assez misérablement et en très grande pauvreté. Joint aussi que par l'oppression grande et mauvais traitement du roi de Thunes en leur endroit, ils ont été mis du tout bas, et en grande perplexité..."[87]. Un siècle après, la situation de la ville ne semble pas s'améliorer. En 1667, Marmol constate les mêmes conditions des habitants de Kairouans qui demeurent :" de pauvres gens"[88].

A la fin du XVIIIè siècle, le visage de la ville change, le nombre de ses habitants augmente ostensiblement et elle devient plus dynamique économiquement. En 1784, Desfontaines tente d'apporter une explication à la vie paisible des Kairouanais :"Le peuple, écrivait-il, y mène une vie plus heureuse que partout ailleurs, étant exempte d'impôts en récompense des services qu'il rendit au grand-père du bey actuel... "[89]. Les voyageurs du XIXè siècle nous parlent, sans exception, d'une grande ville de 12 à 15 milles âmes. Selon le témoignage de Pellissier qui la visita vers 1842, "il existe assez d'aisance générale à Kairouan, et même il s'y trouve quelques familles forts opulentes"[90]. Quelques années plus tard, Guérin remarque la même aisance à Kairouan. Il est particulièrement retenu par des "villas royales, décorées avec une rare magnificence... "[91]. Les premiers visiteurs de l'ère coloniale confirment cette aisance. En 1893 Baraudon nous parle d'une " cité aussi riche qu'ancienne...ses chefs religieux qui y résident depuis des siècles, ont amassé des fortunes que chaque jour accroît davantage. L'argent se met dans des coffres ou sert à acheter des bijoux et des étoffes somptueuses qui ne voient le jour que dans l'intérieur des gynécées. La moitié de la ville appartient, paraît-il, à quatre ou cinq famille qui exercent sur les autres une véritable royauté"[92].

Dans un tel cadre de richesse et de vie paisible, il n'est pas étrange qu'une vie de débauche entraîne un "relâchement de mœurs" chez quelques familles aristocratiques et de souche de la ville de Kairouan. Cette attitude contradictoire des habitants de cette ville vénérée depuis des siècles, était frappante, voir choquante, aux yeux des voyageurs européens. Ces derniers dénoncent "l'ivrognerie qui est le vice de la population fort aisée de la ville bénie. Les liqueurs défendus y pénètrent sans contrôle" et "la

---

[87] Léon l'Africain, *De l'Afrique...op.cit*, p. 65.
[88] Marmol, *L'Afrique de Marmol...op.cit*, p. 533.
[89] Desfontaines (L.), *Fragmes d'un voyage...op.cit*, p.61. Desfontaines se réfère à la position que la ville de Kairouan avait prise au moment du conflit entre Husseinites et bachistes. En récompense au soutient des Kairouanais à Hussein Ben Ali et à ses enfants, elle fut exempte du payement des impôts au temps de Hammouda Pacha -Bey.
[90] Pellissier (E.), *Description...op.cit*, p. 119.
[91] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 334.
[92] Baraudon (A.), *Algérie et Tunisie... op.cit*, p. 302.

Quant à la pelleterie, elle semble être la plus importante activité artisanale qui faisait véritablement la renommée de Kairouan. Les Kairouanais étaient, d'après les témoignages des voyageurs européens, des maîtres dans cet art. Déjà en 1784, Desfontaines note que " le commerce de Caïrouan consiste principalement en pelleterie, que les habitans (sic) savent employer à divers usages. On y fait des brides, des selles, des souliers à la mode du pays... "[81]. En 1860, Guérin parle d'un "grand nombre d'ouvriers qui fabriquent des brides, des selles et surtout des babouches à la mode du pays. Ces babouches, en maroquin jaune, obtiennent par l'art de la préparation une couleur de safran d'une nuance très remarquable, et pour laquelle les artisans de cette cité n'ont point de rivaux dans toute la Régence"[82].

Jusqu'au début de l'ère coloniale, la production de tout genre de cuire continue à l'emporter sur les autres activités. A partir des années quatre vingt, les responsables de la ville organisent le secteur artisanal. Selon le témoignage de M^m^ De voisin, "Chaque industrie a son bazar spécial, de même qu'elle a pour chef un *amin*... La rue des pelletiers offrait plus d'animation que les autres...Des ouvriers y fabriquent des selles et des harnais vraiment beaux, dont le velours et le maroquin brodés d'or étaient les principaux éléments...Les fabriques de babouches et de bottes en *fillaly* (espèce de maroquinerie) sont renommées en raison d'une nuance particulière chère aux musulmans, et qui tient le milieu entre les couleurs paille et maïs. On prétend qu'elle ne peut s'obtenir qu'à Kairouan"[83]

D'autres activités artisanales, peu connus, faisaient, également, la renommée de Kairouan.

Desfontaines parle de la fabrication du "sel de nitre...à quelques lieu de Caïrouan... "[84]. Pellissier nous donne une description détaillée de l'extraction du sel de Sebkha de Sidi El Heni, dont parle Desfontaines :"l'exploitation est très simple et très facile..., écrivait-il. En été, l'évaporation naturelle laisse le sel cristallisé sur le sol en beaux cristaux très-purs ; on n'a que la peine de le ramasser. On le conserve en gros tas, que l'on recouvre de broussailles et d'herbes sèches, auxquelles on met le feu. La décrépitation produit sur chaque tas une couche solide, imperméable, qui met le sel à l'abri de l'action de la pluie...Les salines de Sidi-el-Hani et celle de la sebkha de Sidi-Ben-Nour, dont j'ai parlé sont affermées"[85]

En 1829, le Comte Filippi parle du monopole de la ville de Kairouan dans la fabrication "des chandelles de cire". Monchicourt qui annote le texte de Filippi tente d'expliquer la réussite de la ville de Kairouan dans la fabrication de la cire. "Les montagnes situées dans la mouvance de Kairouan, telles que le Bargou, la Kessera et le Djebel Ousselet, étaient peuplées de villages dont les habitants s'adonnaient en grand, et s'adonnent encore, à l'apiculture. Ils vendaient miel et cire à Kairouan, seul marché de toute la région. Cette concentration avait développé dans cette ville la confection des chandelles qui trouvaient d'ailleurs un bon débouché sur place dans les diverses cérémonies et dans les zaouias et mosquées où l'éclairage à la chandelle remplaçait celui de l'huile. Un décret régularisa cette situation de fait en conférant aux Kairouanais le monopole de cette fabrication... "[86].

---

[81] Desfontaines (L.), *Fragment d'un voyage...op.cit*, p. 61.
[82] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 331
[83] Mme De voisins, *Excursion d'une française...op.cit*, p. 180.
[84] Desfontaines (L.), *Fragment d'un voyage...op.cit*, p. 61.
[85] Pellissier (E.), *Description...op.cit*, p. 132.
[86] Monchicourt (C.), *Documents historiques...op.cit*, p. 222.

inculte, elle voit chaque jour entrer dans ses murs des caravanes qui l'alimentent incessamment... "[74].

De son côté, Kairouan fournis les marchés des centres urbains les plus proches sa production artisanale qui est assez recherchée. Selon Dunant, "la ville sainte fait un commerce actif avec Sfax[75] et Sousse....On exporte pour Tunis des quantités considérables de goudron"[76]

Une dynamique activité artisanale

Nos voyageurs européens n'ont jamais omis de passer en revue les différentes activités artisanales de la ville de Kairouan. Il nous semble parfois qu'il s'agit d'une véritable ville industrielle, eu égard aux multiples productions qui sont propres à cette ville et qui n'existent nulle part.

Les premiers témoignages qui nous parviennent de Kairouan parlent d'une ancienne activité de tissage de tous genres de tissus dont Kairouan se spécialise. En 1724, Peyssonnel parle de " beaucoup d'étoffe de line qu'on y fait : des Bernous, des Sufficiels[77] et autres propres pour le pays... " [78].

Cependant, et jusqu'à la fin du XIXè siècle, on ne trouve trace de l'activité de tissage la plus populaire et qui fait la renommée internationale de Kairouan à nos jours. Nous entendons par là, la tapisserie kairouanaise. En effet, ce n'est qu'au début de l'ère coloniale que les voyageurs parlent de la fabrication de "tapis rayés de bandes parallèles exposés dans les souks de Kairouans"[79].

Il n'y a nul doute que cette activité fait partie des traditions de la région. Cependant, il s'agit probablement, d'une activité familiale qui n'était pas exposée dans les souks. C'est pour cette raison que nos voyageurs n'avaient remarqué de tapis exposés dans les différents souks de Kairouan ou bien de sa région. Au début du XIXè siècle, Filippi fait allusion à cette supposition. Il remarque que:" dans l'intérieur des terres fermes, les femmes des bédouins s'occupent à la fabrication des couvertures en laines. Elles ont des métiers extrêmement simples et ne se servent point des navettes, conduisant avec les doigts chaque fil de la trame... "[80].

---

[74] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 331.
De son côté, Kairouan exporte vers les villes portuaires sa production artisanale. Vers Sfax, par exemple, les artisans Kairouanais exportent "les tissages, la pelleterie et le *ğdārī...* " Zouari (A.), *Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIIIè et XIXè siècles*, Tunis, 1990, p. 98.

[75] Vers Sfax, les artisans Kairouanais exportent "les tissages, la pelleterie et le *ğdārī...* " Ces produits sont automatiquement exportés vers l'Orient. Zouari (A.), *Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIIIè et XIXè siècles*, Tunis 1990, p. 98.

[76] Dunant (H.), *La Régence de Tunis...Op.cit*, p. 120.

[77] Probablement s'agit-il des *Sefseris*, le voile qui couvrait, et couvre jusqu'à nos jours, les femmes tunisiennes.

[78] Peyssonnel (J.), *Voyages...*, *op.cit*, p. 99.
D'autres activités de tissage sembles êtres inconnues de nos voyageurs, tels que le *Bakhnoug* (sorte de foulard que les femmes mettent sur la tête) les couvertures de toutes sortes, la *Jobba*, la *Qachabia* (un genre de burnous)... *Cf*, Kaabi (M.), *Kairouan*, Beyrout, 1990, p.122.

[79] Baraudon (A.), *Algérie et Tunisie... op.cit*, p. 300.

[80] Monchicourt (C.), *Documents historiques...op.cit*, p. 121.
Selon Mongi Kaabi, "Le plus ancien tapis dans sa forme kairouanaise connue de nos jours, se trouve conservé dans le mausolée de Sidi Sahab. Il s'agit d'un don présenté en 1830 au saint protecteur de la ville par une fille, Kamla bent Mohamed Chaouch, gouverneur de Kairouan... " Kaabi (M.), *Kairouan...op.cit*, p. 120.

souterrain que quarante Derviches entretiennent continuellement pour le bien des Musulmans... »[69].

Une ville industrieuse, une place opulente

Tout au long de l'époque moderne, tous les témoignages des Européens attestent du grand dynamisme de la place de Kairouan. Sa position stratégique au centre de la Régence et au confluent des routes commerciales entre l'Orient et l'Occident et surtout en tant que passage inévitable des caravanes maghrébines des pèlerins constitue un atout pour cette ville dont elle profite énormément. L'opulence de la place de Kairouan est incontestable. La réussite de son activité commerciale est, sans doute, derrière la réussite de son activité artisanale.

Il semble que la ville a toujours vécu en relation intime avec toute la zone du centre tunisien. Avait-elle, en outre, joué un rôle d'intermédiaire entre les régions côtières ; le Sahel et la Région de Sfax, et l'intérieur du pays. D'ailleurs, tous les Européens qui ont visité la région, n'ont pas manqué de relever ce fait capital dans la survie de Kairouan qui est, au fond, victime de l'aridité de son milieu géographique et climatique. "L'assiette de Cairaouan, note Léon L'Africain au début du XVI^{è} siècle, est une campagne marneuse et déserte, ne produisant arbre ni grain ; mais en défaut de ce, il s'en apporte (avec les autres choses nécessaires pour sustenter le corps humain) dessus la rivière de la mer de Susa, Monaster ou Mahdia... "[70]. En 1860, la situation de Kairouan ne semble pas avoir énormément évolué par rapport au XVIè siècle. Guérin note encore qu'elle (la ville de Kairouan) "s'élève dans un véritable désert presque entièrement dépourvu d'arbres et même d'arbustes. Dans les années pluvieuses, ce désert s'anime, tant est féconde alors cette terre d'Afrique...Et de beaux pâturages y attirent de nombreux troupeaux conduits par des tribus nomades d'Arabes... "[71].

Kairouan a, donc, toujours profité de sa position stratégique au centre de la Régence et dépendu de sa région qui l'alimentait en denrées alimentaires et dynamisait sa place. Vers la fin du XVIè siècle, Léon L'Africain, note que "les Arabes viennent passer l'été auprès de cette cité...ils amènent des chairs de bœuf en abondance et des dattes, lesquelles ils apportent des cités de Numidie, distantes par l'espace de 160 milles de celle-ci... "[72]. Un siècle après, le chroniqueur tunisien *Ibn ʿabi Dinar* confirme cette relation de la ville avec sa zone d'influence. " Chaque jour, écrivait-il, quarante chameaux déversent dans la ville des fleurs de la région de *Jloula*, et ces fleurs sont d'une grande réputation... "[73].

Cette relation fructueuse semble se consolider et s'organiser au fil des années. Au milieu du XIX^{è} siècle, Guérin nous en donne une parfaite description. " La ville, écrivait-il, a des marchés bien fournis. Bien qu'au tour d'elle règne au loin un désert

---

[69] Monchicourt (C.), *Documents...op.cit*, p.225. Monchicourt note qu'au début du XXè siècle, les habitants de la régions appellent encore cette station thermale "Hammam Essalhins" (bains des saints).
[70] Léon l'Africain, *De l'Afrique...op.cit*, p. 64
[71] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 326.
[72] Léon l'Africain, *De l'Afrique...op.cit*, p. 64.
[73] Ibn ʿAbi Dinar, *Al Mo'nis...* annotation de Chammem (M.), Tunis, 1967, p. 28.

légendes et anecdotes qui remplissent les récits de voyage. Il nous semble, d'ailleurs, que les voyageurs européens se rabattent sur ces légendes chaque fois où il leur fallait pallier un manque d'informations, du, principalement, au refus de cette ville de leur ouvrir se portes.

Les quelqués anecdotes populaires et légendes kairouanaises que nous avons collectées, outre celles qui étoffent sa fondation et la construction de ses monuments les plus sacrés, retracent en partie les différentes étapes de son histoire et étayent la sacralisation que lui attribuent non seulement ses propres enfants mais encore tous les habitants de la Régence.

Presque tous les voyageurs récupèrent par ouie dire ce qui relève du caractère mystique de la ville et accrédité par ses habitants. C'est la grande mosquée qui demeure toujours le lieu le plus sacré de la ville. Elle a acquis au fil des années des vertus que nul autre lieu saint ne lui égalise. "A côté du Mihrab, nous rapporte-t-on, deux colonnes voisines laissent à peine entre elles la place de glisser un corps humain. Les Arabes qui peuvent y passer sont guéris des rhumatisme d'après les uns ; d'après les autres, ils obtiendraient certaines faveurs plus idéales"[66]

En 1724, Peyssonnel parle de l'importance d'autres colonnes qui existent cette fois-ci à Sabra. D'après les habitants de la ville, " parmi les colonnes qui ornent le palais des califes, il reste deux grosses qui ont 15 pieds de circonférence sur 35 de longueur. Les Turcs mettent dessus des mesures de bled puis y font prière croyant par cette superstition rendre la terre fertile et la moisson abondante"[67].

Il semble que ce sont les mêmes colonnes dont parle Guérin en 1860: "deux seules tronçons de colonnes n'ont pas été transportés des ruines de Sabra...On les désigne par le nom *arsat eddam,* les colonnes du sang ou les colonnes sanglantes. Ce sont deux fûts monolithes longs d'un peu de trois mètres et ayant un diamètre de près de 1 mètre. On voit qu'on a essayé de les scier et qu'on a ensuite renoncé à cette opération. Comme ils étaient de granite rougeâtre mêlé de diverses autres nuances, telles que violet, lilas, rose et noir, une tradition veut que du sang ait coulé sous la scie des ouvriers au moment où ils s'efforçaient de les couper par moitié afin de pouvoir les transporter...et qu'à cette vue ils se soient arrêtés épouvantés..."[68].

La région limitrophe de Kairouan ne maque pas elle aussi de légendes propres à chaque localité. Parmi les plus célèbres, celle de "Hammam Truzza" est la plus répandue dans toute la région. Le comte Filippi visita ce lieu. Il nous rapporte avec beaucoup de minutie ce qui entoure cette source d'eau minérale de croyances populaires :" tout au long de la rivière de Merkellil, à six heures de Kairouan, dans la plaine de Chrichra, je grimpait une haute montagne pour visiter une caverne que les habitants appellent Hammam Truzza ou bain de Truzza. Je m'introduisis dans cette caverne qui a la forme d'un puit assez large. J'éprouvai de suite des vapeurs soufrées qui mirent en sueur...Les bédouins de ces environs ainsi que ceux qui approchent le Kairouan à la tribu des Slass assurent que ces vapeurs sont formées par un feu

---

[66] Maupassant (G.), *La vie errante...op.cit.*
Il parait que jusqu'à nos jours, les Kairouanais accordent encore des vertus à ces deux colonnes. D'après les croyances populaires, celui qui peut glisser entre elles, aussi obèse qu'il puisse être, gagne sa place au paradis.
[67] Peyssonnel (J.), *Voyages..., op.cit,* p. 100.
[68] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit,* p. 335.

refuge des animaux féroces, et cet historien ne fait nullement mention de ruines comme existant au milieu de cette forêt. Les blocs, les colonnes et les fragments antiques de toute nature que l'on rencontre presque à chaque pas dans les constructions modernes de Kaïrouan proviennent donc d'ailleurs, soit de Sabra, soit d'autres localités plus éloignées..."[61].

Néanmoins, nous décelons dans presque tous les textes, ce sentiment d'amertume d'avoir perdu les traces d'une civilisation qui avait, jadis, régné sur ces lieux. Nos voyageurs incombent à l'Islam et aux musulmans l'extermination de toute trace de ces anciennes civilisations. Shaw regrette que les arabes eussent "défigurer" les colonnes en effaçant les anciennes inscriptions par du ciment "de sorte qu'il est impossible de découvrir l'ancien nom de cette ville par aucune des antiquités que l'on y voit..."[62]. Au début du XIX^{e} siècle, Frank relève le même fait pour la construction des remparts de Kairouan : " Je n'ai pu vérifier, écrivait-il, si parmi les matériaux antiques qui ont été employés à la construction de ce magnifique édifice, il existe quelques blocs portant des inscriptions anciennes. Quant à celles qu'on peut rencontrer en d'autres endroits de la ville, elles sont tellement mutilées ou encroûtées de ciment, qu'il est absolument impossible d'en déchiffrer la moindre partie..."[63]. En 1856, Dunant regrette, de son côté, "la splendeur des anciennes civilisations " qu'il ne retrouve plus dans tout le pays. Pour lui, "ce pays manque de culture, mais les ruines que l'on trouve partout, comme sur le littoral tout entier, prouvent le degré de splendeur et de richesse qu'il possédait sous l'empire de Rome et sous celui de Byzance..."[64].

Vers la fin du siècle, Mme De voisins retrouve dans une anecdote populaire, ou probablement imagine-t-elle l'avoir entendu sur la bouche d'un vieux kairouanais, les traces du plus glorieux épisode de l'histoire de l'Eglise en Afrique du Nord ; la dernière croisade sur la Tunisie. On lui aurait dit qu'à "l'intérieur de cette mosquée, les armures des chevaliers chrétiens, compagnons du roi Saint-Louis, qui ont succombé sous les murs de Tunis, sont érigés en trophées"[65].

La colonisation de ces territoires ne serait-t-elle pas, dans l'esprit colonialiste que représente parfaitement cette dame, une sorte de revanche de la croix sur le croissant ?

Une culture légendaire

L'étude des récits de voyage nous permet de récupérer un fond légendaire et des croyances populaires propres à la ville de Kairouan, que le temps a effacé en partie de la mémoire collective. Il semble même que l'histoire de cette ville soit soutenue par d'innombrables légendes qui étayent parfois son élévation au rang de sainteté. D'ailleurs, il n'est, probablement pas, de ville tunisienne qui puisse rivaliser avec Kairouan par le nombre d'anecdotes et de légendes qui ornent l'histoire de la sainte cité de l'Islam. Chaque coin de la ville, chaque rue et chaque lieu saint retracent les péripéties d'une longue histoire soutenue par un riche, et combien attrayant, fond légendaire. Ce qui a permis à nos voyageurs de récupérer un nombre important de ces

---

[61] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 337.

[62] Jean Neaulm, *Voyage de Mr Shaw...op.cit*, p. 258

[63] Frank (L.), *Histoire de Tunis précédée d'une description de cette Régence par le Dr Louis Frank*, Publié par J.J. Marcel, Paris 1850, p.41.

[64] Dunant (H), *La Régence de Tunis...Op.cit*, p. 120.

[65] M^{me} De voisins, *Excursion d'une française...op.cit*, p. 192.

défendus par la nature "pour servir de retraite à son armée et renfermer les richesses et les trésors qu'il remportait de toute la Barbarie et de toute la Numidie après le sac de Carthage"[56].

Pourtant, les raisons du choix de l'emplacement de la fondation de Kairouan, relatées par les sources arabes ; les mêmes sources que les voyageurs européens avaient utilisées, paraissent plus logiques. Ibn Al Idhari rapporte que " lorsque les soldats de *ᶜOqba* lui ont proposé de fonder la ville sur la côte, il leur a dit : j'ai peur qu'elle ne soit conquise par surprise par l'empereur de Constantinople. Mettez, donc, entre elle et la mer une distance de sécurité qui ne permet pas au maître de la mer de l'atteindre sans être avisé...Et, concernant sa proximité de la Sebkha il a dit : Ainsi nos bétails seraient à proximité de nos demeures lorsqu'elles sont en pâture et en sécurité des attaques des Berbères et des Chrétiens..."[57].

Par ailleurs, les voyageurs européens attestent, sans exception, que Kairouan fut, érigée sur les ruines d'une ancienne ville romaine ou byzantine. Les investigations de nos voyageurs à ce niveau convergent toujours vers cette supposition. Il fallait toujours retrouver les indices de l'ancienne cité chrétienne dans le nombre impressionnant de colonnes qui ornent la Grande Mosquée. "502 colonnes de diverses couleurs écrivait Desfontaines, soutiennent la mosquée et décorent son intérieur...le renégat m'a encore copié deux inscriptions latines qui attestent que cet édifice est l'ouvrage des Romains"[58].

Dʳ shaw fut, quant à lui, très déçu de ne pouvoir attester par ses propres moyens l'authenticité des colonnes romaines. "Je n'ai pu apprendre si, parmi cette grande variété de colonnes et autres anciens matériaux employés à grand et magnifique édifice, il y avoit (sic) une seule inscription, ni ce qu'elle contenoit, et pour celles que j'ai trouvées en d'autres endroits de la ville, elles étoient (sic) remplies de ciment, ou autrement défigurées; de sorte qu'il est impossible de découvrir l'ancien nom de cette ville par aucune des antiquités que l'on y voit...On s'est certainement trompé lorsqu'on dit que c'était l'ancienne Curibis...Le nom de Kairouan pourroit (sic) fort bien dériver de ce que nous appelons caravane, nom qui, dans sa première signification, étoit (sic) donné par les Arabes aux rendez-vous de leur troupes..."[59].

Nonobstant la justification historique et archéologique de quelques voyageurs qui confirment la fondation de Kairouan sur les ruines d'une cité romaine, d'autres doutent de sa parenté avec aucune autre plus ancienne[60]. En 1860, Guérin affirme que " la ville n'a succédé à aucune autre cité antique ; car nous savons par le passage que j'ai cité de l'historien arabe Novaïri, qu'à l'époque où Okbah entreprit d'en jeter les fondements, il ne trouva dans l'endroit qu'il avait choisi qu'une fourré impénétrable,

---

[56] Marmol, *L'Afrique de Marmol...op.cit*, p.532

[57] Ibn Al Idhari al-Marrakchi, *Al Bayanu al Moghrib*...p. 19. Mʳ Mohamed Talbi nous fait une sythèse, plutôt plus logiques, du choix de *ᶜOqba*: " Evitant, à l'Ouest, le rivage dangereux pour des conquérants qui ne disposaient pas encore d'une marine suffisante et, à l'Ouest, les montagnes favorables aux embuscades et aux surprises, *Oqba* n'avait d'autres choix que d'emprunter le couloir qui aboutissait forcément à la région de *Qamounmya*, c'est-à-dire d'Al-Kayrouan" "Al-Kayrawan", *Encyclopédie de l'islam...art, Op.cit.*

[58] Desfontaines (L.), *Fragmens d'un voyage...op.cit*, p. 60.

[59] Jean Neaulm, *Voyage de Mr Shaw...op.cit*, p. 256.

[60] De nos jours quelques historiens et archéologues admettent l'idée de la fondation de Kairouan sur les ruines d'une ancienne cité romaine ou byzantine. " Tout prouve, nous atteste Talbi, que cette place avait été jadis occupée par une ville romaine ou byzantine tombée en ruine, comme beaucoup d'autres à l'époque de la conquête musulmane. Les premiers édifices élevés par les arabes profitèrent sûrement de matériaux de remploi trouvés abondamment sur place..." Talbi (M), "Al-Kayrawan", *Encyclopédie de l'islam...art. Op.cit.*

information sur la "Barbarie", d'une façon générale, et sur la ville de Kairouan plus particulièrement, beaucoup plus importante qu'ils n'eussent espérer. Leurs notes, journaux personnels, correspondances...présentaient, effectivement, une fresque d'images, de scènes, de rencontres et de descriptions, parfois captivantes, de la ville qui les a tant impressionnée. Cependant, deux thèmes de prédilections étaient, assez souvent, fastidieusement développés et trouvaient plus d'espace dans les volumineuses relations de voyage. Nous entendons par là, "les croyances" et les "mœurs" des habitants de la ville.

Ce qui demeure, tout de même, assez captivant, c'est le nombre impressionnant des légendes kairouanaises qui ornaient les récits de voyage.

Le légendaire dans l'histoire de Kairouan : autour de la légende de la fondation

Il semble que toute l'histoire de la première capitale de l'Islam nord-africain est soutenue par un soubassement légendaire qui constitue, en fin de compte, l'originalité de cette cité. Des légendes séculaires que les Kairouanais gardent jalousement afin d'étayer la vénération de leur cité. Tous curieux qu'ils fussent, nos voyageurs ont collecté ces légendes. Quelques-unes sont, jusqu'à nos jours, encrées dans la mémoire collective Kairouanaise, d'autres sont perdues en cours de route.

Presque tous les voyageurs de l'époque moderne reprennent la légende de la fondation de Kairouan citée par Annouwairi dont le manuscrit a été traduit depuis le XVIIIè siècle. Cette légende assez célèbre, même parmi les historiens arabes, considère que "Okbah ben Nafi, ayant pris la résolution de fonder la ville de Kairouan, conduisit ses soldats vers l'endroit qu'il avait choisit..." Ses compagnons se plaignirent de la présence des bêtes sauvages de toute espèce et des serpents. "Okbah, dont l'intercession était toute puissante auprès de la divinité, s'adressant alors à Dieu très haut... et s'écria: O ! vous serpents et bêtes sauvages, sachez que nous sommes les compagnons du prophète d'Allah! Retirez-vous du lieu que nous avons choisi pour nous établir; ceux de vous que nous rencontrerions plus tard seraient mis à mort. Quand il eut achevé ces mots, les musulmans virent avec étonnement pendant toute la journée les bêtes venimeuses et les animaux féroces se retirer au loin et emmenant avec eux leurs petits..."[54].

Ce qui retient l'attention n'est pas en fait la légende en tant que telle. Tous les historiens arabes entourent la fondation de Kairouan par ce côté mystique inhérent à toute l'histoire de la première cité islamique en Afrique du Nord. Cependant, l'explication apportée par tous les voyageurs sur la conjoncture historique et sur le choix de l'emplacement de la ville par le chef militaire en question devient plus importante dans les récits de voyage.

Reprenant Léon l'Africain, tous les voyageurs, sans exception, considèrent que *ᶜOqba* fonda cette ville dans le seul but d'assurer la sécurité de son armée et de cacher les trésors "qu'il avait amassés en saccageant toutes les cités de Barbarie et de Numidie"[55]. Vers la même période, Marmol confirme cette supposition qu'il érige en vérité absolue. Il ajoute encore que *ᶜOqba* choisit de fonder sa capitale dans des lieux

---

[54] Guérin (V.), *Voyage archéologique*...op.cit, p.327. Selon Ibn Al ᶜIdhari qui relate la même légende, " les habitants d'*Ifiqiya* y ont vécu quarante ans sans jamais voir dans la ville ni serpent ni scorpion ni lion" ; *Al Bayanu al Moghrib fi akhbar Al Andalus wal Maghrib*, (chroniques andalouses et maghrébines), commenté par un groupe de professeurs, Beyrout 1985, p. 19.

[55] L'Africain (L.), *De l'Afrique...op.cit*, p. 59.

commune des Kairouanais, comme d'ailleurs chez tous les habitants de la Régences. Ils récoltaient alors toutes les légendes, anecdotes et "*Barakets*" de presque tous les saints de la ville.

Parmi les 55 Zaouia ou Kobba de marabout comptées par tous les voyageurs, celle du "Barbier" les a le plus impressionnée par la beauté de son édifice. Elle demeure, "la plus gracieuse mosquée, la plus colorée, la plus coquette des mosquées et le plus parfait échantillon de l'art décoratif arabe..."[50]. Sidi Essaheb demeure également le saint le plus vénéré des habitants de la ville à cause de son rôle historique comme étant parmi les premiers fondateurs de la ville et surtout en raison des trois poils de la barbe du prophète qui sont enterrées avec lui[51].

Quant à Sidi Amor Abada, il acquit au cours du XIXè siècle une grande popularité parmi les habitants de Kairouan. L'un des Européens qui ont visité la ville de Kairouan le décrit comme "un personnage énigmatique d'une étonnante force de caractère et de foi, excessif de puissance et de grandeur...qui jouit d'une grande notoriété dans la région notamment en milieu rural...".

Au début de l'ère coloniale, Baraudon nous rapporte que ce saint avait prédit, bien avant l'occupation française, le terrible sort de la Régence. "Sur une lame, conservée comme relique, le marabout, mort seulement il y a quelques années, avait tracé une prédication terrible: Trois grands serpents, couverts d'écailles vomissant le fer et feu, devaient entourer de leurs anneaux la ville sainte, et, trouvant les défenseurs absents, y pénètrent en punition des crimes sans nombre qui s'y commettaient depuis des siècles. Les personnes clairvoyantes prétendaient que cette prophétie s'appliquait aux Français et à leur entrée à Kairouan"[52]

Dès les premières années de l'occupation française, l'intérêt des Européens fut porté à la secte des Isaouia. Cette dernière impressionna le plus tous les Européens qui visitèrent Kairouan. Baraudon en réserva une grande partie de son récit de voyage relatant avec beaucoup de détail la vie et les miracles de son fondateur Sidi Mohammed Ben Issa et décrivant avec minutie les scènes de la *Hadhra*[53].

Kairouan et les Kairouanais

Nous réservons cette deuxième partie aux multiples images qui se rapportent à la vie quotidienne des habitants de Kairouan à cette époque et qui intéressent les croyances populaires les plus répandues de l'époque et à leur vie active.

Les voyageurs en traversant la région de Kairouan ou bien à l'intérieur de la ville étaient, d'une façon générale, des observateurs méticuleux et rien ne leur échappait. Emportés par leur zèle, ils retournaient chez eux la plupart du temps avec une

---

[50] Maupassant (G.), *La vie errante...op.cit.*

[51] Il semble qu'il n'est pas le seul à avoir transporter avec lui des poils de la barbe du prophète. Mohammed Ben Khouja parle d'autres poils enterrés dans l'école El Morjaniya à Tunis. Ben Khouja (M.), *Safahat min tarkhi tunis*, annotation de Sahli (M.) et Belhaj Yahiya (J.), Beyrout 1986, pp. 66-67.

[52] Baraudon (A), *Algérie et Tunisie... op.cit*, p.299.

[53] Il explique surtout pourquoi la *Hadhra* et composée de 40 membres: "On raconte, écrivait-il, qu'à l'époque de la fête du Beïram, comme une foule nombreuse entourait la demeure de Sidi Issa, il sortit et annonça que le seigneur réclamait un sacrifice humain. Un Khouan se dévoua et pénétra dans l'enclos. A ce moment, un cri retentit, et l'on vit un filet de sang couler dans la rue...Presque aussitôt sidi Issa réapparut et demanda de nouvelles victimes....Pourtant aucun de ces victimes, au nombre de quarante, n'était mort. En entrant, chacun d'eux avait reçu l'ordre d'égorger un mouton...En souvenir de ce fait, la *Hadhra*, est encore aujourd'hui composée de 40 membres"Baraudon...p. 306

Quelques voyageurs, ne pouvant concevoir un tel rang de considération chez les habitants de tout le pays et afin de pallier un manque de connaissance d'une spiritualité musulmane complexe et étrange, n'hésitent pas à retrouver dans cette citadelle l'image des plus célèbres monastères du monde Chrétien. "C'est la cité sainte par excellence, écrivait Baraudon en 1893, vierge de toute profanation...poème de pierres élevées par les califes à la gloire du tout puissant vainqueur des idolâtres, ville morte aux bruits extérieurs, qui se recueille dans la paix de ses remparts, pour pousser chaque jour sous le ciel bleu d'Afrique, du sein de ses mosquées, de ses Zaouias, de ses dars habitées par les chefs pieux, aussi croyants que les premiers fidèles, l'éternel appel du monde islamique vers le Dieu unique et créateur"[46].

Nous retrouvons cette même image chez Guérin qui puise l'image de la sainteté dans un lexique propre à la religion Chrétienne afin de mieux saisir les secrets de la vénération appropriée à Kairouan: "C'est la cité sainte par excellence, c'est la véritable métropole du culte, métropole où le croissant domine sans partage. Là, jamais le muedzin, en annonçant la prière du haut des minarets, n'a rencontré de son regard indigné aucun autre symbole religieux arboré sur un sanctuaire rival où le nom de Mahomet ne fût point invoqué, là, depuis douze siècles, l'imam, interprète et apôtre du coran, n'a jamais vu paraître en sa présence un ministre de l'évangile. De là, l'espèce de sainte et mystérieuse auréole dont la foi musulmane l'entoure... Kaïrouan, en effet, a toujours été fermée aux Chrétien..."[47].

De son côté, Maupassant est plus explicite. En pénétrant dans la Grande Mosquée, il retrouve la sérénité "d'un beau monastère d'Italie". "Je ne connais par le monde, écrivait-il, que trois édifices religieux qui m'avaient donné l'émotion inattendue et foudroyante de ce barbare et surprenant monument: le mont Saint-Michel, Saint-Marc de Venise et la Chapelle Platine à Palerme..."[48].

De telles images et métaphores ne font, en réalité, que corroborer le sentiment de frustration que ressentent ces Chrétiens face au refus de la ville sainte de leur ouvrir ses portes. Au début de l'ère coloniale, Kairouan fut obligée de dévoiler ses mystères à une nouvelle vague de visiteurs. Les premiers qui avaient franchi les portes de la ville et même les lieux les plus sacrés, allaient, en pleine euphorie, acclamer la victoire de la croix sur le croissant.

Kairouan la mystique

Les Voyageurs de l'époque moderne accordèrent un intérêt tout particulier à la dévotion et " à la question *Walaïque*"[49] dans le dessein d'une meilleure connaissance de la société autochtone. Ils furent presque tous impressionnés par le grand nombre de *Zawaiyas* qui remplissaient la ville proprement dite et ses alentours. N'allait-on pas, souvent, les comparer à des "chapelles consacrées à des santons" afin de mieux cerner le phénomène du mysticisme qui apparaissait nettement prévaloir dans la conscience

[46] Baraudon (A.), *Algérie et Tunisie... op.cit*, p. 305.
[47] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 335.
[48] Maupassant (G.), *La vie errante...op.cit.*
[49] Taoufik Bachrouch considère que l'intérêt que portent les Européens au début de l'ère coloniale à la question *Walaïque*, s'explique par une volonté qui animait nombre d'entre eux de permettre aux autorités coloniales d'utiliser au mieux de leur puissance le contrôle social dont la société dévote était détentrice. Posé en ces termes, le discours servait les intérêts de la colonisation. *Le saint et le prince Les élites tunisiennes du pouvoir et de la dévotion, contribution à l'étude des Groupes sociaux dominants (1782-1881).*, Tunis, 1989, p. 50

d'aucune autre ville de la Régence de Tunis. La vue d'ensemble de Kaïraouan est gracieuse et pittoresque"[38].

Kairouan la sainte

La décadence politique et les multiples accidents de circonstances au cours de la longue histoire de la première capitale de l'Islam ne dévaluent en rien sa valeur religieuse au point d'être vénérée en tant que ville sainte. C'est du moins la première impression qui ressort des textes laissés par tous les Européens qui l'ont visitée. Selon Guérin, cette vénérable cité "est toujours demeurée dans l'esprit des masses la capitale religieuse de la contrée... C'est la cité sainte par excellence. C'est la véritable métropole du culte, métropole où le croissant domine sans partage...Ce qui la distingue surtout, c'est le caractère sacré dont elle est revêtue..."[39].

La vénération de la première capitale de l'Islam nord-africain provient certainement du rôle que dut jouer cette "ville sainte" au cours de son histoire et particulièrement aux premières lueurs de l'ère islamique. La légende de la fondation de cette ville par le vénérable Oqba Ibn Nafa fut, incontestablement, derrière la vénération de cette ville érigée en ville sainte par ses habitants[40]. Selon Guérin, "l'ancienne capitale de l'Islam a gardé, à cause de cette fondation même, un prestige sacré qu'aucune autre ville ne peut lui disputer dans toute l'étendue de la Régence...à ce titre, elle est interdite à tous ceux qui ne professe pas l'islamisme"[41].

C'est précisément la fermeture des portes de Kairouan face à ces allogènes qui semble rehausser de son rang de sainteté, au point où Filippi s'en est allé puiser dans les croyances populaires une prédiction, qui paraît être assez répandue parmi les Tunisiens à l'époque de sa visite de Kairouan. Selon ce consul, "les Maures disent d'après une prédiction de leurs livres religieux que la Mecque sera un jour prise par les infidèles et qu'alors le pèlerinage des Musulmans se fera à Kairouan"[42]. Cette prédiction reprend une autre croyance qui prétend que "lorsque les musulmans du continent africain sont dans l'impossibilité d'accomplir le pèlerinage de la Mecque, ils le remplacent par celui de Kaïrouan, reconnu valable par les plus orthodoxes"[43].

Pour d'autres voyageurs, la vénération proviendrait des croyances populaires les plus accréditées: Selon quelques-uns, "On se plaît à croire que ceux dont les os sont enterrés dans ce saint lieu voient leurs âmes comme purifiées et efficacement recommandées à Dieu pour la félicité de la vie éternelle par les oraisons des prêtres en questions". Selon d'autres, "sur le tombeau de Okba on conserve l'épée d'Aly. Ils (les habitants de Kairouan) la gardent avec grand soin et grand respect"[44]. Une autre tradition populaire "que les imams ont soin de perpétuer dans les masses, prétend que les pierres de la Grande Mosquée de Kairouan seraient venues miraculeusement se poser d'elles-mêmes à la place qu'elles occupent..."[45]

---

[38] Pellissier (E.), *Description...op.cit*, p.18

[39] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 325.

[40] *Cf infra.*

[41] *Ibid*, p. 325-326.

[42] Monchicourt (C), *Documents...op.cit*, p. 222.

[43] M[me] De voisins, *Excursion d'une française...op.cit*, p. 181. Une autre croyance répandue chez les Tunisiens ne diffère pas de celle-ci. Elle considère qu'une visite à cette ville et à ses lieux saints sept fois remplacerait un pèlerinage à la Mecque.

[44] Peyssonnel (J.), *Voyages..., op.cit*, p. 100.

[45] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 335.

En réalité, c'est le sentiment de frustration de ne pas pouvoir percer le mystère de la ville sainte qui plonge ces Européens dans une haine parfois acerbe contre les habitants de Kairouan qui défendent jalousement leur ville et leurs saints des regards des Européens. Imbus d'un profond sentiment religieux, la quasi-totalité de ces étrangers se révolte contre l'Islam qui, selon eux, encourage ouvertement ce fanatisme.

En 1860, Guérin, en sa qualité d'archéologue qui entreprit une expédition archéologique dans la Régence de Tunis, semble être le plus affecté par cet handicap à son entreprise scientifique. Il note alors que cette ville "est restée vierge du contact de toute religion opposée à celle de son fondateur Okbah". Pour lui, cette attitude relève du "fanatisme héréditaire et comme incurable des habitants de Kaïrouan". Cette attitude de haine contre l'Islam et les Musulmans, déjà encrée chez cet archéologue, fut doublée par une malchance de circonstance au moment de sa visite da la Régence. En effet, l'année 1860 coïncidait avec les évènements qui enflammaient à cette époque Musulmans et Chrétiens en Orient. Ces événements avaient certainement leurs échos dans la Régence tunisienne, puisque cet archéologue n'était pas sûr de pouvoir visiter Kairouan sans courir le risque d'une quelconque réaction des Kairouanais contre sa personne. " On m'avait conseillé, écrivait-il, de ne pas me rendre dans cette ville au milieu de pareilles conjonctures car ce réveil même du fanatisme musulman qui semblait endormi, et qui, toujours vivace, venait de se manifester par une explosion dont le contrecoup s'était fait sentir si loin, ne pouvait nulle part, à mon sens, être mieux étudié en Tunisie qu'à Kairouan"[33]. Et pourtant, le désir de découvrir les secrets de cette ville l'avait emporté!

Dans une telle attitude mentale nourrie par plusieurs siècles de rapports conflictuels, nos voyageurs ne pouvaient que s'emporter contre l'ancienne capitale de l'Occident musulman qu'ils décrivaient, sans même l'avoir visiter, dans un état déplorable et en ruine. En plein XIXè siècle, Dunant, qui n'a jamais visité Kairouan, nous la décrit comme étant une ville "sale, mal bâtie et entourée de murs en ruines...Elle n'a conservé de son ancienne splendeur que sa mosquée, soutenue par 500 colonnes en granite ou en marbre"[34].

Quelques hommes de lettres arrangent ce "parti pris de dénigrement"[35] dans une couverture du pittoresque insistant sur deux visages contradictoires de la villes. Maupassant "ressent une ivresse qui l'étourdit" dans les ruelles de Kairouan illuminées par le soleil. Seulement la blancheur qui s'en dégage diffère de celle des autres villes arabes; elle est "plus sauvage, plus durement caractérisée, plus marquée de fanatisme. Saisissant de pauvreté visible, de noblesse misérable et hautaine, Kairouan la sainte"[36].

Cependant, quelques images nous paraissent plus atténuées, car elles parviennent de ceux qui ont visité l'intérieur de la ville dans des conditions plus confortables:

En 1784, Desfontaines trouve, tout de même, que "c'est la ville la plus grande du royaume après Tunis, mais elle est mieux bâtie et moins sale que celle-ci. Les murs qui l'entourent sont assez forts pour la mettre à l'abri..."[37]. En 1840, Pellissier en donne une description plus réconfortante: "Kaïrouan est assez bien bâtie; les souks sont beaux et bien fournis, les rues sont propres et l'aspect de la ville est moins dévasté que celui

---

[33] Guérin (V.), *Voyage archéologique...op.cit*, p. 322.
[34] Dunant (H.), *La Régence de Tunis*, Genève, 1858, p. 91.
[35] Karoui (A), *La Tunisie et son image...op.cit*, p. 86.
[36] Maupassant (G.), *La vie errante...op.cit.*
[37] Desfontaines (L.), *Fragment d'un voyage ...op.*cit, p. 59.

à l'hostilité des habitants de la ville contre ces "infidèles", le fils du Kahia de Kairouan, qui accompagnait le groupe des visiteurs, n'était pas toujours capable de les défendre[27].

Au fil des années, la ville dut s'habituer à la présence des Européens. A la fin du XIXè siècle, Baraudon note, avec grande fierté, frisant l'insolence, que "le fanatisme des habitants est aujourd'hui bien atténué". Sa fierté est doublée lorsqu'il put piétiner les mosquées de Kairouan qui, d'après lui, sont "les seules d'Afrique où les *roumis* puissent pénétrer sans se déchausser. Il est vrai qu'un gardien passe devant vous et relève les nattes, afin que vos chaussures ne les salissent pas"[28].

Vers la même période, Guy De Maupassant, dans une attitude victorieuse et revancharde, note de son côté que les Juifs " pullulent aujourd'hui et rongent la ville. Ils détiennent déjà les bijoux des femmes et les titres de propriété d'une partie des maisons, sur lesquelles ils ont prêté de l'argent, et dont ils deviennent vite possesseurs par suite du système de renouvellement et de multiplication de la dette qu'ils pratiquent avec adresse et une rapidité infatigable"[29].

En réalité, l'intérêt de ces témoignages dépasse le simple fait de la fermeture et l'ouverture des portes de la ville de Kairouan devant les Juifs et les Chrétiens. Les véritables raisons de l'attitude des habitants de Kairouan vis-à-vis de ces étrangers n'intéressent que peu notre champ d'investigation. Nous sommes plutôt retenus par l'attitude des voyageurs, ceux du XIXè siècle tout particulièrement, face au refus de Kairouan d'ouvrir ses portes aux non-Musulmans.

L'image de la ville dans les œuvres de voyage

Il ressort d'une lecture attentive des textes de tous les Européens qui n'avaient pu avoir accès à Kairouan et même de ceux qui avaient eu plus de chance de franchir ses remparts, une image quasi collective de Kairouan qui est reprise depuis le XVIIè siècle jusqu'à la fin du XIXè siècle. Presque tous les textes véhiculent une image terne d'une ville qui sombre dans la haine des non-Musulmans. De là il fallait, à nos voyageurs, rechercher dans le répertoire linguistique un corpus approprié à l'attitude des habitants de Kairouan envers les non-Musulmans.

Un parti pris déclaré. Déjà Léon l'Africain nous peigna, au début du XVIè siècle, une image lamentable de la ville de Kairouan dont la campagne lui paraissait "déserte, ne produisant ni arbre ni grain" et les habitants n'étaient que "de pauvres artisans...ne trouvant pas un qui ait le moyen de s'entretenir honnêtement...". Ces derniers, vivaient, toujours d'après lui,"assez misérablement et en très grande pauvreté"[30]. A la même époque, Marmol devait, quant à lui, incomber cette scène de désolation[31] aux Arabes qui l'ont "tourmentée et ruinée, ce qui joint au défaut de vivres, qui s'y rencontre dans les mauvaises années...elle fut empêchée long-tems (sic) de se rétablir"[32].

---

[27] Mme De voisins, *Excursion d'une française ...Op.cit,* pp. 182-183.

[28] Baraudon (A.), *Algérie et Tunisie, récits de voyage et études,* Paris 1893, p.302

[29] Maupassant (G.), *La vie errante...op.cit.*

[30] Léon l'Africain, *De l'Afrique, contenant la description de ce pays.* Paru pour la première fois en Italie en 1516, p. 64

[31] "Tout le pays d'alentour, écrivait-il, n'est qu'un désert si sablonneux qu'il n'y crois ni bled ni fruit et on l'apporte par charioy (sic) des villes de la côte...on n'y rencontre ni source ni puits ni rivières mais seulement de grandes citernes où l'on recueille l'eau de la pluye (sic)", Marmol, *L'Afrique de Marmol,* 2 tomes, Paris 1667, p. 532.

[32] *Ibid,* p.533

En 1829, Filippi, le consul sarde, dut ressentir un grand bonheur d'être l'invité d'honneur du Bey pour faire partie du cortège de la *Mhalla.* Il eut la chance de visiter la ville sainte et même d'y séjourner plusieurs jours. Avec beaucoup de fierté, il rappelle qu'une telle aubaine "n'a même pas été offerte à la princesse de Gales lorsqu'elle visita cette contrée[21]. Elle dut se borner à contempler de loin les murailles. Seulement, et comme il n'est pas permis aux Chrétiens d'y pénétrer (la Grande Mosquée) j'ai du renoncer au plaisir de les (les inscriptions latines) voir et de les copier "[22]. Dans ses promenades, Filippi n'eut pas la même chance avec les habitants de la ville qui le harcelèrent en criant "Prophète délivrez-nous de ces infidèles"[23].

Vers 1842, Pellissier se montre également fier de s'être rendu à Kairouan : "L'entrée en est interdite, nous dit-il, à tout ce qui n'est pas musulman...Je suis allé plusieurs fois à Kairouan et j'y été toujours traité avec infiniment de politesse et de déférence. Il est vrai que j'étais protégé par ordre du bey et par le caractère consulaire, que les musulmans sont accoutumés à respecter"[24].

Donc, la chance ne s'ouvrit qu'à une poignée de personnalités de marque tels que les représentants politiques affectés dans la Régence qui accompagnaient, de temps à autres, les responsables du pays dans leurs déplacements à travers la Régence et surtout au moment des célèbres campagnes de la collecte des impôts par la *Mhalla*. D'autres, scientifiques et chercheurs, avaient reçu une faveur des Beys pour accéder à l'intérieur de la ville à l'instar de Guérin qui effectua dans la Régence tunisienne une expédition archéologique de plusieurs années. Seulement il eut beaucoup de difficulté pour pouvoir franchir les portes de la ville. Il était déçu de remarquer que "L'*Amr* du Bey est partout ailleurs un ordre absolu et qui suffit à lui seul pour ouvrir au Chrétien qui en est porteur l'entrée de toutes les autres villes de la Tunisie, n'est ici qu'une simple prière, qu'une pure lettre de recommandation. Les autorités de Kaïrouan peuvent refuser l'admission dans leurs murs du Chrétien qui se présente avec ce *Amr*, sans que le Bey ait le droit formel de les en punir"[25]. A l'intérieur de la ville ce scientifique dut être rappelé au respect des normes de la ville, de presser ses pas en s'approchant de la Grande Mosquée "et de ne point jeter un coup d'œil trop attentif sur ce monument religieux dans la crainte d'éveiller les murmures et d'attirer les outrages des habitants"[26].

Au cours des premières années de la colonisation française, la ville de Kairouan semble avoir montré une résistance face à la ruée des Européens sur ses portes. La cité, d'après les témoignages de l'époque, refusa, au moins au début, à accueillir les Juifs qui continuèrent à commercer avec ses habitants en dehors des remparts. Quant aux premiers Européens qui s'y rendirent, ils prirent assez souvent leur garde face aux réactions brutales des habitants de la ville contre les étrangers. Dans les souks de la ville Mm De voisins et ses compagnons ne durent pas se hasarder seuls dans les souks de la ville afin de "prévenir des ennuis qui pourraient malheureusement se produire...". Face

---

[21] La princesse de Gales débarque dans la Régence le 4 avril 1816 et repart le 24 du même mois. Cependant, Alphonse Rousseau qui réserve un long passage au voyage de la représentante du trône anglais dans ses Annales, ne mentionne pas sa visite à Kairouan; *Les Annales tunisiennes ou aperçu historique sur la Régence de Tunis*, réédition Bouslama, 2ème édi, Tunis, 1985, p. 316.

[22] Monchicourt (C.), *Documents...op.cit*, p. 219.

[23] *Ibid*, p.223.

[24] Pellissier (E.), *Description de la Régence de Tunis*, Paris 1853, p. 120

[25] Gérin (A.), *La Régence de Tunis*, t. 2, Paris 1862, p. 322

[26] *Ibid*, p.327

consulter par leurs propres moyens les monuments de la ville et apprécier de près le mode de vie de ses habitants. En 1724, le Dr Shaw se contente d'envoyer des habitants de la ville pour lui compter le nombre des piliers de la Grande Mosquée "Les habitants me dirent, écrivait-il, qu'il y en avoit (sic) pour le moins cinq-cens (sic); je ne put les compter moi-même, parce qu'il n'est point permis aux *Chrétiens* d'entrer dans la *Mosquée...*"[15]. A la même époque, Peyssonnel confirme qu'on "ne permet pas aux Juifs ny (sic) aux Chrétiens d'y habiter de crainte qu'ils ne souillent leurs sanctuaires..."[16]. A la fin du XVIIIè siècle, Venture De Paradis atteste de son côté que "les Juifs et les Chrétiens n'entrent que très difficilement dans cette ville et on ne souffre pas qu'ils s'y établissent. Ce n'est qu'avec la protection de quelques cheikhs que des négociants français aient pu y passer un ou deux jours pour y conclure quelque marché"[17]

Tout au long du XIXè siècle, la fermeture de la ville face aux non-Musulmans ne s'allège guère, en dépit d'une activité commerciale fructueuse que les Kairouanais entreprenaient avec les Juifs et les Chrétiens en dehors des remparts de la ville. Le consul sarde Filppi note dans ses mémoires que "c'est hors les murailles à une petite distance qu'il y a un *Fondouk*, espèce de magasins qui servent à abriter les caravanes où les étrangers sont reçus ». Et d'ajouter, « malheur à celui qui oserait braver ce préjugé. Il n'y a que deux ans (vers 1827) trois Juifs y furent brûlés vifs étant reconnus"[18]. Ce *Fondouk* dont parle Filippi en 1829 aurait fonctionné jusqu'au début de l'ère coloniale. Mm De voisins qui visita Kairouan en 1884 nous en donne d'amples informations: "Si la prescription qui interdit aux Chrétiens l'accès de Kairouan est quelque fois éludée, elle est absolument rigoureuse pour les Juifs, qui doivent n'approcher de la ville qu'à une distance de 2 kilomètres. Comme les transactions commerciales entre les habitants et les israélites sont fréquentes, on a assigné à ceux-ci une maison nommée *Dar El Amen*, située presque au confluent de l'oued *Merkellil* et de l'oued *Zroud*, au nord de Kairouan, et où ils affluent les jours de grand marché; c'est là qu'ils traitent leurs affaires avec les négociants Kairouanais qui vont les y trouver[19].

Et pourtant elle ouvrit ses portes à quelques fortunés

Desfontaines fut probablement le premier voyageur chrétien qui eut la chance de visiter l'intérieur de la ville. "Si j'avais pas été de la suite du Bey, écrivait-il en 1784, il m'eût été très difficile d'entrer à Caïrouan. Le peuple y est fanatique, il ne veut pas y voir de Chrétiens, à cause de plusieurs Khalifs descendans (sic) de Mahomet qui y sont enterrés..."[20].

---

[15] Dr Shaw, *Voyages de Mons Shaw, M.D. dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant...traduit par Jean Neaulme*, Paris, 1743, p. 257

[16] J.A Peyssonnel, *Voyages...*, *Op.cit*, p. 100.

[17] De Paradis (V.), *Tunis et Alger au XVIIIè siècle*, Mémoires et observations rassemblés par Joseph Cuoq, Paris, 1983, p. 88

[18] Il s'agit certainement d'une exagération de la part de ce consul, car il est le seul à avoir mentionné ce fait à une époque où de tels évènements ne peuvent pas passer inaperçus. Monchicourt (C.), *Documents historiques sur la Tunisie. Relations inédites de Nyssen, Filippi et Calligaris (1788, 1829, 1834)*, Paris 1929, p.221

[19] Mme De voisins, *Excursion d'une française dans la Régence de Tunis*, Maurice Dreyfous, Paris 1884, p. 195.

[20] Desfontaines (L.), *Fragmens d'un voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger fait de 1783-1786*, publié par Dureau de La Malle, T 2, Paris, 1838.p.60

Européens qui ont entrepris des voyages dans la Régence tunisienne au cours de l'époque moderne; avaient programmé d'avance une visite à la première ville sainte *d'Ifiqiya*, en dépit du danger qu'ils pouvaient encourir à chaque instant de leurs déplacements dans la région du centre tunisien. C'est au pied des remparts de Kairouan qu'ils se rendaient compte du refus de cette ville de les recevoir. Tenaient-ils, alors, à franchir ces remparts qui se dressaient face à eux, non seulement en tant que "versant défensif"[9] mais surtout en tant que barrière de rejet culturel.

Une forteresse interdite et des habitants peu accueillants

A quel moment de son histoire fut-elle interdite aux non-Musulmans?

Il semble que sous les premières dynasties de l'islam, Kairouan était une véritable ville cosmopolite réunissant une majorité musulmane, une communauté juive et une autre Chrétienne[10]. Ces deux dernières avaient certes un statut particulier en tant que "*Dhimmi*" et devaient s'acquitter de la *Geziya.* Ils vivaient, tout de même, en paix et participaient pleinement à la vie active de la capitale de l'*Ifriqiya.* Il y avait, même, un souk appelé "*Souk El Yahoud*" où les Juifs pratiquaient des activités diverses dans le commerce et dans l'orfèvrerie. Parmi eux, il y avait des collecteurs de taxes appelés "*Qabbala*"[11]. La communauté juive "Kairouanaise" put, en outre, cultiver une activité intellectuelle qui fit sa renommé[12].

Depuis quand Kairouan se mit-elle, alors, à refuser d'accueillir et d'abriter des non-Musulmans?

Apparemment, il n'y a pas de date précise à avancer. Il semble que jusqu'à la fin de la période hafside, les non-Musulmans continuaient à vivre à l'intérieur de la ville. Ce n'est qu'au cours du XVIè siècle que nous perdons les traces des deux communautés non-musulmanes de Kairouan[13]. Le rejet de la ville des Juifs et des Chrétiens correspondrait, alors, à une période de grandes perturbations par la quelle Kairouan et l'*Ifiqiya,* d'une façon générale, sont passées. Il s'agit de l'occupation espagnole des côtes tunisiennes au cours du XVIè siècle et du contrôle de la ville par la confrérie des *Chabbiya* (1535-1557)[14]. A partir de cette éphémère période d'indépendance de Kairouan, il semble que nul Européen n'osait plus s'aventurer aux alentours de Kairouan, et surtout pas à l'intérieur de son enceinte. Tout au long de l'époque moderne, il n'y a donc nul doute que "la ville sainte" de Kairouan fut hermétiquement fermée en face des non-Musulmans.

Jusqu'à l'occupation française, tous les voyageurs européens insistent sur ce fait, montrant le plus souvent un sentiment d'amertume, voir de déception, de ne pouvoir

---

[9] Meyzie (V.), "Tunis et Alger...", *op.cit.*

[10] Selon Al Ya^cqubi, "l'église de Kairouan avait plusieurs chefs... Jusqu'au XI siècle, les chrétiens ont conservé l'usage du latin dans les inscriptions funéraires" in, Talbi (M.), "Al-Kayrawan", *Encyclopédie de l'islam*, Tome IV, pp. 857-864.

[11] Abdelwaheb (H.H.), *Waraqat 'an al hadhara al arabiya fi Ifiqiya,* Tunis, 1981, p. 53.

[12] *Cf,* Sebag (P.), *Histoire des juifs de Tunisie: des origines à nos jours*, Paris 1994, p.51.

[13] Brunschvig, dans sa *Berbérie orientale* doute de la présence des Juifs à Kairouan au début de l'ère moderne, en dépit de la présence "d'un contrat de location dans la Grande Mosquée qui indique que l'administration des *Awqafs* de la mosquée en question a loué une boutique à un juif en 1500...". Or, d'après lui, rien ne prouve qu le nommé Maïmoun al Yahoudi a gardé sa religion d'origine. Brunchvig (R.), *La Berbérie orientale...op.cit*, p. 432.

[14] *Cf,* Monchicourt (C.), "Etudes kairouanaises", in *Revue tunisienne*, N° 7, 3ème tri 1931; N° 9, 1er tri 1932; N° 11, 3ème et 4ème tri; N°13, 1er et 2ème tri 1933; N° 14 et 15, 3ème et 4ème tri 1933 et N° 15, 1er tri 1934,

Une lecture avisée des écrits de ces Européens et particulièrement des passages qui s'intéressent à Kairouan et à sa région nous met face à une autre dimension[4] totalement différente de celle qu'on peut relever chez les voyageurs arabes qui ont, eux aussi, visité "la capitale sainte" ou bien des différents témoignages qu'on retrouve épars dans les chroniques locales de l'époque.

Face à cette attitude, nous sommes, à priori, sceptiques quant à la crédibilité et à l'objectivité de ce que les voyageurs européens rapportaient sur cette ville; entre ce qui leur était proprement personnel et ce qui relevait de l'imaginaire et du légendaire. Nous proposons, en quelque sorte, une relecture des ces œuvres de voyage[5] qui sont déjà connus et cités par les historiens et les archéologues comme références, le plus souvent irremplaçables[6].

Par ailleurs, notre travail ne s'inscrit nullement dans le cadre des études épistémologiques des œuvres de voyage[7]. Nous recherchons, plutôt, dans nos supports, outre l'image référentielle que véhiculait chaque voyageur selon son époque et son origine, l'historicité et la véracité des faits et descriptions générales rapportés par ces mêmes voyageurs. Cependant, nous ne faisons pas abstraction des études, sur "la lecture littéraire". Nous nous référons à ces études dans notre méthodologie de travail et notre questionnaire des textes étudiés.

Kairouan la mystérieuse

Le mystère qui entoure cette ville sainte, trouve ses origines dans le caractère légendaire inhérent à sa longue histoire; depuis même sa première fondation. Tout au long de l'époque moderne, ce mystère s'accrut lorsque Kairouan ferma ses portes face aux étrangers; ce qui rendait cette citadelle infranchissable beaucoup plus énigmatique. D'ailleurs, nous ne retrouvons pas la même détermination qui poussait les voyageurs européens à vouloir dévoiler les secrets de Kairouan chez les voyageurs arabes et Musulmans. En effet, de célèbres voyageurs arabes, tels que Ibn Errachid et Khalid El Balawi ou bien Ibn Battouta, n'ont pas pris la peine, au moment de leurs voyages en *Ifiqiya*, de faire un détour pour aller visiter Kairouan[8]. Par contre, presque tous les

---

[4] Il s'agit plus exactement de deux dimensions: une dimension culturelle et une autre socio- économique

[5] Ces œuvres nous parviennent sous forme de récits ou de relations de voyage ou bien sous forme de lettres envoyées par les voyageurs à des amis ou à des responsables ou bien alors sous forme de notes personnelles et des carnets de voyage. *Cf,* annexe : Tableau récapitulatif des voyageurs qui ont visité la ville de Kairouan à l'époque moderne.

[6] Nous rejoignons, ainsi ceux qui avaient déjà appelé à "rechercher (dans les relations de voyage) les mythes, les images, les préjugés et les chimères qui se dissimulent derrière le relevé pittoresque, de l'insolite et de l'étrange...", *cf.* Bachrouch (T.), "Les Barbaresques de Tunisie au XVIIIè S: mythes et interprétations", in *R.H.M, N° 31-32.*

[7] Celles de la "lecture littéraire" ou "littérature comparée". Pour la Tunisie, nous citons à titre indicatif les études de Mme Denise Brahimi: *Les voyageurs Français en Barbarie au XVIIIè siècle- Peyssonnel, Desfontaines et l'Abbé Poiret,* thèse de Lettres, Paris III, 1976 ; *Opinion et regards des ...op.cit ;* Dakhlia (J.), " La question des lieux communs: des modèles de souveraineté politique dans l'Islam médiéval"in *Les formes de l'expérience, une autre histoire sociale,* dir Bernard Lepetit, Albin Michel, 1995 ; Turbet-Delof, *L'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVIè et XVIIè siècles,* thèse, 1973 ; Karoui Abdejelil, *La Tunisie et son image dans la littérature française du XIXè siècle et de la 1ère moitié du 20ème siècle (1801-1945),* Tunis, 1975 ; Meyzie (M.), "Tunis et Alger dans les récits de voyage français des XVIIè et XVIIIè siècles: un révélateur des mentalités européennes" in *Correspondances,* bulletin scientifique de l'IRMC.

[8] Brunschvig (R.), *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV è S.*, Paris 1947, t. 1, p. 402.

Image de Kairouan à l'époque moderne à travers les témoignages des voyageurs européens : une autre dimension

Habib Jamoussi
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sfax

Notre intervention ne se veut point une étude détaillée des vicissitudes de la ville de Kairouan à une époque bien déterminée de son histoire. La valeur historique et spirituelle que revêt "la citadelle de l'Islam" en Afrique du Nord, fut de longue date et demeure l'objet de travaux qui ont bêché son passé de fond en comble. Nous ne prétendons pas également vouloir traiter des aspects socio-économiques de cette ville et de sa région à l'époque moderne, ils ne cessent d'être profondément étudiés. Nous préconisons, plutôt, relever les différentes manières dont certains étrangers à la ville et à la civilisation arabo-musulmane, l'ont perçue. Nous nous plaçons, de cette manière, de l'autre côté de la barrière afin de se voir à travers l'image de l'autre[1].

Etant d'origines socio-culturelles et de formations intellectuelles différentes, les Européens qui se sont rendus dans la Régence tunisienne ont véhiculé dans cette image et dans leurs jugements des lieux en question des archétypes référentiels des sociétés occidentales dont ils étaient issus et qu'ils érigeaient en valeur absolue et normative[2]. C'est précisément au cours de cette période que la "Barbarie", considérée dans ses dimensions orientales et arabo-musulmanes, n'a cessé de présenter un intérêt particulier pour les Européens dont essentiellement les intellectuels et les politiques. Les jugements qu'on allait porter sur cette contrée et sur ses habitants ne sortaient guère des références qu'on se faisait à l'époque en Occident, et plus précisément, en Europe, des "autres" d'une façon générale.

C'est dans ce cadre que Kairouan revêtit, tout au long de l'époque moderne et jusqu'aux premières années de l'occupation française, un intérêt tout particulier pour la quasi-totalité des Européens qui l'ont visitée, ou bien même imaginée, eu égard à sa valeur historique comme étant l'ancienne et la première capitale de l'Islam en Afrique du Nord, mais surtout, étant "une cité interdite aux non-Musulmans". C'est d'ailleurs ce refus de s'ouvrir aux étrangers qui fomentait chez eux un profond sentiment de déception, voire parfois de frustration. L'impression qui ressort de leurs écrits sur cette ville plonge le plus souvent, "Kairouan la sainte" dans une image terne marquée "de fanatisme, de pauvreté saisissante" et "habitée d'une noblesse hautaine et misérable"[3]. Et pourtant, ces visiteurs occidentaux se sont contentés seulement de contourner la ville ou bien, avec plus de chance, de faire une visite éclaire de ses souks.

---

[1] Une fois de plus, il semble que "l'image d'un pays dépend assez souvent de ses observateurs", Brahimi (D.), *Opinion et regards des Européens sur le Maghreb aux XVIIè et XVIIIè siècles* , Alger 1978, p. 7

[2] Selon Lucette Valensi, cette attitude n'est point déplorable, au contraire, "il est, naïf qu'il (le voyageur) n'ait pas fait abstraction des valeurs des conceptions de sa société et de son temps pour épouser celles de l'objet étudié"; *J.A Peyssonnel voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger*, Paris 1986, p. 6.

[3] Maupassant (G.), *La vie errante, complétée par souvenirs sur Guy De Maupassant (1883-1893)*, Paris, 1907.

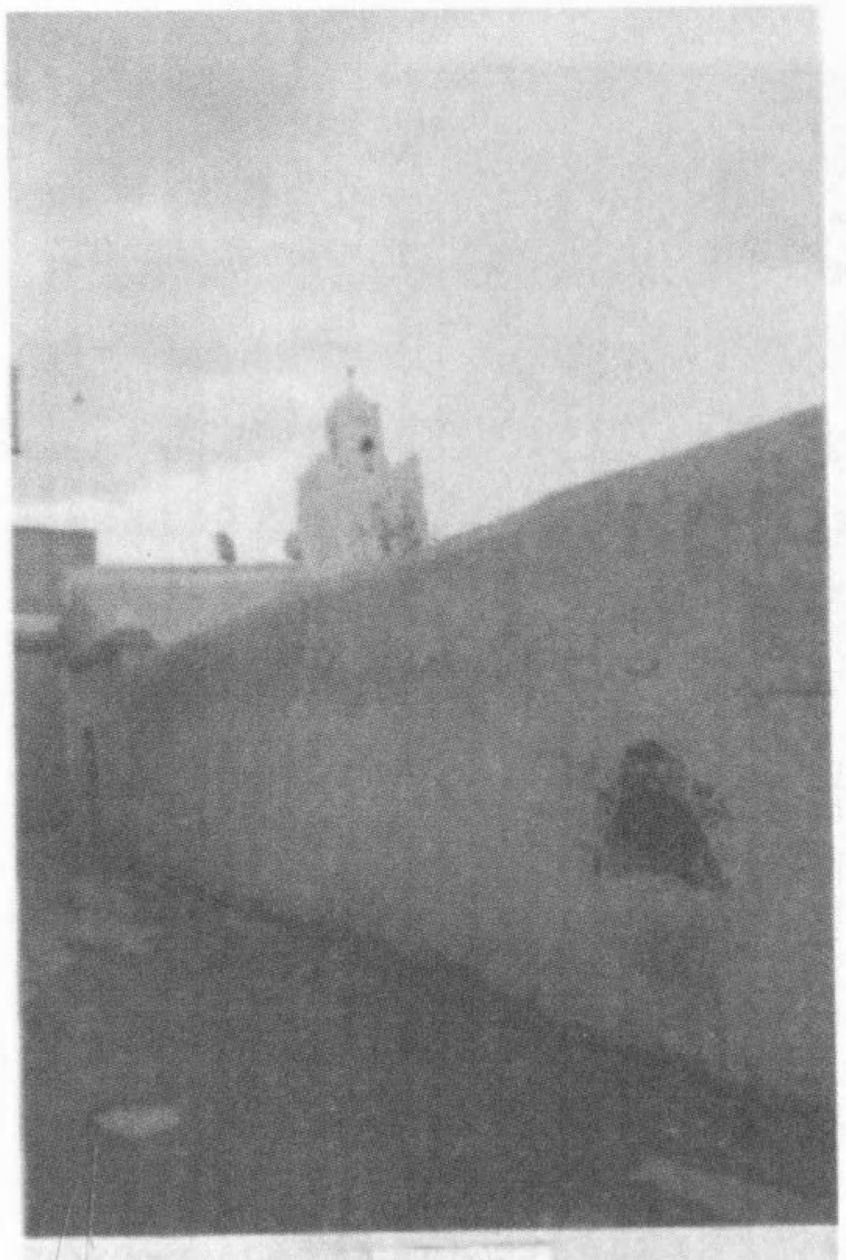


Figure 2



Figure 3



Figure 4

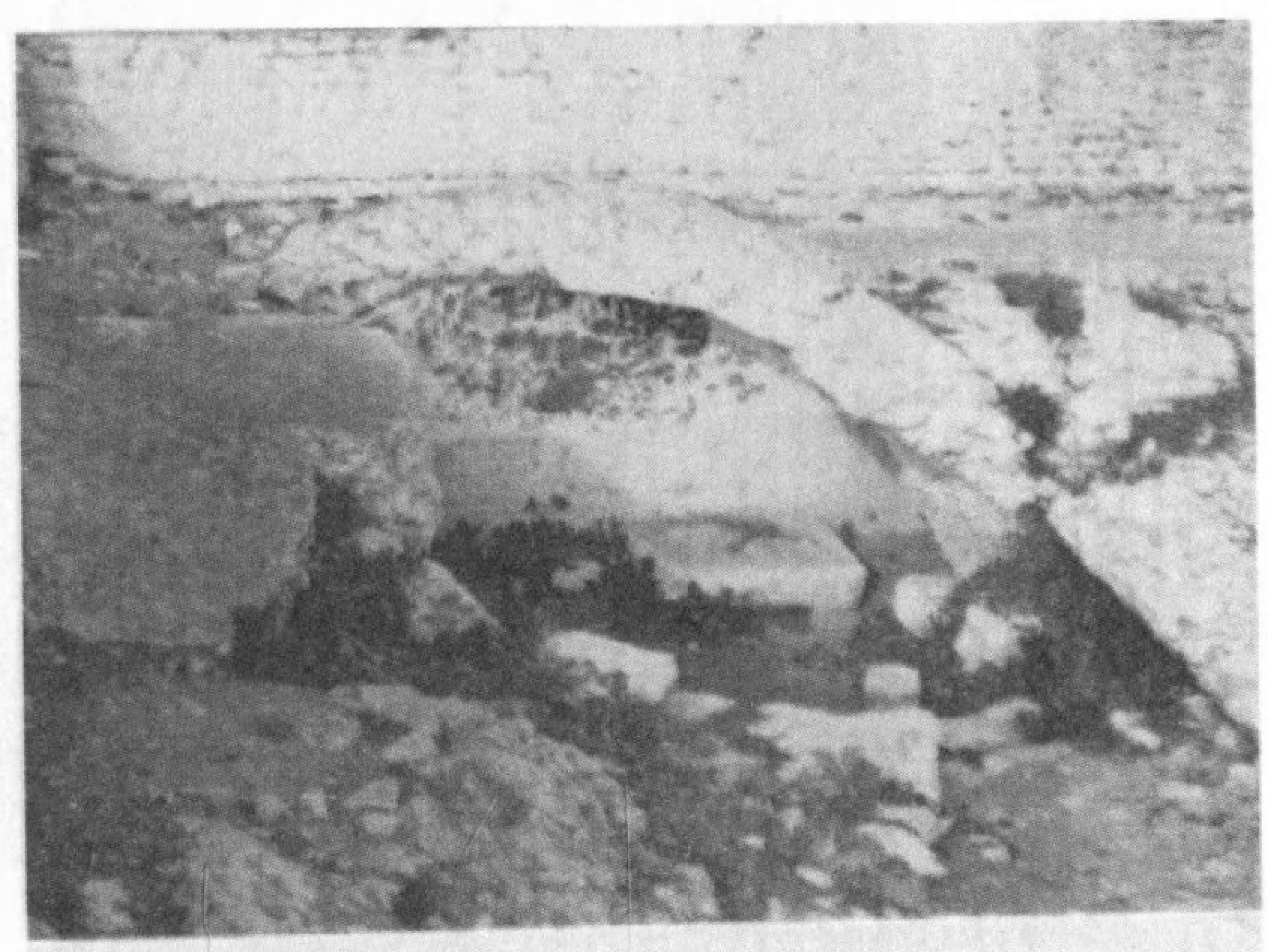


Figure 5

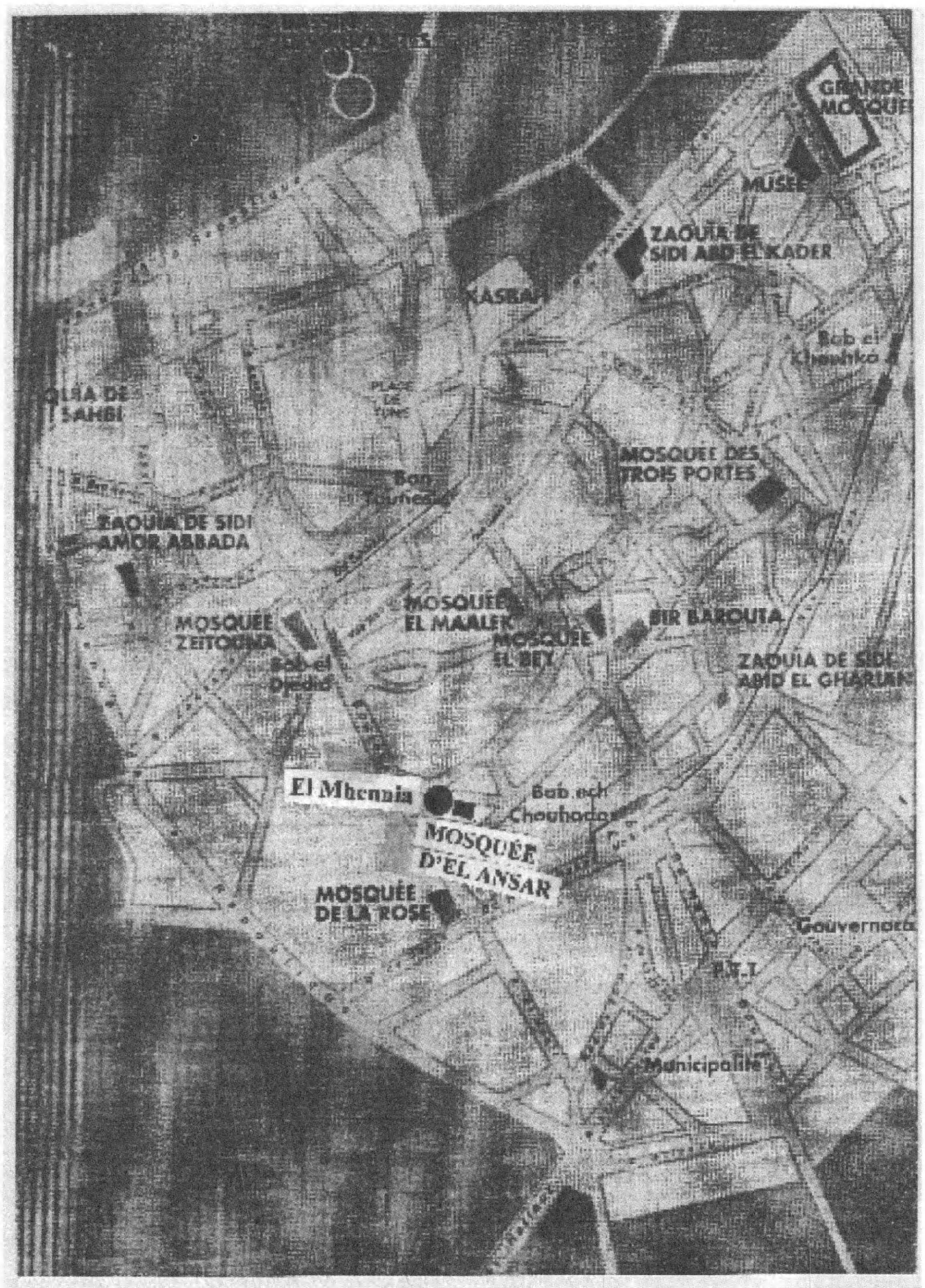


Figure 1

0 100 m

le visiteur. A vrai dire, des cultes similaires dont certains sont bien documentés sont célébrés en Tunisie jusqu'à une date très récente. Pour exemple, il suffit de citer un rite réservé aux filles pubères célébré à Jerba[12] (figue 4) d'une très probable origine préislamique ou celui célébré à Dougga en l'honneur d'une maîtresse nommée *Mokhoûla*[13] (figure 5) dont l'ancienneté est prouvée.

De telles pratiques sont très probablement d'origine préislamique. Il se pourrait qu'ils soient d'origine punique puisque l'influence de cette civilisation sur les Numides installés dans la région de Kairouan n'est pas à écarter. Aussi bien la large diffusion de cette culture en Afrique du Nord que la proximité de la ville de Sidi El Heni laisse facilement deviner des influences mutuelles incontestables[14].

Egalement, ces cultes pourraient tout simplement avoir une origine numide. En tout cas, en ce qui concerne la ville de Kairouan, la présence numide est confirmée dans le territoire annexé par les Musulmans où sera créée la cité islamique. C'est une inscription qui remonte au début du troisième siècle de l'ère chrétienne qui permet de l'affirmer[15]. En effet, la persistance d'un culte préislamique même après l'islamisation du Maghreb ne doit pas nous étonner puisque les recherches confirment d'avantage que malgré leur conversion à l'Islam, les Berbères ont en effet conservé une foule de pratiques païennes dont certaines ont été plus ou moins adaptées à l'Islam tandis que d'autres restent carrément en contradiction avec les préceptes de cette religion. Ces survivances sont surtout visibles dans les rites et les fêtes agricoles, dans le culte des saints et enfin dans le concept de la *baraka*[16].

La multiplicité des indices sur le passé préislamique de Kairouan est de plus en plus frappante. Même si cette piste mérite plus de développement, l'ensemble de ces données mérite déjà largement de faire l'objet d'une synthèse qui s'annonce fructueuse. Je pense que cette note pourrait constituer une modeste contribution. Puisque ce lieu de culte, qui est loin d'être le seul du genre comme je l'ai précisé au cours de cette note, cela autorise au moins la reconsidération du Maghreb islamique puisque bien des indices nous permettent d'affirmer que les Africains islamisés ont gardé une large part de leur culture tout embrassant la foi musulmane. Ce qui a donné lieu à un amalgame subtil dont les recherches commencent à cerner.

---

[12] Pierre Cintas, *Op. cit.*, p. 543, figure 47. Le vase multigodets utilisé dans cette cérémonie est appelé *kernos*. Il est spécifique aux fêtes de fécondité. Pour la définition de ces vases et leur histoire voir. Adel Njim, *Op. cit.*, p. 45. C'est également à chez les juifs de Jerba qu'un culte de fécondité est intéressant à signaler. En effet, jusqu'a nos jours au sanctuaire dit *El Grîba* que les filles célibataires espérant se marier accomplissent au mois de mai un culte sans doute de fécondité qui consiste à déposer chacune un œuf dans une niche du sanctuaire réservée à cet effet. Je dois cette information à l'obligeance de Madame Mounira Chapoutot-Remadi. Les œufs d'autruche sont également présents dans les *zaouisas* ou les *mzarats* entre autres offrandes sans doute pour leur fonction magique en rapport avec la fécondité ou plus largement avec le bien être. M. H. Fantar, *Op. cit.*, p. 365.

[13] Aezdine Beschaouch, « D'une fête populaire de Dougga en Tunisie à la dédicace de l'aqueduc de Thugga en Afrique romaine », *CRAI*, novembre-décembre 2000, p. 1178.

[14] Sur l'apport de la culture phénicienne en Afrique du Nord voir M. H. Fantar, *Op. cit.*, p. 355-376.

[15] A. El Bahi, *Op. cit.*, p. 20.

[16] R. Basset , Ch. Pellat, « Berbères », *Encyclopédie de l'Islam*, T. I, p. 1213.

Pour élucider la nature de ce monument, le recours aux sources arabes n'est d'aucun secours. D'autre part, l'état actuel de la niche ne semble pas remonter loin dans le temps. Alors, d'un point de vue archéologique aucun indice ne plaide en faveur de l'ancienneté de ce monument. Par ailleurs, selon le récit oral, cette niche est la dernière qui a survécu parmi plusieurs niches semblables qui jalonnaient le mur entourant l'aire funéraire jouxtant la mosquée. D'ailleurs, des niches similaires sont fréquentes dans les mosquées et surtout au sein des mausolées islamiques. En effet, chez les Musulmans des croyants fervents ou des morts en martyr deviennent fréquemment l'objet d'un culte. Ils sont à la fois redoutés et implorés et sont visités. Souvent, on leur construit un sanctuaire appelé *qoubba, zâwiya* ou *mazâr*[9]. Il se pourrait bien que ces niches constituent une partie d'un lieu de culte construit en hommage au compagnon du Prophète qui avait construit cette mosquée et des premiers conquérants musulmans dont beaucoup sont morts en martyrs et sont enterrés dans l'aire funéraire de cette mosquée. Ainsi, cette niche ne serait pas antérieure à la période islamique.

Cependant, il est permis de se poser la question si ce culte est de nature préislamique. En effet, l'Islam au Maghreb n'a pas totalement effacé toutes les croyances et les pratiques préislamiques[10]. Effectivement, le culte qui se déroule dans ce lieu sacré semble avoir beaucoup d'affinités avec des rites qui pourraient être bien antérieurs à la période islamique. Ce monument est le théâtre d'une pratique qui semble avoir traversée les âges. D'abord, la niche est un lieu où on veillait à avoir de la lumière en permanence. Des bougies étaient allumées et placées au fond de la niche pour les visiteurs[11]. Le culte pratiqué en ce lieu consistait aussi à faire une offrande de henné. Cette matière est très prisée pour sa valeur symbolique en rapport surtout avec la fécondité féminine. Enfin, selon l'intendant de la mosquée ce monument est visité par des personnes de tout genre. En premier viennent les femmes enceintes et les filles désireuses de mariage. Ensuite les personnes malades et les gens en détresse. Tous viennent pour y formuler des vœux accompagnés d'offrandes de bougies et aussi de henné pour les personnes de sexe féminin.

Elucider hâtivement la nature du culte célébré dans cette niche serait imprudent. Cependant, on peut d'ores et déjà souligner que ce culte renferme toutes les composantes d'un culte de fécondité et plus largement de bien être à savoir la lumière évoquée par les bougies, l'offrande que représente le henné et enfin le vœux formulé par

---

[9] Edgar Weber, *Op. cit.*, s.v. *Wâli*, p. 364. Plus haut j'ai déjà expliqué que sainteté, bénédiction et fécondité sont des notions solidement imbriquées. Le saint, qui en l'occurrence peut être un homme mort, est porteur de la bénédiction. Son intercession est toujours souhaitée. Favoriser la fécondité de ceux pour qui il intercède est l'une des questions les plus fréquentes pour laquelle il est sollicité.

[10] « Au Maghreb, aujourd'hui, ont peut rencontrer certaines pratiques magico-religieuses dont les origines remonteraient au passé lointain de Carthage et peut-être au delà ». Mhamed Hassine Fantar, *Carthage Approche d'une civilisation, Op. cit.*, p. 365.

[11] Des cultes dits kernophoriques en raison d'un vase utilisé dans des cérémonies appelé *kernos* associent aussi lumière et offrande sacrée. La lumière etait représentée soit par des lampes ou également par des torches. Ceci est commun aux Grecs, aux Phéniciens et aux Puniques et enfin aux Romains. Il semble que ni les Arabes ni les Africains n'ont échappé à cette règle. On trouve fréquemment des vases votifs associant une cuvette pour contenir l'offrande et des lampes pour fournir la lumière. Pour l'usage des torches dans les cérémonies de fécondité chez les Grecs voir Pierre Cintas, *Céramique punique*, Tunis, 1950, p. 549, figure 46. Pour un vase votif punique associant cuvette et lampes voir Adel Njim, *Etude de collections de brûle-parfums et de kernoi puniques en terre cuite des musées de Carthage et du Bardo (Tunisie)*, Diplôme d'Etudes Approfondies, Aix-en-Provence, Juin 1996, p. 156 n° 82, figure K n° 82, pl. XVIII n° 82 a et b.

désignant vraisemblablement le caravansérail[5]. Il ne peut qu'appuyer son rôle militaire capital dans la présence musulmane au Maghreb[6]. En revanche, la vérité historique tend de plus en plus à battre en brèche ce dogme en révélant de jour en jour les traces du passé préislamique de Kairouan si non l'hétérogénéité de la culture maghrébine islamique. Ce travail vise à présenter un monument situé à proximité du centre historique islamique où se déroule une pratique ayant un rapport avec les cultes de fécondité préislamiques. Il aura deux axes : La présentation du monument en question et l'élucidation de la pratique qui s'y déroule.

Ce monument a la forme d'une niche. Celle-ci est attenante à la mosquée dite d'*El Ansari* ou également d'*El Ansar* située dans la partie Ouest de la muraille de la ville de Kairouan non loin de la porte dite de *Bab Djedid* (figure 1). Selon la tradition, cette mosquée est considérée comme l'un des premiers lieux de culte islamiques. On s'accorde à la faire remonter à l'année 47 de l'Hégire qui correspond à l'année 667-668 de l'ère chrétienne. La tradition rapporte que le fondateur de cette mosquée est un riche compagnon du Prophète d'origine médinoise qui est mort en martyr. Elle avance qu'il est enterré dans l'aire funéraire contiguë à cette mosquée. La niche cultuelle en question est nommée *El Mhennia*. Cette appellation signifie l'endroit où on se fait mettre du henné ou l'endroit enduit de henné. Les deux sens sont possibles. En effet, le monument est rehaussé de multiples empreintes de mains trompées dans du henné. Elle se présente sous forme d'une ouverture semi-circulaire d'un demi-mètre de diamètre environ aménagée dans le mur d'enceinte entourant une aire réservée à l'inhumation des premiers conquérants musulmans d'après la tradition orale encore véhiculée par les Kairouanais (figure 2). Ce monument est rehaussé d'empreintes de mains[7] fraîchement enduites de henné[8] (figure 3). Jusque tout récemment, il abritait des bougies allumées, aujourd'hui remplacées par une lampe électrique. La singularité de ce lieu ainsi que la persistance du culte qui s'y déroule étonnent en terre conquise par l'Islam où ces pratiques fermement condamnés par le monothéisme sont sensées révolues conformément aux préceptes de cette religion.

---

[5] F. Mahfoudh, « Kairouan », *Encyclopédie Berbère*, p. 4095.

[6] La ville de Kairouan est représentée dans la plupart des sources arabes comme une fondation *ex-nihilo*. Or, certaines données, toponymiques et archéologiques vont à l'encontre de cette hypothèse. Voir par exemple pour l'appellation préislamique de la ville de Kairouan M'hamed Hassine Fantar, « De la cité antique à la cité arabo-islamique au Maghreb », *Reppal*, 6, 1991, p. 47. Voir aussi : Ahmed El Bahi, « Le sens de *Quamonia* dans les sources arabes » (en arabe), *Les Cahiers de Tunisie*, 178, 3eme trimestre, 1997, pp. 13-40.

[7] La main a un rôle protecteur contre le mauvis œil chez les Arabes préislamiques ainsi que dans le monde arabe et au Maghreb islamiques. Le mauvais œil est conjuré en étendant la main vers la personne qui le possède en disant : cinq sur l'œil. Les cinq doigts de la main de Fatima. Voir Edgar Weber, *Petit dictionnaire de mythologie arabe et des croyances musulmanes*, Paris 1996, s.v. Mauvais œil, p. 232-233. Le signe de la main est présent aussi dans le Maghreb préislamique. Il jouit d'une fréquence depuis l'époque proto-historique jusqu'au nos jours et revêt aussi une signification magique Mhamed Hassine Fantar, *Carthage Approche d'une civilisation*, Tome 2, Tunis, 1994, p. 366.

[8] Selon la mythologie musulmane ce sont les larmes d'Eve quand elle fut chassée du paradis qui donnèrent le henné sur terre et des perles dans la mer. Edgar Weber, *Op. cit.*, s.v. Larmes, p. 218. D'autre part, il semble que pour certaines plantes leurs propriétés curatives sont confondues avec leurs propriétés magiques. Le henné a représenté semble-il par excellence cette catégorie de plantes à en juger par le rôle qu'il a eu dans les rites sacrés. Voir Edmond Doutté, *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, 1908, p. 81.

Un Culte préislamique de fécondité à Kairouan

Adel Njim
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan

Mon intérêt à l'étude des pratiques cultuelles a commencé depuis quelques années lorsque j'ai commencé à étudier une catégorie de céramique très mal connue appelée céramique à feu[1]. Celle-ci se compose en bonne partie de vases réservés à célébrer des cultes de fécondité. Voulant connaître la fonction de ces objets, j'ai effectué des recherches sur les pratiques cultuelles phéniciennes et puniques au départ et par la suite celles des Grecs, des Egyptiens, des Arabes, des Numides et celles d'autres peuples dont l'étude pourrait constituer une source de comparaison. Ainsi, j'ai pu découvrir à la fois l'ancienneté et la diffusion du cule de fécondité[2], sa diversité ainsi que la survivance des pratiques qui lui sont associées et du mobilier[3] utilisé au cours de ces cérémonies dans tout le bassin méditerranéen au moins. Les œuvres artistiques les plus vieilles qui nous sont parvenues montrent que la fécondité a obsédé l'être humain depuis très longtemps. Par son lien étroit avec l'idée de procréation elle est sans doute en rapport avec l'instinct de survie chez l'espèce humaine. D'autre part, plus largement, celle-ci est indissociable de la notion de bénédiction appelée en arabe *baraka*. La religiosité berbère a conféré à cette notion une dimension quasiment universelle plus particulièrement chez les ruraux[4]. Elle protège comme elle favorise la fécondité humaine, naturelle et animale. Ainsi, elle sécurise et donne confiance d'où la raison de la persistance étonnante des cultes en rapport avec la fécondité. Le culte que je compte présenter ici à traversé les âges malgré toutes les péripéties que le Tunisie a connue et plus particulièrement la ville de Kairouan.

En effet, de nos jours en Tunisie, malgré l'islamisation du pays ce qui peut faire croire à l'extinction de ces coutumes en rapport avec la fécondité qualifiées de païennes et prohibées par la doctrine musulmane officielle, de telles pratiques cultuelles perdurent. C'est dans la ville de Kairouan, considérée par excellence comme le bastion de l'Islam au Maghreb, qu'un culte de cette nature a retenu mon attention. C'est à tort et pour bien longtemps que certains ont cru bon s'abstenir de voir à Kairouan toute trace de présence préislamique ou de pratiques que l'Islam avait officiellement banni. D'ailleurs, la tradition arabe a favorisé de voir en cette ville une fondation islamique. Le nom de la ville, selon cette vision des choses serait un toponyme d'origine persane

---

[1] Adel Njim, *Etude de collections de brûle-parfums et de kernoi puniques en terre cuite des musées de Carthage et du Bardo (Tunisie)*, Diplôme d'Etudes Approfondies, Aix-en-Provence, Juin 1996 ; *Idem*, *Les objets à feu phéniciens et puniques de la Méditerranée occidentale* (thèse de doctorat en cours). Ces deux travaux sont dirigés par le Professeur Jean-Paul Morel.

[2] E. O. James, *Mythes et rites dans le Proche-Orient ancien*, Paris 1960. Cette étude montre l'ancienneté de ce culte depuis les temps reculés de la préhistoire aussi bien en Orient qu'en Occident.

[3] Les vases multiples communément appelés *kernoi* utilisés lors de cérémonies de fécondité appelées *kernophoria* jouissent d'une étonnante survivance depuis l'Antiquité. J'ai pu réunir une petite collection que je compte publier prochainement.

[4] A. Faure, « Baraka », *Encyclopédie Berbère*, IX, p. 1336.

mémoire est considérable, une pérennité inconsciente récupère le modèle archétypal, pour en revenir à la théorie de Mircea Eliade. La mémoire traverse le parcours des époques sans se faire piéger par les exigences de la diachronie ; elle résiste, persiste pour témoigner que l'identité n'est que l'effet d'une symbiose latente qui aura mis du temps pour concourir à façonner ce mental collectif. Les faits liés au mental échappent au découpage diachronique pour revêtir des aspects à la fois synchroniques, psychologiques et même symboliques.

Les témoignages recueillis chez les biographes sont d'une importance considérable. Malgré leur austérité et leur manque de précision, ils offrent une occasion inouïe, pour des études touchant l'histoire du mental, tache qui ne s'avère pas aisée, elle est toujours une tache hardie dont il faut se méfier des conclusions hasardeuses. Le mental est un champ d'investigation très miné, j'espère avoir contribué, par cette ébauche d'étude, à l'instauration d'un débat sur des problèmes qui relèvent du domaine des mentalités. Un tel débat exige la mise en place de passerelles entre les différentes époques de notre histoire, ainsi que la conjugaison des efforts des chercheurs de différentes disciplines.

de la mémoire réfractaire aux altérations de l'histoire, le deuxième réside dans l'essence même des rites funéraires musulmanes qui assimilent l'héritage de l'ancien fond arabe - païen- et le fond berbère riche en expériences en la matière.

Pour en finir, on déduit que le phénomène de la vague de dévotion populaire, quoiqu'il soit emprunté à la tradition chrétienne au niveau de la représentation de l'image des martyrs substitués par les éminents faqihs, ou dévot et ascètes, une image sublime et pittoresque. Seulement on assiste à Kairouan à une sorte de canonisation de ces éminents personnages liée soit à leur bonne conduite, ou bien à leur rapport avec l'Islam pur, tel qu'il est rêvé par le groupe social ; on cite le cas de Abu zama'a, qui a subi une canonisation à la base, contrairement à ce qui s'est passé chez les chrétiens, chose très authentique. Une telle canonisation réussite à l'insu des fuqahas, elle fut spontanée, non officielle, contrairement à la manière catholique[60]. Il faut rappeler à titre d'exemple l'attitude de certains faqihs Kairouanais à propos des *Karamats* (prodigues) tel que Ibn abi Zaid, qui a provoqué une polémique entre ceux qui la nient et ceux qui la défendent[61]. Cette polémique nous rappelle la même attitude prise par Saint Augustin envers des fidèles qui affichaient un certain zèle pour le culte des reliques et les miracles qui en découlent[62].

Conclusion

Au terme de ces propos, il s'impose de dégager quelques remarques en guise de conclusion.
Ainsi la mémoire prend sa revanche sur la volonté d'anéantissement que le fiqh prônait, et ce, par crainte au retour à l'idolâtrie. De telles pratiques risqueraient de corrompre le dogme de l'unicité, aucun culte donc n'est permis, outre celui voué à Allah. De ce fait il a recouru à des règles rigides : raccourcir le deuil, interdire l'édification des tombes ; il ne devaient pas dépasser le niveau du sol. Cependant les faqihs eux même furent objet de culte post-mortem, à l'instar des personnages éminents de l'Antiquité ; ironie du sort. On assiste en fait à un passage latent d'un culte des morts réprimé à un culte des saints toléré par l'ensemble de la communauté, un culte déguisé qui ne choque personne ; il y a ici islamisation d'un héritage antique [63]. Le recours aux saints ne corrompt pas le dogme, et l'on ne craint plus l'idolâtrie qui aurait à s'esquiver à travers certaines pratiques funéraires. Le saint (*Wali*) possède un statut particulier ; il est le porche du divin, il est le détenteur de la science infuse, de la baraka et des prodigues (*karamats*). En fin, ce sont les exigences du groupe qui l'importent sur ceux de l'officiel. La mémoire, de par sa nature, échappe à l'anéantissement, elle se réincarne à travers plusieurs formes.

C'est le dogme avec tout son poids qui cède le terrain aux pratiques populaires ; ainsi l'Islam compose avec d'autres cultures, le syncrétisme oblige. Le travail de la

---

[60] Voir Article « canonisation ».dans *Encyclopedia Universalis*, l'acte par lequel un personnage est proclamé officiellement saint, par le pape.
[61] L'attitude de Ibn Abi Zaid, à propos des *Karamats* dont les échos ont atteint Baghdad, voir Al-Dabbagh, *Op. cit.*, T. 3, p. 146.
[62] Y. Duval, *Op. cit.*, T. 2, p. 547.
[63] St. Augustin entrprit la même attitude envers les saints chrétiens que nos faqihs modérés. En effet, il considère le saint comme un personnage proche de Dieu. (C'est la même définition qu'en Islam) Voir Y. Duval, *Op. cit.*, T. 2, p. 750.

communauté chrétienne était très influente de par son nombre et son poids[51] à Kairouan même, comme l'atteste les textes et l'archéologie[52]. Cette cohabitation avait donné naissance à une certaine convivialité entre musulmans et chrétiens, allant même à s'échanger des cadeaux à l'occasion des fêtes religieuses ; ce qui irrita les faqihs, qui exhortaient les maîtres d'écoles musulmans à ne plus accepter de tels cadeaux, défendant ainsi « *aux musulmans de se parer et de faire des préparatifs à cette occasion, et aux enfants de faire joyeuse bombance pour Noël* »[53].

Les musulmans seraient touchés d'une manière ou d'une autre par cette pratique de dévotion vouée aux saints ; l'Islam qui se considère comme une continuité du message divin ne peut pas rester à la marge de ces tendances qui font des défunts célèbres des morts très spéciaux, si l'on se réfère aux propos de P. Brown[54]. Ainsi que le phénomène de sacralisation de l'espace funéraire est apparu à l'Antiquité dans des périodes de crises religieuses ou de schisme[55], par le biais du culte des reliques, ne se répète-t-il pas sous une forme islamisante, dans une période de lutte inter doctrinales, comme nous l'avons évoqué au début de cet article.

En effet, dés le deuxième siècle de l'Hégire, quelques témoignages attestent d'une volonté de la part des musulmans de se mesurer avec des ascètes chrétiens, à l'instar d'un certain Ismail que cite Abu al-rab[56]. En tenant compte de ce qui a été dit,on pourrait avancer la thèse d'une influence chrétienne sur la mentalité musulmane en matière de rites funéraires qui aurait abouti à la sacralisation progressive de l'espace sépulcre ,qui était à l'origine un espace privé, devient avec le temps un espace public[57] ; espace sanctifié, sacralisé par l'importance du personnage qui l'habite, personnage honoré, intronisé par la foule. Une analogie même est à retenir avec l'émergence de cette dévotion populaire chrétienne ; c'était sur la tombe que naît le culte martyriste[58] qui devient culte des saints.

4 - la genèse de la sainteté populaire : Une canonisation à la base

Donc on assiste à une islamisation du vieux fond berbère sans altération, toutefois, de la foi coranique. Ces rites berbères en matière de culte ont survécu et se manifestent sous une forme islamisée[59]. En effet, la visite des tombes, tolérée, parfois encouragée dans le cas des gens pieux. La tolérance des faqihs envers quelques pratiques explique le phénomène du glissement du culte des morts vers un culte des saints ; un tel processus fut lent, comme dans l'Antiquité chrétienne, mais aboutira en fin de compte à mettre en place les fondements de la sainteté populaire. Il faut noter que ce glissement avait bénéficié de deux facteurs d'ordre différent ; le premier est celui

---

[51] H. H. Abdelwahhab, *Warakat*, Tunis, 1972, T. 3, p. 241. Voir aussi ;H. R. Idris, « Fêtes chrétiennes célébrées en Ifriqiya à l'époque Ziride », dans *Revue Africaine*, 1954, pp. 261-276.

[52] A. Mahjoubi, « Nouveau témoignage épigraphique sur la communauté chrétienne à Kairouan au XI°s. », dans Africa ,1, 1966.

[53] H. R. Idris, *Op. cit.*, p. 265, Abu al-Hasan al-Qabisi, *Epitre détaillée*, éd. A.Khaled, Tunis, 1986, p. 144.

[54] P. Brown *Op. cit.*, p. 95.

[55] Y. Duval, *Op. cit.*, T. 2, pp. 476-487.

[56] On identifiait l'un des dévots de Kairouan (Ismail b abi al-Mhagir) à un ascète chrétien ; voir Abu al-Arab, *Op. cit.*, p. 85.

[57] P. Brown, *Op. cit.*, p. 20.

[58] Y. Duval, *Op. cit.*, p. 465.

[59] Voir R. Arlandez, « maraboutisme », dans *Encyclopedia Universalis.*

enterrement où l'on a découvert la dépouille d'un homme qui restait intacte, ils ont réalisé qu'il s'agissait du compagnon du prophète[44]. Avec la dépouille présumée de cet éminent compagnon, étaient inhumées les reliques du prophète – ses cheveux en l'occurrence - c'est-ce-que raconte les biographes postérieurs tel que Al-Dabbagh[45].

Notons qu'Abû al-Arab est mort en 333 / 944. S'agit-il d'une simple coïncidence ? Peut- on voir en cette information, austère telle qu'elle soit, l'existence d'un tel courant qui aurait abouti en fin de compte à l'établissement d'un culte des saints qui aura substitué aux cultes des ancêtres ? Même si les cas révélés par les biographes ne sont pas considérés tous comme des saints ; malgré qu'ils aient subi les effets de ce mouvement, et ce, en dépit de leur volonté ; ils ne cessaient de demander aux gens de respecter les règles canoniques en matière de funérailles. Les sorties nocturnes et le campement au prés des lieux de sépulture témoignent de l'apparition d'une vague de dévotion populaire qui jeta les bases de la sainteté que l'Islam officiel ne peut que réprimer. Mais le courant fut irrésistible, il épouse donc l'héritage africain en la matière.

2 - La tradition du culte des martyrs

Il s'agit en fait d'une continuité du culte des martyrs à l'époque chrétienne qui aurait lui-même été un aboutissement du culte des ancêtres. En effet ce culte des martyrs avait une parenté étroite avec le culte des morts .Ce culte devait prendre au VI°s et au V°s de telles proportions, avec tant d'abus, qu'il a fallu réglementer[46]. La seule différence entre le culte des morts et celui des martyrs est que le premier fut familial, tandis que le deuxième regroupait toute la communauté locale des chrétiens[47].

Le culte des saints se développe comme un prolongement et une amplification du culte des martyrs. Le point de départ est toujours la tombe et la légende qui révèle sa découverte miraculeuse[48]. La dévotion populaire était si forte que le pape Damase (366-384) organisa lui-même le culte des saints, en cherchant les tombeaux de martyrs oubliées dans les catacombes, et en leur consacrant des épitaphes ; autrement dit, comme l'observe judicieusement Jacobson, en leur procurant une légende. Plus tard, on transfère la tombe du saint à l'intérieur de l'église, auprès ou au-dessous de l'autel[49]. Ces pratiques culturelles ne se limitaient pas à l'espace chrétien, que ce soit au niveau spatial ou temporel ; le monde musulman - plus précisément en Ifriqiya - n'aurait pas échappé à la règle d'acculturation ; comme le confirme ces propos de P. Brown[50] sur le culte des saints à la fin de l'Antiquité.

3 - Peut-on parler d'une « contamination » de la communauté chrétienne ?

En effet, les pratiques funéraires à Kairouan à l'époque qui nous occupe devait subir une influence du christianisme africain qui cohabitait avec l'Islam, puisque la

---

[44] Abu Al-Arab, *Op. cit.*, p. 77.
[45] Al-Dabbagh, *Op. cit.*, T. 1, p. 13.
[46] F. Decert, *Op. cit.*, p. 126-127.
[47] *Ibid.*, p. 127.
[48] La découverte du tombeau présumé du compagnon du prophète renvoie à ces pratiques liées à la ruée des reliques chez les chrétiens de l'Afrique ancienne.
[49] Mircea Eliade, *Op. cit.*
[50] Peter.Brown, *Op. cit.*, p. 24 : « le christianisme de la fin de l'Antiquité, dans son impact sur le monde extérieur, était christianisme de sanctuaires et de reliques ».

4 - les banquets funéraires

Les banquets funéraires se présentent comme une pratique séculaire qui se perpétua jusqu'à l'avènement du christianisme. Condamnés par Tertullien, qui les assimila aux sacrifices, les taxa d'idolâtrie[39]; que dire de l'époque où l'Islam fait foi et dogme dans une société imprégnée de malikisme pur et dur, et qui ne cesse de condamner les bida'. La célébration de la mémoire du défunt se faisait le troisième et le neuvième jour de sa mort, et elle avait lieu aussi chaque année à l'anniversaire de sa naissance. A l'instar des païens, les chrétiens le faisaient. Les membres de la famille, les clients, les amis et le personnel de la maison se réunissaient autour de la tombe du disparu, couverte d'une dalle de pierre *(mensae)*[40] pour l'orner de fleurs et communier par la pensée avec le disparu. Certaines tombes étaient l'objet de visites régulières, suivies parfois, autour de ces tables d'agapes funéraires, d'un repas frugal ; on déposait sur la tombe quelques nourritures, ou en versait une libation de vin. De telles coutumes furent dénoncées par St Augustin[41].

Il ressort de tout ce qui a précédé que le peuple de Kairouan n'a rien inventé en la matière ; il ne s'agit en effet que d'une manifestation de coutumes ancestrales ancrées dans la mémoire collective du groupe et que l'Islam n' a pas pu évincer. Ces sorties nocturnes et ces cérémonie, comme on venait de le remarquer, renvoient aux pratiques funéraires de l'antiquité punique et romaine, et que le temps n'a pas vouées à l'oubli.

II - Comment s'est effectué le glissement vers le culte des saints

1 - Le culte des saints est né du culte des ancêtres

On assiste ici à un phénomène de récupération de certaines pratiques qui remontent à la nuit des temps .Le culte des saints de l'époque chrétienne était une façon de célébrer la mémoire des morts, morts qui ne sont pas des personnages ordinaires pour être voués à l'oubli ; ils symbolisent la mémoire collective dont le groupe s'y trouve et s'y identifie. Les cérémonies sur les tombes saintes se différencient du simple rituel en l'honneur des défunts[42] ; comme c'est le cas des personnages de la présente étude qui avaient vécu à Kairouan à l'époque médiévale .On assiste, comme aux temps des premiers siècles du christianisme[43], à une sorte de ruée vers les reliques sans précédent,dans la société musulmane de l'Ifriqiya. Fut-il un hasard d'évoquer à cette époque la « découverte » de la tombe du compagnon du prophète Abu Zama'a, devenue le saint patron de la ville ?

Abû al-Arab nous rapporte que ce dernier est mort en 34 H. lors de la conquête de Mouawia b. Hudayj ; il leur a demandé de maintenir son tombeau au niveau du sol. Puis il réplique à cet égard que l'un de ces amis - l'auteur - avait assisté à un

[39] F.Decret, *Op. cit.*, p. 124 ; P. Brown Le culte des saints, traduit par A. Roussel, Paris, 1984, p. 40.
[40] Y. Duval, *Le culte des martyrs en Afrique du IV°s au VII°s.*, Ecole française de Rome, 1982 ; l'auteur consacre un chapitre sur les *mensae martyrium* ; T. 2, p. 525-542 .
[41] F. Decert, *Op. cit.*, p. 125.
[42] Y. Duval, *Op. cit.*, p. 455. Dans cet ouvrage l'auteur met en exergue l'ampleur du phénomène du culte des martyrs en rapport avec le culte des saints, et qui s'est prolongé jusqu'au VII°s.
[43] Y. Duval, *Op. cit.*, chp : le culte des reliques, pp. 540-580.

F. Decret, qui parle d'une vénération des personnes privilégiées et puissant, et dans lesquelles se concentre le sacré ; il s'agit des souverains plus particulièrement. L'auteur cite le cas de Massinissa et ses fils à qui furent érigés des temples commémoratifs ; ils semblaient avoir été l'objet d'un culte. L'édifice funéraire est désigné par le terme punique MQDS ; sanctuaire, lieu sacré. En effet cet édifice peut être déclaré sacré dés lors que les gestes de vénération et de respect envers l'âme du défunt y étaient accomplis : des visites des offrandes, des réunions pieuses et des repas collectifs[31]. « *Il ressort de tout ce qui précède que l'anthropolâtrie pratiquée dans le milieu berbère est une sorte de culte adressé aux morts et notamment à certains rois dont le souvenir devait contribuer au maintien de la cohésion du groupe et garantir la survie de la communauté* »[32]. Pour l'époque punique, on note aussi l'existence de tels comportements face à la mort qui consistent à l'organisation de cérémonies avec des repas lors des funérailles. Comme le note J. Ferrin : « *des funérailles solennelles étaient suivies de repas en l'honneur des morts donnés prés du temple* »[33].

b - Les pratiques de l'époque chrétienne :

Les renseignements fournis par la littérature et l'archéologie démontrent que « *les usages funéraires chrétiens ont longtemps demeurés marqués par leurs origines latines* »[34]. Les pratiques relevées à Kairouan au Moyen Age sont en vérité une sorte de continuité latente et inconsciente des pratiques et usages antiques. F. Decret rapporte que « *les cortèges funèbres, avec cierges et torches conduisant le défunt au lieu de sa sépulture* » ; une telle pratique païenne subsiste à l'époque chrétienne, elle se prolonge avec la diffusion de l'Islam, comme nous venons de le citer. Mais nous ne pouvons pas affirmer qu'il s'agit dans le cas de Kairouan de funérailles nocturnes[35] comme l'avait proposé H. R. Idris[36] ; même si les rites funéraires musulmans ne répriment pas une telle pratique[37], mais des compagnons du prophète auraient commandé avant de mourir de ne pas suivre leurs cortèges funèbres avec des torches[38]. Les témoignages cités ne font que compliquer notre tache ; en effet,il n'existe pas de directives coraniques stipulant une conduite bien déterminée, et règlementée concernant le rituel funéraire, à l'instar des rites du pèlerinage, ou du jeune. Les faqihs, et à travers des générations, ne cessèrent de règlementer cette conduite face à la mort, chacun selon ses propres convictions et avec des interprétations qui paraissent parfois contradictoires.

Pour notre cas, il s'agit d'une école malikite en plein querelles avec d'autres tendances, même si les docteurs de cette école tiennent des propos aussi rigides en la matière, reste que ces éminents docteurs ne réussissent pas à freiner, ou à dissuader quelques pratiques funéraires émanant des coutumes portant une couleur différente que porte l'Islam officiel, du moins tel qu'il est représenté et défendu par les savants d'obédience malikite.

---

[31] *Ibid.*, pp. 257-258.
[32] *Ibid.*, p. 259.
[33] J. Ferron, *la religion punique de Carthage, dans IBLA*, n° 161, 1988, p. 34.
[34] F. Decret, *Le christianisme en Afrique du nord ancienne*, Paris, 1996, p. 123.
[35] Al-Dabbagh, *Op. cit.*, T. 3 , p. 136.
[36] H .R. Idris, *Op. cit.*, p. 325.
[37] Malik b. Anas, *Al-MuWattaa*, Beyrouth, 2000, p 135-136. Tabari rapporte que le kalife Abu Bakr fut enterré de nuit, *Tarikh*, Beyrouth, 1992, T. 3, p. 211.
[38] Malik b. Anas, *Op. cit.*, p. 135.

adopter de telles pratiques ? Fallait- il chercher la réponse à travers une sorte de fouille qui toucherait l'inconscient collectif ? C'est ce qu'on va essayer de mettre en évidence dans le paragraphe suivant.

2 - La revanche d'une mémoire frustrée

La mémoire, quand à elle, aurait-elle imposé sa propre loi ? Elle se montre irrésistible, difficile à réduire à l'oubli même par une idéologie aussi universelle est assez dogmatique, mais non moins fascinante que l'Islam. Cet Islam subit la loi de la pérennité des phénomènes socioculturels ; il porte en lui des résurgences d'un paganisme arabe. En fait les pratiques funéraires de l'Islam ne sont qu'un amalgame de rites *« jahilites »* - antéislamiques - auxquels a été ajouté des éléments qui renvoient à l'exigence de l'unicité « *Taouhid* » ; c'est le credo de l'islam. En effet la toilette mortuaire, la « *salat al-janaza* », le « *taabin* », du mort fut une pratique préislamique[27] adoptée par l'Islam. A cela il faudrait ajouter les traditions de la société africaine.

Pour arriver à des déductions fiables, il est nécessaire de rappeler un peu les grands traits de cet héritage ; dans la mesure ou l'islam s'est implanté dans un milieu très riche en matière de rites et de religions ; il ne constitue en fin de compte que la couche superficielle du mental collectif des habitants de l'Afrique du nord d'une manière générale. La question de la mémoire remonte à la nuit des temps, où l'homme avait commencé à inhumer ses morts ; c'est une tradition universelle qui remonte à l'Age du Neandertal. Ainsi le culte des morts et des ancêtres était la première manifestation du sentiment religieux. Les édifices funéraires de la préhistoire témoignent de l'ampleur du phénomène. Les ossements portés et inhumés dans des emplacements qui auraient permis à ces ancêtres de surveiller les vivants.

Pour les vivants c'est la mémoire des ancêtres qui constitue une source d'inspiration continue[28]. A cet effet Tijani rapporte qu'au XIVe s. les habitants du sud-est tunisien enterraient leur mort en position semi assise ; tant que la dépouille garde cette position, elle offre aux vivants une vie prospère et glorieuse, estimaient-ils[29].

3 - les différents aspects de l'héritage antique

Le culte des morts est attesté par les sources littéraires, épigraphiques et archéologiques en Tunisie et en Afrique du nord ; que ce soit sous des formes païennes ou chrétiennes ; il s'agit d'un phénomène incontestable qui se manifeste sous différents aspects.

a - Les pratiques païennes

Parmi ces pratiques, on cite celle de l'anthropolâtrie[30] qui se présente comme l'une des pratiques liées au culte des ancêtres, si l'on se fiait à des propos recueillis chez

---

[27] Ibn Habib rapporte que les arabes antéislamiques : « *pratiquaient la toilette mortuaire ,couvraient leurs morts avec des linceuls et leur accordaient une prière d'adieu qui consistait à allonger la dépouille sur un lit ,puis vient son tuteur qui loue tous ses bienfaits .Enfin il lui demande la miséricorde divine avant de l'inhumer* ». Voir *Al-Muhabbar fi Akhbar Quoreich*, Hairabed, 1942, p. 323.

[28] Je dois ces propos à mon ami et collègue Mr Ali Mtimet spécialiste de la préhistoire.

[29] Tijani, *Rihla*, Tunis, 2005, p. 172.

[30] Voir F. Decret et M. H. Fantar, l'*Afrique du nord dans l'antiquité*, Paris, 1981, p. 257.

l'inhumation à domicile, tel le faqih Ibn Abi Zaid qui fut enterré à sa maison avec les défunts membres de sa famille[21]. Nous somme face à l'apparition d'un espace de sépulture privé ; ce qui aurait un impact considérable dans le glissement vers les mausolées et les zaouïas[22]. Cette habitude est une sorte de « Bid'a » - innovation - qui ne furent pas blâmées par ces juristes, ils y ont contribué. Le fait d'inhumer au sein d'une maison, ou de construire un édifice funéraire quelque soit sa forme, ou bien de voûter un tombeau d'utiliser des matériaux de construction, ce n'était pas admis par la charia ; le tombeau doit garder le niveau de la terre, une butte de terre ou un tas de cailloux[23].

B - Comment expliquer cette dérive ?

I - Ces pratiques sont des traces du culte des ancêtres

Le culte des ancêtres se définit comme une pratique consistant à honorer, à vénérer ses ancêtres décédés - par une cérémonie ou d'une autre manière - en étant convaincu qu'ils sont conscients dans les sphères invisibles, qu'ils peuvent aider les vivants ou leur causer du tort, et qu'il faut donc les apaiser[24].

1 - Ces comportements ne s'expliquent pas seulement par l'Islam

Pour pouvoir cerner ce problème, il faut se fier à l'anthropologie religieuse qui essaie d'appréhender le mental dont l'histoire échappe au découpage diachronique classique pour revêtir un aspect synchronique et psychologique, voire même symbolique. Il faut retenir l'idée d'un héritage latent, d'une pérennité inconsciente .Mais peut-on parler de comportement collectif inconscient ? On retient ici les propos d'E .Sapir concernant les phénomènes socioculturels[25]. C'est aussi le domaine de l'histoire des mentalités qui utilise les démarches d'investigation en matière de psychologie collective et qui inclut nécessairement le domaine affectif, les sentiments et les passions[26] .

En effet il s'agit d'un culte qui renvoie à des pratiques ancestrales que l'Islam n'a pas pu éradiquer. Un problème se pose devant tout chercheur en matière de mentalité, et surtout lorsqu'il s'agit de notre propre histoire mentale ; comment se fait-il que l'Islam, et surtout le rite malikite, permettent ces pratiques qui relèvent du paganisme pur et simple. Une religion assez rigide, en ce qui concerne le rituel funéraire, accepte de cohabiter et de composer avec ces comportements abusifs et exagérés face à la mort. Quels sont les besoins qui auraient poussé le groupe social à

---

[21] Cité par H .R.Idris *Op. cit.*, p. 325.
[22] Voir article *Kabr* dans *L'encyclopédie de l'Islam.*
[23] Ibn Kaddah Al-Houari, *Al Masail Al* Fikhya, (Les *questions juridiques*), Kairouan, 1992, p. 185.
Voir aussi article Sépulture dans *Encyclopedia Universalis* : « *La forme et la structure des sépultures dépendent moins des rites funéraires que des formes de l'état social correspondant et des conceptions ou des croyances relatives à la vie future* ».
[24] Mircéa Eliade, *Op. cit.*.
[25] Toute de psychologie de l'individu est psychologie de la société, dans la mesure ou le psychologique rend compte des conduites sociales. Voir E .Sapir, *Anthropologie*, Paris, 1967, p. 37.
[26] V.R Mandrou, « l'histoire des mentalités », dans *Encyclopedia Universalis.*

Un autre élément intervient ici, il s'agit des pratiques liées à la visite des cimetières. En effet l'islam exhorte les fidèles à respecter certaines règles dans le cadre de ces visites. Pour le deuil, le rituel exige qu'il soit très court et très simple, comme on vient de l'évoquer « *pas de condoléance après trois jours, annonça le prophète* ». Si l'on revient à nos cas de campement auprès des sépulcre cités, on remarque une attitude qui renvoie à des pratiques anciennes connues en Afrique Antique depuis la nuit des temps, et qui ont cohabité avec le rituel musulman. Seulement il est difficile de comprendre ce genre d'attitude dans une capitale de l'Islam maghrébin où domine une tendance malikite rigide. Il est important de signaler aussi l'attitude du fiqh concernant la sépulture. Il existe un certain nombre de règles à suivre en la matière.

Concernant le tombeau ; celui-ci ne doit pas dépasser le niveau de la terre[17]. Les faqihs insistent beaucoup sur ce fait ; ils ne cessent de le rappeler en guise de testament. Mais les tombes de ces faqihs subiront un sort tout à fait différent, comme le prouve ce comportement attesté à Kairouan, objet de notre travail. Le rite malikite condamne même les inscriptions funéraires, il pourrait cependant tolérer une simple pierre à la tête du défunt ou un morceau de bois qui comporterait éventuellement son nom[18] ; chose qui vise à faciliter la tache des parents visiteurs. Autre chose à évoquer ici ; la visite des cimetières a toujours été un objet de controverse entre les rites et les doctrines en Islam. Cependant, on attribue au prophète le fait d'avoir toléré cette pratique après l'avoir condamnée. « *Je vous ai interdit auparavant la visite des cimetières, maintenant il vous en est permis* ». La permission n'a pas résolu le problème puisque les femmes sont toujours l'objet d'interdiction ; à moins qu'elles ne soient vieilles, par prévention contre toute éventuelle tentation[19].

Comment expliquer le fait que ces règles de comportement ne fussent pas respectées dans un milieu rigide de tendance malékite ? Nous ne pourrons pas être en mesure de faire des conclusions tangibles et cohérentes dans l'état actuel de notre documentation. Mais il faut retenir quelques remarques liées à l'information apportée par les sources utilisées ; lorsqu'on nous rapporte l'intervention du pouvoir pour dissuader les gens, on ne sait pas si c'était sous l'instigation des faqihs ; ou bien par une simple crainte de voir ces rassemblements dégénérer en émeutes, rien encore ne le prouve. Cette crainte éprouvée par le pouvoir serait une réaction légale de tout musulman, du moins un instruit, qui aurait craint les que les manifestations de telles pratiques pourraient renvoyer au paganisme.

D'autre part il n'est pas dans l'habitude des musulmans de visiter le cimetière de nuit, ni aussi d'y rester au-delà de la période canonique du deuil. A l'époque d'al-Qabisi une pratique a vu le jour et, a été approuvée par ce grand faqih ; il s'agit de la matinée du tombeau (*sabah al Kabr*), une telle coutume consiste à célébrer une sorte de cérémonie est organisée pour l'occasion au prés du sépulcre. Cette pratique est apparue vers le début du IVe s.[20]. Il faut noter aussi l'existence d'une coutume concernant

[17] Al-Burzuli, *Op. cit*, T. V, pp. 510-514 ; les attitudes des docteurs concernant l'édification du tombeau varient d'une tendance à l'autre,et qui vont de la permission jusqu'à la démolition de ce qui a été déjà construit.

[18] On retient ici les propos du regretté Tahar Rouis dans son ouvrage, *Al-fikh al-wadhih* ; ce dernier avait présidé pendant longtemps la prière du vendredi à M'saken . Ces propos émanent d'une lecture des ouvrages de tendance malikite. Voir p. 202-203.

[19] Daprès Ibn Habib, on peut visiter les cimetières, s'asseoir même auprès des tombes et saluer les morts en passant. De même le Kadi Iaadh rapporte que les kairouanias autorisent la visite des cimetières, tandis que les andalous l'interdise. Voir Al-Burzuli, *Op. cit.*, T. 5, pp. 514-515.

[20] H. R. Idris, *la berbérie orientale sous les zirides*, Paris, 1962, T. 2, p. 325.

rapporte la source biographique. Les gens ne levèrent le camp que sous l'ordre du pouvoir en place ; l'émir aurait demandé à l'un des parents du défunt de faire disperser la foule par crainte[14], sans aucune précision, de quoi ? Le deuxième cas est celui d'al-Khawlani mort en 430 / 1038.Les gens sortaient de nuit avec des flambeaux et des bougies pour visiter son tombeau jusqu'à ce que le sultan les a persuadé de s'en retenir[15].

Ces pratiques paraissent plus ou mois excentriques si l'on se fiait à la coutume musulmane en matière de rituel funéraire. Avant de passer à l'analyse et au commentaire de ces faits, il serait nécessaire de rappeler en quelques lignes les comportements que doit observer le musulman dans ce genre d'événement qui fait partie du quotidien.

b - Comment le musulman conçoit-il la mort ?

Si l'on revient à l'approche même de la mort dans le mental collectif musulman, on remarque une certaine attitude de résignation et de sérénité. Puisque celle-ci n'est pas conçue en tant que fin définitive, mais au contraire en tant qu'accès à un autre monde.

« *Comment êtes-vous infidèles envers Allah, alors que vous étiez morts et qu'il vous a donné la vie, alors qu'ensuite il vous fera mourir, puis vous ressuscitera, alors qu'à Lui vous serez ramenés* » (Coran, sourate II, La génisse 26-28). La mort n'est alors plus redoutée, mais envisagée de manière naturelle comme une étape nécessaire du devenir humain. Cette acceptation de la mort en tant que telle permet au musulman de ne pas la nier mais de l'assumer et de la mettre au cœur des croyances afin d'essayer de la maîtriser. De ce fait se dégage un comportement digne d'un bon musulman face à cette mort. Ainsi, l'Islam condamne vigoureusement les exagérations de larmes ou de sentiments. Il permet la peine, mais exclut les attitudes démonstratives car les larmes doivent être dignes et discrètes. Souvent, les hommes ne pleurent pas. La foi est donc le soutien naturel du musulman pour qui, tout se résume dans la phrase : « *c'est à Dieu que nous appartenons et c'est à lui que nous retournons* ». Les condoléances se pratiquent pendant trois jours et pas au-delà, sauf dans le cas où quelqu'un se déplace de loin. Il est de bon ton, pour un musulman, de s'y astreindre. Le visiteur emprunte souvent la formule de politesse : « *Que Dieu augmente ta récompense, t'accorde l'endurance et pardonne à ton regretté* » à laquelle répond la famille : *« Amen, que Dieu te récompense et t'évite tout mal* ». Le deuil ne doit pas affecter la vie courante de la famille au delà de trois jours. En revanche, la veuve doit tenir le deuil pendant quatre mois et dix jours[16].

c - des pratiques imposées par le groupe

[14] « Abu Mohammed – le bon Dieu en soit satisfait – nous raconta que lorsque Mohammed ibn Sahnoun est décédé, et que dieu lui accorde sa miséricorde, on avait campé sur les lieux de sa sépulture, et on a installé une sorte de foire –où l'on vendait et achetait quatre mois durant -l'arrivée de l'hiver obligea les gens à lever le camp », voir Ad-Dabbagh , *Op. cit.*, T. 3, p. 136.

[15] « Il fut inhumé à la cimetière de Bâb Tunis. On raconta que les gens sortaient de nuit pour visiter sa tombe menus de flambeaux et des bougies, jusqu'à –ce- que le pouvoir leur en interdit », Voir Ad-Dabbagh, *Op. cit.*, T. 3, p. 169.

[16] Al-Burzuli, *Op. cit.*,T. V, p. 509-511. Voir aussi Tahar Rouis, *Op. cit.*,p. 205-206.

suffit de voir le déroulement des cérémonies d'adieu des personnes très populaires ou médiatisées, hommes politique ou artistes, pour en déduire l'ampleur de ce phénomène.

En effet, on doit prendre en considération l'ambiance de l'époque qui était favorable à ce genre de pratiques, vu la représentation que faisait le groupe de ces gens populaires , qui aux yeux des habitants symbolisaient la voie pure et dure telle qu'elle est préconisée par ces faqihs. Ces derniers constituaient, leur vie durant, un modèle de conduite pour le musulman qui est en quête du salut en quelques sorte. Il est important de noter à ce niveau que cette pratique n'est pas blâmable de point de vue canonique, bien au contraire, le fiqh exhorte les musulmans à participer à de telles cérémonies, surtout quand il s'agit de quelqu'un de pieux ou de dévot. Il est donc inutile de rappeler ce que représentent ces morts pour les kairouanais ; ils sont le symbole de la piété et de la dévotion, sans oublier leur rôle dans le combat pour la défense du dogme contre toute formes « d'hérésie ». Ces faqihs jouissaient du plus grand respect parmi ces foules, ils étaient des modèles, et des repères pour les kairounais comme le cas d'Assibaii à qui on revient dans les calamités nous dit al-Maliki : « *on attendait sa réaction, s'il fermait sa porte, on en fait de même, s'il l'ouvre on en fait aussi, et s' il parlait on fait comme lui. Bref, on l'imite dans tous les actes qui touchent la vie quotidienne* »[12].

De cette hystérie de la foule, se dégage une certaine gratitude et un sentiment de chagrin collectif qui dépasse les bornes. Ce chagrin éprouvé n'est q'une forme déguisée de certaines pratiques tombées en désuétude, et qui sont liées au culte des morts, et qui resurgissent d'une manière plus ou moins inconsciente.

Si l'on se renvoie aux études réalisées dans ce domaine on pourrait, sans autant aboutir à des déductions hasardeuses, attribuer cette pratique à ce phénomène du culte des morts en général ; et plus précisément celui des ancêtres. A cet égard Mircea Eliade parle de ce lien qui existait entre les morts et les vivants et qui pourrait expliquer cette hystérie du groupe : « *Une des caractéristiques les plus intéressantes du culte des ancêtres tient souvent aux liens d'identification et de solidarité que les vivants établissent avec ceux-ci sur le mode de la plus intime dépendance* »[13].

2 - Le comportement après l'enterrement : sortie nocturne avec des flambeaux, campement sur les tombes des morts ?

En effet, il s'agit d'un ensemble de pratiques un peu ambiguës de point de vue canonique. Les biographes rapportent de tels témoignages sans formuler le moindre commentaire à l'égard des ces pratiques, qui ne ressortent pas du fiqh ni de la sunna ni même de l'Islam d'une manière générale. Voici les faits.

a - Les faits

Il s'agit de deux cas ; l'un aurait vécu le long du IIIe /IXe s. c'est Mohammed b. Sahnoun fils du fameux faqih malikite, il est mort 256 / 869. On nous dit que la foule avait campé sur les lieux de sa sépulture entre quatre mois et une année. Ainsi que le lieu de sa sépulture fut transformé en une sorte de foire ; on y vendait et achetait, nous

---

son cortège plusieurs cercueils sont brisés sous sa dépouille, ce qui amena les forces de l'ordre à intervenir ; des mains furent mutilées,après avoir refusé de céder le cercueil. Il fut inhumé au cimetière de Bâb Tunis. Voir Al-Maliki, *Op. cit.*, T. 2, p. 314.

[12] Al-Maliki, *Op. cit.*, T. 2, p. 314.

[13] Mircéa Eliade, « le culte des ancêtres », dans *Encyclopedia Universalis.*

que tout musulman a droit à sa propre tombe, considérée comme waqf à lui, et que personne ne lui y est associé, sauf dans le cas de catastrophe, où il pourrait y avoir lieu des fosses communes[7]. Mais la privation d'un musulman de ses droits est limitée par des cas de suicide ou d'apostasie[8], et éventuellement d'hérésie. Cependant aucun texte coranique ne stipule de telle attitude ; mais le poids de la jurisprudence malikite - dans notre cas - est écrasant. Parmi ces attitudes prônées par le droit malékite, une directive stipule qu'il serait préférable de ne pas voir un grand savant présider la prière des funérailles sur un « *Fasiq* »[9] ; pervers - ce qui n'est pas religieusement correcte - pour ainsi dire.

Il est très rare de voir certaines pratiques se déroulant en terre d'Islam à l'encontre des musulmans, à moins que ses derniers ne soient taxés de toutes sortes d'accusations ; tel que hérétique, pour celui qui prône la doctrine de la création du Coran, ou dans les cas de représailles à la suite d'événements sanglants.

III - Les cortèges funèbres des éminents malikites : avant et après l'enterrement

Contrairement à l'attitude prise envers ces « hérétiques », la foule, s'est comportée d'une manière trop excessive manifestant un sentiment de fidélité et une grande ferveur et gratitude envers ces « leaders » si j'ose dire. Je citerai deux ensembles de cas : Le comportement de la foule lors des cortèges précédant l'enterrement, ensuite le comportement de la foule après la cérémonie, c'est ce dernier élément qu'il faut saisir de part son importance, puisqu'il constitue la pierre angulaire de notre démarche.

1 - le comportement de la foule lors de la cérémonie d'adieu ; passages des cortèges précédant l'enterrement

Les cortèges funèbres des savants malékites étaient l'objet d'un comportement très bizarre ; en effet la foule avait maintes fois barré le passage de certains cortèges funèbres au prix de subir les châtiments les plus atroces ; voir les mains mutilés ; des mains qui s'en prirent aux cercueils, refusant de les lâcher et laisser partir le cortège[10]. Dans d'autres cas, ils étaient obligés de changer le cercueil brisé sous les mains des ces « fans »[11]. C'est très fréquent dans le monde arabo-musulman, même de nos jours. Il

---

[7] Les faqihs considèrent le tombeau comme fondation wakf privé propre au défunt ne concernant autre personne à part le défunt, en outre on pourrait éventuellement utiliser le même tombeau pour plus q'une personne,et ce en cas de crises :guerres ou épidémie ;la fausse commune pourrait remplacer le tombeau individuel .Voir à ce propos : Al-Burzuli, *Fatawa*, Beyrout 2002, ,T. V, p512 ;Voir aussi :Ibn Jaouzey, *Al- qawanin al fiqhia*, beyrouth, s.d., p. 66 : « Il est interdit d'inhumer une autre personne avec le mort ».

[8] Al-Burzuli, *Op. cit.*, p. 505, notre fakih a présidé la prière funèbre sur un suicidé, d'autres fakih prônent une attitude opposée « les vertueux ne doivent pas prier sur le corps d'un suicidé ou d'un criminel condamné à mort ,dans ce dernier cas le gouverneur ou le juge évitent de présider la prière funèbre à moins que l'on ne trouve personne pour l'accomplissement de ce rite », *cf.* Ibn jaouzey, *Op. cit.*, p 65.

[9] Tahar Rouis, *Al Fiqh al Wadih (juridiction clairvoyante)*, Sousse, 1990, p. 198.

[10] Le cortège funèbre d'Abu Omrane al fessi -mort en 430/1038- fut mémorable : « le sultan assista à la prière funèbre avec tous les gens de Kairouan ; son cercueil fut attiré par la foule,à tel point que l'on a cassé deux cercueils, depuis le matin jusqu'à midi. Voir : Addabbagh, *Maalim Al-Imen*, Tunis, 1993, T. 3, p. 163.

[11] Le cortège funèbre d'Al-Khawlani, célèbre faqih kairouanais, mort en 435/1043, a connu le même sort : « son fils présida la prière funèbre à laquelle assista une foule considérable; et lors du passage de

des faits, mais plutôt par leur valeur symbolique tel qu'elle est conçue et représentée par le groupe social.

II - La mort subit les conséquences d'une atmosphère tendue ; elle devient l'objet de discrimination

1 - Les faits

Les recueils des témoignages concernant, certes, des personnages ayant vécu et étant morts à Kairouan durant les trois derniers siècle IIIe-Ve / IXe-XIe,mettent en exergue deux comportements diamétralement opposés l'un à l'autre :le premier concerne une attitude hostile envers des « hérétiques », tel que les sources mélikites les appellent , tandis que le second concerne des cas de tendance malékite « orthodoxe » qui font l'objet d'un panégyrique par les sources malikites dans lesquelles nous puisons nos témoignages.

Deux cas qui remontent au IIIe / IXe s., cités par Abu al-Arab . Il s'agit en effet de deux Moatazilites privés du rituel d'adieu ; les hommes de cette tendance sont présentés comme des gens impies, à l'instar de ce nommé Ibn Sakhr le Moatazilite à qui l'imam refusa de présider la prière de la *janaza*, une cérémonie d'adieu : « *Tout vivant est mortel, faite préparer ma monture* », dit-il ; et il s'en alla refusant même de participer à la prière sur la dépouille, même s'il venait de présider une prière de la *janaza* d'un autre défunt sur les mêmes lieux[4].

Un autre cas cité par le même auteur est celui de Buhlul b. Omar al-Tujaibi : « *lorsq'il est mort et fut porté au cimetière peu de gens accompagnèrent son cortège funèbre, et son cercueil a essuyé des jets de pierres, et la foule scanda : à la rivière, à la rivière, c'est-à-dire jetez-le à la rivière* »[5].

Al-Maliki cite un autre cas ; des gens sont venus annoncer la mort de l'un de leur proches qui était partisan de la doctrine de la création du Coran ; le Faqih leur dispensa de l'accomplissement du devoir funéraire si jamais quelqu'un d'autre s'en chargerait, il ont insisté - faute de volontaires pour de telle tache - à ce moment, le Faqih répliqua : « *allez l'inhumer rien que pour la cause du monothéisme* »[6].

2 - Commentaire : l'attitude de l'Islam vis à vis les morts

Il s'agit ici des cas de privation des musulmans des leurs propres droits en matière de rites d'adieu ; chose insensée, puisque tout musulman doit bénéficier de ses droits à un rituel d'adieu complet allant de la toilette mortuaire jusqu'à la prière précédant l'enterrement (*salat al-janaza*) et l'inhumation selon les rites musulmans. I a le droit de recevoir les dignités relatives à la cérémonie d'adieu avec un cortège funèbre, et que ses parents observent une période de deuil - trois jours - pendant laquelle il doivent recevoir les condoléances selon la coutume et la sunna.

Que se passe-t-il ? la mort devient ici un objet de discrimination, c'est l'incidence de la réalité politique et des luttes inter-doctrinales. Les morts subissent alors leurs sorts et assument les conséquences de leurs choix. A cet effet, le fiqh stipule

---

[4] Abu al-Arab, *Op. cit.*, p. 108.

[5] *Ibid.*, p. 175.

[6] Al-Maliki, *Ryadh al-nufus*, Beyrouth, 1983, T. 1, p. 386.

Du culte des ancêtres au culte des saints dans la ville de Kairouan
(Aux III^{e}, IV^{e} et V^{e} / IX^{e}, X^{e} et XI^{e} Siècles)

Mohamed Said
Institut Supérieur des Métiers du Patrimoine de Tunis

En feuilletant les œuvres de biographies Ifriqiyennes, le lecteur s'étonnera des propos concernant les comportements des habitants de Kairouan lors des cortèges funèbres ; des faits qui s'étaient déroulés aux IIIe-IVe, et Ve H./ IXe,Xe et XIe s., témoignent à quel point de telles pratiques et comportements funéraires paraissent excentriques par rapport aux règles canoniques en matière du rituel funéraire de l'Islam. Comment se fait-t-il que des pratiques semblables se rencontrent à Kairouan ? Sachant bien que l'Islam tient une attitude rigoureuse à cet égard, dans une alternative de rupture avec les traditions antiques, par crainte de retour à l'idolâtrie. De telles problématiques seront ainsi soulevées dans cet exposé, où l'on ne prétend pas avoir donné des réponses réconfortantes. Mais il ne s'agit, en fait, que d'une modeste proposition à l'ouverture d'un débat concernant l'histoire des mentalités.

A - Les comportements face à la mort à Kairouan au Moyen-âge

I - L'émergence de l'espace funéraire Kairouanais

A Kairouan, l'espace funéraire a précédé l'espace urbain, autrement dit la ville des morts existait déjà avant la fondation de la colonie arabe, comme le montrent ces deux témoignages. D'abord celui du cas de cette fillette, la petite fille du Kalife Omar, qui fut inhumée à proximité du futur site sur lequel se fonderait la ville, et qui portera le nom du cimetière de *Quoreich* (*al-Janah al Akhdar*) le pavillon vert[1]. Ensuite, nous mentionnons le cas de la Balawia - le cimetière - qui aurait abrité la dépouille présumée du compagnon du prophète Abu Zama' al-Balawi,et qui servait de lieu de sépulture même avant la fondation de la ville[2]. Ces deux témoignages remontent à deux décennies de l'an 50 / 670 ; date de la fondation de la cité par Okba Ibn Nafa'.

Nous somme face à une représentation très particulière de l'espace Kairouanais, une telle représentation est très ancrée dans la mémoire collective et ainsi charriée par les auteurs de l'époque médiévale. Nous assistons aussi à une considération symbolique de cet espace qui appartient au domaine du sacré, *lieu d'épiphanie*, un terme cher à M. Eliade [3]. L'existence présumée des reliques du prophète, inhumées avec le corps du compagnon, pourrait le confirmer. Nous nous sommes pas intéressés ici par la véracité

[1] Abu al-Arab, *Tabaqat*, Tunis-Alger, 1985, p. 79.
[2] *Idid.*, p. 77.
[3] Mircea Eliade, *Le sacré et le profane*, Paris, 1967, p. 21.

pierres, par les soins de son fils Abu al-Hasan Ali. La mosquée avait un *mi'ad* très fréquenté par les compagnons de Sahnun[217], à l'instar d'Ahmad Ibn Mu'tab al-Azdi (m.277/890), Abu Bakr Ibn Sa'dun, Abbas Ibn Abdallah et Muhammad Ibn Fatis[218]. L'autorité aghlabite s'accommodait mal de ces réunions; sous Ibrahim II le cadi hanéfite exécuta Ibrahim al-Dimni et persécuta Ibn Muzhir et al Madha'[219]. Le malikite Yahya Ibn Umar avait également dénoncé cette innovation avec véhémence et même composé un ouvrage pour interdire aux gens de fréquenter l'oratoire[220]. Malgré les efforts de quelques rigoristes, comme al-Qabusi (m.403/1012) et Abu Imrane al-Fasi (m.430/1038)[221] ainsi que l'opposition du pouvoir ubaydite[222], l'importance de Masjid al-Sibt s'accentua au X^{ème}-XI^{ème} siècles à une époque où la distinction entre juristes et ascètes devint plus théorique que réelle. Des grands soufis, comme Rabi' al-Qattan qui mourut en combattant les shïtes (334/945), mais aussi d'éminents docteurs malékites, à l'instar d'Ibn al-Labbad (m333/944), Ibn Abi Zayd, Ibn al Tabban et al-Dabbagh s'y rendaient fréquemment[223].

L'oratoire qui tomba en ruines après l'invasion hilalienne fut reconstruit par le soufi Abu al-Hasan Abd alAziz al-Hawwari (660/1261[224]). Il y fut par la suite enterré. Malgré son prestige les gens prirent l'habitude d'appeler l'oratoire Masdjid al-Arbi, du nom de l'intendant du *maqâm*[225]. D'importants travaux y furent effectués par les soins d'al-Burzuli (m.841/1438) qui y signala la présence de quelques tombeaux vénérés[226].

Conclusion

Malgré les conquêtes de la médecine arabe, l'Ifriqiya médiévale avait conservé ses anciens préjugés et ses léproseries. Ces fondations n'étaient nullement des hôpitaux mais plutôt des espaces d'exclusion où on entrait pour ne plus jamais sortir. Les biographies de *Riyadh al-Nufus* nous conservèrent l'image attristante de « jeunes lépreux », des étrangers sans nom ni abri, qui perdirent la vue et l'usage des membres. Ils n'avaient pour adoucir leur lente agonie que la compassion des ascètes. Mais l'expérience spirituelle du lépreux et le martyr de son corps fascinaient les *zuhhad(s)* qui se rendaient dans les léproseries pour aider les malades à bien mourir, mais aussi pour soigner leurs âmes. Ceci fit très tôt des *dimna(s)* les berceaux du soufisme maghrébin et des haut-lieux où s'opéra le sycrétisme entre le substrat chrétien de l'*Africa* et les apports musulmans.

---

[217] Dans la journée Ibn Nadji, I, p. 31, II, p. 113; Burzuli, II, p. 38, V, p. 414-415, H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 693.
[218] Maliki, I, p. 395, 471,493, II, p .495; Iyadh (1968), pp. 255-256; Ibn Nadji, II, p. 177, 184
[219] Ibn Nadji, II, p. 147 ; Iyadh (1968), p. 144, 259.
[220] Maliki, I, p. 493; Iyadh (1968), p. 265 ; Rurzuli, I, p .292, II, p. 33.
[221] Maliki, II, p. 215, 495 ; Iyadh (1968), p. 255 ; Burzuli, II, p. 292, III, p. 608 ; H.R. Idris, *Zirides*, II, p. 693.
[222] Maliki, II, p. 215, 287, H.R .Idris, *op. cit*, II, p .693.
[223] Burzuli, II, p. 38; Maliki, I, p. 493, p. 495; Iyadn (1868), p. 255, Ibn Nadji, III, p. 35, 42; H.R. Idris, *op. cit*, II, pp. 694-695.
[224] Ibn Nadji, IV, p.21; N. Amri, *op.cit*, p. 94.
[225] Ibn Nadji, I, p. 31, II, p. 113-114.
[226] Burzuli, V, pp. 414-415 ; Ibn Nadji, II, p. 117, signale la disparition de beaucoup de tombes.

Leurs cercles (*taghbir, ta'bir, tarki, al-a'mal, tatrib*)[203] où les femmes se mêlaient volontiers aux hommes[204], attiraient, notamment durant les mois saints de Sha'bane et de Ramadhane, ainsi que le jour de l'Ashura, une foule d'anachorètes, de dévots et de juristes[205]. Berceaux du soufisme populaire[206], qui donna par la suite une connotation particulière à l'islam maghrébin, ces sanctuaires devinrent au Xème siècle le lieu de retraite des élites malékites antishïtes et favorisèrent davantage l'osmose entre juristes et mystiques, c'est-à-dire la synthèse de toutes les forces de l'orthodoxie locale[207]. Pour le jurisconsulte Ibn al-Labbad l'Ifriqiya fatimide ressemblait à une vaste prison et seul l'air de la *dimna* pouvait apaiser son âme[208] et le rendre libre.

La mosquée du jeudi

Cet oratoire (appelé aussi Masjid al-Khidr), qui s'élevait à proximité de la mosquée du Samedi[209], a totalement disparu de nos jours. La dénomination de Masdjid al-Barrani atteste sa position excentrique.

Le monument, célèbre par ses réunions qui se déroulaient le jeudi après la prière du '*asr*[210], aurait été fondé selon Maliki par Ibrahim al-Dimni (m.305/917[211]). Ibn Nadji, Iyadh et Burzuli attribuent plutôt sa construction, vers 890, à l'ascète Abu Ishaq Ibrahim Ibn al-Madha' (m.250/864), compagnon de Sahnun[212]. A sa mort il y fut inhumé. Sa tombe était vénérée au bas Moyen âge par les gens du peuple qui la confondaient avec la sépulture d'une sainte locale ; Sitti Tayaha[213].

La mosquée du Samedi

Cet oratoire, appelé aussi Masdjid al-Dimna[214], fut édifié, en briques crues, par l'ascète (lépreux) Abu Muhammad al-Ansari (m.256/869)[215]. Au temps d'Ibn Nadji sa tombe trônait fièrement au milieu de la cour du sanctuaire[216] totalement reconstruit, en

---

[203] On répétait à satiété « certains versets coraniques, on récitait des vers ascétiques du persan Abu Mi'dan et de Yumn ibn Rizq (*raqaiq*), des exhortations , des descriptions du jour dernier et des récits tirés de vies édifiantes. L'assemblée gémissait et pleurait. Le récitant (*qawwal, mu'abbir*) psalmodiait des versets et chantait des vers d'ascèse que l'assistance répétait à cœur ». HR Idris, *op. cit*, II, p. 693. Sur Abu Mi'dan (*'arus al-Zuhhad*), mort au ribat d'al-Massisa en 284/897, c.f. *Hilyat al-Awliya*, X, pp. 394-310. Pour le tolédan Yumn Ibn Rizq, auteur de *Kitab al-Zud*, H.R. Idriss, *op. cit*, II, p. 693. Sur ces cercles, cf. Burzuli, I, p. 292. Maliki, I, p. 495. Iyadh, 1968, pp. 255-260, M. Talbi, « *La qira'a bi-l-alhan* » , in *Etudes d'histoire ifriqiyenne*, Tunis, 1982.

[204] Burzuli, IV, p. 396.

[205] Maliki, II, p.137, Ibn Nadji, II, p. 116.

[206] Sur les manifestations de ce soufisme extrémiste qui frisaient le charlatanisme, condamné par Maliki lui-même, cf. Riayadh, I, p. 496, Burzuli, I, p. 292; H.R. Idris, II, p. 693.

[207] Le rigoriste Ibn Abi-Zayd composa même un "*djuz*" (opuscule) sur l'authenticité des miracles (*Karamat*) des saints. Cf. H.R. Idris, « *Deux juristes* », *op. cit*, p. 149.

[208] Maliki, II, p. 137.

[209] Maliki, II, p. 139, Ibn Nadji, I, p. 32, II, p. 174.

[210] Elle durait par la suite toute la nuit. L'ascète Ishaq al-Tanuna y a même élit domicile. Maliki, II, p. 137et 139; Ibn Nadji, I, p. 32,

[211] Maliki, II, p. 137.

[212] Ibn Nadji, II, p. 174; Burzuli, IV, p. 426; Iyadh, IV, p. 357 (1968, p. 204).

[213] Ibn Nadji, I, pp. 32, 174 et 177.

[214] Maliki, I, p. 496 ; Ibn Nadji, I, 31, II, 159.

[215] Maliki, I, p. 496 ; Ibn Nadji, II, p. 31, II, pp. 113-115, 239; Burzuli, V, pp. 414-415; H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 442 et 693.

[216] Maliki, II, p.117.

siècle, était fort probablement situé dans le quartier maritime de Bab al-Bahr (le futur *Rabd*). D'après Maliki l'ascète Abu Ishaq Ibrahim ibn Qashash (m.322/933), maître d'al-Djabanyani, préparait lors des deux grandes fêtes canoniques des gâteaux, des remèdes et des arômes au profit des lépreux. Après les avoir consolé il les faisaient manger, les parfumaient, appliquait les solutions sur leurs plaies et enduisait leurs têtes d'huile[192].

LEPRE ET MYSTICISME

Chez les chrétiens le lépreux est une personne qui porte les stigmates du malin et du pêché. Mais c'est, aussi, un homme que le Seigneur à visité; son affliction est assimilée au supplice du Christ qui sauva l'humanité par sa souffrance. Des *hadith*(s), probablement forgés dans les milieux hérétiques orientaux primitifs, font également du lépreux une personne bénie par Dieu. « En voyant la récompense du Seigneur le jour du jugement dernier, les lépreux souhaiterons qu'il les fasse retourner sur terre afin de couper leurs corps à la hache », disait une tradition rapportée par Tirmidhi[193]. Ce *hadith*, et bien d'autres qui exaltent l'expérience spirituelle du malade, continuellement en proie à l'angoisse de la mort, étaient en vogue chez les ascètes de l'Ifriqiya[194], cette vieille terre chrétienne[195]. Le martyr de son corps, ainsi, que sa déchéance, rejoignait leur rêve d'immortalité et de nirvana.

Les mosquées de la dimna de Kairouan

La léproserie de la capitale aghlabide était dès sa fondation un foyer actif de l'hermétisme ésotérique qui avait eu très tôt de fervents adeptes en Ifriqiya[196]. On s'y rendait pour aider les malades à bien mourir, mais aussi pour soigner son âme et fuir le luxe et les inégalités de la florissante cité commerciale. Un grand nombre de lépreux étaient, en outre, des anachorètes accomplis[197]; ils sont qualifiés de *sulaha*, d'*abdel*, de *mustdjab* et même de *sufi* par les biographies des saints[198]. Nous pensons même que la présence à une haute époque d'éminents soufis comme Shaqran al-Hamadani[199] n'était pas totalement étrangère à cette vocation singulière.

La *dimna*_renfermait deux sanctuaires prestigieux : les mosquées du jeudi (Masdjid al-Khamis) et du samedi (Masdjid al-Sibt[200]) où se tenaient des réunions mystiques analogues aux *mi'ad* des ribats ifriqiyens[201] et Masdjid al-Qarafa (Egypte[202]).

---

[192] Maliki, II, p. 201.
[193] Tirmidhi, *Sunan Zuhd*, n° 2513.
[194] Maliki, II, p. 275
[195] Il est intéressant de signaler l'origine non arabe de plusieurs ascètes de la *dimna* de Kairouan, tel que Sadaqa et ibn Mu'tib. C.f. Iyadh, 1968, pp. 255-260
[196] Burzuli, II, p. 693; H.R. Idris, « *Deux juristes* », *A..I..E.O*, 1954, p. 26; *ID*, *Zirides*, II, p. 683; N. Djelloul, *Ribatat*, *passim*, M. Labidi, *La littérature à l'époque aghlabite* (texte arabe), Tunis, 1994.
[197] Voir, N. Djelloul, *Ribatat, passim*, N. Salama-Amri, *La walaya en Ifriqiya à l'époque hafside* (Texte arabe), Tunis, 2001, p. 521.
[198] Ibn Nadji, II, pp. 11 et 147.
[199] Il fut le maître d'éminents soufis maghrébins et orientaux, à l'instar de l'égyptien Dhu al-Nun. Abu al-Arab, p. 61; Ibn Al-Athir, *Kamil*, VI, p. 174, Maliki, I, pp. 312-314 et 320.
[200] Sur ces deux oratoires, cf. H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 442. D'après Burzuli (IV, p. 396) des sanctuaires, ayant les mêmes noms et les mêmes fonctions, existaient au temps de Malik.
[201] Des juristes comme Hamdis al-Qattan (m. 291/901) avaient dénoncé ces cercles et ceux qui s'y rassemblaient et frappaient leurs poitrines. cf. Burzuli, II, p. 33; Maliki, I, p. 488; H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 694.
[202] Burzuli, I, p. 292; IV, p. 426.

(*ahl al-Dhar wa al-Bala*[183]). L'appellation semble avoir été, cependant, un simple euphémisme lié au prestige de la *dimna* de Kairouan. Les mesures de confinement n'y furent pas, en tous cas, aussi draconiennes; l'intendant des marchés de Sousse demanda, en effet, l'avis de Yahya ibn 'Umar à propos des « lépreux qui vendaient de l'huile, du vinaigre et des œufs dans les *suq(s)* de la ville[184] ».

La mosquée d'al-Khidr (ou d'al-Dimna), située au Sud du faubourg, était très fréquentée par les dévots et les *murabitun*. Ibn al-Saqil et al-Gammudi s'y rendaient pour assister aux réunions mystiques[185], Abu al-Bishr Muhammad Ibn Yunis (m.331/942) et Abu Abdallah Ibn Humayd (m.293/905) compagnon de Shanun, pour prendre soin des malades. Ce dernier y contracta la maladie contagieuse[186]. La déchéance de Sousse au bas Moyen âge entraîna la désaffection de da maladrerie. Les lépreux furent confinés dans le *maristan* du quartier d'al-Qahawi qui substitua jusqu'à l'époque moderne.

La léproserie de Tunis

Contrairement à l'avis de Robert Brunschvig, aucune indication ne nous permet de placer cette fondation à Mallasine[187]. D'après Bakri, le faubourg des lépreux (*Rabadh al-Mardha*) s'élevait en dehors de la ville, non loin d'une sebkha, au Nord d'une grande saline[188]. Cette dernière devait se trouver, fort probablement, aux environs de l'actuel quartier des salines. Ainsi, les malades sont refoulés, à l'instar de ceux de Sousse et de Kairouan, vers les zones pauvres et les insalubres de la cité.

Ecrivant au milieu du XV^{ème} siècle, le jurisconsulte al-Burzuli nous entretient que ses contemporains étaient divisés quant au bannissement des lépreux de la capitale[189], ce qui prouve que la maladrerie du haut Moyen âge tomba en désuétude. A son emplacement le sultan hafside Abu Faris fonda, en 1420, un *maristan*, pour les étrangers, les indigents et les malades[190], analogue à ceux de Fès. Cet hôpital, qu'on plaçait à tort à Suq al-Nuhas, était fréquemment signalé par les cartes du XVI^{ème} siècle (*spital*) aux abords de Bab al-Bahr.

La léproserie de Sfax

Contrairement à ceux de Kairouan, les lépreux de Sfax étaient enfermés dans un simple hospice (*Dar al-Mardha, Dar al-Djudhama*[191]). Cet asile, attesté dès le IX^{ème}

---

[182] Maliki, II, p. 274; Iyadh, III, p. 353 : pour arriver à la *dimna* il faut traverser le *suq* des vendeurs de céréales (*Hannatin*) situé près de la porte Sud.
[183] Ibn Nadji, II, p. 251.Déscription des souffrances des malades dans Maliki, II, p. 274.
[184] Yahya Ibn Umar, *Ahkam al-Suq*, p. 98, 123.
[185] Maliki, II, pp. 6, 9 et 231 ; Ibn Nadji, II, 69, 116.
[186] Ibn Nadji, II, p. 251.
[187] Voir aussi, H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 433; A. Daoulatli; *Tunis sous les Hafsides*, Tunis, 1972, p. 433.
[188] Bakri, II, p. 696. « A l'Est de Tunis, on rencontre le port, le lac et une sebkha. Le faubourg des lépreux s'élève en dehors de la ville. Au Nord de ce quartier se trouve une grande saline d'où les habitants s'approvisionnent en sel ».
[189] Burzuli, III, p. 222 « *wa khtulifa fi ikhrajuhum mina al-Hadhira li nahiyatun minha* ».
[190] Zarkashi, *Tarikh al-Dawlatyn*, Tunis, 1998, p. 101. Après la destruction du quartier de Bab al-Bahr au cours des affrontements du XVI^{ème} siècle, le mouradite Hamouda Pacha fonda en 1662 un second hôpital à al-Azzafine et constitua à son profit un important habous. *Archives du domaine de l'Etat regist. Année 1695*, f° 49-50 ; M. Ibn Al-Khuja, « *Maristan al-Azzafine* », *Al-Madjalla al-Zaytouniya*, III, octobre 1939 ; A. Larguèche, *Les ombres de la ville*, Tunis, 1999, p. 132.
[191] Maliki, II, p. 200-201; H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 455, H.H. Abdelwahab, *Waraqat*, I, p. 285

la *dimna* avait un grand bassin (*fasqiya*) qui subsista jusqu'à l'époque hafside; il portait le nom significatif de *Madjil al-Djudhama* (bassin des lépreux[166]). Nous avons, en outre, un autre repère archéologique sûr, Masdjid al-Sibt qui se trouvait d'après Ibn Nadji à proximité de la courtine septentrionale de l'ancienne enceinte, c'est-à-dire celle de 444/1052[167]. Le monument se dressait, avant son démantèlement en 1960, à 400m. à l'Ouest de l'ancien *maristan* encore signalé par les cartes de l'époque coloniale[168].

A l'instar de la léproserie de Fès, celle de Kairouan formait dès l'époque aghlabide un petit faubourg, voire une entité urbaine distincte dotée d'une nécropole[169]. Les lépreux habitaient des maisons particulières fondées sur des terrains habousés à leur profit[170]; quelques uns avaient même un oratoire attenant à leurs demeures[171]. Tous semblent avoir eu des esclaves noirs (hommes et femmes) attachés à leur service[172]. On n'a, cependant, aucune idée sur leur nombre. *Riyadh al-Nufus* renferme une dizaine de biographies, a en croire Ibn Nadji, quinze grand compagnons de Sahnun habitaient la *dimna*[173].

Les princes aghlabides avaient beaucoup d'estime pour les ascètes lépreux; c'est Rahim al-Daharir qui conseilla à Abu Ibrahim Ahmad d'édifier les adductions d'eau de Bab Tunis[174]. Il avaient pour habitude de se rendre après les prières nocturnes (du *nisf*) de Sha'bane et de Ramadhan à la *dimna*[175]. En compagnie des membres de leur famille et de leur cour[176], ils distribuaient argent et présents. Ziyadat Allah 1er offrit en une seule nuit cinq cent dinars aux malades et cent autres au seul Abu Muhammad al-Ansari[177]. Les riches kairouanais en faisaient de même[178]. Hashim Ibn Masrur leur fournissait gracieusement du pain et les soignaient[179].

La Dimna de Sousse

La léproserie de Sousse[180], signalée dès l'époque aghlabide, s'élevait en dehors de la porte méridionale (Bab al-Qibli, Bab al-Qayrawan), aux environs de la principale nécropole de la ville[181]. Elle formait un petit quartier *extra-muros*[182] réservé aux lépreux

---

[166] Burzuli, III, p. 221.

[167] Ibn Nadji, II, p. 31 Ses vestiges étaient encore apparents à l'époque de l'auteur qui nous rapporte que le shaykh Abu Abdallah al-Maghrabi, en visite au mausolée de Sidi Sahib, s'arrêta devant les traces de ses fondations : Ibn Nadji, IV, p. 107; F. Mahfoudh, *op.cit.* p. 38.

[168] F. Mahfoudh, *op. cit*, pp. 42-65.

[169] Ibn Nadji, II, p. 147. D'après al-Maliki, II, p. 128, Sadaqa fut enterré à Bab Tunis, alors qu'Ibn Nadji, II, p. 333, place sa tombe à Bab Salam.

[170] Maliki, II, pp. 117, 128, 138, 141. La maison de Sadaqa avait une *skifa*, Ibn Nadji, II, p. 11, Maliki, I, pp. 411-412.

[171] Maliki II, p.142.

[172] Maliki II, pp. 128 et 141.

[173] Ibn Nadji, II, p. 11et 147.

[174] Ibn Nadji, II, p. 11et 147.

[175] Maliki, II, p. 411; Ibn Nadji, II, p. 116.

[176] Ibn Nadji, II, p.117, « *fi hashamihi wa ahl baytihi... wa wuzara'ihi wa qudhatihi* ».

[177] Ibn Nadji, II, p. 117; Maliki, I, p. 412.

[178] Ibn Nadji, II, pp. 118, 220, 341-345; Burzuli, V, p. 414.

[179] Maliki II, p. 145.

[180] Maliki, II, p. 6, 274; H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 445 ; H.H. Abdelwahab, *Waraqat*, II, p. 15.

[181] Bakri, II, p. 690 : « Pour se rendre de Sousse à Kairouan on sort par la porte méridionale appelée Bab al-Qayrawan, et on laisse à droite le cimetière de la ville ». Maliki, II, p. 9 : « Ibrahim II qui voulait détruire l'enceinte de Sousse pour châtier ses habitants parta de Kairouan et arriva à la *dimna* la nuit ». Le mausolée de Sidi al-Dhahir est un vestige de cette ancienne nécropole.

Muhammad al-Ansari était lépreux et aveugle[149]; il a perdu l'usage de ses mains et de ses pieds à la fin de sa vie[150]. La maladie rongea les membres de Sadaqa al-Dharir (m.304/916). Abbas al-Dharir était aveugle et à un stade avancé de la maladie[151]. Le corps de Saïd al-Bakka était couvert de purtles et d'écailles (*aqshar*[152]), il éprouvait beaucoup de peine pour bouger[153]. Le faqih Abu Abdallah Mahmoud ibn Masrur (m.295/907) était un riche marchand d'épices avant d'être éprouvé par la pauvreté et la maladie[154]. Maliki parle, également, de plusieurs « jeunes lépreux » gravement mutilés refoulés dans la léproserie.

Le terme "*masrah*" utilisé par Burzuli est ambigu, mais la comparaison de sa fatwa avec celle d'al-Qabusi (m.386/996) montre que cet espace clos commença à s'ouvrir aux non lépreux dès le X[ème] siècle, suite aux ravages causés par les troupes d'Abu Yazid[155] et à la désorganisation des habous. Ce processus s'accéléra à l'époque ziride et entraîna un développement considérable de faubourg[156].

Outre la léproserie, la ville avait comme le reste des cités musulmanes des institutions charitables et des hospices accueillant les pauvres et les indigents, les plus connus sont la maison de Hanash al-San'ani, aux environs du Bab al-Rih[157], et la Saqifa des Masakin qui s'élevait sur le *Simat*[158]. D'après les indications d'al-Burzuli et d'Ibn Nadji, la *dimna* se trouvait au Nord-ouest de la ville, aux environs du mausolée de Sidi Sahib[159]. De là on pouvait se rendre facilement à al-Baqariya (actuel Bordj al-Baqri[160]). Le sanctuaire, situé à 700m.des remparts husseinites, faisait partie de la nécropole d'al-Balawiya qui prolongeait Maqbarat Bab Tunis, l'un des plus vieux lieux de sépulture de Kairouan[161] .Nous nous trouvons ainsi dans un périmètre « marginal » délimité par les cimetières (Balawiya et Bab Tunis), les Sebkhas (750m. au Nord, et 1200m. à l'Ouest[162]) et al-Baqariya, le quartier des plaisirs et de la débauche. Les anciennes cartes topographiques y signalent une grande densité de puits et de citernes.

La léproserie s'appelait, selon Iyadh, *Rabdh al-Malis* (Faubourg bas, de la boue[163]), pour s'y rendre on « s'enfonçait dans la fange[164] ». L'endroit était, en effet, largement pénétré par les cours d'eau desservant le nord et l'ouest de la ville, ce qui en faisait une zone de prédilection des installations hydrauliques[165]. A en croire al-Burzuli,

---

[149] Ibn Nadji, II, p. 113-117.
[150] Maliki, II, p. 128.
[151] Maliki, I, p. 395; Ibn Nadji, II, p. 64.
[152] Maliki, II, pp. 137-141.
[153] Ibn Nadji, II, p. 113.
[154] Ibn Nadji, II, pp. 253-261, Iyadh, *Madarik*, Mohammadia, 1988, V, pp. 141-142.
[155] Voir à ce propos le texte de Maliki, II, p. 370.
[156] Burzuli, V, pp. 414-415 « *Thumma kathura al-Nasu fihi wa Imaratuhum hatta sakanahu ahl al-Dunya likawnihi masrahun la u'dhi dhulman likulli ma dakhala fihi* ».
[157] Ibn Nadji, I, p. 31; F. Mahfoudh, *Architecture et urbanisme en Ifriqiya médiévale*, Tunis, 2003, p. 36.
[158] Maliki, I, p. 396.
[159] Ibn Nadji, II, pp. 238-293; Burzuli, V, pp. 414-415; H.H. Abdelwahab, *Waraqat*, I, p.46; H.R. Idris, *op cit*, II, p. 442; F. Mahfoudh, *op. cit*, p. 65.
[160] Ibn Nadji, II, p. 178.
[161] Maliki, I, 84 : « Abu Zum'a fut enterré à Bab Tunis, ce lieu de sépulture prit par la suite le nom d'al Balawiya ». La plus ancienne épitaphe recueillie date de 341/926, mais la porte est attestée depuis 45/665.
[162] F. Mahfoudh, *op. cit*, pp. 60-63.
[163] Iyadh, *Madarik*, édit. M. Talbi, Tunis, 1968, p. 265.
[164] Ibn Nadji, II, p. 115; Maliki, II, p. 287.
[165] F .Mahfoudh, *op. cit*, p. 62.

almohade Ya'ub al-Mansur[137]. L'auteur nous a, également, brossé un tableau exhaustif des *maristan(s)*, notamment celui de Sidi Fradj où il travailla dans sa jeunesse. Il en ressort que sa fonction, ainsi que son architecture, n'avaient rien de commun avec l'asile des lépreux[138].

Le faubourg des lépreux (appelé de nos jours *al-Hara*) s'élevait à l'Est de la cité, en dehors de Bab al-Kanisa[139]. Il comptait, selon Léon, deux cents maisons habitées par les malades. « Cette communauté est dirigée par un supérieur chargé de la gestion des innombrables biens habousés à leur profit par les notables et les gens du bien de la ville[140]. C'est pour cette raison qu'ils ne sont guère dans la nécessité. Leur supérieur est, également, mandaté pour expulser de Fès toute personne atteinte de la maladie et l'obliger à élire domicile dans le faubourg. Les enfants du lépreux héritent leur père, mais le malade qui n'a pas laissé de descendance lègue la moitié de ses biens aux habitants du faubourg, l'autre moitié va à la personne qui l'a signalé[141] ».

A l'instar du *rabdh* de Fès, la *dimna* de Kairouan n'était nullement un *maristan*[142]. Nous avons, également, vainement cherché dans les sources de l'époque les traces de *Dar al-Djudhama*, l'asile des vieillards et des aveugles indigents[143]. Peine perdue, car toutes ces fondations semblent avoir existé uniquement dans l'imagination de H.H. Abdelwahab[144]. Il est fort probable, cependant, que les monuments, dotés de cours et de chambres, qu'il avait si minutieusement décrits, faisaient partie du *maristan* ottoman démantelé au milieu du XX^{ème} siècle. Cet édifice fut effectivement édifié au milieu de l'ancien faubourg des lépreux depuis bien longtemps désaffecté.

Les biographies d'époque aghlabide, qui restent notre meilleure source, attestent que la *dimna* était habitée à l'origine exclusivement par des gens de condition modeste atteints de la lèpre (*adhirra*). Les biographies de Maliki et d'Ibn Nadji[145], ainsi que les *fatwa(s)* d'al-Qabusi et d'al-Burzuli [146] sont suffisamment claires et ne se prêtent à aucune équivoque. Le boulanger Abu Amr Hashim ibn Masrur s'y rendait pendant les fêtes pour confectionner de délicieux gâteaux. « Il faisait manger les lépreux de ses propres mains, enlevait les poux de leurs vêtements coupait les angles, enduit leurs têtes d'huile, appliquait des solutions sur leur plaies, tout cela par pitié et sans craindre la contagion[147] ». Ibrahim al-Dimni (m.305/917) présentait des taches blanches[148]. Abu

---

[137] R. Letourneau, *Fès avant le protectorat*, Casablanca, 1949, p. 72, 110.

[138] D'après Léon, II, pp. 227-228, Fès comptait plusieurs *maristan(s)*, s'élevant à l'intérieur et à l'extérieur de la ville, hébergeant les étrangers pendant trois jours. Ils sont presque toujours désaffectés. Celui de Sidi fradj, encore en fonction, est doté d'infirmiers, de gardes et de cuisiniers. Des chambres individuelles servaient aux logements des étrangers malades et aux aliénés de la ville.

[139] Bakri, II, p. 796-797.

[140] Fonction qui rappelle celle de « *l'amine* » du ribat en Ifriqiya.

[141] Léon, II, p. 278.

[142] S. Hamarneh, « *Developement of Hospitals* », p. 375, M.W. Dols, *op. cit.*, p. 273. E. Savage-Smith, *op. cit*, III, p. 188.

[143] H.R. Idris, *op cit*, II, p. 442, R. Brunshvig, *op. cit*, I, p. 401. Ibn Nadji (biographie de Hashim ibn Masrur) parle effectivement de *dar al-Djudhama* à la *dimna*, cet usage, unique, nous parait un rajout du copiste.

[144] H.H. Abdelwahab, *Waraqat*, II, p. 46.

[145] Ibn Nadji, II, p. 251 : « *Mawdhi'u sukna al Majdhumin* ».

[146] Burzuli, III : « *al-Makanu yakhussuhum.... Fa in mana ᶜuhum fa lahum dhalika* »; V, p. 414 « *kana al-Qasdu biha al-Adhirra bi al Djudham li alla yadhirru bi al-Nas* ».

[147] Maliki, II, p. 147.

[148] Maliki, II, p. 411

L'asile[118] portait le nom de *Rabdh al-Mubtalin* (faubourg des malades[119]), de *Harat al Mardha* (quartier des malades[120]) et de *Mahallat al-Mardha* (enclos des malades[121]). Mais le toponyme le plus fréquent était celui *d'al-Dimna*[122]. Ce terme, assez ambigu, peut recouvrir le sens de maladie (*diman*) chronique et longue (*idmnan*[123]). L'usage le plus récurrent est, cependant, celui d'un refuge à bestiaux, un endroit où la boue et le fumier se mêlent (*al-Tadamman*[124]). Ce sens est fréquent dans la poésie préislamique[125] et dans la tradition[126], c'est, également, celui que rendent les anciennes langues sémitiques (himyarite, araméen et hébreux[127]).D'après al-Asm'i, le *diman* du palmier est son pourrissement (noircissement), ce qui fait de la *dimna* un lieu malsain. Ainsi, on peut affirmer, sans risques d'erreur, que le toponyme est en rapport avec le marché aux bestiaux où travailla le *faqih* Abû Maysana (m. 337/348) ; la présence à cet endroit de Bab al-Ghanan confirme cette hypothèse[128]. La première léproserie fut aménagée, fort probablement, dans les environs de ce *suq* lié, en partie, aux caravanes de Bab Tunis, une des plus anciennes ouvertures de Kairouan[129].

La fondation de la *dimna* remonte au VIII^ème^ siècle[130] et fut, fort probablement, crée dans le cadre de tout un programme destiné à doter les grandes cités islamiques d'institutions charitables sous le règne de Walid 1er. Elle formait un grand faubourg [131] suburbain s'étendant au Nord-ouest de la cité de Uqba[132], et fut la première victime des Hilaliens qui la dévastèrent en 442/1052[133]. Au temps d'al-Burzuli (XVème siècle) les environs des mosquées du samedi (principale parure du quartier) et d'al-Tawfiq étaient déserts[134].

La disparition de la léproserie de Kairouan nous a privé d'un repère urbain important. Heureusement Léon l'Africain nous a laissé une description détaillée et vivante du faubourg des lépreux de Fès (le *rabadh al-Mardha* du récit d'al Bakri[135]), une ville fondée, en partie, par des Kairouanais, sur le modèle de leur cité d'origine[136]. Le quartier a gardé ses anciennes structures, héritées du haut Moyen âge, longtemps après l'érection, à l'intérieur de l'agglomération, du premier hôpital fessi par le sultan

---

[118] Sur la dimna de Kairouan, cf. H.H. Abulwahab, *Bisat al 'Aqiq*, Tunis, 1968, p. 10; R. Brunschvig, *op. cit*, I, p. 308 ; H.R. Idris, *op. cit*, II, p. 442.

[119] Burzuli, I, p. 292, III, p 221, V, p. 414.

[120] Maliki, II, p. 138.

[121] *Ibid*, I, p. 471; Ibn Nadji, *Ma'alim*, Tunis, 1993, II, p. 117.

[122] Maliki, I, p 411, 413, II, 47, 137, 139, 142-144, 147; Burzuli, V, p. 414.

[123] Ibn Mandhur , *Lisan*, XIII (art. *damana*).

[124] *Ibid*, XIII. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Beyrouth, 1988, I, p. 462.

[125] Abid al Abras : « *Manzilun dimnatu aba'ina* » (campement de nos ancêtres).

[126] Dans le *hadith*, prenez garde aux « *Khadhra al-Diman* », c'est-à-dire la belle femme issue d'un mauvais milieu.

[127] Communication orale de notre ami Abderrazak Bannour.

[128] Cf. Maliki, II, p. 366, à propos de la vertu d'une *qaniya* (brebie).

[129] A en croire Quartemère, la *dimna* évoque une bergerie aménagée dans les masures d'une ville. La présence à cet endroit de ruines antiques n'est pas impossible.

[130] Shaqran ibn Ali al-Faradhi (m 186/802), maître de Sahnun était aveugle et lépreux. Abu al-Arab, *Tabaqat*, Tunis, 1988, p. 61 ; Ibn al Athir, *Tarikh*, Beyrouth, 1988, VI, p. 174 , Maliki , I, p. 312.

[131] Burzuli, V, p. 414 : « *wa adhuma dhalika al-Rabd Kathirûn* ».

[132] Maliki, I, p. 413 : « la grande brèche réparée par Mansur al-Tunbudhi (au temps de Ziyadet Allah 1er) donnait sur la *dimna* ».

[133] Burzuli, II, p. 38 : « *Khala wa tafarraqa ahluhu* ». voir aussi vol. V, p. 414-415.

[134] Burzuli, V, p. 453.

[135] Bakri, II, p. 796

[136] *Ibid*, II, p. 796.

l'aide de larges canaux formant une sorte de ruisseau. Au dessus sont édifiées des bâtisses en forme de cabines, séparées les unes des autres, et dont la hauteur atteint la moitié de la taille d'un homme[112]. Ce ruisseau se dirige ensuite vers le nord de l'agglomération et forme, vers l'extérieur, un marais appelé *Buhayrat al-Majdumin* (lac des lépreux) sur ses berges habitent, dans les huttes, un grand nombre de lépreux[113] ».

LES LEPROSERIES

Malgré le développement précoce d'une brillante école de médecine à Kairouan[114], l'Ifriqiya ne semble guère avoir eu de fondations spécifiques destinées à traiter la maladie[115]. Les premiers hôpitaux du pays remontent à l'époque hafside; durant tout le haut Moyen âge les lépreux, notamment les pauvres, étaient enfermés dans les léproseries, c'est-à-dire dans des espaces d'exclusion où on entrait pour ne plus jamais sortir.

La léproserie de Kairouan

Une fatwa d'al-Qabusi (m.403/1012) nous fournit une foule de renseignements sur la maladrerie de la première métropole du pays. « Al-Qabusi fut questionné sur une *dimna*, quelque part en Ifriqiya[116], habitée par des gens sains qui se transmettent ses biens par héritage et vente. Un endroit de cette *dimna*, appelé *al-Ahbas*, est habité par des lépreux. Des malades y édifièrent des demeures que leurs descendants sains héritèrent, les lépreux leur demandèrent par la suite de les abandonner car l'endroit leur était réservé. On ne connaît pas avec certitude le statut primitif de cet endroit considéré généralement comme bien-fonds. Mais des gens sains y habitent, d'autre ont édifié leurs demeures à proximité. Il répondit : ces terres furent à l'origine habousées au profit des lépreux qui devaient être séparés du reste de la communauté une fois devenus nombreux. Le habous fut, en effet, constitué à l'origine exclusivement à leur profit. Ce sont eux aussi qui autorisèrent les gens sains à y résider, selon leurs besoins. Ainsi, la terre (*al-Qa'a*) est habous, mais les immeubles appartiennent à leurs fondateurs aussi bien sains que malades. L'endroit est ouvert aux sains et aux indigents; s'ils s'encombrent (*'Inda al-Tazahim*) la priorité serait donnée aux lépreux. Les biens portants doivent être, cependant, dédommagés avant de céder leurs biens aux lépreux[117] ».

---

[112] Ces cabines où on s'enfermait pour jouir de l'eau et de la vapeur, présentent une grande analogie avec les *midha(s)* de Tozeur . Celle de la mosquée Sidi Ben Ghallab (quartier des Ouled Hadif) est constituée de cinq cabines voûtées s'élevant au dessous d'un petit cours d'eau. Elles forment des petites pièces s'appuyant sur des murs qui se prolongent en bas. Un dispositif analogue se rencontre à la mosquée Sidi Thamir. Cf. A. Mrabet, *L'art de bâtir au Jérid*, Sousse, 2004, p. 74-75.

[113] Léon, II, p. 92. Trois siècles plus tard, le docteur Frank, *op. cit*, p. 46, parle de « bains assez peu fréquentés et couverts d'un toit de paille. Il y plusieurs bassins de douze pieds (4m) a peu près en carré, sur une profondeur d'environ quatre pieds et demi (1.5 m) avec des bancs de pierre au dessus de la surface de l'eau par la commodité des baigneurs. Un de ces bains particuliers porte le nom de bain des lépreux ».

[114] Sur cette école voir: A. Ben Miled, *L'école médicale de Kairouan*, Paris, 1933.

[115] H.H. Abdulwahab, *op. cit*, II, p. 46, qualifiait à tort la *dimna* de *maristan*, les deux institutions étaient littéralement différentes.

[116] Burzuli, V, p. 14, précise qu'il s'agit bien de la *dimna* de Kairouan.

[117] Burzuli, V, p. 414. Voir également Wansharisi, *Al-Mi'yar*, Beyrouth, 1981, I, p. 309-310.

les Maures appellent Hammam al-'Aryan. L'eau qui en découle à un goût plus salé. Les indices du principe ferrugineux sont plus sensibles et l'acide citrique lui procure une légère effervescence .On en obtient par l'évaporation une petite quantité de sulfate de soude. Un bassin formé par la nature reçoit l'eau de cette source[99] ».

Les bains husseinites [100] sont installés sur des structures antiques qui furent rattachées au ribat de la Hamma de Shariq (ou Hamma d'al-Djazira[101]) au début de l'époque musulmane[102]. Al-Bakri qualifia cette source de « grande *hamma* aux vertues confirmées[103] », mais n'y signala aucun édifice. D'après Tidjani (XIV[ème] siècle), elle était réputée par ses eaux chaudes, hautement efficaces pour la guérison des maladies. Elle était auparavant interdite au public [ou les gens sains] et clôturée par une enceinte particulière[104].Cette interdiction était probablement liée à la présence des lépreux[105].

Al-Hamma

Al-Hamma était à la fois une station thermale et une léproserie, d'où le nom singulier de *Hammam al-Bras* (bains de la lèpre[106]). D'après Yusif al-Quir cette association remontait à l'Antiquité.

La Hamma de Gabès (ou de Matmata), l'antique *Aquae Tacapitanae*, tire son nom des trois sources sulfureuses chaudes et abondantes[107], signalées par la plupart des géographes du Moyen âge[108]. D'après Léon, qui visita la ville en 1525, « elle fournissaient une eau sulfureuse très chaude et miraculeuse réputée par sa grande efficacité contre les maladies incurables. Elle cicatrise les plaies et guérit de la lèpre[109] ». A en croire Yusif al-Quir, ses effets sur cette maladie étaient étonnants et réputés[110].

Les thermes étaient édifiés, selon al-Tidjani (XIV[ème] siècle) à l'intérieur de la *qasaba* et alimentés de l'extérieur par une grande conduite[111]. Léon parle, quant à lui, d'une seule source « située à un mille et demi au sud de la ville que l'eau traverse à

---

[99] L. Frank, *op. cit*, p. 141.

[100] Edifiés au début du XVIII[ème] siècle et reliés à la résidence beylicale. Cf. Saghir ibn Yusif, *al-Mashra' al-Milki*, trad. .V. Seres, Tunis, 1978, p. 274, 275, 453. Le changement du toponyme (Hammam al-Anf : bain du cap) date également de cette époque. D'après L. Frank, *op. cit*, p. 141, « Hammam al Bey, l'édifice construit sur cette source, est assez vaste en appartient au Bey qui en réserve la moitié pour son propre usage. L'autre moitié est destinée au public et est affermée. C'est une espèce de caravansérail ayant une cour au milieu et un grand nombre de petites chambres assez mal tenues. Les deux bains d'étuve sont mesquins et obscures. Immédiatement après le jeun du mois de Ramadhan, on y voit une quantité extraordinaire de valétudinaires et de juifs se rende à Hammam-Lif ».

[101] L'île de Shariq al-Abasi, c'est-à-dire le Cap-Bon

[102] sur ce ribat, voir Maliki, II, p. 377-378; N. Djelloul, *Les Ribats maritime en Ifriqiya au Moyen âge*, Tunis, 1999, p. 53.

[103] Bakri, II, p. 704 : « *Hammatun djalilatun mudjarrabu al-Naf'i* ». L. Frank, *op. cit*, p. 141 : « Dans les maladies vénériennes, cutanées, dartreuses, les bains seuls opèrent admirablement ».

[104] Tidjani, p. 10.

[105] D'après le *gharib* d'al-Harawi, « *al-Hamma* est la source chaude destinée à la guérison des maladies ». Tidjani, p. 135. Voir également Ibn Hawqal, p. 444 ; A. Huici Miranda, *op. cit*, p. 137.

[106] Yusif al-Quir, *op.cit*, f° 08-10.

[107] E. Pelliser, *op. cit*, p. 160, « la température de la première est de 37° Réaumur, celle des deux autres de 36° et 32° ».

[108] Yaqut, Mu'jam, Beyrouth, s.d., II, p. 344; Ibn Hawqal, p. 94; Bakri, II, p. 708 ; H.R. Idris, *op. cit* II, p. 469.

[109] Léon, II, p. 92.

[110] Yusif al-Quir, *op.cit*, f° 8-10 : « Pour la lèpre elle est meilleure que celles de Hammam-Lif ».

[111] Tidjani, p. 134 : « la ville est ceinturée d'une haute muraille et entourée de palmiers ».

survivance des bains de Bordj al-Sabbalat[89], de Ain al Hammam (Cap Bon[90]) de l'Oued Mellègue[91], de Hammat al-Bahalil[92], et de Korbous[93]. On ne possède, certes, aucune indication sûre relative aux valétudinaires, mais la toponymie plaide pour une certaine relation avec les maladies chronique, notamment la lèpre[94].

La Hamma d'al Djazira (Hammam-lif)

Ces sources sulfureuses sont situées à trois lieues au Sud de Tunis, au pied d'une montagne assez élevée, aux environs des ruines de l'antique *Naro*[95]. L'archéologie[96], ainsi que l'appellation d'*Aquae Persianae*[97], attestent l'ancienneté de leur vocation thermale. La station comportait à l'époque moderne deux sources auxquelles le médecin italo-tunisien Yusif al-Quir consacra un traité[98]. D'après L. Frank, la première (Hammam al-Bay) fournissait l'eau pour les bains et les étuves « qui ont naturellement à peu près la même température que celle que l'on donne artificiellement aux bains chauds des villes du Levant. Ces eaux sont claires et limpides, médiocrement salines. A deux cent pas environ des bains d'étuves, vers le Sud, on trouve une seconde source que

---

guérison de beaucoup de maladies chroniques ». D'après Pellissier, « Korbus était un petit hameau célèbre par ses eaux thermales très estimées et très fréquentées », L. Frank, *op. cit*, p. 141; E. Pellissier, *Descriptions de la Régence de Tunis*, Paris, 1853, p. 76.

[89]Probablement Hammam al-Ain du récit de L. Frank, *Histoire*, p. 29. Le site situé à un kilomètre de Hammam-Lif correspond à l'Antique *Ad Aquas* de la Table de Peutinger (2.1.4.). Cf. S. Aounallah, *Le Cap Bon jardin de Carthage*, Bordeaux, 2002, p. 360.

[90] S. Aounallah, *op.cit*, p.360.

[91] Les thermes romains édifiés autour de la source sont encore exploités.

[92] Bakri, II, p.708; Tidjani, *Rihla*, édit. H.H. Abdelwahab, Tunis, 1984, p. 134; H.R. Idris, *La Berberie orinetale sous les Zirides*, Paris, 1962, II, p. 469.

[93] L. Frank signale également des eaux thermales près d'Utique et à Djebel Euchkel. L. Frank, *op. cit*, p. 46.

[94] Korbous est citée à plusieurs reprises par les sources d'époque ziride et hafside. H.R.Idris, *op. cit.*, II, p. 453, M. Hasen, *Al-Mdina Wa al-Badiya bi Ifriqiya fi al-ahd al-hafsi*, Tunis, 2000, p. 199. La station est située à l'Est de Tunis, sur la rive occidentale de la presqu'île du Cap Bon. Elle est constituée par plusieurs sources chaudes, fortifiantes, contenant une grande quantité d'alumine (Ain al-Kbira, Ain al-Shifa, Ain al-Sbiya, Ain al-'Arraqa) et quelques sources froides (Ain al-Samra). D'autres sources coulent dans les environs comme Ain al-Hammam, Ain al-Atrous, Ain al-Fakrun et Ain Oqtur. La présence près de cette dernière d'un temple romain dédié à Esculape atteste une très vielle tradition médico-thermale. Korbus tire son nom de celui de *Carpis*, vieille agglomération punico-romaine dont les immenses ruines s'élèvent encore à Hinshir Mraisa près de Sidi Rais (Pline, 5.24 ; Ptolemée, 4.3.2 ; Stadiasme, 121 ; S. Aounrallah, *op. cit*, p. 106-107, 69-271). Après la disparition de la ville à la fin de l'antiquité, son nom fut donné à l'actuel village de Korbus situé à 11Km plus à l'Est. La localité de Korbus correspond à l'antique *Therma* (thermes) de Strabon et du Stadiasme ou les *Aqua Calidae* (bains chauds) de Tite-Live (le même toponyme qu'en Andalousie). L'historiographie ancienne associe ce village a des sources d'eau chaudes et à des thermes attestés dés l'époque punique. Une inscription romaine mentionne la construction d'étuves où on se frotte avec le strigile, et un *solarium* (où on prenait des bains de soleil). Cf. Strabon, 17.3.16; Tite-Live, 30, 24,9; Stardiasme 30.24.5 ; S. Aounallah, *op.cit*, 85, 343-349.L. Frank, *op. cit*, p. 142). « Un personnage réputé saint par les Maures et enterré à Gourbus, et le domaine de l'oratoire élevé sur sa sépulture s'étendent sur les eaux minérales voisines; aussi sont elles regardées comme un saint lieu et les musulmans n'y souffrent aucun infidèle ... Il y a à ces sources des bains d'étuves très médiocres mais de plus, on a creusé dans le rocher plusieurs baignoires qu'on remplit et vide à volonté ».

[95] J.M. Lassère, *Ubique populus*, Paris, 1986, p. 416. S. Aounallah, *op.cit*, pp. 85, 339-340.

[96] Thermes et temple d'Esculape.

[97] S. Aounallah, *op.cit*, pp. 85, 339-340.

[98] *Risala fi al-Tadawi bi al-Hammamat al-Ma'diniya*, mss. BNT. Ce texte est en cours d'édition par les soins de notre ami Taoufik Ben Salmouna, dans le cadre d'un mémoire de Master à l'université de la Mannouba.

cures dans les stations thermales. Ces *hamma*[73] chaudes, prises aux forces vives et secrètes de la nature, alliaient l'eau et le feu, deux éléments antagonistes comme les humeurs déréglés des malades[74].

Les sources de Tiberiade (Tabariyya)[75], de Hulwan[76], d'Ispahan[77], de Tiflis, de Transoxiane[78], de Murcie, de Grenade[79], de Bajanna[80], de Tlemcen[81], et de Khawlan[82], étaient, ainsi, regardées comme des eaux miraculeuses, hautement efficaces contre la lèpre et toutes sortes de maladies chroniques[83]. Les séjours, parfois prolongés, dans ces lieux étaient doublés d'un régime alimentaire spécifique[84]; les lésions cutanées étaient soignées à l'aide de crèmes[85]. L'échec du traitement entraînait le recours à la chirurgie (amputation), puis, avec l'aggravation du mal, l'exclusion dans une léproserie où les malades n'avaient pour calmer leurs souffrances que les drogues et la compassion des mystiques.

Dans l'Ifriqiya médiévale, les stations thermales de Hammam-Lif et d'al Hamma de Gabès étaient des destinations privilégiées pour les lépreux. Les Kairouanais fréquentaient, fort probablement depuis cette époque, les sources de Wadi al-Dimna[86] et de Turuzza[87]. Les relations des voyageurs[88], ainsi que l'archéologie, attestent la

---

[73] Sur le thermalisme dans l'Islam médiéval, cf. A. Huici Miranda, art. « *Hamma* », *E.I*², II, p. 137.

[74] A. Miquel, *op. cit*, III, p. 144.

[75] Ville située entre montagne et mer, sur le bord occidental de Buhayrat Tabariyya. Les principales sources chaudes (*Damkir* et *LùLù* d'al-Idrisi) avaient une température avoisinant 60°. La *Geniza* contient des documents considérables sur les lépreux qui allaient chercher remède dans ses sources et l'air pur de la localité. cf. M. Lavergne, art. « *Tabariyya* », *E.I*², X , pp. 19-20; J. Mann, *The Jews in Egypt and Palestine*, Oxford, 1920, I, p. 166, II, p. 192; A. Miquel, *op. cit*, IV, p. 285; M.W. Dols, *op. cit* , p. 272.

[76] Ville située à 25 km du Caire. Les fouilles mirent au jour les bains romains et omeyyades édifiés autour des célèbres sources minérales. Abd al-Aziz Ibn Marwan était atteint de lèpre, ses médecins lui conseillèrent d'aller à Hulwan où il fixa sa résidence. cf. JM. Jones, art. « *Hulwan* », *E.I*², II, p. 591; M.W. Dols, *op .cit*. p. 272.

[77] Ibn Hawqal, p. 444.

[78] A. Miquel, *op. cit*, IV, p. 285

[79] A.Huici Miranda, art. « *Hamma* », *E.I*², II , p. 137

[80] Bakri, II, p. 751. Outre ces sources, les principales *hamma* (esp. *Alhama*) d'Andalousie étaient celles d'Almeria et d'Aragon. cf. A. Huici Miranda, art. « *Hamma* », *E.I*², II , p. 137

[81] Bakri, II, p. 898.

[82] A huit milles de Fès, sur le Sebou. Le Sultan mérinide Abdu-Hasan la dota (selon Léon, II, p. 293) de bains. Les sources sulfureuses étaient, considérées au Maroc, jusqu'à une époque récente, comme particulièrement efficaces contre la lèpre. cf. D. Legy, *Essai sur le folklore marocain*, Paris, 1926, p. 158.

[83] Rhumatismes, gale, ulcères, fistules. Selon une légende rapportée par Muqaddasi (*op. cit*, p. 444), l'eau de Tabbariya se répartissait aux temps anciens en plusieurs compartiments dont chacun était réservé à une maladie. Aristote fit détruire les bains pour que les gens ne se passent plus des médecins.

[84] Fruits (raisins, figues, abricots), sucres et poulets. Al-Majusi conseillait à ses patients la chair de vipère.

[85] Fabriquées à partir de l'huile d'amande, de graisse de poulet, de cire, du cactus arabique, du concombre sauvage, du laurier et de la cytise épineuse.

[86] Bakri, II, p. 704, place Wadi al-Dimna entre Bashu et Qaryat al-Dawamis, sur la route de Zaghouan. Ce site devait correspondre à l'une des stations de la région de Djédidi exploitées depuis l'antiquité. cf. L. Frank, *Histoire de Tunis*, Tunis, 1985, p.143.

[87] Le site renferme selon L. Frank *(Histoire*, p. 41-42) « plusieurs chambres chaudes et voûtées qui sont toujours remplies d'une vapeur chaude et sulfureuse. Ces thermes naturels, que les Arabes fréquentent, ont donné à l'endroit le nom de Hammam Trozza ». Turuzza est la ville natale de Abu al-Qasim al-Turuzzi (m. 917) contemporain de Sahnun et *muhtasib* de Kairouan. Cf. H.H. Abdulwahab, *Waraqat*, Tunis, 1972, II, p. 413.

[88] Selon L. Frank, qui visita la régence de Tunis au début du XIX[ème] siècle, « on y compte douze à quinze différentes sources minérales, les deux principales (Hammam-Lif et Korbus) sont très accréditées pour la

Les jurisconsultes malékites sont, par contre, presque unanimes pour préconiser le bannissement des lépreux de la ville en cas d'accroissement de leur nombre. C'est l'opinion des premiers disciples de Malik, à l'instar d'Asbagh et d'Ibn Habib, et de la plupart des autorités ifriqyiennes[60]. Le refoulent des malades de la Mecque (à Tan'im) leur fournit un excellent exemple de bonne conduite chez le *Salaf*[61].

La première léproserie musulmane sur laquelle on est un peu renseignés est celle de Damas fondée par al-Walid 1er en (88/707)[62].Selon al-Tabari, le monarque omeyyade empêcha « les lépreux de mendier, accorda à chaque infirme un serviteur et à chaque aveugle un guide[63] ». Maqrisi précise « qu'il ordonna d'empêcher le lépreux de sortir, leur octroya des allocations et accorda des vivres aux aveugles [64] ». Cette mesure, traditionnellement regardée, a tort comme l'institution du premier hôpital dans l'islam[65] fut en réalité, comme l'a remarqué E. Browne, une mesure discriminatoire envers les lépreux. Ils furent, en effet, cantonnés dans un hospice (*dar al-Mardha*[66]) analogue aux *xénodochia* byzantines[67].

L'attitude indulgente des médecins arabes (qui ne recommandèrent pas l'isolement des malades), l'essor de la théologie mu'tazilite (qui rejette le *hadith*) et l'humanisme des élites[68] jouèrent, fort probablement, contre la discrimination et la ségrégation des lépreux dans l'Orient abbasside[69]. Ces derniers étaient soignés dans des quartiers spéciaux aménagés dans les *maristan*(s) édifiés depuis le règne de Harun al-Rashid[70]. Ibn Hawqal signala, également, des hospices et des asiles, mais leur relation avec la maladie n'est pas évidente[71]. Dans la ville ibadite de Sidjilmasa les *kannaf* étaient lépreux[72] et libres dans leurs mouvements.

THERMALISME ET LEPRE

Pour les Arabes du Moyen âge, la lèpre débutante était curable. Elle était soignée à l'aide d'une multitude de médicaments (simples et composés), de saignées, de purgatoires et de cautérisations. Ces traitements étaient généralement associés à des

---

[60] Burzuli, III, p. 222.

[61] Burzuli, III, p.222. Sur al-Tan'im, cf. Bakri, I, p.399, 403

[62] M.W. Dols, *op. cit.* p.273.

[63] Tabari, *Tarikh*, Caire, 1964, VI, p. 496.

[64] Maqrisi, *Khitat*, Caire, 1970, II, p. 405.

[65] C.f. A. Isa, *Histoire des maristan*, Caire, 1928, p. 95 ; S. Hamarneh, « *Development of hospitals in Islam* », in *Journal of the history of médecine*, XVII, 1962, p. 367.

[66] E. Browne, *Arabian medecine*, Cambridge, 1962, p. 16, M.W. Dols, *op. cit*, p. 274; E. Savage-Smith, « *La médecine* », in R. Rashed, *Histoire des sciences arabes*, Paris, 1997, III, p. 188.

[67] Une tradition que les ottomans continuèrent jusqu'à la fin de l'époque moderne : Maisons des lépreux de Murad II (m. 1451) à Edirne, de Sulayman II à Scutari, de Selim 1er près d'Istanbul. Cette dernière a fonctionné jusqu'en 1920. Cf. A. Sùheyl Ûnver, « *About the history of the léproseries in Turkey* » in *Neuburger Festschrift*, 1948, pp. 447-50. cf. M.W. Dols, *op. cit*, p. 273.

[68] Dans le « *Kitab al-Bursan wa al-urdjane* » (édit. M. Mursi Al-Khuli, Beyrouth 1972), al-Djahiz soutient que cette maladie est un signe de la bénédiction divine.

[69] Djahiz, *op. cit*, p. 108 : « Le chanteur d'al-Ma'mun, Alawiya (m.231/845) était lépreux. Il but la crème et enduit son corps avec le sirop, ce qui provoqua sa mort ». Dja'far ibn al-Khayyat, un de ses principaux officiers était également atteint de la maladie.

[70] M.W. Dols, *op. cit*, p. 273.

[71] A. Miquel, *op. cit*, IV, p. 249.

[72] Bakri, *Al-masalik*, Tunis, 1992, II, 836 : les lépreux qui s'y installent guérissent de leur maladie.

Les opinions des jurisconsultes malikites sont largement exposées dans *Ahkam al-Suq* et le Djami^{c} des ifriqyiens Yahya ibn Umar (m. 289/901[48]) et d'al Burzuli (m.841/1438), ainsi que dans la *Wadhiha* d'Ibn Habib (m.231/845[49]) et la *Atabiya* d'Ibn al-'Atabi[50]. Ils sont généralement originaires de pays où la maladie était plus ou moins répandue (Egypte, Ifriqiya, Andalousie, Yémen), ce qui leur donne une certaine actualité. La lèpre étant une maladie essentiellement urbaine[51], les autorités ne sont pas nécessairement obligés de forcer les valétudinaires d'habiter dans les léproseries. Ils doivent, cependant, leur interdire de se mêler aux gens sains[52]. Sahnun Ibn Said fut questionné à propos « des habitants d'un village disposant d'un seul lieu de prière, renfermant, également l'unique point d'eau du bourg. Les villageois, craignant la contagion, interdirent aux lépreux de les fréquenter. Il répondit qu'il ne faut pas les empêcher de prier dans la mosquée, mais il faut, par contre, leur défendre d'y puiser de l'eau et d'y faire leurs ablutions[53] ».

S'ils ne sont pas nombreux, l'exclusion n'est pas, en outre, nécessaire en milieu urbain[54], mais plusieurs mesures doivent être observées. D'après Ibn Wahb (m.197/812), disciple égyptien de Malik[55], le lépreux riche doit être confiné chez lui et avoir un esclave à son service. S'il est démuni, il sera banni, sa subsistance sera assurée par le trésor public[56]. D'après deux *fatwa(s)* de Sahnun et de Yahya Ibn Umar[57] reprises par Burzuli, il faut défendre aux lépreux de s'adonner au commerce des vêtements, de l'huile, du vinaigre et de tout aliment liquide. On doit lui interdire la vente du lait et du fromage de ses brebis, ainsi que les œufs de ses poules. Quiconque a acheté cette marchandise, tout en sachant sa provenance, doit être empêché de l'écouler dans le souk des musulmans...On doit défendre aux lépreux de se mêler aux bien-portants dans les points d'eau et dans les *midha* des mosquées. Ils doivent charger d'autres hommes de leur puiser de l'eau dans des récipients distincts[58]. Ces restrictions peuvent être appliquées, également, aux malades atteints d'un *baras* avancé[59].

---

[46] Abdallah ibn al-Madjashun, compagnon de Maklik. Cf. Ibn al-Imad, *Shadharat*, Beyrouth, 1992 II, p. 28.

[47] Burzuli, III, p.222.

[48] Yahya ibn Umar, *Ahkam al-Suq*.

[49] Abd el-Malik ibn Habib, jurisconsulte d'Alvira et compagnon d'Ibn al-Madjashun. Cf. Ibn Faradhi, *Tarikh*, Caire, 1988, p. 91-261.

[50] M.ss.B.N.P.n°1055. Cet ouvrage est une compilation de la *Mukhtasira* de Yahya Ibn Umar.

[51] Voir à ce propos les opinions d'Ibn Khaldun, *Al-Muqaddima*, Trad. V. Monteil, Paris, 1967, pp. 653-654.

[52] Opinion de plusieurs docteurs, notamment Asbagh ibn Faradj (m. 220/815).

[53] Yahya ibn Umar, p.130.

[54] Burzuki, III, p.222.

[55] Sur Abu Muhammad Abd Allah Ibn Wahb, cf. Ibn Farhun, *Dibadj*, Beyrouth, 1986, p. 132.

[56] Burzuli, III, p.222

[57] Yahya Ibn Umar, p. 98-99, 129.

[58] Burzuli, III, p.221.

[59] *Ibid*, III, p.283. Fatwa à propos d'un malade qui fabriquait des médicaments et des remèdes et les vendaient au marché. Attitude contraire chez Ibn Rushd, mais similaire chez Ibn al-Ukhuwa (*M'alim al-Qurba*, édit. Levy, 1928, XLII) : le *muhtasab* doit interdire aux *bursân* de fréquenter les bains. Un *waqf* du sultan mamelouk stipule que les hommes « souffrant de *baras* ne doivent pas être employés ». M.W. Dols, *op. cit*, p.237.

Droit malékite et exclusion

Le Coran mentionne à deux reprises la guérison des *bursan(s)* par Jésus[34], mais la lèpre de Job semble avoir été, comme la *sora'at* du Lévitique, un châtiment divin. Le seigneur a éprouvé Ayub et le purifia par la punition[35].

Les traditions prophétiques, qui eurent une influence plus profonde et plus durable sur la société musulmane, sont, quant à elles, divergentes, ce qui trahit les contradictions des milieux socio-culturels dans lesquels elles virent le jour[36]. Elles codifièrent, cependant, l'attitude des juristes envers les victimes et servirent de base à des interprétations discordantes de la maladie.Un *hadith,* souvent cité par les malékites ifriqiyiens, interdit aux malades de se mêler aux gens sains. Un autre fait dire à Muhammad « qu'un musulman doit fuir les lépreux comme il fuirait le lion »[37]. L'allusion à ce félin traduit un emprunt à la littérature médicale (maladie du lion) qui a vu le jour longtemps après les grandes conquêtes. De même, « une personne en bonne santé doit éviter de fréquenter les lépreux et les tenir à une distance d'une lance[38] », affirme une autre tradition. Umar Ibn al-Kahattab aurait également interdit à une lépreuse d'accomplir le pèlerinage[39]. Ces prescriptions, qui affirment la croyance à la contagion, invitent les musulmans à éviter les gens atteints. Ils furent, fort probablement, forgés dans des milieux méditerranéens à forte tradition biblique, où la lèpre était depuis longtemps regardée comme un châtiment divin.

La croyance à la contagion a été rejetée par le prophète dans d'autres traditions qui affirment que la maladie vient directement de Dieu[40]. Celle qui conseille de fuir les valétudinaires est même précédée par une négation totale de la contagion dans le recueil du transoxian Bukhari. Les traditions qui nient la contagion ne semblent pas avoir eu d'effets pratiques dans les milieux malékites d'époque classique. La maladie fut très tôt considérée comme une grave incapacité et le lépreux fut limité dans ses droits et ses devoirs[41]. Son statut était proche de celui de l'aliéné[42], ces deux handicaps pouvaient d'ailleurs entraîner l'annulation d'un ou la vente d'un esclave[43]. Un homme parvenu à un état avancé de la lèpre doit être empêché de cohabiter avec ses femmes (même de condition servile[44]). Mutrif (m.191/806[45]) et Ibn al-Madjashun (m.212/827[46]) le dispersèrent d'assister à la prière commune du Vendredi[47].

---

[34] Coran, III, 48, V, 110.

[35] Coran XXXVIII, 40 « Et rappelle toi Job, notre esclave, lorsqu'il appela son seigneur : le diable à fait, vraiment, que souffrance me touche ».

[36] Cf. M. Talbi, *Etudes d'histoire ifriqyienne* (art. *Bidaᶜ*), Tunis, 1982, pp. 312-358.

[37] Malik, *Muwatta'*, II, p. 231, voir aussi, Yahya ibn Umar, *Ahkam al-Suq*, , édit. F. Dachraoui, Tunis, 1975, p.130 ; Burzuli, III, p.221.

[38] Bukhari, VIII, 443.

[39] Yahya ibn Umar, p. 130.

[40] Le pieux Hamdis al-Qattan, compagnon de Sahnun refusa la présence du médecin pour ne pas désobéir au seigneur. Maliki, *Riadh al-nufus*, Beyrouth, 1983, I, p. 488.

[41] M.W. Dols, *op. cit*, p.274.

[42] *Ibid*, p. 274.

[43] Burzuli, II, p. 277-278, 338, III, p.287 (Fatwa(s) d'Ibn Habib, Lakhimi, Ibn Abi Zayed).

[44] *Ibid*, III, p. 221, 287 : affirmation de la contagion et de la nature héréditaire du mal « *wa inkana fi ahad al-walidayn* ». C.f. également l'opinion de Sahnun dans *Ahkan al-Suq*, p. 130.

[45] Abu Ayub ibn Mazin al-Kanani, *qadi* de Sanaa. Cf. Ibn Khalikkan, *Wafayat al-a'yan*, Beyrouth, 1968, IV, p. 297.

rare et fut surtout réservé au vitiligo[24]. Cet euphémisme est, par contre, fréquent dans les ouvrages *d'Adab* comme le *Kitab al-Bursan* de Djahiz[25].

Le terme « *djudham* » dérive d'une racine signifiant « couper rapidement », mutiler. Dans le Lisan le *djadhm* est l'action de couper, le *ajdham* ou le « *mudjadhdham* » est un manchot[26]. Le *mutilatio* des Anciens ou le « *da al-Qat'* » des Arabes est donc un mal qui produit une profonde défiguration ; « c'est un cancer de tout le corps » disait Ibn Sina[27]

La première génération des médecins arabes adoptèrent la théorie des humeurs des Anciens[28] et jugèrent, comme eux, la lèpre contagieuse, héréditaire[29] et incurable à un stade avancé de la maladie. Mais ils introduisirent une plus grande variété de médicaments susceptibles d'arrêter la progression du mal à ses débuts[30]. De même, contrairement à leurs devanciers grecs, ils ne considérèrent guère la maladie comme violemment contagieuse et leurs écrits ne contiennent aucun indice de censure morale du patient[31] .

L'andalou al-Zahrawi (m.404/1010) fut le premier praticien qui nuança la portée des lésions cutanées et attira l'attention sur les signes neurologiques du mal, c'est-à-dire la perte de la sensation qui est le principal symptôme de la lèpre[32]. Ce système, qui a servi depuis à distinguer les lépreux et à les isoler, n'est pas totalement étranger au déclin des léproseries dans l'Occident musulman au bas Moyen âge. Dans une *fatwa* d'al-Qabusi (m.536/1141) deux médecins constatèrent un cas de lèpre à la suite d'un examen ordinaire. Le jurisconsulte ordonna alors qu'il soit refait par piqûres d'aiguilles, l'innovation semble de taille pour qu'elle soit soulignée par les principaux ouvrages juridiques (Burzuli, Wansharisi[33]). Le texte est cependant, peu clair, on ne sait pas si le diagnostic visait la recherche de l'anesthésie ou « l'humeur blanche » du *baras*.

---

[24] Ibn Mandhur, *Lisan al-'arab*, Beyrouth, 1988, t. VII (art: *Baras*) : Maladie qui provoque des taches blanches et brillantes. Le *abras* est également *Aqshar*, *Ablaq*.

[25] Djahiz, *Risalat al-Bursan Wa al-Urdjan Wa al-Umyan Wa al-Hulan*, édit. M. Mursi Khuli, Beyrouth 1972.

[26] Voir aussi, al-Murtadha, *Ghurar al-Fawa'id*, Caire, 1951, p. 5

[27] Tabari : L'altération atteint les poumons, coagule le sang; les poils et les sourcils tombent. Extinction de la voie, contraction des ongles, chute de la pyramide nasale et des extrémités des doigts. Ceci peut arriver chez le fœtus ce qui donne la maladie à l'enfant.
Madjusi : La lèpre assèche tous les organes du corps et les altère. A un stade avancé il y a chute d'organes, le visage devient enflé, les pulpes se fissurent, les vaisseaux s'épaississent.
Avicenne : La maladie altère le tempérament des organes et commence avec les extrémités et les organes doux. Ensuite elle s'étend sur le reste du corps. Elle donne des rêves noirs et des ulcérations.

[28] Tabari : Elle est causée par la bile noire corrompue qui altère les autres humeurs. Ibn Sina : elle est due à une extension de la bile noire dans tout le corps.

[29] Madjusi : La maladie est transmise à la descendance et atteint les enfants car le *djawhar* du sperme est mélangé avec les mauvaises humeurs. Elle se transmet des parents aux enfants et elle peut atteindre l'entourage qui habite avec eux.

[30] Ibn Sina : " Les formes mineures et débutantes sont difficiles à traiter, les formes sévères et évoluées sont sans espoir de guérison. Madjusi : La lèpre est de deux types, celle qui est due à une humeur noire est traitable avec une guérison complète si on la soigne dès le début ". Cf. .M. Mokni, *op-cit*, pp.62-64.

[31] M.W. Dols, *op. cit*, pp.271-272.

[32] *Ibid*, p. 271.

[33] Burzuli, II, p. 338. Il fut questionné à propos d'un homme qui maria sa fille puis refusa la consommation à cause du nouveau *baras* du gendre. L'examen était destiné à s'assurer que la vie en commun ne présentait pas de danger pour la mariée. Si le malade ne dégage pas de sueur malodorante (signe de la lèpre), les médecins doivent constater, à la suite des piqûres, s'il en sort du sang.

préjugés liés à la lèpre[9]), maladies infectieuses et hautement contagieuses, la relégua même au second plan au bas Moyen-âge[10].

HISTOIRE MEDICALE ET SOCIALE

Les conquêtes de la médecine arabe

Les manuels médicaux et les ouvrages juridiques attestent que les arabes de l'époque classique avaient une connaissance relativement bonne du « *djudham* » ou « *dā al-Asad* » (maladie du lion)[11], la vraie lèpre ou lèpre lèpromateuse provoquée par le bacille de Hansen[12]. Ibn Masawayh[13], Ali Ibn Rabban al-Tabari[14], Abu Bakr al-Razi[15], Ali Ibn al-Abbas al-Madjusi[16] et Ibn Sina[17] consacrèrent à la maladie des chapitres orignaux et la distinguèrent nettement des autres dermatoses, notamment les *baras* et les *bahaq(s)* blancs et noirs (vitiligos)[18]. Ces notions sont également parfaitement assimilées par les ifriqiyens Ahmed ibn al-Djazzar (m. 395/1004)[19] et Abu Abdallah Muhammad al-Siqilli qui rédigea son *Mukhtasar al-Farisi*_sous le règne du sultan hafside Abu Faris (m. 1434).

Le « *djudham* » (lèpre) des traités médicaux, juridiques et hagiographiques, est selon Ibn Mandhur une maladie qui provoque la chute des organes[20]. Il est le « *bala* »[21] et le « *dharar* »[22].On rencontre parfois l'usage coranique du « *baras* »[23], mais il est très

[9] Cette maladie vénérienne, appelée « *Dā al-Ifrandj* » (maladie des Francs), commença à causer des grands ravages en Ifriqiya dés le XV^{ème} siècle. Les valétudinaires, assimilés au lépreux (à cause des manifestations nerveuses du mal) furent pour un moment renfermés dans les hôpitaux des aliénés. D'après Léon, la syphilis fut introduite par les femmes juives chassées d'Espagne. Cf. Léon, I p. 85; R. Brunshvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, Paris, 1946, II, p. 394.

[10] Dans le chapitre qu'il consacra aux principales maladies du Maghreb, Léon (I, pp. 83-84) cite la teigne, les maladies gastriques et nerveuses, la syphilis et la peste. A l'époque moderne, L. Frank, parle de la peste et de l'éléphantiasis (pied d'éléphant). L. Frank, *Histoire de Tunis*, Tunis, 1985, p. 130.

[11] Siqilli, *al-Muktasar al-Farisi*, ms. B.N. Tunis n° 2868, ch. VII: « Elle est appelée ainsi car le visage du malade prend un aspect renfrogné, les yeux deviennent arrondis, le nez aplati comme le lion ». A. propos de ce traité, cf. M. Mokni *La peau et ses maladies d'après un traité de médecine tardif*, mémoire de Master, Université de Tunis I, 2005.

[12] Maladie infectieuse chronique qui couvre la peau de pustules et d'écailles, lèse le système nerveux. Elle fut introduite en Méditerranée, probablement à partir de l'Inde, au IV^{ème} siècle Av. J.C.

[13] Auteur de l'exposé arabe le plus ancien, *le Kitab fi al Djudham*. M.W. Dols, *op. cit*, p. 272.

[14] *Firdaws al Hikma*, édit. Siddiq, Berlin, 1928.

[15] *Kitab al-Hawi*, Haydarabad, 1970.

[16] *Al-Kitab al-Malaki*, Boulaq, 1294. Cf. D. Jacquart et F. Micheau, *La médecine arabe et l'Occident médiéval*, Paris, 1996, pp. 69-70.

[17] Ibn Sina, *al-Qanun fi al-Tib*, Boulaq, 1877.

[18] Selon al-Madjusi, le *bahaq* atteint le surface de la peau, alors que le *baras* sévit dans ses profondeurs. D'après Avicenne, le *bahaq* est superficiel, le *baras* est profond au niveau de la peau, ce dernier est curable.

[19] *Zad al-Musafir*, Tunis, 1999. Chap. XVII, *de l'éléphantiasis*, ch. XVIII, du Vitiligo.

[20] Ibn Mandhur, *Lisan al-Arab*.

[21] Burzuli, *Djama Masa il al-Ahkam*, édit. M.H. Hila, Beyrouth, 2002, III, pp. 221-283.

[22] Coran, XXI, 83.

[23] Coran, III, 48, V, 110.

L'èpre et Léproseries en Ifriqiya au Moyen Age

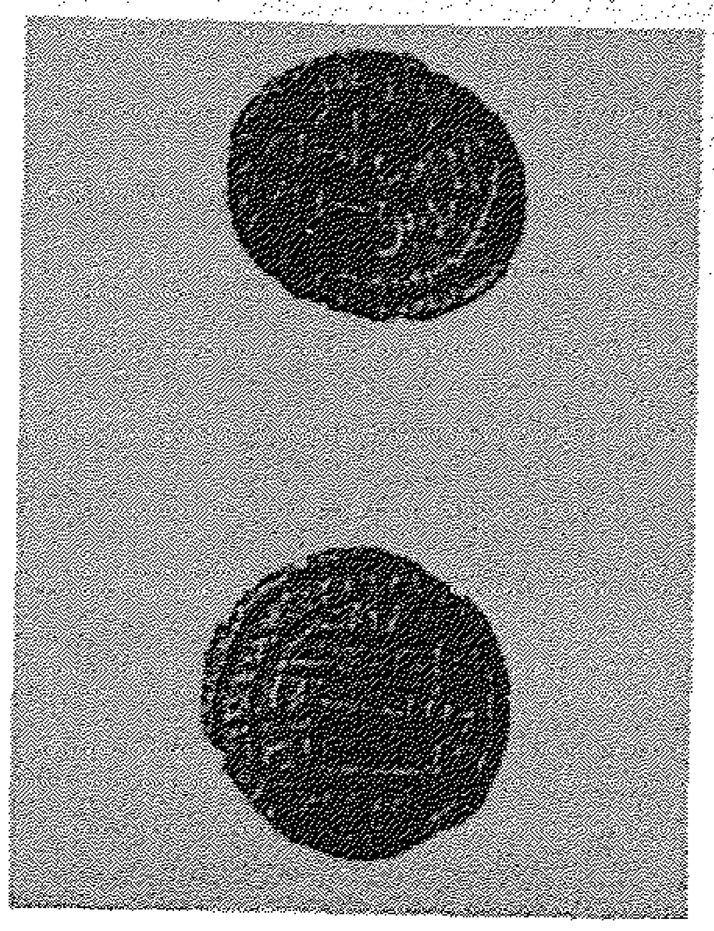
Néji Djelloul
Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de La Mannouba

La lèpre est une méchante maladie disait Ibn Sina. Elle est mauvaise car elle s'attaque à la peau, qui fonde la relation de l'homme aux autres, et défigure le visage, première image de soi. Elle entraîne la perte de la sensibilité, la cécité, et provoque la chute des organes. Ainsi la mort, jusqu'alors interprétée comme une paisible séparation de l'âme et du corps devint, avec l'irruption de la lèpre une terrifiante destruction du corps et une décomposition charnelle lente. Cette souillure du corps fut interprétée par les contemporains de Saint-Louis, adeptes de l'union du « *nasut* » et du « *lahut* », comme la marque du malin et entraîna les longues processions et les errances des lépreux qui marquèrent l'histoire de l'Europe médiévale[1]. La maladie, fort redoutée, était, en effet, le mal par excellente; un mal héréditaire, contagieux et incurable. Les victimes, considérées comme malpropres et caractérisées par des forts désirs vénériens, étaient enfermées dans des maladreries d'où on ne sortait presque jamais. Sa ressemblance avec plusieurs autres dermatoses semait la confusion dans les esprits et exaspérait les passions dans un monde qui a oublié depuis longtemps les leçons de la médecine antique[2].

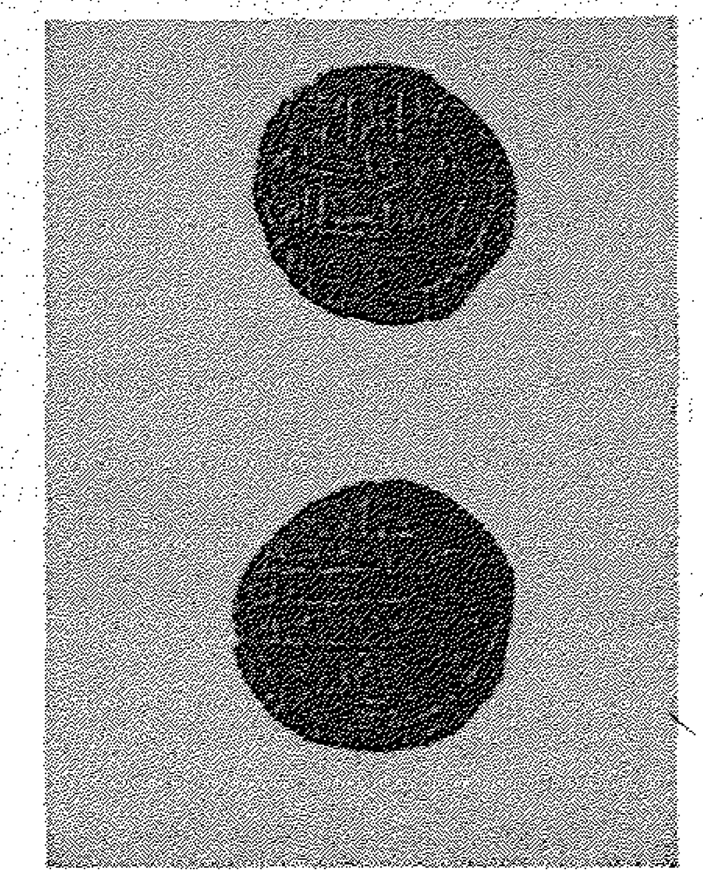
A en croire les géographes arabes du haut Moyen-âge, l'Egypte était le principal foyer de la lèpre dans le Dar al-Islam[3]. La maladie sévissait également au Maghreb, au Kirmân, en Syrie–Palestine et au Yémen[4]. Elle était très rare en Irak et au Fars et absente au Khorasan et en Transoxiane[5].

L'Ifriqiya médiévale avait, elle aussi, eu ses préjugés et ses léproseries; des maladreries étaient signalées à Kairouan, Sousse, Tunis, Sfax, Mahdia et al-Hamma. Des fondations analogues virent le jour dans le reste de l'Occident musulman, notamment à Fès[6] et à Cordoue[7]. La maladie n'a pas, cependant, engendré autant de peurs. L'apparition de la peste[8], puis de la syphilis (sur laquelle furent cristallisés les anciens

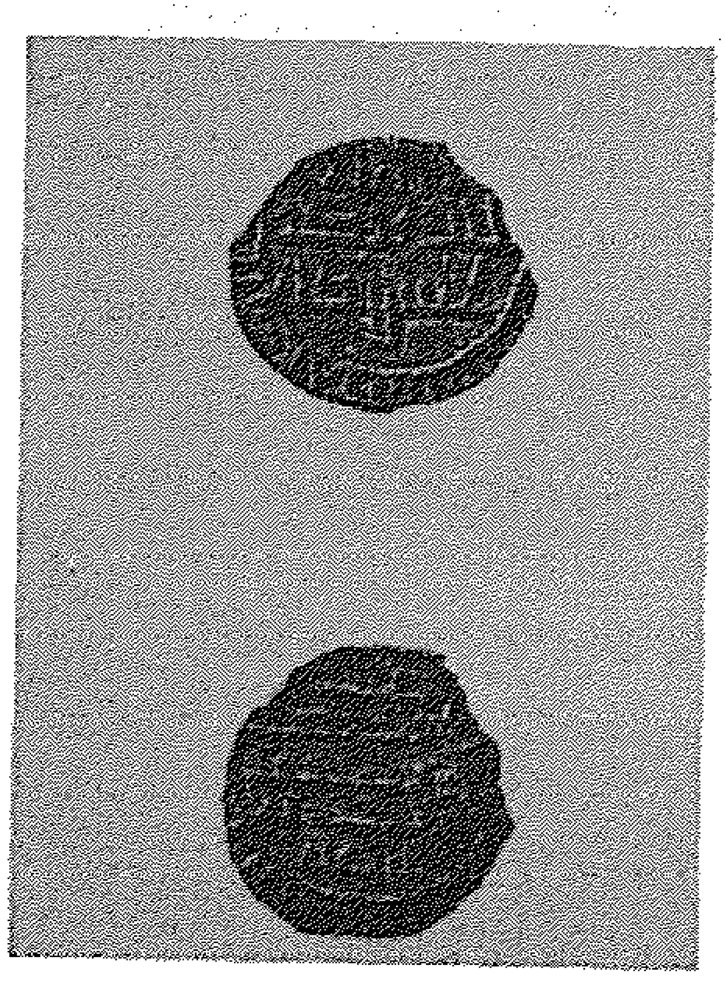
[1] M. Foucault, *Histoire de la folie à l'âge classique*, Paris, 1971, p. 14-15, « Errance sur les sentiers et les chemins, sans destination aucune, parce que chassés de partout ».
[2] Sur la lèpre, c.f. D.L. Zambaco, *La lèpre à travers les siècles*, Paris, 1964; L. Rogers et E. Muir, *Leprosy*, Baltimore, 1946 ; M.D. Grmek, *Les maladies à l'aube de la civilisation occidentale*, Paris, 1994. Pour le monde de l'Islam, voir : M. W. Dols, art. « Djudham », *E.I²*, Suppl., V-VI, pp. 270-274.
[3] Egalement sévèrement touchée par la gale. Muqaddasi, *Ahsan al-Taqasim*, Leyde, 1967, p. 200, relie ces « épidémies » aux miasmes et à la consommation excessive du poisson.
[4] Notamment San^ca. Ibn Hawqal, *Surat al-Ardh*, Leyde, 1967, p. 37, relie le phénomène au déficit d'énergie solaire.
[5] Ibn Hawqal, 37; Muqaddasi, 95,179, 200-202 ; A. Miquel, *Géographie humaine du monde musulman*, Paris, 1988, IV, p. 262.
[6] Léon l'Africain, *Description de l'Afrique*, (texte arabe), édit. M. Hadji, Beyrouth, 1982, II, p. 278.
[7] E. Levi-Provençal, *Histoire de l'Espagne musulmane*, I, p. 335, 382, 434.
[8] A partir du XIV^{ème} siècle la peste fit périr un grand nombre de lépreux à cause de leur exceptionnelle vulnérabilité aux autres maladies. C.f. M .W Dols, *op. cit.*, 270.



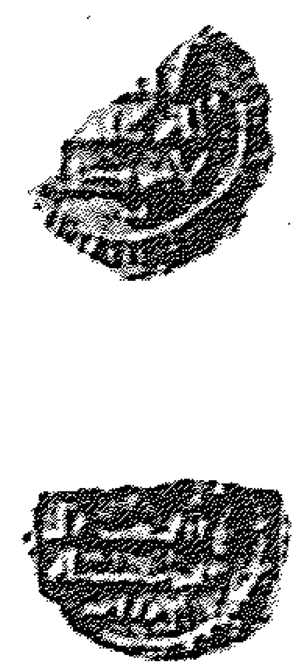
6-Dirham *'ashiri* frappé en 275 H.
(De Luca, 68) ; sans indication.



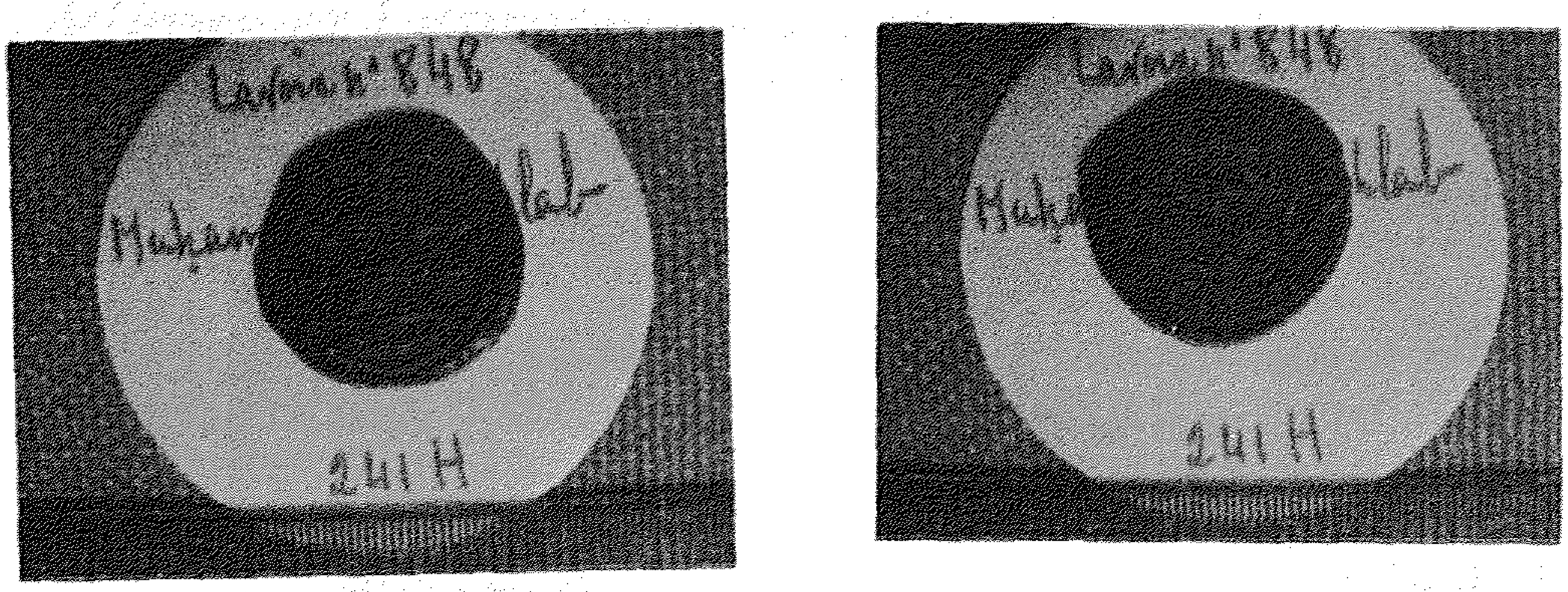
7-Dirham *'ashiri* frappé en 277 H.
(De Luca, 69) ; sans indication.



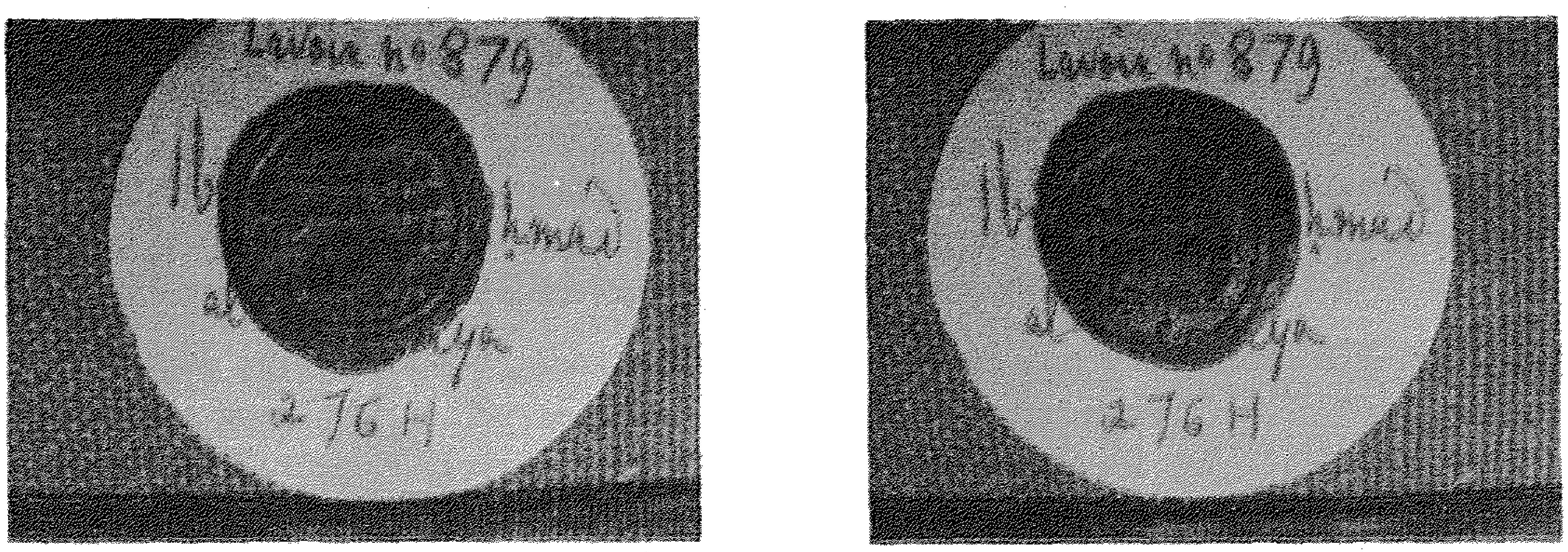
8-Dirham *'ashiri* frappé en 280 H.
(De Luca, 77) ; sans indication.



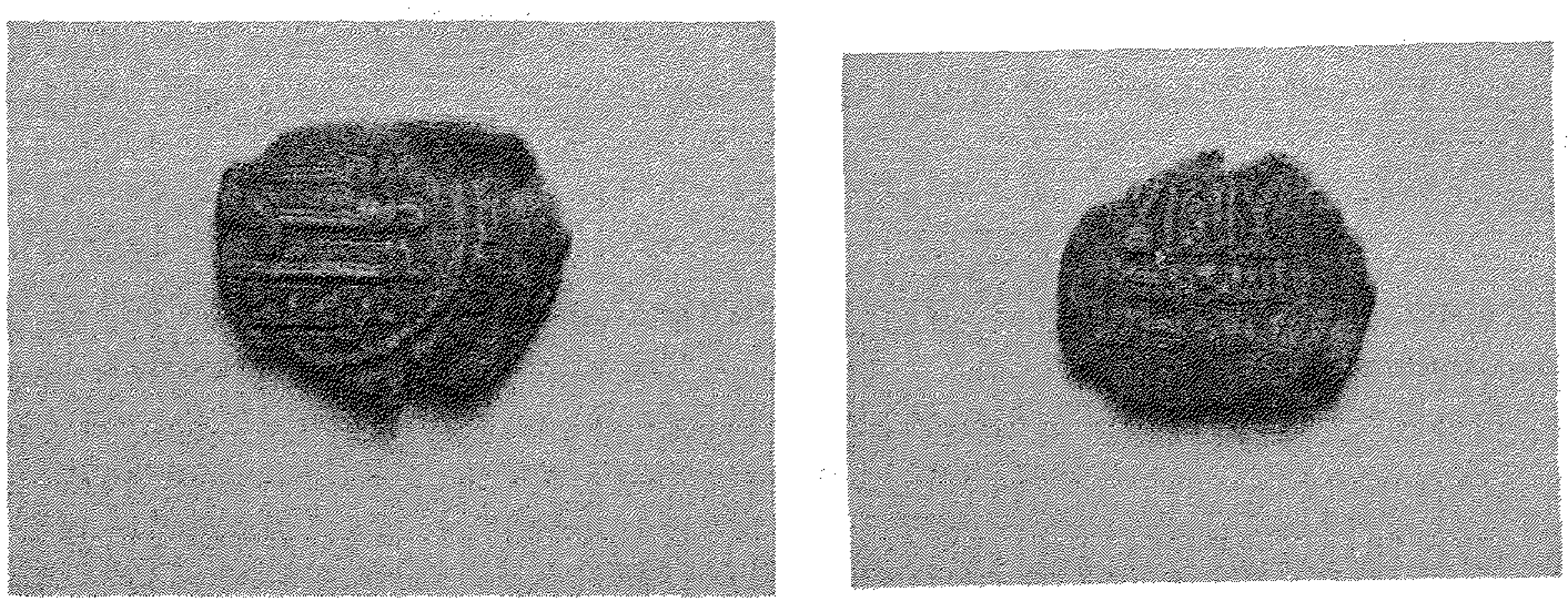
9-Dirham *'ashiri* coupé frappé en 277 H.
(De Luca, 70) ; sans indication.



3- Demi dirham frappé en 241 H. par Muhammad I (BnF, Lavoix, 848).



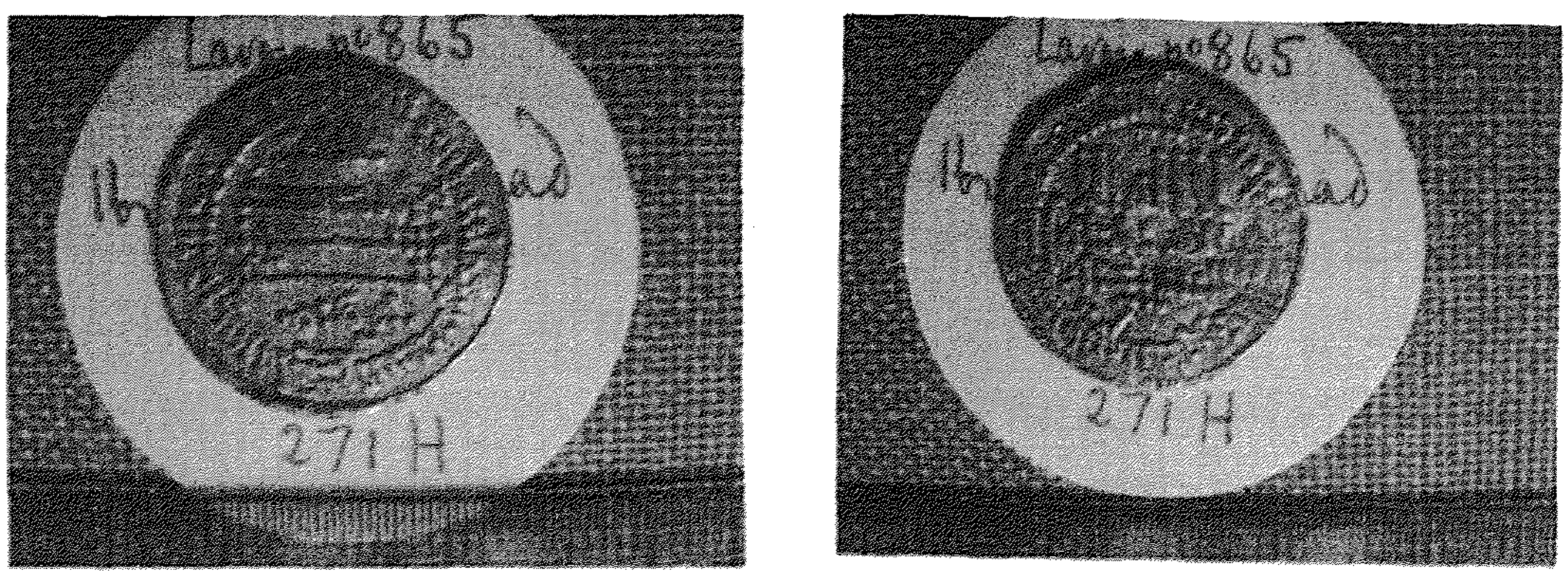
4-Demi dirham frappé à l'atelier d'al-'Abbassiyya en 276 H. par Ibrâhim II (BnF, Lavoix, 879).



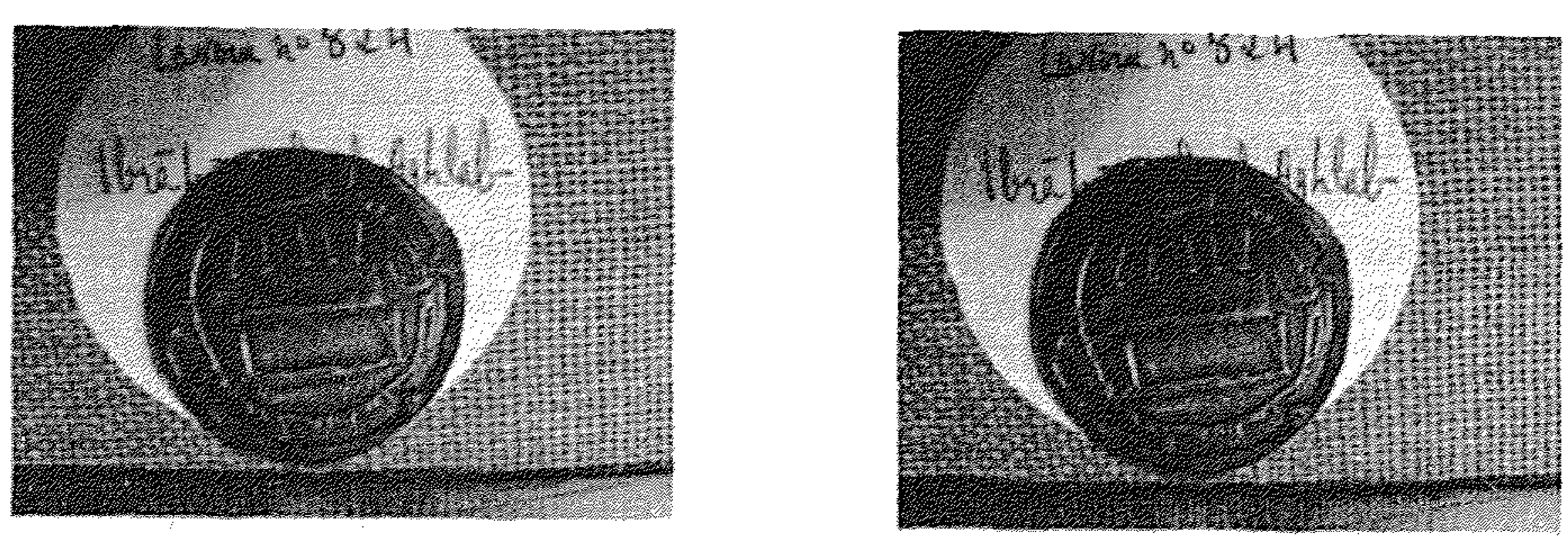
5-Demi dirham coupé frappé par Ibrâhim II entre 276 et 277 H. ? (collection privée) ; atelier indéterminé.

chemin de Kairouan. Alors les Kairouanais se préparèrent à l'affrontement. Ibrâhîm b. Ahmad se dirigea vers l'oratoire en plain air (*al-musalla*) où il prit place et donna ordre à ses troupes de s'abstenir de faire usage de leurs armes. Lorsque le calme fut revenu, l'ascète et *faqih* Abû Ja^c^far Ahmad b. Mughîth vint le trouver. Une longue conversation s'engagea entre eux. Le vizir Abû ^c^Abd Allâh b. Abî Ishâq put, en compagnie d'Abû Ja^c^far Ahmad b. Mughîth, pénétrer la ville de Kairouan, en remonter la rue principale (*simâtahâ*), et apaiser la population. Ibrâhîm b. Ahmad retourna alors à Raqqâda et fit libérer les prisonniers détenus dans la Grande mosquée. Les dirhams (*al-nuqûd*) et les fragments (*al-qita^c^*) disparurent de l'Ifrîqiya jusqu'à ce jour. Ibrâhîm b. Ahmad frappa des dînârs et des dirhams qu'il dénomma *al-^c^âshiriyya*, chaque dînâr en vaut dix dirhams ».

Annexe II : Planche de monnaies [52]



1-Dinâr frappé par Ibrâhim II en 271 H. (BnF, Lavoix, 865).



2-Dinâr frappé à l'atelier d'Ifrîqiya en 186 H. par Ibrâhim I en 271 H. (BnF, Lavoix, 824).

[52] Nos vifs remerciments s'adresse à notre ami François Thierry, conservateur en chef au département des Monnaies, Médailles et Antiques en charge des monnaies orientales à la Bibliothèque Nationale de France (BnF), pour nous avoir autoriser à prendre les photographies.

-Vonderheyden M., *La Berbérie orientale sous la dynastie des benoû 'l-arlab 800-909*, Paris, 1927.

ANNEXES

Annexe I

Il nous a paru opportun de reproduire ici le texte arabe d'Ibn ᶜIdhârî et notre propre traduction afin de rendre intelligible notre commentaire.

Texte arabe

و كانت [في سنة 275 هـ] بإفريقية هيجة تعرف بثورة الدراهم.

وذلك أن إبراهيم بن أحمد ضرب الدراهم الصحاح، و قطع ما كان يتعامل به من القطع. فأنكرت ذلك العامة، و غلقوا الحوانيت، و تآلفوا، و صاروا إلى رقادة، و صاحوا على إبراهيم، فحبسهم في الجامع. و اتصل ذلك بأهل القيروان، فخرجوا إلى الباب، و أظهروا المدافعة. فوجه إليهم إبراهيم بن أحمد وزيره أبا عبد الله بن أبي إسحاق، فرموه بالحجارة و سبوه. فانصرف إلى السلطان إبراهيم بن أحمد، فأعلمه بذلك. فركب إبراهيم إلى القيروان، و معه حاجبه نصر بن الصمصامة في جماعة من الجند، فناصبه أهل القيروان القتال. فتقدم إبراهيم ابن أحمد إلى المصلى، فنزل، وجلس، و كف أصحابه عن قتالهم. فلما اطمأن به مجلسه، و هدأ الناس، خرج إليه الفقيه الزاهد أبو جعفر أحمد بن مغيث، فكان بينهما كلام كثير. و دخل أبو عبد الله بن أبي إسحاق الوزير مدينة القيروان مع أحمد بن مغيث، فشق سماطها و سكّن أهلها. فرجع إبراهيم بن أحمد إلى رقادة، و أطلق المحبوسين بالجامع. و انقطعت النقود و القطع من إفريقية إلى اليوم. وضرب إبراهيم بن أحمد دنانير و دراهم سماها العاشرية، في كل دينار منها عشرة دراهم.

ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار اللأندلس والمغرب**، ج 1، بيروت، 1983، ص. 120-121.

Traduction

« Il y eut en Ifrîqiya [en l'an 275 H.] une émeute (*hayjâ'*) baptisée la révolte des dirhams (*thawrat al-darâhim*).

Ceci parce que Ibrâhîm b. Ahmad fit frapper des dirhams entiers (*sihâh*) et proscrit l'usage des fragments (*al-qitaᶜ*) [de dirhams] dans les transactions. Les plébéiens (*al-ᶜâmma*) désapprouvèrent cela, fermèrent les boutiques, s'organisèrent et allèrent à Raqqâda huant Ibrâhîm qui les fit enfermer dans la Grande mosquée. Cette nouvelle parvint aux kairouanais (*ahl al-Qayrawân*), qui se dirigèrent vers la porte [de la ville], manifestant [leur intention] de se défendre. Ibrâhîm b. Ahmad leur dépêcha son vizir Abû ᶜAbd Allâh b. Abî Ishâq. Ils jetèrent sur lui des pierres et l'insultèrent. Il retourna auprès du *sultan* Ibrâhîm b. Ahmad et l'informa de cela. Accompagné de son chambellan (*hâjib*) Nasr b. al-Samsâma avec un détachement de l'armée, Ibrâhîm prit le

pour cette version des faits, puisqu'elle n'a pas eu assez d'ampleur pour que les autres sources jugent nécessaire de l'évoquer. D'autre part, peut-on analyser cette politique monétaire en terme de « réforme», alors que celle-ci suppose nécessairement l'institution d'une nouvelle monnaie ayant connue une modification de la valeur intrinsèque ou du moins typologique ? La proscription de la fragmentation du dirham, qui fait référence à un usage bien établi en Ifrîqiya avant l'adoption de la nouvelle politique monétaire, vise essentiellement le rétablissement de la monnaie légale et l'assainissement de la situation monétaire qui prévalait alors en Ifrîqiya. À preuve, que cette décision fut suivie concurremment par la frappe de dirhams entiers, qui avait été interrompue depuis plus de quatre décennies. Devant la forte opposition cependant, l'émir aghlabide fut amené à réajuster sa politique monétaire.

BIBLIOGRAPHIE

-Abdul-Wahab H.-H., *Warakat (Feuillets). Etudes sur certains aspects de la civilisation arabe en Ifrikia (Tunisie)*, t. I, Tunis, 1965.

-Abdul-Wahab H.-H. et Chabbi M., *al-Nuqûd al-ᶜArabiya fî Tûnis*, [Les monnaies arabes de Tunisie], éd. Banque Centrale de Tunisie, Tunis, 1968.

-Ajjebi H., *Jâmiᶜ al-Maskûkat al-ᶜArabiya bi-Ifrîqiya*, Tunis, 1988.

Balog P., « Monnaies islamiques rares fatimites et ayoubites », *BIE*, t. XXXVI, Le Caire, 1955, pp. 327-341.

-Al-ᶜUsh M. A. *Monnaies aglabides, étudiées en relation avec l'histoire des Aglabides*, I.F.D., Damas, 1982.

-Ben Qirba S., *al-Maskûkât al-Maghribiyya min al-Fath al-ᶜArabî ilâ Suqûti Dawlat banî Hammâd*, [Les monnaies maghrébines, de la conquête arabe à la chute de l'Etat des Banû Hammed], Alger, 1986.

-Chabbi M., « Muqaddima li-dirâsat nuqûd Ifrîqiya al-ᶜArabiyya », *AFRICA*, 1966, pp. 175-194/9-28 + 12 planches.

-Chalmeta P., « Monnaie de compte, monnaie fiscale et monnaie réelle en Andalus », dans *Documents de l'Islam médiéval. Nouvelles perspectives de recherche*, éd. Y. Râghib, IFAO, Caire, 1991, pp. 65-88.

-De Luca M.-A., *Le monete con leggenda araba della Biblioteca Comunale di Palermo*, Parte I, Palerme, 1998.

-Dozy R., *Supplément aux dictionnaires arabes*, t. II, Leyde, 1881.

-Farrugia De Candia J., « Monnaies aghlabites du musée du Bardo », *RT*, 23-24, 1935, pp. 271-287.

-Fenina A., et alii, *Numimatique et histoire de la monnaie en Tunisie*, Tunis, 2007.

-Fournel H., *Les Berbères. Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, vol. I, Paris, 1875.

-Ibn ᶜIdârî, *al-Bayân al-Mughrib fî akhbâr al-Andalus wa-l-Maghrib*, éd. Lévi- Provinçal E., 4 vol., 3ᵉ éd. Beyrouth, 1983 ; trad. fr. Fagnan, *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne intitulée al-Bayān al-Maghrib*, Alger, 1901.

-Janhani H., *al-Maghrib al-Islâmî. Al-Hayât al-Iqtisâdiyya w-l-Ijtimâᶜiyya (3-4 H./9-10)*, Tunis, 1978.

-Lavoix H., *Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*, t. II, Paris, 1891.

-Marçais G., *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, 1946, rééd. Afrique - Orient, Casablanca, 2003.

-Noonan Th.-S., « Ninth-century Hoards from European Russia: a Preliminary Analysis », dans *Viking Age Coinage in the Northern Lands: The Sixth Oxford Symposium on Coinage and Monetary History*, M. A. S. Blackburn et D. M. Metcalf eds, Oxford, B.A.R., 1981.

-Noonan Th.S., « The Regional Composition of Ninth-Century Dirham Hoards from European Russia », *NC*, n° 144, 1984, pp. 153-165.

-Rammah M., « Mulâhadât hawla darb al-sikka bi-l-Qayrawân », [Observations au sujet de la frappe de monnaie à al-Qayrawân], *Africa*, XIX, 2002, pp. 9-10.

-Sauvaire H., *Matériaux pour servir l'Histoire de la Numismatique et la métrologie musulmane*, 3 vol., Paris 1882-1887.

-Talbli M., *L'Émirat aghlabide (184-296/800-909). Histoire politique*, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1966.

-Tarizzo M.-L., « Early Arab coins of Tunisia : II, The Aghlabids, 184-296 AH (800-909 A.D.) », *ONSIS*, n° 15 (Nov 1976), pp.1-11.

qita[c]) qui furent remplacés par l'émission de pièces divisionnaires faibles à savoir les *darâhims al-[c]âshariyya*. Le dirham entier aurait-il été ainsi, aussitôt émis, retiré de la circulation pour être refondu ? Il semble en effet, selon les indications numismatiques, que les seules monnaies d'argent frappées par Ibrâhîm II en 275 H. furent des pièces divisionnaires : des ½ dirhams et surtout de minuscules pièces d'argent de faibles poids, variant entre 0,22 et 0,27 g[49], pesant le 1/10 du dirham entier. Ces dernières pièces n'avaient jamais été frappées auparavant en Ifrîqiya. Aussi, il nous paraît que la fameuse monnaie *al-[c]âshariyya*, confondue jusqu'ici avec le dirham entier, n'était en réalité que des piécettes d'argent correspondant précisément au 1/10 (al-[c]âshiriyya) de dirham. Sinon comment peut-on expliquer la concomitance de la frappe de ces fractions du dirham avec la « réforme » monétaire décidé. L'accord, par conséquent, qui a été trouvé sous les murs de Kairouan se fit en faveur des manifestants.

Le souverain aghlabide n'obtient l'accord des émeutiers de ne plus faire usage de la fragmentation du dirham qu'en contrepartie de la frappe de fractions de dirham de faible poids (*al-darâhim al-[c]âshiriyya*) nécessaire pour leurs transactions. Ces darâhims ou fractions de dirhams ont été alors frappés quasi annuellement entre 275 et 281 H., puis complètement abandonnés par l'émir aghlabide et ses successeurs[50]. Ces piécettes, il est vrai, était dans la pratique, du fait de leur faible module, difficile à manier. L'usage de la fragmentation du dirham semble avoir alors reprit cours peu de temps après l'accord conclu. Ces piécettes, que P. Balog dénomme « Kharrûba d'argent », ont été ensuite de nouveau frappés par les Fâtimides, à partir du règne du calife al-[c]Azîz (365-386/975-996)[51].

Cette interprétation nous permet désormais d'identifier ces *darâhims al-[c]âshiriyya*, qui correspondent à ces pièces d'argent minuscules et de faibles poids. Une ambiguïté pourrait cependant subsister quant au sens du mot *al-[c]âshiriyya*. L'emploi par Ibn [c]Idhârî du mot dînâr au lieu de dirham, a été à l'origine de cette ambiguïté. Il aurait, sans doute, commis une erreur de lecture.

Conclusion

La révolte qui nous a occupé dans ce travail se caractérise, par rapport à celles qui ont ensanglanté l'Ifrîqiya de l'époque umayyade à l'époque aghlabide, par son caractère limité et dans le temps et dans l'espace et par sa fin non tragique ; disons plutôt heureuse. Ibn [c]Idhârî, aurait dû utiliser un autre terme pour qualifier la protestation des Kairouanais de la politique monétaire de l'émir aghlabide. À l'évidence le choix de ce terme « révolte » est trop fort et suggère que les esprits furent marqués par cet événement. Émeute ou « *hayjâ'* », serait donc plus juste et plus adapté pour évoquer cette agitation vite résorbée. Par ailleurs, nous ne connaissons malheureusement pas davantage de détails concernant cette émeute pour en être certain qu'il en fut ainsi. Mais, bien que le texte d'Ibn [c]Idhârî ne nous fournit pas assez de renseignements, nous croyons qu'il en contient suffisamment pour se faire une idée précise de cet événement. À s'en tenir aux propos d'Ibn [c]Idhârî, on ne peut qu'opter

---

[49] Voir Lagumina, n° 50-53 et 71-103 ; M.-A. De Luca, *Le monete*, n° 67-77 ; 79-116 ; al-[c]Ush, *Monnaies aghlabides*, n° 218-219 ; 232-237.
[50] al-[c]Ush, *Monnaies aghlabides*, n° 219 ; 222-223 ; 227 ; 229.
[51] P. Balog, « Monnaies islamiques rares fatimites et ayoubites », *BIE*, t. XXXVI, Le Caire, 1955, p. 332-334 ; voir également M.-A. De Luca, *Le monete*, n° 40 ; 69-155 : al-[c]Ush, *Monnaies*, n° 216-217 ; 219 ; 222-223 ;227 ; 229.

Désormais, la monnaie d'argent comme l'avait soutenu H.-H. Abdul-Wahab, ne fut plus comptée mais pesée.

C'est dans ce contexte marqué donc par l'emploi courant dans les transactions commerciales de *qita*[c], indistinctement des fragments de dirham et de métal argent brut non monnayé pris au pesé, qu'Ibrâhîm II usa de sa prérogative régalienne en frappant des dirhams *sihâh-s* et interdit la conversion de sa monnaie en simple morceau de métal. Il voulut ainsi imposer l'usage exclusif de son monnayage. La reprise de la frappe de monnaies d'argent sous son règne eut lieu quelques années avant ou plus probablement avec la réforme monétaire de 275 H. Cette décision s'inscrit par conséquent dans le cadre de sa volonté d'imposer ainsi le signe de son autorité et son droit de sikka. Al-Mawardî précise que les métaux précieux « portant l'empreinte de la *sikka sultâniyya*, dont la frappe offre toute confiance et garantit qu'il ne peut y avoir substitution ni fraude, doivent être employées à l'exclusion de fragments d'argent ou de lingots d'or. Dans les obligations dérivant du prix des marchandises et de la valeur des opérations, il s'agit toujours de monnaie frappée »[46]. Il faut rappeler à cet égard que la fragmentation du dirham était « un délit pénalement poursuivi aux I[er]-II[e] siècles ; elle est très mal vue aux III[e]-IV[e] siècles »[47]. N'oublions pas que la frappe monétaire procure au souverain un droit de seigneuriage. Il implique par conséquent au souverain, non seulement « la défense de cette activité à d'autres personnes, non autorisées »[48], mais aussi l'interdiction de l'usage de la fragmentation de la monnaie, en l'occurrence ici le dirham. Autrement, son Trésor perdait de substantielles recettes. En interdisant l'usage de fragments monétaires, Ibrâhîm II chercher ainsi à rétablir l'usage de la *sikka* (la monnaie), qui permettrait, en outre, le recouvrement des impôts en monnaies de bon aloi.

C'est là assurément la raison de la colère des Kairouanais, ou disons plutôt des commerçants, qui se trouvaient privés d'un moyen commode pour les besoins de leur commerce. Entendons-nous bien ce ne fut guère l'émission des dirhams entiers qui a provoqué la colère des Kairouanais, mais bien la suppression de l'usage des fragments monétaires, indispensable pour l'activité commerciale, dans une conjoncture de récession économique. Le dînâr et le dirham, espèces fortes, ne peuvent servir que pour les transactions de fortes valeurs. Or, en l'absence du fals et de monnaies divisionnaires d'argent, il était difficile d'accomplir des opérations commerciales de faible valeur. La tentative d'Ibrâhîm II d'imposer l'usage exclusif du monnayage dans les transactions n'a pas eu les faveurs des usagers, habitués depuis un certains temps à utiliser sans doute indistinctement et les métaux et les monnaies, quitte à les fragmenter, pour effectuer leurs transactions de faible valeur. C'est-ce qui explique d'ailleurs que la population était solidaire des commerçants qui prirent la tête du mouvement de contestation de la politique monétaire de l'émir aghlabide.

Quels furent les termes de l'accord conclu entre l'émir et les émeutiers pour résoudre la crise ? Ce qui semble être certain, c'est que le consensus trouvé, qui correspond au second moment dans le récit d'Ibn [c]Idhârî, entre l'émir, qui prit des mesures d'apaisement, et les révoltés consista à supprimer de l'usage les fragments (al-

---

[46] Al-Mawardî, *Ahkâm*, p. 269-270, cité par P. Chalmeta, « Monnaie de compte, monnaie fiscale et monnaie réelle en Andalus », dans *Documents de l'Islam médiéval. Nouvelles perspectives de recherche*, éd. Y. Râghib, IFAO, Caire, 1991, p. 77.

[47] P. Chalmeta, « Monnaies », p. 84. Selon cet auteur cette fragmentation ne finira par être « tolérée » que dès le V[e] s.

[48] P. Chalmeta, « Monnaies », p. 79.

qu'il y a eu deux moments dans cette « réforme ». Le premier moment correspond à la frappe du dirham entier et à l'interdiction, dans les transactions, du recours à la fragmentation des dirhams et à l'utilisation des morceaux de métal argent non monnayé (*qita*[c]). Quelles étaient alors les véritables raisons qui amenèrent Ibrâhîm II à adopter cette « réforme » et pourquoi a-t-elle engendré une émeute « *a priori incompréhensible* » selon les termes de M. Talbi ? Il faut rappeler d'abord, comme l'admet M. Talbi lui-même, en s'appuyant sur l'étude de J. Farrugia de Candia[38] et que les études ultérieures confirment, qu' « *on ne connaît pas de monnaies d'argent frappées en Ifrîqiya après le règne de Muhammad Ier Ibn El-Aghlab* »[39] jusque vers le milieu du règne d'Ibrâhîm II, soit plus précisément entre 230 et 268 H., voir plus vraisemblablement jusqu'à l'an 275 H., l'année même de la « réforme »[40]. La consultation du corpus dressé dans les années soixante-dix –travail publié en 1982- par al-[c]Ush[41] confirme cette constatation. Durant cette période en effet, les rares frappes de monnaies d'argent aghlabides, soit environ 6 émissions dont la datation est plus au moins certaine, ont été frappées en espèces fractionnaires (1/3 ; ¼) en Sicile, aux ateliers de Siqilliyya et de Palerme[42].

Les raisons de l'arrêt, pendant cette période, de toute frappe de monnaies d'argent dans les ateliers ifrîqiyens restent énigmatiques[43]. Il nous importe surtout d'insister ici sur le fait que durant cette période les dirhams entiers ne furent plus frappés en Ifrîqiya, ni d'ailleurs les fractions de dirham. L'usage qui s'était établi, et qui était devenu depuis très courant dans les transactions commerciales de faible valeur, consistait à la fragmentation des dirhams anciens, dirhams frappés régulièrement depuis le règne du fondateur de la dynastie jusqu'au début du règne de Muhammad Ier ou plus précisément entre 184 et 230 H.[44], pour faire office de monnaies divisionnaires de ½, 1/3, ¼ etc. comme cela était l'usage en Sicile. La fragmentation aurait même porté sur des dirhams islamiques en circulation en Ifrîqiya. Il faut rappeler également que les Aghlabides ne frappèrent que rarement la monnaie de bronze, le *fals*, pour faire office de menues monnaies nécessaires à l'appoint et pour répondre aux besoins du petit commerce. Sous les Aghlabides le *fals* ne fut que rarement frappé depuis le règne du fondateur de la dynastie jusqu'à celui de Muhammad Ier, ou plus précisément entre 186 et 227 H. d'après les pièces datées avec certitude[45]. Après cette date il semble bien que les Aghlabides renoncèrent définitivement à frapper le *fals*. On constate par conséquent que l'arrêt de toute frappe de monnaie de bronze coïncide avec l'arrêt de toute frappe de monnaie d'argent en Ifrîqiya. Pour ces deux raisons à la fois, le commerce en Ifrîqiya se trouvait ainsi gêné et les usagers étaient contraints, faute de disposer de monnaies divisionnaires, de fragmenter le dirham pour faire de la monnaie divisionnaire.

---

[c]asiriyya *étaient en réalité les mêmes et que la protestation visait cette seconde création. Peut être Ibrâhîm II a-t-il aboli les dirhams ; mais les dinars restèrent en circulation* ».

[38] J. Farrugia de Candia, « Monnaies aghlabites », 1935, p. 273.

[39] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 277.

[40] al-[c]Ush, *Monnaies aghlabides*, n° 215-217. L'attribution de ces trois pièces (1/2 dirham et deux pièces de 1/10 de dirham), datées respectivement de 268 H. et 273 H., ne semble pas être certaine.

[41] *Ibid.*, n° 206-214.

[42] *Ibid.*, n° 205 ; 207 ; 209-210 ; 212-213.

[43] Comme le souligne, avec raison, M. Talbi « *les raisons de cette défaillance, de vagues troubles auxquels Farrugia fait allusion ne nous semblent pas convaincantes* », M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 277.

[44] al-[c]Ush, *Monnaies aghlabides*, n° 167 ; 169 ; 171-193 ; 195-202 ; 204 ; 206.

[45] *Ibid.*, n° 244-272.

l'abondance du métal argent pour expliquer la réforme monétaire entreprise. Seulement l'émeute qu'elle a engendrée est « a priori *incompréhensible* », car il considère qu' « *il y avait certainement dans la colère populaire une bonne part d'incompréhension, et de suspicion, à l'encontre d'une opération dont on ne saisissait pas parfaitement l'intérêt pour la bonne marche de la vie économique* »[33]. Cet historien, en s'appuyant sur les « *appréciations élogieuses* » d'Ibn al-Athîr et d'al-Nuwayrî, présente un portrait largement favorable de ce souverain[34]. Il reconnaît toutefois que « *l'opération avait dû léser aussi des intérêts* » lors de l'échange de la bonne monnaie contre la mauvaise[35].

Depuis l'étude de M. Talbi, la révolte des dirhams sous l'émir aghlabide Ibrâhîm II n'a pas été reprise. Le développement, il est vrai, assez étendu consacré par cet auteur à cet épisode de l'histoire aghlabide semblait être définitif ; aussi tous ceux qui ont abordé cette question, après lui, se sont contentés le plus souvent de reproduire les propos de M. Talbi[36], ou de résumer les propos d'Ibn ᶜIdhârî. Pourtant cette tentative demeure insuffisante pour élucider certains aspects de la « réforme ». Il nous est donc permis, en dépit des nombreuses tentatives d'explications dont a fait objet le texte d'Ibn ᶜIdhârî, de revenir sur cette question afin de tenter à notre tour de présenter un éclairage nouveau sur cette « réforme » énigmatique.

Si nous avons consacré ce long développement à la présentation, aussi fidèlement que possible, des différentes interprétations émises, c'est pour fixer ainsi la contribution de chacun et rendre intelligible notre propos.

III - Le dénouement de la crise

Le récit d'Ibn ᶜIdhârî reste laconique sur la teneur de la conversation qui a eu lieu entre l'émir aghlabide et le représentant des émeutiers et qui a abouti au règlement de la crise. C'est pour cette raison sans doute que cette « réforme » monétaire n'a pas été jusqu'à présent tirée bien au clair. Mais, il nous semble que cela résulte surtout d'une incompréhension du texte d'Ibn ᶜIdhârî. Cette incompréhension réside dans le fait de tenir, bien que rien dans le texte ne le suggère, les dirhams entiers (*sihâh*) pour les darâhims *al-ᶜâshiriyya*[37]. Or il est suffisamment clair, nous semble-t-il, d'après le texte,

---

[33] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 279.

[34] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 280-281, précise qu'« *on ne peut donc*, affirme-t-il, nier *qu'Ibrâhîm II montra dans cette affaire une saine et courageuse clairvoyance économique, une grande modération, et beaucoup de sang-froid pour dénouer une crise qui aurait pu avoir une issue tragique. Le tyran que l'on se plaît par ailleurs à nous montrer impulsif et assoiffé de sang, avait su en l'occurrence agir avec une prudence et une sagesse qui n'auraient pas déparé des princes qui avaient laissé une bien meilleure réputation* ». Il lui « *apparaît*, ainsi, *sous les traits d'un prince soucieux d'assurer à son peuple la sécurité, la justice, une saine vie économique, et une sage administration* ».

[35] Il poursuit, p. 279 que « Nos *renseignements ne nous permettent pas de savoir sur quelle base se fit le retrait de la mauvaise monnaie et son échange contre la bonne. Beaucoup avaient dû perdre au change. L'Etat ayant le monopole de la frappe, l'Hôtel de la Monnaie* (Dâr al-Darb) *n'avait certainement pas accepté la parité, c'est-à-dire l'échange, à égalité de poids, des bons dirhams nouvellement émis contre les mauvais dont le retrait avait été décrété. La parité se serait en effet fatalement soldée par une hémorragie de métal argent fin qui aurait laissé le Trésor Public, à supposer qu'il aurait pu y faire face, dangereusement épuisé* ».

[36] M. Rammah, « Mulâhadhât», p. 9-10.

[37] Selon al-ᶜUsh, *Monnaies*, p. 25, « *le prince se vit contraint de retirer les nouvelles pièces utilisées ; mais il frappa des dinars et des dirhams en fixant le rapport entre les nouvelles pièces d'or et d'argent à 1/10 (c'est-à-dire 1 dinar = 10 dirhams) et appela les dirhams : al-darâhim al ᶜâshiriyya. Je me demande si Ibn ᶜIdhârî est bien digne de foi dans cette histoire, parce que la deuxième émission de dirhams* (al-darâhim al-ᶜâsiriyya) *était, elle aussi, très dangereuse. Je pense qu'al-*darâhim al-sihâh *et* al-darâhim al-

monnaie. L'invasion tulûnide, qui surprit Ibrâhîm II en 267/880-881, vint ensuite aggraver la situation et le força, pour faire face aux besoins subitement accrus en numéraire, à convertir tout le métal précieux, jusqu'aux bijoux de ses femmes, en dirhams et en dinars »[27]. Lors de cette conversion, il aurait même eu recours « *à l'abaissement du titre des dirhams, c'est-à-dire à une sorte de dévaluation, pour alimenter plus abondamment en pièces le trésor public à un moment où les besoins de numéraire, pour assurer le paiement des soldes, lever de nouvelles troupes et couvrir les frais de la guerre, se faisaient cruellement sentir* »[28]. La situation monétaire de l'Émirat, poursuit notre auteur, « *qui n'était déjà pas brillante depuis quelque temps comme l'indique l'arrêt de la frappe, se dégrada encore plus. Et comme la mauvaise monnaie chasse la bonne, bientôt il n'y eut plus en circulation que des dirhams de mauvais aloi, et toutes sortes de fragments monétaires (qita^c)* »[29]. Le discrédit toutefois, précise-t-il, ne touche que les monnaies d'argent, qui « *subirent toutes sortes d'altérations* ». En revanche le monnayage d'or, « *sur lequel étaient basés tous les échanges* » resta stable et n'a « *souffert d'aucune dégradation* » ce qui permit d' « *éviter ainsi une catastrophe économique* »[30]. Faut-il ainsi admettre, comme le suggère M. Talbi, qu'il y a eu au début du règne d'Ibrâhîm II, plus précisément après l'invasion tûlûnide en 267/880-1, une dévaluation du monnayage d'argent ? Il nous paraît difficile d'accepter une telle supposition. On note surtout, qu'on ne connaît guère d'émission de dirham entier sous Ibrâhîm II avant la réforme. Difficile, par conséquent, d'admettre que celui-ci fut altéré.

Après avoir dressé le bilan de la situation financière et monétaire difficile qui prévalait en Ifrîqiya avant et au début du règne d'Ibrâhîm II, M. Talbi considère que cette « réforme » monétaire « *ne peut être que le signe et le résultat, du redressement économique* » et financier[31]. À cette « *condition nécessaire, mais non suffisante* », la réforme fut « *peut être également* » liée à l'« *abondance du métal argent* ». Profitant de cette nouvelle conjoncture « *devenue favorable, Ibrâhîm II décréta le retrait de la circulation des mauvais dirhams et de tous les fragments monétaires* (qita^c) *sans valeur qui avaient envahi les transactions. Une nouvelle frappe de dirhams de bon aloi, baptisés* al-^câsîriya *en raison de la relation décimale qui les liait au dinar, jouant en l'occurrence le rôle d'étalon-or de valeur stable, fut décidée* »[32].

Dans son analyse, on le voit bien, M. Talbi suit le schéma classique d'interprétation des réformes monétaires qui seraient nées d'une situation de crise économique en générale et financière en particulier. Elles seraient surtout la manifestation souveraine d'assainissement de cette situation de crise lors d'une conjoncture devenue favorable. Il privilégie ainsi la piste de la pénurie puis de

---

[27] Voir Ibn ^cIdhârî, *al-Bayân*, I, p. 119 ; voir également M. Chabbi, « Muqaddima », p. 17/186.

[28] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 277.

[29] *Ibid.*

[30] *Ibid.*, 278.

[31] Cette réforme monétaire, poursuit-il « *ne peut donc être, en toute logique, que la manifestation de l'assainissement des finances publiques, ainsi que la reconstitution et de l'augmentation des réserves du Trésor qui furent, à un certain moment, dangereusement anéanties* » ; voir M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 278.

[32] Selon M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 279, au « *tarissement, puis à l'affluence, du métal précieux, tarissement et affluence dont le secret devrait probablement être recherché dans les aléas de l'extraction et de l'acheminement du minerai. Tout se passa comme si à la pénurie avait succédé une ère d'abondance du métal argent, ce qui rendit la réforme techniquement réalisable* ».

la réforme d'Ibrâhîm II, le simple contrecoup d'un butin de guerre...fait... huit ans auparavant »[21].

C'est l'érudit tunisien H.-H. Abdul-Wahab qui nous donne plus tard une brève mais fort éclairante interprétation de cette « réforme ». Selon cet auteur, qui a fait table rase des écrits de ses prédécesseurs, la « réforme » monétaire qu'entreprit Ibrâhîm II en 275 H. apporta « *une modification radicale au système monétaire aghlabide* ». L'usage qui courait auparavant dans les transactions commerciales en Ifrîqiya, rappelle-t-il en commentant le texte d'Ibn ᶜIdhârî lorsqu'il parle des « *qitaᶜ* », se fondait sur les paiements en dirhams pesés et non pas comptés. Ainsi, les dirhams étaient « *souvent découpés en petites fractions des demis, des tiers, et des quarts sous prétexte de faciliter les menus achats et les faibles transactions, mais sans que cela soit procédé selon une règle bien définie. Les préjudices de cette pratique,* devenue courante, *entraînèrent ainsi une anarchie dans les négoces* ». L'émir Ibrâhîm II « *voulut alors remédier à cette situation en réglementant les transactions sur une base saine* ». C'est pour ces raisons qu' « *il ordonna alors de frapper des dirhams entiers de bon aloi dont chaque dix dirhams valent un dînâr-or qu'il baptisa al-ᶜushârîya et ordonna de proscrire l'usage des fragments de dirhams. Ce que désapprouvèrent commerçants et boutiquiers puisque cela leur faisait perdre le profit qu'ils tiraient jusque là du fractionnement de la monnaie* ». En dépit de l'ampleur du mouvement de contestation, cette « réforme » monétaire, décidée par l'émir aghlabide, fut « *maintenue et définitivement établie dans le pays* ». C'était là, assure-t-il, une réforme économique importante, puisque désormais « *dînârs et dirhams sont acceptés au compté et non au pesé*»[22].

L'explication avancée par H.-H. Abdul-Wahab à cette « réforme », qui fut suivie plus tard par de nombreux historiens[23], ne semble pas avoir été connue de M. Talbi, qui nous présente à son tour une interprétation des causes de cette « réforme » monétaire largement inspirée de celle avancée par M. Vonderheyden [24]. Dans le long développement qu'il a consacré à cette « réforme monétaire », cet auteur insiste d'abord sur la volonté d'Ibrâhîm II d' « assurer » à ses sujets « *une vie économique saine* »[25] par l'assainissement, entre autre, d'une « *monnaie d'argent fortement compromise* »[26]. À son avènement, rappelle-t-il, « *Ibrâhîm II avait trouvé, malgré la prospérité du royaume, un Trésor à sec vidé par les prodigalités insensées de son prédécesseur. Le déséquilibre des finances de l'Etat ne fut certainement pas sans incidence sur la*

---

[21] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 278.

[22] H.-H. Abdul-Wahab, *Warakat*, p. 432-433, texte reproduit dans *al-Nuqûd al-ᶜArabiya*, p. 25.

[23] M. Chabbi « Muqaddima », p. 18/185 ; Ajjebi (H.), *Jâmiᶜ al-Maskûkat*, p. 23-24 ; S. Ben Qirba, *al-Maskûkât al-Maghribiyya*, p. 236-238 ; M. Rammah, « Observations», p. 9-10. L'auteur de cette dernière étude considère, comme H.-H Abdul-Wahab, qu'eu égard à la rareté de la monnaie d'argent, les usagers coupaient les dirhams en fractions, afin de faciliter les transactions commerciales. Cet état de fait a entraîné, tout naturellement, la circulation de dirham de faible poids, acceptées ou données à l'égale du dirham entier ! entraînant ainsi une anarchie dans les échanges monétaires et favorisant la fragmentation ou la fonte de dirhams. L'inondation du marché par ces dirhams de faible poids perturba les transactions commerciales et entraîna la baisse de leur valeur. Le prince aghlabide voulut alors remédier à toute contestation entre les individus en ordonnant de frapper des dirhams entiers, faisant en sorte que dix dirhams valent un dinar-or, et de proscrire des transactions les fractions de dirhams. Plébéiens et commerçants désapprouvèrent le retrait de dirham de faible poids contre de dirham entier en raison de la perte le profit que cela entraîne.

[24] La publication quasi simultanée des deux travaux –celui de H.-H. Abdul-Wahab, *Warakât*, en 1965 et celui de M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, en 1966, est à l'origine de cette méconnaissance.

[25] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 277.

[26] *Ibid.*, 278

engagée par l'émir aghlabide, avant comme après le déclenchement de la crise, restent donc obscures et ont été par conséquent diversement interprétés. Pour des raisons qui restent donc à élucider, Ibrâhîm II décida en 275/888-9, selon Ibn ᶜIdhârî, d'émettre de nouveaux dirhams entiers (*al-sihâh*) et de proscrire l'usage des fragments de dirhams (*al-qitaᶜ*) dans les transactions commerciales en Ifrîqiya[14].

H. Fournel a été, à notre connaissance, le premier à consacrer quelques lignes à cette révolte, qu'il dénomma la « *Sédition des dirhems* »[15]. En résumant les faits rapportés par Ibn ᶜIdârî, il a expliqué que cette révolte « *prit naissance à l'occasion de ces pièces dont Ibrâhîm avait fait frapper une certaine quantité qui était de bon aloi, mais qu'il avait fait couper en morceaux, probablement pour représenter des fractions de dirhems* »[16]. Devant l'ampleur de la sédition cependant, explique-t-il, Ibrâhîm II finit par céder aux revendications des insurgés et « *depuis lors, il ne fut plus question des fragments de dirhems, qui disparurent de la circulation* »[17]. Il est clair cependant, comme l'a déjà noté M. Vonderheyden au début du siècle dernier, que H. Fournel « *doit faire erreur* » quand il considère « *que c'est Ibrâhîm qui fit couper les dirhems en morceaux, qu'il mit en circulation* »[18]. De son côté, M. Vonderheyden attribua la cause de la « réforme » monétaire de l'émir aghlabide à l'amélioration de « *l'état financier* » de l'Émirat dût, soit au butin de guerre pris aux Tûlûnides, soit aux prélèvements de lourds impôts ou bien à l'abondance nouvelle du métal précieux. Il considère ainsi cette « réforme » comme une mesure visant à assainir une situation monétaire dégradée, par la cessation de la circulation des « *dirhems de mauvais aloi et les fragments de métal* »[19]. Quelques années plus tard, cette explication fut reprise et amplifiée par J. Farrugia de Candia qui attribua au seul butin « *pris par les Aghlabides sur l'armée égyptienne d'Al'Abbâs* », en 267/880, un rôle exclusif dans l'accomplissement de cette « réforme »[20]. Or, comme l'a bien souligné M. Talbi, « *il nous est difficile de voir, dans*

---

[14] Ibn ᶜIdhârî, *al-Bayân*, I, 120.

[15] H. Fournel, *Les Berbères*, p. 571-572 ; voir également R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, II, article *qitᶜa*, p.379 où il précise « En Afrique on semble avoir entendu sous le nom de *qitaᶜ* des pièces de monnaie au-dessous du titre, du poids ».

[16] H. Fournel, *Les Berbères*, p. 571.

[17] H. Fournel, *Les Berbères*, p. 572. Il ajouta, en note 1, que « *ce récit terminé, Ibn 'Adzâî nous apprend qu'Ibrâhîm frappa des dînârs et des dirhems qu'il nomma El-'Achraïah (dixièmes), parce que chaque dirhem était un dixième de dînâr* ».

[18] M. Vonderheyden, *La berbérie*, p. 251.

[19] Il ajouta, en note, que « *cette mesure, excellente et énergétique, lésa des intérêts. La populace de Qairouan, mécontente, ferma les boutiques et se rendit à Raqqâda. Mais Ibrâhîm II fit enfermer ces « braillards » dans la grande mosquée. Cependant son vizir Aboû ᶜAbd-Allah ayant été reçu à coups de pierre, Ibrâhîm alla à cheval à Qaîrouan, avec son chambellan Naçr b. Çamçâma et une troupe de jondis. Il y eut alors une bagarre. Mais un juriste ramena le calme, parcourant avec le vizir les bazars ; tout rentra dans l'ordre. Les dirhems de mauvais aloi et les fragments de métal cessèrent d'avoir cours. Ibrahîm fit frapper des dinars et des dirhems qu'il appela 'asîri, parce que chaque dinar valait 10 dirhams (Bayân, 114, t. 158). Il fit frapper des dirhems justes de poids et décréta que les fragments de dirhems n'auraient plus cours. De même Hajaj, sous 'Abd al Mélik, avait distingué les pièces altérées et celles de bon aloi* ». *Cf* M. Vonderheyden, *La berbérie*, p. 251, note 2.

[20] J. Farrugia de Candia, « Monnaies aghlabites», 1935, p. 274. « *Maître des richesses toûloûnides [Ibrâhîm II] put réaliser en 275 (888 après J.-C.), une importante réforme monétaire, il interdit, de se servir pour les transactions du métal en lingots ou en feuillets, la circulation des dirhems faibles de poids et de bas aloi fut prohibée et l'on frappa des dirhems justes de poids qui furent appelés âchiri parce que chaque dinar valait dix dirhems* » ; voir également M.L. Tarizzo, « Early Arab coins of Tunisia : II, The Aghlabids, 184-296 AH (800-909 A.D.) », *ONSIS*, n° 15 (Nov 1976), p.3.

retourna alors à Raqqâda et fit libérer les prisonniers détenus dans la mosquée »[10]. Ibn ᶜIdhârî ne signale pas de répression à l'égard des émeutiers ou du moins de certains meneurs. L'affaire était conclue sans perte d'hommes et les troubles urbains cessèrent[11]. Ibn ᶜIdhârî ne mentionne le nom d'aucun meneur et semble indiquer qu'il s'agit là d'une « révolte » spontanée. Il n'utilise que des termes généraux pour désigner les révoltés ou plus proprement les émeutiers : il s'agit des « gens » de Kairouan (*'ahl al-Qayrawân*), ou bien les plébéiens (*al-ᶜâmma*). Mais si aucun nom de meneur n'est évoqué, il fait explicitement allusion à une catégorie sociale bien en vue : les commerçants ; qu'ils soient grands ou petits. Ce sont eux qui ont déclenché l'émeute par la fermeture de leurs boutiques. Cette émeute fut cependant baptisée *thawrat al-darâhim* plutôt que révolte des Kairouanais ou bien des commerçants. Par cette appellation, Ibn ᶜIdhârî n'a pas choisi de donner un rôle central aux acteurs, comme ce fut la cas pour d'autres révoltes connues sous la dynastie aghlabide comme la révolte du *jund* ou la révolte de Mansûr b. Nasr, etc., mais à la cause directe de la révolte. Ce qui souligne sans doute son caractère circonscrit et dans le temps et dans l'espace ainsi que son caractère plutôt spontané.

Ibn ᶜIdhârî cite expressément al-Qayrawân[12] et nullement toute l'Ifrîqiya comme certains auteurs semble le privilégier, en dépit du fait que le récit présenté ci-dessus est bien clair sur ce point. À Kairouan le mouvement de soulèvement s'est formé et a été résolu sans franchir les limites de la région kairouanaise. La question de la réforme monétaire a été ainsi débattue au centre du pouvoir et a été résolue à ce niveau sans prendre l'ampleur qu'ont connus les autres mouvements de révoltes qui ont gagné les autres régions de l'Émirat. C'est-ce qui expliquerait, nous semble-t-il, le silence des autres sources historiques sur cet événement.

II - Les causes de l'émeute

Rares sont ceux qui, en étudiant l'histoire de l'Émirat aghlabide, n'ont pas relaté ou signalé les faits évoqués ci-dessus en se fondant sur le récit d'Ibn ᶜIdhârî. Curieusement, cette célèbre émeute reste peu intelligible quand aux causes réelles qui l'ont engendrée et sur les mesures prises pour la résorber. La raison en est que, hormis quelques auteurs, la plupart des historiens modernes se sont contentés de rapporter sans chercher vraiment à expliquer les propos d'Ibn ᶜIdhârî[13]. Il est vrai que dans sa présentation des faits, notre auteur consacre, au tout début de son récit, une brève mention sur la cause de la « révolte » et achève, très brièvement également, son récit en mentionnant les mesures prises par l'émir aghlabide, suite à l'accord conclu avec les insurgés, pour mettre un terme à cette situation de crise. L'essentiel de son récit est donc consacré aux diverses péripéties de la révolte jusqu'à son dénouement. Il est possible que l'auteur n'a pas eu une connaissance exacte de la teneur de la « réforme » monétaire proprement dite et de son réajustement. Plusieurs aspects de la politique monétaire

---

[10] Ibn ᶜIdhârî, *al-Bayân*, p.121.

[11] Ceci grâce, selon H.-H. Abdul-Wahab, *Warakât*, I, p. 432, à la « *sagesse et la pondération* » de l'émir aghlabide, qui, en libérant les détenus, parvint à rassurer les habitants et à calmer les esprits.

[12] H. Fournel, *Berbères*, I, p. 571, note 2, précise que bien que « L'auteur ne dit pas dans quelle ville commença cette sédition, mais la suite du récit ne permet pas de doute que ce fut à K'aïraouan ».

[13] Voir par exemple H. Sauvaire, *Matériaux*, p. 94, qui consacre quelques lignes à cette « *Révolte dite des derhams* », en résumant les propos d'Ibn ᶜIdhârî. « *Ibrahim ebn Ahmad ayant fait frapper les derhams entiers (séhâh) et aboli le cours des fragments (qétaᶜ), le peuple, mécontent de cette mesure, ferma les boutiques et cria contre Ibrâhîm. Ce prince fut obligé de combattre les insurgés* » ; voir également H. Janhani, *al-Maghrib al-Islâmî*, Tunis, 1978, p. 76-77 ; M. Chabbi, « Muqaddima », p. 17-18/185-6.

L'alarme fut alors vite donnée à Kairouan, où l'agitation gagna la foule. Cependant, le désordre ne semble pas avoir régné dans cette ville. C'est à partir de ce moment, qui correspond à la deuxième phase dans le récit de l'émeute, que celle-ci a pris forme. Les habitants de Kairouan *(ahl al-Qayrawân)*, au lieu d'obtempérer choisirent de braver l'autorité de l'Etat en se préparant à défendre leur ville contre une éventuelle attaque militaire. Ils se précipitèrent à la porte de la ville, celle menant à Raqqâda, et commencèrent à mettre en place les mesures défensives par la fermeture de la porte. Les esprits étaient résolument engagés dans un bras de fer avec l'émir. Soulevés contre le pouvoir de l'émir à cause du « sévère châtiment » qu'il avait infligé à leur « délégation », ils scellèrent ainsi leur entente sur le refus des termes de la « réforme » monétaire. Une révolte ou une agitation populaire en somme, mais une révolte urbaine isolée tout de même.

Ce développement inattendu des événements amena Ibrâhîm II à envoyer à Kairouan son vizir Abû ᶜAbd Allâh b. Abî Ishâq, pour apaiser les esprits et résorber la crise. Mais n'ayant pas accompagné cette démarche par un geste de bonne volonté en libérant les détenus, les Kairouanais refusèrent d'emblée toute négociation avec l'émissaire de l'émir, qui fut accueilli par des jets de pierres et une bourrasque d'injures. Il dut alors regagner la ville princière pour rendre compte à son souverain de l'hostilité grandissante des Kairouanais. Ibrâhîm II se montra alors menaçant pour faire face aux troubles qui avaient éclatés dans sa capitale. À la tête d'un fort contingent de son armée, formée à la hâte, et accompagné de son chambellan (*hâjib*) Nasr b. al-Samsâma, il prit la direction de Kairouan. L'affrontement semblait inéluctable. Mais tel n'était pas semble-t-il le désir de l'émir, qui, ayant prit place à l'oratoire en plein air (*al-musalla*), empêcha ses troupes d'entamer les opérations militaires. Il semble bien qu'il ait voulu faire d'abord une démonstration de sa force aux émeutiers tout on se préparant à l'utilisation si nécessaire de la force. Où se trouve ce *musalla* ? Le choix était-il stratégique comme lieu de regroupement des troupes destinées à reprendre la ville aux émeutiers et à les mater ? L'endroit est situé aux environs des remparts de la ville rebelle, qui se trouvait ainsi assiégée. Il indique surtout que les troupes étaient nombreuses, puisqu'il s'agit d'un espace ouvert.

Les révoltés furent-ils alors gagnés par la pondération de l'émir aghlabide à leur égard ou bien se rendirent-ils à l'évidence, des dangers qui les guettaient en cas d'un affrontement direct avec celui-ci. À l'évidence le détachement des troupes était suffisamment important et menaçant pour effrayer les insurgés. Pris de panique les habitants de Kairouan finirent par préférer la voie de la négociation. L'ascète et *faqih* Abû Jaᶜfar Ahmad b. Mughith alla à la rencontre de l'émir au nom des manifestants pour chercher les moyens de dépasser la crise en sauvant la face des deux camps. Le choix par les Kairouanais d'envoyer comme émissaire, non pas un commerçant mais un juriste ascète, sans doute influent, pour s'entretenir avec l'émir afin de le persuader de renoncer à ces mesures est fort significatif[8]. Des pourparlers, dont on aurait aimé à l'instar de M. Talbi, connaître la teneur, s'engagèrent donc entre les deux parties[9]. L'émir avait ainsi fini par accorder une attention aux doléances des insurgés en écoutant attentivement leur émissaire et l'entretien déboucha sur des mesures mutuellement acceptées. C'est à l'issue de cette longue conversation en effet, que *« le vizir Abû ᶜAbd Allâh b. Abî Ishâq put, en compagnie d'Abû Jaᶜfar Ahmad b. Mugit, pénétrer la ville de Kairouan, en remonter la Grande-Rue (simâtahâ), et apaiser la population. Ibrâhîm II*

[8] Une étude en cours de préparation portera sur l'influence des juristes sur la frappe monétaire en Ifrîqiya.
[9] M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 280.

abordera la question du dénouement de cette « révolte » en tentant de déterminer les termes de l'accord conclu entre l'émir et les révoltés pour résorber la crise.

Faut-il le rappeler au seuil de ce travail, que nous avons voulu montrer, en étudiant l'exemple d'une « révolte » supposée être bien connue, combien il est parfois difficile de comprendre certains événements sans croiser les informations recueillies dans les sources textuelles avec d'autres sources, en particulier numismatiques. Notre propos dans ce travail est de proposer, à la lumière de cette approche, une nouvelle interprétation de cet épisode de l'histoire monétaire aghlabide.

I - Le déroulement de l'émeute

En 275/888-9, précise Ibn ᶜIdhârî, Ibrahîm II prit des mesures monétaires, qui provoquèrent immédiatement une émeute ; celle-ci fut appelée[4], selon les propres termes de notre auteur, *thawrat al-darâhim* (la révolte des dirhams). Le récit des faits nous apprend qu'il y a eu, dans un premier temps semble-t-il, à la suite de la mise en application de la « réforme » monétaire décidée par l'émir aghlabide, une réaction de désapprobation de la part des gens du commun (*al-ᶜâma*) de Kairouan. Elle se manifesta par la fermeture des boutiques. Commerçants et boutiquiers furent donc en réalité les premiers à réagir à la « réforme » monétaire et à annoncer à l'émir aghlabide leur mécontentement[5]. « Spontanément »[6] ou bien savamment manipulée par les commerçants, une foule furieuse, vite organisée, adhéra au mouvement de protestation. Certaines personnes, mandatées ou non par les Kairouanais, prirent le chemin de Raqqâda, où résidait l'émir aghlabide, pour lui exprimer de vive voix leur colère et leur opposition à cette « réforme » monétaire. Furent-ils nombreux à se déplacer à Raqqâda ? Selon M. Talbi, « *le nombre des manifestants n'avait pas dû dépasser quelques centaines au départ* »[7]. Il pourrait s'agir même d'un nombre moins important, une sorte de forte délégation composée de quelques dizaines de protestataires. L'émir aurait-il refusé d'emblée de les recevoir ou bien tout simplement, après moult négociations, d'entendre leurs doléances ? Nous ne pouvons le savoir, puisque notre auteur se contente de dire de façon laconique qu'ils se rendirent à Raqqâda où ils huèrent l'émir aghlabide. Ce qui semble être en vérité un raccourci pour évoquer les péripéties du désaccord entre les deux parties.

Tout compte fait, face à l'intransigeance de l'émir refusant leurs doléances, et frustrés sans doute de voir leur démarche infructueuse, ils lui exprimèrent vivement leur protestation en le huant. L'ordre fut alors donné aux forces de sécurité pour réprimer la manifestation en arrêtant et emprisonnant dans la Grande Mosquée de Raqqâda les protestataires. Avait-il choisi de les enfermer dans ce lieu de culte parce qu'il n'existait pas de prisons à Raqqâda ? Où bien est-ce à cause de leur nombre ? Difficile de répondre à ces questions, mais il est plus vraisemblable que l'émir n'a voulut pas être trop sévère en les faisant emprisonner comme de vulgaires bandits et en cherchant tout de même une issue à cette escalade. D'un autre côté, il ne pouvait laisser impunément bafouer son autorité ; le délit était suffisant pour les arrêter.

---

[4] Ibn ᶜIdhârî, *al-Bayân*, I, p. 121.

[5] Ils étaient, selon M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, p. 279, les premières personnes à avoir été touchées dans leurs intérêts par la réforme monétaire et ce « *en raison même de leur négoce, qui emplissait leurs tiroirs de pièces* ».

[6] *Ibid.*, p. 279.

[7] *Ibid.*, p. 280.

À propos de *thawrat al-darahîm* ou la « révolte » des dirhams à Kairouan sous le règne de l'émir aghlabide Ibrâhîm II (275/888-9)

Abdelhamid Fenina
Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis

L'Émirat aghlabide a connu de nombreuses révoltes dont certaines ont failli entraîner sa chute[1]. De ces révoltes à caractère éminemment politique, il ne sera point question ici. Nous nous proposons, dans le cadre de ce travail, de traiter d'une « révolte » singulière qui éclata, vers la fin du règne de la dynastie aghlabide, en raison d'une « réforme » monétaire entreprise par l'émir Ibrâhîm II (261-289/875-902). « Révolte », *a priori* fort bien connue dans l'historiographie de l'Ifrîqiya[2], et dont le récit nous a été rapporté par le seul Ibn ᶜIdhârî (m. 712/1312-3)[3].

Il s'agira, tout d'abord, de présenter les faits rapportés par notre source narrative sur le déroulement de la « révolte ». Chemin faisant, on pourra s'interroger sur la validité de certains renseignements rapportés par Ibn ᶜIdhârî, bien qu'il ait la réputation d'être suffisamment bien informé et fiable. Pourtant cet auteur est un chroniqueur tardif, ayant vécu bien après les faits rapportés puisqu'il rédigea son *al-Bayân* en 706/1306-7, en omettant de nous signaler où il a puisé ses informations. Ensuite on cherchera à comprendre le caractère de la « réforme » monétaire décidée et ses causes, telles qu'elles ont été présentées par nos devanciers et telles que nous l'interprétons. Car si nos connaissances sur les péripéties de cette émeute sont suffisamment connues, la « réforme » proprement dite et ses causes restent encore difficile à discerner. Enfin on

---

[1] Nous connaissons plusieurs révoltes et séditions graves sous les Aghlabides, qui furent le fait de gens de guerre. Voir par exemple M. Talbi, *L'Émirat aghlabide (184-296/800-909). Histoire politique*, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1966, p. 138-159 ; 164-212 ; 219-220.

[2] Sur cette réforme voir H. Fournel, *Les Berbères. Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, vol. I, Paris, 1875, p. 571-2 ; H. Sauvaire, *Matériaux pour servir l'Histoire de la Numismatique et de la métrologie musulmane*, Paris 1882, p. 94 ; M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des benoû 'l-arlab 800-909*, Paris, 1927, p. 251 ; J. Farrugia de Candia, « Monnaies aghlabites du musée du Bardo », *RT*, 23-24, 1935, p. 274 ; G. Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, 1946, rééd. Afrique-Orient, Casablanca, 2003, p. 83-84 ; H.-H. Abdul-Wahab, *Warakat (Feuillets). Etudes sur certains aspects de la civilisation arabe en Ifrikia (Tunisie)*, t. I, Tunis, 1965, p. 432-433, texte reproduit dans *al-Nuqûd al-ᶜArabiya fî Tûnis*, éd. Banque Centrale de Tunisie, Tunis, 1968, p. 25 ; M. Talbi, *L'Émirat aghlabide*, 277-281 ; M. Chabbi, « Muqaddima li-dirâsat nuqûd Ifrîqiya al-ᶜArabiyya », *Africa*, 1966, p. 186-187/17-18 ; H. Janhani, *al-Maghrib al-Islâmî. Al-Hayât al-Iqtisâdiyya w-l-Ijtimâᶜiyya (3-4 H./9-10)*, Tunis, 1978, p. 76-77 ; M. Abu-l-Faraj al- ᶜUsh, *Monnaies aglabides, étudiées en relation avec l'histoire des Aglabides*, I.F.D., Damas, 1982, p. 25 ; Ben Qirba, *al-Maskûkât al-Maghribiyya min al-Fath al-ᶜArabî ilâ Suqûti Dawlat banî Hammâd*, Alger, 1986, p. 236-238 ; H. Ajjebi, *Jâmiᶜ al-Maskûkat al-ᶜArabiya bi-Ifrîqiya*, Tunis, 1988, p. 23-24 ; M. Rammah, « Mulâhadât hawla darb al-sikka bi-l-Qayrawân », *Africa*, XIX, 2002, p. 9-10.

[3] Ibn ᶜIdhârî al-Marrâkushî, *al-Bayân al-Mughrib fî akhbâr al-Andalus wa-l-Maghrib*, éd. G.-S Colin et E. Lévi- Provinçal, vol. I, réimp. Beyrouth, 1983, p. 120-121. Sur cet auteur et son oeuvre voir *EI²*, t. III, p. 628-629 (J. Bosch-Vila).



Fig. 4. Quelques exemples de stucs ornementaux de Sabra al-Mansuriya (a : aigle ; b : motif relevant du style 2 B ; c : bandeau épigraphique).

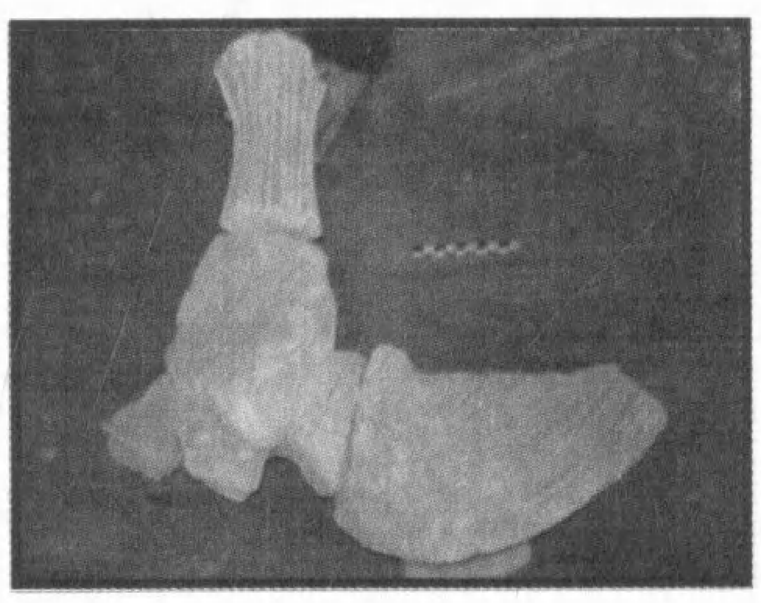


Fig. 4 a.

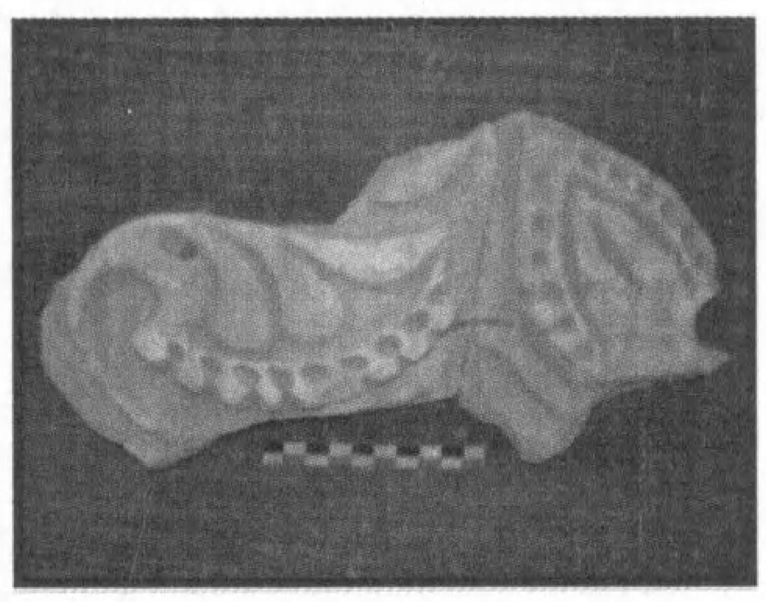


Fig. 4 b.

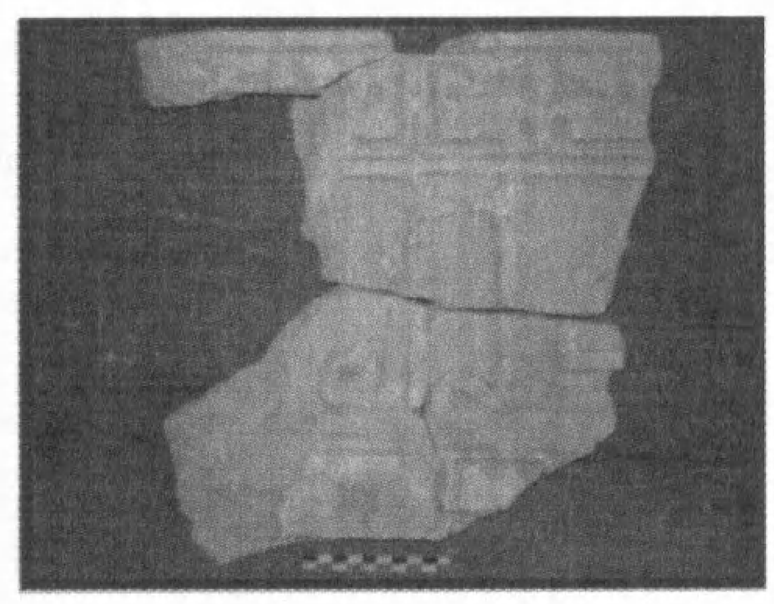


Fig. 4 c.

Fig. 5. Sabra al-Mansuriya. Décor monumental. Fragment de claustra de pierre calcaire



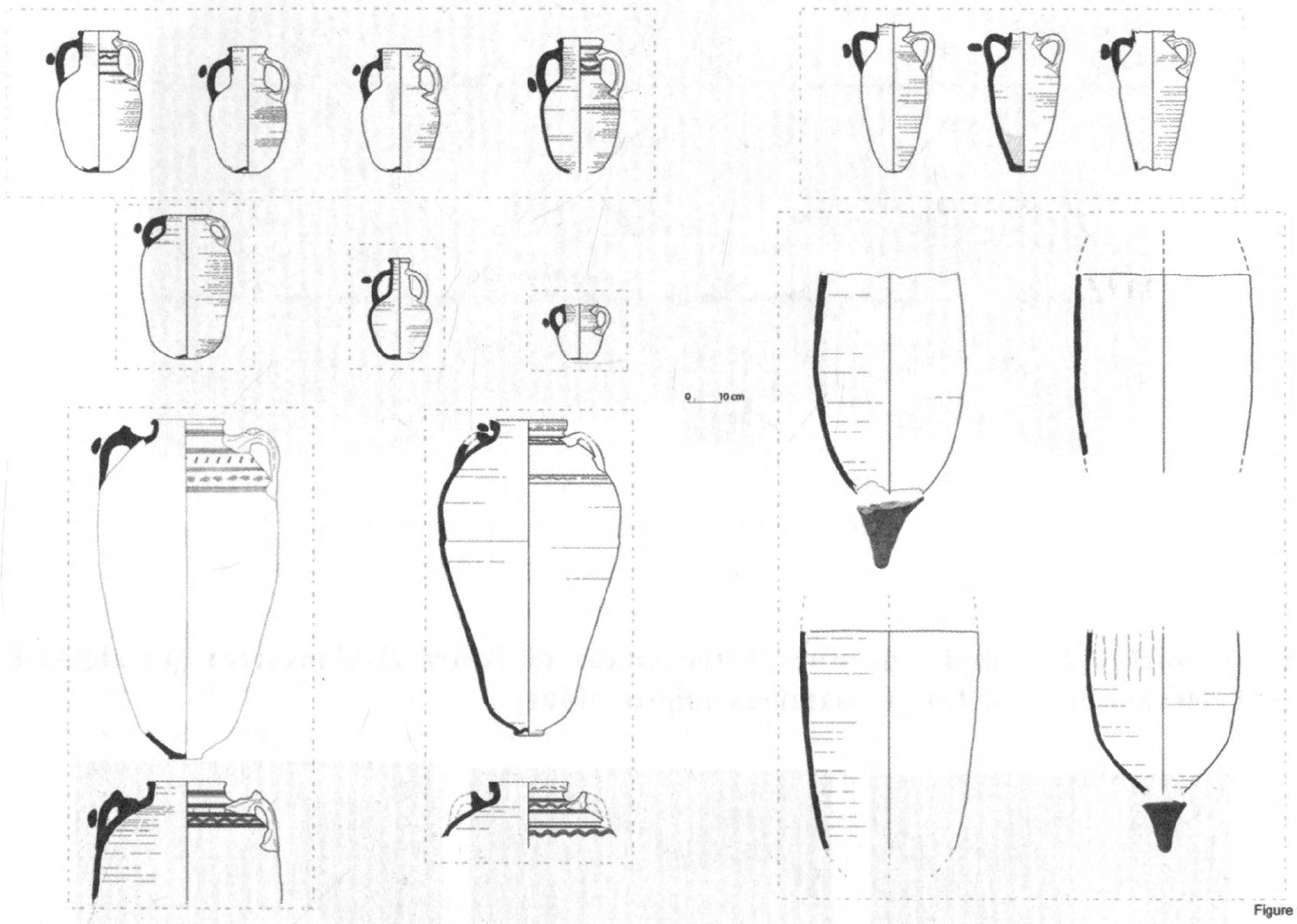
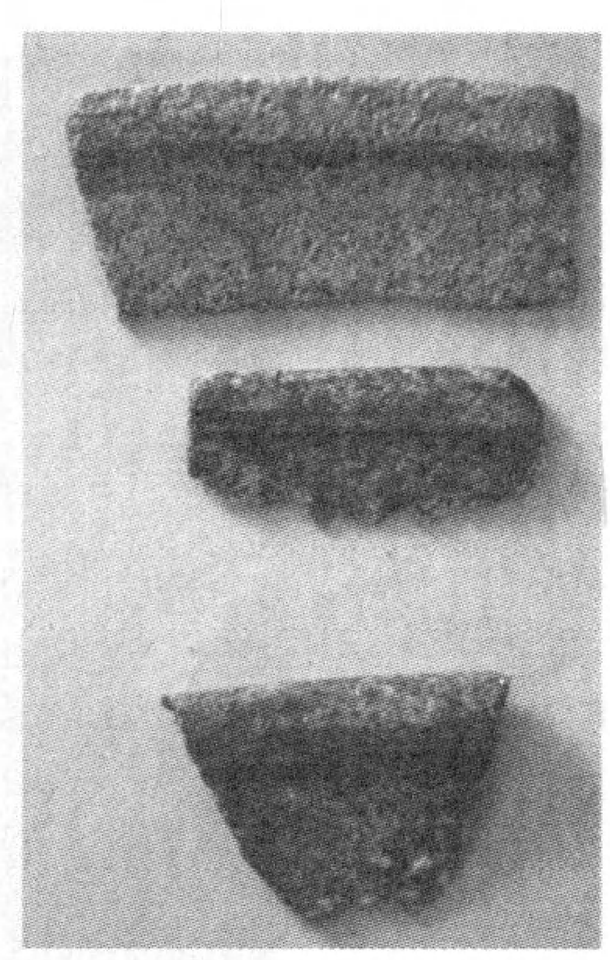


Fig. 3. Production et utilisation du verre à Sabra al-Mansuriya. Les disques (« cives ») entrant dans la fabrication des vitraux à armature de plâtre.



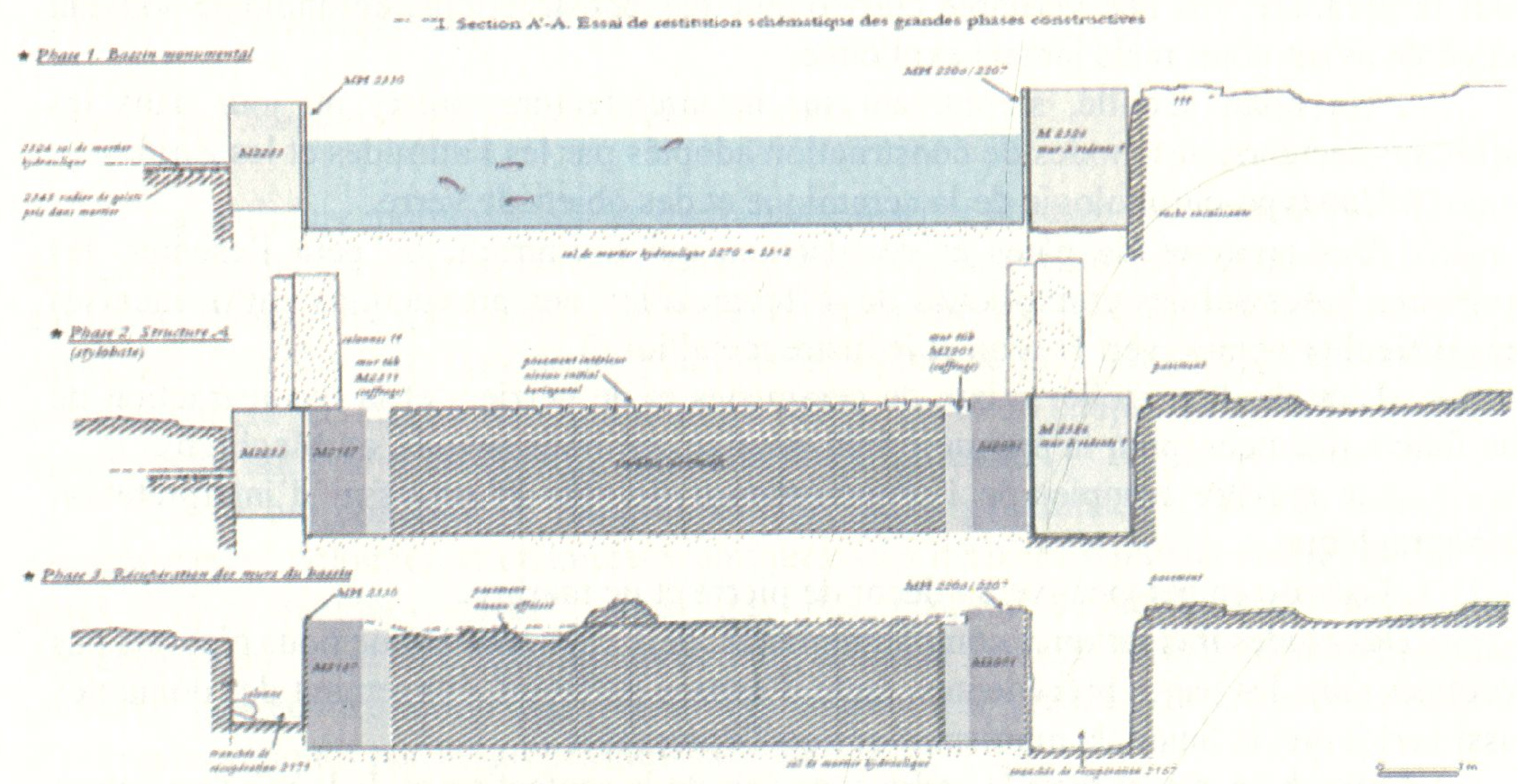


Fragments de cives à rebord ourlé

Si nous parvenons, comme nous l'espérons, à offrir à la communauté des chercheurs cet ensemble de données, à partir desquelles il deviendra possible de tracer une image renouvelée de Sabra al-Mansuriya, nous aurons honoré les engagements pris lors de la mise en train du projet de coopération archéologique tuniso-française brièvement présenté ici.

LEGENDES DES FIGURES

Fig. 1. Évolution schématique (section A-A') de l'édifice palatin « A » du secteur 2 :
Mise en place et utilisation d'un bassin monumental
Abandon du bassin et utilisation de ses murs pour établir un vaste espace carré, peut-être pourvu de péristyle
Abandon, destruction des édifices et récupération des matériaux



haut des murs. Le matériau le plus fréquent est un calcaire coquillier beige rosé provenant des hauteurs proches de Kairouan.

Une constatation surprenante mais indéniable est que, même si on ne peut lui refuser une certaine élégance, cette sculpture est d'une qualité technique et d'une variété d'inspiration très en deçà de celle des décors de stucs qui lui sont contemporains, en régression aussi par rapport aux productions de même nature d'époque aghlabide (palais de Raqqada, grande mosquée et mosquée des Trois Portes à Kairouan). Seule exception significative : la sculpture de chapiteaux en marbre, dont il semble que les formes équilibrées (corinthisants à deux rangs d'acanthe lisse ou à quatre feuilles d'angles)[49] aient été sélectionnées et standardisées sous les Zirides, mais dont la possible genèse sous le califat fatimide nous échappe encore totalement.

EN MANIERE DE CONCLUSION

Au moment de conclure, nous voudrions rappeler en quelques mots ce que nous nous proposons d'apporter au public scientifique, en particulier aux historiens, à l'issue de ce programme, prévue – nous l'avons dit – pour 2007 :

. Une cartographie fine de l'établissement médiéval intégré à un SIG regroupant l'ensemble de l'information topographique relative au site et à son évolution. Cette cartographie inclura l'information fournie par la géophysique, la géomorphologie ainsi qu'une évaluation du rapport risque/protection (au cas où une décision serait finalement prise à ce propos).

. Les données archéologiques relatives à deux grandes zones de fouille offrant pour la première fois une véritable chronologie des constructions, chronologie souvent suggérée avant nous, mais jamais explicitée.

. Un bilan détaillé, s'appuyant sur les architectures mises au jour dans les différents secteurs, des modes de construction adoptés par les Fatimides et les Zirides.

. Une typo-chronologie de la céramique et des objets de verre.

. Des analyses de pâtes et de glaçures qui fourniront, on peut l'espérer, les premières bases solides et explicites de différenciation des productions kairouannaises (en particulier pour le vert et brun et le lustre métallique).

. L'étude d'un atelier mixte de céramistes et de verriers et la reconstruction de son fonctionnement (pour la première fois, pour ce que nous savons, au Maghreb).

. Le registre complet de l'ornementation de stuc et un essai d'interprétation iconographique.

. La mise en perspective du décor de pierre et de marbre.

Des études thématiques complémentaires, déjà engagées et que nous n'avons pas évoquées dans les pages précédentes, faute d'espace suffisant, concernant des domaines aussi variés que la faune, la numismatique ou l'épigraphie[50].

Enfin, bien sûr, et dans le cadre cette fois de la protection et de la mise en valeur du site, ou plutôt de l'information qu'il fournit, la conception d'une salle thématique consacrée à ùabra au musée des arts islamiques de Raqqada, incluant les fac-similés des fours de potiers et une maquette au 1/10^{e} de l'ensemble de l'atelier.

[49] Des exemplaires similaires, remployés dans la grande mosquée de Kairouan, y sont considérés comme « post-byzantins » par N. HARRAZI, *Chapiteaux de la grande mosquée de Kairouan*, Tunis, 1982, t. I, p. 153.155 et p. 197-199.

[50] Dont se sont chargés respectivement N. Aouadi-Abdelajouad (INP, Kairouan), M. Ghodmane (U. de Tunis) et L. Abdelajouad (INP, Kairouan).

Cette vision « en raccourci », telle qu'elle a été diffusée depuis vingt-cinq ans, d'abord dans l'urgence compréhensible de faire connaître une forme d'expression artistique spectaculaire, puis par simple commodité, ne rend compte que très partiellement d'une réalité beaucoup plus complexe et probablement plus riche d'enseignement historique lorsqu'une véritable étude en sera achevée par le groupe de chercheurs qui s'y consacre au sein de notre équipe. Un fait semble se dessiner, dans l'état actuel des observations : ce n'est pas le décor figuré qui a fait l'objet d'une reprise généralisée par recouvrement, et celle-ci ne peut donc pas être expliquée par une quelconque censure esthétique.

Que les stucs en question aient participé au décor d'un édifice directement lié au pouvoir politique ne fait, non plus, guère de doute, ne serait-ce que pour l'iconographie à laquelle recourut l'un des « styles » en présence (scènes de chasse ou de paradis, abondance de certains motifs – l'aigle – et de l'épigraphie, etc.). La question est cependant de savoir où. En effet, il est implicitement admis que cet ensemble spectaculaire provient du palais dégagé à partir des années 1950 au sud-est du site. Or, nous ne sommes pas pleinement assurés, loin s'en faut, que les stucs en proviennent bien. Le lieu de la trouvaille, d'une part, en est assez éloigné. D'autre part, les quelques éléments dont nous sommes certains qu'ils en sont issus, parce qu'ils furent recueillis lors des fouilles anciennes, s'intègrent mal dans les groupes stylistiques définis au sein du lot découvert en 1979.

Nous ne savons pas, enfin, par qui ni pourquoi les décors furent détruits ni surtout réunis ensuite en un même endroit (une fosse dont les fouilleurs ne précisent pas la situation stratigraphique, ce qui nous interdit de savoir quand cela se produisit : avant ou après l'abandon définitif de la ville).

La sculpture monumentale de pierre et de marbre

La sculpture monumentale de pierre et de marbre pose un problème très différent de celui des stucs, ne serait-ce que parce qu'on peut la considérer comme totalement inconnue, même des spécialistes. Seuls deux fragments en furent reproduits, en effet, par S. M. Zbiss[46]. C'est sans doute pourquoi on admet le plus souvent qu'elle avait eu essentiellement recours au remploi, dont par ailleurs seul un chapiteau byzantin de belle facture avait fait l'objet de quelque attention jusqu'à présent[47].

En ce qui concerne le remploi, effectivement généralisé, notons qu'il incluait prioritairement colonnes et chapiteaux antiques (ces derniers datables du III^{e} au VI^{e} s. après J.-C.), quelques bases[48], ainsi que des plaques de revêtement mural. Le démembrement total des édifices après leur abandon interdit bien évidemment toute tentative de reconstruction des règles qui avaient pu présider à cette réutilisation d'éléments antiques par les architectes fatimides.

Quant au corpus de la décoration sculptée élaborée tout exprès, il semble se limiter, sous réserve d'inventaire ici encore, à des claustra massifs, à d'improbables merlons à décor végétal (fig. 5), à des rosettes ou des fleurons incrustés dans d'autres matériaux (mortier ou enduit) ainsi qu'à des frises d'oves ou de rais-de-cœur et des plaques à denticules vraisemblablement fichées perpendiculairement aux précédentes au

---

[46] S. M. ZBISS, « Mahdiya et Sabra Mansouriya : nouveaux documents d'art fatimide d'Occident », *Journal asiatique*, CCXLIV, 1956, p. 79-93 ; voir fig. 8 et 9.

[47] S. M. ZBISS, « La représentation des êtres animés dans le décor musulman d'Ifriqiyah (Tunisie) », *Cahiers des Arts et Techniques d'Afrique du Nord*, 4, 1955, p. 3-14 (voir fig. 37 p. 12).

[48] Retrouvées intactes ou détournées de leur fonction première et transformées en margelles de puits.

constructives et formes architecturales par exemple) ; la présence d'une population d'artisans bien formés ; et la stimulation ou l'encadrement de ceux-ci par le pouvoir politique sans lequel ce type de production, pour partie d'usage courant et pour partie de luxe, n'aurait pu se développer.

Il nous faut nous interroger, aussi, sur la chaîne opératoire suivie par les artisans menant à bien leur activité dans la ville ; à ce propos, la présence tout autour de Sabra d'une abondante végétation, spécifique des terres hyper-salées, dont les cendres pouvaient fournir l'une des matières premières nécessaire à la fabrication du verre, n'est sans doute pas à négliger. En tout état de cause, le four du palais sud-est et les creusets qui y furent utilisés nous fournissent des renseignements sur la durée de vie et le mode de fonctionnement de l'atelier (en particulier dans son articulation avec celui de production céramique dont le four à barres nous a été conservé). Sauf erreur de notre part, aucune étude de ce type n'a encore été entreprise sur ces aspects concrets des pratiques et des techniques artisanales du Maghreb médiéval.

Un mot, enfin, sur la nature du matériel fabriqué dans cet atelier. La reprise du mobilier recueilli dans les fouilles anciennes fait apparaître de plus en plus probable que les artisans y fabriquaient principalement du verre à vitre sous la forme de disques de diverses couleurs, qui étaient utilisés une fois fragmentés dans des claustra de plâtre (fig. 3). Une proportion plus faible de disques de plus petit diamètre, colorés en bleu de cobalt (produit de luxe), étaient employés entiers[44]. Les analyses en cours à l'université de Cardiff permettront de caractériser physiquement ces productions fatimides.

Les stucs

Les stucs[45] – et en particulier les stucs anthropomorphes – de Sabra al-Mansuriya nous semblent un autre exemple de question faussement résolue à propos de la ville califale. On sait que, indépendamment des trouvailles anciennes (par G. Marçais puis S. M. Zbiss), un lot d'importance exceptionnelle fut découvert en 1979 dans le cadre des fouilles menées par B. Chabbouh et M. Terrasse, lot incluant des fragments de décor animé (éléments zoomorphes et anthropomorphes). Certains des décors en présence avaient de toute évidence été recouverts d'une nouvelle ornementation épousant leur forme générale mais occultant les motifs de détail. C'est l'idée d'une possible censure d'un répertoire jugé trop hardi, qui fut retenue à ce propos. Depuis la découverte de ces plus de 2 500 fragments – il est important de rappeler ce chiffre, tant pour l'étendue des surfaces ornées que cela suppose que pour la masse de travail que leur étude rend nécessaire –, une dizaine seulement d'entre eux ont été reproduits, sans beaucoup de commentaires d'ailleurs, dans des catalogues d'exposition ou des ouvrages généraux ; l'échantillonnage ainsi donné à connaître réunit quelques uns des éléments anthropomorphes, et d'autres plus rares relevant d'un seul des styles végétaux en présence (des rinceaux de palmes grêles se développant sur le fond bleu de larges rubans plats ou de gros fleurons) ; ont été exclus des sélections pratiquées un autre au moins des styles recouverts a posteriori (au registre végétal plus varié), tous les éléments de celui correspondant à cette manipulation, toute l'épigraphie, etc. (fig. 4). Il apparaît alors que, dans ce domaine aussi de nos connaissances sur l'architecture de la ville et son ornementation, l'arbre est venu cacher la forêt.

---

[44] Sur ces productions de verre à vitre, voir D. FOY, « Sabra al-Mansûriya : les vitraux de couleur d'une ville califale », *De transparente spéculations. Vitres de l'Antiquité et du Haut Moyen Âge (Occident-Orient)*, Musée-Site d'archéologie de Bavay-Bagacum, Bavay, 2005, p. 141-147.

[45] M. Barrucand (U. de Paris 4) s'est chargée de l'étude des stucs de Sabra avec l'aide de S. Aube et Fl. Ciccotto (U. de Paris 4).

analyse, c'est la possibilité de corréler changements politiques et transformations techniques. Là encore, à la suite de travaux pionniers mais lancés sur des bases documentaires améliorables[40], et malgré une marge de manœuvre méthodologique très étroite, la démarche est prometteuse.

Le verre

Aux premiers blocs de pâte de verre découverts par G. Marçais au début des années 1920[41], succéda la trouvaille fortuite d'objets exceptionnellement bien conservés dont G. Marçais de nouveau et L. Poinssot rendirent compte en détail un peu plus tard[42]. Un four aurait aussi été dégagé au même moment, dont le schéma – fort peu convainquant à vrai dire quant à la fonction réelle d'une telle structure de cuisson – fut publié par ces deux auteurs. Un autre four de verrier, un vrai cette fois, fut mis au jour par S. M. Zbiss lorsqu'il fouilla ce que nous appellerons aujourd'hui par mesure de prudence « le palais sud-est », palais dont le sol de plusieurs salles latérales apparut jonché de fragments vitreux et de charbons, restes de fabrication. Dans les années 1970, enfin, c'est à la périphérie orientale de l'établissement urbain que d'autres traces d'activité artisanale de ce type auraient été mises en évidence, quoique jamais décrites explicitement. Tous ces indices furent suffisants pour, sous la plume de divers auteurs, faire de üabra un grand centre de production verrière. Cette conclusion est aussi la nôtre, mais notre travail d'archéologues est, allant au-delà de cette simple constatation, de l'asseoir sur des bases solides et de répondre à des questions plus nombreuses et – pour certaines d'entre elles – plus complexes (Qui fabrique ? Pourquoi ? Qu'est-ce qui est fabriqué ? Quels sont les procédés employés ? Qui contrôle cette activité économique ? Où celle-ci s'effectue-t-elle ? Et, bien sûr, quand tout cela se produit-il ?)[43].

Pour en revenir, tout d'abord, à l'utilisation, force est de constater que les objets de verre sont extrêmement abondants à Sabra, l'assimilant en cela aux grands établissements urbains contemporains du Moyen-Orient, mais la différenciant aussi tant de sa concurrente occidentale, Madinat al-Zahra', que de l'ensemble des villes médiévales du Maghreb occidental. La plupart des techniques de fabrication et de décoration sont, en tout cas, représentées dans le mobilier récolté (camée, applique, moulage, taille, gravure, peinture, etc.) ; nous en fournirons une image quantifiée dans la publication finale de nos travaux. Une chose est sûre : les objets de verre importés d'Orient et présents en grand nombre proviennent de foyers de production très divers (Perse, Syrie, Égypte).

L'importance donnée à ce matériau dans l'environnement urbain répond vraisemblablement à un faisceau de causes convergentes : le poids évident des traditions orientales (dans l'usage comme dans les formes données aux objets) que l'on retrouve dans divers domaines de la culture matérielle de la ville (certaines techniques

---

Ifriqiya », *VIIIème Congrès International sur la céramique médiévale en Méditerranée, Ciudad Real – Almagro, 27 février – 3 mars 2006*, sous presse.

[40] A. BEN AMRA *et al.*, « Distinction de céramiques glaçurées aghlabides ou fatimides (IXe-Xe siècle, Tunisie) par la mise en évidence de différences de texture au niveau de l'interface glaçure – terre cuite », *Archéosciences*, 29 [Actes du 16ème colloque du groupe des méthodes pluridisciplinaires contribuant à l'archéologie, Saclay, 2005], sous presse.

[41] G. MARÇAIS, « Recherches d'archéologie musulmane en Tunisie », *Bulletin de la Société Française des Fouilles Archéologiques*, 1924, pp. 39-47.

[42] G. MARÇAIS et L. POINSSOT, *Objets kairouannais. IXe au XIIe siècle. Reliure, verrerie, cuivres et bronzes. Bijoux*, Notes et documents XI - fasc. 2, Tunis, 1952 (t. II, p. 371-474).

[43] C'est à quoi s'emploie D. Foy (LAMM – CNRS, Aix-en Provence), responsable de ce secteur de la recherche dans notre programme.

relations entre formes et fonctions et, enfin, de mettre en évidence des importations de denrées jusqu'à présent insoupçonnées[33] (fig. 2).

Les installations potières[34], quant à elles, posent un problème de chronologie : couplées à un atelier de verrier et installées dans une aile de service du palais sud-est, elles sont donc tardives par rapport à la fondation elle-même ; mais de combien ? Elles associent, en tout cas, un grand four à barres, le premier documenté avec précision au Maghreb, à deux petits fours à frite. Il semble qu'on y ait fabriqué une céramique bleu turquoise de bonne qualité, dont on situe l'apparition ailleurs en Tunisie plutôt au XII^e^ siècle[35].

Les premières datations para radio carbone confirment le caractère tardif de l'installation de potiers et de verriers, à l'intérieur d'une fourchette chronologique encore trop large : 1018-1157 J.-C.[36] Impossible donc, sur cette seule information, de préciser si cette activité artisanale put se faire dans la dernière étape de vie de l'ensemble palatin sous contrôle institutionnel encore vigilant, ou s'il se produisit une solution de continuité, auquel cas l'existence d'une telle production « de luxe » aux abords de Kairouan, ville supposée alors ruinée et dévastée, devrait être expliquée. La production de céramique à glaçure bleu turquoise en ressort, en tout cas, vieillie de quelques décennies au moins. Les mesures d'archéomagnétisme en cours[37] sur des échantillons des parois des quatre fours devraient apporter des données nouvelles dans les mois à venir.

Tout semble avoir été dit, déjà, à propos des deux types de céramique de qualité sur lesquels nous avons choisi de centrer notre attention, le vert et le brun d'une part, et le lustre métallique d'autre part. Pour ce dernier, la fabrication en Ifriqiya est affirmée depuis longtemps, sans qu'aucune preuve n'en ait encore été fournie. C'est pourquoi nous avons tenu à systématiser les analyses de pâtes et de glaçures. Les résultats préliminaires, encore inédits, obtenus par Y. Waksman (Laboratoire de Céramologie de Lyon) semblent bien apporter confirmation d'une production locale, coexistant avec des importations orientales[38].

En revanche, si une importation est hors de question pour ce qui concerne le vert et le brun (il n'y a pas de doute que, dans ce domaine et à cette époque, l'Ifriqiya est en avance sur l'Orient), il nous faudra résoudre deux importantes questions ; celle de la différenciation, sur des critères physiques et non plus seulement esthétiques, entre la céramique verte et brune de Sabra et celle de Raqqada, puis de l'une et de l'autre par rapport aux éventuelles productions de Kairouan même[39]. Ce qui est en jeu, en dernière

---

[33] S. GRAGUEB et J.-Ch. TREGLIA, « Les jarres de Sabra al-Mansûriya (Kairouan, Tunisie) », *La céramique du haut Moyen Âge au Maghreb. État des recherches en cours, problèmes et perspectives*, École française de Rome, sous presse.

[34] Recherche menée à bien par J. Thiriot (LAMM – CNRS, Aix-en-Provence) avec l'aide de Y. Ben Kahla (doctorant à l'U. de Tunis).

[35] Sur les premiers résultats de l'étude de l'atelier de production céramique : J. Thiriot, « Les structures de cuisson de l'atelier de potiers du palais de Sabra al-Mansûriya (Kairouan, Tunisie) », *VIIIème Congrès international sur la céramique médiévale en Méditerranée, Ciudad Real – Almagro (Espagne), 27 février – 3 mars 2006*

[36] L'analyse s'est effectué sur des charbons associés à des déchets de production du four de verrier, remployés aux écoinçons du four à barres.

[37] Par G. Mac Intosh, au département de géophysique de l'Universidad Complutense de Madrid.

[38] Cl. Capelli, S. Y. Waksman, R. Cabella, S. Gragueb et J.-Ch. Treglia, « Il contributo delle analisi di laboratorio allo studio delle ceramiche nordafricane: l'esempio di Sabra al-Mansûriya (dati preliminari) », *La céramique du haut Moyen Âge au Maghreb : état des recherches, problèmes et perspectives*, Rome, 3-4 novembre 2006, sous presse.

[39] Une formulation des questions encore en suspens dans P. CRESSIER et M. RAMMAH, « Les fouilles de Sabra al-Mansuriya (Kairouan, 2003-2005) et la question de la production céramique verte et brune en

rendrait-il pas compte d'un processus du même ordre, ou faut-il simplement voir là un changement imposé par les Zirides ? Les datations par radio carbone (896-1018 J.-C. et 902-1020 J.-C.) nous laissent sur ce point dans l'incertitude.

ART ET CULTURE MATERIELLE

On ne s'étonnera pas que soient présentés sous un seul intitulé l'art et la culture matérielle. L'un et l'autre sont, au Moyen Âge, les deux faces d'une même médaille, le premier étant avant tout un art décoratif et, en dernier recours, utilitaire ; cette utilité s'entend au sens large et embrasse, en particulier, la manifestation d'une légitimité idéologique ou la revendication d'une identité politique propre de la part d'une dynastie comme d'un mouvement religieux.

Les productions céramiques

La céramique utilisée et éventuellement produite à Sabra al-Mansuriya est encore une grande inconnue puisque seul un article, utile mais très général, a été publié jusqu'à présent[29], compte non tenu des nombreuses mentions faites dans divers catalogues d'exposition, relatives à un type spécifique, effectivement problématique, le vert et le brun[30]. L'immense majorité du matériel recueilli dans les fouilles des années 1970-80 n'a donc été ni publiée ni même étudiée. Or la céramique constitue, on le sait, le principal outil à l'heure d'établir la chronologie d'une occupation, de définir les caractéristiques de la culture matérielle d'une société, d'évaluer ses capacités techniques, de préciser l'ampleur des réseaux économiques mis en place.

Le renouvellement de l'approche que nous proposons pour Sabra al-Mansuriya repose sur trois piliers : l'établissement d'une typo-chronologie, l'étude de l'organisation et du fonctionnement d'un atelier de production, et celle – selon des perspectives complémentaires allant de l'analyse des pâtes et des glaçures à l'iconographie – de séries ou de types particuliers comme les lustres métalliques ou le vert et le brun[31].

En ce qui concerne le premier point, et bien que le passif des fouilles précédentes soit particulièrement lourd en ce domaine, nous bénéficions de l'expérience de S. Gragueb qui vient d'achever une thèse consacrée aux typologies comparées des céramiques de Raqqada et de Sabra al-Mansuriya[32]. Les résultats de cette recherche, par force globaux puisque sans repères stratigraphiques, pourront être affinés par la prise en considération du matériel de nos propres fouilles. On peut en espérer, au final, une vision assez précise de la céramique utilisée à Sabra aux époques fatimide et ziride. D'ores et déjà, l'étude exhaustive de séries morphologiques concrètes s'est révélée extrêmement fructueuse ; ainsi celle des jarres et des amphores qui a permis de situer ce type de production utilitaire dans l'héritage de l'Antiquité tardive, de préciser les

---

[29] H. AJJABI 1992-93, « Khazaf Sabra al-Mansuriya» [en arabe], *Africa*, XI-XII, pp. 7-81.

[30] Voir parmi de nombreux exemples : M. RAMMAH, La céramique des X^{e}-XI^{e} siècles », *Couleurs de Tunisie. 25 siècles de céramiques*, Paris, 1994, p. 92-94 ; A. DAOULATLI, La production de vert et brun en Tunisie du IX^{e} au XII^{e} siècle. Étude historique et stylistique », *Le vert et le brun, de Kairouan à Avignon. Céramiques du X^{e} au XV^{e} siècle*, Marseille, 1995, p. 69-76 ; A. LOUHICHI, *De Raqqada à Qallaline (900-1900). L'art de vivre en Tunisie à travers la céramique*, Nabeul, 2000.

[31] L'étude est menée par S. Gragueb (INP, Tunis) et J.-Ch. Treglia (LAMM – CNRS, Aix-en-Provence).

[32] S. GRAGUEB, *Recherches sur la céramique de deux cités princières en Tunisie : Raqqada et* Sabra al-Mansuriya, Thèse de doctorat, U. d'Aix-en-Provence, 2006.

était recouvert immédiatement par les premières constructions islamiques. Les éléments sculptés répondent quant à eux au remploi pratiqué, on le sait, par les Fatimides comme par leurs prédécesseurs d'ailleurs, et la très rare céramique sigillée peut être parvenue à l'occasion des mouvements de terre dont il a été constaté qu'ils eurent lieu massivement.

Une occupation partielle de l'espace en époque aghlabide est, en revanche, pleinement confirmée. Elle apparaît comme seule interprétation possible du niveau inférieur de la stratigraphie des constructions mise en évidence au chantier II. Elle est assurée par les datations par radio carbone effectuées sur certains vestiges de brique crue mis au jour dans le cadre de l'exploration géomorphologique en périphérie de la citée palatine (S 8, massif 8050 : 695-899 J.-C.).

Beaucoup plus problématique est la question de savoir ce que devient la ville après le désastre hilalien, ce que fut Sabra en somme après Sabra al-Mansuriya, phase dans laquelle devraient s'inscrire les activités artisanales pratiquées dans le palais sud-est et à laquelle appartiennent les niveaux supérieurs (et pas seulement ceux liés à la « clochardisation » de l'établissement) de plusieurs des zones explorées. Attendons donc, pour plus de prudence, que soient complétées ces datations absolues, en gardant en mémoire, cependant, qu'un certain nombre d'indices tendent à retarder l'abandon de toute vie urbaine. La fourchette chronologique apportée par les analyses de radio carbone pour la « ruralisation » des habitats qui se produit alors (1018-1161 J.-C.) est évidemment trop large et doit être limitée à la phase post abandon de la ville (1057-1161 J.-C.).

Mais, s'agissant de la durée d'occupation, ce que la fouille a mis en évidence de façon éclatante, c'est le nombre et l'ampleur des transformations architecturales et urbanistiques. Jusqu'à présent c'était surtout l'image du palais sud-est qui s'était imposée, selon laquelle l'édifice avait maintenu jusqu'au bout sa structure d'origine et avait plutôt fait l'objet de réparations et de réaménagements ponctuels (surélévation des sols, réfection des enduits, etc.). Seul un sondage effectué par nos prédécesseurs, mais non interprété dans le détail, laissait entendre la possibilité que se soient produits aussi des changements fonctionnels[27]. Les deux grands chantiers que nous avons ouverts nous ont permis de découvrir une réalité plus complexe encore.

Le secteur III a montré tout d'abord que, dans une zone de la ville palatine qui dut maintenir sa fonction (principalement hydraulique ?) au cours de son évolution, les pavements des édifices furent surélevés au moins quatre fois de suite avec un surhaussement par remblaiement parfois important – et donc une forte mobilisation de moyens – la différence de niveau pouvant atteindre au total plus de 1,50 m[28].

Au secteur II, la réalité est plus spectaculaire encore puisqu'un grand bassin de béton une fois désaffecté avait servi à l'implantation d'un ensemble architectural monumental, lui-même remanié ultérieurement, puis réoccupé par des installations légères liées à la phase de destruction (fig. 1). Un tel changement radical dans la structure même de l'espace urbain (palatin ?) était inattendu ; il montre bien que, en aucun cas et quelle qu'ait été l'importance des bâtiments initiaux, les princes fatimides n'hésitèrent à en reprendre totalement la configuration. De tels bouleversements ont été documentés à Madinat al-Zahra' non pas à la suite d'une évolution longue dans le temps, mais par la volonté même du calife 'Abd al-Rahman III qui y voyait la possibilité de manifester dans l'urbanisme la rupture idéologique et politique qu'il introduisait dans son propre mode de gouverner. Dans quelle mesure le chantier II ne

[27] M. TERRASSE, *op. cit.*, p. 592 ; B. CHABBOUH et M. TERRASSE, *op. cit.*, p. 27-28.
[28] Mènent les travaux sur le secteur III : L. et N. Abdeljaouad (INP, Kairouan), T. Khechine (INP, Sousse) et J. de Juan (Madrid).

Les modes de construction

On a souvent dit que Sabra al-Mansuriya avait été bâtie de terre et plus précisément de briques crues (*tub*). L'importance du rôle tenu par ce matériau est indéniable : il est probablement le seul qui ait été utilisé pour la construction de la muraille et son usage est pratiquement exclusif dans l'architecture du palais sud-est. Nous n'avons, en revanche, pas documenté pour l'instant l'usage de la *tabiya*, quoique la présence de tels vestiges ait été commentée par d'autres fouilleurs. Un autre mode d'utilisation de la terre, mettant en jeu des volumes considérables, est l'épandage de lits successifs pour former d'épais massifs servant de base à des constructions plus légères ou dans lesquels viennent s'appuyer ou s'encastrer les grands bassins-réservoirs (flanc ouest du grand bassin rectangulaire, nord-ouest du secteur II, etc.).

Mais il est un autre matériau omniprésent : la brique cuite. Si, aujourd'hui, on ne la retrouve que ponctuellement c'est qu'elle fut intensivement récupérée au cours des siècles, à tel point que la plupart des murs dans la construction desquels elle intervenait n'apparaissent plus que sous la forme de tranchées, en négatif donc.

La pierre, enfin, qui avait été déclarée absente, était beaucoup plus abondante qu'on ne l'avait pensé. Sous réserve d'inventaire, la principale forme d'emploi documentée à ce jour n'est pas le grand appareil ni même la simple maçonnerie, comme à Mahdiya ; les moellons sont plutôt intégrés à un béton massif, riche en cendre, coulé parfois en coffrage perdu. Nous ne savons pas si ce mode constructif était réservé aux substructions des bâtiments principaux ou s'il était étendu aux élévations.

Enfin, le mode de couverture des édifices nous échappe en grande partie. L'existence de voûtes à armatures de tubes céramiques est vraisemblable, mais le nombre de ces pièces recueillies en fouille reste faible, ce qui pourrait impliquer la coexistence de deux types de toitures : des terrasses comme c'est encore l'usage dans la vieille ville de Kairouan et, plus exceptionnellement, des voûtes.

Questions de chronologie

Sur la chronologie de l'occupation de Sabra al-Mansuriya, nous ne pouvons encore proposer que les résultats préliminaires d'un premier train d'analyses au carbone 14[24]. Trois questions étaient prioritaires : la possibilité qu'ait existé en cet endroit un établissement romain ou tardo-romain ainsi que le tenaient pour acquis divers archéologues antiquisants[25] ; l'hypothétique présence aghlabide suggérée par M. Terrasse dans un texte inédit[26] ; la prolongation de la vie urbaine au-delà des destructions auxquelles se seraient livrés les Banu Hilal, prolongation à propos de laquelle les historiens des textes se sont toujours montrés réticents.

Quant au premier point, le doute n'est plus permis : Sabra ne fut jamais un établissement antique. Partout, en effet, où le sol vierge fut atteint par les sondages, il

[24] L'ensemble des datations obtenues à ce jour a été pratiqué au Centre de Datation par le Radio Carbone (Université Claude Bernard – Lyon 2). Ces résultats préliminaires ont fait l'objet d'un commentaire plus détaillé dans la dernière chronique de fouille : P. CRESSIER et M. RAMMAH, « Sabra al-Mansûriya (Kairouan, Tunisie) : résultats préliminaires des datations par radio carbone », *Mélanges de l'École Française de Rome. Moyen Âge*, sous presse.

[25] Par exemple : A. M'CHAREK, « De Zarma à Kairouan : la Thusca et la Gamonia », *Frontières et limites géographiques. Hommage à P. Salama*, Cl. LEPELLEY et X. DUPUIS éd., Paris, 1999, p. 139-183.

[26] B. CHABBOUH et M. TERRASSE, *Introduction à la connaissance de... Un site de Kairouan. Al-Mansouriya – Sabra*, Tunis – Paris, inédit, p. 31.

de visiteurs, même en tenant compte des spécificités du cérémonial fatimide. Ce qu'il est possible d'admettre, en revanche, c'est que ce vaste bâtiment (86 m x 22 m environ) est bien une fondation fatimide de première époque ; nous avons pu montrer, en effet, qu'il fut établi directement sur le sol vierge. L'autre certitude est que, s'il n'a pas été prévu pour un usage « public » du calife, il peut l'avoir été soit pour son usage privé, soit pour celui d'un personnage de son entourage immédiat ; rappelons par exemple que, selon al-Da'i Idris, al-Mansur s'installa « en compagnie de son héritier [...] et de ses apôtres et de tous les autres membres de sa famille et sa progéniture »[19].

Une partie du décor retrouvé par S. M. Zbiss, en particulier les grands disques de céramique verte et brune, est de toute évidence à mettre en relation avec le pouvoir politique lui-même à en juger par le répertoire iconographique (des scènes de guerre, bordées de frises d'aigles aux ailes déployées).

Peut-on aller plus avant et proposer une identification de ce palais avec l'un de ceux qui sont évoqués par les auteurs médiévaux ? La tentation est grande et d'autres avant nous y ont succombé[20]. Pourtant, là encore, il nous faut rester très prudents. Dans le cas de Madinat al-Zahra', où l'état de conservation des vestiges et les connaissances archéologiques que l'on a de ceux-ci sont infiniment supérieurs à ce qu'il en est pour Sabra al-Mansuriya, il a été montré combien était risquée toute spéculation à ce propos[21]. Les descriptions textuelles sont, d'ordinaire, fragmentaires et imprécises tant sur leur localisation exacte dans la ville que sur la disposition des édifices les uns par rapport aux autres. Les cas sont nombreux en particulier où l'on ne peut savoir si une mention se réfère à un complexe palatin dans son entier ou à l'une des salles monumentales le constituant.

À Sabra al-Mansuriya, il a souvent été considéré que le palais sud-est pouvait être, du fait de son apparente association au grand bassin rectangulaire s'étendant au nord-ouest, le Dar al-Bahr des descriptions médiévales. Cependant, ces dernières ne nous précisent ni les dimensions ni les proportions de la pièce d'eau qui donne son nom à l'ensemble princier, et la disposition même des bâtiments par rapport au bassin est ambiguë (devant ? au centre ?). Chacun des trois bassins-réservoirs localisés par M. Solignac aurait bien pu faire l'affaire[22]. À ceux-là d'ailleurs, vient s'ajouter celui dont nous n'avons pas encore délimité l'extension et qui, après qu'il fut désaffecté, constitua la base d'un imposant complexe monumental d'interprétation délicate.

Il est encore trop tôt, à ce propos, pour fournir une interprétation des vestiges que nos fouilles (celles du secteur II) viennent de mettre au jour et seul l'avenir pourra nous confirmer si le vaste espace (8 m x 8 m), peut-être à ciel ouvert et doté d'un portique périphérique, fit bien partie d'un ensemble palatin[23]. Celui-ci serait alors, notons-le, par sa morphologie, bien différent du palais sud-est qui a centré l'attention jusqu'à aujourd'hui.

---

[19] Al-Da'i Idris, *op. cit.*, p. 489.

[20] Ainsi M. SOLIGNAC, *op. cit.*

[21] A. VALLEJO TRIANO, Madinat al-Zahra'*: arqueología de su arquitectura*, Thèse de Doctorat, Universidad de Jaén, Jaén, 2003.

[22] Seuls deux ont été confirmés par l'observation archéologique (le bassin rectangulaire auquel nous venons de faire allusion et dont la réalité fut prouvée dès 1973 par plusieurs sondages, et le cratère circulaire proche du sondage III, dont l'équipe précédente niait la fonction hydraulique et dont nous avons prouvé d'une part que celle-ci était bien réelle et, d'autre part, que la forme de la structure était en fait quadrangulaire).

[23] Plusieurs archéologues ont mis en commun leurs compétences durant une ou plusieurs campagnes sur le chantier II : A. Bagnera (U. de Trieste), A. Bouazizi (INP, Gafsa), S. Gilotte (U. de Paris 4), A. Nef (U. de Paris 4), E. Rouger (INRAP, Nancy), J.-P. Van Staëvel (U. de Paris 4) ; ils ont été secondés efficacement par des doctorants français et tunisiens : V. Buccio et N. Clément (U. de Lyon 2), A. Hilali, L. Jebri, J. Souid et Ch. Touihri (U. de Tunis).

par la localisation au nord-est du site d'un tronçon de la muraille urbaine édifiée en brique crue (*tub*), identique à celui mis au jour à quelques mètres en arrière du palais sud-est.

Mais alors à quoi rattacher l'anomalie circulaire si nette sur les photographies aériennes ? Si l'on prend en compte le fait qu'elle enserre ce même palais sud-est, les fameuses « colonnes de sang »[17] et deux des bassins-réservoirs monumentaux, on ne peut l'interpréter que comme la zone proprement palatine de la cité, tout à la fois résidence du calife et de son entourage le plus proche et centre de commandement politique. On remarquera que la position excentrée de cette « *qasaba* » se retrouve dans un contexte similaire à Madinat al-Zahra', ville qui partage d'ailleurs avec Sabra al-Mansuriya une autre caractéristique, celle de la superficie urbanisée qui est dans les deux cas de 111 ha. « Coïncidence » d'autant plus étonnante que nous avons affaire à deux morphologies bien distinctes : à la forme quadrangulaire de la capitale omeyyade d'Occident, lointaine héritière des modèles syriens, s'oppose celle circulaire ou ovalisée de la capitale fatimide d'Ifriqiya, dans la lignée peut-être des centres urbains orientaux (au premier rang desquels figurerait alors Bagdad). Différence majeure, mais logique, somme toute, dans le contexte politique du moment et en fonction des références revendiquées par les dynasties considérées.

Grâce à l'approche géomorphologique et aux prospections géophysiques, nous sommes en mesure d'apporter encore deux précisions supplémentaires. C'est en limite nord de l'enceinte interne « palatine », tout d'abord, qu'avait été canalisé le cours des éventuels écoulements des crues des oueds environnants, ce qui pourrait avoir établi ainsi un ruban vide de constructions entre la ville du peuple et la cité de commandement. La seconde constatation est que la morphologie courbe des enceintes ne semble pas s'être imposée à la structure urbaine des espaces ainsi délimités. Il se manifeste, en effet, une réelle cohérence entre les orientations très constantes des anomalies géophysiques révélées par les prospections magnétiques et électriques, et celles, générales, des murs repérés en fouille. Sous réserve d'inventaire, la trame urbaine aurait donc été plutôt orthogonale que radiale.

Le(s) palais du calife

La question de l'identification et de la définition architectonique des lieux de pouvoir est évidemment essentielle à l'heure d'étudier un établissement comme Sabra al-Mansuriya. La découverte, au début des années 1950, du grand édifice sud-est généra l'illusion plus ou moins explicite que l'on tenait là le palais califal même si les fouilleurs successifs eux-mêmes étaient restés d'une grande prudence dans leur interprétation. Au niveau actuel de notre analyse, le complexe palatin exhumé par S. M. Zbiss puis M. Terrasse est peut-être *un* palais califal, il n'est vraisemblablement pas *le* palais du calife, celui où ce dernier exerçait ses fonctions de représentation politique et cela pour deux raisons principales : tout d'abord parce qu'il est situé en périphérie de l'établissement, à quelques mètres de la muraille, alors que diverses sources médiévales le localisent expressément « au centre de la ville comme à Madinat Salam »[18] ; ensuite parce que les dimensions de ses salles nobles (11,70 m x 4,63 m, soit 54 m^2 environ, pour la plus vaste) les rendent inaptes à accueillir un nombre un tant soit peu important

[17] Ces colonnes de cipolin de grand diamètre (1,12 m) sont mentionnées par les visiteurs dès le premier quart du XVIII^e siècle. On admet généralement qu'elles étaient situées à l'une des portes de la ville ou à l'*iwan* principal de l'un des palais.

[18] AL-MUQADDASI, *op. cit.*, p. 17.

pouvoir fatimide ainsi consolidé : la réconciliation avec la vieille métropole spirituelle et intellectuelle de Kairouan, et avec ses élites, ainsi que, probablement plus encore, la volonté d'établir un contrôle étroit sur les activités politiques et économiques de celle-ci. De fait, il semble que, très vite, les *suq*-s et les installations artisanales de Kairouan aient été transférés à Sabra [12].

al-Mansur mort peu de temps après, en 953 J.-C., c'est très certainement son fils, al-Mu'izz, qui conféra son visage à la cité nouvelle dont les auteurs arabes, inféodés ou non au régime, ont vanté la splendeur. Cette même année 953, selon al-Qadhi al-Nu'man, fut achevée la grande mosquée. C'est al-Mu'izz encore qui paracheva les projets hydrauliques de son père et restaura, en 959/960 J.-C., l'aqueduc acheminant l'eau des montagnes proches jusqu'à Kairouan, en le détournant par Sabra, soulignant une fois de plus la prééminence accordée à la ville sur sa voisine[13].

Le départ définitif du calife pour Le Caire nouvellement fondé, n'eut pas de conséquence immédiate sur le développement urbain ni sur la prospérité de la ville placée sous le contrôle des gouverneurs zirides. C'est le rejet de la foi et de l'idéologie chiites par ces derniers qui annonça la fin de la cité sous les coups des envahisseurs hilaliens envoyés en représailles par les Fatimides. L'abandon de Sabra al-Mansuriya par les Zirides (alors qu'ils en ont, cinq ans avant, renforcé les fortifications et relié celles-ci au rempart de Kairouan par deux longs murs parallèles) est effective en 1057.

La ville n'est sans doute plus qu'un champ de ruines qui sera exploité au cours des siècles suivants comme carrière de matériaux pour la reconstruction de Kairouan.

URBANISME ET ARCHITECTURE

La ville ronde ?

Un des nombreux lieux communs relatifs à la ville de Sabra al-Mansuriya est celui de sa morphologie circulaire : « Sabra est arrondie comme une coupe et n'a pas sa pareille », nous dit al-Muqaddasi[14]. Bien qu'il soit le seul auteur médiéval à avoir relevé cette caractéristique – le fait mérite d'être souligné –, son observation a fortement marqué l'imagination des commentateurs modernes. Les premières études du site intégrant la télédétection (en l'occurrence l'analyse de clichés aériens verticaux antérieurs à l'occultation par l'urbanisation moderne croissante) semblèrent donner raison à al-Muqaddasi puisqu'une anomalie circulaire enserrant le palais fouillé peu de temps après par S. M. Zbiss y apparaissait clairement, anomalie que M. Solignac identifia trop rapidement avec la fondation fatimide dans sa totalité[15].

À l'examen des mêmes documents, M. Terrasse montra, il y a une vingtaine d'années – et ce résultat a été repris après lui par divers chercheurs[16] – que cette interprétation était réductrice et que la ville était sensiblement plus vaste, affectant plutôt une forme ellipsoïdale débordant largement vers le nord, pratiquement au contact avec la grande nécropole médiévale et moderne de Kairouan. Les axes de cette ellipse mesurent respectivement 1 350 m et 1 050 m. Ce tracé fut d'ailleurs confirmé en 1979

[12] AL-BAKRI, *Description de l'Afrique septentrionale par Abou-Obeid-El-Bekri*, éd. et trad. MAC GUKIN DE SLANE, Paris, 1965 (p. 58).
[13] M. SOLIGNAC, *Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VII^e au XI^e siècle (J.-C.)*, Alger, 1953, p. 257.
[14] AL MUQADDASI, *op. cit.*, p. 17.
[15] SOLIGNAC *op. cit.*
[16] Ainsi F. MAFOUDH, *Architecture et urbanisme en Ifrikiya médiévale*, Tunis, 2003 ; ou encore N. DJELLOUL, *op. cit.*

microtopographie[5] et – pour la reconstruction du paysage naturel passé – la géomorphologie[6], ne compense qu'en partie cette lourdeur. La géophysique est fortement perturbée, qui plus est, par les rejets de déchets en superficie du site tout au long des dernières décennies. Le second handicap, la croissance urbaine actuelle, tend à donner à notre travail le caractère de fouille d'urgence, évidemment incompatible avec une gestion sérieuse de l'information archéologique dans les conditions d'organisation matérielle qui sont les nôtres.

Le fil conducteur de cette présentation sera la confrontation entre les idées reçues ou plus simplement les résultats supposés acquis, d'une part, et les informations apportées par nos travaux et donc la confirmation – ou bien, au contraire, le renouvellement des interprétations –, d'autre part. Après un très bref rappel historique, nous avons choisi de limiter l'exposé aux champs thématiques pour lesquels l'archéologie contribue le plus franchement à renouveler nos connaissances sur Sabra al-Mansuriya, trente ans après la dernière communication à l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres relative à ce site prestigieux[7].

UNE FONDATION LIEE A L'AFFIRMATION DEFINITIVE DE LA DYNASTIE

Il n'est nullement question de dresser ici un panorama complet de l'histoire de Sabra al-Mansuriya, telle qu'elle nous est transmise par les sources médiévales. Le dossier de ces textes est volumineux et disparate, tant par la nature même de ceux-ci (ouvrages de géographie, de jurisprudence, etc.) que pour le type de relation ayant existé entre leurs auteurs et l'idéologie fatimide ; il devra être repris de façon globale[8] et fera l'objet d'un développement critique dans la publication finale de nos travaux. Nous souhaitons nous limiter ici à rappeler brièvement les quelques jalons chronologiques définissant le cadre à l'intérieur duquel se portera notre réflexion[9].

C'est en 946 J.-C., après avoir remporté une bataille dans les faubourgs de Kairouan, sur les rebelles kharidjites de « l'Homme à l'Âne », Abu Yazid, qu'al-Mansur décida de fonder en ces lieux sa capitale. Au toponyme initial, « sulb al-jamal » (« la bosse de chameau »), se substitua celui de « Sabra » en souvenir de la patience dont avaient fait preuve ses partisans[10]. La muraille, élevée dès 947, demeura quelque temps la seule construction jusqu'à la victoire définitive du calife sur les rebelles. Les palais furent ensuite édifiés et al-Mansur en prit possession au début de 948 J.-C.[11]. Du point de vue politique, la fondation de la ville marquait une double volonté de la part du

---

[5] Par E. Donato (U. de Calabria) assisté de A. Brusco.

[6] Par Ch. Petit (U. de Bourgogne), avec la collaboration de F. Vannier-Petit et de M. Taamalah (U. de Kairouan).

[7] M. TERRASSE, « Recherches archéologiques d'époque islamique en Afrique du Nord », *Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Comptes rendus des séances de l'année 1976. Novembre-Décembre*, Paris, 1977, p. 590-611.

[8] Suivant le chemin initié par d'autres auteurs, ainsi H. HALM, « Nachrichten zu Bauten der Aglabiden und Fatimiden in Libyen und Tunesien », *Die Welt des Orients*, XXIII, 1992, p. 130-157.

[9] On trouvera d'ores et déjà une information complémentaire dans H. HALM, *op. cit.*, p. 150-155 ; P. CRESSIER et M. RAMMAH, « Sabra al-Mansuriya : une autre ville califale », *Cuadernos de* Madinat al-Zahra', 5, 2004, p. 241-255 ; et dans une moindre mesure N. DJELLOUL, « Les capitales fatimides », *Byzacium antique et Sahil médiéval : urbanisme et occupation du sol*, éd. M. HASSEN, Tunis, 2005, p. 129-179.

[10] IBN HAMMAD, *Histoire des Rois 'Obaïdites (Les Califes fatimides)*, éd. et trad. M. VONDERHEYDEN, Alger – Paris, 1927 (p. 41) ; AL -MUQADDASi, *Description de l'Occident musulman au IVe=Xe siècle*, texte arabe et trad. française Ch. PELLAT, Alger, 1950 (p. 17) ; AL -QUADHI al-No'man, *Kitab al-Majalis wa-l-Musayarat*, , Tunis, 1978, p. 23.

[11] Al-Da'i Idris, *'Uyun al-Akhbar*, texte établi et annoté par M. YALOUI, Beyrouth, 1985, p. 469.

Sabra al-Mansuriya. Une nouvelle approche archéologique[1]

Patrice Cressier – UMR 5648 CNRS, Lyon
Mourad Rammah –I.N.P., Kairouan

En avril 2003, après une parenthèse de près de vingt ans, les activités archéologiques ont repris sur le site prestigieux mais aujourd'hui fortement dégradé de Sabra al-Mansuriya, seconde capitale conçue et bâtie par les califes fatimides. Le programme franco-tunisien de coopération archéologique nouvellement mis en place[2], planifié sur cinq ans, s'est donné pour buts principaux la reconstitution des grandes lignes de l'organisation urbaine et de l'architecture palatine et domestique de cette cité califale ainsi que la définition de sa culture matérielle. Tout ceci s'insérant, bien sûr, dans le cadre d'une réflexion globale sur les caractéristiques et le mode de fonctionnement de la ville de gouvernement dans le monde islamique puisque Sabra al-Mansuriya prend place dans une longue chaîne comptant, parmi tant d'autres maillons, Bagdad et Samarra en Orient, Le Caire en Égypte, 'Abbasaya, Raqqada et Mahdiya en Ifriqiya ou Madinat al-Zahra' en al-Andalus. La tâche qui nous a été confiée par les institutions soutenant le projet incluait la reprise de l'étude du matériel recueilli lors des fouilles réalisées dans les années 1970-80, et jamais encore publié. La mise en place d'une approche pluridisciplinaire s'imposait donc d'autant plus, tant en amont des travaux de terrain proprement dit qu'en parallèle avec eux[3].

À Sabra al-Mansuriya, cette intervention proprement archéologique se heurte, de plus, à deux handicaps majeurs tous deux liés à l'évolution de l'établissement après son abandon, chacun cependant attaché à une échelle de temps distincte. Le premier se situe sur la longue durée (presque dix siècles) ; il s'agit de l'exploitation des ruines comme carrière pour l'approvisionnement des chantiers de construction de Kairouan en matériaux nobles et moins nobles. L'autre est d'apparition plus récente (une cinquantaine d'années à peine), c'est la croissance urbanistique galopante des quartiers périphériques de cette dernière. L'un et l'autre handicaps auront des conséquences directes sur la méthodologie adoptée. Le premier impose, tout d'abord, la fouille en aire ouverte aux dépens des sondages tels qu'ils avaient été pratiqués auparavant augmentant ainsi à l'infini les risques de fragmentation de l'information. L'état des vestiges, quant à lui, rend la progression de cette fouille particulièrement difficile et lente. Le recours à des méthodes d'approche plus globales, comme les prospections géophysiques[4], la

---

[1] Cette contribution reprend les termes de notre communication « Les fouilles de Sabra al-Mansuriya (Kairouan) », présentée devant l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres lors de la *Journée d'études nord africaines (3ème réunion AIBL-SEMPAM). L'habitat dans l'Afrique du Nord antique et médiévale. Architecture et urbanisme, aspects financiers, juridiques et sociaux* (Paris, 24 mars 2006).

[2] Les institutions parties prenantes dans ce projet et qui en assurent le soutien scientifique et financier sont, pour la Tunisie, l'Institut National du Patrimoine et, pour la France, l'École française de Rome, la Casa de Velázquez, les UMR 5648 (Lyon) et 6572 (Aix-en-Provence) du CNRS, ainsi que l'Université de Paris 4-Sorbonne.

[3] Les travaux ont été placés sous la direction des auteurs de cette note.

[4] Les prospections géophysiques ont été menées à bien par N. Florsch (U. de Paris VI) puis par M. Llubes (U. de Toulouse), avec les collaborations successives de N. Romdhane (ENIT, Tunis), F. Rejiba (U. de Paris VI) et L. Longuevergne (U. de Paris VI).

Sources et Bibliographie

PROCOPE, *Bellum Vandalicum* [*Histoire des guerres*, livres III et IV], H. B. Dewing (éd. et trad.), Londres et Cambridge (Mass.), 1916 (*Loeb classical library, Procopius*, t. 2) ; *La Guerre contre les Vandales*, D. Roques (trad.), Paris, 1990.

Procope, *De Aedificiis* [*Traité des édifices*], J. Haury et G. Wirth (éd.), Leipzig, 1962-1964 ; R. B. Dewing (éd. et trad.), Londres et Cambridge (Mass.), 1960 (*Loeb classical library*).

CORIPPUS, *Johannis* [la *Johannide*], J. Parsch (éd.), Berlin, 1879 (*MGH.AA*, III, 2) ; *Flavii Cresconii Iohannidos seu De bellis libycis libri VIII*, J. Diggle et F. R. D. Goodyear (éd.), Cambridge, 1970 ; cf. V. Zarini (éd., trad. et commentaire), *Berbères ou barbares ? Recherches sur le livre second de la "Johannide" de Coripppe*, Nancy, 1997 (*Études anciennes*, 16).

CLAUDII PTOLEMAEI, *Geographia* [Claude Ptolémée, *Géographie*], K. Müller (éd.), Paris, 1883-1901, 2 vol. (*Scriptorum Graecorum bibliotheca*) ; *Geographiae, codex urbinus graecus 82*, Leiden et Leipzig, 1932, 3 vol. (*Codices*, 19)

GEORGES DE CHYPRE, *Le Synekdèmos d'Hiéroklès et l'opuscule géographique de Georges de Chypre*, E. Honigmann (éd.), Bruxelles, 1939 (*Corpus Bruxellense historiae Byzantinae. Forma Imperii Byzantini*, fasc.1).

Al-BAKRI, *Kitab al masalik wa-l-mamalik*. Édition critique de A. P. Leeuwen et A. Ferre, Tunis, 1992. Trad., *Description de l'Afrique septentrionale*. De Slane, 2e éd. Alger, 1913.

IBN 'IDHÂRI al-MARRÂKUSHÎ, *Al-Bayan al-Mughrib fi Akhbar al-Andalus wa-l-Maghreb*, Ed. critique par J. S. Colin et E. Lévi-Provençal, Leyde, 1948, 3 vol. (Rééd. Beyrouth, 1983). Trad. *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne* par E. Fagnan, Alger, 1901-1904, 2 vol.

IBN KHAYYAT AL-USFURI (KHALIFA), *Tarikh Kalifa Ibn Khayyat*, Ed. critique par M. N. Fawwaz & H. K. Fawwaz, Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beyrouth, 1995.

Al-MALIKI, *Kitab riyad al nufus fi tabaqât 'Ulamâ' al-Qayrawân wa Ifriqiya*. Ed. B. Bakkouch, Dar al-Gharb al-islâmî, Beyrouth, 1981-1983, 3vol. Trad. H.-R. Idris, *Le récit d'Al Maliki sur la conquête de l'Ifriqiya*, in *R.E.I.*, 37, 1969, 117-149.

Al-NU'MÂN, al-Qâdhî. *Risâlat iftitâh al-da'wa. (Risâla fi zuhûr al-da'wa al-'Ubaydiyya al-Fâtimiyya)*. Ed. par W. al-Qâdhî, Beyrouth, 1970.

Al-Nuwayrî, *Nihayat al-Arab fi funun al-'adab*, éd. H. Nassar, Le Caire, 1983, 23 vol. Trad. (partielle) *Conquête de l'Afrique septentrionale par les Musulmans et histoire de ce pays sous les émirs arabes* par De Slane, en appendice à *l'Histoire des Berbères* d'Ibn Khaldoun, I, Alger, 1852, p. 313-447. (Paris, Geuthner, Nlle éd., 1982).

Al-RAQÎQ al-QAYRAWÂNÎ. *Ta'rîkh 'Ifrîqiya wal-Maghreb*. Ed. critique par A. A. Zaydan & E. O. Musa, Dar al-Gharb al-Islami, Tunis-Tripoli, 1990. Trad., *L'Occident musulman à l'avènement des Abbasides d'après le chroniqueur ziride al-Raqîq*. Trad. H.-R. Idris, in *R.E.I.*, 39, 1971, 209-91.

YAQÛT AL-ROUMI AL-HAMAWÎ, *Mu'jam al-Buldan*, Beyrouth, Dar Sadir, 1955-1957, 5 vol.

Cagnat et Saladin (1894), *Voyage en Tunisie*, p. 118-119 (Aïn Cherchira).

Cameroun Av. (1982), « Byzantine Africa : the literary evidence », dans *Excavations at Carthage*, VII, p. 35.

Desanges J. (1963), *Un témoignage peu connu de Procope sur la Numidie vandale et byzantine*, dans *Byzantion*, XXXIII, 1963, p. 41-69

Despois J., *La Tunisie orientale : Sahel et Basse Steppe*, Paris, 1940, p. 162.

Diehl Ch., (1896), *L'Afrique byzantine : histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709)*, Paris, (*Description de l'Afrique du Nord*).

Diehl Ch., (1893), Rapport sur deux missions archéologiques dans l'Afrique du Nord (Avril-juin 1892 et mars-mais 1893), dans *N.A.M.* t. IV, p. 377 ;

Diehl Ch., (1893), *Rapport sur deux missions archéologiques dans l'Afrique du Nord (avril-juin 1892 et mars-mai 1893)*, in *Nouvelles archives des Missions* [*NAM*], t. IV, Paris, 1894.

Durliat J. (1981), *Les dédicaces d'ouvrages de défense dans l'Afrique byzantine*, Rome;

Duval N., (1983)*L'état actuel des recherches sur les fortifications de Jsutinien en Afrique*, dans *Corsi di cultura sull'arté ravennate e bizantina*, XXX, p. 149-204.

Fehri N., (2001) *Les voies de Kairouan à l'époque médiévale*, Memoire DEA dactylographié, soutenu en 2004, à la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, p. 36-37

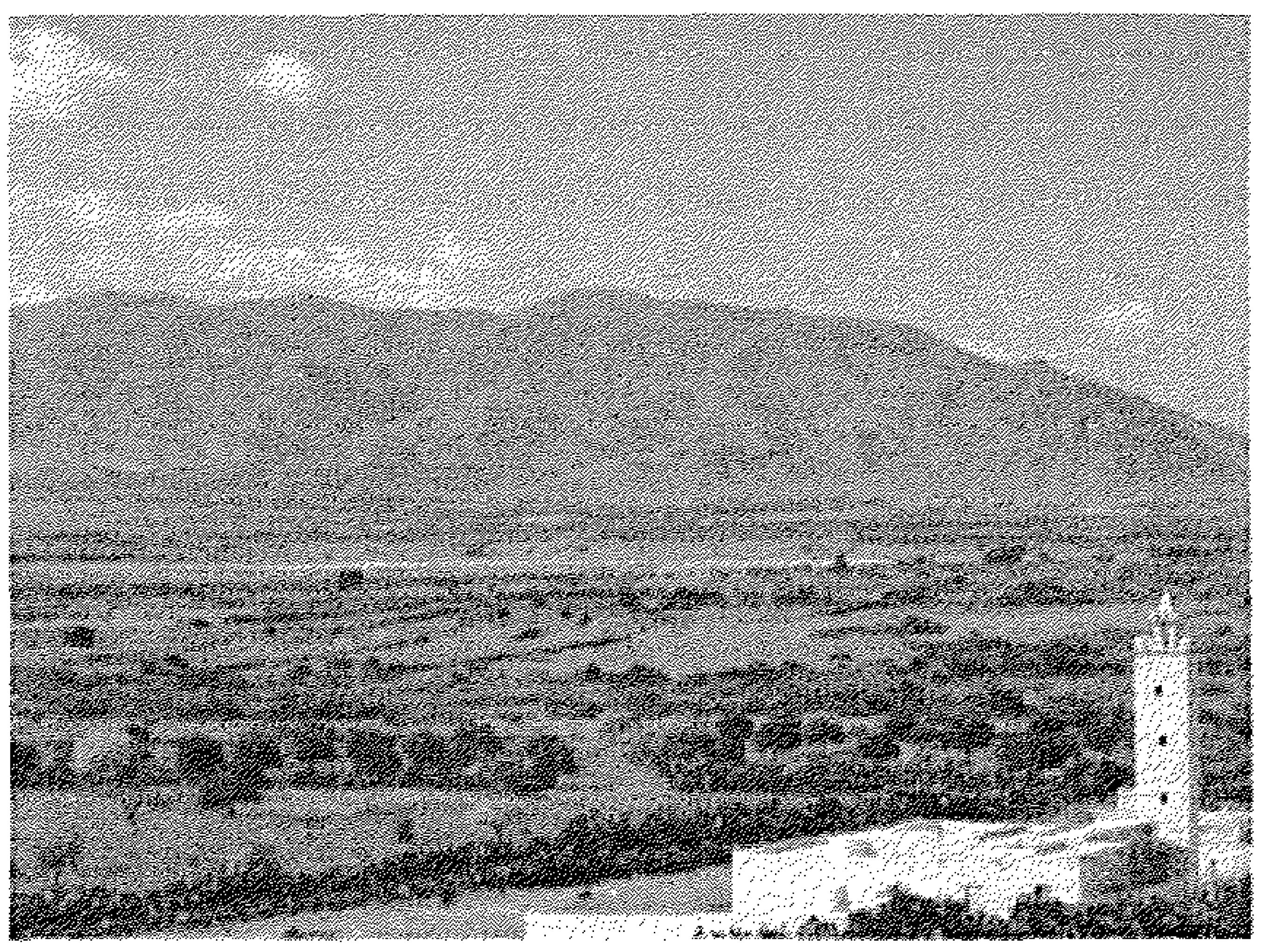
Itinéraire en Tunisie 1881-1882, par le Service géographique de l'Armée, Paris, 1882, p. 20-21

M'charek A. (1999), *De Zama à Kairouan : la Tusca et la Gamonia*, in *Frontières et limites géographiques*, carte p. 146.

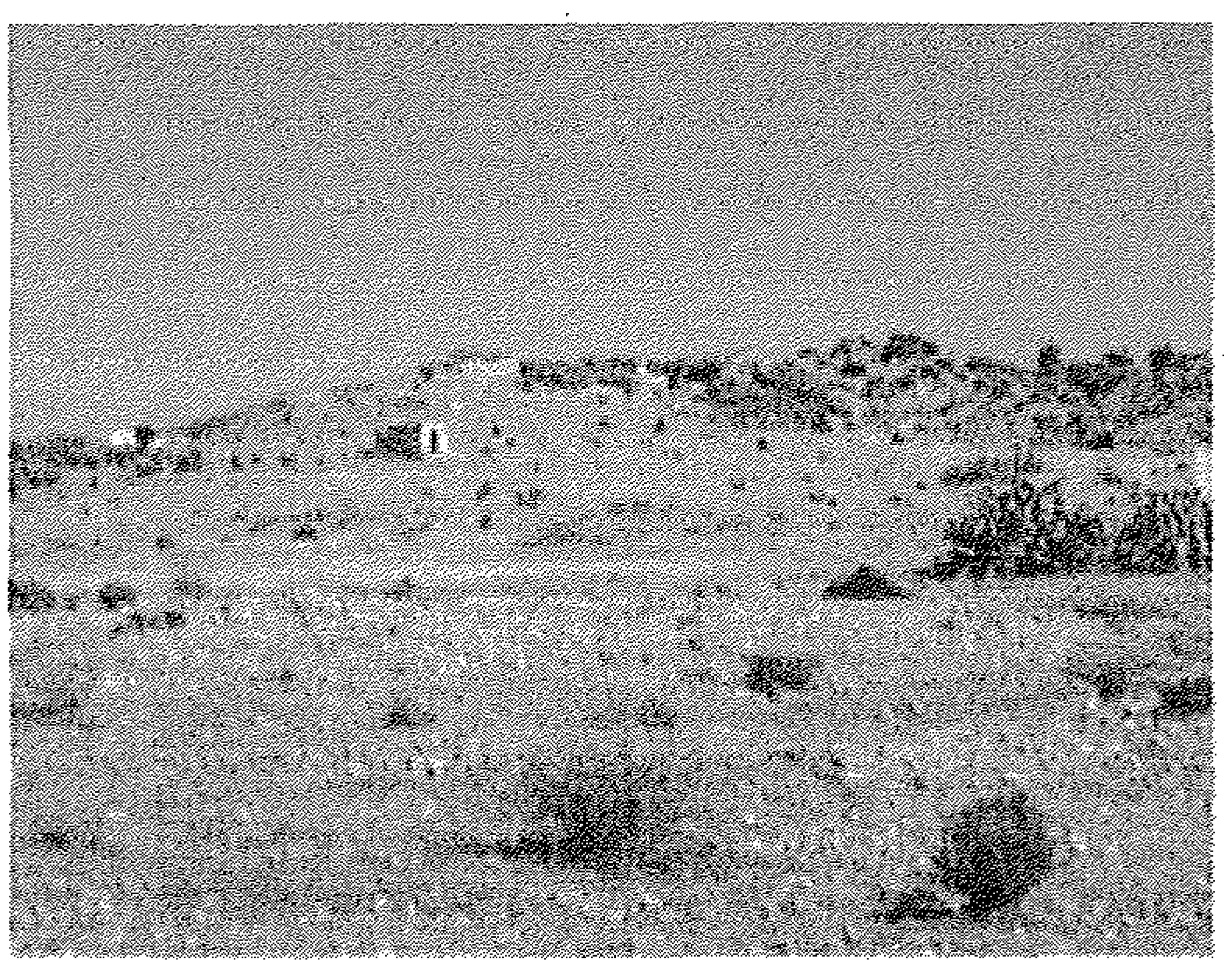
antique. On remarque la ressemblance entre *Mam-s* et *Mam-t-our*[57]. Le mot Mamtour pourrait bien être une déformation du groupe de mots : Μαμμετην ορος = *Mammès mons* (Le mont de Mammès), en y supprimant, selon l'usage des Arabes, les suffixes de déclinaison :

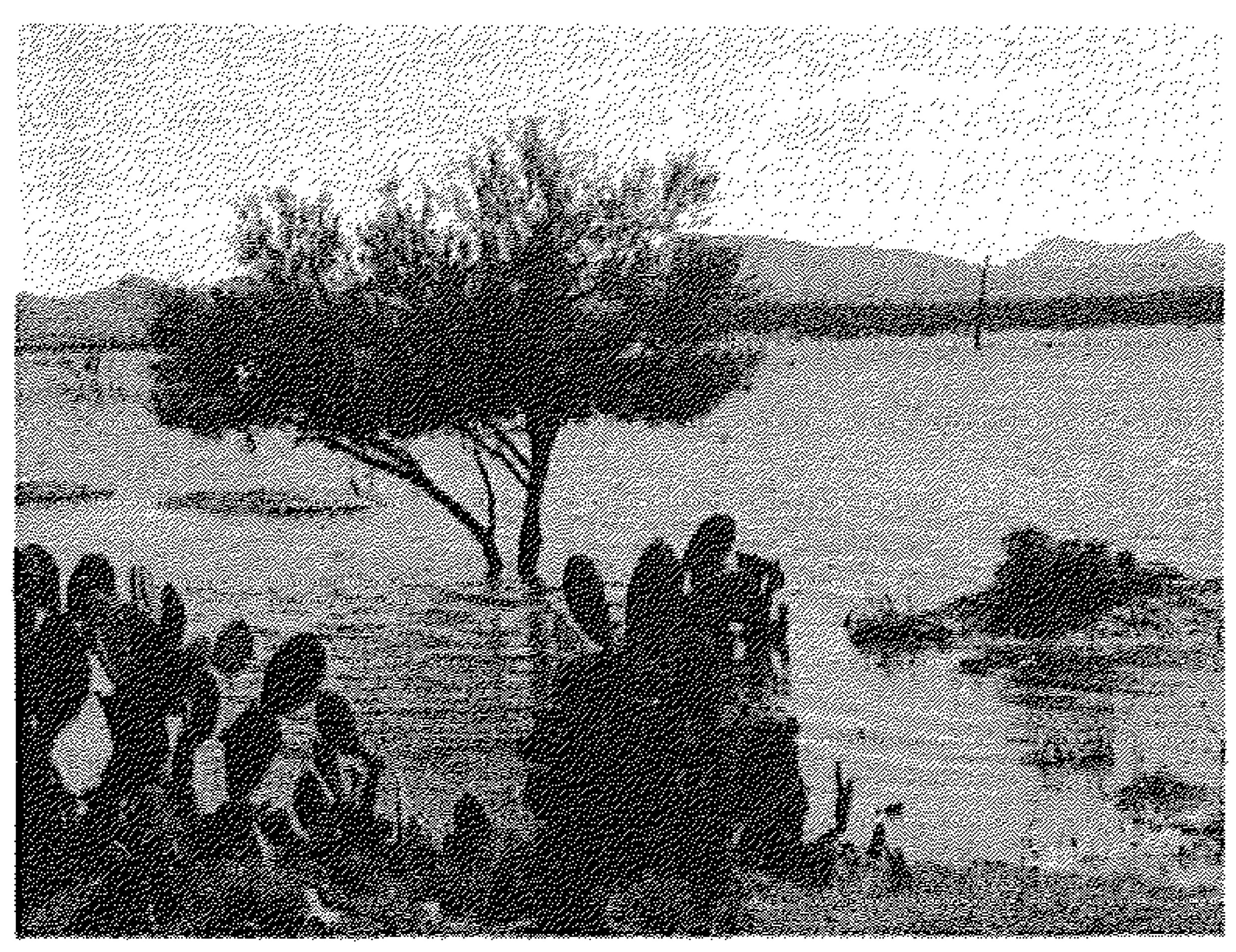
Μαμμετην ορος > Μαμμετ (ην) ορ (ος) > Μαμμετ ορ > Μαμετωρ > Μαμμετορ
Mammetèn oros > Mammet (èn) or(os) > Mammet or > Mammetor > Mametor
=> Mamtour ممطور.

Ainsi, le *Jebel Mamtour* serait donc une *lectio facilior* du « Jebel de Mams », qui selon toute vraisemblance est le Jebel Trozza.









L'étendu du site

Les eaux du Barrage d'El-Haouareb ont englouti une bonne partie du site

[57] "on dit qu'il s'arrêta dans une montagne appelée *Mamtur* à l'Ouest de Qammuniya{ XE "Qammuniya" } où il subit une si forte pluie qu'il déclara : " Notre montagne que voici est pluvieuse (*mamtur*) d'où son nom Mamtur qu'elle porte jusqu'à présent".

George de Chypre, E. Honigman, et qui est Μάμιδα / *Mameda* (var. Μάμηδα / *Mamida*). Cette deuxième graphie pourrait être une forme dérivée (génitif ou adjectif) d'un nominatif Μάμμης (*Mammes*). Y aurait-il eu donc une évolution dans la formation ce toponyme ? C'est largement possible. A partir d'un toponyme composé « la région de Mammès », et selon un usage fréquent dans la toponymie antique, on a gardé uniquement le mot Μάμμης, tout en sous-entendant le substantif (région / chora).[52] Une fois figé, ce toponyme Μάμμης (*Mammes*) pourrait donner lieu à d'autres formes dérivées. C'est ce qui explique le rapport entre les formes attestées chez Procope, et celles fournies par Georges de Chypre. En effet, un génitif féminin de Μάμμης pourrait bien être Mammida (m. Μαμμιδος), de même qu'un adjectif féminin du même nom puisse être Mammi/ta (m. Μαμμίτης) [53].

D'autre part, on a parfois rapproché le toponyme Μάμμης / *Mammes* de celui de Mempsaron Oros[54] que Ptolémée a assigné à une montagne qui se trouve très près et à l'ouest de Kairouan. Ce rapprochement nous parait assez plausible. L'occlusive bilabiale sourde *p* peut facilement tomber devant une autre occlusive bilabiale nasale *m* : « Mempsaron oros » > « Memsaron oros ». Le suffixe « oron » pourrait être pris pour une duplication du substantif « oros » qu'il succède : Memsaron oros > Mems* oros. L'examen de différentes transcriptions arabes du toponyme Mammès est déjà assez révélateur. Ces auteurs arabes du Moyen Age transcrivent ce toponyme en M*m*s* ممس. Ce *ductus* pourrait aussi bien être lu Mammès que Mams, étant donné que le premier *ductus* ne se distingue du second que par l'adjonction d'une *chadda*, qui marque le dédoublement d'une lettre, et qui est, à l'instar des autres des signes orthographiques et des voyelles, le plus souvent absente des manuscrits arabes. Le seul qui a tenté de préciser tous les détails vocalistiques de cette orthographe est Yaqut qui l'écrit Mamsâ, avec un *alif maqsoura.* Mais sa leçon nous parait sans grande valeur[55].

Les auteurs arabes mentionnent souvent un autre toponyme de la même région que Mammès et qui nous semble même dérivé de ce mot. Il s'agit du Jebel Mamtour évoqué pour la première fois par les récits de la conquête arabe de la Byzacène au milieu du VII[e] siècle.

> « Mu'awiya b. Hudayj fit une expédition en Ifriqiya. Il campa dans une montagne. Atteint par une pluie forte, on appela cette montagne Jebel al-Mamtour جبل ممطور{ XE "Jebel al-Mamtour" }»[56].

Il est difficile de suivre l'étymologie des auteurs arabes qui expliquent ce nom par le mot arabe *matar* / *mamtour* (pluvieuse ou génératrice de pluie). Il n'est pas impossible que le qualificatif « *Mamtour* » cache, comme souvent, un toponyme

---

Fasc.I). Texte, introduction et cartes par Ernest Honigman, préface de Franz Cumont. Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Bruxelles, 1939.){ XE "Hiérokles" }.

[52] Comme en latin les substantifs *tabernae*, *vicus*, *fundus*, etc.

[53] Cf. par exemple Μέμφις (ville de la Moyenne Egypte) donne Μέμφιδος au *génitif masculin* (Hérodote, II, 8) ; et Μεμφίτης comme adjectif masculin (Hérodote, II, 112).

[54] D'après Ptolémée, le toponyme Mamsparos[54] s'applique aussi bien à une montagne qu'à une région (chora) ou à un peuple (dans le sens de tribu) située « sous » (hyper) cette montagne : καὶ Μάμψαροι ὑπὲρ τὸ ὁμώνυμο ὄρος (et les Mampsari « sous » une montagne du même nom). Or tout le problème réside dans ce mot (hyper) qui peut signifier aussi bien « sur » que « sous ».

[55] Mais, nous présumons que ce lexicographe arabe, a voulu chercher, comme souvent, un sens propre au mot « Mams », en y ajoutant un *alif maqsoura* ى pour aboutir ainsi au sens de ممسى Mamsa : « l'endroit où on passe une soirée »

[56] Khalifa b. Khayyat, *Tarikh*, p. 126.

voie, d'ailleurs difficile, qui suit la vallée de l'Oued Merguellil[43]. Elle se joignait aux fortifications de *Cululis, Sufes, et Chusira* pour jalonner les passages importants de la Dorsale.

Rapprochement linguistique et philologique

Nous terminons cette recherche par quelques remarques linguistiques et philologiques sur le toponyme de *Mammès*. Les différentes formes ou graphies attestées de ce toponyme sont les suivantes :

Procope[44]	Ptolémée[45]	Georges de Chypre[46]	Corippe [47]	Al-Bakri	Yaqout	An-Nowayri
Μάμμης *Mammès*	Μαμψαρον ορος? *Mampsarus mons*	Μάμμα{ XE "Μάμμα" } / Μάμιδα *Mameda / Mamida*	*Campi Mammenses*	ممس Mams ou Mammès	ممسى Mamsa	ممش Mamch ou Mammèch

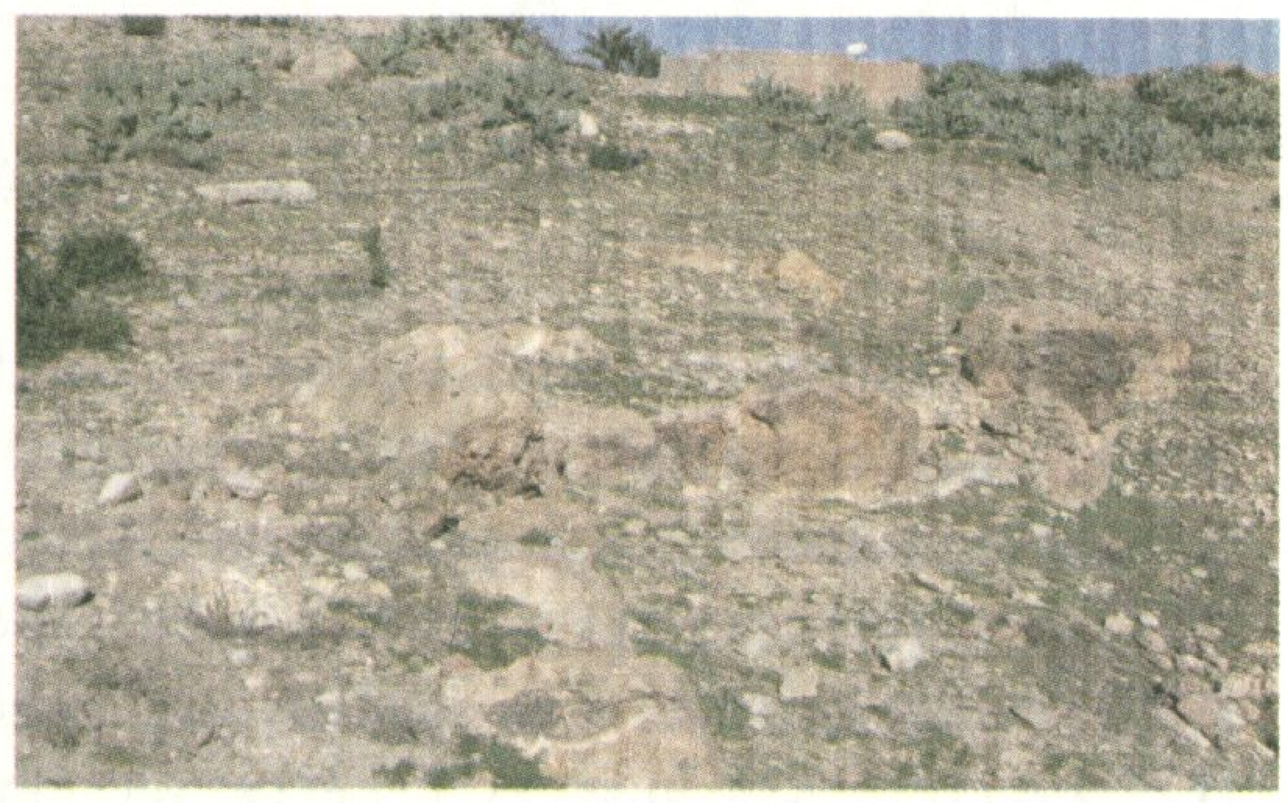
La forme attestée chez Procope est Μάμμης / *Mammès* qui pourrait être, au moins à l'origine, un génitif féminin. D'ailleurs, dans la *Guerre contre les Vandales*, Mammès est rattaché au substantif (chora)[48]. C'est là une traduction de l'expression « champs de Mammès », évoqués par Corippe[49]. Dans ce cas, la forme nominative grecque de ce toponyme sera mammh ou plutôt mamma[50]. C'est du moins ce que donne un des manuscrits de l'*opuscule géographique de George de Chypre*, dans l'édition Gelzer[51]. Or, une autre leçon différente est retenue par le second éditeur

[43] Ch. Dihel, p. 281.
[44] *De Aed.* VI, 6, 18 ; *B.V*, ii, 11, 15
[45] *Geog*
[46] E. Honigman, *Le Synecdémos..*§ 649, p. 53
[47] *Joh.*, VII, 272-273
[48] ἐς Μάμμης τὸ χωρίον : **à la place [dite] de Mammès.**
[49] Malheureusement, l'ethnique pluriel *Mammenses* donnée par Corippe ne nous aide pas beaucoup à rétablir la forme original du toponyme.
[50] Ce qu'il faut noter c'est que le mot τῆς μαμμῆς comme un génitif du mot ἡ μαμμη, qui veut dire mère ou grand'mère, et qui provient du latin *mamma*).
[51] Il revient à Gelzer d'attribuer à Georges de Chypre, le traité connu depuis le milieu du XVII^e siècle comme étant une liste épiscopale remontant à l'époque de l'empereur Léon le Sage (La *Notitia* est publiée au moins six fois entre 1641 et 1866. Elle a été publiée en partie par Charles de Saint–Paul{ XE "Charles de Saint –Paul" } (*Geographia Sacra)*, plus complètement par *Beveregius* d'après un manuscrit d'Oxford, *Pandectae canonum*, T. II, Annotation, p. 14, Oxford, 1672.){ XE "Léon le Sage" }. Gelzer a démontré le caractère profane et civil de ce traité qu'il a publié en 1890, sous le titre « *Georgii Cyprii Descriptio orbis Romani* » (Lipsiae 1890). En 1939, E. Honigman{ XE "Honigman" } a réédité cet opuscule géographique en même temps que le *Synekdémos* d'Hiérokles (E. Honigman, *Le Synekdémos d'Hiérokles et l'opuscule géographique de George de Chypre*. (Corpus Bruxellense Historia Byzantinae ; *Forma Imperii Byzantini*,




La redoute byzantine

A quelques mètres du fortin, du côté sud, ont été repérés des alignements, appartenant à un monument à deux absides. D'autres alignements ont été également repérés à une centaine de mètre encore vers le Sud, à côté du cimetière moderne. Une partie non déterminée du site aurait été engloutie sous les eaux du barrage l'El-Houareb. Nous avons relevé aussi la présence de céramique antique commune, sigillée et islamique.

Structure à abside limitrophe de la redoute

Le site d'Aïn Ghorab, outre le fait qu'il comprend une structure défensive encore visible, il ne répond pas moins aux autres caractéristiques de l'emplacement de Mammès glanés dans les sources littéraires. D'abord, il se situe dans une plaine entourée de plusieurs montagnes notamment le Jeble Trozza, au Sud-Ouest, le Jebel Chrichira, à l'Est, le Jebel Ousselet au Nord-Est et le Jebel Barbrou et le Massif de Makthar à l'Ouest. La redoute d'Aïn Ghorab / Mammès avait pour objectif de barrer la

[43] Ch. Dihel, p. 281.

byzantinistes de l'Afrique du Nord ? C'est probablement l'altération du toponyme par le premier explorateur qui a désorienté ses successeurs. On ajoute que la description donnée par J. Poinssot nécessite une autre petite rectification. En effet, ce fortin n'est pas adossé au Jebel Ousselet, proprement dit, mais à un monticule entre ce dernier et le Jebel Trozza, et qui porte sur la Carte Topographique le nom de « J. Ain el-Rhorab »[40].



Détail de la Feuille Topo 1/ 50000e de Trozza

D'ailleurs, ce même toponyme, fondé sur le zoonyme, « ghorâb / rhorâb », dont la prononciation semble avoir été assez difficile pour les Français, est transcrit par les agents du Service géographique de l'Armée française en 1882 par « Khrerâb » pour être ainsi rapproché au mot « khraïb qui veut dire ruines » [41]. D'après cet *Itinéraire* préparé pour faciliter l'avancée de l'armée française en Tunisie en 1881, « le second gîte d'étape entre Kairouan et Tebessa, par Sbiba » est Aïn Khrerâb, qui se trouve à 42 km de Kairouan et à 50 de Sbiba[42].

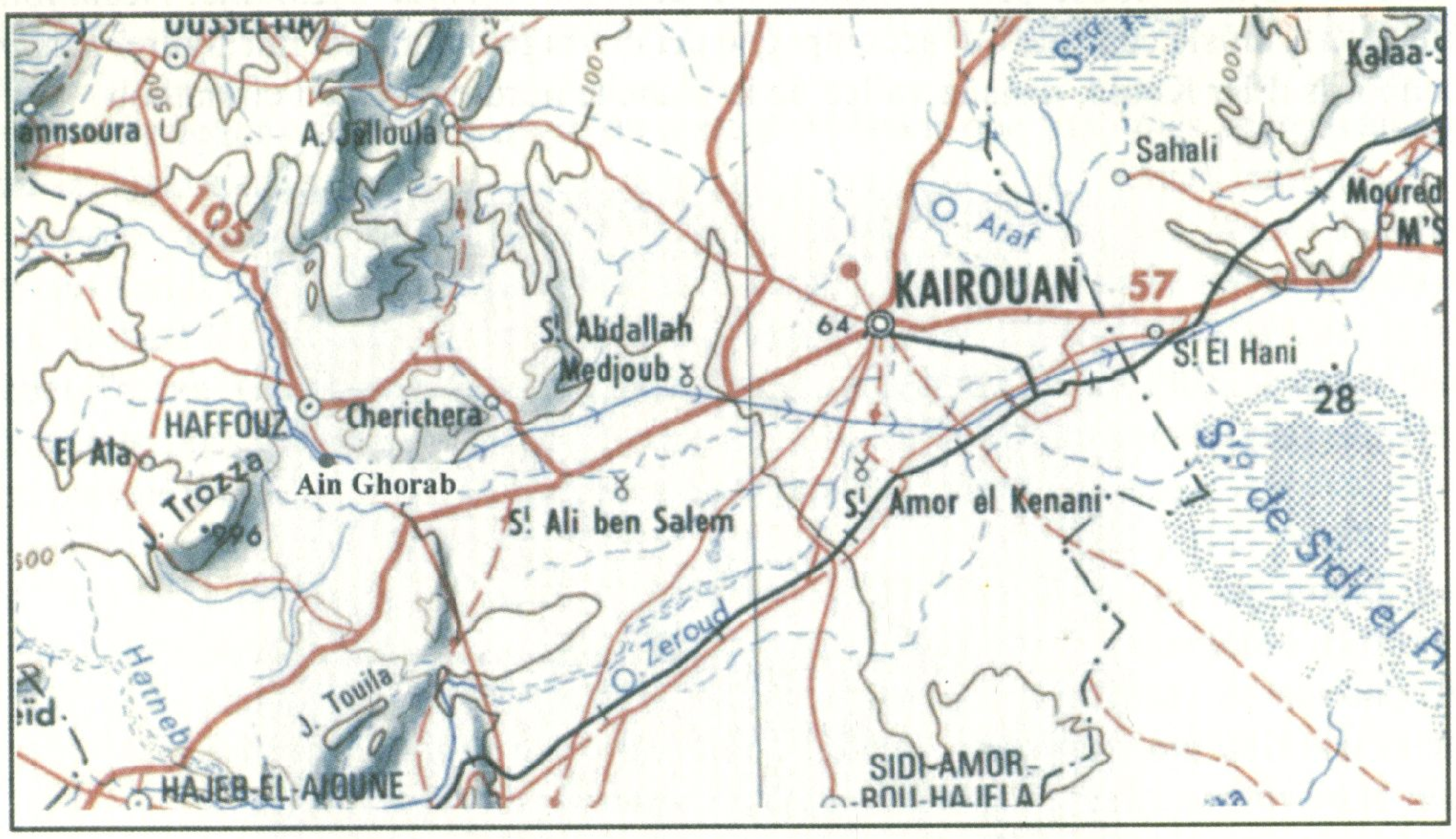
Aujourd'hui, le site d'Aïn Ghorab est presque entièrement arasé. Il n'en subsiste que les vestiges du fortin byzantin dont les murs s'élèvent encore à un ou deux mètres. Il s'agit d'un bâtiment carré de 20 m de côté, et dont l'aménagement intérieur n'est pas bien identifiable. Les murs, formés d'un double parement avec maçonnerie de blocage à l'intérieur, ont 2 m d'épaisseur.

[40] C'est probablement cette mention du Jebel Ousselet qui a embarrassé les indications de J. Poinssot. Nous présumons que c'est la raison pour laquelle, ni Ch. Diehl ni D. Pringle, n'ont pas pu retrouver ce site. Cependant, si nous suivons la description de J. poinssot qui suivait la vallée de l'Oued Merguellil de l'amont vers l'aval, et en partant de « Henchir Khatra près de la Koubba de Sidi Mohammed ben Ali et sur la rive droite de l'Oued Merguellil » nous rencontrons successivement, Hr Teliga (Telika) et Hr el Debbah (Deba) avant d'arriver à Hr Oghab (Aïn Ghorab). Donc, il n'y a aucune doute sur l'identification de Hr Oghab à Hr Aïn Ghorab.

[41] *Itinéraire en Tunisie 1881-1882*, par le Service géographique de l'Armée, Paris, 1882, p. 20-21

[42] Sur la *Carte du dépôt de la Guerre* qui illustre cet itinéraire, on lit « Aïn Khoraïb ». Cet *Itinéraire* favorise donc la voie méridionale par rapport au Trozza. Après Aïn Khrerâb, la route longe le pied Sud du Trozza, remonte le cours de l'Oued Zeroud, et ensuite celui de l'Oued el- Hatob, traverse l'Oued el Kouki et se dirige vers l'Oued er Rouhia et de là vers Sbiba.

(Rhorâb) qui se trouve à 7 km au S.-E. de Haffouz, à 42 km à l'O. de Kairouan et à 50 km à l'E. de Sbiba[36].



Aïn Ghorab : plan de situation

Le site de Aïn Ghorab n'est pas entièrement inconnu. Il était signalé par J. Poinssot dans son *Voyage archéologique en Tunisie* sous le nom erroné de Henchir Oghab[37]. Décrivant les ruines de la Vallée de Marguellil, il écrit «Henchir Oghab. C'est le nom que porte un **castellum byzantin** adossé aux montagnes de l'Ousselet (sic) et qui fait face à la ville antique dont nous venons de parler. Il est assez bien conservé et ses murs s'élèvent encore à quatre ou cinq mètres de hauteur. Au-dessous s'étendent de vastes ruines où l'on reconnaît les dispositions des habitations et le tracé de quelques rues ». Le site a même livré deux inscriptions funéraires, reproduit dans le *Corpus*[38]. Pourtant et malgré cette mention claire d'un ouvrage défensif « byzantin » bien conservé à l'époque, le site Aïn Ghorab ne semble pas avoir été visité par Ch. Diehl lors de sa mission archéologique en Tunisie faite en 1893. Dans son *Rapport*, comme dans son *Afrique byzantine*, il se contente de renvoyer à l'article de J. Poinssot.[39]

Ce «castellum byzantin » n'est pas mentionné non plus dans le répertoire des fortifications byzantines établi par D. Pringle pendant les années 1970. Comment expliquer cette lacune chez deux auteurs qui comptent parmi les plus grands

[36] C. topo., 1/50 000, f. LXII, Hafouz, anciennement Pichon. (35°35' N., 9°43' E.). Carte 1/100 000, f. 37, Kairouan. Aïn Ghorab est à 3 km d'El-Haouareb et à 24 km de Chebika.

[37] J. Poinssot, «Voyage archéologique en Tunisie» dans *Bulletin des Antiquités africaines*, t. II, 3e Année, 1884, p. 68, 150, 226 ; 361 notamment p. 155-156. Outre leur ressemblance au niveau de la graphie, la confusion entre Ghorab et Oghab est d'autant plus plausible que leurs significations en arabe sont assez proches. En effet, Ghorab veut « corbeau » tandis que Oghab <Ogab> veut dire « aigle ».

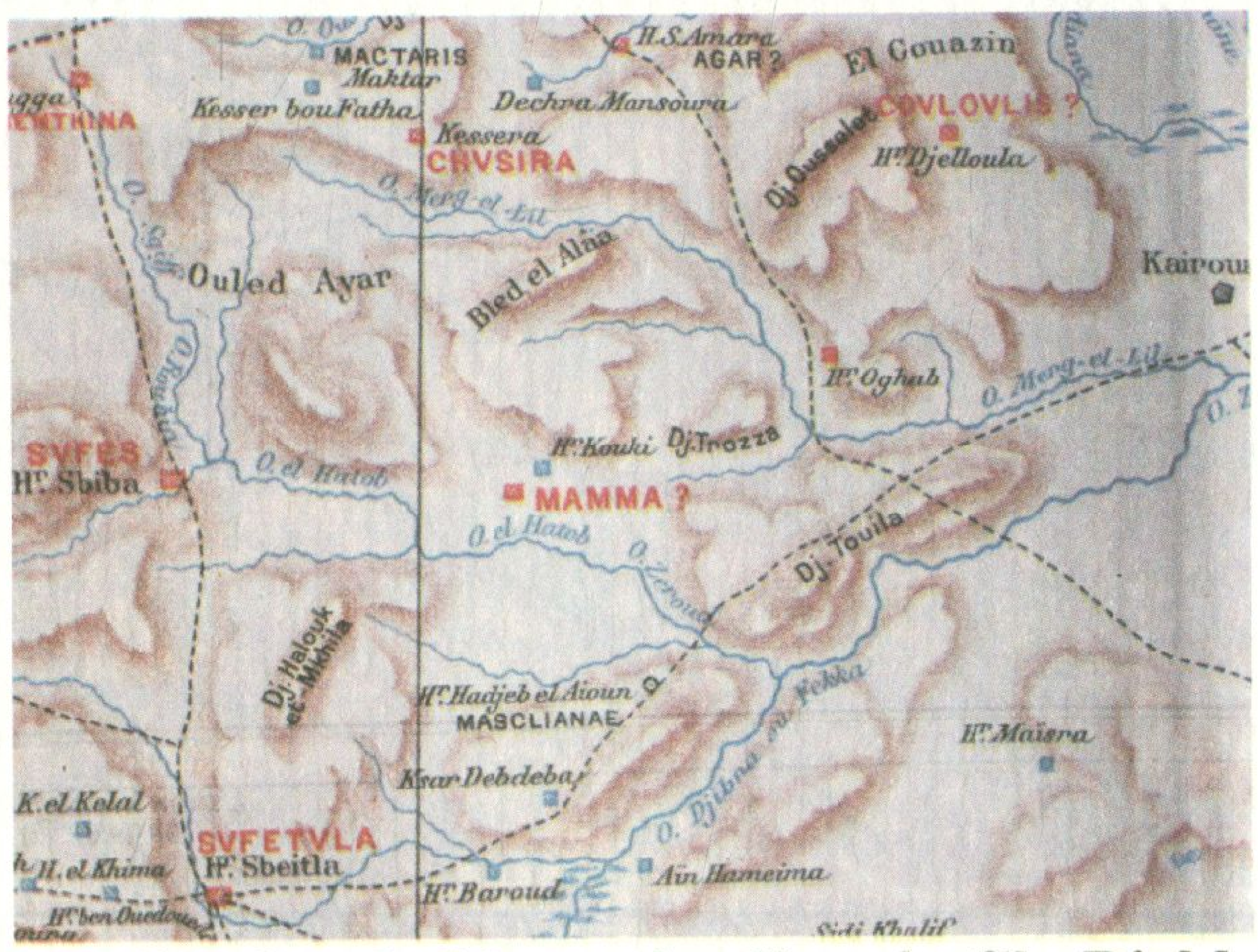
[38] *CIL* VIII, 12117 : *Dis Mani*[b(us)] / *Iulia Secunda / h(ic) s(ita) e(st) v(ixit) ann(os) XXXIII / Servilis Marcie/nus uxori fecit.*

CIL VIII, 12118 = CIL , 23774 = *ILTun*275

Qui quondam / ad superos / Mossius ille potens / nunc tenuis anima / erro per Elisia prata / hic status hic situs / qua[tt]uor d<e=l>ci[en]s tres / adi sis / curaqu[e 3]or / aeternu[mq(ue) v]ale

[39] Ch. Diehl, Rapport sur deux missions archéologiques dans l'Afrique du Nord (Avril-juin 1892 et mars-mais 1893), dans *N.A.M.* t. IV, 1893, p. 377 ; Id., *L'Afrique byzantine*, p. 281. (avec un renvoi erroné).

identifiées[33]. Ch. Diehl a remarqué qu'il faut chercher *Mamma* sans doute entre Sbiba et Kairouan autour d'une ligne *Iunca-Laribus*, à l'intérieur même de la Byzacène, sur les hauts plateaux avoisinant la vallée moyenne de l'Oued Zeroud, entre le Mgihla et le Trozza, mais ne propose pas de localisation dans son *Afrique byzantine*. Néanmoins la carte de la Tunisie centrale qui accompagne cet ouvrage magistral, fait figurer *Mamma* ? aux abords d'Hr Kouki, dans la vallée de la branche nord de l'Oued el-Hathob.



Localisation de Mammès, d'après Ch. Diehl.

M. Solignac, constatant que l'emplacement d'Hr Kouki ne correspond pas au données des sources littéraires, a localisé *Mammes* à Hr Douemis, dans la vallée dominée par le Jebel Cherichera au Sud, et le Jebel Ouesselat, au Nord. Il a aussi identifié le *Saqiyat Mems* (l'aqueduc de *Mems*) qui alimentait Kairouan en eau durant le Moyen-Âge, avec la cluse (le défilé) de l'Oued Cherichera. Cette identification est retenue par D. Pringle, de même que par beaucoup d'autres chercheurs comme par exemple Y. Modéran, dans un ouvrage récent[34].

Dans un rapport sur l'eau et les installations hydrauliques dans le bassin de Kairouan, F. Mahfoudh critique l'hypothèse de M. Solignac et propose de localiser Mammès à Haffouz même[35]. Or, ni à Haffouz ni à Henchir Douamis, nous n'avons jamais signalé les traces d'une quelconque fortification byzantine. Cependant, même si Procope s'est probablement trompé sur le type de fortification de Mammès, l'existence d'un ouvrage défensif dans cet endroit est presque certaine.

Une récente prospection menée dans la région, nous a permis de repérer un site qui pourrait peut-être répondre davantage aux différentes données décelées des sources littéraires, quant à l'emplacement de Mammès. Il s'agit du site de Aïn el-Ghorâb

---

[33] Tissot (1888), *Géographie*, II, p. 768 (sans identification.) Il écrit « nous ne pouvons pas précisé l'emplacement des « Champs de Mamma - Les Mammenses Campi ».

[34] Y. Modéran, *Les Maures et l'Afrique romaines (IVe-VIIe siècle)*, E.F.R, 2003.

[35] Rapport sur *L'histoire de l'eau et des installations hydrauliques dans le bassin de Kairouan*. Texte de F. Mahfoudh, S. Baccouch et B. Yazidi, Tunis novembre 2004, publié sur Internet. p. 39 : « Le village de Mems nous semble être l'actuel Haffouz, dont le nom antique aurait été *Aqua Régiae*. Ici les installations hydrauliques et les sources sont nombreuses. Ils ont été pour la plupart décrits par l'équipe de Gauckler. Al- Musta'in correspond au site de Hr Douamis. Quant à qasr al- Khattara, il faudrait le chercher dans la zone de Chebika ; alors que qasr al-Khayr serait le plus proche de Kairouan. »

effectivement par Sbiba / *Sufes*. Plusieurs gîtes de cette voie demeurent encore inconnus[30]. La dernière localité avant d'atteindre Kairouan s'appelle Qsar Zarâdba ou Qsar Khottara. Ces mots signifient une certaine installation hydraulique, probablement une canalisation à ciel ouvert[31]. Cette localité est identifiée par M. Solignac et plus récemment A. Mcharek au village actuel de Haffouz et qui pourrait être l'antique *Aquae Regia.*

Nous retenons de cette analyse du texte d'Al-Bakri que Mammès se trouvait entre Sbiba et Kairouan, vraisemblablement même entre Sbiba et l'actuel Haffouz, si du moins nous retenons l'identification de cette dernière avec *Aquae Regia*/ Khattara. Mammès serait donc l'une des stations secondaires du tronçon de la *Via Hadrumetina* reliant Sbiba à Hadrumète, cette voie qui selon toute vraisemblance, bordait par le nord le Jebel Trozza. Cependant, le géographe Al-Bakri, comme on l'a dit plus haut, donne deux trajets possibles pour aller de Sbiba à Kairouan. Il parait même plus sûr de ce trajet, puisqu'il le fournit en premier lieu. En voici le second passage :

> « De Sbîba on se rend au village d'Al-Juhaynîyn, qui est grand, bien peuplé, et renferme des bazars et des boutiques. Il est entouré d'arbres et abonde en fruits. De là à Kairouan il y a une journée de marche. Al-Johaynîyn est situé au pied du Mamtour, montagne qui doit son nom à Moaouia ibn Hodayj ; ce général y dressa son camp et éprouva une pluie tellement forte, qu'il s'écria : "Notre montagne est mamtour", c'est-à-dire sujette aux pluies. De là on passe à la station nommée El-Heri, auprès de laquelle est une tour de guet ; puis on se rend à Kodiat Ech-chaïr " le tertre d'orge ", d'où on arrive à Kairouan ».

Nous ne retarderons pas beaucoup sur la reconnaissance de toutes les étapes de ce second axe, dont l'identification et loin d'être certaine. Nous insistons surtout sur la mention du Jebel Mamtour, qui surplombe le premier gîte d'étapes à savoir le village des Juhaynites, du nom de la tribu arabe de Juhayna. Le village des Juhaynites se situait à une journée de marche de Kairouan, soit à environ 28 km. M. Solignac, cherche cette station au Nord de Trozza, l'a identifié à l'emplacement de Pichon (l'actuel Haffouz)[32]. Or, le fait qu'il s'agisse bien de deux routes différentes rend cette identification assez fragile et sans fondements. Nous pensons ce que second trajet doit emprunter une route méridionale par rapport au Jebel Trozza, que nous proposons de l'identifier avec le Jebel Mamtour. Les deux localités suivantes sur cette seconde voie, à savoir El-Heri et Kodiat ech-Chaïr, ont été vainement recherchées par non prédécesseurs. Du coup, elles ne nous aident pas beaucoup dans l'identification de Mammès.

Les différentes hypothèses de localisation de *Mammès*

Après avoir revu le dossier des sources antiques et médiévales concernant la localité de Mammès, rappelons maintenant, les principales localisations proposées jusqu'à aujourd'hui. Dans sa *Géographie comparée*, Ch. Tissot a bien reconnu la difficulté de cette question en classant le toponyme Mamma parmi les localités non

[30] P. Salama, *La via Hadrumetina en Byzacène*, in *CTun*, XII, 45-46, 1964, p. 81
[31] Solignac, p. 166-167.
[32] Il suit dans cette hypothèse J. Despois, *La Tunisie orientale : Sahel et Basse Steppe*, Paris, 1940, p. 162.

Zohayr ibn Kays el-Balaoui à une localité appelée *Mammès* ممس. Cette bataille est évoquée par la plupart des auteurs arabes de la conquête qui insistent sur la proximité entre Mammès et Kairouan[26]. D'autres témoignages permettent de cerner davantage l'emplacement du site. Nous savons d'abord que cette localité se trouvait sur la route de Kairouan à Lorbeus (*Laribus*), puisque le Mahdi Obayd Allah, venant de cette dernière ville rencontra les notables kairouanais à Sakiet Mamès où il leur accorda l'aman[27]. *Mammès* se trouvait aussi sur la voie qui reliait Kairouan à Sbiba (*Sufes*). En effet, le géographe andalou Al-Bakri indique deux itinéraires différents permettant de se rendre de Sbiba à Kairouan. L'un de ces deux trajets passe effectivement par *Mammès* ou plus exactement par *Saqiet Mammès.* Voici ce passage souvent commenté par les chercheurs :

> Selon Mohammed ibn Youssef, on se rend de Sbiba à Saqiet Mems qui est un village bien peuplé où l'on trouve une mosquée et un funduq, puis on se rend au village d'al-Machfaq (ou al-Mustaïn ?) qui est grand et très peuplé, là on trouve deux bassins et un bon puits dont la profondeur atteint 30 coudées ; puis en arrive à Qasr al-Khayr où l'on trouve une bonne eau potable ; puis à Qasr Zardaba, connu aussi sous le nom de Khattara, qui est également peuplé ; ensuite on trouve Kairouan ».

Le texte d'al Bakrî énumère les stations que rencontre le voyageur en allant de Sbiba à Kairouan. Mais est-ce que cette énumération suit forcément l'ordre géographique des localités dans le sens du parcours indiqué ? Plusieurs chercheurs ont exprimé des doutes à ce propos[28]. Nous savons, en effet, qu'al-Bakri n'a jamais quitté la péninsule ibérique et que ses informations aussi importantes qu'elles soient demeurent toujours de seconde main. C'est du moins ce qu'il avoue lui-même clairement dans ce passage. Ceci dit, la reconnaissance de tous ces gîtes mentionnés dans cette liste pourrait permettre une localisation précise de Mammès.

Remarquons d'abord que Mammès, d'après la description d'al-Bakri, n'était qu'un village assez modeste « qarya », si on la compare aux cités avoisinantes comme Sbiba /*Sufes* ou Jaloula / *Cululis*, dites « madina / ville ». Mammès tirait probablement son importance de sa situation en tant que halte routière, d'où la mention du caravansérail (*Funduq*). Ce gîte se trouvait, d'après le géographe andalou, immédiatement à l'ouest de Sbiba / *Sufes*. De Mammès, on se rend à un autre village dont le nom altéré par les copistes rend difficile son identification avec certitude. Le *ductus* est indiqué dans certains manuscrits kasr al-Machfaq, et dans d'autres Al-Mustaîn[29] . La même ambiguïté englobe le *ductus* suivant transcrit sur certaines copies Kasr al-Khayr et dans d'autres kasr al-Hadhramiyya. Si on retient ce second *ductus*, on serait amené à identifier cette localité à l'une des stations de l'antique *Via Hadrumetina* qui reliait Théveste à la ville portuaire d'Hadrumète, capitale de la Byzacène, en passant

---

[26] Al-Raqiq, p. 18 ; al-Maliki, I, p. 45 ; Ibn Idhari, I, p. 22. Il faut noter qu'Ibn Abd al-Hakam, en situe la bataille en un lieu nommé *Qunia*, vraisemblablement pour *Q<am>unia*, appellation qui s'applique à toute la plaine de Kairouan Cf. A. M'charek, *De Zama à Kairouan : la Tusca et la Gamonia*, in *Frontières et limites géographiques*, 1999, carte, p. 165 ; A. al-Bahi, « Le concept de Qamounia dans les sources arabes » (en arabe), *Cahiers de Tunisie*, n° 178, 1997, pp. 13-40.

[27] An-Nooman , *Iftitâh*, p. 231.

[28] M. Solignac, *Recherches*, p.155 ; N. Fehri, *Les voies de Kairouan à l'époque médiévale*, Memoire DEA dactylographié, soutenu en 2004, à la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, p. 36-37.

[29] Différentes hypothèses ont été avancées dans l'identification de cette localité qu'on situe généralement à H^{r} Douamis

de « ville-frontière », ce même qualificatif est « difficilement compatible » avec l'emplacement des deux autres cités[19]. Mais, cette anomalie n'est pas exceptionnelle dans le texte du *De Aedificiis*[20]. Tous les éditeurs modernes affirment que la copie parvenue jusqu'à nous n'est qu'un brouillon inachevé assez altéré[21]. A notre sens, et pour que les indications de Procope retrouvent leur cohérence, il faut ou bien considérer ἐς τῆς χώρας τὰ ἔσχατα en tant que « confins de la plaine »[22], ou encore limiter ce sens à *Thelepte*, et relier à *Mammès* et *Cululis* les menaces des « incursions barbares ».

Quelle qu'en soit la situation, Procope affirme que chacune de ces trois cités fut entourée de murs très solides ἑκάστην τείχεσιν ἐχυροῖς. Cette opération est largement possible pour *Thelepte* et *Cululis*, deux cités qui existaient déjà depuis assez longtemps, et dont l'archéologie vient d'appuyer le témoignage de Procope. La première, choisie dès 534, pour être l'un des sièges du *Dux Byzacenae provinciae*, en alternance avec *Capsa*, dut nécessairement avoir été fortifié et même avoir abrité une certaine garnison. Les traces de l'enceinte « byzantine » sont encore visibles. Pour *Cululis*, outre les vestiges clairs de l'enceinte, une inscription confirme qu'effectivement, la ville fut fortifiée, au temps de Justinien et par ordre du patrice Solomon et le tribun Nonnus[23]. La construction de cette enceinte date d'après J. Durliat, des années 539-540, pendant la deuxième préfecture du prétoire de Solomon[24]. Quant à *Mammès*, nous avons constaté plus haut que jusqu'à 548, il n'était qu'une petite localité, et qui ne nécessite nullement pas à être « entourée de murs solides ». L'action de Justinien à Mammès, s'il y en a eu lieu, aurait consisté seulement à la construction d'un tour ou fortin, πύργος, généralement un bâtiment carré de 20 à 10 m de côté. Il serait donc dérisoire de chercher sur le terrain, à l'emplacement de *Mammès*, les vestiges antiques d'une grande « ville solidement fortifiée » comparables, par exemple à ceux de *Cululis* ou *Thelepte*. Bien que cette localité figure parmi les quelques cités mentionnées par Georges de Chypre à l'extrême fin du VIe siècle, sous le nom de Μάμιδα ou Μάμμα[25], { XE "Ma/mma" } elle ne semble dépasser, tout au long du Moyen Age, le statut du « village ». C'est du moins ce qui ressort des témoignages des auteurs arabes.

L'apport des sources arabes médiévales

La première mention de *Mammès* chez les sources arabes médiévales remonte à l'époque des premières expéditions arabes en Afrique du Nord. En 688 (69 H.), et après avoir régné sur Kairouan pendant cinq ans, le chef Maure Kacila fut vaincu et tué par

[19] Il faut préciser que Procope, conscient peut-être, de cette « anomalie », commença son paragraphe par une « localisation » plus générale : κατὰ δὲ τὴν μεσόγειαν ἐς τῆς χώρας τὰ ἔσχατα, qui veut dire « à l'intérieur de ce pays et vers ses parties extrêmes ».

[20] Av. Cameroun, « Byzantine Africa : the literary evidence », dans *Excavations at Carthage*, VII, 1982, p. 35.

[21] N. Duval, *L'état actuel des recherches*, p. 160.

[22] Modéran, *Les Maures et l'Afrique*, p. 571 et M. Solignac, *Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VIIe au XIe siècle*, Alger, 1953 (*Publ. de l'Institut d'études orientales de la Faculté des lettres d'Alger*, 13). p. 154.

[23] D. Pringle, *The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest*, Oxford, 1981, 2 vol. (*British Archaelogical Report, International Series*, 99) ; nouv. éd. 2001 (avec add. et index). ; J. Durliat, *Les dédicaces d'ouvrages de défense dans l'Afrique byzantine*, Rome, 1981 ; Modéran, *Les Maures et l'Afrique* , p. 571.

[24] Durilat, *Les dédicaces*, p. 39.

[25] Georges de Chypre, 649 Ed. E. Honigman, *Le Synecdémos*.§ 649. p. 53

« Dans les plaines de *Mammès*, l'Austur faisait périr de ses traits funestes les habitants des champs ; il livrait au pillage cette partie de la Byzacène et entassait de riches dépouilles. Antalas de nouveau venait d'unir ses troupes à celles de l'ennemi et s'avançait pour combattre »[13].

Le choix de la « Plaine de Mammès » (*campi Mammenses*) par les rebelles Maures aurait été aventureux s'il y avait déjà là une quelconque garnison de l'armée byzantine à cette époque. Or, un passage de Procope laisse entendre que *Mammès* fut « solidement fortifiée » par Justinien. Concluant dans le *De Aedificiis* le programme de fortifications ordonnées par l'empereur Justinien, l'historien byzantin écrit :

« Dans l'intérieur de ce pays et vers ses parties extrêmes, à proximité desquels vivent les Maures barbares, il construisit de très puissantes fortifications, pour que ceux-ci ne puissent plus faire d'incursions dans le territoire soumis aux Romains. Il entoura chacune des cités de murs très solides, car elles se trouvaient sur la limite de ce territoire : ces cités sont *Mammès*, *Thelepte*, et *Cululis* ; et il construisit aussi une citadelle que les indigènes appellent Aumetra, et il établit dans chaque place une forte garnison pour monter la garde... »[14].

D'après ce passage Mammès était l'une des villes situées « aux confins de la contrée » (ἐν ἐσχατιᾷ τῆς χώρας), de la même manière que *Thelepte*[15] et *Cululis*[16] et qui furent toutes fortifiées par Justinien en vue de repousser les incursions des Maures en Byzacène[17]. On s'est beaucoup interrogé sur le sens de cette étrange précision géographique[18]. En effet, si on peut aisément qualifier *Thelepte*

---

[13] Johannide, VII, 283-287 :

Campis Mammensibus Austur
rustica funeris sternebat corpora telis,
Byzacii partem rapiens praedamque secundam.
Antalas rursus proprium tunc junxerat agmen
partibus adversis seseque in bella ferebat.

[14] De Aedificis, 1, 6, 17-18 : κατὰ δὲ τὴν μεσόγειαν ἐς τῆς χώρας τὰ ἔσχατα, ἵνα δὴ αὐτὴν βάρβαροι προσοικοῦσι Μαυρούσιοι, ἐπιτειχίσματα κατ' αὐτῶν πεποίηται δυνατώτατα, ἐξ ὧν δὴ οὐκέτι οἷοί τέ εἰσι καταθεῖν τὴν Πωμαίων ἀρχήν. Πόλεις τε γὰρ τὰς ἐνταῦθα οὖσας ἐν ἐσχατιᾷ τῆς χώρας ἑκάστην τείχεσιν ἐχυροῖς ἄγαν περιβαλών, αἷς αἱ προσηγορίαι Μάμμης τε καὶ Τελεπτὴ καὶ Κοὺλουλις, καὶ φροὺριον τειχι-σάμενος, ὅπερ καλοῦσιν οἱ ἐπιχώριοι Αὐμέτρα, ἐχεγγύους ἐνταῦθα φρουροὺς στρατιωτῶν κατεστήσατο.

[15] Medinat el-Kedima, en Byzacène, à 60 km au S.-O. de Sbeitla, à 149 km au S. d'El-Kef, à 75 km au S.-E. de Tébessa. *AATun*, 1/100 000, f. 53, Feriana, n° 14. C. topo., 1/50 000, f. XCI, Feriana (34°58'33" N., 8°35'38" E.).

[16] Aïn Jeloula, en Byzacène, à environ 30 km au N.-O. de Kairouan, sur les premières pentes du Jebel Ousselet, au pied S.-E. du Jebel Chakeur. Elle s'étendait sur une colline à sommet presque plat, à environ 200 m d'altitude, et était flanquée du côté S. par l'Oued el-Hamra et du côté N. par l'Oued Jaloula. *AATun*, 1/50 000, f. 46 (LV), Aïn Djeloula, n° 113 (35°48'01" N., 9°47'44" E.).

[17] Nous ne discutons pas ici la question d'*Aumetra*, qui est déjà mentionnée à part dans ce passage. On note seulement que les doutes subsistent toujours quant à son identification avec *Ammaedara*, proposée par J. Desanges, *Un témoignage peu connu de Procope sur la Numidie vandale et byzantine*, dans *Byzantion*, XXXIII, 1963, p. 41-69, identification rejetée par N. Duval, *L'état actuel des recherches sur les fortifications de Jsutinien en Afrique*, dans *Corsi di cultura sull'arté ravennate e bizantina*, XXX, 1983, p. 149-204.

[18] Y. Modéran, *Les Maures et l'Afrique*, p. 571-572.

totalité de ses troupes. Parvenu à **la place** appelée Mammès, où les quatre chefs des Maures que j'ai mentionnés un peu plus haut avaient installé leur camp, il y construisit un **retranchement**. Ce secteur est occupé par des montagnes élevées, et il y a, au pied de celles-ci, un terrain plat : c'est là que les Barbares avaient procédé à leurs préparatifs de combat et adopté le dispositif de bataille suivant.»

Il ressort de ce passage que *Mammès* (Μάμμης), au moment de la « reconquête » byzantine, n'était qu'une simple « place » (τὸ χωρίον) faisant partie de la province de Byzacène. C'est là, semble-t-il, l'explication de son absence dans les sources anciennes avant cette date[8]. Il s'agit probablement d'un petit *vicus* ou d'une agglomération rurale modeste, qui occupait néanmoins un emplacement hautement stratégique, au carrefour de voies se dirigeant vers différentes destinations : la Proconsulaire au Nord, la Numidie à l'Ouest et la Tripolitaine au Sud.

Nous retenons aussi de ce témoignage que la localité de *Mammes* se trouve dans un endroit plat (χωρίον ὁμαλὲς), au du pied de « montagnes élevées » (περὶ τὸν πρόποδα τῶν ὀρῶν) qui la dominent. Il est vraisemblablement question de montagne faisant partie de la chaîne de la Dorsale qui traverse en diagonal l'actuelle Tunisie de S.-O en N.-E. Cette chaîne montagneuse suivait approximativement la frontière entre la Proconsulaire et la Byzacène[9]. Dans sa partie centrale, à l'Ouest de la plaine de Kairouan, elle comprend notamment, le Jebl Mghila (1378 m), Jebel Touecha (1378 m), Jebel Ech-Cherichra (462 m) Jebel Trozza (997 m), Jebel Barbrou (1189 m), le massif de Makthar (*Mactaris*) et de Kessra (1174 m) et le Jebel Ouslat (*Usulatus mons*) (895 m)[10]. Entre ces montagnes s'étendent de vastes plaines et vallées comme celles de Sbiba, al-Ala, Haffouz et al-Haouareb, etc.

Notons enfin, que le général byzantin Solomon, ayant mobilisé la totalité de ses troupes, évalués par Ch. Diehl à 18000 hommes[11], et en arrivant à cette « place » construisit « un retranchement » (χαράκωμα). Il s'agit là probablement d'un camp militaire, une simple redoute ou un petit fortin, pour servir de Quartier Général au *Magister militum*, chef de l'expédition. La bataille se termina par la victoire de l'armée impériale et la défaite des Maures. Et « les Romains, conclue Procope, avec tout le produit de leurs pillages, regagnèrent Carthage, pour y célébrer les cérémonies de la victoire »[12] . Il est clair donc que ce camp « temporaire » fut entièrement abandonné après la bataille de 534, et qu'aucune garnison n'y est point maintenue.

Par ailleurs, le poète africain Corippus nous informe que, quelques années plus tard, au printemps 548, les Berbères *Laguatan* insurgés se retrouvèrent de nouveau dans ces « plaines de Mammès » (*campi Mammenses*), en pleine Byzacène, probablement à la poursuite de l'armée byzantine, battue à Mareth et retranchée à *Laribus*. Voici ce passage de la *Johannide* :

---

[8] Il n'est pas impossible que le « Mampsaros oros » mentionné par Ptolémée, au IIe siècle apr. J.-C. ait un rapport quelconque avec le toponyme « Mammès », comme on essayera de le démontrer plus loin.

[9] La Dorsale débute au S.-O., sur la frontière tuniso-algérienne avec le Jebel Chambii (1544 m).

[10] Elle se poursuit vers le N.-E. par les montagnes suivantes : le Jebel Serj (1357 m), le Jebel Bou Dabbous, le Jebel Bargou (*Bourgaon mons*) (1286 m), le Jebel Chirich, le Jebel Mansour et le Jebel Zaghouan (*ziquenses mons*).

[11] Ch. Diehl, *L'Afrique byzantine*, p. 67 n. 4.

[12] Procope, *La guerre contre les Vandales*, II, 11, 56 p. 153.

La localisation de Mammes : état de la question

Mohamed Ben Abbès
Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis

Mammès est une localité dont le nom apparaît pour la première fois dans les écrits des auteurs byzantins à propos de la guerre que Byzance dut soutenir contre les Maures (les Berbères) au VI^{e} siècle[1], de même que dans les listes des cités fortifiées par Justinien[2]. Mais bien qu'elle soit entrée sur scène assez tardivement, aussitôt elle va devenir très célèbre et souvent mentionnée par les auteurs arabes du Moyen-Age. Ceci s'explique par un certain nombre de faits militaires importants qui s'y sont déroulés : c'est-là qu'à la fin de 534, une bataille se termina par la victoire des armées byzantines de Solomon sur les tribus Maures[3] ; puis en 548, après la défaite des Byzantins à *Marta* (Mareth), *Mammès* fut choisie comme centre de regroupement des tribus berbères s'apprêtant à reprendre l'offensive contre le patrice Jean, retranché à *Laribus* [4]; en 69 H / 688, c'était le théâtre du combat livré par Zohayr ibn Kays el-Balaoui au berbère Kacila (ou Kosayla)[5] ; enfin, c'est à *Mammès* que le 25 mars 909, le Mahdi Obayd Allah accorda l'*amân* (l'amnistie) aux notables de Kairouan, la veille de la prise de Raqqada[6].

Toutes ces données et d'autres, devraient normalement permettre une localisation plus ou moins sûre de cette ville du Kairouanais. Or, parmi les différentes hypothèses avancées à ce propos jusqu'aujourd'hui, aucune ne fait l'unanimité. On propose dans cette recherche de faire l'état de la question sur ce dossier à la lumière d'une nouvelle prospection du sol et d'un nouveau croisement entre les sources byzantines et arabes.

Les données des auteurs anciens

Comme c'est Procope qui semble avoir fourni le plus de données sur cette localité, nous commençons par analyser son témoignage : Voici ce qu'il rapporte dans *La guerre contre les Vandales* [7]

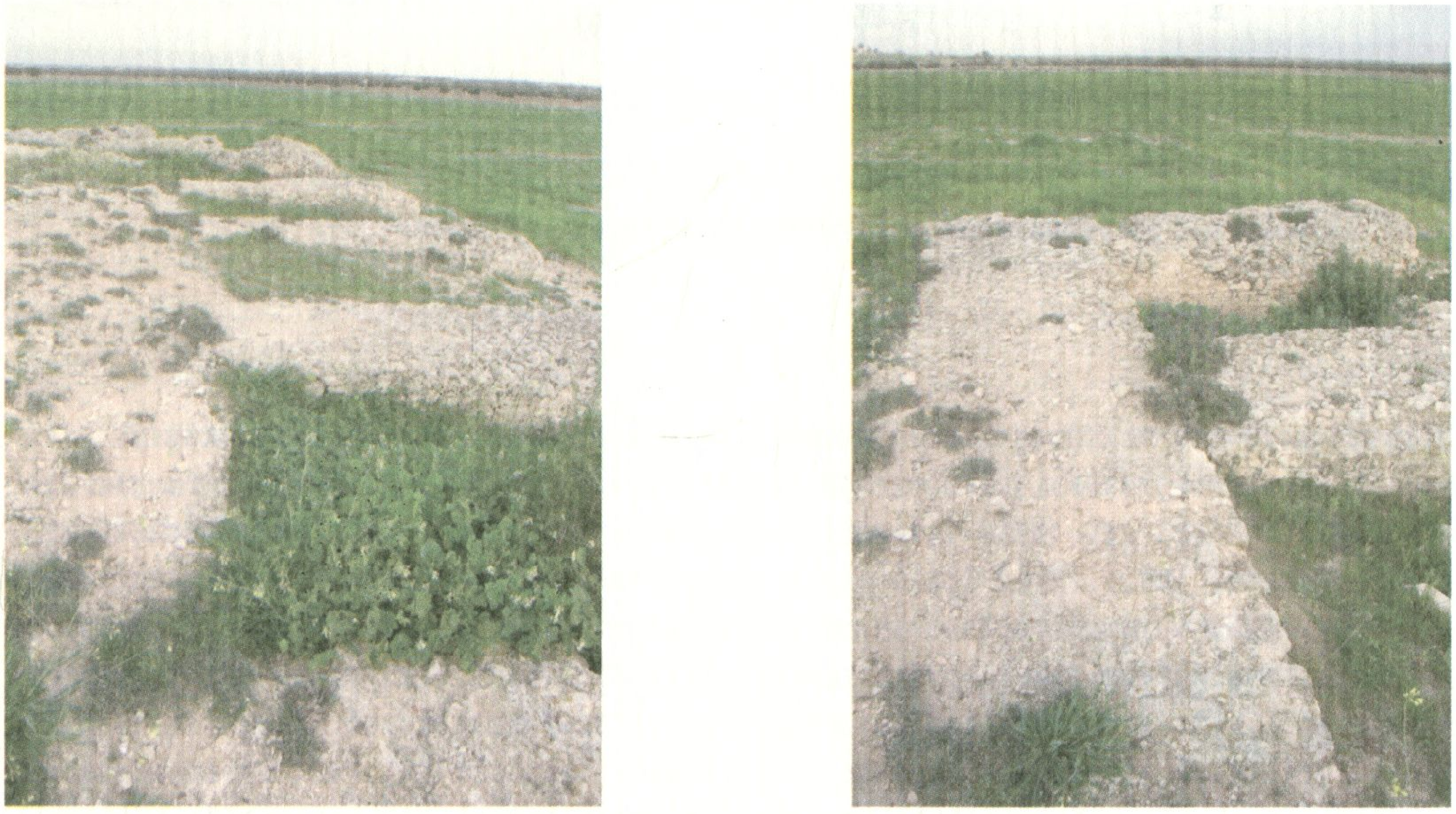
> « Solomon décida de conduire l'ensemble de l'armée contre les Maures. Il régla tout à Carthage, puis partit en direction de la Byzacène avec la

---

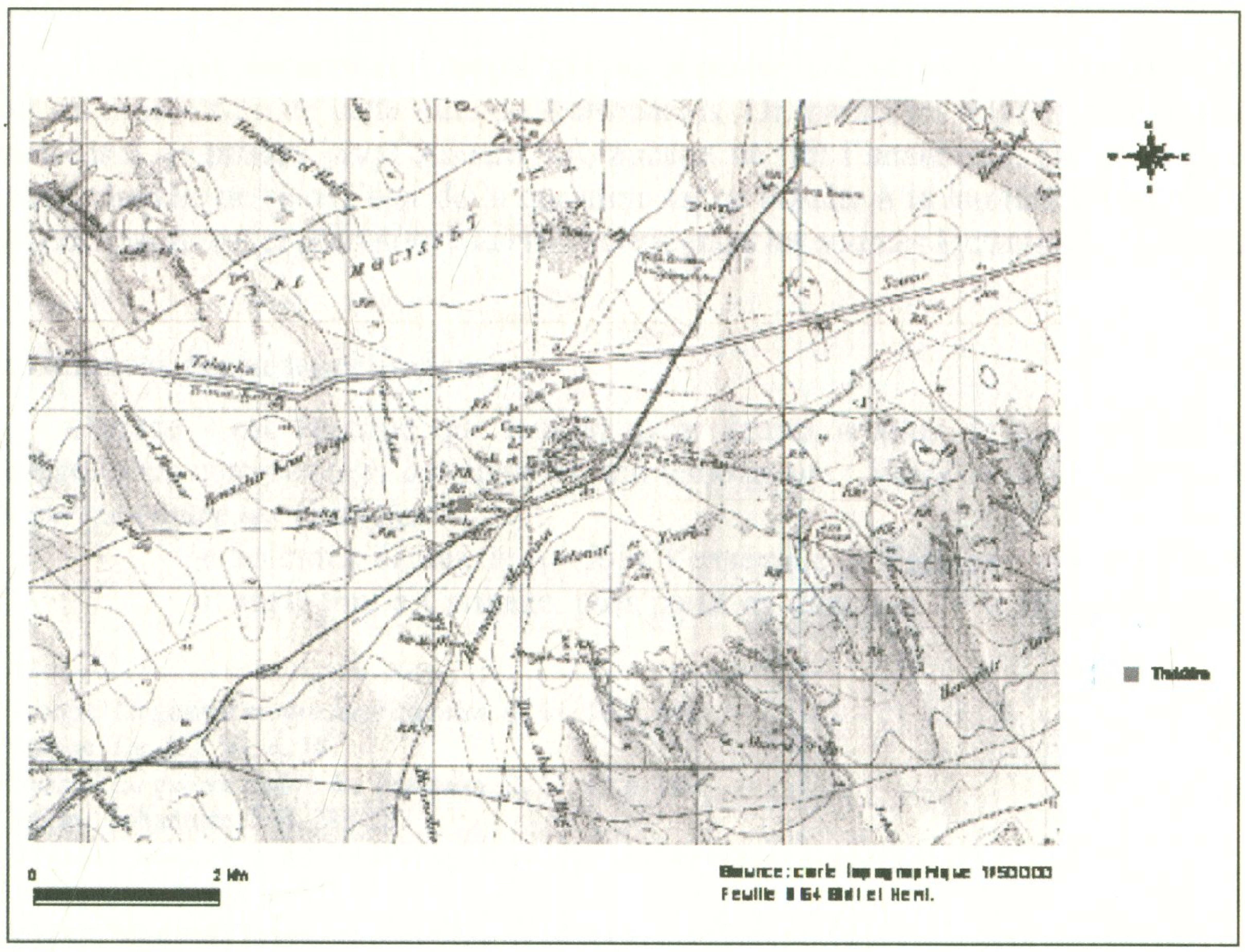
[1] Procope, *La guerre contre les Vandales*, II, 11, 14 p. 149
[2] Procope, *De Aed.* VI, 6, 18.
[3] Procope, *La guerre contre les Vandales*, II, 11, 14 p. 149
[4] Corippe, Johannide, VII, 283-287
[5] Al-Maliki, *Riadh*, I, p. 45; Ar-Râqiq, *Histoire*, p. 18 ; Ibn Idhari, *Bayan*, I, p. 22.
[6] An-Nooman , *Iftitâh*, p. 231.
[7] Procope, La guerre contre les Vandales, II, 11, 14 p. 149 Procope, *La guerre contre les Vandales*, II, 11, 15-16.

Καρχηδόνι πράγματα, πανὶ τῷ στρατῷ ἐς Βυζάκιον ῆει. γενόμενος δὲ ἐς Μάμμης τὸ χωρίον, ε̂νθα δὴ οἱ τέτταρες τῶν Μαυρουσίων α̂ρχοντες ἐστρατοπεδεύσαντο, ῶν ὀλίγῳ πρότερον ἐπεμνήσθην, χαράκωμα ἐποιήσατο. ο̂ρη δέ εἰσιν ἐνταῦθα ὑψηλὰ καὶ χωρίον ὁμαλὲς περὶ τὸν πρόποδα τῶν ὀρῶν, ε̂νθα οἱ βάρβαροι παρασκευασάμενοι ἐς τὴν μάχην ἐποιοῦντο τὴν παράταχιν ῶδε.

Planche V



Figures 1 et 2. Vestiges de la deuxième ceinture murale de la *cavea*.



Emplacement du théâtre de Sidi el Heni.

Planche IV





Figures 1 et 2. Emplacement de la *cavea* suite à la différence établie entre la couleur et la densité de la parure végétale. La densité de la végétation au dessus du cercle de la *cavea* plaide en faveur de la profondeur importante de son niveau initial.





Figures 3 et 4. Vestiges des murs de soutènement butant contre la ceinture murale extérieure.





Figures 5 et 6. Vestiges apparents de la scène suite à la différence établie entre la couleur et la densité de la parure végétale.

Planche III

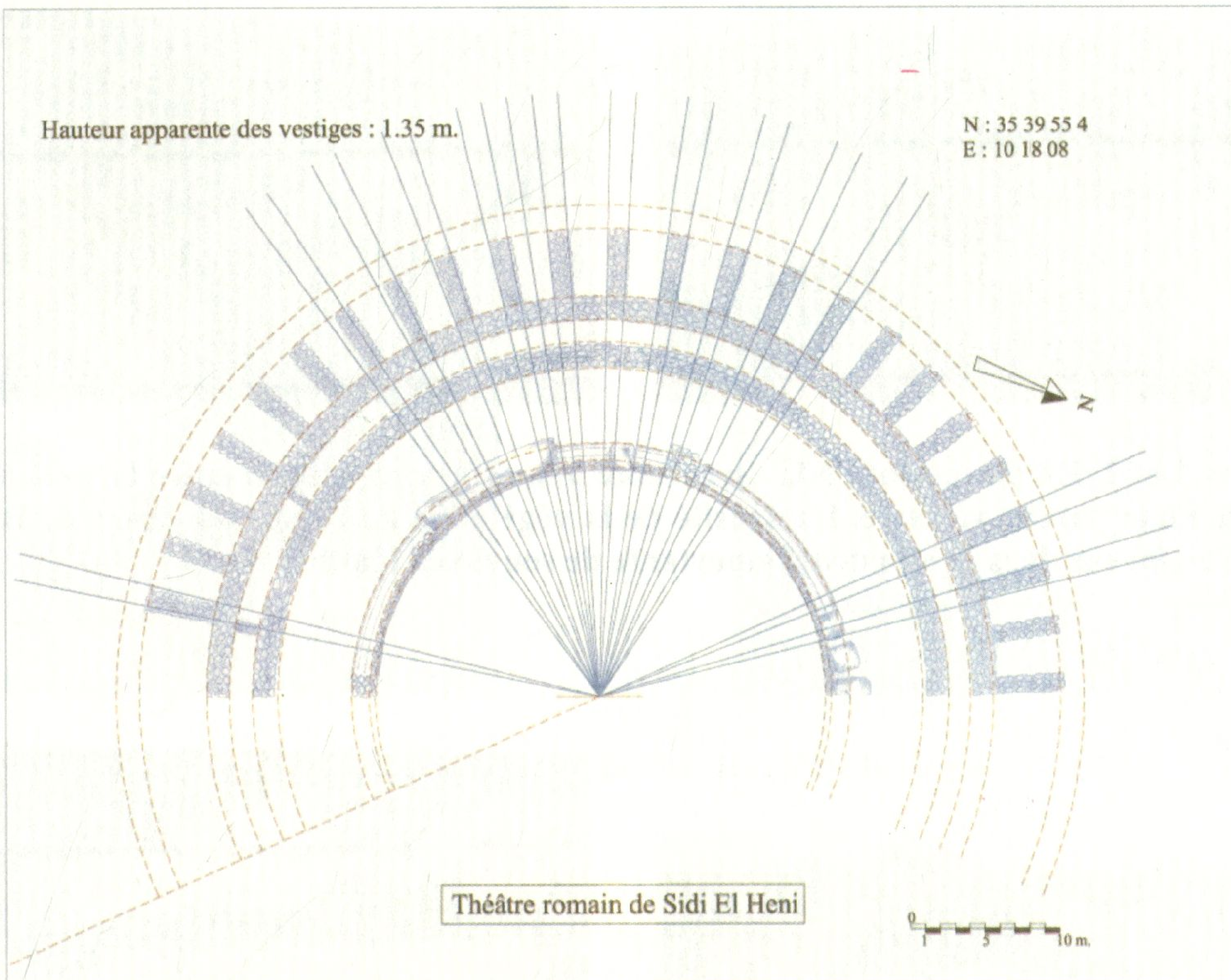


Figure 1 : reconstitution du tracé théorique déterminant les lignes des structures visibles des murs de soutènement de la *cavea*.



Figure 2. Blocs en moellons désolidarisés appartenant à la structure creuse de la *cavea*.



Figure 3. Hauteur maximale apparente des vestiges de l'enceinte murale extérieure (1.35 m)

Planche II

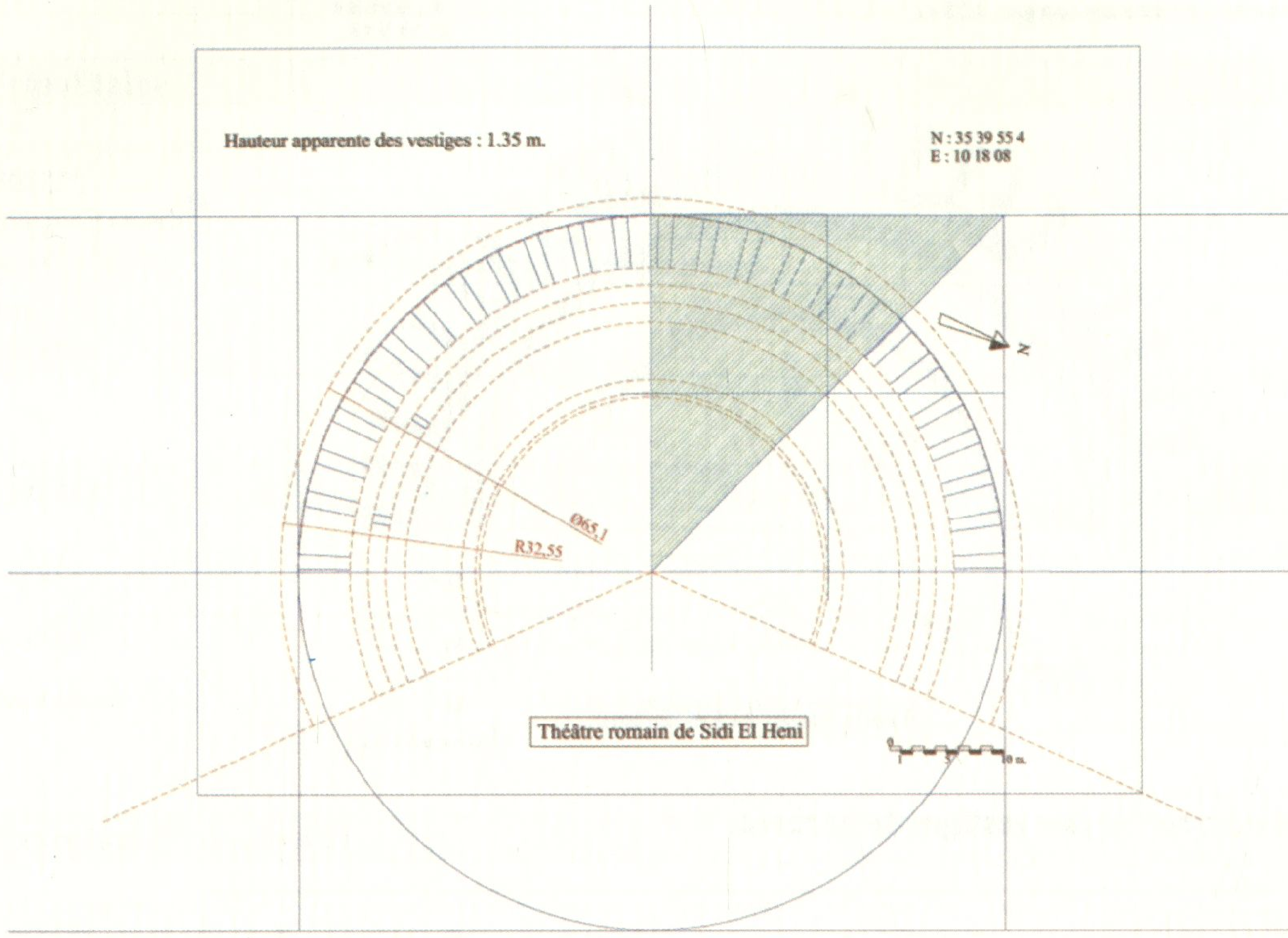


Figure 1 : reconstitution des axes déterminant le tracé théorique de la *cavea*.

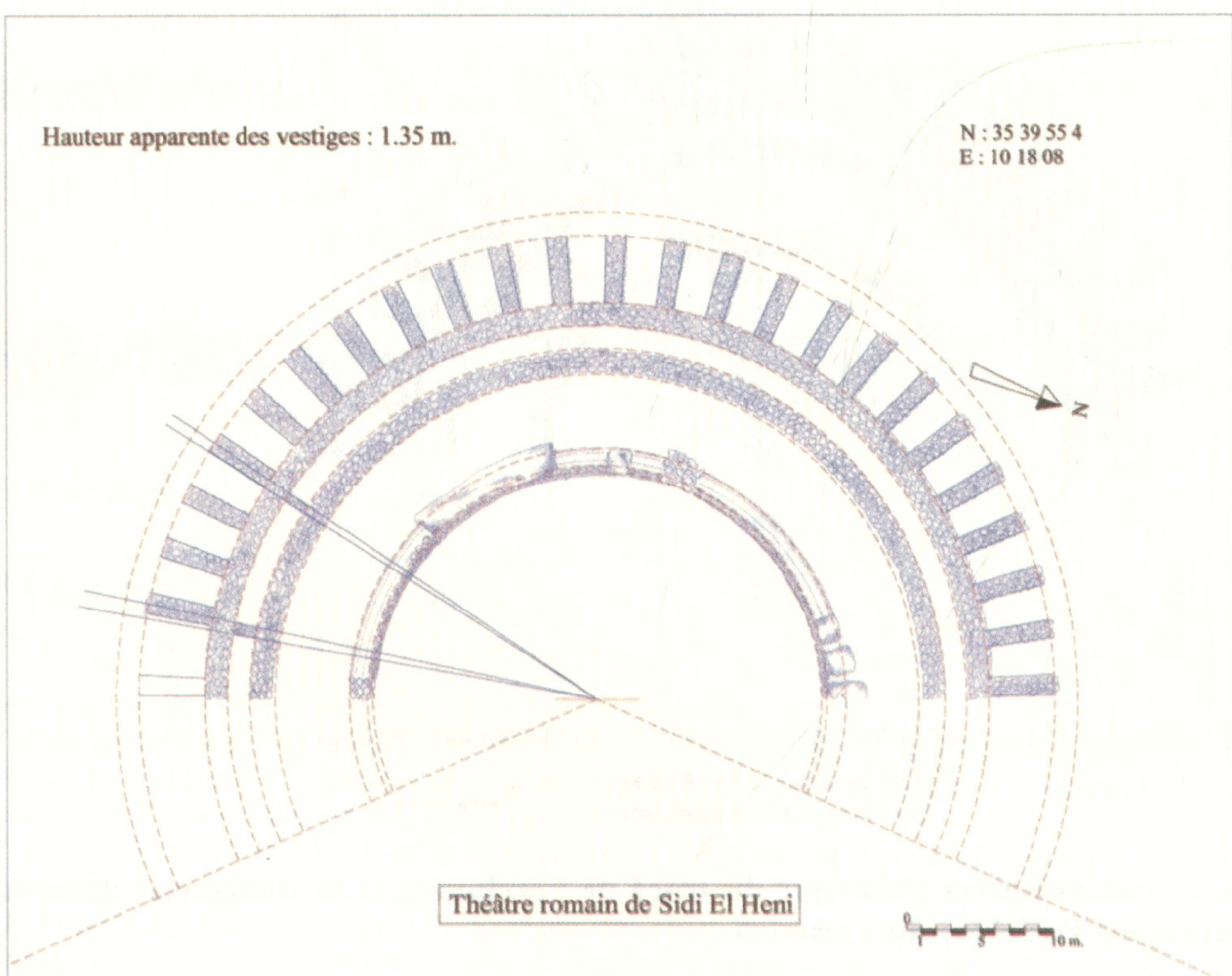


Figure 2 : reconstitution des lignes théoriques déterminant le tracé des pans coupés reliant les deux ceintures murales de la *cavea*.

Planche I

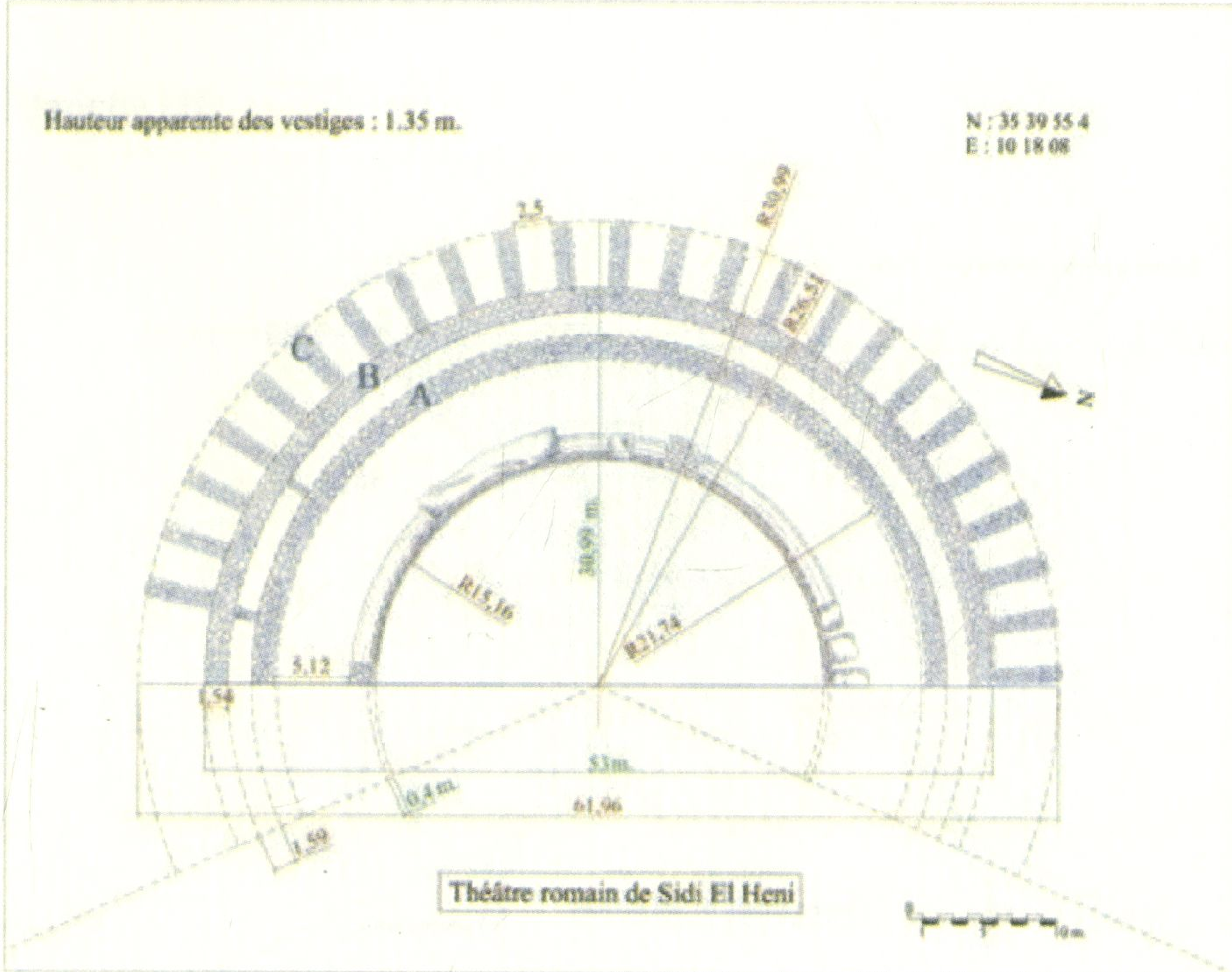


Figure 1 : relevé des vestiges de la *cavea*.

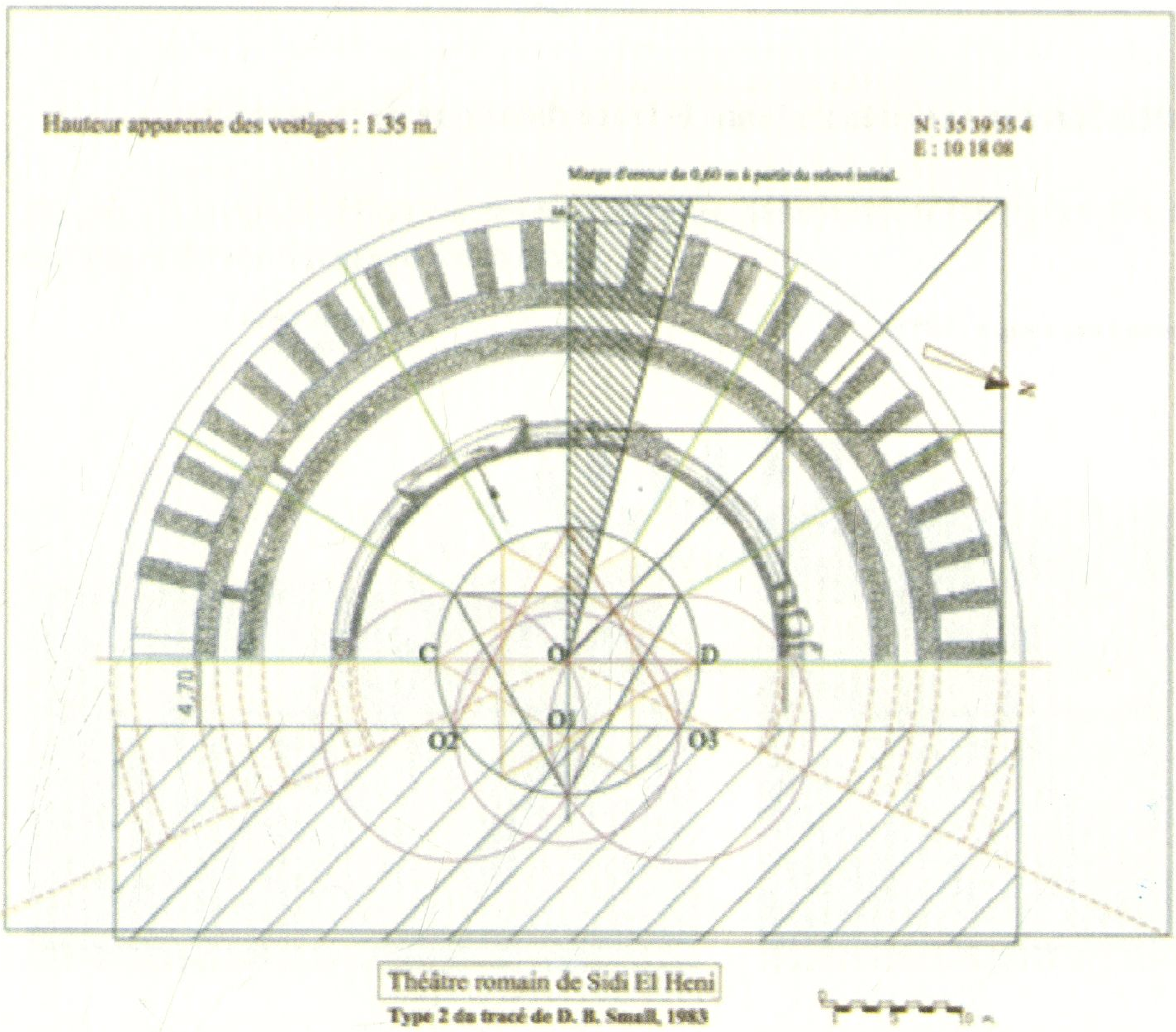


Figure 2 : reconstitution théorique du tracé de l'orchestra et du bâtiement de la scène à partir du tracé théorique dit vitruvien.

---

[68] *CIL*, *VIII*, sup. 16417.

Sidi el Heni[62]	•		• J.-C. Lachaux (?)		

Tripolitaine

Augarmi[63]					• (?)
Henchir Remadi[64]					• (?)
Lepcis Magna	•	• Aménagé	• Aménagé		
Oea[65]					•
Sabratha		•			

Numidie

Cuicul		•			
Rusicade		•	• Travaux		
Thamugadi		•	• Embellissements		

Maurétanie Césarienne

Caesarea[66]	•	•			
Tipasa		•			

Maurétanie Sitifienne

Sitifis					•

Maurétanie Tingitane Ø

Indéterminées

Henchir Sidi Nani[67]					•
Rudera[68]					•

[62] On serait tenté de proposer la deuxième moitié du I^er^ siècle ; jusque vers le milieu de ce siècle, l'Italie était seule en Occident à construire des théâtres évolués, dotés d'une *cavea* à ossature totalement fonctionnelle. Cf. E. Frézouls, *Op. cit*, p. 385 et p. 391.

[63] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 39, « Rien ne nous permet de dire que nous somme ici en présence des restes du théâtre dont il est fait mention en *BAC* ».

[64] *AAT*, Feuille CLXXX, Médenine, J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 72, « D'après la forme de la construction, nous pensons qu'il pourrait s'agir d'un théâtre ou d'un amphithéâtre de petite taille ».

[65] *CIL, VIII*, 24 ; Apulée, *Apologie*. 98.

[66] La transformation du théâtre en amphithéâtre aurait été effectuée entre la fin du premier siècle et le début du deuxième siècle. Cf. J.-Cl. Golvin et Ph. Leveau, *Op. cit.*, p. 841.

[67] *CIL, VIII*, 23107.

Sicca Veneria					•
Simitthus					•
Sutunurca[49]					• (?)
Testour[50]					• (?)
Thabbora[51]					• (?)
Theveste		•	•Aménagé		
Thibari[52]					•
Thignica				• (?)[53]	
Thuburbo maius[54]					•
Thuburnica[55]					• (?)
Thubursicum Numidarum		•			
Thugga		•			
Tunes[56]					• (?)
Uchi maius[57]					• (?)
Uthina					•
Utica	•	•			

Byzacène

Bararus					•
Capsa					• (?)
Cillium		•			
Civitas Popthensis[58]					•
Gurza					•
Hadrumetum		•			
Limisa					•
Leptiminus					•
Macrinus[59]					• (?)
Municipium Muzucensis[60]					• (?)
Pupput					•
Sufetula				• Transformé	
Thelepte					•
Ulizippira[61]					•

[49] *ILAfr.* 303.
[50] *CIL, VIII*, sup. 14891.
[51] *ILAfr.* 303.
[52] *A.AT*, Feuille XXXII, Henchir Hammamet, n° 16.
[53] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 125, « Une inscription – *CIL, VIII*, 1408 – pourrait le dater du IV^{e} siècle, entre 306 et 312 ».
[54] *CIL, VIII*, sup. 853.
[55] *CIL, VIII*, sup. 25703 – 25704.
[56] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 143.
[57] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 144.
[58] *Kenissia*, Ksiba de Sousse. J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 63.
[59] El Medad , entre Mactar et Thala, cf. J.-C. Lachaux, *Ibid.*, p. 86.
[60] *AAT*, Feuille XLVII, Jebel Bargou, Henchir Krachnoum.
[61] *AAT*, Feuille XLIX, n° 190, Henchir Zembra.

Chronologie des théâtres africains

Proconsulaire

Toponymes	Ier siècle	IIe siècle	IIIe siècle	IVe - Ve siècles	Non datés
Althiburos		•			
Ammaedara			• Restauration		
Assuras					•
Bulla regia		•		• Réfections	
Calama		•			
Carthage		•	• Travaux	• Transformé	
Cincari[35]					• (?)
Civitas Siagitana[36]					•
Cluacaria[37]					• (?)
Curubis		•			
Furnos minus[38]					• (?)
Giufi[39]					•
Henchir el Khima[40]					• (?)
Henchir Qaoussat[41]					•
Henchir Sidi Abdelbasset[42]					•
Hippo Diarrhytus[43]					• (?)
Hippo Regius	•				
Madauros			•	• Restauré	
Maragui Sara[44]					•
Municipium Aurelium Commodianum[45]					•
Municipium Aurelium Vina[46]		•			
Musti[47]					•
Numluli[48]					•
Seressi					•

[35] Henchir Tengar ; cf. J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 62-63.
[36] *CIL, VIII*, 967.
[37] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 65, « La localité est connue par ailleurs pour être une *statio* de la Table de Peutinger » ; cf. *Tabula Peutingeriana, Segmentorum, V-VI, Clucar.*
[38] *CIL, VIII*, supl. 2580 b.
[39] *CIL, VIII*, 858 - 860 – 867.
[40] *A.A.T.* Feuille XLVII, Dj. Bargou.
[41] Khanguet el Kdim aux environs du Kef, cf. J.-C. Lachaux, *Ibid.*, p. 71.
[42] *CIL, VIII*, sup. 14 343.
[43] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 73.
[44] *CIL, VIII*, 11 998.
[45] *CIL, VIII*, sup., 23963–64–65.
[46] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 155, « On peut le dater de la première moitié du IIe siècle après J.-C. ».
[47] *CIL, VIII*, 1577, sup. 15576.
[48] *CIL, VIII*, sup. 26121.

Enfin, à l'instar du théâtre de *Caesarea* de Maurétanie, l'architecte avait cherché à orienter l'hémicycle du théâtre de Sidi el Heni vers le Nord, conformément aux prescriptions de Vitruve[26], et comme c'est presque toujours le cas en Afrique du Nord si l'or excepte les théâtres de Dougga et de Rusicade[27].

Ce travail nous a permis de tirer trois remarques principales concernant le site et le monument :

- Le théâtre de Sidi el Heni, d'après son plan, est de type dit vitruvien ou vitruvien modifié, le deuxième en Afrique du Nord avec celui de Cherchel[28]. Il s'agit d'un bâtiment à structures creuses dont la *cavea* est totalement construite sur un terrain plat à l'instar d'autres monuments de spectacles scéniques, comme ceux de *Bulla regia, Simitthus* et *Ammaedara*[29].
- Si on admet que *Vicus Augusti* coïncide avec la localité actuelle de Sidi el Heni, il convient d'y relever un cas unique de domaine impérial possédant un théâtre.
- Il nous parait que ce théâtre appartient à une agglomération antique importante[30]. Les vestiges de thermes, de mosaïques, des fragments de plusieurs types de marbre, de fresques, des éléments d'architecture décorative[31], les amas de la sigillée et de tessons de lampes ainsi que la capacité d'accueil du théâtre[32], plaident en faveur de cette discussion[33], d'autant plus que le théâtre de Sidi el Heni aurait été construit, d'après son tracé de type dit vitruvien, au premier siècle de l'Empire[34].

---

[26] Vitruve, *De Architectura*, V, III, « Il faut encore prendre garde que le théâtre ne soit pas exposé au midi : car les rayons du soleil enfermés dans la rondeur du théâtre, échauffent grandement l'air y est arrêté, et cet air ne pouvant être agité, devient si ardent et si enflammé, qu'il brûle, cuit et diminue les humeurs du corps ».

[27] E. Frézouls, *Op. cit*, p. 393, fig. 25. L'orientation de la *cavea* dans d'autres théâtres de l'Afrique du Nord, encore non étudiés comme ceux *d'Uthina* et de *Iunci*, respecrte les prescriptions de Vitruve.

[28] La *frons scaenae* à Sidi el Heni pouvait être rectiligne à l'instar de celle de Cherchel ; aucune trace de structures arrondies au fond de la scène n'est visible *in situ*. Cf. C. Courtois, *Op. cit*, p. 103 ; J.-Cl. Golvin et Ph. Leveau , *Op. cit.*, p. 832-838.

[29] Concernant la diversité des composantes architecturales et décoratives, les théâtres africains offrent une palette plus importante par rapport aux autres provinces ; cf. C. Courtois, *Op. cit.*, p. 96-97 : « Les théâtres d'Afrique répartis en Cyrénaïque, en Afrique Proconsulaire, en Numidie et en Maurétanie, offrent une diversité plus grande en raison de leur contexte historique... ».

[30] H. Jouffroy, *La construction publique en Italie et dans l'Afrique romaine*, CNRS et Université des Sciences humaines de Strasbourg, coll. Études et Travaux, II, Strasbourg, 1986, p. 402. « Les édifices consacrés aux spectacles ont eu eux aussi la faveur des habitants des villes, et l'on sait que beaucoup d'entre elles ne se contentaient pas d'un théâtre, qui était quelquefois de dimensions modestes, mais y ajoutaient un amphithéâtre, et les plus importantes, un cirque, d'une ampleur parfois remarquable »

[31] R. Cagnat, *Op. cit*, t. 2, p. 39 ; t. 3, p. 21 ; S. Ben Baaziz, *Op. cit*, n° 40.

[32] Le théâtre romain est l'un des monuments publics les plus significatifs de la vie urbaine. Cf. E. Frézouls, *Op. cit.*, p. 432. « Les théâtres ruraux, comme les théâtres-amphithéâtres, sont propres à la Gaule et cantonnés dans certaines régions de Lyonnaise et d'Aquitaine ».

[33] Aussi, faut-il ajouter le tronçon d'une voie antique passant par le site et s'agissant, selon toute vraisemblance, de la *via hadrumetina*. A se fonder sur *l'Itinéraire d'Antonin*, une voie qui relie Hadrumète à *Theveste*, passe par *Vicus Augusti* et *Aquae Regiae*.

[34] *In contrario*, J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 154-155 : « On sait néanmoins qu'à l'époque chrétienne *Vicus Augusti* fut une cité florissante qui vivait du commerce des lampes et des poteries diverses qu'elle fabriquait. Il est donc possible que le théâtre ait été construit vers le III^e^ siècle ». Dans l'état actuel des recherches archéologiques, il est impossible de demander à la documentation extra architecturale une confirmation ou un démenti. Ajoutons que la structure creuse de la *cavea* est un modèle architectural luxueux et coûteux, cf. E. Frézouls, *Op. cit*, p. 353-354.

théâtre, que nous proposons, en partant du modèle vitruvien, résulte une largeur de 4, 70 m propre aux deux passages latéraux desservant le *proscaenium* (Pl. I, fig. 2).

En second lieu, on peut aisément imaginer dans la partie nord - est des vestiges, dans la *prae extremitas*, les traces arasées de deux murs perpendiculaires délimitant l'un des deux angles extérieurs de la scène[20]. Quoique les vestiges sont peu significatifs pour en déterminer les détails de la scène avec exactitude[21], les prises de vues photographiques montrent explicitement l'emplacement et de la scène et du « cercle », ainsi que le contour de l'orchestra, et ce par la différence établie entre la couleur et la densité qu'offre la parure végétale (Pl. IV, fig. 1, 2, 5 et 6). L'application de la composition du plan radio-concentrique dictée par les vestiges, attribuable au type vitruvien, confirme ces remarques avec une marge d'erreur de l'ordre de 0, 60 m.

L'emplacement de l'*orchestra* est, de la sorte, confirmé par un cercle de 14 à 15 m de diamètre[22] (Pl. I, fig. 1). Cette côte est incorrecte dans la description de J.-C. Lachaux, vu qu'il se fie aux vestiges du plus petit demi-cercle conservé *in situ* pour l'attribuer aux limites du rayon de l'*orchestra* : « L'orchestre mesure 22 m de diamètre ; elle est entièrement recouverte de terre et aucun dallage n'est apparent. La largeur totale est d'environ 58 m sur une profondeur de 35 m jusqu'à la ligne qu'on peut tracer entre deux *vomitoria* et qui représente l'emplacement du *pulpitum* »[23]. *In contrario*, l'ensemble du *proscaenium* ainsi qu'une partie de l'*ima cavea* sont aujourd'hui enfouis[24] (Pl. IV, fig. 1et 2).

Les sommets supérieurs des triangles de l'*orchestra*, déterminent ainsi la position des escaliers de la *cavea*. Leur élimination de l'ensemble du calcul propre au nombre de places qu'offre la *cavea*, donne une capacité d'accueil de 3 000 à 3 500 spectateurs, *orchestra* comprise, à raison de 0, 42 m^2 occupés par personne[25].La *summa cavea* devait contenir la majeure partie des places d'autant plus qu'elle est supportée par des voûtes jouant le rôle de soutènement laissant libres les passages de *parodos*.

---

[20] C. Courtois, « Le bâtiment de scène des théâtres romains du Sud de la Gaule, des Provinces d'Espagne et d'Afrique du Nord. Étude comparée », *Latomus*, t. 57, 1, 1998, p. 100-101. « Les théâtres de l'Afrique du Nord présentent quelques originalités quant aux supports de l'estrade qui peuvent être constitués de murets perpendiculaires à la façade du *pulpitum* et d'un remblai aux extrémités (Kasserine, Khamissa, Madaure, *Sabratha*) ou encore, sur toute la longueur de l'*hyposcaenium*, de rangées de pilettes supportant une voûte (Dougga, *Bulla Regia*, Zanfour, Sbeïtla). Murs perpendiculaires, remblais et voûtes permettaient d'ériger une estrade partiellement en matériaux durs et non totalement en bois. On rapprochera ainsi plusieurs théâtres d'Afrique proconsulaire de quelques théâtres du Proche Orient..., alors qu'aucune estrade au sol en matériaux durs n'est attestée en Occident ».

[21] L'état très sommaire des vestiges du bâtiment de scène trouve son explication peut être dans l'absence de chambres et d'espaces annexes propres à cet espace scénique dans les théâtres africains ; la chambre de manœuvres du rideau, inscrite dans le programme de l'*hyposcaenium*, n'est attestée que dans quelques cas comme à Dougga ou à *Tipasa*. Cf. E. Frézouls, *Op. cit*, p. 424 et planche X, fig. 1. Aussi, les matériaux de construction de plate-forme du *proscaenium* et des *parascaenia* dans les théâtres d'Afrique du Nord se caractérisent par l'abondance du remblai. Cf. *nota supra* ; C. Courtois, *Op. cit.*, p. 99-101, « L'emploi peu fréquent de rideau, en Afrique du Nord et plus particulièrement en Afrique Proconsulaire, pourrait être expliqué par la nature du recouvrement du sol de l'estrade, murs perpendiculaires à la façade et remblai ne permettant aucun déplacement de machiniste et encore moins la présence de machinerie. En revanche, quelques théâtres de Maurétanie (*Tipasa*) et de Numidie (Djémila, Timgad), possédèrent, comme les théâtres occidentaux, deux ou trois rangées de pilettes derrière la façade du *pulpitum*, dont le sol a pu être en bois».

[22] Le diamètre de l'orchestra du théâtre de Caesarea mesure environ 22 m, cf. ; J.-Cl. Golvin et Ph. Leveau , *Op. cit.*, p. 833.

[23] J.-C. Lachaux, *Op. cit.*, p. 154.

[24] Sur la possibilité très fréquente en Afrique du Nord d'une suppression de fonctionnalité de *postscaenium* et d'autres parties de la scène ; J.-C. Lachaux, *Op. cit.*, p. 103-104. Aucune trace d'une pièce ou d'un portique *post scaenium* n'est repérable sur le terrain.

[25] Une capacité qu'on trouve dans d'autres théâtres africains comme celui de *Thugga*.

Somme toute, la solution de Vitruve s'applique bien au tracé des escaliers de la *cavea*[14], alors que les schémas proposés par D.-B. Small correspondent mieux au tracé de la scène, de son mur et au positionnement de ses portes[15].

La disposition au sol des vestiges du monument de Sidi el Heni est celle d'un plan rayonnant propre à une *cavea* d'un théâtre. Ses structures, massées et symétriques de part et d'autre de plusieurs axes, convergent vers un centre équivoque au point de départ qui dirige l'ensemble de la structure de l'édifice (Pl. II, fig.1 ; Pl. III, fig. 1).

Dotée de deux ceintures murales parallèles vers son extrémité sud et, distantes de 1, 50 m, la partie massive de la *cavea* avait pour fonction et de servir de fondation et de surélever les *parodos* de la *summa cavea* (Pl. I, fig. 1, A et B ; Pl. III, fig. 2et 3 ; Pl. V, fig. 1 et 2). Le vide obtenu suite à ces deux demi-cercles est compartimenté par de pans coupés équidistants, dont les traces de deux d'entre eux sont aujourd'hui encore repérables (Pl. II, fig. 2), afin de contenir la poussée des terres versées dans les compartiments quadrangulaires ainsi déterminés. L'orange d'épaulement est formé de 25 murs de soutènement[16], butant la ceinture externe à intervalle régulier de 2, 50m, qui se distinguent par un grand allongement d'environ 5 m (Pl. I, fig. 1, C ; Pl. IV, fig. 3et 4 ; Pl. V, fig. 1 et 2).

Afin de trouver le point de départ directeur du tracé d'ensemble, nous avons opté pour un essai appréhendant les lignes accompagnant les côtes et indiquant les points théoriques extrêmes de ces murs de soutènement. Le résultat obtenu est un point vers lequel converge, en parfait intervalle spatial, l'ensemble des lignes déterminant leurs tracés (Pl. III, fig. 1). Ce point, constituant le centre du cercle de l'*orchestra*, forme le départ de nos calculs géométriques pour l'application des trois méthodes théoriques propres aux types de tracé initial d'un théâtre romain.

Les trois représentations graphiques ainsi élaborées (Pl. I, fig. 2 ; Pl. II, fig. 1 ; Pl. III, fig. 1) nous permettent d'accorder un plan dit vitruvien au théâtre de Sidi el Heni. Cette déduction, tirée de notre approche comparative, impose la quête d'arguments pratiques d'autant plus que, avec ce résultat, seul le théâtre de Cherchel[17] se joint, par son programme métrique, au théâtre de Sidi el Heni et ce pour l'ensemble de l'Afrique du Nord.

La description des vestiges avancée par J.-C. Lachaux vers la fin des années soixante du siècle dernier nous confirme, en premier lieu, la disposition métrique des *vomitoria* latéraux dont les traces étaient partiellement conservées à l'époque[18]. L'auteur donne la description suivante : « Sur les deux ailes, au niveau du sol, on remarque les alignements de dalles de pierre formant deux couloirs opposés. Leurs extrémités sont marquées par des blocs légèrement surélevés de 0, 15 m, sur 4, 50 m de large ; nous sommes sans aucun doute en présence des deux vomitoria latéraux. Leur longueur correspond à la largeur de la cavea »[19]. La restitution de l'aspect présumé du

---

[14] Sur les critiques adressées au tracé théorique vitruvien, voir P. Gros, *Dictionnaire d'architecture romaine*, t. I, *les monuments publics*, p. 272-307 ; E. Frézouls, *Op. cit.*, p. 366-369 ; J.-Cl. Golvin, *Op. cit.*, p. 387.

[15] J.-Cl. Golvin, *Op. cit*, p. 387. Sur l'inspiration de Vitruve des traités hellénistiques, voir E. Frézouls, *Op. cit.*, p. 368.

[16] Le nombre des murs de soutènement proposé par J.-C. Lachaux, nécessite une rectification puisqu'il s'agit certainement de 25 et non de 28. J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 154, « On remarque 28 murs de soutènement en blocage de petit appareil rayonnant autour de l'orchestra ; la longueur moyenne de chacun est de 1, 50 m et ils sont espacés de 2, 50 m. ».

[17] *Cuicul* et *Thugga* : deuxième type : début de l'époque Julio-claudienne ; cf. J.-Cl. Golvin, *Op. cit*, p. 387 ; E. Frézouls, *Op. cit.*, p. 388-391 ; J.-Cl. Golvin et Ph. Leveau, *Op. cit*, p. 833.

[18] Aucune trace des murs délimitant les deux vomitoires ne subsiste aujourd'hui.

[19] J.-C. Lachaux, *Op. cit.*, p. 154.

En matière d'architecture théâtrale, cette démarche exige la remise en mémoire des principes directeurs du tracé théorique d'un théâtre romain.

Le tracé de base d'un théâtre romain est donné par Vitruve[6]. L'architecte de l'époque augustéenne dessine d'abord le cercle de l'*orchestra* (o), puis il y inscrit quatre triangles équilatéraux suite au même point de départ choisi pour le cercle ; les points de division se groupent ainsi quatre par quatre[7]. La base du triangle située dans l'axe de théâtre (ligne a, b) détermine le *frons scaenae*. La ligne (c, d) qui lui est parallèle et qui passe par le centre du cercle (o), sépare l'*orchestra* de la scène. Les sommets des triangles situés autour de l'*orchestra*, à l'opposé de la scène, déterminent la position des escaliers de la *cavea* et les sommets inverses définissent l'emplacement des trois portes donnant sur la scène qui se place, de la sorte, beaucoup plus en profondeur que dans le théâtre grec[8] (Pl. I, fig. 2). Ce tracé théorique proposé par Vitruve n'a pas été souvent appliqué[9]. Dans ce contexte, en écartant les théâtres d'origine hellénistique[10] et en étudiant les variations des tracés, D.-B. Small[11] distingue parmi les théâtres bien conservés trois groupes :

- Le premier groupe comprend les théâtres à *frons scaenae* rectiligne d'époque républicaine ou Julio - claudienne pour la plupart. Il compte dix-huit exemples dont six, notamment celui de Cherchel[12], correspondant au schéma vitruvien, et les autres à un schéma vitruvien modifié.
- Le deuxième groupe concerne les théâtres à *frons scaenae* échancré, comprenant une abside centrale flanquée, de part et d'autre, de deux niches latérales à fonds plats. Ce groupe se situe au début de l'époque augustéenne et on peut y rattacher les théâtres de *Caesarea*, de *Thugga* et de *Cuicul*.
- Le troisième groupe correspond également à des théâtres à *frons scaenae* échancré, mais comprenant une abside centrale flanquée de grandes niches semi-circulaires, comme ceux de *Lepcis Magna*, *Sabratha* et *Thubursicu Numidarum*. Pour ces théâtres qui s'écartent du modèle vitruvien, D.-B. Small propose le schéma suivant : l'*orchestra* est délimitée par un cercle recoupé par une ligne (a, b) correspondant à l'axe de symétrie du théâtre. L'abside de la *regia* est déterminée par un autre cercle (o1), plus petit que celui de l'*orchestra*, qui le recoupe en deux points (o2, o3). Ces derniers sont les centres de deux autres cercles qui vont déterminer la position des *hospitalia*. Dans certains cas, ces deux cercles latéraux ont le même rayon que celui de l'*orchestra* ; mais dans d'autres cas, comme à *Thubursicu Numidarum*, leur rayon est égal à celui du cercle qui détermine la *regia*[13]. La position des *hospitalia* est donnée par l'intersection de ces cercles avec la ligne (e, f) tangente au cercle de l'*orchestra*.

---

[6] Vitruve, *De Architectura*, 5, 6.

[7] Et non trois par trois à l'instar de la circonférence de l'*orchestra* du théâtre grec. Sur le plan directeur du théâtre grec, voir par exemple A. Choisy, *Histoire de l'architecture*, t. I, Paris, 1996, p. 486-487 ; E. Frézouls, « Aspects de l'histoire architecturale du théâtre romain », *ANRW*, II, 12, 1, Berlin – New York, 1982, p. 366, fig. 7.

[8] Sur le plan directeur du théâtre de tracé dit vitruvien, voir Frézouls, *Op. cit.*, p. 367, fig. 8.

[9] P. Gros, *Dictionnaire d'architecture romaine*, t. I, *les monuments publics*, Paris, 1996, p. 272-307 ; E. Frézouls, *Op. cit.*, p. 366-369.

[10] Dont le schéma de base répond à d'autres caractéristiques de tracés théoriques.

[11] D.-B. Small, « Studies in roman theater design », *AJA*, 87, 1983, p. 55-68.

[12] Sur le théâtre de Cherchel, voir Ph. Leveau, « Caesarea de Maurétanie », *ANRW*, 10, t. 1, 1982, p. 702-704 ; Ibid., *Caesarea de Maurétanie. Une ville romaine et ses campagnes*, coll. E.F.R., n° 70, Rome, 1984, p. 33- 36 ; J.-Cl. Golvin et Ph. Leveau, « L'amphithéâtre et le théâtre-amphithéâtre de Cherchel : monuments à spectacle et histoire urbaine à Caesarea de Maurétanie », *MEFRA*, 91, 1979, 2, p. 817-843.

[13] J.-Cl. Golvin, *L'amphithéâtre romain. Essai sur la théorisation de sa forme et de ses fonctions*, Publication du Centre Pierre Paris (UA 991), 18, avec le concours de CNRS, Paris, 1988, p. 387.

A propos du théâtre de Sidi el Heni (*Vicus Augusti*?)

Mohammed Riadh Hamrouni
Hedi Fareh
Faouzi Abdellaoui
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan

Le théâtre de Sidi el Heni ne fut mentionné que succinctement, depuis l'avant dernier siècle, dans les rapports des voyageurs et des explorateurs. R. Cagnat, dans son *exploration épigraphique et archéologique*, affirmait que les vestiges du bâtiment étaient propres à «un théâtre construit en petit appareil, dont l'hémicycle est parfaitement dessiné » ; H. Saladin, en se référant à R. Cagnat, nous renseigne que l'édifice est « un théâtre en blocage, déblayé en partie par les troupes ». L. Carton, revenant *etiam* au rapport de R. Cagnat, ajoutait des remarques sur la *cavea* en décrivant le tracé de ses structures comme suit : « on y remarquait de grands contreforts placés extérieurement suivant des rayons contre son mur extérieur de la voûte en hémicycle qui en portait les gradins » [1].

En sus de cette *exigua materia*, la littérature archéologique ne consacre que deux notes décrivant sommairement les composantes architecturales générales du théâtre. La première se limite à « deux pages » réservées par J.-C. Lachaux dans son catalogue portant sur les *Théâtres et amphithéâtres d'Afrique proconsulaire*[2] ; l'auteur a accordé beaucoup d'intérêt aux dimensions des éléments architecturaux ainsi qu'à l'état de conservation du monument[3]. La deuxième est une brève notice avancée par S. Ben Baaziz dans la *Carte Nationale des Sites Archéologiques et des Monuments Historiques*[4].

Les références susmentionnées ne présentaient ni des rapports descriptifs détaillés sur le programme architectural du bâtiment, ni même une esquisse générale des cotes nécessaires à l'établissement de son plan. Aussi, aucun essai de comparaison avec d'autres théâtres provinciaux n'a été proposé. Plusieurs sont, ainsi, les raisons qui justifient notre propos.

Disposons d'un relevé que nous avons effectué au mois de juillet 2004[5] et que nous jugeons détaillé (Pl. I, fig. 1), notre travail consiste, en premier lieu, à retrouver le tracé initial du théâtre. En second lieu, nous avons essayé de chercher l'ensemble des liens géométriques qui rattachent les différentes parties du bâtiment les unes aux autres afin d'atteindre sa composition unitaire.

---

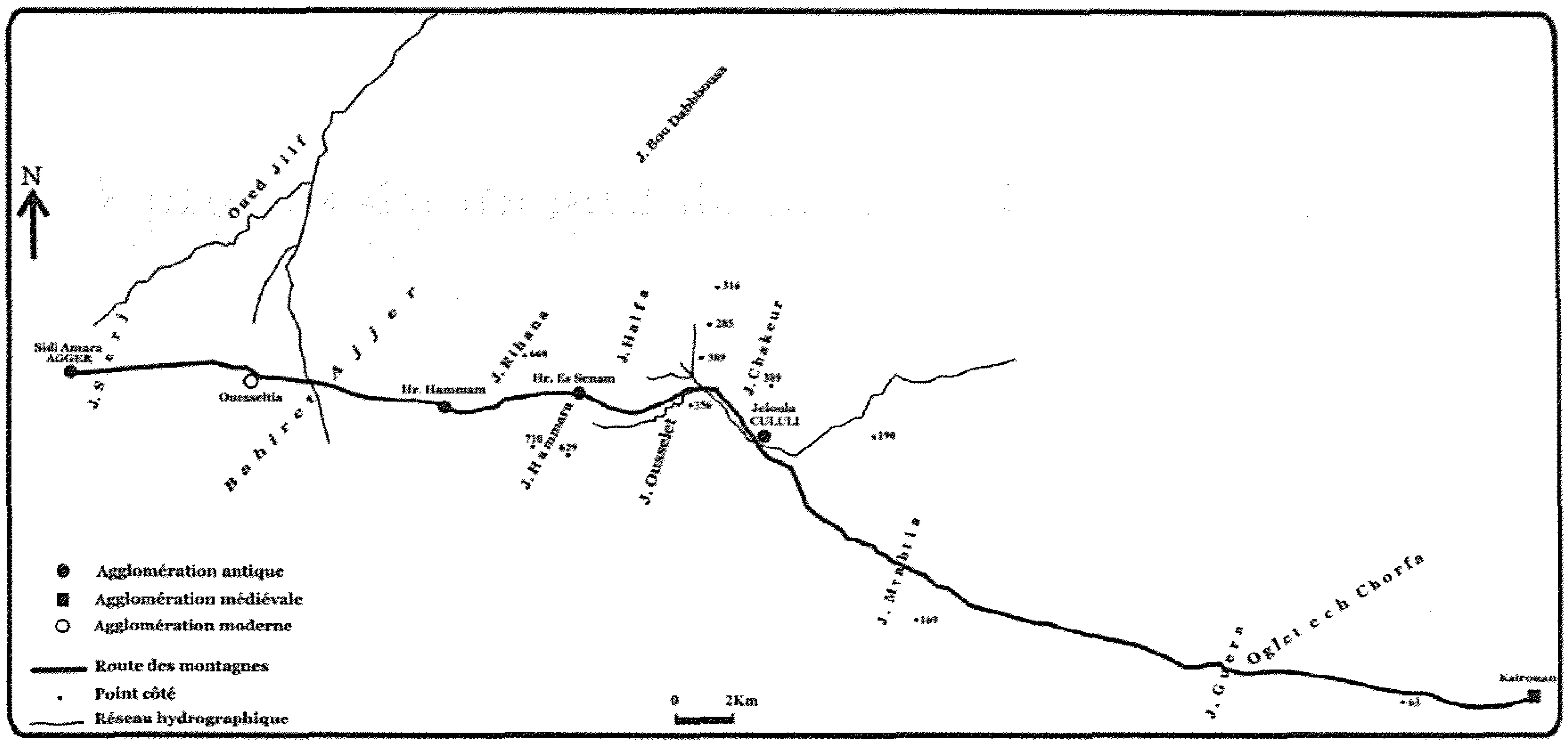
[1] H. Saladin, « Mission archéologique en Tunisie », *Archives des Missions Scientifiques et Littéraires*, t. XIII, troisième série, 1887, p. 27 ; R. Cagnat, *Exploration épigraphiques et archéologiques en Tunisie*, Paris, 1886, t. 2, p. 39 ; L. Carton, « Étude sur les nécropoles de Sidi-El-Hani. Henchir Zoura et de la région de Sousse », *B. S.A.S.*, n° 15, 1[er] sem. 1910, p. 21-22. Cf. *AAT*, Feuille 064 Sidi el Heni, site n° 40.

[2] J.-C. Lachaux, *Théâtres et amphithéâtres d'Afrique proconsulaire*, mémoire de maîtrise, sous la direction de W. Seston et L. Maurin, Faculté de Tunis, 1969, p. 154-155.

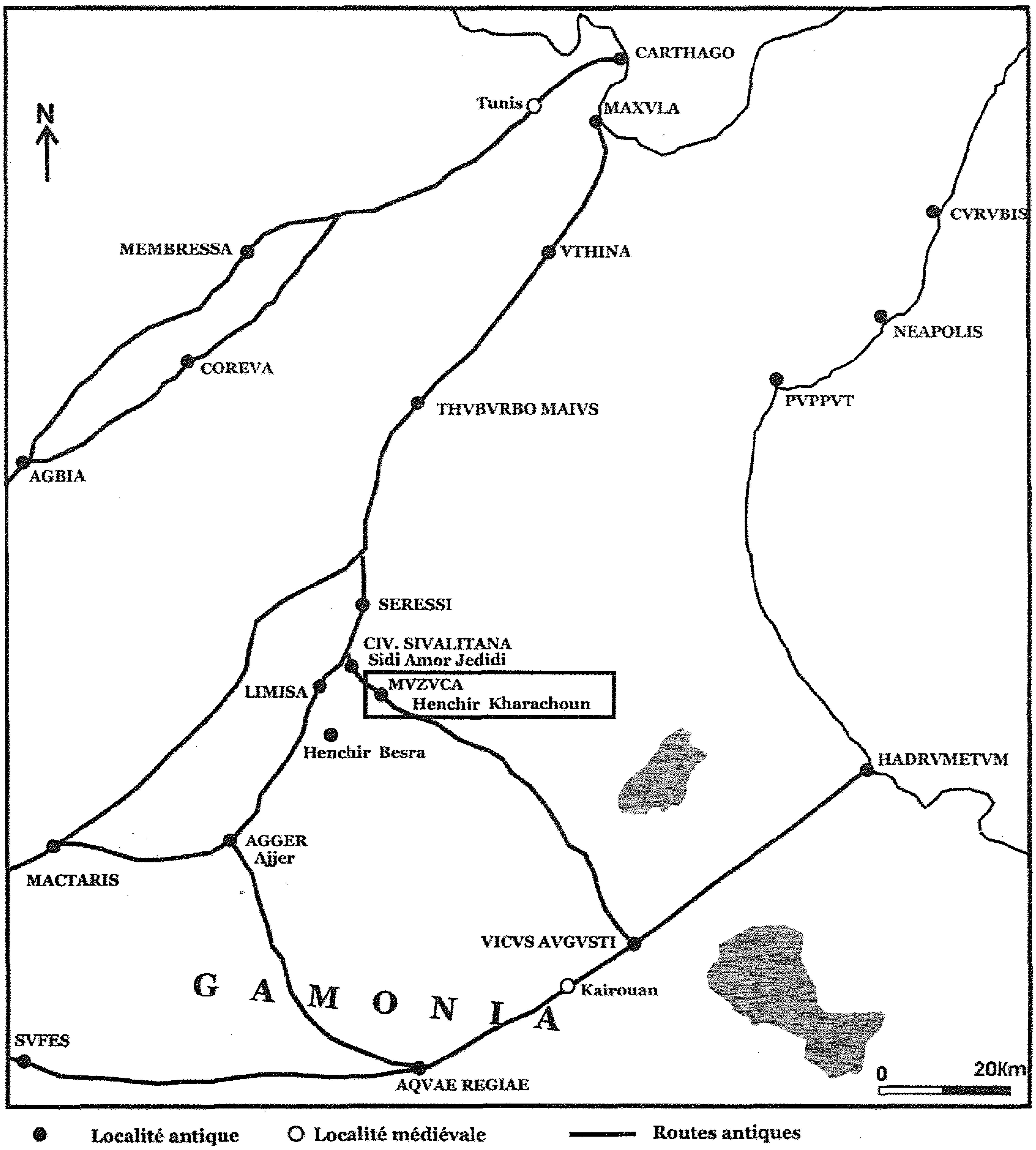
[3] J.-C. Lachaux, *Op. cit*, p. 154, propose que le théâtre, ainsi que l'ensemble des bâtiments à caractère public (les thermes) et funéraire (le mausolée ?), aujourd'hui encore repérables *in situ*, auraient servi de carrières de pierre pour l'édification de l'infrastructure monumentale de Kairouan à l'époque aghlabide.

[4] S. Ben Baaziz, *Carte Nationale des Sites archéologiques et des Monuments historiques, feuille Sidi el Heni 064*, n° 40, INP, Tunis, 2000, n° 40.

[5] Notre premier contact avec les vestiges du monument a eu lieu suite à une visite du site avec Mr. Abdellatif Mrabet qui, persuadé de l'importance du bâtiment pour de futures approches d'ordre historique et archéologique, nous a recommandé d'effectuer un relevé détaillé de ses structures visibles.

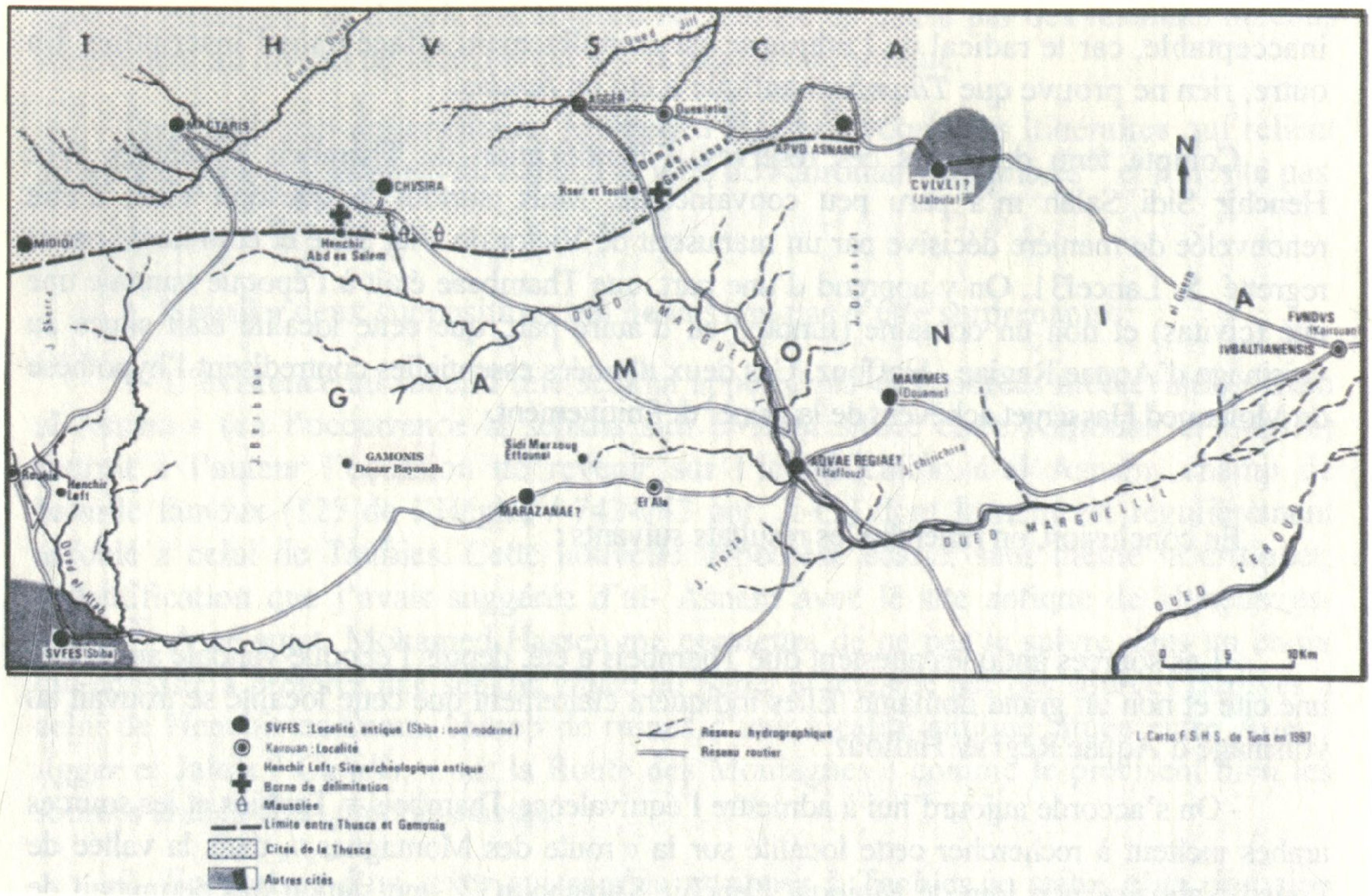


Carte 3 : Localisation de Henchir esSnam / apud Asnam

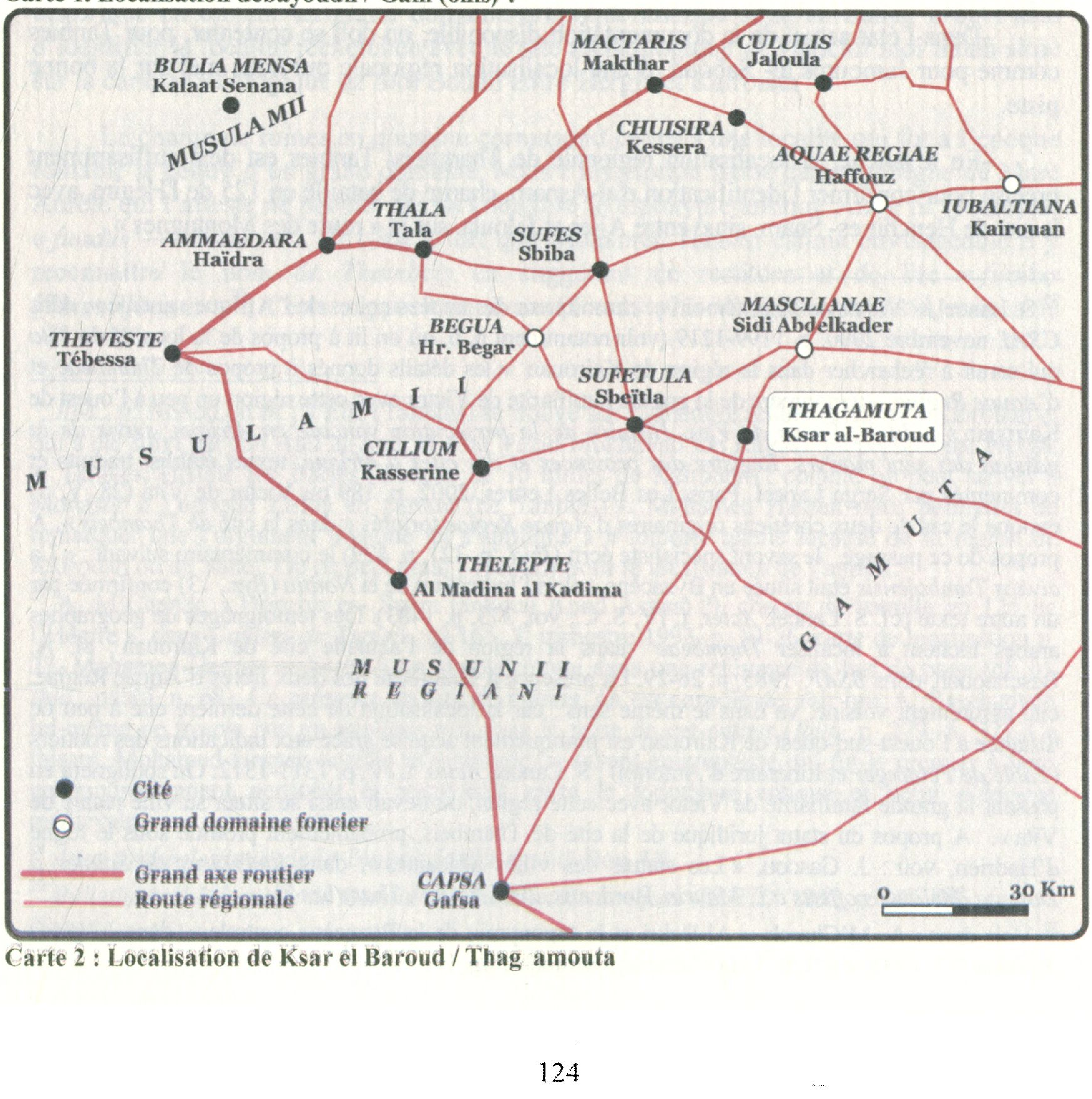


● Localité antique ○ Localité médiévale —— Routes antiques

Carte 4 : Localisation de Muzuca et d'Aquae Regiae



Carte 1. Localisation debayoudh / Gam (onis) ?



Carte 2 : Localisation de Ksar el Baroud / Thag amouta

inacceptable, car le radical de l'ethnique est complètement effacé dans l'inscription. En outre, rien ne prouve que *Thambeis* antique a été un *fundus*.

Compte tenu de toutes ces réserves, l'identification de Thambeis / Tanbies avec Henchir Sidi Salah m'a paru peu convaincante. Mais, surtout la question vient d'être renouvelée de manière décisive par un manuscrit de Victor de Vita édité et commenté par le regretté S. Lancel[31]. On y apprend d'une part, que Thambeae était à l'époque vandale une cité (civitas) et non un domaine (fundus) et, d'autre part, que cette localité était située au voisinage d'Aquae Regiae / Haffouz. Ces deux données essentielles contredisent l'hypothèse de Mohamed Hassen et achèvent de la ruiner définitivement.

En conclusion, on retiendra les résultats suivants :

- Les sources antiques attestent que Thambeis a été, depuis l'époque vandale au moins, une cité et non un grand domaine. Elles indiquent clairement que cette localité se trouvait au voisinage d'Aquae Regiae/ Haffouz.

- On s'accorde aujourd'hui à admettre l'équivalence Thambeis = Tanbies et les sources arabes incitent à rechercher cette localité sur la « route des Montagnes », dans la vallée de l'oued Nabhana, non loin de Mujuqa/ Henchir Karachoun[32], une station qui permettait de gagner au nord la ville de Tunis et à l'ouest la région du Zab.

-Dans l'état actuel de la documentation disponible, on doit se contenter, pour Tanbies comme pour Jamounis al- Saboun, d'une localisation régionale qui nous met sur la bonne piste.

-En revanche, la localisation régionale de Thambeis/ Tanbies est déjà suffisamment précise pour confirmer l'identification d'al-Asnam, champ de bataille en 125 de l'Hégire, avec le site de Henchir es- Snam, situé entre Ajjer et Jaloula. sur la « route des Montagnes ».

---

[31] S. Lancel, « Victor de Vita, témoin et chroniqueur des années noires de l'Afrique vandale », dans *CRAI,* novembre 2000, p. 1199-1219 (voir notamment n. 6, où on lit à propos de la localité de *Vita* qui serait à rechercher dans la région de Kairouan « les détails donnés à propos de *Thambeae* et d'*Aquae Regiae*... témoignent de la grande familiarité de Victor avec cette région un peu à l'ouest de Kairouan ») ; *Idem, Victor de Vita. Histoire de la persécution vandale en Afrique, suivie de la passion des sept martyrs. Régistre des provinces et des cités d'Afrique*, textes établis, traduits et commentés par Serge Lancel, Paris, Les Belles Lettres, 2002, p. 189 où Victor de Vita (28, V, 5) évoque le cas de deux chrétiens originaires d'*Aquae Regiae* torturés « dans la cité de *Thambeis* ». A propos de ce passage, le savant spécialiste écrit (*Ibid.*, p. 321, n. 429) le commentaire suivant : « La *civitas Tambaiensis* était située en Byzacène, selon l'indication de la *Notitia* (*Byz.*, 13) confirmée par un autre texte (cf. S. Lancel, *Actes,* t. IV, S. C., vol. 373, p. 1483). Des témoignages de géographes arabes incitent à localiser *Thambeae* dans la région de l'actuelle cité de Kairouan : cf. A. Beschaouch, dans *BSAF,* 1985, p. 26-29. La présence à Thambeae des deux frères d'Aquae Regiae, cité assurément voisine, va dans le même sens ; car la localisation de cette dernière cité à peu de distance à l'ouest-sud-ouest de Kairouan est pratiquement acquise grâce aux indications des routiers (*Table de Peutinger* et Itinéraire d'Antonin) : S. Lancel, *Actes,* t. IV, p. 1311-1312. On soulignera en passant la grande familiarité de Victor avec cette région, où devait aussi se situer sa ville natale de Vita ». A propos du statut juridique de la cité de Thambeis, probablement promue sous le règne d'Hadrien, voir : J. Gascou, « Les statuts des villes africaines », dans *Itinéraires de Saintes à Dougga. Mélanges offerts à L. Maurin,* Bordeaux, 2003, p. 239, *Tham(bes ?).*

[32] Voir dans : A. M'Charek, « Al-Bakri et la toponymie de la Byzacène centrale », dans *L'Africa Romana,* 13, 1998, vol. I, p. 383 (*Muzuc(a)* / Mujuqa), fig. 1.

Malheureusement, sa théorie est aujourd'hui remise en cause par des résultats obtenus récemment au niveau de la recherche sur la toponymie antique.

Pour bâtir son argumentaire, Mohamed Hassen évoque des itinéraires qui relient au Moyen Age des localités du Sahel à la ville de Kairouan via *Tanbies*[26] et n'hésite pas

à formuler deux suppositions qui ne laissent pas d'être surprenantes:

1- L'existence au sahel d'une sebkha appelée par des sources médiévales « Oum al-Asnam » (en l'occurrence la sebkha sidi el-Hani située entre Kairouan et Sousse) fournit à l'auteur l'occasion de revenir sur l'identification d'al Asnam, champ de bataille fameux (125 de l'Hégire / 742-743 apr. J.-C.) dont le nom est régulièrement associé à celui de Tanbies. Cette nouvelle hypothèse écarte, sans même la critiquer, l'identification que j'avais suggérée d'al- Asnam avec le site antique de Henchir es-Snam [27]. A ce sujet, Mohamed Hassen me permettra de ne pas le suivre dans un choix qui consiste à préférer une sebkha située au Sahel et attestée par des sources tardives à celui de Henchir es-Snam, champ de ruines d'une localité antique située entre Ajjer / *Agger* et Jalula / *Cululis*, « sur la Route des Montagnes » comme le précisent bien les sources arabes de la première heure.

2- En partant d'un texte qui semble attribuer à Tanbies le statut d'un domaine appartenant au Khalife fatimide, l'auteur n'hésite pas à supposer un cas de continuité historique en ciblant un grand domaine d'époque antique situé au Sahel, d'où l'idée d'identifier la localité recherchée avec le site archéologique de Henchir sidi Salah situé sur la carte archéologique de Sidi Bouali entre Hergla et Kairouan[28].

Le champ de ruines en question correspond certes à une localité qui fut à l'époque romaine le centre d'un grand domaine. Mais l'inscription latine datée du règne de Marc Aurèle qui l'atteste ne permet pas de connaître le toponyme antique ; on y lit seulement « *fundus -----itanus* »[29]. Et c'est à tort que Mohamed Hassen estime envisageable d'y reconnaître le nom de *Thambeis* en suggérant de restituer et de lire « *fundus [Thamb]itanus* »[30]. Cette supposition avancée sans plus d'arguments est à mon avis

---

[26] *Ibid.*, p. 109 où on lit : « Elle (Tanbies) se trouve sur l'itinéraire reliant le Sahel à Kairouan et qui a été suivi par Ibn Atef al-Azdi et Abu Yazid Mukhallad ibn Kaidad, en passant par Hergla et Tanbies, ensuite par Barjes (distante de 10 milles de Kairouan) ; comme on peut arriver à Monastir à l'époque Ziride en partant (de Tanbies) ». Mohamed Hassen nous permettra de remarquer que l'argument invoqué ici s'applique à n'importe quelle localité de la région de Kairouan ou du Sahel. On ne peut donc y recourir pour la localisation de Tanbies.

[27] A. M'Charek, « Henchir es- Snam (antique Apud Asnam ?), champ de bataille en 125 de l'Hégire », dans *Cahiers de Tunisie*, n° 165, 3e trimestre 1993, p. 19-26, carte de localisation p. 27. Mohamed Hassen se borne à un simple renvoi dans une référence de bas de page (cf. Id, *Ibid.*, p.280, n. 68). En présence de tant de mépris, on est consolé de voir que A. Beschaouch lui-même ne trouve pas un meilleur sort dans le texte de cet auteur (*Ibid.*, p. 279, n. 52). Ce faisant, Mohamed Hassen occulte le mérite de ce savant épigraphiste qui fut le premier à faire un rapprochement pertinent et argumenté entre le toponyme antique et celui d'époque médiévale.

[28] *Atlas Archéologique de la Tunisie*, feuille de sidi Bou Ali

[29] *Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques (BCTH)*, 1892, p. 485-486.

[30] Mohamed Hassen, *op. cit.*, p. 110.

sources entre le 8e et le 10e siècle de l'ère chrétienne. Il en a tiré l'équivalence *Thambeis* antique = Tanbies, une localité située dans la région de Kairouan.

-Plus récemment, le médiéviste Mohamed Hassen qui a consacré un ouvrage à la géographie historique de l'Ifriqyia[20], s'est livré à une enquête systématique dans les sources arabes à la recherche de Tanbies[21].

En connaisseur des sources ifriqyiennes, l'auteur a fait avancer sensiblement le dossier documentaire de *Thambeis*/ Tanbies à l'époque médiévale. Désormais, on dispose sur le sujet de l'essentiel des données textuelles fournies par les sources arabes ; ce qui constitue un apport appréciable. Cet auteur n'oublie pas d'évoquer d'abord les sources antiques déjà visitées par A. Beschaouch dont il reprend en gros l'analyse toponymique et les conclusions, à savoir que tout milite en faveur de l'équivalence *Thambeis* = Tanbies[22] et que la localité de Byzacène ainsi appelée devrait se trouver non loin de Kairouan[23].

A la lumière des sources médiévales, M. Hassen note à juste raison que Tanbies doit être recherchée « sur la route des Montagnes qui à partir d'Ajjer comporte deux itinéraires : le premier passe par Jaloula et al-Qarn ; le second atteint Mujuqa et suit l'oued Nebhana jusqu'à Tanbies. Celle -ci se situerait à l'est de Jaloula / *Cululis*, non loin de la route qui relie Tunis à Kairouan. Elle est proche d'un cours d'eau et pourvue d'installations hydrauliques importantes dont un aqueduc probablement semblable à celui de Mems, sans compter son statut de terre agricole appartenant à l'Etat »[24].

Mais, en cherchant à obtenir une localisation plus précise, l'auteur s'éloigne de la région de Kairouan et propose de situer Tanbies / *Tambeis* au Sahel[25].

---

[20] M. Hassen, *Géographie historique de l'Ifriqyia du Ier au IVe siècle de l'Hégire (VIIe- XVe siècle apr. J.-C.)*, Tripoli (Libye), 2003 (312 pages en arabe).

[21] M. Hassen, *Ibid*, p. 101-121.

[22] M. Hassen est moins convaincant quand il se propose de trouver l'origine libyque du toponyme latinisé sous la forme *Thambeis* (*Ibid.*, p. 103) car les solutions suggérées du genre Tonbuda et Tubna sont irrecevables et ne tiennent pas compte des règles linguistiques et phonétiques. Rappelons au passage que le toponyme égyptien Tonbuda plaqué par des chroniqueurs tardifs sur un toponyme africain (*Thinida/ Thimida)* ne mérite plus d'être invoqué dans ce genre d'enquête (Voir notre étude récemment publiée dans *Revue Archéologique*, Paris, PUF, 2006, Fascicule 1, p. 190-194 sous le titre « Deux cités voisines d'Afrique proconsulaire, *Uthina* / Oudhna et *Thimida Regia* / Mohammedia) ; quand à Tobna, tout le monde s'accorde aujourd'hui pour l'identifier avec la localité antique de *Tubunae* ; et ce toponyme n'a donc rien à voir avec *Thambeis*.

[23] Idem, *Ibid*, p. 103

[24] M. Hassen, *Ibid.*, p. 109.

[25] Id., *Ibid.*, p. 115 où l'auteur donne les précisions suivantes : « Sidi Salah... se trouve à 15 km de Sbikha, à 35 km de Kairouan et à 45 km de Hergla. Il s'agit d'un site de hauteur où on voit des vestiges de colonnes en place auprès d'un « mzar ». Il s'étend sur une superficie importante avec des pierres de taille (30 x 20 cm), des maisons, des souterrains, des puits et des citernes, sans compter les tessons de céramique antique et musulmane...(une) inscription trouvée par le général français Montagnon en 1892 (est) gravée sur une grosse pierre (1m51 x 0m24) ; mais il n'a pas été possible de lire le nom complet de la localité qui subsiste seulement en partie : *fundus ---itanus*. L'inscription remonte au règne de Marc Aurèle, précisément à l'année 164 ; (une dédicace) adressée par les habitants du domaine à la déesse romaine Céres dans un secteur réputé pour la fertilité de son sol depuis l'époque antique ; et il en sera de même à l'époque arabe... ».

Conclusion

-Les sources médiévales attestent l'existence dans le pays des *Gamonienses/ Gamutenses* (Qamounyia et Gamouda) de deux localités homonymes appelées *Gamonis/* Jamounis.

-Mais si l'identification de *Gamonis* de Gamonia avec la localité domaniale qui s'élevait à Douar Bayoudh paraît acquise, il reste beaucoup à faire pour obtenir une localisation précise de la *Gamonis* de Gamouda, appelée Jamounis al-Saboun à l'époque médiévale. Celle-ci se trouve sans doute au cœur de la *Gamuta* / Gamouda, mais il est encore tôt pour l'identifier avec Ksar al- Baroud ou l'un des sites archéologiques voisins.

-Comme l'a montré F. Béjaoui, Ksar el-Baroud correspond très vraisemblablement au siège de l'évêque *Milicus Thagamutensis*. Par conséquent, il faudrait choisir pour la localisation de Gamonis du Savon entre deux solutions envisageables : soit trouver un site archéologique mieux indiqué que Ksar el-Baroud, soit expliquer comment une même localité a pu s'appeler *Thagamuta* à l'époque antique et Jamounis al-Saboun à l'époque médiévale. Cette dernière hypothèse ne me paraît pas absurde, mais il serait préférable d'attendre la découverte d'une inscription latine pour trancher un pareil problème.

3-*Thambeis* / Tanbies, non loin d'*Aquae Regiae*, sur la « Route des Montagnes »

Comme on le sait, *Thambeis* est attestée entre la fin du 4^e et la fin du 5^e siècle[19] ; mais la localisation de cet évêché de Byzacène pose encore problème. Deux chercheurs tunisiens ont fait avancer le dossier documentaire de cette localité africaine connue dans les sources médiévales sous le nom de « Tanbies ».

-A. Beschaouch a eu le mérite dans un article publié en 1985 de faire un rapprochement pertinent entre le toponyme antique et sa version arabisée attestée par les

- Nafaa al-Fahri a suggéré d'identifier Jamounis al-Saboun avec un site archéologique situé entre Hajeb el-Aioun et Jilma, à savoir Foundouk al-Dabdaba (voir son Mémoire manuscrit de Mastère en arabe intitulé *Réseau routier de l'Ifriqyia*, Université de Tunis, 2000, p. 29 ;

-Mahdi Chelbi, *op. cit.*, p. 77 sq. a retenu pour la même localité médiévale une identification avec Ksar el-Baroud.

[19]A. Mandouze (dir.), *Prosopographie chrétienne du Bas-Empire, I, Prosopographie de l'Afrique chrétienne (303-533)*, Paris, 1982, *s. u. Gemelius, Lupianus, Sopater, Faustinus, Seruusdei.* Voir : p. 530 où on lit « « *episcopus a Tanabaeis* (siège non identifié de Byzacène » ; S. Lancel, *Actes de la Conférence de Carthage en 411*, Paris, 1991, IV, 1483-1484 (*Thambeae, plebs Tambaiensis)* où on lit « ...Le siège était situé en Byzacène...On a récemment proposé de situer *Thambeae* dans la région de l'actuelle Kairouan, en Tunisie centrale, sur la base de témoignages de géographes arabes (cf. A. Beschaouch, séance du 23 janvier 1985 de la Soc. Nat. des Antiquaires de France ; cf. *BSAF*, 1985, p. 26-28).

fortin (*qasr kabir*) est utilisé comme magasin de stockage par les habitants. On y voit un grand marécage, et de nombreux villages peuplés et productifs lui appartiennent »[13].

A mon avis, la description relativement précise donnée par al-Bekri conviendrait, pour l'essentiel, au champ de ruines de Ksar al-Baroud. En effet, ce site antique vaste d'une cinquantaine d'hectares et documenté archéologiquement pour l'époque médiévale[14] occupe sur la route reliant Kairouan à Gafsa un terrain peu accidenté, dans un secteur sablonneux de la plaine de Gamouda favorable à l'oleiculture, non loin du jebel es-Souda situé plus à l'Est.

Une enquête sur la micro-toponymie de la région m'a donné l'occasion de proposer, lors d'un colloque tenu en 2003 à Sidi Bouzid, l'identification hypothétique de ladite localité avec l'un des sites archéologiques de la plaine de Gamouda, à savoir Ksar el-Baroud ou l'un des sites voisins. En effet, une prospection rapide a révélé dans le secteur de Gamouda, entre Ksar el- Baroud et Sidi Bouzid, l'existence de deux toponymes qui évoquent le savon, un produit artisanal qui, comme on l'a déjà noté, fut à l'origine de l'appellation de Jamounis al-Saboun (Jamounis du savon)[15] :

1- la montagne qui domine à l'Est le site archéologique de Ksar el-Baroud, se trouve à quelques kilomètres au nord de sidi-Bouzid et porte le nom de « jebel es-Souda » (= montagne de la soude)[16]

2- un quartier central de Sidi Bouzid (ville appelée Gamouda jusqu'en 1973) conserve encore aujourd'hui le nom de « Bou-Sabouna »[17].

Mais, en attendant une prospection archéologique approfondie de la région de Gamouda, il faut bien reconnaître que dans l'état actuel de la documentation disponible, les indices fournis tant par les données textuelles que par la micro-toponymie ne permettent qu'une localisation régionale de Jamounis al-Saboun[18].

---

[13] Al-Bakri, *Le livre des routes et des royaumes* (en arabe), éd. Beit al- Hikma (Van Leeuen et J. Ferré), Tunis, 1992, p. 743- 744.

[14] On y voit beaucoup de céramique arabe et des bassins d'eau de type médiéval (M. Chelbi, *op. cit.*, p. 77).

[15] Rappelons que cette localité médiévale a joué au Xe siècle le rôle de chef-lieu du district de Gamouda, avant de disparaître au 13e siècle.

[16] Cf. Carte topographique au 1/ 50.000, feuille « jebel es Souda ». Un village moderne né à l'époque du protectorat français au pied de ce jebel, non loin de la ville de Sidi Bouzid, porte le nom de « Lassouda », sans doute une forme corrompue du toponyme « es-Souda ». Celui-ci est sans doute le vrai nom de la montagne en question puisque, par chance, il a été recensé correctement par les officiers topographes qui ont opéré au début du XXe siècle. On sait que la soude (« es- Souda » en arabe) est un produit utilisé depuis le Moyen Age dans la production du savon : un géologue originaire de Sidi Bouzid, Monsieur Moncef Chelbaoui, enseignant à l'Institut Supérieur d'Etudes technologiques de Gafsa, a bien voulu me confirmer l'existence de la soude dans la structure du jebel es-Souda qu'il connaît bien, ce dont je le remercie vivement.

[17] Cette information m'a été fournie oralement par les présents au Colloque de Sidi Bouzid, en 2003, à la suite de ma communication sur la toponymie antique de la région de Gamouda.

[18] Deux jeunes chercheurs médiévistes ont estimé possible d'avancer une localisation précise pour Jamounis al- Saboun :

Plus récemment, la découverte à Ksar al-Baroud, au cœur de la même région, d'un complexe chrétien du type groupe épiscopal a donné l'occasion à Fethi Béjaoui de proposer l'identification de ce site archéologique avec le siège byzacénien de l'évêque catholique au nom rare *Milicus T(h)agamutensis*[10]. Par ailleurs, les recherches du médiéviste Ahmed el Bahi ont montré que les sources arabes permettent une localisation régionale relativement précise de « *Camounis / Jamounis al-Saboun* (=*Gamonis* du savon), à savoir une localisation au cœur du district de Gamouda, non loin de sidi Bouzid. Critiquant H. Abdelwahab, ce chercheur a écrit en évoquant une source chiite, ce qu'on pourrait traduire ainsi :

> « l'auteur (Hassen Hosni Abdelwahab) a localisé Jamounis al-Saboun à Bir el-Hfey, une localité qui se trouve à 70 kilomètres à l'est de Gafsa sur la route de Kairouan ; or, al-Daî Idriss rapporte, en évoquant la campagne du calife al- Mansour dirigée contre les partisans d'Abou Yazid en février 948, que Jamounis al-Saboun se trouve certes sur la route de Kairouan ; mais plus loin vers le nord ; car l'écrivain chiite nous informe que le calife fatimide a quitté al-Mansouryia avant d'arriver à Jamounis al-Saboun ; et après avoir puni les habitants de cette dernière localité, il a laissé à sa gauche la route de Gafsa ; il est passé par une bourgade appelée Berjmana avant d'atteindre Sbeitla. Les indications fournies par al- Daî montrent que Jamounis al-Saboun se situe effectivement sur la route de Kairouan, mais au nord du parallèle qui passe par Sbeitla. Il n'est donc pas envisageable d'identifier cette ville avec tout site se trouvant au sud du parallèle en question, y compris Bir al-Hfey »[11].

Concernant la région historique de Gamouda, rappelons que traditionnellement c'est le géographe al-Bekri qui est la principale source mise à contribution par les médiévistes[12]. On sait que cet auteur andalou, situe Jamounis al-Saboun entre Gafsa et Kairouan, en donnant au sujet de ladite localité les indications suivantes qu'on pourrait traduire ainsi :

> « ... de la ville de Madhkour à Jamounis al- Saboun, une gros village peuplé et doté de nombreux puits d'eau douce ; situé au pied d'une montagne (*jebel*), avec beaucoup de sable et d'oliviers dans les environs. On y trouve une mosquée, un souk animé et un établissement de bain (*hammam*) ; un grand

[9] J. Mesnage, *L'Afrique chrétienne. Evêchés et ruines antiques*, Paris, 1912, p. 228 ; H. H. Abdelwahab, « Les steppes tunisiennes (région de Gammouda) », dans *Cahiers de Tunisie*, n°5, 2e trimestre 1954, p. 5-15 ; Lewiski T., « Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord : observations d'un arabisant », dans *Rokznik Orientalistyczny*, t. XVII, 1951-1952, p. 464, n° 63 ; A. M'Charek, dans *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du Nord antique. Hommage à Pierre Salama,* (études réunies par C. Lepelley et X. Dupuis), Paris, 1999, p. 174, carte fig. 5 ; A. el Bahi, « Le concept de Qamounyia dans les sources arabes », *op. cit.*, p. 11-40 ; Mehdi Chelbi, *Le district de Gamouda durant les quatre premiers siècles de l'Hégire à travers les sources textuelles et archéologiques* (en arabe), Mémoire de Mastère en histoire médiévale, soutenu à la Manouba en 2005-2006.

[10] F. Béjaoui, « Documents d'archéologie et d'épigraphie paléo- chrétienne découverts dans la région de Gilma », dans *C.R.A.I*, Paris, 1990, p. 275 sq.

[11] A. el Bahi, dans *Cahiers de Tunisie*, *op. cit.*, p. 27-28.

[12] Cf. M. Chelbi, *op. cit.*, *passim.* On sait que le géographe al-Bakri a puisé dans l'œuvre aujourd'hui perdue d'un chroniqueur kairouanais du Xe siècle Mohamed b. Youssef al-Warraq.

religieuse d'époque sévérienne signée par les métayers africains de *Gamonis* qui en avaient assumé les frais *(sua pecunia)*, doit être lue ainsi[7] :

> *[M]ineruae Vic/[to]riae Aug(ustae) sacr(um)/ Pro salute Augg[[g]]ustorum/ [Im]pp[[p]](eratorum) Severi et/ [An]tonini [[et Getae]]/ [et I]uliae Domnae Aug(ustae) / [c]oloni Gam(onitani) sua pec(unia f(ecerunt).*

Traduction

> Consécration à *Minerva Victoria* Auguste. Pour le salut des empereurs Augustes Sévère, Antonin et Geta et de *Julia Domna* Auguste. Les colons (métayers) de *Gamonis* l'ont fait à leurs frais.

Mais si l'identification et la localisation précise de *Gamonis* de *Gamonia* sont déjà acquises, il n'en est pas encore de même pour la seconde *Gamonis*. celle dite du savon dans les sources médiévales.

2- A propos de *Thagamuta* et de Jamounis al-Saboun (Gamonis du Savon)

Il est généralement admis que *Thagamuta*, l'évêché de Byzacène attesté au Ve siècle[8], doit être recherché dans la région de Gamouda/ sidi Bouzid selon une idée émise par J. Mesnage et reprise par T. Lewiski et Hassen Abdelwahab[9].

---

[7] Dans cette dédicace, Minerve est dite aussi *Victoria*, ce qui ne laisse pas d'être étonnant car d'habitude, cette divinité est qualifiée de *Victrix*. En attendant que Béatrice Rogeré, qui a pris part à la campagne de prospection effectuée dans le jebel Berbrou en 1994, publie son étude consacrée aux aspects religieux et chronologiques du document épigraphique (dans une enquête d'ensemble sur le site de Douar Bayoudh), je me borne ici, en la remerciant, à citer un bref commentaire de l'inscription qu'elle a bien voulu me communiquer dans sa dernière lettre: « Dans l'Année Epigraphique, il y a deux inscriptions à *Minerva Victrix* : *AE*, 1896, 58 et *AE*, 1968, 228… Dans ces deux cas, la formulation est *Minerua Victrix* et non *Minerua Victoria*, ce qui me fait penser que l'on a plutôt affaire à une dédicace faite à deux divinités, d'une part *Minerua* et d'autre part *Minerua Augusta*… ». Personnellement, je préfère m'en tenir à ma première lecture qui retient une seule divinité, à savoir *Minerua* qualifiée de *Victoria* et d'*Augusta*, même s'il s'agit pour l'instant, semble-t-il, d'un *unicum*. L'abréviation AVG. (avec un seul G) qui suit dans la dédicace la mention « *Minerua Victoria* » militerait logiquement en faveur d'une divinité unique. Mais la question a besoin d'être approfondie et on attendra les résultats définitifs de l'enquête en cours par les soins de B. Rogeré.

[8] Cf. S. Lancel, *Actes de la Conférence de Carthage en 411*, Paris, 1991, « *Thagamutensis plebs* », I, 126, 130 ; t. IV, p. 1480

Marguellil, est bien documentée par les sources arabes de la première heure comme l'a bien montré Ahmed el - Bahi[3].

Dans les mêmes sources. arabes, on apprend qu'une ville importante appelée « Jamounis al-, Saboun » (Jamounis du savon) ou encore « Camounis al-Saboun » s'élevait dans la chôra de Gamouda, sur la route qui reliait Kairouan à Gafsa[4]. La réputation de centre de production du savon a valu à cette ville d'être appelée ainsi sans doute parce qu'on avait besoin de la distinguer d'une seconde localité africaine portant le même nom.

Ainsi, on aurait eu dans un même territoire traditionnel, celui des *Gamonienses/ Gamutenses*, deux localités homonymes : une *Gamonis* appelée dans les sources arabes Jamounis al-Saboun (Gamonis du savon) et une seconde *Gamonis* non encore identifiée. Or désormais, tout semble indiquer que celle-ci doit être localisée à Douar Bayoudh qui fut à l'époque romaine le centre de gestion d'un domaine impérial appelé sans doute « *fundus Gamonitanus* » ou « *uilla Gamonitana* »[5]. En faveur d'une telle lecture, on peut souligner les données suivantes :

- Phonétiquement et linguistiquement, il y a équivalence entre les deux formes toponymiques d'âge différent : *Gamonis* dans l'Antiquité et Jamounis au moyen Âge : dans les deux cas, on retrouve le même radical *Gam.* où l'initiale G est l'équivalent de la lettre J en arabe classique (comme pour *Garama*/ Jerma). Ajoutons que le toponyme de Gamouda est transcrit Qamouda en arabe classique (comme pour *Gamonia*/ Qamounyia) ; mais on s'accorde pour y voir la forme arabisée du toponyme antique de *Gamuta*, lui-même déduit de l'ethnique *Thagamutensis* porté par des évêques de la province de Byzacène.

-Au Moyen Âge comme à l'époque antique, les Africains ajoutaient souvent un qualificatif toponymique pour distinguer entre deux villes homonymes, comme par exemple pour « Bajat al-Zait » dans la vallée de la Mejerda (Béja de l'huile) et « Bajat al-Qamh » dans le Sahel (Béja du blé)[6].

Ainsi des progrès enregistrés dans l'étude de la toponymie sont rendus possibles, encore une fois, par la complémentarité entre les sources antiques et médiévales de la première heure. Il en découle pour notre propos une meilleure lecture de l'ethnique abrégé <u>GAM.</u> attesté par l'inscription de Douar Bayoudh. Désormais, cette dédicace

---

[3] A. el- Bahi, « Le concept de Qamounyia dans les sources arabes » (en arabe), dans *Cahiers de Tunisie*, n° 178, 3e trimestre 1997, p. 11-40.

[4] A. el -Bahi, *Catalogue des toponymes de la province de Byzacène (=Muzaq ?) à l'époque médiévale (Ie – XVIe siècle apr. J.-C.)*, Mémoire de DEA, soutenu à Tunis, septembre 1995, p. 74, n° 128 (en arabe) où on lit ce qu'on pourrait traduire ainsi « Jamounis al- Saboun : ville ou village situé dans le district de Gamouda dont elle est devenue le chef-lieu... Ibn Hawqal donne la leçon Camounis ».

[5] Cf. plusieurs parallèles attestés épigraphiquement, comme par exemple l'ethnique *Mactaritanus/ a* construit sur le toponyme *Mactaris*.

[6] Cf. H. R. Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides*, 1962, t. II, index, p. 855.

A propos de trois localités de Byzacène : *Gamonis, Thagamuta* et *Thambeis*

Ahmed M'Charek
Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis

En matière de géographie historique de l'*Africa* / Ifriqyia, l'étude croisée des sources antiques et médiévales est devenue aujourd'hui une approche classique. Toutefois, la recherche sur la toponymie et la localisation des agglomérations qui a enregistré ces dernières années des progrès sensibles ne permet pas toujours d'obtenir les résultats définitifs souhaités et des problèmes d'ordre méthodologique continuent à se poser.

Pour illustrer mon propos d'aujourd'hui, je voudrais examiner le cas de trois localités de Byzacène : *Gamonis*, *Thagamuta* et *Thambeis* .

1- Douar Bayoudh / *Gamonis* de Gamonia

Lors d'une campagne de prospection archéologique menée en 1994 dans le jebel Berbrou, en Tunisie centrale, on a pu récupérer chez un paysan domicilié sur le site archéologique de Douar Bayoudh[1] une inscription latine d'époque sévérienne qui a révélé le nom abrégé (*Gam.*) d'une communauté de métayers africains installée dans un domaine impérial[2].

Situé à 70 kilomètres à l'ouest de Kairouan, le lieu de découverte est un champ de ruines vaste de cinq à six hectares où on peut voir des vestiges d'huileries antiques et des tessons de céramique rouge africaine (sigillée claire C et D). Dans une étude publiée en 1999, je me suis borné à désigner la localité domaniale révélée par l'inscription de Douar Bayoudh comme étant le « centre des *coloni Gam(onienses)* ». Mais au stade actuel de l'enquête, il est devenu envisageable d'identifier de manière assurée, me semble-t-il, le véritable nom antique de Douar Bayoudh, à savoir *Gamonis*.

Pour la clarté de l'exposé, il serait utile de rappeler que l'ethnique *Gamonienses,* que j'avais retenu au départ, était déduit du nom de la région historique à laquelle appartenait la localité antique qui s'élevait à Douar Bayoudh, à savoir la *Gamonia.* Cette chôra qui correspond à la vallée relativement fertile et riche en eau de l'oued

[1] *Atlas Archéologique de la Tunisie* au 1/100. 000, feuille el-Ala, (voir notice).

[2] Cf. A. M'Charek, « De Zama à Kairouan : la Thusca et la Gamonia », dans *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du Nord antique, Hommage à P. Salama,* Textes réunis par C. Lepelley et X. Dupuis, Paris, Publications de la Sorbonne, 1999, p. 159-172, planche III (inscription), fig. 2 (carte).

procurateur ducénaire après 238, au témoignage d'Hérodien. Ne serait-ce pas, dans la seconde moitié du III[e] siècle, la marque d'un détachement plus net de l'ensemble des districts qui étaient établis à Hadrumète et à Lepti Minus de l'autorité supérieure de Carthage ? Bref : ne se serait-il pas produit un nouveau pas vers des retouches des cadres de l'administration, conduisant à subdiviser plus nettement les espaces provinciaux ? Ce qui se produisit plus nettement encore à la fin de l'époque tétrarchique.

près[106]. Mais le qualificatif *Byzacenus* n'apparut qu'à l'approche du IV^e siècle comme substitut de *regio, dioecesis* ou *provincia Hadrumetina.*

En ce qui con cerne le contexte fourni par la Byzacène de l'époque tardive, incluse dans ce cadre géographique englobant, se trouvait une autre circonscription, dont l'existence était fondée sur d'autres principes, et qui ressortissait à l'administration du *patrimonium*. Les redevances n'étaient pas domaniales, mais plutôt de nature tributaire, selon une distinction qui sera nette au IV^e siècle entre les biens privés de l'empereur et les biens patrimoniaux[107]. Au moins en partie, ces redevances avaient été fixées aux premiers temps de la province, entre les règlements de 146 et l'époque césarienne. Elles concernent le *Byzacium*, tel que les Romains l'avaient recueilli des Carthaginois. Et dans ce cadre tributaire, Lepti Minus semble avoir acquis l'avantage sur Hadrumète. C'est à Lepti Minus que s'établit peut-être, à une date assez précoce, une subdivision de la procuratelle d'Afrique, dont l'activité était le contrôle de ces levées tributaires, de nature vectigalienne. Le siège domanial d'Hadrumète ne fut que peut-être que second, par rapport au précédent. Mais il l'emporta bien vite, parce qu'il pouvait drainer les revenus issus des nouvelles terres mises en exploitation, au sein desquels l'exploitation domaniale tenait le premier rôle. Le rang des procurateurs l'atteste. Celui d'Hadrumète a été gratifié au II^e siècle d'un salaire centenaire, alors que celui de Lepti Minus, quand il apparaît, ne détient qu'un salaire sexagenaire.

Il faut, à ce propos, relever que la date d'apparition d'un service au sein de la hiérarchie procuratorienne équestre ne correspond pas nécessairement avec la date de création de ce service. Il convient de tenir compte d'abord de la documentation relative aux affranchis impériaux, et de plus, dans le cas des revenus du patrimoine de Lepti Minus, des conditions propres de leur existence qui renvoient aux périodes les plus anciennes de la province d'*Africa*. C'est peut-être en relation avec la perception de ces revenus que le procurateur de la province, au I^{er} s. comme au III^e s., eut à se rendre dans cette région, et, tel Pline, y recueillir des récits admirables ou y voir des situations prodigieuses, ou bien, tel le procurateur de Maximin le Thrace, y trouver la mort par assassinat. C'est, sur ce fondement, que l'on doit envisager une dernière question : les activités des deux procurateurs agissant dans le cadre de la future Byzacène pouvaient-elle être coiffées par l'un d'eux ? On pourrait penser que dans un premier temps ce fut le rôle du procurateur provincial d'*Africa*, globalisant dans ses mains les comptabilités. Mais par la suite, lorsqu'apparut au siège d'Hadrumète un procurateur de rang ducénaire, ne doit-on point supposer que ce responsable aurait obtenu une autorité générale sur les deux services qui s'occupaient de branches distinctes de l'administration financière et domaniale ? Nous avons placé l'apparition de ce

[106] On tiendra compte, accessoirement, des limites données, vraisemblablement après le déplaccement de la légion *IIIa Augusta* à Lambèse, aux circonscriptions définissant les juridictions du proconsul et de ses deux légats : le légat de Carthage intervient dans le territoire de l'*Africa vetus*, au sein duquel se trouve le *Byzacium*, tandis que le légat d'Hippone intervient dans les cités de la Dorsale. Mais en ce qui concerne l'adéquation des limites de la Byzacène tardive avec le périmètre des districts procuratoriens, on ne peut retenir à présent le point de vue d'A. Chastagnol, « Les gouverneurs de Byzacène », p. 120 (= Id., *L'Italie et l'Afrique antique*, p. 164), selon qui la province de Dioclétien aurait rassemblé des terres provenant, du côté oriental, du *tractus Hadrumetinus* et, du côté occidental (autour de Sufetula, Thelepte, Capsa, Mactar), de terres appartenant au *tractus Thevestinus*.

[107] Fr. Burdeau, « Le ius perpetuum et le régime fiscal des res privatae et des fonds patrimoniaux », *Iura*, 23, 1972, p. 1-25, surtout p. 18-25 ; Id., « L'administration des fonds patrimoniaux et emphytéotiques au Bas-Empire romain », *RIDA*, 20, 1973, p. 285-310 ; R. Delmaire, *Largesses sacrées et res privata*, p. 669-674.

Sans trop s'étendre, H.-G. Pflaum s'est expliqué sur le sens des diverses formulations du poste : la *regio Leptiminensis* était, sans qu'il y ait l'ombre d'un doute, une subdivision de l'administration du *patrimonium.* Mais on peut tenter d'établir ce qui distinguait le rôle du procurateur établi à Hadrumète des compétences du procurateur établi à Lepti Minus. C'est une distinction essentielle, qui se fonde sur le statut des bien concernés, les uns étant des biens domaniaux de l'empereur et constituant sa fortune personnelle, les autres ayant une tout autre origine et une mise en valeur différente. Différences de nature, mais peut-être aussi différences de gestion, surtout s'il s'agit de biens comportant aussi ceux qui proviennent de l'*ager publicus populi Romani,* Dans la mesure où le fisc impérial absorba l'administration des sources de revenus les plus diverses, y compris les revenus du peuple romain, l'existence d'une procuratelle du *patrimonium* ne surprendra pas[101]. Elle devait être moins importante, en terme de revenus, que celle qui avait son siège à Hadrumète, même si dans cette zone de l'*Africa vetus* l'empreinte de l'exploitation de Rome fut précoce[102]. Mais, cette fonction étant distincte dans sa nature, le siège adminsitratif se trouvait aussi en un autre lieu.

Nous serions tenté de fixer la naissance et l'installation de ce service à Lepti minus, à une époque où le rôle d'Hadrumète n'était pas encore affirmé, c'est-à-dire avant l'époque de Trajan[103]. On a été frappé, dans l'énumération que fait Pline des cités du *Byzacium*, de la première place qu'il accorde à Lepti minus (*HN*, V, 25) : *Hic oppida libera Leptis, Hadrumetum, Ruspina, Thapsus. Inde...* Ce n'est pas un ordre géographique, conforme à la distribution des villes sur le littoral, comme l'a relevé J. Desanges[104], puisque Lepti minus devrait se placer entre Ruspina et Thapsus. Ce n'est pas, non plus, un ordre alphabétique, puisqu'il faudrait admettre une inversion entre *Hadrumetum* et *Leptis.* Si l'on souhaite renoncer à invoquer une maladresse de Pline ou une maladresse dans la transmission des manuscrits, il reste à proposer l'hypothèse suivante : la première place de Leptis dans l'énumération résulterait de sa position de chef-lieu du *Byzacium*, dans l'organisation des Romains, peut-être scellée par les décisions de César qui, au terme de la guerre civile, accablèrent Hadrumète[105].
Ce serait une des raisons de l'installation relativement précoce d'une subdivision financière, concernant une institution qui apparut aussi dans les premiers temps du Principat. C'est elle qui plus tard aurait émergé dans la documentation épigraphique africaine sous la forme d'une procuratelle du patrimoine.

En définitive, on peut se concentrer sur quelques points, les uns acquis, les autres problématiques.

Il nous semble acquis que les découpages géographiques des cadres domaniaux de la grande province d'Afrique furent définitifs, une fois qu'ils furent réalisés, vraisemblablement à l'époque de Trajan. C'est alors que la forme de la future Byzacène commença à s'esquisser dans le cadre de la *regio Hadrumetina*, à quelques détails

[101] E. Lo Cascio, « Patrimonium, ratio privata, res privata », p. 111-120.
[102] Dont un aspect important est la centuriation : Ch. Saumagne, « La photographie aérienne au service de l'archéologie en Tunisie », *CRAI*, 1952, p. 287-301, partic.p. 294-299 ; P. Trousset, « Nouvelles observations sur la centuriation romaine à l'est d'El Jem », *Ant. Afr.*, 11, 1977, p. 175-207 (pour la datation des cadastrations, p. 190).
[103] L'élévation des deux cités au rang colonial fut vraisemblablement contemporain : pour Hadrumète, J. Gascou, *Politique municipale*, p. 67-75 ; pour Lepti minus, *ibid.*, p. 80-81, ainsi que J. Gascou, « Lepti minus, colonie de Trajan ? », *Ant. Afr.*, 6, 1972, p. 137-143.
[104] J. Desanges, p. 231-232.
[105] Appien, *BC*, 94 ; César, *BAfr.*, 97, 2. Voir ci-dessus n. 41.

procurator patrimoni regionis Leptiminensis, dont le salaire était de 60 000 sesterces[94]. H.-G. Pflaum a dressé une liste de procurateurs qui ne semble pas s'être allongée depuis son époque, sauf si l'on ajoute aux procurateurs équestres les procurateurs affranchis. Ainsi on trouve :

1- M(arcus) Aemilius Clodianus, dont la carrière a été placée par H.-G. Pflaum « entre 198 et 209 ou entre 246 et 249 ou entre 250 et 251 : *proc(urator) Augg(ustorum) patrimonii reg(ionis) Leptiminensis*[95].
2- [...] Vic[...] dont la carrière a été placée par H.-G. Pflaum « entre 238 et 268 » : *[proc(urator) regioni]s Leptiminensis*[96].
3- T(itus) Iulius Sabinus Victorianus, dont on a vu la carrière plus haut : *procurato[r Aug(usti) patrimonii reg(ionis)] Leptiminensis* (ou bien *procurato[r patrimonii regionis] Leptiminensis*) (*RSAC*, 1906, p. 424, n° 419 (d'où *AE*, 1907, 238) = Gsell, *ILAlg.*, I, 2035 = H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 657, texte 1).

Mais il y a également à prendre en compte les inscriptions relatives aux affranchis impériaux qui proviennent de cette ville, et qu'il est normal de rapprocher de la présence des *liberti* et de la *familia* des empereurs, connus pour leur part dans leur ensemble, lorsqu'ils honorent leur supérieur M(arcus) Aemilius Clodianus[97]. Outre l'affranchi Inventus, *procurator dioecesis Leptitanae*, attesté par une inscription de Sbeitla[98], l'inventaire est assez étoffé, si l'on examine les inscriptions de Lepti minus : on citera d'abord Felicitas, *Augg(ustorum) nn(ostrorum ser(va)*, et Philinus, *Caesaris n(ostri) ser(vus)*, dont les inscriptions ont été publiées par A. Merlin[99]. Particulièrement importante est l'inscription d'Anthia, affranchie de Metras, affranchi lui-même de l'empereur et procurateur, qu'a publié Louis Poinssot en 1938 : Anthia est l'épouse d'Onesimus qui, lui aussi, est un affranchi du même Metras[100]. On ne saurait mieux illustrer par un cas précis la présence de la *familia* et des *liberti* de l'empereur à Lepti minus. L'inscription a été datée du II^e ou du début du III^e siècle. Avant même que le service n'apparaisse sous l'autorité d'un procurateur équestre, il vivait sous la direction d'affranchis impériaux. On doit donc envisager qu'il ait été constitué avant même le III^e siècle.

---

94 Alors que H.-G. Pflaum envisage à ce sujet un salaire centenaire : H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 1094 ; mais il reconnaissait qu'il n'avait pu en apporter « une preuve péremptoire » : *ibid.*, p. 889.

95 *ILAlg.*, I, 3063 (*ILS*, 1439) ; *ILAlg.*, I, 3062 ; on doit joindre le cursus acéphale que donne *CIL*, VIII, 11105, car le cursus est identique. De plus il apporte la mention des *liberti* et de la *familia Caesar(um) nn(ostrorum)* qui assurent l'hommage ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 782-786, n° 302. G. Di Vita-Evrard, « La regio Tripolitana. A Reappraisal », dans *Town and Country in Roman Tripolitania. Papers in honor of Olwen Hackett*, ed.. by D.J. Beck et D.J. Mattingly (*BAR*, Int. S., 274), Oxford, 1985, p. 144-145 et p. 154-155, préfère la date de 211 ap. J.-C. Mais on pourrait être tenté de placer cette carrière au milieu du III^e siècle.

96 *IRT*, 97 ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 884-889, n° 339 bis ; déjà *Id.*, « Inscriptions de la Tripolitaine romaine (à propos d'un livre récent) », *Syria*, 30, 1953, p. 296-304 (= *Id.*, *L'Afrique romaine*, p. 19-27).

97 Ils sont les auteurs de l'hommage au procurateur inconnu de *CIL*, VIII, 11105, que l'on a rattaché au dossier de M(arcus) Aemilius Clodianus.

98 Ci-dessus n. 77.

99 *AE*, 1913, 28 = *AE*, 1914, 228 ; *AE*, 1914, 230.

100 AE, 1938, 41 : : *Dis Manibus / Anthia Metrae Aug(usti liberti) proc(uratoris) liber / ta vixit annis XXXII h(ic) s(ita) e(st) / Onesimus Metrae Aug(usti liberti) proc(uratoris) lib(ertus) / coniugi piissimae fecit.*; L. Poinssot, « Une inscription de Lepti Minus (Lemta) », *BCTH*, 1938-1939-1940, p. 55-61.

Bizacenus de la *dioecesis Hadrumetina*...Cette *regio* ou *dioecesis Hadrumetina* dépend d'ailleurs toujours du *patrimonium* »[90]. Mais quand il écrivait ces lignes, qu'il conserva dans la publication de son ouvrage de 1960-1961, et qu'il réitérait même son point de vue dans les *addenda* et *corrigenda,* notre maître n'avait pas pris connaissance de l'inscription qui apportait la carrière de T(itus) Aius Sanctus[91]. En sorte que c'est seulement dans la *mantissa addendorum* qu'il devait constater qu'il fallait reprendre de fond en comble la question de la *ratio privata,* et surtout envisager qu'elle était apparue, en tant que service impérial au moins dès Antonin, vraisemblablement plus tôt encore[92].

Il semble préférable d'orienter différemment le commentaire de ce texte qui n'est pas aussi isolé que l'estimait H.-G. Pflaum, mais qui fournit l'aboutissement de l'évolution terminologique de la *regio Hadrumetina.* Mais ce point de vue impose de considérer aussi que la *regio Hadrumetina* faisait partie de la *res privata* impériale : c'était déjà le point de vue de Gsell, exprimé dans son commentaire de l'inscription de Madaure. Il impose aussi de reprendre la question à partir d'une interrogation de ce savant dans le commentaire de cette même inscription, lorsqu'il écrit : « comme Lepti minus était dans le Byzacium, il resterait à savoir en quoi cette procuratelle du *tractus Byzacenus* aurait différé de celle de la *regio Leptiminensis* ». On sait que H.-G. Pflaum avait apporté un début de réponse en restituant, là où Gsell avouait son impuissance, *[procurator privat(ae] tractus Biz[aceni---].* Mais il n'était pas allé plus avant. Plus exactement : en considérant que la procuratelle de la *regio Hadrumetina* concernait le *patrimonium* impérial, comme celle de la *regio Leptiminensis,* il semblait considérer que le *Byzacium* était réparti entre deux circonscriptions de ce service financier. Mais on peut s'orienter dans une voie différente. Si le procurateur de la *regio Hadrumetina* doit s'occuper des domaines impériaux, comme celui de la *regio Tripolitana,* ou comme le procurateur qui vient aider le procurateur-gouverneur de Maurétanie Césarienne, il gère les biens relevant de la *ratio privata,* la fortune privée du prince. Et son ressort peut s'étendre à l'ensemble constitué par le *Byzacium* , partie côtière, et par tout l'intérieur, c'est-à-dire par ce qui fut appelé à l'approche du IV^e^ siècle le *tractus Byzacenus.* Mais il ne s'agit principalement que de domaines impériaux, sur lesquels il a affaire aux colons de l'empereur et aux *conductores* qui prennent en main l'exploitation de ces domaines.

En revanche, la circonscription du *patrimonium* dont le siège est à Lepti minus, représente autre chose, car la terminologie est différente[93]. Mais, en raison de ce constat, on peut envisager que les deux circonscriptions pourraient dans leur extension géographique se recouvrir, totalement ou partiellement, puisque leur finalité diffère. On estimera seulement que c'est dans le périmètre de la vaste circonscription dépendant du procurateur d'Hadrumète que s'inscriraient les limites de la procuratelle de la *regio Leptiminensis* dont, paradoxalement, la connaissance était plus avancée avant les travaux de H.-G. Pflaum : en effet, on ne découvre pas dans l'œuvre de ce savant qu'il ait analysé longuement la substance de cette institution financière de la province d'Afrique en la considérant pour elle-même. Pourtant Lepti minus a fourni de nombreux documents épigraphiques qui éclairent son rôle comme siège d'une circonscription financière. Nous savons, par plusieurs documents datés du III^e^ siècle qu'il existait un

[90] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 658.
[91] *AE*, 1961, 280.
[92] Voir aussi A. Masi, *Ricerche*, p. 12-27, et E. Lo Cascio, « Patrimonium, ratio privata, res privata », p. 140.
[93] Sur le *patrimonium*, E. Lo Cascio, « Patrimonium, ratio privata, res privata », p. 120-122. Dans un sens différent, R. Haensch, *Capita provinciarum*, p. 740.

Sabinianus se serait retiré dans sa cité avec la dignité de *vir centenarius*, c'est-à-dire après avoir parcouru une carrière procuratorienne qui le conduisait à ce niveau de dignité. L'autre nous fournit quelques éléments de son cursus, vraisemblablement les deux seules fonctions procuratoriennes exercées, puisque la seconde correspond certainement à la procuratelle centenaire de la région d'Hadrumète.

On doit rappeler que les restitutions de cette inscription mutilée ont varié : de Gsell à Saumagne, et de Saumagne à Pflaum. Mais, en revenant dans un second temps aux restitutions de St. Gsell pour la première des fonctions, et en proposant pour la seconde des fonctions sa propre restitution, là où Gsell ne s'engageait pas, H.-G. Pflaum a incontestablement fait accomplir un grand pas à la compréhension de ce texte, même si, à son sujet, il a pu multiplier les hésitations. La première fonction, comme procurateur, est à son avis celle de *procurato[r Aug(usti) patrimonii reg(ionis)] Leptiminensis*, mais nous préférerions adopter celle de *procurato[r patrimonii regionis] Leptiminensis*) : l'élimination de la référence à l'empereur ne change rien sur le fond[85], mais elle permet de restituer en toutes lettres le mot *regionis*. Ce chevalier a donc été titulaire d'une fonction assez bien connue, qui s'inscrit géographiquement dans le périmètre de la zone que nous venons d'envisager. Puis il fut élevé, avec un salaire centenaire, à la fonction de *[procurator privat(ae] tractus Biz[aceni---]* selon la restitution originale de H.-G. Pflaum[86], même si ce savant n'a point tenu à ajouter ce personnage à la liste des procurateurs de la *regio Hadrumetina* et s'il l'a laissé isolé dans les fastes procuratoriens[87].

En effet, à plusieurs reprises, il avait traité ce problème dans l'analyse des carrières, au fur et à mesure de leur apparition. S'il considérait à juste titre que la fonction qu'avait exercé T(itus) Iulius Sabinus Victorianus comme *procurator privat(ae] tractus Biz[aceni---]* le plaçait dans la gestion de la *res privata* de l'empereur, c'est-à-dire de sa fortune personnelle, il avait à plusieurs reprises estimé que la responsabilité de la *regio Hadrumetina* concernait le *patrimonium* impérial[88], c'est-à-dire, selon une terminologie courante mais qui recourt à une métaphore puisée dans les institutions des monarchies contemporaines, les biens de la Couronne. Relevons deux passages significatifs. L'un à propos de la carrière de C(aius) Postumius Saturninus Flavianus : « En effet, alors que la *regio Hadrimetina* fait partie de l'administration du *patrimonium*, le *tractus Byzacenus* dépend du nouveau service de la *ratio privata*, créé par Septime Sévère. La raison du choix d'une appellation différente a justement été le désir de l'empereur de ne laisser subsister aucun doute sur l'appartenance à la *ratio privata* du *tractus Byzacenus* »[89]. L'autre dans l'analyse de la carrière de T(itus) Iulius Sabinus Victorianus : « De là des confiscations massives de domaines que l'on a fait entrer, non pas dans la propriété impériale ordinaire, le *patrimonium*, mais dans la nouvelle administration de la *ratio privata*, et la décision du gouvernement du vainqueur de modifier le nom de manière à pouvoir distinguer ce nouveau *tractus*

[85] Sur ces détails de terminologie on verra aussi les explications qui accompagnent la restitution des lacunes de l'inscription *IRT*, 97 : H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 887. Sur la distinction entre *patrimonium* et *res privata* sous le Haut-Empire, A. Masi, *Ricerche sulla res privata del princeps*, Milan, 1971, p. 3-53, ainsi que E. Lo Cascio, « Patrimonium, ratio privata, res privata », p. 147-149.

[86] H.-G. Pflaum, *Les carrières procuratoriennes*, p. 1093 ; voir aussi *ibid.*, p. 887.

[87] H.-G. Pflaum, *Les carrières procuratoriennes*, p. 1093, cf. p. 991.

[88] Point de vue repris systématiquement par L.L. Sebai, « Les inscriptions de Segermes », p. 737 et p. 740.

[89] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 758. il faudrait, bien sûr, tenir compte des mises à jour relatives à l'évolution de la *res privata*.

Proconsulaire, n'a pas été créée dans l'improvisation. Lorsque les provinces ont été créées à la fin de l'époque tétrarchique, la province de Byzacène a repris les tracés déjà adoptés pour définir le ressort de la procuratelle dont le siège était à Hadrumète. Il s'agissait alors d'un *Byzacium* très élargi, débordant la région côtière vers les basses steppes puis vers les hautes steppes et la Dorsale, et lui donnant une nouvelle configuration. On a vu qu'elle prenait forme dès le début du II^e^ siècle. Mais aussi, quelques années avant cette réforme administrative, l'adjectif *Byzacenus/Byzacena* était vraisemblablement apparu.

Res privata* et *patrimonium

Les documents qui appartiennent à la dernière partie du III^e^ siècle, ou que l'on est en droit de dater postérieurement à l'année 238, indiquent que la hiérarchie des procurateurs est devenue plus complexe, puisque, manifestement, un procurateur de rang ducénaire est venu coiffer à Hadrumète l'activité du procurateur de rang centenaire, sans faire disparaître ce personnage. Ce n'est pas un simple rehaussement de la dignité, mais une modification plus profonde qui aurait pu se produire au profit du titulaire du poste le plus élevé. Les inscriptions de C(aius) Postumius Saturninus Flavianus établissent l'existence de la structure hiérarchique qui impose au procurateur centenaire un supérieur de rang ducénaire[79] : *proc(urator) centenarius regionis Hadrimetinae fun[c]tus etiam partibus ducenari(i) ex sacro praecepto in eadem regione*. Celle de [.] Pomponius L[...]murianus vient confirmer qu'il s'agit d'une réforme administrative stable, en ce qui concerne le statut du responsable ducénaire[80] : *procurator ducenarius Aug(usti) n(ostri) dioeceseos Hadrumetinae*. Enfin les deux inscriptions de T(itus) Iulius Sabinus Victorianus viennent confirmer que subsista un procurateur de rang centenaire : l'une[81] indique qu'il acheva sa carrière administrative comme *centenarius*, l'autre[82] que ce fut vraisemblablement comme *[procurator privat(ae] tractus Biz[aceni---]*.

Mais l'intérêt de la documentation relative à la carrière de ce dernier personnage, issu de la cité de Madaure, est plus important encore, surtout si l'on tient compte de la *retractatio* a laquelle s'astreint H.-G. Pflaum lui-même. N'avait-il pas apporté des corrections à son analyse, d'abord dans un article paru dans le *Recueil des Notices et Mémoires de la Société archéologique de Constantine*, 1955-1956, paru en 1957, puis dans un addendum inséré dans le volume III des *Carrières procuratoriennes*[83]. Il s'agit d'abord d'un déplacement chronologique, puisque cette carrière, initialement placée à l'époque de Septime Sévère, pouvait être déplacée, à son avis, vers 270-275 environ[84]. Nous serions même disposé à repousser encore un peu plus dans le temps le déroulement de cette carrière. Il s'agissait aussi, de la part de notre maître, de tenter de distinguer deux personnages homonymes, pourtant contemporains. Il nous semble que l'on puisse revenir à l'analyse initiale, fondée sur le rapprochement des deux inscriptions de Madaure. L'une d'entre elles montrerait que T(itus) Iulius Sabinus

---

[79] *CIL*, VIII, 11174 (*ILS*, 1440) ; *CIL*, VIII, 11175 ; voir ci-dessus.
[80] *CIL*, VIII, 23219 (*ILS*, 9016) = *ILTun.*, 362 ; voir ci-dessus. On ne peut suivre L.L. Sebai, « Les inscriptions de Segermes », p. 740-741, lorsqu'elle voit dans le salaire ducénaire du procurateur impérial une faveur personnelle du prince. Du même avis, déjà, R. Haensch, *Capita provinciarum*, p. 739-740.
[81] *ILAlg.*, I, 2118 ; voir aussi ci-dessus. M. Christol, « Centenarius vir », p. 245-246, p. 248-249.
[82] *ILAlg.*, I, 2035.
[83] Voir ci-dessus n. 58.
[84] H.-G. Pflaum, *Les carrières procuratoriennes*, p. 990-001, p. 1093, p. 1094 ; Pour la date, voir aussi, avec le même point de vue, E. Lo Cascio, « Patrimonium, ratio pvrivata, res privata », p. 148, n. 137.

une subdivision administrative, un sous-ensemble domanial[73]. Mais on ne s'étonnera pas, également, de trouver dans la même cité, un hommage rendu à un procurateur dont le nom a disparu[74]. Sans aucun doute nous sommes à l'extrémité septentrionale de la circonscription, et ce positionnement, ici, est en conformité avec le tracé futur de la province de Byzacène.

On peut tirer le même argument, dans une autre partie, occidentale, de la documentation provenant de Sufetula. De cette cité provient aussi un hommage adressé à un procurateur d'Hadrumète, [.] Pomponius L[---]murianus[75]. Il a été élevé par un notable local, L(ucius) Valgius Mauricus, qui ne dépassa pas la fonction d'avocat du fisc. Mais ce dernier n'exerçait plus ce rôle lorsque lorsqu'il intervint : il était redevenu un notable de premier rang, puisqu'il était honoré de l'égrégiat. Sa position ressemble à celle de T(itus) Iulius Sabinus Victorianus, qui s'était retiré à Madaure en qualité de *centenarius*[76]. S'il honore le procurateur, c'est qu'il lui était lié par l'*adfectio* du *condiscipulatus*. Il ne s'agit donc pas de deux concitoyens, mais de deux membres de l'ordre équestre qui ont eu l'occasion de vivre aux côtés l'un de l'autre lorsqu'ils faisaient leurs études et l'apprentissage d'un savoir destiné à leur ouvrir la voie de l'administration impériale. On peut estimer que leurs carrières ont divergé, mais que la nomination de l'un d'eux à la direction de la procuratelle d'Hadrumète a été l'occasion pour l'autre de l'accueillir dans sa propre cité, alors qu'il y était devenu un notable de premier plan. Ainsi Sufetula, comme Segermes, pouvaient être les chefs-lieux de subdivisions administratives dans la grande circonscription dirigée depuis Hadrumète. On connaît aussi, dans l'épigraphie de cette même cité de Sufetula, l'épitaphe d'un affranchi impérial[77], Inventus, qui a été *procurator dieocesis Leptitanae*, fonction sur laquelle nous aurons à revenir. Mais si la mort d'Inventus est attestée à Sufetula, c'est vraisemblablement parce que ce personnage en était originaire, et que ses parents appartenaient à la *familia Caesaris* qui devait s'y trouver et y être active.

Sans que l'on puisse établir par la documentation disponible l'adéquation parfaite des limites de la *regio Hadrumetina* à celles de la province de Byzacène, l'hypothèse est plus que vraisemblable[78]. On peut estimer que dans la partie septentrionale la limite qui matérialisa au IV^{e} siècle la séparation de la Byzacène et de la

---

[73] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 759 ; dans le même sens Ch. Saumagne, dans *CTun.*, 1969, p. 253, p. 255.

[74] Voir ci-dessus n. 56. L'hommage est rendu par décret des décurions et aux frais de la cité. C'est cette situation de chef-lieu de circonscription interne à la procuratelle d'Hadrumète qui peut expliquer l'érection à Segermes d'une base honorifique pour un procurateur (centenaire) de la *regio Hadrumetina* (le n° 1 de la liste ci-dessus) : le commentaire de L.L. Sebai (ci-dessus n. 54) est peu clair. Il ne peut être accepté quand cet auteur semble envisager (p. 737, puis p. 741) que c'est de Segermes que se dirigeait la *regio Hadrumetina*.

[75] Voir aussi n. 57. H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 826, estimait qu'il était originaire de Sufetula. Le texte a été repris par N. Duval, « Inventaire des inscriptions latines païennes de Sbeitla », *MEFRA*, 101, 1989, p. 433-435, n° 50, qui tient compte de l'inscription dans la tribu *Papiria* pour envisager qu'il serait plutôt originaire d'une autre communauté d'Afrique proconsulaire, hypothèse plus vraisemblable que la précédente ; voir aussi M. Christol, « Les subdivisions de l'administration domaniale et financière », p. 81-82.

[76] Sur le sens à donner à cette indication, d'honneur et de rémunération, M. Christol, « Vir centenarius », p. 247-250.

[77] *ILS*, 9026 = *ILAfr.*, 135.

[78] Nous avons défendu cette interprétation dans M. Christol, « Les subdivisions de l'administration domaniale et financière », p. 82-83. On écartera l'hypothèse de Ch. Saumagne, « Esquisse », p. 253, selon laquelle une vaste circonscription financière, appelée *tractus* ou *dioecesis Hadrumetina* serait subdivisée en trois régions (*Hadrumetina, Leptiminensis, Tripolitana*).

faisant connaître un officier de la *classis Britannica, natione Afer Bizacinus*, n'était pas encore suffisamment probant, puisqu'il se référait à un personnage originaire de Thysdrus. L'expression renvoyait en effet à quelqu'un issu d'un lieu attaché à l'*Africa vetus*, proche du *Byzacium* des origines. En revanche, l'usage du terme dans la qualification de la fonction centenaire détenue par le notable de Madaure, T(itus) Iulius Sabinus Victorianus est parfaitement explicite, puisqu'il est difficile de ne pas assimiler le *tractus Byzacenus* à l'ensemble de la circonscription dont on précisera plus bas les contours.

Il convient aussi de relever que le procurateur ducénaire, qui dirige désormais la circonscription, devrait disposer dès lors d'une autorité supérieure à celle d'un procurateur domanial. Dans la définition de ses compétences et de son champ d'action, on sera tenté de le rapprocher du procurateur de Carthage que l'on a vu agir en compagnie du proconsul, à plusieurs reprises, jusqu'en 238 : il faut peut-être inclure les affaires fiscales. Cela rehausse vraisemblablement la place d'Hadrumète comme capitale régionale, car la présence du procurateur de Carthage n'est plus nécessaire dans le ressort qui dépendait antérieurement d'un collègue centenaire. Il ne manque plus que le démembrement des responsabilités administratives du proconsul, au profit du *praeses*, pour donner consistancce à l'entité provinciale, et pour faire apparaître Hadrumète n'apparaisse comme une véritable capitale, siège du gouverneur de la province de *Valeria Byzacena*[70]. Avant ou après cette transformation, le rôle que joue Hadrumète peut-être éclairé par la documentation. On citera une inscription de Lambèse, relative à un notable local, qui appartient au III^{e} siècle, sans aucun doute à une date assez tardive. Elle fait connaître un chevalier romain (il est *vir egregius*), qui a exercé les responsabilités d'avocat du fisc dans trois sièges différents[71] : *ad fisci advocationes ter numero promotus Thevestinam Hadrumetinam Thamugadensem*. L'exercice de ces fonctions ne se réfère pas à la solution de questions strictement domaniales. Elles vont au-delà, et elles conduisent à envisager la ville comme siège de juridiction fiscale, sur le modèle que semble décrire Hérodien. Le cadre qui se dégage ainsi implique certes la juridiction du gouverneur, mais il implique aussi l'intervention d'un haut responsable financier provincial. N'est-ce pas constater que l'activité ce personnage s'est amplifiée ? N'est-on pas aussi conduit à constater qu'un remaillage des sièges d'assises a pu se produire et que dans sa propre région une hiérarchie nouvelle place désormais Hadrumète dans une position prédominante ?

Quant aux documents déjà invoqués précédemment, ils permettent parfois, par leur localisation, de déterminer l'ampleur géographique prise par cette circonscription. Déjà H.-G. Pflaum, avait fait remarquer, à propos de l'hommage rendu à Segermes[72] au procurateur C(aius) Postumius Saturninus Flavianus par Victor, *Augg(ustorum) lib(ertus)*, qu'il fallait non seulement inclure cette cité dans le ressort administratif de la *regio Hadrumetina*, mais encore qu'il fallait supposer qu'il pouvait s'y trouver établie

[70] C'est à Hadrumète que sont envoyées les constitutions impériales destinées au gouverneur Aco Catullinus (*CTh.*, IX, 40, 1 ; *CTh.*, X, 30, 2 et 36, 1) ; *PLRE*, Catullinus 1 ; A. Chastagnol, « Les gouverneurs de Byzacène », p. 124 (= p. 168) ; C. Lepelley, *Les cités*, II, p. 262-264. Avec toutes les nuances nécessaires on rapprochera du schéma évolutif envisagé par R. Delmaire, *Largesses sacrées et res privata. L'aerarium impérial et son administration du IV^{e} au VI^{e} siècle*, Rome, 1989, p. 172-173, p. 185, p. 209-211, p. 704.

[71] *CIL*, VIII, 2757 ; J.-M. David, « Réformes des administrations de l'annone et des domaines en Numidie, pendant la persécution de Valérien (257-260), à propos de *C.I.L.*, VIII, 2757 », *Ant. Afr.*, 11, 1977, p. 149-160.

[72] La cité appartient au Bas-Empire à la Byzacène : C. Lepelley, *Les cités*, II, p. 304-305.

pas l'argument que nous voudrions retenir. Il semble plutôt qu'il n'y a pas de raison d'écarter ces deux témoignages, proches l'un de l'autre dans le récit de cet historien, sous prétexte qu'Hérodien se serait égaré et aurait attribué au procurateur dont les jugements déclanchèrent la révolte des propriétaires africains un titre générique, sans avoir présent à l'esprit la réalité administrative de la province d'Afrique. L'intervention du procurateur d'Afrique, aux côtés du proconsul, présent aussi à Thysdrus lors des événements, s'éclairerait si l'on envisageait qu'au premier tiers du III^e^ siècle, et peut-être avant, le procurateur ducénaire résidant à Carthage, dont on trouve trace à quelques reprises dans la documentation[68], exerçait une compétence sur les problèmes de perception fiscale dans un cadre plus large que celui de la région domaniale résiduelle, constituée au début du II^e^ siècle lorsque furent créées les administrations décentralisées.

Il est vraisemblable en effet que dans l'affaire relatée par Hérodien on se trouve plutôt à l'écart des questions relatives à la perception des revenus domaniaux. Toutefois, de plus, quelle que soit la compétence générale que l'on puisse lui attribuer dans le domaine de la fiscalité, peut-on considérer que l'on aurait pu confier cette responsabilité au procurateur ducénaire de Carthage si dans la région d'Hadrumète avait été en place déjà un procurateur ducénaire au sommet de la hiérarchie procuratorienne ? L'argument est peut-être mince, mais ne devrait-il pas conduire à repousser au-delà de 238 tout document et toute carrière qui mentionneraient la présence d'un procurateur ducénaire à la tête de la procuratelle d'Hadrumète ? Les autres critères de datation que l'on peut dégager des textes relatifs aux procurateurs énumérés plus haut montrent que les propositions de datation de H.-G. Pflaum mettent l'accent, d'une façon stricte, sur le *terminus post quem*, mais pas davantage. Il ne faut pas les interpréter comme des datations absolues. Ainsi, dans le cas de [.] Pomponius L[...]murianus nous sommes plus vraisemblablement dans la période du milieu ou de la seconde moitié du III^e^ siècle, lorsque s'opérait la transition entre les institutions du Haut-Empire et celles de l'Antiquité tardive. D'autre part l'exemple fourni par la carrière du chevalier de Madaure, T(itus) Iulius Sabinus Victorianus, s'adapte parfaitement à ce raisonnement si l'on admet qu'il était, avec le salaire centenaire, le subordonné d'un procurateur de rang plus élevé, vers la fin du III^e^ siècle.

A -La veille de la création de la province de Byzacène sous la Tétrarchie

On peut envisager désormais l'organisation administrative qui s'esquisse, et qui préfigure par ses contours la province de Byzacène. créée à la fin de l'époque tétrarchique. C'est d'abord par le terme *Byzacenus* qu'elle se caractérise. Il a acquis désormais une large acception géographique. L'exemple que fournissait, sous le règne de Philippe l'Arabe (244-249), peu après les événements de 238, l'inscription d'Arles[69],

[68] Un exemple au début du III^e^ siècle est fourni par P(ublius) Aelius Hilarianus, qui fut procurateur d'Asturie-Galice sous Commode, avant de devenir procurateur d'*Africa*, poste dans lequel il remplace le proconsul Timinianus qui venait de mourir : Fr. Kolb, « Der Aufstand », p. 451-452. Un autre exemple est donné par les Actes de Lucius et Montanus : *Actus et visio martyrum Luci Montani et ceterorum comitum quod est X kal. Iunii*, 6, 1 (éd. Fr. Dolbeau, « La Passion des saints Lucius et Montanus. Histoire et édition du texte », *REAugustiniennes*, 29, 1983, p. 70), passage élucidé par X. Dupuis ap. C. Lepelley, dans *Ecole pratique des Hautes-Etudes, Section des sciences religieuses. Annuaire. Résumé des conférences et travaux*, 102, 1993-1994, p. 253, et 106, 1997-1998, p. 306-307, cf. M. Christol, *Regards sur l'Afrique romaine*, Paris, 2005, p. 245. Ce procurateur ducénaire doit prendre la suite, avec des compétences qui resteraient à définir, du procurateur appelé *procurator quattuor publica Africae*, qui avait aussi un rang ducénaire (H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 1093).
[69] *CIL*, XII, 686.

circonscription[62]. Mais il faut supposer qu'à un moment de son histoire, se superposent dans cette administration deux procurateurs équestres, l'un au traitement ducénaire, l'autre au traitement centenaire : cette situation était acquise lorsque se déroulèrent la carrière de [.] Pomponius L[...]murianus et celle de C(aius) Postumius Saturninus Flavianus. Au vu de la datation de sa carrière, s'ajoute à eux T(itus) Iulius Sabinus Victorianus.

Il existe peut-être un repère pour dater cette modification de l'organisation administrative. Dans le récit des origines de la révolte des Gordiens, en 238, apparaît dans le récit d'Hérodien un procurateur qui fut assassiné à Thysdrus, parce qu'il apparaissait dans ses actes comme un représentant emblématique de la politique de rigueur fiscale de l'empereur Maximin le Thrace. L'identification de ses responsabilités a toujours été incertaine[63] ou problématique[64], car il est identifié comme procurateur de Carthage (Hérodien, 7, 4, 2 : *epitropeue tis tês Karchêdonias chôras*) ou comme procurateur d'Afrique (Hérodien, 7, 4 , 3 : *ho toinun kata tên Libuên epitropos*). On relèvera au passage que H.-G. Pflaum ne prête pas attention à lui, tant dans les fastes procuratoriens provinciaux que dans la liste des procurateurs de fonctions incertaines[65]. Fr. Kolb, au terme d'une longue discussion, estimait qu'il s'agissait du procurateur (ducénaire) dirigeant la *regio Hadrumetina*[66]. Mais c'est quand même aller contre les termes géographiques employés par Hérodien, qui rattache le personnage au siège de Carthage[67]. On envisagera donc diverses questions. On s'interrogera sur les raisons de l'intervention de ce procurateur extérieur à la région d'Hadrumète dans des affaires se déroulant sur le territoire de cette dernière : c'est poser le problème de ses compétences et du ressort géographique de leur application. On s'interrogera, inversement, sur la capacité qu'avait un procurateur responsable des biens de l'empereur à juger de cas qui ne semblaient pas relever de sa gestion au sens strict, si le procurateur d'Hadrumète était un procurateur domanial : c'est aussi un problème de compétence juridictionnelle. Il est vrai que la procédure de la désignation d'un juge délégué, pouvait ajouter temporairement aux compétences d'une personne d'autres compétences, mais ce n'est

---

[62] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 1094.

[63] Quelques exemples suffiront à montrer combien la question des attributions du personnage n'a pas été poussée très loin. J. Gagé, « Les organisations de 'iuvenes' en Italie et en Afrique du début du III^{e} siècle au 'bellum Aquileiense' (238 ap. J.-C.) », *Historia*, 19, 1970, p. 239, se contente d'évoquer « le procurateur impérial », ou « le procurateur de Thysdrus » ; J. Drinkwater, dans *CAH*^{2}, XII, Cambridge, 2005, p. 31, se contente d'écrire qu'il s'agit d' « an overzealous imperial procurator ». Voir aussi une liste de références dans Fr. Kolb (cité n. 66), p. 450, n. 39.

[64] C'était le point de vue de X. Loriot, « Les premières années de la grande crise du IIIe siècle », dans *ANRW*, II, 2, 1975, p. 689-690 : il estime qu'il s'agit d' « un procurateur dont on ignore le nom et les fonctions », avant de s'interroger sur la discordance qui pourrait exister, s'il s'agissait d'un personnage dont la compétence était restreinte à la seule région de Carthage, entre les limitations de son ressort et une intervention qui se produisit dans la *regio Hadrumetina*. Tel est aussi le point de vue de Fr. Jacques, « Humbles et notables. La place des *humiliores* dans les collèges de jeunes et leur rôle dans la révolte africaine de 238 », *Ant. Afr.*, 15, 1980, p. 225, qui caractérise le personnage comme « le procurateur de la région de Carthage » ; puis (*ibid.*, p. 226 n. 8) il ajoute que « la fonction exacte du procurateur reste un problème », en envisageant diverses solutions qui sont peu satisfaisantes ; enfin (*ibid.*, p. 230), il critique le point de vue de F. Kolb, pour qui le procurateur serait celui de la *regio Hadrumetina* (voir n. 66).

[65] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 1092-1095, p. 1100-1103, p. 1244.

[66] Fr. Kolb, « Der Aufstand der Provinz Africa Proconsularis im Jahr 238 n. Chr. », *Historia*, 26, 1977, p. 449-461.

[67] Voir déjà n. 64. Mais la formulation d'une telle critique se trouve dans l'essai d'interprétation de T. Spagnuolo Vigorita, *Secta temporum meorum*, p. 81 avec n. 3, qui estimait que le procurateur d'Hérodien devait être en définitive le *procurator provinciae Africae tractus Karthaginis*, tout en étant conscient des difficultés que faisait naître cette solution.

un *signum* : *e.v., procurator centenarius regionis Hadrimetinae functus etiam partibus ducenari ex sacro praecepto in eadem regione*[56].
4- [.] Pomponius L[...]murianus, dont la carrière a été placée par H.-G. Pflaum « après 212 », mais qui vraisemblablement appartient aussi à une époque bien plus avancée du III[e] siècle, même si l'emploi de la tribu dans sa dénomination inciterait d'aucuns à ne pas s'orienter peut-être vers les ultimes décennies de cette période : *procurator ducenarius Aug(usti) n(ostri) dioeceseos Hadrumetinae*[57].
5- T(itus) Iulius Sabinus Victorianus, connu par deux inscriptions de Madaure, que H.-G. Pflaum, qui les avait d'abord rapprochées, souhaita ensuite dissocier, en considérant alors qu'il s'agissait de deux personnages distincts (T. Iulius Sabinus et T. Iulius Sabinus Victorianus), en les distinguant par deux numéros dans son œuvre prosopographique[58]. Mais il nous est apparu qu'il était préférable de ne pas suivre notre maître dans ses dernières réflexions[59]. Ce chevalier romain, notable africain, est qualifié de *centenarius vir* sur une première inscription[60], puis il apparaît sur l'autre comme *procurato[r Aug(usti) patrimonii reg(ionis)] Leptiminensis* (ou bien *procurato[r patrimonii regionis] Leptiminensis*) et *[procurator privat(ae] tractus Biz[aceni---]* [61].

Les données correspondant aux n° 2, 3 et 5 (si ce dernier cas peut être traité en regroupant les deux inscriptions de Madaure) indiquent que la procuratelle d'Hadrumète était dans les mains d'un procurateur centenaire. Celles correspondant aux cas n° 3 et n° 4 viennent ajouter qu'à un certain moment, sans qu'ait disparu le procurateur centenaire, le titulaire de cette fonction acquit un rang plus élevé, puisqu'il était gratifié d'un salaire de 200 000 sesterces : c'est ce qu'avait retenu H.-G. Pflaum dans la liste des titulaires du poste, sous le titre général *procurator regionis vel dioeceseos vel provinciae Hadrumetinae*, en montrant par ailleurs la diversité des appellations de cette

[56] *CIL*, VIII, 11174 (*ILS*, 1440) à Segermes : *Vindici. C(aio) Postumio Saturnino Flaviano, e(gregio) v(iro), proc(uratori) centenario regionis Hadrimetinae fun[c]to etiam partibus ducenari(i) ex sacro praecepto in eadem regione, L(ucius) Sempronius Maximus, fl(amen) p(erpetuus) patrono* ; *CIL*, VIII, 11175 à Segermes : *V[indici]. C(aio) Post[umio Sa]turnino [Flaviano], e(gregio) v(iro), procu[ratori cen]tenario reg[ionis] Ha]drimetinae p[artibus] etiam ducenari(i) ex s[a]cro praecepto in eade[m] regione functo, Victor Augg(ustorum) lib(ertus) cliens* ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 757-759, n° 292 bis et p. 1094. L. L. Sebai, « Les inscriptions de Segermes », p. 738-742 (n° 18 a-b).
[57] *CIL*, VIII, 23219 (*ILS*, 9016)) = *ILTun.*, 362 : *[-P]omponio Gai filio Papir[ia] L[---]muriano, e(gregio) v(iro), functo adv[oca]tione fisci Hispaniarum trium et patrimoni tract[us] Karthaginis et a com[mentar]iis praeffector(um) praetor[io, pr]ocuratori ducenario Au[g(usti)] n[o]stri dioceseos Had[ru]metinae, L(ucius) Va[l]gius Mauricus v(ir) e(gregius), f(isci) [adv(ocatus)] ob eximiam condisc[ipu]latus adfectionem [pos(uit)]* ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 826-827, n° 320.
[58] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 657-658, n° 245 et 245a, avec une importante *retractatio* p. 990-992 (ignorée récemment tant par M. Vavassori, dans *Supplementa Italica*, ns. 16, Rome, 1998, p. 347-348, que par le commentateur de *AE*, 1998, 602) ; voir aussi Id., « Une inscription de Madaure », Recueil des *Notices et Mémoires de la Société archéologique de Constantine*, LXIX, 1955-1956 [paru en 1957], p. 121-127 (= *Id., L'Afrique romaine. Scripta varia*, I, Paris, 1978, p. 117-123.
[59] M. Christol, « Centenarius vir », p. 245-246, p. 248.
[60] A. Ballu, *BCTH*, 1919, p. 71 (d'où *AE*, 1920, 17) = Gsell, *ILAlg.*, I, 2118 : *T(ito) Iulio Sabino Victoriano, eq(uiti) R(omano), fl(amini) p(er)p(etuo), centenario viro gloriosae innocentiae, probatae fidei, Q(uintus) Calpurnius Honoratus, fl(amen) p(er)p(etuus), [T(itus) Fl]avius Victorianus, [T(itus) F]laviu[s---]ianus, fl(amen) p(er)p(etuus), [-] Iuliu[s Ve]nustus, [-] Cornel(ius) Salvius Cha[e]re[as p]arentes laudabil[i----a]vo et [avunculo---].*
[61] *RSAC*, 1906, p. 424, n° 419 (d'où *AE*, 1907, 238) = Gsell, *ILAlg.*, I, 2035 = H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 657, texte 1 : *Aedem Con[cordiae, quam Iul(ius)] Vitalis libe[ralitate sua promiserat], T(itus) Iul(ius) Sabinu[s---v(ir) e(gregius), fl(amen) p(er)p(etuus),] procurato[r Aug(usti) patrimonii reg(ionis)* ou *patrimoni regionis] Leptiminen[sis, procurator privat(ae)]tractus Biz[aceni ---] ex (sestertium) quad[draginta m(ilibus) n(ummum) ---] dedicante [---] legato Num[idiae ---]. (sur le côté) D[e Va]lentiorum familia.*

romaine[52]. Désormais tout l'espace correspondant à la *provincia Africa* était enserré au plus près dans un réseau administratif bien régionalisé[53]. Celui-ci reflétait sans aucun doute l'accomplissement des processus de développement des forces productives dans toutes les parties de l'espace provincial, et le souci de l'autorité impériale de s'assurer au mieux de leur contrôle.

Les autres documents épigraphiques, déjà enregistrés dans l'ouvrage de H.-G. Pflaum, s'adaptent bien à la configuration qui vient d'être définie, et mieux que la documentation relative à la procuratelle d'Hipppone et de Théveste, ils montrent la continuité de la structure administrative durant le II^e puis le III^e siècle ap. J.-C.

1- Un chevalier anonyme, dont la carrière a été placée entre 161 et 169 : *proc(urator) Augustorum reg(ionis) Hadrimetin(ae)*[54].

2- Un chevalier anonyme, dont la carrière a été placée entre 161 et 180 par H.-G. Pflaum, mais qu'il est préférable, avec D. Fishwick, de dater d'une époque postérieure au règne de Caracalla, le prince divinisé qui est mentionné : *cui divus Aurel(ius) Antoninus centenariam procuration(em) prov(inciae) Hadrymetinae dedit*[55].

3- C(aius) Postumius Saturninus Flavianus, *signo* Vindicius, dont la carrière a été placée par H.-G. Pflaum « après 217 », mais qui appartient vraisemblablement à une époque plus avancée du III^e siècle, dans la mesure où la dénomination du personnage recourt à

---

[52] J. Gascou, *Politique municipale*, p. 67-75, qui conserve toutefois (p. 74) l'opinion de H.-G. Pflaum sur une possible unité administrative des régions de Théveste et d'Hadrumète.

[53] Il reste à savoir si ce n'est pas ce démembrement des responsabilités du procurateur d'Afrique, accompagné d'une décentralisation de la gestion des biens fonciers qui se trouvaient dans les mains de l'empereur, qui n'a pas donné naissance, par substitution, au procurateur des *quattuor publica Africae*, au salaire ducénaire. La définition de ses responsabilités laisserait supposer une rétraction de ses compétences.

[54] *CIL*, VIII, 23068 (*ILS*, 9012), à Segermes : *[---] Rom[----] trib(uno) coh(ortis) XX[---volunta]rior(um), trib(uno) leg(ionis) XIII G[eminae], praef(ecto) eq(uitum) alae Vetton(um), praef(ecto) eq(uitum) alae II Flaviae milliar[iae], cur(atori) viae Pedanae, proc(uratori) Aug[us]tor(um) provinc(iae) Pannoniae sup(erioris), proc(uratori) Augustor(um) reg(ionis) Hadrimetin(ae), d(ecreto) d(ecurionum) p(ecunia) p(ublica)* ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 416-419, n° 170, et p. 1094. C'est l'emploi du pluriel *Augustorum* qui incite H.-G. Pflaum, *ibid.*, p. 419, à proposer comme date la période correspondant à la corégence de Marc Aurèle et Lucius Vérus. Mais on ne peut pas exclure la corégence de Marc Aurèle et de Commode (177-180), ou même le début du règne de Septime Sévère et de Caracalla. L. L. Sebai, « Les inscriptions de Segermes (Hr Harrat) », dans S. Dietz, L.L. Sebai et H. Ben Hassen (eds.), *Africa Proconsularis*, II, Copenhague, 1995, p. 736-738 (n° 15).

[55] *CIL*, XIII, 1684a , à Lyon : *[---] patr[---Cond]ate, praef(ecto) coloniae, actori public(o), (duo)viro ad aerario item (duo) viro AIVRE dicundo, flamini Augustgali, cui divus Aurel(ius) Antoninus centenariam procuration(em) pro(vinciae) Hadrymetinae dedit, sacerdoti ad aram Caes(aris) n(ostri)* ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 1094. A son avis, la rédaction de l'inscription se placerait donc sous Commode, au moment où commencent à apparaître dans les inscriptions les indications relatives aux salaires des procurateurs. La qualité de *centenarius* apparaît alors, puisque M(arcus) Valerius Maximianus fut *praep(ositus) equitib(us) gent(ium) Marcomannor(um) Nqrist(arum) Quador(um) ad vindictam Orientalis motus pergentium honor(e) centenariae dignitatis* : *AE*, 1956, 124 ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 476-494, n° 181 bis (p. 488 sur la *centenaria dignitas*) ; à la même époque M(arcus) Aurelius Papirius Dionysius fut *centenarius consiliarius Augusti* : *CIL*, X, 6662 (*ILS*, 1455) ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 472-476, n° 181. Mais D. Fishwick, *The Imperial Cult in the Latin West. Studies in the Ruler Cult of the Western Provinces of the Roman Empire*, I, 2, Leiden-New York- Kobenhaven- Köln, 1987, p. 324-325, estime que, dans la carrière de ce notable gaulois, la mention du titre de *sacerdos ad aram Caes. n.* doit indiquer une date plus tardive, sous les Sévères. Le prince appelé *Antoninus* serait alors Caracalla (211-217) ; voir aussi *Id.*, *Ibid.*, III, 2, Leiden, Boston, Köln, 2002, p. 67, n° 32. Voir aussi M. Christol, « Centenarius vir », *ZPE*, 158, 2006, p. 243-244.

incertitudes liées à l'emploi du terme *dioecesis* et à celui du terme *regio*, qui plus est étroitement juxtaposées. Il est vraisemblable qu'en honorant le personnage lorsqu'il quittait la direction de la circonscription de Théveste, l'affranchi impérial ait voulu signaler à la fois son départ et sa promotion pour la direction de la circonscription d'Hadrumète[46]. Et il est impossible désormais, à propos du terme *dioecesis*, de se laisser aller à la confusion entre une éventuelle circonscription d'administration générale, relevant des compétences du proconsul d'Afrique et de ses légats, et une circonscription d'administration procuratorienne : ne sait-on pas, désormais[47], plus nettement encore que du temps de la rédaction des ouvrages de H.-G. Pflaum[48], qu'il n'est pas possible de mettre en évidence quelque document que ce soit pour argumenter valablement sur l'existence d'un légat du proconsul qui se serait occupé d'un éventuel diocèse d'Hadrumète[49] ? En définitive, on peut penser que ce chevalier romain, après avoir aidé un fonctionnaire sénatorial originaire de Cirta, P(ublius) Pactumeius Clemens, à surveiller les finances des cités de la province de Syrie, et après avoir dirigé une des casernes de gladiateurs qui se trouvaient à Rome (le *ludus matutinus*), a dirigé successivement deux circonscriptions procuratoriennes africaines, celle de la région de Théveste (et d'Hippone), puis celle d'Hadrumète.

Ce n'est donc que le manque d'informations précises sur les origines et les premiers temps de cette circonscription d'Hadrumète qui a entretenu le doute et la confusion. Si nous pouvons ainsi placer le passage de M(arcus) Claudius Restitutus en Afrique vers la fin du règne d'Hadrien ou le début du règne d'Antonin, nous disposons du premier indice chronologique assuré sur l'existence de cette autre subdivision de la procuratelle de Carthage. Ainsi apparaît, par la conjonction de toutes les documentations sur la procuratelle d'Hippone et de Théveste, sur la procuratelle d'Hadrumète et sur la procuratelle de Carthage que trois grandes circonscriptions avaient été créées dans le même mouvement par le démembrement qu'avait décidé l'empereur Trajan[50]. Dans la zone du Sahel, la cité d'Hadrumète en profitait, en devenant un centre administratif important, donnant son nom à la circonscription[51], et en recueillant, peut-être en même temps, de la part de Trajan, le statut de colonie

---

disparaître un poste sexagénaire ». Interprétation encore plus compliquée de la part de Ch. Saumagne, « Esquisse des circonscriptions domaniales dans l'Afrique romaine », *CTun.*, 1962, p. 252-253. Le point de vue de H.-G. Pflaum a été repris par C. Lepelley, *Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire*, II, *Notices d'histoire municipale*, Paris, 1981, p. 262 n. 11, ainsi que par R. Haensch, *Capita provinciarum*, p. 742.

[46] Ce type d'inscription a été mis en évidence, un peu plus tard que la publication des ouvrages de H.-G. Pflaum, par E. Birley, « Inscriptions Indicative of Impending or Recent Movements », *Chiron*, 9, 1979, p. 495-505 ; voir à ce sujet, M. Christol, « Les subdivisions de l'administration domaniale et financière », p. 77-78.

[47] A. Chastagnol, « Les légats du proconsul d'Afrique au Bas-Empire », dans *Libyca*, 6, 1958, p. 7-19 (= *Id.*, *L'Italie et l'Afrique au Bas-Empire*, p. 67-79) ; G. Di Vita-Evrard, « *L. Volusius Bassus Cerealis*, légat du proconsul d'Afrique *T. Claudius Aurelius Aristobulus*, et la création de la province de Tripolitaine », dans *L'Africa romana. Atti del II convegno di studio, Sassari, 14-16 dicembre 1984*, Sassari, 1985, p. 154-160.

[48] Voir à ce sujet, H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 385, ainsi que Ch. Saumagne, « Esquisse des circonscriptions domaniales dans l'Afrique romaine », *Rev. Tunisienne*, 1940, p. 231-242 (= *Mélanges offerts à Ch. Saumagne*, dans *CTun.*, 10, 1962, p. 245-255) : cet auteur, *ibid.*, p. 249, admet toujours l'existence de trois diocèses.

[49] M. Christol, « Les subdivisions de l'administration domaniale et financière », p. 75-76 , p. 78-79.

[50] M. Christol, « Les subdivisions de l'administration domaniale et financière », p. 79-80.

[51] On trouve dans les sources épigraphiques les dénominations suivantes : *regio Hadrumetina* le plus couramment, *dioecesis Hadrumetina* dans deux cas, et même *provincia Hadrumetina* aussi dans un cas.

à ses prédécesseurs il a clarifié bien des interprétations. L'analyse des structures administratives créées à ces fins l'a conduit à de multiples discussions, à plusieurs reprises, et à des prises de positions qui, devant être claires dans le texte imprimé, n'en reflétaient pas moins des hésitations et la conscience d'un certain inachevé. Il s'en explique dans la préface de l'édition des *Carrières procuratoriennes*, ouvrage publié en 1960-1961, qui, sur certains points, présenterait un tableau un peu différent de celui qui avait été soumis au lecteur dans le livre précédent sur les procurateurs équestres, paru dix ans plus tôt. La traduction et l'adaptation de l'article *Prokurator* dans la *Real-Encyclopädie*, parue en 1974 à l'initiative de N. Duval sous le titre *Abrégé des procurateurs équestres*, fait état de nouvelles réflexions. On peut dire que ce tableau de l'organisation procuratorienne des provinces africaines, et plus particulièrement celui de l'*Africa*, est encore un chantier de recherche largement ouvert, mais on ajoutera qu'on ne peut l'aborder qu'après avoir pris la mesure de tout l'effort de réflexion et d'analyse qu'avait préalablement engagé H.-G. Pflaum. Tout l'acquis d'une longue et puissante réflexion doit être assimilé, y compris dans ses repentirs et dans ses hésitations.

Les documents relatifs à l'existence d'un service administratif dont le cœur et le siège se trouvaient à Hadrumète n'apparaissent pas avant l'époque d'Antonin le Pieux, même si, dans le livre sur *Les procurateurs équestres*, puis dans l'*Abrégé des procurateurs équestres*, H.-G. Pflaum faisait apparaître dès l'époque de Trajan une *regio Hadrumetina*, en estimant que son existence était probable et que l'on devait la considérer, à l'instar de la procuratelle des propriétés impériales des régions d'Hippone et de Théveste, comme un service attaché à la gestion des biens qui se trouvaient dans les mains de l'empereur[43]. Mais il lui supposait un destin un peu tourmenté, en envisageant qu'elle ait pu être rattachée à la circonscription voisine de Théveste avant qu'elle n'acquière définitivement une existence autonome et qu'elle ne préfigure par ses limites la province de Byzacène. Comme nous l'avons dit plus haut, l'existence continue d'une région de Théveste (et d'Hippone) implique d'admettre celle, tout aussi continue et séparée, d'une région d'Hadrumète. Le contenu du seul document qui, au milieu du II^e^ siècle, aurait pu laisser croire qu'il y avait eu une réunification des deux régions sous un seul titulaire peut être interprété différemment. Il s'agit de l'inscription de Cirta relative à la carrière du procurateur M(arcus) Claudius Restitutus[44]. Le formulaire adopté par l'affranchi impérial qui honorait ce procurateur et qui, à l'occasion, détaillait les étapes de son cursus (*proc(uratori) Aug(usti) dioeceseos regionis Hadrumetinae et Thevestinae et ludi matutini et ad putandas rationes Syriae civitatium*), s'il peut laisser penser que les deux circonscriptions auraient alors fusionné[45], serait d'interprétation difficile. De plus s'ajouteraient à la discussion les

[43] H.-G. Pflaum, *Les procurateurs équestres*, p. 56-57 ; *Id.*, *Abrégé*, p. 21. On notera une légère variation sur le salaire de ce responsable administratif : salaire centenaire dans l'ouvrage de 1950, salaire sexagénaire dans l'opuscule de 1974. H.-G. Pflaum est suivi par L. Foucher, *Hadrumetum*, p. 206-207.

[44] *CIL*, VIII, 7039, cf. p. 1848 (*ILS*, 1437) = *ILAlg*. II, 1, 665 : *M(arco) Claudio Q(uinti) f(ilio) Quir(ina) Restituto, proc(uratori) Aug(usti) dioeceseos regionis Hadrumetinae et Thevestinae et ludi matutini et ad putandas rationes Syriae civitatium, trib(uno) leg(ionis) VII Geminae, praef(ecto) coh(ortis) I Gaetulorum, Alexander Aug(usti) lib(ertus) tabul(arius) d(edit) d(edicavit)* ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 379-385, n° 158. Voir aussi M. Christol, « Les subdivisions de l'administration domaniale et financière en Afrique romaine : des limites de la procuratelle d'Hadrumète à celles de la province de Byzacène », dans *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du nord antique. Hommage à Pierre Salama*, Paris, 1998, p. 71-86.

[45] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 380 et 383 ; mais *ibid.*, p. 1094, il inclut ce personnage autant dans la série des procurateurs de la *regio Hadrumetina* que dans celle des procurateurs de la *regio Thevestina*. Puis dans *Id.*, *Abrégé*, p. 24-25 avec n. 33, à propos de l'évolution du nombre des postes sous Antonin le Pieux, il considère que « la réunion des districts domaniaux d'Hadrumète et de Théveste... fait

Il apparaît aussi, d'après les formulations qui servirent à identifier ce responsable impérial, que Théveste devint, peut-être même rapidement, le point central de cette circonscription double, alors que Hippone, qui semblait initialement avoir tenu le premier rôle, n'apparaissait plus comme élément de dénomination, ou bien passait au dernier rang[40]. Quoi qu'il en soit, la prise en compte de la définition géographique de ce ressort procuratorien, combinée au maintien, mais dans un contexte remanié, de l'ancienne administration établie à Carthage, vient dessiner en creux le cadre spatial d'une troisième circonscription, et suggérer que, pour la gestion des biens fonciers qui se trouvaient dans les mains de l'empereur, la subdivision de la grande procuratelle d'Afrique fut réalisée en une seule fois. C'est ainsi pour l'instant, dans l'état de notre documentation, que l'on peut envisager l'union du *Byzacium* côtier, depuis longtemps associé à des régions plus méridionales, avec les régions de l'intérieur jusqu'à la Dorsale tunisienne, dans une circonscription, constituée au même moment que les deux précédentes, et placée sous l'autorité d'un responsable équestre établi à Hadrumète. Cette cité, malmenée par César[41], avait peut-être conservé son dynamisme, qu'elle ait été ou non le siège d'un *conventus* de la province d'*Africa*[42]. Elle retrouvait à ce moment-là un nouveau rôle régional. Quant à la définition des compétences du procurateur, il est normal de les définir à l'image de ce que nous savons du procurateur de la région d'Hippone et de Theveste : il aussi devait s'occuper des biens fonciers qui étaient dans les mains de l'empereur.

La *regio Hadrumetina*

Mais l'identité de cette circonscription n'a pas été toujours reconnue, ni l'autonomie de son existence admise. Il convient donc de revenir sur la documentation qui la concerne, de reprendre à ce propos quelques points en discussion. On tentera donc d'en préciser les contours, en ayant présente à l'esprit la perspective de la constitution de la province de Byzacène au début du IV^e^ siècle ap. J.-C.

Lorsque l'on reprend l'ensemble des remarques de H.-G. Pflaum sur la question, on doit constater que ce grand savant a éprouvé des difficultés à donner un tableau totalement cohérent de l'organisation procuratorienne de l'Afrique, même si par rapport

---

[40] Sur cette évolution, M. Christol, « Du notable local à l'administrateur impérial », p. 35-36 (= *Id.*, *Regards sur l'Afrique romaine*, Paris, 2006, p. 109-110). On tiendra compte aussi, à ce sujet, des responsabilités que doit exercer ce procurateur pour l'entretien de la légion *IIIa Augusta* : M. Christol, « Ti. Claudius Proculus Cornelianus, procurateur de la région de Théveste », dans *L'Africa romana. Atti del VII convegno di studi, Sassari, 15-17 dic. 1989*, Sassari, 1993, p. 893-904 (= *Id.*, *Regards sur l'Afrique romaine*, p. 111-115). Au II^e^ siècle l'emporte l'expression *procurator regionis Thevestinae*. Lorsque, au début du III^e^ siècle, revient une formulation plus longue, Hippone apparaît en dernier rang ; c'est le cas pour D. Clodius Galba : *proc. reg. Thevestinae et Hipponensis*, dans *IRT*, 395 et dans *IRT*, 242, cf. H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 655-657, n° 244 bis. Voir aussi ci-dessus n. 35.

[41] J. Gascou, *Politique municipale*, p. 73. Déjà L. Foucher, *Hadrumetum*, Tunis, 1964, p. 93-94, p. 106 vroi aussi ci-dessous, n. 105).

[42] Vespasien y vécut un épisode difficile lorsqu'il s'y rendit comme proconsul d'Afrique, en étant accueilli par une pluie de raves : Suet., *Vesp.*, 4, 3 ; B.E. Thomassson, *Fasti Africani*, p. 40 ; R. Haensch, *Capita provinciarum. Statthaltersitze und Provinzialverwaltung under römischen Kaiserzeit*, Mayence, 1977, p. 88 et p. 429. Cela suffit-il à considérer qu'il s'agissait à cette époque d'un siège de *conventus* ? C. Lepelley, tout en retenant cette possibilité, envisage aussi que l'incident aurait pu survenir lors d'une étape dans le parcours du proconsul, tout simplement : C. Lepelley, *Aspects de l'Afrique romaine*, p. 63-64. Il n'est pas exclu que l'élévation d'Hadrumète au rang de siège d'assises ait accompagné sa promotion au rang colonial sous Trajan.

s'installer à Calama, apporte des indications précieuses, notamment la première mention d'un district nouveau, correspondant à la partie occidentale de la province d'Afrique. Ce chevalier romain reçoit sur une inscription de Calama le titre de *proc(urator) Aug(usti) praediorum saltu(u)m [Hip]poniensis et Thevestini*[35] ; sur une inscription d'Hippone il apparaît sous le titre de *proc(urator) Aug(usti) a[d pra]edia saltus Hipponi[en]s(is) et Theve[st]ini*[36]. Les deux titres, très proches dans leur formulation, indiquent que l'on avait dessiné les contours d'une circonscription complexe. La région d'Hippone appartenait aux parties de la province dans lesquelles, de longue date, l'agriculture céréalière s'était bien développée, assurant la place et la réputation de l'Afrique dans le domaine frumentaire[37]. La région de Théveste, ville que la légion venait de quitter pour un camp plus occidental, à Lambèse, correspondait à un Far West africain, en voie de transformation du point de vue social et du point de vue économique, depuis l'époque flavienne[38]. Toutes deux comportaient aussi de nombreux domaines impériaux. La mention de cette seconde partie de la circonscription qu'avait à gérer T(itus) Flavius Macer traduit les nouvelles données du développement interne de la province d'*Africa*, au sein de la Dorsale et à l'Ouest de celle-ci, dans la zone des hautes plaines du Sud-Constantinois, sans que l'espace provincial lui-même se soit vraiement élargi. Il s'agit seulement, en son sein, du développement des forces productives.

Les diverses formulations du titre attribué à ce procurateur (*proc. ... praediorum...* ; *proc.... a[d pra]edia...*), même si elles n'ont pas été reproduites à l'identique pour les successeurs qu'on lui connaît au II^e^ et au III^e^ siècle, indiquent que sa responsabilité principale, du moins à l'origine, était la gestion des domaines fonciers du prince. La qualité des responsables de l'hommage, dans l'inscription d'Hippone, qui sont les *conductores qui in regione Hipponiensi consistent* (sic), montre aussi que la gestion des propriétés impériales, mises en exploitation sous le régime de la *locatio-conductio*, à l'instar de ceux qui sont connus dans la région de Dougga[39], constituait une part essentielle de ses responsabilités.

---

[35] *CIL*, VIII, 5351 (*ILS*, 1435) = *ILAlg.*, I, 285 et add. ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 229-231, n° 98 ; M. Christol, « Du notable local à l'administrateur impérial, la carrière de T. Flavius Macer : aspects de la vie institutionnelle de la province d'Afrique au début du IIe siècle après J.-C. », dans *Splendidissima civitas. Etudes d'histoire romaine en hommage à François Jacques*, Paris, 1996, p. 27-28 avec n. 3. Conclusions acceptées et reprises par F. de Romanis, « Tributo granario africano », p. 705-706 ; mais il nous semble difficile de suivre cet auteur dans son analyse de l'évolution de cette administration : *ibid.*, p. 707-708.

[36] E. Albertini, dans *BCTH*, 1921, p. CCV (*AE*, 1921, 19) = *ILAlg.*, I, 3992 ; M. Christol, « Du notable local à l'administrateur impérial », p. 28-29.

[37] E. Deniaux, « Recherches sur les propriétés foncières des amis de Cicéron en Afrique », dans *L'Africa romana. Atti del XII convegno di studio. Olbia, 12-15 dicembre 1996*, Sassari, 1998, , p. 142-153 ; M. Cébeillac-Gervasoni, « Ostie et le blé au II^e^ siècle ap. J.-C. », dans *Le ravitaillement en blé de Rome et des centres urbains des débuts de la République jusqu'au Bas-Empire. Actes du colloque international de Naples (1991)*, Naples-Rome, 1994, p. 47-59, partic. p. 52-57 ; M. Christol, « Le blé africain et Rome. Remarques sur quelques documents », *ibid.*, p. 295-304.

[38] Ce qu'indique fermement J. Gascou, *Politique municipale*, p. 99-100.

[39] Sur ce point, que l'on peut préciser grâce à l'inscription publiée par L. Poinssot, *BCTH*, 1920, p. CCXII, puis par *Id.*, « Datus, conductor regionis Thuggensis », *CRAI*, 1920, p. 357-359 (*AE*, 1921, 24), complétée par les commentaires de J. Carcopino, *BCTH*, 1921, p. CLVIII (cf. *AE*, 1921, 24), et Id., « Fermier général ou sociétés publicaines », *REA*, 24, 1922, p. 13-36. Sur cette inscription, devenue *ILAfr.*, 568, en dernier M. Khanoussi et L. Maurin (dir.), *Dougga. Fragments d'histoire. Choix d'inscriptions latines éditées, traduites et commentées (Ier – IVe siècles)*, Bordeaux-Tunis, 2000, p. 159-160, n° 59 (commentaire de M. Khanoussi). Plus généralement, sur le mode de gestion de ces biens, qui entraient dans la *res privata*, D. Kehoe, *The Economics of Agriculture on Roman Imperial Estates in North Africa*, Göttingen, 1988, p. 127-140 (sur l'inscription d'Hippone, *ibid.*, p. 127-128).

pas une simple étape dans les déplacements des autorités provinciales. C. Lepelley[26] a déduit d'un passage de l'*Ad Scapulam* de Tertullien[27] que le proconsul d'Afrique y tenait ses assises. En s'adressant au proconsul P(ublius) Iulius Scapula Tertullus Priscus, cet auteur lui fait remarquer qu'un de ses prédécesseurs, Cingius Severus, vraisemblablement en place à la fin du règne de Commode[28], avait eu l'habileté de suggérer aux chrétiens déférés à son tribunal les quelques mots de réponse qui lui avaient permis de prononcer leur relaxe. Si l'on associe l'ensemble des témoignages que l'on vient de mentionner, on conclura que proconsul et procurateur devaient effectuer un parcours identique ou proche, ne serait-ce que pour pouvoir faire face, ensemble, à des questions qui concernaient la gestion des biens de l'Etat[29]. A ce moment-là le *Byzacium*, vraisemblablement réduit à sa partie céréalière, était encore celui dont Rome avait hérité de l'époque carthaginoise. Il apparaissait plutôt comme une dépendance de la zone septentrionale de la province, où se trouvait le siège administratif principal.

Vers la fin du principat de Trajan[30], presque à un demi-siècle de distance environ du témoignage de Pline, la procuratelle d'Afrique a fait l'objet d'aménagements, ce qui reflète les transformations de l'espace et l'évolution économique qui l'accompagna. La légion *IIIa Augusta* avait alors été établie à Lambèse[31], Ammaedara était devenue une colonie romaine depuis longtemps[32], Théveste venait sans doute de le devenir[33], les cités de la Dorsale avaient été transformées par les Flaviens[34], les genres de vie dans la Basse Steppe et dans la Haute Steppe étaient désormais marqués par la sédentarisation des populations et par le recul du pastoralisme, mieux contrôlé ou contenu. L'examen de la carrière procuratorienne de T(itus) Flavius Macer, notable d'Ammaedara, qui vint

---

[26] C. Lepelley, « Les sièges des conventus judiciaires de l'Afrique proconsulaire », *BCTH*, Afrique du Nord, ns. 23, 1990-1992 [1994], p. 145-157 (= *Id.*, *Aspects de l'Afrique romaine. Les cités, la vie rurale, le christianisme*, Bari, 2001, p. 62-63) ; R. Haensch, *Capita provinciarum. Statthaltersitze und Provinzialverwaltung in der romischen Kaiserzeit*, Mainz, p. 84.

[27] Tert., *Ad Scapulam*, IV, 3 (*CCL*, II, p. 1130) : *Quanti autem praesides, et constantiores et crudeliores, dissimulaverunt ab huiusmodi causis ! Ut Cingius Severus, qui Thysdri ipse remedium, quomodo responderent christiani ut dimitti possent...* . Sur ce personnage et la date de son proconsulat, T.D. Barnes, *Tertullian. A Historical and Literary Study*, Oxford, 1971, p. 38, 55, 260-261, 268-269 B.E. Thomasson, *Fasti Africani, Senatorische und ritterliche Amtsträger in den römischen Provinzen Nordafrikas von Augustus bis Diokletianus*, Stockholm, 1996, p. 83-84.

[28] C. Letta, « ILAfr. 265 e il proconcolato d'Africa di C. Cingio Severo », *Latomus*, 54, 1995, p. 854-874 ; T. D. Barnes, *Tertullian*, p. 146 ; B. E. Thomasson, *Fasti Africani*, p. 77.

[29] Papirius Iustus, *2 const.*, *D.*, 50, 1, 38, 2 : *Item (= Impp. Antoninus et Verus Augusti) rescripserunt colonos praediorum fisci muneribus fungi sine damno fisci oportere, idque excutere praesidem adhibito procuratore debere.* On ajoutera *CJ*, 2, 36, 2 (sous Sévère Alexandre) : *quod si fiscum id postulatis (*la *restitutio in integrum) intellegitis procuratorem meum una cum praeside, praesente fisci patrono, adire vos debere.* Quelques références sprécieuses à partir de T. Spagnuolo Vigorita, *Secta temporum meorum. Rinnovamento politico e legislazione fisscale agli inizi del principato di Gordiano III*, Palerme, 1978, p. 128-130. Voir aussi G.P. Burton, « Provincial Procurators and the Public Provinces », *Chiron*, 23, 1993, p. 16-18. On rappellera que dans l'étude de Fr. Jacques, « Humbles et notables. La place des *humiliores* dans les collèges de jeunes et leur rôle dans la révolte africaine de 239 », *Ant. Afr.*, 15, 1980, p. 226, la présence du proconsul et du procurateur à Thysdrus est expliquée par une participation commune aux activités judiciaires.

[30] H.-G. Pflaum estimait que la mesure s'était produite sous Trajan, mais il n'apportait pas d'autres précision chronologique : H.-G. Pflaum, *Les procurateurs équestres*, p. 56, p. 58 ; *Id.*, *Carrières procuratoriennes*, p. 83 ; *Id.*, *Abrégé des procurateurs équestres*, Paris, 1976, p. 18.

[31] Y. Le Bohec, *La Troisième Légion Auguste*, Paris, 1989, p. 369.

[32] J. Gascou, *La politique municipale de l'empire romain en Afrique proconsulaire de Trajan à Septime Sévère*, Rome, 1972, p. 29-30, p. 36, p. 93.

[33] J. Gascou, *Politique municipale*, p. 91-97, p.

[34] J. Gascou, *Politique municipale*, p. 3-32 et p. 36.

délicates de caractère politique[15], portait le titre de *procurator provinciae Africae*[16]. Ce titre ne permet pas de définir avec précision le détail de ses attributions, mais il montre au moins que c'était un personnage lié à l'empereur qui avait compétence pour gérer en son nom d'une part des biens personnels et d'autre part des revenus publics dont son mandant avait la responsabilité de l'administration[17].

Pline le Naturaliste aurait pu être un de ces personnages, à l'époque de Néron, si l'on suit une hypothèse ancienne de Fr. Münzer, qui a été acceptée par H.-G. Pflaum[18] ainsi que par R. Syme[19], et qui, à leur suite, a été reprise par J. Desanges[20]. Du commentaire de H.-G. Pflaum, on peut retenir que les renseignements très précis, dont certains impliqueraient même la présence du personnage comme témoin dans divers lieux du *Byzacium*[21], ne se rapportent pas à l'exercice d'une procuratelle régionale, comme il en apparaîtra plus tard[22], mais bien à la procuratelle provinciale, qui lui valait un salaire de 200 000 sesterces[23]. L'exercice de cette fonction se serait produit en 71-72, alors que R. Syme préfère 70-71 ou 72-73[24]. Que le procurateur d'Afrique, résidant à Carthage, ait visité le *Byzacium* n'étonnera pas : en 238, le procurateur provincial, établi à Carthage, faisait aussi une tournée, vraisemblablement en même temps que le proconsul, lorsqu'il fut assassiné à Thysdrus (voir ci-dessous). Or Thysdrus est aussi un des lieux dans lesquels Pline observa un événement mémorable[25]. Cette cité n'était donc

---

[15] On peut mentionner le rôle du procurateur Trebonius Garutianus qui, *iussu Galbae*, fait exécuter Clodius Macer en 69 (Tac., *Hist.*, I, , 7), ainsi que celui du procurateur Baebius Massa en 70, lors de l'assassinat du proconsul Pison (Tac., *Hist.*, IV, 50, 5 ; H.-G. Pflaum, *Les carrières procuratoriennes équestres sous le Haut-Empire romain*, Paris, 1960, p. 98-99 ; n° 41) ; voir, d'une façon générale, H.-G. Pflaum, *Les procurateurs équestres sous le Haut-Empire romain*, Paris, 1950, p. 157-160. On comparera avec la province d'Asie, grâce à Tac., *Ann.*, 13, 1 : W. Eck, « P. Celerius, *procurator Asiae* und Tac., *Ann.*, 13, 1 », dans A. Chastagnol, S. Demougin, C. Lepelley (éd.), *Splendidissima civitas. Etudes d'histoire romaine en hommage à François Jacques*, Paris, 1996, p. 67-77. Il dut arriver à quelques-uns de ces procurateurs établis à Carthage d'assurer l'intérim du proconsul, décédé ou éliminé, comme ce fut le cas en Asie pour C(aius) Minicius Italus (*CIL*, V, 875 ; *ILS*, 1374) : H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 141-143, n° 59, et plus généralement H.-G. Pflaum, *Procurateurs équestres*, p. 134-136. Voir aussi ci-dessous n. 68.

[16] Ainsi L(ucius) Sibidienus Sabinus (*CIL*, XI, 5863) ; H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 20-23, n° 6.

[17] H.-G. Pflaum, « La mise en place des procuratèles financières dans les provinces du Haut-Empire romain », *RHD*, 4ᵉ s., 46, 1968, p. 367-388.

[18] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratorienne*, p. 106-111, n° 45, p. 1092 ; « Patrimonium, ratio privata, res privata », dans *Il princeps e il suo impero. Studi di storia amministrativa e finanziaria romana*, Bari, 2000, p. 106-111 ; *Id.*, « Fiscus principis nostri (Sc. de Cn. Pisone patre, ll. 54-55) : ancora sulla configuerazione giuridica del fisco imperiale », *ibid.*, p. 163-174.

[19] R. Syme, « Pliny the Procurator », *HStCPh.*, 73, 1969, p. 201-236 (= *Id.*, *Roman papers*, II, Oxford, 1979, p. 742-773)

[20] J. Desanges dans l'édition de Pline, *Hist. Naturelle*, t. V, 1-46 (CUF), Paris, 1980, p. 26, ainsi que *Id.*, « Regards de géographes anciens sur l'Afrique mineure », dans *Regards sur la Méditerranée (Cahiers de la villa « Kérylos », 7)*, Paris, 1997, p. 55-56

[21] Pline, *HN*, VII, 36 : *ipse in Africa vidi mutatum in marem nuptiarum die L. Consitium civem Thysdritanum* ; XVII, 41 : *contra in Byzacio Africae illum centena quinquagena fruge fertilem campum nullis, cum siccum est, arabilem tauris, post imbres vili asello et a parte altera iugi anu vomerem trahente vidimus scindi* ; XXXV, 123 : *sunt et ranis venena, rubetis maxime, vidimusque psyllos in certamen e patinis caude factis admittentes, ociore etiam quam aspidum pernicie*. Mais aussi *HN*, V, 41 et XIII, 104.

[22] Comme le voulait Fr. Münzer, « Die Quelle des Tacitus für die Germanenkriege », *BJ*, 104, 1899, p. 67-103, appendice intitulé « Die procuratorische Laufbahn des älteren Plinius », *ibid.*, p. 103-111.

[23] H.-G. Pflaum, *Carrières procuratoriennes*, p. 109-110.

[24] R. Syme, « Pliny the Procurator », p. 214-216 (= *Id.*, *Roman papers*, II, p. 754-755, et p. 764).

[25] Pline, *HN*, VII, 36 (voir n. 21).

Dorsale ? Mais elles sont déjà mentionnées par Salluste dans le *Bellum Iugurthinum*. Ou bien, ces vieilles cités de l'intérieur, revitalisées par la présence militaire romaine à Ammaedara (Haïdra) et par la politique de Vespasien, ainsi que par le souci qu'eut Rome de s'assurer, à partir de la grande route stratégique d'Ammaedara à Capsa et à Tacape, du contrôle du pays des Basses Steppes[11], n'ont-elles pas joint leurs mains à celles du fertile *Byzacium* ? Quoi qu'il en soit, devint alors marquant le développement de l'oléiculture dans l'ensemble des steppes tunisiennes, ainsi que le progressif déplacement des centres de gravité de la région vers les villes de la Dorsale et de la Haute Steppe. A terme pouvait apparaître une Byzacène, riche et puissante, à la transition du Haut-Empire et de l'Antiquité tardive, mais une Byzacène dont les cités de l'intérieur le disputaient en richesse et en dynamisme à celles de la côte. Le cadre géographique est mis en place dès l'époque triumvirale peut-être, si l'on peut se fier aux données présentées par Pline l'Ancien[12]. Mais le cadre économique et social est encore à construire, dans la partie où dominent les tribus.

Les circonscriptions administratives régionales

Comme signe majeur de ce cycle de développement économique, on peut examiner les transformations administratives qui l'accompagnèrent, notamment les transformations de l'administration financière et domaniale, qui pour le compte de l'Etat romain ou pour celui du prince assurait l'organisation des prélèvements ou stimulait le développement des forces productives, les revenus et les ressources de la province d'*Africa* étant devenus très tôt indispensables au bon fonctionnement de la vie quotidienne dans la capitale de l'Empire, et leur place n'ayant cessé de s'accroître, tant pour la consommation de blé que pour la consommation d'huile[13].

Pendant tout le premier siècle ap. J.-C. et au début du II^e^ siècle, le procurateur équestre, établi à Carthage, assisté d'un affranchi impérial[14], jouait un rôle essentiel : celle-ci, au moins à partir d'un certain moment, s'était occupée des deux branches que nous avons évoquées ci-dessus Nous ignorons si existaient alors des subdivisions domaniales de dimensions plus réduites, sous-ensembles comparables à ceux qui apparaîtront plus tard dans la documentation épigraphique, et établissent alors quel était le rôle d'affranchis impériaux, à la tête de groupements domaniaux bien circonscrits, subordonnés à une autorité supérieure, détenue par des membres de l'ordre équestre : leur existence paraît toutefois vraisemblable, car il fallait administrer au plus près les domaines. Ce plus haut responsable, souvent investi par l'autorité impériale de missions

[11] Voir les remarques de P. Trousset, sur la politique de Tibère : P. Trousset, « Les bornes du Bled Segui », *Ant. Afr.*, 12, 1978, p. 125-177, particulièrement p. 153-161.

[12] Tout dépend de la date de rédaction de la source administrative utilisée par Pline. Alors que, traditionnellement, l'historiographie française date cette rédaction du lendemain de l'établissement du Principat, un point de vue différent, fraisant remonter cette situation aux débuts de l'époque triumvirale, a été proposé par D. Fishwick et B.D. Shaw, « The Formation of Africa Proconsularis », *Hermes*, 105, 1977, p. 369-380, puis par B.D. Shaw, « The Elder Pliny's African Geography », *Historia*, 30, 1981, p. 424-471. Nous l'avons adopté : M. Christol, « De la liberté recouvrée d'Uchi Maius à la liberté de Dougga », *RPhil.*, 78, 2004, p. 31-32.

[13] Ce que tendrait à minimiser l'étude récente de F. De Romanis, « Per una storia del tributo granario africano della Roma imperiale », dans B. Marin et C. Virlouvet, *Nourrir les cités de Méditerranée. Antiquité-Temps Modernes*, Paris, 2003, p. 691-738, notamment p. 691-703.

[14] Selon le principe de la collégialité inégale, H.-G. Pflaum, *Abrégé des procurateurs équestres*, Paris, 1974, p. 65-66.

s'appuie aussi sur la partie intérieure, qui donne sa profondeur à la région et qui sert à caractériser sa « forme arrondie »[6] dans la description des géographes. Pline apporte à ce propos d'importants témoignages[7]. Les cités côtières se caractérisaient à l'origine par le statut de cités libres, qu'elles avaient gagné grâce à leur attitude durant la troisième guerre punique, préservant ainsi, lors du règlement des affaires d'Afrique, une situation qu'elles avaient acquise à l'époque punique. Mais on peut envisager qu'avec la création de la province d'*Africa*, limitée par la *fossa regia*, *Thenas usque perducta* selon Pline, V, 25, l'espace provincial ainsi délimité dépassait déjà le *Byzacium* carthaginois et lui ajoutait une partie plus méridionale, au sein de laquelle se trouvait Thysdrus, c'est-à-dire une région dont les possibilités agricoles n'étaient nullement négligeables[8]. Un point important est de rapprocher les notions antiques et les réalités géographiques modernes. Ce *Byzacium* allait-il en profondeur jusqu'à inclure la région de Kairouan qui, du point de vue géographique, fait partie de la Basse steppe? Jusqu'où s'avançait-t-il vers le sud, en direction de Thysdrus, qui n'entre plus tout à fait dans le Sahel tunisien, et qui est la dernière ville importante de l'intérieur ? La méconnaissance du tracé de la *fossa regia* dans cette partie de la province ne permet pas d'être totalement affirmatif[9], sauf à constater qu'elle se terminait bien plus au sud que la limite méridionale que l'on doit assigner au *Byzacium*, entendu au sens originel.

Du point de vue territorial, il existe donc une différence très sensible entre le *Byzacium* acquis par Rome en 146 av. J.-C. et la Byzacène de Dioclétien, comme l'indiquait toujours J. Desanges[10]. Dans l'intervalle de ces quatre siècles et demi le cadre économique et social du territoire s'est profondément transformé, surtout à partir des débuts de l'époque impériale. Ce n'était pas une simple extension territoriale, depuis les cités côtières. Il s'était produit, en même temps que l'emprise romaine sur l'espace africain devenait plus large et plus forte à la fois, de profondes transformations économiques et politiques, qui mériteraient de plus amples réflexions. Essayons d'en retenir quelques jalons, qui concernent des phénomènes qui se produisirent au II^e siècle ap. J.-C.

En premier : comment l'espace s'est-il progressivement structuré jusqu'à faire apparaître une nouvelle entité administrative ? Est-ce à partir de la côte et des anciennes cités puniques, par diffusion progressive jusqu'aux cités des Hautes Steppes et de la

---

Desanges, « Rex Muxitanorum Hiarbas (Justin, XVIII, 6, 1) », *Philologus*, 111, 1967, p. 304-308 (p. 304 avec notes) (= *Id.*, *Toujours Afrique apporte fait nouveau. Scripta minora*, Paris, 1999, p. 3).

[5] Pol., III, 23, 2-3 ; Varron, *De re rustica*, I, 44 ; J. Despois, « Rendements en grain du Byzacium », dans *Mélanges offerts à E.-F. Gautier*, Tours, 1937, p. 187-188 ; *Id.*, *La Tunisie orientale. Sahel et Basse Steppe. Etude géographique*, 2^e éd., Paris, 1955, p. 105-106.

[6] Polybe, XII, ap. Steph. de Byzance, sv. *Byzantes* ; J. Desanges, « Etendue et importance », p. 8 et p. 14-15.

[7] Passages commentés par J. Desanges, « Etendue et importance du Byzacium », p. 18-19.

[8] H. Isnard, « Le répartition saisonnière des pluies en Tunisie », *Ann. Géogr.*, 61, 1952, p. 357-362. Voir aussi pour une présentation du cadre géographique, J. Despois, *La Tunisie orientale. Sahel et Basse Steppe*, p. 9-35, p. 103-105.

[9] En dernier sur le tracé de la *fossa regia*, G. Di Vita-Evrard, « La Fossa Regia et les diocèses d'Afrique proconsulaire », dans *L'Africa romana. Atti del III convegno di studio, Sassari, 13-15 dicembre 1985*, Sassari, 1986, p. 31-58. Rappelons la remarque de Ch. Saumagne, « La Fossa regia », *CTun.*, 10, 1962, p. 407 : « Entre le Djebel Fkirine, au pied duquel un cippe de Vespasien atteste que passait la *Fossa Regia*, et Thaenae où Pline l'Ancien nous dit qu'elle aboutissait, il n'y a place que pour l'incertitude. On tire généralement entre les deux points de la carte un trait rectiligne jalonné par la Sebkha de Sidi-el-Hani et la Sebkha-el-Gorra ».

[10] J. Desanges, « Etendue et importance du Byzacium », p. 21-22.

L'administration des biens du prince et des biens de l'Etat jusqu'à la création de la province de Byzacène.

Michel Christol
Université de Paris I

Le cadre géographique donné à la communication s'appuie sur la référence à une situation tardive, celle d'une province qui apparut sous Dioclétien[1], au début du IV[e] siècle ap. J.-C. : la *provincia Valeria Byzacena*, « entité administrative tardivement constituée, qui n'est certainement ni une création *ex nihilo*, ni un tout homogène »[2]. Ce choix est commode, et on pourra même l'estimer nécessaire puisque dans sa formulation il se réfère à l'achèvement d'une évolution. Mais s'y plier impose aussi de procéder avec nuance et de tenir pour principe que le cadre géographique retenu n'a été constitué en tant que tel qu'assez tardivement. Il faut donc envisager les modalités d'une construction progressive, faisant émerger peu à peu les conditions propres de cet aboutissement. Il s'agit aussi du déroulement d'une phase d'histoire administrative, marquée dans les institutions et par elles. Mais pour être bien suivie, son étude doit être accompagnée de réflexions diverses, sur les contextes politiques, économiques et sociaux.

L'élargissement du cadre géographique dans lequel s'inscrivit cette longue histoire administrative est une donnée essentielle du sujet. Nous devons en effet partir du *Byzacium*, c'est-à-dire d'un territoire qui entra dans la province d'*Africa* dès sa création au lendemain de la destruction de la puissance carthaginoise, et qui donc se trouvait dans l'*Africa vetus*, lorsque, à la fin de la période césarienne, la province d'*Africa* connut sa première expansion. Le *Byzacium* désigne toujours, au sens strict, un territoire de superficie limitée. Il a une façade côtière ne s'étendant pas au-delà de Thapsus[3], qui paraît être une cité de confins. Les cités les plus remarquables jalonnent la côte et peu nombreuses sont celles qui se trouvent un peu à l'intérieur, dans une zone qui, dans son extension vraisemblable, pourrait atteindre les environs de Kairouan : c'est là que se serait située une *chôra* d'administration punique, le *pagus Gurzensis*, attesté au début de l'époque impériale[4]. La réputation de productivité céréalière[5]

[1] En dernier, sur la division des provinces africaines, G. Di Vita-Evrard, « L. Volusius Bassus Cerealis, légat du proconsul d'Afrique, T. Claudius Aurelius Aristobulus, et la création de la province de Tripolitaine », dans *L'Africa romana, Atti del II convegno di studio, Sassari, 14-16 dicembre 1984*, Sassari, 1985, p. 149-177 ; sur l'organisation de la province et sur les gouverneurs, A. Chastagnol, « Les gouverneurs de Byzacène et de Tripolitaine », *Ant. Afric.*, 1, 1967, p. 119-134 (= *Id.*, *L'Italie et l'Afrique au bas-Empire. Scripta varia*, Lille, 1987, p. 163-178).

[2] J. Desanges, « Etendue et importance du Byzacium avant la création sous Dioclétien de la province de Byzacène », *CTun.*, 11 (44), 1963, p. 7-22 (la citation est à la p. 7).

[3] Pline, *HN*, V, 25 : *Hic oppida libera Leptis, Hadrumetum, Ruspina, Thapsus. Inde*... Commentaire de J. Desanges, p. 227-228 (sur Thapsus), p. 230-235 (pour les autres cités) ; déjà J. Desanges, « Etendue et importance », p. 17-20.

[4] Ptolémée, IV, 3, 6 (éd. Müller, p. 640) ; Steph. Byz., sv. *Byzantes* ; sur le *pagus Gurzensis* : *CIL*, VIII, 68 (*ILS*, 6095) ; G.-Ch. Picard, « L'administration territoriale de Carthage », dans *Mélanges d'archéologie et d'histoire offerts à André Piganiol*, Paris, 1966, p. 1263-1264, à nuancer par J.

- Poinssot (J.), « Inscriptions inédites recueillies pendant un voyage exécuté en 1882-1883, sur l'ordre de S. E. le Ministre de l'instruction publique (suite) », *Bulletin trimestriel des antiquités africaines*, t. II, 3[e] année, 1884, p. 68-98.
- Poinssot (L.), « Villes romaines », *Tunisie, Atlas historique, géographique, économique et touristique*, Paris, 1936, p. 29-38.
- Thomasson (Bengt E.), Fasti Africani. *Senatorische und ritterliche Amtsträger in den römischen Provinzen Nordafricas von Augustus bis Diokletian*, Stockholm, 1996.

- Magnence (350-353)
* *[D(omino) n(ostro)] / [Magno] / Magne/ntio Vi/ctori se/mper Au/gusti*, 66

BIBLIOGRAPHIE

- Benzina Ben Abdallah (Z.), *Catalogue des Inscriptions latines païennes du Musée du Bardo*, CEFR-92, Rome, 1986.
- Id., « A la découverte d'une nouvelle cité sufétale en Afrique proconsulaire », *L'Africa romana*, X, 1992, p. 635-643.
- Id., « Sidi Amor Jedidi, *ciuitas Siualitana* », *L'Africa romana*, XI, 3, p. 1355-1367.
- Cagnat (R.), « Chronique d'épigraphie africaine », *BACTH*, 1893, p. 151-169.
- Id., « Chronique d'épigraphie africaine », *Ibid*, 1896, p. 223-286.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (13 février 1900) », *Ibid*, 1900, p. CXXVIII-CXXXVIII.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (15 mai 1906) », *Ibid*, 1906, p. CCXIII-CCXXIX.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (16 février 1913) », *Ibid*, 1913, p. CLXXIV-CLXXXI.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (14 mars 1916) », *Ibid*, 1916, p. CXIVII-CLV.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (12 avril 1916) », *Ibid*, 1916, p. CLXXIV.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (15 mars 1927) », *Ibid*, 1927, p. 96.
- Id., « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (18 juin 1935), III : Inscriptions d'El-Haouria », *Ibid*, 1934-1935, p. 359-361.
- Corbier (M.), « Les familles clarissimes d'Afrique proconsulaire (I^{er}-II^{e} sicèle) », *Epigrafia e ordine senatoria*, *Tituli*, 5, 1982, p. 685-754.
- Gauckler (P.), « Rapport épigraphique sur les découvertes faites en Tunisie par le service des Antiquités dans le cours des cinq dernières années », *BACTH*, 1897, p. 362-471.
- Id., « Rapport sur des inscriptions latines découvertes en Tunisie de 1900 à 1905 », *NAM*, t. XV, p. 551.
- Godin (Le lieutenant), « Note sur la nécropole de *Mascliana*e (Hadjeb-el-Aïoun) », *BACTH*, 1905, p. 270-279.
- Guérin (V.), *Voyage archéologique dans la régence de Tunis*, II, Paris, 1862.
- Hannezo, Molins (L.) et Laurent (A.), « Notes sur une basilique chrétienne découverte à Hadjeb-el-Aïoun (Tunisie) », *BACTH*, 1894, p. 286-294.
- Hautecœur (L.), « Les ruines de Henchir-es-Srira, près Hadjeb-El-Aïoun (Tunisie) », *MEFR*, XXIX année, 1909, p. 365-400.
- Kyndt, « Extraits des procès-verbaux des séances (30 mai 1905) », *BSAS*, 1905, p. 15-17.
- Le Bohec (Y.), « Inscriptions juives et judaïsantes de l'Afrique romaine », *Antiquités africaines*, 17, 1981, p. 165-207.
- Le Glay (M.), *Saturne Africain. Monuments*, t. I: *Afrique proconsulaire*, Paris, 1961.
- Lepelley (Cl.), *Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire. Tome II : Notices d'histoire municipale*, Paris, Études augustiniennes, 1981.
- M'Charek (A.), « De *Zama* à Kairouan : la *Thusca* et la *Gamonia* », *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du Nord antique*. Hommage à Pierre Salama, études réunies par Claude Lepelley et Xavier Dupuis, Paris, Publications de la Sorbonne, 1999, p. 139-183.
- Id., « Sculptures antiques de Hajeb El-Aïoun (Tunisie) : de la tradition numide à la romanisation », *Antiquités africaines*, t. 38-39, 2002-2003, p. 19-38.
- Merlin (A.), « Séance de la Commission de l'Afrique du Nord (21 juin 1938) », *BACTH*, 1938-1939-1940, p. 145-168.
- Id., « Séance de la commission de l'Afrique du Nord (12 février 1945) », *BACTH*, 1943-1944-1945 (paru en 1951), p. 354-368.
- Monchicourt (Ch.), « Note sur la position de la ville d'*Aggar* ou *Agger* (Tunisie) », *BACTH*, 1909, p. 112-115.
- Pallu de Lessert (A. C.), *Fates des provinces africaines (Proconsulaire, Numidie, Maurétanies) sous la domination romaine, t. II : Bas-Empire*, Paris, 1901.
- Pikhaus (D.), *Répertoire des inscriptions latines versifiées de l'Afrique romaine (I^{er} – VI^{e} siècles). I, Tripolitaine, Byzacène, Afrique Proconsulaire*, Bruxelles, 1994.

II- Religion

1/ Divinités

2/ Prêtres-collèges

III- Empereurs

INDICES

I- Index des noms de personnes

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Flauia Victo/rina, u(ixit) a(nnis) / XXXVI. H(ic) s(ita) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Flauia Victorina*, a vécu 36 ans. Elle repose ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

Oueslatia

121- Borne limite
Edition: *AE.*, 1946, 75.
Bibliographie: Saumagne, *BACTH*, 1946, p. VII.; M'Charek, 1999, p. 156 (photo : pl. II bis, a, b).
« Cippe en pierre calcaire légèrement dégrossi » H. 50 x l. 20 cm ; Hl. 6 cm.
Caes(aris) / n(ostri).

122- Borne limite
Edition: *AE.* 1946, 76.
Bibliographie: Saumagne, *BACTH*, 1946, p. VII-VIII ; M'Charek, 1999, p. 156 (photo : pl. II, a, b).
Borne en pierre calcaire à sommet triangulaire. Ch. ép. H. 21 x l. 34 m ; Hl. 8 cm.

Galli/kani.
Remarques
Borne- limite de deux domaines, l'un appartenant à l'empereur, l'autre à un particulier.

Sidi Amor Jedidi (*Ciuitas Siualitana*)[37]

123- Dédicace pour le salut d'Antonin le Pieux et de ses fils
Edition: *AE.*, 1996, 1706.
Bibliographie: Ben Abdallah, 1994, p. 1355-1367.
« Dalle en pierre calcaire, de couleur jaunâtre» Champ épigraphique : H. 58 x l. 39 ; Hl. entre 5 et 3 cm.

Pro salute Imp(eratoris) Ca[es(aris)], / T(iti) Aeli(i) Hadr(iani) Anton(ini) Aug(usti) Pi(i), / liberorumque eius. / P(ublius) Cornelius Viat(or) et Iust(us) Bithies f(ilius), mag(istratus) ciuit(atis) Siualit(anae) aedem sacram mibilis / Cererum uetustate corruptam ampliau(erunt) / et opere albario cum exedris ex/ornauerun[t]. [d(ecreto) d(ecurionum)], p(ecunia) p(ublica) dedicauerunt.
Traduction: Pour le salut de l'Empereur César, *Titus Aelius Hadrianus Antoninus* Auguste, Pieux et de ses enfants *Publius Cornelius Viator* et *Iustus*, fils de *Bithies*, magistrats de la cité *Siualitana*, ont agrandi le temple sacré du « *Mibil* » des Cereres, détérioré par la vieillesse et l'ont orné d'exèdres recouvertes de stuc. Ils ont fait la dédicace, par décret des décurions, aux frais de la cité[38].
Datation : Entre 145 et 161 ap. J.-C.

---

[37] *AAT*, au 1/100.000^{e}, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 14-15. Sidi Amor Jedidi ou encore Sidi Abd el Aziz relève de la délégation (= sous-préfecture) de Oueslatia, gouvernorat (= préfecture) de Kairouan.
[38] Traduction de Ben Abdallah, 1994, p. 1359.

116- Epitaphes de *Sisso* et de *Fortunatus*
Edition: *CIL* VIII, 11221.

Texte de gauche :
Sissoi, / Tarafan(i) / lib(erta), Suf(etana?) / uix(it) an(n)is C.
Texte de droite:
Fortuna/tus, Babb(a)e fil(ius), Suf(etani filius), / uix(it) an(nis) LXXX.
Texte commun en bas:
Donatus f(ilius) eoru(m) / p(arentibus) p(issimis) suis imp(ensis) feci(t).
Apparat critique : Ligature de VS dans *Fortunatus* ; Ligature de ANI dans *annis* (à gauche) ; Ligature de AN dans *annis* (à droite) ; Dernière ligne, on peut développer : *p(ro) p(ietate).*
Traduction : *Sisso Sufetana*, affranchie de *Tarafan*, a vécu cent ans. *Fortunatus,* fils de *Babba*, fils de *Sufetanus*, a vécu 80 ans. Leur fils *Donatus* a fait faire (ceci) à ses frais à ces parents très pieux.
Datation : Première moitié du premier siècle ap. J.-C.

117- inscription incomplète
Edition: *CIL* VIII, 11222.
Bibliographie: Cagnat, *Rapport* II, n. 39.
« Dans les murs du rempart (côté nord) ».

L(ucii) Iuli(i) Homoll[i].
Traduction : [... de] *Lucius Iulius Homollus.*

118- Epitaphe de *[- - -] Peregrinus*
Edition: *CIL* VIII, 11223 (= 81).
« Dans le cimetière situé hors de la cité ».

[---] / Peregrinus. / uixit ann(is) / XXX[---].
Traduction : *[---] Peregrinus* a vécu (au moins) trente ans.

119- Epitaphe d'*Ulpius Speratus*
Edition: *ILPB*, 95 (= *CIL* VIII, 23126 b).
Bibliographie: Cagnat, *BSNAF*, 1904, p. 231.
« Petite dalle en marbre blanc » ; H : 26 x l : 28,5 x ép : 6 ; Hl : 3,5 cm.
A gauche :
Gentilicium / Ulpi Sperati.
A droite:
Ulpius Speratus / iuxta coniugem.
Apparat critique : Seule la partie à droite a été décrite par Mme Ben Abdallah.
Traduction : Héritage d'*Ulpius Speratus*
Ulpius Speratus (repose) près de sa femme[35].

Mejez el-Jediane / Aïn Essif[36]

120- Epitaphe de *Flauia Victorina*
Edition: *CIL* VIII, 12105.
Bibliographie: Poinssot, 1885, p. 266, n. 1043.

[35] Traduction de Ben Abdallah, p. 40.
[36] A 6 km à l'Est de Hr. Khachnoun, sur la rive droite de l'Oued Nebhana.

Pertinacis Aug(usti) f(ilii), diui M(arci) Antonini nep(otis), diui Pii pron(epotis), diui Hadriani abn(epotis)], diui Traiani adnep[otis], diui Neruae adnepotis [---] / [---publi]cae aedem fecerunt et dedicauerunt.
Apparat critique: *Hedera* à la fin du texte.
Traduction : Pour la sauvegarde de l'Empereur César, Lucius Septime Sévère Pertinax Auguste, Père de la Patrie, Pieux, vainqueur des Arabes, vainqueur des Adiabènes, vainqueur suprême des Parthes, fils de Marc Antonin divinisé, frère de Commode divinisé, petit-fils du divin Antonin le Pieux, arrière petit-fils du divin Hadrien, descendant à la 4^{e} génération du divin Trajan et descendant à la 5^{e} génération du divin Nerva ; et de l'Empereur César, Marc Aurèle Antonin, fils de l'Empereur César, Lucius Septime Sévère Pieux Pertinax Auguste, petit-fils du divin Marc Antonin, arrière petit-fils du divin Antonin le Pieux, descendant à la 4^{e} génération du divin Hadrien, descendant à la 5^{e} génération, descendant à la 6^{e} génération du divin Nerva. [---les citoyens ?] ont édifié (ce) temple l'ont dédié.
Datation : Entre l'été-automne 195 (date de la prise des titres *Arabicus* et *Adiabenicus*) et l'été 198 ap. J.-C. (date du titre *Parthicus Maximus*).

113- Inscription incomplète
Edition: *CIL* VIII, 11219.

Bloc a :
---] LOC . VII [---]S
Bloc b :
---] CXI LI [---
Bloc c:
---] CLIANIIIICO [---

114- Inscription incomplète
Edition: *CIL* VIII, 11224 (= 82).
Bibliographie : Guérin, p. 337, n. 497.

[---] / [---] ALVI[---] / [---]

115- Epitaphe de *Quintus Cornelius [- - -]sus*
Edition: *CIL* VIII, 11220 (= 80 a)
Bibliographie: Cagnat, *Rapport*, II, n. 138 ; Reinach et Babelon, *BACTH*, 1886, p. 74.
« Autel trouvé hors de l'enceinte de la ville encastré à l'angle d'un long mur de clôture (Montagne), à l'angle d'un mur d'une citerne (Cagnat) ».
Lecture de Reinach et Babelon :

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Q(uintus) Corneliu[s], / C(aii) f(ilius), [---]sus C [---u]/i(xit) an(nis) V[---]. / Corneli(i) fili(i) Caius et Quintus / fratri bono fecerunt. / H(ic) s(itus) s(epultus) e(st).
Apparat critique : l. 1 : *hederae* ; l. 2 : ligature de NE dans *Cornelius* ; l.6 : ligature de NT dans *fecerunt* ; l.7 : *hedera.*
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Quintus Cornelius [---]sus*, fils de *Caius*, a vécu (tant) d'années. Ces fils *Caius Cornelius* et *Quintus Cornelius*, ont fait (ceci) à leur bon frère. Son corps est enterré ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius Laelius Maximus Ferianus* a vécu 65 ans.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

Kairouan

110- Dédicace à Pluton pour le salut de la Tétrarchie :
Edition: *CIL* VIII, 11217 (= *ILTun.*, 267).
***Bibliographie*:** M'Charek, 1999, p. 168.

Deo Plutoni sacr(um). Pro salu/te dddd(ominorum) nnnn(ostrorum), Diocletia/ni Maximiani et Costanti (sic) et / Maximiani nob[i]lis(s)imo(rum) (sic) Caesss(arum), templum Plut(o)nis colabsum et / dedicatum per instantia felici / C(aii) Aeli(i) Fortunati et L(u)c(ii) Antoni Marsua/tis magg(istrorum) f(un)d(i ?) Iub(a)l(tianensis) ? et Fortunatus aliqua/tis arcarius et in hon(erem) poet. maiest(atique) cura[uerunt ---].

Traduction : Au dieu Pluton, consécration. Pour le salut de nos quatre seigneurs, Dioclétien, Maximien, Constantin et Maximin, très nobles Césars ; le temple écroulé de Pluton est fait par l'heureuse demande de *Caius Aelius Fortunatus* et *Lucius Antonius Marsuatis*, les deux *magistri* du *Fundus Iubaltianus* [---] et en l'honneur [---].
Datation : Cette dédicace remonte à la première Tétrarchie, entre les années 293 et 305 ap. J.-C.

111- Dédicace à Marc-Aurèle
Edition: *ILAfr.*, 80 (= *AE.*, 1917-1918, 63).
***Bibliographie*:** Merlin, *BACTH*, 1917, p. CCXXVIII.
« Bloc de marbre retaillé pour former un abaque de chapiteau devant le mihrab ». 52,5 x 79 cm ; Hl. : l.1-2 : 4,8 ; l.3 4,3 ; l.4 : 3,7 cm.
[Imp(eratori) Caes(ari), M(arco) Aurelio Antonino Aug(usto), diui Antonini Pii filio,] / diui Hadriani n[ep(oti), diui] / Traiani parthic[i pronepoti,] / diui Neruae abne[poti]. / Anno Ser(uii) Corneli(i) S[cipionis] / Saluidieni(i) Orfiti, proc[o(n)s(ulis), c(larissimi) u(iri)].
Traduction : À l'Empereur César Marc-Aurèle Antonin Auguste, fils du divin Antonin le Pieux, petit-fils du divin Hadrien, arrière petit-fils du divin Trajan le Parthique, descendant du divin Nerva. En l'année de *Seruius Cornelius Scipio Saluidienus Orfitus*, proconsul, homme clarissime.
Datation : Il s'agit d'une dédicace à l'empereur Marc-Aurèle, datée de l'année 163 ap. J.-C., grâce à la mention du proconsulat de *Seruius Cornelius Scipio Saluidienus Orfitus*[34].

112- Dédicace impériale
Edition: *CIL* VIII, 11218 (= 80).

[Pro sal(ute) Imp(eratoris) Caes(aris), L(ucii) Septimi(i) Severi Pii Pertinacis Aug(usti), Arab(ici), Adiab(enici), Par]thici maximi, diu[i] M(arci) Antonini fili(i), [diui Commodi fratris], / [diui Pii nep(otis), diui Hadriani pron(epotis), diui Traiani Parthici abn(epotis), diui Neruae adn(epotis), et Impe]ratoris Caesaris, M(arci) [A]urelli(i) Antonini [Pii Felicis Augusti], / [Imp(eratoris) Caes(aris) L(ucii) Septimi Seueri Pii

[34] Sur ce personnage, voir en dernier lieu : Thomasson (Bengt E.), Fasti Africani. *Senatorische und ritterliche Amtsträger in den römischen Provinzen Nordafricas von Augustus bis Diokletian*, Stockholm, 1996, p. 66, P 82.

Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

106- Epitaphe de *Titus Claudius Maximianus*
Edition: *CIL* VIII, 12120.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1886, p. 213 ;

D(iis) M(anibus) s(acrum). / T(ito) Claudio Ma/ximiano, Iubeni (filius), / probissimo ad / miserabile mo/rtis u(ixit) a(nnis) XXI. / M(arcus) Claudius SCAS [---].
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. A *Titus Claudius Maximianus*, (fils de) *Iubenus*, excellent, frappé d'une mort misérable, a vécu 21 ans. *Marcus Claudius ...*
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

107- Epitaphe incomplète
Edition: *CIL* VIII, 12121.

D(iis) M(anibus) s(acrum). [---].
Apparat ceritique : Hedera au-dessous du mot *Manibus*.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. [---].
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

Hr. Zerdoud[33]

108- Epitaphes de *Cattenius Felicio* et de *Flauia Donata*.
Edition: *CIL* VIII, 12106.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 153, n. 468;
« Autel brisé en haut ». H : 60 x l : 47 cm ; Hl : 4 cm.

Texte de gauche :
D(iis) M(anibus) s(acrum). / Cattenius Feli/cio, pie uixit / annis LXX. / H(ic) s(itus) e(st).
Texte de droite :
D(iis) M(anibus) s(acrum). / Flauia / Donata, / pia uixit / annis [++]. / H(ic) s(ita) [e(st)].
Apparat critique: *Hedera* après *Flauia*.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Cattenius Felicio*, a vécu pieusement 80 ans. Il repose ici.
Aux dieux Mânes, consécration. *Flauia Donata*, pieuse a vécu (tant d') années. Elle repose ici.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

109- Epitaphe de *Lucius Laelius Maximus Ferianus*.
Edition: *CIL* VIII, 12107.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 153, n. 467.
« Inscription gravée sur une pierre faisant partie d'une muraille d'une maison ». H : 45 x l : 28 cm ; Hl: 5,5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / L(ucius) Laelius M[axi]/mus Feria[nus] / uix(it) an(nis) LXV.

---

[33] *AAT*, au 1/100.000e, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 37.

Hr. Mesmar ou Hr. Maarouf[30]

101- Epitaphe de *Sapida*, fille de *Modestianus*
Edition: *CIL* VIII, 12091.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 88, n. 323.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / [.]apida / Mode[--- uix(it)] / an[nis] / XIII. Fur[...]/us [f]rater / fe(cit).
Apparat critique: l. 2 : *[S]apida* ; l. 3 : *Mode[sti]an[i f(ilia)]* ; l. 5: *Fur*[*ian*]*us*.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Sapida*, fille de *Modestianus*, a vécu 13 ans. Son frère *Furianus* a fait (ceci).
Datation : Fin II^e^ - début III^e^ siècle ap. J.-C.

102- Epitaphe de *[- - -]ius Venustus Maximianus*
Edition: *CIL* VIII, 12092.
Hl. 5 cm.

[D(iis)] M(anibus) s(acrum). / [---]ius Ve/nustus Ma/[xim]ianus, / [p(ius) ui]xit an/[nis ---] II, d(iebus) V. / [H(ic)] s(itus) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *[---]ius Venustus Maximianus*, pieux a vécu (tant) d'années, deux mois (au moins) et cinq jours. Il repose ici.
Datation : Fin II^e^ - début III^e^ siècle ap. J.-C.

103- Epitaphe
Edition: *CIL* VIII, 12093.
« Fragment d'un autel » ; Hl: 5 cm.

[---] / [--- p]iu[s ---], / [uix(it)] a(nnis) VIIII [---]. / [H(ic) s(itus)] e(st).
Traduction : (Un tel), pieux a vécu neuf ans. Il repose ici.

Hr. Oubeira[31]

104- Epitaphe de *Prima Felicia*
Edition: *CIL* VIII, 12109.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Prima Fel[icia ?], / Pulari(i) (filia), uix[i]/t annis LXV.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Prima Felicia*, fille de *Pularius*, a vécu 65 ans.
Datation : Fin II^e^ - début III^e^ siècle ap. J.-C.

Hr. Sidi Mansour[32]

105- Epitaphe d'*Aelia Felicitas*
Edition: *CIL* VIII, 12119.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1886, p. 213.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Aelia / Felicitas, / p(ia) u(ixit) a(nnis) / X, m(ensibus) X. / H(ic) s(ita) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Aelia Felicitas*, pieuse a vécu dix ans et dix mois. Elle repose ici.

---
[30] *AAT*, au 1/100.000^e^, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 36.
[31] Non citée sur les catres, cette localité se trouve au pied de Jbel Zorriz.
[32] *AAT*, au 1/100.000^e^, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 47.

Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Saturnina*, fille de *Rogatus*, pieuse a vécu (tant d'années)...
Datation : Fin II^e - début III^e siècle ap. J.-C.

96- Epitaphe de *Lucius Ulpius Fidelis*
Edition: *CIL* VIII, 12089.
H. 56 x l. 35 cm; Hl. 5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / L(ucius) Ulpius Fidelis, / pie uix(it) ann(is) LVI. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius Ulpius Fidelis*, a vécu pieusement 56 ans. Il repose ici.
Datation : Fin II^e - début III^e siècle ap. J.-C.

97- Epitaphe de *[- - -]mianus*
Edition: *CIL* VIII, 12090.
Bibliographie: De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 203.

[---] / mianus, pius / uix(it) ann(is) LVII. / H(ic) s(itus) e(st).
Apparat critique : ligature de A et N dans [---]MIANVS.
Traduction: *[---]mianus*, pieux a vécu 57 ans. Il repose ici.

98- Epitaphe
Edition: *CIL* VIII, 12081
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 289.
« Provient de la nécropole ».

[---] / I LIVI / uixit pi/[us] annis / XV, m(ensibus) VIII, d(iebus) XXXII. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction : (Un tel) a vécu 25 ans, huit mois et 32 jours. Il repose ici.

99- Inscription illisible
Edition: *CIL* VIII, 12070.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 283.
Hl. 7 cm.

AVI [---] + IIC VII / OB MEI[.]VM SING / VAIIS IIIONIS
Apparat critique : l. 2 : *ob me[rit]um sing[ulare].*

100- Inscription illisible
Edition: *CIL* VIII, 12071.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 72, n. 274.
H : 30 x l : 90 cm ; Hl. 8 cm.

[---] / mei eor[um ---] / ob semp[er ---] / [---].

D(iis) M(anibus) [s(acrum)]. / Po[---]m[---]oitus / [.]ius, [---] pius, / u(ixit) a(nnis) XXII. H(ic) s(itus) e(st).
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Po[---]m[---]citus*, pieux a vécu 22 ans. Il repose ici.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

92- Epitaphes des *Popilii*
Edition: *CIL* VIII, 12085.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 287 et 288.
« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ». H. 60 x l. 30 ; Hl. 6 cm.

Texte de gauche :
Popili/us Iuni/us, p(ius) u(ixit) a(nnis) / XXVII. / H(ic) s(itus) e(st).
Texte de droite:
Popili/us Maxi/mus, p(ius) u(ixit) a(nnis) / XXIIII. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction : *Popilius Iunius*, pieux a vécu 27 ans. Il repose ici.
Popilius Maximus, pieux a vécu 24 ans. Il repose ici.
Datation : Première moitié du premier siècle ap. J.-C.

93- Epitaphe de *Postumia Secunda*
Edition: *CIL* VIII, 12086.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 291.
« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ».

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Postumia Secun/da, Donati fil(ia), / p(ia), u(ixit) a(nnis) XXIII. H(ic) s(ita) e(st). / Siluanus, frater / fecit.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Postumia Secunda*, fille de *Donatus*, pieuse a vécu 23 ans. Elle repose ici. Son frère *Siluanus* a fait (ceci pour elle).
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

94- Epitaphe de *Rosa*, fille de *Gudu?*
Edition: *CIL* VIII, 12087.
Bibliographie: Cagnat, *Rapport*, IV, 8c.
Hl. 4 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Rosa Gu/duis, pie / u(ixit) a(nnis) XXXXI / [---].
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Rosa*, fille de *Gudu ?*, a vécu pieusement 41 ans…
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

95- Epitaphe de *Saturnina*, fille de *Rogatus*
Edition: *CIL* VIII, 12088.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 286.
« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ».

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Saturni/na, Roga/ti f(ilia), pia ui[x(it) annis tot] / [---]

« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou » ; Hl: 6 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / T(itus) Flauius Pris/cus, pius uix(it) / an(nis) LXXX. H(ic) s(itus) e(st).

Apparat critique: l. 4 : LXXX ou LXX.

Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Titus Flauius Priscus*, pieux a vécu 80 ans. Il repose ici.

Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

88- Epitaphe de *Gallus*, fils de *Gallus*, fils de *Numida*

Edition: *CIL* VIII, 12080.

Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 290; Cagnat, *Rapport*, IV, 84.

« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou » ; Hl: 4 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Gallus, Galli (filius), / Numidae fil(ius), / pius uixit an(nis) / XXXXVII. [H(ic) s(itus) e(st)].

Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Gallus*, fils de *Gallus*, fils de *Numida*, pieux a vécu 47 ans. Il repose ici.

Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

89- Epitaphe de *Lucius Lelius Adiectus*

Edition: *CIL* VIII, 12082.

Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 295.

« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ».

D(iis) M(anibus) s(acrum). / L(ucius) Lelius Adi[ec]/tus, p(ius) uix[it] / [annis ---]. / H(ic) s(itus) e(st).

Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius Lelius Adiectus*, pieux a vécu (tant d'années). Il repose ici.

Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

90- Epitaphe de *Quintus Maeuius Iulianus*

Edition: *CIL* VIII, 12083.

Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 292 et 293; De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 203.

« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ». H : 63 x l : 35 ; Hl: 5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Q(uintus) Maeuius Iulia/nus uix(it) an(nis) XXVII, / m(ensibus) VIIII, d(iebus) XIIII. / Contubernales am[a]n/tissimi [..] CIVS[.] VML / IINIOSSIM CONTIB / IISTITA INGENTEM / SVM T S fec(erunt). / H(ic) s(itus) e(st).

Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. Ci-gît, *Quintus Maeuius Iulianus* qui a vécu 27 ans, neuf mois et quatorze jours...

Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

91- Epitaphe

Edition: *CIL* VIII, 12084.

Hl.: 4 cm.

D(iis) [M(anibus) s(acrum)]. / A[elia Sil]uana, [--- ui]/xit ann[is ---] / [---].
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Aelia Siluana* a vécu (tant) d'années ...
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

83- Epitaphe de *Barigbal*, fils de *Cisus*
Edition: *CIL* VIII, 12074.
Bibliographie : Cagnat, *Rapport*, IV, n. 8b.
Hl. 3,5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Barigbal, / Cisi (filius), u(ixit) an(nis) / LX. H(ic) <s(itus) e(st)>.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Barigbal*, fils de *Cisus*, a vécu 60 ans. Il repose ici.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C

84- Epitaphe de *Belliena Rogata*
Edition: *CIL* VIII, 12075.
Bibliographie : Poinssot, 1884, p. 76, n. 285.
« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ».
Lecture de J. Poinssot :
[D(iis)] M(anibus) s(acrum). / Belliena Ro/[gata], uixit a/nn(is) LXII. H(ic) s(ita) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Balliena Rogata*, a vécu 62 ans. Elle repose ici.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

85- Epitaphe de *Considia Rosa*
Edition: *CIL* VIII, 12077.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 284.
« Inscription qui provient de la nécropole située à 1 km au nord de Khachnoune, sur le tracé de la voie romaine de Bargou ». H : 60 x l : 35 cm. Hl: 7 cm.

Consuli/a Rosa, / pia u(ixit) a(nnis) II. / H(ic) s(ita) e(st).
Apparat critique : *Considia* au lieu de *Consulia.*
Traduction: *Considia Rosa*, pieuse a vécu deux ans. Elle repose ici.
Datation : Première moitié du premier siècle ap. J.-C.

86- Epitaphe de *Cornelius Rogatinus*
Edition: *CIL* VIII, 12078.
Bibliographie: De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 203.
Hl. 3 cm.

Corneli[u]/s Rogati/nus, piu[s], / uix(it) a(nnis) XXXX[.]. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction : *Cornelius Rogatinus*, pieux a vécu 40 ans (au moins). Il repose ici.
Datation : Première moitié du premier siècle ap. J.-C.

87- Epitaphe de *Titus Flauius Priscus*
Edition: *CIL* VIII, 12079.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 76, n. 294.

M(arco) Clodio, M(arci) fil(io), Quir(ina tribu), Fa[us]to Secu[ndo], / parationem frumenti ex prouin[cia] / maurorum in ex[p]editione Germ(anica) p[raep(osito) ... donis militaribus] / uellexio et hasta p[u]ra donato et C(aio) [Clodio ---], / Quir(ina tribu), Secundo Iucundiano, eq(uo) r(omano) et Q(uinto) C[lodio ---].
Traduction : A *Marcus Clodius Faustus Secundus*, fils de *Marcus*, tribule de la *Quirina*, chargé des céréales dans la province des Maures lors de l'expédition contre les Germains, décoré vertueusement du javelot ; et à *Caius Clodius [---] Secundus Iucundianus*, tribule de la *Quirina*, chevalier romain, et à *Quintus Clodius* ...

78- Dédicace
Edition: *CIL* VIII, 12067.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 74, n. 278.
« Base en pierre calcaire ». H : 55 x l : 90 cm ; Hl: 7 cm.

[---] / Plautiae ep[---], / quae ob hon(orem) flam(oni) [p(er)p(etui)], / aedem a solo c[um] / statuis ex HS X[---] m(ilia) n(ummum) / promiserat Plau/ti(i) Faustus et Auge / her(edes) ampl(iata) pecun(ia) / perfecerunt.
Traduction : [---] A *Plautia* ep[---], qui, en l'honneur de son flaminicat perpétuel a promis (d'ériger) un temple depuis les fondations avec ses statues, avec la somme de (plus de 10) mille sesterces. *Fautus Plautius* et *Auge Plautius*, ses héritiers, ont achevé (le monument), en augmentant la somme.

79- Dédicace à *Quintus Clodius Mercatus* et *Clodia Iucunda*
Edition: *CIL* VIII, 12076.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 72, n. 273.
« Dans le mur de la citadelle, côté nord ». Pierre calcaire. H : 30 x l : 140 ; Hl: 8 cm.

Q(uinto) Clodio Mercato et Clodiae Iucun[dae].
Traduction: A *Quintus Clodius Mercatus* et à *Clodia Iucunda* ...
80- Epitaphe d'un sacerdoce de Vénus
Edition: *CIL* VIII, 12068.
Hl. 3,5 cm.

[--- Sacerdos] / Veneris, [ui]/xit an(n)is LX/V.
Traduction : [Un tel], sacerdoce de Vénus, a vécu 65 ans.

81- Epitaphe d'*Aelia Adiecta*
Edition: *CIL* VIII, 12072.
Bibliographie: De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 204.
« Cippe ». H : 70 x l : 25 cm ; Hl: 5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Aelia Ad/iecta, p(ia) u(ixit) / a(nnis) LXXVIIII. / H(ic) s(ita) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Aelia Adiecta*, pieuse a vécu 79 ans. Elle repose ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

82- Epitaphe d'*Aelia Siluana*
Edition: *CIL* VIII, 12073.
Hl.: 4 cm.

74- Dédicace à Constantin
Edition: *CIL* VIII, 12063.
Bibliographie: J. Poinssot, 1884, p. 75, n. 281 ; Lepelley, *Les cités*, II, p. 299.
« Base en pierre calcaire ». Dimensions du champ épigraphique : H : 81 x l : 35 cm ; Hl: 6 cm.

Inuictissimo atq<u>e / indulgentissimo / principi. Imp(eratori) Caes(ari), / Flauio Valerio Con/stantino P(io) F(elici) Inuict(o) Aug(usto) ; / ordo municip(ii) Muz(ucenses) / deuotus numini ma/estatique eius. / D(ecreto) d(ecurionum), p(ecunia) p(ublica).
Apparat critique : l. 1 : *atqe* pour *atque* ; l.6 : ligature de NI dans *municip.*
Traduction : Au prince très invincible et très indulgent, l'Empereur César *Flauius Valerius* Constantin, Pieux, Heureux, Auguste Invincible ; le conseil des citoyens de *Muzuc*, dévoué à son essence divine et à sa majesté (a élevé cette statue). Par décret des décurions, dépenses publiques.
Datation : Ce texte date du règne de l'empereur Constantin (entre l'année 307 et le 22 mai 337).

75- Dédicace à Constantin
Edition: *CIL* VIII, 12064.
Bibliographie: Cagnat, *Rapport* IV, n. 5 ; Belenet, *BACTH*, 1886, p. 204 ; Lepelley, *Les cités*, II, p. 299.
« Base ». H : 52 x l : 40 cm ; Hl: 3 cm. « Dans le *forum* ».

[V]icto[res ac triumphatore]s. /[---] AMI [---] / [---]S[---] / [Const]an[tinus Maximus, Pius, Felix, Aug(ustus) et] / [Con]s[tantinus et] / Constantius [et Constans], / fortissimi Caes(ares) ; [municipi]/um Muzucens[es ---]S[---]V [insta]/nte N[---]DINARCIL[---] / RMATISII OVIT AMI[---] / IT administrant[e ---] / [te]mpori[bus] IO[---] / [---]VIIVC[---]OC[---].
Traduction : Les victoires et les triomphes. Constantin le Grand, Pieux, Heureux, Auguste, et Constantin II et Constant et Constance II, très forts Césars ; le municipe des *Muzucenses* ...
Datation : Entre 333 et 337 ap. J.-C.

76- Dédicace à *Marcus Annaeus Maximus Aquila Fuluianus*
Edition: *CIL* VIII, 12065.
« Base » H : 100 x l : 35 cm ; Hl : 4 cm.

M(arco) Annaeo / Maximo / Aquilae / Fuluiano, / c(larissimo) p(uero), / patrono. / Fuluiani / maiores.
Traduction: A *Marcus Annaeus Maximus Aquila Fuluianus*, enfant de rang clarissime, patron. Les *Fuluiani maiores* (ont fait ceci).
Datation : « Au plus tôt dans la deuxième moitié du IIe siècle ap. J.-C. ».[29]
77- Dédicace à *Marcus Clodius Faustus Secundus*
Edition: *CIL* VIII, 12066.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 72, n. 275; Cagnat, *Rapport*, IV, n. 6.
« Dans les murs de la citadelle ». Deux fragments. H : 120 x l : 55 cm ; Hl: 8 cm.

[29] Corbier (M.), « Les familles clarissimes d'Afrique proconsulaire (Ier-IIe sicèle) », *Epigrafia e ordine senatoria, Tituli*, 5, 1982, p. 752.

Genio Ciuitatis Aug(usto) sacr(um). / Pro salute Imp(eratoris) Caes(aris) Antoni/ni [Au]g(usti) Pii liberorumq(ue) eius [---].
Apparat critique: « A gauche est représentée une femme qui tenait un épi ».
Traduction : Au Génie de la Cité Auguste, consécration. Pour le salut de l'Empereur César, Antonin le Pieux Auguste, et de ses enfants...
Datation : Le règne de l'empereur Antonin le Pieux (entre 145 et 161 ap. J.-C.)

71- Dédicace à Caracalla divinisé, fondateur du municipe
Edition: *CIL* VIII, 12060.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 75, n. 282; Lepelley, *Les cités*, II, p. 299.
« Pierre calcaire » H : 140 x l : 65 cm ; Hl : 7 cm. « Très fruste et presque entièrement effacée ».

Diuo Magno An/tonino Pio, condi/tori municipii, Pa[tri Patriae ---] / [---] / [---] / [---] municipe[s Mu]/zucenses. D(ecreto) d(ecurionum), p(ecunia) p(ublica).
Traduction : Au Grand Antonin divinisé, pieux, fondateur du municipe, Père de la Patrie [---], les citoyens *Muzucenses*. Par décret des décurions, dépenses publiques.
Datation : Après la mort de Caracalla.

72- Dédicace à Caracalla
Edition: *CIL* VIII, 12061.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 74, n. 280; De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 204.
« Base en pierre calcaire ». H : 140 x l : 70 cm ; Hl: 5 cm.

Inuictissimo at/que indulgentis/simo principi. / Imp(eratori) Caes(ari). / [---] P(io) F(elici) inuic(to) / Aug(usto), ordo mun(nicipii) Muz(ucensis) / deuotus num(ini) maiest/atique eius. / D(ecreto) d(ecurionum, p(ecunia) p(ublica).
Traduction: Au prince invincible et très indulgent. A l'Empereur César [---] Pieux Heureux Invincible Auguste ; le conseil des citoyens de *Muzuc*, dévoué à son *numen* et à sa majesté (a érigé cette statue). Par décret des décurions, dépenses publiques.
Datation : Il s'agit d'une dédicace e l'honneur de l'empereur Caracalla[28].

73- Dédicace à Constantin
Edition: *CIL* VIII, 12062.
Bibliographie: J. Poinssot, 1884, p. 74, n. 279; De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 203; Lepelley, *Les cités*, II, p. 299.
« Base en pierre calcaire ». H : 70 x l : 40 cm ; Hl. : 2 cm.

D(omino) n(ostro) Flauio / Valeri/o Constantio in (sic) / inuicto et nobilissi/mo Caes(ari) ; ordo mu/n(icipii) Muz(ucensis) deuotus / numini maies/tatiq(ue) eius. D(ecreto) d(ecurionum), p(ecunia) p(ublica).
Apparat critique : l. 9 : palme.
Traduction : À notre Seigneur *Flauius Valerius* Constance, invincible et très noble César ; le conseil des citoyens de *Muzuc* dévoué à son *numen* et à sa majesté (a élevé cette statue). Par décret des décurions, dépenses publiques.
Datation : Ce texte date du règne de l'empereur Constantin (entre le 1[er] mars 293 et le 25 juillet 306 ap. J.-C.).

[28] Caracalla a pris les épithètes *Pius* et *Felix* en 214 ap. J.-C.

- celui de gauche, vêtu d'une tunique plissée descendant jusqu'aux genoux, tient un grand gobelet dans les deux mains ramenées sur le devant de la poitrine. Les cheveux sont disposés en calotte sur le front.
- le deuxième personnage, une femme, porte également une robe plissée terminée en dessous du genou par une sorte de ruché ; une draperie à plis disposés horizontalement couvre le torse. Dans la main droite, ramenée sur le devant du corps, elle tient un gobelet tronconique.
Dans un cartouche rectangulaire, en dessous des personnages, est gravée une inscription contenant de très nombreuses incorrections ».

Di(i)s sacir (sic) / Maxima, / uix(it) an(nis) / LXXVII. / [---]donius G/[---]cca, uixi(it) / an(nis) LXXXV. Feciilb.
Apparat critique : l. 3 : ligature de AN dans annis ; l. 7 : *ibid.*
Traduction : Aux Dieux. *Maxima*, a vécu 77 ans. *[---]donius G[---]cca*, a vécu 85 ans...

Hr. Khachnoun (*Muzuc*)[27]

69- Dédicace à Apollon
Edition: *CIL* VIII, 12058.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 73, n. 276.
« Sur un autel brisé en plusieurs morceaux ». H : 70 x l : 60 cm ; Hl : entre 6 et 4 cm.

Apolloni Augus/to sacr(um). / Aedem quam C(aius) Clodius Satur/ninus, duplicata summa hono/raria decurionatus sui et Clo/di(i) Celeris fratris sui a solo / struendam et perficiendam / promiserat Clodia Macri/na, c(larissima) f(emina), neptis eius super SS VI mil(ibus) et / CCCC n(ummum) e[ius sum]mae honorariae / adiectis am[plius li]beralitate sua / SS V mil(ibus) et sesc[entis n] ex SS X[II] / mil(ibus) n(ummum) a solo [er]exit et o[mni cultu] / perfecit cur[---] ie RPEII[.] MO[---] / sponte statuis marm[oreis exorna]/uit eademq(ue) dedicau[it. L(ocus) d(atus) d(ecreto) d(ecurionum) / ---].
Apparat critique: l. 2 : *hedera.*
Traduction : A Apollon Auguste, consécration. Le temple que, *Caius Clodius Saturninus*, a promis d'achever et perfectionner depuis les fondations en multipliant les sommes honoraires de son décurionat ainsi que celui de son frère *Clodius Celer. Clodia Macrina*, fille de rang clarissime, sa petite-fille (de *Caius Clodius Saturninus*) a ajouté 6400 sesterces à sa somme honoraire, de plus, qu'elle a ajouté à sa libéralité la somme de 5000 sesterces, en ajoutant six cents chaque fois, avec la somme de 12000 sesterces, elle a érigé (le temple) depuis les fondations et l'a parfaitement décoré [---], ainsi qu'elle l'a orné avec des statues en marbre et l'a dédié. Emplacement donné par décret des décurions.

70- Dédicace au Génie de la cité pour le salut d'Antonin le Pieux
Edition: *CIL* VIII, 12059.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 73, n. 277.
« A l'angle nord-est de la citadelle ».
« Partie supérieure d'un piédestal carré ». H : 110 x l : 40 ; Hl : entre 8 et 7 cm.

---

[27] *AAT*, f. 48, Djebibina, n. 28. Dans la vallée de l'oued Nehana, dans le Nord de la Dorsale, à une quarantaine de kilomètres à vol d'oiseau au Sud de *Thuburbo Maius*, à 20 kilomètres à l'Est de *Limisa*.

Traduction : A Jupiter, à Junon Reine, à Minerve Auguste. Pour la sauvegarde de l'Empereur César *Titus Aelius Hadrianus* Antonin Auguste, le Pieux et ses fils, la *Ciuitas Se[---]* a construit un temple depuis les fondations, par décret des décurions, dépense publique, en l'année des suffètes *Rogatus* fils de *Saturninus* et [---], étant curateurs *Saturus*, fils de *Tertullus* et [---].
Datation : Sous le règne de l'empereur Antonin le Pieux (entre les années 145 et 161 ap. J.-C.).

65- Milliaire de Maximien
Edition: *AE.*, 1993, 1716a.
Bibliographie: Benzina Ben Abdallah, 1992, p. 641.
« Colonne calcaire brisée dans sa partie supérieure ». H. 60 x Diam. 32 cm ; Hl. entre 4 et 3,5 cm ; dernière ligne : 10 cm.
[Imp(eratori) Caes(ari)], / [M(arco) Aurelio] / [Valerio] / Maximiano. / semper Aug(usto). / (Milia passuum) V.
Traduction : A l'Empereur César Marc-Aurèle Valerius Maximien, toujours Auguste. Le 5e mille.
Datation : Ce milliaire date du règne de l'empereur Maximien, entre le 21 juillet et le début de décembre 285 et le 1er mai 305 ap. J.-C.[24]

66- Milliaire de Magnence
Edition: *AE.*, 1993, 1716b.
Bibliographie: Benzina Ben Abdallah, 1992, p. 642.
Hl. 4 cm.

[D(omino) n(ostro)] / [Magno] / Magne/ntio Vi/ctori se/mper Au/gusti (sic).
Traduction : A notre maître *Magnus* Magnence Victor, toujours Auguste.
Datation : « [Ce] milliaire gravé sous Maximien a été remployé pour honorer l'empereur usurpateur Magnence, reconnu en Afrique dans la période 350 – 352 ap. J.-C. »

Hr. El Ksar[25]

67- Epitaphe
Edition: *CIL* VIII, 12116.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 155, n. 471.

[Di(i)s] Manibu[s]. / [---]inei cuin[ti ---] / [--- u]xit an(n)is [---] /[---] XXXVIIII [---].

Hr. Habida[26]

68- Epitaphe
Edition: *ILTun.*, 277.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1927, p. 96.
« Stèle à fronton triangulaire renfermant une pomme de pin ». H. 112 x l. 35 x ép. 2,4 cm.
« Dans une niche rectangulaire, deux personnages debout, de face :

---

[24] Aucun indice, dans le texte, ne permet d'affiner davantage la datation.
[25] Sur les pieds occidentaux de Jbel Oueslat, sur la route de Haffouz à Jbel Oueslat.
[26] A une quinzaine de kilomètres au Nord-Est de Menzel Mhiri.

Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *[---]s*, [a vécu tant d'années] et 22 jours (au moins), [---].
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

Hr. Djouana[22]

62- Epitaphe de *Publius Aurelius Felicianus*
Edition: *CIL* VIII, 23243.
Bibliographie: Cagnat, *CRAI*, 1901, p. 115 ; Le Bohec, *Ant. Afr.*, 17, 1981, p. 202 ; D. Pikhaus, 1994, n. B 42, p. 45.

D(iis) M(anibus) s(acrum)./ P(ublius) Aurelius Felicianus, / h(ic) s(itus) e(st), uixit an(nis) XVIIII, m(ensibus) VIII./ Parentes erudito et piissi/mo filio fecerunt
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Publius Aurelius Felicianus* repose ici ; il a vécu 19 ans et huit mois. Ses parents ont fait (ceci) à leurs fils érudit et très pieux.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

63- Epitaphes d'*Aurelius Fortunatus* et de *Quintus Aurelius Saturninus*
Edition: *CIL* VIII, 23244
Bibliographie: Cagnat, *CRAI*, 1901, p. 115.

[D(iis)] M(anibus) s(acrum)
1er registre (à gauche) anépigraphe.
2^{e} registre (au milieu)
[.] Aurelius For/[t]unatus, h(ic) s(itus) est, / uixit, pie / annis XXX. F(rater) p(osuit).
3^{e} registre (à droite)
Q(unitus) Aureli/us Satur/ninus ui/xit annis/ LXVIII.
Apparat critique:
- [D]MS: chaque lettre est placé au-dessus d'un registre. Le premier registre est anépigraphe.
- 2^{e} registre, l. 5 : *hedera* à la fin de la ligne ; l. 6 : 2 *hederae* placées après F et P.

Traduction : Aux dieux Mânes, consécration.
[.] Aurelius Fortunatus repose ici ; il a vécu pieusement 30 ans. Son frère a érigé (ceci). *Quintus Aurelius Saturninus* a vécu 68 ans.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

Hr. Ed-Damous (*Ciuitas Se[- - -]*)[23]

64- Dédicace à la Triade capitoline pour le salut d'Antonin le Pieux
Edition: *AE.*, 1993, 1715.
Bibliographie: Benzina Ben Abdallah, 1992, p. 639.
« Frise architravée d'un entablement en calcaire, de couleur jaunâtre ». H : 26 x l : 23 cm ; Hl : entre 3 et 2,5 cm.

Ioui, Iun[oni Reginae, Mineruae Aug(ustae) sacrum]. / [Pr]o salute Imp(eratoris) [Caes(aris), T(iti) Aeli(i) Hadriani Antonini Aug(usti) Pii liberorumq(ue)] / eius, ciuitas SE[--- templum a fundamentis (vel *a solo*)*, d(ecreto) d(ecurionum) p(ecunia) p(ublica) fecit anno sufe]/tum Rogati Sa[turnini (?)* (vel *Saturi) fil(ii) et ... curatoribus] / Saturo Tertu[lli f(ilio) et ---].*

---

[22] AAT 1/100.000e, f. 36 El Ala, n. 179. Ce site est situé à l'ouest de Jebel Trozza, un peu à gauche de la route menant de Jelma à Kessera.
[23] *AAT*, au 1/100.000^{e}, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 30.

Bibliographie: De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 206.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Flauia Dona/tula, M(arci) f(ilia), / pia, uixit / an(n)is V, / mens(ibus) VIII, dieb(us) II. / H(ic) s(ita) e(st).
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Flauia Donatula*, fille de *Marcus*, pieuse a vécu cinq ans, huit mois et deux jours. Elle repose ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

57- Epitaphe de *Titus Gaetulius Secundinus*
Edition: *CIL* VIII, 12100.
« Cippe » H. 100 x l. 35 cm ; Hl. 5,5 cm.

D(iis) M(anibus) S(acrum). / T(itus) Gaetulius Se/cundinus, ui/xit a(nnis) XIII, / m(ensibus) VI. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Titus Gaetulius Secundinus* a vécu treize ans et six mois. Il repose ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

58- Epitaphe de *Iulia*, fille de *Iader*
Edition: *CIL* VIII, 12102.
« Autel endommagé » H: 110 x l: 43 cm ; Hl: 6 cm.

D(iis) M(anibus) S(acrum). / Iulia [---] / Jad[---] / am[---] / [---] / Ra[---]t / [---]XII / [---]I / [---]s.
Apparat critique: l. 3: *Iade[ris filia]*, cf. *CIL* VIII, 9923 et 12027.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Iulia*, fille de Iader, …
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

59- Epitaphe incomplète
Edition: *CIL* VIII, 12101.

D(iis) M(anibus) [s(acrum)]. P GOV ...
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *P(ublius) Gou[---]*
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

60- Epitaphe incomplète
Edition: *CIL* VIII, 12103.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 87, n. 322.
H : 70 x l : 40 cm ; Hl : 3 cm.

[---] / [---]AMO [---] / tani meam [---] / ter repetens patr[i]/am casso nunc tu/mulo dico / functus fati c (sic) C[---] uita fe/lix de luce recessi.
Apparat critique: *Hedera* à la fin.

61- Epitaphe de *[- - -]s*
Edition: *CIL* VIII, 12104.
« Autel » H : 100 x l : 42 cm ; Hl: 4 cm.

D(iis) M(anibus) S(acrum). / [---]s [---] / [---], / dieb(us) XXII[---].

52- Dédicace à Commode
Edition: *CIL* VIII, 12095.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 87, n. 321 ; Lepelley, *Les cités*, II, p. 299.
« Base » H : 88 x l : 54 cm ; Hl : 6 cm.

Imp(eratori) Cae[s(ari), L(ucio) Aurelio Com]/modo Au[g(usto), Germanic(o), Sa]r/matic(o), tri[b(unicia) potest(ate)] III ou [I]III, / [Imp(eratori) II ou III, co(n)]s(uli) ou (II), [P(atri) P(atriae)]. / Imp(eratoris) Caes(aris), M(arci) Aureli(i) An/tonini Aug(usti), P(atris) P(atriae) filio. Ci/uitas Muzucensis / p(osuit).
Apparat critique : *Hedera* à la fin du texte.
Traduction : A l'Empereur César *Lucius Aurelius* Commode Auguste, vainqueur des Germains, vainqueur des Sarmates, revêtu de la puissance tribunicienne pour la troisième (ou la 4^{e}) fois, consul pour la première (ou la 2^{e}) fois, Père de la Patrie ; fils de l'Empereur César Marc-Aurèle Antonin Auguste, Père de la Patrie. La cité des *Muzucenses* a posé (cette statue).
Datation : Ce texte est situé entre l'année 172 (date de la prise du titre *Germanicus*), et l'année 175 (date de la prise du titre *Sarmaticus*).

53- Dédicace
Edition: *CIL* VIII, 12096.
Bibliographie: De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 206 ; R. Cagnat, *Rapport*, IV, n. 17 ;
« Deux fragments » H. 38 x l. 51 cm ; Hl. 5,5 cm.

[---] / Amico omnium / curiae uniuer/sae.
Traduction : [A un tel] *Amicus*, à toutes les curies.

54- Epitaphe de *Lucius Antistius Caesianus*
Edition: *CIL* VIII, 12097.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 87, n. 319; De Belenet, *BACTH*, 1886, p. 206.
« Autel » H. 120 x l. 29 cm ; Hl 5 cm.

D(iis) M(anibus) S(acrum). / L(ucius) Antis/tius Cae/sianus, / pie uixit / annis / LXXXIIII [---].
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius Antistius Caesianus*, a vécu pieusement 84 ans…
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

55- Epitaphe de *Cassia Bonosa*
Edition: *CIL* VIII, 12098.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 87, n. 320.
« Entre Hr. Bouja et Hr. Bechra ». « Autel » H : 155 x l : 46 cm ; Hl: 4 cm.

D(iis) M(anibus) S(acrum). / Cassia Bonosa, / pia uixit a[n]/nis XVIIII, m(ensibus) X. / H(ic) s(ita) e(st).
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Cassia Bonosa*, pieuse a vécu 19 ans et dix mois. Elle repose ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

56- Epitaphe de *Flauia Donatula*
Edition: *CIL* VIII, 12099.

Hr. Aïn Oghrab[19]

48- Epitaphe de *Iulia Secunda*
Edition: *CIL* VIII, 12117.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 156, n. 472.

Di(is) Mani[b(us)]. / Iulia Secunda. / H(ic) s(ita) e(st), u(ixit) ann(is) XXXIII. / Seruilius Marcie/nus, uxori fecit.
Traduction : Aux dieux Mânes. *Iulia Secunda* a vécu 33 ans. Elle repose ici. *Seruilius Marcienus* a fait (ceci) à sa femme.
Datation : Deuxième quart du deuxième siècle ap. J.-C.

49- Epitaphe versifiée
Edition: *CIL* VIII, 12118 (= *CIL* VIII, 23774 = *ILTun.*, 275).
Bibliographie: J. Poinssot, 1884, p. 156, n. 473; Pikhaus, 1994, p. 37, B14.
Qui quondam / ad superos / Mossius [Phil]o[tim]us / nunc tenius anima / Inq[u]iri[t]is patrata / hic sanus hic situs quae tu oro [iac]tu stipis ade sis / curaque [dicas prec]or / aeternu[m u]ale.

Hr. Barouch[20]

50- Epitaphe de *Rusticus*, fils de *Rusticus*
Edition: *CIL* VIII, 12115.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 154, n. 470.
D(iis) M(anibus) s(acrum). / Rusticus, Rus/tici (filius), uixit / annis LVIII.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Rusticus*, fils de *Rusticus*, a vécu 58 ans.
Datation : Fin II^e^ - début III^e^ siècle ap. J.-C.

Hr. Bechra (*Muzuc*)[21]

51- Dédicace à Mercure pour le salut de Septime Sévère et Caracalla
Edition: *CIL* VIII, 12094.
H.: 58 x l.: 42 cm ; Hl 5 cm.

Merc(urio) Aug(usto) sac(rum). / Pro salutem Impp(eratoris) / Caess(aris), L(ucii) Septimi(i) Se/ueri Pertinacis / [Au]g(usti), Arabici, Adia/benici, P(atris) P(atriae) et Imp(eratoris) Ca[es(aris)] / M(arci) Aureli(i) Anton[i]/ni Aug(usti). C(aius) Iulius Glau/cus aedem C[---] prim / sua p(ecunia) f(ecit).

Traduction: A Mercure Auguste, consécration. Pour la sauvegarde de l'Empereur César Lucius Septime Sévère Pertinax Auguste, vainqueur des Arabes, vainqueur des Adiabènes, Père de la Patrie et de l'Empereur César Marc-Aurèle Antonin Auguste. *Caius Iulius Glaucus* a érigé un temple à ses propres frais ...
Datation : La corégence de Septime Sévère et de son fils Caracalla (entre l'été-automne 195 date de prise des titres *Arabicus* et *Adiabenicus*) et avant l'association de Géta au pouvoir (en l'année 209 ap. J.-C.).

---

[19] Entre l'oued Maarouf et l'oued Marguellil.
[20] *AAT*, au 1/100.000^e^, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 61.
[21] *AAT*, au 1/100.000e, f. Dj. Bou Dabbous, XXXI, n. 33. « Il s'agit d'une ciuitas formée par Caracalla en municipe qui existait au IVe siècle », Poinssot (L.), « Villes romaines », *Tunisie, Atlas historique, géographique, économique et touristique*, Paris, 1936, p. 33.

--- AL --- / --- CVLA uix(it) --- / --- ITVS -- - --- uxori fecit. / H(ic) s(ita) e(st).

43- Fragment d'épitaphe
Edition: *CIL* VIII, 23139.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1893, p. 152, n° 5.
« Fragment d'épitaphe ».
Hl. 2,5 cm.

[---]/EXTR/[---]CEI/ [---]CNA/ [---].

44- Fragment d'inscription
Edition: *CIL* VIII, 23140 a.
Bibliographie: Hannezo, Molins, Laurent, *BACTH*, 1894, p. 290, n° 1.
Hl. 2, 5 cm.

[---]RRA/ [---] ANN/ [---]ARA

45- Fragment d'inscription
Edition: *CIL* VIII, 23140 b.
Bibliographie: Hannezo, Molins, Laurent, *BACTH*, 1894, p. 290, n° 2.
Hl. 3 cm.
---] LART [---

46- Fragment d'inscription
Edition: *CIL* VIII, 23140 c.
Bibliographie: Hannezo, Molins, Laurent, *BACTH*, 1894, p. 290, n° 3.
Fragment. Hl. 2,5 cm.

---] OA [---

Haouta Chendouba

47- Inscription mentionnant un *quadratarius*
Edition: *ILAfr.*, 79.
Bibliographie: Monchicourt, *BACTH*, 1909, p. 112-115.
« Dé rectangulaire » H: 24 x l: 70 x ép: 40 cm.
Côté gauche de la pierre:
[e]x of(f)icina //
De face:
Basi quadra/tari Aggerita/ni //
Côté droit de la pierre:
cum suis discipulis.
Apparat critique: l. 1 : *oficina* pour *officina*.
Traduction : (Produit) de l'atelier de *Bas(s)us*, le *quadratarius* aggéritain (qui l'a exécuté) avec ses élèves.
Remarque : « Il s'agit d'une dédicace à une divinité dont le nom gravé sur le quatrième côté a disparu, peut-être enlevé à coups de pic à l'époque chrétienne ». Voir *BACTH*, 1894, p. 257.

37- Epitaphe
Edition: *ILAfr.*, 87.
Bibliographie: Gauckler, *NAM*, t. XV, p. 551, n. 5 ; Cagnat, *BACTH*, 1916, p. CLXXIV.
« Cippe » H. 125 x l. 32 x ép. 35 cm.

Bubali / Victorina. //
D(iis) M(anibus) s(acrum). / [---]I[---]MISIO CA/IINI[---]BVSTOQVE GRA/[---]IOR utero raptari / [---]iteuiro Appius III[---] / [---]uit memoriam [---] / [---]iussu eius [---].
Apparat critique: l.2: faut-il lire le gentilice *[Nu]misio*.

38- Epitaphe
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 21, n. 2, fig. 4.
« Stèle funéraire en calcaire grisâtre ». H (restante) : 57 x l. 26 cm ; Hl. 3,5 cm.

Di<i>s Ma/nibus ---
Traduction : Aux dieux Mânes ...
Datation : Premier quart du deuxième siècle ap. J.-C.

39- Epitaphe
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 22, n. 3, fig. 5.
« Stèle funéraire en calcaire rougeâtre, brisée en bas ». H (restante) 74 x l. 31 x ép. 14 cm ; Hl. 3 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / [---].
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration ...
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

40- Epitaphe
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 23, n. 4, fig. 6 et 7.
« Stèle funéraire en calcaire grisâtre, brisée en deux morceaux ». H. 96 x l. 50 x ép. 22 cm; Hl. 3 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum).
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

41- Epitaphe
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 24, n. 5, fig. 8 et 9.
« Stèle funéraire en calcaire grisâtre, brisée en deux fragments ». H : 35 x l : 24.
« L'inscription latine, distribuée sur quatre lignes au moins, est indéchiffrable sauf pour la formule [uixit] ANNIS --- qu'on peut lire à la fin de ce texte funéraire ».

42- Epitaphe
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 30-31, n. 12, fig. 19.
« Stèle à registres superposés, en calcaire jaunâtre, brisée en bas et en haut ». H (restante) : 40 x l. 20 x ép. 22 cm ; Hl. 3 cm.

Aux dieux Mânes, consécration. *Minucia Iulia.*
Datation: Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

33- Epitaphe de *Munnia Saturnina*
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 28-29, n. 10, fig. 16 et 17.
« Stèle à fronton triangulaire, en calcaire gris, brisée en deux fragments jointifs ». H. 80 x l. 35 x ép. 12 cm ; Hl. entre 2 et 2,5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Munnia Saturnina / uix(it) annis XXXX. L(ucius) Caeli/us Pr<a>estans fil(ius) / curauit.
Apparat critique: l. 1 : *Hederae.*
Traduction[18] : Aux dieux Mânes, consécration. *Munnia Saturnina* a vécu XXXX ans. *Lucius Caelius Praestans*, (son) fils, a pris soin (d'ériger ceci).
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

34- Epitaphe de *Namf*
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 27-28, n. 9, fig. 14 et 15.
« Stèle à fronton triangulaire, en calcaire blanchâtre, brisée en deux fragments jointifs ». H. 125 x l. 29.

D(iis) M(anibus) sac(rum). / Namf u<i>xit an<n>os XXXV / ---
Apparat critique : *Namf* est peut-être un diminutif de *Namfamo*. A. M'Charek, 2002-2003, p. 28.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Namf* a vécu 35 ans (au moins).
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

35- Epitaphe de *Lucius Rasinius Celer*
Edition: *CIL* VIII, 23137.
Bibliographie: Kyndt, *BSAS*, 1905, p. 17.
« Dalle en marbre ». H : 35 x l.: 33 x ép. entre 6 et 3 cm. « Conservée au musée de Sousse ».

D(iis) M(anibus) s(acrum). / L(ucius) Rasinius Celer, / uixit annis LXXXV. / Q(uintus) Rasinius Satur/ninu,s filius piis/simus patri fecit. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius Rasinius Celer* a vécu 85 ans. Son fils *Quintus Rasinius Saturninus* a fait (ceci) à son père très pieux. Il repose ici.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

36- Epitaphe de *Vibia Donata*
Edition: *CIL* VIII, 23138.
Bibliographie: Merlin, *BSAS*, 1905, p. 275 ;
« Dalle en marbre blanc veiné de rose, brisée dans l'angle inférieur de droite ». H : 26 x l : 27 x ép. : 3 cm ; Hl : entre 3 et 2,5 cm. « Dans le musée de Sousse ».

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Vibia Do /nata u[ix(it)] / ann(is) [---] / [---].
Apparat critique: l. 2 : *hedera* ; la lacune à droite ne doit pas dépasser les deux lettres.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Vibia Donata* a vécu (tant) d'années.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

---

[18] Traduction de M'Charek, 2002-2003, p. 29.

Traduction[15]: Aux dieux Mânes, consécration. *Caerellius Sextilius*, pieux, a vécu vingt-deux ans ; (son) père *Faustinus* (a érigé ceci).
Datation : Fin II^e - début III^e siècle ap. J.-C.

29- Epitaphe de *Gaius Cannius Aris*
***Edition*:** M'Charek, 2002-2003, p. 29-30, n. 11, fig. 18.
« Stèle à registres superposés, en calcaire jaunâtre, brisée en haut et endommagée sur les côtés ». H (restante): 63 x l. 36 x ép. 7 cm; Hl. 3 cm.

[D(iis)] M(anibus) [s(acrum)]. / G(aius) Cann[i]/us Aris, ui[x](it) / annis LXXV ---. / H(ic) s(itus) e(st).
Traduction[16]: Aux dieux Mânes, consécration. Ci-gît *Gaius Cannius Aris* (qui) a vécu LXXV --- ans.
Datation : Fin II^e - début III^e siècle ap. J.-C.

30- Epitaphe de *Gaius Gelasius*
***Edition:* *ILAfr.*, 88b.**
***Bibliographie*:** *BACTH*, 1917, p. CCXXV ; M'Charek, 2002-2003, p. 20, n. 1, fig. 2 et 3.
« Stèle funéraire en calcaire gris ». H. 112 x l. 34, ép. 4 cm; Hl. 4 cm.

Di(i)s Manib/us sacrum. / Gaius Gelasius uixit an(nis) LXII.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Gaius Gelasius* a vécu 62 ans.
Datation : Premier quart du deuxième siècle ap. J.-C.

31- Epitaphe de *Faustus*, fils de d'*Aceros*
Edition: M'Charek, 2002-2003, p. 25-26, n. 7, fig. 11.
« Stèle rectangulaire sans fronton, en calcaire blanchâtre ». H. 174 x l. 50 ; Hl : l. 1-2 : 5,5 ; l. 3 : 4 ; l. 4-5 : 3 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). Faust/i, Acerotis (filius), feci/t sibi et co<n>iugi su<a>e / se uiuente (uixit annis LXX / sibi et co<n>iugi su<a>e (uixit) an(nis) LX.
Traduction[17] : Aux dieux Mânes, consécration de *Faustus* (fils) d'*Aceros*. Il a fait (ceci) de son vivant pour lui-même et pour sa femme. (Il a vécu) LXX ans lui-même et sa femme, LX ans.
Datation : Fin II^e - début III^e siècle ap. J.-C.

32- Epitaphes de *Caius Minucius Fla[---]* et de *Minucia Iulia*
***Edition:* *ILAfr.*, 88c.**
***Bibliographie*:** *BACTH*, 1917, p. CCXXVI ; M'Charek, 2002-2003, p. 26-27, n. 8, fig. 12 et 13.
« Stèle rectangulaire en calcaire blanchâtre ». H : 105 x l : 48 x ép. : 22 cm ; Hl : 3 cm.
A gauche :
D(iis) M(anibus) s(acrum). / C(aius) Minu/cius Fla[---].
A droite:
D(iis) M(anibus) s(acrum). / Minuc/ia Iuli/a.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Caius Minucius Fla[---].*

[15] Traduction de M'Charek, 2002-2003, p. 25.
[16] Traduction de M'Charek, 2002-2003, p. 30
[17] Traduction de M'Charek, 2002-2003, p. 26.

Pro sal(ute) Imperatorum Caes(arum) / [---].
Traduction: Pour le salut des Empereurs Césars ...

24- Epitaphe de *Lucius Caecilius Siluanus*
Edition: *CIL* VIII, 23133.
***Bibliographie*:** Godin, *BACTH*, 1905, p. 274.
« Stèle » H : 60 cm. Au sommet de la stèle sont gravés un croissant et la lune.

D(iis) M(anibus). / L(ucius) Caecili/us Silua/nus q(ui) / u(ixit) a(nnis) VI. H(ic) s(itus).
Apparat critique : l. 1 : *hedera* ; l. 4 : Godin propose *Q(uinti) f(ilius)*, nous proposons *q(ui)*.
Traduction: Aux dieux Mânes. Ci-gît, *Lucius Caecilius Siluanus*, qui a vécu six ans.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

25- Epitaphe
Edition: *CIL* VIII, 23134.
***Bibliographie*:** *BACTH*, 1893, p. 151, n. 3.
Hl. 2,5 cm.

[---] LXXXXV[---] / [---]II DONA[t]VS EI[---] / [---]SV[---]

26- Epitaphe
Edition: *CIL* VIII, 23135.
***Bibliographie*:** Cagnat, *BACTH*, 1893, p. 152, n° 4.
« Fragment d'épitaphe ». Hl: 3, 3 cm.

[D(iis)] M(anibus) s(acrum)./ [---]Graecu[s ---/---].
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *[---] Graecus ...*
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

27- Epitaphe de *L(ucius) P(...) Heiari[..]no*
Edition: *CIL* VIII, 23136.
***Bibliographie*:** Cagnat, *BACTH*, 1893, p. 151, n° 2.

D(iis) M(anibus) s(acrum)./ L(ucius) P(...) Heia/ri[---]no/ uix(it) an(nis) III,/ m(ensibus) III, d(iebus) III.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius P(---) Heiari[..]no*, a vécu trois ans, trois mois et trois jours.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

28- Epitaphe de *Caerellius Sextilius*
Edition: *ILAfr.*, 88a.
***Bibliographie*:** *BACTH*, 1917, p. CCXXV ; M'Charek, 2002-2003, p. 24-25, n. 6, fig. 10.
« Stèle funéraire à sommet arrondi, en calcaire jaunâtre ». H. 126 x l. 35.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Caerellius / Sextilius, p(ius) u(ixit) / a(nnis) XXII. Faustin/us pat[e]r (fecit).

Edition: *CIL* VIII, 23129b (= *ILAfr.*, 90).
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1913, p. CLXXIV-CLXXXI.
« Dans les vestiges d'une construction antique. Un chapiteau byzantin, de marbre blanc, [---] qui a été taillé dans un bloc sur lequel avait été antérieurement une inscription ». Hl. : 6 cm.

[--- T(ito) Cl]AV[dio] Aur[elio] / [Ari]stobulo, c(larissimo) u(iro), pro/co(n)s(ule) auctore inuen/[to]re et dedicatore / [---] INOINCON / [---]VNI.
Apparat critique: l. 1 : avant les lettres AVR, des traces de caractères indistinctes.
Traduction : [---] sous le proconsulat d'*Aurelius Aristobulus*, homme da rang clarissime, s'est engagé de découvrir et de dédier.
Datation : La mention du proconsul *Titus Claudius Marcus Aurelius Aristobulus* nous situe dans l'année 285 ap. J.-C[13].

21- Epitaphe d'un anonyme
Edition: *CIL* VIII, 12110.
Bibliographie: Poinssot, 1884, p. 266, n. 1042.

[---] / [---] / E[---], p(ius) u(ixit) / annis LXX/IIII.. H(ic) s(itus) e(st). / Aemilii Sa/turus, Felix, Maximus / fili(i) ob meri/ta eius fece/runt.
Traduction: (Un Tel), pieux a vécu 70 ans. Il repose ici. Ses fils *Aemilius Saturus*, *Aemilius Felix* et *Aemilius Maximus* ont fait (ceci pour lui) en raison de ses mérites.
Datation : L'état de conservation de la pierre ne permet pas d'avancer une datation.

Haffouz

22- Inscription mentionnant un prêtre à Saturne
Edition: *ILTun.*, 274 (= *IlAfr.*, 82).
Bibliographie: Merlin, *BACTH*, 1908, p. CLXIV.
« Brique » H. 51 x l. 33 ; Hl. 4. (Conservée au Musée de Sousse)

C(aius) Hil(arius ?) Fel(ix) sacerd(os)/ Saturni cultor / dei ex V kal(endas)/ nouembres Sa/bino et Anulli/no co(n)s(ules) per/ Baricem mag(sitrum).
Apparat critique:
l. 1 : *Hil(arius?)*, l. 7 : *mag.* au lieu de *magg.*
Traduction : *Caius Hilarius Felix*, prêtre de Saturne, adorateur du dieu, le cinquième jour des calendes du mois de novembre, sous le consulat de *Publius Catius Sabinus II* et de *Publius Cornelius Anullinus*, par (les soins de) *Baric*, étant *magister*.
Datation : Grâce à la mention des deux consuls *Publius Catius Sabinus II* et *Publius Cornelius Anullinus*, ce texte date du 24 octobre 216 ap. J.-C.

Hajeb El-Aïoun[14]

23- Fragment d'une dédicace impériale.
Edition: *CIL* VIII, 23132.
Bibliographie: Hannezo, Molins, Laurent, *BACTH*, 1894, p. 291; Gauckler, *BACTH*, 1897, p. 383, n° 73 ; *CMA*, p. 68, n° 835, p. 92, n° 431.
« Fragment » H. 40 x l. 40 ; Hl. 1.

---

[13] Pallu de Lessert (A. C.), *Fates des provinces africaines (Proconsulaire, Numidie, Maurétanies) sous la domination romaine, t. II : Bas-Empire*, Paris, 1901, p. 1.
[14] « Hajeb El-Aïoun se trouve sur la route entre Sbeïtla et Kairouan, à 63 Km de cette dernière et à 45 Km de *Sufetula* ».

El Ala[10]

17- Epitaphe
Edition: *CIL* VIII, 23129.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH,* 1896, p. 278, n. 71 ; Gauckler, *BACTH,* 1897, 381, n. 71.
« Stèle calcaire ». H : 46 x l : 32 x ép. : 16 cm ; Hl : 4 cm. Champ épigraphique : 25 x 22 cm.
D(iis) M(anibus) s(acrum). / Anno sac/erdos hic / situs est / uix(it) an(nis) LXV. Uxor p(ia) fecit.
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. Ci-gît. En l'année du sacerdoce, (un tel) a vécu 65 ans. Sa pieuse femme (lui) a fait (ceci).
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

18-Epitaphe de *M[- - -] Me[..]intia*
Edition: *CIL* VIII, 23129c. « Provient de Bir el Haj Mahmoud el Alouini ».
Bibliographie: Cagnat, *BACTH,* 1900, p. CXXXV.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / M[---] / Me[..]intia / uixit an/nos LX.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *M[---] Me[..]intia* a vécu 60 ans.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

El Haouaria / Ferme Sidi Mansour[11]

19- Epitaphe de *Pompeia*
Edition: *ILTun.*, 280.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH,* 1934-1935, p. 359-361.
« Stèle funéraire rectangulaire ». H : 60 x l : 50 cm ; Hl : entre 1,5 et 2 cm. « Dans la partie supérieure sont creusées trois niches ; celle du milieu, la plus grande, à sommet arrondi et encadrée de colonnes ; les autres, qui sont semblables, chacune d'elles contient un personnage ».

Sous la niche de gauche :
Pompeia / uixit / annis XII.
Sous celle du milieu :
Vixit annis X. / Iuuianus. / D(iis) M(anibus) s(acrum).
Sous la niche de droite :
Siluanu (sic) / uixit an/nis / VIII.
Apparat critique:
Siluanu pour *Siluanus.*

Traduction : Aux dieux Mânes, consécration.
Iuuianus a vécu dix ans.
Pompeia a vécu douze ans. *Silauanus* a vécu huit ans.
Datation : Fin IIe - début IIIe siècle ap. J.-C.

Gsar El Ahmar / Ksar El Hammam[12]

20- Inscription publique

[10] Au Sud-Ouest de la ville de Haffouz, à une cinquantaine de km à l'Ouest-Sud-ouest de Kairouan.
[11] Dans la plaine de Sidi Nasrallah, à 3 kilomètres au sud de Menzel Mhiri.
[12] A onze km au Nord-Est de Aïn Jloula.

Vaiane Satu/rninus sace/rdos sacru/m fecit.
Belier à gauche.
Apparat critique: l. 1 : V de SATV renversé

Bou Jdaria[8]

13- Epitaphe d'*Herennia Victoria*
Edition: *CIL* VIII, 23129a.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1900, CXXXV.

Di(is) M(anibus) [s(acrum)]. / Haerenni[a] / Victoria, / p(ia) ui(ixit) a(nnis) LXXXX.
Apparat critique : l. 1 et 4 : *hederae* ; l. 2 : *Haerennia* pour *Herennia.*
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Herennia Victoria*, pieuse a vécu 90 ans.
Datation: Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

14- Epitaphe de *Lucius Hostilius Tertius*
Edition: *ILTun.*, 283 (= *AE.*, 1938, 48)
Bibliographie: Saumagne, *BACTH*, 1938-1939-1940, p. 156.
« Cippe en calcaire ». 100 x 31 x 20 cm ; Hl : l.1-12 : 2 ; l. 13 : 3,5 cm. Champ épigraphique : 48 x 26 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / L(ucius) Hostilius Te/rtius, pius uix(it) / anno uno, m(ensibus) / VIII, d(iebus) XXVI, h(ora) I. / Hostilius Ter/tius et Aufidi/a Concessa, / parentes, / dulcissimo / filio fecer/unt. / Byzacio.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Lucius Hostilius Tertius*, pieux a vécu un an, huit mois, 26 jours et une heure. Ses parents, *Hostilius Tertius* et *Aufidia Concessa*, ont fait (ceci) à leur fils très doux. A *Byzacius.*
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

15- Epitaphe d'un anonyme
Edition: *ILTun.*, 284.
Bibliographie: Merlin, *BACTH*, 1938-1939-1940, p. 155-157.
H : 30 x l : 20 cm
Di(i)s Mani/bus. Vix/it annis / LX, mens/es tres. / [P]rimita / pater fec(it).
Apparat critique: l. 2: le nom du défunt n'a pas été gravé; l. 6 : une seule lettre manquante.
Traduction : Aux dieux Mânes. (Un tel ou une telle) a vécu soixante ans et trois mois. *Primita*, a fait (ceci) à son père.
Datation : Premier quart du deuxième siècle ap. J.-C.

Dachret Bou Dabbous[9]

16- Epitaphe d'*Emilia Donata.*
Edition: *CIL* VIII, 12108.

D(iis) M(anibus). / Emilia D[o]/nat[a, pia], ui[xi]/t an(n)i[s] / X[+].
Apparat critique : + : A la fin : V, X, L ou C.
Traduction: Aux dieux Mânes. *Emilia Donata*, pieuse a vécu 15 (20, 45 ou 90) ans.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

---

[8] « Le puits de Bou Jdaria est situé dans le Cheikhat de Jehinat, à 12 km environ au Sud-Sud-Ouest du marabout de Sidi Amor Bou Hajla et à peu près à la même distance à l'Est de Sidi Nasseur Allah ».
[9] Sur le versant oriental de Jbel Bou Dabbous, à 20 km à l'ouest de Sbikha.

6- Epitaphe d'*Oratius Frumentius*
Edition: *CIL* VIII, 23770.
« Dans le fortin byzantin ». Hl : 5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Oratius Frument/tius, u(ixit) a(nnis) II, / m(ensibus) XI, d(iebus) XII, (h)o(ris) III.
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Oratius Frumentius* a vécu deux ans, onze mois, douze jours et trois heures.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

7- Inscription incomplète
Edition: *CIL* VIII, 12114.

Seuic [---] / numen [---] / fecii[.] s[--- u] /xori p[---] / us[.] HE[---].

8- Inscription incomplète
Edition: Merlin, *BACTH*, 1945, p. 363, n. 6.
« Gravure très grossière ». Hl : 6,5 cm.

---] DENIAC [---

9- Inscription funéraire incomplète
Edition: *CIL* VIII, 23771.

HAV / LIFI / CV / HAVIIS[.] AIV [---] / LIV[.]III VIX(it) A[nnis ---].

10- Inscription funéraire incomplète
Edition: Merlin, *BACTH*, 1945, p. 363, n. 7.
« Gravure très grossière». Hl : 5,5 cm.

[D(iis)] M(anibus) s(acrum). / H+[.]ionia / [uix]it annis / XX. H(ic) [s(ita) e(st)].
Traduction: Aux dieux Mânes, consécration. Ci-gît *H[..]ionia*, qui a vécu 20 ans.
Datation : Fin II^{e} - début III^{e} siècle ap. J.-C.

11- Inscription incomplète
Edition: Merlin, *BACTH*, 1945, p. 363, n. 8.
« Gravure nette, mais irrégulière ». Hl : 6,5 cm.

---] QVE [---

Bir el Adine[7]

12- Stèle votive
Edition: *ILTun.*, 273 (= *ILAfr.*, 83).
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1916, p. CL.
« Stèle votive ». H. 50 x l. 30 ; Hl. entre 3 et 2,5 cm.
Deux personnages

[7] A 32 km à l'ouest de Kairouan.

Aïn Jelloula (*Culusis*)[6]

1- Dédicace à Mercure
Edition: *CIL* VIII, 12111.
Mercurio s[acrum]. / Pro salute Imp(eratoris) Caesar[is], / L(ucius) Aemilius Donatus uet[eranus] / cellam cum gradibus [---]. / S(ua) p(ecunia) f(ecit).

Traduction : A Mercure, consécration. Pour le salut de l'Empereur César. *Lucius Aemilius Donatus*, vétéran ; a fait (faire), à ses frais, une salle avec des marches...

2- Dédicace au dieu de la Patrie
Edition: *CIL* VIII, 23769.
Bibliographie: Cagnat, *BACTH*, 1900, p. CXXXV.

Deo Patrio. M[---]
Traduction : Au Dieu de la Patrie. *M[---]*.

3- Dédicace impériale
Edition: *CIL* VIII, 12112.
Bibliographie: Papier, *Bulletin d'Hippone*, XXII, p. 119 ; Y. Modéran, « La renaissance des cités dans l'Afrique du VI[e] siècle d'après une inscription récemment publiée », *La fin de la cité antique et le début de la cité médiévale,* Actes du colloque tenu à l'Université Paris X, Nanterre, Bari, 1996, p. 112.
H : 45 x l : 150 cm ; Hl: 10 cm.

[Imp(eratori ?)] Caes(ari ?) / [---flamen ?] perp(etuus) ex
Apparat critique : l. 1-2 : signes de séparation en épine de rose.
Traduction : A l'Empereur César, [---], un tel, flamine ? perpétuel ...

4- Epitaphe d'*Aelia Leonia*
Edition: *CIL* VIII, 12113.
Hl : 3,5 cm.

D(iis) M(anibus) s(acrum). / Elia Leonia / uicxit annis n(umero) XX, m(ensibus) II, (h)o(ris) V.
Apparat critique : l. 2 : *Elia* pour *Aelia* ; l. 3 : *uicxit* pour *uixit.*
Traduction : Aux dieux Mânes, consécration. *Aelia Leonia* a vécu 20 ans, deux mois et cinq heures.
Datation : Fin II[e] - début III[e] siècle ap. J.-C.

5- Epitaphe d'*Herenia Martia*
Edition: Merlin, *BACTH*, 1945, p. 363, n. 5.
« Dans un cartouche à queues d'aronde ». H. 26 x l : 15 ; Hl : 3,5 cm.

Herenia Ma/rt[i]a, Bonci / f(ilia) p(ia), [u(ixit) a]n(nis) XXXIV.
Traduction: *Herenia Martia*, fille de *Boncus*, pieuse a vécu 34 ans.
Datation : Première moitié du premier siècle ap. J.-C.

---

[6] AAT, 1/50 000e, f. 46 (LV), Aïn Djeloula, n. 113. À environ 30 km au Nord-Ouest de Kairouan.

Inventaire des inscriptions latines païennes de Kairouan et sa région*

Mohammed Abid
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan

L'inventaire des inscriptions latines païennes de Kairouan et sa région se veut un instrument de travail pour les chercheurs et spécialistes en Histoire romaine et en Epigraphie latine, plus qu'un travail visant à exploiter ces documents épigraphiques historiquement[1]. Dans cette tendance d'inventaire et de recencement des documents épigraphiques de diverses cités latines de la Tunsie romaine[2], nous avons estimé indispensable de dresser le catalogue des inscriptions latines païennes de Kairouan et des zones environnantes.

Englobant 123 textes de natures différentes, cet inventaire est classé selon une logique géographique, c'est-à-dire qu'on trouve les documents épigraphiques répertoriés selon leurs lieux de provenance classés par ordre alphabétique du toponyme moderne. Au sein de ce classement, les documents figurent selon la logique des recueils épigraphiques connus[3]. Ce lot d'inscriptions se répartit par ordre d'importance numérique comme suit : 80 textes funéraires, 11 dédicaces impériales, 11 inscriptions fragmentaires ou illisibles, 8 dédicaces publiques, 7 dédicaces religieuses, deux bornes milliaires, deux bornes limites et une inscription votive[4].

Chaque notice comporte un numéro d'ordre, la mention du lieu de provenance, l'indication du support, la nature de la pierre et son état de conservation. Les dimensions sont données en centimètres[5].

---

* Je remercie M. le Professeur Mustapha Khanoussi qui a voulu lire et corriger ce travail.

[1] Signalons, dès le premier abord, que ce travail avait été effectué en collaboration avec notre ami et collègue Lotfi Naddari, maître-assistant à la Faculté des Lettres de Sousse. Qu'il trouve ici l'expression de notre gratitude.

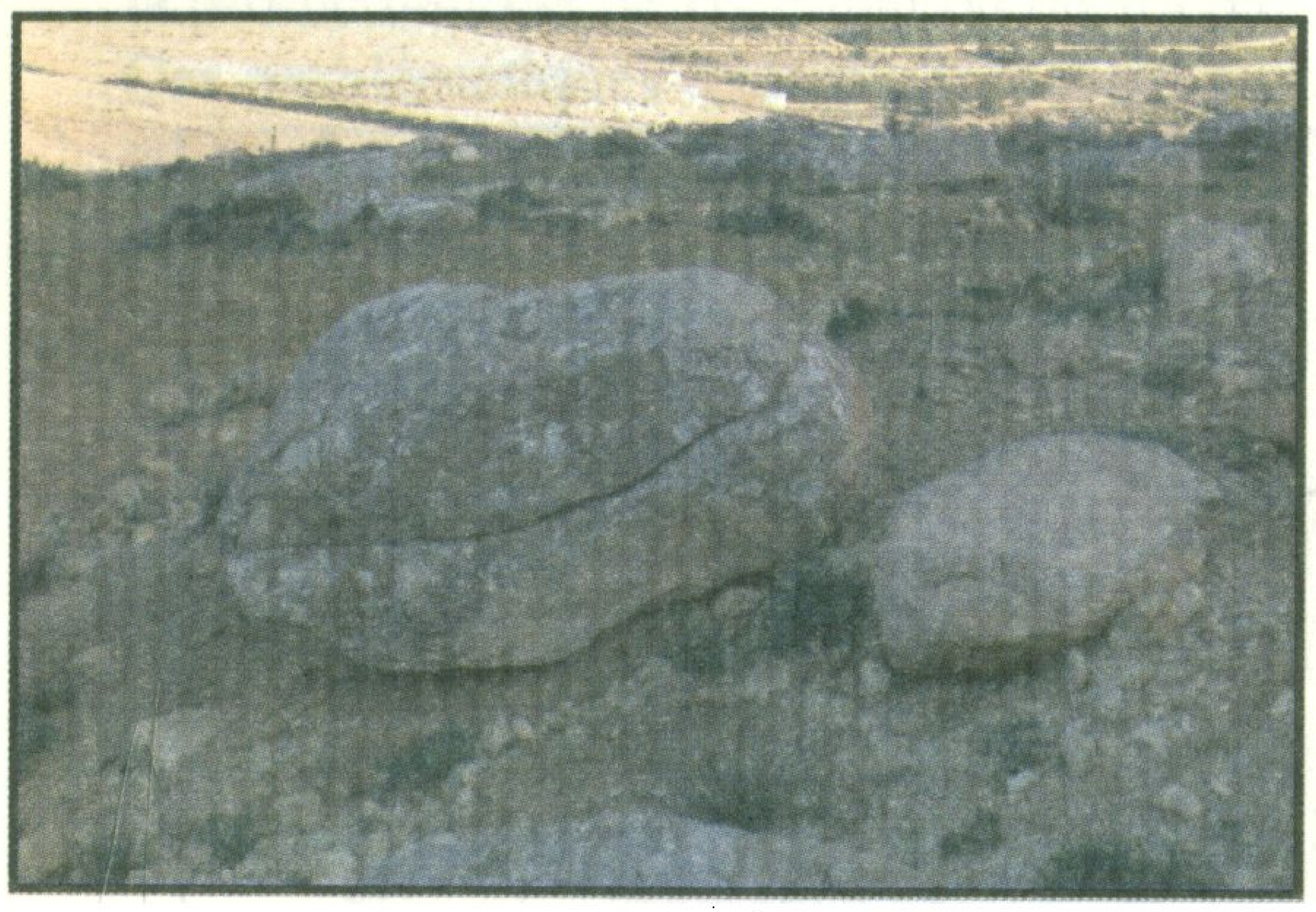
[2] Citons à titre d'exemple : Duval (N.), « Inventaire des inscriptions latines païennes de Sbeïtla », *MEFR* – 101 – 1989 – 1, p. 403-488 ; Khanoussi (M.) et Maurin (L.) dir., *Mourir à Dougga. Recueil des inscriptions funéraires*, Bordeaux-Tunis, 2003 ; Benzina Ben Abdallah (Z.), « Catalogue des inscriptions latines inédites de *Limisa* (Ksar Lemsa) », *Antiquités africaines*, t. 40-41, 2004-2005, p. 99-203 ; et finalement, Khanoussi (M.) et Mastino (A.), dir., *Uchi Maius 2. Le Iscrizioni*, Sassari, 2006.

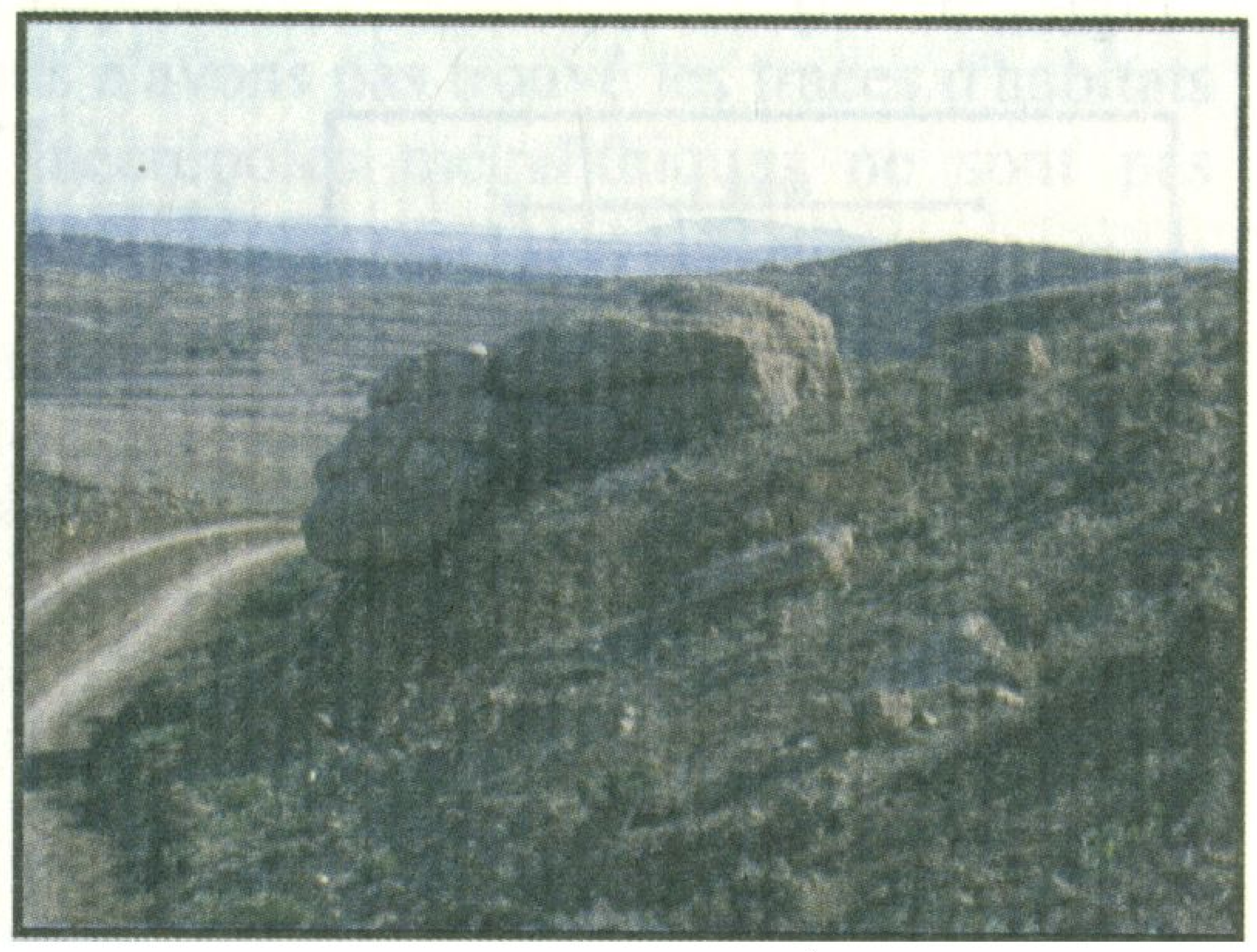
[3] On trouve les inscriptions religieuses, les dédicaces impériales, les inscriptions publiques, les épitaphes, et finalement les bornes milliaires.

[4] On a écarté de ce travail les inscriptions chrétiennes et les textes écrits sur mosaïque. De même qu'on a éliminé de cette étude les inscriptions de Ksar Lemsa, l'ancienne *Limisa*, publiées par Ben Abdallah (voir note 2), de plus qu'on a laissé de côté celles d'*Agger*, actuellement Hr. Sidi Amara ou encore Hr. El Khima, dont le catalogue avait déjà été annoncé, il y a une vingtaine d'années, par Ladjimi-Sebaï (L.), « Un site de la Tunisie centrale : Aggar ? », *L'Africa romana*, IV, 2, 1986, p. 424.

[5] Nous donnons les dimensions comme suit : Hauteur (= H) x largeur (= l) x épaisseur (= ép). Hauteur des lettres (= Hl).

les blocs en calcaire coquillé, se fissurent naturellement grâce à une couche calcaire dure, surmontant une autre moins dure et grâce aussi à l'action de gèle et de dégèle qui fait éclater la pierre. Ceci favorise l'idée de l'absence de carrières dans les alentours de ces sites mégalithiques (Voir Figures n° 11 et 12).





Figures n^{os} 11 et 12 : Débitage naturel de la pierre.

Suite à cette étude préliminaire nous avons pu répondre à quelques problématiques, mais nous avons relevé autant d'autres qui nécessitent un travail plus exhaustif. Plusieurs journées de travail sur le terrain, des études plus approfondies et surtout un travail pluridisciplinaire sont nécessaires.

Bibliographie

CINTAS P., Eléments d'étude pour une protohistoire de la Tunisie, Tunis, 1961.

CAMPS G., Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, 1961.

CAMPS G., Introduction à la préhistoire, Paris, 1982,

CAMPS G., Manuel de recherche préhistorique, Paris, 1990.

GAUCHER G., Méthodes de recherche en préhistoire, Paris, 1990.

JOFFROY R., THENOT A., Initiation à l'archéologie de la France, préhistoire et protohistoire, éd. Tallandier, 1990.

PARIS F., Les sépultures du Sahara nigérien du Néolithique à l'islamisation, Paris, 1996.

PHILIBERT D., Préhistoire et archéologie aujourd'hui, Paris, 2000.

REYGASSE M., Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du nord, Paris, 1950.

CAMPS G., « A propos d'une étude sur la protohistoire de la Tunisie », Libyca, t. XI, 1963, p. 295-306.

CAMPS G., « Notes de protohistoire Nord-africaine », Libyca, t. XI, 1963, p. 169-176.

CAMPS G., « Les dolmens marocains », Libyca, t. XIII, 1965, p. 235-247.

CAMPS G., « Protohistoire de l'Afrique du nord, question de terminologie et de chronologie », REPPAL, t. III, 1987, p. 43-70.

CAMPS G., « Les nécropoles mégalithiques de l'Afrique du Nord », VIème colloque inter. Sur l'histoire et l'Archéologie de l'Afr. du nord, Paux, 1993 – 118ème congrès, Paris, 1995, p. 17 – 31.

GHAKI M., « Question autour du mégalithisme en Tunisie », Acte du VIIIe colloque International sur l'Histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord (1er colloque International sur l'Archéologie du Maghreb), Tabarka, 8-13 Mai 2000, Tunis, 2003, p. 47-63.

MORIZOT P., « La recherche en matière de protohistoire : L'état de le question pour l'Aurès. Indices cartographiques pour le Djebel Amour », Acte du VIIIe colloque International sur l'Histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord, Tabarka, 8-13 Mai 2000, Tunis, 2003, p. 65-97.

chacune en leur centre un des monuments"[31]. Il s'agit selon le relevé présenté dans l'Atlas préhistorique[32] d'au moins deux dolmens à enceintes rectangulaires alignés ayant une à deux chambres funéraires. (Voir figure n° 9). Dans les nécropoles de Khanguet Esslougui dans la Feuille de Jbel Birino, sur plus de 400 monuments mégalithiques, on a relevé la présence d'un seul dolmen rectangulaire à deux chambres sépulcrales (Voir Figure n° 10).

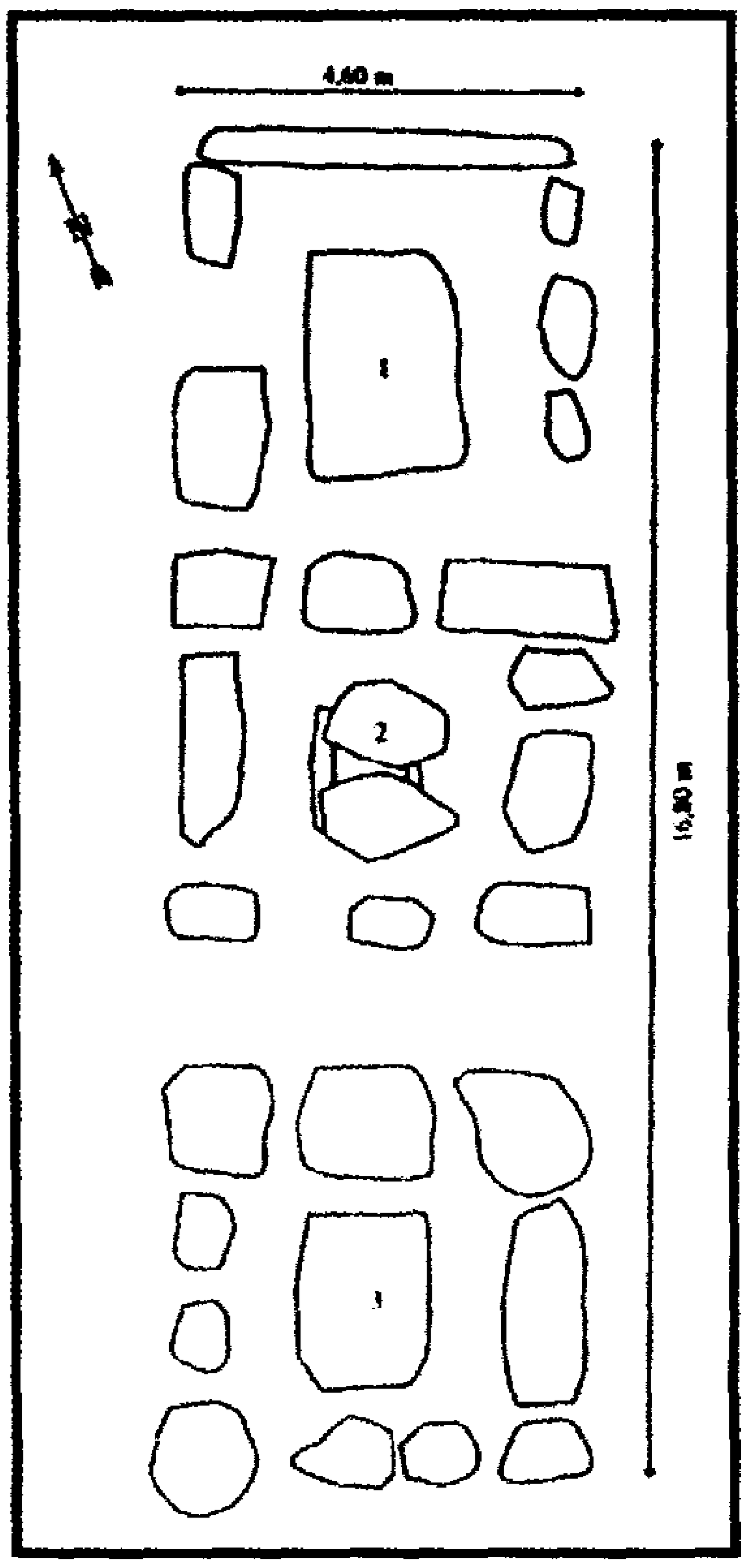


Figure n° 9 : Dolmen à enceinte quadrangulaire n° 19 de Jelleb.

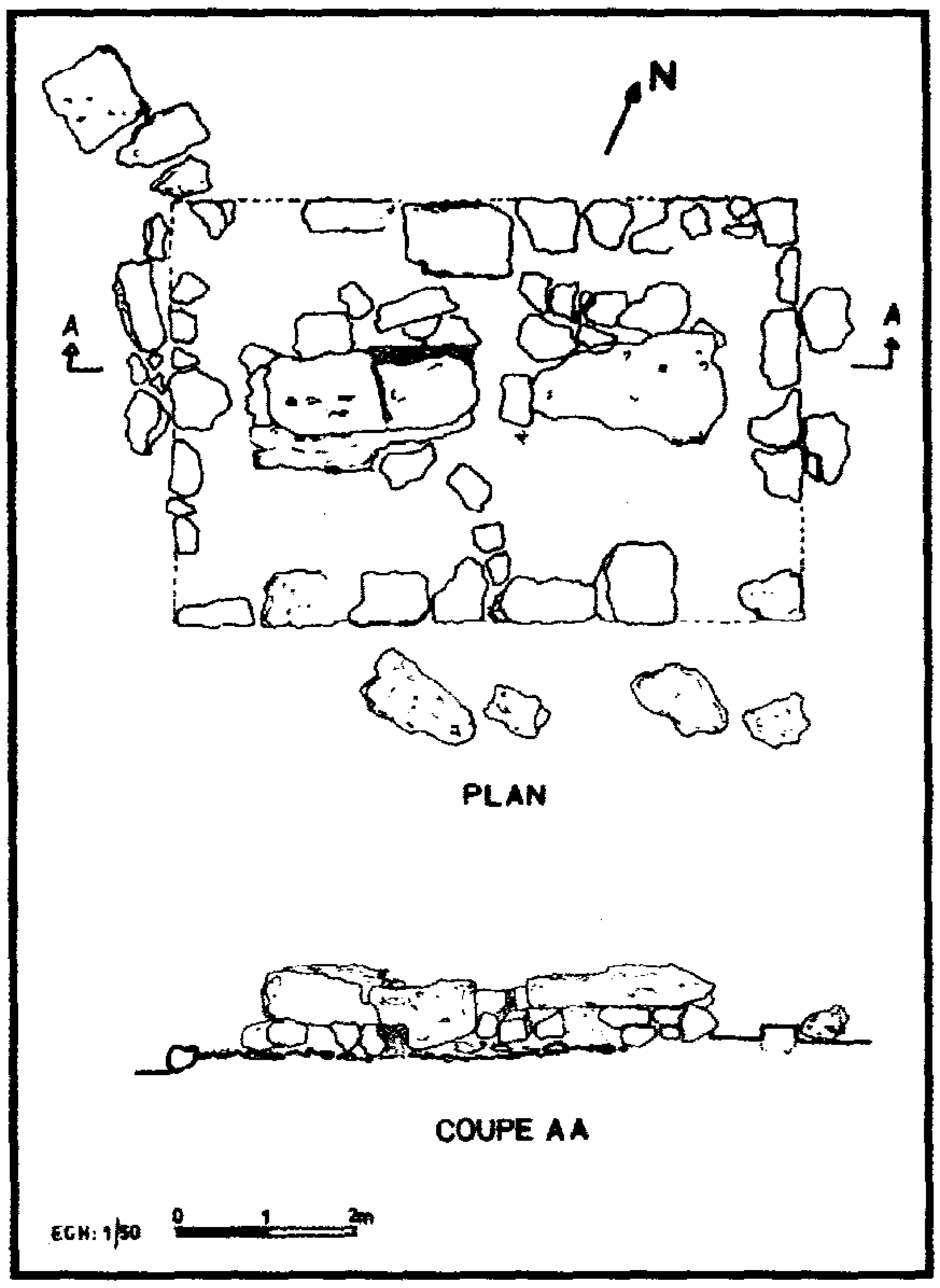


Figure n° 10 : Dolmen à enceinte quadrangulaire de Khanguet Esslougui (Site n°33)

Pour ce type de monuments assez complexe, peut-on admettre l'existence d'influences architecturales des mégalithes de Maktar, d'Ellès, de Hammam Zouakra distants de quelques kilomètres. Ces derniers ont atteint un développement architectural très complexe[33] : La construction des ces monuments mégalithiques est faite à l'aide de blocs monolithiques colossales. Ils disposent de couloirs larges dans lequel on peut facilement circuler ; des accès de part et d'autre de ce couloir menant à des chambres multiples. Ces derniers sont de grandes dimensions permettant l'inhumation d'un corps allongé. Il s'agit d'une architecture nettement plus complexe et plus développée que celle que nous avons rencontré à Bou Araara.

* La problématique du "débitage" de la pierre :

La construction des monuments mégalithiques nécessite la disponibilité d'une matière première. La recherche de l'origine de la pierre ne nécessite pas de gros efforts ;

[31] *Atlas, Op. cit*, p. 104.

[32] *Atlas, Op. cit*, p. 106.

[33] Les monuments d'Ellès et de Maktar ont été classés par G. CAMPS dans *Aux origines de la berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques*, A.M.G., Paris, 1961, p. 189-193, dans le type des monuments mégalithiques complexes.

faire diriger dans un sens ou dans un autre. Cependant, nous pouvons remarquer que ces menhirs prennent la limite Nord, Sud et Ouest des sites mégalithiques de l'Est de Jbel Barbrou. Ce type de monuments, représente-t-il une limite territoriale pour un groupe ou des groupes enterrant leurs morts dans un espace bien délimité par ces alignements ? S'il s'agit du monde des morts, où peut-on localiser le monde des vivants et poser ainsi la problématique de l'occupation du sol par les libyques ?
Ces problématiques restent posées tant que nous n'avons pas trouvé les traces d'habitats et tant que les prospections et l'étude des nécropoles mégalithiques ne sont pas systématiques.



Carte n°2 : Orientation des alignements de menhirs de l'Ouest de Jbel Barbrou

* Le site de Bou Araara renferme plusieurs dolmens à enceintes quadrangulaires avec deux, trois ou quatre chambres sépulcrales. Il s'agit d'une architecture complexe et grandiose. Dans toutes les feuilles de Kairouan au 1/200.000, de Ksar Tlili et de Jbel Birino au 1/50.000 aucun site n'a livré un dolmen à enceinte rectangulaire et quatre chambres funéraires.

A Henchir Jaballah[30] (site n° 42) il n'y a dans tout le site que deux dolmens à enceintes quadrangulaires, ayant chacun une seule chambre funéraire. Dans le site de Jelleb (Site n° 46) le groupe de l'Atlas Préhistorique a noté la présence d'un monument à enceinte rectangulaire "constitué d'un alignement de 3 dolmens, inclus chacun dans une zone délimitée par des alignements de gros blocs, formant trois cellules renfermant

---

[30] *Atlas, Op. cit*, p. 93.

Nous relevons les aspects suivants :

* La construction d'alignements des menhirs en grand nombre est un phénomène très caractéristique de la région. Nous avons noté la présence de 4 sites renfermant des monuments mégalithiques de ce type :

- Ksour chehou El Batel n°31 avec 22 menhirs alignés et 1 seul dolmen.
- Ain El Hababsa n° 44 avec 106 menhirs et 1 seul dolmen[22].
- Jelleb n° 46 avec une pierre dressée et 24 monuments mégalithiques d'autres types[23].
- Fraïjia n° 47 avec 5 menhirs et deux dolmens[24].

Dans la Feuille de Ksar Tlili M. BEN BAAZIZ. a relevé l'existence de deux sites renfermant des alignements de menhirs[25] :

- Le site d'El Miàd ou de Hjar El Batel, "Mur très grossier, suite de pierres brutes (mégalithiques)...placées verticalement en forme de haie en deux parois ; c'est une sorte de mur à double parement, orienté légèrement vers le Nors-Est"[26].
- Le site n° 48 de Chgatma : "Un mur de 16 m de long, orientation Nord-Sud, coupe le ravinement ; c'est un mur en pierres brutes de moyennes dimensions placées en double rangée..."[27].

Dans cette région, tous les sites renfermant des menhirs alignés portent le toponyme de Ksour chehoud El Batel ou de Hjar El Batel. Les paysans racontent, pour chaque site, la même légende des participants à un mariage qui ont été pétrifiés suite à un faux témoignage.

Dans l'état actuel de la documentation, la région de l'Ouest de Jbel Barbrou c'est celle qui a livré le plus grand nombre d'alignements de menhirs. Une étude de synthèse concernant ce type de monuments, peut être mieux faite suite à une prospection de toutes les feuilles environnantes et à la publication des résultats de prospection des feuilles environnantes de Sbiba, de Jbel Semmama, de Ain El Ksiba, etc.

* L'orientation des menhirs nécessite aussi quelques réflexions :

- Ceux de Ksour Chehoud El Batel prennent une orientation **E-N-E / O-S-O**
- Ain El Hababsa **N-N-O / S-S-E**[28]
- Fraïjia **E-N-E / O-S-O**[29] (Voir carte n°2).

Généralement l'astronomie joue un rôle important dans la conception et l'orientation de ce type de monuments. Ils sont généralement alignés dans l'axe du soleil en été ou en hiver (solstice d'été ou de l'hiver). Cette théorie ne s'adapte qu'avec les monuments de Ksour Chehoud El-Batel et de Fraïjia alors que ceux de Aïn El Hbabsa prennent une autre direction (Voir carte n°2). L'orientation des alignements ne s'arrange pas dans tous les cas avec l'axe du soleil, plusieurs autres facteurs interviennent pour les

---

[22] *Atlas*, *Op. cit*, p. 95-97. Sur la carte topographique n° 61 de Rohia Jbel Barbrou, ce site porte le toponyme de Chehoud El Batel.

[23] *Atlas*, *Op. cit*, p. 99-107.

[24] *Atlas*, *Op. cit*, p. 107-109.

[25] BEN BAAZIZ S., *Ksar Tlili*, n° 068, C.N.S.A.M.H., Tunis, 2005, p. 22-23 et 35.

[26] *Ibidem*, p. 22.

[27] *Ibidem*, p. 35.

[28] *Atlas*, *Op. cit.*, p. 95.

[29] *Atlas*, *Op. cit.*, p. 108.

avec des blocs ancrés dans le sol. Cet état rend la différenciation entre les dolmens et les bazinas plus ou moins tangible.
Les deux bazinas qui ont été signalés par le groupe de l'Atlas préhistorique[19] avec des doutes en ce qui concerne l'architecture de l'une d'entre-elles ont subi des dégradations[20]. Nous n'avons trouvé aucune trace de la Bazina n°22. Pour ce qui concerne la Bazina n° 23 ou n° 6 dans notre inventaire [21], les trois assises du côté Nord de l'enceinte sont en place alors que les assises des autres côtés se sont écroulés.
Il s'agit d'une bazina à enceinte rectangulaire et 3 chambres funéraires construites semi-enfouies (Voir figure n° 8). La plus grande dalle, couvrant la chambre du Nord, mesure 3.40m. de long ; 2.40m. de large et 0.35m. d'épaisseur.

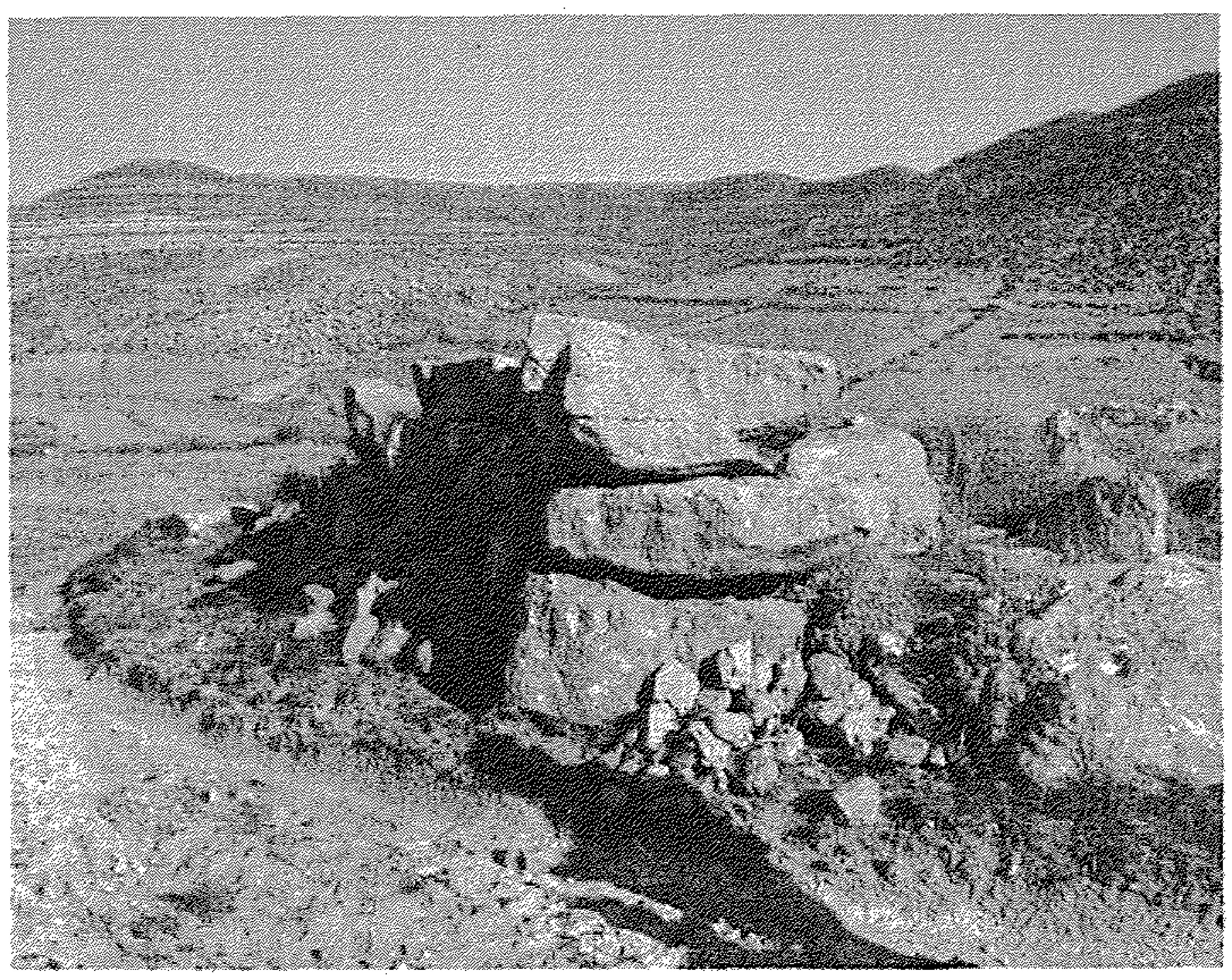


Figure n° 8 : Bazina à enceinte rectangulaire et 3 chambres enfouies (monument n° 6)

3 - Les tumuli

Nous n'avons identifié qu'un seul tumulus de 9.20 m de diamètre. La partie centrale a été éventrée, mais on note l'absence de toute dalle qui pourrait servir de table à la chambre funéraire. L'état de conservation du monument est très mauvais, les chercheurs de trésors n'ont laissé aucune chance pour l'identification de la structure d'origine du monument.

Les deux sites de Ksour Chehoud El Batel et de Bou Araara, font partie d'une concentration de 19 sites mégalithiques du versant Est de jbel Barbrou. L'étude architecturale des monuments de cette région a permis le développement de quelques approches qui restent préliminaires, exigeant un travail de terrain plus exhaustif.

---

19 *Atlas préhistorique*, *Op. cit.*, p. 86.

20 Le groupe de l'Atlas préhistorique ont décrit ce monument comme suit : « Structure quadrangulaire (restes d'une Bazina?), adjacente à l'Ouest au n° 21... », *Atlas préhistorique*, *Op. cit.*, p. 86.

21 Nous n'avons pas pu suivre la numérotation des monuments placés sur une carte au 1/50.000 dans l'Atlas, *Op.cit.*, p. 80. L'échelle trop grande et l'état de conservation des monuments qui s'est détérioré nous a obligé d'adopter une nouvelle numérotation.

Dans l'enceinte se trouvent trois chambres qui semblent pratiquement intactes. Chacune est recouverte d'une dalle de calcaire coquillé." D'après cette description, il s'agit d'un dolmen à 3 chambres funéraires et enceinte quadrangulaire. Nous avons pu relever lors de notre visite l'existence de 3 dolmens de ce type. Il s'agit de dolmens à enceintes quadrangulaires et chambres enfouies ou semi-enfouies. Les enceintes sont de grandes dimensions, contournant 2, 3, ou 4 chambres funéraires, (Voir tableau ci-dessous).

N^{os} des dolmens	Types	Forme des enceintes	Dimensions des tables	Dimensions des Enceintes
1	Dolmen	Circulaire	2.10 x 1.65 x 0.10	11.30
5	Dolmen	Circulaire	3.40 x 1.50 x 0.28	14.50
4	Dolmen	Rectangulaire	2.90 x 2.45 x 0.40 2.45 x 2.00 x 0.40 1.30 x 1.10 x 0.18[18]	16.20 x 5.7 x 1.10
7	Dolmen	Rectangulaire	3.65 x 2.30 x 0.50 1.70 x 1.35 x 0.20 1.50 x 1.65 x 0.30 1.85 x 1.25 x 0.20	12.10 x 6.40 x 0.30
10	Dolmen	Rectangulaire	2.30 x 2.70 x 0.20 1.20 x 1.30 x 0.15	12.40 x 6.20 x 0.65

Les dalles de couverture sont de dimensions colossales ; la plus grande de tout le site est celle du dolmen n° 7 à quatre chambres funéraires. (Voir tableau ci-dessus et figures n^{os} 6 et 7).

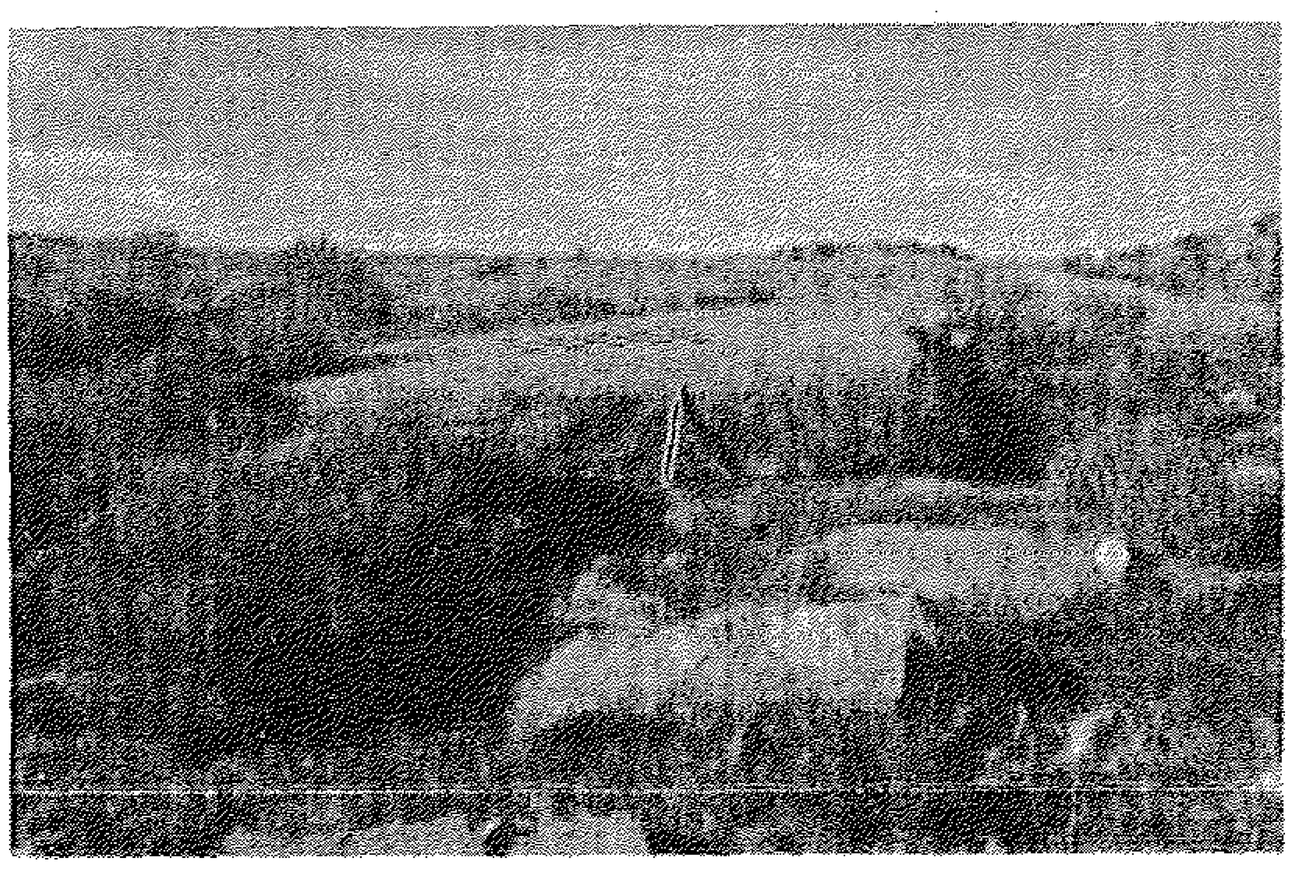


Figure n° 6 : Dolmen à enceinte quadrangulaire et 3 chambres enfouies (dolmen n°4)

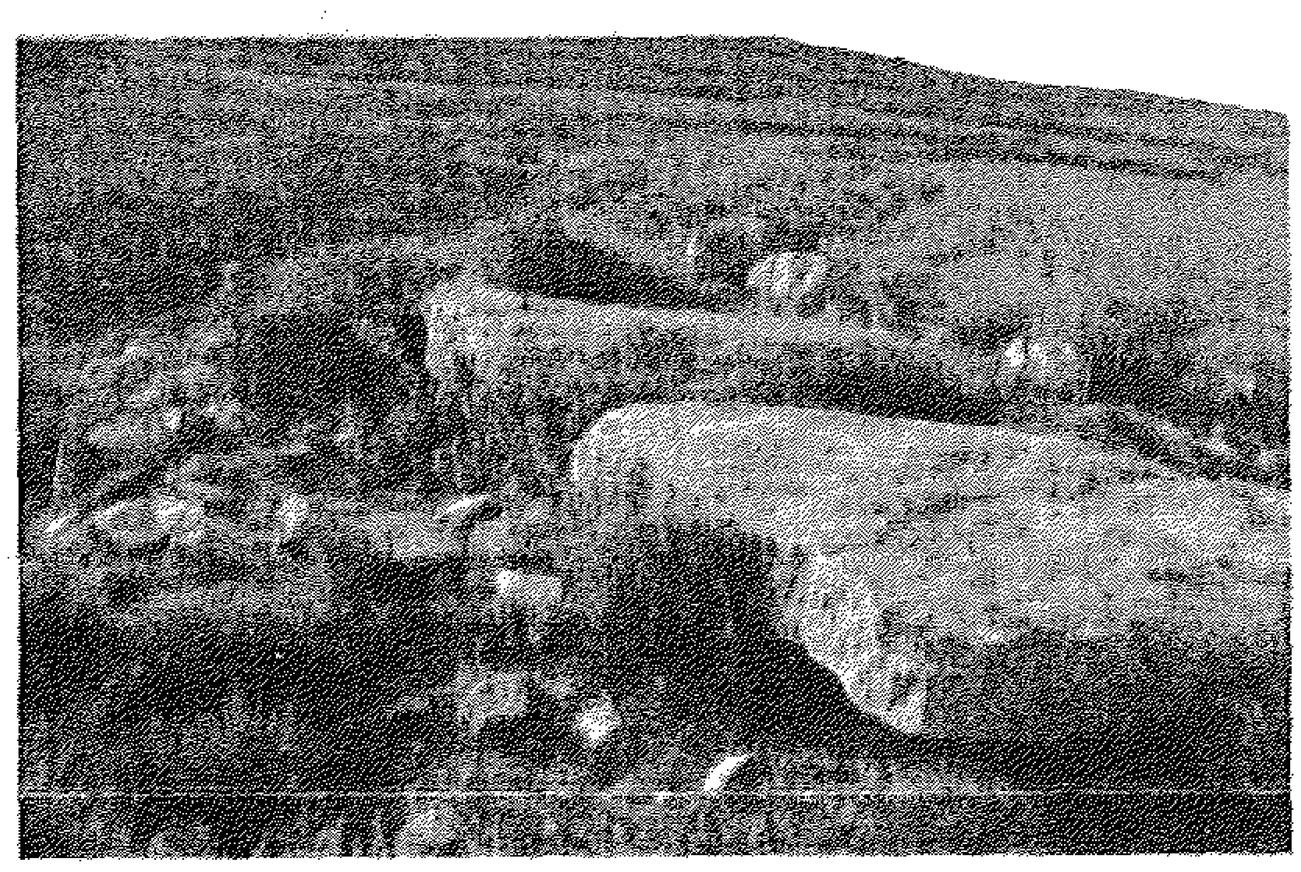


Figure n° 7 : Dolmen à enceinte quadrangulaire et 4 chambres enfouies (dolmen n°7).

2 - Les Bazinas

L'état de conservation des monuments du site rend l'identification des bazinas très difficile. Dans la majorité des cas, il ne subsiste de l'enceinte qu'une seule assise

[18] Cette troisième dalle est brisée.

1 - Les dolmens

a – Les dolmens à enceintes circulaires

Dans ce site, le groupe de l'Atlas Préhistorique signale la présence de 16 tumuli. Suite à notre visite sur le terrain nous avons pu remarquer l'existence des chambres funéraires et des enceintes circulaires pour la majorité de ces tumuli. Selon ces données nous pouvons utiliser le terme dolmen recouvert par un tumulus qui s'adapte mieux avec les éléments descriptifs présentés par l'Atlas Préhistorique[15] et identifiés sur le terrain.

Il s'agit de dolmens à enceintes circulaires et chambres enfouies ou semi-enfouies. Le diamètre des enceintes varie entre 6.70m. et 14.50m. Les chambres sont recouvertes par des dalles de 1.50 m. jusqu'à 2.10m de longueur.[16]. Les murs des chambres funéraires des dolmens n^{os} 5 et 10 ont été construits avec deux à trois assises visibles pour chaque mur. Les chambres des autres mégalithes de ce type sont enfouies, la dalle de couverture est à ras du sol ce qui rend impossible l'étude des techniques de construction adoptées.

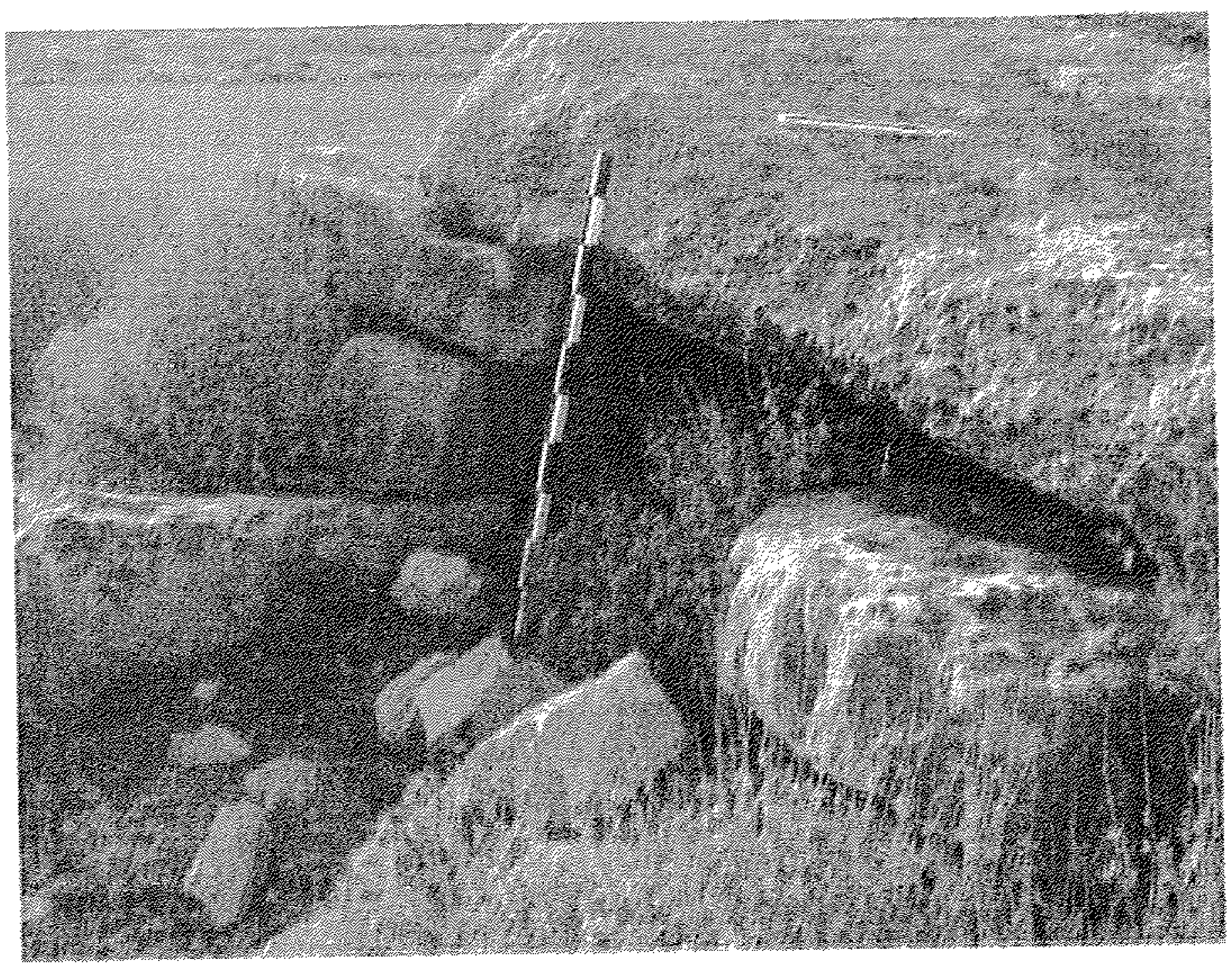


Figure n° 5 : Dolmen à enceinte circulaire et chambre construite semi-enfouie (dolmen n° 10)

b – Les dolmens à enceintes rectangulaires

L'Atlas préhistorique a présenté un deuxième type de monuments mégalithiques à savoir les monuments à enceintes quadrangulaires.[17] On peut lire : "Monument à enceinte quadrangulaire... La surface ainsi circonscrite est recouverte de gros blocs.

---

[15] Dans l'Atlas Préhistorique les tumuli ont été décrit comme suit : « Leur périphérie est délimitée par une ceinture de gros blocs... La dalle de couverture, souvent très massive », *Op. cit.*, p. 80.

[16] Selon l'Atlas Préhistorique, la plus grande dalle de couverture atteint 4.90 m de long, 2.90m de large et 0.40m d'épaisseur. Ce monument présenté dans le tableau par le groupe de l'Atlas Préhistorique porte le n° 24 alors qu'il ne figure par sur la carte. Selon le texte descriptif dans la même source il n'y a que "16 tumulus, 2 bazinas et 5 monuments rectangulaires" c'est à dire au total 23. La longueur de ce bloc proche de 5m. et sa largeur semblent être un peu exagérées ; la comparaison avec les autres blocs du site qui ne dépassent pas les 3.40m de long prouve que les dimensions présentées sont erronées. Il est très probable qu'il s'agit des dimensions d'un monument et non pas d'une table couvrant la chambre.

[17] *Atlas Préhistorique*, *Op. cit.*, p. 80-86.

II - Les monuments de Bou Araara

Le toponyme de ce site, du nom du M'zar (marabout rudimentaire) de Sidi Bou araara[11] qui se trouve à l'Ouest des monuments mégalithiques sur la rive droite de Oued el-Aïed (Voir monument n° 11- figure n°4)[12]. Dans la partie centrale du M'zar a poussé un genévrier qui a donné le nom au site.
Lors de notre visite nous avons pu prospecter la partie Nord renfermant 10 monuments mégalithiques, nos informations concernant la partie sud se base essentiellement sur les prospections du groupe de L'Atlas Préhistorique de la Tunisie[13] qui a pu identifier dans tout le site 23 monuments mégalithiques dont 16 tumuli, 2 bazina et 5 monuments à enceintes quadrangulaires. En suivant la répartition des monuments sur la carte au 1/200.000 établie dans l'Atlas Préhistorique, on a pu remarquer que plusieurs monuments se sont arasés et on n'a pas pu trouver leur trace. L'action de l'érosion tout près des oueds est très destructive[14]; s'ajoute à ceci un travail intense de la terre.

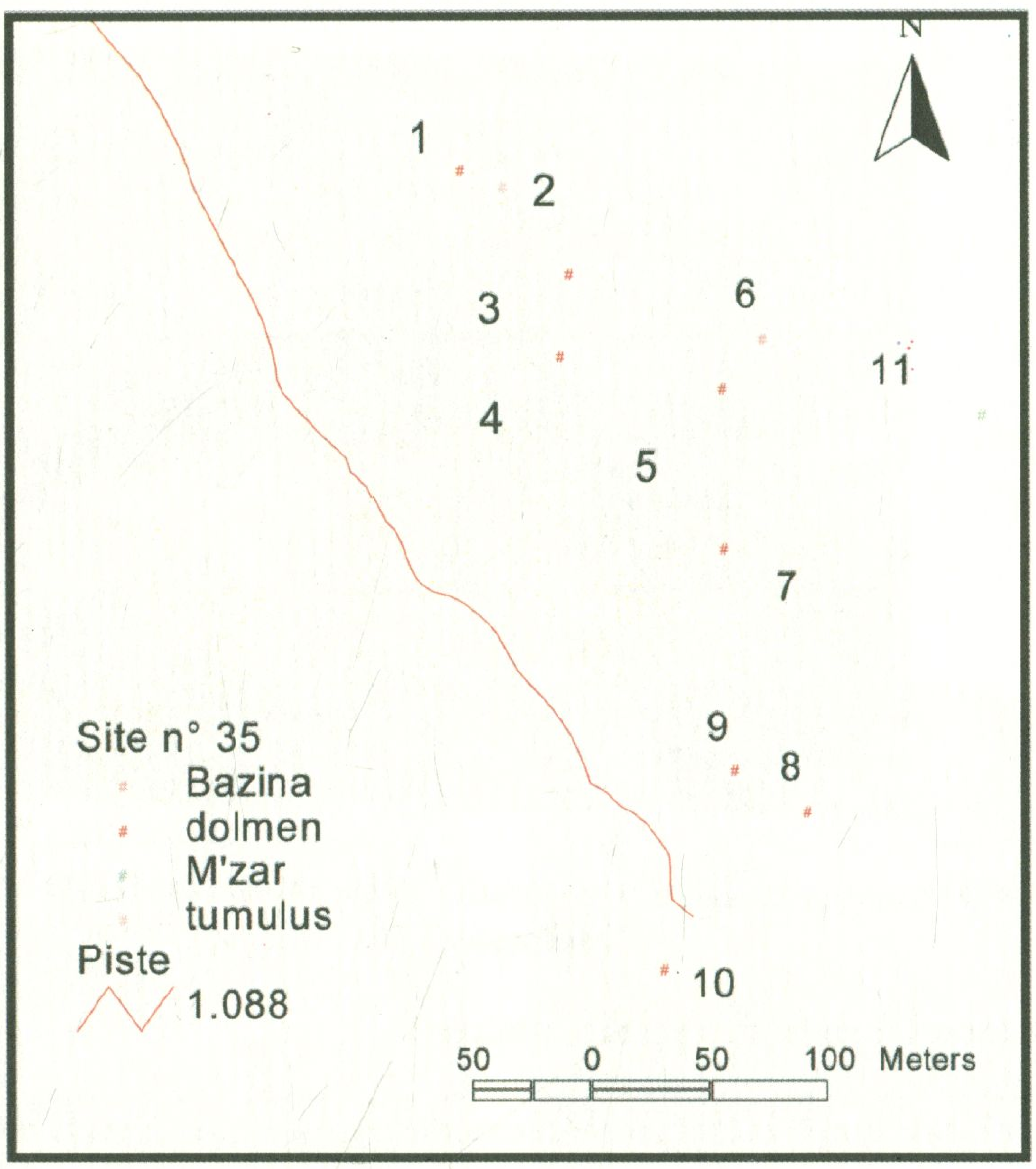


Figure n° 4 : répartition et typologie des monuments de Bou Araara

[11] Dans l'Atlas Préhistorique, *Op.cit*, p. 78, les auteurs ont utilisé le toponyme de « Bou Aiira », c'est-à-dire un genévrier de petite dimension. Les locaux utilisent, lors de notre visite, le toponyme de « Bou Araara » qui nous renvoi sur l'arbuste qui s'est agrandi.

[12] Pour la construction en pierres sèches de ce M'zar, les locaux ont utilisé des blocs ramenés de la bazina n°6 qui n'est distant que de 81m., ils ont aussi fort probablement utilisé les blocs du dolmen n° 5 qui se trouve à 92 m du M'zar.

[13] *Atlas Préhistorique*, *Op. cit.*, p. 78-88.

[14] Le site se trouve sur la rive droite de l'oued El-Aied et les ravins ont entraîné la chute de plusieurs blocs des monuments.

N° Menhirs	Etat de conservation	Forme des blocs	Dimensions des menhirs		
			L.	l.	Épai.
1	Mauvais	/	0.90	0.70	0.40
2	Bon	/	1.70	0.70	0.20
3	Bon	/	1.40	0.70	0.20
4	Mauvais	/	1.70	0.60	0.30
5	Mauvais	/	1.40	0.80	0.35
6	Bon	/	1.65	0.85	0.15
7	Très mauvais	Triangulaire	1.40	0.85	0.30
8	Très mauvais	Triangulaire	1.60	0.80	0.45
9	Mauvais	Sub-triangulaire	1.95	0.50	0.22
11	Très mauvais	Triangulaire	1.75	0.55	0.35
12	Très mauvais	/	1.65	1.10	0.30
13	Mauvais (incliné)	/	2.45	1.05	0.50
14	Bon	Triangulaire	1.40	0.90	0.40
15	Bon	Sub-triangulaire	1.50	0.65	0.70
16	Mauvais (légèrement incliné)	/	1.50	0.85	0.30
17	Très mauvais	Pyramidal	1.50	0.90	0.13
18	Mauvais (légèrement incliné)	Sub-triangulaire	1.55	0.60	0.30
19	Très mauvais	Sub-quadranqulaire	1.80	1.12	0.24
20	Bon	Sub-triangulaire	2.10	1.16	0.30
21	Mauvais (légèrement incliné)	Sub-rectangulaire	1.80	0.75	0.40
22	Mauvais (légèrement incliné)	Sub-quadranqulaire	1.30	0.50	0.40
23	Très mauvais	Sub-triangulaire	1.90	1.05	0.20

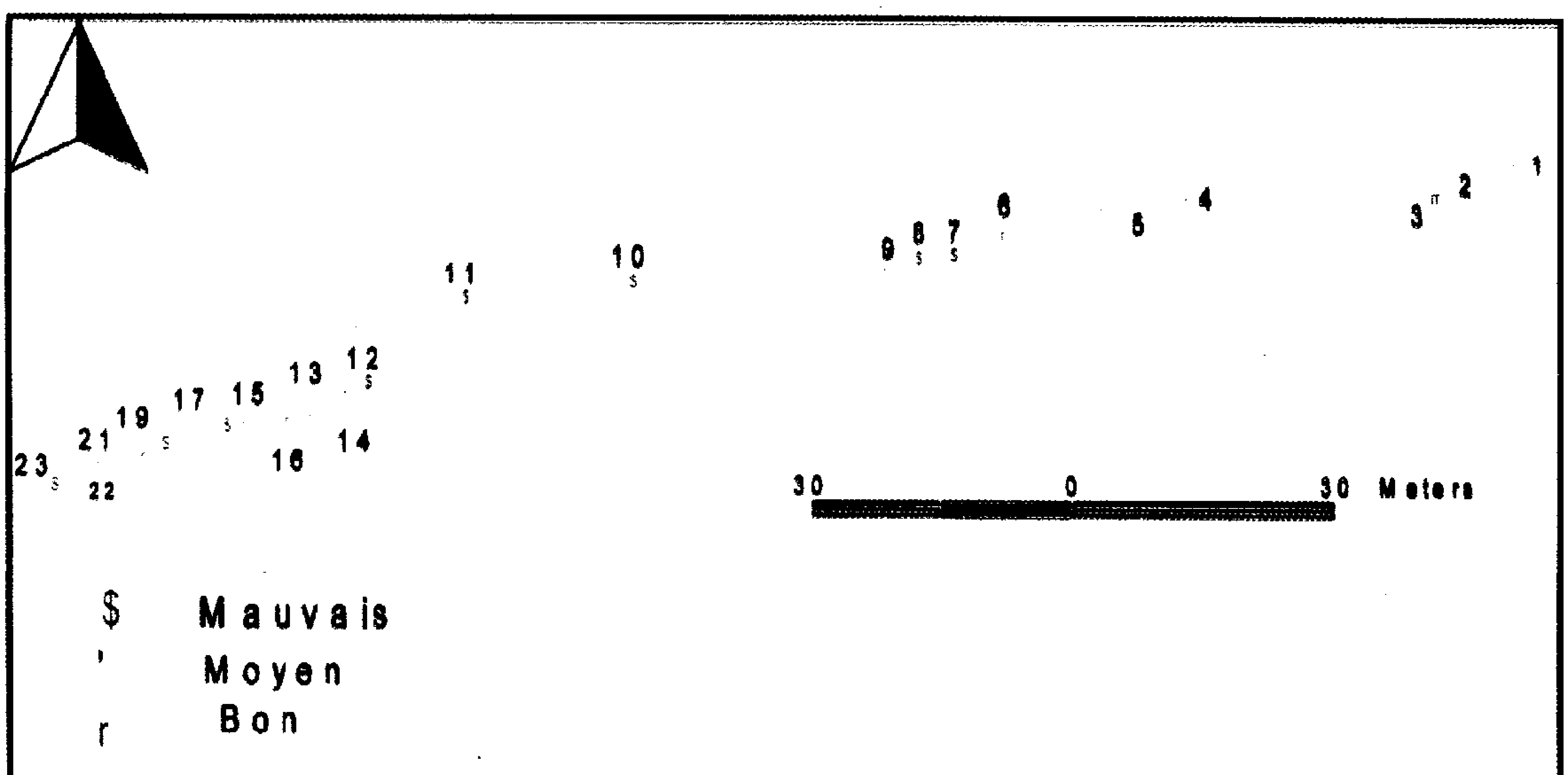


Figure n° 3 : Etat de conservation des monuments de Ksour Chehoud El Batel

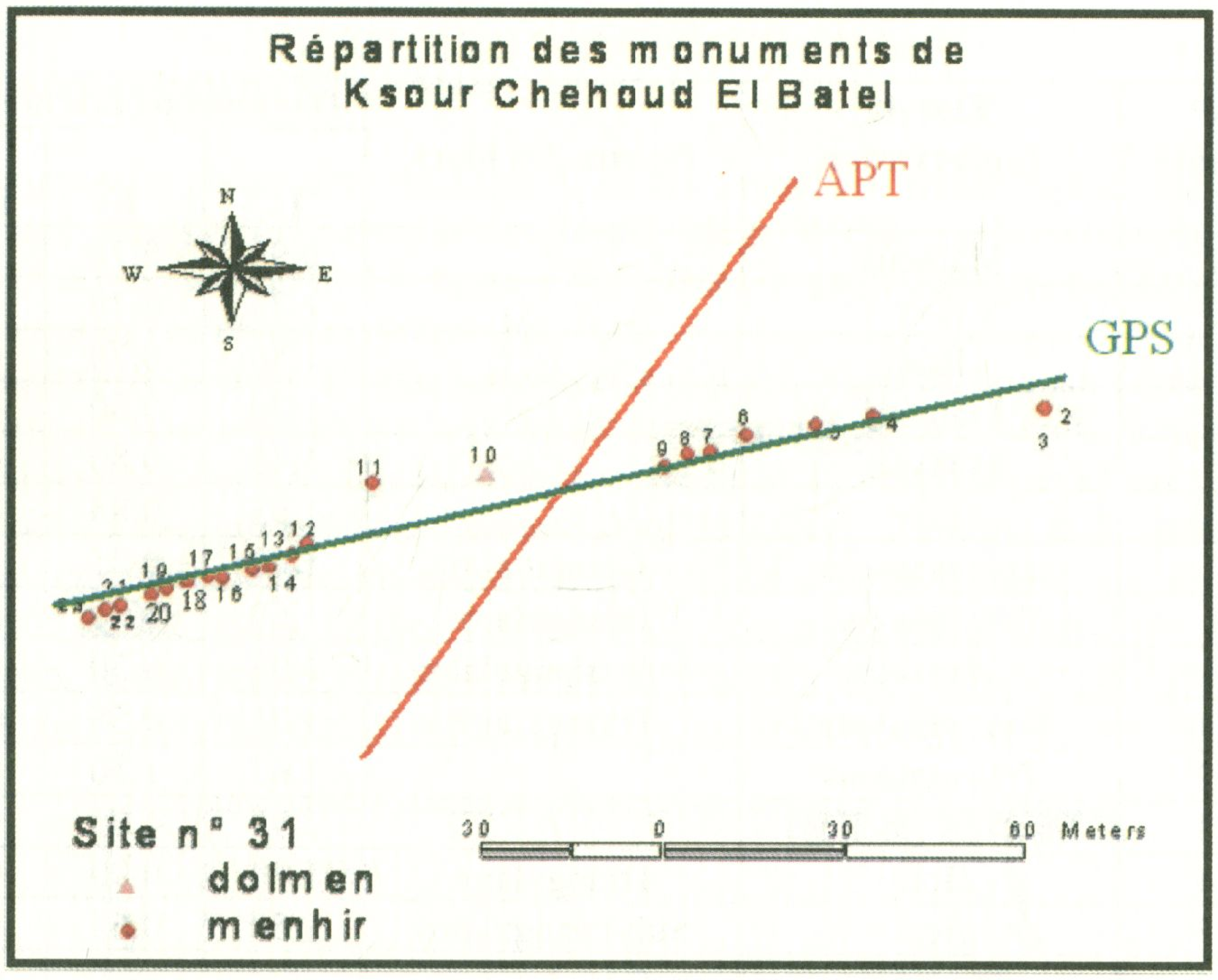


Figure n° 2 : Orientation de l'alignement des menhirs

2 - Le Dolmen

Il s'agit d'un unique dolmen simple à chambre enfouie de direction Sud/Sud/Est. Sa table est presque à ras du sol, elle repose sur des orthostates monolithiques et il n'y a aucune trace d'enceinte contournant la chambre. Il occupe le centre de l'axe des menhirs alignés, c'est la partie la plus élevée de ce monticule avec 867m. D'altitude.
Sa position suit l'axe des menhirs mais ses dimensions réduites, son architecture simple l'absence d'une enceinte, son altitude élevée par rapport aux autres monuments, posent plusieurs interrogations. Les données que nous avons pu proposer suite à la prospection sur le terrain ne permettent d'avancer aucune approche basée dans ce sens et les problématiques restent toujours posées.

Etat de conservation des monuments

La position des menhirs au sommet du monticule et en pente plus au moins inclinées de part et d'autre est apparemment l'une des principales causes qui a entraîné l'inclinaison ou la chute de plusieurs blocs. Ajoutant à cela le degré d'enfouissement des blocs dans le sol qui ne dépasse pas le 1/3 de la hauteur du bloc, les rend instables. Au total on a dénombré 7 menhirs en très mauvais état de conservation avec des blocs par terre[8] ; 9 menhirs en moyen état avec des blocs inclinés ou légèrement inclinés[9] et 6 menhirs en bon état[10] (Voir tableau ci dessous et figure n° 3).

---

[8] Il s'agit des menhirs n° 7 - 8 - 11 - 12 - 17 – 19 et 23.
[9] Il s'agit des menhirs n° 1 – 4 – 5 – 9 – 13 – 16 – 18 – 21 – 22.
[10] Il s'agit des menhirs n° 2 – 3 – 6 – 14 – 15 – 20.

I - Les monuments de Ksour Chehoud El Batel

1 – Les menhirs

Le toponyme du site "Ksour" nous renvoi sur la présence de pierres dressées (Voir figure n°1) alors que le nom de Chehoud El Batel "faux témoins" nous renvoie sur une légende d'une série de personnes qui ont été pétrifiées par un magicien juif suite à un faux témoignage. On rencontre, à une dizaine de kilomètres, le même toponyme dans le site n° 44 de Ain El-Hbabsa ou Ksour chehoud El Batel[4]. Dans la feuille topographique de Ksar Tlili au 1/50.000 le site n° 068.026 porte le toponyme de Hjar El Batel[5]. Avec tous les exemples cités, Chehoud El Batel nous renvoi toujours aux mêmes structures de menhirs alignées et à la même légende répété par plusieurs citoyens.

Le site de Ksour Chehoud El Batel, renferme 22 menhirs[6] ou pierres dressées et un seul dolmen suivant le même axe des monolithes. Les menhirs, faisant 152 m de long, suivent selon l'Atlas Préhistorique une orientation N/E, S/O. Suite à un relevé effectué à l'aide d'un GPS[7], il s'est avéré qu'elle est un peu décalée en suivant une orientation plutôt ENE/OSO (Voir figure n°2).

La distance moyenne entre les monolithes est de 5m ; la hauteur apparente des blocs varie entre 0.90 m. et 2,45 m. ; la largeur varie entre 0.50m. et 1.16m. ; l'épaisseur varie entre 0.13m. et 0.70m. La majorité des blocs ont la forme triangulaire ou sub-triangulaire, quelques blocs sont quadrangulaires et un seul pyramidal.



Figure n° 1 : L'alignement de menhirs de Ksour Chehoud El Batel.

---

[4] Sur la carte topographique le site est marqué Ksour Chéoud El Batel.

[5] BEN BAZZIZ S., *Ksar Tlili*, n° 068, Carte Nationale des Sites Archéologiques et des Monuments Historiques, Tunis, 2005, p. 22-23.

[6] Dans le *Dictionnaire archéologique de la France*, Paris, 1990, p. 399, « les menhirs sont des pierres dressées verticalement, de forme et de longueur variées. Ils sont fichés en terre plus au moins profondément (souvent au quart ou au cinquième de leur hauteur) afin de bénéficier d'une bonne stabilité ».

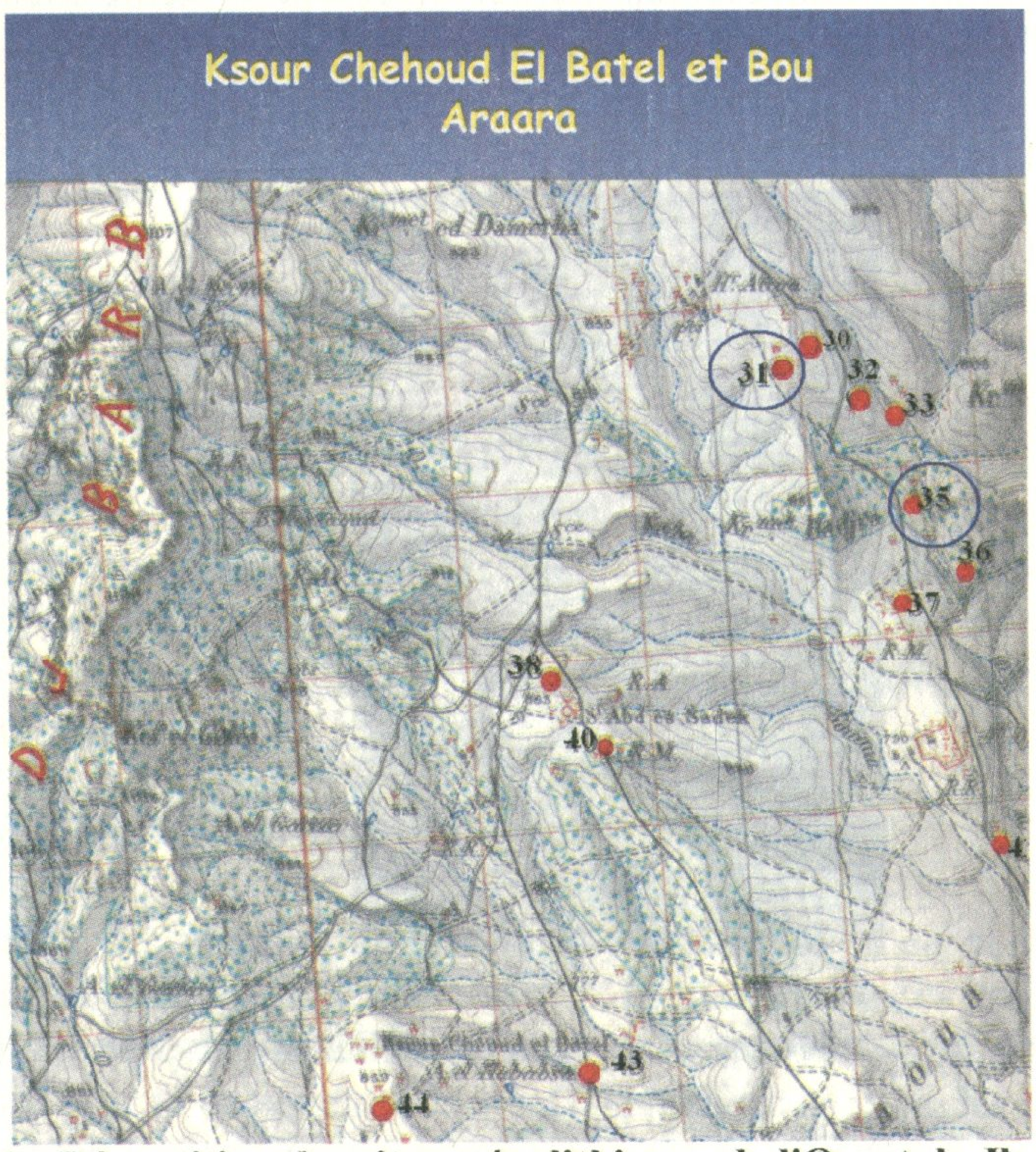
[7] Les données du GPS ont été corrigées uniquement par le Wass. La station de référence de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan, la plus proche pour la correction des données ne fonctionnait pas lors de notre travail de prospection.

Deux sites mégalithiques de Kroumet el-Hajjar. Premières approches

Emna Ben Guith Hmissa
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan

Présentation des sites

Il s'agit de deux sites d'époque libyque appartenant à la Feuille de Kairouan au 1/200.000 ; la feuille de Rouhia-Jbel Barbrou au 1/50.000[1]. Ils portent simultanément les toponymes de Ksour chehoud El Batel قصور شهود الباطل numéro 31et de Bou Araara بو عرعارة numéro 35[2] (Voir Carte n° 1). Ils sont à une centaine de mètres de Kroumet El-Hajjar كرومة الحجار ؛ une sorte de monticule ou "Krouma" délimité à l'Est par Kroumet El Ouriane, à l'Ouest par Jbel Barbrou, au Nord par la forêt de Kesra et au Sud par Oued El Aied واد العايد affluent de Oued El Htab.[3]



Carte n° 1 : Répartition des sites mégalithiques de l'Ouest de Jbel Barbrou

---

[1] Gouvernorat de Siliana, Délégation de Kesra, Imada de Louza.

[2] Nous avons repris les numéros de l'Atlas Préhistorique de la Tunisie, *Feuille de Kairouan*, n° 11, INP-EFR, Rome, 1998, p. 73-76 et 78-88.

[3] Nous avons prospecté et inventorié les monuments mégalithiques des sites numéros 31 et 35, mais ils ne représentent qu'un exemple d'une série de 19 sites de l'Ouest de Jbel Barbrou (Voir carte n°1). Notre choix de prospection s'est basé sur la diversité architecturale des monuments décrits dans l'Atlas Préhistorique de la Tunisie, *Op.cit.*; mais une étude des monuments de toute la région est essentielle pour pouvoir tirer des conclusions sur l'occupation libyque, ainsi que sur la chronologie qui reste toujours l'une des préoccupations des études archéologiques.

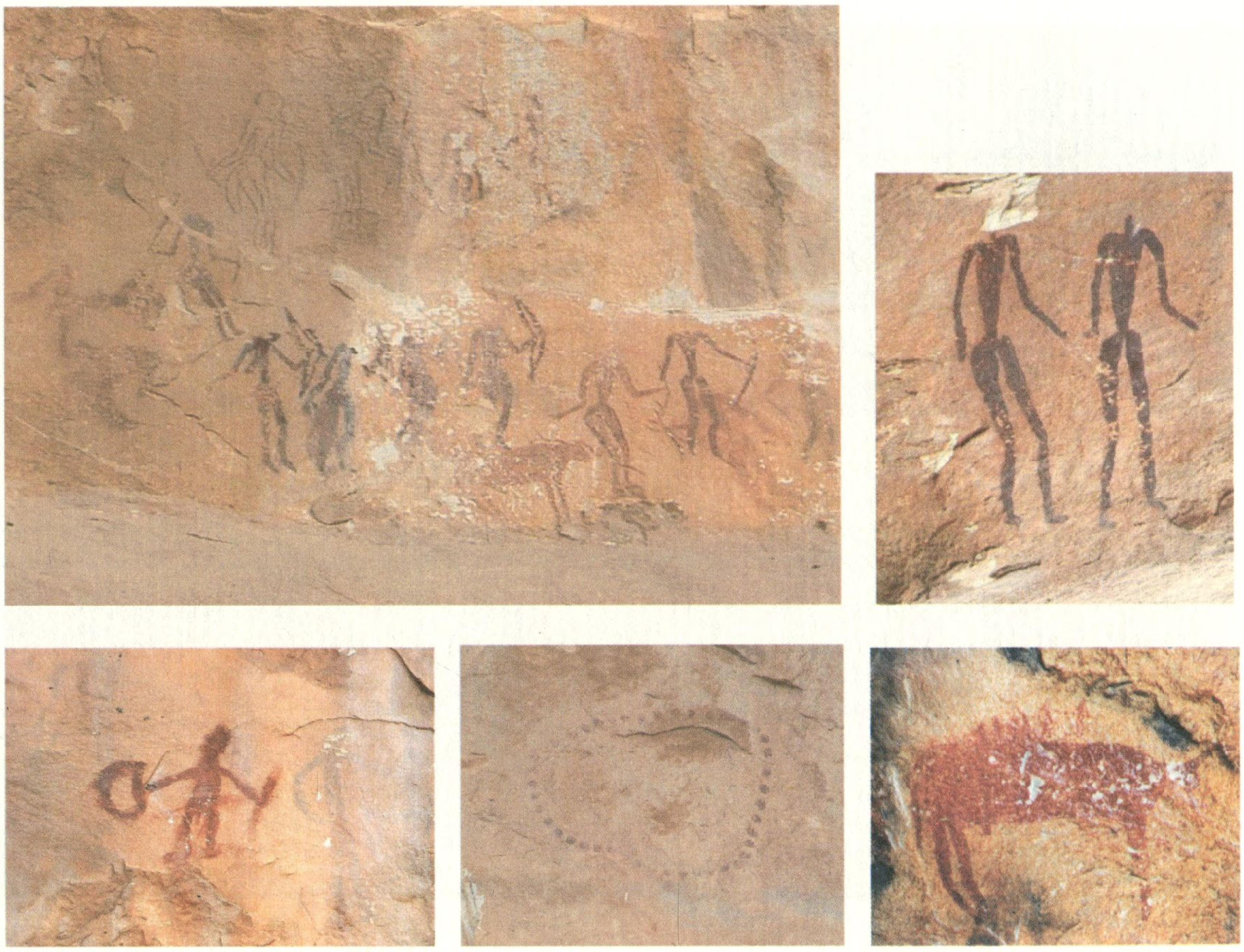


Fig. 19 à 23. Aïn Khanfous. Peintures



Fig. 24. Kef Jebibina. Peintures.





Fig. 16. Oued Jmel.



Fig. 17. Guelta el-Berda.

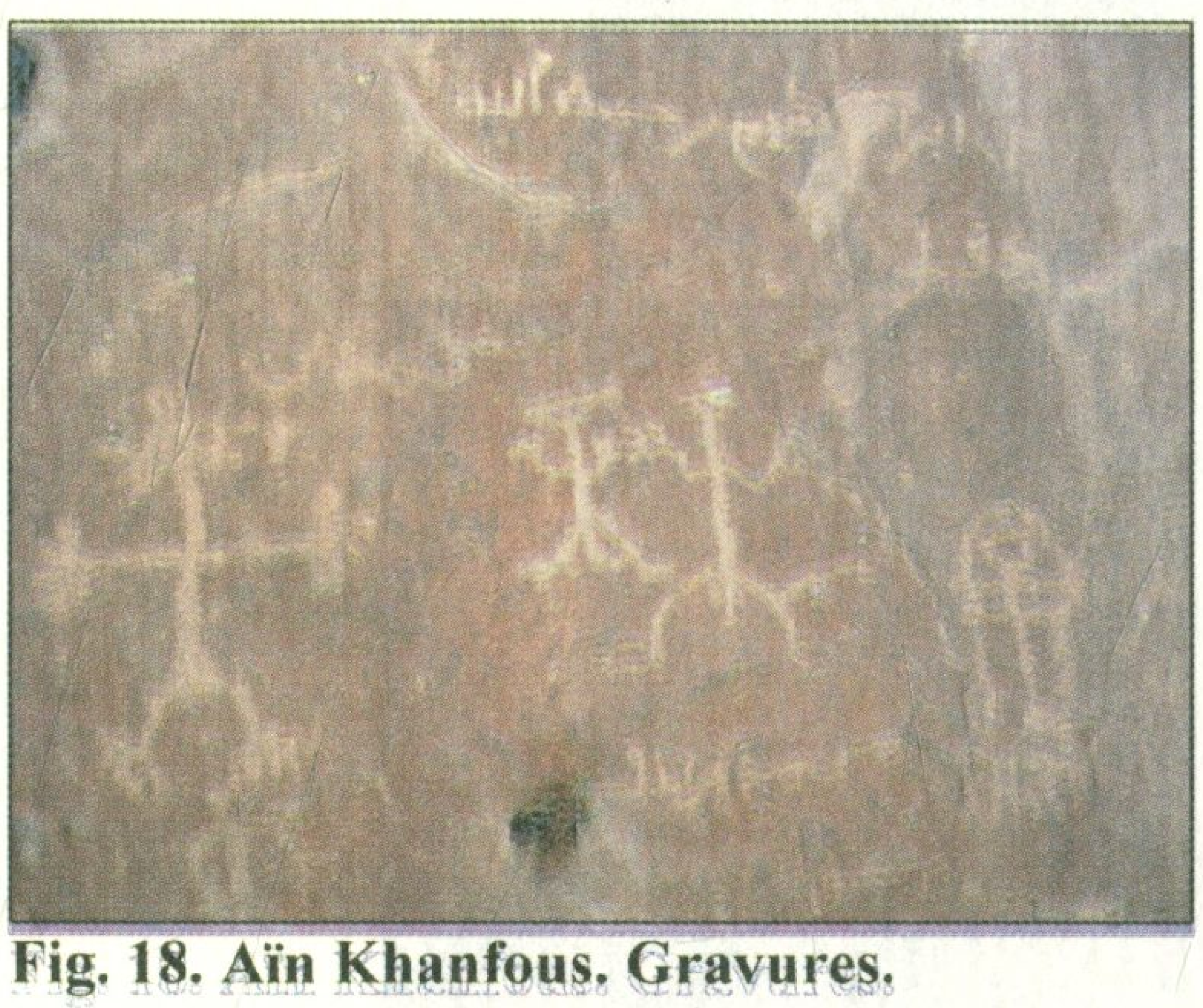


Fig. 18. Aïn Khanfous. Gravures.



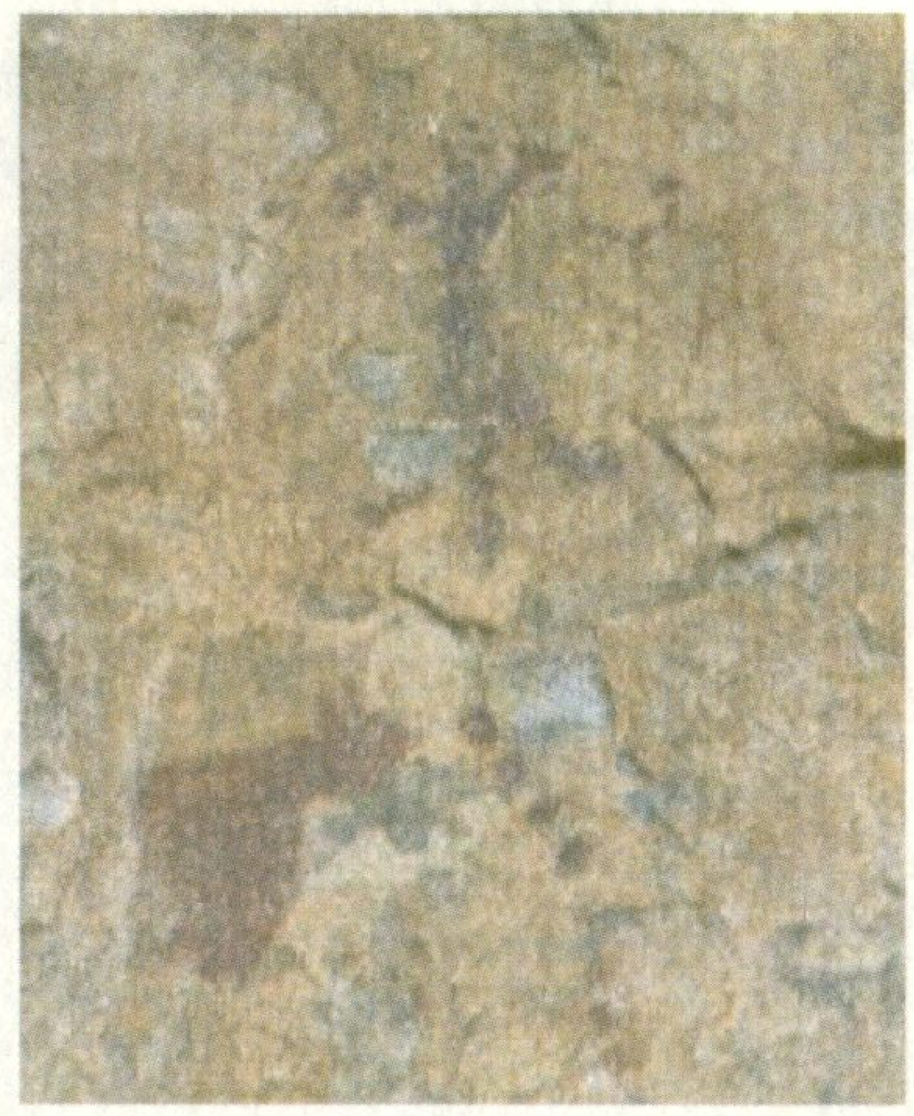


Fig. 11 et 12. Bourrime

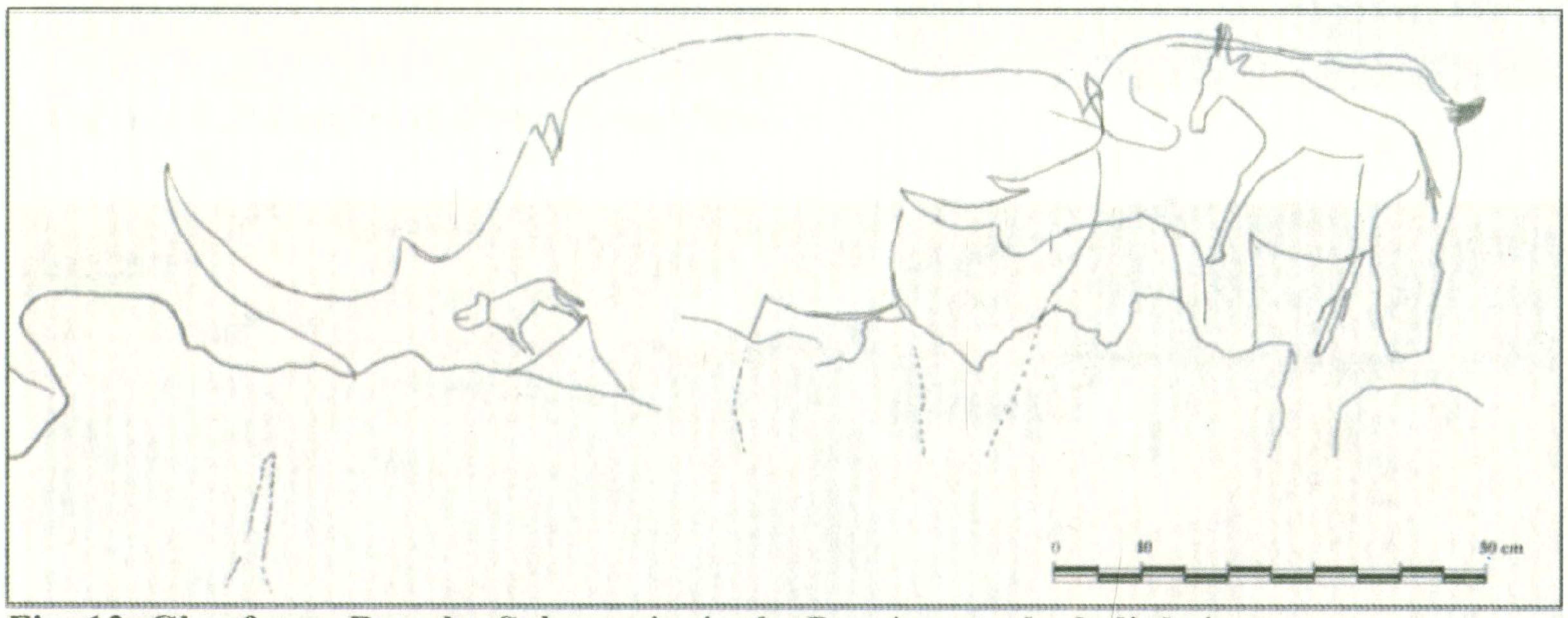


Fig. 13. Ghorfat er-Rmada. Scène principale. Paroi centrale de l'abri.





Fig. 14 et 15. Ghorfat er-Rmada. Paroi latérale.

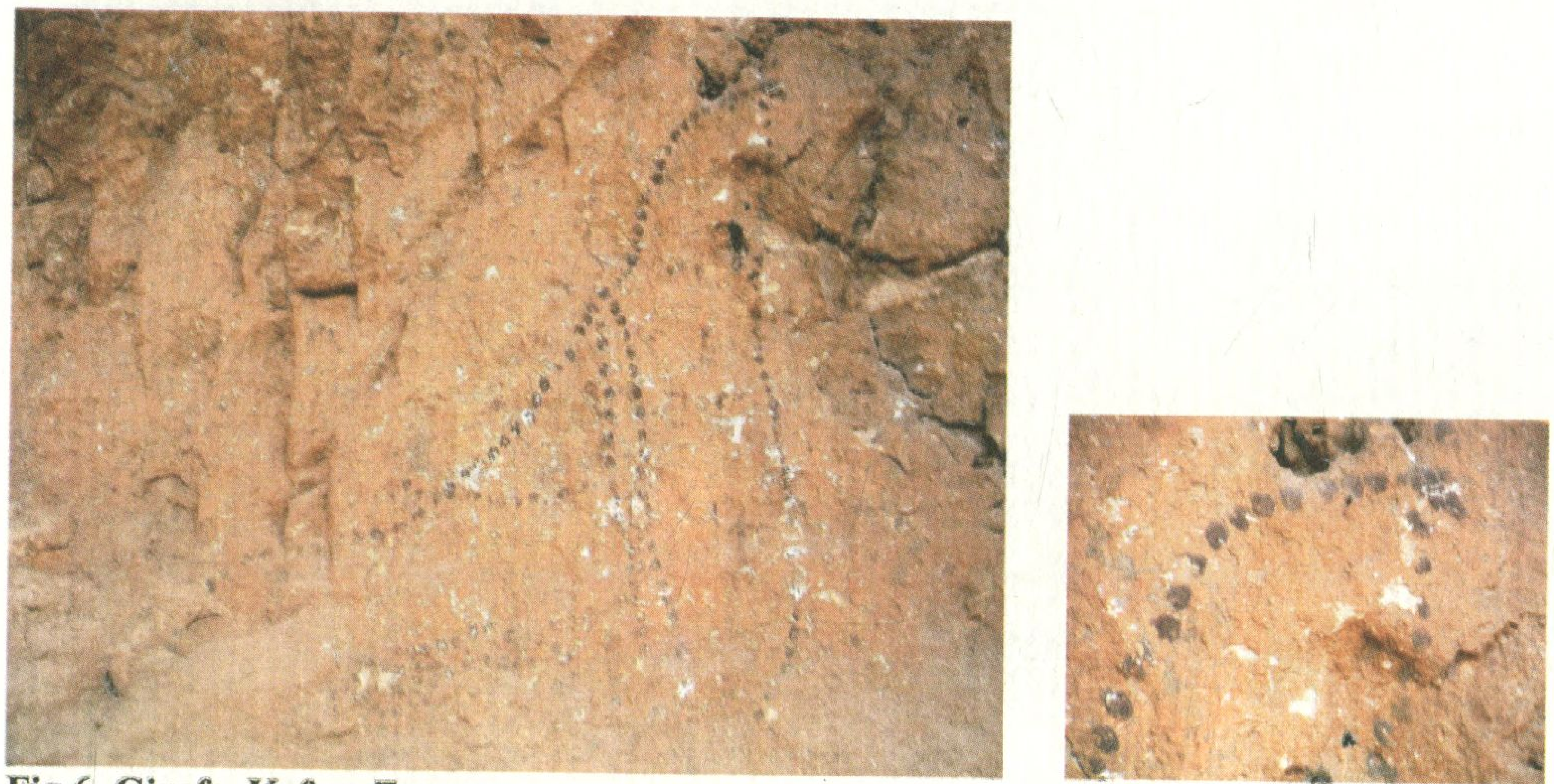


Fig.6. Girafe. Kef ez-Zagga





Fig. 7 et 8. Peintures de l'abri Chendoub

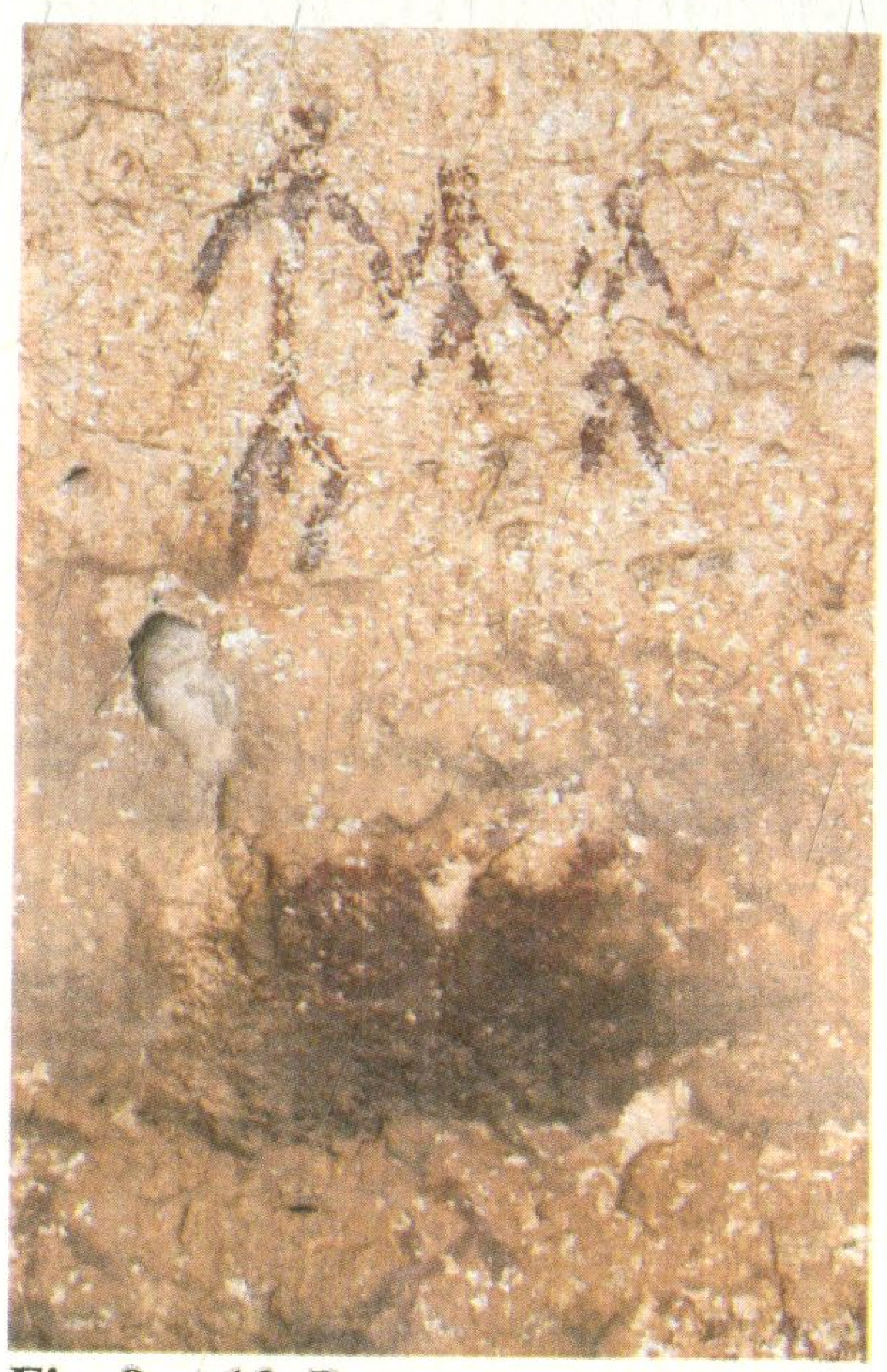




Fig. 9 et 10. Personnages. Dar Mellah.



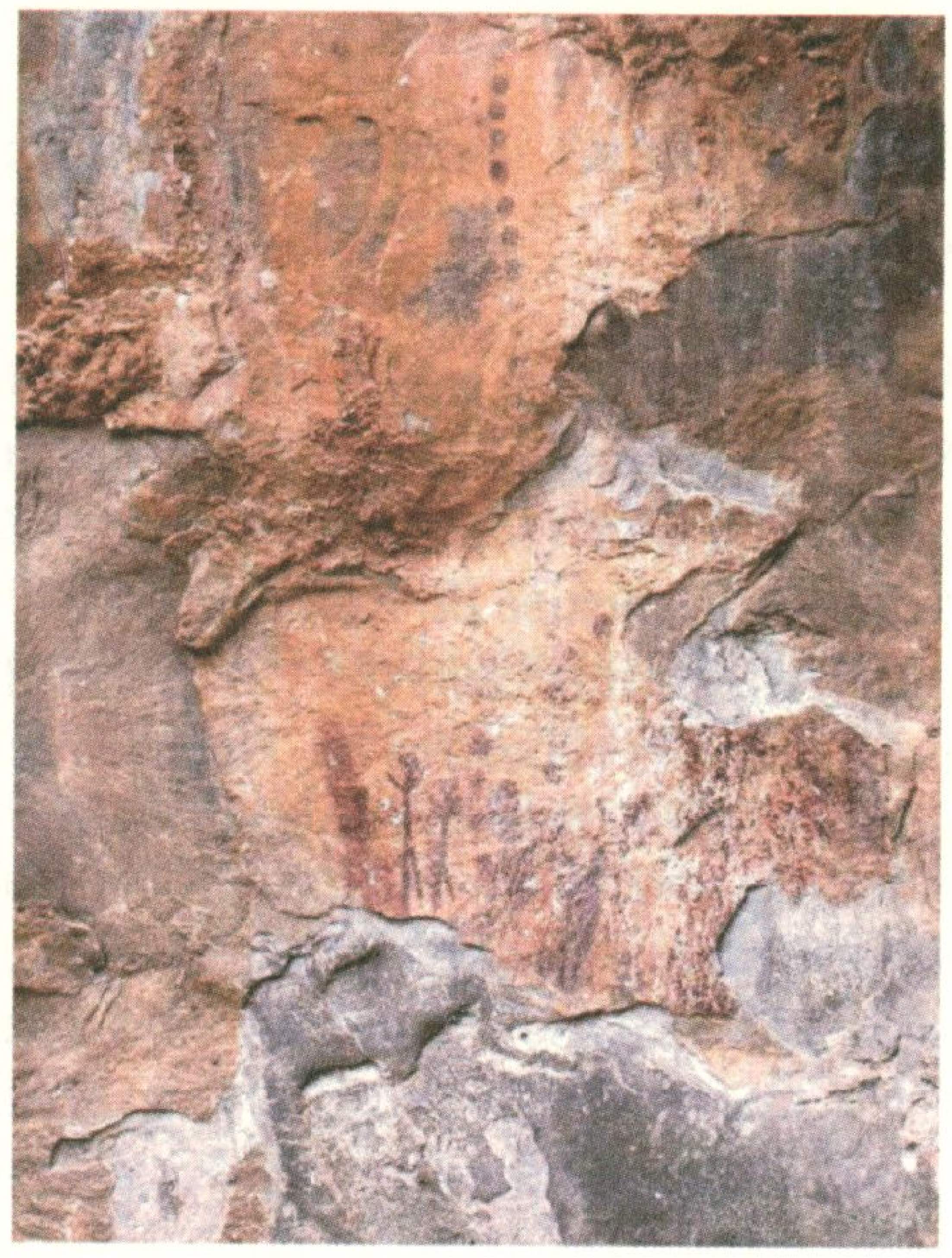


Fig. 1 et 2. Peintures de l'abri Kef el Bhim



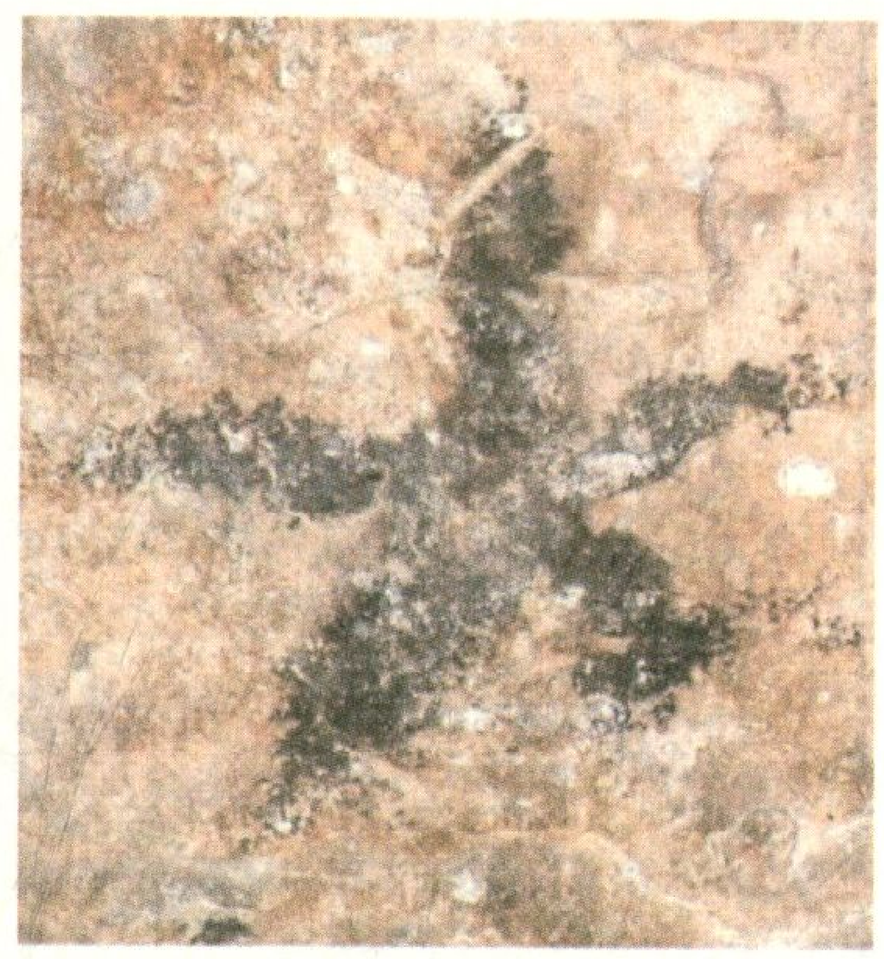


Fig. 3 et 4. Peintures noires. Khenifissa.

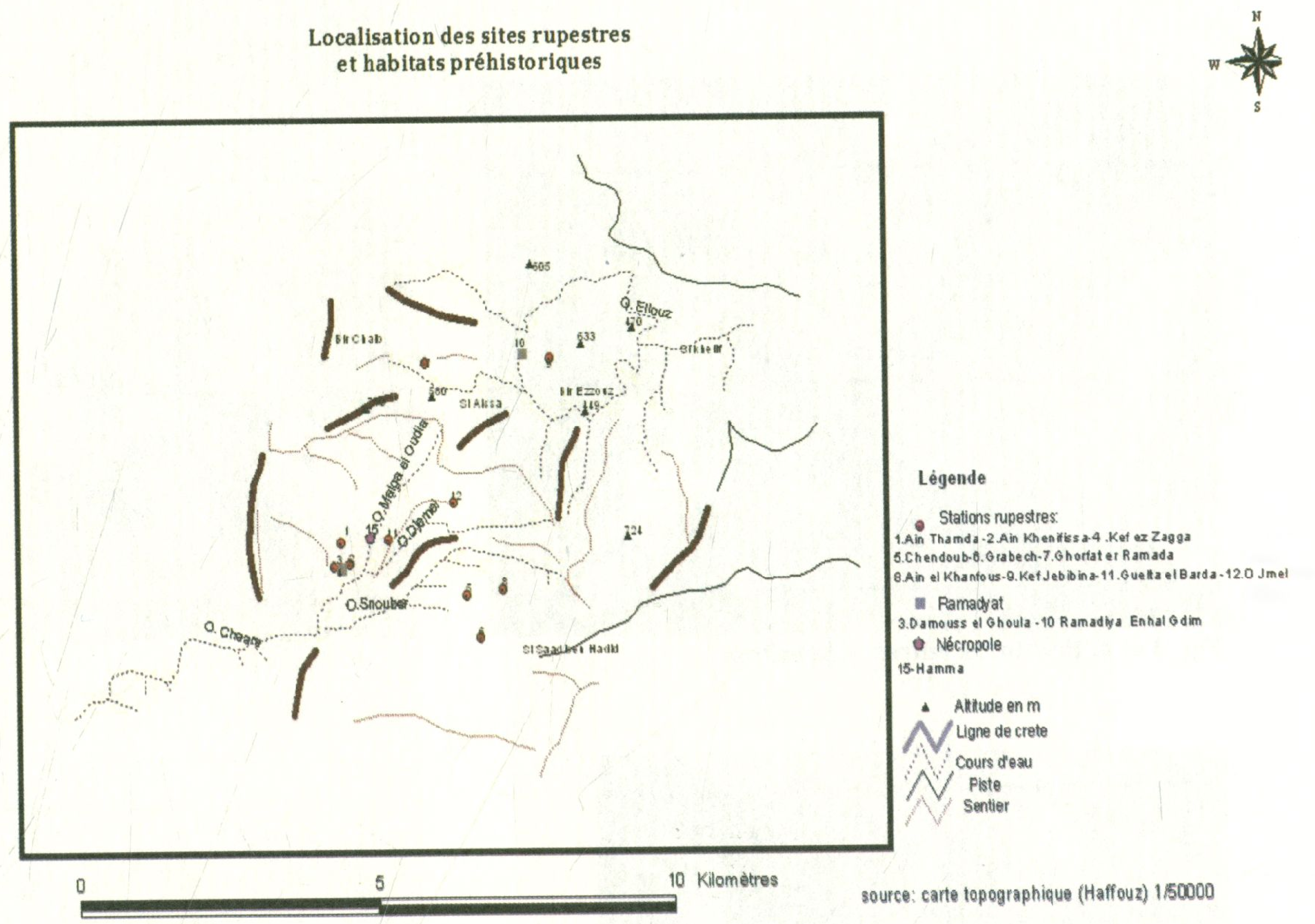


Fig. 5 Gravures contemporaines. Damous el-Ghoula

Bibliographie

Ben Nasr (J.), « Quatre abris peints découverts au Jebel Ousselat », *PAM*, t. 10, 2001.
Ben Nasr (J.), « Nouvelles peintures rupestres à l'abri Aïn Khanfous », *Sahara*, 14, 2003.
Camps (G.), Riahi (M.), Zoughlami (J.), *Atlas préhistorique de Tunisie, Kairouan*, INAA, Ecole Française de Rome, 1998.
Gragueb (A.), Harbi-Riahi (M.), M'Timet (A.), Zoughlami (J.), « Nouvelles découvertes de représentations rupestres en Tunisie : Jebel Ousselat (Tunisie centrale) », *Bulletin des travaux de l'INAA*, fasc.4, Tunis, 1988, pp. 41-64.

Carte et figures



reconnaître bovidés, capridés et personnages à la tête bilobée. La présence du javelot nous amène aux environs du I°millénaire.
Les traits et autres signes : (Fig.22)
Les personnages acéphales : de forme bitriangulaire, ces figures (Fig.19-20) sont représentées sans tête (sans tête ou pigment disparu ??). Au Sahara central, des représentations analogues sont datées des périodes caballines, d'époque protohistorique (à partir du milieu du IV°m B.P. et jusqu'à période historique).
Le guerrier (Fig.21) et le personnage « irréel » sont encore de styles différents.
Les gravures : au fond de l'abri, nous retrouvons les inscriptions arabes gravées entourant des figures de personnages masculins, parfois armés et montés.
Ceux-ci symbolisent le guerrier (appelé dans la littérature : « Guerrier libyen »). On y retrouve comme dans les gravures de l'Aïr, la position statique, la représentation naïve de la tête, des cheveux, des membres (les pieds surtout). Certains sont représentés debout sur leur cheval. La période à laquelle ces figures appartiennent est appelée « Libyco-berbère ». Leur position aux côtés d'inscriptions contemporaines fait penser à un probable réemploi d'anciennes gravures.

La visite des abris voisins a montré quelques peintures inédites.

Kef Jebibina : Dimensions de l'abri : Long d'environ 19m et haut de 4m. Dans la vallée de l'Oued Ellouz, à quelques 1,5 Km de l'Aïn Khanfous, se trouve l'abri à 554m d'altitude. La grande paroi du fond ne comporte plus que quelques figures. Au nombre de trois, ces figures ont une valeur toute symbolique. Peints en aplat noir, (comme à Khenifissa), trois personnages forment une scène. En habit et en mouvement, ceux-ci nous racontent une histoire : Celle d'une danse initiatique ou peut-être un rite chamanique, ou encore le récit d'une simple scène de combat. Le détail apporté au vêtement et à l'armement de la figure la plus imposante (18cm) marque son statut supérieur (Fig. 24). La position de soumission du personnage qui lui fait face ne fait qu'accentuer ce sentiment. S'il porte une tenue de combat (lance, bouclier), celle-ci n'est pas banale. La coiffe sur la tête et les plumes autour du cou semblent plutôt représenter un vêtement d'apparat. Le traitement des corps est par ailleurs fort ressemblant des personnages acéphales de l'Aïn Khanfous : bustes triangulaires, taille marquée, fessiers arrondis et jambes galbées. L'influence saharienne est indéniable. Nous sommes là en présence d'un cas exceptionnel de représentation où la dimension humaine prend toute son importance, aux dépends des animaux. L'aspect guerrier de l'homme est ici mis en exergue, nous sommes à une époque tardive de notre histoire.

La richesse du site du jebel Ousselat n'est plus à démontrer et, à ce stade de la recherche, encore une partie de la vallée de l'oued Ellouz, reste à prospecter. De plus, une partie des habitats présentés oralement au cours de ce Colloque n'ont pas été intégrés dans le présent article. Certes, attirer l'attention sur l'importance et la richesse des vestiges préhistoriques du site, contribue malheureusement à les mettre en danger, mais notre objectif est de tirer énergiquement la sonnette d'alarme, de sensibiliser les têtes pensantes, les autorités compétentes, les pouvoirs publics et les organismes internationaux du danger encouru par les stations rupestres de Tunisie. Nous insistons également sur le fait que, contrairement à ce que l'on a pu penser par le passé, le territoire tunisien n'a pas été oublié des artistes de la préhistoire, qu'il a été un lieu de passage et de rencontre de différentes cultures aux horizons divers. Il mérite donc qu'on s'y arrête et que l'on multiplie les recherches dans les zones montagneuses susceptibles d'abriter des cavités ornées.

le mausolée de *Sidi Ghrib*, puis les lieux-dits *Naguer El Halouf* et *Foum Khnaguet Et Allegue*, nous accédons à Oued Jmel. Toute la Gorge est nommée « Douhat Ejmel ». Une première série de peintures, exécutée à 12.5 m en partant du côté gauche de l'abri, occupe une position centrale. Les figures sont faites avec des traits épais et noirs. Un mètre plus loin environ, vers le côté droit de l'abri se trouve une troisième reproduction du même dessin (Fig.16). Ce sont ainsi trois figures pratiquement identiques qui se reproduisent. Il s'agit de personnages dont la représentation s'apparente aux dessins d'enfant, tête triangulaire, traits figurant les cheveux, buste rectangulaire, traits pour les jambes. Ceux-ci sont debout sur leur monture, tout aussi naïvement représentée. Au-dessus, on a dessiné un portique dont l'élément vertical est voûté et les éléments verticaux en forme de palmes. Sur le côté droit de l'abri nous pouvons voir d'autres figures de personnages sur un quadrupède. Ces dernières sont beaucoup moins nettes que les précédentes car la peinture s'est beaucoup estompée. Le style et le contenu des peintures (voûte du portique, représentations de palmes et de chevaux) nous autorisent à avancer un âge historique à la représentation et à l'attribuer à une société déjà islamisée.

Guelta el berda : Dimensions de l'abri : L= 16.72 m ; H = 2.30 m ; Profondeur = 3.40 m. En remontant encore *l'Oued Melg el Oudiane*, (direction Nord) nous arrivons au point repère de *Sidi Aïssa* (qui est à 715 m d'altitude) que nous dépassons sur une centaine de mètres vers l'est jusqu'au sommet du Jebel Ghissrane. Puis, redescendant le versant Nord sur 50 m environ, nous dépassons la station de gravures *Ghorfat er-Rmada*. La station *Guelta el berda* est à quelques 50 m seulement. C'est une véritable scène (Fig.17) qui se déroule sous nos yeux, faite à la peinture rouge. Au centre, un personnage plus imposant que les autres par la taille se tient debout, tenant à bout de bras un carré (peut-être une cage) dans lequel se trouve un autre personnage. L'ensemble est très grossièrement représenté, l'accent ayant été mis sur les bras qui sont exagérément longs. De part et d'autre, se placent deux autres figurations humaines montées, l'une sur un cheval (à gauche), l'autre sur un chameau (à droite). Tous deux brandissent bâton ou fusils. La figure de gauche, sans que l'on puisse l'affirmer, semble montrer que le cheval porte un tissu d'apparat à l'instar des férias encore pratiquées dans le désert. La queue est en effet longue et large. Un autre personnage, debout, maîtrise la monture d'un long bâton. Le sol est figuré par un trait horizontal.

D'autres figures encadrent la scène centrale : un personnage doté d'un grand bâton à l'extrémité courbe comme pour dompter le cheval dessiné un peu plus bas ; un volatile sur son perchoir ; un animal énigmatique et une palme. Ainsi, la représentation du palmier, du cheval et du chameau permet de dater sans erreur le panneau de la période historique, après le III° millénaire B.P. De plus, la figuration de l'oiseau et des attributs végétaux étant absente du répertoire de cette période, il pourrait s'agir de peintures d'époque encore plus récente, médiévale voire moderne.

La vallée de l'oued Ellouz : sur le flanc Nord du Jebel Ousselat.

Aïn Khanfous : l'Aïn Khanfous sourd dans une grotte qui ne comporte plus aujourd'hui que des inscriptions votives arabes. Au-dessus de la source se trouvent des abrupts calcaires de couleur rougeâtre appelés Kifan lahmor où l'érosion a creusé plusieurs abris alignés. L'abri le plus célèbre, occupe une position centrale. Plusieurs figures appartenant à des styles et des époques différents y sont peints mais aussi gravés :
Les personnages filiformes : ce type de figures est assez courant dans l'art rupestre d'Afrique du Nord. Il correspond à un style d'un réalisme assez frustre où l'on peut

Il se trouvait une troisième station

3- A droite de l'*Aïn Bourrime*, une source tarie et remplie de pierres, dans le lit l'oued. C'est là que se trouve un abri, sur la rive droite de l'*Oued Bourrime*. Celui-ci mesure quelques 5m de long et comporte une série de peintures grossières très dégradées. Parmi ces peintures, des figures d'animaux domestiques, d'hommes aux bras levés, tenant leur arc, ainsi qu'une série de ponctuations en ocre rouge foncé (Fig.12).

Ghorfat er-Rmada : Les dimensions de l'abri sont 41m de long ; 5,8m de profondeur ; 3,60m de hauteur. A la recherche de l'abri Bourrime, nous suivons l'oued *Melg el Oudiane*, (direction Nord) nous arrivons à un point repère qui est le marabout Sidi Aïssa (à 715 m d'altitude). On nous indique alors une station de gravures représentant des animaux de la grande faune tropicale, vivant aujourd'hui très loin de nos contrées. Cette station mérite qu'on s'y attarde un peu car elle est unique en son genre, la seule sur le territoire tunisien à contenir essentiellement des gravures. La paroi centrale (Fig.13) contient des gravures à section en V pour les plus larges. Elles représentent des animaux de la grande faune sauvage équatoriale : les rhinocéros, les bovidés comme les antilopes (Antilope *addax*, antilope girafe, *alcelaphus*). Nous y voyons aussi la faune domestique avec le canidé qui est le plus vieil ami de l'homme et des bovinés (bœufs). Des équidés (zèbre, cheval, ou âne), sont aussi présents en superpositions de gravures fines. Les personnages sont peu nombreux. Le *Théranthrope* (personnage irréel mi humain mi-animal) et des bergers sont représentés à droite des rhinocéros, mais aucun lien ne semble les lier à ces animaux. La paroi latérale (Fig.14) contient les gravures « libyco-berbères » (terme assez large pour englober les périodes protohistorique et historique). La technique est tout à fait différente et le grattage est utilisé pour représenter en « plein » les figures de cavaliers debout sur leur cheval. L'ensemble reste assez illisible à cause des superpositions de traits. Toujours sur la paroi latérale se trouve un troisième ensemble (Fig.15) de gravures figurant une scène à *priori* pastorale, marquée par la présence d'animaux domestiques comme le mouton, le suidé, ou le canidé. Néanmoins, les animaux sauvages n'y sont pas exempts et l'on retrouve le buffle antique (*Syncerus caffer antiquus*) ou l'antilope.

Les personnages représentés à leurs côtés n'ont toujours pas de lien direct avec eux et leur tournent parfois la tête (comme le Théranthrope).

À gauche de la scène principale, d'une incision plus fine, sont figurés des personnages vêtus d'une tunique laissant les épaules nues, tenue par une large ceinture. Ils portent à l'épaule un ou plusieurs bâtons. Le bâton, indispensable aux bergers, peut également s'avérer être une arme ou l'insigne de noblesse.

Les gravures de l'abri Ghorfat er-Rmada offrent de grandes ressemblances avec ce que l'on a pu trouver dans les régions de l'Atlas et le Sahara. Cela peut aider à des comparaisons chronologiques. De même, la présence de certaines espèces animales, aujourd'hui disparues à cause de l'aridification du climat, offrent de précieuses indications chronologiques. On peut ainsi situer les panneaux 1 et 3 précédemment décrits, à deux époques anciennes du Néolithique, dans une fourchette chronologique allant de 7000 à 4000 BP[2]. La présence du cheval sur le panneau 2 permet de le situer après 1500 av. J.-C. La fouille de la Rammadiya en contrebas de l'abri apportera certainement plus d'informations sur l'occupation de l'abri aux temps préhistoriques.

Oued Jmel : Dimensions de l'abri : L :29m ; Htr :3,90 ; prof : 2m du substratum ; prof du toit : 5m. L'abri se trouve sur le flanc méridional de Kef El Guitoune, en passant par

[2] B.P. : Before Présent, « avant le présent ». Le présent est fixé à 1950.

le sont également. Ce type de figurations en ponctuations fait partie d'un style bien particulier. Une station entière (Chendoub) lui est consacrée. Dispersées le long de la paroi, quelques figurations humaines et des signes, échapperaient presque à la vigilance de l'observateur. Une niche a été ébauchée à droite de la girafe (photo). Il n'est pas rare dans l'art rupestre, que la paroi présente des aménagements (niches, cupules) ou des traces de préparation (le bouchardage ou le polissage).

La deuxième étape de la prospection fut les quatre stations inédites publiées par J. Ben Nasr (2001). Outre l'abri Khenifissa, déjà cité, nous sommes allés à la rencontre des abris Oued Grabech (Dar el Mellah), Chendoub et Bourrime.

Deuxième étape de la prospection, la région de Chendouba

Chendoub : En suivant *l'Oued Araâr*, nous dépassons le Marabout *Sidi Bou Hadiba*, le *Bled en-Nobta*, village berbère en ruine et son cimetière sur la rive droite de l'oued. Le petit abri perché à 586m d'altitude, mesure 11,50 m de long, est orienté Ouest, bien protégé du vent du Nord et exposé aux rayons du soleil couchant.
Une série de ponctuations ainsi que de rares figures occupent le centre de la paroi du fond ainsi que la petite paroi latérale (Fig. 7 et 8).
Le choix de la paroi n'est pas anodin. Les ponctuations faites au doigt, suivent les imperfections de la roche, puis s'intensifient pour former des volutes. Le cercle dans les représentations rupestres a un sens symbolique fort. Il peut représenter l'Astre (le soleil ou la lune), la vie. Il symboliserait aussi l'enclos, l'habitacle (dans le sens poétique du terme) lorsqu'il est accompagné de figures humaines ou animales. C'est le cas des deux seules représentations figuratives reconnaissables que sont deux bovidés figurés dos à dos. Le sol sur lequel ils reposent est symbolisé par une ligne qui est reliée à un cercle de points.

Oued Grabech, Dar el Mellah : A quelques mètres de là, en direction du Nord et de l'oued Snouber, se trouve l'abri *Dar Mellah*, de dimensions moyennes (10m de largeur pour 4m de profondeur). La composition peinte en rouge foncé est très endommagée. L'Homme y est prépondérant, stylisé à l'extrême à l'instar des dessins d'enfants. Ce type de représentation est très courant et peu propice à une datation relative. Les personnages forment des groupes de deux ou trois, se tenant par la main (Fig. 9). On pourrait y voir une scène familiale où le père (dont le sexe est apparent), la mère et l'enfant (de plus petite taille) se tiennent par la main. L'animal semble absent de la composition si l'on excepte une figure, très peu distincte, qui pourrait représenter un quadripède. Deux figures se distinguent par leur taille imposante, celles de deux personnages armés (Fig.10). Le premier brandit une sorte de gourdin tandis que l'autre, bras largement écartés, tient ce qui pourrait être des lances.

Le Jebel Ghissrane, Bourrime : Près du marabout Sidi Aïssa (715 m d'altitude), nous redescendons vers l'oued Bourrime qui prend naissance à l'endroit même où se trouvent les peintures rupestres. Il s'agit d'une gorge faite d'abris creusés dans le calcaire. Deux stations rupestres étaient signalées. (J. Ben Nasr, 2001)
1- Sur la rive gauche de l'oued Bourrime, un grand abri orienté sud, et contenant une seule figure celle d'un grand bovidé (Fig.11) (au corps de cheval), d'un réalisme figuratif.
2- lui faisant face un abri où sont figurés des signes en forme de ponctuations et de bâtonnets

Première étape de la prospection

En venant de Haffouz, nous avons choisi de suivre les rives de l'Oued Chara sur le flanc sud-est du Jebel Ousselat, en longeant le Kef el-Guitoune.

Kef el Bhim (Oued Chara de l'Atlas préhistorique) : Abri-sous-roche peint de 11,90m de long et 3,40m de haut. Les figurations s'organisent au centre de la paroi qui forme le fond de l'abri. Nous y retrouvons des peintures rouges violacées, de « styles » différents (fig. 1 et 2) et quelques gravures :

- Le « style saharien »
- Les personnages filiformes
- Le « figuratif naïf »
- Les traits et ponctuations
- Les gravures

Toutes ces figurations, pouvant appartenir à des cultures différentes, se côtoient sans se superposer. La desquamation de la roche et l'intensité de la couleur, parfois le style, peuvent nous aider à avancer une chronologie relative.

Aïn Thamda : À quelques pas de là, près de la source du même nom, se trouve un petit banc de calcaire creux comportant des gravures ainsi que de petites cavités peintes. En remontant vers le Nord-Est l'*Oued Majel*, nous dépassons le barrage en pierres dressées et les ruines d'un village, *Bled Khenifissa.* L'abri est un peu plus haut, sur la rive droite.

Khenifissa : Il s'agit d'un petit abri signalé par J. ben Nasr (2001), de 5m de long sur 2m de hauteur. Le plafond est peint de cinq signes en « étoiles » (Fig.3) de couleur noire dont quatre sont groupés à peu près au centre du plafond, le dernier est isolé. L'observation minutieuse de certaines de ces figures nous fait penser à des personnages (Fig.4). D'autres figures ont du être effacées ou détruites car la paroi est en très mauvais état de conservation. Les peintures noires sont rarissimes dans le corpus relevé dans le Jebel Ousselat puisque la grande majorité d'entre elles sont de couleur rouge foncé à violacé.

Damous el Ghoula : (inventorié sous le nom de Oued Majel 2 dans l'Atlas Préhistorique, feuille 11 de Kairouan).Tout en remontant vers l'est, à 2 km du précédent abri, en suivant les rives l'Oued Glâa, se trouve le quatrième site dénommé *Damous el Ghoula.* Grotte profonde, orientée vers l'Est et formée de deux chambres en enfilades, de tailles inégales. Malheureusement, l'occupation actuelle et les feux de bois allumés par les bergers, ont recouvert les parois de suie. Si des peintures avaient existé, elles ne seraient plus visibles.
On ne retrouve que des gravures contemporaines (Fig.5). La grotte a été occupée durant les périodes préhistoriques si l'on en croit les silex taillés et les pierres brûlées jonchés sur le sol cendreux. C'est une ancienne rammadiya (habitat néolithique) très lessivée et en partie bouleversée par l'érosion (le sol est en pente) et les occupations successives.

Kef Ezzaga (oued Majel 1 dans l'Atlas Préhistorique ; feuille 11 de Kairouan, 1998) : Grand abri-sous-roche de quelques 15m de long. L'abri est orienté sud-ouest. La voûte est fréquentée par les oiseaux (d'où son nom). Il s'agit d'un panneau unique comprenant une figure principale, une grande girafe (Fig. 6) de près d'un mètre de hauteur, réalisée par une série de ponctuations rouge foncé faites au doigt. Seule la tête est dessinée avec beaucoup de réalisme. La girafe semble attachée par la tête avec un long lien. Ses pattes

Stations rupestres et habitats préhistoriques du Jebel Ousselat : résultats préliminaires de plusieurs missions de prospection

Sophie Yahia-Acheche
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan

Depuis les premières découvertes en 1988 par Alix Martin (professeur de l'Éducation Nationale française) et leur publication[1], les prospections ont repris dans le Jebel Ousselat en 2001 dans le cadre d'un mémoire de DEA puis d'une thèse de Doctorat (Jaâfar ben Nasr). La problématique de Ben Nasr, qui est associé à ce projet, est de comprendre l'occupation humaine durant les périodes pré et protohistoriques dans la région.

Fin 2004, Mme Nabiha Aouadi-Abdeljaouad, paléontologue et préhistorienne à l'INP et moi-même, suivons les traces de nos prédécesseurs et repartons à la découverte du Jebel Ousselat préhistorique. Notre problématique était toute autre, il s'agissait au départ de visiter les stations rupestres signalées pour les intégrer dans l'inventaire du patrimoine archéologique de Tunisie et de nous rendre compte de leur état de conservation.

Le constat a été alarmant, la dégradation naturelle des patines, le phénomène de desquamation de la roche mais aussi et surtout le vandalisme anthropique font disparaître ce patrimoine. Devant la richesse insoupçonnée du Jebel Ousselat en art rupestre le projet de Nabiha Aouadi est aujourd'hui, en associant tous les intervenants, spécialistes en art rupestre, préhistoriens et géomorphologues, de faire un rapport complet et détaillé sur ces vestiges archéologiques témoins de notre plus lointain passé afin d'œuvrer à leurs protection et conservation.

Présentation du Jebel ousselat

Située dans la région de Kairouan, la région prospectée est l'imposant massif du Jebel Ousselat qui constitue l'un des chaînons de l'Atlas tunisien. Il fait partie de la chaîne Nord-Sud qui se raccorde à la Dorsale tunisienne. Du haut de son point culminant, le Jebel Chaïeb (895m), s'étendent les plaines de Ousselatia et de Merguellil à l'Est, la plaine de Kairouan à l'Ouest et la dépression de Haffouz au Sud. L'occupation humaine dans la région est très ancienne puisqu'elle remonte au Paléolithique inférieur. Elle perdurera sans discontinuer jusqu'aux époques historiques. Si le jebel Ousselat est tristement célèbre pour les évènements de révoltes et de répression qu'il a abrité depuis le XI°siècle, son passé préhistorique en revanche est moins connu.

La prospection entreprise depuis la fin 2004 a commencé par le repérage des stations déjà répertoriées en 1988 afin de nous familiariser avec le terrain et d'enquêter auprès des derniers occupants du Jebel. Dans l'état actuel de nos recherches, les stations rupestres se répartissent selon trois régions (Carte) : le kef el Guitoune, Chendouba, la vallée de l'Oued Ellouz (flanc nord du jebel).

---

[1] *Atlas Préhistorique*, 1998 ; Gragueb (A.), 1988.





Photo 5 : Une vertèbre caudale

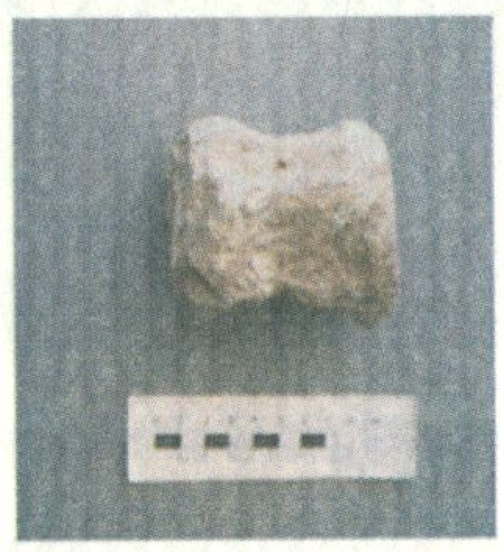


Photo 6 : Une autre vertèbre caudale



Photo 7 : Les trois vertèbres caudales ensemble



Photo 3 : un sondage de 2m sur 2 m a été ouvert dans la zone de la découverte



Photo 4 : un autre fragment osseux fossilisé découvert un peu plus loin.

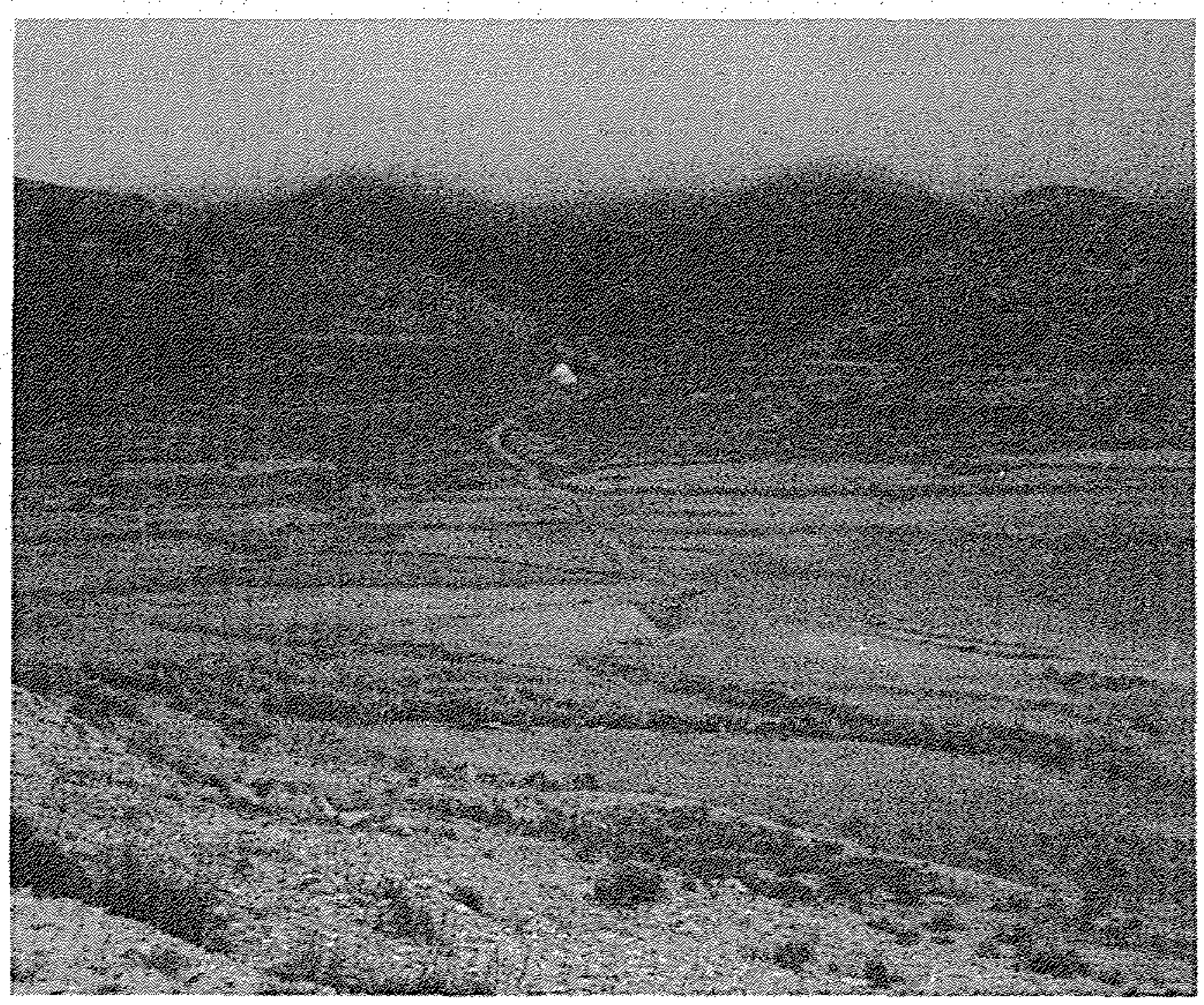


Photo 1 : Vue générale de la région de Mtabaa

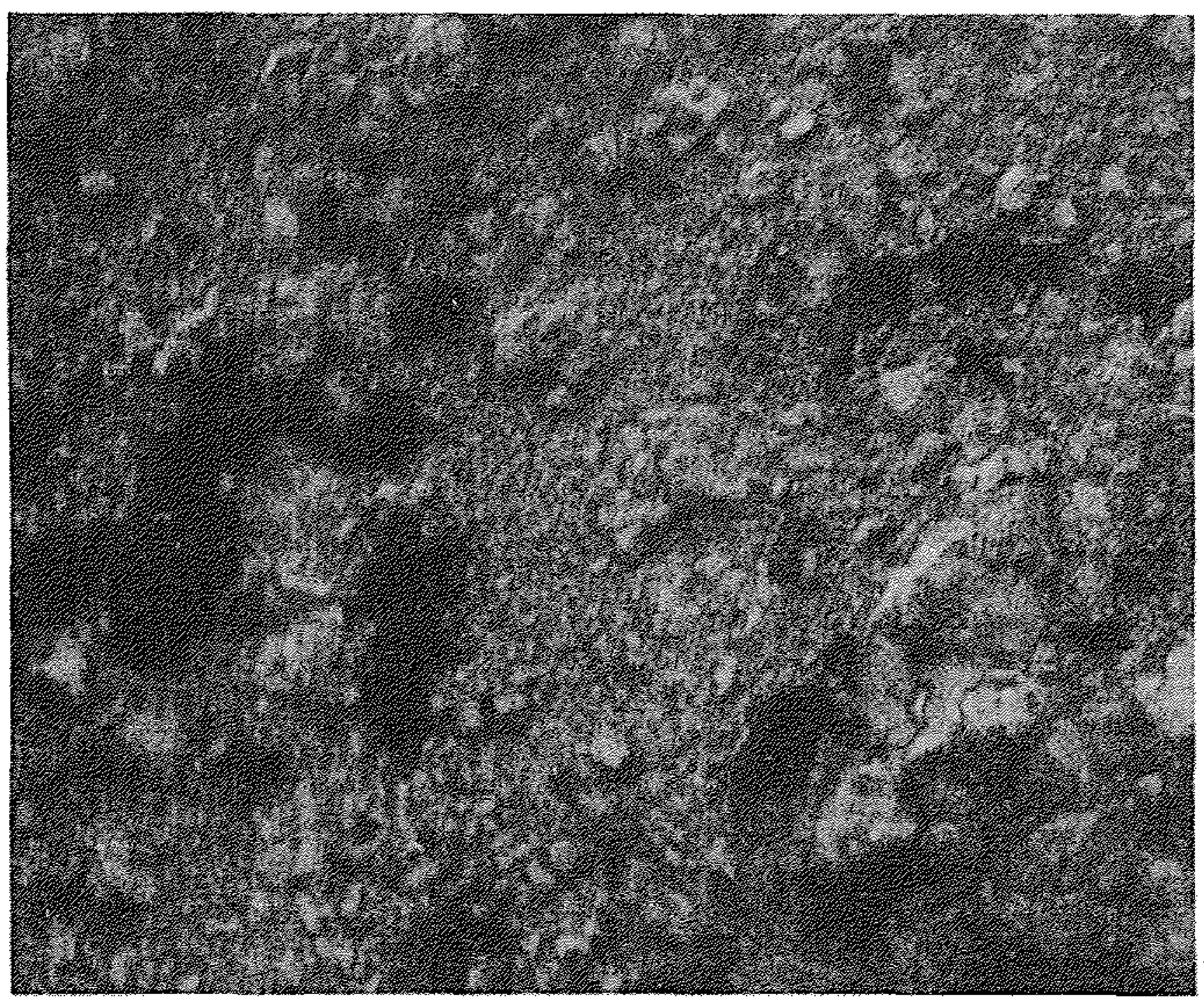


Photo 2 : La formation Souar

renferme une modeste collection d'ossements de crocodiles et de tortues. Les spécimens du musée ont des dimensions nettement inférieures par rapport à ceux de la région de Mtabaa. Les vertèbres caudales les plus grandes du Musée correspondent aux plus petites de notre lot.

Nous étions voir les restes de reptiles trouvés dans le sud tunisien, plus exactement les restes de Jebel Mitour dans la région de Tataouine, dans l'espoir d'en faire des comparaisons. Les restes osseux sont exposés dans un petit musée conçu et subventionné par l'association des amies de la terre à Tataouine. Malheureusement les vertèbres sont rares à l'exposition.

IV- Conclusion

Certes la découverte d'une telle série d'ossements de reptiles (probablement des crocodiles) d'âge Eocène en Tunisie centrale est d'une extrême importance sur le plan chronologique et paléogéographique. Cependant les recherches dans la région vont se poursuivre dans l'espoir de retrouver des restes crâniens en stratigraphie indispensables pour toute identification spécifique.

notamment des restes crâniens. Malheureusement aucun os n'a été repéré en stratigraphie et aucun reste crânien n'a été identifié.

II- Analyse

Dans notre lot, nous avons trois vertèbres entières et beaucoup de fragments vertébraux. Tous appartiennent à des animaux adultes. Nous remarquons une différence au niveau de la coloration des vertèbres. Certaines sont blanchâtres, d'autres (notamment les dernières découvertes) sont jaunâtres.

Les mensurations des vertèbres sont celles d'individus géants. Les traits anatomiques des vertèbres sont présents indiquant un faible transport (os non roulés ou émoussés).

La pièce N°1 (la vertèbre caudale complète) est de même couleur que les autres vertèbres parvenues au laboratoire (couleur blanchâtre). Les autres fragments sont plutôt jaunâtres.

Les mensurations de certaines vertèbres :

Vertèbre N° 1

Longueur du corps vertébral = 157.8 mm

Diamètre de la face vertébrale (tête ou fosse) =111.9 mm

Vertèbre N° 2

Longueur du corps vertébral = 169.9 mm

Diamètre de la face vertébrale (tête ou fosse) ≈ 108.2 mm (vertèbre brisée en deux).

Vertèbre N° 3

Longueur du corps vertébral = 84.8 mm

Diamètre de la face vertébrale (tête ou fosse) =84.08 mm

Vertèbre n°7

Longueur du corps vertébral = 149.4 mm

Diamètre de la face vertébrale (tête ou fosse) = 105.3 mm

III- Age géologique et comparaisons

L'Eocène en Tunisie centrale est composé de deux ensembles : un ensemble inférieur : c'est la formation Bou Dabous formée de calcaire yprésien riche en Nummulites. Un ensemble supérieur : c'est la formation Souar. Cette formation est composée d'alternance d'argile schisteuse et de calcaire à Nummulites. Généralement, la formation Souar succède la formation bou Dabous. La formation Souar est d'âge Eocène terminal (Lutétien à Priabonién). En terme paléogéographique il s'agit d'un milieu margio- littoral à margio- continental.

La détermination spécifique et même générique des os de crocodile est fondée fondamentalement sur des caractères mandibulaires (mâchoire inférieure).

Comme espèce crocodilienne dans les bassins de phosphates de Gafsa nous avons l'espèce : ***Dyrosaurus phosphaticus*** (Thomas 1893). La formation Metlaoui (fin du Paléocène et début et moyen de l'Eocène) est connue particulièrement par ses niveaux phosphatés. La famille *dyrosauridae* (crocodiles marins) est décrite pour la première fois par ***Stefano*** en 1903 sur des échantillons osseux de l'espèce ***Dyrosaurus phosphaticus*** venant de la Tunisie. Cette famille a été bien répandue durant la fin du Crétacé (Cénomanien) et jusqu'au Lutétien en Afrique du Nord (Tunisie, Algérie, Maroc..).

Une première comparaison avec les vertèbres caudales des reptiles –crocodiles des bassins de phosphates a été faite. Le Musée de l'Office des Mines à Metlaoui

Découverte d'une série inédite d'ossements fossiles dans la région de Oueslatia (Kairouan, Tunisie)

Nabiha Aouadi-Abdeljaouad
Institut National du Patrimoine - Kairouan

Résumé

Une série de vertèbres caudales a été découverte dans la région de Mtabaa à Jebel Rihane (Kairouan). Une grande partie des ossements appartient à une queue de crocodile adulte. Toute la collection est en très bon état de conservation et de fossilisation. Il s'agit principalement d'une série de vertèbres caudales dont certaines pourraient être en connexion anatomique. La formation géologique livrant ces ossements est la formation Souar. L'âge probable du lot est l'Eocène terminal (entre 46-36 Ma).
Mots-clés : Eocène, Mtabaa, Ouesslatia, Kairouan, Tunisie, reptiles, restes osseux.

I- Découverte et retrouvailles

Lors d'une séance de cour de Paléontologie donnée à la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan, une étudiante en quatrième année archéologie (qui s'appelle Mouna Abdaoui et native de Ouesslatia) nous a présenté une série d'ossements pour l'identification.

Il s'agit de deux vertèbres caudales complètes et de la moitié d'une autre vertèbre caudale. D'autres fragments osseux nous ont été livrés par la même personne ultérieurement. A première vue, les vertèbres nous ont paru d'une grande taille et peu habituelle. Elles appartiennent toutes à un animal adulte (les plaques vertébrales sont soudées avec le corps de la vertèbre) et probablement la majorité sont celles de la queue du même animal.

Nous avons fait une sortie de terrain dans le but de bien localiser ces trouvailles et d'essayer d'en trouver d'autres. Malheureusement le jeune homme, qui au cours du labour de son terrain a découvert ces ossements, n'été pas présent le jour de notre sortie. Une prospection dans la région n'a rien donné. Nous avons alors décidé d'y retourner et d'effectuer une deuxième sortie dans la région de Mtabaa. Cette fois ci, et en compagnie du propriétaire de la parcelle de terrain agricole, des restes osseux de grande taille ont été découverts. C'est dans la même parcelle de terrain que des vertèbres caudales affleurent à la surface du sol arable. Une vertèbre caudale (semblable aux précédentes) a été retrouvée de chant sur la terre à une vingtaine de mètres de deux autres pièces (en direction vers le Nord) qui s'avèrent être aussi des vertèbres caudales probablement de la queue du même animal. Un autre fragment a été repéré affleurant lui aussi plus haut sur la pente.

Un sondage de 2 mètres sur 2 a été ouvert afin de pouvoir identifier la stratigraphie du lieu de la découverte et d'y retrouver d'autres restes fossilisés

ce qu'il s'agit d'une « bourgeoisie » citadine que la campagne intéressait rarement ou peu

Qu'en est-il alors des paysans ?

Une autre différence est à souligner entre les sociétés rurales du moyen age et de l'antiquité. Car il ne faut pas oublier aussi que la société rurale à l'époque romaine se composait de citoyens libres qui disposaient de propriétés individuelles que la notion de famille au sens réduit est majoritaire et très différente de la notion tribale de la famille à l'époque médiévale et chez les arabes en particulier et les tribus berbères alliées des dynasties arabes installées dans la région et qui ont eut à vivre sur ces terres de l'arrière pays du Kairouan.

Cette structure tribale probablement dominante a fait que la propriété des terres est plutôt collective surtout des terres pauvres plutôt bonnes aux pâturages et aux parcours

Pendant l'époque islamique, la société rurale est généralement à structure tribale et la propriété est collective ce qui favorise la mobilité et n'encourage pas la fixation et les constructions en dur d'autant plus qu'on est dans une région où les roches dures font défauts et rares, Ce qui explique la rareté des vestiges datables de ces périodes. Cette sous occupation est confirmée pour nous par l'absence des mosquées ce qui est étonnant, car ce type de monuments aurait subsisté s'il avait un jours existé en milieu rural.

Ce qui fait que cette région vu la faiblesse de son potentiel naturel (pauvreté des sol et absence de nappe) son isolement relatif ne fut pas convoité ni occupé comme la région à l'ouest de Kairouan, elle a certainement été occupée par des populations nomades ou semi nomade et si construction d'un habitat eut lieu, elle le fut avec des matériaux périssables. Ce qui confirme pour nous cette faiblesse de l'occupation.

L'objet de cette communication etaitt de présenter les données récoltées puisque les inventaires ont été publiés, ceux-ci confirment le déséquilibre de l'occupation entre les périodes. En deuxième lieu d'essayer de l'expliquer en présentant les différentes hypothèses, parmi lesquelles la continuité et l'absence de coupure.

	Sidi El Hani	Oued Cherita
Sites	120	176
Céramique	19 (5)	13
Cimitières	5	30
Mzar	14	36

Ce sont ces bassins (27 à Sidi El Hani 38 à Oued Chrita)et citernes nombreuses (17 à Sidi el Hani 20 à Oued Chrita) dans la région qui par leur forme et leur architecture en général, ont créé un doute sur leur chronologie.

Pour Solignac ils remonteraient à l'époque du Moyen Age et pour nous ils remontent à l'Antiquité sans aucun doute, sans toutefois exclure la continuité de leur usage et de nouvelles constructions après l'Antiquité ce que confirment ceux de la ville de Kairouanles.

Le doute sur la chronologie de ces monuments hydrauliques est venue des bassins des Aghlabides à Kairouan où il y a un texte et une chronologie certaine alors pour certains auteurs tous les bassins circulaires ayant des contreforts existant dans la Tunisie centrale sont datable de la même période que ceux de Kairouan par la simple similitude des formes est de l'aspect.

Pour trancher cette question il aurait fallu procéder à des sondages de fondations et établir une chronologie, personne ne la fait à ma connaissance. Nous les attribuons à l'Antiquité romaine au moins pour la grande majorité pour les raisons suivantes :

D'abord dans les zones étudiées (la région de Gafsa et ici au Sahel) nous avons constaté que les sites où se trouvent ces bassins sont en totalité des sites comportant des monuments antiques comme des thermes Avec des traces d'hypocaustes (064 043 064065 ; el kandar 072053), des mausolées (072049 et 072081) des nécropoles que l'on a retrouvés avec des tombes violées par des fouilles clandestines et des pavements de mosaïques (Hmadet Tarfia 072051 Henchir ben Demia 072 057 baptistère), ce qui permet de les attribuer sans conteste à l'Antiquité.

En effet nous avons répertorié 27 bassins à Sidi el Hani et 38 à Oued Chrita ces monuments se trouvent toujours sur des sites où l'on a retrouvé de la céramique antique et rarement de la céramique d'époque islamique et toujours en présence de la sigillée en plus de monuments antiques déjà cités.

Mais ce n'est pas par ce que ces monuments remontent à l'Antiquité, et une rareté des indices de l'occupation datable après cette période que l'on peut affirmer que cette région a été complètement abandonnée au Moyen Age, au contraire nous pensons que l'occupation s'est poursuivie ou plutôt a repris d'une manière de manière différente.

Elle a été moins intense d'abord, il ne peut s'agir vraiment de l'arrière-pays de Kairouan à cause des oueds qui séparent cette ville de cette région de l'Est donc les habitants de Kairouan et ses gouvernements se sont dirigés plutôt vers l'ouest de la ville vers les zones non inondables et plus riches en eau de qualité et toujours accessibles sans problème, c'est ce que est confirment les recherches de Mr. Mrabet qui a procédé à la prospection et l'étude de cette région et qui sont en cours de publication.

Une autre explication de cette différence de l'intensité de l'occupation nous la soupçonnons dans la différence entre la société de l'antiquité et celle des périodes postérieure. En effet la société urbaine musulmane est différente de la société urbaine de l'Antiquité où la propriété de la terre et la production agricole est la première source de richesse de la bourgeoisie municipale antique. Les sénateurs ou les édiles municipaux possédaient des domaines qu'ils occupaient dans la campagne, ils y habitaient et construisaient des villas luxueuses avec des thermes etc.

Tandis que les personnages importants de Kairouan ce sont les notables (fonctionnaires, et riches commerçants ou artisans. Et même les Arabes venus d'orient ne venaient pas pour acquérir des terres et devenir des paysans mais pour d'autres raisons, essentiellement militaires, administratives ou culturels (répandre l'islam par l'enseignement). Même ceux qui chercheraient à occuper ou s'emparer des terres le feraient dans une région plus fertile et beaucoup plus pourvue d'eau. Ce-ci peut expliquer l'absence de construction luxueuse dans la campagne durant ces périodes par

considérer comme toponyme d'origine. Avec qu'on peut aussi considérer comme toponyme d'origine puisqu'il s'agit d'adjectifs.

Cette faiblesse numérique des toponymes qui ne soient pas des adjectifs car la plupart des 106 toponymes recensés est constituée de noms de personnes (Hamdane 064055 ; Touhami 072060), d'objets (Il Hjira 064070 ; Delou 072145) ou d'adjectifs (El Maksouma 064070, El Rahma 072040) El Zaafrana, El Ahimer) précédée des mots Birs ou Henchirs ou des noms de marabouts précédés de Sidi donc on peut supposer une absence ou une extrême rareté d'une véritable toponymie signifiant une permanence de l'occupation. Déjà tous les toponymes avec sidi ne peuvent remonter aux premiers siècles de la présence islamique et doivent remonter aux périodes de l'apparition du maraboutisme

Au niveau de la toponymie conservée on constate également la disparition de la toponymie antique de la mémoire des habitants et le peu qui nous est parvenu l'a été par l'épigraphie ou les sources anciennes Vicus Augusti est le seul connu de toute cette région.

Une véritable occupation permanente aurait forcément abouti au maintien d'une grande partie de la toponymie antique comme on le voit bien dans beaucoup de régions de la Dorsale toute proche. Ce qui signifie à ce niveau pour notre région une véritable coupure entre l'Antiquité et le Moyen Age qu'il faut expliquer.

L'examen de la toponymie de notre région permet de constater l'absence d'une toponymie spécifiquement arabe (Comme Kairouan ; Raqqada el Abassia) ce qui est significatif car il confirme l'hypothèse d'une coupure après l'Antiquité.

Quel est le problème alors ?

Le rapport entre sites datant des périodes Moyens Age et Modernes et ceux datant de l'Antiquité est en faveur de ces derniers et qui sont de loin les plus nombreux.

Il y a d'abord l'indigence manifeste des vestiges et surtout des monuments qu'on peut attribuer sans problème à l'époque du moyen Age. L'occupation de cette région à l'époque médiévale est certaine par la simple logique de la proximité de la ville de Kairouan, en plus en archéologie, l'absence de preuve n'est pas une preuve.

Le vide de la région est impossible, mais la faiblesse des vestiges dans cette région à l'Est de la ville de Kairouan qui est certaine, s'explique facilement par d'une part la nature de la région et le changement dans le mode d'occupation.

La région se caractérise par l'absence d'affleurement de roche dur comme le calcaire ce qui a rendu les constructions en dur assez rare même pour l'Antiquité.

On a constaté pour l'Antiquité une utilisation des constructions en terre ou en brique, en produit périssable. Ce qui s'est poursuivie probablement après.

La présence des sebkhas qui occupent de grands espaces de la région, la mauvaise qualité des sols souvent impropre à l'arboriculture car cet arrière-pays de Msaken sert d'après les habitants à la culture de l'orge et pas à l'olivier et c'est ce que l'on constate effectivement en prospectant cette région

D'autre part l'obstacle que constitue l'Oued Zeroud entre la métropole et son arrière-pays de l'Est explique aussi cette faiblesse de l'occupation on ne voulait pas occuper une région qui peut être isolée de la métropole.

L'absence d'une nappe phréatique accessible avec les moyens traditionnels a fait que le problème de l'approvisionnement en eau a été un problème permanent pendant toutes les périodes historiques. En effet, les habitants de ces régions dans l'Antiquité ont dû pour résoudre ce problème recourir à la construction de nombreux bassins et citernes.

Ce sont là les mots-clefs qui pourraient signaler la présence d'une occupation poste Antiquité bien que la chronologie de ces éléments indique en gros les époques moderne et contemporaine comme pour les mzars ou les cimetières.

Quelle signification, peut-on donner à l'existence dans une région de 19 sites renfermant de la céramique d'époque islamique et comptant 120 sites archéologiques ? Il s'agit de la feuille de Sidi El Hani. A Oued Chrita on a recensé 13 sites seulement contenant de la céramique dite islamique sur 176 sites. Ce-ci donne le rapport suivant : 1/ 6 seulement pour la première et 1/13 pour la seconde. Donc on aboutit à la conclusion que la majorité des sites remonte à l'Antiquité. Ce qui pose des problèmes d'interprétation y a t'il une coupure de l'occupation dans cette zone entre l'Antiquité et les autres périodes, ou s'agit'il plutôt d'un simple changement du mode de l'occupation après l'Antiquité ?

Les cimetières modernes sont sans conteste un élément d'occupation, on constate qu'elles sont plus nombreuses à Oued Chrita (30) comparées à 5 seulement à Sidi El Hani ce qui correspond à la même proportion de site avec de la céramique islamique à Sidi El Hani 1 site sur 5. Nous pensons qu'il s'agit de la même intensité d'occupation entre les deux feuilles car, la différence entre le nombre de cimetière s'explique par les traditions et les pratiques funéraires de Sidi el Hani et de Oued chrita.

C'est d'abord le souhait des défunts de se faire enterrer à Kairouan près de la tombe du compagnon du prophète. Comme la région de Sidi El Hani est plus proche de Kairouan les cimetières sont donc moins nombreuse car on peut accéder à la ville sainte dans un temps relativement court et d'enterrer les défunts sans problème tandis que de la zone de Oued Chrita la distance fait obstacle à cette pratique.

Les cimetières inventoriés à Sidi El Hani sont pour la plupart, des cimetières d'enfants (par ce que ceux-là iront directement au paradis et n'ont pas besoin de l'intervention du compagnon du prophète). Nous voyons que nous sommes bien dans l'arrière pays de Kairouan, et nous avons là la première explication sur l'absence de cimetière ou leur rareté. Ce là ne peut être considéré comme une preuve de l'absence d'occupation car il y a une population et qui se fait enterrer ailleur.

L'examen ou l'interprétation des chiffres concernant le mot mzar apporte un éclairage particulier. Car ce lieu de culte est et sans conteste une preuve d'une présence permanente d'une population. Mais il n'ajoute rien à notre démonstration car ce sont les mêmes proportions ; 14 à Sidi El Hani et dépassant de peu le double à Oued Chrita (36). On constate une concordance entre le nombre des mzars et des cimetières à Oued chrita ce qui n'est pas le cas à Sidi El Hani à cause des pratiques funéraires.

Une occupation plus importante à Oued Chrita qu'à Sidi el Hani apparaît à toutes les périodes.

L'examen de la toponymie des deux feuilles peut nous donner un éclairage sur l'occupation, la liste des toponymes est significative. Parmi les 106 toponymes recensés à Oued Chrita et Sidi el Hani rare sont ceux qui semblent étrangers à l'arabe ce qui confirment l'arabisation totale de la toponymie de ces régions et qui irait dans le sens d'une coupure totale avec l'Antiquité.

Mais cette toponymie entièrement arabisée pose problème car la plupart des toponymes sont précédés des mots Sidi, Henchir ou Bir donc on ne peut dire qu'il s'agit de toponyme d'origine, Ce sont des toponymes attribués.

En effet, peu de toponyme ne semble pas à première vue ne pas provenir de l'arabe comme : Kandar, Zlifa, Zamzouk, Muadla, Bamia, El Gharnouz, Hatha, Kouamir Sekriouha, Kroussia, Zerdoub, Kneis, Khazazia. Sont les seuls qu'on peut

L'occupation humaine à L'Est de la ville de Kairouan d'après les résultats de la carte archéologique

Sadok Ben Baaziz
Institut National du Patrimoine - Tunis

L'équipe du projet de la Carte Archéologique[1] a réalisé la prospection de la région située à l'Est de la ville de Kairouan, région couverte par les feuilles au 1/50000 de Sebkhat el Kelbia 053[2], Sidi el Hani 064[3], et de Oued Chrita 072[4].Ces feuilles constituent l'arrière pays de Kairouan du coté Est. Les résultats de cette prospection n'ont pas répondu à notre espoir de retrouver suffisamment de vestiges que l'on peut attribuer à l'époque islamique, car on s'attendait à en trouver suffisamment d'autant plus que l'on est à 10 Km de la capitale du pouvoir islamique au Maghreb, la ville de Kairouan.

On était intrigué car on souhaitait dresser un tableau sur le milieu rural après l'Antiquité, tableau qui serait basé sur des données matérielles et non seulement sur des textes ; d'autant plus que cette enquête a été menée après celle de Gafsa. Cette dernière aussi n'a pas donné les résultats escomptés pour confirmer ce que rapportent les sources et les textes.

Les deux feuilles situées à l'Est de Kairouan et qui ont fait l'objet de prospection et dont les résultats sont disponibles sont celles de Sidi El Hani et de l'Oued Chrita. Ces deux feuille couvre un rectangle de 30 Km de longueur Est-Ouest et de 40 Km Nord-Sud donc le point le plus éloigné à l'Est se trouve à environ 40 Km Notre analyse traite de cet espace seulement. Pour essayer d'expliquer ces constatations voyons d'abord les résultats de cette prospection : À Sidi El Hani 120 sites toutes périodes confondues ont été recensés. À Oued Chrita, notre collègue Mohammed Kheredine Annabi a inventorié 176 sites remontant à toutes les périodes chrono culturelles.

En consultant les indices établis on constate que :
La céramique islamique a été signalée dans 19 sites à Sidi el Hani dont 5 sites avec une céramique verte, et dans 13 sites à Oued Chrita.
Le mot cimetière islamique (s'entend) à été cité 5 fois à Sidi El Hani, et 30 cas à Oued Chrita
Le mot mzar 14 fois à Sidi El Hani, 36 fois à Oued Chrita.
Le mot Borj a été cité 2 fois à Oued Chrita et une fois à Sidi El Hani.
Une coupole.
Trois marabouts.
Un masjid.

---

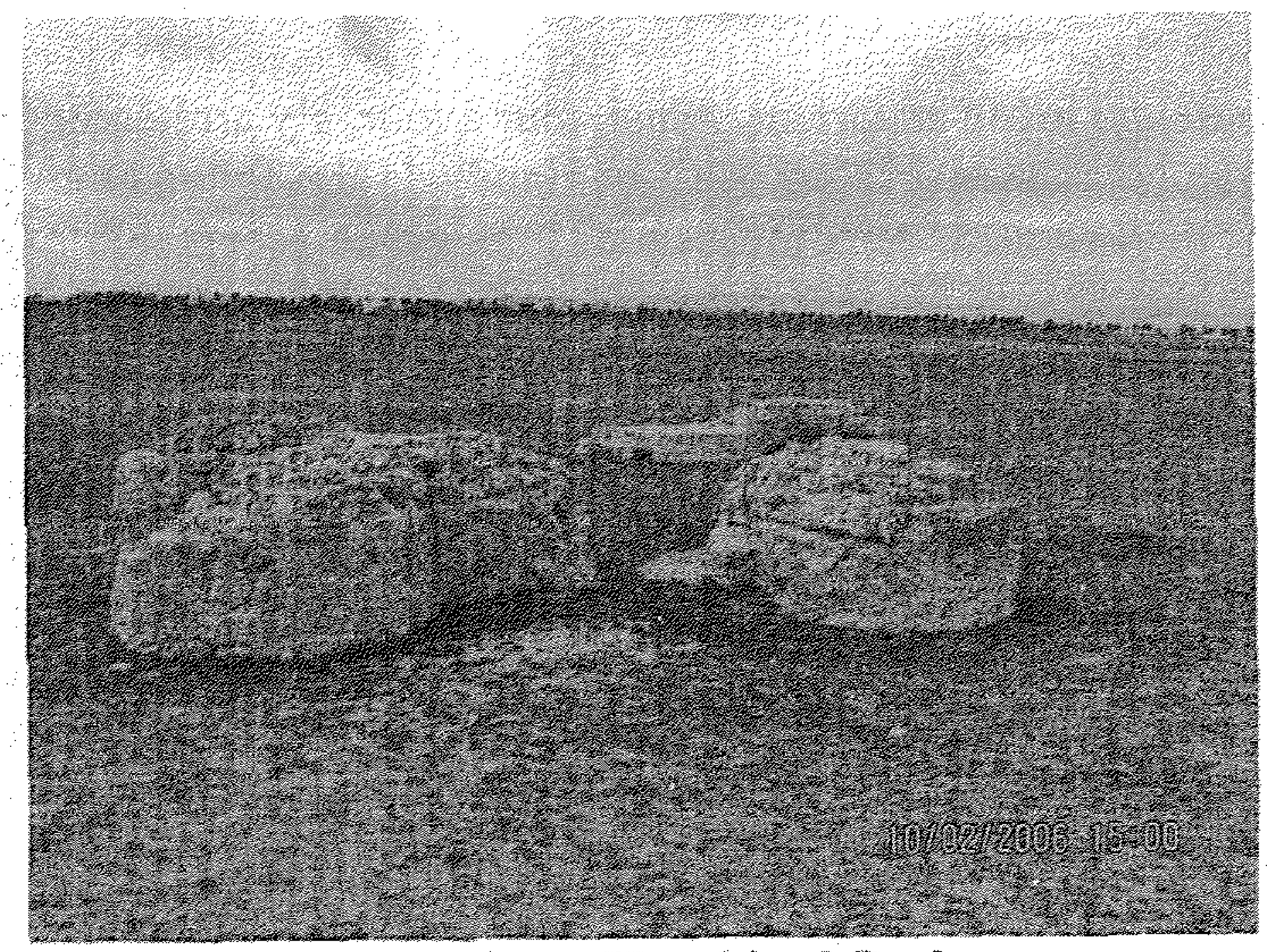
[1] Carte Nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Decret du 2 Aout 1992.
[2] Cette feuille a été prospectée par A. Antit
[3] *Carte Nationale des sites archéologiques et des monuments historiques. feuille de Sidi El Hani O64*, Tunis, 2000, par Ben Baaziz Sadok.
[4] *Carte Nationale des sites archéologiques et des monuments historiques. feuille de Oued Cherita*, Tunis, 2000, par Mohamed kherredine Annabi

sur la grande route qui mène en Orient. Ainsi, tour à tour, s'y arrêtèrent Okba en 674 ap. J.-C., Moussa ibn Nusayr en 713 ap. J.-C. et Handhala ibn Safouan en 741 ap. J.-C ! . Un relais si près de Kairouan, deux milles plus loin, est-ce acceptable ? Qu'en disent les géographes spécialistes des *Masalik* ? Al-Bekri, il est vrai ne mentionne pas Qasr el-Ma ; toutefois, il rapporte que « le voyageur qui part de Cairouan pour se rendre en Egypte sort par la porte de la broderie et laissant la ville à gauche, il passe entre Raqqada et El-Kasr. Alors, il rencontre oued Essaraouil torrent qui ne coule qu'en hiver puis il traverse El-Monia el-Maaroufa, bourg grand et bien peuplé. Ensuite, il arrive à Zerour, village qui abonde en légumes et surtout en carottes ... »[41]. De quel Qsar s'agit-il ? Quelques lignes plus haut, il est vrai, le géographe andalous, donne description d'el-Qasr el-Qdim ; s'agit-il de cette même fondation d'Ibrahim ibn al –Aghlab, c'est à dire el-Abbassiya dont on sait qu'elle se trouvait à deux milles de Qairouan ? Dans ce cas pourquoi vient-elle – dans le texte - après Raqqada qui, elle, se trouve à 6 milles plus loin dans la direction indiquée [42]?

Il est à noter aussi que le site d'El-Ksar / Chebika est connu de Solignac qui, sans doute à cause de la mention Kasr el-Ma sur la carte d'Etat-Major, élude la difficulté en proposant l'identification d'el-Ksar avec Kasr el-Khier, autre toponyme que le même al-Bekri place sur l'axe Sbiba –Kairouan en passant par Mammès [43]...

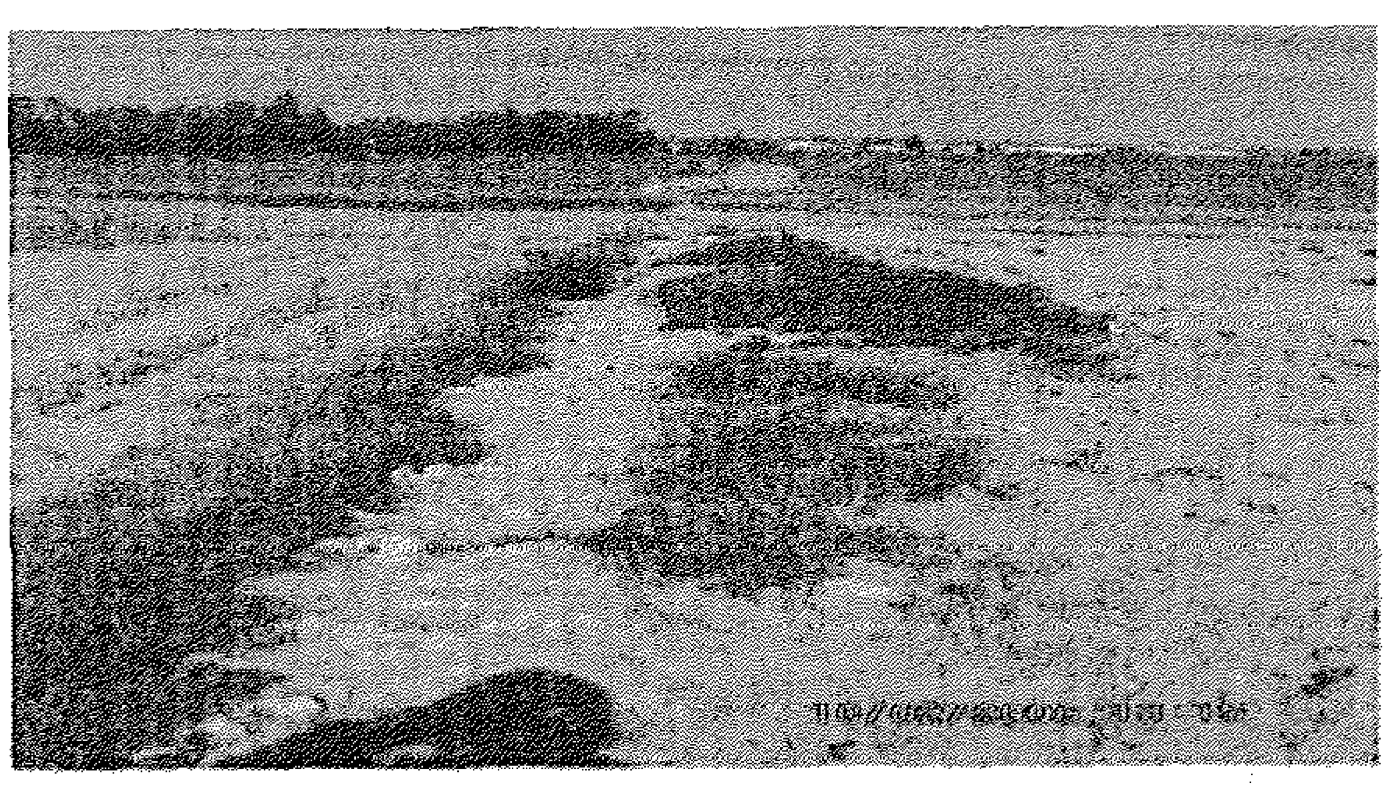
La prospection invite à bien d'autres questions de géographie historique ; cependant, en la matière, tant pour l'antiquité que pour le Moyen Age, le doute l'emporte souvent sur la certitude.

[41] El-Bekri, *Description de l'Afrique septentrionale par Abou-Obeid-El-Bekri*, trad. de Mac Guckin de Slane, A. Maisonneuve, Paris, 1965, p. 64.
[42] Les sources ne sont pas unanimes quant à a distance séparant Raqqada de Qairouan. Cependant, toutes s'accordent à la placer au sud de la ville de Qairouan et, vraisemblablement, au sud d'El-Qasr el-Qdim.
[43] M. Solignac, *Op. cit.*, p. 168.



Le bassin de Henchir el-Berka

Cependant, l'archéologie ne semble pas conforter l'identification et la localisation proposées. En effet, mis à part un bassin quadrangulaire de dimensions moyennes (6 x 4, 80m) visible à Henchir el-Berka, le terrain compris entre Qairouan et Raqqada n'a pas livré d'installations hydrauliques d'envergure. Inversement si l'on se porte vers le sud-ouest, particulièrement du côté de Bled Messaoudia, sur les terres de la « coopérative centrale de semences et de plants sélectionnés » de Chebika, là où la carte au 1/ 50 000 mentionne le toponyme révélateur d'el-Ksar, nous trouvons les traces d'un puissant mur en blocage long de plus de 60 m. et ponctué d'un important contrefort d'angle. Il s'agit là des restes d'une des parois d'un bassin si grand qu'il peut s'apparenter à un *castellum*, un château d'eau. Peut-on y voir le Qasr el-Ma des sources



Site d'El-Ksar / Chebika : mur en blocage

arabes? Bien entendu, une telle proposition se heurte à un argument de distance dans la mesure où le site d'El-Ksar se trouve à plus de 17 km au sud-ouest de Kairouan alors que les textes placent Qasr el-Ma à deux ou trois milles de la ville médiévale! Cependant, il est à noter que les mêmes sources font du même site une halte, un relais

Reflexions de géographie historique

La prospection étant surtout affaire de terrain, il est difficile, en conséquence de ne pas se livrer à quelques réflexions de géographie historique. En ce domaine, s'agissant de la région de Kairouan, il importe avant tout d'appréhender les espaces pour mieux comprendre leur interférence dans l'histoire de la conquête arabe. Le choix de la plaine de Qairouan (zone I) et de la zone d'al-Qarn (zone 2) comme base de départ de la conquête ne répondait pas seulement à des impératifs de stricte stratégie militaire Dotée de bonnes terres fertilisées par les limons des oueds Marguellil et Zeroud, inscrite dans un « bloc de terres impériales », la plaine kairouanaise était aussi un espace viable, propice à la colonisation[36]. Il en allait de même de la région d'al-Qarn, également bien pourvue en eau et, à ce titre, elle aussi anciennement occupée. De surcroît, tous deux innervés par deux importantes artères - la *via Hadrumetina* pour l'un et la « *route des montagnes* » pour l'autre -, ces deux espaces étaient d'importants couloirs d'échanges et de communication est-ouest[37]. A ces divers titres, leur contrôle participait plus d'une politique réfléchie que d'une attitude ponctuelle, motivée par la seule précaution de se prémunir d'une attaque byzantine.

Les données de la prospection touchent aussi à diverses questions de localisation et d'identification de sites. Ici, nous nous intéressons à la zone I, c'est-à-dire à la plaine de Kairouan, où nous nous attardons sur Qasr el-Ma, site dont le toponyme est synonyme de château d'eau, c'est-à-dire de castellum destiné à recevoir de l'eau (el-Ma) en vue de son stockage puis de sa distribution. Par extension, le même terme pourrait éventuellement désigner un établissement doté d'importantes installations hydrauliques. Qu'en est-il réellement ? Où faut-il placer un tel monument - site ?

Qasr el-Ma nous est connu par différentes sources arabes où il est donné comme étant sis – selon les versions – à deux ou à trois milles au sud du Qairouan médiéval, soit à la périphérie du Kairouan actuel, là où l'on place habituellement el-Qasr el-Qdim/ el-Abbassiya. Faut-il accepter cette localisation qui trouve aussi crédit dans le fait que la carte topographique Kairouan au 1/ 50 000 mentionne un *Henchir Gacere el ma* dans cette même zone [38]? Tel est en tout cas l'avis de F. Mahfoudh pour qui les trois. toponymes de Qasr el-Ma, Abbassiya et el-Qasr el-Qdim ne peuvent désigner qu'un seul et même lieu[39]. Bien argumentée, l'hypothèse émise par ce chercheur est d'autant plus séduisante que le toponyme sied tout à fait à cette partie de la plaine où du fait de la faiblesse des pentes, les crues de Marguellil et de Zeroud infiltrent le sol et y stockent de grandes quantités d'eau. En effet, zone privilégiée d'infiltration des eaux, la partie sud de Kairouan est en soi un vaste réservoir, un Qasr el-ma...[40].

---

[36] Contrairement à ce qu'avancent certains chroniqueurs de la conquête arabe, la plaine kairouanaise ne pouvait être cet espace de steppes stériles infestées par les reptiles.

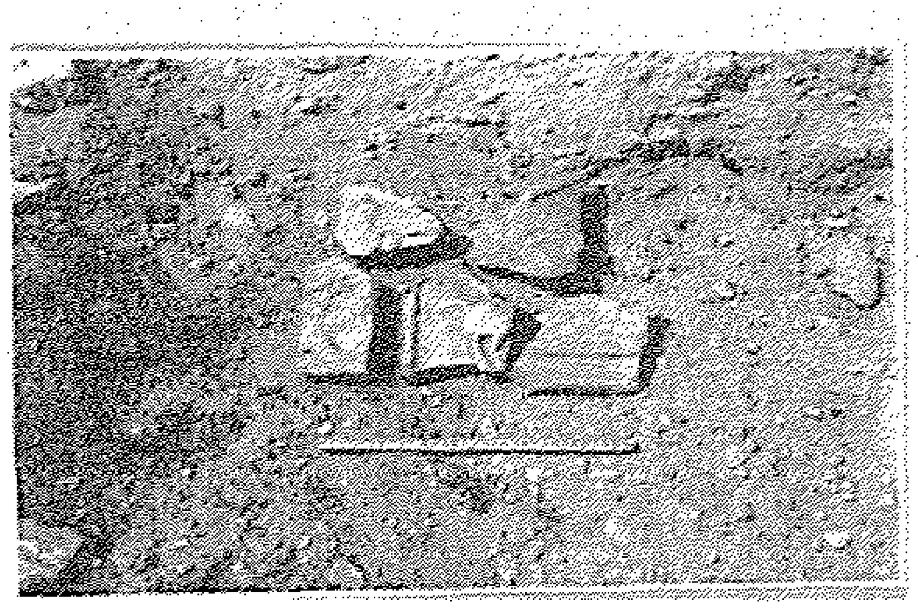
[37] Pour la *via hadrumetina*, voir entre autres, P. Salama, « La via hadrumetina en Byzacène », *Cahiers de Tunisie*, 45-46, 1964, pp. 73-85. Pour la route des montagnes, voir entre autres A. Mahjoubi, « De la fin de l'antiquité au haut moyen âge : héritages et changements dans l'urbanisme africain », *Actes du 110° congrés des sociétés savantes*, Montpellier, 1985, p. 393 ; A. M'Charek, *Op. cit.*, p. 22.

[38] Il faut remarquer cependant que la façon dont cette indication est portée sur la carte diffère de celle usitée pour marquer un emplacement précis de site. En effet, signalé par des lettres imprimées en italiques, *Henchir Gacere el ma* semble plutôt indiquer une zone - comme par exemple sur la même carte *Bled Bou Souiba* ou *Bled ed Dalaiya*, Feuille Kairouan, LXIII.

[39] F. Mahfoudh, « Qasr al-Mâ, al-Abbâsiya et al-Qasr al-Qadîm : à propos de quelques agglomérations près de Kairouan », dans *CRAI*, 1er fasc., Paris, 2003-2, p. 49-64.

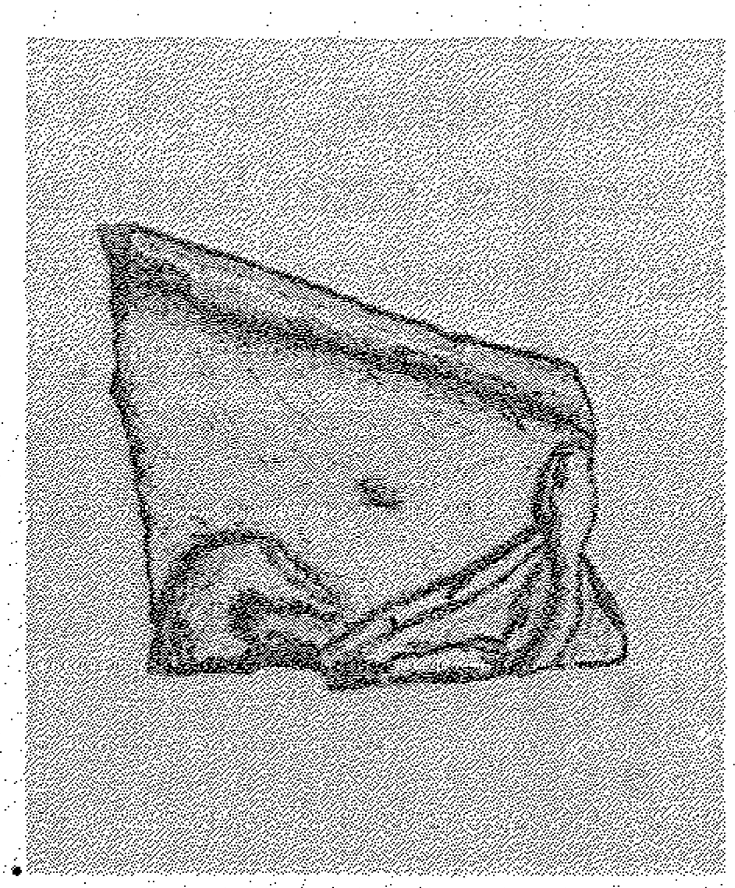
[40] C'est en conséquence que cette partie de la plaine est à ce jour truffée de puits !

que des traces indirectes fournies par des fragments de carreaux de terre cuite trouvés sur cinq établissements différents [32]: 3 situés dans la zone d'al-Qarn (63 072, 63 075, 63 116), 1 en plaine - le site de Hr. El-Bellar à 11 km. au sud-ouest de Kairouan (63 084) – et 1 en zone IV, à Hr. Bou Arara (63 151 = AAT 63 042) . … De dimensions et de types variés – avec et sans réglettes-, ces carreaux sont aussi d'une grande variété iconographique. Outre des croix grecques, des rosaces et des motifs zoomorphes habituels à la symbolique chrétienne - colombe, serpent, cerf, antilope et autres quadrupèdes –, le décor de ces carreaux consiste aussi en compositions à thèmes. L'une des scènes identifiées figure un personnage qui du haut de sa monture, une lance à la main, semble combattre un reptile ondulant entre les pâtes du cheval…On y reconnaît comme à Henchir Naja au sud de Kairouan où elle a été relevée sur une dizaine de carreaux une représentation de Saint Théodore terrassant un serpent[33].
Intéressante si l'on considère aussi les trouvailles déjà publiées[34], la dispersion des carreaux de terre cuite est un témoin supplémentaire de l'importance de l'implantation du christianisme dans cette région riche de plusieurs évêchés et dont on sait qu'elle abritait un monastère placé sous le patronage de Saint –Etienne[35] !



Fragments de carreaux





Calque reproduisant un fragment de carreau figurant Saint Théodore terrassant le serpent.

---

[32] L'absence de carreaux dans la zone III n'est pas une donnée en soi ; une prospection fine et ciblée pourrait également permettre la découverte de carreaux dans cette partie de la feuille.
[33] A. Merlin, « Carreaux de terre cuite découverts à Henchir Naja », *BAC*, 1909, p. XXXIX ; N. Belazreg, *Les carreaux de terre cuite paléochrétiens figurés de Tunisie*, D.R.A., Faculté des sciences humaines et sociales de Tunis, 1983, vol. I, carreau n° 418.
[34] Cependant, il faut préciser que la provenance précise de ces carreaux de terre cuite anciennement signalés dans la littérature archéologique manque souvent. Il en va ainsi de ceux trouvés dans « la région montagneuse de Cherichira au sud-ouest de Kairouan » et signalés par Cagnat ; voir R. Cagnat, *BAC*, 1923, p. 39. *Idem* pour un carreau de provenance inconnue remis en 1914 à Merlin par le contrôleur des domaines à Kairouan, Dubiez ; A. Merlin, *BAC*, 1915, p. 189. *Idem* encore pour un carreau figurant Saint Panthaleon ; voir C. Courtois, in *l'Année épigraphique*, 1953, 149, p. 207-213.
[35] *IL Tun* 268.

les 10 hectares ; il s'agit de Hr. Bou Arara en zone IV ; Hr. el-Alalacha et Hr. Djibinia en zone II ; Hr. el-Meselsel, Hr Ali Bahelele et le 63 014 en zone III.

Les vestiges des sites de la feuille Kairouan sont globalement modestes et peu différenciés...Le marbre, naturellement présent dans les massifs voisins de Ouesselat, est très peu attesté. Rares sont aussi les sols mosaïqués ainsi que les éléments d'architecture monumentale – peu de chapiteaux, peu de bases, peu de colonnes[26]. De même, la zone de prospection n'a livré que fort peu d'établissements thermaux[27]. Les nécropoles sont cependant bien attestées, les unes isolées, les autres couplées avec des établissements plus ou moins importants. Toutefois, mises à part deux grandes tombes à caisson, l'architecture funéraire est plutôt ordinaire avec une absence totale de mausolées ! De même, l'épigraphie funéraire païenne est en conséquence fort sobre[28]. Aux quelques modestes épitaphes païennes sur pierre déjà publiées[29], il faut désormais ajouter deux nouvelles, inédites, l'une, fort fragmentée, vue à Hr Djibinia (63 075), l'autre, en meilleur état de conservation, trouvée sur le site 63 002[30].





Epitaphe de MAGNUS VICTORINUS (site 63 002) **Fragment d'inscription funéraire (63075)**

Cependant, à défaut de signes évidents d'une conséquente romanisation, l'espace de prospection a révélé les stigmates d'une christianisation par ailleurs connue d'après la documentation ecclésiastique – notamment les listes conciliaires – et l'épigraphie[31]. Sur terrain, toutefois, plutôt que des vestiges d'églises ou de baptistères, nous n'avons

---

[26] C'est là une différence avec la feuille voisine de Oued Cherita où B. Baaziz a relevé de la mosaïque sur 15 sites. S. Ben Baaziz, « Les établissements ruraux du Sahel antique », *Du Byzacium au Sahel, Itinéraire historique d'une région tunisienne*, textes réunis par A. Mrabet, Tunis, 1999, pp. 31-50

[27] On a recensé, au total, une dizaine de petits établissements thermaux ; établie dans bien des cas à partir d'indices indirects : tesselles de mosaïque, briques d'hypocauste ou tubes à emboîtements, leur identification n'est pas cependant toujours indiscutable.

[28] C'est là une différence remarquable avec Oued Cherita ou les mausolées sont bien attestés. Voir S. Ben Baaziz, « Les établissements ruraux du Sahel », *Op. cit.* p. 44.

[29] Il s'agit entre autres d'inscriptions trouvées remployées dans des murs ou dans le minaret de la grande mosquée de Kairouan.

[30] Il s'agit dans le premier cas d'une petite stèle de 0.25 x 0.27 m portant une épitaphe en 4 lignes incomplètes et donc de lecture hypothétique ; repérée lors d'une première visite du site, la pierre a depuis disparu. Plus grande, – 0,55 x 0.24 m.- , et bien que brisée en deux morceaux, la deuxième stèle présente six lignes complètes ; on y lit : D.M.S. / MAGNUS/ VICTORI/NUS VIXIT/ANNIS--/MEN. II D.X.

[31] Les évêchés de la région attestés lors des multiples conciles de Byzacène sont :
-*Iubaltiana* qu'on localise à kairouan même si non dans les environs immédiats ; son attestation remonte à la fin du IVe siècle avec la participation de son évêque Ninus au concile de Carthage en 397 ;
-*Aquae Regiae* qu'on identifie avec Haffouz ;
-*Cululis* avec Aïn Jeloula. Pour ce qui est de l'épigraphie, il y a lieu de mentionner tout particulièrement l'inscription *CIL* VIII, 23127 a et b = (*IL Tun* 268), gravée sur marbre et trouvée remployée dans le pavement de l'escalier et de celui de la cour de la grande mosquée relative à un monastère dédié à Saint Etienne.

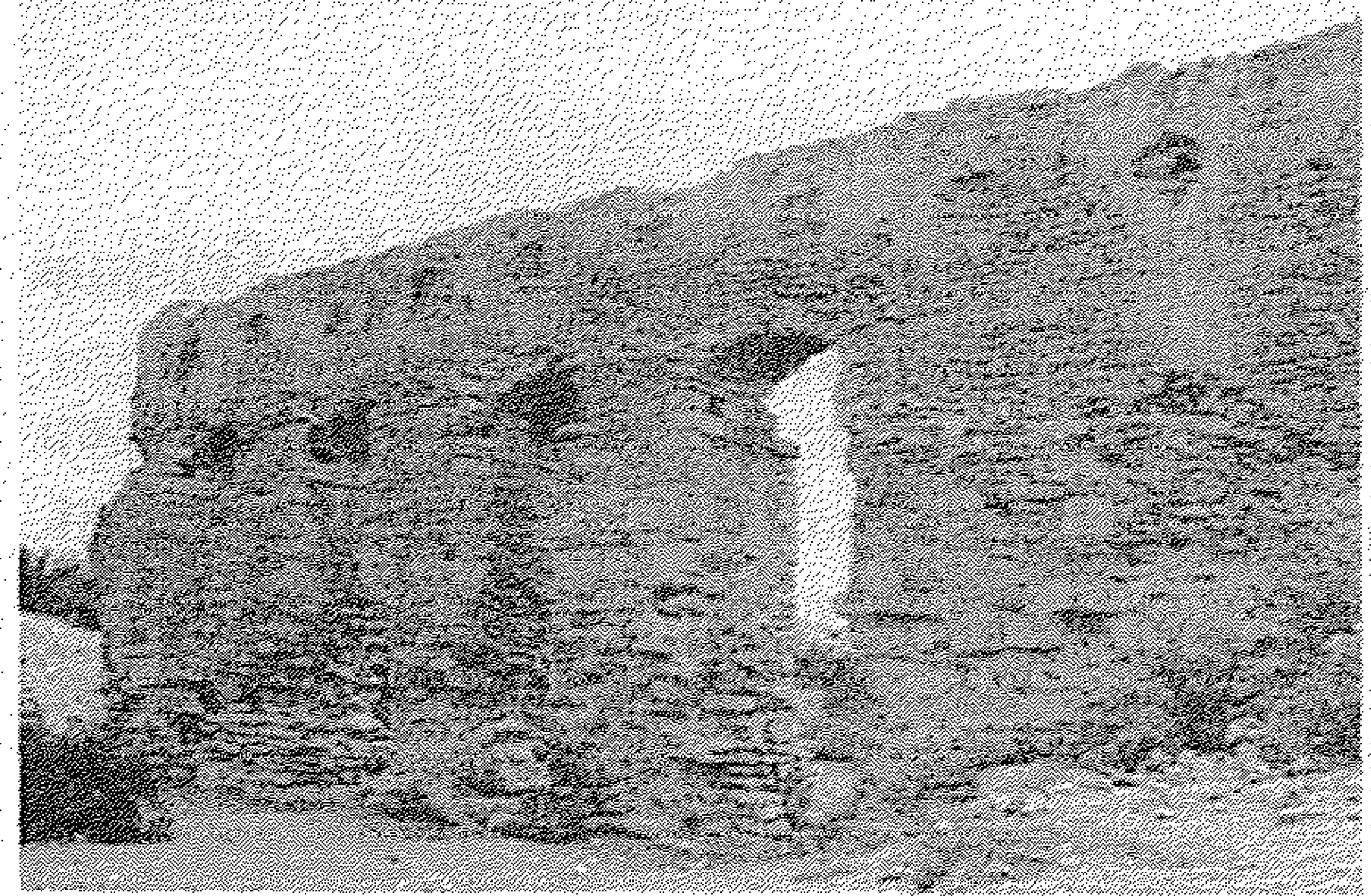



Fig. 1, 2 : Vues de l'aqueduc de Cherichira (Oued el-Mouta).



Fig. 3 : Petite adduction à même le sol aux environs du site El-Oglat.

Cependant, pas plus que les recherches auparavant menées par Solignac, la prospection n'a pas permis de saisir avec précision le parcours de l'aqueduc dans la plaine de Kairouan (zone I). On suppose d'après les seules données de la topographie que la conduite atteignait la zone de Chebika en passant au nord de Mers Ed Damous et de Sif el Ahmar et qu'elle desservait le lieu dit el-Ksar où les vestiges d'un important bassin quadrangulaire semblent indiquer une fonction de réservoir, voire de château d'eau [24]! Dans la plaine de Kairouan, la carte topographique fait aussi état de nombreux barrages et digues liés à une ancienne pratique locale de l'inondation dirigée[25]. Cependant, généralement en terre, ces ouvrages n'ont laissé de traces que toponymiques.

Mis à part les grands sites urbains d'époque médiévale, la majorité des sites antiques de la feuille Kairouan correspondent à des établissements modestes en superficie comme en témoins matériels. Cependant, parce que situés en bordure d'importants axes de communication, six sites font exception en atteignant ou dépassant

[24] Solignac n'écarte pas non plus cette idée que la « Sakia aghlabo-fatimite »ait pu alimenter le même «grand bassin à contreforts qui se trouve en bordure de la route N° 3 du Djérid à Tunis par Kairouan et qui, sur la carte au 50 000 porte encore aujourd'hui le nom d'El-Ksar ». M. Solignac, *Op. cit.*, p. 168.

[25] Voir à ce sujet P. Penet, *Les syndicats d'inondation de la plaine de kairouan*, Bull. Econ, 1908, p. 443-478.

J. Despois, *La Tunisie orientale, Sahel et Basse steppe, éude géographique*, Paris, P.U.F., 1955, p. 242-251.

jalonnent le parcours de la voie Kairouan - Jaloula via el-Fej - la route des montagnes – porte le toponyme de Bir el Roume !

- des citernes antiques, le plus souvent compartimentées et voûtées en berceau ; absentes de la zone de plaine (I), elles sont - comme dans le cas de la feuille Sidi el Hani [21]- bien moins nombreuses que les bassins ;
- des bassins ; ces ouvrages attestés dans toutes les zones de la feuille sont de formes diverses ; on en trouve des quadrangulaires, des circulaires et même des polygonaux. Aussi, ils sont systématiquement dotés de contreforts destinés à en consolider les parois. Ces contreforts peuvent être uniquement extérieurs - c'est le cas par exemple des bassins de Raqqada et de celui de Hr el-Berka/ El-Qasr el-Qdim- ou à la fois extérieurs et intérieurs – cas du grand bassin d'el-Bahr de Raqqada. De par leur nombre – et parfois de par leurs dimensions relativement importantes - tous ces ouvrages constituent une véritable composante du paysage archéologique. Associés à des structures qui relèvent d'occupations aussi bien antiques que médiévales, ils appartiennent indifféremment aux deux périodes[22] ;
- Quatre adductions, à savoir trois modestes conduites rurales antiques – inédites-, courant à même le sol, sur de courtes distances et l'aqueduc antique et médiéval de oued Cherichira – affluent de Marguellil - dont l'envergure couvre d'ouest en est tout l'espace compris entre la zone IV et les abords mêmes de la ville de Kairouan. Cependant, partiellement conservé, cet ouvrage n'a gardé de vestiges importants que du côté ouest, dans la zone montagneuse séparant la haute plaine des Gouazine de celle basse de Kairouan. Là, à la succession des affluents et à la particularité de la topographie correspondent différents profils de la conduite:
  - double aqueduc entre oued Jerouila et oued el- Mouta ;
  - pont-aqueduc par-dessus oued el-Mouta ;
  - pont-aqueduc par-dessus oued el-Brel ;
  - adduction courant à même le sol jusqu'à un bassin circulaire – inédit- tout près de Sidi Bou Jedaria [23].

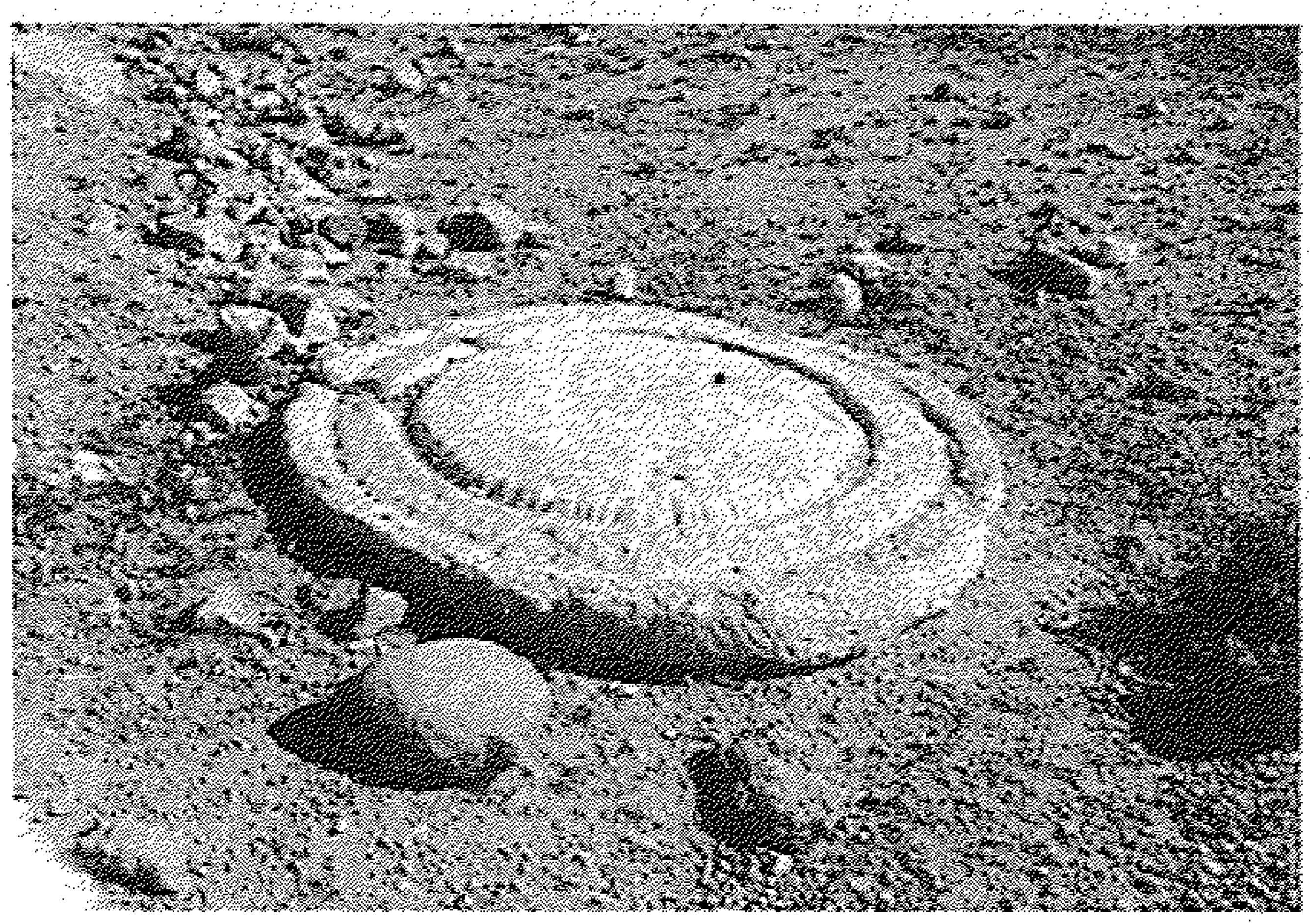
---

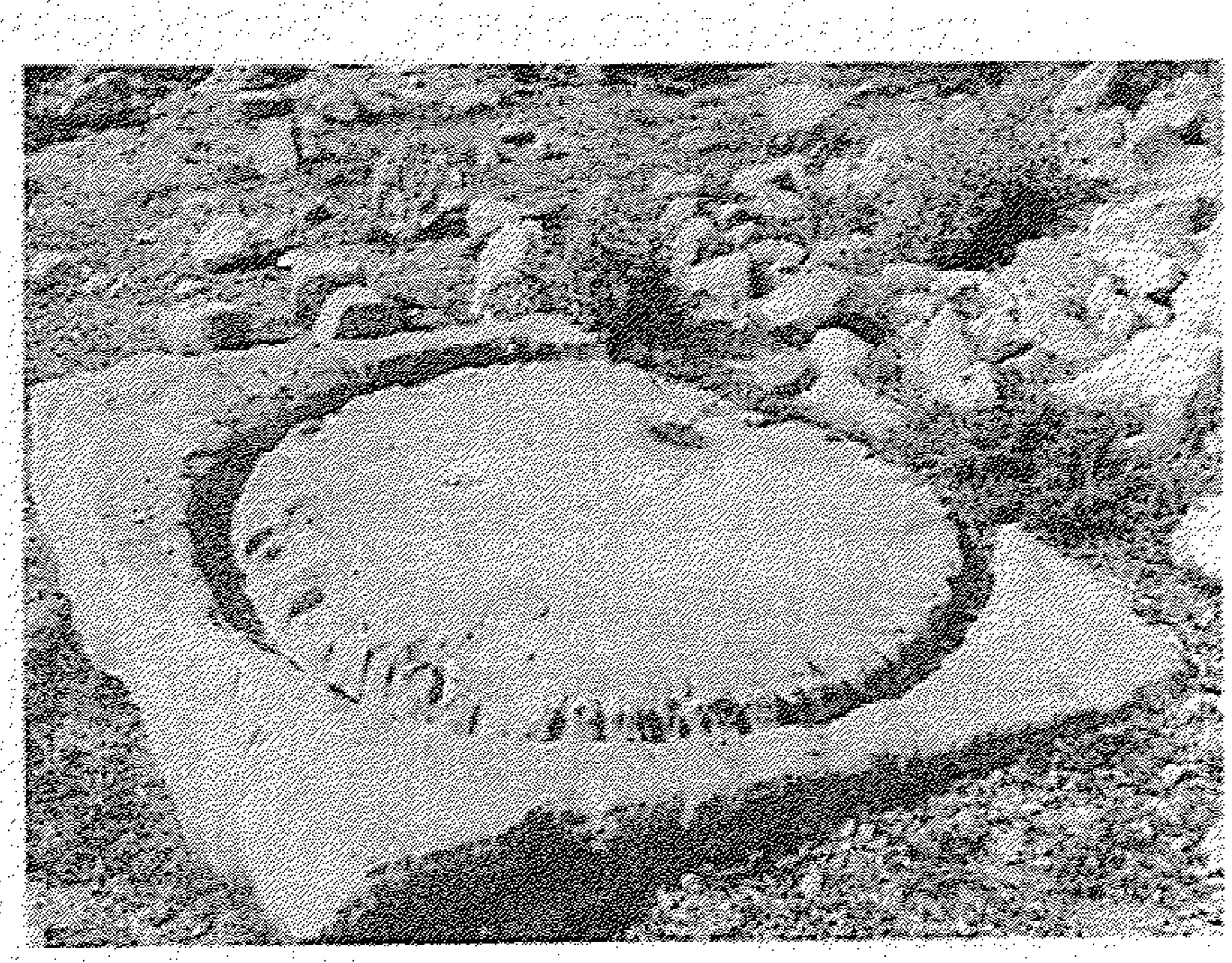
[21] S. Ben Baaziz, « Les sites antiques de la région de Sidi el Hani », *Bulletin des travaux de l'institut national d'archéologie et d'art, comptes rendus*, fascicule 2, octobre-décembre, 1988, Tunis, p. 11.

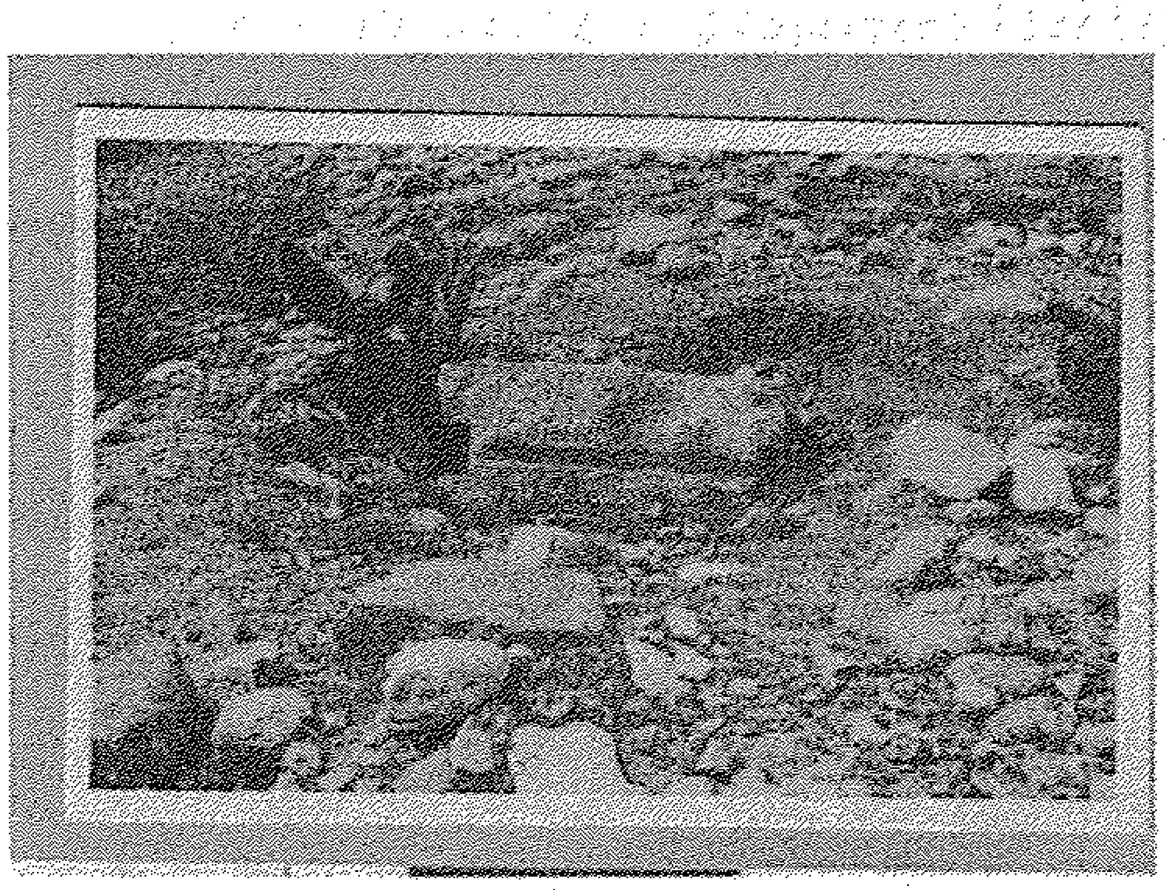
[22] Parmi ces bassins de la feuille Kairouan, celui d'el Fesguia, déjà signalée dans l'*Enquête* publiée par Gauckler est d'un type assez original ; aérien, il se caractérise par des contreforts réalisés dans la masse et intégrés aux murs du bassin par l'intermédiaire de sections circulaires (site 63 161) ; P. Gauckler, *Enquête sur les installations hydrauliques romaines de Tunisie*, fasc. IV, répertoire II, Rapport sur les travaux des Romains reconnus par la deuxième brigade topographique de Tunisie pendant la campagne de 1908, Lt. Lachèvre, pp. 274-275. Il serait fastidieux ici de revenir sur la discussion soulevée par la question de l'origine des bassins circulaires à contreforts. Cependant, les contextes archéologiques dans lesquels nous avons rencontrés de tels monuments nous inclinent à leur assigner une origine plutôt romaine. Voir sur cette question, M. Solignac, *Op. cit.*, p. 28 ; F. Mahfoudh, *Architecture et urbanisme en Ifriqiya médiévale (proposition pour une nouvelle approche)*, Centre de publication universitaire, Faculté des lettres de la Manouba, Tunis, 2003, particulièrement les pages 117-120.

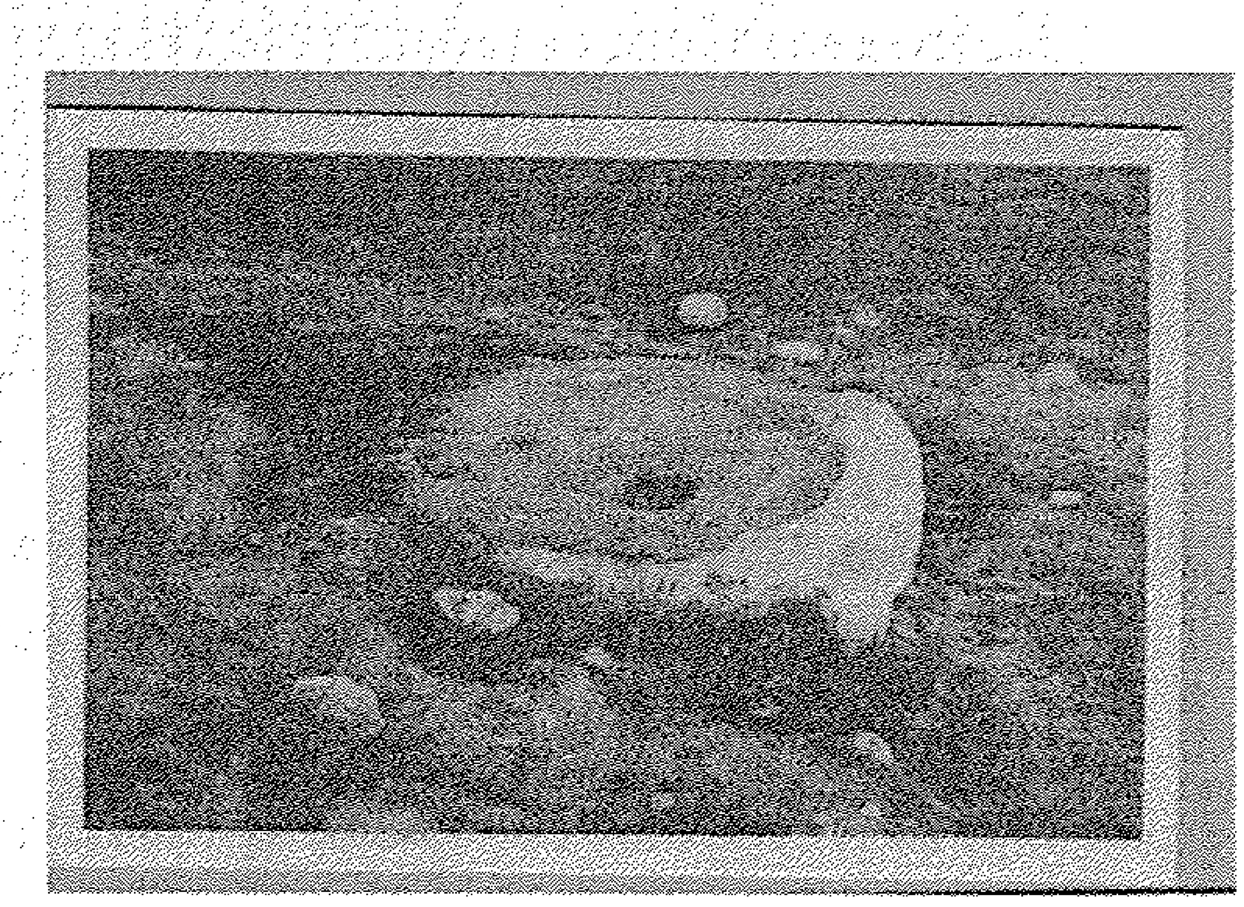
[23] Comblé et recouvert de terre, ce bassin est, il est vrai, difficilement repérable.

particulière sur le plan de la technologie oléicole. Les contrepoids, moyennement volumineux, sont du modèle le plus simple avec deux mortaises à queue d'aronde. Circulaires, taillées en galettes pas trop épaisses et quelquefois apprêtées pour recevoir deux tailles différentes de scourtins, les maies de Hr Bou Arara semblent présenter une certaine originalité ; toutefois, faute d'une plus large attestation, elles ne peuvent être retenues comme étant représentatives d'une tradition locale, « kairouanaise ». De même, en l'absence de la moindre trace de pierre à ancrage ou de montants verticaux – *arbores* -, on ignore quel fut le mode usité pour la fixation du *prelum* dans les pressoirs de la région.









Matériel oléicole local

Plutôt que par l'iconographie au travers des stèles et dédicaces à Saturne – curieusement rarissimes avec un seul document du genre en provenance de Sidi kadeur (63 100) -, l'activité d'élevage est principalement attestée par la présence d'auges et d'abreuvoirs particulièrement nombreux en zone III, notamment près des points d'eau[20].

La prospection fournit par contre une importante information sur les aménagements hydrauliques. De toutes les époques (antiquité et Moyen Age, en majorité), les installations repérées sont aussi nombreuses que diverses :

- des puits ; on en trouve un peu partout avec cependant une particulière densité du côté de la plaine, notamment aux alentours de Kairouan où l'abondance des forages actuels a entraîné des rabattements continus du niveau de la nappe. Ailleurs, rarement associés à des sites archéologiques, régulièrement objets de réutilisation et de récupération, beaucoup de ces ouvrages sont difficilement datables. On retient toutefois, que dans la zone d'al-Qarn, l'un des puits qui

[20] Bien entendu, il ne nous échappe pas que ces éléments aient pu être ultérieurement déplacés mais, c'est un fait, leur nombre, relativement important, traduit une évidente activité pastorale et d'élevage.

Plus diffus, les autres indices se limitent souvent à des témoins de céramique – émaillée et, dans de moindres proportions à reflets métalliques – attestés à Hr. El-Alalcha (63 072), à Hr Ben Toumia (63 116) à Hr Djebinia ouest (63 073) et à Hr Djebinia est (63 075), à Sidi Abdallah bel Haj (63 333) [17], c'est à dire sur des sites positionnés tout du long du parcours de la route des montagnes en direction de *Agger* et de Lorbeus *via* Jaloula/ *Cululis*[18].

Toute autre est la carte de l'occupation dans les zones III et IV où, majoritairement d'époque antique (70 sites sur 120 pour l'ensemble de l'espace de prospection), l'établissement humain paraît avoir été globalement plus dense et plus serré. La zone III révèle deux concentrations de modestes établissements agricoles, l'une septentrionale, aux abords du massif Ouesselat, l'autre méridionale, tout autour du site d'El-Oglat (63132). Centrée sur la vallée de oued Cherichira, important axe de communication en direction *d'Aquae Regiae*, la zone IV abrite par contre quelques importants sites ; il en va particulièrement de Hr Bou Arara (63042 AAT et 63 151 CNSAMH) et de Hr el Tsemade (63 043 AAT et CNSAMH) qui, avec plus de 10 ha d'étendue chacun, s'apparentent à des bourgs plutôt qu'à de simples fermes.

L'occupation antique

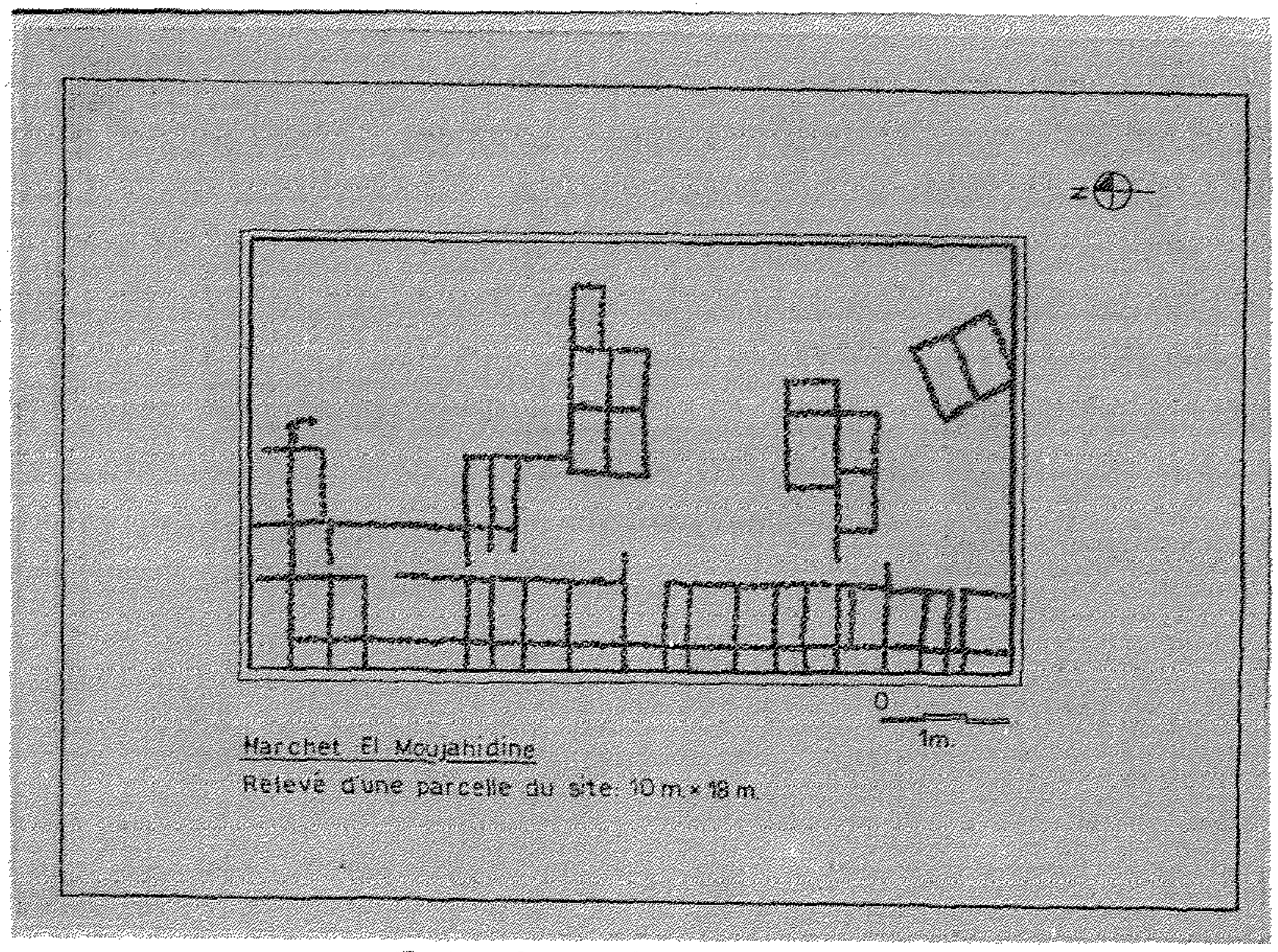
Ruraux, agricoles, les sites antiques de la feuille Kairouan traduisent une occupation étroitement liée aux facteurs physiques, particulièrement à la pédologie et à l'eau. Ainsi, en zone III, la forte densité des sites (57 sur un total de 120) coïncide avec la nature colluvio-alluvionnaire des terrains compris entre les piémonts de Jebel Ouesselat à l'ouest et de Jebel Essefaya à l'est. Elle y est de même liée à un surplus d'eau provenant aussi bien des pluies orographiques – la région étant pratiquement cernée de reliefs – que des eaux d'infiltration, importante dans cette zone. Le tropisme de l'eau et du sol vaut aussi pour la zone IV où l'occupation repose essentiellement sur les retenues d'eau. Ailleurs (Zone I et zone II), les sols étant chargés en sel, le schéma d'occupation est différent avec des sites à la fois plus étendus et moins éclatés. Evidente au regard de la géographie – relief, eau et pédologie-, la bipartition relevée trouve aussi écho dans les données de la prospection. Voués aussi bien à la céréaliculture qu'à l'arboriculture – du fait de la potentialité de leurs sols – les sites des zones III et IV ont livré un matériel agricole bien plus fourni et plus varié que ceux des zones I et II. En plaine, les témoins lithiques les plus attestés - *meta* et *catulli* – renvoient davantage à des cultures céréalières, de l'orge principalement, qu'à une pratique de l'arboriculture. Vers l'ouest, dans la zone incluse entre les montagnes Cherichira au sud, Ouesselat au nord-ouest et Hogaf Essefeia à l'est, les témoins d'activité oléicole ne manquent pas. Toutefois, y compris dans cette zone, le matériel repéré ne renvoie pas à une production oléicole de grande envergure - même si, statistiquement, on est légèrement au dessus des données fournies par la prospection des feuilles voisines de Sidi el-Hani et de Oued Cherita[19]. De même, qualitativement, les témoins ne trahissent pas de maîtrise

---

[17] Sur ce site, outre la céramique, nous avons trouvé des fragments de pièces de monnaie d'époque médiévale.

[18] Toute proposition de restitution du parcours de la dite voie doit par voie de conséquence suivre l'alignement de ces sites. Voir à propos de cette voie A. M'Charek, « Henchir es-Snam (antique Apud Asnam ?), Champ de bataille en 125 de l'Hégire », *Les Cahiers de Tunisie*, tome XLVI, n° 165, 3e trim., 1993, pp. 19- 27 ;

[19] Autant que les deux feuilles réunies pour ce qui est des sites de production mais, par exemple, bien moins que la seule feuille Sidi Bou Ali.



Relevés de la nécropole.

- *Hr Djibinia/ Bled ed Djibina, Ennefidhet ed Djebinia, harcha Djibinia* qui évoquent le souvenir des *Tujibiïn* yéménites – ethnique déformé en Djibin/ Djibina/ Djibinia -, compagnons d'armes de Muawiya...[14] ;
- *Oglat Ech-Chourfa*, dans le défilé de Jebel el Baten, passage entre la plaine de kairouan et la région de Aïn jeloula ;
- *El Haramine* ; donné à un henchir situé à l'ouest de Heriet el-Baten, ce toponyme évoque les Bani Haram, autre tribu yéménite sans doute associée à l'entreprise de conquête [15];
- *Bled Ben Atmime* dans la plaine de Qairouan, sans doute en rapport avec *Tamime*...

Les indices d'une présence islamique précoce sur certains sites de la zone sont également archéologiques. Le plus spectaculaire témoignage que nous ayons de cette présence nous est fourni par la nécropole de Harchet el-Moujahidine (63 111) dont les sépultures mitoyennes ne sont pas sans évoquer des inhumations en masse, comme consécutives à l'une ou à l'autre des diverses grandes batailles qu'a connues la zone d'al-Qarn[16].

[14] Voir au sujet de ce rapprochement tout à fait plausible, H. H. Abulwahab, « Sur l'emplacement de Kairouan », *Revue Tunisienne*, 1940, p. 51-53. ; M. Solignac, « Recherches sur les installations hydrauliques de kairouan et des steppes tunisiennes du VII au XI siècle », *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger*, 1952, p. 163, note 74.

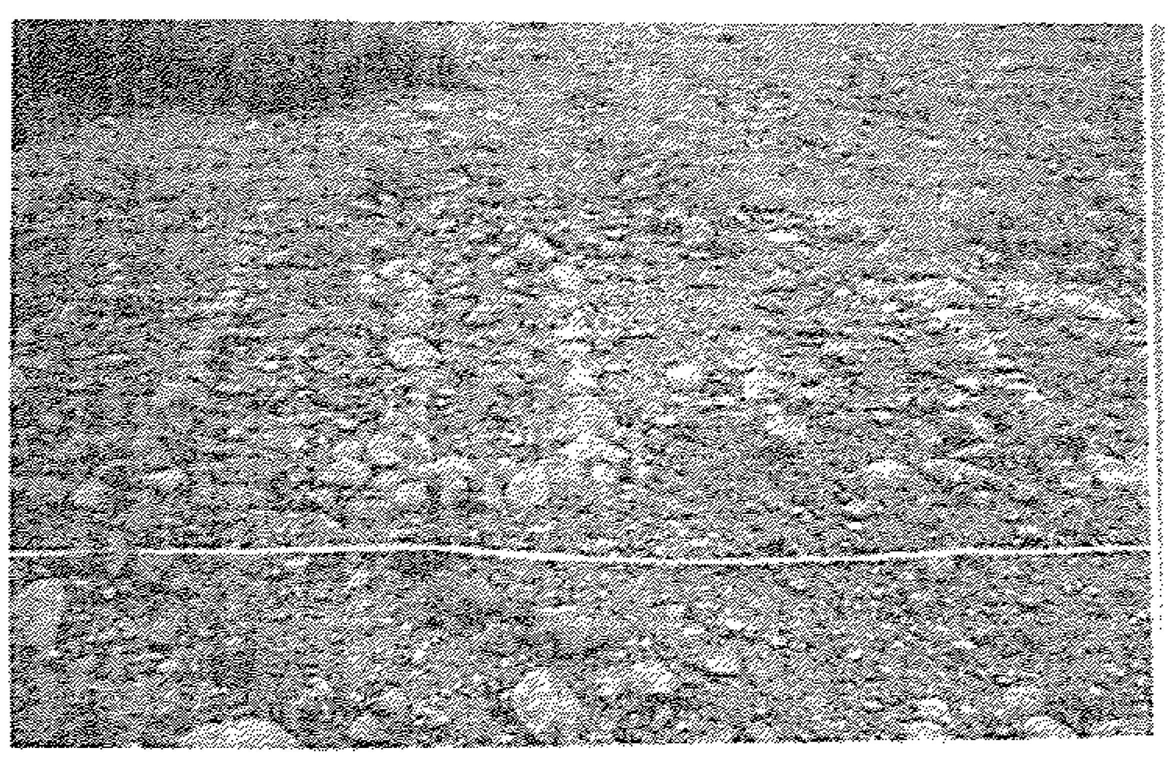
[15] Outre ces toponymes en rapport avec la conquête arabe et ne se limitant pas à la zone d'el-Qarn, il faut signaler des noms de lieu qui évoquant des faits ou des personnages d'Orient, renvoient différemment au passé médiéval de la région ; exemples : el-Ajifre (Hr/ 63066) mentionné par Al-Maliki, *Op. cit.*, I, p. 322 ; Hr Sidi Tébène (63038) du nom d'un des nombreux Tébene mentionnés par Ibn Naji, *Op. cit.*, t. I, p. 20, t. II, p. 156, t. III, p. 130.

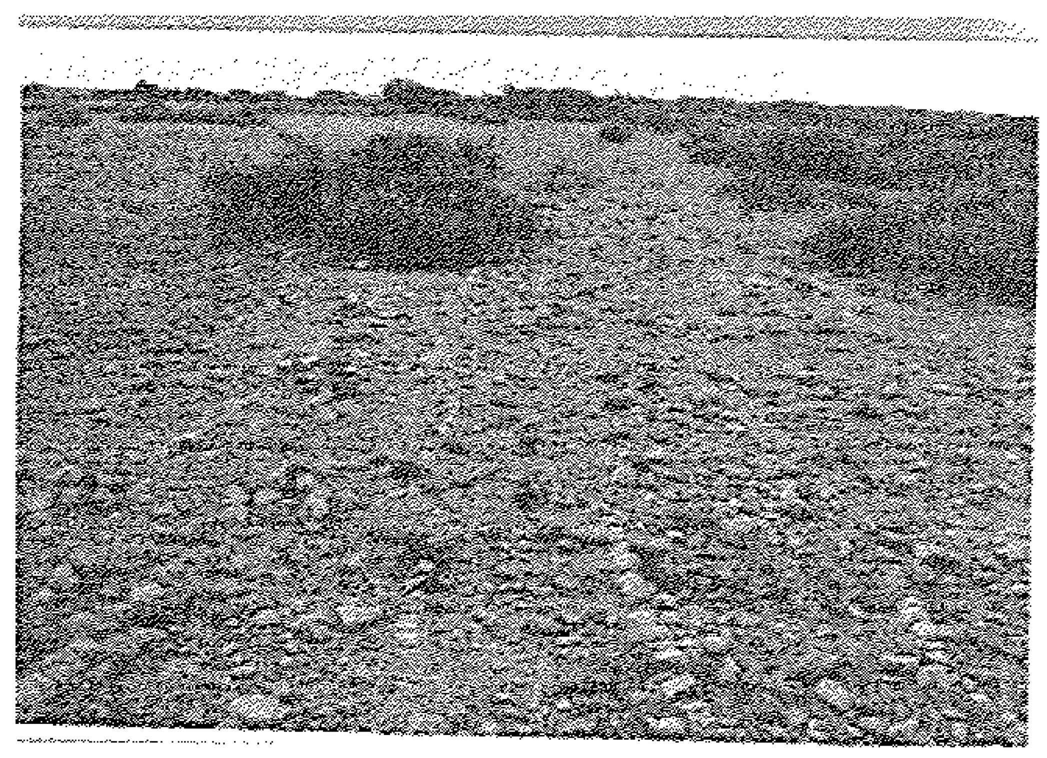
[16] Stratégique par excellence, al-Qarn fut le lieu où Mouawiya ibn Hudayj établit son camp par trois fois, soit en 34 H / 654-655), en 41 H/ 661-662 et en 45 H/ 665 ; al-Qarn fut aussi un terrain de combat en 124-125 H /742-743 opposant l'armée de Handhala ibn Safouan à celle du révolté Kharijite sofrite Okacha ibn Ayyoub al-Fazari ; aussi en 554 H/ 1159 entre Almohades et Hilaliens ; en 941-942/1533-1534 entre les Chabbiya de Kairouan et le sultan Hafside Hassan.

ainsi que dans la zone II (al-Qarn, avec 11 sites). Dans la première, il y a une concentration de grands sites, notamment Qairawan, Sabra al-Mansouriyya (63 086) et el-Abbassiya / el-Qsar el-Qdim (63159)[10] qui se tiennent presque dans un mouchoir de poche, n'étant éloignés les uns des autres que de 2 à 3 km. ! Un peu plus loin, vers le sud, il faut leur ajouter Raqqada (63 087) et dans la direction ouest, Hr el-Bellar (63 084) et Bir el Hofra (63 085), deux sites d'autant plus intéressants qu'ils ont été également occupés pendant l'antiquité[11].

Dans la zone d'al-Qarn (II), la prospection ne confirme pas les propos des auteurs arabes à propos de la ville que Muawiya ibn Hudayj y aurait fondée après 45 H./ 665 [12]. En effet, exception faite de la nécropole d'el-Moujahidine (63 112)[13], al-Qarn n'a pas livré d'établissement islamique – médiéval- *exclusif* ... Cependant, soulignée par les sources écrites, la présence des premiers conquérants arabes dans la zone d'al-Qarn trouve écho dans la survivance de certains toponymes - toujours lisibles sur la carte au 1/ 50 000 :

- *Moujahidine*, attesté par deux fois, tantôt pour nommer un oued, tantôt pour désigner une harcha au pied de Jebel el Hogaf ;





Vues de la nécropole.

[10] La bibliographie relative à ces grands sites est par trop importante pour être citée ici. Voir, à titre documentaire, M. Sakly, « Kairouan », in *Grandes Villes Méditerranéennes du Monde Musulman Médiéval*, 2000, Ecole Française de Rome, pp. 57-85.

[11] Signalés par les habituelles RR sur l'AAT, ces deux sites voisins (63 084 et 63 085) pourraient correspondre à un seul et même établissement. L'occupation médiévale y est surtout attestée par la céramique émaillée. Celle antique est soulignée par la céramique sigillée africaine ainsi que par des fragments de carreaux de terre cuite.

[12] Dans les sources, il est vrai, al-Qarn est plus souvent qualifié de camp que de ville. Cependant al-Maliki ainsi qu'ibn Naji en font aussi le lieu où, de bonne heure, Muawiya ibn Hudayj fonda une ville. Al-Maliki, *Op. cit.*, I, p. 30. Ibn Naji, *Maalim al-Iman*, Tunis, 2e édition, 1993, t. I, p. 42.

[13] Voir à propos de cette nécropole A. Mrabet, « Harchet el-Moujahidine : une nécropole islamique du temps de la conquête arabe ? », in *Actes du 4ème colloque international sur l'histoire des steppes tunisiennes*, Sbeïtla, session 2003, Tunis, Institut national du patrimoine, 2006, pp. 178-189.

En termes de répartition chrono-culturelle, les 189 sites archéologiques repérés ont révélé des occupations de toutes périodes :

- 3 occupations d'époque préhistorique. Elles sont attestées par des témoins lithiques en silex et des fragments d'œufs d'autruche visibles près des sources, notamment à Aïn el-Afia (63 136) et aux abords d'El-Oglat (63 131) en zone III et à Aïn Smied (63 044), en zone IV [7]...
- 120 sites antiques[8] où, dans 22 cas, nous avons également des indices d'une occupation islamique médiévale.
- 4 sites exclusivement islamiques en plus des 22 sites où l'occupation est aussi antique.
- 78 attestations d'occupation d'époque post-médiévale, tardive ; elles sont fournies par des structures diverses, quelquefois des puits – quand on ne peut les rapporter à un site antique – mais le plus souvent des mzars en pierres sèches, des mausolées de saints ou de santons ainsi que des nécropoles tardives plus ou moins importantes. Dans trois cas, cependant, nous avons des établissements perchés appartenant - au moins dans leur dernier état d'occupation - aux Gouazine[9].

De façon globale, on peut dire que la répartition spatiale des sites – toutes périodes confondues- est inégale ; elle croît d'est en ouest et de la plaine vers les hauteurs. La plaine de Kairouan dont la superficie est presque équivalente à la moitié de celle de l'ensemble de l'espace prospecté n'a révélé que 56 attestations d'occupations diverses, (antiquité 19, Moyen Age 13, période post-médiévale 24). Inversement, vers l'ouest, bien que de superficies moins importantes, les autres zones paraissent plus densément occupées. Ainsi, la zone II a livré 60 attestations d'occupation ; la zone III 78 et la zone IV, 30.

La corrélation des données spatiales et temporelles de la répartition des sites de la feuille Kairouan permet également de relever une certaine bipolarisation de l'occupation avec une forte présence de vestiges de l'antiquité côté ouest (zones III et IV avec 70 sites sur un total de 120) et une abondance des témoins archéologiques d'époque islamique médiévale côté est (zones I et II avec 24 sites sur un total de 26). En effet, les sites avec occupation islamique médiévale exclusive ou faisant suite à une occupation antique se concentrent dans la zone I (plaine de Kairouan, avec 13 sites)

---

[7] La légende de la carte qui accompagne ce texte ne fait pas particulièrement cas de ces trois occupations à faible manifestation archéologique. En révélant un puits romain, des auges en grande quantité, une adduction ainsi que de la sigillée, le site d'el-Oglat est à ce titre classé site antique et non préhistorique. Toutefois, l'ancienneté du peuplement dans cette zone est aujourd'hui soutenue par de nombreuses découvertes de sites rupestres dans le Jebel Ouesselat. Voir à ce sujet : J. Ben Nasr, « Nouvelles peintures rupestres inédites à l'abri de Aïn Khanfous (Jebel Ouesselat, Tunisie centrale) », *Sahara*, t. 14, 2003, pp. 145-148 ; A. Gragueb, M. Harbi-Riahi, A. M'timet, J. Zoughlami, « ouvelles découvertes de représentations rupestres en Tunisie : Jebel Ouesselat (Tunisie centrale) », *Bulletin des travaux de l'Institut national d'archéologie et d'art de Tunis*, fasc. IV, 1991, p. 41-46.

[8] Bien entendu, par trop général, le qualificatif antique peut être subdivisé ou détaillé. Toutefois, ici, partant des données de la prospection, son emploi se rapporte à la période allant des débuts de la domination romaine jusqu'à la fin de la domination byzantine.

[9] Il s'agit d'abord des sites 63 007 et 63 008, tous deux désignés sur la carte de la mention RR et où l'on n'a trouvé que quelques rares tessons de sigillée disséminés dans des constructions étendues en pierres sèches... Stratégiques, surplombant Fedj el-Merabtia, ces sites ont sans doute connu diverses occupations. Situé dans jebel el-Blida et désigné des lettres RB (63 148), le troisième site est aussi d'un même faciès que les deux premiers.

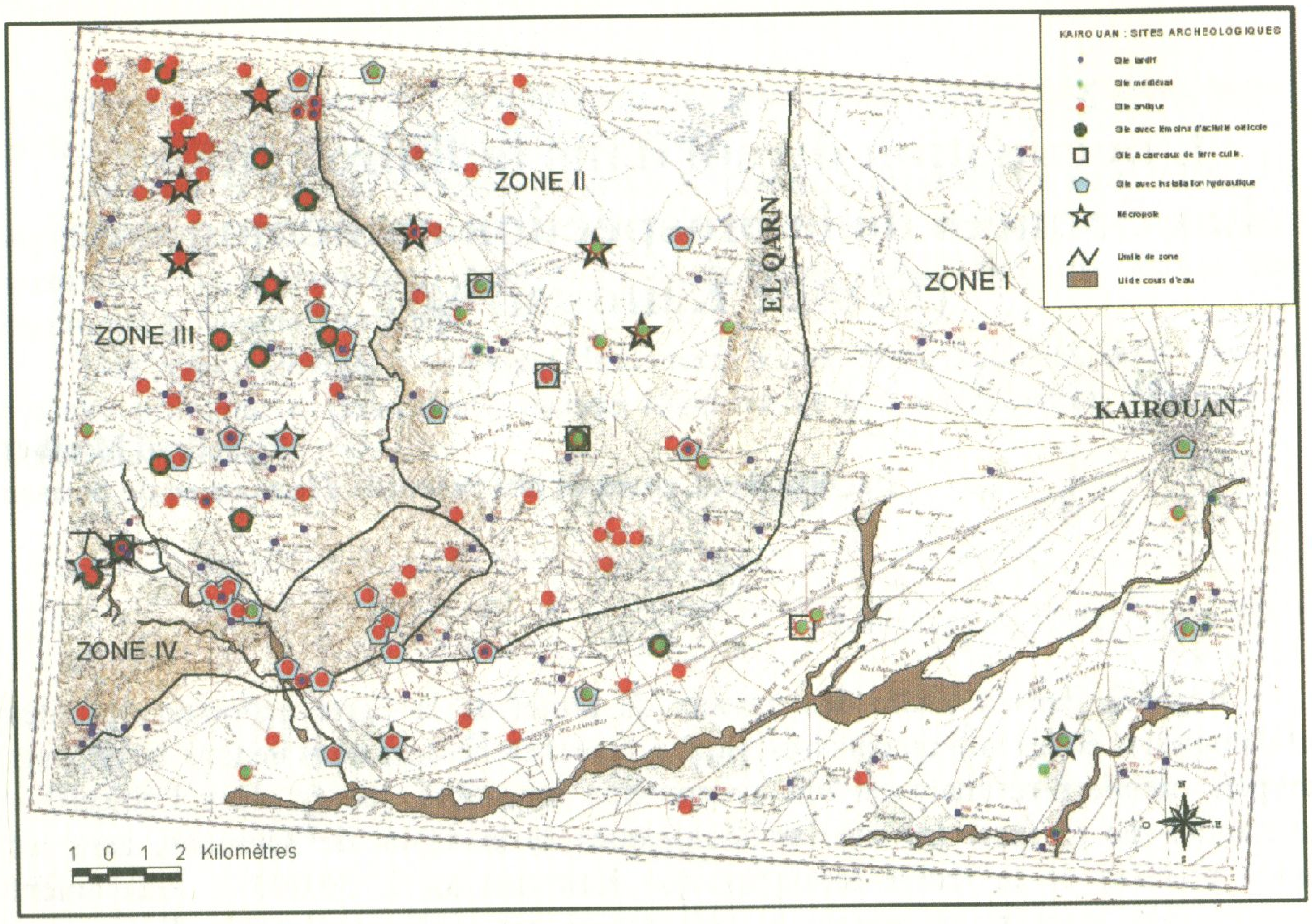


Fig. 1 : Carte archéologique, Kairouan.

La prospection de ces quatre espaces a permis le recensement de **189 sites** – ou points – archéologiques, toutes périodes confondues, soit à peu près autant que les feuilles limitrophes de Oued Cherita (176 sites) et de Sidi el-Hani (125 sites mais il faut tenir compte de l'étendue de la sebkhat du même nom !)[3]. Bien entendu, ce chiffre ne peut traduire la réalité de l'occupation du sol dans une région courue par deux oueds aussi grands et capricieux que Zeroud et Marguellil[4]. En plaine, nombreux doivent être en effet les sites disparus emportés par les eaux ou enfouis sous les épaisses alluvions déposées par ces deux cours aux crues répétées et dévastatrices[5]. Faut-il rappeler à propos de ces recouvrements et de ces problèmes de taphonomie des sites que certaines inscriptions kairouanaises ont été trouvées enfouies sous plus de deux mètres de sédiments[6] ?

[3] Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Ministère de la culture, de la jeunesse et des loisirs - Institut national du patrimoine, *Sidi el-Hani*, LXIV, prospection de S. Ben Baaziz, OTC, Tunis, 1998 ; Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Ministère de la culture, de la jeunesse et des loisirs- Institut national du patrimoine, *Oued Cherita*, prospection de S. Ben Baaziz, OTC, Tunis, 1999.

[4] Pour A. Oueslati, ce sont les oueds « les plus grands, les plus capricieux et les plus menaçants pour les steppes tunisiennes », voir A. Oueslati, *Les inondations en Tunisie*, Tunis, 1999, p. 38.

[5] Les sources arabes faisant état d'inondations survenues à Kairouan sont nombreuses. Citons entre autres : Al-Maliki, *Riadh an-Noufous*, comm. de Baccouche et M. L. El-Metoui, Beyrouth, 1994, t. 1, p. 120, avec la mention d'inondations survenues du temps du calife omeyyade al-Walid (86-96 / 705-715) ; Ibn Idhari, *Al-Bayan al-Moghrib*, comm. de S. Colin et E. Levi-Provençal, Beyrouth, 1983, I, p. 113, mentionnant à son tour des crues survenues en 861. Pour les inondations plus récentes voir A. Oueslati, *Op. cit.*

[6] Il s'agit surtout de deux inscriptions chrétiennes découvertes toutes deux à Kairouan, l'une en 1928 par 2,50 m. de profondeur, l'autre, en 1961, sous 7 m d'alluvions. Voir au sujet de ces deux inscriptions : W. Seston, « Sur les derniers temps du christianisme en Afrique », *M.E.F.R.*, 1936, p. 108-113 ; A. Mahjoubi, « Nouveau témoignage épigraphique sur la communauté chrétienne de Kairouan au XIe siècle », *Africa*, I, 1966, pp. 85-96.

L'occupation du sol dans le Kairouanais : Les données de la prospection archéologique (Feuille Kairouan 063)

Abdellatif M'rabet
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sousse

Réalisée dans le cadre des travaux du projet de la Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, la recherche dont nous venons ici exposer quelques premiers résultats est une prospection inventaire, menée dans l'objectif – patrimonial- de recenser les sites archéologiques de la région de Kairouan, dans les limites précises de la feuille topographique Kairouan au 1/ 50 000 [1]. Récemment achevée, cette enquête de terrain a déjà donné lieu à la publication d'une carte archéologique[2]. L'inventaire des sites, par contre, n'a pas encore paru.

Répartition des sites

Menée à partir de la carte d'état major au 1/50 000, feuille Kairouan LXIII, la prospection a porté sur un espace d'environ 630 km² couvrant quatre zones géographiquement distinctes (fig. 1). D'est en ouest, nous avons :

- La plaine de Kairouan qui s'étend aux pieds de jebel el-Baten et de jebel Cherichira et qui est courue par Zeroud et Marguellil, les deux plus grands oueds de la steppe **(zone I, fig.1)**.
- La zone d'al-Qarn comprise entre el-Baten à l'est et jebel Essefaia à l'ouest. C'est une sorte de dépression où, cernée par les reliefs mentionnés, l'eau stagne et forme des *hériats* et des *nefayedh* **(zone II. Fig I)**.
- Vers l'ouest, en hauteur, il y a une autre dépression également cernée de reliefs ; elle est délimitée au sud par jebel Cherichira, au nord-ouest par jebel Ouesselet et à l'est par Djebel Essefaya **(zone III. Fig 1)**.
- Vers l'ouest sud-ouest, une quatrième zone est centrée sur les fonds de vallées de l'oued Cherichira et de ses affluents **(zone IV, fig. 1)**.

---

[1] Il s'agit essentiellement des sites ruraux, Kairouan ville - surtout le Kairouan médiéval - devant faire l'objet d'une prospection et d'un inventaire à part.

[2] Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Ministère de la culture, de la jeunesse et des loisirs- Institut national du patrimoine, *Kairouan, LXIII*, prospection de A. Mrabet, OTC, Tunis 2004.

les membres de la commission scientifiques, les professeurs : Radhi Daghfous, Sadok Ben Baaziz, Abdelwahid Mokni et Riadh Mrabet.

Nos remerciements s'adressent encore au comité d'organisation pour les efforts fournis afin que cette fête scientifique réussisse brillamment. Il s'agit des collègues : Mohammed Riadh Hamrouni, Adel Njim, Mohammed Ali El Habaieb, Sadok Ben Mohammed et Mouna Tamallah.

Nos remerciements s'adressent finalement à nos chers étudiants, dont l'avenir est certes prometteur, pour leur présence régulière et leur participation effective et efficace aux débats.

Kaioruan, le 12 décembre 2007

Avant- propos

Ahmed El Bahi
Directeur du Département d'Archéologie
Coordinateur du colloque

Nous publions dans cet ouvrage les Actes du Deuxième Colloque International organisé par le Département d'Archéologie de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan, du 6 au 8 mars 2006, à l'occasion de la célébration du vingtenaire (1986-2006).

Le Département d'Archéologie, depuis sa création en l'an 2000, s'est acquitté la noble tache d'assurer l'ouverture de l'Université sur son environnement et ce, en essayant de montrer l'importance du potentiel historique et archéologique de la région de Kairouan et de prendre conscience de la nécessité de bien le sauvegarder et de l'exploiter convenablement, tout en s'appuyant sur la compétence de ses enseignants et sur un esprit critique qui se veut libre et objectif. D'où le choix du sujet de ce colloque, « Kairouan et sa Région : nouvelles découvertes, nouvelles approches ».

Ce colloque comprend environ quarante communications ; nous en publions plus des deux tiers (30 communications). Elles ont été assurées par des professeurs et chercheurs appartenant à trois voire à quatre générations différentes. Les intervenants tunisiens appartenant à la majorité des universités et centres de recherche en Tunisie. A ceux-la s'ajoutent d'autres participations d'Egypte, de la Libye, du Maroc, d'Espagne et de France.

Les intervenants ont fourni des efforts louables en vue de présenter une matière scientifique originale et consistante au cours de laquelle ont été exposées les toutes dernières découvertes archéologiques réalisées suite à des travaux de prospection, d'inventaire, de fouilles et d'études de matériel archéologique « kairouanais », et ce à travers des périodes différentes allant de la préhistoire aux débuts de l'histoire contemporaine en passant par les époques antique, médiévale et moderne. Ils ont pris aussi soin de varier les approches historiques et archéologiques selon leurs spécialités respectives. Qu'ils soient ici vivement remerciés !

Nous avons bénéficié, lors de la préparation de ce colloque, du soutien actif des cadres de la Faculté, et en premier lieu du doyen Mr. Sahbi Allani et du vice doyen, Mr. Mokhtar Boukhris auxquels nous exprimons toute notre reconnaissance. Sans leurs motivations et leurs encouragements, l'organisation de ce colloque et encore moins la publication des ses Actes n'auraient été possibles.

Nous sommes aussi redevables à la commission scientifique composées des professeurs : Ahmed M'charek, Abdellatif M'rabet, Faouzi Mahfoudh et Mourad Rammeh. Les membres en question ont veillé sur la qualité des interventions.

Nos remerciements vont aussi au professeur Mounira Chapoutot Remadi qui nous a honoré par sa personne en acceptant d'assister à ce colloque, de suivre de très près ces travaux et d'en rédiger le compte-rendu final.

Nos remerciements s'adressent de même aux huit présidents des réunions scientifiques pour leur présence d'esprit dans la direction des débats. Nous citons, outre

Sommaire

Partie française

Université de Kairouan
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Département d'Archéologie

Deuxième Colloque International

Kairouan et sa Région

nouvelles découvertes, nouvelles approches

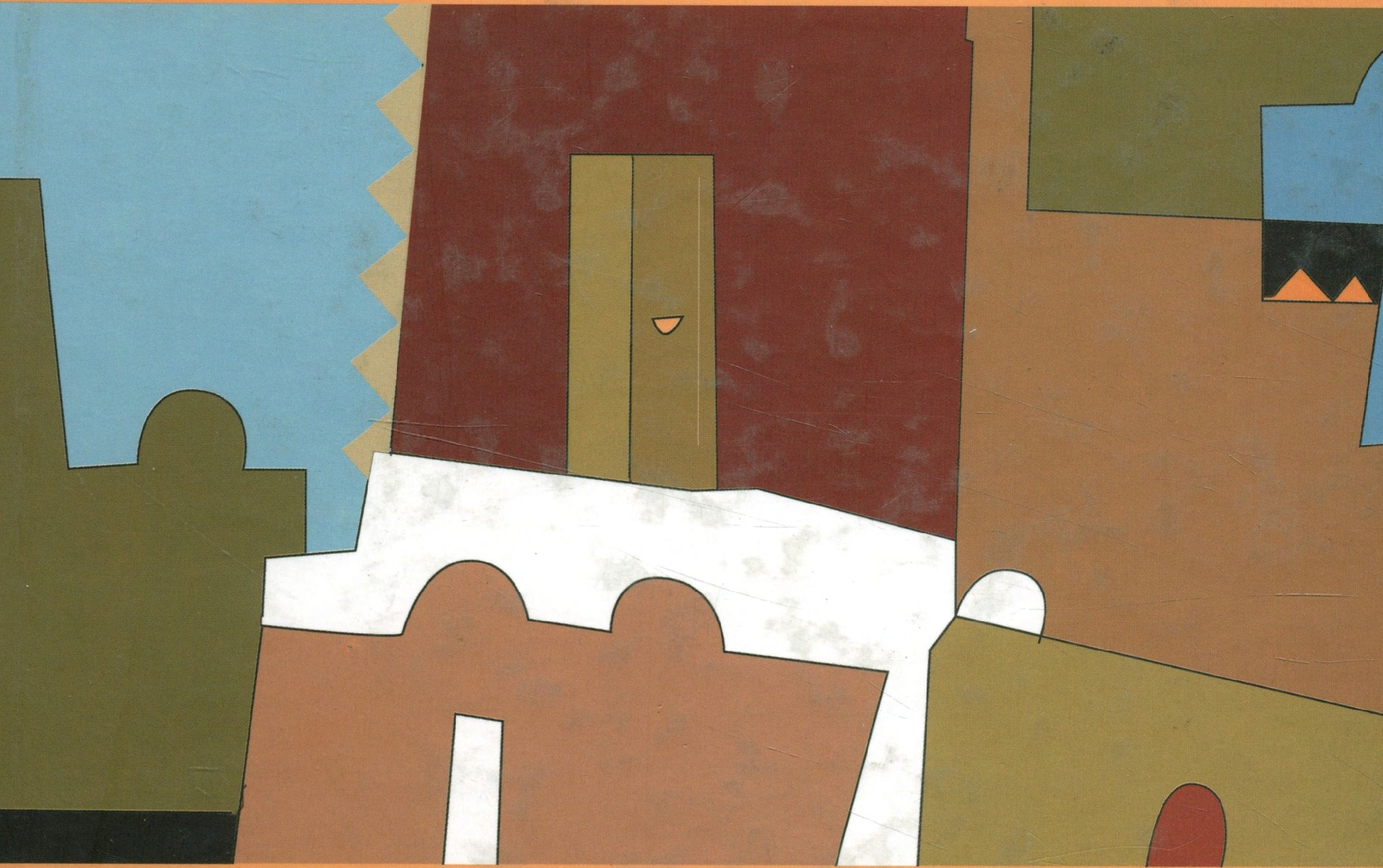
Kairouan : 6-8 Mars 2006

Textes réunis par
Ahmed El Bahi

MISKILIANI ÉDITIONS

Kairouan et sa Région

Université de Kairouan
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Département d'Archéologie



Kairouan et sa Région

elles découvertes, nouvelles approches

Textes réunis par
Ahmed El Bahi

